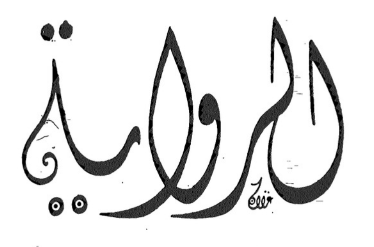


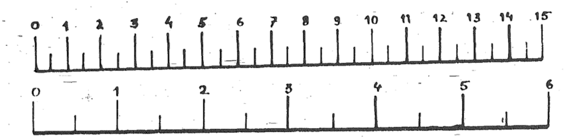
مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

1939

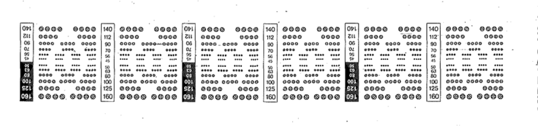
Volume 1

ECHELLE DE PRISE DE VUE



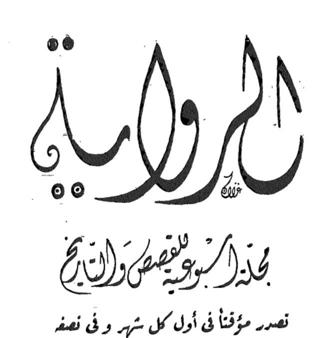
Rx9

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1
NF Z 43-007
AFNOR
Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

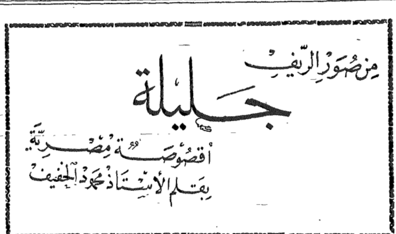
تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٨ — ٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ — ١٥ يناير سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



رآها أول مرة بعد عودته ، ولم يبق من الشمس إلا حمرة طفيفة في أطراف السمف ؛ وكانت كعادتها كل مساء قافلة إلى القرية بعد أن سقت بقرتها من قناة قريبة

أخذتها عيناه مقبلة فسار للقائها وإنه من فرحه ليطفر كما يطفر العصفور ، وإن قلبه ليخفق خفقات يكاد لا يقوى عليها جسده ، فلقد ارتهكت مفاصله حتى ما تحمل رجلاه بدنه إلا في مشقة

وأخذته الحيرة وهو يدنو منها ماذا عساه أن يقول بعد هذا الغياب ؛ وجعل يدور بعينيه ليتبين ما إذا كان أحد يراه من أهل القرية ... ولكنه حين أصبح منها على خطوات وحين وقعت على محياها عيناه أحس من نظراتها كأنما أصاب قلبه بسهم مسموم ...

ومرت به الفتاة مصفارة الوجه لا تكاد تنفرج شفتاها على رغمها عن بسمة كالشعاع الخافت ، حتى تطبقهما كأنما تداركت أنها تأتي شيئاً محرماً ، وتتجهم للفتى وتتنكر كأنه بات من عدوها ؛ ثم تدور بوجهها متظاهرة أنها تزجر بقرتها فتجذب حبلها وتستحثها ولا تستقبل الطريق حتى تفوته بخطوات .



ويقف هو كالتمثال لا يعي ولا يتحرك ، وقد جف ريقه وتصبب بالعرق جبينه ، ويظل على تلك الحال الأليمة حتى ينتبه بعد لحظات على صوت رجل يحييه وقد مر به مسرعاً على ظهر دابته . . . فيمد عينيه ويرسل بصره فلا يراها تلتفت وراءها مرة حتى تغيب عنه . فيكاد يأكل الغيظ قلبه ويود لو أنه استطاع أن يسحقها أو يسحق ذلك القلب . ثم إنه يجر رجليه بعد ذلك جراً لايدرى أين يذهب ؛ فهو مأخوذ عن نفسه كمن نزغه من الشيطان نزغ !

كان ذلك أول الصيف وقد عاد على إلى القرية يلتمس فى مسارحها الراحة بعد العناء ، ويقضى لبانة نفسه وأرب مشاعره من فنون السحر وضروب الجمال فى مجاليها ؛ وإنه ليجعل للقرية كل عام أجازته الطويلة اللهم خلا أيام معدودات يقضيها غريباً على بعض السواحل . . . وإنه ليحس كلما عاد إلى منبته ومنجم أرومته مثل إحساس النبات جئ به إلى بيئته وتربته فترعرع واستغلظ واستوى على سوقه ...

المساء حلو النسيم تعبق أنفاسه الرخية فى غير انقطاع ولا ونًاء ؛ والأفق الغربى بارع الرواء تطرز حواشيه ظلال الغروب وتتجمع فى جوانبه ألوان الشفق ، والحقول منبسطة أمامه إلى آخر ما يمتد إليه بصره ، وهى بين خالية تتناثر فيها بقايا عيدان القمح بعد الحصاد ، وحالية تزينها شجيرات القطن الغالية التى تقرأ العين فى سطورها مبلغ عناء الزارع وكده ، وشجيرات السرو والصفصاف والجميز على جوانب الغدران مورقة فينانة تتباعد حيناً وتتقارب أحياناً فتكون منها تماثيل بهيجة لا تمل الأعين من النظر إليها

ولكن عليا يحس أن هذا المجتلى الساحر قد شملته فى تلك الساعة كآبة قابضة فلم يعد يرى شيئاً من روائه ؛ وإنه ليخيل إليه كأن مزيجاً غريباً من الوجوم والوحشة بات يغشى الفضاء من حوله وأن بالشجر مثل ما به من هم فهى تمايل من فتور ومسكنة ، ثم إنه يرى فى لون الشفق مثل حمرة الجفون قرحها النحيب والسهر ...

وصلت جليلة إلى دارها فربطت بقرتها وألقت أمامها بعض العلف ، ثم تناولت جرتها من فوق المصطبة القائمة فى مدخل الدار وخرجت لتملأها من الساقية ، وسارت ثقيلة الخطى كأنما ينقض ظهرها عبء ... وجلست عند الساقية حتى يأتى دورها ، وصاحباتها يتضاحكن ويتمايلن ، وهى عنهن فى شغل بما يثقل فؤادها ، وهن لا يدرين ماذا يكربها وكانت من قبل بينهن أسرعهن إلى المزاح وأمهرهن عند المداعبة ، كما كانت تفوقهن جميعاً على كثرتهن عذوبة روح وخفة حركة ..

وعادت تحمل الجرة فوق أثقالها ، فوضعتها حيث كانت ثم صعدت إلى سطح الدار فجلست على التراب شاخصة إلى القمر وبوجهها مثل ما بوجهه من شحوب ومثل ما به من ملاحة

ودخل على القرية فى نور القمر وإنه ليتوارى من الأعين فى ظلال النخيل والشجر ، ولا يدرى لماذا يحس فى نفسه الرغبة ألا يراه الناس ؛ ولما بلغ منزله وهو فى القرية أول ما تقع عليه عين القادم من الحقول ، صعد إلى حجرته ونادى الخادمة فأشعلت له المصباح ؛ ثم صرفها مشدداً عليها أنه متعب فلا يحب أن يرى أحداً وأنه عما قليل سيأوى إلى مضجعه

وأخذ الفتى يفكر وقد طافت برأسه الوساوس وأخذته الحيرة من أمر تلك الفتاة التى طالما كانت تبتغى إلى قلبه الوسيلة وتجهد فى استرضائه وتحرص على مودته ، والتى بلغ من سرورها بلقائه فى العام الماضى أنها لم تقو وهى فى سرب من صاحباتها على كتمان ما بها حتى لقد سقطت جرتها فتحطمت وبللت ملابسها وزادتها ربكة على ربكتها

وكيف يحمل على الصبر نفسه ، وهو يرى فى هذا الجفاء إهانة له ، وأى إهانة أشد وقعاً على نفسه

من أن يتقدم بالزلفى إلى فتاة لا يحسبها تزيد فى المرتبة عن خادمته ، فتشيح بوجهها عنه ولا ترعى له مقاماً ! ثم إنها تظهر الجفاء على غرة فلا تحفظ الجميل ولا تذكر ما كان بينهما من مودة ولا ما كان منه على بعد ما بينهما فى الدرجة من ملاطفة وإحسان

وزين له شيطانه أن بعض الحاقدين قد سعى بينها وبينه ، فود لو يعرفه ليذيقه من بأسه وليريه عاقبة تطاوله ثم ليريها معه مبلغ ماله من جاه وسطوة وليفهمها أنه إن عفا عنها فما ذلك إلا لضعفها وهوان شأنها عنده

وتطوف برأسه فكرة تعذبه وتزعجه فهى قد آثرت عليه غيره ؛ وهذا الذى باتت تؤثره قد أخذ عليها العهد ألا تكلم الناس وعلى الأخص لا تكلمه هو ، وإلا فهو لن يعرفها إن فعلت . . . وهى إنما تنفذ الآن ما أمرها به لا تتهاون فيه ، وما أشد ما يغيظه منها هذا الاذعان لصاحبها وهو لا يراها . أفما كان منها كلمة ثم تنطلق فى سبيلها ولا تفجأه هذه المفاجأة الشنيعة الوقحة ؟

ثم إن الفتى يفزع إلى النوم من هذه الوساوس فيطفىء المصباح ، ولكنه قبل أن يذهب إلى سريره يطل من النافذة على القرية الهاجعة ، وقد غاب القمر ؛ وما يلبث أن يبتسم كأنما هو يسخر من نفسه ويضحك من أوهامه ، وكأنما يلقى بأفكاره فى هذا الفضاء المنبسط أمامه والذى تكتنفه الظلمة فلا يراه وإن كان يعرفه ...

سخر من نفسه أن كان يحمل كل هـذا الهم من أجل فتاة قروية ساذجة فقيرة ؛ ورأى المسألة أهون من أن تكدر عليه صفو أجازته ، فانه إلى الراحة فى هذا الصيف أشد حاجة منه فى كل ما سلف من الأعوام ، لما كان من نصبه فى الاستعداد لامتحانه . ولن يخرج الأمر فيما يظن عن أن يكون أبواها قد شددا عليها ألا تطيعه أو تطيع غيره من شباب أسرته

ومهما يكن من الأمر فهو لن يحفل بعد بما كان أو يلتفت إليه .

كانت جليلة فى الثامنة عشرة من عمرها يحسدها صبايا القرية على ما توافى لها من أسباب الجمال ، وكان اسمها على ألسنة الشباب كلما هفا بهم إلى الحب والجمال ذكر ... وكانت تعرف ذلك فتدل به وتزهي ولا تزداد بالدلال إلا ملاحة وفتنة

وماذا عسى أن تبلغ الكلمات من هذا الجمال وفى مقدمة خصائصه الاعجاز ؟ وما كان النظر إليه إلا ليشعر الناظر لأول وهلة بالتحدى ، تحدى الريف أنه قد ينبت من الجمال نوعاً تتقاصر عنه المدن . . . وتحدى الطبيعة أنها تأتى إذا أرادت جمالا يحسن أن يأتى بمثله فن مهما تأتى له من قوة التخيل وعمق التأمل وبراعة الابتكار . . . وتحدي الفقر أنه قد يبلغ على ضعته منزلة يتحرق الغنى أن يبلغها ولو بخلع ردائه والهبوط من سمائه ، ثم من وراء هذا كله يرى الناظر ذلك السحر الذي يحس ولا يفهم ويعجب ولا يوصف ، ذلك السر الذى يكون قصارى أمرنا فيه هتافنا به وانجذابنا إليه وإذعاننا له

ولقد أحس على حينما وقعت عيناه على هذا الجمال أول ما وقعتا كأنما تمثل له طيف أحلامه هيكلا يمشى على الأرض ! وهو لا يدرى لتهافته على هذا الجمال سببا غير هذا السبب ، وكثيرا ما حدثه خياله الشاعر أن بهذه الفتاة القروية من السحر مالم ير فى غيرها من بنات الريف أو بنات المدن

كان يخيل إليه أن هذه القسامة لن توجد فى وجه غير هذا الوجه ، وكان إذا تأمل فى تكوينه يحار أى أجزائه بعث فيه تلك الفتنة الأخاذة وهاتيك الطلاقة الرائعة ، أهما هاتان العينان الساجيتان الدعجاوان ، أم هو ذلك الفم اللطيف الذى ترف عليه أحلام الصبا وتختلج فى بسماته عذاب المنى .. أم هو ذلك الأنف الذى يراه وكأنما صيغ لينتسق فى هذا

الجمال ... أم ترى هو ذلك الخد الأسيل المشرب الصفحة من حمرة الشفق ووضاءة البدر ؟

الحق لقد كان مرد ذلك الجمال إلى هذا كله ، وقد ائتلف على صورة معينة اهتزت لها نفسه وجاوبتها روحه ، بحيث لو جاء على نسق آخر ما كان له فى قلبه ذلك السحر العجيب ... أضف إلى ذلك سماحة ونضارة كانت منهما الروعة وكان فيهما السر

وكأنما أرادت الطبيعة ألا يكون فى هذا الجمال نقص ، فأودعت فيها سر الأنوثة كأتم ما تكون الأنوثة وسوت هيكلها بحيث يكون بهجة فى منظره ثم هو فى حركته نوع عجيب من الألحان الصامتة التى تحس النفس فيها وإن لم تقصد معانى الائتلاف والتناسق والظرف . ولقد كان على يشبه حركاتها والتفاتاتها بما يكون من حركات المهرة الكريمة التى لم تتعلم شيئاً مما تبديه من رشاقتها فهى تأتى به لأنها هكذا خلقت ... وإنه ليراها من بعد بين صويحباتها فيميزها منهن بحركة أو التفاتة قبل أن تتحقق من شخصها عيناه

وكان لها صوت تجمعت فيه كل معاني أنوثتها وكل خصائص جمالها ، حتى لو قدر للمرء أن يسمع ذلك الصوت دون أن يرى صاحبته لدل عليها دلالة الصورة أو دلالة الوصف ! . . . صوت كأنما يعلن به الحب عن نفسه ثم هو يسوقه بعد دليلا على سلطانه

وكان فى سجاياها شيء من الكبر فوق ما كان فيها من الدلال ... ولكنه كان كبراً تحبه النفوس إذ تشعر أن مبعثه الاحساس بالتفوق والميل إلى التسامى ، وما كان التبـذل ليتفق وهذا الجمال ، بل ما كان التواضع إلا لينال من عنفوانه وينتقص من سلطانه ؛ وكثيراً ما استمتع على بهذا التكبر لأنه كان يكبر فيه معنى السمو ، وإنه ليعجب ويطرب لتلك النظرات التى كانت تنبعث من عينيها وهى فى أسمالها ، فلا تكون أقل أنفة واعتزازاً من نظرات الناشئات فى الحرير والورد ، بل لتكون أكثر عزة لأن فيها عفة هي مع الفقر غاية النبل

هكذا كان نصيب جليلة من الحسن ، بحيث لو جعلوا فى الريف مملكة للجمال لاستوت هى على عرشه ، ولكانت وهى فى عرشها المتخـذ من الصفصاف والسمف والكافور والسعد ، أسمى منزلة فى الجمال من كثيرات تربعن على عروش الذهب والدمقس

وكان على يستشرف للحادية والعشرين وهو فى القرية سيد ابن سيد ، لأسرته الرياسة والحكم فيها منذ أكثر من مائة عام ، وقد انحصرت الرياسة فى هذا البيت لا عن جبروت وبطش كما هو الشأن فى كثير من البيوت فى الريف ، ولكن عن كرم محتد وطيب عنصر وسماحة

ولئن لم تكن تلك الأسرة بذات ثروة واسعة كغيرها من الأسر فى القرى المجاورة ، فلقد كان لها من حسن سمتها وعراقة أصلها ما رفع قدرها فى أعين الأحباب والخصوم على السواء

وكان على يحب الفلاحين ويعطف عليهم ، وكثيراً ما كان يجلس إلى جماعاتهم يتفيأون ظلال الأشجار في أوقات الهجير وينعمون بالهواء الرخى على ضفاف الترع فى ساعات الأصيل ويسمرون على جوانب البيادر فى ليالى القمر ؛ ولقد أحبه هؤلاء الفلاحون وأكبروه ، وما لبثت أن ارتفعت بينه وبينهم الكلفة فصار كأنه أحدهم ؛ وهو فى القرية يحس كأنما انقطعت الصلة بينه وبين المدينة حتى كأنه ما خرج منها قط ، وكثيراً ما كان يضحك بينه وبين نفسه ، إذا تصور ما عسى أن يقوله شاب من خلانه من أهل المدينة إذا هبط القرية ورآه فى جلبابه الفضفاض جالساً فى ذروة كومة من الرماد تحت سرحة أو على بقايا حصير فى مصلى على ضفة قناة ! ولكنه لن يعبأ بذلك ولن يرى شيئاً أحب إليه من

أن يطلق نفسه على سجيتها

وكان لا يغيب عن القرية إلا ازداد حباً لها وتعلقاً بكل ما فيها ، فاذا آب راح يتملى كل شيء حسنه لا يستثني منظراً مهما هان أمره ، وبخاصة تلك الملاعب التي كان لا يفتأ وهو غلام يثب في أنحائها ويرف كما يرف الفراش ... تلك المسارح الخضراء في ظلال النخيل وحول أشجار الليمون والنارنج في بستان أسرته ... وهاتيك الظلال الوارفة التي تبسطها خمائل التوت على ضفة الترعة الكبيرة في الحقل البعيد ...

وكان علي يستصحب معه بعض الكتب كل عام وكان أكثرها دواوين شعر وقصص ، وما كان أعجب أمر هذا الفلاح الشاعر حين يقلب صفحات الشعر يقرأ تارة للمتنبي وتارة لبيرون في تلك القرية فيرى في كل شيء لمحة واختلاجة تصور ما تنطوي عليه نفسه ... إذ كانت مناظر قريته أعز عنده وأحب إلى فؤاده من كل ما تجيء به الكتب

في وسط هذا الكون الذي ينسم بروائح الجنة وفي ميعة هذا الشباب المتوثب المتفتق ، وفي نشوة هذا الخيال الشاعر ، رأى علي جليلة وكان ذلك منذ عامين حين كانت في السادسة عشرة تسويها يد الطبيعة وتفيض عليها من رونقها ، وتبرز محاسنها وتوضح مفاتنها

رآها الفتى فعجب كيف لم يرها من قبل ، وما أسرع ما نسي ما بينها وبينه من الفوارق ، فصار يرى فيها خلاصة ما في القرية من سحر ، وكأن جمال تلك القرية بكل ما يسع من المعاني قد تجسم فكان هاتيك الفتاة . بل لقد غدت عنده هي التي تبث في تلك البقعة من الوجود كل ما يحببها إلى نفسه ويربطها بمشاعره

وحادثها فلم تعرض عنه أو تهيب من مودته . فكانت لا تزال غريرة لاهية ، ثم إنها كانت تراه يعطف على أخيها ، وهو فتى في مثل سنه ، وكان أخوها يثني عليه إذا جاء ذكره ويصف لأبيه وأمه طيب قلبه وتواضعه وسخاء يده . وعرفت جليلة هذا السخاء بعد حين فيما كانت تبيعه له من الخضر التي كان يشتريها ولا حاجة به إليها فينقدها أضعاف ثمنها وهو مغتبط بهذه الوسيلة التي بها يستطيع أن يعطيها من ماله دون تحرج أو استحياء، وإنه ليذكر ما عراه من الاضطراب وعراها من الحياء يوم غير طريقته في العطاء لأول مرة فقال لها : « خذي هذا ثمناً لتلك الخضر وهذا لك أنت »

واطمأنت الفتاة إليه وصارت تحرص على لقائه على علم من أمها إذ كان يسرها سخاؤه ؛ وما كان علي يقبض يده عنها قط وما كانت هي تتردد أن تمد يدها لتنال ما يمنحها حتى لقد دعاه ذلك أن يحمل إليها من القاهرة بعض الهدايا كلما آب إلى القرية ، وإنها لتفرح بذلك أشد الفرح وما كان أشد غبطته وابتهاجه حين كانت تتقبل هداياه بقولها : « كتر خيرك يا سيدي . ربنا يخليك لنا »

ذكر علي ذلك حينما رأى من الفتاة ما رأى من إعراض وصد ؛ وأخذته حال عجيبة من الحيرة والألم معا ؛ وصار إذا اتجه فكره إليها يتنازعه مزيج من الصفح والغضب والهم والتأسي، وكثيراً ما كان يسخر من حاله وربما هوفيه إلى الوهم والخيال ... ولكنه يعود فيسأل نفسه أهو يحب تلك الفتاة ؟ فاذا أجابته نفسه بالنفي تساءل فيم إذا هذا الهم كله من أجلها ؟ وماذا يهمه من إعراضها عنه وهي مهما تطاولت لا تزيد مرتبة على خادمته ؟ وإذا أجابته نفسه أنه يحبها ازدادت حيرته وراح يتساءل ماغرضه من هذا الحب ؟ إنه لا يعرف السوء ولا يطيق حتى مجرد ذكره ، وهو يسمو بروحه عن مواطن الغواية ، ويقوى على عصيان الشيطان قوة قلما تتاح لمن كان في مثل سنه ، كما أنه من خياله وحسه يسبح أبداً

في عالم من الشعر والسحر لا يري فيه الجمال إلا على أنه وسيلة تتخلص بها النفس من هذا الطين وتتطلع بوحيه صوب السماء ، ولكم كان له في هذا الجمال الذي أسبغته الطبيعة على تلك الفتاة ، من ضروب الوحي وصنوف الالهام

وإذا كان هذا أمره فلم يبق من غاية إلا الزواج ، ولكنها غاية أبعد من المستحيل ، فما زال سلطان العرف في مصر يضع بين الطبقات من الحوائل والعوائق مالا تكسره إلا ثورة جارفة أو حقب قد تمتد حتى تبلغ القرون . وهل يجوز في عقل أن يقدم شاب من أسرة كأسرته ، له مثل ثقافته ونظرته إلى الحياة ، فيمد يده إلى فتاة كتلك الفتاة التي ماعرفت سوى دارها وحقلها والتي مارأت غير أهل قريتها من الناس إلا من يجيئون إليها من الباعة والمشترين يوم السوق من كل أسبوع ؟ إنه لكي يفعل هذا لا بد له من أحد أمرين: السر، وهذا غير معقول ولا مقبول ولا طعم له، أو العلن، وهذا معناه في رأي الناس الجنون

وإذا كان هذا موقفه من جليلة ففيم إذاً كان اتصاله بها مدة عامين ؟ وكيف يفسر تلك الصلة ؟ ألم يك يحرص على لقائها فيجلس وإياها إذا جنهما الليل وسترهما عن أعين الرقباء وينعم بحديثها الساذج ساعة أو بعض ساعة ؟ ألم يك يعمد إلى المرور بحقلها الصغير مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد كلما علم أنها هناك في بعض شأنها ؟ ثم ألم يك يجعل مسيره عصر كل يوم في طريقها إلى الترعة لكي يراها تخطر بين أترابها من حاملات الجرار فلا يتحول بصره عن صدرها الناهد وعن قوامها المرهف الرشيق حتى تغيب عنه ، وفي نفسه نشوة قوية تهزه إثر نظرة من نظراتها أو إثر ابتسامة خفية لا تلبث حتى تطفئها وقد أثلج فؤادها أنه رآها ؟

ذلك كله حق لامرية فيه ولا أثر لخيال أو وهم ؛ ولكن ذلك كان قصاراه منها ؛ كان حسبه أن ينعم بالجمال في صورة من صوره وفي نمط من أنماطه وأن يستمتع به استمتاع صاحب الفن بتمثال من تماثيله ، فما كان يرى فيها أكثر مما يراه في دمية من الدمى إلا أنها تتحرك وتنطق وتبتسم !

والآن تعبس دميته وتمر به كأن لم يكن بينها وبينه شيء ! وما كان ذلك منها عن غضب فكثيراً ما رآها من قبل غاضبة، ولكنه يكن لم يرى في ملامحها وعينيها من المعاني مثل ما يرى اليوم ؛ إنه يرى القطيعة سافرة جلية بحيث لا يخالجه فيها شك ؛ وهذا الهم الذي يرتسم على محياها وتلك الصفرة التي باتت تغشاه وهذا السكون الذي حل محل الجذل والمرح في طبعها ، إنما هي دلائل لا يغفل عنها إلا غر أو أحمق . ولكن فلتفعل جليلة كما تشاء أو كما يشاء لها صاحبها فهو لن يشغل بها نفسه بعد اليوم . ذلك ما وطد عليه العزم

تجنب على طريقها فلم يعد يراها ، وأعرض عن أخيها فلم يعد يدعوه إليه ، وخاصم أمها فلم يعد يرد عليها تحياتها إلا بقدر ؛ ورأى أبوها أنه لا يتحرك للدفاع عنه إذا شكاه إلى عمه العمدة شاك من الدائنين أو إذا اعتدى عليه معتد من الفلاحين ؛ وحارت تلك الأسرة في ذلك أول الأمر ولكنهم ردوه إلى ما استقر في نفوسهم من معان وما علق بخيالهم من صفات ينعت بها كثير من الفلاحين في قرى مصر ذوى الجاه والنفوذ فيهم ، مهما تبين لهم مما ينهض دليلا على عكس ما يعتقدون ؛ وإنهم ليؤمنون بتلك الأفكار إيماناً كونه فيهم ما تعودوا أن يذوقوه من البطش والجور هم وأسلافهم طوال القرون وهم يعملون على تلك التربة ليأكلوا ويتنفسوا ولو كما تأكل وتتنفس الدواب !

ومضى شهر من الأجازة وعلى لا يرى جليلة ، ولكنه لم يطق أن يبقى حيث هو طول هذا الشهر ،

كما أنه لم يستطع أن يسافر فيبعد كل البعد ، ولذلك آثر أن يذهب إلى حيث يقيم جماعة من البدو فى حقل لأسرته بعيد فأقام هناك فى شبه عزلة ، وهو يتعلل بحاجته إلى الهدوء والراحة والهواء النقى

وخطر له ذات صباح أن يعود إلى القرية فولى وجهه شطرها ، وسار حتى أصبح منها غير بعيد فلمحت عيناه سرباً من البنات كن عائدات من الترعة ورأى فيهن جليلة فآثر أن يمشى على مهل حتى لا يدركهن ، ثم رأى إحداهن تتأخر عنهن فكاد يدخل فى روعه أنها هى لولا أنه تبين أنها عائشة ، ومن عجيب أمره فى تلك اللحظة أنه تأهب ليحدثها كأنما نسى غضبه وترفعه . ثم إنه أدرك عائشة فحيته باسمة وحياها ، فرأى فى وجهها وعينيها أنها تود أن تقول شيئاً ولكنها تحار كيف تبدأ الحديث فبدأه هو بسؤالها لم تخلفت عن صاحباتها ، وكأنما فتح لها هذا السؤال باب الحديث على مصراعيه فأجابت فى خفة وفى خبث :

— عاوزه أقول لك كلمه يا سيدى

— قولى

— رأيتك من بعد فأحببت أن أكلمك فأنا من أيام أريد ذلك

— وهل رأيتنى وحدك ؟

— لا . رأيناك كلنا وجليلة فى الأول

— لا . لا أحب أن أسمع اسمها أو سيرتها

— كيف وهى دائماً تذكرك وتشكرك

— كاذبة .. كاذبة ؛ قابلينى فيما بعد ... قابلينى فيما بعد

وأسرع على فى مشيته وترك عائشة فى حيرة شديدة واضطراب ؛ ولم يتوقف أو يبطئ حتى بلغ القرية فأسرع فدخل منزله ، وصرت عائشة بعد برهة وفى وجهها كدرة من أثر الخيبة ، وذهول مما فعلت به الدهشة

وأقبل الليل فأقبلت عائشة فأشارت إليه بيدها وهو جالس أمام داره ، فخف إليها فأسرت فى أذنه كلمات ثم انصرفت مسرعة وجلس هو يفكر ، وفى نفسه نشوة كنشوة النصر

أمام دار من تلك الدور المتواضعة ، فى درب من الدروب الضيقة خلف « دوار » العمدة ، اجتمع لفيف من الشبان لسماع « المواويل » يتغنى بها فى سكون الليل إبراهيم ، ذلك الذى يتبعه شباب القرية أينما سار ويتحلقون حوله فى كل سامر ، يمتعون أنفسهم بتلك الأغانى الحلوة التى يرتجلها فى يسر عجيب وفى رشاقة تسحر الألباب ويديرها على كل معنى يخطر له أو يقترح عليه . وكان إبراهيم فى تلك الليلة فى حال من التجلى ارتفع بها عن مستواه ؛ فلقد كانت ليلة من ليالى عرس صاحبه حسن ، ولذلك اكتظت الحارة بالجالسين حتى لم يبق فيها إلا ممر ضيق يسلكه القادمون فى عسر شديد ؛ وكان أمام دار حسن فى تلك الليلة « كلوب » وهاج يشيع الضوء فى الحارة كلها، ولذلك لم تجلس الفتيات كما تعودن أن يجلسن إلى جوانب الحيطان فأوين إلى سطوح الدور ليستمعن مسحورات طروبات .. وعلى سطح إحدى الدور الملاصقة «لدوار» العمدة جلست عائشة وجليلة ؛ وكانت عائشة قد أغلقت باب دارها حتى لا يصعد إلى سطحها أحد من البنات

جلست البنتان على حافة السطح ، أما إحداهما فكانت مقبلة على إبراهيم تمى مواويله بسمعها وقلبها وأما الأخرى فهى جليلة فلم تك تسمع شيئا وما هى إلا برهة حتى نزل شبح على سلم كانت وضعته عائشة على جدار « الدوار » ، وغمزت عائشة صاحبتها بأصبعها فأفاقت مرتاعة ونظرت فاذا هو على ! ..

ونهضتا للقائه فسار تابضع خطوات على استحياء

قد يده دون أن يتكلم وأخذتها عائشة فقبلتها ، وانحنت جليلة تلثمها ولكنه شدها سريعاً وجلس فجلستا أمامه ...

ولم يدر أول الأمر ماذا يقول ، ولكنه داعبهما مشيرا إلى ما يسمع من معاني الحب تزخر بها أغنيات ابراهيم . ثم أشار إلى عائشة من طرف خفي فطلبت إلى جليلة أن تنتظرها برهة ريثما تعود ونزلت إلى فناء الدار ... فلما انفردا قال لفتاته :

— أهكذا يصير ما بيننا ؟

— لا شيء ياسيدى ، أنا خادمتك ، وسأبقى خادمتك . أنا « غلبانه » والناس يتهموننى إذا ... أعنى أخاف أن « يميل بختى » .. وأنا أحلف لهم فلا يصدقوننى ، أبدا لا يمكن أن أرى مثلك وسأبقى طول عمرى أحلف بحياتك . بس أنا خائفة من « ميلة البخت »

— وماذا أردت من مقابلتى ؟

— أردت أن أعتذر إليك وأرجوك أن تنساني فأنا خادمتك يا سيدى فلا أستحق أن يهتم بى مثلك إني لن أنساك أبدا ... أبدا ولى عندك ياسيدى مسألة ؛ ابن عمك سيدى محمد يريد أن يحجز على الجاموسة فى نظير الايجار المتأخر فمن أجل خاطرى قل له ينتظر حتى يفرجها ربنا الله يخليك لنا يارب .

وأجهشت الفتـاة ، ولـكنها كتمت بكاءها خشية أن يسمعها أحد ، واستجمع على قوته وأخذها بين ذراعيه لأول مرة منذ رآها وضمها إلى صدره وأحس بدموعها تبلل شفتيه ، ثم همس فى أذنها قائلاً : « لا تخافى فلن يحجز عليكِ أحـد وأنا موجود » ... وهم فصعد على السلم وتركها وحدها فى حال أشـبه بالاغماء ، وآوى إلى مضجعه وهو لايدرى إن كان ماوقع حقيقة أم كان فى حلم ؟ ورأى تلك الليلة فيما يرى النائم أن جليلة أمامه تتوسل إليه باكية وهو يصدها ، وأمها من قريب تدعو عليه دعوة ارتاع لها فؤاده . . .

وأخذت الأيام تنصرم ، وكان على يرى صاحبته من بعد إذا ساقته إليها المصادفة ، وكانت إذا أمنت الرقيب تدنو منه فتحييه باسمه ويحييها . . . ولـكنه لم يعـد يرى فى وجهها شيئاً من تلك المعانى التي يفهمها العاشقون باللمحة الخاطفة دون حاجة منهم إلى لغة الـكلام ... واكتفى على بذلك ، وكأنما هان أمر تلك الفتاة عنده ، فلقد استشعر الراحة بعد تضرعها إليه وبكائها بين يديه فى تلك الليـلة التى لا ينساها ؛ وكان إذا همس بعدها فى نفسه هاجس أنها تخدعه ، وأنها تحب فتى من طبقتها حاول أن يرضى بذلك ، بل لقد صور له قلبه أن يكون قصارى حبه لها العمل على إسعادها ما وسعه الاسعاد ، وكان يسأل نفسه كلما دبت الغيرة إلى قلبه : ماذا يريد منها؟ وماذا ينتظر سوى أن تحب فتى على شاكلتها تأمل من وراء حبه ما تأمله فتاة فى مثل عمرها ؟

وأوشكت أجازته أن تنتهي فلم يبق منها إلا شهر أو نحوه . وأقبل الخريف السمح على القرية يمسح عليها بكفه وينفحها بأنفاسه ، وغصت الطرقات بين المزارع فى البكر والآصال بالبنات والصبية يسيرون جماعات إلى الحقول ويعودون منها بمدجمع تلك الثمرة البيضاء الغالية التى ما زال الفلاحون يعلقون عليها الآمال كل عام على رغم ما لحق بها من كساد وما أصابها من بوار . والمزارعون يعودون بالقطن فى الأعدال فيكون في منظره وهم يدخلون به القرية فرحة السنة وبشير الخير ، وإن كان منهم من ينعى على القطن وسنينه « اللى بقت زى الزفت »

وكان يحشد من أبناء القرية وبناتها عدد كبير لجمع قطن العمدة وأسرته ، فبذل على كل ما فى وسعه لـكى تكون جليلة بين هؤلاء فيحدثها وتحدثه ولو مرة قبل أن يسافر ، وما لبث أن تذكر أن أباها

مدين لابن عمه فلتعمل أياماً نظير جزء من هذا الدين وليضاعف هو لها الأجر سراً ، ولجأ إلى صاحباتها فحببن إليها ذلك كأنه من لديهن حتى قبلته من أجل أبيها؛ وسر على بذلك وأخذ يترقب فى شوق شديد ...

وحان يوم الجمع فى حقول الأسرة وخرجت جليلة مع « القافلة » كما يسميها الفلاحون فى هذه القرية ، ولقد جرت العادة أن تكون على رأس كل قافلة امرأة تتعهد بجمع البنات تسمى « شيخة القافلة » وقابل على « الشيخة » فى الليلة السالفة وأوصاها بجليلة وشدد عليها أن تتأكد من حضورها كل يوم

ولم يشأ أن يذهب على أول يوم إلى الحقل إلا عند الأصيل ؛ ولقد استطاع أن يحمل على الصبر نفسه طول النهار، ولما ذهب وجد محمداً يزن للبنات لكل ماجمعت ويكتب ذلك ابن عم آخر فى كراسة، ووقف على ينظر فلما جاء دور جليلة أبصر محمداً يداعبها ويطيل فى مداعبتها ولكنها لاترد إلا بابتسامة خفيفة ثم تدير وجهها عنه ؛ ورأى على أن ذلك يؤلمه وإن كان يخفى ذلك الألم ، فأوجس فى نفسه خيفة عليها فما كان محمد بالذى يرضى أن تتكبر عليه فلاحة وهو الذى يخشى الرجال والشباب بأسه ويتوقون جرأته وبطشه بله النساء والبنات

وفى اليوم الثانى بكر على إلى الحقل فى رفقة من بنى أعمامه فسبقوا إليه القافلة ، وقد حمل الخادمون لهم سجادة ووسائد فرشوها تحت شجرة ؛ ولم تكد ترتفع الشمس على الأفق حتى أقبلت العاملات ، ونزلت كل واحدة فى خطها ، وبعد ساعة أو نحوها خرجن بـ «الوش» الأول ووضعت كل فتاة قطنها فى كومة ...

وكانت جليلة فى ذلك اليوم فتنة الحقل وبهجته ، عادت إلى وجهها نضرته وبشاشته ، وعاد إلى عينيها بريقهما لولا بقايا من فتور زادتها ملاحة وسحراً ؛ وقام بنو الأعمام متظاهرين أنهم يفتشون وراء الخولى وأعوانه ... وكان يذهب كل منهم إلى حيث كانت جليلة تجمع القطن فيحييها ويلاطفها وهى لا تجيب إلا بابتسامة هادئة ... أما محمد فمر بها وفى عينيه شر وفى وجهه عبوس وحنق

وحاول على أن يذهب كما ذهبوا ولكنه بقى مكانه متردداً ؛ ولقد كان يخيل إليه أن الأنظار جميعاً لا بدأن تتجه إليه إن هو فعل وهو لاقبل له بالغمزات تتبادلها الخبيثات من البنات ؛ وعلى الرغم من أنه كان يدرك أن موسم جمع القطن موسم تطلق فيه الحرية بعض الشىء ، فقد بقى مكانه لا يتحرك ؛ وكان يكتفى بنظرة من عينى صاحبته كلما جاءت إلى « المفرش » على رأس الحقل لتضع فوق كومتها ما جمعت ... على أنه كان يتبرم أحياناً لندرة مجيئها ، ولأنها لاتأتى إلى الترعة لتشرب كما يفعل غيرها كأنها لا تحب أن تبادله النظرات ، وكأنها إنما تأتى لتضع القطن فحسب ...

وجاء فتى من القرية يدعى أحمد طويل القامة أبلج الجبين ، طلق المحيا ، فى عينيه خبث وفى نظرته جرأة وذكاء؛ ودخل بين الخدم ولم يدعه أحد وراح يجيب « الطلبات » فى خفة وسرعة ويؤدى ما يطلب منه فى لباقة عجيبة ، حتى لقد صار لا ينادى غيره ، فهو طوراً ينقل الفرش إلى الظل ، وطوراً يصنع الشاى ويدير كؤوسه ، وطوراً يشغل نفسه بأعداد الطعام ...

وفى الظهيرة خرجت العاملات يطعمن ويتلمسن فى ظلال الشجر مقيلهن ؛ وبسطت كل منهن خرقة فيها طعامها ، وجلسن يأكلن على ضفة الترعة وقام على فمر بهن ، ونظر ماذا تأكل جليلة ، فلم يجد على خرقتها غير الخبز المتخذ من الذرة ؛ وقطعة من الجبن وبعض الملح ، وراعه صفرة فاقعة تمشت فى وجهها ،

وضيج من الدهشة والخوف يختلج فى محياها . . .

وكانت قد بسطت مائدة الطعام وتحلق حول الصينية النحاسية الكبيرة بنو الأعمام ، فنادوا علياً فجلس وأخذ من الطعام جزءاً بيديه ونادى إحدى الخادمات فأمرها أن تذهب به إلى جليلة ، ولم يبال فى تلك اللحظة ما ارتسم على وجوه الجميع من دهشة وسخرية، وتلفت فماذا رأى؟ أيمكن ذلك؟ ها هى ذى جليلة تريد أن ترفض معتذرة ! ولاحظ عليها أنها تمد يدها تارة وتستردها ناظرة إلى أحمد وهو يحدجها حدج اللامة ، ولكنها لم تستطع آخر الأمر إلا أن تأخذ الطعام فتضمه أمامها . ومر بها أحمد بعد برهة وقد حمل إليها بعض الحلوى مما بقى على المائدة فأخذتها مطرقة وفى وجهها ووجهه من المعانى مالا يخفى على أحد

إذاً لقد انكشف الأمر؛ ولكن ليته ما انكشف ! لقد تربد وجه على وأظلمت فى عينيه الدنيا ، وصارت تأكل الغيرة قلبه ، وعبثا حاول أن يهدئ نفسه ، فلقد غابت عنه فلسفته ؛ وذهل منطقه وتبدد حلمه، أوتبيعه هذه الفتاة من أجل أحمد ؟ وكيف اجترأت على خداعه والمكر به ؟ ألا إنه لمخدوع غر ثم إنه لمائق أحمق . ذلك ما كانت تحدثه به نفسه ؛ وفى تلك اللحظة التى يعمى الحقد فيها البصائر ، حدث على محمداً حديثاً ، يا شؤمه من حديث !

انقضى اليوم ، وسار البنات تلقاء القرية ، وركب على دابة لتعود به فما كان مما به من هم يقوى على المشى ، وكأنما أرادت الظروف أن تكيد له كل الكيد فها هو ذا يرى جليلة وأحمد تحت شجرة يتناجيان ، ولما رآه الفتى من بعد أسرع الخطى واختفى ... واختفت جليلة ولم تعد بعد لجمع القطن

انقضت أيام وفرغت القرية من جمع القطن ، وشملها فتور الخريف وطافت بها طيوفه .. وفى ذات ليلة كان يقف محمد وإلى جانبه أحد الخفراء وعلى مقربة منهما رجال لفهم الظلام وقد هجعت القرية ، وتقدم أحد الرجال فهمس فى أذن محمد وعاد إلى موضعه ، وغمز محمد الخفير ، فسحب حماراً ومشى به خطوات وقد أقبل نحوه شبح فلما سار أمامه أمسك به ونفخ فى « صفارته » وتجمع الرجال وقد هب بعضهم من النوم ، وجاؤا يستفهمون فوجدوا أحمد يساق إلى « دوار » العمدة لأنه سرق حماراً من زريبة البستاني

وشهد الشهود وكتب المحضر وسيق المسكين إلى « نقطة البوليس » ، وأصبح حديث القرية كلها فى اليوم التالى . وراحت جليلة تبكى حظها العاثر فلا أقل من ستة أشهر يقضيها فتاها في السجن كما يخبرها بذلك العارفون ...

وعرف العمدة حقيقة الأمر ، فدعا أبا الفتاة وأمها ، وأمرهما فى لهجة صارمة أن يزوجاها من ابن خالتها إسماعيل خشية أن يفتضح أمرها وأن يتقول عليها الناس الأقاويل ... وجيء بالمأذون بعد ساعة وأرغمت البنت إرغاماً على القبول فأعطت « التوكيل » وإنها لتوشك أن تموت من الغيظ والحسرة ...

وسافر على بعد أيام ولو أنه بقى لرأى مكان جليلة فتاة غير فتاته التى أحبها . لو أنه بقى لرأى بقايا هيكل من جمال وسحر ، يبعث منظره اليوم فى النفوس من حسرة وألم بقدر ما كان يبعث فيها أمس من نشوة وفتون ، وهل كان يقوى على رؤية جسدها الناحل المزيل ووجهها الذى يلوح عليه شبح الموت ، وعينيها اللتين أصبحتا تعبران عن الألم واللوعة ؟ حسبه ما يؤرقه إذا أراد النوم ، وما يشغل باله من هم كلما ذكر ذلك الحلم الذى أفاق منه على توسل جليلة ودعوة أمها

الخفيف

عروس الماء

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كانت تجلس وحدها على صخرة فريدة من تلك الصخور الوردية التي تشرف على هذا البحر القديم الكريم المقدس ، بحر القلزم كما كان يسميه العرب ، أو البحر الأحمر كما تسميه الطبيعة والشعر ، لأنه بحر الزبرجد والعقيق والمرجان ، وبحر الجمال والذكريات والجوارى المنشئات !

وكانت الشمس تهبط إلى الأفق ، متأججة فى السحائب المنتثرة فى سماء السويس الساحرة ، فتوشى أذيالها بالشفق ، وتنثر فى اللجة دنانير الذهب ، وتسكب فى حواشيها ذوب اللجين . . . ثم تحور الطبيعة كلها هيكلاً لتلك الراهبة الصامتة ، الجالسة فوق الصخرة الفريدة تفكر ساهمة ، وتتملىء من جمال الله ووحدانيته ، وتعبده فى هذه الآثار الجليلة الجميلة الكاملة التى أبدعتها يده ، وبرأتها قدرته ، فهى عندها الدليل عليه ، والوسيلة إليه . . .

وكان النسيم الرخى يهب فى أنفاس المغرب كأنما عرته هزة من ذكريات موسى حينما لمح المصرية الجميلة الرائعة تشرف على بحره القديم الكريم المقدس فيكاد يكون فرقين لتخوض بينهما فتلعب بحصباء دره ، وتلهو بمكنون مرجانه . . .

كانت تنظر بعينيها النجلاوين فى الموج المضطرب وكان النسيم يداعب شعرها الأسود الفاحم المفدودن ليسرق عطره ، وينشره فى ذلك الكون العظيم أرجاً ينعش النفوس بالأمل ، أو يكون للضالين قبسة من سيناء !

ترى لماذا أرسلت هذا الدثار الأسود الحزين ، فوق تلك الشفوف البيض الحريرية ؟!

ترى لماذا جلست وحدها فوق تلك الصخرة الفريدة النائية عن السويس ، فى تلك الساعة التى توشك أن تنام فيها الطبيعة ؟

كل شىء ساكن هادىء إلا خرير الماء ورشاش الثبج

الشمس تلج أبواب المغرب ، والبدر يذر من بيبان المشارق . . .

الشمس تختم كتاب النهار . . . والبدر يغنى أنشودة الليل . . .

فيا ترى لم جلست هذه الحسناء وحدها هناك . . . فوق تلك الصخرة الفريدة ؟

فيم تفكر ؟

أوه ! إنها تبكى !!

يا لله ! ألا ما أجمل الدموع فى عيون العذارى ؟

ألا ما أجمل العذراء تبكى وحدها فى دنيا جميلة كهذه من شفق وبنفسج ونسيم وبر وبحر وأرض وسماء وليل مقبل ونهار مول ؟

فيم تبكى يا ترى ! ألا ما أغلى هذه الدموع التى تنسكب من هذه العيون ؟!

إسمعى يا طبيعة ! إن عذراءك تغنى :

«ما أقساك أيها البحر ، لم قتلت حبيبي ؟ »

إنها تسرد مأساة غرامها ، وها هي ذى تنقم من بحر موسى ما أطبق موجه على ابن فرعون !

مسكينة أيتها العذراء ، لقد تخضب مرجان البحر بدماء حبيبك ، وتفتحت أصدافه تتلقف أنفاسه ليكتسب الدر سناءها !

كان علوى يذرع رمال الشاطئ في هذه الهدأة الرائمة من مغرب السويس ، حينما لمح الفتاة الباكية تجلس وحدها فوق الصخرة الفريدة ، ترسل في أطباق الموج نظراتها الندّاة

لقد أحس الشاب بعاطفة قوية تجذبه إلى حيث جلست الفتاة ، فهرول كالشبح بين الكثبان الناعمة حتى كان قاب قوسين من صخرتها ، فجلس في كن يسمع إلى بكائها وغنائها ، فاذا البكاء والغناء قصة حب دامية ، وإذا الفتاة قد أقبلت من جهة بعيدة نائية تصلى من أجل حبيبها ، وتذرف الدموع حارة سخينة على ذكراه !

ولقد كان علوى ينظر إلى الفتاة من كِنّـه ، فيراها ملاكا نورانياً صورته يد القدرة في نسيم البحر الأحمر ، أو طبعته في أديم سمائه ؛ وكانت جلستها جلسة شعرية ، لأنها لم تكن تلتفت حولها يمنة أو يسرة ، بل كانت تثبت عينيها في لجة واحدة .. وتبكى ! وبكاء عذراء تجلس وحدها فوق صخرة موحشة من صخور هذا البحر ، شيء يثير الفضول في فؤاد العابر ، وخاصة إذا كان في مثل شباب علوى المشبوب

لقد لمح علوى جمالاً يثير الألم في النفس . . . جمالا غامضاً من ذلك الجمال النادر الذى يخلقه الله كما يخلق المعجزات

وجه حزين ، بيد أنه جميل فتان رائع .. وجسم شفه الوجد وأضنته الأحزان ، بيد أنه أهيف ممشوق يتثنى . . . وثوبان ، أما أحدهما فأبيض كالنهار وأما الآخر فأسود كالليل ، يتهدل فوقهما شعر فاحم خلق للحب ولم يخلق للأحزان !

وعجب علوى لغناء الفتاة ، لأنه كان ينشق عن نفس باكية ، وروح وفية ، في صوت بللته الدموع ، وأنفاس صهرتها نيران الألم ، وعاطفة مكبوتة محبوسة لا يفرج عنها الشدو إلا قليلا

ثم صمتت الفتاة فجأة ، لأن القرص الملتهب أخذ يستتر رويداً وراء الأفق ؛ ونضت ثوبها الأسود في هدوء وتؤدة ، ونزعت حذاءيها ، وكشفت عن ساقيها ، فاختلط بياض الحرير ببياض اللحم الوردى

وقبل أن يختفى القرص الملتهب كله ... أو حين لم يبق منه إلا هذه البضعة التى تحكى الجرح في كف الأفق ... تجردت الفتاة من ثوبها الأبيض كذلك ثم وقفت عروساً من عرائس الماء مادة ذراعيها نحو البحر ... وهبطت إلى الماء فجأة فغاصت فيه

وأفاق علوى من الطلسم الذى سحر قلبه حينما شهد الفتاة تتجرد من ثوبيها ، وذكر أن هذا الجزء من الشاطئ هو أخطر الجهات للاستحمام ، لكثرة مابه من الصخور المؤذية ، وما يأوى إليه عادة من حيوان هذا البحر ليستخفى فيه ... وإن تكن تلك خرافة انتشرت بين أهل السويس ، لم تؤيدها حجة ، ولم يقم على صحتها برهان

ذكر ذلك علوى فبرز من مخبئه على عجل ... ونضا ثيابه على عجل كذلك ، وكانت فكرة جديدة من ألوف الأفكار التى ترد في الخاطر في مثل تلك اللحظة تزيد في عجلته ، وتضاعف نشاطه ، حتى

لأوشك أن يرتبك وهو يخلع ثيابه ، فكان لا يبالى تقطيع أزراره أو تمزيق إزاره ... ذلك أنه حسب أن الفتاة قد فعلت فعلتها لتنتحر ، وقد كان غناؤها الحزين يعنى ذلك ، لأنها ذكرت أن تلك اللجة فى ذلك المكان عند هذه الصخرة ، كانت قبر حبيبها الذى غيبه البحر فى أحشائه ، غير راحم شبابه ... لذلك ارتبك علوى ارتباكا شديداً قبل أن يقذف بنفسه فى اليم لينقذ الفتاة الجميلة البارعة التى ضاقت بها الحياة بعد حبيبها ، فبادرت إلى الانتحار فى المكان نفسه ، وفى البحر نفسه ، وفى هذه المدأة الرائعة من مغرب السويس نفسها

وسبح علوى ...

ثم سبح ... بيد أن البحر الذى يخضع للغيد الحسان النواعم ، هو البحر نفسه الذى يأبى أن يقهره أحد من ذكران البشر ، ولو كان فرعون ومن وراء فرعون جنوده ! لذلك لم يدر علوى لم ثار العباب حوله وفار ، واصطخب الموج وأرغى الزبد

وهزئ الشاب الفتى أول الأمر ، ثم مضى فى سباحته قدما ، غير أن البحر هزئ هو أيضا ، ثم جرجرت حول علوى أمواجه ، وأزبدت من فوقه أثباجه ، حتى غدا الليل فى عينيه ليلين ، وإن كان البدر السافر قد صار هو الآخر فى روعه بدرين ، بدراً فى السماء وبدراً فى الماء !

وعجب علوى لطغيان البحر وشدة مراسه ، ورجع بذاكرته إلى ألوف المرات التى خاض فيها عبابه ، فلم يذكر أنه عتا مثل هذه المرة ، ومثل ذاك العتو ...

ثم سبح ولم يبال ...

وبلغ بعد إعياء وبعد جهد ، جزيرة من الصخر قريبة من سطح الماء ، فوقف فوقها منهوكا مكدوداً ، لا يكاد يمسك نفسه من التعب

وكان القمر المصرى الجميل قد أخذ يسكب فضته فوق الكون الهامد إلا من جرجرة الموج حول الصخرة التى وقف فوقها علوى الحائر ...

فيا ترى ؟ هل يسخر القمر بعلوى ، كما سخر به البحر ؟ !

أين الفتاة يا ترى ؟

لقد راح المسكين يبحث عنها بعينيه المرتعشتين فى آفاق الماء ... لكنه لم يجد شيئاً ، غير لجة عند لجة عند أخرى . . . !!

هل غرقت ؟

ولم لا يكون ذلك ؟

إن هذا بحر تغرق فيه الجن ، فما بال فتاة طرية حزينة كعود القصب الرقيق !

أخذ علوى طائف من الحزن والوجوم وأخذت الوساوس تعصف فى قلبه ، وشعر كأن كنزاً بأكمله من السعادة والهناء قد أفلت من يديه .. وراح وهو فوق الصخرة ، وحوله هذا الموج المفترس ، يستعيد رجع الغناء الذى ملأ أذنيه فوق الشاطئ ، فلا يذكر أنه سمع مثله فيما عاش حلاوة وطلاوة ولا سحراً .. ولا إيجاعاً كذلك !

وطفق يحدث نفسه حديثاً طويلا مؤسياً ...

« وا أسفا عليك يا فتاة ؟ ليتك عشت لى ؟ ليتك عرفتنى قبل أن تلقى بنفسك فى هذا اللج الصخاب هل حسبت أن الدنيا أقفرت من القلوب بعد حبيبك ؟ ! أى قلوب العالم لا تتفتح كالزهر لتنشق أنفاسك ؟ هلمى إلى من الماء يا عروس الماء ! عودى إلى الحيـاة فهى أحفل من قاع البحر بحبيبك

والمغرمين بك ، وعباد جمالك ! إن حبيبك الذى تحسبينه قد ثوى كالدر فى أصداف هذا اليم ، هو هنا ! هنا ، فوق هذه الصخرة، وهو يكلمك الآن، إنه ليس هناك فى القاع يا فتاة فعودى ! عودى إلى الذى لا يعرف اسمك ، وإن كان قد انطبع فى فؤاده رسمك ! عودى فان فى قلبى لك جنة موشاة بأزاهير حبك ، وهى فى حاجة إلى الأنفاس العبقة التى يرددها فمك الجميل الشادى ! لم كرهت الدنيا وشيكا هكذا ؟ ألأن قلباً واحداً من ملايين القلوب التى تخفق بحبك قد أودى ، فانك تهجرين الدنيا من أجله ؟ أو قد كنت تخلصين له إلى هذا الحد ؟ ما أسعده حياً وميتاً ؟ ترى من هو يا فتاة ؟ أو هكذا تمسين حلماً فى خلدى بعد إذ كنت حقيقة ملء ناظرى ؟ »

وكان الريح قد هدأ ، والموج قد تطامن إلا قليلا والبدر قد ارتفع بضعة أمتار فوق الأفق ، وكان علوى قد يئس من العثور على الفتاة ولو جثة هامدة تطفو على اليم ... وكان قد سرت فى كيانه رعشة من البرد والحزن والخوف، فاعتزم أن يعود إلى الشاطئ

وقبل أن يخوض الماء ، سمع خلفه هاتفاً يقول : « هل السيد فى حاجة إلى معاونة ؟ »

وتلفت علوى مذهولاً ، فرأى الفتاة معلقة بنتوء من صخرته ، وجسمها الجميل يلمع فى فضة القمر، فخفق قلبه خفقة شديدة لهذه المفاجأة ثم قال :

— أهى أنت ؟

— ... ؟ ...

— ألم تغرق ؟ أما تزالين حية ؟ ما أسعدنى ؟ !

— ماذا ؟

— لقد كنت أبكى قبل لحظة من أجلك !

— من أجلى أنا ؟ ... من أنت ؟

— أنا ... أنا ... علوى ؟ وأنت ؟

— علوى ؟ ... من علوى ؟

— أجل ... أنا علوى ... أنا والله علوى الذى كاد يهلك فى هذا العباب من أجلك ! ألا تريدين أن تذكرى اسمك ؟ إذن لماذا كنت تبكين ؟

وبرزت الفتاة من الماء فوقفت فوق الصخرة ، وراحت تقلب فى وجه علوى عينيها الحالمتين ... ثم أشاحت فجأة ، وصرخت قائلة :

— كلا ... لست أنت علوى ... هذا حلم ... هذا ... باطل !

ثم أهرعت إلى اليم فأعملت فيه ذراعيها

ولم يتوان علوى ، بل قذف بنفسه فى اللجة ، وانطلق يسابق الفتاة إلى الشاطئ ... وقد نشط هذه المرة ، وتدفقت القوة كالحديد فى أعصابه ، وأحس كأن الماء الذى كان كالثلج قبل لحظة ، قد صار حاماً ساخناً

وبالرغم مما عراه من لجأ وتلهف ، فقد ذهب يأ كل هذا الجمال العائم بعينيه الجائعتين ، ويملأ رئتيه بذاك الأرج الذى أخذ يتضوع بالحب فوق البحر وتحت القمر ...

وكان علوى أسبق من الفتاة إلى الشاطئ ، فوقف عنده ينتظرها ...

وقالت له وهى فى الماء

— إذا أنت ظللت واقفاً هكذا فسأعود !

— تعودين ؟ وإلى أين ؟

— إذهب أرجوك !

— بل اخرجى وأنا خادمك ... إنى أهبك حياتى تسير فى ركابك حتى تبلغى مأمن المدينة !

— أشكرك ... لا حاجة بى إلى أحد !

— وكيف ؟ إن هـذا مكان موحش ، وإن الطريق لمقفر ، ولا بد أن أصحبك إلى المدينة ... أو إلى حدودها على الأقل ! أتعرفين لم نزلت وراءك إلى البحر ؟

— لتغرق ؟ أليس كذلك ؟

— بلى ! لقد كدت أغرق والله !

— لقد رأيتك تجاهد الموج ، ولولا أنك كنت قريباً من الصخرة لأنقذتك ... فاذهب مشكوراً إذن !

— ولكنك تضربن نفسك بالبقـاء هكذا في الماء . فلم لا تخرجين ؟

وبرزت الفتاة من الماء فازلزل فؤاد علوى . . . ثم تواثبت كالقطاة فوق رمال الشاطئ حتى كانت دون الصخرة ، فقفزت قفزتين أو ثلاثا فكانت فوقها ...

وانثنت تفتح حقيبتها فأخذت فوطة فمسحت بها جسمها البض المرتجف ... وهنا ... نظر إليها علوى وهو فوق رمال الشاطىء ينتفض من برد الليل ، ففهمت سؤله ، وقذفته بالفوطة فتلقفها باسما ، وبدلا من أن يجفف بها جسمه المرتعش ، دس فيها وجهه ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يصنع ، وأي أنفاس حرار كان يردد ، ولا أي دموع كان يذرى ويسكب !

ولبست الفتاة ثوبها الأبيض الناصع الذي زادته أشعة القمر بهاء وسناء وجاذبية ، ثم أضفت عليها من ثوبها الأسود ، واستدارت لترى هل انتهى علوى . . . فلما رأته واقفاً تحت هـذا الليل الفضى والرياح تساوره ، وقطرات الماء تداوره ، هبطت كالحمامة من فوق صخرتها واقتربت حتى كانت تلقاءه ثم وقفت صامتة ساكنة ولم تحر ...

ومد علوى يديه المتداعيتين بالفوطة آخر الأمر ثم قال :

— أشكرك !

— وأين ثيابك ؟

— وراء الصخرة السعيدة !

— الصخرة السعيدة ؟ ماذا تعنى ؟

— الصخرة السعيدة التي كانت تحملك إذ أنت تبكين وتغنين !

— أوه !

ونهدت الفتاة فكانت فوق الصخرة ، ثم استدارت حولها . فاكتشفت الكن الساكن حيث ملابس الشاب ، وحيث كان يختبي ويسترق السمع والأنين . والبكاء . والسر !

وعادت تحمل ملابسه جميعا فوضعتها على الرمال تلقاءه ثم قالت له : « هـذه ملابسك فينبغى أن تلبسها وإلا عرضت نفسك لخطر البرد . أما فوطتى . »

ولم تكمل عبارتها ، بل أطلقت ساقيها لنسيم البحر فكانت فوق الصخرة ، وحملت حقيبتهـا وانطلقت لا تلوى على شيء ...

* * *

وجفف علوى ما تبقى على بدنه من قطر ، ثم هرول فوق الشاطىء وملابسه في يده ، وانطلق يعدو في إثر الفتاة ... وكان مع ذاك يدس إحدى ساقيه في جزء من سرواله — أي بنطلونه — ثم يخطو فيتعثر ، ويقف فيدس الأخرى في مكانها الآخر من السروال ، ثم يعدو . . . ويدس ذراعه في كم القميص ، ويهطع ، ثم يدس الذراع الثانية في الكم

الآخر ، وهكذا . . حتى لم يبق فى يده إلا حذاؤه !

ضحك علوى حين رأى نفسه يقتنى أثر معبودته الفاجئة وفي يده حذاؤه ! فتركه على الصخر وانطلق كالظليم وراءها .

— ما هذا ؟

إن الفتاة تقفز فى سيارة كانت تنتظرها عند هامش الصحراء فى أول الطريق الوصل إلى طريق القاهرة ...

ولمح علوى ذلك ، فكاد يصعق وتتخشب ساقاه ، فلا يستطيع عدوا بل لا يستطيع حراكا . . . لكنه صمم على أن يلحق بها . لأنه أحس بشيء غريب يمتزج بدمه ، ويجرى دفاقاً فى عروقه . . . وأحس أيضاً أن القدرة التى حرمته كل هذه السنين الطوال نعمة الحب ، قد فتحت له جنة الحب فجأة يتفيأ منها حيث يشاء فاذا هربت هذه الفتاة فستغلق أبواب الجنة ، ويظل إلى الأبد طريداً منها ، يطوف بأعرافها ، ولا يناله من نعيمها شيء ... فجرى ، ثم جرى ، وظل يجري كالمجنون ، وكان يسب الأرض لأنها لا تنطوى بسهولة تحت قدميه ، وظل يدعو الله أن ينبت له فى ظهره جناحين أو ثلاثة أو أربعة ... أو أجنحة لا عدد لها ، ليبلغ السيارة قبل أن تهم ...

ولم يقبل الله دعاءه طبعاً ... فلم تنبت له أجنحة بيد أنه مع ذاك قد بلغ ضالته ... وقبل أن تتحرك السيارة ، استطاع أن ينطرح أمامها لتقف ... أو لتقتله ... وهل أشهى في هذه الدنيا من قتلة بسيارة تحمل حبيباً كهذا الحبيب !

وتبسمت الفتاة ... وأوقفت الماكينة ... ثم نزلت لترى ما خطب هذا الشاب !

— أوه ؟ ماذا تريد ؟

— أريد أشياء كثيرة .

— أريد أن أعرف

— قبل كل شيء أحب ألا تعبسى هكذا ؟ هل أنت غضبى ؟

— وكيف لا أغضب وقد حصل منك كل ما حصل؟

— وماذا حصل منى جعلت فداك ؟

— ألم تختبئ لتسرق سر فتاة ؟

— الصدفة والله فعلت هذا ؟

— ولماذا نزلت البحر وأنت لا تحسن السباحة ؟

— أنا أحسن السباحة جداً ، وقد فعلت فعلتى هذه لأنقذك ؟

— لتنقذنى ؟ وماذا ظننتنى أصنع ؟

— حسبتك ...

— حسبت ماذا ؟

— حسبتك عولت على الانتحار ؟

— وماذا يحملنى أنتحر ؟

— ألم تكونى تغنين وتبكين وتذكرين حبيباً لك ... أوه ؟ معذرة ؟...

— آه ! إنها أغنية يا هذا ؟

— أنا لست (هذا) .. أرجوك .. لقد ذكرت لك اسمى ؟

— آه ! اسمك ... علوى ... أليس كذلك ؟

— هو ذاك . . . ويقينى أنه كان يسمى علوى[1] أيضاً

— كان يسمى علوى ؟ ومن هو يا ترى ؟

---

(١) نعتذر عن منع الأعلام من الصرف فى كل قصصنا

— الشاب السعيد الذى غرق فى البحر
— لقد بدأت تمزح !
— كلا والله ، إنى ما إلى المزاح أردت !
— إذن كيف يكون سعيداً من يغرق ؟
— أى مخلوق يرزقه الله نعمة ... حبك ... يكون أسعد خلق الله ولو غرق ؟
— حقاً إنك شاب جرئ ...
— لست جريئاً ولكنى ...
— ولكنك ماذا ؟
— ولكنى أقول الحق !
— إنهض ... لقد أرويت الرمال بالدم المتصبب من قدميك ؟
— دم ؟ ... أوه ؟ ... ليتنى سفكت دمى كله تحت قدميك !
— ما شاء الله ؟ كيف تستبيح لنفسك أن تخاطبنى هكذا ؟
— وكيف أخاطبك إذن ؟
— كما يخاطب الناس أناساً لا يعرفونهم ؟
— غير أننى أعرفك !
— تعرفنى ؟
— ولم لا ... لقد كان غناؤك وحيا تنزل على فؤادى فخفظته عن ظهر قلب ... لقد حفظت قصتك كلها ... أتأذنين بسماعها ؟
— وهل تؤمن أن ما غنيت قصة ؟
— بل أومن أنها حقيقة لا ريب فيها !
— فلم إذن لا تحترم قدس الموت ؟
— قدس الموت ! أوه ! ما أبشع أن يذكر اسم الموت ههنا ؟
— لأنك رجل أنانى !
— لا والله يا أختاه ، لكنى أشفق على شبابك وجمالك أن يستسلما ليد الذبول فتذوى زهرتك وهى أعبق ماتكون ، ويصوح ربيعك وهو بعد فى إبانه !
— أشكرك ... ألا تتركنى أنصرف إذن ؟
— تنصرفين ... وأنا ؟
— وأنت ماذا ؟
— أين أذهب ؟
— إلى بيتك !
— ليس لى بيت ... لقد خرجت اليوم من صدفة !
— أرجوك ... أنا لا أحتمل الدعابة !
— دعابة ؟ أية دعابة يا ... ياعجباً ! ألا أعرف اسمك ؟
— هذا مستحيل !
— ولم ؟
— لأنى أقسمت ألا أخونه !
— أقسمت ألا تخونى من ؟
— لقد عرفته ...
— ألم أقل لك ؟
— ألم تقل لى ماذا ؟
— ألم أقل لك إن اسمه علوى !
— حقا ، لقد كان اسمه علوى ...
— ولماذا غرق إذن ؟
— كما أوشكت أنت أن تغرق !
— ليتنى غرقت ... ليتنى غرقت !
— ولم تتمنى ذاك ؟
— لأنى أوشك أن أقنط من ...
— مم ؟
— من إقناعك !
— إقناعى بماذا ؟

— بجمال هذه الدنيا وكثرة مباهجها ...

— فاذا غاب منها شخص لم تعد جميلة كما تحسب...

— هذا وهم ، ويجب أن تعالجيه بالنسيان !

— أجل ، سأعالجه بأن أنسى كل شيء ...

إلا ذكراه ! آه يا علوى ! آه يا حبيبى ! تعال الآن من قاع هذا البحر المفترس فانظر كيف يريد الناس أن ينسخوك من ذا كرتى ! الناس الأنانيون الذين لا يحترمون قدس الموت ، ولا تقشعر ذلوبهم فرقاً لذكره ! لقد صارت الدنيا بليدة من بعدك يا حبيبى ها هو ذا رجل ... لا يريد أن تخلص فتاة لالفها الذى أخلص لها حتى الموت ... الذى ضحى نفسه وشبابه من أجلها ... ما أقبحك أيتها الدنيا ! لقد شوهتك أنانية الانسان ! لقد كنت قبل آدم جميلة ساذجة طهوراً فلطخ وجهك بأوحاله

تنح أيها الشاب ! لقد كنت أحسب دماءك هذه دماء نقية ... لقد كنت أرثى لك والبحر يلقفك ... لقد خدعت فى دموعك التى ذرفتها من أجلى فوق رمال الشاطىء ، وكنت أرجو أن أعثر فى روحك على صديق ، فاذا الشيطان القذر يتحدر فى صلبك من أيام آدم

— أختاه ... أرجوك ؟

— علام تساومنى ؟ على قلبي ؟

— بل أنا ضحية أخرى من ضحاياك

— أسكت فانى ليس لى ضحايا ... إنك تدنس دمك ودموعك بهذا المراء ! كيف تستبيح لنفسك التلصص على لجائع القلوب

— التلصص ! أوه! إنك تهينينى !

— وأنت أهنت ذكرى حبيبى ، وآلمت روحه !

— إذن ، فأنا أعتذر

— إذن ، تنح ، فقد طال حوارنا ، وأريد أن أبلغ القاهرة فى ميعاد لا أحب أن أعدوه

وتنحى علوى ... وقفزت الفتاة فى السيارة ..

وقبل أن تغلق بابها نظرت إلى الشاب نظرات غامضة لم يفهم منها إلا أنها تدعوه . فتقدم خطوات ووقف كالشبح .. فمدت إليه يدها الناعمة الخصبة ، فتناولها فى يديه جميعاً ، ثم أهوى عليها بفمه المرتعش يطبع فوقها عشرات القبل ، وينثر عليها قلبه وروحه ودموعه ...

ثم مدت يدها الأخرى فربتت بها على شعره الأشمث ، وخديه المبللين ، وجذبته إلى جانبها فى السيارة .

— آه يا قاسية !

— لننس !

— وما اسمك إذن ؟

— اسمى ... ستعرفه فى القاهرة !

— فى القاهرة ؟

— أجل ... هناك !

— لقد تركت هنا ...

— طربوشك وحذاءك ؟ أليس كذلك ؟

— بلى !

— نشترى غيرها من هناك ؟

... ...

وأقيم فى السويس سرادق فخم حاشد ، وأقبل الناس من كل فج يعزون والد علوى ... أليس قد غرق ؟! أليس هذا طربوشه وهذا حذاؤه، وهذه فوطة ملقاة على الرمال !

وكان من بين المعزين علوى نفسه !

لقد أقبل هو وأسماء فى الليلة التالية ليزفا إلى أبيه البشرى السعيدة ... لقد خطبها !

دريني خشبة

الرسالة فى عامها السابع

المجلة التى أحدثت فى الأدب الحديث مدرسة خاصة

المجلة التى ثبتت على مكاره الجهاد والانتقاد والزمن

المجلة التى تنسم بأريج الاسلام والعروبة والشرق

المجلة التى لاتتخلف ولا تتوقف ولاتهن

ستخطو هذا العام أوسع خطواتها وأجرأها

أدب ، علم ، فن ، فلسفة ، اجتماع ، سياسة ، اقتصاد ، قصص ، شعر

نقد ، محاورات ، ريبورتاج ، مترجمات ، مختارات ، أخبار ، مسرح ، سينما

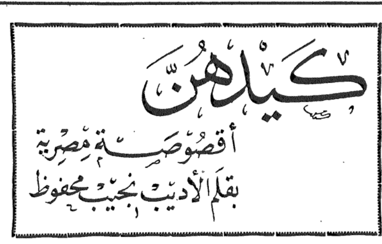
أسرة الرسالة فى سنتها الجديدة

الأستاذ العقاد ، الأستاذ المازنى ، الأستاذ توفيق الحكيم ، الأستاذ عبد الرحمن شكرى ، الأستاذ اسعاف النشاشيبي ، الأستاذ ساطع بك الحصرى ، الدكتور محمود عزمى ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، الدكتور زكى مبارك ، الدكتور محمد محمود غالى ، الدكتور أحمد موسى ، الدكتور يوسف هيكل ، الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، الأستاذ سعيد العريان ، الأستاذ دريني خشبة ، الأستاذ عبد المنعم خلاف ، الأستاذ محمود الخفيف ، الأستاذ عمر الدسوقى ، الأستاذ محمد حسن ظاظا ، الأستاذ أحمد خاكى ، الأستاذ على الطنطاوي ، الأستاذ أنور المعطار ، الأستاذ أمجد الطرابلسى ، الأستاذ الحومانى ، الآنسة أسماء فهمى ، الآنسة زينب الحكيم ، الآنسة الزهرة ، الآنسة فلك طرزى ، الأستاذ محمد لطفى جمعة ، الأستاذ فليكس فارس ، الدكتور بشر فارس ، الأستاذ محمود غنيم ، الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، الأستاذ أحمد حسن الزيات .

إدفع من الآن لغاية آخر يناير ستين قرشاً

تكسب مجلة الرواية ومعها كتاب متوسط بالمجان ، أو كتاب كبير بالتخفيض ، أو مجموعة السنة الأولى أو الثانية من مجلة الرواية بحيث يصبح اشتراك الرسالة مع هذه الهدايا عشرين قرشاً . والاشتراك فى الخارج هو مثله فى الداخل ، ويزاد عليه ثلاثون قرشاً مصرياً فرق أجور البريد . وسنعلن عن كتب الهدايا فى الرسالة خلال شهر يناير — أما الاشتراك بعد مدة التخفيض فهو ستون قرشاً للرسالة وثلاثون للرواية فى الداخل ، ومائة قرش للرسالة وخمسون فى الخارج للرواية ويخصم فى كل منهما للطلاب ٢٥ ٪ .

تظهر فى ثوبها الجديد : بحروف جديدة ، وطبع متقن



هل يتمنى الانسان على الله أكثر من أن يهبه زوجة حسناء وثروة طائلة ، ويمتعه بصحة سابغة وبنين، ويبوئه مركزاً اجتماعياً فذاً، وقد فاز حضرة صاحب العزة جمال بك ذهنى بأولئك جميعاً ؛ كانت له زوجة شابة حسناء يعزى النظر إلى وجهها الحسن عن أحزان الدنيا جميعاً ، ووهبه الله أربعة من الأبناء كالورود صحة وجمالاً ، وترقى فى مراتب الدولة حتى تولى كرسى الاستشارة فى أكبر هيئة قضائية ، وورث عن والديه ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع ، ومع ذلك فمن كان يطلع على وجهه ذلك اليوم إذ هو جالس فى شرفة قصره المطلة على شارع السرايات يأخذه العجب لهذا الاكفهرار الذى يظلله وتلك النظرة القلقة التى تحار فى عينيه منذرة بالشقاء !

ولا سبيل إلى إبطال هذا العجب ما لم نلم بماضيه لأن حاضر الانسان يقع غالباً من ماضيه موقع النتيجة من المقدمات وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما فى الحياة بما تدعم به فى المنطق من الضرورة والاحكام، ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضى صاحب العزة حافلاً بالشباب المرح السعيد والعمل النزيه والذكاء الوقاد والمغامرات التى تجعل من الشباب ديوان شعر غنياً بالذكريات العذبة ، لأنه كان من الرجال القليلين الذين يصادفهم أجمل التوفيق وأسعده فى دنيا النساء فعشق عدداً وافراً من الممثلات والراقصات وربات القصور المصونات غير متردد ولا متحرج ورشف من كؤوس الهوى خمراً صافية ، أعمته نشوتها عن طى الأعوام ، فما يدرى يوماً إلا وهو يصحو على عاذل يقول : « أتبلغ الخامسة والأربعين ولما تتزوج ؟ » الخامسة والأربعون ... أحقاً ذهب الشباب الناضر وولى ؟ أحقاً تسنم ذروة الكهولة ؟

ووجد نفسه يفكر فى مسألة الزواج تفكير شاب يهدف للثلاثين ، ويكاد الزواج أن يكون كالموت نهاية كل رجل ، وإلا فلمن يترك هذه الثروة الطائلة التى يمتلكها ؟ ومن يؤنس وحشته إذا احتجزه البيت يوماً ؟ ومن يعينه على متاعب الشيخوخة وأهوال الكبر إذا تألبت عليه عوامل الفناء ؟

ولكنه لم يغفل عن طبعه وأنه مغامر عشاق ، ومثله يستطيع أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب المفتوح ، ويعرف طبيعتها معرفته لبديهيات الحساب لذلك رأى أن الحكمة تملى عليه ألا يختار زوجة شابة تفصل بينها وبينه عشرات الأعوام ، وصحت عزيمته على الزواج من أرملة أو مطلقة فى الثلاثين على أدنى تقدير ، حذراً من أن يقضى عليه بما قضى به على ضحاياه الكثيرين ...

ولكنه شاء غير ما شاءت الأقدار ، وما حيلته فى ذلك ؟ لم يكن هو الذى يبرم الأقدار حين دعى يوماً إلى حفلة زفاف فراح مالكا لفؤاده وعاد مسلوب الفؤاد والارادة ، ولم يكن هو الذى يخلق الأعمار

إذا كانت التى سلبته فؤاده فى العشرين من عمرها ، ربما قلت إنه كان ينبغى له أن يغلب الحكمة والعقل على الهوى ، ولكن واأسفاه فان هذا القول وأمثاله لا يجدى فيمن تسيطر عليهم الشهوات ، فجميعهم — أياً كانت الشهوة التى تتحكم فيهم — لا يرون فى العقل إلا وسيلة لتحقيق شهواتهم ، يستوى فى ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد المال أو يعبد النساء ، فلم يتردد جمال بك عن سلوك سبيله المحتوم وخطب الآنسة حياة إلى والدها الأستاذ محمد عويس الخبير بالمجلس الحسبي وتمت الزيجة وأثمرت على الأيام أربعة من الأبناء أكبرهم فى المدرسة الثانوية وأصغرهم فى الروضة ...

ولكن للزمن حكمه الصارم كذلك ، فقد أحيل المستشار فى هذا الأسبوع إلى المعاش وأذن النذير بمجئ الخامسة والستين بكوارثها المعهودة من نضوب الأعصاب وبرودة الاضمحلال وتنكر معالم الدنيا وتألب أمراضها ، وما كان به من ظمأ ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملا من متاعها الغرور ، ولكن دب بقلبه دبيب القلق الذى تمود بواعثه التى تلك الزوجة الحسناء التى يعطيها الزمن — الآخذ منه — نضجاً وكمالا ويزيدها كل يوم حسناً على حسن ، وما كانت مخاوفه أوهاما ولا محض حذر تمليه مغامراته الماضية ، ولكنه شاهد هذا الصباح فى شرفة الفيلا التى تواجه قصره ضابط بوليس شابا ، يتألق جماله فى بذلته الرسمية المزدانة بالنجوم الذهبية ، وتنتفخ صدره قوة الشباب وغروره ، وتعبث أنامله بشاربه الأنيق الصغير فانقبض صدره لمرآه وتوجس منه خيفة لغير سبب بين ، وعجب كيف أنه لم يره قبل اليوم ، وهل يقيم فى هذه الفيلا يا ترى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوج أم أعزب ؟ وكان يستطيع أن يسأل زوجه عما يحيره ولكنه نفر من هذا نفورا عجيبا وآثر عليه الجهل والحيرة .

وكان قلقه غريبا لدرجة أنه ود لو يستطيع أن يحمل زوجه على نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى من القصر المطلة على شارع القشلاق وإحلال المكتبة محلها، ولكنه لم يدر كيف يملى طلبه وأبت كبرياؤه عليه أن يفاتحها بشأنه .

ووجد فى حياة الفراغ الجديدة فرصة طيبة لمراقبة «غريمه» فى صمت وحذر، فلاحظ أنه يتناول الشاى كل صباح فى شرفتـه وأنه يعود فيجلس بها عند الأصيل ساعة أو نحو ذلك ، وفى تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجه إلى الشرفة فيديم الشاب النظر إليها ، وخيل إليه أن بصرها يتجه أحياناً إلى شرفته ، نعم يحتمل ألا يكون وراء هذه النظرات أى معنى سوء ولكن يتعذر عليه أن يتصور أنه من الممكن أن ينظر شاب إلى مثل زوجـه الحسناء نظرة بريئة لا يشوبها طمع .

وضاق بصمته المرهق فأشار يوماً إلى شرفة الضابط وسألها :

— من يقيم فى هذه الفيلا ؟

فقالت :

— جار جديد ، أظنه مفتشاً فى الداخلية

فسألها بلا اكتراث فى الظاهر :

— ومن الضابط الذى يظهر أحياناً كثيرة فى هذه الشرفة ؟

— أى ضابط ؟ ... لا أدرى ... لعله ابن المفتش

فوقع تجاهلها من نفسه موقعاً أليماً ؛ واشتد

غضبه اشتداداً لا يستند إلى أسباب معقولة فقال :

— لا أشك فى أنه ضابط أحمق وقح

فبدت الدهشة على وجهها وسألته :

— ما الذى يغضبك عليه ؟

فقال بحدة :

— رأيته مراراً ينظر إليك نظرات وقحة سافلة ، جعلتنى أفكر جدياً فى نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى

فقالت بلهجة استياء :

— ولكنه تعب لامبرر له ، وأرى أنه يتضمن إهانة قاسية لى يا بك

— كلا يا هانم، ما أردت هذا قط ولكنى أحب أن تتمتعى بحريتك بعيداً عن تطفل العيون

فهزت منكبيهـا استهـانة وقالت : « افعل ما بدالك »

وتحققت مشيئته ، ولكن آلمه استهانتهاواعتقد أنه تسرع تسرعاً معيباً ورطه فيه الغضب وأحس من تصرفه بخزى أليم وكبر عليه أن يمتلىء رعباً من نظرة يرسلها هذا الشاب المغرور ، وما عسى أن يفيده نقل حجرة من مكان إلى مكان ؟ وهل يعنى هذا زحزحة الحب من موضعه إذا كان أنشب أظافره فى لحم قلبها الطرى ؟ ... هيهات ...

ولم تهادنه شكوكه ومخاوفه ، وقد ثقلت عليه وطأتها يوماً وكان يجلس فى قهوة لونابرك مع محام كبير فاستأذن بغتة وقام إلى سيارته التى انطلقت به إلى قصره وبلغت شارع السرايات وكان الوقت أصيلا ونظر خلل زجاج النافذة فرأى زوجته فى شرفة المكتبة ونظر إلى الناحية الأخري فرأى الشيطان ...

وكان يعهد فى زوجه البرود والرزانة والسيطرة على الأعصاب وكانت كعهده بها فلم تفجأ بحضوره وسألته بانـكار :

— خير . . . ما الذى أتى بك قبل ميعادك ؟

فانفجر غاضباً وسألها بغيظ وحنق :

— قولى لى أنت ماالذى أتى بك إلى هذه الشرفة ؟

فقالت بغضب وإباء :

— إنك تهيننى يا بك إهانة لا تحتمل

فاشتد به الغضب والغيظ وقال بعنف :

— أنت تحاولين تضليلى باصطناع هـذا الاباء الـكاذب

— عهدى بك أعظم أدباً من هذا

— ما شاء الله ، وددت لو يستمع إليك أبناؤنا إذ تعلمين أيام الأدب

— أما أنا فلا أود أن يستمعوا إلى أبيهم وهو يكيل التهم لشرف أمهم

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن يطلعه على خبيئة نفسها وجعل يتساءل فى حيرة : ترى هل هى صادقة فى غضبها ؟ هل هى حقاً بريئة مما رماها به ، وتنهد حزيناً شقياً وقال وكأنه يحادث نفسه :

— حقاً إن الشك مس من الجنون

فقالت باستياء :

ألا ترى أنك تعترف بأنك شككت فىّ ؟

فعاوده الغضب وقال لها بمرارة :

— لماذا تعودين إلى الظهور بهذه الشرفة ؟ وفى هذه الساعة المعهودة؟ اصغى إلى ياهانم، أنا لا أسمح لامرأة بأن تتغفلنى أبداً ...

— هـذا كلام لا يليق برجل له مكانتك

وأخلاقك ويجدر بك أن تنادي عقلك الذي عزب به الغضب ، فماذا ينفعك إغلاق الأبواب والنوافذ إذا أنا بيت الغدر ؟ ... وما يضيرك ظهوري بكل مكان إذا انطوى قلبي على الاخلاص والأمانة ؟

فقال بذهول :

— الاخلاص ... الأمانة ... ما عدت أفقه معنى لهذه الكلمات لأن عقلي تسمم فينبغي أن تفهمي ذلك جيداً ، قد يكون المرض لعلة ، وقد يكون لغير علة إلا الوهم ، فاعملي على إعادة الطمأنينة إلى نفسي ، ودعي الوعيد جانباً ... فأنا رجل لا يمكن أن تتغفله امرأة مهما أوتيت من المكر والدهاء

— أهكذا تتغير بعد العشرة الطويلة وتنقلب إنساناً غير الانسان لأنك رأيت شاباً ينظر إلى من بعيد ؟

وأي امرأة لا تلتهمها العيون كما بدت للناظرين؟ نظرة من بعيد . كلا ليس الأمر كذلك ، إنها تكذب وتجد في الكذب وهي تعلم بما يعذبه ويشقيه إنها تتجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلا معنى واحد إنها تتغفله ولكنها لن تفوز بطائل ...

— اصغي إلي يا هانم لا بد من وضع حد لكل هذا

فنظرت إليه بارتياع وقالت :

— يا له من قول خطير . فقال :

— لا خطورة هنالك ، إني أقر بأني أخطأت فيما صنعت من تغيير ترتيب بيتنا ، وأقر بأني ليس لي الحق في الحجر عليك لأنه ينبغي أن أكون أرفع من اللوام ، فاذهبي إلى حيث تشائين وتنقلي كما تشتهين ولكني لن أفارقك وأظن أن هذا حق أيضاً

فلم تتمالك نفسها من الضحك وسألته :

— أبداً ؟

فقال بهدوء :

— سألازمك كظلك

— يا له من أسر مرهق !

— لك ؟

— كلا . . . فانه يسعدني ولا شك أن يظل زوجي إلى جانبي ، ولكن كيف لك أنت بالصبر على هجر لونابارك وسنت جيمس ؟

— هذا شأن يعنيني وحدي

فلم تزد على أن قالت : افعل ما فيه راحتك

ومضى البك يحقق وعده أو وعيده دون إمهال فخلع ثيـابه وارتدى البيجاما والروب دي شامبر وجلس إلى جانبها . وتسلسلت الأيام على منوال واحد ، فكانا يقطعان النهار معاً يتحادثان حيناً ويطالعان حيناً آخر ، فاذا سئمت من جلستها وقامت إلى الشرفة أخذ مقعداً إلى جانبها ، أو نزلت إلى حديقة القصر تتريض في مماشيها رافقها إليها حتى إذا ولى النهار وجاء الليل وحانت ساعة النوم أويا معاً إلى مخدعهما فنام ملء جفنيه ...

وكانا يخرجان كثيراً لزيارة الأصدقاء والأقارب ، أو لغشيان الملاعب والملاهي والسينمات فلا يفترقان دقيقة . وثابر على حياته الجديدة مثابرة الصابرين ولازمها حقاً كظلها ، وحافظ على كلمته أن يتركها تفعل كما تشاء على أن تتركه يفعل ما يشاء كذلك ، ولم تظهر السيدة أي تذمر وقضت أيامها مرحة ضاحكة كأنها أسعد الأزواج حقاً . وفي يوم من الأيام اقترحت عليه أن يذهبا إلى شيكوريل لشراء حاجاتهـا وحاجات الأولاد ، فذهبا معاً ودخلا المحل الشهير ، ودارت به على الأقسام المختلفة تشاهد

البضائع وتسأل البائعين وصعدا إلى الطابق الثانى وجالا هنا وهناك ، وهو يتبعها صامتاً يقف حيث تقف ويسير حيث تسير ، فمر على تجوالهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيهما دقيقة واحدة حتى لهث من شدة التعب وعلا صدره وانخفض، وسال عرقه بارداً ، واشترت ذلك اليوم شريطاً من الدانتلا!

ثم عادا إلى السيارة فارتمى الرجل على مقعده منهوك القوى وقال لها :

— لم تشترى شيئاً ذا بال

فقالت :

— ينبغى التريث فى الشراء ، سنعود غداً

وعادا فى الغد ودارت به كما فعلت بالأمس ولكنه لم يحتمل المشى والوقوف ولحقه الاعياء فقال لها :

— سأنتظرك فى السيارة

وانتظرها ساعة أو يزيد ، ثم حضرت يتبعها غلام يحمل المشتريات ، فسألها البك :

— هل انتهيت والحمد لله ؟

فقالت بهدوء :

— هذه كسوة حسنى

فقال الرجل دهشاً :

— حسنى فقط ؟ ... وإخوته ... وأنت ؟

فقالت :

— لسه يابك . . . لسه . . . أرجو ألا تنكر على تباطئي فهذه عادتى فى الشراء وإن كنت تطلع عليها لأول مرة ...

وجاءا معا فى اليوم التالي ودخلت الزوجة إلى المحل وانتظر البك فى السيارة وفات على دخولها ساعة ثم ساعة أخرى فتململ البك فى جلسته وأحس برغبته فى الحركة فغادر السيارة ودخل إلى المحل ، وبحث عن زوجه بعينيه ، ومضى يسير هنا وهناك ولكن الظاهر أنها كانت بالطابق العلوى فصعد الأدراج على مهل وقطع المكان ذهاباً وإياباً ولكنه لم يعثر لها على أثر ، فعاد أدراجه وهم بالبحث مرة أخرى فى الطابق الأول ولكنه رآها مقبلة من أقصى المحل والغلام يتبعها حاملا المشتريات فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها إلى السيارة ... وتساءل فى صمته كيف لم يعثر بها مع أن المحل لم يكن مزدحماً ؟ هل لأنه لم يحسن البحث ياترى؟... وادعه الشك ... هل من الممكن ...! ولكن هذا بعيد عن التصور

وجاءت معه فى غداة اليوم التالى ودخلت المحل ولبث هو فى السيارة كما فعلا بالأمس ولكنه لم يمهلها إلا دقيقة ثم تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطا منعطفة إلى يمين الداخل فظن أنها قاصدة إلي المصعد ولكنها واصلت السير إلى باب المحل الجانبى وخرجت منه ، فخفق قلبه بشدة وتبعها بخطى سريعة ، وبلغ الباب ، ثم نظر إلى الطريق فرآها تدخل إلى عمارة « لا كاير » المواجهة لباب المحل وشاهدها تدخل إلى المصعد ثم صعد بها ، فاجتاز الطريق ودخل إلى العمارة وانتظر هبوط المصعد وسأل البواب عن الطابق الذى صعد إليه فرفع الرجل بصره وقال : « الطابق الرابع » فدخل المصعد وضغط الزر رقم٤ وخرج منه فوجد نفسه فى ردهة تواجهه ثلاثة أبواب فألقى عليها نظرة هائلةوهو يقول: تري فى أيها دخلت ، واقترب من أولها فقرأ عليه اسم المسيو فالديمير كراوس المحامى بالمحكمة المختلطة ، وقرأ على الباب الثانى اسم م . ليفى متعهد رادبو تلفنكن وكتب على الثالث « مدموازيل فلورا خياطة

للسيدات » ووقف أمام الباب الأخير لا يريم ، وقد انحصر فيه ارتيابه ، وضغط على الجرس ففتح الباب ، ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول فتراجعت أمامه التي فتحت الباب دهشة مستاءة ، وألفى نفسه في ردهة متوسطة الحجم تحيط بها حجرات أربع ، منها ثلاث مغلقة الأبواب وواحدة مفتوح بابها على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيدات والأوانس منهن من تطمئن إلى مقعدها ومنهن من تقف أمام المرآة لتلقى النظرة الأولى على فستانها الجديد. وانتبه إلى الفتاة الواقفة أمامه يبدو على وجهها الانكار وسمعها تسأله : « هل المدام مع البك ؟ » فالتفت إلى مغزى السؤال وتحير كيف يجيب أو كيف يعتذر عن وجوده ، لأنه اندفع تحت تأثير الغضب والحنق اندفاعاً فلم يتدبر أمره ، وألقى على الأبواب المغلقة نظرة ارتياب وقهر ، وود لو يستطيع أن يقتحمها ليرى ما بداخلها ولكنه لم يفعل شيئاً لأنه لم يكن فقد عقله ، ولأنه وهو رجل القانون — لم تكن تخفى عليه مغبة عمله فيما أخطأ تقديره وحسبانه . وكأنه أراد أن يقامر بما تبقى لديه فسألها « أليست هـذه شقة مدموازيل فلورا ؟ » فقالت الخبيثة : « بلى ، ألم تقرأ اللافتة يامسيو ؟ » فقال : « إن زوجتي سبقتني إلى هنا» فسألته : ما اسمك ياسيدي ؟ فقال : جمال ذهني . فصاحت بصوت عال لدرجة مزعجة : مدام جمال ذهني . ولكن سيدة من الموجودات لم تلب النداء ، فقالت : المدام غير موجودة بلا شك . قالت ذلك بلهجة من ترى وجوب انتهاء المقابلة عند هذا الحد ، فلم يربدا من الخروج ، وأغلق الباب خلفه ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ولبث يرمق الباب بعين منتقدة . ترى هل أخطأ البواب حسبانه ؟ أم أن الشيطانة موجودة بداخل شقة الخياطة ؟ ولماذا صرخت الفتاة الملعونة بهـذا الصوت المزعج وهي تنادي مدام جمال ذهني ؟ ألا يجوز أنها فعلت ذلك لتحذر الغافلين ؟ وهل يجوز أن يبقى في مكانه لا يحرك ساكناً وزوجه في داخل الشقة في خلوة غرامية ؟ فما عسى أن يفعل وكيف يضبط الآثمة متلبسة بجريمتها ؟ ...

وعند ذاك فتح الباب ، فتقهقر خطوتين ، وخرجت سيدة ، وأوصلتها الفتاة الافرنجية وقد رأته ولكنها لم تباله ، وأغلقت الباب مرة أخرى .

فمضى يروح ويجيء في حيرة شديدة . من المؤكد أنها في هذه العمارة ، فقد رآها وهي تدخل ورآها وهي تندس في المصعد ، وأكد البواب أنها صعدت إلى الطابق الرابع وها هوذا الطابق الرابع ، ولا مكان يصح افتراض دخولها إليه إلا شقة الخياطة . فالشيطانة لا شك في الداخل ، ولكن ما عسى أن يفعـل ؟ هل يظل يروح ويجيء ؟ أم هل ينتظر إلى ما شاء الله ؟ ومما يزيد ارتباكه أن وقوفه هكذا قد يريب الصاعدين والهابطين وتيارهم لا ينقطع . ومرت عليه ساعة كاملة كانت أقسى ساعات حياته جميعاً ونال منه التعب والقهر كل منال ، فاضطر إلى مغادرة مكانه وفي نيته أن ينتظرها لدى الباب الخارجي ولكن خطر له خاطر أزعجه فسأل البواب : « هل للعمارة مدخل آخر ؟ » فأجابه الرجل بلهجته البربرية بأن للعمارة ثلاثة أبواب ، فأحس باليأس وذاق مرارة الخيبة وعض شفته من الحنق والغيظ ، وكبر عليه أن تتغفله الشيطانة وتمثل به هذا التمثيل المزري . وكان ما عاناه عقله وجسمه فوق ما يحتمله شيخ في

سنه، فعاد خائر القوى إلى سيارته. وكم كانت دهشته عظيمة حين هم بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة مطمئنة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت إليه بإنكار وسألته :

— أين كنت يا بك ؟

فأنعم في وجهها النظر فرآها تبتسم ابتسامتها المألوفة ، ولكن لم يخف على عينه الثاقبة شحوب لونها ونظرتها الدالة على الاثم بقدر دلالتها على الطهارة المصطنعة ، فهي شيطانة بلا ريب ولكنها لم تتعود الاجرام بعد

وجلس إلى جانبها صامتاً وانطلقت بهما السيارة

وكان مقهوراً مغلوباً على أمره ، يعاني مرارة الهزيمة ويحس كأن يداً تخنق كبرياءه خنقاً . وكان يسوؤه أن يجلس هكذا إلى جانب المرأة التي تغفلته وهزأت بكرامته ولوثت عرضه ، ولم يرتب قط في أنها تعلم بأمر مطاردته الفاشلة لها . ومن يعلم؟ فلعلها تضحك في سرها الآن من خيبته وهزيمته . يا له من تصور لا يحتمل !

لقد أنذرها بأنه لن يتركها لحظة ، ثم اضطر إلى تركها أو هي اضطرته إلى ذلك ، ولكن لم يخطر له على بال أن تتخذ من زيارتهـا لشيكوريل سبيلا إلى مقابلة عشيقها

واستسلم للتفكير الحزين ، وذكر طريقة عامة الشعب في الانتقام من الخائنات فوجد نفسه — في محنته — يقرها ، وهل تستحق الأفعى إلا تهشيم رأسها ؟ . . . أما هو البك الوجيه المثقف فيجلس إلى جانب معذبته يعاني آلامه في صمت، ويشيع كبرياءه إلى القبر وهو كظيم . وكيف يفعل غير ذلك وهو القاضي الذي قضى حياته في خدمة القانون ؟

ولاحت منه التفاتة إلى الطريق فرأى بعض المارين يحدجون السيارة بنظراتهم المتطفلة ، فسأل نفسه ترى هل ينفسون عليـه السيارة الفخمة والزوجة الحسناء ؟

حقاً إنه يستحق الرثاء ، وسيكون أحق بالرثاء في مستقبله حين يخلو بيته منها — وهو ما صدقت نيته عليه — فكيف تكون حياته بلا زوجة ؟ وكيف تكون حياة أبنائه بلا أم ؟

وهل تزوج يوم تزوج إلا إشفاقاً من أن يلحقه الكبر وهو وحيد فيعاني مرارة الشيخوخة ووحشة الوحدة . . .

نجيب محفوظ

انتقام الأميرال

للقصصى الفرنسى أرنست دوديه
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر . وكانت الشمس حينذاك تضيّف للغروب وتنحدر رويداً من شارف السماء ، إلى ما بين الأفق والماء . وقد سالت حولها أباطح الدم ، وارتسم على جبينها الكلال والأين . ويشرف القصر أيضاً على الطريق الممتد إلى « برست » وعلى قارعة هذا الطريق تقع الميناء وقد أطلت من ورائها سوارى السفن ومداخنها مصبوغة بألوان الشفق الزاهى الجميل ... ومن نوافذ القصر الضيقة بان البحر كأنه بساط من سندس واستبرق تجرى عليه السفن بقلاعها التى يهدهدها نسيم الأصيل فتتموج ، وتداعبها الرياح الخفيفة فتترجرج ... وتعلو من القصر المنيف قباب وأبراج شامخة فى الفضاء تتحدى الزوابع العاتية والعواصف الهوجاء .. وتحف أغصان الأشجار اللفاء الوارفة بجدران تحركها الرياح المواتى فتبدو كضفائر جافة خشنة لطيف امرأة تضرب فزعاً فى الليل المدلهم ... وعند ما غسق الليل وأجن الكون فى مسوحه الطاخى الأسحم ، أترعت السماء سحاب ثقال منشئات تحركها العواصف الهوج فى شدة وعنف . وغب عباب الرياح فهاجت الأمواج الصاخبة المزبدة فراحت تصطدم بصخرة القصر الماثلة وتنحسر عنها فيسمع لها زئير كزئير الأسد وهزيم كهزيم الرعـد

فى تلك الأثناء كان الأميرال المركيز « دى بك هيلوين » جالساً إلى نضد صغير وضع عليه بضع رسائل عفى على لونها الزمن فاصفر وحال ، وبضع زهور ذاوية ونوط قلادة وشريط من الحرير الأزرق ، وبجوار هذه الأشياء صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس المطعم بالعاج ، كان ولاريب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة على النضد . وتجلت أمارات الحزن العميق على وجه الأميرال بينا لمت عيناه فجأة ببريق الغضب المسجوز

وكان الأميرال رجلا رقيق السن واهن العظم له وجه مغضن بارز العظام ، وعينان غائرتان قد قد انطفأ فيهما التألق والبريق ، ويدان معروقتان عاريتا الأشاجع . وعلى الجملة كان بدنه المنهوك قد ذبل بفعل المرض الذى يفتك به فتكا ذريعاً ولقد فقد أميرال البحر العظيم قوة العزم التى كانت تسبح ثائرة فى دمه وتشع من عينيه . وخفت فيه ذلك الصوت الجهورى الملىء الذى كان يمزق العواصف ويطغى عليهـا . ولم تبق فيه ذرة من القوة التى طالما أعجب بها رجال أسطوله وبحارته من قبل . وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا ذلك الجسم المهدم الفانى ففارقتاه بعد إذ كانتا تفوران فيه فوراناً حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج بفتوة الرجولة . واشتد به السقام حتى صيره هزيلا ناحلا . ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره إلا ليعالج هذه الجريمة النكراء التى اكتشف الآن فقط

دليلها الحاسم ، وليرى مدى قدرته على الثأر وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث اعتاد أن يقضى فصل الشتاء من كل سنة ، يقول فيها كاتبها : « لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك ممعنة في خيانتك ، دائبة على العبث بشرفك ؛ ولعلك وحدك الشخص الذى لا يعلم شيئاً عن علاقتها الآثمة بمساعدك السابق الكابتن « فوشيرون » . وإذا أردت على ما أقول شاهداً ودليلا فاذهب إلى مخدع المركيزة ، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت إحدى الصور المعلقة خزانة فى الحائط ، بها صندوق صغير . افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه ، فستنقشع الغشاوة عن عينيك ، وتتبين بوضوح ما غاب عن بصيرتك كل تلك السنين الواضى »

وعزا المركيز هذه السعاية إلى خادم مطرود . لذلك قضى سريعاً على ما أثاره الخطاب فى نفسه من شكوك وأوهام، وفرك الرسالة في يمناه وهم بتمزيقها لولا أن حاك الشك فى صدره فأرجع الكتاب يتلوه مرة أخرى... وللمرة الأولى فى كل حياته مع زوجه تساوره الظنون والريب . وتحامل على نفسه وغادر مضجعه ، ثم راح يجر نفسه جرا ، وفى الحرز المبين فى الكتاب ألفى أدلة الاتهام السود

وراح يتمثل ويعجب كيف مرت عليه هذه السنون الطوال وهو غارق فى لجج هذا الوحل دون أن يدرى ... ها هو ذا يمضى إلى مثواه الأخير تكتنفه قرائن الجريمة الدنسة التى اكتشفها اليوم فقط هازئة ساخرة... فكيف إذن يتسنى له الثأر لنفسه من هذين المجرمين قبل أن ينطفئ سراج حياته الخافت الضئيل

يا للخيانة ويا للغدر ! أزوجه التى شملها بحبه ووهب لها كل قلبه ؟ ! ومرؤوسه الذى أمطره بوابل من عنايته ، وغمره بفيض من صداقته .. يا للعار ويا للدرن ! أنسى هذا السافل الخؤون ، هذا الجاحد الكنود ... أنسى كيف كان يرعاه كابنه وزيادة ؟ وهذه الشقية زوجه ؟ لا نكران أنه اقترن بها والفرق بين عمريهما جد كبير . إذ كانت فى العشرين وهو فى الخمسين ... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضاً أنه انتشلها من وهدة اليتم والمسغبة ، وأضفى عليها لقبه المجيد التالد وقلبها فى ثرائه الواسع ، وضمن لها الحماية والرعاية فى حياته ، وسيخلع عليها من ثرائه درعاً يقيها من بعده عدوان الناس وغدرات الزمن . أبداً ما أرغمها امرؤ على الزواج منه ، بل كان هذا عن اختيار منها ورغبة ... ولم يكن يوماً ليبى عن تلبية رغبة لها مهما صعبت وشقت . فالصيف فى الريف الجميل الساحر ، والشتاء فى أرفع فنادق باريس الفواخر . أو إذا شاءت فى قصره المنظيم فى « نيس » . فى كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب والصواحب . فى كل جمع كان يعلو بها اسم زوجها إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سائر الفتيات والعقائل . وبينا كان يثق فى وفائها وإخلاصها ويعجب بجمالها وفتنتها ويتيه لسحرها وأنوثتها ، إذا هى تخونه وهو لا يدرى

لقد خدم بلاده أربعين سنة سوياً . حارب فى أفريقيا وفى المكسيك ، وحاز أرفع القلائد والأوسمة وجلب المجد والفخار لابنه ... ثم ماذا بعد كل تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال وطيب المآثر ؟ عار تجلبه عليه هذه المخلوقة الشقية وهو من الموت على شفا جرف هار

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب ، بل جرته إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله فيمضى إلى رمسه مخبولا . ابنه « باتريك » زهرة

آماله وعمره الثاني ... آبنه هو ، أم ابن غريمه فوشيرون ؟ باتريك . لقد شب ونما في قصره المتيد حيث تقضى أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو ليعانقه ويتحلى من رؤيته . إنه يبدو قوياً كغصن شامخ فتى ، ويتملى الزهو والكبرياء في نظراته ، ويبدو الصلف والخيلاء في لفتاته ، وتنطق ملامح وجهه بقوة العزم وشدة المراس . يا له من إله صغير من آلهة القوة والجمال! خير خلف لأشرف سلف . ومما زاد الرجل تعلقاً بابنه وحباً له أنه ورث عنه قوة العزم وصلابة الرأى وثبات الجنان

والآن تقضى هذه الجريمة التي اقترفتها زوجه على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك الاعجاب الذى يجنه الرجل لوحيده

وأمسك الرجل التعس رأسه الثائر بين كفيه كأنه يمنعه من الانفجار، وسرت حمى الغضب فى دمه فتمضمض وهو فى تلك الحال من اليأس والضعف والمرض

— سأنتقم لنفسي ... سوف أثأر لشرفي ...

ولكن كيف ؟ أيقتل ذينك اللذين لوثا اسمه ولطخا شرفه ، وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ العديدة تفصلهما عنه . فلا هو بمستطيع أن يبلغهما . ولا هما ببالغيه قبل أن يموت ... وأوغل فى سبل الانتقام الكثيرة المتشعبة ... وأغطش الليل ولما يهتد فكره إلى سبيل يبلغه طيته فيشفي غليله ... واستلقى على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتنز ناراً تكاد تأتي على بقايا جسمه المحطم

وعند ما انصدع عامود الفجر أقبـل طبيب الطوافة « المتيد » التى اعتلاها علم الأميرال طويلا، ليعود رئيسه العليل وذعر لدى رؤيته وجه رئيسه الشاحب المتقع ودهش لتقدم المرض السريع فى يوم وليلة ... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال الأميرال :

— قل إنى انتهيت يا دكتور

— لم يضع الأمل بعد يا سيدى ... إنك فى حال سيئة ولكن ...

— لا تراوغنى . لقد صمدت للموت مراراً ، ولا أود أن يأخذنى هذه المرة على حين غرة . قل الحق إنى آمرك ...

فظل الطبيب صامتاً لا ينبس دقيقتين قال بعدهما:

— سيختارك الله هـذا المساء على الأكثر يا سيدى إن لم تحدث معجزة

وتلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات ... قال

— حسن ... وستعودون طبعاً مرة أخرى ... أليس كذلك ؟

— بالتأكيد يا سيدى الأميرال . ألا تحب أن نخطر سيدتى المركيزة

— وأى جـدوى فى ذلك وهي فى نيس . ثم إنى لا أود أن أحملها الحزن فجأة . إنها تعلم أنى مريض . وستعرف على كل حال أنها ترملت . ولكن يجب أن يكون هذا بعد أن أموت

فانسحب الطبيب

وقابله باتريك لدى الباب فقال له :

كيف أبي ؟

فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه عيناه . فأسرع الصبى نحو أبيه بقلب جزوع . فنهض الأميرال بجهد جهيد على مرفقه وقال :

— ادن منى يا بنى . إن لى حديثاً معك ... إنك فى الثانية عشرة من عمرك ياباتريك . ولكنى مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلا

ولم يأخذ منهما الحديث طويلا . ولكن حينما انتهى ومضت عينا الصبى ببريق من نار ، وتثلج بدنه حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه

إلى بدنه . وفى أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة وما تحمل من متاعب وأعباء

وفى السنة التى تلت ذلك . أى بعد موت الأميرال بعشرة أشهر أو تقل راح الناس يلغطون بقرب زواج أرملته من الشاب الوسيم القسيم فوشيرون . تناقلوا ذلك فيما بينهم فى غمز ولمز كأنما كان ذلك عين ما يتوقعون . ويبدو أن العاشقين قد آثرا بعد علاقتهما الدنسة الآثمة أن يرتبطا بعلاقة يقرها العرف والدين

ووصل الكابتن فوشيرون ذات صباح إلى القصر المشيد حيث تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها نحبه

وعند ما متع النهار وارتفعت الشمس دخل باتريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوء به عمره الصغير . قال لها :

— أحقاً أنك تمدين المدة للزواج من الكابتن فوشيرون يا أماه ؟

فأجابته بصوت مضطرب :

— من أبلغك هذا ؟

لم ينبس الغلام . فاستطردت المرأة

— على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه

— إنى لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل الكابتن فوشيرون مكان أبى

— لا تقبل ! ماذا تقصد بهذا الهراء ؟

ثم أشارت إلى الباب غاضبة واستأنفت

— أخرج من هنا حالا يا سيدى

فانصرف من لدنها إلى غرفته ، ثم غادرها بعد بضع دقائق إلى غرفة فوشيرون واقتحمها دون استئذان واضعاً إحدى يديه فى جيب بنطلونه

وكان فوشيرون يحلق لحيته أمام مرآة ، فاستدار نحو باتريك وقال :

— إن اللياقة تقضى بدق الباب قبل الدخول

— إنه بيتى ياسيدى . ومن حقى أن أدخل أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان . ثم إن لى حديثاً معك

— لك حديث معى ... تكلم

— إنى أعلم سبب وجودك هنا . وإن ما تبغيه لايمكن أن يتم . ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود أبداً . إننى أمنعك من الزواج بأمى

— إنك مجنون ولا ريب أيها الطفل

— من الخير لك أن تطيعنى

فشحب وجه فوشيرون من شدة الغضب . وومضت عيناه من فرط الغيظ . قال :

— أخرج أيها الغرير وإلا عركت أذنيك

واتجه نحو باتريك رافعا يده . فتراجع الغلام عنه ثمت وأخرج من جيبه شيئا كان يخفيه ، مسدساً ورفع به ويده . ضغط الزناد ، فانطلق

فانشق صدر فوشيرون عن صرخة هائلة دوت فى سكون القصر العميق . وترنح ثم سقط جثة هامدة وقد اخترقت الرصاصة جبينه ...

وأقبلت المركيزة على عجل ورأت كل شيء ... ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها وجردته من سلاحه .

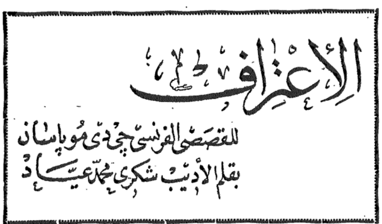
— ماذا فعلت أيها الشقى ؟

وتركها باتريك تأخذ منه السلاح ثم قال : وقد رآها ترتمي على الجثة تبكيها وتندبها :

— لقد أنبأنى أبى قبيل وفاته أن هـذا الرجل عدو لى وعدو لك، وأوصانى بحمايتك من شره وغدره حتى ولو أدت الحال إلى قتله. ولقد نفذت وصية أبى.

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن فوشيرون مات منتحرا

محمد عبد الفتاح محمد



أقبلت قرية «فزيير لوريتيل» عن بكرة أبيها تشيع جناز السيد « بادون ليرمنتيه » وتشهد رمسه . وانطبعت فى كل ذهن كلمات نائب الولاية فى تأبينه :

« إن أقل ما يقال فيه إنه رجل شريف ! »

لقد كان رجلاً شريفاً بكل ماقدم من عمل مجيد، بأقواله ومثله ، بسلوكه ومعاملاته ، بسيماه وشارته ، بهيئة لحيته ووضع قبعته . ما قال يوماً كلمة إلا ضمنها حكمة ، ولا جاد يوماً بصدقة إلا شفعها بنصيحة ، ولا بسط يوماً يده إلا كان كمن يزلف حسنة

ولقد خلف ولدين : ذكراً وأنثى . أما الابن فقد كان على وشك أن يعين قائداً فى الجيش ؛ وكانت الابنة من عقائل فزيير ، فقد كانت زوجة للمسجل السيد بوارل دلا فولت

وكانا لموت أبيهما آسيين لا يتعزيان، فقد كانا يصدقانه الحب ويخلصان له الولاء

وما انتهت مراسم الدفن حتى آبا إلى المنزل ، واختلوا ثلاثتهم : الابن والابنة وزوجها ، ففضوا الوصية التى كان عليهم أن يتلوها وحدهم بعد أن يقر فى الأرض تابوت الفقيد . وكانت على المظروف إشارة تبين هذه الرغبة ، وتحتم هذا الشرط

كان السيد بوارل دلافولت هو الذى فض الغلاف بطبيعة كونه مسجلاً ألف مثل هذه الأحوال فهيأ على عينيه منظاره ، وقرأ فى صوت أجش جبل على تفصيل العقود :

* * *

يا ابنىّ ، يا ابنىّ العزيزين، إنى لا أستطيع أن أنام قريراً فى ضجعتى الأبدية ما لم أبث إليكما من رجام القبر باعتراف ، باعتراف بجريمة مزقت حياتى بالندم . أجل ، لقد اقترفت جرماً ، جرماً مخيفاً شنيعاً

كنت إذذاك فى السادسة والعشرين من عمرى ، أمارس المحاماة فى باريس ، وأعيش فى تلك المدينة عيشة الشبان الغرباء ، بغير معارف ولا أصدقاء ولا آباء .

فاتخذت خليلة . وكم من الناس من يثورون لهذا اللفظ وحده : « خليلة » ! ولكن بعض الخلق لا يستطيع أن يعيش فريداً ، وأنا من بين هؤلاء ؛ فان الوحدة لتملأنى باستيحاش مخيف ، وحدة المأوى ، قرب المصطلى ، فى المساء . حينئذ يخيل إلى أنى أعيش على ظهر الأرض وحيداً ، تحدق بى أخطار مبهمة ، وتكتنفنى أشياء مجهولة ومخيفة . حينئذ يخيل إلىّ أن الحاجز الذى يفصلنى عن جارى ، جارى الذى لا أعرفه ، يبعدنى عنه بعد النجوم التى ألمحها من نافذتى ؟ فتعرونى حمى من الجزع والخوف ، ويرعبنى صمت الجدران . ما أبلغ الحزن وما أعمق الصمت فى غرفة الرجل الوحيد ! أنت هناك لا يأخذك الرعب إذا رنق الصمت قدر ما يحتويك إذا اختلج ستر أو ترقمت قطعة من أثاث . لأنك فى مأواك

الكئيب لا تنتظر صوتاً ولا تتوقع نأمة

وكم من مرة أرعبني السكون الأخرس فطفقت أتكلم، أفوه بألفاظ لا رابطة بينها ولا معنى لها لأحدث صوتاً. حينئذ يلوح لي صوتي من الغرابة بحيث أخافه هو أيضاً. وهل أبعث على الرعب من أن تتكلم وحيدا في منزل خال؟ إن صوتك ليلوح لك حينئذ كأنه صوت سواك، صوت مجهول يتكلم لغير سبب ولغير أحد، ويشق جوف الهواء لغير أذن تسمعه. ذلك بأنا نعرف قبل التلفظ ما نوشك أن نقول، فاذا أرن الصوت الحزين في الصمت الجاثم لم يعد إلا شبيه الصدى، صدى عجيب لخفت ضئيل همس به الذهن الكليل.

اتخذت خليلة: فتاة ككل أولئك الفتيات اللاتي يمشن في باريس من عمل لا يقيتهن. كانت حلوة ناعمة سمحة بسيطة؛ وكان أبواها يستوطنان پواس، فكانت تذهب إليهما من حين إلى حين فتمضي بينهما بضعة أيام.

قضيت معها حولا في عشرة هادئة، وأنا ثابت العزم على هجرها متى وجدت الفتاة التي أرتضيها زوجة. وكنت أهبها أجرها قدراً صغيراً من المال، فقد جرى العرف في مجتمعنا على أن الحب يجب أن يشرى من المحبوب بالمال إن كان فقيراً وبالهدايا إن كان غنيا.

ولكن هاهي ذي تنبئني ذات يوم أنها حبلى. فذعرت ولمحت في لحظة كارثة وجودي. وبدا لي الغل الذي سوف أرسف فيه دائماً: في أسرتي المستقبلة، في شيخوختي، حتى أموت. غل المرأة التي ارتبطت بي بوليد، غل الطفل الذي يجب أن ينشأ ويحفظ دون أن يعرفني، ودون أن يعرفه الناس. ذهلت لهذا الخبر وامتلكتني فكرة مبهمة ما كنت لأجتليها، ولكني أحسستها في قلبي على أهبة للبروز، كأولئك القوم المتوارين وراء السدل ينتظرون إشارة بالظهور. كانت تدور في أعماق تفكيري رغبة فاتكة: لو حدث حادث! إنه كثيراً ما يقع لتلك الكائنات الصغيرة، التي تموت قبل أن تولد!

أوه! ما كنت أريد أن تموت عشيقتي، فقد كنت أحبها حقاً تلك الفتاة المسكينة؟ ولكن لعلي كنت أؤمل أن يموت الآخر من قبل أن أراه

بيد أنه برز إلى الوجود يرهقنا بالنفقات ويطالبنا بالعناية؛ لقد كان يشبه كل الأطفال وما كنت لأحبه. والآباء لا يحبون إلا متأخرين فليس لهم مثل ما للأمهات من حنان فطري وحدب مكتسب وحب سريع. لكن يستيقظ عطفهم شيئاً فشيئا، ويرتبط قلبهم بتلك الوشيجة التي تؤلف بين المتعايشين وتزيد على الأيام توثقاً واصراراً.

وأدبر حول جديد فاذا أنا أفر من مسكني الصغير وقد انتثرت فيه ثياب ولفائف وجوارب كالقفافيز، وألف شيء من كل نوع ملقى في كل مكان: على قطعة من أثاث أو على ذراع من مقعد. ولقد كنت أفر حتى لا أسمع صياحه، فقد كان يصيح دائماً ويصرخ بغير انقطاع: إن بدلنا مكانه أو نظفنا جسده، أو لمسناه أو أرقدناه أو حملناه.

وعقدت مع بعض الأسرات أواصر المعرفة، فلقيت في أحد الأبهاء تلك التي غدت أمكا، فشغفت بها حباً واستيقظت في نفسي رغبة أن أتزوج منها.

وعينت فى القضاء فطلبت يدها، وأجبت إلى ماطلبت.

وأمسيت من أمري فى رهق شديد . أأبنى بتلك التى أعبدها ولى ذاك الولد ، أم أصرح بالحق فأفقدها وأفقد السعادة والمستقبل وكل شىء ؟ لقد كان أبواها من الصارمين المتزمتين ولو علما الحقيقة ما أسلماها إلى .

قضيت شهراً فى أتون من الهم والألم ، تموج في ذهنى آلاف من الأفكار المخيفة ، فتثير فى نفسى البغض والعداء نحو ابنى ، نحو هذه القطعة الوجلة من اللحم الحى، نحو هذه النطفة التى تسد طريقى ، وتسلمنى إلى وجود لا رجاء فيه ، ولا أمنية تملأ الشباب حياة وجمالا .

ولكن ها هى ذى خليلتى يعتريها المرض فأبقى والطفل وحدى .

كنا فى ديسمبر ، وكان الطقس قرًّا شديداً . يا لها من ليلة ! لقد بارحتنى خليلتى فتمشيت فى قاعتى الضيقة وحدى ، ودلفت إلى غرفة الصغير النائم .

جلست على مقعد إلى المصطلى ، وكانت الريح تعصف فيقرقع لها الزجاج ، وكنت أبصر النجوم من نافذتى تلمع لمعها الحاد فى ليالى الصقيع .

إذ ذاك صعد إلى رأسى الكره الذى احتوانى شهراً ، وما كدت أجلس ساكناً حتى هبط على ونفذ إلى وتأكل قلبي . وإذا هو في رأسي كالفكرة الراسخة ينخر فيه نخر السرطان فى اللحم المريض . كان يخيل إلى أنه يدب منى فى الرأس والقلب والجسد ، ويمس منى الأطراف والشفاف والمسامع ، ويبتلعنى كأنه الوحش الجائع النهوم . فأردت أن أطرده ، أن أذوده ، وبأن أفتح ذهنى لأفكار بعيدة وآمال جديدة ، كما تفتح النافذة لنسيم الصباح البكر فيزيح هواء الليل المسمم ، ولكنى لم أستطع أن أبعده عن ذهنى لحظة واحدة . لست أدرى كيف أصف هذا العذاب . لقد كان يقضم روحى ، فأحس لجذ أسنانه ألماً هائلا ، ألماً حقيقياً يلهب الجسد والروح جميعاً .

لقد قضيت نحبى ، فكيف أخلص من هـذا الـكلام ؟ كيف أرد التهمة ثم أثبت الاعتراف ؟

لقد كنت أحب تلك التى غدت أملى حب الجنون . وكنت أقول إن الحجر الكئود سوف يسد طريقها أيضاً ، وسوف يملأ قلبها شجى ولوعة

وامتلكنى غضب مخيف ، غضب سد حنجرتى ودفعنى نحو الجنون ... نحو الجنون ... ! يقيناً لقد كنت مجنوناً ذاك المساء البعيد ؟

كان الصغير ينام . فقمت ونظرت إليه وهو نائم . إنه هو ذلك السقط ، تلك الدودة ، ذلك اللاشىء الذى يلزمنى شقاء مبرماً لا يراجع !

كان ينام مفتوح الفم ، مدرجاً فى لفائفـه ، ناعماً فى مهده ، قرب فراشي الذى لم أكن أنا أستطيع عليه نوماً !

كيف فعلت ما فعلت ؟ هل أعلم أنا ؟ أى قوة دفعتنى ؟ أى شيطان استبطننى ؟ لقد كانت الجريمة تجتذبنى بغير وعى منى . لست أذكر إلا أن قلبي كان يدق ! وكان فى رأسى صخب عجيب كأنما غادره كل تفكير وكل هدوء . كنت فى ساعة من ساعات الذهول حيث لا يقدر المرء مايرى ، ولا يدرى مايفعل ولا يقرر ما يريد

رفعت الأغطية التى كانت تستر جسد ولدى ،

وألقيتها تحت المهد ، فرأيته عارياً تماماً . ولم يستيقظ فذهبت إلى النافذة فى هدوء وفتحتها

واندفعت هبة من الهواء كأنها الجرم الأثيم ، نكصت لبردها ، وخفق لعصفها نور الشمعتين .

وظللت بجوار النافذة قائماً ، لا أجسر على الارتداد حتى لا أرى ما يجرى خلفى ، وأنا أحس على يدى وخدى وجبينى برد الريح المميتة لا تفتأ عاكفة على المهبوب . وبقيت كذلك طويلا

لم أفكر قط ولم أتدبر شيئاً ، حتى سمعت سعلة صغيرة أرسلت فىّ رعدة بلغت منبت الشعر أحسها اللحظة مرة أخرى، وفى حركة عنيفة مجنونة أوصدت مصراعى النافذة ، ثم عدت فعدوت إلى المهد

كان ما يزال نائماً ، مفتوح الفم ، عارياً تماماً . فلمست قدميه فاذا هما باردتان كالثلج ؛ فرددت عليهما الغطاء

ورق قلبى فجأة وانحطم ، وامتلأ حناناً وعطفاً وحبا لذلك المخلوق البرىء المسكين الذى أردت قتله فقبلته طويلا فى شعره الرقيق ، وعدت فجلست إلى المصطلى

تدبرت فى ذهول ورعب ما فعلت . وساءلت نفسى من أين تعصف بالانسان هذه الفكر التى يفقد معها كل تقدير للأشياء وكل سلطان على نفسه ، ويعمل فى مثل نشوة السكران أو ذهول الأخرق بغير عالم ما يفعل ولا حاسب حساباً لما سيكون ، فكأنه زورق وسط إعصار شديد

سعل الطفل ثانية ، وأحسست كأن قلبى يتمزق. آه لو مات ! رباه ! رباه ! ومن أغدو أنا ؟!

نهضت كى أراه ، وحنوت عليه وفى يدى شمعة رأيته يتنفس فى هدوء فطمأنت نفسى ، بيد أنه سعل مرة ثالثة فأحسست مثل وقع الصاعقة ، ونكصت على عقبى كمن رأى شيئاً أرعبه فسقطت الشمعة من يدى

ولما التقطتها واستويت واقفاً إذا بخدى مبللان بالعرق ، بذلك العرق الذى تمجه النفس ساعة ثورتها لاهباً مثلجاً فى وقت معاً ، وكأنما تنفست بين العظم والمخاخ نفحة من ذلك العذاب الغليظ ، القارس كالثلج ، اللافح كالنار

ظللت حتى الصباح عاطفاً على ولدى ، أسرى عن نفسى الهم كلما رأيته هدأ وصفا ، ويعزقنى الألم كلما انبعثت من فمه الصغير سعلة خافتة

واستيقظ وقد احمرت عيناه ، واضطرب حلقه وبان عليه الألم

وعند ما أقبلت خادمى أرسلت فى طلب طبيب ، فجاء بعد ساعة ، وقال بعد أن فحص الصغير :

— ألم يصبه برد ؟

فطفقت أرتمد كارتعاد الشيوخ الطاعنين وتمتمت :

— كلا ، لا أظن

فأجاب :

— أنا لا أعرف شيئاً غير هذا . سأعود هذا المساء

وعاد فى المساء . وكان ولدى قد قضى جل النهار مثبتاً لا يفيق ، ساعلا بين الحين والحين

ودامت تلك الحال عشرة أيام ، ولست بقادر على أن أصف ما قاسيت فى تلك الساعات الثلاث التى

تفصل بين كل صباح ومساء ، وكل مساء وصباح لقد مات ...

ومنذ تلك اللحظة لم أعرف ساعة واحدة تعفيني من شناعة هذا الجرم ، أو تحميني من لهيب هذه الذكرى التي تقد الحشا وترمض الجوانح ، وتدور في النفس كوحش مميت ، حبيس في أعماق هذه الروح

آه ! لو استطعت أن أغدو مجنوناً !

***

خلع السيد بوارل دلاڤولت منظاره في حركة مألوفة لديه عند فراغه من قراءة عقد ، وتبادل الورثة الثلاثة النظرات دون أن ينبسوا بكلمة ، فقد كانوا شاحبين ساهمين لا يتحركون

وبعد دقيقة قال المسجل :

— يجب أن نعدم هذه

وخفض الآخران رأسيهما إشارة الاقرار ، فأوقد السيد شمعة ، وفي عناية واحتراس فصل الأوراق الحاوية الاعتراف المخوف عن تلك الشاملة توزيع المال ، ثم قدمها إلى النار وقذفها في المدخنة

وراقبوا الأوراق البيضاء وهي تحترق ، فلم تمد بعد قليل غير كومة صغيرة سوداء . ورأت الابنة أجزاء من الورق لا تزال بيضاء تحمل حروفاً قليلة فحطمتها بضربات صغيرة من كعب حذائها وخلطتها بالرماد القديم

وبقي ثلاثتهم زمناً يشهدون هذا الرماد ، كأنما خشوا أن يفر من المدخنة السر المحرق

شكري محمد عياد

زفرة العربي

أقصوصة شرقية

بقلم الأستاذ محمد عبد الله العمودي

(إلى غرناطة ...)

إيه . . . يا زهرة مدائن الأندلس الجميلة ؟
يا موطن النور والحب والأزهار !
أين ذهبت السعادة التى كان يرفل فى أثوابها سادتك الأمجاد ؟ أين قصورك الصيفية الشرقية البديعة ذات المنائر الطاعنة فى أجواز الفضاء ؟
ما الذى حدث يا غرناطة حتى قطعت عن الوجود لحنك المطرب ، وأغانيك الشجية ؟

(الغرناطى : جوزى زورلا)

فى صباح مكفهر الوجه ، مربد الأفق ، وفى ساعة مشئومة من ساعات الدنيا الفاصلة لمجال التاريخ وقعت أفجع فاجعة دامية حملها تاريخ الاسلام ، وطويت آخر صفحة من صفحات النبوغ العربى فى بلاد الأسبان !

كان ذلك فى صباح ١٠ يناير من سنة ١٤٩٢ ميلادية عند مادوت فى سهل الڤيجا Vega الفسيح ضربتان من مدفع نصب على أعلى برج من أبراج الحمراء ، مخطرة ملك إسبانيا الجديد فردناند المتحصن بمدينة سانتافى Santefé (١) التى لا تبعد كثيراً عن غرناطة ، أن يتحرك ليتسلم زمام الأمر ومقاليد الحكم فى حمراء غرناطة !

وفى مقصورة — وقتئذ — من مقاصير الحمراء ، المفعمة بأريج المسك ، وشذى العنبر ، كان أبو عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر جالساً القرفصاء فى محراب من محاريب الصلاة ، يعبد الله ويندب حظه ، ويودع أيامه المعطرة السابحة على أمواج الماضى فى آخر ليلة من ليالى الحمراء العابسة !

وتوالت الطلقات تدمدم فى آفاق غرناطة ، فعلم أن الساعة قد أزفت ، وأمر الله قد وقع ، فقام من فوره متثاقلاً وانحط على شرفة من شرفات الحمراء فتراءت له جبال سيرانفادا Sierranevada (٢) وقد تعممت بركام من الثلج الفضى الذى يلمع فى أعطاف الفجر ؛ وإنه لكذلك وإذا بنسمات الفجر الرقيقة قد هبت من أعالى هذه الجبال حاملة معها أنفاس المروج ، وعطر الأحراج ، إلى غرناطة وحمرائها !

ثم أغمض عينيه ، ووضع رأسه بين يديه ، واستسلم لتفكير عميق ممض ، وراحت مواكب الذكريات تتزاحم على نفسه ، وتثقل صدره ، ولم تدم طويلاً لأن غمغمة الأحراج ، وهمهمة الجداول الساجية التى تشق ردهات الحمراء قطعت عليه سلسلة تفكيره فرفع رأسه المثقل ورمى بطرفه ثانياً فى ضوء الفجر فرأى غرناطة ، غرناطة حبيبته التى صب عليها أجداده من قبل أنوار العظمة والجمال ، غارقة فى أمواج من الخضرة والنضرة والسكون العميق ...

(١) مدينة فى الڤيجا بناها الكاثوليك أثناء حصارهم لغرناطة

(٢) معناها سلسلة جبال الثلج

وصعدت من صدره زفرة أرسلها فى جوف الفجر إزاء هذه المناظر الساحرة التى حركت إحساسه ، وألهبت عواطفه ، وهزت أسلاك قلبه ، وأثارت كامن شجونه ! ثم طفرت من عينيه دمعتان ساخنتان ، وعيناه ضنينتان بمثل هذا الماء فى جميع الأدوار القاسية التى مرت به ، ولكن للرجال ساعات تتلاشى فيها رجولتهم وكبرياؤهم

وراح صدره يعلو ويهبط ، وعيناه محدقتان إلى غرناطه وقد بللتهما الدموع ونسجت عليها ثوباً شفافاً تراءت له هذه المدينة الساحرة من خلاله وهى مضطجعة فى هذا السهل المرع المخضل ، كأنها قطعة من سحاب ناصع ضارب فى سماء صافية ! !

وغرق ابن الأحمر فى بحار التأملات ، وما أفاق إلا على قول الحارث بن حلزة :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصها ل خيل ، خلال ذاك رغاء

فأطل من شرفته ليرى ما الخبر ، فاذا بحاشيته تضطرب فى فناء السباع ، وقد أعدت كل معدات السفر ، ولم يبق إلا نزول السلطان ليأخذ طريقه إلى منفاه !

غامت مقاصير الحمراء فى عينيه ، وقد كانت بهجة النفوس ، ومتعة الخواطر ، ونزل ابن الأحمر يجر أذيال الخيبة وثقل الزمن ، وحساب التاريخ ، متثاقلاً متهالكا يترنح فى مشيته كالثمل ، واخترق الفناء فامتطى صهوة جواده الأدهم فاندفع به فى شوارع غرناطة وقد أقفرت من كل شىء تحف به كوكبة من رجاله المخلصين وبلغ آخر المدار فاحتضنه سهل الفيجا ، فلاحت خلال أغصان الغار الخوذ اللامعة ، والرماح المتألقة ، ودمدمة الجيش الاسبانى المنتصر يشق طريقه إلى غرناطة ...

وهناك فى مكان مبين قابلته أولى طلائع الجنود الاسبانية وقد نسجت فى الجو من عثيرها رداء عكراً حجب قرص الشمس ، وقد ملأ هزيزها الآفاق وفى مقدمتها ذلك العلج الأسبانى (بدرو فانزالو دى مندوزا) الذى يعتبره التاريخ أعظم موقد لنار الحرب على غرناطة . ونظر هذا إلى أبى عبد الله نظرة الشماتة ، أتبعها بتحية صفراء مزقت أحشاء الأمير العربى التعس

وتتابعت مواكب الأسبانيول تملأ السهل والوعر ، وهى تصب فى سهل الفيجا أروع حماسيات قشتالا ، وأعذب ألحان أراغونيا ، وابن الأحمر ساهم واجم تفترسه الآلام ، وتنوشه الهموم من كل جانب ، ولكنه أبدى من رباطة الجأش ، ومتانة الرجولة، ما بهر أنظار الفرسان وهم يمرون به سريعاً.

وبينما طرفه يموج فى هذه الأمواج إذ لاحت له كوكبة من الفرسان تتوسطها مركبة مرصعة بكرات الفضة ، وعلى واجهتها الخلفية المرتفعة يتذبذب فى وهج الشمس صليب ضخم الحجم هائل المنظر ، من تحته يجلس الزوجان السعيدان فرديناند وإيزابلا ومن حولها صفوة مختارة من الفرسان شاكى السلاح !

وطبقاً للشروط القاسية التى تمهد بتنفيذها هذا الأمير التعس فقد انحط من على فرسه بسرعة البرق

عنـد ما اقتربت منه المركبة الملوكية ، واخترق الصفوف ، ووقف فى قلب الموكب والحزن يحز قلبه حزاً ، وشاهده فى هذه الأثناء فردناند بعمامته العربية البيضاء الممتازة فتريث قليلا فى سيره ليسلب شرفه نهائياً ويحطم كبرياءه العربي ، ونظر إلى أبى عبد الله نظرة فهم مضمونها فانحنى له هذا ، وقد أغمض عينيه ، انحناءة ماعرفتها ملوك العرب منذ الأزل ، انحناءة كان كابوسها الرهيب يتمثل له فى ليـاليه الأخيرة حتى أجهز عليه !

وتأذت أنظار الجمهور من هذه النهاية المؤلمة التى حلت بأمير المؤمنين سلطان غرناطة ومالقة والمرية أبى عبد الله سليل بنى الخزرج !

ثم رفع السلطان رأسه وقد احمرت عيناه وأدلى بيده على جيبه وأخرج مفاتيح المدينـة وقدمها لفردناند قائلا :

« أيها السيد ! هذه غرناطة ملـكا لك ، وماقدر الله كان ، فهأنذا أضع مفاتيح هذا الفردوس بين يديك وأفوض إلى رحمتك وصدق إخلاصك حقوق أبنائى(1) »

ثم أشاح بوجهه وقد تفصد جبينه عرقاً ، وظن الجمهور أن الاسبانى وقد أخذته نشـوة النصر ، وتفتحت له جنان غرناطة ، ستأخذه حنوة على هذا الأمير المنكود فيفيض على قلبه المسحوق العطف وحسن المعاملة ، ولـكن العزة الـكاذبة ، سلبتا منه مميزات النفس البشرية فاستلم المقاليد وتابع سيره فى جموع المسيحية التى قاربت طلائعها أبواب غرناطة بينما الأهازيج تجلجل فى أجواء الفيجا

ووقف سيد الأمس وطريد اليوم ، يندب حظه وملـكه المضاع ، ثم زفر زفرة محرقة مزقت أحشاءه وسقط مغشياً عليه ، وما أفاق إلا على طلقة مدفع أحدثت دوياً شديداً فى سهل الفيجا ...

نهض وقد علقت بوجهه الشاحب حبيبات من الرمل ، أبعدها بردنه ثم أقبل على جواده فرأى هناك بعيداً على قنة برج من أبراج الحمراء صليباً من الفضة الصافية مؤذناً بأفول الهلال ، وعلى برج آخر حلت محل راية القرآن الراية القشتالية تتموج فى الرياح !

ومن هذا اليوم انقطع ذلك اللحن السماوى الحنون الذى ينصب فى أذن الفجر هاتفاً : الله أكبر ... الله أكبر ... ! وارتفعت ضربات النواقيس ، ودق الطبول ، وترانيم القسوس ، وسقطت غرناطة فى أحضان المسيحية !

***

تحرك ابن الأحمر من مكانه ، وامتطى صهوة جواده ، ولحق به أصحابه ، فلفهم الأفق بردائه

وهناك تحت أقدام جبال الثلج اضطجعت قرية صغيرة على سفح من سفوحه قد لفها الضباب برد ته تسكنها بضع عائلات عربية رقيقة الحال ، تشتغل بالزراعة

فنزل ابن الأحمر على عين من عيونها ليقضى (سواد) نهاره هناك ، وعلمت بمقدمه جموع العرب فتوافدت إليه تسكب بين يديه العبرات الحرار ، وتندب ملـكا مزقته العصبية ، وبترته الشهوات والأهواء !

(1) Luisa banal : gliultimi signori dell'al-hambra

لم يمض على وصوله ساعات حتى أقبلت أمه عائشة ، المرأة التى كان لها القدح المعلى فى هذه الفاجعة ، تحف بها جموع الخدم والحشم وقد حملت من أبهاء الحمراء كل ما خف حمله ، وغلا ثمنه !

وآذنت الشمس بالمغيب ، وقبل أن تختبىء وراء خرائب الأبدية ، وقبل أن تعانق فلولها هامات الجبال المكللة بعصائب الثلج ، آوى أبو عبد الله إلى مخدعه يائساً وقد هد الحزن أركان قلبه ، وأكلت نار العذاب فؤاده ، وانطرح على فراشه وعيونه تتفجر بآلام أعظم فاجعة عرفها تاريخ البشر !

* * *

كان ذلك فى اليوم الحادى عشر من شهر يناير سنة ١٤٩٢ ، قبل أن تنفض ذكاء أشعتها الدافئة على أعالى جبال البشرات Alpuxarrat أخذ أبو عبد الله طريقه إلى إفريقيا فى غلس الفجر قبل انبثاق النور ...

ولفهم سهل الفيجا بصمته الرهيب ، فلم تحس لهم حساً ولا جرساً ، اللهم إلا حوافر الخيل توقع اللحن الموجع فى مسمع الطبيعة ، وتملى على الوجود سورة الخلود العربى المخلف فى بلاد الأسبان

وفجأة ، كانت الخيل قد وصلت إلى أعتاب جبال الثلج ، فاقتحمت صخورها ، وتغلغلت فى أحشائها تزهاها مرتفعاتها الذاهبة صعداً إلى أعنان السماء !

وهنا بلغوا الذروة القصوى لهذه الجبال ، وهنا نفث العربى الخزرجى زفرته الأخيرة كأنفاس الصيف ! ...

وأجال الفرسان أنظارهم من على هذا التخم ، فتراءت لهم آفاق الأندلس فى صحوة الفجر تبعث معانى التهليل والتسبيح فى النفوس ... هذه رحاب الأندلس كلها قد بدت كالبساط المدور حالة غارقة فى أمواج الخضرة ، ضاحكة بمفاتن الطبيعة ؛ وهذه خيالات القرى البيضاء قد لاحت من خلال أشجار السرو والصفصاف كاللؤلؤ المنثور ! وتفقد ابن الأحمر مدينة أحلامه ، ليودعها آخر نظرة ، وأحر زفرة ، إلى الأبد ! فرآها غارقة فى سبات عميق وقد غسلت أمواج القمر أبراجها المشمخرة ومنائرها السامقة ، فبدت تتلألأ في ضمير الفجر كشماريخ من فضة تهدلت من أجفان السماء !

أثر هذا المنظر الساحر فى نفسه فزفر زفرة عميقة سجلها التاريخ فى مطاويه ثم هتف هتافاً عاليا :

الله أكبر ..! الله أكبر !..

غرناطة ..! غرناطة !..

وسقط تخنقه العبرات في نحيب طويل !

* * *

فى هذه الأثناء كان قرص الشمس الملتهب قد برز من خلال الجبال مهشما تلك الغمائم الرقيقة السابحة فى هذه الأجواء . وأفاق ابن الأحمر على قبلات الشمس الدافئة وقد تقرحت أجفانه من فرط النحيب بينما كان أصحابه ينشجون نشيجاً مؤلماً يفتت الأكباد ويذيب الجماد ، وتشجع أحدهم وقد آلمته هذه المواقف التى تدمى الفؤاد فتقدم نحو السلطان وعلى شفتيه بضع كلمات تقال فى مثل هذه المناسبات الموجعة تخفيفاً للكرب وترفيهاً للخاطر المشرد :

— صبراً يا عظيم الروح صبراً ... فلبعض

المصائب ثمن ... ! ولها فؤائد فعالة عند ما تتموَّج ذكرياتها فى أذهان الأحفاد ... !

ولكن أبا عبد الله لم يعبأ بهذا ، بل أشار بيده وقد خفضها قليلا إلى غرناطة الساحرة وهى تضحك فى نورَ الشمس وأجاب بكلام رقيق كنوم السحر :

— أواه ! أى نكبة تعادل نكبتى هذه ؟

ثم همز جواده المطهم ، فابتلعته أحشاء الجبال ، وغابت عن عينيه غرناطة ... إلى الأبد !

وركب البحر إلى (مليلا) على الشاطئ الأفريقى وشخص نحو (فاس) عاصمة الايالة المراكشية وبقيت روحه متشحة بوشاح الحزن والكآبة طيلة حياته

***

أما الربوة العالية التى وقف عليها أبو عبد الله وقفته الأخيرة ، وزفر فيها زفرته المشهورة فلا تزال حتى هذه الساعة تؤلف مزيجاً من الخرافة والتاريخ فى صدور الأسبانيول

يمر بها السائر فيحييها فتحتدم فى نفسه ذكريات الماضى المعطر ، ويرنو إليها البحار الأسبانى وهو معلق بسارية سفينته فى عرض البحر المتوسط فيطرق مليا مشغول البال ، مبلبل الخاطر ، ثم يترنم بأغانى شجية ومقاطع رومانسية تتعلق بأخبار العرب وآثارهم ... هذه الربوة مشهورة فى الغناء والتاريخ ! هذه il sospiro del moro «زفرة العربى !»[1]

(القاهرة) محمد عبد الله العمودى
دبلوم دار العلوم

(1) Yoseph mccabe: the splendour of moorish spain

حاجي بابا إصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والثلاثون

الحظ يبتسم في وجه حاجي بابا بك

كانت الهدية الوحيدة التي عدنا بها إلى رئيسنا هي كبشين سمينين ، فلما وصلنا إلى معسكرنا قدمنا نفسينا إلى النائب الذي قدمنا إلى «النازا كشي باشا» وكان إذ ذاك جالساً في خيمته يتحدث مع بعض أصدقائه

قال لشمير بك : « هل جئت بالضريبة أم بالعمدة ؟ ما الذي فعلت ؟ »

قال شمير بك بلهجة عجيبة من التملق لم أتصور أنه قادر على مثلها : « كلا يا سيدي الرئيس لم أجيء بهذا ولا بذاك ، ولكن العمدة أرسل كبشين ليذبحا عند بابك ، ولم يكن عنده غيرهما حتى ولا القوت ، وإذا لم تنجد الحكومة الايرانية هذه القرية بما يكفيها من الطعام فان أهلها سيموتون جوعاً أو سيأكل بعضهم بعضاً »

فصاح الجلاد : « أ هذا هو الصدق ؟ إذا كان عندهم خراف فهل يعقل أنه ليس عندهم نعاج ؟ هل هذا القول معقول ؟ »

قال شمير بك : « إن ظنك صائب يا سيدي الرئيس ولكننا لسنا نتكلم عن الغنم بل عن القمح »

قال الجلاد : « ولكن لماذا لم تتبع الأوامر الصادرة إليك فتأتي بالعمدة وكبار أهل المدينة ؟ أما لو كنت هناك لأحرقت جثث هؤلاء الأوغاد أو لأذقتهم أنواع التعذيب حتى يعترفوا بأن لديهم ثروة مخبوءة »

وقال شمير بك بعد أن نظر إلي مستنجداً : « لقد كنا نريد أن نأتي بهم وشددنا وثاقهم وضربناهم وعنفناهم وحاجي بابا يعرف كل شيء فقد طلب إليهم أن يدفعوا الضريبة نقداً وإلا فانهم لن يجدوا منا رحمة لأن الرحمة ليست من أخلاقنا ، وحذرهم من سطوتك يا سيدي الرئيس قائلا إن شجاعتك لا تعرف التردد ، وقوتك لا تعرف اللين ؛ ولم يزل يصفك أمامهم حتى أغمي عليهم من الخوف »

قال لي الجلاد : « ما الذي أجابوك به يا حاجي بابا ؟ إنني لم أفهم لماذا لم يأت هؤلاء القوم أمامي كما أمرت »

فقلت بمنتهى الخضوع : « وأنا لم أفهم كذلك فان شمير بك هو الذي كان ينوب عنك في هذه المهمة ، وقد تولى الأمر كله بنفسه وقد ذهبت في خدمته فلم يعهد إلي بشيء »

عند ذلك ثارت ثائرة الجلاد وخاطبنا بأشد ألفاظ الاحتقار ونظر إلى أصدقائه وقال : « من الواضح أن هذين الوغدين قد لعبا لعبة هناك .

قل لي يا شمير بك بحق الملح والخبز الذي أكلته في خدمة الشاه ، كم طوماناً أخذت في هذه الصفقة ؟ » ثم نظر إلي وقال : « وأنت يا حاجي لم يمض عليك أكثر من شهر واحد في الخدمة فكم طوماناً ربحت ؟ »

حاولنا عبثاً أن نبرئ أنفسنا وأقسمنا أغلظ الايمان فلم نقابل بغير التكذيب. ثم استدعى الجلاد

نائبه وأمره أن يسجننا حتى يأتى العمدة ورجال المدينة فيواجهوهم بنا

ولما صرت أنا وشمير بك وحدنا عرض على نصف ما أخذه قائلا : إنه لم يرد حرمانى ولكنه كان ينتظر عودتنا ثم نقسم الهدية

فقلت له : « كلا أيها الصديق . لقد جاء هذا الجود بعد فوات الوقت وإذا كنت قد شربت من الخمر المحرمة فأصيب رأسك بالصداع فلماذا تطلب إلى أن أصدع رأسى وأنا لم أشاركك فى شربها؟ حسبى من هذه الرحلة أننى تعلمت درساً وقنعت به ؛ وشكراً لأنك أنت الذى علمتنى هذا الدرس »

فحاول بعد ذلك أن ينال منى وعداً بمساعدته عند ما نواجه بالعمدة وأن أقسم على صحة ما سوف يدعيه . وبالرغم من تشدده تارة ولينه طوراً فاننى لم أنله هذا الوعد . وقال لى إنه إذا جلد فلن يعيش لأنه اشتهر بالقسوة الشديدة فى جلد المحكوم عليهم وإنه لذلك لا يرجو من الجلادين شيئاً من الرحمة ، وأقسم أنه يفضل أن ينكب بأية نكبة على أن يحكم عليه بالجلد

ولما اقترب الوقت الذى سندعى فيه إلى « النازاكشى باشى » لم يوجد شمير بك . وسئلت عنه فقلت : إنه خاف أن يحكم عليه بالجلد ، ولذلك لاذ بالفرار

ولما جئ بالعمدة وأصحابه شهدوا بأنى لم آخذ منهم أى شىء ، وأنى على النقيض من ذلك كنت أحثهم على تقديم هدية ثمينة للنازاكشى باشى وشهدوا ضد شمير بك بأنه ساومهم وقبل رشوتهم

وقد أثرت شهادتهم هذه أثراً حسناً فى نفس النازاكشى باشى . وتداولت سيرتى الألسن فأخذ زملائى ينظرون إلى نظرتهم إلى رجل نزيه لا تستخفه المطامع وقال أحدهم : « إن ذلك يرجع إلى كونه طبيباً والأطباء يعرفون الحكمة وهى أغلى من كنوز الأرض »

وقال آخر : « إنه رجل يقدر العواقب فلا يضع رجليه حيث ينبغى أن توضع رأسه »

وصفوة القول أننى اشتهرت بأننى رجل حريص حذر وأننى — بالرغم من كل ما رأيته من المصائب — رجل حسن الطالع موفق الحظ

وكانت نتيجة هذه الشهرة أننى عينت مساعداً لرئيس الجلادين، وهذا منصب كبير الأهمية كما سيتضح للقراء .

الفصل السادس والثلاثون

رقة القلب لا تغيرها طبيعة المنصب

فى ذلك الوقت نشبت الحرب بين حكومة الشاه وبين المسكوف الذين اعتدوا على الحدود الايرانية فى المقاطعة الواقعة بين نهرى خور وأراس ، وهى مقاطعة يحكمها قائد من خاصة أتباع الشاه ، ورتبته فى الجيش رتبة « سردار » فصد هذا الحاكم الجنود الروسية التى اخترقت حدود بلاده، ولكنه لم يكتف بذلك بل طارد الأعداء فى بلادهم راغباً فى تحقيق أمل قديم عند الايرانيين وهو الاستيلاء على البلاد الجنوبية من القوزاق حتى مدينة تفليس

وكانت الأخبار تصل يومياً إلى الشاه فى قصر السليمانية كما كانت تصله بين حين وحين رؤوس الضباط الروسيين الذين يقتلهم الجيش الايرانى، فكانت تقابل بحفلات عسكرية لأن استمرار إرسالها كان دليلاً على النصر

وأمر الشاه حاكم مقاطعة أزربيجان بأن يمد السردار بقوة عظيمة من جيشه ليستمر فى غزواته للبلاد الروسية

وفى يوم من الأيام جاء رسول من السردار يقود خمسة جمال محملة برؤوس الروسيين، ولكن يظهر أنه جاء فى الوقت نفسه بأخبار مقلقة لأن الشاه أمر بإرسال حملة يقودها النازا كشى باشى وعدد جنودها مائة ألف ومعه ضباط برتبة بكباشى « قائد ألف » ويوزباشى « قائد مائة » وأونباشى « قائد عشرة »

فى ذلك اليوم أنعم على كثيرين من الجلادين ببعض هذه الرتب وأكتظت الطرق المؤدية إلى خيمة القائد بالضباط الرائحين والغادين على عجل لتلقى الأوامر الخاصة بنظام هذا الجيش

وكانت مهمتى من أصعب المهمات لأننى كلفت بقيادة فرقة من الجنود والمرور بها على القرى لتجنيد الشبان من أهلها وتدريبهم على القتال

وكانت هذه المهمة تستلزم نشاطاً شديداً وحركة دائمة ولكن فيها من جهة أخرى نفعاً كبيراً لأنه كان من السهل على فيها أن أحصل على ثروة كبيرة لو أردت ذلك . لكن الموعظة التى استفدتها من حادثة شمير على بك لم تغب عن ذهنى، فعزمت على أن أطفئ نار الطمع بماء الصبر وعلى أن أبقى يدى طاهرة من أموال الناس

وصلت بفرقتى إلى مدينة أريفان قبل وصول الجيش ببضعة أيام وهناك وجدت السردار وكان قد وصل إلى مدينة جافيشلو ولكنه عاد فتقهقر إلى أريفان منتظراً وصول المدد . وفى هذا الوقت وصلت فرقة أخرى من الجيش الفارسى بقيادة ولى العهد إلى مدينة جانجا التى حاصرها العدو

ولما تداول السردار مع نازا كشى باشى يوم وصول الأخير اتفق رأيهما على بث الجواسيس فى الجهات القريبة من الميدان لترقب حركات الروس

وجعلت رئيساً للجواسيس المعينين من قبل نازا كشى باشى وجعل رجل آخر رئيساً للجواسيس المعينين من قبل السردار ولكن القسم الأخير لم يكن له مثل درايتنا بهذه البلاد فكلفوا باستشارتى وجعلت فى الواقع رئيساً على الفرقتين، فجمعت الرؤساء حولى بعد صلاة العشاء وألقيت عليهم أوامرى ثم سرت بهم إلى قرية « اشتارك » وسرنا فى أثناء الطريق إليها بقرية ايتشميارك وهى قاعدة البطريركية الأرمنية

وكان وصولنا إلى جسر اشتارك قبيل الفجر؛ وكنا نسير على الشاطئ الصخرى للنهر بين المرتفعات العالية . وكانت القرية واقعة خلف تلك المرتفعات . وبالرغم من أن نور الفجر لم يكن قد سطع فى هذا الحين فقد كان من فى القرية يستطيعون رؤيتنا بين الآكام المتخلفة عن بقايا الكنائس الأرمنية الكثيرة فى هذه البقعة من إيران

وقد نبهت حوافر الجياد فى عدوها كلاب القرية فأخذت تنبح ونحن لا نزال بعيدين، فلما ازددنا من القرية دنواً سمعنا رجلاً يقول للآخر : « يا على ! يا على ! ألا ترى شبحاً أبيض بالقرب من الكنيسة ؟ »

وأشار إلى مكاننا

فأجابه الآخر : « نعم هذا هو الغول الذى اعتدنا رؤيته فى هذه الساعة . إنه يبحث عن جثة ليأكلها »

سرنا فى الطريق ونحن نسمع هذين الرجلين

وغيرها يستميذون بالحسين وبالأئمة وبالنبي وبعلي . وعلمهم أحد الموجودين آية ، قال : إنهم إذا تلوها هرب الغول . فتلوها ولكنهم ما زالوا يرون شبحاً غامضاً ، فأكد ذلك الرجل أن الشبح لو كان غولاً لاختفى بعد تلاوة الآية الشريفة ، وقال وهو يعدو بجواده : انتظروني حتى أراه وأخبركم بحقيقته

وجرى في غير اتجاهنا ثم عاد يقول : إن الذي كانوا يحسبونه غولاً لم يكن إلا امرأة على وجهها نقاب أبيض وهي تحاول الاختفاء في أنقاض كنيسة أرمنية

عرفت أنهم لم يكونوا ناظرين إلينا . وذهبت إلى المكان الذي أشار إليه لأرى تلك المرأة ذات النقاب الأبيض لعلها ذات صلة بالمهمة التي نيطت بنا وأمرت رجالي أن يتبعوني عن بعد

وجدت في ركن بين جدارين مهدمين من هذه الأنقاض امرأة يظهر من اصفرار وجهها أنها مريضة وكان معها رجل ، وكلاهما في ميعة الشباب ؛ والفتاة جميلة فاتنة والفتى قوي تبدو عليه مخايل القوة والنشاط والرجولة ، وهو يحمل إلى جنبه سيفاً ولاحظت أن ثياب الفتاة ويديها مخضبة بالدم ، وعرفت أن الرجل ليس عدواً لها لأنه كان يضمد جراحها ويواسيها . وبالرغم من أن عملي ومهمتي كانا يستلزمان قسوة في القلب فقد أخذتني رحمة بهما واحترمت حزنهما وقلت : « ما الذي تفعلانه هنا ؟ وإذا كنتما غريبين فلماذا لا تذهبان إلى القرية ؟ »

فقال لي الشاب : « إن كنت رجلا ذا قلب فاحم هذه الفتاة ؛ وإذا كنت مرسلا من قبل السردار لاعتقالي فاني لن أقاوم ولكن الفتاة تحتضر فارحمها »

قلت له : « من أنت ؟ إن السردار لم يقل لنا شيئاً بشأنك . من أين جئت ؟ وإلى أين تريد الذهاب ؟ »

فقال لي الشاب : « إن قصتي طويلة محزنة ، فاذا ساعدت على نقل هذه الفتاة المسكينة إلى حيث تأمن ويعنى بأمرها فسأقص عليك قصتي . وهي مصابة بجراح شديدة ولكنها ستشفى منها إذا صادفت عناية . أحمد الله على أنك لم تكن من جنود السردار وأرجو أن تعطف عليّ لأنك ستجد بعد أن تسمع قصتي ما يحملك على مساعدتي وإنقاذي »

لم أكن في حاجة إلى استجدائه رحمتي لأنني أشفقت عليه وعلى المرأة التي معه ساعة وقع نظري عليهما وقلت له إنني أجيب مطلبه فيما يتعلق بالفتاة وإنني سأخبره عن رأيي فيه بعد أن أسمع قصته

ثم ساعدته على تضميد جراح الفتاة وأمرت واحداً من جنودي بأن يترجل عن جواده وحملناها عليه وأخذناها إلى القرية ثم درنا على منازل أهلها حتى توسمنا في أحدهم المروءة والانسانية فعهدنا إليه بعلاجها ووجدنا من الرجل قبولا حسناً وشهامة ، وقابلتنا زوجته فقالت إنها تسر من أداء هذه الخدمة في علاج المريضة ، وعلمت من ذلك الشاب أن صاحبي المنزل أرمنيان مثله ومثل المريضة التي معه وأنه مسرور لذلك فهو لم يكن يتوقع أحسن منه

الفصل السابع والثلاثون

يوسف الأرمني وزوجته مريم

كان في عزمي الذهاب إلى مرتفعات أبيران حيث الهواء بارد طلق وحيث المرعى معشب خصب صالح للجياد ، ولكنني علمت أن قبائل الرحل التي كنت أحسبها معسكرة في مكان معين قد انتقلت

إلى تلك المرتفعات وما يليها من الجبال خوفاً من الحرب الناشبة، فعزمت على أن أظل في أشتاركحتى تخف حرارة النهار

وانقسم رجالي فذهبوا إلى أجزاء مختلفة في المدينة فذهب البعض إلى جهة الجسر ليطعموا جيادهم من الحشائش الطويلة النابتة على الشاطئ، وذهب فريق آخر إلى طاحون بجانب النهر ليستظلوا وللغرض السالف أيضاً . وجلست في غرفة من أنقاض إحدى الكنائس قائمة على قمة عالية لأشرف على المنظر كله ولأرى أي شبح يبدو من جهة الحدود الروسية

وقد أثر الهواء الطلق في نفسي فنمت ساعتين ثم قمت فاستدعيت الشاب الأرمني وطلبت إليه أن يقص على قصته خصوصاً ما كان متعلقاً بجيئه مع السيدة إلى هذا المكان الذي قابلتهما فيه

وكانت القوة والحياة قد ظهرتا على وجهه وتبينت من مخايل النبل البادية عليه أنه لم يقل غير الصدق وهذا هو مجمل القصة على لسانه :

« أنا أرمني المولد مسيحي الدين واسمي يوسف وكان أبي رئيساً لمدينة جافيشلو التي أكثر سكانها من الأرمن وهي قريبة من مجرى نهر « بجباكي » وتبعد عن هذا المكان ستة فراسخ وحول هذه المدينة أراض خصبة مزروعة وهي غنية بمحصولاتها جميلة المناخ هادئة السكان

وكنا كسائر أهلها سعداء على فقرنا بما رزقناه من جودة الصحة ومنا فريق يسكن في الجبال خوفاً من مظالم الحكام الذين لا ينجو من بطش أيديهم كل أهل المدن

وعاداتنا كلها بسيطة ونظام حياتنا ديني بحت ولي عم من الأساقفة في بطريركية ابتشميازين، وخال وهو قسيس القرية ، ومن أجل ذلك أراد والداي أن يجعلاني قسيساً

ولما بلغت العاشرة من العمر أرسلت إلى الكنيسة لأتعلم الكتابة والقراءة وأصول الدين وكان في الكنيسة كتب كثيرة أخذت أقرؤها واحداً بعد واحد حتى أصبحت القراءة أحب عاداتي وألزمها ؛ وصرت أشتري كتباً من أنواع مختلفة فلا أستريح منذ يصل إلى كتاب حتى آتي على آخره

وكانت أكثر هذه الكتب دينية، ولكنني قرأت بعض كتب التاريخ الأرمني فتنبه إحساسي بعاطفة الوطنية وعرفت أن بلادي كانت أمة وكان لها ملوك اضطروا العالم إلى احترامهم؛ وتأملت في حالتنا اليوم فحزنت ووددت أن يتاح لنا من يبث بيننا الدعوة ويجمع شملنا للتخلص من نير الحكم الأجنبي وشغلني العزم على أن أعمل نحو هذه الغاية عن الواجبات الدينية التي كرست حياتي لها باعتباري قسيساً

وفي هذه الأثناء نشبت الحرب بين روسيا وبين فارس وكانت بلادنا في وسط ميدان القتال لوقوعها على الحدود فانتقلت من الكنيسة إلى قريتي لأكون بين أهلي الذين وجدتهم شديدي الخوف والقلق بسبب هذه الحروب لأن كلا الفريقين المتحاربين (فارس وروسيا) جدير بأن يخاف

ولم تكن نتيجة الحرب لتفيد إحدى الدولتين فائدة كبرى ولكنها كانت شديدة الضرر علينا ، لا لخوفنا من القتل فقط بل لأن الجيوش المحاربة من الجانبين كانت تفسد علينا زراعتنا فتسلب الناضج من الحبوب وتطعم جيادها بما لم ينضج بعد

وكان الفلاحون معرضين دائماً للاعتقال والأسر؛ ولما خشينا أن نموت من الجوع بسبب هذا الاعتداء

على المزارع وصلنا الليل بالنهار فى خدمة الأرض لنعوض ما فقدناه ، ولكن فلاحينا كانوا يخرجون إلى الحقول والفؤوس فى أيديهم والسيوف إلى جنوبهم والبنادق محشوة بالبارود معلقة على ظهورهم ، وكنا كلما رأينا أجانب مقبلين نحونا تجمعنا وأظهرنا استعدادنا للدفاع

وبقينا على هذه الحال عدة أعوام استطعنا فيها أن نحتفظ بالقوت بالرغم من القليل الذى كان يؤخذ على الرغم منا

ومنذ عامين ذهبت فى جملة من ذهب إلى الحقل من أبناء قريتى لمراقبة الحصاد عند جنيه كالعادة حاملا بندقيتى وسبقى فرأيت جواداً يعدو وعلى ظهره رجل فارسى ووراءه فتاة أسيرة

وعند ما وقع نظر الفتاة على صاحت مستجيرة مستنجدة فركبت جوادي وركضت نحو الفارسى شاهراً سيفى فى وجهه فلم يستطع الرجل بالنظر لوجود المرأة خلفه أن يجرد سيفه ويهاجمنى فاختار أن يسرع حتى يفر منى ، ولكننى أسرعت فأطلقت من بندقيتى رصاصة فى الهواء ففزع جواده لأن الرصاصة كانت قريبة من عينيه وشب فصرخت الفتاة المردفة خلف الفارس وسقطت عن الجواد

وكان الرجل فى هذه الحالة يستطيع أن يقاتلنى إما بالسيف أو بالبندقية ولكنه وجد بندقيتى مصوبة نحو رأسه فرأى الفرار أسلم ونجا بنفسه ؛ وذهبت إلى تلك الفتاة التى كانت منقبة فساعدتها على الوقوف ووجدتها جريحة لسقوطها عن الجواد

وبعد إسعافى لها وتأكدى من أنها لم تصب بكسر أورض تبينت أنها أرمنية مثلى ووجدتها أجمل شيء وقع نظري عليه وهى لا تتجاوز الخامسة عشرة من العمر . وإذا نسيت شيئاً فلن أنسى شعوري بالحب وبالسرور وبالشفقة ساعة أبصرتها وأحسست بأن مشاعرى فى هذا الحين جديدة كلها ونسيت كل ما كان لى فى الحياة من غاية أو غرض إلا السهر على ما فيه خير هذه الفتاة ورضاها

وجرت أول كلمات قالتها الفتاة فى مجري دمى من العروق ثم بكت بكاء شديداً أخذت بعده تتمالك نفسها شيئاً فشيئاً

ولما علمت أننى من أبناء جنسها وأبناء دينها وذكرت أننى منقذها أخذت تشعر نحوى شعوراً مختلفاً ، وأملى على غرورى أن إحساسها نحوى كان مثل إحساسى نحوها

وشجعنى هذا الغرور على أن أكشف النقاب عن وجهها وكان ذلك منى جريمة لم تغتفرها الفتاة لأن الفتيات الأرمنيات يحتفظن به كل الاحتفاظ أمام الأجانب عنهن ويعددن السفور فضيحة منكرة

ولما رأيت غضبها وقفت أمامها وقوف المجرم ولكننى اعتذرت بأن وقوعها عن ظهر الجواد قد حبس أنفاسها وبأنه لولا نزع هذا النقاب عن فمها وأنفها لاختنقت ، لكن هـذا الاعتذار لم يصادف قبولاً عندها . ولم يكن فى استطاعتى إقناعها بأن رؤيتى وجهها كله أمام هذه الضرورة لا تشينها ولا تلحق بها عاراً لأن ذهنها كان ممتلئاً بهذه الفكرة ، ثم أقسمت لها بأن رؤيتى إياها ستبقى سراً أكتمه ما دمت على قيد الحياة ، فاطمأنت وتعزت ثم طلبت إليها أن تقص قصتها على وتخبرنى عن الرجل الذي كان من حسن حظى أننى أنقذتها من بين يديه فقالت : « إن كل ما أعرفه عن الرجل أنه فارسى

ولم أره قط قبل هذه المرة ولم يختطفني إلا لكي يبيعني في سوق الرقيق .

ومنذ أيام قليلة حدثت موقعة بين الفارسيين وبين القوزاق ، فطرد الفارسيون القوزاق من قرية أريتان وهي القرية التي أنا منها وابتهجوا بذلك ابتهاجاً عظيماً ، وصار الفرس يعتقلون النساء القوزاقيات ويرسلونهن إلى البلاد الأخرى لبيعهن في أسواق الرقيق . ويظهر أن الوغد الذي اختطفني أراد بيعي على أني قوزاقية

ذهبت في الصباح كالعادة لأملأ إناء من البئر فلقيني وشرع في وجهي سيفاً وهددني بالقتل إذا لم أتبعه حيث شاء دون أن أحدث ضجة فأطعته مكرهة وأركبني جواده .

وكان الفتيات في ذلك الوقت يبصرننا فذهبن إلى المدينة ركضاً واعتمدت على الضجة التي سيحدثنها هؤلاء الفتيات بعد عودتهن . ولكنه لم تمض بضع دقائق حتى كنا بعيدين عن المدينة بسرعة الجواد بين النجاد والوهاد التي يقل فيها مرور الناس ، وكنت أنت أول إنسان رأيته واستنجدت به على الرغم من طول المسافة التي قطعناها »

لم تكن الفتاة تصل إلى هذا الحد من قولها حتى بدا لنا عدة أشخاص أحدهم على ظهر جواد والباقون مشاة ، وكانوا مقبلين نحونا على جناح السرعة وقد عرفتهم الفتاة عند ما رأتهم فتهلل وجهها استبشاراً وصاحت : « هذا أبي وإخوتي أوفان وأغوب وأرتوان ومعهم أعمامي أيضاً »

وكنت أخشى أن يكون في الأشخاص المقبلين أحد يستميل عطفها عني ولكنني حمدت الله إذ لم يكن فيهم غير الأقارب

ولما دنوا أعربوا لها عن ذعرهم لما علموا أمر اختطافها وقالوا إنهم يحمدون الله إذ لم يضلوا الطريق

وبعد أن وصفت لهم كيفية اختطافها قالت في حياء واضطراب إن الفضل في نجاتها يرجع إلي . فاتجهت إلي عيونهم وبدا عليهم الاهتمام بمعرفة حقيقتي

وقال لي أبوها : « من أين أنت يا بني ؟ »

قلت : « أنا ابن رئيس قرية جافيشاو »

فأجابني : « أنت إذن ابن صديقي وجاري ولكنني لم أرك من قبل . لعلك الطالب الذي كان يتعلم في الكنيسة ثم عاد بعد نشوب الحرب لمساعدة أهله ؟ »

قلت : « نعم أنا هذا الطالب » فرحب بي ودعا لي وقال إنه وأسرته مدينون لي بالشيء الكثير ، وأصر على أن أذهب معه لأكون في ضيافته ، وقال : إن أبناء أسرته يسرون بأن يحملوني على رؤوسهم ويقبلوا قدمي لانقاذ صريم من البيع في سوق الرقيق فتصبح طول عمرها في أسر المسلمين »

ثم حياني أعمامها بكلمات رقيقة وألحوا على أن أرافقهم إلى القرية فلم أستطع مقاومتهم لشدة تأثري بما أبدوه من العطف ولأنني كنت أريد أن أرى صريم في دارها فقبلت الدعوة وسرنا جميعاً إلى قريتهم

ولما وصلنا إلى تلك القرية وجدنا النساء والأطفال عند بابها منتظرين عودة صريم مع من ذهبوا للبحث عنها . ولما رأوها تعود معهم أبدوا من مظاهر الفرح ما ليس في وسع كاتب أن يوفيه حقه من الوصف .

وأعيدت على مسمعهم قصة اختطافها وإنقاذها

وبمثل سرعة البرق انتقلت القصة من فم إلى فم وزيد عليها من المبالغات ما لا بد منه في مثل هذه الحالة ، وكان مجمل القصة كما رويت للمرة الأخيرة : أن شيطاناً ذا رأس من الحديد وحوافر

كحوافر الخيل ومخالب كمخالب الأسد اختطف الفتاة فوضعها على جواد من جياد النار ينهب الأرض فى قفزه ، ويكاد يبلغ السماء بوثبه ، وجري بها فراسخ وأميالا ، فهبط من السماء ملاك من ملائكة الرحمة والعن الشيطان لمنة حاقت به ، فشلت يده وأخرست لسانه وأنقذت الفتاة من مخالبه بعد أن أحالته رماداً. ومازال هذا الملاك الحارس يحمى الفتاة حتى وصلت إلى أهلها . ثم أشير إلى وقيل : إننى هذا الملاك . فاتجهت إلى عيون أهل القرية جميعاً . ولكن حدث لسوء الحظ أن فتى من المزارعين كنت أراه كثيراً فى الحقل نظر إلى وقال لأهل القرية : إنني لست ملا كا ، ولكننى يوسف بن رئيس قرية جافشيلو ، فمدت فى نظرهم إنساناً هالكا كما كنت . ولكننى مع ذلك ظللت أعامل معاملة ممتازة عن التى يعاملها سائر الناس خصوصاً من أهل مريم الذين لم يتركوا وسيلة إلا أعربوا بها عن شكرهم وعن عجزهم عن إظهار كل ما تكنــه جوانحهم نحوى من الشكر وعرفان الجميل

ولكننى لم أعد أبصر مريم مرفوعة النقاب ، فقد مضت تلك اللحظات الهنية التى مليت فيها بحسنها ، ولكننى قلت فى نفسي إن هذه الصلة لن تنقطع بل ستعود وستبقى مستمرة طول الحياة، ولن تكون فى الحياة قوة تستطيع الفصل بينى وبينها . إننى لم أكن أعرفها ولم يكن بينى وبينها أية علاقة؛ فالقوة التي ساقتنى إليها وساقتها إلى قوة مريدة رأت جمع حظى وحظها والتوثيق ما بين نفسى ونفسها . ولو أن هذه القوة كانت تريد غير ذلك لتركت الفارسى الذى اختطفها يذهب بها إلى حيث شاء . وبالرغم من أن حديثى مع مريم كان قصيراً فقــد كان الحديث الذى دار بين عينى وعينيها طويلا ممتعاً يدل على أن شمورها نحوى مثل شمورى نحوها . وبلغ بى الزهو إلى حد تمنيت معه لو أن الفارسى الذى اختطفها وأنقذتها منه كان عشرين فارساً ليكون لى حق المفاخرة والتباهى ، ولكننى عدت فذكرت أننى لست إلا أرمنيا حقيراً من شعب حقير وأننى لست من الفوة بحيث يحق لى أن أتمنى هذا التمنى . وحسبي أن أطرد الذئب عن أغنامى

أمضيت طول هذا اليوم فى قرية « جلكو » وهى القرية التى فيها أهل مريم . وأقيمت لى وليمة ذبح فيها كبش سمين ودعى كثيرون من الأصدقاء والأهل . .

وفي اليوم التالي عدت إلى أبوى اللذين أزعجهما غيابى عنهما واللذين أنصتا إلى قصتى بكل ما كنت أرجوه من الاهتمام، وكان اشتغالى بهذا الحب أكبر من أن يسمح لى بالتفكير فى أى شأن آخر وقلت لهما : « إننى بفضل الله وفضلكما أصبحت قوى الدراعين وبلغت من العمر ما يحق لى معه أن أنفرد بالنظر فى أمر نفسي وأريد أن أتزوج وقد هيأت لى العناية الالهية طريق الزواج »

ثم طلبت إليهما أن يخطبا مريم من أبويها ثم قبلت يدى والدى ووالدتى ، وكان جوابهما أن الزواج أمر كبير الأهمية خصوصاً فى هذا الزمن الصعب، وأن الأسرة فقيرة لاتستطيع القيام بنفقات الزواج، وأنه من الضرورى شراء ثياب وخاتم وشمع وحلوى وفراش وأغطية للفراش واستئجار مغنين والدعوة إلى وليمة ، وأن كل ذلك يتطلب من المال مالا يوجد منه شيء .

قلت : إن هذا كله صحيح ؛ فالمال غير موجود

والزواج لا يحسن أن يتم بغير هذه التكاليف محافظة على كرامة أسرتي وإظهاراً لتقديري أسرة العروس. ولكن فى وسعى أن أقترض لأن لى أصدقاء فى الكنيسة وسأعمل بجهد مضاعف حتى أتمكن من الوفاء ولن أعيش عيشة المسرفين حتى لا يصبح وفاء ديني مستحيلاً .

وقلت لهما إن فى عزمى الاشتغال فى خدمة واحد من التجار والسفر معه أو عنه إلى الاستانة أو استرخان ، وفى كسب هذا العمل ما يقوم بنفقاتى ويفى ديونى .

ومجمل القول أننى أقنعت والدى بمقدرتي على الكسب وعلى تحمل مسئوليات الزواج وقد وعدانى بأن يخطبا مريم من أبويها . وتحدد يوم قريب لسفر أبي وعمى القسيس ورجل من المتقدمين فى السن من أهل القرية — إلى قرية « جوكلى »

وفى نفس هذا اليوم ذهبت إلى تلك القرية منتحلاً سبباً من الأسباب حتى لا تفاجئ مريم وأهلها بهذه الخطبة

وقد استقبلت أسرة الفتاة رجال أسرتى أحسن استقبال، وفتح باب الكلام فى هذا الموضوع فأبدى أهلها رضى واغتباطاً، وانتهزوا هذه الفرصة فقدموا لضيوفهم أكثرمما اعتادوا شربه من العرق ، وهو الشراب المفضل عند الأرمن؛ وتم الاتفاق على إتمام المراسيم الشرعية للزواج بعد أن يتم الجهاز

وبعد ثلاثة أيام ذهبت أمى وثلاث من نساء القرية وخالى القسيس إلى جوكلى فكان استقبالهم أحسن من الاستقبال الأول وتم الاتفاق معهم على جانب آخر من التفاصيل وعرضت أمى بالنيابة عنى أن أقدم للعروس كيت وكيت من الثياب وكذا وكذا من المصوغات ومناديل لليد وأخرى للرأس وجوارب وحذاءين وسلسلة ذهبية للعنق وخمسين قرشاً فارسياً للمصاريف النثرية وأن يكون سلسلة العنق طومان فارسى .

وبعد أن استشار أهل العروس بعض صواحبهن قبلن ما عرضته أمى ، ولكن عجوزاً فيهن كانت خادمة فى بيت من البيوت الايرانية اقترحت اقتراحاً أثار المناقشة وهو أن أقدم مقداراً من المال لا يتفق على تحديده وإنما يترك لاختيارى جرياً على العادة الايرانية

فقالت أمى : إن هذه العادة ليست من عوائد الأرمن ولا يحسن بنا اتباعها . وقد أدت المناقشة إلى ارتفاع الصوت فى المخاطبة من الجانبين بالرغم من تأكيدى على والدتى ألا توجد أو تعين على وجود شيء من المصاعب . ثم وقف البحث فى ذلك إلى مقابلة أخرى مع الرجال

ودعيت وخالى فذهبت، وقد نصح لى الأصدقاء ألا أضحك أو أبتسم فى أثناء الحديث لأن ذلك يعتبر عند الأرمن فألا سيئاً على الحياة المقبلة

ذهبت فوجدت أمى ومن معها وأمامهن أم العروس وإلى جانبها صواحبها . ودخلت مريم فى اللحظة التى دخلت فيها فقدمت أمى لها خاتماً (وكان لسوء حظى من النحاس) فوضعته في أصبعها وقدم النبيذ إلى القسيس فشرب جرعة منه وقال : إن الخطبة أصبحت معقودة بين مريم وبينى وهنأنا الحاضرون فكان سرورى عظيما بقبول هذه التهنئه . ورأيت على وجه خطيبتى كل علائم السرور والفرح وربما كنا أسعد المتزوجين فى هذه الساعة التى تم فيها عقد الخطبة

ثم عادت أمي ومن معها إلى القرية ، وبقيت للاتفاق على سائر المسائل التي لم يكن تم الاتفاق عليها . وعزمت على أن أجيب بالقبول على كل ما يطلب مني مهما كان الغلو فيه والسرف

ولما تكلمنا عن المال وجدت جملة ما يطلب مني على أجزاء قد بلغت مبلغاً معضلا فوافقت وأنا أفكر في اقتراض البقية من شخص آخر غير الذي أزمعت الاقتراض منه إلى حد معين

ولكنني دهشت عنـد ما رأيت أبي يخرج من جيبه كيساً من النقود ويقدمه لأهل العروس ويناولني عشرة طومانات وهو يقول لي : « إن رئيس قرية جافشيلو لا يضن على ابنه بشيء في يوم عرسه . خذ هـذا يا يوسف وقدمه لزوجتك زيادة على ما اتفقتم عليه »

عند ذلك لم يسعني إلا السجود وتقبيل يديه

وتأثر عمي من موقف أبي وموقفي فباركني وقال لي : « إن الكنيسة الأرمنية فقيرة وإن رجالها أشد فقراً؛ ولكن خذ هذا واشتر به شمعاً لعرسك » وأعطاني عشرين عباسية فضية

وكذلك فعل سائر أقربائي حتى لم تعد ضرورة تدعو إلى الاقتراض ؛ وزاد عندي من المال ما يكفي للانفاق مدة بعد القيام بكل النفقات المطلوبة. فشكرت لهم وعزمت على السفر إلى إيفان وهو المركز الذي تتبعه القرية لكي أشتري منه الثياب اللازمة

لكنني كنت أجهل فن البيع والشراء خصوصاً ما كان متعلقاً بثياب النساء ، فعزمت على أن آخذ مي أمي وأن أركبها حماراً وأن أسير على قدمي . ولكن المسافة كانت بعيدة ولا بد من النوم ليلا في أثناء الطريق فاعتمدت على أن أجد مصادفة في أثناء الطريق بعض رجال القبائل الراحلة فننام في خيامهم

وقد اشتهرت هذه القبائل بكرم الضيافة على الرغم مما هو معروف عنها من الشر والميل إلى النهب والسلب

سافرت وكانت أمي على ظهر الحمار وكنت أسير على قدمي والبندقية على ظهري والسيف إلى جنبي

فلما وصلنا إلى مرتفعات أبيران وجدنا خياماً كثيرة بيضاء وفي وسطها خيمة كبيرة حسنة الشكل هي خيمة الزعيم . وأخبرنا فارسي قابلناه في الطريق أن هذه خيام سردار إيفان وجنوده وقد عسكروا هنا استعداداً للحرب مع الروس

أزعجنا هذا الخبر ورأت أمي أن نعود إلى قريتنا وأن نؤجل الزواج الآن . ولكن حبي كان أكبر من أن يسمح لي بالاصغاء إلى مثل هذا الرأي فحثثتها على الاسراع حـتى نتمكن من العودة سريعاً . وأسرعنا في اليوم الأول حتى بدا لنا في نهاية هذا اليوم دخان إيفان

وقضينا الليـلة تحت صخرة بارزة واستأنفنا السير في فجر الغد فوصلنا إلى إيفان آمنين

وذهبت أمي لشراء الملابس في يوم وصولنا؛ أما أنا فتجولت في الأسواق مصغياً لأحاديث الذين يسيرون فيهـا فسمعت إشاعات كثيرة عن الحرب وعن المواقع التي ينوي السردار أن يقوم بها ضد الروس . وظهر لي أن هذه الحرب ستكون من أشد الحروب التي اشتركت فيها فارس لأن عمال الذخيرة كانوا يواصلون الليل بالنهار في صنع قنابل من نوع لم يسبق صنعه في البلاد الفارسية

وخطر لي خاطر كدت أبدأ في تنفيذه وهو أن أطلب بواسطة الكنيسة من السردار أن يحمي قرانا

الأرمنية . ولكن قليلاً من التفكير حملني على العدول عن هذا الخاطر وقلت إن حماية الله وسيوفنا خير من حماية السردار وجنوده

وعدت أنا وأمي من نفس الطريق الذي ذهبنا منه ولكننا كنا أبطأ في السير لعدم الحاجة إلى السرعة ولأنني كنت أحمل عبئاً ثقيلاً من الثياب . ولم يحدث لنا أي حادث يستحق الذكر حتى وصلنا إلى مرتفعات جافيشلو فرأت أمي خيمة فأشارت إليها وسألتني عنها ولم أكن إذ ذاك أفكر في أي شيء غير العرس ومعداته فكان جوابي لها : « لعل أهل العروس سيقيمون لنا مأدبة في هذا المكان »

قالت : « ما هذا القول يا يوسف ؟ هل جننت ؟ يظهر أن الروسيين قد احتلوا قريتنا » فلم أجبها

ولما وصلنا إلى القرية وجدت ظنها كان صائباً فان فرقة صغيرة من الجنود الروسية قد احتلتها وألزمت كل أسرة في المدينة أن تقدم الطعام لواحد من الجنود . ولما كانت أسرتنا أسرة الرئيس فقد كان ضيفنا هو قائد الفرقة ؛ ولقد كان من سوء حظي حدوث ذلك في وقت العرس ، وقد شكوت أمري إلى بعض أصحابي في جوكلي التي لم يكن الروسيون قد احتلوها ولكن أهلها شاركونا خوفنا لما علموا بما حدث عندنا

وقابلت مريم بالرغم من أن عوائدنا لم تكن تسمح بالتحدث معها في الفترة ما بين الخطبة والزفاف ، ولكن الحب يغلب كل عادة ويتغلب على كل المصاعب قابلتها وتحادثت معها مراراً وكنت على وشك الجنون من حدوث هذه الحوادث التي من شأنها تأخير زواجنا . وكانت القرائن كلها تدل على قرب حدوث نكبة عظيمة لأن الجيشين المتحاربين كانا قريبين . وكان من المنتظر أن تدور رحى الحرب فوق رؤوسنا

وكان صبري يقل في كل يوم وحبي يزداد ولكنه كان من المحال إتمام الزواج في هذه الظروف ولذلك كان علي أن أصبر على كره مهما كلفني الصبر

مضى أسبوعان من يوم عودتنا ولم يحدث حادث جديد وكانت علاقتنا بضيوفنا الروسيين حسنة جداً . وكانت الروابط التي تربطنا بهم كثيرة فهم مسيحيون مثلنا ينادون عند الفزع الاله الذي نعبده ويشكرون عند النصر الذي نشكره ويصلون في الكنائس التي نصلي فيها ويشربون معنا الخمر ومجالسها كما يعلم شاربوها تقوي الروابط

وكان قائد الفرقة الروسية شاباً حسن الأخلاق شديد الرغبة في معرفة أحوالنا وعوائدنا كثير الميل إلى محادثتنا في كل موضوع نحب أن نتحدث فيه . وقد كلمته في موضوع زواجي فأصغى إلي باهتمام شديد ووجدت فيه صديقاً صادقاً . وكان مما قاله لي : « ولماذا تؤخر الزواج ؟ اقبل نصيحتي وتزوج الآن فاننا إنما جئنا لنحميكم ولم يظهر الفارسيون إلى الآن ما يدل على أنهم سيقدمون خطوة واحدة

ووعدني فضلاً عن ذلك بأن يقدم لعروسي هدية هي عقد من الذهب الروسي وبأن يعيرني جواده لأركبه في يوم الزفاف ولم يكتف بحديثه معي بل حادث أهل العروس في هذا الموضوع فأقنعهم بتعجيل الزواج وتحدد يومه بواسطته . ولقد كان اهتمامه الشخصي باتمام هذا الأمر يكاد يثير ريبتي ويحمل على الغيرة منه لولا أنه كان قبيح الوجه إلى درجة عظيمة فلا خوف من أن تميل مريم إليه لأنه خير لها أن تحب قرداً بدلاً من أن تحب ضابطاً كهذا

وذا وجه كبير العظام وحجرتين عظيمتين في مكان عينيه ، كبير الأنف أقناه ، هيئة وجهه كهيئة البومة ، وكانت شفته العليا غليظلة وفكه الأسفل صغيرا وذقنه رفيعة محدبة

قلت في نفسي : « محال أن تحب مريم مثل هذا الوجه وهي أشبه بأن تحب عملاقاً فارسياً من حبها مثل هذا الروسي

ثم وازنت بينهما وبين نفسي فأرضيت غروري بأن قلت إنني أجمل منهما وإنها لن تحب غيري

قبل الزفاف بليلة أرسلت الثياب وغيرها من الهدايا إلى قرية العروس في موكب يتقدمه الموسيقيون وهم يكثرون في كل مدينة وكل قرية ، وقد أعارنا الضابط الروسي طبلة من طبول الجيش زيادة في إكرامنا

وبعد إرسال الهدية بساعات قليلة ذهبت إلى تلك القرية لكي آخذ الهدية التي تهديها العروس وفقاً لعوائدنا

وكانت هديتها لي مسدسين مصنوعين في القوزاق وقد كانا مملوكين من قبل لأحد أعمامها وهو ضابط في جيش الوالي الفارسي لتلك الولاية قبل أن يستولي عليها الروس

وفي اليوم التالي وهو الذي كنت أعده أسعد أيام حياتي وكنت أنتظره بصبر نافد استيقظ كل أقاربي مبكرين . وكان الجو ينذر بهبوب عاصفة والسماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الهواء كان معتدلا نقياً لأن المطر الذي هطل في الليلة السالفة نقاه وطهره . وأرسل إلى صاحبي الضابط جواده في ذلك اليوم ولبست ثيابي الجديدة وتحليت بكل ما أملك من الخناجر والمسدسات وعلب الخرطوش وسار معي أصحابي من الأرمن والضابط الروسي ، وكانت الموسيقى أمامنا تعزف بألحانها الجميلة . ولما وصلنا إلى منزل العروس أديرت علينا المرطبات ووفد علينا أهل القرية جميعاً لتهنئتنا

ولما حان وقت عودتنا مع العروس إلى قرية أبي ألبست العروس ثياباً حمراء من مفرق الرأس إلى القدم . وأركبت جواد أبيها وسار حولها إخوتها وأعمامها ووضعوا في يدها طرفاً من حبل أمسكت أنا بطرفه الآخر وأنا على جوادي وفقاً للعادة حتى وصلنا إلى الكنيسة

وصحب الموكب كل من له علاقة به من قريب أو صهر أو صديق وكان بعضهم مشاة والبعض على ظهور الخيل وكانوا يهتفون ساعة ويغنون ساعة

وكان عمي يقود هذا الموكب . ولما وصلنا إلى القرية وجدنا فرقة من الجنود الروسية في انتظارنا كما أمرها الضابط المتولي قيادتها وهو صديقي الذي رافقني في الموكب ومشت أمامنا هذه الفرقة إلى الكنيسة فزادت موكبنا جلالاً وهيبة .

وكنت والعروس لانزال ممسكين بطرف الحبل حتى بعد أن ترجلنا عن الجوادين . وألقى علينا الأصدقاء الزهور والورد .

ثم ، وقفت أمام مريم ووضعت يدها في يدي وفتحت الكتاب المقدس فجمل بين رأسي ورأسها ثم جاء القسيس وسألها وسألني هل يريد كل منا أن يتزوج من الآخر ، فأجبنا إجابة القبول ثم أخذ القسيس يرتل وأقيمت صلاة العرس .

ولما انتهت هذه الصلاة علا الهتاف والانشاد ودقت الطبول وصدحت الموسيقى . وكان ضوء النهار في هذه الساعة قد تلاشى وبدأت العاصفة

التى كانت منذ الصباح تنذر بالهبوب فتساقطت الأمطار الغزيرة وهبت الرياح الهوجاء وأرعد الرعد وأبرق البرق، ومن أجل ذلك انتهت سريعاً الحفلة التى أقامها أبى للضيوف . وبعد انصرافهم قابلت العروس فكنت بهذه المقابلة أسعد إنسان فى الوجود

لست أعرف هل تحب أن أقف عند هذا الحد من قصتى المزعجة الرهيبة أم تريد أن تسمع ما حل بنا بعد ذلك من النكبات .

أريد قبل كل شىء أن تعلم أن عروسى كانت جميلة مشرقة مثل كوكب الصبح طاهرة، بريئة مثل الملائكة، وكانت تحبنى أخلص حب وأنقاه وأظنك تقدر موقفى فى هذه الساعة بعد إذ علمت أننى كنت شديد القلق من تأخر يوم الزواج ، وبعد إذ علمت مقدار حبى لها ورغبتى فى التزوج منها ، وبعد اعتبارى هذه الليلة أسعد ليلة فى الحياة

ولكى تفهم حقيقة الحال يجب أن تعرف أولا أن البيوت فى القوزاق وفى هـذا الجزء من البلاد الأرمنية يجعل جزء منها تحت الأرض لأنه ينحت فى بطنها نحتاً بحيث أن السائرين فى الطرقات يمرفون أن تحت الطبقة الأرضية التى يمشون فوقها غرفاً من البيوت القائمة على الجانبين . وفى هذه الغرف يقيم أهل تلك البيوت . وكانت غرفتى فى بيت أبى إحدى تلك الغرف الأرضية وبها كوة على الطريق تصلح بابا وتقوم مقام النافذة .

وكان من عادات الأرمنيين أن يدخل الزوج غرفته قبل عروسه وتتولى العروس نزع حذاءيه وجوربيه ثم تطفئ النور قبل أن تنزع نقابها

وفى هذه اللحظة كانت الرعود تهزم فى السماء وتحدث أصواتاً مخيفة مزعجة، وكان الشتاء يتدفق. وسمعنا أصواتاً عنيفة وضجيجاً فحسبنا ذلك من هزيم الرعد . ولكننا عرفنا بعد قليل أنها أصوات آدمية وسمعنا وقع حوافر الخيل تعدو فى الطريق

وكانت الكوة مسدودة سداً محكما خوفاً من المطر ولم أجسر على فتحها خوفاً من تسرب المـاء إلى الغرف ولكن سرعان ما سمعنا وقوع شىء ثقيل فوق سقف الغرفة ووجدنا جانباً منه يسقط بجانب الفراش ورأينا نور السماء يتخلل الغرفة فصحت بزوجتى: إن هذه صاعقة. وأمرتها بالفرار من الغرفة لتنجو ، ولكن قبل انقضاء لحظة واحدة حدث انفجار فى الغرفة فذهلت وحسبت أننى نقلت إلى الجحيم ووقعت على الأرض فى حالة إغماء ، وكل الذى أذكره عن تلك اللحظة أننى رأيت نوراً يتفجر وشممت رائحة كبريتية ثم ساد سكوت عميق

لا أعرف كم انقضى وأنا غائب عن الحس؛ ولما عاد إلى الشعور عاد بالتدريج . ولما تنبهت وجدت أننى لم أصب بجرح أو كسر وراجعت ذاكرتى فى الحوادث الغريبة فذكرت زواجى كأنه حلم رأيته فى النوم أو قصة سمعتها ، وأصغيت فسمعت حركة عظيمة اختلط فيهـا الأنين بأصوات الفرقعات وصليل السلاح بالأصوات التى تحدث من تهدم المنازل . ولم أزل أحسب نفسى فى عالم آخر حتى ذكرنى بالحقيقة صوت امرأة تصرخ وكان هـذا الصوت هو صوت مريم وقمت لأرى مصدر الصوت فوجدت تراباً كثيراً وقطعاً صغيرة من الأحجار ملقاة فوق جسمى فنفضتها وقمت فرأيت فى الطريق منظراً لا أستطيع وصفه لهوله

وجدت رجلا فارسياً يجرى وفى يمينه سيف مجرد مخضب بالدم وفى يساره رأس مقطوعة ، وكان

ينير الظلام بين لحظة ولحظة وميض البرق وتمكنت بواسطته من رؤية ما يجرى فى الطريق من مطاردة الجنود الفارسية لجنود الروس ومن كان يؤويهم من الأرمن

ولم أعرف كيف ولا أين أبحث عن زوجتى وكنت لا أزال أسمع بكاءها، وعرت جسمي رعشة لما خفت أن يكون أنينها هوأنين الاحتضار، وبالرغم من أنى كنت فى ثياب النوم فقد خرجت إلى الطريق بحالة أشبه بحالات المجانين فرأيت على وميض البرق فارسين يجريان ومعهما امرأة فتبعتهما ركضاً لأنى لم أكن أبالى بشىء غير زوجتى

ولما كان اتجاههما ساعة رأيتهما نحو الجبل فقد سرت فى هذا الاتجاه وأنا لا أراهما؛ وكنت حافياً والأرض كثيرة الأحجار والصخور. وكنت عارياً والبرد شديد والمطر ينهمل؛ وكنت متعب الجسم من شدة الذعر، ولكننى لم أزل أجرى على غير هدى حتى رأيت نفسى على قمة الجبل، ثم أدركنى الكلال واشتدت الجراح فلم أعد أستطيع الاستمرار فى الجرى الذى رأيته غير مجد، فجلست باكياً منتحباً ولم أفق حتى سمعت فى الصباح تغريد العصافير وفتحت عينى فرأيت الشمس مسفرة

وقلت فى نفسى: «أين أنا؟ ومن الذى جاء بى إلى هذا المكان؟»

وكان الجو فى ذلك اليوم جميلاً، وليس بالسماء ما يدل على عاصفة الأمس، فلم أستطع تعليل الحالة التى كنت فيها إلا بأنها حلم من أحلام الشيطان

لكن إذا كان كل ما رأيته حلماً فأين زوجتى المحبوبة؟ هل هى لا تزال بالمنزل وهل تركتها فيه وجئت إلى الجبل حافياً بثياب النوم؟ إذن فلم يبق من الافتراضات التى أعلل نفسى بها غير أننى قد جننت

وعند ذلك فاضت من عينى الدموع التى كانت لا تزال محبوسة، وقمت أمشى على مهل نحو المنزل ورأيت الفلاحين فى أثناء الطريق مجتمعين ذرافات وهم يتحدثون همساً عما جرى بالأمس والخوف يكاد يقضى عليهم جميعاً. وكان كل منهم ينتظر أن تحل به نكبة من النكبات

أما أنا فلم أكن أنتظر شيئاً منها لاعتقادى أنه لم تبق فى الدنيا نكبة لم تحل بى وأننى لم أجد أحداً من أهلى باقياً على قيد الحياة فلا زوجة لى ولا أب ولا أم ولا إخوة ولا قريب أو صاحب، وأن المنزل الذى أسير نحوه قد أصبح أنقاضاً مهدمة. لكن خيالى كان مغالياً فى تصوير الواقع فانى لم أكد أقترب من المنزل حتى رأيت أمى مقبلة نحوى وعانقتنى وقبلتنى وهى تبكى

ثم لما هدأ روعها وروعى أخبرتنى أن أبى أصيب فى جسمه ورأسه بجراح من انفجار المفرقعات وأن منزلنا قد هدم بعضه خصوصاً غرفة العروس فانه لم يبق بها شىء وأن الضابط الروسى الذى كان ضيفاً لدينا قد خرج عند ما حدث الانفجار الأول فاختطفه جنديان فارسيان وأن أهل منزلنا فيما عدا ذلك لم يصابوا بسوء

قالت ذلك ثم أدخلتنى المنزل فقدمت لى ثوباً من ثياب أبى. وبعد أن عدت أبى عزمت على أن أبدأ فى الحال بالبحث عن زوجتى واقتنعت بأن بعض الجنود الذين هاجموا المدينة قد اختطفوها وأنها لابد أن تكون الآن فى مدينة أريفان لأنها أقرب سوق للرقيق وأخذت سيفى ومسدساتى وبندقيتى

ووضعت فى جيبى بعض النقود الفضية وودعت

قريتى منذراً ألا أعود إليها حتى أجد زوجتى

وسافرت بخطى سريعة إلى أريفان سالكا إليها أقصر طريق . وفى أثناء الطريق وجدت فارسين فاستوقفانى وسألانى عن غايتى فلم أتردد فى إخبارهما بالحقيقة علهما يساعدانى على البحث عن زوجتى وقد عرضا على هذه المساعدة ولكن بأخشن لهجة مما دعانى إلى الشك والريبة

وكانا لقسوتهما يضحكان من حزنى ويسخران من شدة اهتمامي وأفهمانى أنها إن كانت الآن فى منزل السردار بين الجوارى التى أسرن فان كل جهد أبذله سيذهب سدى

حمدت الله إذ سمح لى هذان الشريدان بالذهاب وحدى فذهبت وكلى أمل فى الله الذى ابتلانى بهذه النكبة أن يجد لى مخرجاً منها أو يلهم قلبى صبراً وسلواناً

ولما اقتربت من المعسكر الذى كنت قد رأيته أثناء ذهابى مع أمى إلى أرنيان علمت أن السردار كان لا يزال فى هذا المعسكر وأنه أرسل رؤوس الروسيين الذين قتلوا فى قريتنا إلى الشاه لأن جلالته لايقتنع بنصر جنوده إلا إذا رأى هذا الدليل المادى

وعلمت أن فى المعسكر حركة تدل على شدة السرور بما فعلوه فى قريتنا كأنما كانوا يظنون أنه ختام للحرب أو أن هجومهم فى الليل على قرية صغيرة يعد موقعة حاسمة . ولكن سرعان ما تغيرت الحال فان هذا المعسكر المنتشى بنشوة السرور قد أعد العدة للتقهقر وجلا عن موقعه فى أقل من ساعتين حيث ظهر الجيش الروسى من جهة الحدود

رحل السردار بجيشه إلى أريفان وتبعته إليها وأنا لا أعلم شيئاً عن مريم ولكننى كنت أعتقد أنها فى قصره هناك وكان ذلك القصر مبنياً على صخرة عظيمة تحتهـا هاوية تفصل بين ذلك القصر وبين مجرى النهر

وكان على هذا النهر جسر وهذا الجسر هوالذى يصل البلاد التركية على أحد الشاطئين بجرجان على الشاطىء الآخر

وكان القسم المخصص للسيدات فى هذا القصر مطلاً على النهر وهو مميز عن غيره بما على نوافذه من الحواجز ؛ وكنت لا أشك أن مريم موجودة وراء تلك النوافذ فوقفت على الجسر أنتظر أن تطل فأراها . وكنت أقول فى نفسى : « ماذا أستفيد إن أطلت على ؟ إننى لا أزداد بذلك إلا يأساً وحسرة » وكان مما يشبه المستحيل أن تنجو من هذا السجن أو تبقى على قيد الحياة إذا ألقت بنفسها من إحدى النوافذ المطلة على الهاوية سوى أن تحت نافذة واحدة من تلك النوافذ شجرة يمكن أن تكون وسيلة للفرار

ظللت فى مكانى أنظر إلى النوافذ وأطيل التفكير والتأمل وكنت أخشى أن يرانى أحد فتقع على شبهة فشيت على أن أعود عند انتهاء النهار

استمرت مراقبتى للنوافذ أسبوعين كاملين ، وفى آخر يوم من هذه المدة رأيت نافذة مفتوحة ، وقد رفع الحاجز الذى عليها ورأيت امرأة تطل منها فاشتبهت فى أنها هى وانقطعت أنفاسى حتى ظهر لى أن التى تطل من النافذة قد عرفتنى ودنوت من المنزل فاذا هى مريم ، وكنت إذ ذاك بالشاطىء الآخر . ولما مدت يديها نحوى لم أفكر فى العواقب بل ألقيت بنفسى فى النهر وسبحت إلى الشاطىء

الذى هى فيه ووقفت على حافة الهاوية تحت النافذة التى تطل منها زوجتى المحبوبة

وتكرر مدها ذراعيها نحوى كأنما كانت تهم بأن تلقى بنفسها من النافذة فأشرت إليها بألا تفعل وكدت أرفع صوتي بتنبيهها إلى ذلك خوفاً عليها

وكان كلانا ينظر إلى الآخر نظرة شوق وقد منعنا الخوف أن نتكلم وأن نعرب عما يجيش فى صدورنا من الشوق

وأخيراً رأيتها على حين فجأة ترفع بقية الحاجز وتفتح المصراع الآخر من النافذة فبقيت فى مكانى أنتظر النهاية ثم رأيتها تلقى بنفسها من النافذة فبهت ولم تقو رجلاى على حملي وشردت نظراتى ودارت عيناى في وجهى ثم رأيت جسمها معلقاً على الشجرة التى تحت هذه النافذة فصعدت على الشجرة مدفوعاً بدافع الغريزة لأنه لم يكن لدى مجال للتفكير . ولو أن حيواناً فى مكانى لما فعل غير ما فعلت ، وبذلك أنقذت أعز مخلوق لدى

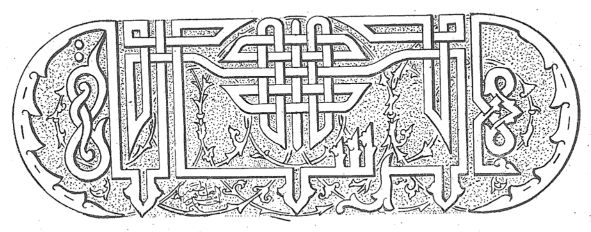
ولما أنزلتها عن الشجرة جلست وإياها على جانب حائط مهدم ، وكان كلانا مسلوب القوة ولكنها كانت مثخنة بالجراح من أثر الصدمة التى اصطدمتها بفروع الشجرة . وبالرغم من أنه لم ينكسر شيء من عظامها فقد كانت جراحها بالغة لأن بعض فروع الشجرة قد شق ثيابها وجلدها فى مواضع متعددة وأضعفها ما نزف من دمها ضعفاً شديداً وكانت مفقودة الرشد من الخوف والاعياء

وأخيراً أفاقت ونادت باسمى فكدت فى هذه اللحظة أن أجن من الفرح وعانقتها وقمت أريد الذهاب بها إلى فريقى ولكننى عدت فذكرت أنه لا بد لنا من عبور النهر أو الانتظار إلى الغد حيث يعاد الجسر الذي يرفع فى المساء عادة لتمر السفن . لكنه ما كان فى وسعنا الانتظار حيث كنا . وكذلك رأيت أن نقضى الليل فى أنقاض الكنيسة الأرمنية وهناك أقمنا حتى جئت ووجدتنا .

ولقد كان أملى كبيراً في عطفك ولست أستطيع وصفك بعد الذى وجدته من رأفتك إلا بأنك حامينا ومنقذنا فشكراً لك من القلوب التعسة التى تنتظر عودتنا . ومهما كانت مهمتك والغرض الذي جئت من أجله فانك كبير الرجولة وسندعو لك بالرغم من كوننا على غير دينك دعوة يستجيبها الله الذى يثيب على عمل الخير

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

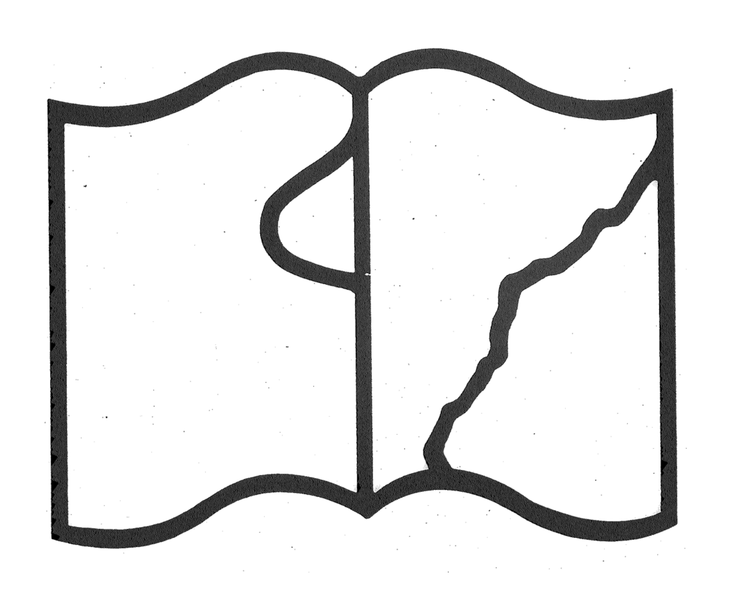
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيى في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

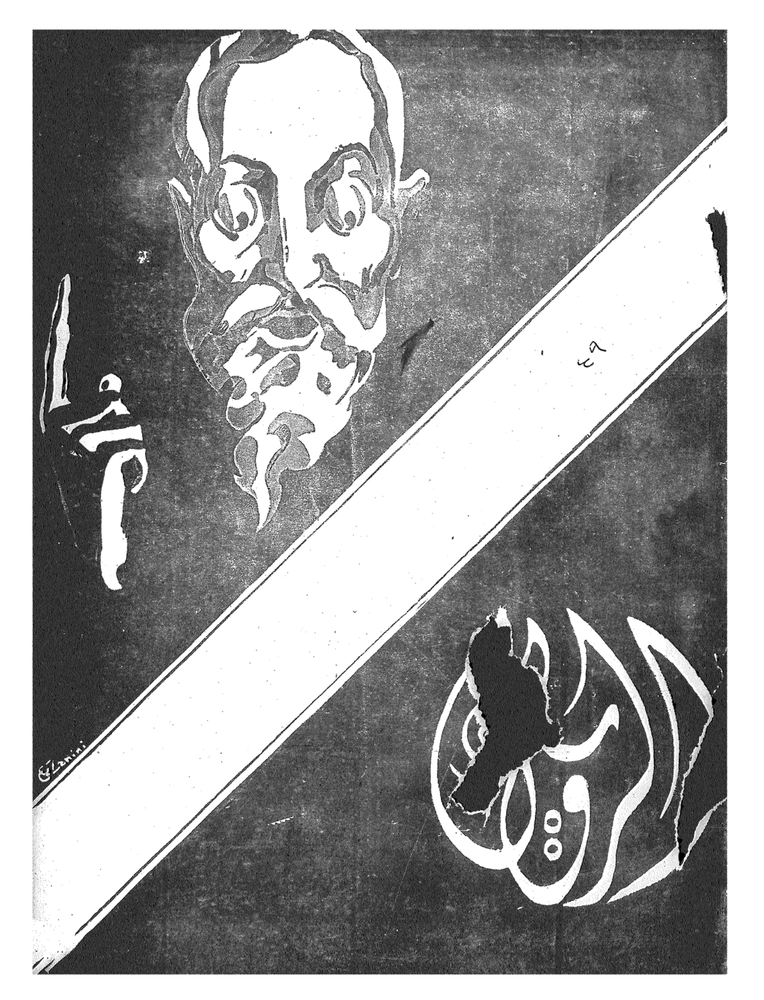
مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

، الاشتراك الداخلى ستون قرشا ، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



Texte détérioré — reliure défectueuse

NF Z 43-120-11



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

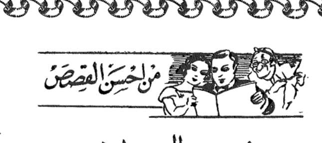
تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

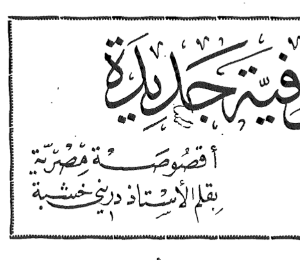
بدل الاشتراك عن سنة
صـ
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٩ — ١٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — أول فبراير سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العدد



— آه يا صديقي الشيخ عبد القوي لو رأيتهن مرة واحـدة ! مرة واحدة يا صديقي الشيخ عبد القوي ثم تنسى هذه الصوفية وذاك التقشف !

— ذاك لأنني إن فعلت ألقى بزمامي للشياطين أمثالك !

— أتستطيع أن تحدس لم خلق الله النساء ؟

— خلقهن لعمار هذه الدنيا يا صالح !

— ولم خلقهن جميلات رائعات فاتنات ؟

— ليبلو عباده ، فمن سلم منهن سلم في دينه ودنياه ، ومن أغوينه خسر الدنيا والآخرة

— إذن أنتم يا معاشر المتصوفة تزعمون أن الله خلق الجمال للغواية !

— ليس الجمال كله ... أرجوك !

— جمال النساء فحسب !

— وليس جمال النساء كله !

— جزء من جمالهن فقط ؟

— هو ذاك

— وهذا الجزء ، أأكثر الجمال هو أم أقله ؟

— أكثر جمال الظاهر

— جمال الظاهر ؟

— أجل ...

— لست أفهم ! جمـال الظاهر كأي شيء ؟

— كالسحر الذي ملأ به عيونهن ، وحمرة الورد التي موه بها خدودهن

— وكأي شيء أيضاً ؟

— القوام الرشيق !

— وماذا أيضاً ؟

— والسيقان الخدلجة والأذرع التي تكاد تنعقد من لين وطراوة ؟

— ثم ماذا يا شيخ عبد القوي ؟

— أسكت لحاك الله ... وماذا بعد هذا ؟

— بعد هذا ما بعده يا شيخ عبد القوي . . . أيها الصديق الصوفي !

— معاذ الله أن أكون قد ضللت !

— أنت . ومن زعم لك أنك ضللت ؟

— حسبتك ظننت هذا !

— كلا أيها الصديق . . . لكني أطمع في أن تكلمني بأصرح مما فعلت . . . أفي الحق أن الله قد خلق أكثر جمال الظاهر كما تزعمون فتنة لعباده المتقين !

— أنا أعتقد هذا

— إذن أنتم تؤمنون أن الله يريد الفتنة ؟

— معاذ الله أن يريد شراً بالعباد !

— أليس قد خلق أكثر جمال الظاهر فتنة لنا ؟

— هو بلاء فحسب !

— إذن نحن مخيرون

— الله خلقنا وما نصنع ؟!

— من خير أو شر !

— قل كل من عند الله !
— هذا هو الذى لا تفهمونه من كلام الله ...
لنترك هذا ... وجمال الباطن ، ماذا تقصدون به ؟
— جمال الروح
— وكيف تكون الروح جميلة ؟
— الروح التى تفزع من الاثم
— هذا هو الجانب السلبي ...
— وتصدر عنها المكرمات
— أحسنت ! والروح التى تفزع من الاثم ، هل تحسبونها تفزع من جمال المرأة ؟
— قل جمالها الظاهر أرجوك ! أجل ، إنها تفزع من هذا الجمال الخبيث فزعاً شديداً
— ألا تتفق مى أن مثل هذه الروح تكون روحاً شريرة ناقصة ؟
— ولماذا تكون كذلك ؟
— لأنها كلما رأت جمال المرأة الظاهر نفرت وقرنته بالشر ؛ ولو أنها قرنته بالخير ، وبجدت الله الذى خلقه ، لكان خيراً لها وأكثر إيماناً بالله !
— .. ؟ ...
— أراك لا تستطيع أن تتكلم ، وأنت تريد أن تفعل ؟ !
— ولماذا هـذا الحوار الطويل عن المرأة ، ألا يوجد فى الدنيا غيرها ؟
— بل يوجد غيرها كثير ... فيم تريدنى أن أناقشك ؟
— أنا لم أعترض على مخلوقات الله مثلك ، فتكلم أنت !
— وهل حسبتنى اعترضت على مخلوقات الله يا صديق ؟

— وهل تريد أن تنكر ذلك ؟
— إنى أنكره لأنى لم أفعله !
— ألم تعترض على الصوفية والمتصوفة ؟
— لقد سألتك عن أشياء فلم تستطع أن تقرع حجتى ، أفيكون ذلك اعتراضاً منى ؟
— إننا يا صديق قد طلقنا هذه الدنيا ثلاثاً ، ونحن أحرار نصنع ما نشاء
— وكيف تطلقونها وقد اعترفت أن الله أراد عمارها ؟
— أنا اعترفت بهذا !
— ألم تعترف ؟
— أبداً ، أبدا ...
— إذن يريد الله خراب الدنيا !
— أليست الساعة ستقوم ؟
— سوف تقوم ما فى ذلك ريب !
— أليس فى قيامها خراب الدنيا ؟
— إنها تكون قد انتهت إلى الأجل الذى أجلها الله إليـه ، وإلى أن يجيء سوف تظل عامرة جميلة ناضرة !
— آه من عمارها وجمالها ونضرتها !
— وما عليك من ذاك ياعبد القوى ؟
— طوبى لمن يخلع عنه بردها الزائف ياصالح !
— وكيف يخلع بردها ولماذا ؟
— إنها دار الغرور ياأخى !
— أنا أسألك كيف يخلع المرء بردها ولـماذا يخلعه ؟
— تخلعه هكذا ... إلبس كما ألبس أنا ... ذاك الصوف الخشن وتلك النعل المخصومة ، وهـذا الطربوش الذى ليس له زر ...و...

— وماذا أيضا ياعبد القوى ؟

— وترسل لحيتك وشعر رأسك حتى تكون لك وفرة ولمة وذوائب

— ثم ماذا ؟

— وتكون لك سبحة كبيرة ومكحلة

— ولماذا المكحلة ؟

— لا تكون صوفيا إلا بها !

— لقد جعلت المكحلة للتجمل والزينة ، أليس كذلك ياصديقى الشيخ ؟

— كلا ... كلا ... إنها تقاليد ياصالح !

— لا ... لا بد أن تفسر لى اتخاذكم المكحلة وتشبثكم بها !

— وهل ذلك فى استطاعة أحد ؟

— ليس فى استطاعة أحد أن يفسر اتخاذكم المكحلة ؟

— هذا محال ياصديقى !

— ولماذا يكون محالا ؟

— مثل المكحلة مثل هذه المذبة التى ترى !

— لقد كدت أسألك عن أمر هذه المذبة لماذا ترسلونها على أقفيتكم هكذا ؟

— هى أيضاً من تقاليدنا معاشر المتصوفة

— ما أحسبها إلا من بقايا الوثنية التى تندس فى طبائع الناس دون أن يشعروا ...

— وثنية ! نحن لسنا وثنيين ياصديقى !

— ومن قال إنكم وثنيون يا عبد القوى !

— وما بقايا الوثنية التى اندست فى طبائعنا إذن؟

— هذه المكحلة التى تأخذون بها أنفسكم وتلك المذبة ، والنعل المخصوفة

— وماذا ضرك من ذاك ؟

— ما ضر الدنيا من عبادة الأصنام !

* * *

انصرف صالح لشأنه ، وأقام عبد القوى ، أو الشيخ عبد القوى زعيم متصوفة القرية ، يفكر فى هذا الحديث الطويل الذى جرى بينه وبين صديقه عن ظاهر الجمال وباطنه ، وعن المرأة من وجهة نظر المتصوفة ، وعن الدنيا ... والتقشف ... والشعر المرسل والملبس الخشن ... والنعل المخصوفة ... ثم هذه المكحلة وتلك المذبة التى هى فضل منديل العمامة ...

ولكنه كان يعود من كل أفكاره إلى التفكر فى المرأة ، فما كانت أفكاره فيما عداها إلا كما يخطف البرق

لقد نعى عليه صالح أن المتصوفة يعدون المرأة عدوهم الأكبر لأنهم يزعمون أن الشياطين تتخذ من مفاتنها سموماً تصيد فرائسها ... وصالح يقول إن هذا زعم خاطئ ، لأنه يقرن جمال المرأة بالشر ، ولو قرنوه بالخير لكان أصلح لأرواح الناس ، ولقربت الدنيا أن تكون جنة ، ولهربت الأبالسة من حياتنا ...

فكرة طيبة ، وهى أقرب إلى حكمة الله من هذا النظر الأسود إلى أحسن مخلوقاته التى اختصها بالجمال ، واستودعها الرقة والعذوبة والطلاوة والسحر

ووقر فى قلب الشيخ أنه لم يستطع أن يدفع حجة صديقه صالح فى فساد رأى المتصوفة فى المرأة .. وكان عجزه ذاك أول إحساسه الخفى بالهزيمة ، وقد رأى بعينى تصوره كيف أخذت هذه القصور العجيبة التى شادها الوهم فى وجدانه الصوفى تنهار وتنقض وتتحطم وتصير ركاما

واتى بعد ذلك شيخاً من أجل مشايخ الطرق فما عتم أن أثار المسئلة بحذافيرها ... وكان قد نسى الوقار الذى لم يكن منه بد فى تناول هذه المسائل ، والتى يزعم المتصوفة أن الخوض فيها كالخوض فى حديث القضاء والقدر ، لا بد فيه من الاحتراز والاحتراس إن لم يفضل فيه التسليم كل التسليم

ولحظ الشيخ الجليل فى محدثه هذا التبدل الذى يخرج بالصوفى عن أصول المذهب ، فشده أول الأمر ... ثم علم أنه الشيطان قاتله الله قد استطاع أن ينفذ إلى قلبه ، وأن يسيل من هناك على لسانه ، فقال له :

— أى حبيبي عبد القوى ، ماذا دهاك ؟ إنك تتحدث بما لم نعهده فيك !

— عمرك الله مادهاني شئ ... إنما هو حديث جرى بينى وبين صديق صالح ، لم أستطع أن أرد عليه شيئاً مما قال

— لا بد أنه كلمك فى المرأة وفى الدنيا وفى الذى نحاربهما به من الجفوة والتقشف !

— أوه ! ... لقد حصل كل هذا ، فهل حدثك مثل ذاك الحديث ؟

— كلا ولكنى فهمت ذلك من سياق حديثك

— وماذا ترى إذن فى الذى حدث ؟

— أرى أنه حق يؤدى إلى باطل

— حق يؤدى إلى باطل ؟

— أجل يا أخى !

— وكيف أيها السيد ؟

— أتسألنى كيف ؟

— إى والله إنى أسألك

— قل لى أولا ماذا حل من حديثه فى قلبك !

— حل من حديثه فى قلبى أنه يعيرنى بأننا معاشر المتصوفة نقرن نظرنا إلى ما ظهر من جمال المرأة بالشر ، ولو أننا قرنا هذه النظرة بالخير لكان خيراً لأرواحنا ، واطردنا الأبالسة من حياتنا وبذلك تصبح الدنيا جنتنا الأولى ...

— كلام جميل ، بيد أنه خُلب ... أو ... ممسول !

— أما إنه جميل فهذا رأيي فيه ... ولست أدرى كيف يكون خلباً

— إن الذى قال صالح هو ما تقول يا أخى

— نحن نقول بالذي يقول به صالح أيها الشيخ

— هو هو !

— هذا عجيب !

— وما عجبه ؟

— وأى خير نقرن به جمال المرأة ؟ ألم تخلق عدة للشيطان ؟

— معاذ الله أن يكون ذلك ؟

— إنك تحيرنى يا سيدى الشيخ !

— وكيف ؟

— أليس أول ما يأخذ به الصوفى نفسه هو الحذر من المرأة ومن الدنيا ؟

— هذا حق !

— إذن فلم نمقت ما ظهر من جمال المرأة ؟

— نحن لا نمقت جمالها ما ظهر منه وما بطن !

— يا سيدى وأنت مع ذاك كبير من مشايخ الصوفية ؟ !

— بل أنا أكبر مشايخها قاطبة !! إسمع يا عبد القوى ، إننا معاشر المتصوفة نحب الجمال ونهيم به ونفنى فيه ، وجمال المرأة هو أبرز صورة من

جمال الدنيا ... لكن نظرتنا إلى جمالها غير نظرة سوانا من الناس ... إن الناس ينظرون إلى المرأة بعين تتقد شهوة وفسوقاً ، أما نحن فننظر إليها لنعبد الله ونقدس أسماءه . ونحن حين نخشى المرأة لا نخشاها لأنها عدوة لنا ، بل نخشى أن نفتتن ونزل ونقع فى حبائل الشيطان الذي أقسم لربنا أن يقعد لعباده طريقهم المستقيم . . . فنحن نستعيذ بالله من الشيطان إذا وقع بصرنا على المرأة ، ليس لأنها عدوة لنا ولكن لأن الشيطان هو عدو لنا ... ونحن نظلم المرأة كما نظلم الدنيا التى نملأها بالمفاسد والمعاصي ، ولو عقل بنو آدم لملأوها بالطاعات والخيرات فتكون جنتهم الأولى كما زعم لك صديقك صالح ... ولكن ...

— ولكن ماذا يا سيدى الشيخ !

— ولكن ... لى معك كلمة بعد الذى قلته لك !

— تفضل !

— أتستطيع يا عبد القوي إذا أنت نظرت إلى المرأة — غير عاق طبعاً — أن تجعل نظرتك للخير لا للشر ؟

— وكيف لا أستطيع ؟

— هذا ما أشك فيه !

— وهل تستطيع أنت يا شيخنا الجليل !

— أنا دائماً أجاهد نفسى

— ولماذا لا أجاهد نفسى أنا أيضاً ؟

— هنا تتفاوت نفوس الصالحين ... ولذلك قلت لك إن كلمة صالح حق يؤدى إلى باطل يا صديقى !

— وكيف أيها الشيخ ؟

— لأننا لا نستطيع دائماً أن نقرن نظرتنا إلى المرأة بالخير ... هذه مرتبة الملائكة التى أعيت أكثر البشر

— لذلك ...

— لذلك ينبغى أن نحارب في نفوسنا الهيام بالمرأة ...

— ولذلك ...

— ولذلك أرسلنا شعورنا وأعفينا لحانا وآثرنا لبوس الصوف الخشن والنعل المخصوفة والهندام الجافى ...

— ليتك جادلت صالحاً .. ليتك جادلت صالحاً

* * *

لم يعد عبد القوى هذا الرجل المتصوف المتقشف الزاهد بعد ... لقد تبدلت حاله ، وصار كلما تذكر المكحلة والنعل المخصوفة والسبحة والوفرة والذوائب يلمن هذه الأيام التى حرم نفسه فيها من مباهج الحياة

لقد شك أول الأمر فى قيمة هذه الأسلحة التى يتخذها المتصوفة ليظهروا فى ذلك المظهر الخشن الجافى بحجة أن هذه أحسن وسيلة لاذلال النفس وقهر الشيطان ... وعجب لماذا لا تكون الأناقة والمظهر المحتشم والنظافة معواناً للمرء على ضبط النفس واكتمال أدبها ...

— لا ... لن تكون لي هذه اللحية الكثة ، ولا ذاك المظهر الزري ... لتذهب المكحلة والسبحة إلى الشيطان ... لماذا أعد صلواتى وتسبيحاتى ؟ أأفعل ذلك لأحاسب ربى ؟ أم أتخذ السبحة شعاراً ومظهراً ورئاء الناس ؟ لن ينفعنى ظاهرى إن لم يكن لى وازع من باطنى ... إن هذا الطربوش الذى ليس له زر تدجيل وشعوذة ، إن لم يكن على الناس فعلى نفسى ... لقد خلق الله الدنيا وجعل فيها من كل شيء ، فلنملأها بشراً وخيراً ولنملأها سلاماً وإيناساً ... ليكن كل ما فيها جميلا فقد خلقها الله

جميلة ... لماذا نبدو في هذا المظهر الأشعث الأغبر لنذل أنفسنا ونؤذيها بالقهر ، وكان خيراً لنا أن نأخذها بالمكرمات وحميد الخصال ... إن السبع لا يزداد بالمقاومة إلا شراسة وشماساً ... وهو باللين والموادعة يسلس وينقاد ويطأطئ لمروضه ... إنما ينبغي أن أذكر دائماً أنني في نضال مع نفسي ... لن أتركها تنتصر علي ... لن أدع زمامها للشيطان ولكني لن آخذها بالخشونة والقهر مع ذلك ... كلما لقيت امرأة فلن أنظر إليها باشتهاء ولا فسوق ... إن المرأة الجميلة تحفة رائعة من صنع الله فينبغي ألا ندنسها بأنظارنا الشريرة ... والدنيا مثل المرأة فيجب أن نملأها بهجة ... إن اشتهاءنا للمرأة هو مثل اشتهائنا للدنيا ... الأول يدل على نقص في طبائعنا كلما حاولنا إرواءه من النساء تضاعف ثم تضاعف حتى يجرفنا ... والثاني يدل على طائفة من عيوبنا من أبرزها الجشع والطمع والاقتناء والذل المقيم لمطالب الجسد من طعام وشراب وكساء ... ونحن أمام هذين ننحط إلى مراتب الحيوان الأعجم وننسى فضائلنا ...

وهكذا استطاع الشيخ عبد القوى أن يرسم هذه الصوفية الجديدة ... وهي صوفية معنوية سامية لم يزخرف على نفسه لبلوغها بغدائر الشعر وذوائبه ، ولا بهذه العباءة الفضفاضة من الصوف الخشن ، ولا بتلك النعل المخصوفة والسبحة الهائلة

ومرت الأيام ...

وبدا عبد القوى بين الناس فتى أنيق البزة رشيق الهندام نظيفاً ، لا تحمل ذقنه إلا شعرات ، وينبعث من عينيه هذا البريق المعجب الجميل الذي لا ينبعث إلا من أعين المؤمنين الصالحين الخاشعين ، الذين لا يستعينون على عبادة الله بقهر أبدانهم وحرمان نفوسهم ، ولكن يستعينون على تقديسه بالاندماج الطاهر في الدنيا التي برأها وأبدع فيها الكائنات

وذهب مرة إلى قرية قريبة في عمل له ، فسمع الناس يلهجون بذكر رجل تقي ورع قوام الليل صوام الدهر عزوف عن الدنيا ، تكفيه السمسمة إذا أفطر ، والزبيبة إذا تحلى ، ونغبة الماء إذا ظمئ ... لا يحرك لسانه بهجر ولا يرفع عينيه فيمن يكلمه ... يطيل الركوع ويخشع في السجود ويسبغ الوضوء ولا يفتر لسانه عن ذكر الله والتسبيح له

وعرف أن الرجل يتخذ صومعة في منعرج قريب تحت جميزة باسقة عند شاطئ النيل ، فهو يعتزل الناس فيها فلا يلقاهم إلا لماماً

وانتوى الشيخ عبد القوى أن يزور هذا الرجل الصالح عسى أن ينفعه الله بلقائه ، أو أن يقف منه على سر عزلته واستيحاشه ... ولم يشأ أن يصحب أحداً ممن عرضوا أن يذهبوا معه إلى الشيخ الصالح بل شكرهم وآثر أن يذهب إليه وحده ... لأنه يعرف من تجاريبه أن الوحدة هي الطريق إلى البوح ، ثم هو يعلم أن التأمل والاتحاد بالعالم لا يتلفهما إلا فضول الناس والثرثرة التي هي فطارة في ألسنتهم فما يقلعون عنها إلا قليلا

وخرج الشيخ عبد القوى من مسجد القرية بعد صلاة العشاء ، وتسلل من الناس ثم اتخذ سبيله إلى شاطئ النهر

وكان الليل قد نشر طيلسانه فوق الكائنات ، والقرية توشك أن تهجع إلا من نباح الكلاب ،

وإلا من ذاك الضوء المريض المنبعث من دكان البقال الذي يبيع للناس ألف صنف مما يحتاجون

ما أشد رهبة الليل فى مروج الريف ؟

لقد كان خرير المـاء المتدفق فى النيل يبعث الرعب فى قلب الشيخ عبد القوى حتى لقد فكر فى أن ينثني إلى بيت مضيفه ، ويقذف إلى الشيطان بزيارة هذا الشيخ الصالح الذى اعتزل العالم تحت تلك الصفصافة البعيدة كأنها فى عالم وحدها ...

وكان الظلام الدامس يرسل عفاريته فى الهواء الرطب فلانفتأ ترقص فوق أكوام السباخ وشواخص القبور القريبة .. لكن عبد القوى استعاذ بالله وتمتم بآيات من القرآن .. ثم ذهب لا يأبه بتهاويل الليل

واقترب من الجميزة ... فأرهف أذنيه عسى أن يسمع تسبيح الشيخ الصالح المتكف ثمة ... بيد أنه لم يسمع شيئاً

وكان القمر قد أخـذ يرسل أدخنته الدوا كن فى الأفق الشرق ، فيختلط الضوء النحاسى بفحمة الليل ...

ومن وراء أحراج النخل البعيدة ، ظهر البدر الشاحب فاهتزت الـكائنات خاشعة لهذه الآية من آيات الله القدير ... ووقف الشيخ عبد القوى هو أيضاً يفكر فى خالق الأرض والسموات ، ويرمق النهر الجبـار الأبدى يجرى كأنه نهر الزمن لا يأبه للثوانى والدقائق والساعات .. بل الأيام والدهور .

وأرسل الكروان المصرى الجميل شدوه فى هدأة الليل الساجى ، فقال الشيخ عبد القوى معه « اللهم مالك الملك . لك الملك وأنت صاحب الملك ... » والفلاحون فى ريف مصر يزعمون أن الكروان يغنى فى سمواتهم بهذه العبارة ، وهم يرددونها بعده لذلك كلما سمعوها ،

وبرز رجل من كهف فجأة ، وأخذ هو أيضاً يقول فى إثرتسبيح الكروان : « اللهم مالك الملك . لك الملك .. وأنت صاحب الملك .. »

وتلفت عبد القوي فاذا حياله رجل أشمث أغبر قد أرسل لحيته حتى تهدلت فوق بطنه ، وانتشرت فوق ظهره ذوائب بيض كالندف ، وهو مع ذلك أصلع عريض المنكبين ، وبيده هراوة كبيرة كأنها هراوة نوح أو عصا موسي

ثم صرخ الرجل صرخة مدوية ، وأخذ يترنح يمنة ويسرة وهو يقول :

« الله — حى — الله — حى — الله — حى »

وكان يقولها في تلك النغمة الموسيقية المعروفة التى يوقع بها المنشدون أذكارهم ، ويرتلون على جرسها أورادهم ...

ووقف عبد القوى مكانه باهتا صامتا مسبوها لهـذا الشيخ المتمرد الذى انشق عنه بطن الأرض فبرز يشـوه جمال الطبيعة بصوته الأجش وبحته المنكرة ، وإنشاده المختنق ؛ ويكسو بصدأ حشرجته موسيقى القمر وغناء الكروان

— السلام عليك أيها المؤمن !

— حى ـ الله ـ حى ـ الله !

— اللهم لا حول ولا قوة إلا بك !

— الله ـ حى ـ الله ـ حى !

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... رويدك يا أخى وترفق بنفسك

— حى حى ... حى حى ... حى حى ...

وخطا عبد القوى نحو الرجل خطوات ثم أخذ يربت على كتفه بيمينه ، والرجل مع ذلك كأنه بندول الساعة يهطع هنا ثم يهطع هناك

ثم جذبه عبد القوى جذبة قوية فتوقف الرجل ثم حدق فيه ببصره وقال :

— إتق الله ... لماذا تجذبنى هكذا ؟

— أعتذر إليك إن أكن قد أسأتك

— ولماذا أبيت إلا أن تقطع علىّ تأملاتى ؟

— أنا ؟ أنا قطعت عليك .. ؟ .. أى تأملات يا صاحبى ؟

— تأملاتى فى خلق الله ؟

— لقد كنت تتأرجح وتميد وتهتز ، أهذه تأملات ؟

— أسكت ... لحاك الله أيها الشيطان !

— من ؟ أنا ؟ ... أنا شيطان ؟

— أنت أكبر الأبالسة !

— معاذ الله يا صاحبى ... ليس هكذا يكون خلق الرجل الذى انقطع لعبادة الرحمن

— من أنت ؟ هه !

— أنا . . . أنا عبد من عباد الله سميت إليك لأزورك

— ما اسمك ؟

— ولماذا تريد أن تعرف اسمى ؟

— أنت عبد القوى ؟

— هل تتنبأ ، أم أنك تطلع الغيب ؟

— لا هذا ولا ذاك ... لكنى أعرفك !

— تعرفنى ؟

— أجل . . . أنا أعرفك . . . أعرفك من زمن طويل !

— ومتى عرفتنى وأين ؟

— قل لى أولا ... لن أجيبك حتى تقول لى :

— أقول لك ماذا ؟

— أين لحيتك الضافية السابغة ؟

— لحيتى ؟

— أجل ... لحيتك التى كانت أطول من هذه !

— حلقتها !

— ولم ؟

— لقد كانت تضايقنى !

— والمكحلة ؟

— استغنيت عنها

— والسبحة ؟

— فرطت عقدها !

— ولماذا آثرت هذا الهندام الأنيق ؟ هل صبأت ؟

— معاذالله أن أفعل ! ألا تخبرني من أنت إذن ؟

— أنا ؟ ... أنا عبد الله !

— عبد الله من ؟

— ولماذا تلحف ؟

— أحب أن أعرفك ...

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! سبحان الذى بدلنا يا عبد القوى !

— سبحان من بدلنا كيف ؟

— إذن ... فاعلم أننى ... خدن شبابك ورفيق صباك ... صالح !

قال ذلك وكأنما ساخت قدماه فى الأرض ، ثم نشج نشيجاً مؤلماً ... واستعبرت عيناه ... ثم استخرط فى البكاء ...

— ماذا ؟ هل تبكى ؟ ... ويك ... ؟ أأنت حقاً صالح ؟

— ... ! ...

— لا حول ولا قوة إلا بالله !

— أجل يا عبد القوى ... أنا صالح ياصديقى ! وهذا حالى !

— مسكين أيها الرفيق !

— أين أنت أيها الأخ طيلة هذه السنين ؟ ليتنى ... ولكن ...

— ليتك ماذا ؟ ... لماذا قطعت كلامك ... قل ...

— لا أجسر !

— لا تجسر ؟ ولماذا يا أخى ؟

— أخشى أن تنخسف الأرض تحتى !

— اترك يا صديقى هذه الهواجس التى تستعر فى قلبك فالله ولينا ...

— ليتنى يا أخى سرت فى الحياة سيرتك ...

— أية سيرة يا صالح ؟ ...

— سيرتك الأولى التى كنت أعيبها عليك !

— سيرتى الأولى ؟

— أجل ... سيرتك الأولى التى كنت تستعين عليها بلحيتك وسبحتك ومكحلتك وهراوتك وصوفك الجافى الخشن ونعلك المخصوفة الغليظة !

— أنت تحيرنى يا صالح ...

— لا ... لست أحيرك ... أنظر يا أخى ماذا أصابنى !

— إن كنت تشتهى أن تكون مثلى فى الأيام الخوالى ، فانك الآن أشد رهبانية وأكثر تقشفاً ... فم تشكو ؟

— أشكو أننى لم أكن كذلك قبل أن أعترض عليك !

— لقد كنت تعيب هذا المظهر على ، فما الذى جملك تؤثره على ما أحل لنا الله من زينة هذه الحياة الدنيا ؟

— أوه ! ... لا أستطيع ... لا أستطيع !

— لا تستطيع ماذا ؟

— لا أستطيع أن أحرك بذلك لسانى !

— هو سر رهيب إذن ؟

— رهيب جداً يا صديقى !

— مسكين !

— مسكين جداً

— لكنك تعذب نفسك بالكتمان أضعاف ما تعذبها بالبوح ... تكلم ...

— هذا حق ... لكننى لا أستطيع ...

— يخيل لى أنك عصيت الله معصية كبيرة !

— أوه ...

— ولذلك فأنت تخجل من الكلام !

— كل ما تقول ...

— صحيح ! أليس كذلك ؟

— أجل يا صديقى !

— لكنى أعدك أن أكتم ما تقول ، وأن

أعينك على بلواك إذا استطعت !

— أتقسم لى ؟

— أقسم لك

— إذن ... لقد قتلت ... ؟

— قتلت ؟

— أجل يا عبد القوى ! أجل يا صديق ! ؟

— قتلت من ؟

— ولدى ... ؟ ... ولدى ...

— ولماذا أيها الرجل تقتل ولدك !

— ألا تعرف لماذا ؟ لقد أتيت به من سفاح يا أخى !

— آه ... جريمة تلد جريمة ...

— لقد خدعتنى نظرياتى فى الحياة يا أخى !.

— كلا ... لقد كنت أنت السبب فى اعتناق هذه الصوفية الجديدة المهذبة يوم عنيت بالرد عليك. لقد كنت على حق يا صالح ، ولم تكن قط على ضلال ولكن هلم فحدثنى كيف سقطت هذا السقوط !

— أوه ؟ هذا حديث شاق يا أخى !

— ليس شاقاً كما تتصور ... أوه ... لقد تعبت على ما يبدو لى ... هلم إلى كهفك السحيق نسترح به

وكان القمر قد أطل وارتفع ، وأرسل أضواءه ملء الكون ... وكانت البرايا كلها قد أرهفت آذانها تصغى للحديث وتتلقفه ... أليست هذه مأساة الجميع ؟ أليس يصيب الانسان أمراً ثم يتردى فيما هو شر منه ؟ !

— عرفتها يا أخى ريانة الاهاب موفورة الشباب . . . لقد كانت فينانة كالزهرة تعبق بالحب فى فؤاد كل من نظر .. حينما رنت إلى قلبت كيانى .. جعلتنى شيئاً آخر ... لقد ضاعت كل نظرياتى التى كنت أبدهك بها فلا تستطيع لها رداً ... لقد كنت أقول لك ، لم لا نقرن نظرتنا إلى المرأة بالخير ؟ لم لا ننظر إليها فنعبد الله ونقدس أسماءه ؟ لماذا نجعل من جمالها شراً مستطيراً نتجنبه ونتوقاه ؟ لم تستعينون يا معاشر المتصوفة على إذلال أنفسكم بارسال شعوركم وإعفاء لحاكم والصوف الخشن والنعل المخصوفة ؟ إنكم تشوهون خلق الله الذى شاء أن يجعله جميلا مونقاً وتأبون أنتم إلا أن تجعلوه بشعاً كريهاً ... هكذا كنت أقول لك .. وهكذا كنت أنعى عليك ! واأسفاه ! ليتنى كنت مثلكم يا عبد القوى ... ليتنى أرسلت لحيتى وأعفيت شعري وأذللت نفسي بما أذللتم به نفوسكم .. لا .. لقد ذهبت أدل بشبابى وأتيه .. وأتشدق بنظريات فارغة ما جعل الله لها سنداً من الحق ، وإن جعل لها رواء وإن جعل فيها طلاوة !

لم أستطع يا أخى أن أصبر على حبها الذى غزا قلبي وعصف بنفسي ، وزلزل وجدانى . . . إذن ، لقد غازلتها . . . ولم تستعص طويلا على . . . فقد صدتها فى شراك محكمة من كلمات الغزل المعسول وآهات الهوى المشتعلة ...

وسهرنا الليالى ...

وتبادلنا القبل ...

ثم .. سقطنا !

وضقت بها وبنفسى حينما جاءها المخاض ... ماذا أصنع ؟! عاونتها ... لكن ، لأنجو من جريمتى ... لأفلت من الجريرة ...

ثم فررنا إلى جهة نائية . وفى الطريق . وتحت جنح الليل ، جلسنا تحت صفصافة حيث وضعت !

— يالله ! ... ربى ؟ لقد وسعت رحمتك كل شيء ... مسكين يابنى ؟ ... ليتنى أبقيت عليك واعترفت بك وذهبت فداك ... لقد خفت يابنى أن تفضحنى حينما صحت أول صيحتك فى هذه الدنيا المنكودة فلم أبال أن أقبض على رقبتك وأخنقك ! لماذا يا ربى لم أمت قبل أن أفعل هذا ؟!

— مسكين ياصالح . والفتاة ؟ ماذا صنعت ؟ !

— لقد كانت تبكى على ولدها

— أهذا كل شيء ..؟

— لا إنها طلبت إلى أن أقتلها

— هل فعلت ؟

— أجل ياصديق

— وواريت سوء تيهما ؟

— بل ألقيتهما فى ...

— أين !!

— في هذا النهر ... آه ... آه ... إنه ينظر إلى ... إحمنى يا عبد القوى إحمنى يا صديق ... إن النيل يفغر فاه ليبتلعنى ! إني أسمع صياح ابنى وآلام حبيبتى ...

— مسكين ! ومن يدرى !

— ومن يدرى ماذا يا أخى ؟!

— لا شيء ... ولكن ... خبرنى يا صالح ... ماذا ترجو بعد ذاك من الله ؟

— أرجو مغفرته يا أخى ! إنى أصوم الدهر وأقوم الليل ولا يفتر لسانى عن ذكر الله !

— وهل ذلك يكفى لو فعلته ألف سنة ؟

— وماذا أصنع ؟ لقد عجزت عن حرب نفسى وجاهدتها قبل أن أرتكب جرائمى ، ولو استطعت ما حصل منها شيء مما يروعنى الآن

— إن كنت تطمع فى مغفرة الله

— فماذا أصنع يا أخى

— فلا يكفى أن تحيا حياتك هذه !

— وكيف ؟

— يجب أن يقع عليك القصاص الذى أمر الله أن يقع على أمثالك !

— أوه ! لقد فكرت فى ذلك .... !

— وما الذى عاقك أن تفعل ؟

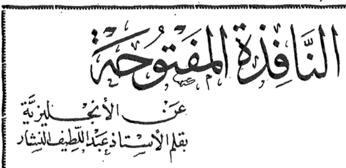
— خفت أن أقتل نفسى !

— لو قتلت نفسك لكانت جريمة رابعة !

— إذن ...

— تسلم نفسك لولى الأمر !!

دربنى خشبة



وقفت لحظة فى منعطف من شارع « كريكت جراوند » لأشمل غليونى وأشكر نعمة الله علىّ أننى غير متزوج ، لأننى فى حياة العزوبة استطعت أن أقضى هذه الليلة السارة ساهراً إلى منتصف الساعة الخامسة صباحاً فأشهد طلعة الفجر فى اليوم المقبل الجميل من أيام شهر يونيو . وكنت إذ ذاك فى طريقى إلى المنزل بعد وليمة دُعيتُ إليها فى بداية الليل فتمتعت بالطعام الشهى وبالشراب المنتقى . وكنت رجلاً كسائر الرجال غير خال من الهم ، ففى ليلة كهذه تفريج عن النفس وسرور ومتعة قلما ينسيان بعد عدة أعوام . وفضلا عن مسرات هذه الليلة فقد اشتركت فيها فى لعب القمار فكان حظى حسناً وفوق الحسن

ثم مشيت وأنا أتغنى طروباً مرحا ولكن لا تحسب أننى كنت أرفع صوتى بالغناء فى مثل هذه الساعة فأقلق راحة النائمين لأنى كنت أوفر أدباً من ذلك بل كنت أغنى بصوت رقيق لأرضى عاطفتى التى بعثتها فى نفسى نشوة الخمر ونشوة الكسب فى المقامرة. وإنى لأعترف بأن تأثير الخمر فى نفسى كان شديداً جداً وإن كان لم ينسنى إلى ذلك الوقت طريقى إلى منزلى ولم يسلبنى قوة التفكير

ولما وصلت إلى شارع « لابورنم » رأيت جندياً من جنود البوليس فاحتبست الأغنية فى حلقى لأنى كنت من الذين تصاب أوتار الصوت عندهم بالشلل عند رؤية رجال البوليس

وكان هذا الجندى طويلا جداً عريض الأكتاف قوىّ الجسم والنظرات أحمر الشعر مهيب الطلعة فى نظرى على الأقل ، وكان ينظر إلى الفضاء كأكثر رجال البوليس حينما يرون سارقاً أو قاتلا لا يستحق التشريف بنظرهم إليه

فلما اقتربت منه رمقنى بنظرة كنظرة علماء الحشرات تحت المجهر فلاحظت زرقة عينيه واتساع ذقنه وبروزها

ولم يكن من عادتى دعوة رجال البوليس إلى الاشتراك معى فى حديث : أولاً لأنى أخشاهم، وثانياً لأنى قصير القامة نحيل وأعد من الأمور المهينة لي أن أقف ثانياً رأسى إلى الوراء لأتمكن من محادثة العمالقة الطوال، لكننى الآن تحت تأثير الخمر وجدت فى نفسى ميلا إلى تحية هـذا الجندي لا لأحدثه ، ولكن لألقى عليه السلام ثم أستمر فى طريقى . وقد يكون هذا الميل من جانبى مظهراً واضحاً من مظاهر الخوف .

قلت : « سعد صباحك ! » فأجابنى الجندى وقد سر من تحيتى إياه سروراً كان يحاول كتمانه : « سعد صباحك ! »

قلت وكنت لا أريد أن أتحدث ولا أن أفاخر، ولكن لأشرح علة وجودى فى الطريق فى مثل هذه الساعة : « لقد كنت مدعواً إلى وليمة فتأخرت للآن » فنظر إلىّ الجندي نظرة طويلة وقال : « وهل أنت من سكان هذا الشارع ؟ »

قلت : « نعم فى المنزل رقم ٢٨ » فأشار لى الجندى

إلى المنزل الذى أمامه وقال : « وهل تعرف المقيم فى هــذا المنزل ؟ » فنظرت إلى منزل جميل صغير المساحة له حديقة أنيقة وقلت : « نعم هذا المنزل رقم ٤ يقيم فيه المستر « ألاريك ترول » هل تحب أن تتعرف به ؟ » فقال الجندى : « هل هو صديقك ؟ »

قلت : « إنه ليس صديقاً لأى إنسان » فتأمل الجندى فى المنزل لحظة ثم قال : « إننى أستغرب بقاء هذه النافذة مفتوحة فى مثل هذه الساعة »

وأشار إلى نافذة فقلت : « إن نظرك كنظر الصقر ولكن لا أظن أن من حق أحد أن يسأل المستر ترول عن فتح نافذته »

قال الجندى : « هذا صحيح ولــكن هذا وقت غير مناسب لفتح النوافذ وأظن أنى رأيت النافذة مغلقة ساعة مررت بالمنزل منذ عشرين دقيقة »

فقلت : « إن المستر ترول رجل شاذ ولا يبعد أن يكون قد تعمد فتح النافذة الآن ليستنشق نسيم الفجر فى هذا اليوم الجميل »

فتأمل الجندى فى وجهى لحظة وقال : « يظهر أنك تعرف الشىء الــكثير عن هــذا الرجل فكيف مع ذلك تقول إنك لست صديقه ؟ »

فقلت : « لقد أخبرتك بأنى لست صــديقه وبأنى لا أظن له صديقاً فى العــالم؛ ولو أننى خيرت بينه وبين كلب أعور أعرج لذهبت فى الحال لأشترى طوقا للــكلب . إننى لست صديقه ولكنى أعرفه كما يعرفه عدد كبير من الناس »

قال الجندى : « أهــذا وصفه ؟ إننى على كل أرى فتح النافذة الآن أمراً غريباً » ثم عاد إلى النظار نحو النافذة ومشى مسرعاً نحو منزل المستر ترول

مشيت وراءه لأنى لم أكن متعجلا فى الذهاب إلى منزلى، ولأنى كنت مثل الجندى أستغرب فتح النافذة فى هذا الوقت. فلما وقف الجندى أمام الباب قلت له : « إذا كان بالمنزل لص واحد ساعدتك عليه؛ وإن كان به لصان قبضت على واحد وأنت على الآخر وإن كانوا عدة لصوص استعنت بى على الاستنجاد بجنود أخرى »

فلم يجبنى الجندى ولــكنه دفع الباب فوجده مفتوحاً ودخل فدخلت وراءه بغير دعوة . وكنت فى أثناء سيرى أراقب الأثاث وقد أعجبنى بناء المنزل ولم يعجبنى أثاثه فقلت للجندى : « هذا فراشى رث وإن منزل إحدى الخدم لأفضل . . . » فلم يدعنى الجندي أتمم جملتى بل زجرنى بلفظة حادة ونظرة أشد إزعاجاً لنفسى ، فلزمت الصمت وتبعته إلى الغرفة التى رأينا فيها النافذة المفتوحة ، فاذا بها مكتب المستر ترول ؛ ولمحت أدراج مكتبه مفتوحة وأمرنى الجندى بالوقوف فى مكانى وتقدم هو :

وكانت هذه أول مرة خالفت فيها أوامر البوليس لأنني لو بقيت حيث كنت لما تمكنت من رؤية الجسم الممدد على الأرض ، وتبعت الجندي فرأيته

قال الجندى : « أهذا هو المستر ترول ؟ »

قلت : « نعم هو وأري رأسه مائلا بشكل غير طبيعى. فقال الجندى: « إن رقبته مكسورة ولا بدَّ أن يكون الذى لواها قد فعل ذلك من وقت قريب »

قلت : « إن الذى فعل ذلك قد أراح الدنيا من شرير كبير ، ولا شك أن كثيرين سيفرحون عند ما يصل إليهم هذا الخبر »

وقلت : « نعم فقد كان الرجل مرابياً يبتز فى وقت عمله أموال المساكين ويتجر بالفضائح ليحاول الــكسب أيضاً عن طريق التشهير بالناس وإذاعة أسرارهم » فقال الجندى : « هل كان الرجل سيئاً إلى هذا الحد ؟ »

قلت : « نعم ولو لم يقتله قاتله الليلة فانى أعرف نحو خمسين من غير المجرمين يودون لو يقتلونه ؛ ثم هم مستعدون بعد ذلك لتحمل جزاء القتل لكى يريحوا العالم منه . وقد علمت أن شاباً من أقاربي اضطر إلى الاستدانة منه وكان هذا الشاب لا يزال صغيراً جداً فلم يزل يدفع من أقساط الدين ما بلغت جملته ضعف ما استدانه، ولكنه ظل مديناً بعد ذلك بجزء كبير من الربا . وضايقه « ترول » ليضطره إلى الوفاء فاضطر هذا الطائش إلى سرقة مال من المصنع الذى كان يشتغل به ووفى دينه ، ثم هرب لما وقعت عليه الشبهة ولا يزال أهله يبحثون عنه فلا يجدونه من نحو عشرين عاماً

وكان الجندى يصغى إلى قصتى باهتمام ثم خطر ببالى خاطر فقلت : « لعلنا بالتحدث الآن عن حياة هذا الوغد نفعل غير الذى ينتظره القانون من رجلين استكشفا جريمة فى الساعة الخامسة . ألا نستدعى الطبيب ؟ » فقال الجندى : « هل تعرف مكان التلفون ؟ » فأشرت إلى غرفة الجلوس وذهب وأمرنى بالبقاء حيث أنا حتى يعود .

أخذت القضية مجراها فلم تهتد النيابة إلى شئ وقضت بأن القاتل مجهول

وبعد بضعة أسابيع وصل إلىّ كتاب من خالتى فى بلدة قريبة فى الريف تدعونى فيه إلى مأدبة، فسافرت وكنت قد علمت قبل ذلك أن ابنها الغائب منذ عشرين عاماً قد عاد من أمريكا فجعلت غرضى من إجابة الدعوة أن أهنئها وأرى ابن خالتى الذى أوقعه سوء الحظ فى شبابه فى نكبته تلك التى اضطرته إلى الفرار

وتلقتنى خالتى بالعناق وعرفتنى بسائر المدعوين وكلهم من علية القوم الذين كانوا أصدقاء لزوجها السرى وقدمت لى ابنها فوجمت ساعة رأيته وصافحته دون أن يفوه كلانا بحرف

وانتهزت فرصة فخلوت به فقال : « لا تذكر شيئاً لأمى عن سابقة لقائك بى فانى لم أخبرها »

وكان ابن خالتى هذا هو الجندى الذى اجتمعت به في منزل القتيل

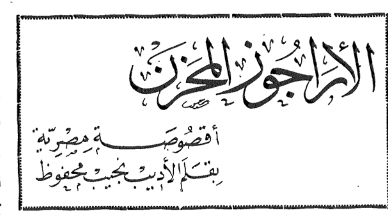
ثم صارحته فقلت : « لقد عثرت ساعة كنت تتكلم فى التلفون على زر من أزرار سترة عسكرية تحت ذراع القتيل فوضعته فى جيبى وهذا هو » ثم أريته إياه

وقلت : « وقد نسيته بعد ذلك نظراً لحالة السكر التى كنت فيها . ولكننى تنبهت له بعد انتهاء القضية . وأظننى فهمت بعض الشىء »

فابتسم ابن خالتى وقال : « هو زر سترتى وأنا الذى قتلته ثم عدت إلى الوقوف فى الطريق مترقباً رؤية سكران مثلك برىء لأستشهد به على ملاحظتى رؤية النافذة المفتوحة واستكشاف الجريمة . ولكننى لم أكن أريد قتل هذا الرجل بل أخذ أوراق عنده لأنه كان يهدد أمى بالتشهير بها لأن لديه خطابات منها . وكانت أمى تسكته بالمال حتى لم يبق لديها شىء منه فذهبت لأحصل على تلك الخطابات ولكن الرجل كان ضعيفاً فلم يتحمل تهديدى ومات بين يدي ، وأتذكر أنك حدثتنى عن قريب لك اضطر إلى الاستدانة منه ثم سرق بسببه ليوفى باقى الربا المضاعف منها . أنا هذا القريب . وقد تطوعت في خدمة البوليس من أجل هذا الغرض .

وعلى الرغم من أنى لم أكن أميل إلى الاجرام فلم يسعنى إلا تهنئة ابن خالتى على قتله هذا الشرير وعاهدته على بقاء سره مكتوماً . وقد كتمته حتى مات ابن خالتى بعد عدة أعوام

عبد اللطيف النشار



كانت المرة الأولى التى رأى فيها عبد الرحيم افندى جاد الكاتب بنيابة المنيا الأهلية الوجيه السري محمد بك المنياوى فى الاجتماع الانتخابى الذى أقيم للدعاوة للبك الوجيه . رآه واقفاً على منصة الخطابة يلقى الخطاب الختامى فأثنى على من تقدمه من الخطباء والشعراء الذين أخجلوا تواضعه ، وشرح برنامجه الانتخابى الحرى بأن يصلح أمماً برمتها شرحاً مسهباً فى أسلوب خطابى رائع قوبل من ألوف الحاضرين بالتصفيق الحاد والهتاف المتواصل ، ولكن عبدالرحيم افندى لم يؤخذ بمنطقه قدر ما أخذ بجمال وجهه الفتان ، ولم يتحمس لبرنامجه الانتخابى بمعض تحمسه لشبابه الغض وقامته الكاملة وقوته البادية . وانفض الاجتماع وغادر المكان وخياله لا ينى يتشبث بصورة الشاب الجميل ، الذى لم تقع عينه قط على إنسان يماثله حسناً وشباباً وقوة . وكان يسير إلى جانبه الشيخ إبراهيم سليم المعلم بالمدرسة الالزامية وهو شيخ متقدم فى السن قضى من عمره سنين طويلة فى المنيا فقال له :

— مرشح دائرتنا عظيم لانظير له بين الشباب ، وتبدو عليه النعمة ... هل هو غنى ؟

فقال الشيخ إبراهيم :

— غنى ! ... نعم يا بنى غني وما غنى إلا الله . ولكن هيهات أن تكفى هذه الكلمة للدلالة على ثروته ، فهو يملك خمسة آلاف فدان فى المنيا ونصف مليون من الجنيهات نقداً فى البنك الأهلى ، وعمارة المنياوى الشهيرة بشارع الملكة نازلى بالقاهرة . هذا غير الأسهم والسندات مما لا يعلم عده إلا الله

فصاح الشاب وقد تملكته الدهشة :

— يا سلام سلم

فقال الشيخ مبتسما :

ألا تعلم أنه الآن عميد أعرق أسرة بالمنيا ؟ ... هو الابن الوحيد المغفور له على باشا المنياوى الذى كان وزيراً للأوقاف، وحفيد محمد باشا المنياوى أحد النظار في نظارة نوبار باشا

فسها الشاب عن محدثه لحظة ثم قال متسائلاً :

— والظاهر من خطابته أنه متعلم

فأمن الرجل على قوله قائلا :

— إنه حاصل على شهادة الحقوق المصرية . وعلى أعلى شهادات فرنسا فى القانون . والحق أن العلم والمال من بعض تراث أسرته العريقة ...

وانتهى عند ذاك الحديث وودعه الشيخ وذهب إلى حال سبيله . وأحس الشاب برغبة فى المشى بعد طول الجلوس في السرادق المكتظ ، فسار إلى غير وجهة معلومة ينتقل من طريق إلى طريق كيفما اتفق، وخواطره تحوم حول الشاب السعيد وما قاله عنه الشيخ إبراهيم . وانتهت به قدماه إلى محطة المنيا . وعند اقترابه من بابها الخارجى وقفت أمامه سيارة فخمة ، وفتح بابها وإذا بالخارج منها الوجيه

محمد بك المنياوى وفى صحبته غادة هيفاء مياسة القد ، بادية الفتنة ، وهبها الله عينين ساجيتين جمع فيهما ما وزعه على عيون الحسان الغوانى من الفتنة والروعة . وكانت ترتدى معطفاً أسود ويزين وجهها البرقع الأبيض الشفاف الذى تتمسك به سيدات الأسر التركية النبيلة ؛ فأحس بقلبه يكاد يقفز من صدره ، ولبث مكانه واقفاً ذاهلا غافلا عما حوله حتى غيبهما عن عينيه الساهيتين باب المحطة . ثم مضى ثانية فى سيره وهو لا يشك فى أنه رأى الوجيه مع زوجه

وشعر عبد الرحيم بقهر غريب لا يجده إلا المظلومون المغلوبون على أمرهم . وخال الدنيا عدواً يتهكم به ويتشفى منه . فأحس نحوها بكراهية مريرة وتمرد مكتوم لا يجد منفذاً ينفس منه عن كربه . وانطوى على نفسه كأنه يرغب فى مقاطعتها تعالياً عليها. والحق أنه يعجز كل العجز أن يصلها صلة تجعل له فيها قيمة أو شأناً . وتساءل منكراً غاضباً : كيف أمكن أن يوجد الكمال على الأرض ؟ ... كيف غفل الدهر عن هذه السعادة المتناهية ؟ وكيف جهلت الأحزان الطريق إلى هذه الجنة الآمنة ؟... ألا من عيب يشينه ؟... ألا من نقص يعتوره ؟... جمال لم يكتس بمثله وجه رجل من قبل، وصحة لم يتمتع بمثلها جسم إنسان ، ونسب يردد فخراً وتيهاً كلما أوغل فى الماضى المجيد ، وثروة لا يحيط بها حصر ولا يفنيها الدهر ، وزوجة تسير السعادة بين يديها سير الشعاع المنير بين يدى الشمس السافرة . ومستقبل باسم مشرق بالآمال يبشر اليوم بالنيابة وغداً بالوزارة والدنيا جميعاً طوع إشارة من يده . تعطيه ما يشاء حين يشاء ، فاذا اشتهى طعاماً فدونه وما يحب من لحوم وطيور وفاكهة . وإن أراد شراباً فله ما يشاء من ماء النيل وماء فيشي والكونياك والشمبانيا . وإن تاق إلى مشاهدة فالأرض جميعاً من الأسكندرية إلى البندقية ، ومن سويسرا إلى اسكتلندا تفتح له ذراعيها وتتمناه ... فيا للقوة ... ويا للحرية ... ويا للسعادة ...!

رباه ... وما نصيبه هو من الدنيا ؟!...

وحين خطر له هذا السؤال علت شفتيه ابتسامة ساخرة مريرة .

ما هو إلا هيكل نحيل ، شاحب اللون ، غائر العينين ، بارز الفكين ، متهافت البنيان ، يستقبل الفصول الأربعة ببذلة واحدة لا تتبدل حتى ييأس منها الرفاء ينكمش فيها شتاء كعصفور يتقى البرد تحت غصن شجرة عار ، ويشوي فيها صيفاً فى جو الصعيد الخانق ... وهو ابن جادرضوان البائع البائس بمحل عطارة الماوردى بالغورية؛ والله وحده يعلم من هو رضوان جده، فلو كان شيئاً يذكر ما أتى أبوه على ذكراه ستاراً من الصمت الأليم . وأما ثروته فهى ستة جنيهات شهرية يرسل منها لوالده ثلاثة لتعينه على معاش أسرته المكونة من عشر أخوات وعمتين . فهو على بؤسه وفقره ليس الابن الوحيد لجاد رضوان، وإن كان محمدبك المنياوى الابن الوحيد لعلى باشا المنياوى . ويبقى له ثلاثة جنيهات يدبر بها حياته من مسكن ومأكل وملبس . وإن كان يدين لشيء غير هذا فهو الفول المدمس والطعمية والطماطم والجبن الرومى ، فهى غذاؤه طول أيام الأسبوع إلا يوم الجمعة جعله عيداً بهيجاً فيذهب فيه إلى « لوكاندة الأمراء » ويطلب أرزاً ونصف رطل كباب وصنفاً من الخضر تشتد حيرته عادة قبل

اختياره ... ومن الغريب أن نفسه كانت تهوى الحركة والتنقل والمغامرات البعيدة ، وتبرم بالقعود والجمود ولون الحياة الذى لا يتغير ولا يتبدل ، ولكنه لم يعلم بمواقع البلدان إلا فى كتاب الجغرافيا. وأنى له أن يراها وكاهله ينوء بالفقر وسلاسل الوظيفة المرهقة التى تسلبه وقته كله وتحتم عليه أن يكون رهن إشارتها آناء الليل وأطراف النهار ؟... ولشد ما يعذبه الحرمان ويقتله التصبر . ولشد ما تتوزع قلبه الشهوات وتعبث به الأحلام والأخيلة! وكم من مرة يكون جالساً إلى مكتبه بدار النيابة ، ثم يشرد عقله فتغيب عن عينيه الأوراق والدفاتر ، ويخال المكتب مائدة طعام حفلت بما لذ وطاب من فراخ محمرة ولحم مشوى وفريك بالحمام والبطاطس والرز والمهلبية والبقلاوة والكنافة . أو يستحضر له خياله صوراً فاتنة مما علق به فى الطريق فيرى صدراً ناهداً أو ردفاً ثقيلا أو لحظاً كحيلا أو ساقاً ممتلئة . وربما جذبته الأوهام إلى وديان بعيدة فيخلق لنفسه دنيا على هواه ويندمج فيها اندماجاً كاملا ويستسلم لأحلامها السعيدة ويظل كالنائم حتى يستيقظ على نداء زميل أو لدعة جوع ...

ولكنه كان على كل حال يسلم — فى أوقات يقظته — أنها دنيا خيال لا تتحقق على الأرض أبداً ، حتى رأى المنياوى بك ، فآمن بأن تلك الدنيا التى حلم بها لنفسه تحققت فى عالم الحقائق لغيره . ووقع ما كان يظنه معجزة

وحين انتهى من هذه الموازنة التعسة بينه وبين الشاب الوجيه تنهد من صدر ثقيل ، ونظر فيما حوله إلى السماء والأرض والبيوت والدكاكين والسابلة ، وتساءل : ترى هل يوجد فى هذه الخليقة من يشعر بآلامى ... ؟

ولكن كانت السماء جامدة متعالية ، والأرض صلبة خرساء ، والناس منشغلين بهمومهم . فأحس بعزلة قلبية موحشة . وخال نفسه ميتاً فى قبر مظلم ، وعاد إلى حجرته الكئيبة كاسف البال ، تنطوى نفسه على غيظ قاتل وثورة جامحة وحسد أليم ضاعف أثقال حياته ، وجعلها سلسلة متصلة من الغضب والسخط والتبرم

والواقع أنه كان مقدراً له أن يرى من حقائق الدنيا أعجب مما رأى . واستطاع وهو جالس إلى مكتبه الحقير أن يطلع على أسرار حسبها عقله الشارد التائه أعجب ما فى الدنيا من عجائب ...

أتذكر حادثة الصراف حسين عارف الذى اختلس عشرة آلاف من الجنيهات منذ شهور ؟ لقد اتضح للمحققين أن المتهم يمت بصلة القربى إلى الوجيه محمد بك المنياوى ، فطلبوا إلى نيابة المنيا إجراء اللازم للاطلاع سراً على الخطابات الواردة للبك من جميع أنحاء القطر لعل وعسى أن يعثروا بينها على خطاب من اللص الهارب يهتدون به إلى المنطقة التى يلوذ بها . وكانوا قد شددوا الرقابة على الحدود فغدا اللص محصوراً داخل القطر عرضة لقيد البوليس فى أى وقت . وظنوا لذلك أنه ربما دفعه الخوف واليأس إلى الاستغاثة بقريبه ذى النفوذ ...

وكان الأمر خطيراً ، لأن انتهاك حرمة الخطابات إجراء لا يلجأ إليه المحققون إلا فى ظروف قاسية دقيقة ، وزاد من خطورته ما يتمتع به البك من منزلة سامية فى البيئات المالية والأوساط السياسية . وعرضت النيابة المسألة على القاضى ،

وأذن القاضى للنيابة بفحص الخطابات بعد اقتناعه بوجهة نظر المحققين ...

وكان عبد الرحيم يتتبع سير التحقيق باهتمام شديد . فلما انتهى إلى تلك النهاية تنهد ارتياحاً وأحس بفرح أثيم أن تتاح له فرصة الاطلاع على خطابات محمد بك الخصوصية . أليس هذا انتقاماً شافياً من الذى خلقته الدنيا عدوا له وغريماً ... ؟

واستطاع بالفعل أن يطلع على الخطابات التى وردت للبك فى فترة التحقيق ، وكان مرسلوها إما من الأصدقاء أو التجار أو بعض شباب الحزب الوطنى ولم تكن تحوى شيئاً ذا بال، ولكن أرادت المصادفات أن تكتب إلى البك أمه فى تلك الفترة خطابين غريبين قد ينسى عبد الرحيم افندى ماضيه وحاضره قبل أن ينسى مدلولها . وقد جاء فى الخطاب الأول بعد المقدمات المعهودة مايلى « ... أخبرنى الدكتور بأنك لا تعنى باتباع نصائحه وتعاليمه العناية المرجوة، وأنك تتهاون أحياناً كثيرة فتأكل ما تشتهيه نفسك وربما تباطأت عن تجديد الأدوية؛ وقد يبلغ بك الاستهتار ألا تتعاطى الحقن فى مواعيدها المقررة . والله وحده يعلم بما أحدثه كلام الدكتور فى نفسى من الحزن والأسف . لأنى أدرى خطورة السكر وضغط الدم وخاصة إذا اجتمعا . فخذ حذرك يا بنى العزيز ولا تهمل صحتك واتبع بدقة تعاليم الطبيب مهما كانت قاسية ، فلا تذق اللحوم ولا الصلصة ولا المواد الدسمة ، وامتنع بتاتاً عن تناول النشويات والحلوى ، وواظب دائماً على تعاطى الدواء عسى الله أن يقيك شر المرض ويصون لى ولك شبابك . واذكر دائماً أن أى إهمال لتعاليم الدكتور هو بمثابة قضاء أبدى علىّ بالحزن والألم »

وأما الخطاب الثانى فكان مختصراً لا يشفى غلة المتطفل ويدل على تحرج كاتبته ولكنه كان عظيم الدلالة وقد جاء فيه ما يلى « ... لماذا تشكو دائماً يابنى العزيز .. لماذا تكتب إلىّ دائماً هذه الكلمة التى ينفر منها قلبى أشد النفور: (ليت الله يأخذ ثروتى ويهبنى السعادة) والحق أقول لك أن قلبى لا يسلم بوجهة نظرك . وأنا على كل حال أمك ، ويحق لى أن أقول إنى فى هذا الشأن على الأقل أعظم منك تجربة ومعرفة، لذلك تلهمنى نفسى بأن التوفيق بينك وبين قرينتك ليس أمرا مستحيلا كما تقول وتؤكد . فأرجو أن تتريث قبل أن تخطو تلك الخطوة الأليمة التى لم تنكب بها أسرتنا من قبل . وإنى أقترح عليك أن تنفصلا مؤقتا عسى أن يثوب كل منكما إلى رشده ويدبر أمره بما يصون كرامته ويحقق له السعادة . »

ولبث عبد الرحيم زمنا لا يدرى كيف يصدق ما طالعت عيناه ، ولا كيف يفيق من الدهشة والحيرة اللتين استولتا على عقله . ومضى يتسائل تساؤل الحيران هل حقا أن ذلك الشاب الذى رآه منتصبا كالطود على منصة الخطابة عليل سقيم ؟ وهل حقاً أن مرضين وبيلين يهددان شبابه الغض بالذبول والفناء ؟ وهل حقاً أنه مضطر إلى الزهد الأبدى فى أطايب الطعام والشراب ليدفع عن نفسه غائلة الهلاك و لاضمحلال؟ ولمن خلق نعيم الدنيا إذن مادام يعز على الفقير ويؤذى الغنى القادر ؟ .. أيكون وهو الضعيف المتهالك الذى لا يستطيع أن يتقى شرا أو يدفع بلية أصح منه بدنا وأكمل عافية وأهنأ حياة .

إنه على أى حال لا يشكو مرضا ولا يعانى مر الدواء وألم الحقن . نعم إنه لا يستطيع أن يأكل

ما تشتهيه نفسه ولكنه يتناول يوم الجمعة مالا يستطيع أن يذوقه البك الوجيه إلا ويعرض نفسه لشر المرض وغدره . وقد تتاح له فرص سعيدة فيدعى مع موظفي النيابة إلى ولائم ءاخرة لمناسبات الترقى والعلاوات فيأكل بشهوة نهمة ويشرب بشراهة مفترسة غير متحرج ولا خائف حتى ينتفخ بطنه ويفقد النطق والقدرة على الحركة .

ياعجبا ! فما فائدة المال ؟ .. كيف لا يقي صاحبه شر المرض والمخاوف ؟ . . . وكيف لا يشفيه إذا أصابه سوء ؟ .. كيف ينسل حزن من أحزان الدنيا إلى بيت تعمر خزائنه الذهب والفضة ؟ ...

على أن ذلك جميعه بدا لناظريه تافها إلى جانب المعجبة الأخرى التي يدل عليها الخطاب الثاني

وتساءل في تهيب وخوف وعدم تصديق ترى هل يفرق شقاق بين قلبي الوجيه الثرى والغادة الحسناء التي رآها تخطر إلى جانبه كملاك كريم ؟ .. ياله من تساؤل سخيف بعيد عن التصور . ومع ذلك فما الذي يدل عليه خطاب الأم الثاني ؟ ... رباه .. أي شيطان ماكر استطاع أن يسعى بالفساد بين هذين المخلوقين الجميلين ؟ ... أيطمع البك في امرأة تفوق زوجه حسنا وجمالا ؟ . أم تتوهم الزوجة أنه يوجد بين الرجال من يفوق زوجها شبابا وثراء ومكانة ؟..

فما الذي عكر صفو حياتهما وجعل البك يجأر بالشكوى ويصارح أمه بأن التوفيق أصبح مستحيلا؟ ما الذي جعل البك المجنون يتمنى الفقر الذي لا يفقه معناه ويزهد في ماله وجاهه ؟ ..

واشتدت به الحيرة وغلبه القهر ومضى يضرب أخماسا لأسداس ... ترى أيهما المسئول عن هذا الشقاء الزوج أم الزوجة ؟ ... أليس الظاهر من شكوى البك أن الزوجة هي المتجنية عليه ؟ .. فهل جنت هذه الشابة الحسناء فهي لا تبصر ولا تعقل ؟ كيف لا تحب هذا الشاب الكامل ؟ . وإذا لم تحب محمد بك المنياوى فمن عسى أن تحب من الرجال ؟ ..

وبدت له هذه الأسئلة التي يراها المجربون غاية في التفاهة والابتذال ألغازاً مستعصية على كل حل وعجائب خارقة تعدل المعجزات ، وتوهم عقله المريض الذي أنهكه الحرمان أن هذه الحقائق دليل على الانتقام الالهى من الأغنياء . فالدنيا تعطيهم مالاً وجاهاً والله يسومهم سوء العذاب والمرض ، ولكن لماذا لم يعف الفقراء من ضريبة الشقاء والعذاب ؟

ومهما يكن من الأمر فان عبد الرحيم لم يشعر نحو غريمه بشيء من الرحمة أو الرثاء ، وعلى العكس من هذا وجد في شقائه شفاء لحقده وسخيمته وعزاء عن حرمانه وقهره ...

وقد التقى في ذلك الوقت بالشيخ ابراهيم سليم فأفضى إليه بالسر الرهيب وقال له دهشاً وهو يضرب كفاً بكف :

— أنظر يا أستاذ إلى عجائب الدنيا !

ولكن الشيخ ابراهيم هز رأسه استهانة وقال برزانته المعهودة :

— ألم تسمع يا بني بالقول الحكيم : (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) وها أنت ذا تطلع على خبيئة أكبر الناس حظاً من حسد الناس فكيف تجده أحق بالرثاء مني ومنك . . . أليس كذلك ؟

فتغلب طبع الشاب المريض عليه وقال بحدة :

— كلا يا شيخ ابراهيم . لست أقل منه شكوى أو شقاء . بل إن شقاءه يهونه المال أما شقائى فلا يهونه شيء ، أتقول اخترتم الواقع ؟ ... كيف

أختار الواقع إذا كان يبسط أمامي مستقبلا مظلماً تافهاً وفقراً مدقعاً ويضع على عاتقي أباً شيخاً وعشر أخوات وعمتين ؟

فقال الشيخ :

— إن الله لا ينسى مخلوقاته : ألا ترى أنه يرزق الطير على غصون الشجر ويطعم النمل فى سراديب الأرض ؟

— أرى حقاً أن النمل يجد رزقه سائغاً، أما عبد الرحيم جاد الكاتب بنيابة المنيا الأهلية فلا يذوق اللحم إلا يوماً واحداً فى الأسبوع ، وأصبحت الطعمية تأكل معدتى وليس معدتى التى تأكلها

فقال الشيخ بلهجته الهادئة :

— القناعة ملاذ المؤمنين

— إنا جميعاً مؤمنون ولكننا لا ننى عن الشكوى. الكل يشكو ويشقى . والظاهر أن الدنيا هى أصل البلاء . وكأنى بها تطرب لأنات الشكوى والألم

فهز الشيخ سليم رأسه بقوة وقال بحدة :

— من أخطر الأخطاء التى نرتكبها أن نعلل الشيء بغير أسبابه الحقيقية فنخلق لأنفسنا مشكلا غير قابل للحل ومستعصياً على العلاج، ومثل اتهامك الساذج هذا للدنيا مثل اتهام العوام للشيطان أو العين الحاسدة أو لتناول اللبن والسمك يوم الأربعاء . ما ذنب الدنيا ؟ هل الدنيا هى التى جعلت المنياوى بك يفرط فى الأكل والشراب والاستهتار حتى وقع فريسة للأمراض ؟ أم هى نفسه الأمارة بالسوء ؟ الانسان هو السبب الجوهرى فى إسعاد نفسه أو شقائها ... أنظر إلىّ يا بنى . أنا إنسان سعيد لا يعرف الشكوى، وقديماً خبرت حالى بعين فاحصة وقلت لنفسى جاداً : حرى بمن كان حاله كحالى ألا يأكل إلا كذا من الطعام وألا يرتدى إلا كيت وكيت من الثياب وأن تقتصر ملاهيه على هذا وذاك من الملاهى البريئة . واتبعت نظاماً دقيقاً لا أحيد عنه ولا أتطلع إلى سواه حتى أنه لا يوجد من الطعام فى الدنيا إلا ما آكله ، ولا من الثياب إلا ما أرتديه ولا من الملاهى إلا ما أتلهى به . فلم أرمق بعين الحسد من فضلهم الله على بالآلاء والنعم وتعزيت بذكر من فضلنى الله عليهم فقدر لهم حظاً دون حظى وعشت حياتى قانعاً سعيداً لا ينى لسانى عن الشكر والحمد. ولكل حياة سعادة توائمها يستطيع الانسان أن يفوز بها إذا راض نفسه على الرضاء والقنوع وسداد النظر . ولو أنى تركت نفسى تهيم فى وديان الأمانى والأحلام الخلب لأضلتنى شقاء وشكوى ولم تجدنى شكواى شيئاً ... فقال عبد الرحيم بتمرد جامح :

« إذا كانت هذه هى القناعة فهى الموت . وأنا لا أدرى ماذا كان يكون حال الدنيا لو آمنت بحكمتك هذه . هل كانت تكتشف أمريكا ؟ هل كانت تستغل المناجم وتستثمر الأراضى ؟ ... هل كانت تقوم الثورات وتخلق المبادئ والأنظمة ؟ .. هل أستطيع بالقناعة أن آكل ما تشتهيه نفسى ، وأن أسعد أخواتى وأبى ، وأن أشتى فى أسوان وأصطاف فى الاسكندرية ... وأن أتزوج امرأة حسناء وأخلف بنين وبنات ..؟ هل السعادة أن أقنع نفسى بأنه لا يوجد طعام فى الدنيا سوى الطعمية والفول المدمس ... وأنه لا توجد بها ثياب إلا هذه البذلة القذرة المهلهلة ... وأنه لم تر فيها نساء قط ؟ ... »

فضحك الشيخ ابراهيم وقال :

« المسألة قناعة أو لا قناعة . والذى لا يقنع

لايقنع ولوملك الدنيا . فكما يشكو عبدالرحيم أفندي يشكو محمد بك المنياوى . وإذا كان ذلك كذلك فما جدوى التغيير ؟ ... أراك تهم بالاعتراض على .. مهلاً فقد وجبت صلاة العصر وليس لدى متسع من الوقت ولن أقول لك إلا كلمة واحدة : إذا استطعت أن تحول التراب إلى ذهب كأبناء أمريكا فافعل .. وإلا فاقنع . هل تجد سبيلاً غير هذين؟..»

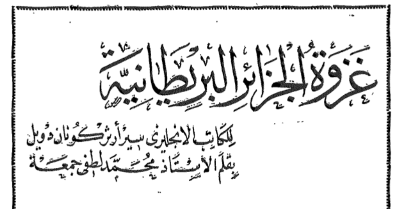
ولكنه لا يستطيع أن يحول التراب إلى ذهب ، ولا يستطيع أن يقنع ويرضى . وهل كان محمد بك المنياوى حول التراب إلى ذهب ؟ وهل فى مصر كلها من حول تراباً إلى ذهب ؟ ... ومع هذا فيها من يتقلب على الذهب وأغلبها يمرغ فى التراب . ما ذنبه أن يكون هذا نصيبه من الدنيا ؟ ...

وانتهى التحقيق فى جريمة الصراف بالقبض عليه كما يذكر القراء . واستدعى رئيس نيابة المنيا حضرة صاحب العزة محمد بك المنياوى ليخبره بمـا اتخذته النيابة نحوه من الاجراءات السرية ، وحضر الوجيه إلى دار النيابة فرآه عبد الرحيم للمرة الثالثة ؛ ولكنه لم ينظر إليه هذه المرة بالعين التى نظر إليه بها فى المرتين السابقتين . نعم لم يزل يعده عدواً له ، ولكنه عدو حقيق بالرثاء على أية حال . وقد ابتسم لمرآه ابتسامة ساخرة كأنه يقول له لاتته عجباً ، ولا تمش فى الأرض مرحاً ، فأنا أعلم بمـا وراء هذا الحسن والشباب من البلاء والشقاء

آه لو يتكاشف الناس ! ... آه لو تعلن سرائرهم للأعين كوجوههم وثيابهم ! .. ألا يبدون حينذاك كأموبة بائسة ؟ ...

ولكن ما عسى أن تكون اليد التى تلعب بهم على هذا الوجه المزرى ؟ من الذى يحمل تبعة هذا السخف المحزن .. الدنيا كما ظن هو ، أم الانسان نفسه كما يظن الشيخ ابراهيم ؟ ...

نجيب محفوظ



روى الدكتور وطسن قال :

كان لحادث الهندى أثر عميق فى نفس هولمز فقد ساق رجلا وامرأة إلى المشنقة على أهون سبيل ، ولم نعد نرى الوالد المشكول بعد تأدية شهادته فى محكمة أولد بيلى . وقد طلب هولمز من القضاة أن يقبلوا الرمز لاسمه بحرفى الكاف والهاء أمام الجمهور وأن يكتفوا بتقرير كتابى بدل الشهادة الشفوية المسبوقة بالقسم التى يحتمها القانون ، ولكن مخبرى الصحف لم تفتهم حقيقة الأمر ولم تخف عنهم خافية ، فذكروا فى جرائدهم أن بطل هذه المأساة هو مستر شرلوك هولمز نفسه كالعادة ؛ وقد بز رجال الشرطة الرسمية ولكنهم فى النهاية يحصدون ثمرات جهوده ، لأنه يحب الاستخفاء كغيره من الهواة . فقال لى هولمز : خير لنا أن نقضى بضعة أيام فى رڤييرا ، وهو شاطئ الذهب ومشتى الأعيان والسراة فى جنوب فرنسا ، استجماماً وفراراً من هجوم جيش من طالبى الفتيا وهواة الاستشارة . فأبديت له معاذيرى وتلكأت فى إجابته متعللاً بزوجتى وطفلى الذى ما زال فى المهد رضيعاً ، ولكنه لم يأبه لقولى وقدم لى شيكا دسماً قائلا : « هذا لتوظيف طبيب ممتاز يحل محلك فى عيادتك » فعلمت أن لا مناص من مصاحبته . ولما فاتحت زوجتى فى الأمر تهلل وجهها وقالت :

— يا لها من فرصة سانحة تجمع بينى وبين مستر هولمز وما أطيب الأيام نقضيها فى كنفه على شاطئ البحر . وفى الساعة الثامنة من صباح السبت التاسع من شهر فبراير سنة — ١٨٩ قصدت إلى مكتب شركة الأسفار فى بوند ستريت فتقاضينا التذاكر وأجازات الرحيل لمركبة النوم والطعام . وبعد الظهر بساعة واحدة تحرك بنا القطار من محطة تشانج كروس . وعند الساعة الرابعة انتقلنا إلى باخرة القنال الانجليزى فتناولنا الشاى قبل أن تطأ أقدامنا أرض فرنسا فى ميناء بولونى ، وكان القطار السريع ينتظر الراكبين على إفريز الميناء فتبوأنا مقاعدنا فى عربة عريضة مديدة مكتوب عليها بالخط الكبير بولونى سيرمير — نيس ومونت كارلو . فصرخت زوجتى صرخة صغيرة تدل على الفرح وقالت : هللو يا زوجى العزيز ! قد آن الأوان أن نقضى أجازة تعوض علينا شهر العسل الذى لم تتح لنا الأيام فرصته

فابتسم هولمز وقال : ويل للشجى من الخلى ! ما أسهل ما تلتمس المرأة أسباب السعادة وقال : الغاية الأولى الاستراحة والاستجمام وشهر العسل يأتى مؤجلا . بيد أننى لا أرى لذة فى شهر العسل بعد مولد الطفل الأول ، إنما تكون لذته للعروسين خالبى البال

فضحكت وقلت له :

— من يسمعك تحكى هذا القول يعتقد أنك

خبير بنظم الزواج وطبائع النساء . وكنا قد اتخذنا مقاعدنا فى مركبة المائدة ، بعد أن كان حارس القطار بتصفيف أمتعتنا فى أماكنها . وطلب هولمز إلى النادل أن يحضر قنانى المياه المعدنية التى يشربها ثم أمر لنا بالشاى ، وكان شديد العناية بعس جولدز هامر مربية طفلى الصغير . وكانت ألمانية غضة بضة حمراء الوجنتين كأنها تحمل على خديها وردتين من ورود الربيع فأطلق عليها هولمز اسما جديداً يداعبها به وهو : « فراولاين بروز » فسرت بهذا الاسم كثيراً وسألته إن كان يتكلم الألمانية ، وكانت خادمى هذه من البساطة بمكان عظيم ، فقال هولمز لها وهو يبتسم : « بضع كلمات لقفتها من أفواه الناطقين بها » ثم سكت برهة وقال لى :

— أتذكرها يا وطسن ؟

وكان لا يذكر ضمير المؤنث الغائب إلا وهو يقصد إليها : إلى السيدة جوز بند أدلر ، بطلة تلك المغامرة العريقة وهي فضيحة فى بوهيميا . وعند ما نطق باسمها لمحت فى عينيه بريقاً عجيباً ، حتى لقد سألت نفسى : هل تركت تلك المرأة فى نفسه أثراً . وهل كان يحبها لو أن الحب مما قسم له فى هذه الدنيا ؟ هذا ما لم أستطع الجواب عليه . كان هولمز يبدو لى ذا شخصية غامضة كل الغموض ولا يظهر منه إلا ذكاؤه الخارق كأنه مصباح نافذ الضوء فى وسط الضباب. فقلت له : نعم ومن ينس تلك المرأة ، يحرم نفسه أجمل ذكرى وأوقعها وأبقاها

فقال هولمز : إن فضلها علىّ فى هوايتى أعمق أثراً من جمالها أو حنكتها أو سعة حيلتها أو دقيق فكرها ، فلولاها لم أكن لأتصل بتلك الدوائر السياسية التى كان لها الشأن الأول منذ حرب السبعين إلى وقتنا هذا ، فان الحرب الحاضرة بين مولداقيا وزبندانافيا مقدمة لحروب أخرى سيراها العالم ويخوض غمارها وهذه الحروب كلها ستكون أسلحتها الماضية وسائل التجسس

قلت : مصلحة الأخبار(١)

فضحك هولمز وأشار لزوجتى وخادمتى بالانصراف بعد أن شربنا الشاى وأكلنا الكعك والخبز المتمدد المموه بالزبدة والمربى

وقال لى : سمها ما شئت ، ولكن اعلم أننى أنا الذى أسست هذا العمل الضخم ورسمت خططه ، فأخذوا فى تنفيذه بحذافيره دون أن يستشيرونى فى وسائل التنفيذ . ومن هنا

فبدت علىّ علامة الدهشة ، لأننى لم ألحظ فى أثناء احتكاكى به أنه تدخل فى النشاط السياسى ، ولم يكن يعير حرب مولدوفيا ضد زيندانوفيا أقل اهتمام فقال لى :

— أيدهشك ذلك يا وطسون ؟

قلت: لا، ليس ثمة ما يدعو إلى العجب من ذلك، فان من له ذكاؤك وخبرتك يستطيع أن يفعل ما فعلت دون عناء أو مشقة. ولكن أين الشخص الذى تتوافر له الفطنة والخبرة . فان رجالاً مثل آشندن وكروسوبل وجراسفارم جديرون بأن يكونوا تلاميذك ، والآن فقط أدركت سر عنجهيتهم وانتفاخ أوداجهم فإنهم يسرحون ويمرحون على شهرة خطة أنت مدبرها وسبيل عبدتها لهم . فقال هولمز:

— الواقع أن شيئاً لم يستعص على فى بلوغ غايتى ... وأثناء دراستى كنت أجمع المعلومات الخاصة بوسائل التجسس المولدوفى والمجروسوفانى

(١) Intelligence dehaitment

ووجدت السبل إلى إحاطة إدارة المخابرات فى لندن وباريس ببعض المعلومات المهمة فى أوقات متعاقبة

فقلت : أكبر الظن أن فرنسا وانجلترا والجمهورية الأمريكية أفادتنا من وسائلك

قال هولمز: نعم، ولكن ليس هذا الذى يكرثنى ويكربنى فى الوقت الحاضر ، وإنما الذى يكرثنى انتقال ذلك الداهية الشديد الخطر ، الذى يعتبر الحياة رقعة شطرنج بيادقها وقلاعها وفيلتها ملوك الأرض وسواس الدول

قلت : أتقصد إلى البروفسور موريارتي ؟

قال : هو بنفسه فان هذا الرجل لا وطن له ولا دين ولا ملة ولا عقيدة ولا ضمير وقد باع نفسه لأعدائنا بنصف مليون جنيـه ذهباً تسلمها عداً ونقداً وسمح له بأجازة حتى تمكن من إخفائها فى مكان مجهول ، ثم عاد وانقطع إلى محاربتنا بعقله

قلت لهولمز : وعلام استقر رأيك ؟

قال : لقد استقر رأيى على إحباط مناورته مهما كلفنى ذلك من جهد . غير أنى أدركت أنه لكى أتبعه إلى بلاد الأعداء يجب على أن أخترق فرنسا من شمالها إلى جنوبها

قلت : إن هذه المطاردة هى الأولى من نوعها ، لأنك خبرتنى من قبل أنك لن تمكن هذا الوغد من مقارنة مواهبه بمواهبك

فقال هولمز : صدقت يا وطسن ولكن هـذا الشيطان مزود بأوراق تكفل له مخادعة رجال المخابرات السرية الانجليزية والفرنسية وقد وفق فى اختيار الاسم الذى انتحله لشخصيته الجديدة فضلا عن أنه يبدو للناس متواضعاً ، رضى الخلق ، مثقفاً لا تفارق الابتسامة شفتيه الدقيقتين حتى فى أحرج المواقف ...

وكان القطار السريع يطوى سهول فرنسا ووديانها ويخترق الحقول والبطاح ويصعد فى الجبال ويمر خلال الأنفاق وينساب تارة كالأفعوان وطوراً يندفع كالسيل المنهمر . ونحن من هذه المركبات الفسيحة فى نعمة لا يقدرها إلا القليـل من أهل الفطنة ، فهنا مجلسك ومطعمك ومنعمك ومشربك ومغناك على عجل يتحرك ويدور بسرعة ثمانين ميلا فى الساعة الواحدة

وكان القطار يقف فى المحطات الـكبرى دقائق معدودة . وعند ما يبلغ محطة كبرى مثل ديجون أوليون ينزوى هولمز فلا يبدو لأحد ، ثم أراه يصعد فجأة قبيل تحرك القطار بقليل ولا أسأله عن مكمنه أو مسرحه أثناء وقفة القطار . ولما كانت الساعة التاسعة تناولنا طعام العشاء وعلمنا أن القطار يبلغ ثغر مرسيليا عند الفجر ثم يمرج على ثغر طولون الحربى، وكان هذا الحصن البحرى مغلقاً من الجانب الشمالى فلا تطأه قدم المدنيين بسبب الأعمال الحربية القائمة على ساق وقدم .

ولم يكن ثغر طولون أو مرفأ بونابرت أو حياض الاصـلاح والتعويم المهولة التى بناها مهندسون يحربون من فرنسا وانجلترا هى التى تهمنى فى تلك اللحظة ، ولكن الذى كان يهمنى زيارة مونتكارلو وكان أنيسى فى صحبة امرأتى ونجاتنا نحن وطفلنا الصغير من أهوال البرد القارس فى انجلترا أثناء هذا الفصل الشديد الرطوبة والضباب ...

وأيضاً ... وهذه مسألة أخجل من ذكرها ، فضلا عن تدوينها ... تجريب حظى على مائدة اللعب فى مونتكارلو ... فنحن الأطباء نعلم أن المقامرة أظهر معالم الحظ فى الحياة . وهي تتفق

وصنعتنا اتفاقاً تاماً . فان صنعتنا حظ وحذر وكذلك المقامرة . ولكن مالى أرانى قد اندفعت فى تسجيل خواطرى ؟

عند الفجر بلغنا مرسيليا وعند الظهر كنا فى مرفأ أنتيب وهو ركن من جنة الفردوس فى وسط الشتاء . واتخذنا موطناً مؤقتاً ، ومولئلا فى فندق « جراندأوتيل ريش » وفى الحق أنى شديد الذعر من أسماء هذه الفنادق التى تدور على الفخامة والثراء وتبعد عن البساطة التى نتبعها فى تسمية فنادقنا الطيبة الهادئة . وكانت شرفات ذلك الفندق الفخم الذى تطل على البحر بطبيعة الحال ، كما أن له بستاناً نخما فى جنوب البناء فيه لفائف الأشجار وبدائع الأزهار ولذائذ الثمار .

وفى الليلة الثانيــة استأذنته فى السفر إلى مونتكارلو فاستمهلنى يوماً وليلة .

وقد لقيته فى إحدى شرفات الفندق المطلة على البحر وكان متكئاً بمرفقيه على حاجز الشرفة وقد تجلت فى عينيه نظرة لامعة وإن كانت ساهمة مما دلنى على أنه مستغرق التفكير ، وظل ينقل بصره بين صفحة الماء ووجه السماء الذى زينته العناية بأضواء ومصابيح كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجب .

وقد هالنى وآلمنى أن يقضى هذا الرجل العجيب حياته بعيداً عن عواطف الحنان والرحمة التى يمكن أن تسبغها على قلبه الكليم امرأة مخلصة ودود ، ولكن أنى لى أن أعبر له عن إخــلاصى وحبى إياه ورغبتى فى إسعاده؟ لقد خيل إلى أنه يشعر بالخوف، لا من الموت ولا من المرض أو الفاقة ، ولكن خشية أن يدهمه القدر قبل أن تحين الساعة الرهيبة التى يتلهف عليها ، تلك الساعة التى يقضى فيها على الرجل الذى باع دينه وشرفه وعقله ليبيع وطنه للأعداء . لقد خيل إلى أن هذا كل ما يطلبه هولمز من الحياة ، فاذا تحقق هذا المطلب فليكن بعد ما هو كائن . لم يكن حب الوطن وحده ، أو مقاومة الشر أو رغبة الانتصار على خصم قوى عنيد هى التى تحركه ، بقدر ما كان هواه فى تخليص الانسانية من ذلك العقل المجرد الذى يلبس الشر ثوباً محكما على أجزائه .

وفى صباح اليوم التالي فاتحت مستر هولمز فى رغبتى ، ولشد ما دهشت عندما علمت أنه هو أيضاً يرغب فى مشاهدة مونتكارلو وذلك «الكازينو» الفخم الذى يزينها. وكانت الشقة بين أنتيب وعاصمة موناكو ضئيلة . وكان هولمز قد احتجز لنا بالتلفون مائدة فى البهو البلورى الذى نسقته يد الأناقة والبذخ أجمل تنسيق . وكان هولمز بعــد الفراغ من العشاء يجوس خلال القاعات الارجوانية الفخمة التى مدت فيها موائد اللعب الخضراء . وللمرة الأولى وجدته مستخفياً فى زى كونت إيطالى بلحية كثة مستطيلة وسرعان ما التف حوله فريق من بنى جلدته المزعومة كان يتحدث إليهم بلغتهم بفصاحة نادرة . وكانت زوجتى قد أتقنت تلك اللغة فى أوقات الفراغ .. وفجأة شق تلك الصفوف رجل قصير القامة عريض المنكبين وأخذ يتكلم بالفرنسية الفصحي للفيف من السيدات والفتيان الذين جاءوا ليقضوا إجازة آخر العام وقد أصغيت إليه وتخليت عن الحلقة التى كان يقف حولها هولمز فقال :

« إذا حدثتكم أنفسكم باستغلال شهرتكم أو ثروتكم والتوسل بها لأغراضكم الشخصية وشهواتكم البدنية

المادية ، فالويل للانسانية منكم والويل للحقيقة من شعوذتكم والويل لأبطال الرأفة والرحمة والعدل والخلق الكريم من خيانتكم ونكرانكم وجحودكم ستكون أحسابكم وأنسابكم وأسماؤكم أكبر مساعد لكم على خداع السذج ومضاعفة الأغلال في أعناقهم. لقد أدهشكم أن تجدوا الناس والمجتمعات تسير على نظم تخالف ما تفرضه الفضيلة فلا يأخذنكم العجب لأن السلطان لا يزال بأيدي المشعوذين والدجالين . وفي الوقت الذي يسيطر العلماء المتخصصون على القوى التي تدير العالم ستحل مشاكل كثيرة . ستجدون أناساً يصفون الأبيض بالسواد والأسود بالبياض وآخرين يمجدون الجبروت والطغيان ويحتقرون من تملأ قلوبهم عواطف الرحمة والحنان ويمتونهم بأهل الخيال والسخف . ستجدون لصوصاً ينحني الناس أمامهم لخوف لا لاحترام ، وقد يقدمون شرفهم وضمائرهم وكرامتهم لتداس بالأقدام ، ومثل هؤلاء كمثل الجندي الذي يتسلم السلاح والعتاد للدفاع عن وطنه فاذا ما اتى كفة العدو هي الراجحة انضم إلى المنتصرين وسدد نار سلاحه إلى قلوب بني وطنه وأهل جنسه

وفي تلك اللحظة كان الكونت كاسياني أو كاسيني يقترب من حلقتنا شيئاً فشيئاً وهو يصغي إلى كلام الرجل .

ثم استدرت لحظة واتجهت نحو المائدة الوسطى المستطيلة وهي التي عليها لعبة الروليت الشهيرة وكان « الكروبييه » وهو الموظف الموكول إليه حصاد المال وتوزيعه بين اللاعبين يقول : لا شيء ينزل إلى المائدة، لقد تمت الصفقة . ادفعوا نقودكم ورصوها رصاً قبل الختام . فسمعت خلفي صوتاً ناعماً يقول : ليس في اللعب. ليس من أصوله . وآخر يقول: عليك أن تطيعي وتنفذي ؛ ليس من شأنك أو شأني أن نجادل

ورأيت الكونت كاسياني يشق الصفوف ويهمس في أذني: خذ حذرك من الظلام. ولم يكد ينطق بهذه الألفاظ حتى أطفئت الأنوار فجأة ولم يبق في الغرفة ضوء ثقاب ، وساد الهرج فخطوت إلى اليمين خطوة وقبضت على يد زوجتي وسحبتها متقهقراً وإذا بصوت يدوي كالرعد :

— لقد خاطرت بحياتك يا موريارتي وخلطت بين الخيانة في السياسة وبين سرقة قطاع الطريق . هل قبضت عليه يا جريفين؟ لقد سهلت الأمر لكم . واختلطت أصوات النساء بأصوات الرجال وسمعنا طلقات الرصاص في الظلام وتحطيم مرآة كبرى ، واستغاثة وصفيراً، وقد أخذت حذري كانبهت منذ هنيهة وقادتني الغريزة وزوجتي إلى باب الخروج بعد أن اصطدمنا مرتين أو ثلاثاً في عمود من المرمر الوردي أو في مقعد مقلوب كدنا نتعثر فيه ، لولا أن الله سلم . وكانت ساحة الكازينو الكبير هي الأخرى مظلمة ، ولكن نجدة المشاغل قد وصلت إلينا فخرجنا جميعاً صاخبين صارخين وقد سلبت النساء حليهن والرجال نقودهم وبعض أسلحتهم ، وكان بودي أن أفدي هولمز بحياتي لو أمكنني الاهتداء إليه وقد تبينت كل ذوي اللحى فلم ألمحه بينهم ولم يكن يخيفني شيء عليه بقدر الغدر . فان موريارتي وأعوانه لا يترددون في أن يوردوه الردى بخنجر خائن أو وخزة دبوس مسموم ، وقد حشدنا جميعاً في بهو المطعم الكبير ولم نستطع حركة وبقينا رهن تحقيق البوليس

وفى الصباح خرجنا من البهو مبللين ممزقين مهللين ، ومشينا إلى فناء الكازينو بخطى متثاقلة . وكان الفناء يغص بزائرى الكازينو الذين أطفئت عليهم الأنوار وسلبت نقودهم ورأيت ضباط البوليس السرى وهم يستجوبونهم فرداً فرداً بيناً كان مدير الكازينو وحصاد المال « كروبييه » عند الباب الكبير ينتظرون الأوامر

وكان من العبث أن يرفض أحد اللاجئين الاجابة عما يلقى إليه من الأسئلة أو الامتناع عن تقديم « جيوبه » أو حقيبة اليد للتفتيش والفحص الدقيق وإبراز الوثائق الخاصة بتحقيق شخصيته ومركزه الاجتماعى وماضيه وعمله فى الحاضر وما يعتزم القيام به فى المستقبل ، وكان أى تردد أو تلعثم أو ارتباك كافياً لأن يعيد أحدنا إلى المطعم مقبوضاً عليه . لم أندم فى حياتى على شيء ندمى على موافقتى على اقتراح هولمز فى مصاحبته إلى شاطىء ريفييرا . وكان الذى يهمنى أكثر من كل شيء خوفى على أعصاب زوجتى من الاختلال فقد تمزق نياط قلبي من الظلام والخوف . وقلق البال على هولمز الذى افتقدته ...

وقبيل الظهر وصلنا إلى الفندق ونحن بحال من الاعياء لا مثيل لها . ولكن كان همى الأول أن أعلم ماذا حل بهولمز الذي سمعت صوته بلا ريب وكان متزيياً بزى الكونت كاسيانى .

أما زوجتى فقد لزمت الفراش عليلة مما أصابها من الانزعاج وبلبلة الخاطر .

وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم دق تليفون الغرفة التى تقطنها زوجتى وأنا ، وإذا بهولمز يستبطىء حركتنا فى مؤاكلته على مائدة العشاء . فلبينا دعوته مبتهجين . فألفيناه حليقاً معطراً منظما يزدهى فى « ثوب المساء » المحكم التطريز ، المحبوك الأطراف

ولم تكد عينه تقع على حتى قال :

لقد كانت غزوة موفقة ، فقد البنك أثناءها مليونى فرنك ، وفقد النساء نصف حليهن ، والرجال بعض أموالهم . ثم ضحك ضحكة عالية . أما نحن فقد خسرنا موريارتى ، ولم نتمكن من القبض عليه ، وإن كنا قد سمعنا صوته واعظاً .

فقلت : وماذا نكسب إذا خسرنا موريارتى ؟

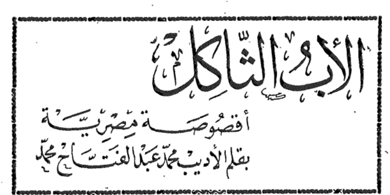
أجاب وهو يبتسم ابتسامة عريضة حلوة :

لقد كسبنا غزو بلاد انجلترا واسكوتلاندا وإرلاندا بلاد الغال . وأخرج من جيبه خريطة ملونة ونشرها على المائدة . وقال :

والذى يفرحنى وأغتبط له أن هذه الخريطة مفردة وقد احتوت على مفتاح الشفرة، فلا نحتاج لمناء حل رموزها ، لقد أعدها موريارتى فهى خلاصة دراسة عشرين عاماً وتجسس لخمسة أعوام . خذها يا وطسن وسافر فوراً إلى لندن . إن لورد كراوبروك أوف كانتورباج ينتظرك فى دوننج ستريت وأبق زوجتك مى وخادمتها كذلك ، وفى أثناء غيابك ... سيقبض على أياماً ممدودة ، ولم يكد ينتهى من حديثه وأفرغ من طى الخريطة ووضعها في أخفى مكان فى ثيابى حتى تقدم إلينا أربعة من الشرطة وقال أحدهم بلغة مونتكاتينى : سنيورى أيكا سنيو سارلوكه هولمز ؟ فأشار هولمز إلىّ وقال : أما أنا فصاحبه دكتور وطسن ، فخلوا سبيلى وألقوا القبض عليه

وبعد عشرين ساعة كانت خريطة الغزوة البريطانية فى إحدى خزائن وزارة الحربية وقد اجتمع الوزراء لدراستها وفحصها .

محمد لطفى جمعة



... ومضى فتحي ينظر إلى زوجته نظرات تفيض بالحنو والاشفاق وهي تجلس قبالته مطرقة واجمة ... كأنها تحلق بروحها في أجواء هموم وأشجان طوتها فجأة فأنستها زوجها الذي كان يحادثها منذ لحظة ... وكانت في وضعها هذا برأسها المستقر بين كفيها ، وشعرها الوحف المرسل ، وجسدها اللدن المليء ؛ تبدو عند أهل الفن وحياً صادقاً للجمال الحزين

كانت سميرة — وهذا اسمها — هي التي كفت عن الحديث فجأة عند ما عرض اسم نبيل ابن جيرانهم ، واسترسلت في أفكار تملكتها فوراً ، فتقلصت ملامح وجهها الساحر وارتسمت عليه علائم اليأس الشديد

وقد احترم فتحي صمت زوجه إذ كان يدري الواقع القاسي الذي زجها فيه . كان يعلم أنه نكأ الجرح الذي في صدرها بذكره اسم نبيل ابن جيرانهم ، فقد لوّح لها بشيء هي محرومة منه ، وتحس الشقاء والبؤس في هذا الحرمان

لقد كانت أمنيتها الوحيدة عقب أن بنى بها هي أن ترزق طفلا ؛ أما وقد انصرمت ثماني سنوات على زواجها منه ولم تنسل ، فقد ضاعت آمالها وانهارت أمانيها ، لذلك كان يغشى وجهها الجميل مسحة من الشقاء والبؤس لأنها تمضي في سبيل حياتها دون أمل أو رجاء . ولكم صرحت له أنها على استمداد للتنازل عن أعز ما تملك مقابل أن تنجب طفلا .. ولكن الأبناء — ويا للأسف — لا يشترون بالمال ، وإلا لما استطاع العامل الفقير أن يرى حوله عدداً كبيراً من الأبناء . إنهم هبة الله ونعمته يوليهما من يشاء من عباده

ثم رفع فتحي وجهه إلى أعلى وتمتم في حرارة وإخلاص :

— اللهم هب لنا من لدنك طفلا

وظل ينظر إلى أعلى فترة طويلة كأنما أحس الراحة في الاتجاه إلى الله في هذا المطلب الذي خرج تحقيقه عن طوقه وقوته . ثم أخذ يخفض بصره رويداً رويداً حتى وقع على زوجه ، فلمح الدموع تتساقط من عينيها ، ففاض قلبه بين جنبيه وهتف وهو يغادر مكانه إليها :

— سميرة !

وجثا تحت قدميها ثم رفع وجهها المخضل بالدموع وقال :

— أتبكين يا سميرة ... ؟ أنت مجنونة ؟

فحولت وجهها عنه كأنما أخجلها تساقط دموعها ثم مسحت عينيها بمنديلها الموشى الصغير وقالت :

— لا شيء ... دعني ... دعني بربك

— إنني أعرف لماذا تبكين ، ولكن ماذا نفعل ولا حيلة لنا في الأمر ؟

فالتفتت إليه بسرعة وأنعمت فيه النظر لحظة قصيرة ، ثم ابتسمت في تهكم وقالت :

— ماذا نفعل ... ؟ أجل ماذا نفعل

كانت تعلم أنه فكر كما فكرت هي في أن يسند الأمر إلى طبيب ليرى أيهما العقيم ، بيد أنه لم يفعل مخافة الهزيمة . لقد استشفت منه هذا الاحساس من حديث لها في هذا الأمر . ولا ريب أنه محق في خوفه ، لأنها تحس إحساساً صادقاً بأنها كأية امرأة أخرى فيها الاستعداد للانسال . . . والتفتت إليه فجأة وقالت :

— ومع ذلك ففي وسعنا أن نصنع شيئاً

— ماذا ؟

— لماذا لا أذهب إلى طبيب ليفحصني ، ومن ثم يعالجني إذا كان العقم مني ؟

وكان في جملتها تعريض بفتحي ، بيد أنه لم ينتبه إليه إذ قال :

أخشى أن تذهب هذه المحاولة سدى . فاني أعلم أن الأطباء لا يملكون — على رغم تهويلهم — في ذلك الأمر شيئاً

وتوقف قليلا ثم استطرد :

— وما يدريك ؟ لعلي أنا السبب

فعادت سميرة إلى إطراقها ولم تجب

* * *

كانت سميرة تحس في نفسها فراغاً كبيراً لا يملأه إلا وجود طفل لها يفيء حياتها المظلمة . أجل ، لقد أحست فجأة وعقب أن هدأت نشوة حبها وخمدت شعلة غرامها — بحياتها يتكاثف فيها الظلام ويتوالد حتى أضحت قاتمة مدلهمة تتخبط فيها يائسة القلب ، مقرحة الجفن . لقد أولاها الله من نعمته كثيراً ، ولكنه حرمها النسل والولد . ها هي ذي ترفل في كل أسباب المتع واللذائذ لا ينقصها شيء منها ؛ غير أنها تحس نقصاً هائلاً يتضاءل إحساسها بالنعيم الذي هي فيه بجانب إحساسها بعذابه وآلامه. لشد ما تتمنى أن يهوى بها الله من حالق هذا النعيم الزائل إلى حياة الفقر والعوز على أن يهبها نعيماً مخلداً، ابناً تتركه في هذه الحياة الدنيا قطعة منها يخلدها على مر الأجيال والزمن ، ابناً يشع النور من بسمته ويفيض الحنان من نظرته ... ماذا تفيد تلك الفرش الثمينة والرياش الغالية وهذا البيت الجميل وتلك الحديقة الفينانة التي تكتنفه ؟ ماذا يفيد كل ما هي فيه من متاع مع هـذا النقص الذي تحسه ؟ إنهـا تشعر كأنها تعيش وسط صحراء قاحلة تضرب الظلمات في جنباتها ، وأنها بعيدة عن عالم الحياة والنور . إنهـا لا تدخل غرفة من غرف المنزل إلا تراها قابضة موحشة خالية من الحياة والروح ، فتراها تتلفت يمنة ويسرة كأنما تبحث عن شيء تفتقده بجوارها ... ولا تسير في الحديقة حتى يتولاها السأم والضجر ... ولا تقف أمام المرآة حتى ترى جمالها الذي طالما غرها ، مجرداً من الروح كأنه تمثال من الحجر الأصم . وأين روحها وهو محلق في شرود وراء أمنيتها البعيدة ؟ بل إنها لترى أن جمالها إن هو إلا كأموال البخيل التي يسره أن ينظر إليها كل يوم دون أن يستثمرها وينميها ... نقص وحرمان يقضان مضجعها ويذهلان عقلها ويسيأنها سوء الأفكار السود المدلهمة

كانت بحياتها هـذه تعيش مسلوبة العقل عازبة اللب ، تعيش بجسدها الآلي كما تعيش الدمى والألاعيب

وما كان ينقذها من عذاب هذا التفكير إلا التريض سائرة إلى بيت صديقتها (زاهية) تبثها شجنها وتنفث إليها خبيئة نفسها . . . وقد تسكب

أمامها الدمع فيفرج عنها عقب هذا البكاء الهادئ ، وتنسى همومها قليلاً فتنطلق هي والصديقة تتجاذبان أطراف الحديث في مختلف الشئون

وكانت زاهية فتاة فى ميعة الصبا وشرخ الشباب ، وقد تزوجت منذ بضعة شهور ، وكانت فى غمرة الحب الأولى ، لذلك كانت تسرى عن نفس سميرة ما هي فيه من عذاب وشجن وتقبح لها ماوراء تربية الأطفال من تعب وإرهاق ، وتعرض على سمعها صوراً عديدة من تفرغ الزوجين لإشباع عواطفهما الجياشة الثائرة بعيدين عن جلبة الأبناء وهموم تربيتهم ... وما كان مثل هذ الحديث ليلقى أذناً من سميرة ، بل كانت تستمع إليه فى ذهول وشرود ... ثم تنخرط فجأة فى البكاء

وعابت سميرة على نفسها أن تحمل زاهية همومها وأشجانها وهي من نصيبها وحدها .. ومن يدريها ؟ لعلها هى الأخرى لا تنجب بنين فيكون بثها الحزن والهم إيحاء لها بالإبنال فى الحزن والهم . . . لذلك راحت تقلل من زيارتها ، بل آلت على نفسها ألا تزورها إلا إذا وثقت أنها تحررت من همومها وأفكارها بعض التحرير ، أو أن فى وسعها أن تتلثم بقناع صفيق من البشاشة والمرح

وخرجت سميرة إلى صديقتها بعد أن غابت عنها شهراً برمته فتلقتها زاهية بفرح عنيف تجلى فى حركاتها العصبية وضحكاتها المضطربة . ودهشت سميرة لحال صاحبتها فقالت تتكلف البشاشة والمرح:

— ما كل هذا الفرح ياترى؟ خير إن شاء الله!

فأجابتها زاهية بين الضحك والتثني :

— آه يا سميرة آه ... إن فى أحشائى جنيناً ، وعما قريب سأغدو ...

وبترت جملتها إذ لمحت ملامح صديقتها تتقلص ويتغشاها الحزن العميق . فأدركت خطأها فى الافضاء لها بالخبر على هذه الصورة السارة البهيجة ..وأحست سميرة بألم هائل يحز فى نفسها ... بيد أنها تمالكت نفسها بجهد واصطنعت الابتسام ثم سارت بجوار زاهية إلى غرفة الاستقبال تنتابها الهواجس والأفكار .. لقد جاءت لتنسى همومها قليلا فصدمها محرك قاس أثار عواصف قلبها الهوجاء . . . وقالت فى نفسها : « لم يارب هذا العذاب ؟.. لم خصصتنى بهذا الحرمان القاسى الشديد ؟.. كل من حولى من النساء ينجبن قرة أعين ... أما أنا ! ... آه ! ... »

وكانت زفرة حارة انشق عنها صدرها الجياش لم تخف على زاهية فأطرقت خجلى من تصرفها إزاء صديقتها المحرومة

وأحست سميرة بالجلسة يسودها التكلف البغيض حيناً والصمت الثقيل حيناً ، فاستأذنت ثم غادرت دار صديقتها ، وسارت تضرب فى الطرقات ذاهلة على غير هدى ، وراحت تتفكر فى حياتها المحرومة وهى فى سيرها البطىء المتئد

وانتبهت من أفكارها الطاغية المستبدة على صوت يهمس فى أذنيها كلمات لم تتبينها فاستدارت إلى المتكلم فألفته شاباً غريباً عنها ، فحدجته بنظرة قاسية وقالت له :

— ماذا تبغى ؟

— ماذا أبغى ؟ لا شىء ... غاية الأمر أنى رأيتك تسيرين ذاهلة عن الطريق فآثرت أن أحادثك قليلا لأسترعى انتباهك الشارد وأعيد عليك ذهنك العازب

لم تجب سميره وإنما أنعمت إليه النظر فوجدته

شاباً طويل القامة عريض المنكبين جميل الوجه ، كان في مكنته أن يفخر برجولة زاخرة لو لم يضف عليها رداء من التخنث والتأنق. ولم يخف على سميرة مرمي الشاب من ذلك التطفل ، إذ أدركت أنه من أولئك الشبان المتاليف الذين يتسكعون في الطرقات ابتغاء إيقاع الفتيات في حبائلهم ... قالت :

— أشكرك .. إني أفضل أن أسير وحدي

فابتسم الفتى ابتسامة أقرت سميرة بينها وبين نفسها أنهـا فاتنة خليقة بأن تجـذب القلوب حقاً . وقال :

— ولكني أخشى على هذا الجمال الساحر أن يتعرض للخطر وهو يمشي هكذا ذاهلا عما حوله

ولم تدر سميرة ما الذي منعها أن تصفع الشاب على هذه الوقاحة؟ كأن ثمة دافعاً خفياً يدفعها إلى الصبر. فوقفت عن السير ونظرت إليه نظرات لا هي بالغاضبة ولا بالمشجعة . كانت نظرات حيرى زائغة ، وأيقن الشاب إزاء حيرتها أنها غدت في قبضة يده فاستدعى سيارة كانت مارة ودعاها إلى الركوب

وارتاعت سميرة لجرأة الشاب وتلفتت يمنة ويسرة ثم قفزت إلى السيارة مبهورة الأنفاس وارتمت على المقعد وهي ترتعد ارتعادا

وأحست بهول ما أقبلت عليه . وراحت تقلب في رأسها الأفكار . لقـد حادثها الشاب وسار إلى جوارها كأنه يعرفها . ثم توقفت عن السير فاستدعى السيارة . أكان في مكنتها بعدئذ أن تغضب وترفض الركوب ؟ . أبدا ما كان لها أن تفعل ذلك إذ أحست أن كل الناس عيون تنظر إليها ، وأنهم أدركوا أنها على معرفة سابقة بالشاب . ومع كل فماذا في ذلك ؟ ستطلب إليه النزول فتمضي إلى حال سبيلها ...

وأيقظها من أفكارها يد الشاب وهي توضع في رفق على ركبتها فأجفلت إجفالا ، وانقبضت في ركن العربة وهي تنزع يده عنها، فالتصق بها وراح يفرغ في أذنيها آياته التي يحفظها عن ظهر قلب .. ثم طوق خصرها بذراعه وهوى على شفتيهـا لثما وتقبيلا

أوه . . . ماذا تصنع ؟ ماذا تصنع ؟ أيمكنها أن تعترض ؟ إذن فلماذا ركبت معه ؟ لا ... إنها لا تستطيع أن تعترض ... ولكنها جريمة تلك التي تأتيها . يجب أن تبعد الشاب عنها وتطلب إليه النزول .. ولتصرخ إن أبى . . ولكن من ذا الذي سيستمع إلى صراخهـا وها هي ذي العربة تطوي الأرض طيا ؟

وأحست بالضعف بين هذين العاملين اللذين يتجاذبانها فأنشأت تبكي في يأس مرير

ومضي الشاب يسرى عنها بقبلاته النهمة الجائعة ويهدئها بكلماته المنمقة المعسولة حتى وقفت السيارة فأمسك بيدها ودعاها إلى النزول . . . ثم صعد بها بعد أن نقد السائق أجرته إلى أحد طوابق المبنى الذي وقفت أمامه السيارة

بعد ساعتين من ذلك كانت سميرة تدخل منزلها وهي تكاد ترزوحها تحت عبء الاثم الذي اقترفت أن تلطم خدها وتجذب شعرها . . . كانت في حالة يأس هائل فاتجهت قدماً إلى غرفتها وهي تتمتم : « أواه ... لقد عرفت ... »

لقد أدركت الآن فقط الدافع الذي دفعها في عنف إلى اقتراف ذلك الجرم الشنيع ... هو رغبتها في إنجاب ولد .

***

وتقضي شهران شعرت سميرة بعدهما بتغيير تام في حالتها . إذ أصابها نحول خفيف وامتقع لونها قليلا وصدفت عن الطعام وأخذ الاغماء يعاودها من حين إلى حين فارتاع زوجها من تلك الأعراض وظن أن بها داء فاستدعى الطبيب بنفس خائفة جزعة .

والتفت الطبيب إلى فتحي باسماً ثم سحبه من ذراعه إلى خارج الغرفة وهمس في أذنه يقول :

— أبشر يا سيدي ... إن زوجك حامل

عقلت الدهشة لسان فتحي فظل برهة ينظر إلى الطبيب في ذهول ، ثم انتبه أخيراً إلى نفسه وقال بصوت يتهدج من شدة الفرح :

— آه ... أشكرك يا سيدى ... أشكرك

ثم تركه وهرول مسرعاً إلى مخدع زوجه ووقف بالباب لحظة قصيرة ينظر إليها وتنظر إليه وكانت نظراتها مزيجاً من الحدة والخجل ... والخوف غير أنه لم ينتبه إلى تلك النظرات الناطقة بل أسرع إليها وهو يهتف :

— سميرة ! أما علمت يا سميرة ؟ إنك حامل . هكذا قال الطبيب ... وافرحتي وافرحتي ... فأسبلت سميرة عينيها وقالت في نفسها : « نعم ... كنت أعرف . كنت أعرف . لك الله أيها الرجل »

ومنذ تلك اللحظة أحست سميرة بأن هذا الرجل الجاثي بجوارها غريب عنها

***

اكتملت أشهر الحمل وأنجبت سميرة طفلا فرح به فتحي فرحاً شديداً وأطلق عليه اسم عادل ... وفرحت سميره بالطفل ، لا لأنه طفلهما — هي وزوجها — بل لأنه طفلها هي فحسب ، فما كانت لتلقي بالا إلى شعور زوجها الذي كان سبباً في حرمانها تلك النعمة طوال تلك السنوات الماضية ... لقد ارتكبت إثماً زرياً ... ولكنه أيضاً إثم محتمل . ألم يمنعها ما عجز زوجها عن منحها إياه ... إنها مجرمة في نظر المجتمع وفي نظر الناس ، ولكن أيدري المجتمع عن إثمها شيئاً ؟ ما من أحد يعلم ، حتى زوجها لا يدرى من الأمر شيئا ، وخير له ألا يعلم . ولكن أيبلغ بها الغدر والخيانة أن تخدعه هذه الخديعة؟ لم لا تصارحه بالحقيقة وتفضي إليه بالسر وليكن بعدئذ ما يكون . وما الذي تراه سيكون ؟ سينكرها؟ سيطردها؟ أجل، فما في وسعه أن يفعل غير هذا. حسن! وماذا في ذلك؟ حسبها إذا طردها أن يكون لها عادل. ذلك النور الذي أشرق في أفق حياتها المظلم. ذلك الأمل الذي أجرمت لتحققه وأثمت لتبلغه . أجرمت؟ أثمت؟ إنها لم تجرم ولم تأثم. إن المرأة لتزخر بعاطفة أخرى غير عاطفة الحب ... عاطفة الأمومة ويجب أن تشبعها كما تشبع عاطفة الحب ... فهي لا تستطيع أن تعيش على الحب فحسب .. وها هو ذا زوجها قد قصر عن إشباع تلك العاطفة المكبوتة فالتمست إشباعها عند رجل غيره ، فهل في هذا إجرام ؟ . . خليق بالرجل قبل أن يتزوج أن يلمس في نفسه كل ما يحقق أماني المرأة ... وإلا فليتنح عن الطريق لغيره ... إذن فالذنب ذنبه لا ذنبها .

وهكذا أخذت سميرة تلتمس لنفسها المعاذير وتبرز الحجج حتى انزوى ضميرها وطغى عليه ذلك الحب الوليد الذي نشأ بين جوانحها نحو طفلها العزيز

وتصرمت بضعة أشهر كبر فيها الطفل واستطاع

أن يبتسم لمرأى فتحى، فكاد هذا يطير من الفرح .. وراح يحمله بين ذراعيه ويهدهده فى حنان ويحادثه بلهجة مكسرة إعزازاً وتدليلا ويخرج من الأصوات ما يجعل الطفل يحدق فيه ويبتسم فى سذاجة الطفولة البريئة ...

وكانت سميرة إبان ذلك تنظر إلى زوجها نظرات جامدة لا ترتسم على وجهها تلك البسمة التى تبدو على وجه الأم حين يداعب الأب طفله ... بل كثيراً ما كانت نظراتها تقسو حتى تمتزج بالتهكم والازدراء وتكاد أن تهم بأن تنتزعه منه قائلة : « دعه ... دعه أيها الرجل فانه ليس ابنك »

وبلغ الطفل العامين من عمره فكان فتحى لا تسعه الدنيا حين يناديه بلفظة « بابا » أو يمتطى فخذيه ويداعب شاربه بأنامله الصغيرة البيضاء فى براءة وطهر ... بل كان يشعر بالزهو والخيلاء حين يسير فى الطرقات الهوينا وبجانبه عادل يتعثر فى مشيته وهو ممسك بيده

واستقرت سميرة وهدأت نفسها وظنت أنها أوتيت خزائن الدنيا فى شخص صغيرها المفدى ... وكانت تنظر إلى وجهه الأبيض المشرق فتحس الحنين يطغى عليها وتشعر بقلبها يخفق بالحب الكبير ... وكثيراً ما عاودتها ذكريات قديمة وهي تنظر إلى وجه ابنها ، فقد كانت ترى فى وجهه ملامح نجم أشرق فى أفق حياتها ساعة ثم خبا ... كانت ترى فى وجهه وجه أبيه فترتعد وتهتز كأنما مسها تيار من الكهرباء عنيف

ملأ الطفل البيت حياة وبهجة ، فأضحى كمدينة مأهولة صاخبة بعد إذ كان كصحراء مجدبة قاحلة .

وما كان يغيظ سميرة ويفسد عليها سعادتها إلا رؤيتها زوجها متعلقاً بابنها كل هذا التعلق

* * *

وكان يسيراً أن تترى الحياة على هذا النسق ، لو لم يحدث ذلك الحادث الجلل الجسيم ، إذ سقط عادل مريضاً محموماً فأضفى على البيت رداء حالكا كثيباً ... وجزع فتحى لمرض صغيره ودعا له الأطباء فكانوا يخرجون بنتيجة واحدة ، هى أنه مريض بحمى معوية ، إن ينج منها فكأنما ولد من جديد

وكاد فتحى يجن من هول الصدمة ... فأضحى لا يغادر غرفة عادل ، بل راح يمضى ليله ونهاره على مقعد بجوار فراشه لا تفارق عيناه وجهه النحيل الصفر ، وإذا أضناه السهر أو أنهكه التعب تراه يغفو قليلا فى جلسته ثم ينتبه من غفوته فجأة على نحيب زوجه ونشيجها

ومضى يومان أوغل فيهما المرض فى بدن الصغير فصيره كالخيال، ورسم الموت على وجهه علائم الفناء ، وارتاع فتحى لتقدم المرض السريع فراح يذرع أرض الغرفة فى عصبية واهتياج وهو بين الفينة والفينة يمسح الدمع السخين ويزفر الزفرات الحرار ، بينما جثت سميره بجوار الفراش تتطلع إليه بعينين شعتا كل معانى الجزع واللهفة واليأس

لم تكن تبكى فقد استعصى عليها البكاء ، إنما كان قلبها يتقطع ويتفتت أسى وحزنا ...

وكان الطفل راقداً فى فراشه كالخيال يعلو صدره ويهبط فى اضطراب وحشرجة وتتجه عيناه الطفأتان إلى سقف الحجرة كأنما ثمة شيء فيه يسترعى النظر

وانشق صدر سميرة عن صرخة هائلة دوت فى سكون الغرفة الرهيب ، ثم واتاها الدمع فانفجرت تبكى بكاء مراً . فارتاع فتحى وأسرع إلى الطفل فألفاه يتنفس ببطء وصعوبة فعاوده الأمل ، وأدرك أنها تكاد تجن من شدة الحزن وأن منظر الطفل المشجى قد بعث فى نفسها اليأس قتالا مميتا

والواقع أن سميرة أنكرت على القدر أن ينتقم منها هذا الانتقام الرهيب فيسلب منها طفلها ... ماذا عليه لو تركه لها وليفعل فيها هى بمدئذ مايشاء ؟ إنه انتقام ... أجل إنه انتقام . فيالقسوة المنتقم !

والتفت الطفل برأس أثقلته الحمى القاتلة إلى أمه وقال بصوت تمشى فيه الفناء :

— أشرب ... عاوز أشرب

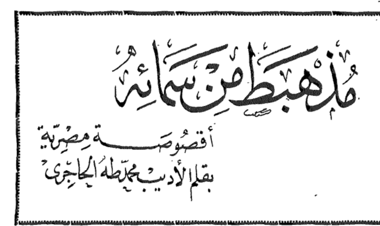
فاندفعت أمه تتعثر فى دموعها الغزار وأحضرت كوبا من الماء وأدنته من فم الصغير وما كاد الماء يلمس شفتيه حتى لفظ النفس الأخير

صرخت سميرة فى جنون وراحت تلطم خدها وتقتلع شعرها ففاض قلب فتحى وجزع . وكأنما خاف الحقيقة فوقف ينظر إلى الطفل الميت نظرات ذاهلة برهة قصيرة .. ثم أدركته الحقيقة القاسية فاندفع إلى الجثة يعطرها وابلا من قبلاته وهو يزأر زئير أسد جريح

وانتبهت سميرة من حزنها على صراخ زوجها وعويله ونظرت إليه وهو منكب على الجثة يقبلها فى كل أجزاء الوجه المتقع ... نظرت إليه فى ذهول ودهشة ... ثم تولاها الحنق والغيظ ... وتمتمت وعلى وجهها ابتسامة ساخرة :

— يا للغر الأبله ! ماذا يفعل إذن لو كان يعلم ؟!

محمد عبد الفتاح محمد



حدثني صاحبي ، قال :

كان فيمن صحبت من الناس في أوائل الشباب شاب في عنفوان السن ، وكان من أهل اليسار والنعمة ، أنيق اللبسة ، متدفق الفتوة ، كثير المرح ، ولكنه مع هذا على خير ما يكون عليه الرجل السعيد ، فيما أعرف أنا من كلمة السعادة ، سلامة صدر ، وطهارة قلب ، ومتانة خلق ، وبعدا عن سفاسف الحياة وصغائر الشباب .

وكان أول أمري معه أني لم أكد أعرفه معرفة السمع والبصر ، حتى أحببته حب الرأى والعاطفة ، كأنما كان بين روحينا منذ البدء آصرة ، كما يقول علماء الروح ، وإن فرقت من بعد بيننا شتى الفوارق الاجتماعية ، حتى ما كان لمثلي أن يصحب مثله . ولكنا ما إن تراءينا حتى تعارفنا فتآلفنا فمحض كل صاحبه وده وخلط به نفسه ، فكان عيبة سره ومستقر أمره وراحة صدره . وذهبنا نتساقى كؤوس الصداقة الصادقة ، لا يشوبها شائبة غرض ، ولا يعيبها ما تخضع له علاقات الناس من أهواء النفوس المختلفة ، وعلالات الحياة المادية المنيفة . ومضينا على ذلك عهدا طويلا لا أجد له في قلبي إلا كل محمدة ، ولا أنسم عنه بين الناس إلا عطر الأحاديث . إذ كان رجلا كامل الرجولة ، فاضلا على أتم معاني الفضيلة ، لا يستهويه من نزق الشباب ونزوات الفتوة ومغريات البيئة ما تهافت عليه أهل المصر عامة إلا من عصم الله .

فنعمت به خير ما ينعم حبيب بحبيبه ، وحمدت الله على هذا التوفيق الذي أنساني هموم الحياة وغمرني بالمتعة الحقة ، وأوجد حولي جوامن الواقع يتسق مع ما كان يقوم في نفسي من أحلام المثل العليا التي أنشأتها في نفسي تلك البيئة الدينية الخاصة في انقباضها وتزمتها ، وزينتها في صدري غضارة القلب الناشىء السليم . . .

ولكني لا أكتمك أني كنت أحس في بعض الأحيان أنه قد احتجز لديه من أسراره سراً يطويه عني ، ويصطنع الحيطة والحذر في كتمانه وإخفاء بوادره ، فكان يحيك لهذا في صدري شيء من الغيرة والألم ، ولكن ما كان أسرع ما يتلاشى في غمرة النعيم الروحي الذي يملأ قلبي ، فلا أرى أمامي إلا ذلك الرجل الفاضل المهذب ، وتلك الروح اللطيفة الصافية ، وذلك الضوء الساطع الذي يمتد فيما بيننا ويغمر ما حولنا ، وهكذا مضينا أعواماً خمسة لم ينل من هذه الصداقة شيء . ولا تغير في عيني شيء من معاني الكمال الخلقي الذي كانت تتألق به نفسه ، ولم أعد أعبأ بذلك السر الذي كان في قرارة صدره وكان يخيل إلي أحياناً أنه سر امرأة ، إذ كنت أشم منه عبير الحب ، فلم أحاول مطلقاً أن أسئله منه وما ندمت على شيء فيما بعد ندمي على إغفالي هذا

الأمر ، وإغضائي عن هذا السر ، وعدم احتيالي لمعرفته فربما كان في ملكي أن أعمل شيئاً أتخذه قرباناً للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجلها قربة ، ولكن الله غالب على أمره

ثم ضرب بيننا الدهر فطرحتني بعض شؤون الحياة العاتية مطرحاً بعيداً ، فكنا نتراسل بما يقوم بحق الصداقة بعد أن حاول الزمن أن ينال منها ، وكانت تأتيني رسائله فيفتتح لها قلبي، وتسطع ألفاظها بمعانيها سطوعاً روحياً باهراً ، فأجد لها نشوة أي نشوة ، وأستشعر منها لذة لا تعد لها لذة ثم ... ثم أخذ شعوري بهذه اللذة يضعف ويتضاءل ، ثم إذا بي لا أرى ذلك النور الذي كان يتألق في كلماته وعدت من بعد لا أقرأ في رسائله إلا أحرفاً مجتمعة وعبارات مصطنعة ، لا أكاد أعرف لها معنى ، وأخذتني لها غاشية من الألم والحيرة ، واتهمت نفسي بالنسيان ، ورميت قلبي بالملل ، وعالجته العلاج الشديد أن يعود إلى عهده من إدراك معاني الصداقة. ثم لم أدر بعد إن كان قد صدئ فلم تعد تلك المعاني تتجلى فيه وتنعكس عنه ، أو أن في الأمر شيئاً وراء هذا يرجع إلى أن الصداقة قد فقدت قوتها الروحية وخلت من معانيها التي قامت عليها وشدت منها وحاطتها أبلغ الحياطة . وما زالت الحيرة تتردد بي بين شتى الفروض ولكن الرسائل كانت ما تزال تروح وتغدو فيما بيننا تحمل ما يتراسل به عامة الناس من كلام لا طعم له ولا روح فيه

***

ثم أتيحت لي العودة إلى مسارح ودي القديم بعد عام وبعض العام ، فعدت وأنا أشد ما أكون شوقاً إلى مطالعة صاحبي وتجديد العهد بذلك الجمال الروحي الذي فقدته ففقدت منه حظاً غير قليل من المتعة الصادقة والرّوْح النفسي

وسارعت إليه ، فهش لي ، وتحفى بي ، وأجمل تحيتي ، وبالغ في تكرمتي . ولكني كنت أشعر بذلك كله في دخيلة نفسي ألفاظاً لا معنى لها ، وصورة للصداقة لا روح فيها ، وأنكرت من شخصه ما أنكرت بالأمس من رسائله ، وكأن لم يتغير شيء في رأي قلبي . وحسبت هذا صنع الزمن ، فرجوت منه تجديد ما أخلقه

ولكن هيهات ...!

فلقد ترامت إلى الأخبار من كل وجه أن صاحبي قد حال أمره ، وتغير عهده ، وانتقضت عراه ، فأصبح من ذوي المجانة والعهر والتبطل ، وجعل حياته كلها في أعقاب كل فاجرة ، وابتغاء كل مستهترة ، واقتناص كل سادرة . وجعل يبذل لهذا عن سعة من نفسه وماله لا يبالي ما أنفق منهما ، ولا يأبه لمصيبته فيهما ، ولا يراجع في ذلك رأياً ، ولا يعبأ بعبرة مطوية أو مكشوفة . وذهب عنه كل ما عهده الناس فيه من رأي متزن وبصيرة نافذة ، فطوى كل قواه الفكرية ومواهبه النفسية فيما زين له من شهوة عاتية ونزوة طائشة

قيل لي هذا ورويت لي النوادر العجيبة والصور الطريفة من حياته هذه ، وأنا لا أكاد أصدق ما يرويه الناس ويؤكدونه ويتواترون عليه . فقد صحبته تلك المدة المديدة ، وخالطته مخالطة الأخ الأدنى ، كما سبق لي القول ، فما أنكرت عليه شيئاً تخزى منه الفضيلة ، ولا أخذت عليه ما يقدح في خلقه أو مروءته ، ولقد أثبت أمره فاذا هو نقي الدخلة قد تشابه ظاهره وباطنه واستوى سره وعلنه ، فما باله اليوم ؟

أفى الممكن أن تتغير الأخلاق وتحول الطبائع وتتحول الشخصيات بهذه السهولة ، وفى عدة من الشهور قليلة ؟ أم كنت مخدوعاً فى أمره ، معصوب العينين تجاهه ، وأنا أحسبنى بصيراً به ، متثبتاً من حقيقته ؟ أفى الممكن هذا ؟ ذلك سر من أسرار النفس ، ولغز من ألغاز الحياة الانسانية ، وما أكثرها وأخطرها !

لقد ذهبت ألتمس التفسير من كل مظانه ، وأقبلت أتحدث إلى هذا وذاك من أقاربه الأدنين فى خاصة أمره ، وما عساه قد داخل حياته ولابس نفسه ، فأعيانى أن أجد تفسيراً يطمئن إليه عقلى ، ويطرد مع ما أعرفه عنه ، فانصرفت عن هذا وفى نفسى من الحيرة بمقدار ما أجده من الألم له ، والفجيعة فيه ، واللوعة لمصابه ، وترحمت على عهد كانت صداقتنا فيه كالغدير الصافى تنعكس عليه أشعة السماء

* * *

ولقيته أصيل يوم من الأيام فى طريقى إلى مرتاضى بظاهر المدينة ، وكنا نمتاده معاً من قبل . فاستصحبته فصحبنى إليه ، حتى إذا غشيناه كانت الشمس قد غربت بمغربها ، وطلع البدر من مشرقه . ومرتاضنا هذا هو روضة على جانب طريق زراعى ، تقوم بها أشجار متشابكة الأغصان ، وتحفها شجيرات ملتفة الأفنان ، وتنتثر على أرضها أزهار مختلفة الألوان ، وقد جرى إلى جانبها غدير صاف يتألق فى ضوء القمر وقد سطع علينا من سمائه ، فاجتمع لهذه الروضة جمال الأرض وجمال السماء ، وكانت نسماتها تتأرج بذكريات الود القديم ، فاجتمعت لنا منها متعة الحس ومتعة الروح . فجلسنا على مقعد وضع هناك ، وقد تركنا أنفسنا للذكريات تتناجى وتتجاوب ، حتى غمرتنا روح المكان ، وفنينا فى جلال الذكرى وأحسست فى قرارة قلبى بالضوء الجميل الذى كان يغمرنا حين كنا نجلس هذا المجلس من قبل . ثم بدأ صاحبى يتحدث أجمل حديث وأروحه على قلبى حتى كدت أنسى تماما انقلابه الأخير ، ولا أرى إلا عهداً من الود الصادق موصولا .

وبينا نحن كذلك لاح لناضوء سيارة على الطريق الزراعى تتوجه شطرنا ، حتى إذا حاذتنا أو كادت وقفت لتعود . وكان بها شاب حسن البزة ، متأنق الشباب ، وإلى جانبه فتاة بديعة القوام مشرقة الوجه ، وقد ألقى القمر عليها أشعته فبدت فى أبهى منظر وأروع مجلى . ورأيت صاحبى قد ألقى نحوها نظرة ثابتة مبهوتة لم يرجعها حتى دارت السيارة ورجعت أدراجها ، فزفر زفرة حرى والتفت إلى يقول :

— أرأيت هذه الفتاة ؟

— أجل ! وماذا تريد ؟ أطريدة جديدة تنصب لها شباكك ، وتعد لها أشراكك ؟

— معاذ الله ! بل معبد روحى ومحراب قلبى : حيل بينى وبينه ، فاندفعت فى الطرقات اندفاع البهم الجامحة

فسكت برهة أتأمل قوله ، فلم يكشف لى عن وجهه ، فاستوضحته معناه ، فأطرق لحظة حسبته يعالج فيها نفسه أشد العلاج ، ويراودها عن سر قامت دونه الحجب والأغلاق ، ولبثت أنتظر وأتأهب لسماع قصة ممتعة تكشف لى عن ناحية من حياته . ثم التفت إلى يقول :

— أعنى أنها كانت حبيبتى التى سيطرت على قلبى ، ثم ...

ولكني لم أدعه يكمل حديثه فقلت له :
— أيهن ؟ فهن كثر
فنظر إلى نظرة فيها معانى الألم والتوسل وقال لى :
« ناشدتك الله دعني من هذا التهكم والتأنيب وحسبي ما أشعر به فى قلبي من لذع كلذع الجمر ، فان روح هذا المكان قد لبست ضميرى فنفخت فيه الحياة ، ولا والله ما أحببت إلا هذه الفتاة التى رأيتها ، والتى أنا محدثك عن أمرى معها :

لقد عرفتها فى ميعة السن ، وأحببتها فى مطالع الشباب . ولست أذكر الأسباب التى وصلت بيني وبينها ، وهيأت لى سبيل حبها ؛ ولكنى أذكر أنها مازالت تكبر فيعيني وتعظم ، وما زالت تمتد معانيها وتتسع ملء الأفق ، حتى تألهت فى رأى قلبى ، وغمرتنى بأشعتها الساحرة فأحسست كأن نفسى مشتقة منها ، وكأن وجودى مندمج فى وجودها . وجعلت لا أراها بعد إلا معنى متسقاً من الجمال والطهر والعظمة ، يبعث فى نفسى معانى الحب والفضيلة والخضوع

وجعلت أدور في فلكها الساحر الجميل المتلألئ وما شعرت قط بالضيق به والرغبة عنه والتفلت منه ، إذ كان عالمى الذى لا أعرف عالماً سواه ، والذي اجتمعت لى فيه كل أسباب المتعة ومعانى اللذة ومظاهر الكمال

ولقد كنت فتى تمـلأ الفتوة عروقي وتهز أعصابى ، وكان جديراً بها أن تفعل بي فعلها الطبيعي، فتوجهنى تلك الوجهة التى يتجهها الشبان ، وتهوى بى ذلك المهوى الزاخر بشتى اللذائذ الجسمية ، وتقذفنى إلى تلك السياحة التى يحف بها شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ولكنى كنت محفوفاً بروحها الملائكية ، محصوراً فى فلكها السماوى ، مملوءاً بمعانيها الجميلة ، ولذائذ حبها البرىء .

لقد كانت ملاك روحى ومساك فضيلتى وشمس حياتى ، سواء فى ذلك شهودها وغيابها وجلوتها وحجابها ، إذ كنت أحيا فى شعوري بها وإحساسى بحبها . ولكنى لا أذكر يوماً من أيام حبنا مضى دون أن أجلس إليها ، وأتمتع بطلعتها ، وأملأ قلبى بجمالها ونضرتها ، فكنت أرى هالة من النور تحيط بوجهها ، وعالماً من الفضل والشرف والجمال والكمال يقوم حولها ، فكنت أنظر إليها نظرة حب وإجلال معاً

وكنت أقرأ معها أحياناً بعض كتب الأدب فأشهد ما عرفت أستاذاً يشرح دقائق الفن كما كانت تشرحها هى فى نظرة أو لمحة تحيط بالمعانى النفسية البعيدة ، فتجلوها أمام عينى كأنما صورها مصور صناع ملهم . يالله ! لقد كانت تحدثنى بألفاظها ، حديثاً فيه متعة القلب والأذن ، وفيه جمال النغمة والمعنى ، وفيه الحبيبة بكل مظاهرها ومعانيها . أواه أواه من ألم الذكرى وفجيعة المصاب فيها !

لقد أباها على القدر فرمانى بذلك الشاب الذى رأيته إلى جوارها : ساقه إلى خطبتها ، وزينه لأعين أهلها . فانى لجالس ذات يوم وإذا بها مقبلة على ، وفى عينيها آثار البكاء .

فجزعت وأخذتنى اللوعة ، وأقبلت عليها أسائلها فقصت على القصة ، وطلبت إلى أن أتقدم لطلب يدها عساى بذلك أبعد الخطر الداهم وعرفت حين ذاك أن ذلك الشاب موظف بوزارة الداخلية ، من أسرة متوسطة الحال ، يتقاضى مرتباً لا يتجاوز خمسة عشر جنيهاً . وقد رآها مرة فى طريقه ، ثم ذكرت

له فتقدم إلى أبيها — وهو رجل ساذج غفل — وحوله حاشية كبيرة من هيبة الوظيفة ، وما يبثه الوهم من حولها ، وما يخلعه السماسرة عليها ، من الأضواء الساطعة والألوان الرائعة .

وتقدمت إلى الخطبة وأنا لا أكاد أشك فى الغلبة والظفر ، إذ كنت أحسبنى معتصما بأقوى الأسباب فى مثل هذه الأمور ، من مجد الأسرة واتساع الثروة وشرف الاسم . وأما منافسى فما يملك إلا الوظيفة وأهون بها . ولكن خاب ظنى ، فان الوظيفة التى طغت على شتى نواحى الخير فى مصر ، وهزمت صفات الرجولة والشمم والإباء فى نفوس الناس ، قد أخلت بالموازين المعتبرة فى تقدير الرجال ، فشالت كفتى ، ورجحت كفة صاحبى ، فتملل لى أهلوها بأن فلاناً سبقنى إلى خطبتها ، وما هى والله إلا الوظيفة ومصيبتها وسوء أثرها فى أنظار الناس . فانصرفت وأنا أرانى قد أصبت فى قلبى بما حطمه تحطيما وتركه هشيما .

... وانتقلت صاحبتى إلى بيت زوجها ، ولم يلبث أن سافر بها إلى مقر وظيفته ، فانقطع ما بيننا تماماً ، ووجدت هى فى بيتها وأسرتها ما يستأثر بروحها ونشاطها النفسى ، وأما أنا فماذا لقيت ؟

لقيت شر ما يلقاه امرؤ مما يسمونه برد الفعل

لقد طوحت بى تلك الصدمة العنيفة إلى الجهة المقابلة لما كنت فيه مما أحسبه أسمى حالات الخير والفضيلة ، فارتكست فيما ترانى فيه ، وتنكره علىّ ، من الخلاعة والتبطل ، والجرى وراء كل بنى طموح ، وكل طائشة صبية ، وانطلقت غريزتى الجنسية فى كل طريق يفسح الهوى من جوانبه ، وتزيد الشهوة فى مذاهبه ، بعد أن كانت محبوسة من حب فتاتى فى مكان سحيق .

ويلاه ! لقد كنت وجدت فى حبها سبباً يصلنى بالسماء وما تزخر به من الملائكة ، فلما انبتّ السبب هويت إلى الأرض أتعرض لنزغات الشياطين والأبالسة .

لقد كنت من حبها فى فلك سحرى جميل ، أدور به أينما درت فى حدود جاذبيتها تمسكني أن أهوى أو أنحرف ، فلما ذهبت تلك الجاذبية عنى جعلت أتطوح هنا وهنا لا يعصمنى عاصم ولا يعنينى شىء .

كنت معها ملكا فأصبحت بدونها شيطاناً

كان قلبي منها فى محيط نورانى مشرق ، فأصبح من بعدها فى ظلمات بعضها فوق بعض »

وهنا أخذته الذكرى وبلغ به التأثر ، فلم يملك نفسه من البكاء ، وجعل ينشج نشيجاً مراً ، وأنا أحاول تهدئته والتخفيف عنه ، حتى سكت عنه البكاء فأخذت بيده ، وأخذنا طريقنا إلى المدينة ، وسرنا فى صمت ظاهر ، تتكسر من تحته الخواطر ، وتتقلب فيه الصور والمعانى ، وجعلت قصة حبه تتردد فى خاطرى مختلطة بقصة صداقته وعهوده . فذكرت ذلك السر الذى كان يحاول كتمانه ، وقد صدق فيه حدسى : إنه سر الحب الذى أترع له كؤوسه فى عالم الملائكة المقربين ، ثم تركه يهوى بين المردة والشياطين « وندمت أشد الندم على إغفالى هذا الأمر ، وإغضائى عن هذا السر ، وعدم احتيالي لمعرفته ، فربما كان فى ملكى أن أعمل شيئاً أتخذه قرباناً للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجلها قربة ، ولكن الله غالب على أمره » محمد طه الحاجرى

حاجي بابا إصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثامن والثلاثون

بين الواجب والضمير

أتم الشاب الأرمني قصته وتركني بين أشد عوامل الدهشة من غرابة قصته والاعجاب بحسن صفاته. ثم أذنت له بالذهاب مع بعض جنودي لرؤية زوجته في المنزل الذي وضعناها فيه لكي تستريح، وقلت في نفسي يستحيل أن تكون هذه القصة الطويلة التي قصها عليّ مخترعة كلها لأنني قد رأيت بنفسي المرأة التي يتكلم عنها ووجودها أقوى دليل على صحة الرواية التي رواها. ولكن إذا تركتهما وعلم السردار ذلك فلا شك أنني سأفقد وظيفتي وربما فقدت أذني أيضاً. إن الرحمة لا تلائم مصلحتي ما دمت أريد البقاء في هذه الوظيفة؛ ولن أكون حكيما كما يقولون عني إذا لم أتبع حكمة لقمان الذي يقول فيها: « ما ينبغي للنمر أن يظهر بمظهر الحمار كيلا يجمع بين الشراسة وبين الخداع. فمن كان يشبه النمر فليظهر بين الناس شرساً كطبيعته لأن ذلك أقرب إلى الفضيلة. وما ينبغي للحمار أن يظهر بمظهر النمر، فان العالم يكون أشد قسوة عليه منه على سائر الحمير. فمن يشبه الحمار فليظهر بين الناس حماراً، فان ذلك أقرب أيضاً إلى الفضيلة »

بقيت متردداً فيما يجب على عمله نحو يوسف هل أطلق سراحه أم أقوده إلى الأسر؛ وبالتالي هل أكون نمراً أم حماراً

وبينما كنت أفكر في ذلك عاد يوسف الأرمني وأخبرني أن صحة زوجته تحسنت بعد أن استراحت في ذلك المنزل، ولكن الضعف الناشئ عن النزيف كان لا يزال مانعاً لها من الانتقال إلا إذا طاردها السردار فاضطرت إلى الفرار من وجهه، وأنها أخبرته بقصتها منذ اختطفها الفارسان إلى أن وجدها يوسف

قالت: إن اللذين اختطفاها ذهبا بها في الحال إلى بيت السردار فأمر بوضعها في منزل الحرم بين جواريه وأجازهما على اختطافها وإن السردار لما رأى ضعف بنيتها وهزال جسمها أهملها فجعلت بين الخادمات العاديات فحمدت الله على ذلك. وكانت تتجنب الظهور بأي مظهر لكي تبقى مهملة. وقد نجحت في ذلك أول الأمر ولكن سوء الحظ سلط عليها عجوزاً من جواري القصر تظاهرت بودها وأفهمتها أنها تريد مساعدتها على استرداد حريتها

فلما أصغت مريم إليها واعترفت لها برغبتها في الفرار ظهر غدر العجوز ونقلت الحديث إلى السردار

قالت مريم: « فلما سمع ذلك اغتاظ غيظاً شديداً وأمر باحضاري وأسمعني ما أكره سماعه من الوعيد والتأنيب وهددني بالموت إذا حاولت الفرار وأمرني بأن أبرهن على إخلاصي بالاستعداد لمقابلته في تلك الليلة فصممت على أن أهرب بمجرد عودتي بإلقاء نفسي من النافذة فاما أن أتمكن من النجاة وإما أن أتخلص من الحياة

ولما فتحت النافذة كنت أريد إلقاء نفسي منها ولكنني رأيتك يا يوسف فحمدت الله

وكان بعض الجواري قد جئن قبل ذلك بلحظة فأمرنني بالاستعداد لدخول الحمام فصرفتهن عني بحيلة وأغلقت باب الغرفة قبل أن أفتح النافذة مصممة على اللحاق بك أو على الموت محاولة ذلك »

بعد أن أسمعني يوسف تلك القصة التي روتها له زوجته أظهر اهتماماً شديداً بمعرفة رأيي في أمره وتوسل إلى أن أعده ببذل مساعدتي له ومنحه صداقتي ، وكان جنودي قد عادوا في ذلك الوقت من الأماكن التي كانوا متفرقين فيها وأعدوا جيادهم وجوادي لاستئناف سيرنا، وكان رأيي قد استقر بعد تردد في شأن الأرمني وزوجته فناديته وقلت له :

« بعد القصة التي سمعتها منك يا يوسف صار محالاً عليّ أن أطلق سراحك لأنك قد اعترفت بأخذ سيدة من قصر السردار، وذلك ذنب قد تعاقب عليه بالموت ، وقد كان واجباً على ألا أمهلك وتلك السيدة إلى الآن بل أبعث بكما إلى أريفان ساعة اعترفت لي هـــذا الاعتراف . ولكن إذا قبلت ما سأعرضه عليك فانني لن أفعل هذا »

ثم أخبرته عن وظيفتي وعن المهمة التي أرسلت لأدائها وعرضت عليه أن يرافقنا في تلك المهمة فيكون دليلاً لنا في البلاد التي يعرفها أكثر منا وقلت : « إذا رأيت منك إخلاصاً في خدمتنا فاني أعدك بأن أدافع عنك عند السردار وأتوسط عند رئيسي وأحصل باذن الله على أمر باطلاق سراحك وفي هذا الحين تبقى زوجتك بالمنزل الذي هي فيه الآن حتى تعود إليها سالماً »

لما سمع يوسف قولي دنا مني فقبل يدي شاكراً ووافق على ما عرضته عليه ، فأذنته بأن يعود مرة أخرى إلى زوجته ليودعها وليخبرها بما قلته له فشكرني مرة أخرى وسار مع واحد من جنودي

الفصل التاسع والثلاثون

يوسف الأرمني يبرهن على أنه أهل لثقة حاجي بابا

سرنا متجهين نحو الحدود القوزاقية ، وكان يوسف خير دليل عرفناه لمعرفته بهذه الجهات معرفة دقيقة أدهشتنا ولم يبد منه أي ميل لزيارة قريته وقال لي إنه لن يستطيع الذهاب إلى تلك القرية حتى ولو أمرته بذلك لأنه أنذر ألا يعود إليها إلا مصحوباً بزوجته

لقد اتضح أن الخبر الذي بلغ مسمع السردار من تقدم الجيش الروسي غير صحيح لأن الروس كانوا لا يزالون مرابطين على شاطئ نهر بمباكي وقد احتلوا قرية «حاملو» وتحصنوا في «قرقليسه» وكنا قريبين من هذين المكانين وأردت أن أعرف عدد الجيش الروسي فيهما وحالته الحربية فخطر لي خاطر يتعلق بذلك وبيوسف الأرمني ، وقلت في نفسي : « إن بقاءه على الحالة التي هو عليها لا يشرفنا فاما أن نفقده وإما أن نحميه وعزمت على إرساله ليتجسس على الجيش الروسي فان أدى مهمته استحق العفو عنه وإن ذهب ولم يعد عدنا إلى القرية التي تركنا فيها زوجته وأخذناها إلى السردار ونلنا مكافأته

ولما طلبت الأرمني وفاتحته في الأمر أدرك مقصدي وغايتي بمثل سرعة البرق وقبل المهمة التي عرضتها عليه ، وما هو إلا أن أذنت له حتى وضع بندقيته على ظهره وسار نحو القرية

بعد ذهابه قال أحد جنودى : « لقد ذهب ولن يعود »

فقلت له : « إن الرجل أرمنى وقد كان يفعل ذلك لولا وجود زوجته فالأرمنيون لن يتركوا نساءهم مهما كانت الأسباب »

فقال جندى آخر : « هذا صحيح ولكنه مسيحى والروس مسيحيون كذلك ويبعد أن يجتمع بعضهم ببعض ثم يعودون إلى المسلمين وأنا أراهن على جوادى هذا إن عدتم إلى رؤيته »

قال جندي ثالث أشيب الرأس قد جعدت وجهه السنون : « ما هذه المهاترة ؟ إنك لا تملك الجواد حتى تراهن عليه فالجواد جواد الشاه »

فقال ذلك الجندى معانداً : « ولكنى أراهن عليه وما كان مملوكا للشاه فهو مملوك لي »

أسكت الجنديين ورأيت عن كثب مكاناً به حشائش تصلح لاطعام الخيل فأمرت الجنود بالاتجاه نحوه ، ونزلنا عن الجياد وأقمنا الخيام وأعلنت رغبتى فى الاقامة بهذا المكان حتى يعود يوسف ثم أرسلت بعض جنودى ليحصلوا على كبش أو نعجة لنا كل فذهبوا وعادوا بكبش سمين ذبحناه وأوقدنا النار فشويناه وأكلنا بشهوة قوية وأبقينا للغد ما زاد لدينا

أظلم المساء ولم يأت يوسف ولكن لما استعددنا للنوم تاركين رجلين منا لحراسة الجياد سمعنا صوتاً من جهة بعيدة . وكان القمر إذ ذاك بدراً وكانت قد مضت ساعة بعد منتصف الليل ثم سمعنا الصوت مرة أخرى ، وكان فى هذه المرة أدنى إلينا فاستيقظنا وتكررت الأصوات فلم يبق لدينا شك فى أن المقبل هو يوسف ثم جاء وكان فى حالة شديدة من التعب ولكنه مع ذلك كان قادراً على أن يسرد علينا قصته

قال إنه لما وصل إلى مدينة « حاملو » عرفه بعض الجنود الروسيين الذين كانوا فى قريته الفارسية فأحسنوا استقباله وأخذوه إلى قائدهم الذى سأله عن الغرض من مجيئه فلم يجد خيراً من الاجابة بأنه جاء للبحث عن زوجته وقد كان له من النكبات التى حلت بقريته وشردت أهله ماجعله قادراً على الكلام دون أن يثير شبهة حول نفسه، ثم سمح له بالبقاء فى القلعة وتمكن بابدائه ملاحظات يظهر فيها إخلاصه. وبسؤاله مع التظاهر بعدم الاهتمام — تمكن بذلك من معرفة ما ذهب ليعرفه وليخبرنى به من عدد الجنود ومقدار السلاح وما يمكن معرفته عن خطتهم فى الحرب

أمرت بتقديم الطعام إلى يوسف وأذنته بأن ينام ليستريح وتأملت فيما سمعته فلم أجد فيه شبهة الكذب . وفى الصباح أمرت جنودى بالاستعداد للعودة نحو أريفان وجعلنا الطريق إليها من جهة أشتارك ، وهناك علمنا بعض الشىء عن حركات السردار وقائد جنوده ، وأذنت ليوسف أن يزور زوجته، فذهب وعاد فرحاً مسروراً وقال إنه وجدها على أحسن حالة وقد شفيت من جراحها وشكر لى تكرار إحساني إليه

وكان السردار قد انتقل من أريفان إلى مقر البطريركية الأرمنية فتقدمت إليه ومعى يوسف

الفصل الأربعون

حاجى بابا يدافع عن يوسف

يدعو الأرمنيون هذه المدينة « إيتشميازين » ويدعوها الايرانيون والأتراك « أوتش كليسة » أى الكنائس الثلاث ؛ وهى قرية كبيرة واقعة فى

وسط سهل خصيب ترويه جداول متعددة، وبالقرب منها جبل « أجرى داج » الذى يقدسه المسيحيون عموماً والأرمنيون خصوصاً للسبب الذى أخبرنى به يوسف وهو أن سفينة نوح رست على هـذا الجبل عند ما انتهى الطوفان

وبطريرك الأرمن في هذه المدينة مطلق النفوذ على جميع الطائفة الأرمنيـة ، وهى تدعوه بلقب « الخليفة » وهو لقب يطلقه المسلمون على أكبر رئيس يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية . ولكن المسيحيين فى آسيا لا يطلقونه إلا على البطريرك الأرمنى الذى تكاد تكون سلطته على أتباعه تعدل سلطة الخلفاء فى بغداد فى الأزمنة السالفة

وجدنا جيوش السردار بالقرب من الكنيسة وسمعت أحد ضباطه يقول : « نحن سنحرق هؤلاء الكفار ونشرب ما فى كنائسهم من النبيذ »

فقلت له : « هل أنت مسلم وتتكلم عن شرب النبيذ ؟ لقد أصبحت كافراً مثلهم »

قال لى الضابط : « إن السردار يشرب الخمر كما يشربها الكفار ولا أعرف لماذا لا أحذو حذوه فى ذلك »

وقد ظهر لى بعد هذا الحديث أن جنود السردار احتلت الكنيسة وأن القسس أظهروا رضاهم وبذلوا مساعدتهم مكرهين . وكان الخوف متسلطاً عليهم من غضب الايرانيين

وقد عرف القراء قبل الآن وصف « الناز كشى باشى » الذى صار قائداً لجنود السردار، أما السردار نفسه فكان وجهه أشد تجهماً منه حتى وصفه شاعر الشاه بأن وجهه يشبه « اجرى داج » وهو الجبل الذي كنا بالقرب منه . وكانت صفاته كصفات النمر وشكله قريباً من شكله

ومجمل القول فى وصفه أنى لم أر قط شبيهاً له ولم أتصور قبل رؤيته أن إنساناً يكون بهذه الخلقة وكانت نظراته تدل على أنه لا يحترم قانوناً من قوانين الأرض ولا السماء . وكان يكظم غيظه إذا شاء ولكن إذا ثار غضبه فلا حد لقسوته وعنفه

على أنه مع هذه الصفات القبيحة كان ذا صفات جعلته محبوباً عند جميع مرؤوسيه ، فهو كثير التبسط معهم يطلق لهم الحرية فى كثير من الأمور، وهو شديد الذكاء . وكان يتبع مع الشاه خطة سياسـية جعلته محبوباً لديه موثوقاً به . ومن أخص صفاته أنه يخلص فى حماية من يراهم مخلصين فى خدمته . وربما لم يكن فى البـلاد الفارسية من ينافسه فى شرب الخمر إلا صديقه الناز كشى باشى .

وقد دخلت أمام هذين الرئيسين ومعى ثلاثة من أكبر أتباعى

فقـال لى النازا كشى باشى ساعة رآنى : « مرحباً بك يا حاجى بابا ! أخبرنا كم روسياً قتلت ؟ هل معك بعض رؤوسهم ؟ أرنا ! »

قال لى السردار : « كم عدد الروسيين الذين على الحدود ومتى تبدأ المواقع ؟ »

فأجبت بعد خطبة التحية المعتادة التى يجب أن يلقيها كل مرؤوس أمام رئيسه وقلت : « لقد فعلت أيها السيدان كل ما كان فى وسعى أن أفعله ، فقد عرفت الجواب على كل سؤال أردتما أن تسألاه وعندى الأدلة الـكافية على أن حظنا فى صعود »

قال السردار : « إن حسن الحظ شىء لا بأس به ولكننا لا نعتمد عليه بل كل اعتمادنا على سيوفنا »

ثم نظر إلى صديقه الذى قال : « نعم إن ضربة

السيف أصدق من اصطرلاب المنجم وإن جواداً وسيفاً ومسدساً لأفضل عندي من الحظ الحسن »

قال السردار : « وماذا تقول فى النبيذ المعتق؟ إن حاجى بابا قد قام بمهمته خير قيام ونريد مكافأته على ذلك بزجاجة من نبيذ الأرمن »

ثم قال لى : « من الذى يقود الجيوش الروسية ؟ وفى أى معسكراتهم الفرقة القوزاقية ؟ وهل لديهم مدافع كثيرة وأين مركز قيادتهم العليا ؟ »

ثم نادى كاتبه اسماعيل خان وأمره بأن يدون جوابى فقلت : « أقسم بنفس السردار وفداؤها نفسي وأقسم بالخبز والملح الذي أكلته مع النازا كشى باشى أن الروس ليسوا شيئاً يعتد به وهم إذا ماوزنوا بالجيش الفارسى لا يساوون الكلاب ، وأقسم لكم بعد الذى رأيته بعينى أن فارسياً واحداً معه رمح وسيف يستطيع أن يقتل بسهولة عشرة من الروس »

أظهر رئيسى سروراً شديداً وقال لى : « لقد صدقت فراستى فيك ياأصفهانى فقد حققت ثقتى بك »

فقلت : « إن عدد الروس الذين على الحدود قليل لايتجاوز السبعمائة أو الثمانمائة وقد يبلغ الألف أو الألفين ولكنه على كل حال لا يتجاوز ثلاثة آلاف ولديهم عشرة أو عشرون أو ثلاثون مدفعاً؛ أما القوزاق فهم أفراد قليلون ومن الممكن إخراجهم من الجيش الروسى بدفع رشوة إليهم وهذه عادتهم التى اشتهروا بها ويكفى أحدهم ثلاثون أو أربعون أو خمسون طوماناً »

قال نازا كشى باشى : « ولماذا تذكر القوزاق؟ إن أحدهم على جواده لايفضل القرد على ظهر تيس»

قلت : « هذا هو وصفهم؛ أماقائدهم فانهم يلقبونه « بالميجور المجنون » وذلك لأنه لا يفر مطلقاً ولا يسمح لجيشه بالتقهقر مهما كانت الظروف المحيطة بهذا الجيش وهم يقولون إن فى جيبه مصحف السردار »

فقال السردار : « إذن فلعله هو القائد الذى حاربته فى العام السالف فان هذا الوصف ينطبق عليه. لقد أدهشنى كل الدهشة بتصرفاته الغريبة وخططه وقد سرق منى مصحفى فى العام السالف واست أعرف كيف وصل إليه . ولكن ذكرك هذه المسألة يدل على أنك صادق يا حاجى بابا ، كم مدفعاً تقول إنه لدى الجيش الروسى؟ »

فقلت : « أربعة أو خمسة أو ستة »

قال الكاتب مراجعاً لى : « لقد قلت الآن كما هو ثابت عندى إن عدد المدافع عشرون أو ثلاثون فأى القولين هو الصحيح ؟ »

فصاح السردار : « أتكذب هنا ؟ »

وظهرت علائم القوة والقسوة على عينيه وقال: « أقسم برأسى أنه إذا اتضح كذبك فى أية كلمة قلتها فلن تغتفر لك هذه الجريمة . إن ذقوننا لم تخلق ليضحك الناس عليها »

قلت : « الحقيقة ياسيدى السردار أننى لم أذهب بنفسى إلى مكان الجيش الروسى فأنا إنما أقول مايعلق بذهنى من كلام الرجل الذى أرسلته وهو موجود . إن عظمة مولاى السردار قد حملت أحد الشبان الأرمنيين على المخاطرة بحياته طامعاً فى أن تعفو عنه »

قال السردار : « أعفو عنه؟ هل فى الدنيا أرمنى يستحق العفو ؟ » فسردت عليه قصة الأرمنى من أولها إلى آخرها وكنت أعتقد أن دفاعى عنه علناً بهذه الكيفية يجعل من المستحيل على السردار أن يعاقبه بعد أن كفلت له العفو على شرط قام بوفائه ولكن لما أتممت القصة لم أسمع من الموجودين غير

النطق بالشهادتين وصعد السردار فى نظره وصوبه ولوى شفته السفلى على أشكال متعددة . وأخيراً قال : « لقد قام هذا الأرمنى بأعمال عجيبة »

ثم نادى الخادم فأمره بأن يحضر غليونه، ولما صعد نفسين أو ثلاثة أنفاس أمر باحضار الأرمنى ورئيس الكنيسة «الخليفة» فجئ بيوسف الأرمنى، فالتفتت إليه كل العيون وبدا الاعجاب برؤيته بعد أن سمعوا قصته ورأوا منه شاباً قوياً تبدو عليه كل علائم الرجولة . وحدد السردار فيه نظرة وأبدى النازا كشى باشى علامات متعارفا عليها عند جميع الايرانيين تدل على شدة الاعجاب

وجئ بالخليفة وهو رجل طاعن فى السن ولكن لا تزال بادية عليه علائم القوة .

وكان لابساً ثياباً سوداء لأن هذا اللون هو الذى اختص به الأرمن ، وكان معه ثلاثة من القسس

بعد أن وقف الخليفة دقيقتين أو ثلاثاً أمام السردار دعى إلى الجلوس فجلس دون أن يحيى باليدين كما هى العادة المتبعة فى مثل هذه الحالة . ثم التفت إليه السردار وقال : « لقد أصبحنا نحن المسلمين أذل من الكلاب فى إيران، فالأرمن يعتدون على منازلنا ويختطفون نساءنا وجوارينا . قل لنا يا خليفة ما هذا ؟ هل هذا من عمل الله أم من عملك؟ »

انزعج الخليفة من هذه المفاجأة التى لم يكن ينتظرها فبدا عليه الذعر . وتندي جبينه عرقاً وقد علمته التجاريب أن المفاجآت التى من هذا النوع تكون فى العادة بداية لما هو أشد منها . وعزم على اتباع خطة المقاومة فقال : « ما هذه اللهجة التى تكلمنى بها ؟ إننا لا نسلم من أذا كم فضلا عن أن نفكر فى ارتكاب التهم التى تنسبها إلينا . إننا من رعايا الشاه وأنت حامينا ونحن فى أمن ودعة مستظلين بظلك فمن هو الرجل الذى تنسب إليه هذه التهمة ؟ »

قال السردار : «هذا هو» وأشار إلى يوسف ونظر إليه وقال : « قل لى هل اختطفت جاريتى أم لا ؟ »

قال يوسف : « إذا كنت قد أخذت غير زوجتى فاقتلونى، إن التى تقول إنها جاريتك هى مريم زوجتى وقد ألقت بنفسها من نافذة دارك حين رأتنى، وكلانا من رعايا الشاه وأنت تعرف هل لك حق استرقاقنا أم ليس لك هذا الحق ؟ نعم نحن أرمنيون ولكننا آدميون ونحن من رعايا الحكومة الايرانية وماحدث قط أن الشاه أكره أو أمر باكراه امرأة متزوجة على أن تكون رقيقة لأنها مسيحية . والذى لا أشك فيه أنك حسبت لما أمرت بادخالها إلى منزلك — أنها قوزاقية أسرت فى الحرب . ولكن عليك متى علمت أنها من الرعايا ألا تزعم أنها من جواريك »

ازداد خوف الخليفة لما سمع اللهجة التى يتكلم بها الشاب الأرمنى فأسكته باشارة دالة على الغضب والحدة . ولكن السردار الذى اعتاد سماع هذه اللهجة سر منها بدلا من أن يغضب ونظر إلى يوسف نظرة تدل على أنه نسى السبب الذي استدعاه من أجله .

وكان يوسف لا يزال يتكلم فأسكته السردار بقوله : يكفى ! يكفى ! اذهب وخذ زوجتك . وبما أنك قمت لنا بخدمة فسأستبقيك فى خدمتى وأجعلك من حرسى الخاص . إذهب الآن إلى رئيس الحرس ليعلمك واجباتك . وليلبسك الثوب الرسمى ثم عد إلينا . وإذا حسن مسلكك فى المستقبل فسأعفو عن غلطتك الماضية »

سجد يوسف عند قدميه وأعرب له عن الشكر على إحسانه وقبل طرف ثوبه ولكنه لم يعرف ماذا يقول ولم تتكون لديه فكرة بالقبول أو الرفض عن هذه الوظيفة التي عرضت عليه .

ودهش كل الحاضرين من مسلك السردار مع يوسف لأنهم كانوا ينتظرون أن يأمر بقتله في الحال ، وهز الناز كشي باشي كتفيه ، وأحس « الخليفة » بأن عبئاً ثقيلا رفع عن عاتقه واختفت نقاط العرق التي كانت عالقة بجبينه وبدت على وجهه ابتسامة وهنأ الكل السردار على حلمه وكرم أخلاقه وشبهوه بكسرى أنو شروان .

وسرعان ما انتقل الخبر إلى المسكر فلهج كل الجنود بمدح رئيسهم الرحيم . ولست أعرف ما هو الشعور الحقيقي الذي كان يشعر به السردار في هذه اللحظة ولكن كل الذين يعرفون أخلاقه يثقون بأن الرحمة لم تكن إحدى الدوافع التي تدفعه إلى أي عمل .

الفصل الحادى والأربعون

حرب الايرانيين مع الروس

كان « النازا كشي باشي » ، والسردار ينصتان إلى ما يقوله يوسف الأرمني عن مشاهداته في الجيش الروسي . فلما أتم قوله قررا القيام بالهجوم في الحال وصدرت الأوامر للجيش بالتقدم نحو حاملوا

ومشت المدفعية إلى الجبال وتبعها الفرسان والمشاة . ولا يفوتني أن أقول إن الأرمني زارني قبل أن يتحرك الجيش للقتال

ولم يعد يوسف ذلك الفلاح الذي استصحبته في الطريق ، بل صار حارساً من حراس للسردار يرتدي ثوباً رسمياً ، ويعلق إلى جنبه سيفاً . وكان ثوبه أحمر اللون ذهبي الأزرار والحواشي ، وعلى صدره حزام من الكشمير فيه خنجره ومسدسه ، وعلى رأسه القاووق الجميل الذي يلبسه جنود الحرس وقد رجل شعره الذي لم يكن مرتباً تحت غطاء رأسه القديم المصنوع من الجلد، فأصبح لجماله وروعته كأنه إنسان آخر ، وقد جملته خصل الشعر المنسدلة على جبينه أشبه بالنساء منه بالرجال . وساعد على تقوية هذا الشبه ظهور أجزاء جسمه في ثوبه الضيق الجديد ، وكان وجهه يحمر خجلاً إذا أطال أي إنسان النظر إليه

شكرني يوسف في زيارته على المساعدات التي قدمتها إليه ، وعلى الوفاء بوعدي في الدفاع عنه . وقال لي إنه اعتقد لما بدأ السردار بالحديث المتقدم أنه فقد زوجته ، وإنه لذلك أجاب جواب من يريد أن يقتل حتى لا يعيش بعد أن تؤخذ زوجته منه

وقال إن نجاة زوجته ونجاته هما الشيئان الداعيان لسروره . أما تعيينه في هذه الوظيفة فليس بالشيء الذي يسره أو الذي يطيقه ، وإنه يريد العودة إلى العمل الذي اعتاده في الحقول أو الاشتغال بالتجارة أو بقاءه متبلداً في خدمة السردار دون أن يعمل عملاً ما ليس مما يتفق مع طباعه . وقال لي إنه لم يعجل بالاستقالة ولم يرفض هذا العمل خشية غضبه ، ولأنه يرى الاذعان لكل شيء طالما كانت زوجته في مأمن . وقال إنه يفضل أن يعيش راعياً للخنازير في جبال جرجان ، وأن تكون زوجته معه على أن يعيش منعما في القصور الفارسية وزوجته معرضة للسبي

لم يسعني عندما سمعت هذا من يوسف الأرمني

غير أن أطريه ، وإن كنت أتمنى أن يقع اختياره على رجل غيرى يجعله أميناً لسره لأن وقوع اختياره على سيجعلنى مسئولاً عنه إذا فر

فى ذلك الوقت كان الجيش يتقدم إلى اشتارك ، واستأذن يوسف فى الذهاب لرؤية زوجته . ولما وصلنا إلى الميدان ظهر فقدان الصبر بأجلى معانيه على السردار . فأبى أن يبقى مع المشاة لأن حركاتهم أبطأ من فرقة الفرسان . وتولى قيادة الفرقة الأخيرة. ومن عادات الفارسيين أن يحتقروا المشاة فى الجيش ولست أقول شيئاً عن رئيسي النازا كشى باشى . فقد ملأ الدنيا بادعائه حتى خال كل من سمعه أنه لم تبق إلا لحظات يصبح بعدها الجيش الروسى كله فى أسرنا أو يقضى عليه ، وكان يريد أن يكون فى فرقة الفرسان مع السردار ، ولكنه اضطر إلى اللحاق بالمشاة كأمر رئيسه ، وكنت معه فى هذه الفرقة

وكان السردار يريد الوصول إلى حاملو فى ساعة الفجر لكى يفاجئ الروسيين عند أبوابها وسرنا وراءه لكى نتجده إذا اضطروه إلى التقهقر

وكان وصولنا إلى النهر فى ساعة الشروق وكنا على وشك العبور عند ما صاح صوت عال ثلاث صيحات بلغة لا نفهمها فوقفنا والتفتنا إلى الرئيس الذى صار وجهه أشد اصفراراً من أوجه الوتى

قال بصوت خافت : « ما هذا ؟ ما الذي نفعله ؟ أشر على يا حاجى بابا ! »

فقلت : « لا أظن هنا أحداً من الأعداء ولكن ربما كان فى المكان غول مثل الغيلان التى يقولون إنها فى أشتارك»

وبعد لحظة سمعنا أصواتاً بربرية وسمعنا طلقاً ناريا ، ورأينا على الشاطئ الآخر للنهر رجلين تدل ثيابهما على أنهما من جنود الروس . فلما رأى أن ليس موجوداً من الأعداء غير هذين عادت إلى وجهه دمويته وصاح : « اقتلوهما اقتلوهما ! هاتوا رأسيهما ! تقدموا ! »

فألقى بعض جنودنا بأنفسهم فى البحر شاهرين سيوفهم وثبت الجنديان الروسيان فى مكانهما ثباتاً أدهشنا وقتلا أثنين من جنودنا التى كانت تعبر النهر واضطر الباقون إلى التقهقر ولم يبد من أحد أى ميل إلى أن يحذو حذوهم ، وعبثاً حاول القائد بالوعد والوعيد وببذل المال أن يحمل أحداً على التقدم وأخيراً تقدم بنفسه وهو يصيح : « أنا سأذهب وحدى فلا يتبعنى أحد » ثم وقف وقال لى : « ألا تذهب فتأتى برأسي هذين الرجلين ؟ إننى أعطيك فى مقابل ذلك أى شيء تطلبه »

ثم همس فى أذنى قائلا : « إذهب فإنى واثق بأنك تستطيع قتلهما »

وفى اللحظة التى كان يكلمنى فيها أصابه سهم من أحد الروسيين فملأ صخبه وضجته وبلغت مخاوفه حد اليأس وأقسم أغلظ الايمان أنه سيقتل كل من يخالف أمره وقال إن الروس حقراء مهينون لا يستحقون أن يجبن الفرس أمامهم هذا الجبن »

وعند هذا ظهرت فرقة من الجنود الروسية وظهرت الفرقة التى يقودها السردار ، وكانت قد اصطلت ناراً حامية من الأعداء وضعفت ضعفاً شديداً، وبالرغم من أن عمل نازا كشي باشى فى ذلك اليوم كان جديراً بأن يمنعه عن المفاخرة طول عمره فانه كان لا يزال يتبجح بادعائه

ثم وصلت رسالة من السردار يطلب فيها إرسال

حاجى بابا إليه فذهبت مع الرسول وكانت أول جملة سمعتها من السردار قوله : « أين يوسف الأرمنى ؟ أين هو وأين زوجته ؟ » فخطر لى أنه قد هرب فأقسمت أننى لا أعلم ولم تمد لى معرفة بحركاته، فأطال السردار من نظره إلى وحرك شفتيه بأشكال مختلفة وأقسم أن يصب فوق رأسه جام انتقامه وأن ينتقم أيضاً من أهل قريته ومن كل إنسان له علاقة به وأقسم أنه إذا اتضح أننى ساعدته على الفرار بأى حال من الأحوال فانه سيوجه كل نفوذه ضدى ليخفى ظلى عن الأرض

وسمعت بعد ذلك أنه أرسل بعض رجاله إلى جافيشلو ليقبضوا على أبوى يوسف وأقاربه وكل من بينه وبين يوسف صلة من القرابة وأمرهم بأن يحرقوا كل ما تقع عليه العين من أمتعته

ولكن الشاب الذكى كان يتوقع كل ذلك فاحتاط لوقوعه وسار هو وزوجته وأهله فى أرض روسية قبل أن يعلم السردار بأنه ترك جيشه وقد قابلهم الروس مقابلة حسنة وعرضوا عليهم ماخسروه وأقطعوهم أرضاً واسعة

الفصل الثانى والأربعون

حاجى بابا لدى الشاه

عدت إلى رئيسى نازا كشى باشى فأخبرته بالوعيد الذى توعدنى به السردار ولما كنت أعلم مقدار التحاسد بين جميع الرؤساء الايرانيين فاننى لم أتردد فى إخباره بأنى مستاء من اللهجة التى كلمنى بها لأنى مرؤوس لغيره وقد كان عليه أن يراعى ذلك لأنى لا أقبل هذه اللهجة إلا من رئيسى

تأثر نازا كشى باشى تأثراً عظيما بهذا القول فأظهر غضبه وكانت كلماتى بمثابة الهواء الذى يهب على نار موقدة فيزيدها اتقاداً . وخشيت بأس السردار إن علم بعد ذلك بأمرى فيبطش بى فرأيت أن أختفى من الميدان واستأذنت رئيسى أن يسمح لى بالعودة إلى طهران فسر النازا كشى باشى من منحه هذه الأجازة لى لأن ذلك يفهم السردار أنه وحده صاحب السيطرة على أتباعه . وأمرنى بتبليغ رسائل إلى رئيس الوزراء تدل على أنه قام بعمل هام فى المعارك وأن غيره لم يقم بأى عمل وقال لى : « لقد حضرت المواقع بنفسك يا حاجى بابا وأنت قادر على وصفها ونحن لا نستطيع مع الأسف أن ندعى أننا انتصرنا لأنه ليس لدينا من رؤوس الأعداء مانستطيع إرساله ولكننا مع ذلك لم نهزم ، السردار قائد حمار لأنه بدلاً من أن ينتظر وصول المشاة عرض فرقة الفرسان لخطر الهزيمة لهجومه بها وحدها وهو لم يفعل غير أن نبه الأعداء إلى وجودنا فأغلقوا فى وجوهنا أبواب المدينة واضطروه إلى التقهقر المزرى بكرامة الجيش الفارسى . ولو أننى كنت القائد لأريتكم كيف ينبغى أن تسير الأمور . ولا تنس أن تقول لرئيس الوزراء إننى أول من جرح فى الجيش لأنى كنت أجرأ الجنود على التقدم

وبعد أن سلمنى خطاباً لرئيس الوزراء وعريضة للشاه أمرنى بالذهاب . وذهبت فوجدت الشاه لا يزال فى السلطانية على الرغم من أن الخريف كان على الأبواب ، وبمجرد وصولى قدمت نفسى إلى رئيس الوزراء وأعطيته الرسالتين فرحب بى وقال : « لقد كنت أنت أيضاً فى حاملو وقد بلغتنا الأخبار من رسائل السردار ، أن الكفار لم يجرؤا على رفع السيف فى أوجه الفرسان الايرانيين ومن هم الذين

يجرؤون على ذلك ؟ لقد علمت أن رئيسك جرح في المعركة وقد برهن على أنه من أحسن خدم الشاه ولا بد أن تكون جنودنا الآن على الشاطئ الآخر من النهر

لم أكن أجيب على هذه الأقوال إلا بقولي : « نعم ، نعم » أو « لا ، لا » ثم نادى كاتبه وأمره بأن يصدر بياناً ينشر على الأقاليم والقرى ويعلن فيه انتصار الجنود الايرانية في جهات متعددة خصوصاً في منطقة خراسان على جانبي النهر فنظر إلى الكاتب وسألني : « كم عدد جنود الأعداء ؟ »

قلت : « كثير جداً » ثم ترددت في تقدير العدد قليلاً وقلت : « اكتب خمسين ألفاً »

فقال : « وكم عدد القتلى منهم ؟ »

فقال رئيس الوزراء : « اكتب عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً فانه لا يليق بجيش الشاه أن يقتل أقل من هذا العدد . هل تريد أن تجعل الشاه في نظر الشعب والشعوب المجاورة أقل من رستم أو أفرسياب ؟ هل كتبت ؟ »

قال الكاتب : « لقد كتبت ما أمرتم دولتكم به » ثم قرأ ما كتبه وهو : « إن الكفار من كلاب موسكو طردهم الله من رحمته ، لم يجرؤوا على التقدم من جيشنا مع أن عددهم يربو على خمسين ألفاً وعددنا لا يتجاوز بضعة آلاف وقد أمكننا الله منهم فقتلنا في المواقع الأولى عدداً يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً »

قال رئيس الوزارة : « بارك الله فيك ! هذه كتابة حسنة وإذا كان الواقع يخالف ذلك فان حسن حظ الشاه كفيل بأن يجعل عدد القتلى أكثر من ذلك في أقرب وقت »

فاستشهد الكاتب ببيت شعر للسعدي يقول فيه : « إن الأكذوبة التي منشؤها حسن النية لا تعد أكذوبة بتاتاً »

ثم قام الوزير فذهب إلى الشاه وتبعته في جملة من تبعه من الخدم والأتباع ثم نظر إلى الكاتب وقال : « أنا الآن في غنى عنك فلك أن تذهب وتستريح »

الفصل الثالث والأربعون

حاجي بابا يروى قصة فتلحق به نكبة

بعد أيام قليلة عاد الشاه وحرسه إلى طهران وكان موكبه في عودته من الهيبة والجلال كما كان عند ذهابه وعدت إلى عملي الأول مساعداً لرئيس الجلادين وكنت مشغولا بتعليم الجنود الجدد الذين حلوا محل الذين أرسلوا إلى الحرب . وبعثت برسالة إلى طهران أبلغهم فيها أوامر الشاه بأن يجعلوا الراقصات والمغنيات على استعداد لمقابلة جلالته . وكان القصر الذي فيه المغنيات والراقصات بمكان يبعد عن العاصمة ثمانية أميال أو تسعة

ولما أبلغني الشاه هذا الأمر لارساله عدت فذكرت زينب التي كدت أنساها وتجددت مشاعري التي كادت تخمد

كان قد انقضى على أول يوم تعرفت فيه بزينب أكثر من سبعة أشهر . وعلى الرغم من أن القوم الذين عاشرتهم في خلال هذه المدة كانوا من التوحش بحيث ينسى كل من يعيش في وسطهم كل ما في نفسه من شعور نبيل — على الرغم من ذلك فقد كان تأثري شديداً عندما ذكرتها وذكرت الحالة المزعجة التي لا بد أن تكون قد وصلت إليها . وقلت في نفسي : « لقد مرت بي أثناء معرفتها عهود

مختلفة تعاقب فيها الخوف والرجاء والأمل واليأس ولم يبق فى عهد النزاع فى حبها إلا أمد قصير ، ثم أجد نفسى أمام القضاء القـدر ، فاما أن يتحقق الأمل وإما أن ترجح كفة اليأس

ولما جاء يوم السفر سبقت الموكب إلى القصر لأرى كل الاستعدادات التى أمر بها الشاه هل تمت وفق رغبته أم لا يزال بها شيء من النقص مفتقر إلى الاصلاح ؟

ولما وصلت إلى باب ذلك القصر سمعت من فيه من السيدات يتحدثن . وما كان أشد شوقى فى تلك الساعة إلى التحدث مع زينب أو إلى رؤيتها إن كان التحدث مستحيلا

لكنني وجدت أن سؤالى عنها بنوع خاص سيثير الريبة وقد يكون فيه خطر على حياتها وعلى حياتى فاكتفيت باستدعاء رئيس القصر وسؤاله عما فعله بالأوامر وأطلت حديثى معه مراجعاً فى الجواب مناقشاً فى التفاصيل لعلى أسمع فى خلال هذه المدة صوت زينب ولكن عبثاً ذهبت هذه المحاولة فانى لم أسمع صوتها ولا اسمها

وفى أثناء هذه الوقفة جاء سيدى القديم ميرزا أحمد رئيس أطباء الشاه وفهمت أنه جاء بدعوة من أهل القصر لمعالجة بعض من فيه فخشيت أن تكون زينب هى المريضة . وقلت إنها لو كانت كذلك فهى هالكة لا محالة

لكن الطبيب استدعانى إلى ركن من الغرفة وهمس فى أذنى بأنه شديد الخوف من غضب الشاه لأن الفتاة الكردية التى أهداها إلى جلالته منذ سبعة أشهر لم تستعد لمقابلته عند عودته كما أمروها معتذرة بأنها مريضة

قال لى الطبيب : « وتجدنى شديد الخوف من استدعائى لمعالجتها لأنى إن قلت إنهـا غير مريضة هلكت الفتاة وإن قلت إنها مريضة هلكت أنا وإنى لآسف على إهدائها إليه وإنى لألعن الساعة التى شرف فيها الشاه منزلى »

ذهب الطبيب بعد أن قال لى ذلك إلى منزله وعدت إلى خيمتى وأخذت أعزى نفسى بأن زينب مريضة وأن مرضها سيطول وسيمنعها من مقابلة الشاه وأخذت أدعو الله أن يطيل مرضها ليطول أمد امتناعها عليه ، ثم أخذت أفكارى تتجه فى كل اتجاه حتى حاولت فى النهاية إقناع نفسى بفضل الزهد وضرورة التصوف ، وما ذلك منى إلا حيلة العاجز وسلوة اليائس

وأخيراً أعلن سفر الشاه إلى طهران فاجتمع أهلها لتحيته واستقباله وكنت فى ذلك الوقت شديد الرغبة فى مقابلة الطبيب مع التظاهر بأن هذه المقابلة جاءت مصادفة حتى لا تحوم حولى ريبة ولا يسوء بى ظن ، ولقد تقابلت معه عند وصولنا إلى طهران ولكن كان ذلك لسوء حظى فى وقت غير مناسب .

وتفصيل الخبر أنه أصـدر لى الأمر فى ذلك اليوم بالذهاب إلى الميدان لتبليغ رسالة إلى الناز كشى باشى

وفى الساعة التى تلقيت فيها هذا الأمر رأيت رئيس الأطباء خارجاً من حجرة الملك ، وقد بدت على وجهه علائم الغم والحزن الشديدين ، وانحنى ظهره فرافقته قليلا وسألته عما به . فقال : « لقد جعلتنى هذه اللعينة الكردية فى أشد حالات البؤس والنكد . فان الشاه غضب غضبة شديدة ، وأقسم أن يقتل كل رجل فى داخـل القصر أو خارجه ما دامت له علاقة به إذا لم تظهر هذه الفتاة »

قلت متجاهلا : « من هى ؟ »

فقال : « هى زينب التى أهديتها إليه . وقال إنه سيقتل الوزراء أيضاً إذا لم يعرفوا كيف كان اختفاؤها من قصره »

قلت له : « يظهر يا ميرزا أحمد إن الشاه يعتقد أن الفتاة تحبك » فاضطرب الرجل أيما اضطراب وقال : «أستغفر الله ! أرجوك ألا تعيد هذا القول فتحوم حولى شبهة قد تصل إلى سمع الشاه فينقلنى إلى العالم الآخر . من الذى قال لك ذلك ؟ كيف علمت أنى أحب زينب ؟ »

قلت : « لقد سمعت كثيراً جداً عن حبك وإلا فما الذى دعاك وأنت جالينوس فارس ولقمان عصرك إلى تربية فتاة يزيدية من عبدة الشيطان فى منزلك ؟ ألست تعرف أن وجود فتاة مثلها يكفى لخراب بلد أو مملكة فضلا عن بيت مثل بيتك »

فقال لى رئيس الأطباء : « نعم لقد صدقت يا حاجى بابا » ثم هز رأسه يمنة ويسرة وقال : « لقد كنت شديد الحماقة لما افتتنت بسحر عينيها وإن عينيها لساحرتان »

قلت : « ما الذى يفعل الشاه إن وجدها ؟ »

فقال : « ليفعل بها ما يشاء ! ليرسلها إلى جهنم إلى بيت الشيطان الذى تعبده ؟ إننى لا أفكر فيها ولكننى أفكر فى نفسى » ثم نظر إلى نظرة حنو وقال : « أنت تعرف يا حاجى بابا أننى كنت دائماً أحبك وقد آويتك فى منزلى عند ما كنت بغير مأوى وارتفعت مكانتك بفضل مساعدتى وأريد منك أن تدل على عرفانك الجميل وأمامك الآن فرصة سانحة »

ثم مسح لحيته بيديه وقال : « أنت تعرف ما أردت أن أقول »

قلت : « لا ، فاني لم أفهم شيئاً » فقال : « سأفهمك إذن فى كلمتين ، إنك لا تزال شاباً فاذا قيل لك إنك أنت الذى أحب هذه الفتاة فان هذا لا يضيع من اعتبارك وليست هـذه الحالة كذلك فيما يتعلق بى »

قلت : « يضيع اعتبارى ! إن المسألة تؤدى إلى ضياع الروح لا إلى ضياع الاعتبار . هل أنت مجنون ؟ لماذا تريد أن أموت وكيف تحتمل دمى ؟ إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أننى أعتقد أنك غير مذنب لأنك شديد الخوف من زوجتك ولكننى لن أقول إنى أنا المذنب »

وفى أثناء هذا الحديث أقبل نحوى خصى من خصيان الشاه وقال لى : « لقد أمر الشاه باستدعائك أنت وخمسة من الناذا كشية وبأن يكون معهم تابوت ليقطعوا جثة بين يدى جلالته »

فقلت : « سأحضر في الحال » وكان مجىء الخصى فى هذه اللحظة من حسن حظى لأن الطبيب تركنى ثم تصبب من كل جسمى عرق بارد وأحسست أن عيني تحترقان وأننى على وشك الاغماء وقلت فى نفسى : ألا يكفى أن أكون أنا السبب فى موتها حتى أطالب بأن أكون جلادها أيضاً ؟ لماذا أدعى إلي هذه المهمة الشنيعة ألا أستطيع أن أهرب من هذا المنظر البشع ؟ لا أظن شيئاً من ذلك فى الامكان لأنه لا مفر مما قدر علىّ ولا مناص من أداء ما كلفت به ، ما أقبحك أيتها الدنيا ! ماذا يكون نصيبك فى قلوب الناس لو اطلع كل منهم على حقيقته ؟ »

فى هذا الوقت كنت أشعر أن قلبى ينوء تحت عبء ثقيل ، وجمت الرجال الذين سيتولون منى تنفيذ العقوبة الوحشية ولم يكن أحد منهم يبالى لأنهم

لا شأن لهم وليس فى نفوسهم مثل ما فى نفسى من العطف

وكان الوقت إذ ذاك وقت الغروب وقد اختضبت السماء بلون دموى وتزايل نور النهار . وكانت ليلة البدر ولكن السماء ملبدة بالغيوم

ولما أذن المؤذن لصلاة العشاء أحسست أن صوته يبعث الموت فى نفسى لأن هذا الصوت كان نذيراً بموت الفتاة . وذهبت مسرعاً إلى المكان المعهود فوجدت أصحابى قد وصلوا إليه وهم جالسون بغير مبالاة على التابوت الذى ستدفن فيه زينب وقلت لهم : « هل انتهيتم ؟ »

فقالوا : إنهم لم ينتهوا

وبعد ذلك ساد صمت رهيب وقد كنت أتمنى أن يكونوا قتلوها قبل مجيئى حتى لا أشهد هذا المنظر المنكر . أما وهو لم ينته فلا بد لى من رؤيته. وبعد قليل جاء رجلان من خدم القصر يقودان بينهما فتاة تصرخ بصوت مرعب كأنه صوت عشرين مجنوناً يضحكون فى وقت واحد ، وكان الرجلان يجرانها بعنف وهى تقاوم وتأبى المسير

وكان صوتها يشتد كلما دنت منا فبدا التأثر حتى على أوجه الجلادين الغلاظ القلوب ، أما أنا فذهلت ، ولو سئلت فى هذه اللحظة عن شعورى لما استطعت وصفه أو تحديده وقد كنت بالرغم من ذهولى وشرود ذهنى قادراً على رؤية ما يجرى أمامى من الأمور

وأخيراً سمعت صرخة عالية تلاها صوت جسم يقع على الأرض وإذا نسيت شيئاً فيستحيل أن أنسى المرارة التى شعرت بها عند سماع هذا الصوت ثم رأيت جسم زينب ملقى على الأرض فى وسط الدماء . وكانت لا تزال تتنفس وسمعت ألفاظاً تقولها ولكننى لم أفهم معناها ثم خفت صوتها وصاح أحد الخادمين اللذين جاءا بها : « هل ماتت ؟ »

فقال أحد الأوغاد الذين معى : « نعم »

قال ذلك الخادم : « إذن فضموها فى التابوت واذهبوا بها إلى الجحيم »

وقمت فغمست منديلى فى دم زينب وقلت إنه أثر منها سيبقى معى ما دمت حياً . ووضع الأوغاد جثتها فى التابوت وحملوها إلى المدفن ليدفنوها فى قبر كان قد أعد لذلك من قبل ، ومشيت معهم بحركة آلية ورجلاى لا تقويان على حمل جسمى

وضعا التابوت على الأرض وأخرجا منه الجثة وجلست على قبر قريب منه وأخذت ألاحظ ما يفعلون وقد رأيتهم وهم يضمون الجثة فى القبر ثم يثبتون الأحجار فى مدخله

ولما انتهوا نظروا إلى وقالوا : « لقد فرغنا » . فقلت : « إذهبوا الآن وسأتبعكم » . وظللت جالساً على القبر

واشتد ظلام الليل ، وكنت فى ذلك الوقت أسمع الأصداء تتجاوب من ناحية الجبال ، وكانت رغبتى فى العودة تقل كلما طالت مدة جلوسى بهذا المكان ، وذكرت حياتى الماضية عهداً بعد عهد وأحس قلبى بخشوع ورهبة ، وزهدت الحياة التى أعالج الآن مرارتها كأشد ما رأيت فى أدوار الحياة وأخيراً عزمت عزماً صادقاً أكيداً على أن أكون درويشاً بالمعنى الصحيح لا كما يعيش الدراويش

ظللت فى هذا المكان حتى انبثق الفجر وأنا أدبر خطة لحياتى المقبلة ، واستقر رأيى فى النهاية على أن أذهب سائراً على قدمى إلى أصفهان حيث

أرى أهلي وأعيش معهم عيشة الزاهد المتصوف ، وقلت إن أبي أصبح في أخريات أيامه فلعلي أن أسعده بعودتي إليه وهو في سن الشيخوخة ، وأحتمل عنه ما لا يطيق احتماله من أعباء الحياة وتكاليفها ورأيت أن بقائي في منصبي أو في هذه المدينة أصبح مستحيلا لأنه فوق طاقتي . ولو بقي في نفسي الشعور الذي كنت أحس به هذه الليلة لصرت من أتقى أولياء الله وأكثرهم ورعاً

الفصل الرابع والأربعون

حاجي بابا يقابل صديقاً لمساعده ويمنع عنه الخطر

أخرجت من جيبي المنديل المصطبغ بدم زينب وأخذت أفكر في مركزي المخيف المرعب ثم وقفت أمام القبر وأقمت الصلاة . وقد أراحت هذه الصلاة صدري وجددت قواي فعزمت في الحال على مغادرة طهران وسلكت الطريق المؤدي إلى أصفهان

وصلت إلى الطريق المؤدي إليها فلم أر قافلة مسافرة فمشيت إلى الصحراء وهناك وجدت رجلا غريب الشكل والحالة يخاطب شيئاً أمامه على الأرض ، فدنوت منه ووجدته يكلم عمامته . ولما زدت اقتراباً منه وجدت أني أعرفه وهو أحد الدراويش الثلاثة الذين تعرفت بهم في مشهد وهو الذي كانت صناعته القصص وإلقاءها في الجامع

ولما وقع نظره علي عرفني وأقبل نحوي ليعانقني وسألني عما كنت أفعله في هذه السنوات . وقال إنه مسرور برؤيتي . ولم يزل حديثنا يتقدم خطوة فخطوة حتى تذاكرنا ما كان من أمره وأمري وقال لي إنه ذاهب إلى الآستانة وإنه سيذهب منها إلى دلهي بعد أن يقضي فصلا في أصفهان

ولم تكن لدي رغبة في الكلام لما كنت أشعر به من الهم ولكن مسلك الرجل معي جعلني أتكلم معه وأصغي إليه

سردت عليه قصتي منذ فارقته وقد أعجبني منه ما كان يظهره من الاحترام الشديد لي حتى إذا وصلت إلى القول بأني عينت مساعداً لرئيس الجلادين كاد الرجل يسجد أمامي لأن تجاريبه دلته على وجوب الاحترام لكل من يشغل مركزاً كبيراً . ولما أخبرته أني تركت هذا المنصب وتركت طهران ، شعرت بأن مركزي يسقط من عينه وقال لي إنني لا أساوي ثياب الشرف التي كنت ألبسها . وقال: « أهكذا يضحي إنسان بحاضره ومستقبله من أجل امرأة ؟ »

ثم أطرق مدة طويلة قال لي بعدها : « إن سير الناس إلى السعادة غريب متفاوت ، فبعضهم يسير إليها من أخصر طريق، والبعض يسير إليها من الطريق الذي لا يؤدي إلا إلى ضدها . والبعض يسير دون أن يسأل إلى أية جهة يؤدي طريقه ، والبعض إذا ما اقترب من غايته عاد من نفس الطريق الذي كان يسلكه زاهداً في الغاية مستخفاً بالمتاعب التي عاناها في سبيل الوصول إليها » واستشهد بأبيات للفردوسي في هذا المعنى

وبينما نحن نتحدث إذ رأينا (خاناً) فقال لي الدرويش « تعال وانس أحزانك . تعال معي فإننا سنقضي ليلة لذيذة في هذا الخان وسأقص عليك أخباري أثناء وجودي في الآستانة »

كنت راغباً في تسلية نفسي لعلي أنسي همومي فقبلت اقتراحه ومشيت معه إلى ذلك البناء . وقد وجدنا فيه ناساً من جهات متعددة في فارس . وبعد

أن استرحنا من مشينا الطويل أكلنا أكلة شهية ثم طلبنا نرجيلتين وبدأ يقص على قصته التى وعد بها

وكنت أحاول الاصغاء إليه ولكني وجدت ذهني شارداً بى بعض ما يسمع ويفوته البعض ولاحظت أن سائر سامعيه كانوا منصتين أشد الانصات وقد أبدوا أعظم اهتمام؛ ودلني على ذلك أنى كلما تغيبت فى لجة الذكريات نبهنى ضحكهم وعزمت على أن أستعيده هذه القصة فى وقت آخر لكثرة مافاتنى منها. وكنت أحسد أصدقائى المسرورين على سرورهم وتقت إلى حلول الوقت الذى أكون فيه مثلهم

انتهى النهار عند ما انتهت القصص التى كان رويها وأشرق البدر وكانت السماء صافية لا شىء فيها من الغيوم التى كانت متلبدة فى سماء الأمس. وبينا نحن جالسون إذا أقبل نحو الخان فارس يعدو على جواده

وكان من فى الخان يدخنون فى الغلايين ويتناقشون بهدوء. وكان خدمهم يتولون تهيئة الأسرة للنوم، وأما أنا فعزمت على أن أنام على الأرض العارية وأضع تحت رأسى قطعة من الحجر ولكن لما وقع نظرى على الفارس المقبل تغير رأيى فى ذلك

كان هذا الفارس أحد الناظا كشية الذين حضروا معى مقتل زينب وقد فهمت الغرض من مجيئه عند ما سمعته يقول لبواب الخان: « هل جاءكم أحد من طهران ؟ » وفهم الدرويش حقيقة الأمر بسرعة مدهشة لأنه كان على الدوام حاضر البديهة ولذلك أسرع إلى الباب ليتولى الاجابة على كل سؤال يوجه إلى البواب أو إلى غيره

وقد قال له إن كل من بالخان أتوا من جهات متعددة ولكنهم جميعاً ذاهبون إلى طهران إلا إياه فإنه آت من الآستانة وقال إنه رأى رجلاً أخذ يصفه بكل صفاتى ليوجه إليه اهتمام الناظا كشى. وبعد أن أتم الوصف حتى لم يعد ينقص إلا أن يذكر اسمي، قال له: إن ذلك الرجل ذهب من طريق كذا ... وأخذ يضلل الناظا كشى على أن يحذرنى فيما بعد من سلوك هذا الطريق

وقد كنت أطيق أى شىء سوى أن يظفر بى هذا الجلاد لأنه إنما جاء ليقبض علىّ؛ ومحال أن أجد فى نفسه أو فى نفس غيره من الجلادين شيئاً من الرحمة. وبعد أن ذهب ذلك الوغد وعاد الدرويش سألته عن المكان الذى يمكن أن أذهب إليه فلا يدركوننى فقال لى: إذهب إلى مدينة « قم » وستصل إليها فى الصباح. ومتى وصلت إليها فاذهب إلى قبر السيدة فاطمة الزهراء فهناك ملجأ لا يصل إليك فيه أى إنسان، وإذا ضبطت خارج سور المدفن فلا أمل لك فى النجاة »

قلت: « ولكن كيف آكل وأعيش فى داخل المدفن ؟ »

فقال: « اترك لى ذلك فأنى سأعولك لأنى أعرف المكان وأعرف كثيرين فيه. وقد اضطررت مرة إلى الالتجاء إليه لأنى قدمت سماً لاحدى نساء الشاه لكى تقتل به منافسة لها » وكان وصولى إلى المدفن قبل خمس دقائق من وصول الجلاد الذى جاء ليقبض على ولم أعش قط معيشة أرغد من عهدى فى ذلك المدفن لأن كنت لا أعمل أى عمل، وكان زائرو المقبرة على كثرتهم يعطوننى كل شىء تميل نفسي إليه. والشىء الوحيد الذى تخشاه فى هذه الحالة هو أن يصدر الشاه أمراً يمنع الناس من إعطائك طعاماً، وبأن من يخالف ذلك يصبح مستحقاً

للاعدام ، ولكن حالتك لا تدعو الشاه إلى إصدار مثل هذا الأمر الذى لا يلجأون إليه إلا فى حالات خاصة شديدة الأهمية

قلت له : « أنا لست أنسى جميلك ، وربما عاد نجمي إلى الارتفاع فأريك أنني لست ممن يضيع الجميل عندهم ، وأنت تعرف حاجي بابا من زمن قديم وهو ليس من الذين يضعون حسناتهم على راحة اليد ويخفون سيئاتهم تحت الأبط وأنا لا أزال كما عرفتني فى مشهد فبائع التبغ فى تلك المدينة هو نفسه مساعد الناز كشى باشى » فعانقني الدرويش وقال: « اذهب حيث شئت فان الله معك »

فسرت، ولما طلع الفجر رأيت على ضوئه قبة القبر ؛ ولما صرت على مرمى السهم من مدينة قم رأيت ذلك الفارسي يعدو نحوها فلم أنظر يميناً ولا يساراً حتى وصلت إلى القبر الشريف فقبلت عتبته وحمدت الله وشهدت أن لا نبي بعد رسوله وصليت على الامام علي

وفى هذه اللحظة وصل الناز كشى فحياني تحية فاترة وقال إن الشاه أمره باحضارى من أى مكان يجدني فيه . فقلت له إنى قد لجأت إلى هذا القبر ولن أفارقه باختيارى . فاذا كان لديه أمر من الشاه بأن يفعل مالا يتفق مع حرمة هذا المكان فليأخذني بالقوة .

قال لى : « وما الذى أفعله إذن يا حاجي بابا ؟ إن الأمر الذى صدر لى لا يتضمن استثناء وإذاعدت دونك فربما قطع الشاه أذني بدلا منك »

فقلت : « سيفعل ذلك إن شاء الله »

قال وقد استولى عليه الغضب : « تقول إن شاء الله ؟ إنني أكون حماراً إذا لم أعد بك » ثم ارتفع صوتى وصوته فأقبل الدراويش القيمون فى هذا المكان وسألونا عن السبب فقلت لهم :

« إن هذا الجندى يهين المكان المقدس الذى لجأت إليه ويريد أن يأخذني بالقوة . فقولوا له هل تسمحون بذلك أم لا »

انضم الجميع إلى جانبي وقالوا ما سمعنا قط بمثل هذا من فارس، فأنت لا تستطيع أخذه وإلا استثرت ضدك غضب الزهراء وعلماء الدين جميعاً ؛ ولن ينجيك من غضبهم التماؤك إلى الشاه أو لجوءك إلى حماية الشيطان »

فلم يعرف الناز كشي بماذا يجيب وبقى هادئاً مدة ثم ألان صوته وأراد أن يفاوضني فى المبلغ الذى أدفعه إليه إذا تركني وعاد وحده . فلم أنكر عليه حقه فى أن ينال ما يعوض عليه مشقة التعب لأنى ما كنت أفعل غير ذلك لو كنت فى مكانه ولكنني أفهمته أنني لا أستطيع أن أدفع غير القليل لأنه يعرف الظروف التى غادرت فيها طهران . لكنه أصر على أن أدله على المكان الذى تركت فيه مالى بطهران ليأخذه متى عاد فأبيت ذلك عليه وأمرته أن يذهب ويترك المحزونين فى أحزانهم

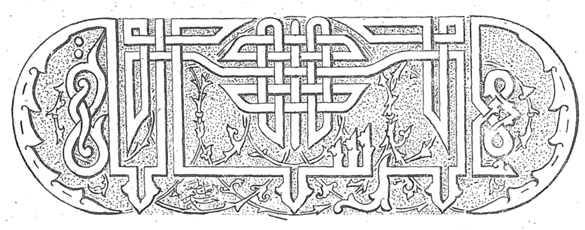
لكن الحقيقة أن الرجل كان قد أخذ ماوصلت إليه يده من أمتعتي وثيابي وفراشي وأثاث منزلي وهو الذى أبلغ الشاه عني وتطوع لمطاردتي لكي أمكنه من الحصول على ما ظنني أملكه من مال مخبوء

وكان قد لاحظ حالتي ساعة نفذ الحكم فى الفتاة وتوقع أن يحل بى نكبة فيحل محلى فى منصبي

ولما رأى أن الأمر الذى معه ليس إلا قصاصة من الورق لأنه لا يستطيع اعتقالي مادمت فى ذلك الملجأ — لم يجد بداً من العودة إلى طهران ولكنه قبل أن يذهب أوصى حاكم المدينة بأن يشدد فى مراقبتي وبأن يعتقلوني متى خرجت من الملجأ ويرسلني إلى طهران

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر — وتربط الشرق بالغرب

على هدًى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيى في النثر أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪


الرواية



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

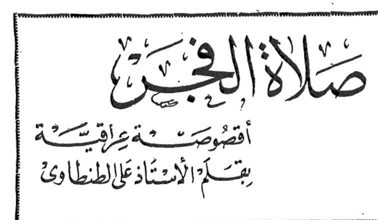
الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٠ — ٢٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

من أحسن القصص

فهرس العـــدد

صفحة



... أفاق في الساعة التي ألف ، فضرب ببصره إلى الجدار حيث الساعة الكبيرة ، ليرى كم بقي من الليل ، فلم يجد على الجدار ساعة ، وإنما وجد صورة لامرأة عارية ، تبدو له على ضوء المصباح الكليل كابية مظلمة عليها من الوحشة والقبح ستار ، فعاف النظر إليها ، وأجال عينيه في أرجاء الغرفة ، فاذا هو منكر لها ، لا يعرفها ولا عهد له بها ، وإذا هو يرى إلى جانبه على السرير امرأة عارية مفتوحة الفم تغط غطيطاً منكراً ، وقد سالت الأصبغة على وجهها واختلطت ، فتعوذ بالله من هـذا الحلم وألقى برأسه على الوسادة ، يفكر تفكيراً مبهماً مختلطاً ، فما لبث أن عاد إلى المنام فرأى نفسه ملكاً من ملوك الأساطير ، مضطجعاً على سريره المرصع بالذهب ، المحـلى بالياقوت والمرجان ، والوصائف قائمات على رأسه ، عاريات السوق ، باديات النحور والصدور ، ينثرن عليه الورد ، ويضمخن مفرقه بالمسك والعنبر ، وأمامه المغنون والمغنيات ، وإلى جانبه فتاة جمع الله فيهـا ما تفرق من سمات الجمال ، فلم يتمالك أن أهوى على فمها بقبلة ...

... فأحس بها تدفعه عنها ، فنظر فاذا هو مستيقن أن ما يراه حقيقة ثابتة ، وأن حلمه الجميل قد احتواه هذا الواقع القبيح ، وذكر ما كان بينه وبين هذه البغي التي قدمت إليه فراشها ، وأحاطته بذراعيها ، فأحس بالاشمئزاز ، وذل في عين نفسه وتضاءل . . ماذا فعلت بنفسي ؟ أهذه هي مبادئي وأخـلاقي ؟ وبعد فماذا أصنع الآن ؟

وهم بايقاظ إيمانه واللجوء إلى ربه ، ولكنه لم يستطع فقد ألقت المعصية حجاباً على قلبه ، ورانت الخطيئة عليه ، فأحس بالألم يقطع في فؤاده ، فقام إلى ثيابه يرتديها على عجل ليخرج من هذه الدار القذرة التي أضاع فيها عفافه ، وخسر طمأنينة نفسه .

وفكر في الناس، ألا يرونه ؟ ثم رأى أن لابد له من الخروج من هـذه الدار التي يحس أنه فيها كمن ألقي في بركة قذرة ليموت فيها غرقاً ...

وألقى على المرأة نظرة أودعها كل ما في نفسه من كراهية واحتقار وبصق مشمئزاً وخرج هارباً .

ولكن كيف له بالهرب من نفسه ، والفرار من ضميره الذي يذيقه من التقريع والازدراء ماليس لمخلوق يحمل مثله طاقة ؟ وكان شارع الرشيد خالياً مقفراً إلا من أعقاب السابلة ، من كل بائس أوداعر لأنه لا يبقى يقظاً في مثل هـذه الساعة إلا البؤس والرذيلة ، وكانت ليلة مجنونة ذات رياح تعوي في هذا الليل مثل عواء الذئاب الجائعة يخالطه أصوات آلاف من النوم تنصب معاً ، فتملأ أصواتها الفؤاد السليم ذعراً ، فكيف بمثل فؤاد رجب أفندي المروع الكليم ... وكانت الأمطار تسكن لحظة ثم تعود فتنهطل، تنصب انصباباً كأنما هي تريد إفراغ السحاب

فى دقيقة واحدة . والريح تضرب حباتها فتصرفها ذات اليمين وذات الشمال ، والبروق تسطع خلال ذلك تخطف الأبصار ، والرعد يدوى فتحس أن قد تقلقلت بسا كنيها الأرض .

وضرب رجب أفندى بيده إلى جيبه فألفاه فارغاً وذكر أنه دفع مرتبه كله الذى قبضه أمس لهذه البغى... فعظم عليه الأمر ، وبلغ من سخطه على نفسه أن ود لو عض يده بأسنانه ، أو قطع شعره بيده ، واستفظع ما أتى وفكر فى أهله الذين لم يغب عنهم من قبل ، ولم يبت ليلة إلا معهم ، فكر فى أمه التى يعلم أنها لا يغمض لها جفن ما دام نائياً عن الدار ، وأبيه الشيخ المسكين الذى لا يفكر إلا فيه ، ولا يعنى إلا بسعادته . ماذا يقول لهم ؟ ومن أين يعوض عليهم مرتبه الشهرى الذى ينتظرونه ساعة بعد ساعة ، ليشتروا به الخبز ... أيقول لهم إنه وضعه كله في يد مومس ثمناً لليلة إثم وعار ؟

لا . الموت أهون من ذلك ! وفكر فى الموت فعلا : ماذا علىّ إذا ألقيت بنفسى فى دجلة فسترت فيها إثمى ... ولكن هذا الخاطر امحى من رأسه على عجل ، لأن رجب أفندى كان متديناً يعلم أن المسلم لا يعمد أبداً إلى هذا الانهزام الشائن من غمرة الحياة وباب الفضيلة مفتوح أبداً ، والتوبة تغسل النفوس مهما تراكمت عليها أوضار الآثام ... وهم بأن يستغفر الله ويدعوه ، ولكن الحياء من الله عقد لسانه ، أن يتوجه إليه ويسأله وهو غارق فى حمأة الرذيلة إلى أذنيه ونسى أن الدعاء يكون أدنى إلى القبول كلما كان العبد أقرب إلى الاضطرار ، وأن الندم على ما مضى والعزم على الاقلاع عن الذنب فيما يأتي ، مع تركه والانصراف عنه دواء يشفى أكبر المذنبين من أشد الذنوب والله كريم غفار ، لو جاءه العبد بقراب الأرض خطايا وجاء معها بالتوبة الصادقة بشروطها الثلاثة لجاءه الله بقرابها مغفرة ، والله غفور رحيم ...

* * *

وكان رجب افندى فى الخامسة والعشرين ، فى السن التى تركب المرء فيها شياطين الشهوة ، وتزين له السبل إليها ، فلا ينفعه إذا خطا الخطوة الأولى عقل ولا تفكير ، ولا يقف إلا فى آخر الطريق كالصخرة على شفر الوادى مابقيت مكانها فهى ثابتة مستقرة ، فاذا زحزحتها وقلبتها قلبة واحدة هبطت إلى أعماق الوادى . . . وكان رجب افندى قد نشأ متديناً ، وكان شيخاً بعمة وجبة يطلب العلم على المشايخ لم يدخل مدرسة نظامية ولم يختلط بشباب العصر ، فكانت العمة عصمة له من البلاء ، وسداً يحول بينه وبين (الأوتيلات) والمراقص والحانات ، وكانت نفسه كهذه العمة التى على رأسه صفـاء وطهراً وبياضاً ولكنه اضطر منذ أعوام إلى العمل فى ديوان من دواوين الحكومة فنزع العمة مكرهاً ، وودعها آسفاً ودخل اللجة وهو جاهل بالسباحة ، ليس له بطبيعة الماء خبرة ، ولا بعسير الموج علم ، فحملته موجة فألقته بحيث ترى . . . ولو أنه عرف طرق الشر لـما سلكها ، ولو كان متزوجاً لـما هوى ، ولو أحسن اختيار أصحابه لـما انساق هذا المساق ، ولكنه كان جاهلاً بما وراء الدار والمدرسة والسوق ، يستوى عنده فى عالم الرذيلة جلوس فى قهوة ، أو شهود رواية فى سينما ، ومعاقرة الخمرة فى الحانة ، ومجالسة البغى فى الماخور . وكان عزباً ، ونفس العزب مهما اتقى وصلح كصندوق الديناميت لا يؤمن انفجاره إذا داناه لهب أو مسته نار ، ونفس العزب

يلهيها كل ما فى السوق من متبرجات سافرات ، وما على الشاطئ من عارين وعاريات ، وما فى السينما والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأيان تأمن انفجار الديناميت ؟ . ثم جاءت طامة الطامات فالتف حول رجب افندى نفر من زملائه تطوعوا لاغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً عنيفاً ورأوه قد ثار الثورة الكبرى لما أرادوه على دخول القهوة ، فعلموا أنه قد صف قوى نفسه كلها فى هذه المعركة الصغيرة ، ولم يبق لما وراءها شيئاً ، وأيقنوا أنهم لوغلبوه هذه المرة غدا منقاداً لهم طيعاً . فما زالوا به يراوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من يثق بهم على مسمع منه : هل فى دخول القهوة ما يمس الدين أو المرض ، أفتونا يا مسلمون ؟ . فيقولون : لا ... وإنما هي مضيعة للوقت ، مفسدة للصحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافى الدين ، ولا تمد فى المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل القهوة ، فجلس مستحيياً يتصبب منه العرق ، ويظن أن كل ما فى الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق البقاء فخرج ، ولكن رجله علقت فى الفخ ... واعتاد القهوات ، وسار إلى السينمات ، وما فى ذلك كله بأس ، ولكن رجب افندى اعتقد أنه هوى وزل مذ دخل القهوة ، وأن السد بينه وبين الرذائل كلها قد انهار ، فلم يقف فى طريقه شيء ، وعرف ذلك أصحابه من عباد إبليس المخلصين ، فأتموا لعبتهم على ذقنه ، ليستكملوا سرورهم بكمال هـذه الرواية ، فأخذوه إلى دار من تلك الدور التى تسمى (أوتيلات) أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور من شر المواخير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا به الفتاة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ؛ وكان المسكين قد قرأ دواوين الشعر الغزل ، وروايات الحب العذرى كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ، أو روميو آخر ...

* * *

وكان رجب أفندى يعرض فى نفسه هذه القصة وهو يمشي متسللا فى ظلال الجدران ، فى هذه الليلة العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك فسمع حديث شقائها ... وبكى لبكائها ، كما كان يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم فى الأشعار والروايات وصب بين يديها ما كان فى جيبه من مال .. وكيف ندم وتنبه إيمانه في نفسه . فعزم على ألا يراها من بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن الشاب المصرى لا يليق به أن يفعل ذلك فعاد مرة ثالثة ورابعة، وهى دائماً فى أثواب الممثلة العاشقة الغريرة تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطعمه ، وتمرض عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ، ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها أبداً ، وذهب إلى مكتبه بعزيمة جديدة ، وراحة بال وأدى عمله بنشاط ظاهر ، ومرت على ذلك أيام حسب فيها أن كل شيء قدانتهى ، وأن هذه السحابة قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه كتاباً منها فقرأه وغضب ومزقه باضطراب عصبي ظاهر . وخرج يمشي إلى داره ، فأحس أن نفسه تنازعه الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت رغبته فى زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً وردعلى تحيتها باعراض، فسألته: مالك أيها الحبيب؟ فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

وشعر بالارتياح ، وسره أنه استطاع أن يخاطبها بمثل هـذه اللهجة ، وتوقع أن تجيبه بجفاء فيغضب ويصارحها بالقطيعة . ولكنها ظلت صامتة ، وظل هو مطرقاً ينظر جواب ما قال .. فطال عليه الأمر فرفع بصره ليرى ما تصنع ، فالتقت نظراتهما وخيل إليه أنه رأى في عينيها معنى الألم والعتب والاخلاص يلوح له من خلال جفونها الناعسة، وأهدابها الطويلة فتضعضع ولان وخفق قلبه بشدة وأحس بالرغبة الملحة في الاقتراب منها وعناقها ، ونهض ليدنو منها ولكنه لم يجرؤ على ذلك فلبث قائماً . قالت : مالك؟ فلم يجب، فمدت إليه يدها لتجلسه ، فلما أحس بأصابعها بين أصابعه اهتز جسمه كله ، وانتفض على نحو مايصف الشعراء والقصصيون . . . وجلس إلى جانبها وألقى يده على كتفها كأنما كان ذلك عفواً ، فشعر بلذة وسره ما كان من جرأته ففكر في أن يلف يده حول عنقها ولكنه خشي أن تغضب .. وأن ترى في ذلك تعدياً على عفافها ، وذكر أن ماجدولين غضبت لما قبلها ستيفن لأن هذه القبلة قد أفسدت الهوى العذري .. الذي كان بينهما ، ثم اشتدت رغبته في تطويقها بذراعه ، فتردد حيناً ثم لف ذراعه حول عنقها ، وأتم ما كان يفكر فيه فأسند رأسه إلى كتفها كما شاهد الممثلين في السينما يفعلون ، فلم يبد عليها شيء من الغضب فأوغل في الجراءة فأخذ يدها بيده الأخرى ورفعها إلى فمه فمس أناملها بشفتيه . . . ونظر ماذا تفعل ؟ فاذا هي قد ألقت رأسها فوق رأسه حتى لامست خصلات شعرها وجهه ، فالتهبت النار في أعصابه وهمَّ بها فوثبت كالقطة .. وجعلت تشكو إليه ما عليها من الدين ، فدفع إليها كل ما في جيبه .. فلما احتوت المال يدها تخلصت منه فلم يدر كيف خرج إلى الشارع ...

وذكر كيف أزمع الاتصال بها مرة واحدة ، أو الاعراض عنها مرة واحدة واطراحها ونسيانها وأنى له ذلك وهي لاتدع إلى إغرائه طريقاً إلا سلكته ، إنه يراها كالأفعى المبرقشة ، ويتصورها أحياناً حشرة قذرة ولكنه يود مع ذلك لو قبض عليها فهصرها إليه وعصرها وأكلها أكلا ...

وذكر كيف كان الندم يغمر نفسه ، فيأوي إلى غرفته يشتغل بالمطالعة ، ويقبل على كتب الرقائق ويخرج إلى المقابر والمستشفيات ، يتمظ برؤية المرضى والتفكير في الأموات ، حتى إذا أحس البرء قليلا جاء رفاق السوء بالمرض العضال . . . وذكر كيف كان ينفق في كأس من الويسكي أو الشمبانيا مايكفي أسرته أسبوعاً كاملا ، كل ذلك من أجل هذه الفتاة التي اتصل بها أخيراً ، فتكشفت له عن حشرة حقيقية ، يبصق عند رؤيتها اشمئزازاً ...

***

وكان يفكر وهو يسير مسرعاً ، يريد أن يفر من الناس حتى لا يراه أحد ، فلم يع على نفسه إلا وهو في ضاحية (الأعظمية) ...

قال لي وهو يحدثني حديثه :

... فلما بلغتها سمعت المؤذن يمجد الله ويذكره ذكر السحر

ورأيت جارنا أبا صالح ، يمشي إلى المسجد وهو يقول : لا إله إلا الله ، يقتلعها من قرارة قلبـه ، فتواريت منه كيلا يراني ، وجعلت أذكر أيام كنت لا أعرف هذا السهر الذي جر علي كل بلاء ، فكنت أنام عقب العشاء ، ثم أفيق في السحر ، فأرافق أبا صالح إلى المسجد ... فرأيت بيني وبينه أمداً بعيداً وتمثلت لي خطاياي وآثامي كلها ، لأن صوت المؤذن

وجلال السحر قد نبها فى نفسى الدخيرة الدينية ، فأدركت قيمة الاستقامة ، ولذة العفاف ، وعلمت أن هذه السعادة التى يحس بها المؤمن لا تعدلها لذائذ الجسم ، ومتع الحب ولا توازيها ... وأدركت أن الصلة بالمرأة سراب خادع تراه من بعيد ، وتسمع وصف زلاله الصافى ، ومائه النمير ، فيهجك الشوق إليه ، ولكنك إذا جئته لم تجده شيئاً ... جرب هذه الصلة مرة تحس بهوانها وسخفها ... لا ... لا تجربها ، فان من جرب المجرب حلت به الندامة ولا تقامر بدينك وشرفك لتعلم هذه الحقيقة بل ثق بما أقول لك . ولا تثر هذه النار فى نفسك فانك لا تستطيع أن تطفئها . إنه لا يطفئها إلا أن تستمتع بكل جميل فى الكون ، وهيهات . إنك إذا استطعته لا تقوم صحتك به ، ولا تدوم لك وأنت تنفق منها بلا وعى ولا حساب

لما أحسست بذلك أسرعت إلى الحمام فتطهرت ، وخرجت أؤم المسجد تائباً ، وأحلف لك أنى لم أجاوز بابه حتى وجدت مثل ارتياح الغريق إذا خرج إلى الهواء ، أو المختنق إذا فتح له مجرى النفس ، وشعرت أنى أسمو وأرتفع ، وأن هذه الأغلال التى كانت تقيد روحى قد تحطمت وانكسرت ، وأن عبء الخطايا قد نزل عن كتفى ، ولما وقفت فى الصف وقلت : الله أكبر خرجت من دنياى

وقرأ الامام : « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً » فجاء ذلك برداً على كبدى وسلاماً ، فصححت التوبة ، ورأيت أن أصل البلاء من رفاق السوء فهجرتهم جميعاً ، وقطعت حبل ودهم ، وتركت سر الليل ، فأعاد الله إلى ما كان سلبنيه من الأنس وسعادة الروح بالتوجه إليـه . ومراقبته ... وله الحمد على ذلك

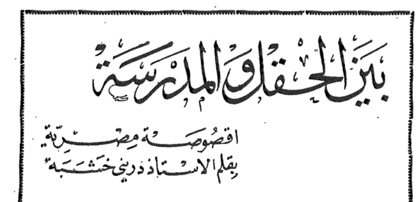
الآن عرفت جمال الدنيا ، لا كما يقول أصحابك الأدباء ، من أن المرء لا يعرف جمال الدنيا إلا بالحب وأن المحب لا يرى الدنيا جميلة إلا إذا أضاءتها عينا من يحب — فاذا غابتا غاب جمالها — فأى كون هذا الذى تحتويه عينا امرأة قد تكون بغياً ؟

إننا نحتاج إلى مبشرين بالفضيلة ممن عرف الرذيلة وخبرها ، أما من دعا إلى الفضيلة لأنه لم يقدر عليها فهو شر من الشيطان ، لأنه إن قدر عليها انقلب داعراً خبيثاً فأضل معه من كان اهتدى بهديه ، والشيطان يدعو إلى الرذيلة على النور فلا يضل به إلا من أراد الضلالة ، وليست فضيلة العاجز إلا انتقاماً لنفسه من القادرين ، ولقد ترددت بين الحياتين : حياة يلذها الشبان ويأنسون بها وهى حياة الانطلاق من كل قيد ، والسعى وراء اللذة ، والاستجابة إلى داعى الهوى ، وحياة لا تعجب أكثر الشباب لأن لها غاية سامية ، ووراءها حياة آخرة ، وفوقها إله قادر يعلم صاحبها أنه إن فاته حظه من لذة عاجلة فانية ، ناله من اللذة الآجلة الباقية ، فتأدبت بأدب القرآن فكنت أغض البصر ، وأنزه اللسان عن الفحش ، وأبتعد عن المغريات فنلت والحمد لله السعادة كلها !

قلت : أتأذن لى بنشر حديثك ؟

قال : نعم ، ولهذا حدثتك به ولكن دع الأسماء لا تصرح بها . وكذلك فعلت !

على الطنطاوى



— كلا ، بل لا بد من أن يذهب إلى المدرسة

— قلت لك إننا فقراء ، ولا قبل لنا بالنفقات الطائلة التى يقتضيها التعليم

— نجوع . . نعرى . . ولكن لا بد من ذهابه !

— ألا ترين يا رقية أن نفقات التعليم تذهب بنصف غلتنا كل عام ومع ذاك فولدك من الخياب..؟

— ولدى أنا ؟ توفيق من الخياب ؟ حماه الله وحرسه !

— بل هو أخيب الخياب يا رقية ، لقد رسب هذا العام والعام الذى قبله ، وهو يمضى عامين فى كل فرقة ، ونفقات سنة واحدة كانت تشترى لنا جاموسة أو بقرتين ... والتلاميذ ينالون الشهادة فى أربعة أعوام ، وها قد مضت ثمانية وتوفيق لما يزل فى السنة الرابعة ، فالأربعة الأعوام التى رسب فيها كانت توفر لنا ثمانى بقرات لو أننا ملكناها لملأت لنا الدار لبناً وزبداً وجبناً ووقوداً ، وكنا نعيش فى سعة ... وكنا أصلحنا هذا الجدار الدائل ... وكنا اشترينا حصة على أبى زيدان وأدخلناها فى دارنا فاتسعت..و..

— حسبك يا شيخ... كفى تخريفاً ... إن حرفاً واحداً مما تعلمه توفيق فى المدرسة خير من هذه المزبة ومن فيها ...

— هذا غرور يا رقية

— ليس غروراً ، لكنك رجل لا تدرى من أمور الدنيا إلا الناف والمحراث والساقية... إنك مثل البهائم التى لا تعاشر غيرها

— البهيمة التى تفيد أحسن من الانسان الذي يضر !

— لعلك تعنى توفيقاً بهذا الكلام ...

— هو ذاك ... أنا لا أعنى أحداً سواه

— وفيم ضرك توفيق ؟ هل كسر ذراعك أم سطا على حقلك ؟

— لا هذا ولا ذاك .. لكنه أضاع من جهودنا هذه السنوات الأربع ، وقد كلفتنا مائة جنيه على الأقل يا رقية !

— فداؤه كل ما نملك ... إن دخوله علينا كل أجازة ببذلته وطربوشه — صانه الله وحرسه — أحسن من ألف جنيه !

— طبعاً ... هذا هو الذى يغريك بذهابه إلى المدرسة ... وقد كسر الزير منذ ثلاثة أشهر وأنا لا أستطيع أن أشترى غيره إلى الآن ، وأولادنا يعرضون من الجوع والبرد ونفضل ألا نشترى لهم لحماً أو ثياباً ليذهب أخوهم توفيق إلى المدرسة ، فليت دخوله عليهم بالسترة التى نفختك هذه النفخة كان يشفيهم أو يسد رمقهم

— أى جوع وأى مرض ياشيخ ؟ الصندوق ولله الحمد ممتلىء بالعيش ، والقاعة ممتلئة بالحبوب... هل شكا لك أحد منهم ؟ هل قال أحد إنه جوعان ؟

— لا . . . لم يشك أحد ... لكنهم مع ذاك

لا يذوقون اللحم إلا مرة فى كل شهر ... ودقيق الذرة قد أوهنهم وأنهك قواهم ، وكلما رأيت الدم فى بولهم وبرازهم ذكرت العلة التى أودت بمحمود وقضت على كثيرين من أهل القرية

— أذكر الله يا شيخ ودع هذا التخريف

— لست أخرف يا رقية ... لن يذهب توفيق إلى المدرسة بعد الآن ...

— وماذا يقول الناس ؟ نفضح أنفسنا بين أهل القرية ؟

— يقولون ما يشاءون ... ليس لأحد حساب عندنا !

— وماذا يصنع توفيق إن لم يذهب إلى المدرسة ؟

— ماذا يصنع ؟

— أجل ... ماذا يصنع ؟

— يساعدنى !

— يساعدك ؟ يكون فلاحا ؟

— ولماذا لا يكون فلاحا ؟

— هذا مستحيل !

— لن يكون إلا فلاحا ...

— نجوم السماء أقرب إليك مما تريد ... توفيق لن يمشي حافياً ... توفيق لن يخلع البذلة ليلبس البشت ... توفيق لن يلبس اللبدة مكان الطربوش ... توفيق لن يمسك المحراث بعد أن كان يمسك القلم

— اطمئني ... فلن يمشي توفيق حافياً ولن يلبس البشت ولن يخلع الطربوش ... سيكون عروساً كما تشتهين ، لكنه سيكون فلاحاً مع ذاك !

— لن يكون فلاحاً ...

— بل سيكون فلاحاً كما كان أبوه وكما كان جده

— بل سيكون موظفاً نظيفاً يقبض المرتب أول كل شهر مثل ابن المعلم أبي عوف !

— ابن المعلم أبي عوف كان ولداً ذكياً وهذا حظه ، أما ابننا فهو أخيب الخياب يا رقية ... أنا والله لا أريد له إلا الخير ... يساعدنى ... إنى رجل مريض ، ولا أضمن أن أعيش له ... إننى إذا مت اليوم فسينقطع عن المدرسة برغمه ، ولا يجد من يعلمه عملا ينفعه ... التعليم لأولاد الأغنياء والموسرين يا رقية ... يكفى الفقير أن يتعلم الكتابة والقراءة والحساب وما ينفعه فى صحته ودينه ...

— وهل كل الذين يذهبون إلى المدارس أغنياء ؟

— المجتهدون منهم يستحقون التعليم ... لكن الخيَّـاب أمثال السيد توفيق ، ينبغى أن يتعلموا فى جهات أخرى

— وأى الجهات تقصد ؟

— ينخرطون فى أعمال آبائهم

— ومن علمك هذا ؟

— الحياة يارقية .. الحياة الصارمة التى حييتها فى ظل أبى

— زمن والدك قد مضى وانقضى ... نحن فى زمان جديد

— زمانكم الجديد هذا ، زمان مريض عليل ممتلىء بالغرور ... كله زخارف ... إنك لا تريدين أن يذهب توفيق إلى المدرسة إلا ليدخل عليك بالبذلة والطربوش ، وحتى لا يمشي حافياً ولا يلبس البشت ... وكي يكون يوماً من الأيام موظفاً مثل ابن أبي عوف ... يقبض المرتب أول كل شهر ، ويجوع آخر كل شهر ، وهو بالرغم من بذاته ووسامته يعيش عمره ذليلاً فقيراً ، إذا طرد من عمله أصبح من المتبطلين الفارغين ، فهو يتسكع هنا ويتسكع هناك ، يحسد الناس ويحقد على الناس وينقم أول ما ينقم على من يحسن إليه .. هل نسيت عبد الخالق ابن الشيخ زناتى ؟ ...

— هذا حظه ...

— لا . . . لم يكن هذا حظه . . . بل الغلطة غلطة أبيه

— وكيف أخطأ أبوه ؟

— لقد كان الشيخ زناتي أمهر حداد فى القرية .. لقد كان يبيع كل يوم جمعة عشرين شرشرة وعشرين فأساً غير السكاكين والمقصات ، وقد استطاع أن يجمع ثروة عظيمة . . . سبعة أفدنة وثمانية عشر قيراطاً يارقية من أحسن أراضي قريتنا ... خرطة الساحل كلها وأرض أبى طاقية .. أين ذهبت هذه الجنة ؟.. لقد بددها عبد الخالق ...

— وما غلطة أبيه إذن ؟

— غلطته أنه لم يعلم ابنه صنعته

— لكنه علمه ما هو خير منها ؟

— وماذا علمه ؟

— لقد نال الشهادة والوظيفة

— وانسلخ من طهارة الريف وغرق فى زيف المدن . ولما استغني عنه وعاد إلى القرية ، لم يستطع أن ينزل إلى أرضها لأن أجنحة الغرور كانت تذهب به بعيداً فى سماء غير سمائها ، فباع الأرض تفاريق وأنفق كما كان ينفق فى حياة الوظيفة حتى لم يبق فى يديه شيء . . . ولقد حاولت مرة أن أقنعه بفتح دكان أبيه فسخر مني وقال : إنه لا يدري من صنعة الحدادة كثيراً ولا قليلا . . . ولم أكن أقصد أن يعمل بيديه ، بل كنت أعنى أنه يستطيع استخدام أحد الصناع المساكين من أهل البندر فيصنع له وهو يبيع ويدير العمل ، لكنه اتخذ حديثى هزواً واستكثر أن يخلع سترته وينغمس فى تراب الفحم ودخان الكير وأن يعود سمعه دقات الأرازب والسندال بعد ما تعودت أنغام العود والقانون والكمان . . . قلت له : لكن الصنعة على قذارتها أشرف من البطالة ، فتبسم وقال : إنه لم ييأس أن يعود إلى الوظيفة ، وأخيراً استطاع أن يتزلف إلى أحد أعضاء بلدية منوف فعينه كناساً

— كناس ؟

— إى والله كناس يا رقية ! بمائة وعشرين قرشاً فى الشهر

— مبلغ لا بأس به ... إنه ثروة !

— لقد كان يشرب دخاناً بأكثر منه

— ومع هذا لا أحسب أن الفلاح يكسب مائة وعشرين قرشاً مثلها فى الشهر

— الفلاح مخلوق قنوع يارقية ، وهو إذا نجح فى زراعته وبارك له الله ربح أضعاف هذا المبلغ ... إن جاموسة واحدة يبارك الله له فيها تربحه ضعف هذا المبلغ

— ومع ذاك فلن يكون توفيق فلاحاً

— بل سيكون توفيق فلاحاً

— إذن أترك لك المنزل

— وإلى أين ؟

— إلى أبى

— وماذا تصنعين عند أبيك ؟

— ليس هذا شأنك

— إذا لم يكن شأنى فيكون شأن من إذن ؟

— إذن يذهب توفيق إلى المدرسة ولا ينقطع عن التعليم

— لن يذهب إلى المدرسة ولن ينقطع عن التعليم

— وكيف لا ينقطع عن التعليم وهو لن يذهب إلى المدرسة !

— سيتعلم الفلاحة صنعة أبيه وصنعة جده

— هذا لن يكون

***

اختلف الزوجان اختلافاً شديداً ، وذهبت رقية تشكو زوجها إلى أبيها وإلى أخواتها وإخوتها وجميع

من تعرفهم ومن لا تعرفهم ، وراحت تتهمه بالجهل وضيق الفهم وانقباض الكف ... ولبثت فى منزل والدها أياماً طويلة وهى ترفض العودة إلى منزل الطاعة، كما يتقعر رجال المحاكم حين يسمون منزل الرجل المتزوج.. وكلما تردد الرجل على منزل أبيها يطلب أو بتها غلت فى طلباتها فاشترطت أن تشترى ثلاث بذلات لتوفيق ، وطربوشين لتوفيق ، وزوجين من الأحذية لتوفيق، أحدهما أصفر فاتح ، والآخر أسود (بأستك)

وجلس الفلاح المسكين الشيخ عبد الاله يحاور صهره الغبى فيما ينبغى وما لا ينبغى من هذه المشكلات ... وكان الصهر كالفرس الحرون ، كلما أدلى عبد الاله بحجة ركب رأسه ، وأبى أن يصغى إليه ، وشرد بالحديث شروداً يكرب الصدر ويذهب بأناة الحليم ... قال لزوج ابنته وهو يكامه بكل جارحة فى وجهه ، فتارة يغمض عيناً ، وتارة يقلص شفة ، وطوراً يفغر فاه ، وأطواراً ترتسم الأسارير مستهزئة حول عينيه وملء جبينه ، وهو فى ذلك كله يتصنع اللباقة والفهم ، وإن لم يكن عنده شىء من لباقة ولا فهم

— أنا عارف يا عبد الاله ... أنا عارفك ... أنا عارف ...

— أنا اليوم كما كنت بالأمس يا سيدى

— أبداً ... أبداً

— وماذا تغير من طبعى ؟

— كل شىء ...

— كل شىء مثل ماذا ؟

— الوعود الحلوة التى كنت تمدنا بها فى معاشرة رقية ذهبت كلها أدراج الرياح

— وأى هذه الوعود ذهب أدراج الرياح ياسيدى؟

— كثير ... كثير ...

— أريد أن أعرف ، هل شكت لك رقية من ضيق فى حياتها ؟

— شكت أمر الشكوى ...

— ومن أى شىء شكت ؟

— من كل شىء

— من كل شىء مثل ماذا ؟

— من الدار الخربة ومن الزير المكسور ومن بخلك ... ومن ...

— بخلى ؟

— أجل يا سيد عبد الإله ... إنك تضن بثمن شربة ملح على ابنك عبد الفتاح ...

— هذا هو الذى شكوت أنا منه ... إن كل قرش يقع فى أيدينا ندخره لمصروفات توفيق وبذل توفيق وطرابيش توفيق ... إننا نجوع ياعم الشيخ رزق لنفرح بدخلة توفيق علينا بالبدلة والطربوش والحذاء الأصفر الفاتح ... أولادي كلهم يتبولون دماً لأننى أعجز عن إرسالهم للطبيب وهذا لأن أخاهم يأكل أرزاقهم ... هم ينصبون ويكدون وكل نصبهم وكدهم ذاهب عليه ... وهو مع هذا أخيب الخياب

— كلام فارغ ... تخريف ... هل دخلت فى علم الله يا شيخ ؟

— ليس ضرورياً أن أدخل فى علم الله لأعرف إن كان ولدى ينفع أولا ينفع ...

— يا طاغى ؟

— أستغفر الله أن أكون طاغياً ... لن ينجح توفيق فى المدرسة ، ولو نجح فسوف يكون نجاحاً يشبه الخيبة

— ولماذا ؟

— سيكون مثل ابن أبى عوف

— وماله ابن أبى عوف ؟

— أسوأ حال وألعن مآل !

— ولماذا ؟

— لأنه يشتغل كناساً فى بلدية منوف

— كذاب !

— لست كذاباً

— هل رأيته ؟

— لم أره ، ولكني عرفت ؟

— لقد رأيته بعيني يجلس أمام مكتب نخم .

— هذا صحيح ؟

— إذن كيف تدعى أنه يشتغل كناساً ؟

— لقد رحموه فقط ، فهو معين كناساً ولأنه يحسن الكتابة أخذوه ليساعد الكتبة . . .

— وهل أنت مهندس الكون ياشيخ عبد الاله؟

— لا ... لست أنا مهندس الكون ، ولكنى مهندس أسرتى فقط .

— وأين تعلمت هذه الفلسفة وأنت رجل ناف وحراث ؟

— ليس ضروريا أن أتعلمها فى الازهر الذى لم ينفعك بصلة !

— اخرس ياقليل الأدب !

— لست قليل الأدب ، ولكنى أقول الحق ..

— اخرس ياجاهل

— لست جاهلا فأنا أحسن الكتابة والقراءة ولله الحمد ، وقد استفدت من الفلاحة أضعاف ما استفدت أنت من الأزهر الذى قضيت فيه شبابك فما أفدت مما حصلت فيه شيئاً ، ولولا ما ترك لك أبوك . . .

وهكذا انقلب الحوار فصار حواراً أفلاطونيا عجيباً ... وهكذا تنقلب محاورات القرويين .. وقد أخطأت رقية حين أثارت العاصفة فى منزل زوجها وحين جعلت أهلها قضاتها فيا كان ينبغي أن يكون من شأنها وشأن زوجها فقط .

لقد كان الشيخ عبد الاله رجلا حصيفا ينتفع أكثر من غيره من أهل القرية بعبر الزمان ، وهو إن أخطأ فملاقى إهاجة الشيخ زرق بتعبيره بتفاهة ما أفاد من الأزهر إلا أنه كان على شيء من الحق فيا أراد أن يقول وإن يكن قد التوى عليه القصد وفاته حسن التعبير . . . وأهل الزوجة حمق حين يدسون أنوفهم فيما لا ينبغى أن يشاركوا فيه أصهارهم مما يعنيهم وحدهم ولا يعنى أحداً سواهم ؛ وهم حين يشجعون بنتهم على معاندة زوجها ينقضون بأيديهم الأثيمة بنيان سعادتها وسعادة الأسرة التى كان يجب أن تشيدها وتقيم عمادها ... وهذه أولى وظائف الزوجة الصالحة ... لكنها وظيفة لا تتم إلا للمرأة الكتوم التى لا يستخفها النزق ولا يستهويها الطيش ، فتذيع من أسرار زوجها ما كان ينبغى أن يكون سر بينهما لأنه سياسة حياتهما

لقد عير الشيخ رزق صهره عبد الاله بأنه يجيع ابنته وهى تهمة مفتراة ما في ذلك ريب ، وإن لم تكن مفتراة فان رقية هى التى قذفت بها فى سمع أبيها ... وقد افترتها فى غير وعى ولغير حكمة اللهم إلا لشهوة التشنيع على زوجها الذى ضاق ذرعاً بنفقات تعليم ولده ، أخيب الخياب ، كما يطلق هو دائماً عليه ، فهو يريد أن يقطعه عن المدرسة ليوفر لأولاده أكلة من اللحم كل أسبوع على الأقل بدل الأكلة الشهرية ، وليوفر لهم كذلك شيئاً من دقيق القمح وشيئاً من القماش يقيهم زمهرير البرد ، ثم لكيلا يضن على أحد منهم بثمن شربة من الملح أوزجاجة من القطرة ، ثم لكى يضمن لولده مستقبلا عمليا فلا ترهقه الحياة ولا تفجأه بمطالبها بغتة حين يرغم على حياة المزرعة إرغاماً لم يأخذ له أهبة ولا أعد له عدة . والزراعة فن وصران يصبحان

بعض الأيام غريزة فى ساعدى الفلاح فهما تضربان بالفأس وتثيران الحرث كما يغنى قلم الشاعر بأهازيج الهوى فوق القرطاس .

كانت هذه الهواجس تضطرب فى نفس عبدالاله وكان كلما فكر فى سلوك زوجته حزن وساوره الكمد ، لأنها شعبت آلامه ، وخلقت له من المشكلة الواحدة مشكلات ومشكلات . . . وقد نسى كل شئ إلا ما افترت عليه من أمر تجويعها ، فكان يذكر ذلك ويبكى فى أعماقه دون أن يذرف دمعة واحدة وهو أحر البكاء وأوجعه

***

كان يقطن الشاب المراهق توفيق أفندي عبدالاله الطالب بالثانوية الكبرى ، فى منزل صغير قذر من منازل عطفة السلاح بحى المنشية

وكانت غرفته البسيطة الساذجة الرطبة مأوى لأسراب البعوض وجيوش البراغيث والبق . . . لكنها بالرغم من هذا البلاء كانت جنته التى يقضى فيها ليله وأكثر نهاره فى أيام انقطاعه عن الدراسة وما كان أكثر هذه الأيام

وليس عجيباً أن تكون هذه المباءة المتلئة بأسراب البعوض وجيوش البق جنة التلميذ المراهق توفيق أفندى عبد الاله ... فالحجرة على قذارتها لها نافذة تشرف من بعيد على حدائق المنشية الناعمة تحت أسوار القلعة ، وذاك منظر عجب ينبت الريش فى خيال شاب مثل توفيق ، ويجعل له أجنحة فيرفرف فى عوالم الشعر ، ويجعل حياته ضرباً من الأحلام لا يفيق منها إلا على لدعة بعوضة أو عضة ذكر من ذكران البق أو ياشق من بواشق البراغيث

وليس هذا المنظر وحده الذي جعل الغرفة جنة لهذا الشاب ، بل هناك شئ آخر ... شئ إذا وجد قلب كيان المرء وملك زمامه ، وسلبه لبه وتفكيره

لقد كانت أسرة فقيرة تعيش فى إحدى حجرات الطابق الثانى من ذاك المنزل ... وكانت الأسرة مكونة من رجل عامل فقير ومن زوجة بائسة ، لها طفلان يافعان ، أما أحدهما ففلام فى السنة الأولى الابتدائية وأما الثانية ففتاة فى السابعة عشرة ، رسم الفقر حول عينيها تهاويل عجيبة من السحر ، كانت تنشر ظلالا من الفتنة فوق خديها ، وألواناً قرمزية فوق شفتيها وكانت ابتسامة واحدة من فمها الدقيق الرقيق تصير ببؤس والديها أنعما ، وتنسيهم ماهم فيه من عناء وضيق

وكانت هذه الابتسامة نفسها بلسما يشفى فؤاد توفيق ، وطالما يشيع بالنشوة فى كيانه ، فهو لهذا لم يكن يعدل بغرفته القذرة المكظوظة بالحشرات من كل صنف قصراً بأسره ، ولا مدينة من مرمر يشيدها ملك الجن فيزخرفها ويقيم عمادها من فضة وذهب ، ويجرى تحتها الأنهار من خمر ولبن وعسل مصفى ، وينبت فيها من كل زوج بهيج

وأجمل الحب وأخطره ما يكون فى هذه السن المبكرة ... فهو حب يغمر القلب ويشك النفس ويؤرق العين ، ويجعل صاحبه طيفاً قلما تصدمه حقيقة الدنيا ، وقلما يعترف بما فيها من نضال ، لأنه لا يفكر دائماً إلا فى ملاكه ، وهو يفنى فيه بقلبه وعينه وسمعه وإدراكه ، ويهبه كل وقته لأنه يعد نفسه كلها قربانا لحبيبه ، وهو ينظر إليه كأنه شيء مقدس علوى ، فهو يحسد ملابسه لأنها تلتصق دائماً بجسده الجميل المتلئ باللذة ، وهو يحسد الأرض التى يختال فوقها لأنها تقبل قدميه دائماً دائماً ... وهو يحسد الهواء الذى يملأ رئتيه لأنه ينفذ إليهما من أنفه الأقنى الجميل ، ثم يخرج من فمه الحلو المطبوع بالقبل ... وهو يحسد الغرفة التى يعيش فيها لأنها فى نظره أثمن من كنوز سليمان لأنها تضم ثروة من الجمال تعدل ثروته أضعافاً مضاعفة

ثم يشذ في حسده ويغلو غلواً عجيباً حين يحسد أم حبيبه وأباه وأهله الأدنين لأنهم يكلمونه دائماً وهو يكلمهم فيملأ آذانهم من سحره ، في حين أنه ناء ما يستطيع أن يكلمه إلا بقدر ، وإلا في كل فرصة منتزعة من عفو المصادفات

هذا هو الحب الجميل الخطر المهلك ... فهو جميل لأنه ينمو في سن جميلة ... في زهرة الصبا وعمر الأحلام ... عمر الفراغ والخيال المشبوب . الخيال الذي لم تفسده حقيقة الحياة المرة المشوبة بمكر المسئولية

وهو خطر بل مهلك لأنه يوقظ الحيوان الذي يثور ويتدفق في أصلاب الناس منذ آدم ... وهذا الحيوان هو أضرى الحيوانات كلها وأشراها لاسيما إذا استيقظ في هذه السن المبكرة ، وهو في الغالب يستيقظ فيها ، فلم يصرفه المؤدبون والآباء في كياسة ولطف بمختلف الوسائل التي يرسمها العلماء لمحاربته أو التسامي به ... فهم يحاربونه بالكبت بالدين والتخويف بجهنم أو التهويل بما يلحق الجسم من تهدم من جرائه ... وهذه طرائق سلبية قد تضر أحياناً وقد لا تجدى إلا قليلا ... ثم هم يتسامون به فيصرفونه إلى الرياضة والفنون والدفاع عن الوطن والمخاطرات من كل لون ... وهذه طرائق إيجابية كثيرة الجدوى في تلطيف حدته ، ولكنه مع ذلك قد يثور بالوسيلتين فيحطم كل شيء ، كما حطم هذه السنوات الثماني من حياة توفيق ، وكما حطم معها أمل الشيخ عبد الاله ، وكما حطم صحة أبنائه بالتجويع والعرى ، وكما ذهب بأمله في شراء حصة أبي طاقية وضمها إلى الدار ، وكما غل يد الرجل فلم يشتر البقرات الثماني التي كان يرجو أن تملأ له منزله سمناً وعسلا ...

هذا هو الحيوان الفتاك الذي يغازله الشعراء فيسمونه حباً ، ثم يوردون له الخدود ويقدون القدود ، ويكحلون عيون الآرام بالسحر ، ويمهدون له القلوب لينام فيها مطمئناً مستريحاً ناعم البال

* * *

وذهب توفيق إلى القاهرة ليصل حياته المدرسية وأنف أبيه راغم ... ثم ليصل غرامه بالفتاة الناهد العذراء الريانة

لقد كان توفيق يكره التعليم أشد الكره . . . وكان ينظر إلي الكتب كأنها سموم معبأة في قوارير إذا ذاقها أذاقته المنايا أشكالا وألواناً ... وكان أكثر العلوم بغضاً إليه دروس الجبر ... لقد كان يسميها دروس الألغاز والمعميات .. ولم يكن يدرى مافائدة اللوغرتم مثلا . . . وكيف يستعمله في حل مشكلة دودة القطن أو الندوة العسلية التي تصيب اللوز أو عمل الجبن أو استخراج الزبد من اللبن ... أو ما فائدة الجذر التكعيبي في علاج صدأ القمح

وكان يرى جيوش الشبان المتعلمين تغزو القهوات ودور اللهو ، والسعيد من حصل منهم على عمل ببضعة جنيهات يستر بها حاله ولا تعوض شقاءه الطويل في دور التعليم ، ولا تنهض بالآمال الكبار التي كان يعلقها بمستقبله والداه

لقد كان يرى جيوش المتعلمين المتعطلين يتسكعون هنا ويتسكعون هناك . . . وكان يقرأ في الصحف غزواتهم للوزارات وأخبار اجتماعاتهم وهتافهم بزيد وصياحهم بعمرو وإملاء إراداتهم على أولياء الأمور حين يطالبونهم بخلق الوظائف لهم وتدبير الأعمال التي تناسبهم فكان يضيق ذرعاً بمستقبله ويراه أحلك من ظلام القبور

وكان له صديق أسعد حالاً بالتعليم وأقل كراهية للكتب ، وأكثر تفاؤلا بالمستقبل فجلسا مرة يتجاذبان أطراف الحديث في حديقة المنشية ، وكان

التلاميذ قد أجمعوا على الاضراب ذلك اليوم فلم يذهب توفيق وصديقه إلى المدرسة

— وزارة ظالمة ووزراء لايهمهم إلا أن يرفلوا فى ثياب السعادة الفضفاضة ... كلما كان لهم قريب أو محسوب خلقوا له الوظيفة خلقاً ، فاذا طالبناهم أن يحلوا أزمتنا لووْا أعناقهم وقالوا شباب مُتنطّع مستهترون ...

— وماذا ترى الوزارة صانعة يا توفيق ؟

— ماذا أراها صانعة؟ولماذا تقبلنا بمدارسها إذن؟

— تقبلنا بمدارسها لأننا نطلب ذلك

— لكنها ولية الأمر فيجب أن تدبر لنا مستقبلا

— وأى مستقبل تراها مدبرة لنا ؟

— لا تلحق بالوظائف إلا الأكفاء المتخرجين فى مدارسها

— هبها فعلت ذلك فهل تكفى وظائفها جماهير المتخرجين ؟

— لا غرو أنها تكفى !

— أنت تقول هذا وقد أثبت الوقائع أن استيعاب وظائف الحكومة لجيوش المتخرجين عبث بل ضرب من المستحيل

— إذن فلماذا تقبلنا فى مدارسها ؟

— تقبلنا لشدة إلحاحنا فى ذلك .. لتهالك آبائنا على مدارسها. وإذا أردت الحقيقة فآباؤنا هم المخطئون

— آباؤنا مخطئون ؟

— أجل ، وهم الجناة المسئولون عن ضياع مستقبلنا ...

— ماذا تقول يا حليم ؟

— أقول إنهم يلحقوننا بالمدارس وهم لا يدرون ماذا نصنع حين نتخرج فيها ... وإذا سألتهم أجابوك هذا الجواب الضعيف المتهافت : دع الأمر لله فالمستقبل بيديه وهو يعلم الغيب وحده سبحانه!

— وهل المستقبل بيدك أنت ؟

— أنا لا أشك يا صديقى أن مستقبل كل إنسان بيديه وبدى أبيه !!

— هذا كفر ...

— ليس هذا كفراً كما توحى إليك تربيتنا الفاسدة ... إن مستقبل الناس بأيديهم والمقادير بيد الله ... إسمع يا صديقى توفيق ... إن إقبال الآباء بأبنائهم على مدارس التعليم النظري بهذه الكثرة الهائلة هو نوبة من جنون التقليد ... إنهم يندفعون مع التيار دون أن يفكروا فى هول اللجة التى تصعقهم حين يقذفون فيها بفلذات أكبادهم . إنهم يرون ابن فلان من الناس قد حصل على وظيفة بعد شق النفس ، ثم ما هو إلا أن بدا بينهم مختالاً فى بذلته مياساً تحت طربوشه حتى يجن جنونهم ، ويتمنون لأبنائهم مثل مركزه إن لم يكن أسمى من وظيفته ... فيسلكون السبيل نفسها التى سلك ... فترى أبناء النجارين والحدادين والفلاحين والمثالين والنقاشين يذهبون إلى المدارس أفواجاً ، ثم يتخرجون فيها أفواجاً ، ثم يتكدسون بعد ذلك فى القهاوى ودور اللهو ، ولا يستحيون مع ذاك أن يرهقوا ذويهم بمصروفاتهم الباهظة حتى يحين الحين فيجد بعضهم عملاً تافهاً فى ركن مصلحة من المصالح ويبقى الآخرون وهم الأكثرون شذاذاً فى الطرق عيالا على أهليهم .. ما هذا ؟ أليس هذا جنوناً يا صديقى ؟

— ... ؟ ...

— أليس كان الأليق بأكثر هؤلاء إن لم يكن بهم جميعاً أن يسلكوا سبيل آبائهم ؟

— ... ؟ ...

— لماذا لا تتكلم ؟

— إنك بهذا تريد أن تقصر التعليم على أبناء الأغنياء !

— كلا ... فما إلى هذا قصدت
— وماذا تقصد إذن ؟
— هنا عيب الحكومة ...
— ألم أقل لك إنها وزارة مقصرة ! ؟
— ليست هذه الوزارة هي المقصرة بالذات ، إذ هي غلطة جميع الوزارات
— وما ذاك إذن ؟
— لو اقتصد الآباء في إرسال أبنائهم إلى المدارس بعد المرحلة الضرورية منه — التعليم الابتدائي مثلا ، أو الأولى إذا دعت الضرورة — كان واجب الحكومة أن تنتخب من أبناء الفقراء ، بصرف النظر عن مهن آبائهم ، العدد الأكبر من نابغيهم فتعلمهم على نفقتها ، فمن استمر منهم على نبوغه استمرت هي على الانفاق عليه حتى يتم منهاجه ويصبح جندياً ممن يعملون في الصف الأول من صفوف الخدمة العامة ؛ ومن أهمل منهم ، أو تكشف عن غير ما كان يرجى منه ، انحرفت به الحكومة عن الطريق ، أو انخرط في وظيفة صغيرة مما يناسبه من الأعمال الصغيرة العامة ... فبمثل هذه السياسة خصوصاً إذا تولتها أيد حازمة ، كنت لا ترى هذه الجيوش من المتعلمين العاطلين ، ثم كنا وفرنا للمهن الحرة فئة من الشباب الصالح يرتفع بها ، ولا يجعلها من الهوان بحيث يحتقرها الأبناء . ومنها يطعمهم الآباء ... إن احتقار المهن الصغيرة قد أخرج محترفيها عن دائرة الشرف ، وهذه هي علة العلل في أخلاقنا
— وهل تظن أن هذه المهن من الرواج بحيث تكفل الخير للكثيرين ؟
— إني أثق أن أياً من هذه المهن تضمن للانسان حياة هادئة سعيدة خصوصاً إذا تضافرت الحكومة والأغنياء في رفع شأنها
— كيف تتضافر الحكومة والأغنياء ؟
— الحكومة عليها واجب عظيم في ذلك ... ينبغي أن تحمي البلاد من سبيل المهاجرين الأجانب الذين يذهبون بثلاثة أرباع الأعمال العامة فتجنب الشبان منافستهم الشديدة ومزاحمتهم غير المشروعة ... إن سبعين في المائة من خدم القهاوي الكبيرة والفنادق الراقية من الأجانب ... إن سبعين في المائة إن لم يكن تسعين ، من وظائف الشركات الكبيرة الأجنبية مقصورة على الأجانب
— إن رأس المال أجنبي يا صديقي فهذا حقهم
— كلا . . . إنه إن يكن رأس المال أجنبياً فان الثمرة مصرية بحتة . . . ولا تنس أن رأس المال الأجنبي يبدأ صغيراً ثم لا يلبث أن يتضاعف في بلادنا ... فلك أن تمده كالبذور الأجنبية تجلبها من الخارج وتزرعها فتنبت محصولا مصرياً
— وما واجب الأغنياء إذن ؟ أتعني أنهم مكلفون بالانفاق على الفقراء ؟
— ما عنيت هذا ، ولا يستطيع أحد أن يكلفهم به
— وماذا عنيت إذن ؟
— عنيت أن عليهم واجباً مقدساً إن لم يقوموا به استحقوا الزراية .. ذلك أنهم يكدسون أموالهم فيما لا يجلب ثروة واسعة في هذا العصر ... إنهم جميعاً لا هم لهم إلا شراء الضياع واقتناء الدور والقصور ... فأموالهم بذلك معطلة وإن جلبت ثلاثة أو أربعة في المائة ربحاً لها كل سنة
— وماذا يصنعون يارعاك الله ؟
— لو أن الغني منهم فكر في إنشاء مصنع لصلح الحال ... على أنني أفضل أن تتحد كل جماعة منهم فتكون شركة تفتح ناحية من نواحي النشاط البكر المعطلة في مصر . . . يجب أن تتحرك أموالهم لأن المال وحده هو دم الاقتصاد الذي لا ينفد ، وإن

تكن اليد العاملة والذهن المفكر هما يورث بلازم هذا الدم . . . أقسم لك لو تم هذا لما رأيت متعلماً عاطلا فى مصر

— هذا صحيح يا حليم ...

***

أفاد توفيق من حديث صديقه حليم فائدة جليلة ... لقد رأى جانب العبث من حياة التعليم ... لقد وقر فى ذهنه أن أباه كان على حق حين أراد منعه من الذهاب إلى المدرسة ليتعلم الفلاحة ، وليندمج فى روح الحقل ، وليرث أباه وراثة صحيحة ، وراثة الملك والفن والمهنة .

غير أن شبح الفتاة الناهد — ليلى — تمثل له نخدره وصرف عنه طائف الحقيقة ، وأغرقه فى بحر لجى من هواه المبرح ، وخياله المشبوب .

لقد كان الحيوان الخبيث الذى استيقظ بين كتفيه يعذبه ، ويصور له الفتاة الممتلئة الحسناء تتقلب بين ذراعيه ، وتلصق لحمها الوردى الساخن بلحمه المتأجج ، وفوق فمها الخمرى الفتان فمه المشتعل يقطف القبل ، وفى عينيها الدعجاوين عيناه الجائعتين تسبحان فى دنيا من الفاتن والسحر .

هذا هو حيوان اللذة المدمر ... هذا هو الحيون الذى يقضى على نزعة الخير فى نفس الانسان ... هذا هو الشيطان المسلط على الروح الانسانية يشوه جمالها ويصرفها عن نهج الهداية ، ويزخرف لها باللذة الأثيمة فتضل وتخزى .

كان يجلس فى نافذة غرفته يغازل ليلى ساعات وساعات حين لا تكون أمها فى غرفتها .

وكان كلما لقيها على السلم أرسل تحية مخنوقة تردها فى حياء وفى خفر ، وهى تعلم ما تضمر جوانحه لها من حب ، وماينطوىعليه قلبه من هيام وكان إذا واتته الفرصة فصعدت ليلى تنشر ملابس الأسرة فوق السطح ، تسلل كاللص ثم اختبأ فى ركن حتى تفرغ من عملها فيندفع نحوها فى تأدب وَوَلَه ، ثم يقف صامتاً وملء وجهه الشاحب المرتجف عواطف مكبوتة لا يستطيع أن يعبر عنها إلا بدمعة أو دمعتين . . . فتفهم ليلى . . . وتجزيه بابتسامة رقيقة . . . ثم تهبط مسرعة كالغزالة . . . فيتدحرج تحت قدميها قلبه وأنفاسه !

وصعدت مرة تلم الملابس فصمم على أن يغير معها خطته ، وأن يكون هذه المرة أكثر إقداماً وجرأة

لقد انتظرها حتى نزلت بحملها فوقف يحول بينها وبين النزول إلى غرفتها .. ثم أخذا فى حديث خافت هكذا :

— ماذا يا توفيق ؟

— أحبك !

— عيب !

— وكيف يكون الحب عيباً ؟

— هذا لا يليق !

— لا بد أن أعرف !

— تعرف ماذا ؟

— إن كنت تحبيننى !

— أرجوك دعنى !

— لا بد أن تتكلمى !

— هذا مستحيل !

— ماذا هو هذا المستحيل ؟

— أمى تحت ... دعنى أرجوك !

— إذن نسجل حبنا بقبلة !

— مستحيل ، مستحيل !

وقبل أن تستطيع الافلات ، انقض على فمها الشهى الجميل فسرق منه قبلة ناضجة ، ثم مرقت كالسهم على السلم ، ودخل هو إلى غرفته

والأرض تميد تحت قدميه ، ونشوة القبلة تسرى كالحيا فى فؤاده ، مرفرفة بأجنحة اللذة ، متأرجة كالورد ، عليلة كالنسيم ، منداة كأنفاس الصباح !

ما أبدع القبلة الأولى من قبل الحب !!

إنها تفصل من حقيقة الحب بين حياتين ... إنها تظل تدوّى فى ذكرى العاشق كما يدوى الأمل والظفر ... إنها تلمع كالبرق فى ظلمات يأسه ... إنها كالمنارة فى ظلام البحر اللجى

تطرح توفيق فوق سريره يتقلب كالسكران

لقد نسى كل ما قاله حليم !

إنما الحياة هنا ... فى القاهرة ... الحياة الحب والحب الحياة كما يقول شوقى وكما يغنى عبد الوهاب

ليبق توفيق فى غرفته ... لتكن المدرسة حبيبة إلى فؤاده لأنها تبقيه إلى جانب حبيبته ... ما أسراب البعوض وجيوش البق والبراغيث فى قبلة واحدة يطبعها على فم ليلى ؟

لقد نال القبلة الأولى بالعنف ، فماذا يحول بينه وبين القبل التالية ؟ لا شىء ! أليس قد شرب الكأس الأولى ؟

وجلس يرقب صعود ليلى بقلب مضطرب ، وأعصاب ثائرة ... وكان يعرف متى تصعد ، إذا أحس بحركة الغسل فى قاعة حبيبته فيجلس يومه كله يرقب الصاعدين والنازلين ...

وأطل فرأى أمها تخرج وتترك دنيا غرامه بدون رقيب أو عزول .. ففرح واستبشر ، وتأكد أنه سيقع على منية أغلى وأنقى ... لا قبلة تترك فى القلب لوعة وأشجاناً

وفكر فى أن يخاطر وينزل إلى ليلى ليسعد بنظرة منها مؤقتة تشفيه أو تكويه ... وكلاهما عنده سواء ...

لكنه ما كاد يفصل حتى رآها تبرز من غرفتها حاملة حملها ... فأخذ قلبه يخفق بشدة وفى عنف ... وخيل له أنها بطيئة مع أنها فى زعمه أرشق من الظبى وأسرع من الظليم ... ثم هبط يعدو وانقض على حملها فالتقطه من فوق رأسها ... فنظرت إليه وتضاحكت ... وصعد الاثنان

ودخل توفيق إلى غرفته بكل اللابس !!

— هلمى ...

— مستحيل ... مستحيل !

— بل المستحيل أن تصمدى !

— يجب أن أصعد ... إن أمي عائدة الساعة ، فماذا أقول لها ؟

— لن نجلس إلا دقائق

— ليكن بعد أن أفرغ من عملى !

— إذن أصعد فأساعدك !

— كثر الله خيرك ... بل استرح أنت حتى أنزل !

— إذن أوصلك إلى السطح !

وتواثب على السلم ... وتواثبت من خلفه ليلى. ثم وضع حمله ، وأهوى على فمها فطبع عليه القبلة الثانية ... وكانت قبلة طويلة متبادلة ...

وعادت ليلى بعد دقائق كانت أطول من دهر فتلقاها توفيق فى ذراعيه وأجلسها على مقعد متوسط ثم راحا يتناجيان

وكان حديثاً طويلاً شهياً مرصعاً بالقبل ، لم يوقظهما منه إلا انفتاح باب الغرفة السفلى ، فهبطت ليلى مسرعة

ونسى توفيق كتبه ؛ وفرغ لحبه

ومرت الأيام

وبدا الشحوب على وجه توفيق ، وكان قد أفرط فى استجلاب اللذة المصنوعة ، لأن ليلى كانت أحرص على عرضها أشد مما حرص إبليس على

عصيان ربه حينما أمره بالسجود لآدم . لقد رفضت أن تسقط إلى الحضيض الذي أغراها توفيق بالتردى فيه .. لكن الحيوان الدميم كان يعصف به ، ويرغمه على إشباعه ، فكان المسكين يستسلم له بعد نزول ليلى فيباشر العادة السرية مباشرة قتالة تستنزف ماء حياته فلا تكاد تبقى منه شيئاً

وعاد يوماً من المدرسة فوجد غرفة ليلى خاوية ماذا ؟ !

لقد ذهبت إلى حيث لا يدرى !

وبات ليلة طويلة مؤرقة ... ونزل نصف الليل يجوب الطرقات كالمجنون . ثم عاد مع الفجر فصعد إلى غرفته ، وعاد إلى غرفة ليلى بمصباحه وجانب من فراشه، وابث يتلوى كالمحموم حتى تنفس الصباح.

ولبس ملابسه ، وهرول فى الشوارع يبحث ويتشمم ، ولكن بلا جدوى .

ومضت أيام وأيام .

ثم تسلم يوماً ما خطابين عرف أولهما لأنه من أبيه فأهمله قليلا ؛ وفض الثانى فلم يجد فى رقعته غير هذا السطر :

«وداعاً ياصديقى فقد تزوجت وأناسعيدة برجلى !»

واضطرب قليلا ... وحاول أن يقرأ خاتم البريد فلم يفلح ...

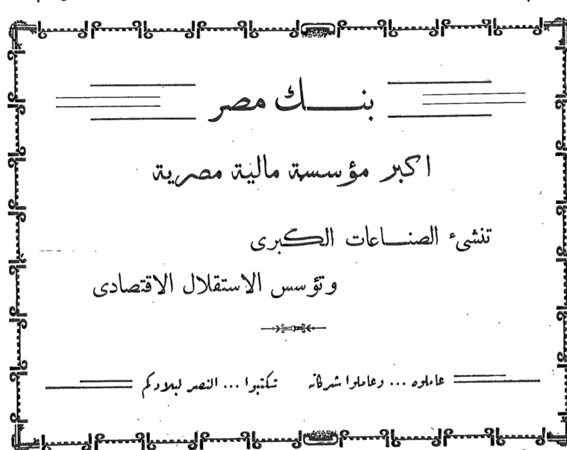
وفض الخطاب الأول فهاله أن يقرأ من أبيه أنه مريض وأنه فى خطر ، وأن لا بد من وجوده بجانبه في ساعاته الأخيرة

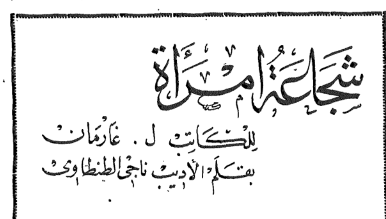
وأفاق توفيق من حلمه اللذيذ

وصدمته الحقيقة المرة

فعاد ليودع أباه ... وليحمل على عاتقه العبء الثقيل الذى تمنى لو كان حمله قبل اليوم ، ليكون له أهلا . . .

دريني خشبه





كانت الساعة تدق الثامنة ، في ناقوس السكرتارية التي تقع في الجهة المقابلة للحديقة . وكانت الليلة شديدة الحرارة والمروحة الكهربائية تدور بسرعة هائلة في الغرفة التي كانت « مي » ترتدي فيها ثيابها استعداداً لتناول طعام العشاء

كانت منهمكة في زينتها الدقيقة، ولكنها لا تزال على اتصال بالحياة خارج الغرفة ، إذ أنها كانت تسمع ضجيج الشارع ، وكانت دارها محاطة بحديقة صغيرة ملأى بالزهور المحفوظة من أشعة الشمس طيلة العام ، وكانت هذه الزهور حمراء بلون الدم تغطي الأرض كلها . وكان يصلها من النافذة شذى نفحات النباتات والورود مع النسيم الأريج ، والبيوت في الشرق تكون عادة مفتوحة النوافذ لجميع الجهات

كانت « مي » تشاهد خيالها في صفحة المرآة وتبتسم ، ولما أتمت زينتها ، سمعت صريراً ، فالتفتت فاذا بباب غرفتها يفتح

غضبت « مي » لهذه المفاجأة ، وارتدت للوراء قليلا كي توبخ القادم وتمنعه ، وقد حسبته خادماً ، والخادم لا يسمح له أن يدخل بلا استئذان إلا مرة واحدة للضرورة ، ولكن ندت منها صيحة دهش وذهول عند مارأت رجلا أبيض البشرة لا أسودها ، من بني جلدتها ، يدخل بسرعة ويغلق الباب وراءه بدقة وحذر فحدقت « مي » في وجهه وسألته بصوت رن صداه في جوانب الغرفة :

— ماذا تريد ؟ ألا تعلم أن هذه غرفتي الخاصة وليست نادياً مشاعاً ؟

كان الداخل فتى يافعاً جميل الطلعة برغم العبوس المشئوم الذي شوه ملامحه ، وكان ينظر بعينيه المظلمتين كالمعتوه . وما رأته « مي » حتى ارتد فكرها إلى مناظر القنص بواسطة الخيل ، وإلى الوعل المسكين في الغابات ثم قالت تحدث نفسها :

— إنه ممرض للفح الشمس كما أظن

ولكن الرجل لم يدعها تتابع تفكيرها طويلا ، بل فاجأها بقوله :

— إياك أن تبدي حراكا .

وسحب خنجره من تحت معطفه وشهره في وجهها قائلا :

— إنني يائس . لم يعد لدي أدنى تردد في قتلك

فاستولى على « مي » تهيج نفسي مفاجىء اضطرب له كل جسمها ، ولكنها جاهدت أن تكتمه وتجلدت ما أمكنها التجلد

كانت « مي » ذات جمال ساحر ، وذات ملامح متناسقة ، ويظهر أن سنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين ومهما بالغنا في ذلك فلن نستطيع أن ندعي أنها تجاوزت الثلاثين. كانت قامتها متوسطة الطول ولكن الشجاعة لا تقاس في نظرها بالسنتيمترات . وعادت فألقت عليه سؤالها للمرة الثانية دون أن تتم عضلة من عضلات

وجهها عن الغم والكمد اللذين أصابا نفسها :

— ماذا تريد ؟

فأجاب الرجل بصوت منخفض مضطرب :

— مالاً بالطبع

فأعرضت عنه بازدراء واستخفاف ، وقالت في نفسها :

— ليس لى من وسيلة أحسن من رفع صوتى أو ضغط هذا الزر الكهربائى فيتسابق الخدم نحوى ويكونون طوع أمرى

ولكن الخبيث أدرك ما يجول بخاطرها فصاح بها فى وحشية وفظاظة :

— ابتعدى عن هذا الجرس !

فلم تتحرك « مى » بل أجابته بهدوء :

— سيكون باستطاعتى أن أضغط على زر الجرس دون أن تعلم بذلك ، ولكنى لن أفعل ، لأننى موقنة أنك لست مالكا لشعورك الآن ، وستعود سريعاً إلى حالك الطبيعية

قالت ذلك ، وظهرت على وجهها ابتسامة صغيرة كلها تهكم وهزء وسخرية

فتبدل لون وجه الرجل من التهيج والجنون وصاح بها :

— أعطينى المال حالا ، أسألك بالله

ومرت على وجهه سحابة مظلمة ، فلم تجب « مي » سؤله رغم الاضطرابات الجنونية التى كانت تثور فى قلبها المتشنج ، بل اندفعت تقول له :

— إننى أعمل بلا انقطاع ولا توقف لكى أعيش وأنا وحيدة فى هذه البلدة . إننى أكتب قصصاً وروايات لبعض المجلات الأوربية ، أفتباغ بك البلاهة إلى الظن بأننى سأقدم هذا المال الذى أحرزته بمشقة ونصب لأول شخص زرى الهيئة سافل يطلبه منى ؟ إن كنت تتصور هذا فأنت مجنون ولا ريب . واسمح لى أن أصارحك القول بأنني أحتقر الخضوع لأوامر تعطى ، وعلى الأخص إذا كانت تعطى بحد السيف !

فأجابها الرجل بصوت أكثر شراسة وقد أحفظه كلامها :

— إننى أقول لك إن المال يلزمنى مهما كان الثمن ... !

وخطا نحوها خطوة ... ولكنها بقيت رابطة الجأش وقالت له :

— أنا أهزأ بك وبطلبك ... ألا تصنع مثلى ؟ إنى نظمت حياتى تماماً وأنا لست إلا امرأة ، والمرأة أدنى من الرجل كما يزعمون ! أجل ، تستطيع أن تضحك ، سأدعك تقترف جريمة دون أن أنزل عند تهديداتك ...

لقد قلت كل ما أريد أن أقوله ، والآن سألقى إليك بالكلام الأخير :

— إذهب من هنا بسرعة أو أضغط زر الجرس !

فهجم عليها بقفزة واحدة ، ودفعها بعيداً عن المنضدة ، وأمسك بها ملصقاً جسمها بالجدار ، وضحك ضحكا صامتاً ... فداخل الفزع قلب المرأة :

— أتعتقدين أنك قوية ؟ أتتشبهين بالرجال ؟ إنك أنت المجنونة لثقتك بهؤلاء الخدم الذين هم من كافة الأجناس ! باستطاعتى الآن أن أذبحك ، وأن أجز عنقك أمام أعينهم ، وأؤكد لك أنهم لن يرفعوا إصبعاً للدفاع عنك . سيتسللون صامتين وسينسحبون كالأرانب حتى اللحظة التى ينتهى فيها كل شيء ...

فارتعشت « مى » لهذه الألفاظ التى نطق بها الرجل بوقاحة مخيفة ، وهاجت لتتخلص منه حتى

أفضى بها الأمر إلى أن عضت يده بقسوة ، فراح الرجل يهدد ويتوعد دون أن يتراجع

ورفع المدية بيده ليهوى بها على العنق الغض المرتجف ذى البشرة البيضاء الناصعة ، فلمست المدية بنور مشؤوم ومست رأسها الحادة عنقها مساً خفيفاً

شعرت بأن قواها خارت ، وأن قلبها يتلوى من الألم ، وأن أعصابها قد تشنجت ، ولكنها برغم ذلك كله استطاعت بما لديها من شجاعة أن تحتفظ بابتسامة على شفتيها الجافتين الراجفتين ، وراحت فى سرها تدعو الله وتطلب المعونة منه

وعاد الرجل فصاح بها مهدداً وأطبقت شفتاه على أسنانه البيضاء :

— أين تخبئين مالك ؟ إنها المرة الأخيرة التى أسألك فيها

فرفعت إليه عينيها الواسعتين الزرقاوين وسألته قائلة :

— لماذا تتردد فى إنزال الضربة القاضية ؟

رجل أبيض البشرة يذبح امرأة من بنات جلدته فى هذه البلدة المتوحشة ؟ إننا نسمع بأمثال هـذه الوحشية عن الزنوج ، ولكننا لا نسمع بمثلها أبداً عن مواطنينا بيض البشرة

ولمحت شعاعاً من الاضطراب يلوح فى عينى الرجل المظلمتين ، فصمتت وأطرقت . فقال بلهجة فيها شىء من التضرع والتوسل :

— لا تدعينى أصبح قاتلاً من أجل شىء حقير تافه . أعطينى ما يمكنك إعطاؤه . مائتا روبية تكفينى

فضحكت « مى » وقالت :

— رغبتك فى أن لا تصبح قاتلا جعلتك مضحكا

فأغمض الرجل عينيه وقال :

— أرى الشتائم سهلة عندك

— وأنت ! إنك تتكلم كثيراً ، فاسمع هـذه الحكمة التالية : « إن الكلب الذى يعوى دائماً لا يعض أبداً » قالت ذلك بلهجة هادئة رصينة

— لن أعتقد أبداً أنه من الصعب ذبح أى إنسان.

فأجابته بتهكم :

لقد فهمت من كلامك المتتابع أن هـذا هو مشروعك الأول فى الجريمة ! وبأسرع من لمح الطرف ، ضربته بجمع يدها على ذراعه بكل ما لديها من قوة ، فانفلتت المدية من أصابعه المتشنجة

وتركته يشتم من جديد ، وأسرعت بخفة ورشاقة فوضعت قدمها على المدية الملقاة على الأرض وقالت له بلهجة صارمة :

— إذهب واجلس هناك قرب النافذة !

لقد تبدل الموقف ، ونرى المرأة الآن بدورها تلقى الأوامر

أطاع الرجل الأمر بصمت ، راضياً بكل شىء فأتت وجلست تجاهه وقالت :

— أين تقطن ؟

فأجاب برغمه :

— أقطن حى « لوفيس ستريت »

— حقاً إن ذلك موافق جداً لرجل أبيض البشرة !

فقال الرجل بوحشية :

— لا تتهكمى من فضلك ، إنى قانع جداً بوجود سقف يظللنى

فأتمت « مى » كلامها دون أن تنتبه إلى غيظ الرجل وقالت :

— ما اسمك ؟

— ماذا تفيدك معرفة اسمى ؟ هل لديك رغبة فى كتابة قصتى المخجلة ؟

— لا تخف وأجب على سؤالى

فقال بلهجة شرسة :

— فرانسيز

فكرت الفتاة قليلاً ثم سألته برفق واضعة يدها على منكبه :

— فرانسيز ، هل أنت محتاج حقاً للمال إلى هذه الدرجة ؟

فضحك بمرارة وقال مجيباً :

— محتاج للمال ؟ يا له من تهكم مرير ! أتظنين أنى تهيأت لقتلك رغبة فى القيام بحركات رياضية أمرن بها جسدى ؟ إننى لاحظ لى إذاً أن شجاعتك صدتنى . ولن تكون لدى القوة الكافية لأجعل هذه المدية الرهيبة تغوص فى عنقك الجميل الذى تنتظر بهدوء

فضحكت لقوله . وإنها لتستطيع أن تضحك ملء شدقيها دون وجل ولا خوف ، إذ علمت أنها قد ربحت المعركة

— ألم تكن جاداً فى هذه اللحظات القاسية التى أمضيتها بسكرات نفسية لا تحتمل ؟

— لا تضحكى ! لقد كنت مجنوناً ، وسأغلق عينى فى اللحظة التى تغوص فيها المدية فى عنق .

— هذا فظيع .

واضطربت « مى » لذكرى الاضطراب السابق وقالت بعد صمت حزين :

— فرانسيز ، سأعطيك مالاً ، كم يلزمك ؟

فقفز فرنسيز ووقف أمامها ناظراً إليها ببلاهة وقال :

— لن أستطيع أبداً أن أقبل الآن . وأصبح شاحب اللون جداً .

فقهقهت ملء شدقيها ، وألقت بجسمها على كرسى قريب وصاحت قائلة :

إن فكرة البطولة تعود إلى بساطتها . منذ لحظة كنت تريد أن تقتلنى بلا رحمة ولا شفقة لتسرقنى ، والآن لا تستطيع أن تقبل شيئاً هو بنظرك أشبه بالصدقة ! حقاً إن الرجال لديهم أدب مسل . وضحكت

وفى هذه الأثناء سمع طرق خفيف على الباب ، فدلت « مى » الرجل على مكان يستطيع أن يختبىء فيه ، ثم فتحت الباب .

— ماذا حدث يا أنكا لاتشالام ؟

فأجاب الخادم :

— القديس أبونا أتى ليراك

— حسن ، قل له ينتظرنى فى البهو ، أنا قادمة الآن .

ولما اختفى الخادم ، أخرجت فرنسيز من مخبئه وقالت له :

— تعال مى ، لقد دعوت الأب « دوران » هذا المساء لتناول طعام العشاء وتستطيع أن تأكل معنا

فصاح الرجل وهو يشير إلى ثيابه الرثة ويديه الوسختين :

— كيف يكون هذا ؟

— سأدلك على غرفة الاستحمام ، ومن السهل عليك أن تستحم وتصبح لائقاً بالمقابلة . ثم انحنت والتقطت المدية المطروحة على السجادة وقالت :

— سأحتفظ بهذا الضيف الثقيل كذكرى للحادث ، بعد أن أذكر أن امرأة وحيدة فى الحياة ليست أبداً فى أمان على نفسها ومالها

فتملكته الدهشة ولم يحر جواباً وتبعها ، فتركته عند منضدة الزينة ، وكانت عالمة أنها لم تنج من الخطر تماماً ، ولكنها كانت تدرك أنه يجب من أجل إنقاذه

أن تظهر له أنها ثابتة الجأش، وبكل بساطة وسذاجة ذهبت لتقابل ضيفها ومدعوها فى البهو

كان الأب « دوران » ينتظر « مي » بهدوء وصبر، فأقبلت ترحب به وتكلمه فى كل شيء دون أن تشير فى حديثها إلى الحادث المضحك المبكى

وسمعت الفتاة بعد قليل صوت خطوات الرجل المترددة خارج الباب فنهضت لاستقباله، ولكي تبعد عنه الضيق والخجل قدمته بلباقة إلى القس الكهل قائلة:

— السيد فرانسيز

وسار الثلاثة إلى غرفة الطعام حيث كان الخدم البرمانيون والهنود حفاة الأقدام يعملون بصمت، وتنزلق أقدامهم على البلاط الرخامى كالأشباح

وقد أزعج القس وجود هذا الشخص الثالث الغريب، ولكنه لم يبد ذلك من نفسه ولم يشر إليه في كلامه، وقد بدأ الحديث بين الثلاثة فى موضوعات تافهة ثم تطور حتى أصبح ودياً وأغزر مادة حتى أنه شمل الفن والعلم والأدب والموسيقى، واستأنس الرجل تماماً وراح يتكلم بجد، ويحاول أن يظهر بمظهر المثقف المربى تربية سامية ...

ولاحظت « مى » أن الرجل يبذل جهداً عظيما ليقمع شهوة الجوع التى قويت فى نفسه، فانفطر قلبها رحمة له وشفقة عليه وبدأ الطعام

وبعد انتهائهم منه، عادوا للبهو كي يشربوا القهوة، فاعتذرت « مى » واستأذنتهما فى الخروج برهة قصيرة، وعادت إليهما سريعاً حاملة بيدها غلافاً قدمته إلى المتدى بحذق قائلة :

— هاك ياسيدى المال الذى لك عندى، وأرجو أن تجد هذا المبلغ كاملا غير ناقص، وأنا موقنة أن حكمى سيكون صائباً على الكتب النفسية التى بعتنيها !

فنهض فرانسيز وقد احمر خداه من الخجل، وتناول المال من يدها وقبض عليه بيده اليمنى بحركة عصبية، ولاحظ القس اضطرابه، فقال له ليقطع حبل الصمت الثقيل الذى أعقب ذلك :

— يظهر لى أن الكتب التى بعتها للآنسة « مى » قيمة وثمينة، بل من الواجب أن تكون كذلك، إذ أنه من الصعب الرضى بقراءة كتب من نوعها

ثم أضاف قائلا :

— أتقبل زيارتى لك فى أحد الأيام المقبلة ؟

فتضايق فرانسيز واضطرب وأجابه قائلاً :

— أ أ . . . أخاف كثيراً ألا تستطيع أن تزورني حيث أعيش... إنه حى سيئ مغمور الذكر فى رانجون الحى الوضيع ... إننى أخجل

فقال له القس برفق ولين :

— لا تخجل أيها الشاب، لا يضيرنا المكان الذى نقطنه ما دمنا نعيش بحشمة وفضيلة، على أننى أعترف أن رفقة السوء تفسد المرء، فلماذا لا تترك هذا الحى ؟

فأجاب الشاب متجنباً نظرة « مى » النافذة :

— إن ثروتى لا تساعدنى على ذلك

وكان القس وافر الذكاء، وذا إلمام واسع بطبائع البشر، وسريع الفهم، ففكر فى نفسه وهو ينظر إلي الشاب نظرة ذات معنى ثم قال له :

— لقد أعجبتنى يا بنى، وبما أن الآنسة « مى » تعرفك فلا حاجة لى بتوصية أخرى لتكون مقبولاً لدى . عندى مشروع أود أن أعرضه عليك ... إننى قد كبرت، ولا أزال محتاجاً لرأس مفكر شاب يدير لى أعمالى ويتسلم حساباتي، وفى دارى غرفة فارغة، وأظنك ستقبل الحياة قربى إلى أن تجد عملاً أكثر كسباً ومغنماً، ما رأيك فى ذلك ؟

كانت « مى » تنظر إلى القس بفزع ، وقد داخل نفسها لجاءة خوف عليه ، أفتسكت وتترك هذا الفصل من الفضيلة ونبـل النفس يجرى إلى النهاية ؟ ... وقبل أن تفتح فمها تكلم الرجل ، فأصغت إليه وهى دهشة مأخوذة :

— لقد غمرت نفسي بلطفك وحنانك يا أبي ، ولكن ليس لدى مال أدفعه للغرفة ، ليس عندي إلا ثمن الغذاء !

— لا تفكر في هذا يابني، فستعمل لى وسأبقى مديناً لك ، إنه ليضنى التفكير فى أنك معرض لحياة سيئة فاسدة . أليس لديك كلام آخر ؟

شعر الشاب أنه مشرف على ساحل من المعروف لا حد له ، لقد صادف فى يومه هذا كثيراً من أمثلة نبل النفس وصلاحها ، وبقيت آثارها تغمر نفسه، وتراءى له أن العالم كله يريد أن يحمله ما لا يطيق من الفضائل يمحو بها السيئات التى ارتكبها ... وعم جسمه اضطراب شديد ، وصعد فى صدره شهيق بلغ عنقه ، وبدافع نفسى قوي صاح بالقس الهرم قائلا :

— إننى لست جديراً بهذا الكرم العظيم ... إصغ إلى يا أبت . إن شرف نفسك ونبلها قد أورثانى عذاباً ، وأرى أن أحسن طريقة هى إطلاعك على حالى وحقيقتى . إن الآنسة « مى » لم تقل لك شيئاً كما يبدو لى ، وأنت لم تعرف الحادث ، فمن واجبى أن أسرد على مسامعك كل تاريخى الرهيب

فأقبلت عليه « مي » بوجهها وكانت راضية كل الرضى عن هذا القول الذى صدر من الشاب ، وأيقنت أنه جدير بالمال الذى وهبته إياه وقالت :

— إنه محق فى ذلك يا أبت

فقال القس :

— لماذا ؟ هل ذلك ضرورى يا بنى ؟ أليس من الأوفق والأحسن أن تصمت وتحفظ سرك فى صدرك لتبقى احترامنا لك على الأقل

فأحس الشاب بالدموع تبلل أجفانه وقال : أقسم لك بأنك لن تجد الوقت الذى تأسف فيه وتندم على عملك النبيل هذا. إننى مدين للآنسة « مى » بأشـياء كثيرة . إن من الواجب على أن أعتذر إليها لأحظى بعفوها ، إذ أننى أرغب فى أن أنال هذا العفو ولو كان الثمن إهانات عظمى . إنك لن تستطيع أن تشك في وداعتها وصفاء قلبها

فنظرت إليه «مي» وكانت ترى أمامها مستقبلا باهراً . فضحكت كى تشجعه وقالت :

— إن الأب « دوران » صالح وتقى ، وأرجو أن تحمل له بين طيات قلبك الاحترام والحب اللذين يستحقهما . ويجب عليك قبل كل شىء أن تضرب صفحاً عن الماضى وأن تحاول نسيانه وتلقيه وراءك بعيداً .

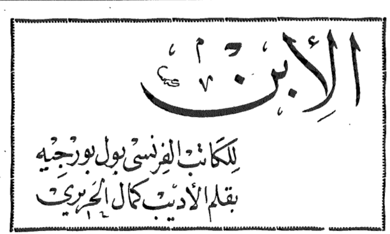
— أعدك مخلصاً يا سـيدتى أن أفعل كل ما أستطيع لأنال تقدير مواطني ، ولن أنسى قط أنك خلصتنى من نفسى وأنقذتنى منها

وبعد دقائق معدودة ، ودعت « مى » الرجلين وعادت إلى البهو وهى مطرقة تفكر . ورفعت رأسها فرأت على منضدة صغيرة نحاسية ، غلافاً أبيض ، ولما رفعته بيدها وفتحته وجدت فيه المائتى الروبية التى قدمتها للشاب

فسارت إلى غرفتها وأدهشها أنها اكتشفت نفساً حساسة فى هذا الرجل الذى كاد يصبح قاتلا

وسقط جسمها لجأة على السرير وهي تلهث ، وشعرت إذ ذاك أنها أضعف وأوهن من طفل صغير

« دمشق » ناجى الطنطاوى



استيقظت مدام « ليجيه » في صبيحة هذا اليوم قلقة بادية الهموم والتفكير . فقد كان عليها أن تضع حداً لحياتها كأرملة في مقتبل العمر ، ولحياتها كأم ذات بنين ثلاثة . فلقد مضى على وفاة زوجها وهي إذ ذاك في الثالثة والثلاثين عامان كاملان . وكانت وفاته بعلة ذات الجنب التي غالته وشيكا من دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة ومحل من قلوب الناس . ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هذا الصباح الذي تستفيق فيه مدام « ليجيه » حائرة مفكرة ، اجترأ « جورج فوكولت » صديق بعلها المرحوم ومحام مثله أمضى معه سني الجامعة ثم لزم زوجها في دائرته لزوم الشريك وفي بيته لزوم الصاحب ، اجترأ هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ ستة أسابيع :

— إني لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل عاطفة لم أستطع استكناهها ولا فهم طبيعتها إلا منذ اليوم الذي غادرنا فيه صديقي العزيز زوجك، فأصبحت بوفاته حرة التصرف مالكة لزمام أمرك . وأظنك كنت تستشعرين مني هذا الصمت الناطق وتحسين احترامي للراحل الفقيد وتقدرين رغايتي لك . فبسببك ياسيدتي « ومعذرة من اعترافي بهذه الحقيقة » قطعت كل صلة تربطني بامرأة أخرى في هذه الحياة ، وأنت كامرأة في ريّق شبابها واكتمال أنوثتها ، لك الحق بل يجب عليك أن تستأنفي حياة الزوجية السعيدة من جديد . وإذن فهل أستطيع أن آمل يا سيدتي أن تعتبريني الزوج الخاص الذي سيكون من أشهى أحلامه أن يضحي راحته وحياته لأجلك ... إني أحبك ... يا سيدتي ، ولعلها المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي بنطق هذه الكلمة الجريئة على مسمع منك ... أما أنت يا سيدتي فليس عندك إلا كلمة واحدة تقولينها لي في هذه اللحظة ستكون هي الأولى والأخيرة . ولكن بحقك لا تلفظيها إلا بعد تأمل في عاقبتها ، فان ما أجن لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استعجال واقتضاب . قالت مدام « ليجيه » وصوتها راجف وطرفها خاشع :

— أتطلب مني استئنافاً لحياتي الزوجية معك ؟

ثم جمد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت « بلا » أو « بنعم » ؛ وأخيراً جسرت فقالت :

ولكن حياتي لا يمكن ترميمها ولا استئنافها . إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً واحداً : هو السهر على أولادي، ولا أفهم إلا واجباً فرداً : هو واجبي نحو أبنائي الثلاثة .. قال الصديق الخاطب :

— أو لا تشعرين أني أحبهم هم أيضاً وأعزهم وأحنو عليهم كأبيهم صديقي الراحل ... ؟! ومن

لعمرى سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق أبيهم وصفيه ؟ وهل غيري يعرف ميول صـديقه وذوقه ومشربه فى التربية والمسلك ؟ وإذن فهـل تسمحين يا سيدتى أن أشغل مكان الأب الراحل ؟ أترضين أن تكونى امرأتى أمام الله والناس

قالت الأرملة فى حسرة وتلدد :

— خلني الآن لشأني ... هلا جنبتنى الـكلام فى هذا الموضوع .. ؟! إنه ليؤلمنى البحث فيه ويسبب لى كثيراً من الشجن والشجو

لا أعرف شيئاً . لا أفهم شيئاً . لست بمستطيعة أن ألمح فى قرارة نفسى المظلمة عاطفة أستطيع منها إجابتك على سؤالك لأني أجهل نفسى ... ولكنى أعدك أن جوابى سيكون بعد قليل من الزمن ... أما الآن فلا أستطيع، أجل لا أستطيع .. فأجاب جورج فوكولت :

— سأنتظر كلمتك كما تشائين وأنى تشائين . إنك إلا تقولى « لا » هذه اللحظة فبحسبى ، لأن ذلك معناه أنك قد تتبصرين خلال سجوف المستقبل الـكلمة الحبيبة إلى قلبي وهى « نعم » . إن التردد والتحير مؤلمان للقلب مرهقان للروح إذا لم يكن القلب المنتظر فى شرخ شبابه . قال ذلك وأبان لها عن طرف لمته وقد طرزتها سنوه الأربعون بأسلاك الشيب البيضاء . فأحست المرأة الأرملة وهى تتأمل وخطات الشيب فى رأسه ، وتنظر إلى أثر التأنيب الصامت من عينيه السوداوين : أن موسيو جورج إنما يقيس سعادته فى هذه الدنيا بمقياس ما بقى له من سنين فيها ، وكأن نظرته كانت تقول لها : إن ما يطويه الشباب اللاهى من متع ومباهج لن ينشرها كفن الشيب مهما يمتد ويصف ثوبه . ثم يستأنف حديثه ويقول :

— إنه إحسان منك على أى حال أن تحددى لقلبي الشهيد موعداً للجواب كى أغادرك وأنا أقول لنفسى من يوم لآخر ستوافينى نعمة جوابها فى يوم كذا .. « كاترين » ، أيتها العزيزة ، اختارى بنفسك اليوم الموعود وعينى تاريخه ، وليكن القرب والبعد على ما يوافق رغبتك وهواك ... أما أنا فسأعاهدك الآن عهداً لا أحنث فيه ولا أنحرف ألا أخوض فى ذكر هذا الموضوع الذى سيكون برغم هذا هو شغلى الشاغل وهمى الناصب .. فحددى بمشيئك موعد جوابك . وهنا تمتمت مدام « ليجيه » بصـوت محتبس ولهجة ضارعة : سيكون ذلك حين ينتهى أجل حدادى على زوجى الراحل ، وبما أنك تدعى حبى فأرجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك بوعدى أنا . والآن أرجو ألا تلح على فى هـذا الشأن فقد كفانى ما كفانى ...

ثم يقول لها ، وهو يود أن يوضح بالوقت المعين كل شك وغموض يمكن أن يعتور موعده المرجى : وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع في الرابع عشر من نيسان ؟! فأجابت على هذا بإيماءة من رأسها ثم انعقد بينهما جو من الصمت ...

لقـد غالت يد الموت زوجها الحبيب فى الرابع عشر من إبريل أى منذ اثنين وعشرين شهراً سلفت قبل هذا اليوم الذى تجالس فيه مدام « ليجيه » خطيبها المسيو جورج . كل ذلك جال بذهن « مدام ليجيه » وذهن الخاطب الصديق الذى شعر بثقل كلماته على نفس الزوجة بعد أن عين لها الموعد المضروب ...

أن يستأنف المرء حياته دون أن يعوج بذكرى أحبته الراحلين عن الدنيا فى ذلك وياللحسرة إساءة

إلى ذكراهم الغابرة وعهودهم الماضية ، وإذن فمن يغب عن الوجود تمت معه ذكراه وتنعدم ثم تبتلعه هوة العدم إلى غير رجعة ، والهفتاه .

* * *

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن تتردد ذكراه على رأس الخاطب ومدام « ليجيه » فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية المتعاقبة ...

ويجد المسيو جورج من اللطف والأدب ألا يعرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع الستة. ثم يرى من الظرف والكياسة أن يغادر (باريس) حين اقتراب اليوم المضروب يوم ١٦ نيسان. أما مدام « ليجيه » فقد أخذت تتهيأ لهذا اليوم وهو ذكرى يوم وفاة زوجها. وقد أحيت هذه الذكرى في ذلك اليوم في شيء من البرود وعدم المبالاة لم تمتزج بهما أثارة من حنان ولا بقية من لجيمة وحسرة. وفي اليوم الثالث عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها خطاباً ينبئها فيه بزيارته من الغد عند الظهر ، فأقبلت على الرسالة تقرأها مرة ومرتين ثم بدرت منها بادرة غريبة عجبت لها هي نفسها ... وذلك حين رفعت رسالته إلى فمها وقبلت سطورها وفي ظنها أنها إنما تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور.. وأخذت تردد: نعم ... نعم ... سيكون جوابي .. نعم . وإذن ففيم استيقاظها صبيحة هذا اليوم مضطربة حيرى كما أسلفنا ؟ . . . ما الذي حدث خلال هذه الفترة القصيرة بين تقبيلها رسالة جورج نهار الأمس فرحة نشوى وبين الساعة التي ترتفق فيها وسادة سريرها الوثيرة يبدو عليها سهوم وتفكير ؟ ما الذي طرأ عليها ياترى فبدل عزمها ؟! ... وأقبلت الخادم في هذه اللحظة فحسرت أستار الغرفة عن النوافذ والشبابيك فطفت على جوها موجة من نور لألاء ضاحك غمر المكان كله؛ وكان في شارع «فانو» تشرف نوافذه وشرفاته على بستان القنصلية النمسوية الظليل اليانع . ولمت زرقة السماء من خلال النوافذ ونفذ تغريد العصافير إلى المسامع شجياً موسيقياً شعرت معه مدام « ليجيه » أن ثوب الجدة الذي تضفيه الطبيعة على جسمها يتفق والوقف الجديد الذي تقفه هي من حياتها الجديدة هذا اليوم ... حتى أن الثوب المزركش الذي حملته الخادم منذ لحظة كان يغريها بأخيلة وخطرات جد حافلة باللذة والسعادة ... ومع ذلك فلم يتقطب جبينها ويربد وجهها كلما نظرت إلى عقرب الساعة ينتقل من مكانه ؟ ! مالها تقف حالة ساهمة بدل أن تنشط وتفرح ؟ ... أتراها تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف مجهول ؟ ! ...

* * *

حين تكلمت مدام ليجيه عن واجباتها نحو أولادها لم تقل كل شيء للصديق الخاطب ، لم تعترف له أن ولدها البكر « شارل » ما فتىء منذ شهور مدعاة تخوفها . أبداً لم يتبادل الابن مع أمه كلمة عن « جورج فوكولت » خاطبها الرغيب ، وكان هذا الأخير لا يميز هذا الغلام اليافع في المخاطبة والحوار عن أخيه الصغير « رنيه » وأخته الصغيرة « هيلين » اللذين كان يكلمهما بصيغة الافراد دون كلفة . ولكن إذا شفعت سنو الطفل « رنيه » الخمس وأعوام الطفلة «هيلين» العشرة لهذه الصيغة الافرادية يبدى فيها صديق أبيهما حبه وتدليله لهما ،

فان الستة عشر عاماً التى يجتازها الغلام المراهق « شارل » كانت تقيم بينه وبين « جورج » الخاطب جواً مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الالفة والعطف وعدم الكلفة الانقباض والنفرة . ومع هذا فقد كان الخاطب الواغل يغضى عن هذا ويتجاهل، بل لقد أخذ فى الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الغلام ويبتغى الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه العابس الصامت

وتلاحظ مدام « ليجيه » ذلك السلوك المحبب الجذاب الذى يعامل به الخاطب ولدها البكر فتغتبط به وتنشرح له

ولكن رغم كل هـذا كانت تترقب من ابنها رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابهما وتتهيأ لها منذ أيام

من هنا كانت حيرتها وقلقها فى هذه الصبيحة الباسمة من نيسان التى كان عليها فيها أن تقول كلمتها الأخيرة فى رفض يد « جورج » أو قبولها . ولهذا وحده هى تدير فى ذهنها الصورة المستحبة الملائمة التى يمكنها بهـا أن تفجأ ولدها دون أن تؤذيه أو تسوءه فى عزة نفسه ، فكانت تردد :

— كان على أن أنبئه بذلك وأسبر غور رضاه أو رفضه منذ ستة أسابيع ... غير أنى لم أستطع ذلك لأني أجدنى أمامه مرتبكة مشلولة الارادة كانى بحضرة أبيه الراحل. فيالله كم يشبهه حتى كأنه صورته الثانية ؟ ! وعلى كل حال فان جورج أحسن فى تحببه إليه وترضيه . . . وذكر اسم جورج هكذا مراراً ، دل المرأة على أنها تنطوي له على حب وميل ...

نعم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من العواطف والميول غـير متكاملة ولا متكونة . ولـكن ذلك ويا للأسف كان يزيد ألمها ويضاعف شجوها ...

أجل إن جورج محق فى قوله . فواجب علىّ معاودة حياتى الزوجية ، وأنا بهذا لا أنال شيئاً من زوجي الميت ولا أسوؤه في كرامته. كذلك لا أفتات على أولادى الأحبة الذين تركني لهم ، لأن جورج سيحبهم وسيحنو عليهم . والصغيران يحسان بهذا ويقدرانه فى سذاجة وطهارة . أما شارل ولدى الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر .

آه لشـد ما يحب أباه هـذا الصغير ! إنه لينمو ويتفتح للحياة يوماً بعد يوم كأنما تتعهد نماءه معجزة من السماء

هو الأول فى صفه فى مدرسة «سانت لويس» وإنه يترقى بين رفقائه وزملائه بصورة غريبة سريعة كأنما وطن نفسه على أن يسد الفراغ الذى تركه أبوه من بعده ، إن لم يكن قد قام فى نفسه أكثر من هذا : أن يكون خليفة أبيه فى البيت ورب الأسرة التى كان يحلم أن يكون حاميها وراعيها . فيا للقسوة والنكران ! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب ؟ !

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة وأفكار المرأة ما زالت تضطرب فى ساحة ذهنها جيئة وذهوباً . وفيما هي منصرفة إلى زينتها وترجيل شعرها وتعليق حليها وأقراطها ، إذا طرقات على باب الغرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتمش نفسها لأن هذه خطوات ابنها الذى كانت تعتبر نفسها أمامه كمجرم أمام قاضيه . وفى الحق لقد كان الداخل « شارل » الذى توقف على الباب لحظة كالمأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه . قالت له الأم مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثراً فجائياً يطبع وجهه

بطابع الألم : ما لك يا بني ؟ فأجابها الغلام : لا شيء لا شيء ، إني مشدوه متعجب فقط . . . لقد ألفت أن أراك دائماً في ثياب الحداد . ولكن ولكن ... صحيح أن حدادنا على أبي قد انتهى ؟ فألقت «مدام ليجيه» على المرآة الكبيرة أمامها نظرة غير عامدة فاذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها الذهبي ، ولكن يناقض ذلك كل المناقضة زي ولدها المدرسي الأسود الغارق كله في حلة من حداد ، ويرتجف صوت الأم حين تهم باجابة ولدها ثم تنجدها لباقتها فتغير مجرى الحديث وتقول :

— ولكن ... قل لي ... لعلك مسرور من أستاذك هذا الصباح ؟ ثم ... ثم كيف حال كتابتك في الانشاء ، أظنها أعجبته ؟ ! ثم ناجت نفسها :

— سألبث لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة خصوصاً وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت متسع للغداء وللافضاء إليه بالأمر ...

* * *

على رغم أن المحامي المتوفي موسيو «ليجيه» قد خلف لعائلته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير ثروة لا بأس بها ، فان مدام « ليجيه » لم تخالف شيئاً مما ألفته سابقاً من تدبير واقتصاد في الانفاق على المنزل . ولما كانت مدام ليجيه لا تستقبل في مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتون إلى الزوج بصلات القربى والمودة ، فان الاعداد لذكرى الميت لم يكن ليحملهم جهداً أو مشقة . ولكن أنى لها بملء كرسي زوجها بشخص خاطبها جورج في حفلة الغد ؟ أي عذر ستعتذر به لولدها ؟ كيف تخل بهذه العادة التي يقدسها ابنها ويمجدها، والتي باتت تبهظ روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب أخذت تحتل مكانها يوماً بعد يوم من قلبها

وفي صباح هذا اليوم في وثبة طافرة من وثبات الارادة الغريزية أمرت مدام ليجيه الخادم فقالت :

— لويس، لاتضع في هذا الغداء مقعد المرحوم زوجي على المائدة ، بل عليك أن تضع مكانه مقعداً لجورج فوكولت ...

وحان وقت الغداء واتخذت العائلة أمكنتها حول المائدة، ولكن « شارل » الصغير ما كاد يرى المائدة والكرسي الجديد بدل كرسي أبيه المتوفى حتى حملق في وجه أمه وقد امتقع وجهه وانتسف لونه أولاً ثم احمر واشتعل بالدم الملتهب . ونظرت إليه الأم برعب وهيبة ، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي أيضاً . ولكن في تلك اللحظة الرهيبة الحرجة جرى أمر زاد في اضطراب مدام ليجيه وارتباكها ثم حيرها ، ولكنه في الوقت نفسه أجرى المسألة في مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام « ليجيه » . فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كي تجلس إلى المائدة إذا « بشارل » ولدها يلقي عليها نظرة تفيض بالحنان والشكر ثم تخضل عيناه بالدمع الذي لم يكن منبعه الحنق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان منها والشكر لها ... ولكن عن أي شيء صدر هذا الامتنان ؟ ! نجم مما صوره له وهمه دون أن يتفطن بالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة والدهشة التي بدت على وجه أمه ، ولا نظرات الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم ، فقر في ذهنه أن أمه إنما تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديداً لظنونه السابقة في وفائها لأبيه ، لهذا احتل مقعد أبيه أو الكرسي الذي وضع للخاطب « جورج فوكولت » محل كرسي أبيه ، وقلبه يخفق من الفرح

والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين . . .
وانتهى النداء وخلا المكان « بشارل » وبأمه فضم « شارل » أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح يقول لها وقد أرخى لعبراته العنان حتى بللت وجه الأم المسكينة الحائرة :

— آه، شكراً لك ألف مرة يا أماه. فقالت أمه فى حيرة :

— ولكن لم هـذا الشكر يا بنى ؟ ! فقاطعها دون أن يترك لها الفرصة لمتابعة حديثها :

— أشكرك لأنك أحللتنى محل أبي على مائدة الطعام فى اليوم الذى تخلعين عنك فيه ثوب الحداد . إنك لا تدرين أى جميل أسديته إلىّ وملأت به قلبي الحزين .. آه .. ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة. لقد كنت منذ زمن أشك ، بل أخاف من تصرفاتك فاغفرى لى الآن هـذه الشكوك والظنون . نعم كنت أخشى أن تسنح لك فى يوم ما فكرة الزواج لأنك ما تزالين صبية . ولقد أبصرت ثلاث أمهات من أمهات رفقائى فى المدرسـة يتزوجن ويسلمن أبناءهن لأب ثان غريب عنهم . ولكنك أجلستنى تجاهك منـذ لحظة على مقعد أبي المرحوم فأدركت أنك تريدين أن تقولى لى : املأ محل أبيك يابنى فقد آن لك أن تشغله وتواجه أختـك وأخاك العزيزين وأمك التى تحبك ، ولكن إن أشغل مكان أبي ذلك الأب الذكى الطيب ، فذلك ما ليس فى وسعى ولكن أعاهدك أن أبذل له جهـدى . وهنا تمثل لمدام « ليجيه » أنها كانت ستحطم قلب ابنها النبيل لو أنها انقادت لهواها الذى بدأت تشعر به نحو « شارل »

وفى هذه اللحظة وبينما كانت « مدام ليجيه » تضطرب بين الماضى والحاضر ، وتترجح بين تيارين طاغيين : تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية حسناء ، وآخر هادىء عميق من عطف أم رؤوم ، إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعى ابنها الذى كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق ..

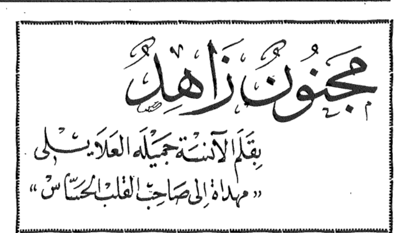
لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بعد ثوان يطلب الاذن لموسيو جورج الخاطب الجديد، فأبدى ابنها « شارل » حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه الحركة فقالت فى كبرياء ممزوجة بألم :

— إبق مكانك يا « شارل » ثم التفتت إلى الخادم وهى تقول :

— قل لموسيو « جورج فوكولت » إنه من المستحيل علىّ مواجهته هذه الساعة وسأكتب له جوابى كتابة ...

وحين انفردت بابنها راحت تعانقه فى لهفة وابتهاج ثم قالت : أبداً لن أتزوج يا شارل العزيز . أبداً لن أثقل عليك بأب يؤلم نفسك ويجرح قلبك . لن أرضى أن تتألم أنت كى أسعد أنا . إنك حسبى من دنياى يا بنى وأظن أنى حسبك أيضاً

كمال الحريرى



ليس أحب إلى النفس من الخلوة عند ما يفيض بالانسان حزنه أو أساه ...

لذا لم يكن فى وسع « هلا » أن تشارك أختها فرحة عيد ميلادها لتجهم نفسها وتلبد غيوم ذهنها ..

إنها تحب أختها وتميل إلى الطرب أيضاً وتفرح لمسرة القريب والغريب ، ولكن ذاك اليوم يذكرها بمأساة عاطفية رسمت حروفها النارية فى سويداء قلبها البكر ...

ميلاد أختها ، وموت قلبها ، يجتمعان فى يوم واحد . فماذا عساها أن تفعل ؟ . . .

أتتكلف البشر وليس فى مقدورها أن تحبس دموعها فى ذاك اليوم على الأخص ...

حاولت جهدها أن تبدد الكآبة بتكلف البشر فلم تستطع ، وضاقت بهواجسها حتى خيل إليها أن مجرد النظر إليها يدر الدموع من العينين ...

إذن لماذا تكون آفة ميلاد أختها السعيد وهى تريد أن تكون بهجته وباعث مسرته ..؟

كل شىء حواليها يحمل طابع الأسى فى ذلك اليوم ، حتى الموسيقى تبلغ مسمعيها كترتيلة الجناز

أوه . . . لشد ما يفزعها مرأى ظواهر المرح والانشراح والطرب فى البيت ! ولشد ما تفزعها رؤية أختها وهى تتجمل للقاء صديقاتها وصويحباتها ! أى ذكرى مريرة يحملها ذاك اليوم الحزين ؟

* * *

— يا أختاه ! لا بد أن أجمل رأسك بتاج من الفل الطبيعى أوصيت بعمله ، سأخرج لأحضره وأعود به تواً ...

هكذا قالت لأختها وهى صادقة كل الصدق .. خرجت على أمل أن تعود ...

واليوم الأحد ومحل الورود مغلق . لقد نسيت ذلك ولم تذكره إلا عند ما بلغت مكانه ...

وداهمتها خواطرها المحزنة وصعب عليها أن تعود إلى أختها بغير الفل ...

ودون عمد تابعت الخطى حائرة لا تدرى ماذا هى فاعلة ... وسارت فى الطريق لا تلوى على شىء حتى أحست بنسيم ممطر يجتاز جنبات نفسها فيحبوها بالطمأنينة ، وتنبهت فاذا بها فى طريق خال من السكان والمارة على جانبيه زرع الشتاء الأخضر فى غير زى الربيع الناضر

وطاب لها المسير فلم ترتد ، وظلت تمشى حتى استرعى نظرها شجرة كثيفة يتدلى من أغصانها ثمر الحناء ، فأسرعت الخطو لتجمع منه ما تستعيض به عن الفل ...

وما كادت تقترب من الشجرة حتى لمحت رجلاً لم تشك فى أنه عابر طريق ؛ افترش الأرض واتخذ جذع الشجرة خدناً اعتمد عليه برأسه فى شبه استسلام الوسنان ؛ تصور ثيابه الرثة ما يعانيه من بؤس وشقاء ، ويحكى وجهه الشاحب أقصوصة

الآلام والحرمان ويشيع من عينيه بريق الذهول ..
أى منظر مروع ! منظر الرجل القوى الذى يعجز عن التمتع بالحياة كما يتمتع بها كل رجل ، لا عن مرض أو عاهة ، بل عن يأس وقنوط
مرض الجسم يداوى ... أما مرض النفس فلا دواء له، يظل بصاحبه حتى يميته ...
ولا شك أن هذا الرجل مصاب بمرض نفسه إذ لا تبدو عليه ظواهر علل البدن
تقدمت منه الفتاة حتى واجهته بدافع الشفقة ...
مدت إليه يدها ببضعة دريهمات ظناً منها أن من يقنع بالجلوس فى هذا الخلاء المقفر لا شك أنه يعاف التوسل إلى الناس ويستنكر الاستجداء
ولم يكد يلمح حركة يدها والنقود حتى ضحك بصوت جنونى هازاً رأسه فى إباء ناظراً إليها فى غيظ كأن بينها وبينه حقداً قديماً أو كأنها هتكت كرامته وجرحت رجولته
وكانت نظرته كافية لرد الفتاة إلى الصمت والخجل على أنها وقفت قبالته حائرة مذهولة لا تدرى ماذا تقول وماذا تفعل ، وقد تنبه شعورها الرحيم فاجترأت وتقدمت منه قائلة : سيدى ، ما ضرك لو سمحت لى بمساعدتك ؟ أراك فى حاجة إلى المساعدة
فرفع الرجل رأسه فى كبرياء ونظر إليها محلقاً ثم قال بلهجة جافة : حتى هنا الشيطان يتبعنى ... ؟ ويحى ... ثم أنّ كالوجيع وشد شعر رأسه الشعث بيد مرتعشة محمومة، وبيده الأخرى أشار إليها قائلاً:
— إذهبى أيتها الشيطانة !
فريعت الفتاة ، ولكنها غالبت الخوف قائلة :
— هون عليك يا سيدى
ولكنه لم يكد يستمع إليها حتى انتصب وراح يعدو كالمتوه مردداً : ظننت هذا الخلاء لا يأويه شياطين الانس !

وظلت هى فى موقفها تتأمله وهو يجرى كالمجنون يتلفت خلفه كالمذعور ، حائرة بين ما تريد أن تفعله من أجله ، وبين ما تخافه منه :
— أى شيطان يعنى يا ترى ؟ ... أتراها فتاة حياته ... ؟
ثم هرولت خلفه تناديه : يا سيدى ، يا سيدى
لم تكن هيئته تحمل على ذاك النداء المحترم ، ولكن هيبة الرجل ووقاره أكسباه سمة أجل من جمال الزى وروعة الهندام
ووقف فظنته هدأ ، ولما بلغته اقترب منها باسماً بسمة عريضة ، ثم رفع يده على غير ارتقاب ولطمها على خدها، وباليد الأخرى جذبها من شعرها فى قسوة جنونية وطوح بها بعيداً فارتمت على الأرض كالطائر المذبوح تئن بصوت متهدج ثم انقطعت أنفاسها . إنما لم يطل بها الاغماء حيث مال عليها ينبهها ، أو لعله شاء أن يتأكد إن كانت حية أو ميتة ...
ولما تنبهت نظرت إليه بعينين دامعتين وغمغمت:
— ماذا جنيت ... ؟
وكأن صوتها سهم صوب إلى صدره فقبض عليها بكلتا يديه فى قسوة وهو يتمتم : أما زالت حية ؟
وأزعجها الشرر المتطاير من عينيه الغاضبتين فقالت بصوت رقيق :
— ولماذا تريد موتى ؟ ما ذنبى ؟
— فقال بصوت مرتعش ثائر يفيض بلهب قلبه : شيطانة ...
فتكلفت بسمة وهى تقول : هدئ روعك وسامحك الله ...
كانت لهجتها لطيفة مليئة بالحنان ونظراتها كافية لبعث الطمأنينة فى نفسه، لكنه أطرق برأسه فى صمت الذاهل

فتقدمت إليه فى عناء لأن الصدمة آلمها وصح عزمها على أن تسايره وتلاطفه حتى يطمئن إليها ويقص عليها حكايته ...

قال :

— يا سيدى ، إن كنت فى حاجة إلى ابنة فها أنا ذى ، وإن كنت فى حاجة إلى أخت فلك منى هذه الأخت ... خذ منى ما ينقصك من حنان ورعاية وحسبك .

قالت ذلك بلهجة موزونة حارة انسكبت من معين صاف ... كل كلمة فيها من قوة الصدق ما يزري بكل جبار عتيد

ونظرت إليه وشعاع نظراتها يصور أجمل ما يتمناه الرجل من حب وحنين !

ولكنه غض الطرف مليا وهو يعض شفتيه كأنه يعانى ألماً ممضاً فى نفسه ، ثم وقف وانقض عليها كما يفعل الأسد المصور بفريسته وشد شعرها وهو يلفه على يده ناظراً إليها فى ثورة وجنون ، ثم جذبها فى عنف وصدم رأسها بجذع الشجرة فسال الدم منه .

ولم يكد يلمح الدم يسيل حتى ضحك مقهقهاً فى جنون ، ثم أقبل على الدم بفمه يعب منه كأنه أشهى غذاء يرتجيه وهى من هول الصدمة ساكنة سكنة الأموات وقد ارتسم على شفتيها اصفرار الموت وأسبلت جفونها فى استسلام الفناء

ثم تركها وارتمى على الأرض يبكى كالأطفال ، فانتبهت ومالت عليه حانية متناسية ألمها وما ألم بها قائلة بصوت خفيض متقطع : إن كان قتلى يريحك ويعيد إليك صفاء نفسك وهدوء بالك فأقدم عليه غير هياب ، فليست حياتى ذات قيمة في ناظرى

وسحبت يده فى لطف وساعدته حتى اعتدل فى جلسته ...

في هذه اللحظة أحست الفتاة أنها خلقت من أجل ذلك الرجل فنسيت الوجود وعادت تقول فى شبه همس :

قلبي يحدثنى أنك بليت بغدر امرأة أو على الموت اختطفها منك

فالتفت إليها فى هدوء واستمع إليها فى لهفة ، ولما صمتت قال : أنا لا أنقم على المرأة غدرها ... لأن الرجل هو الذى يبث فى صدرها بذور الشك بسوء تصرفاته أحياناً ...

إنما أنقم على الحياة لأنها تقضي على الحب بالموت فى قلب بينا تحييه فى القلب الآخر ... كأنه يخرج من هنا ليدخل هناك ...

ثم ضحك بغير صوت مردداً : أنقذى نفسك وعجلى بالذهاب ... فانى أشم رائحة أنفاسها منك ، ولو طال مكثك بجانبي فلا بد من قتلك ... دون عمد ... أنا الآن هادئ يافتاة وأعتذر إليك مما بدر منى ، فسامحيني واتركيني

كان يقول ذلك وهو يجاهد في نفسه مصابين : مصاب الماضى الأليم ومصاب الحاضر الذي يغريه على التعلق به وليس فى مقدوره أن يجاوبه بالعزاء

وكأن كلماته خلاصة ما تشتهيه المرأة من حب صبها بمهارة فى قلبها فأكسبته حرارة ولهفة ، فقالت : لن أتحدث إليك بلسانى يا سيدي ، إنما أرجوك أن تنظر إلى عيني ... أنظر طويلا واقرأ دخيلة صدرى ولا شك أنك ستفهم ما أعنيه

فاحمر وجهه وارتعشت شفتاه وحول وجهه بعيداً ثم عاد ونظر إلى وجهها متعمداً ألا ينظر فى عينيها وهو يقول : آه من العينين ... بهما سعدت ومنهما شقيت ...

فقاطعته : ولم لا تكون شقيت بهما ومنهما تسعد ؟ فهز رأسه مرتاباً وتنهد ثم أطرق ، ففهمت أن

فتاته ذات تأثير ساحر بعينيها، فترفقت به وقالت ..

يخيل إلىّ أنك لجأت إلى هذا المكان النائى تحت تأثير أمر جلل. ألا تفتح لى صدرك علّ ذلك يرفه عنك؟ فقال : وما الفائدة .. انتهى كل شيء . انتهى كل شيء ...

فقاطعته : ولكنك رجل

قال : وهل تحارب المرأة إلا الرجولة ؟

قالت : تعصف بالضعيف وتستسلم للقوي

قال : وهي جاهلة لا تفرق بين الضعف والقوة

قالت : لأن الرياء والكذب يشوهان حقائق الوجود ...

وهنا لازمه الوجوم ولم يتكلم ولمحت جسمه يهتز كأن قشعريرة الحمى ملكته فعطفت عليه وهمست فى لطف : أظنك تشعر ببرد شديد . . . وخلعت معطفها ثم ألقته على كتفيه فلم يمانع ، ونظر إليها فى هدوء وتمتم : من أنت يا فتاة ؟ قالت وهى تمر على شعره المشعث بيدها الناعمة فى حنان : بعثنى الله إليك لأسعدك . فلم يتكلم، وتساقطت مدامعه كالندى الصافى فأكسبت خده الشاحب حمرة الشفق المتوهج فابتسمت قائلة : ألا تشعر بالحياة تسرى فى شرايينك؟ ألا تحس بخفقة القلب الهنىء يحرك كيانك ؟

فمد يده فى بطء كأنه يتهيب لمسها، لكنه يريد أن يتحقق من أنه يخاطب إنساناً ثم قال مغمغما: أيمكن أن تكونى امرأة حقاً ؟

أيمكن أن يكون بين شياطين النساء امرأة واحدة تحمل قلب ملاك ؟

أيمكن أن يكون ذاك الصوت الموسيقى لحن قلب صادق ؟

ثم صرخ ملتاعاً : رباه ... لم تسعدنا بالحب وتشقينا به؟ ثم أشاح بوجهه مدمدماً : لا، لا يمكن أبداً ... أنا حالم لا محالة ... ثم عاوده الضحك الجنونى ووضع رأسه بين ركبتيه ليخفى مدامعه ويخرس تنهداته

فرفعت رأسه بيديها محاولة أن تجذب نظره بعينيها قائلة : ليتنى أعرف أين فتاتك لأسعى إليها. فصرخ فى وجهها : كفى عن الهذيان، لقد ماتت ..

فشهقت قائلة : رحمها الله .. ولماذا تقتل نفسك ما دامت ذهبت عنك على الرغم منها، إذن أنا أشدمنك قوة وأكثر إرادة ... فى اليوم الذى قيدت نفسى بالرجل الذى ظننت أنه مثلى الأعلى تبين لى أنه يلهو بغيرى، ولقد نبذته نبذ النواة واستطعت أن أتناساه.

ثم تكلفت ضحكة وأعقبت : خل عنك الحياة بين يأس ورجاء...فاجعل ضوء الرجاء قبلة ناظريك دائماً.

فصمت مفكراً فيما قالته يحلل مرماه ومغزاه

ولقد استطاعت الفتاة بجاذبيتها ولباقتها أن تحوله من الركود المطلق إلى الأمل الحلو المرتقب ، وأيقن أن الله أراد به خيراً فأرسل إليه ملاك الرحمة فى كيان هذه الفتاة ...

ومال برأسه على كتفيها فى شبه إغفاء ، وغاب بخياله عن الوجود ...

وهدأت الفتاة راجية أن يعاوده البشر والأمل ، وراحت تتأمل وجهه الشاحب الحزين . ثم انتقلت ببصرها إلى صدره ، وهو يعلو وينخفض كأنه ضاق بأنفاسه

ولمحت طرف ورقة تبدو من وراء ثيابه فملكها الشيطان ، ومدت يدها فى حذر تسحب الورقة ...

أوراق صفراء تثبت عدد السنين الخوالى . قد تبلغ أربع سنوات ، ولقد اكتسح الزمن

الراحل لون الجد الزاهى ، ولم يبق من الحروف غير ظلها . ولما تأكدت من غفوته : راحت تحاول قراءة الرسالة فاذا بها :

يا طائرى

بودى لو أكتب بغير مداد

أستمين بيد الأزل المجهولة على تسجيل عواطفي النورانية ... ولـكن أين العين التى تتبين هـذه الحروف الخفية ، وتدرك ما وراء نفسى الغامضة حتى أنت ؟ أيمكن أن تفهم مرماى ؟

إنى أشك . رغم ما بيننا من تفاهم وطيد ...

صوت من الأعماق يصرخ فى أعماق مجلجلا كالرعد : أريدك تفهمنى كما أنا وحسبى ...

قد تقول : كيف لا أفهمك وأنا أحبك ؟

وأنا أقول : قد تكون فهمتنى كما يفهم كل رجل امرأة .

وأنا أريد أن تفهم روحك روحى ، ويدرك قلبك معنى قلبى .

فاذا نظرت إليك دون كلام فهمت حكاية نفسى ونشيد روحى وأغانى قلبى فتفهم حقيقة حبى ، ذلك الحب الذى يشبه البخار الذى رفعته الحرارة من البحر الأجاج فانهمر ماء حلوا على قمم الجبال ، وجرى أنهارا فى الوديان ثم عاد إلى البحر حيث كان ...

ثم أستودع الله ما انفصل عنى لغير عودة — أستودع قلبى الطليق لأستقبل قلبى المقيد ، وأستودع أحلام العذراء لأستقبل مسئولية المرأة ، وأستودع كل القلوب الهائمة حوالى لأستقبل قلباً واحـداً أعز من الحياة على .

تسألنى : هل أحبك ؟

وجوابى : أنا أعرف إنى محبة لله ، وأن ذاك الحب الجليل يتجسم فيك وحدك ، حتى أحسست أن روحى انسرحت من الكثافة الحاجبة فى عالم الحسن واستشفت الحقيقة فى عالم الغيب المجهول غير المدرك أو الملموس . ألا ترى معى أن الحيـاة أقرب إلى الخلود منها إلى الفناء إذا لازم الحب عمرها الحافل بالأمانى الحسان .

ألا يحتمل أن يكون الخلود هو هذه الساعات الحبيبة المليئة بنشوة الحب الطهور ؟

لقد كونت الطبيعة الانسان ثمرة للحب ، فهو إذن بالمادة والروح من عناصر الحب ... خلق به ومنه وله .

فالروح الذى يلتهب وحده بكهرباء الحب يدرك بالغريزة عناصر وجوده ثم مستلزمات الوجود وفهم الحب ، والشعور بالحاجة إليه كتتمم للحياة هو الباعث على تنبه العاطفة إلى حد الاحتراق . إذن بلغت الآن إدراك الحقيقة وبدأت أفهم نظرية صحيحة لهـا أساسها العلمى .

الحب من عناصر الحياة إذا لم نجزم قطعاً بأنه ذات الحياة .

ولـكل حياة مظهـر للدلالة على وجودها ، كذلك الحب يدل على وجوده بتنبه العاطفة وفورتها ، يملأ الفؤاد كما تملأ الكهرباء الجو ... يكون بغير حصر حتى يحصر ، وبدون نتيجة عمليـة إيجابية حتى يركز فيتوجه للعمل الايجابي والانتاج .

فأنا قبلا كان حبى موزعا لأننى لم أصادف نقطة الارتكاز ... فلما وجدتها عدت لا أملك هبة قلبى ولم أقدمه طوعاً .. بل انتزع منى انتزاعاً .

وهأنذى أشعر أن العاطفة تساير عقلى جنباً إلى جنب من ذلك تعرف أن العقل لا يخالف القلب إلا إذا كان الحب وليد الهوس والجنون والـكذب والنفاق ؛ أما إذا كان الحب وليـد الايمان الأكيد والميل الصحيح والشعور الصادق فلا سبيل للعقل غير مشاركة القلب فى وجدانه بتفكيره .

فنحن نحب الله بقلوبنا ، ونفكر فيه بعقولنا ، وكذلك الحال إذا حدث التفاهم بين شخصين

والآن ليس فى مقدورى بعد الآن مخالفة قانون الجاذبية .

وجميع قوانين الطبيعة صحيحة خالدة مهما اختلفت المظاهر وتنوعت الظروف والأجواء

إذن لا تتعجل الظروف فلكل شيء حينه ، فالجنين يوضع عندا كماله ، والثمرة تسقط عن الشجرة بعد تمام النضج

وحبى لن يواجهك إلا بعد أن تثبت أركانه.

الآن آمنت . الحب كالقدر أعمى

وطلب المثل الأعلى فى الحب أمنية من الأمانى والقدر يلعب دوره حتى فى العواطف ، فقد يتركز الحب فى غير مايتمناه الانسان برغبته وبعقله ومصلحته فيخضع لسلطانه المستبد

أنا لا أرجو ولا أؤمل ، وليس لى هدف حسى ؛ إنما أعيش بالروح فى عالم الروح ، نشدتى روحية ومسراتى وآلامى باطنية منفصلة عن الحواس جميعها

والتخيل هو ارتقاء الفكر عن العالم المحسوس وعالم الخيال ، هو عالم الحقيقة لمن يرتقى عقله عن طباق العقل المحبوس ، فاذا تخيلت فلنفسى ، وإذا ناجيت فكأننى أناجى روحى لأن طيف أليفى صورة مماثلة لي ... أراها فىّ وأرانى فيها ولا يمنع التخيل مانع مادى ، وليس لعالم الخيال حد ... كذلك لا تحول دون الروحانية الحوائل الوصفية . ولعل من أعجب العجب أن نتحاب قبل أن نتعارف كما يحدث دائماً بين الناس ، ولماذا ؟ لأن الكهرباء التى تضيء مصباحك الروحى هى التى تضيء مصباحى !

ولأن القوة المجهولة التى تحرك الخيال للتخيل هى التى حركت الناحيتين للعمل وللاتجاه التماثل ، كما تحرك الكهرباء قطارات الترام على شتى الخطوط.

إذن ليس فى مقدورى مطلقاً أن أحاول مقاومة الطبيعة لأننى لا أملك القوة على مخالفة الناموس ، وأرى العاطفة تسيرها وحدة الوجود فى السبيل المرسوم لها من الأزل بقوة المحرك العام مصدر الحركة والسكون

لطالما حاولت أن أخفى هواى

وها هى ذى الطبيعة تغلبنى أخيراً وتقهرنى . كنت أتحصن دائماً بكبريائى ، وفاتنى أن الطبيعة أقوى من الكبرياء ، إذ الكبرياء تغذيها المادة وتهدمها

أما العاطفة فتغذيها الغريزة أو ناموس الكون ثم تطلقها فى غير هدى

وأنا عند ما أصارحك بهواى أكون صادقة ، إذ ليست عاطفتى وثبة عن طيش ولا قفزة عن رعونة ولا وسيلة لتحقيق أمل

إنما هى يسميها الفكر المحدود مصادفة ، ويقرر العلم أنها لازمة الاستقرار فلها قيمتها المعنوية فى حياتى وحياتك « هلا »

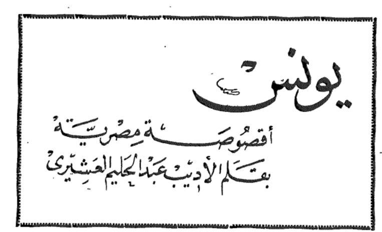
لا تدرى الفتاة كيف قرأت الرسالة حتى النهاية . فقدت حواسها ولم تنتبه إلا على صوت صرختها المدوية عند ما قرأت اسم « هلا »

يا لله ... خطها وأسلوبها واسمها ... وذاك البائس حبيبها الغادر. صرخت ..

فتنبه النائم ونظر إليها مشدوهاً فاذا بها ترتعش وبين أصابعها الأوراق الذابلة ...

قال الرجل فى اضطراب : ماذا بك ؟ فغمغمت : هو أنت ؟ ثم غابت عن الوجود

(المنصورة) جميلة العلايلى



فرغت الأم العجوز من صلاة العشاء وطوت « السجادة » فى لأى ، ثم سارت صوب نافذة صغيرة بالغرفة ففتحتها ووقفت ترقب منها فى أمل وشوق وخوف ، الطريق الطويل المتشح بالسواد الذى بدا أمام عينيها ، وهب على وجهها هواء الليل البارد فسرت فى جسدها الضاوى قشعريرة شديدة ؛ ورغم استمرار ذلك الهواء البارد فى الهبوب على وجهها فانها لم تتحول عن النافذة ، بل ظلت واقفة كما هى ترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف ، وكلما تناهى إلى أذنيها صوت أقدام تقترب من الدار التى تسكنها تزايدت دقات قلبها وهتفت فى صوت خافت ملؤه الفرح والأمل والتساؤل:

— ترى هل قدم ابنى يونس ؟ ...

وترى وجه صاحب الأقدام التى سمعتها فلا تجده ابنها فيمتلئ قلبها كآبة وبؤساً وترفع رأسها إلى السماء تسأل نجومها فى ضراعة :

— هل يعود ابنى الليلة ؟ ؟

ولكن النجوم لا تجيب . فتعود ثانية لترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف ...

ويشرد بصرها قليلا وهى تستعيد فى ذهنها وجه ابنها يونس . ويبدو الوجه ومن ورائه يبدو ماضى ابنها ، الماضى الذى أورثها السهاد والآلام والمهانة ، وتفيق فجأة لتسأل ربها :

— لم يا رب جعلت ابنى كذلك ؟

وتهز رأسها فى أسى وحسرة وتجيش الدموع فى عينيها . ثم تعود للمرة الثالثة لترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف منتظرة عودة ابنها ...

كان ابنها (يونس) هذا فى سن الشباب جبل على الشر منذ نعومة أظافره ، فهو لا يكف عن السطو على منازل من يعرفهم ومن لا يعرفهم ليسرق أثمن ما فيها . وهو لا يصادق غير اللصوص والأشرار . وهو يعامل أمه دائماً بغلظة المجرم الذى لا قلب له . وأمه لا يسعها إلا أن تبتهل إلى الله فى صلواتها أن يقوم أخلاقه ويهديه سواء السبيل ... ولكن هيهات ...

ومنذ ستة أشهر سطا على دار أحد أعيان القرية التى يعيش فيها يريد سرقة ما بها فقبض عليه وسيق إلى العمدة ، ومن العمدة إلى المحكمة ، ومن المحكمة إلى السجن ليقضى فيه ستة أشهر جزاء له على ما اقترف !

وهاهى ذى الستة الأشهر قد مضت وسيعود الليلة من السجن . وها هى ذى أمه تنتظر عودته فى أمل وشوق وخوف ...

وانتصف الليل ، والأم لما تزل واقفة تطل من النافذة على الطريق . وكان الصمت سائداً فلا حركة ولا نأمة . وفجأة دوى فى سكون الليل المدلهم صوت أقدام آتية نحو الدار ، أقدام ثقيلة كأقدام يونس

ابنها . وخفق قلبها وحملقت فى الطريق ببصر كله انتباه واهتمام . وبدا أمامها جسد رجل، وأفلتت من فيها صرخة كلها فرح وطرب ، فقد كان ابنها صاحب ذلك الجسد

وتركت النافذة وذهبت مسرعة لتفتح لابنها باب الدار . ودخل يونس من الباب فصاحت فى سعادة وهى تفتح له ذراعيها :

— يونس . ابنى . حبيبى !

ولكنه سار فى طريقه دون أن يلتفت إليها فلحقت به وهى تصيح حانقة :

— ما هكذا يقابل الابن أمه بعد غيبة ستة أشهر أيها الابن الناكر للجميل ..

فالتفت إليها قائلاً فى خشونة :

— ما هذا وقت عتاب . إنى متعب وجائع .

وأشفقت عليه فلم تستمر فى عتابها له مع قوة رغبتها فى ذلك . وأخذت بيده بعد أن قبلت خده نحو غرفة صغيره مضاءة بالدار وهى تقول :

— هنا دجاجة « محمرة »(وملوخية) أعددتهما لك . أدخل وسوف أذهب لأحضر لك الخبز ..

ودخل الغرفة . وذهبت لتحضر له الخبز ، وسرعان ما عادت به إليه . وجلس يلتهم طعامه وجلست بالقرب منه تسأله :

— وكيف وجدت الحياة فى السجن ؟

فرد عليها فى خشونته التى لا تفارقه :

— جحيم . ولكنه أفضل من الحياة هنا على كل حال .

— وهل الحياة هنا لا تعجبك أيها الابن المذنب أتنكر نعمة ربك ؟ .

فصرخ فى غضب وفمه يغص بالطعام ...

— إنى جئت هنا لآكل يا امرأة ، لا لأسمع هذا الكلام الذى هو كالسم . فاذا لم تصمتى فانى سأذهب من هنا . وأدع لك طعامك ...

ووضعت الأم خدها على يدها وصمتت . وراح يونس يلتهم ما بقى من طعامه بنهم . فلما أتى على ما أمامه من الطعام شرب كوباً كبيراً من الماء ثم تجشأ ومسح فمه فى كمه . ونهض فبارح الغرفة ...

وهزت الأم رأسها فى حزن ، وضربت كفاً بكف ، وقالت بعد أن تنهدت :

— يا لسوء حظى مع هذا الابن ...

وقامت فجمعت بقايا طعام ابنها وألقتها لقطة نحيلة كانت نائمة فى ركن بالغرفة . ثم ذهبت فى أثر ابنها ...

ووجدته مضطجعاً على فراش نومه وقد غطى وجهه بيديه فوقفت تنظر إليه وهى تبتهل إلى الله فى سرها أن يرشده إلى طريق الصواب . ثم ذهبت بعد هنيهة إلى فراش آخر كان بالقرب من فراش ابنها فألقت بجسدها عليه فى إعياء ، وحاولت أن تنام

* * *

وفى اليوم التالى عاد يونس إلى أصدقائه اللصوص ، فتلقوه فى ترحاب واشتياق . وراح من جديد يدبر جرائم السطو على المنازل لسرقة ما بها ...

كانت هذه طبيعة فيه ، وما نفعت دعوات أمه ولا نفع السجن فى تخليصه من طبيعته هذه ...

وفى ذلك اليوم أيضاً عادت أمه إلى الابتهال إلى الله فى صلواتها أن يذهب بابنها عن الطريق الذى يسير فيه إلى الطريق السوى . ولكن هيهات ...

وفى اليوم الذى أعقب ذلك اليوم ، دخل يونس على أمه وهو يغنى بعض (المواويل) الريفية والسرور يشيع فى وجهه . وعلى غير عادته راح يحادثها بلطف

ورقة ، فعجبت لذلك وسألته :

— لم أرك على هذا السرور قبل الآن ، فما السبب يا ترى ؟

فمال بفمه على أذنها يهمس فيها :

— لقد سرقت ليلة أمس مالاً كثيراً . . . ولم يدر بما فعلت أحد ...

فصاحت فيه غاضبة :

— سرقت .. سرقت أيها الابن المذنب المخطىء .

فقال لها وهو يهدىء من غضبها :

— لا ترفعي صوتك هكذا . يقولون إن للجدران آذانا مثلنا ...

فلم تسمع كلامه واستمرت فى صياحها :

— إنى لا أطيق أعمالك هذه . . . فمتى تفكر فى . . فى أمك العجوز يا يونس . . يجب أن تعرف أنى فى حاجة إلى الراحة ... أجل إلى الراحة يا ...

فلم يقف ليسمع من كلام أمه أكثر مما سمع ، إذ تسلل من أمامها مسرعاً وهو يقول :

— إنى ذاهب . فما أحب أن يتسمم الجو الجميل الذى أعيش الساعة فيه ...

وسمعت الأم بعد قليل صوت باب الدار وهو يفتح ثم وهو يغلق فعرفت أن ابنها قد بارح المنزل ..

وارتمت على أحد المقاعد وهى تحبس دموعها التى أوشكت أن تنحدر ...

* * *

وتصرمت خمسة أشهر لم تتغير فيها حياة يونس وأمه ، فهو لا يكف عن السطو على المنازل وعن مصاحبة اللصوص والأشرار ، وهى لا تكف عن وعظه وإرشاده إلى طريق الخير وعن التضرع إلى الله فى صلواتها أن يساعدها على ذلك . ثم أتى اليوم الذى عرف فيه يونس الحب ، فابتدأت حياته تتغير وتتبدل ، وبحكم صلة حياة أمه بحياته فقد تغيرت هى أيضاً وتبدلت

كان عجيباً أن يعرف يونس الحب . وهو الرجل الشرير الذى لا قلب له . ولكن من الذي استطاع أن ينظر فى عينى « عالية » دون أن يصاب بداء الحب ! أو من استطاع أن يرى بسماتها دون أن يحس بروحه قد امتزجت بروحها ؟

وعالية هذه فتاة قروية ، فى جسدها استقامة فاتنة ، وفى عينيها دعج مغر ، وفى بسمتها سحر فتاك ، وفى ضحكتها الناعمة وكلامها الرقيق حلاوة الشهد . رآها يونس ذات يوم فى السوق الصغيرة التى تقام بالقرية كل أسبوع ، فلم يدر لم وقف كالمشدوه يحملق فى وجهها وهو الذى ما كان يستوقفه جمال فتاة من قبل مهما كان هذا الجمال ؟

وفطنت عالية إليه فرمته بنظرة أحس وهو يتلقاها بعاطفة جديدة تنشأ فى قلبه ، وأفاق ليجد نفسه قد أحب ، قد أحب عالية

وبرغم ضخامة جسده وعظم قوته ، فانه عند ما رجع إلى منزله فى ذلك اليوم كان يشعر بضعف كبير أمام تلك العاطفة الجديدة التى طرقت قلبه

وتلقته أمه العجوز على الباب ، فأدهشها أن تجده ساهما مطرق الرأس

فقالت له فى حنان : ما خطبك ؟

فهتف بلا وعى وبغير تريث : الحب ... الحب يا أمى ...

وكانت هذه هى المرة الأولى منذ زمان طويل التى يدعوها فيها بـ « يا أمى » . فقد تعودت أن تسمعه دائماً يدعوها بـ « يا امرأة » . وسرت فى

أعماق نفسها لذلك . وودت لو تطلب منه أن يعيد على مسمعيها مرة أخرى كلمة « يا أمى » هذه . ولكن كان هناك شيء أهم من ذلك تريد أن تستوضح أمره من ابنها ، ألا وهو ذلك «الحب» الذى نطق به . فقالت له : ماذا تقصد ؟

وكأنما هيأ له عقله أنه قد باح بشيء لم يكن من الواجب أن يبوح به ، فقد سار فى طريقه وهو يغمغم : لا شيء ... لا شيء ...

ولكن أمه لم تكن من الجهل بحيث تصدقه . فذهبت تحاول اقتناص سره من صدره بمختلف الحيل والأساليب . ولكنه صمت وزاد تمادياً فى صمته فترك الكثير من أسئلة ألقتها عليه، محاولة أن تستدرجه إلى الذى تريد، بلا جواب ..

وعند ما آوى إلى فراشه كانت عينا عالية تملآن غرفته . وعبثاً حاول أن يبعدهما عنه ...

وانتصف الليل والكرى لم يطرق له جفناً . فترك فراشه وبارح غرفة نومه إلى غرفة أخرى راح يشغل نفسه فيها ببعض الأعمال حتى لا يفكر فى عالية ... ولكن بلا طائل...ولحقت به أمه وقد أحست بأنه ليس فى فراش نومه ، فوجدته على حالته هذه

سألته : ألم تنم ؟

قال : لا ..

فجلست بجواره وربتت بيدها على ظهره قائلة :

— لم ؟

— انتابنى الأرق .

فسألته وهى ترفع إليه بصرها .

— ولم انتابك الأرق . ؟

— لأنى ... لأنى ...

ولم يتم كلامه . فصاحت به تحضه على إتمام ما يريد أن يقوله

— لأنك تحب . أليس كذلك ؟

فلم يجب . ولكنه نهض بسرعة وعاد إلى غرفة نومه ثم ألقى بجسده على فراشه وغطى وجهه بذراعيه وفى أثره عادت الأم المسكينة ، وجلست بجوار فراشه ثم وضعت يدها على رأسه وتمتمت تخاطبه :

— لم تخبىء عنى ما فى قلبك ياحبيبي ؟ ألست أمك ...؟!

فلم تفز برد ...

* * *

وفى صباح اليوم التالى اجتمع يونس بأصحابه اللصوص ، وعلى غير عهدهم به وجدوه راغباً عن التفكير فى جرائم السرقة ، كثير الاطراق ، خفيض الصوت عندما يتكلم . فحسبوه مريضاً ولكنهم ما دروا أنه قد أحب ...

وقبل أن ينفض اجتماعهم راح يونس يصف لهم فتاته عالية ويسأل هل يعرفها أحدهم . وكان وصفه لها دقيقاً جديداً حتى أن ثلاثة من أصحابه هؤلاء أجابوه سريعاً بأنهم يعرفون الفتاة التى يصفها، واقترب منه أحد الثلاثة فأخبره باسمها واسم والدها والمكان الذى به منزلها . ثم رفع إليه بصره يسأله فى ابتسام :

— هل وقعت ؟ ...

ولكن النظرة القاسية التى صوبها يونس إليه جعلته يصمت ويطرق برأسه إلى الأرض . ثم انفرط عقد اجتماعهم

وبعد هنيهة كان يونس فى طريقه إلى المنزل الذى تقيم فيه عالية . وفجأة وجد نفسه أمام عالية .

ووقف في هذه المرة أيضاً يحملق في وجهها . وابتسمت وقد عرفته ؛ وحجبت فمها بطرف خمارها في استحياء والبسمة لا تزال عليه . ثم سارت في طريقها ...

وود لو يقفها ليبوح لها بحبه ولكنه لم يستطع وما استطاع إلا تشييعها ببصره إلى حيث اختفت ثم عاد إلى منزله في خطى وئيدة ...

وحدث في ذلك اليوم ما حدث بالأمس ...

* * *

وثقت الأم العجوز أن ابنها قد أحب . ولكن من هي الفتاة التي أحبها ... ذلك ما راحت تحاول بطريقتها الخاصة ، وبث العيون وراء ابنها أن تعرفه وقد عرفته ...

وفي أحد الأماسي أطلعت الأم ابنها على ما عرفته وسألته :

— هل تنكر شيئاً مما ذكرت ... ؟

فأجاب : لا ...

قالت : وعلام نويت ؟

قال : سأطلب يد عالية من والدها غداً ...

وغمرت الأم سعادة . عظيمة وكيف لا تسر وابنها يعزم على الزواج . وعادت تسأله في خوف :

— ولكن هل تظن أن والدها يقبل طلبك.؟

قال : سوف أبذل كل ما في وسعي حتى يقبله ...

قالت : وإذا لم يقبله ... ؟

فأطرق برأسه ، وقد أدرك أمراً محيراً . أجل إذا لم يوافق والد عاليه على أن يزوجه ابنته فماذا يفعل ؟ . . . إن والدها يعرف أنه لص فربما لا يقبل طلبه ... ؟

ورفع رأسه في يأس وحيرة وقال لأمه التي كانت تنظر إليه في إشفاق :

— غداً بعد أن أرى ما سيتم في ذلك الموضوع أجيب على سؤالك ...

* * *

وذهب يونس في الغد ليطلب يد فتاته من والدها ... وتمنت له أمه من أعماق قلبها التوفيق فيما هو ذاهب إليه . فقد كانت متأكدة أنه لو تزوج فستبتعد به الحياة الزوجية عن حياة الاجرام ، ويصبح يونس كما أرادته وكما ستظل تريده ابناً صالحاً لا يزعجها بشيء ... ولكن . ولكن وقع ما هجس بصدر الأم وابنها فلم يقبل والد عاليه أن يزوجه من ابنته ، وزاد على ذلك أن أخبره أنها مخطوبة إلى أحد أقربائها ...

وخرج يونس من دار والد حبيبته وقد أظلمت الحياة في عينيه . ماذا يفعل الآن ؟

وفي طريقه أبصر بعالية ، ووقف يفكر ... يجب أن يقابلها ... يجب أن يودعها . يجب أن يقول لها إنه لن يعيش طويلاً وقد فقدها ...

وذهب إليها ، ولكن عالية رأته قبل أن يقترب منها ، فابتعدت عنه . كانت قد عرفت بالأمس أن ذلك الشاب الطويل القامة ، الواسع الصدر ، المفعم قوة وفتوة ، الذي عرفته في الأيام الأخيرة ليس إلا يونس اللص !

وصرخ يونس وهو يراها تبتعد عنه :

— عالية ...

فالتفتت إليه خائفة ، وحدجته بنظرة هائلة كلها ازدراء واحتقار ، ثم استمرت في سيرها مرفوعة الرأس لا تلتفت إليه !

وأحس كأن سلاحاً حاداً أشبه ما يكون بالسكين قد أغمد فى صميم قلبه ... ! وفرت دمعة من عينه وسقطت على خده ، فمسحها بأصبعه الخشن وعاد ليتابع سيره وفى أعماقه شيء يئن ...

* * *

وبعد أيام أربعة سرت فى مجالس رجال القرية الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم إشاعة مضمونها أن « يونس » مستعد لتخليص من له عدو من عدوه مقابل عشرة جنيهات . أجل عشرة فحسب ... ولو كلفته مهمته هذه حياته ...

واتصل أحد هؤلاء الرجال الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم بيونس، وبعد أن تأكد من صدق الاشاعة التى وصلته اتفق معه على أن يخلصه من عدوه وأعطاه العشرة الجنيهات التى يريدها

كل هذا حدث وأم يونس لا تدرى . ولو كانت تدرى لباعت حياتها لتنقذ ابنها قبل أن يبيع هو حياته بتلك الجنيهات العشرة !

وذهب يونس بعد أن ملأ بطنه خمراً ليقوم بمهمته غير خائف ولا وجل، فما عادت حياته بذات قيمة لديه بعد أن فشل فى حبه . ولم يفكر فى أمه المسكينة وهو مندفع فى طريقه المظلم الذى لا يعرف إلى أين يوصله ، وإن كان يعرف أنه لن يوصله إلى نهاية حسنة ، اللهم إلا أنه أودع عند أحد أصدقائه بضعة جنيهات من الجنيهات العشرة وأوصاه أن يعطيها لأمه إذا قبض عليه لتعيش منها ...

* * *

وفى صباح اليوم التالى كانت الأم واقفة أمام منزلها تسأل المارة عن يونس ابنها إذ أنه لم يعد إلى المنزل ليلة أمس ، عند ما تقدم أحد أقربائها ليخبرها أنه عائد لتوه من عند عمدة القرية وأن ابنها مقبوض عليه هناك بتهمة قتل رجل من القرية ...

وتلقت الأم ذلك النبأ ذاهلة . ثم صرخت فى صوت عال :

— ابنى يونس قبض عليه بتهمة قتل رجل ..؟ ابنى يونس ... حبيبى يونس ...

وذهبت إلى دار العمدة لتتحقق الأمر . فعادت والجنون أقرب إليها من حبل الوريد . إن ابنها قد قتل حقاً أحد رجال القرية والعمدة يقول لها إنه قد يحكم عليه بالاعدام شنقاً ...

وتمر الأيام والشيطان يضحك على الضحيتين الرخيصتين : الأم وابنها .

* * *

... فى صباح يوم دخلت إحدى نساء القرية على تلك الأم المسكينة لتخبرها أن ابنها قد حكم عليه بالاعدام شنقاً ، وأن ذلك الحكم سينفذ فيه فى الغد . فوجدتها نائمة على غير عادتها فى الأيام الأخيرة . وكانت تحلم ، إذ سمعتها تقول :

— هل برئت ياابنى ؟ هل أطلقوا سراحك ياحبيبى وعدت إلى أمك العجوز ؟ حسن ، تعال إلى صدرى أيها الابن الشقى .. تعال إلى صدر أمك التى أوشكت أن تجن عندما علمت بأنك لا تعود إليها . تعال ياحبيبى . تعال ...

وضغطت الأم النائمة بذراعيها على صدرها وكأنها تضم إليه ابنها حقاً . وعادت المرأة التى أتت لتخبرها أن ابنها حكم عليه بالاعدام شنقاً من حيث أتت . وعلى خديها بضع قطرات من الدموع حاولت أن تحبسها فى عينيها فلم تستطع !

عبد الحليم محمود العشيرى

حاجي بابا اصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والأربعون

قصة عجيبة

ما كدت أنجو من ظلمة النازا كشي حتى سمعت صوت صاحبي الدرويش الذي أقبل في هذه الساعة إلى المدينة معلناً قدومه بأداء الشهادتين بأعلى صوته وبعد قليل رأيته يدخل المدفن باحثاً عني . ولما رآني ابتهج وحمد الله على وصولي إلى هذا المكان سالماً قبل أن يصل إليه النازا كشي ووعدني بأن يقيم معي مدة قصيرة . ووقع اختياري وإياه على خلوة من الغرف الكثيرة المبنية حول القبر وكان معي عشرون طوماناً من الذهب وبعض النقود الفضية ، وأرسلته ليشتري لي بعض الحاجات الضرورية كحصير لأرض هذه الغرفة وزير يحفظ فيه الماء .

وقد فاجأني هذا الدرويش مفاجأة لم أكن أنتظرها إذ سألني : « أخبرني أولا قبل أن أقيم معك هل تقيم الصلاة وهل تصوم ، أم أنت لا تزال كما كنت في مشهد ؟ »

قلت : « لماذا تسألني هذا السؤال وماذا يعنيك إن كنت أصلي أو لا أصلي ؟ »

قال : « إن ذلك لا يهمني كثيراً ولكنه يهمك أنت لأن هذه المدينة « مدينة قم » من أكثر المدن تمسكا بالدين فلا تجد فيها إلا تقياً من أبناء النبي يقضي أيامه ولياليه عاملاً لآخرته . وأكثر من فيها من الناس مصابون بالهزال من قيام الليل والزهد في الطعام ؛ وقلما وجدت فيها رجلا ضاحك السن أو مبتسم العين أو مورد الخدين . ومن أجل ذلك يجب عليك أن تظهر الحزن والاكتئاب لتبدو عليك هيئة الصالح الورع »

قلت : « وأية فائدة ياصاحبي الدرويش من كل هذا ؟ إنني مسلم ويجب على أداء الفروض ولكن إقامتي في هذا المكان لا تستلزم كل ما تقول لأنه قلما رآني أحد فيه أو اهتم بوجودي إنسان »

فقال : « إذا أنت لم تتبع ما قلته لك فلتستعد للرجم بالطوب أو الموت جوعاً ، فالدراويش الذين حولك لا يعرفون الوسط من الأمور ولا يتسامحون في أقل شيء ، فاذا ارتابوا في مسلكك أقل ريبة فانهم لا يتأخرون طرفة عين عن جعلك عبرة لغيرك ؛ وإذا بدا لهم أن عصيانك ناشيء عن ضعف في الاعتقاد فلا تنتظر منهم شيئاً غير أن يمزقوا جلدك كل ممزق . ولعلك لا تعرف يا حاجي بابا أن هذه مدينة ميرزا أبي القاسم أكبر الأحياء من زعماء الدين ، ولعلك لا تعرف أن هذا الرجل إن ثار ثارت معه مئات الألوف من أتباعه الذين لا يسألونه برهاناً على مايقول فهو أقوى من الشاه وأكثر نفوذاً

هذا هو الرجل ولكنه طيب القلب كريم الأخلاق ولا أعرف فيه عيباً سوى أنه يقتل رجماً كل من يعتقد أنه ضعيف الايمان »

لما سمعت ذلك من الدرويش وعدته أن أؤدي فروض الدين . وكنت أعد المثابرة على هذه الفروض

من أكبر المشقات . ولكن لما مضت أيام قليلة اعتدتها فلم أعد أرى فيها شيئاً من الصعوبة فلم أهمل أداءها فى أوقاتها . وكنت أرفع صوتى حتى يسمعه كل مقبل من بعيد لزيارة المقبرة . وما كان أكثر الزائرين لها من مختلف الطبقات !

ولقد حذقت صناعة التكابيح فصرت أجمل وجهى كأوجه الأتقياء والمتزهدين عبوساً وتقطيباً. وقد شهد لى صاحبي الدرويش بالحذق فى ذلك على أنه هو معدوم النظير فى ذلك

ولقد أذيع سريعاً أن فى المدفن ولياً من أولياء الله . ولولا أنه هارب من مظلمة ولاجئ إلى هذا القبر لكان إماماً للناس . وأذيع عنى أننى مظلوم مضطهد وأن مقامى فى هذا الملجأ لايدل إلا على ظلم الحكام الذين يخصون الأتقياء المتزهين باضطهادهم

وتعرفت فى أقرب وقت على أكثر أهل المدينة وقد اتفقت كلمتهم على أنه ليس فى المدينة أكثر تعبداً منى . ولما طال العهد صار بعضهم يستشيرنى فى أموره فأشير عليه . ودلتهم التجارب على أننى حكيم أصيل الرأى

ولم تكن معيشتى وصاحبي لتكلف أحدنا شيئاً من المال لأن الزائرين وخصوصاً النساء منهم كانوا يقدمون إلينا ما نحن فى حاجة إليه من خبز وفاكهة وعسل ، وكنت أجزى على ذلك بالشكر وبأحجبة أكتبها بيدى فى بعض الأحايين، وعلى الرغم من قلة التكاليف التى تكبدنا إياها هذه الحياة فانها حياة مظلمة لاضطرارنا فى أكثر الأحيان إلى قضاء الساعات الطوال دون أن تتحرك شفتا أحدنا بحرف ، ومن أجل ذلك كنت أشجعه على أن يقص على أخباره ويروى لى قصصه . ومن بينها القصة التى لم أكن مصغياً إليه وهو يرويها فى الخان . ولقد سررت من هذه القصة كثيراً وأحسب القارئ سيسر منها كذلك، وسواء صدق ظنى أو لم يصدق فلا شك أن القارئ يود أن يعرف بماذا كان يتسلى الدراويش فى سجونهم المختارة

القصة

السلطان التركى الحاضر ملقب بين الايرانيين بلقب « خون خور » أى شارب الدماء، والايرانيون في العادة يطلقون هذا اللقب على كل حاكم تركى .

ولما تولى هـذا السلطان أصر على إلغاء كثير من العادات والتقاليد التى نشرها الكفار الذين تطرقوا إلى الوظائف فى عهد سلفه ، ورأى أن من واجبه إعادة الأمور إلى حالة البساطة التي كانت عليها قبل ذلك السلف ، فسن للحكومة نظاماً تركياً بحتاً

وكان فى جملة التقاليد القديمة التى أحياها سنة التنكر والتجسس على الرعايا . وكان شديد الحرص على أن يكون تنكره متقناً وعلى أن يخفى سره عن أخص أتباعه، وكانت الثورة تكاد أن تنشب فى ذلك الوقت لكثرة ما كانت تبديه الجماهير من التذمر، فأراد السلطان أن يتعرف بنفسه حالة الجماهير وأمر بصنع ثياب له يستحيل أن يعرف وهو مرتديها .

وكان من عاداته أن يكلف بصنعها خياطين مختلفين فى بلاد مختلفة وفى أوقات مختلفة . وفى الوقت نفسه أرسل خصيه الأمين واسمه المنصوري ليبحث له عن خياط غير مشهور

فذهب المنصوري إلى السوق ورأى خياطاً فى حانوت ضيق يضع على عينيه منظاراً وليس فى حانوته ثياب كثيرة، فقال المنصورى : «هذا هو بغيتى لأنه بغير شك ليس من المشهورين »

حياه المنصورى فرفع بصره إليه، ولما رآه فى ثياب جميلة عاد إلى عمله فى صمت دون أن يرد التحية لأنه اعتقد أنها غير موجهة إليه، ولكن لما أعاد الخصى التحية أيقن الرجل أنه هو المعنى بها فطرح أعماله جانباً وهمّ بأن يقف على قدميه ولكن المنصورى أمره بالجلوس وسأله عن اسمه فقال: « اسمى خادمك عبد الله وشهرتى بابا دول »

قال المنصورى : « وهل أنت خياط ؟ »

فقال : « نعم صناعتى خياط ومؤذن فى المسجد الصغير بسوق السمك »

قال : « اسمع يابابا دول — إن لدىّ صفقة كبيرة الأهمية فهل تقبلها ؟ »

فقال الخياط : « وهل أنا مجنون حتى أرفضها؟ قل لى ما هى »

— « تكلم بهدوء وفكر فيما أقوله لك . هل تقبل أن أربط عصابة على عينيك وآخذك إلى مكان لا تعرفه لتؤدي عملاً تأخذ عليه أجراً كبيراً ؟ »

— هذا شيء آخر غير الذى عرضته على أولا. إن الأوقات شديدة الحرج والرؤوس تتطاير الآن عن أجسادها بغير حساب ولا يهمه أن يقطع رأس خياط مثلى كما تقطع رؤوس الوزراء والباشوات فى هذا الزمن . ولكن ادفع لى مقدماً ثمناً عالياً وأنا أخيط لك ثوباً يصلح لابليس فلا يعرفه فيه أحد إن تنكر »

قال المنصوري : « هذه هى بغيتى ، وهذا هو المال » ووضع فى يده كيساً من النقود الذهبية فأخذه وقال : « لقد قبلت فقل لى ماذا تريده واعتمد على » ثم تم الاتفاق بينهما على أن يأتى الخصى فى منتصف الليل فيأخذه بعد أن يربط عينيه حيث يشاء

ولما ذهب الخصى عاد الخياط إلى عمله وأخذ يفكر فى هذه الصفقة ثم قام فجأة فأغلق حانوته وذهب إلى منزله ليخبر زوجته

وكانت هذه الزوجة واسمها «دلفريب» محدودبة الظهر مثله ، وقد دهشت عندما رأته يعود إلى المنزل قبل موعده العادى ومعه طبق من الشواء الساخن يتصاعد منه الدخان وآخر من السكباج وقرطاس من العنب

أكلا وشربا القهوة وأخبرها بالحديث وترك لها ما أخذه من المال . ولما كاد الليل ينتصف ذهب إلى حانوته ليقابل المنصورى وسمح له بأن يعصب عينيه ويقوده حتى وصلا إلى باب الحرم فى قصر السلطان فدخلا . ولم يزل الخصى يقود الخياط حتى وصل به إلى حجرة السلطان ولم يكن بها من النور غير مصباح ضئيل على الرف ، ولكن أثاثها الفاخر كان ينم عليها

أمر الخياط بالجلوس على كرسى ذهبى فوق سجادة لم ير ولم يتخيل مثلها، ثم جىء له بثوب من ثياب الدراويش وطلب إليه أن يتأمل فيه ويقول فى كم من الزمن يستطيع أن يخيط ثوباً مثله. وتركه الخصى آمراً إياه بأن يطوى الثوب كما كان بعد أن ينتهى من فحصه ويضعه فى المنديل الذى كان فيه

وبعد أن قام الخياط بذلك الفحص ناظراً فى كل جزء من الثوب طواه ووضعه فى المنديل . ولم يكد يفعل ذلك حتى دخل الغرفة رجل مهيب الطلعة فأخذ المنديل وخرج دون أن ينطق بحرف تاركاً الخياط وحده وقد ساورته الأفكار من هذه المناظر التى يراها . ثم فتح باب آخر من هذه الحجرة فدخل رجل فى ثياب ثمينة ومعه ثوب مطوى

فى (شال) من الكشمير وحيا هذا الرجل الخياط تحية العبد الخاشع للسيد المهيب ثم قبل الأرض بين يديه وترك الثوب وذهب

فقال الخياط فى نفسه : « لا شك فى أن صاحب المنزل من أكبر الباشوات ولعله صدر أعظم ، ولو كنت أقدر الرهبة التى أشعر بها الآن لما قبلت هذه الصفقة مهما كان ربحي منها . ومن الذى يدرى نتيجة وجودى فى هذا المكان بين العظماء الذين يظهر أنهم خرس لأنهم يذهبون ويأتون ولا ينطق أحدهم بحرف . لقد كنت أرجو أن يقل انحناؤهم أمامي ويكثر كلامهم لى . لقد سمعت أن امرأة ألقيت فى البحر منذ أيام . ومن يدرى لعلها كانت خياطة بمثل هذا المنزل ولعل نصيبي سيكون مثل نصيبها

لما وصل الخياط فى مناجاته نفسه إلى هذا الحد دخل الحجرة المنصورى فأخذ الثوب الثانى الذى كان الخياط قد انتهى من قصه وعصب عينيه ، وعادا من نفس الطريق الذى جاء به منه بعد أن أعطاه سلة مغلقة . وكان الخياط رجلا حنكته التجارب فلم يسأل سؤالا ولم يستفسر عن شيء . ولما طلب إليه الخصى أن يحدد موعداً يفرغ فيه من خياطة الثوبين وعده بانجازها بعد ثلاثة أيام ، فقبل الخصى وأعطاه عشرة جنيهات

ولما رفع الرباط عن عينيه أمام حانوته وفارق المنصورى حمد الله وذهب مسرعاً إلى منزله ليبشر زوجته التى كانت منتظرة بصبر نافد بأن الصفقة تستحق أن تسمى صفقة رابحة . وكان وصوله إلى منزله بعد ساعتين من منتصف الليل فهنأته لعودته سالماً وقالت إنها استطالت مدة غيابه وتلقت بشراه بالابتسام وبتكرار الحمد لله . وطلبت إليه أن يصف ما رآه وأن يخبرها عما فى السلة

فقال دعينا الآن من ذكر ذلك ولنذهب لكى ننام

قالت : « كلا بل أخبرني أولا ماذا رأيت وإلا فانني لن أستطيع النوم »

وأخذت السلة ففتحتها وهى تأمل أن تجد فيها هدية ثمينة من بيت العظيم الذى تعاقد معه على هذه الصفقة ولكن ما كان أشد انزعاجها وهلعها هى والزوج المسكين عند ما وجدا فى السلة رأساً مقطوعاً

قالت الزوجة : « ما هذه الداهية التى حلت فوق رؤوسنا ؟ هل أتيت برأس قتيل لتصنع منه ثوباً ؟ »

فصاح المسكين : « لعنة الله على أمه وعلى أبيه . لقد خدعنى هذا الخصى اللعين ! ليتنى طاوعت قلبي فقد حدثنى بالشر لما كلمنى الخصى عن ربط عيني وعن المكان المجهول . ولست أعرف الطريق إلى المنزل الذى قادني إليه . وإلا لذهبت إليه فى الحال وأعدت رأس القتيل . إنني لست أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول وأخشى أن يكون عندنا بعد لحظة مائة من الشرطة فنكلف بدفع الدية أو تعلق لنا المشنقة أو نرمى فى البحر . أشيرى على يا دلفريب . أشيرى على يا عزيزتى ! »

قالت الزوجة : « علينا أن نتخلص من هذا الرأس قبل كل شيء ولسنا أحق بهذه التهمة من غيرنا فلنبحث عن أي إنسان يحملها عنا »

فقال الزوج : « ولكن الفجر قد اقترب وإن تأخرنا قليلا يفوت الوقت الذى نستطيع أن نعمل فيه أى عمل فلننظر فى أمرنا الآن »

قالت الزوجة : « لقد خطر لى خاطر في هذه اللحظة ، إن جارنا حسن الخباز يوقد فرنه الآن وبعد ساعة يبتدئ فى إنضاج الخبز وإنضاج ما لديه من

الأطعمة الكثيرة الموضوعة فى الأوانى المتشابهة .
وإذا وضعنا هذا الرأس فى « حلة » وأرسلناها إليه فانه سيشويها فى الآنية كالعادة ويتركها بين مثيلاتها من الأوانى حتى يأتى من يسأل عنها وليس يعرف أحد لمن كل آنية من هذه الأوانى لأن صاحب كل آنية يأتى كالعادة فيستدل عليها »

فأعجب الزوج برأى زوجته ونفذ ما أشارت به

وبعد دقائق كان الرأس فى « حلة » مغطاة بين سائر « الحلل » الموضوعة أمام باب الموقد وأغلق الزوجان عليهما باب المنزل وناما

وكانت الزوجة مسرورة بامتلاكها للشال الكشمير الذى كان رأس القتيل ملفوفاً به فى داخل السلة

وكان حسن الخباز وابنه محمود يشعلان النار فى الموقد بسرعة، وبالرغم من انهما كهما فى هذا العمل فان محموداً وقف فجأة ونبه أباه إلى عواء غريب لكلب بالقرب من الموقد وقال له إن هذا العواء يدل على حدوث أمر غير عادى »

فقال الخباز : « لا شئ من ذلك يا محمود فدعنا نستمر على عملنا »

لكن النباح لم ينقطع ودخل الكلب فأخذ يشم الاناء الذى جاء به الخياط ثم يثب على الخباز ويعود إلى شم الاناء ، فارتاب الخباز ورفع الغطاء عن هذا الاناء برفق . ولست فى حاجة إلى أن أصف مقدار الرعب الذى اعتراه عند ما رأى فيه رأس إنسان يحملق إليه بعينيه ولكن الرجل كان قوى الأعصاب فلم يتركه يسقط من يده كأكثر الناس فى مثل هذه الحالة بل وضعه كما كان ونادى ابنه وقال : « إن الدنيا سيئة يا محمود وفيها كثيرون سيئون . لقد أرسل إلينا بعض الكفار رأس إنسان لنشويه ولكن بحمد الله لم نقع فى هذه الخطيئة ولا نزال نستطيع العمل فى هذا الفرن ونحن مرتاحو الضمير . ولكن إذا عرف أنه كان عندنا رأس لنشويه فمن الذى يرسل إلينا خبزه بعد ذلك ؟ إننى أخشى إن يشتهر هذا الخبر فنموت جوعاً لأن الناس سيقولون إننا تعودنا طبخ الرؤوس الآدمية؛ وإذا اتفق أن وجد فى رغيف شعرة فانهم سيقولون إنها من لحية إنسان »

وكان محمود شاباً يبلغ العشرين من العمر وقد أخذ عن أبيه الهدوء وسلامة الأعصاب وزاد عنه أنه كان ذكياً ميالا للفكاهة ؛ وبدلا من أن ينزعج من هذا الحادث عده فكاهة عظيمة وضحك ضحكة عالية من الأسنان البارزة والعينين المحملقتين فى الرأس الموضوع فى « الحلة » وقال : « تعال نخبأ هذا الرأس فى حانوت « خير على » الحلاق الذى أمامنا عند ما يفتحه الآن . إننى أستطيع أن أفعل ذلك دون أن يرانى أى إنسان فأذن لى بذلك قبل أن ينتشر النور »

وافقه الأب فسار بخفة الطائر ووضع الرأس على كرسى الحلاقة كأنه رأس أحد « الزبائن » وعاد ابن الخباز إلى مخبزه لينظر ماذا يفعل الحلاق الضعيف البصر بهذا الرأس عند ما يراه

وكان «خير على» فى ذلك الوقت يكنس الطريق فلما عاد إلى حانوته الضيق المظلم أخذ يدور فيه لمسح المرآة والكراسى فوقع نظره فجأة على هذا الرأس وظن أن أحد زبائنه جاء ليحلق فقال : « السلام عليكم ياأخى . لا تؤاخذنى لأنى لم أرك ساعة حضرت وقد جئت مبكراً جداً ومع ذلك فأرى رأسك

محلوقاً وأراك قد نزعت عمامتك قبل أن آتي ، ألا تخاف أن تصاب بالبرد ؟ »

ثم سكت لحظة وعاد فقال : « يظهر أن صاحبنا أصم فانه لم يجبني بحرف ومع أنني نصف أعمى فاني سأحلق له »

ثم أخذ طسته النحاسي وأعد الصابون والموسى ومشى نحو الرأس والطست في يد والموسى في اليد الأخرى ، ولم يكد يضع يده على ذلك الرأس البارد حتى عاد بحركة عصبية كأنما لمست يداه النار وقال : « ما شأنك يا أخي ؟ إن جسمك بارد كأنه قطعة من الثلج »

ولكنه لما مسه للمرة الثانية سقط الرأس على الأرض فوثب الحلاق المسكين صائحاً : « أمان ! أمان ! إذا كنت أنت الشيطان فخذ حانوتي وما فيه ودع لي حياتي وأعفني من الحلاقة لك »

ولكن مضت لحظات لم يحدث فيها حادث فاعتقد أن الشيطان لا يد له في هذا الأمر . ودنا من الرأس فرفعه من شعره وقال : « ما الذي جاء بك إلى هذا المكان ؟ هل تريد أن تفضحني ؟ إنني نصف أعمى ، ولكنني أعرف ما ينبغي عليّ أن أفعله . إنني سأذهب بك إلى حيث لا تضرين أحداً لجاري اليوناني « يني الكبابجي » يفرح بك ليصنع منك « كباباً » لزبائنه الكفار »

ثم أخذ الرأس مغطى بمنديل في يد والفليون في اليد الأخرى ومشى إلى مطعم جاره اليوناني ووضعه في ركن منه دون أن يراه أحد لأن الصباح كان لا يزال في أوائله وأصحاب الحوانيت لا يزالون يستعدون ولما يبدأوا أعمالهم

ثم أشعل غليونه من موقد يني وجعل ذلك علة لزيارة حانوته إذا ما رآه أحد ولعله خشي ألا يكون هذا السبب كافياً فناداه وأمره بأن يرسل إليه طبقاً من الشواء ليفطر به

وبعد أن أوقد يني النار وجد وهو يكنس الحانوت ذلك الرأس وكان يني يونانياً أصيلا كثير المكر قوي الحذر عليما بضروب الخداع والمخاتلة يتملق من هم أعلى منه ويظلم من هم دونه . وكان يكره العثمانيين كراهية المقت ولكنه مع ذلك يتملق أصغرهم قدراً وأضألهم منزلة

ولما أمسك بذلك الرأس بين يديه عرف أنه رأس رجل مسلم فقال : « ليتني أجد كل رؤوس المسلمين مثل هذه الرأس فأصنع منها أحسن شواء في الوجود . ليته لا يبقى في الآستانة رجل على قيد الحياة . وليت النسور تتغذى بأجسامهم وليت كل يوناني يصادفه من حسن الحظ مثل الذي صادفني اليوم »

ثم ألقى بالرأس وركله برجله ولكنه عاد فتذكر ورفعه في الحال وقال : « لو وجد هذا الرأس هنا لوقعت النكبة على رأسي لأن كل الناس لن يعتقدوا إلا أنني قتلت تركياً » ووقف مدة طويلة عالج فيها أشد ضرب من الحيرة وقال في نفسه : « لقد تذكرت ! إن الحي اليهودي خير مكان لهذا الرأس فان اليهود هم الذين يعرفون وحدهم ما الذي ينبغي عمله بهذه الرؤوس »

ثم وضع الرأس تحت ثوبه ومشى إلى الحي اليهودي فوجد على بابه جسم رجل يهودي مقطوعاً رأسه وموضوعاً بين رجليه وقد جرت العادة في تركيا عند مايقطع رأس رجل مسلم أن يوضع الرأس تحت ذراعه تكريماً له . أما اليهود والنصارى فتوضع

رؤوسهم بعد قطعها بين أرجلهم تحقيراً لهم

ولما كان الطريق خالياً فقد أسرع بنى فوضع رأس المسلم تحت ذراع اليهودي وعاد مسرعاً إلى حانوته

أما قصة اليهودي المقتول فانه اتهم باختطاف ولد مسلم وهذه تهمة توجه كثيراً إلى اليهود فى تركيا وفى إيران، وقد عوقب اليهودي بالقتل وبأن تترك جثته فى الطريق ثلاثة أيام. ولم يجرؤ أحد من اليهود أو اليونان المقيمين بالقرب من هذا الحى على الدنو منها، فظلوا منتظرين أن يأمر الحاكم المسلم بدفنها أو باحراقها أو بأن يفعل بها ما يشاء. ومن أجل ذلك تمكن بنى من أداء مهمته التى تقدم ذكرها دون أن يراه أحد

ولكن لما اعتلى ضوء النهار شاع أن اليهود قتلوا رجلا مسلماً ووضعوا رأسه مع رأس اليهودى انتقاماً، وشاعت إشاعات أخرى متناقضة، وازدحم الناس حول الجثة. وقيل إن الله أظهر معجزة إذ ظهر لليهودي رأسان، وقيل إنه كان مسلماً فى السر ويهودياً فى العلانية وإنه كان بريئاً من التهمة التى وجهت إليه ولذلك ظهرت هذه المعجزة

ولكن اليهود كانوا فى أشد الحيرة والارتباك لوقوع هذا الحادث، وكان رؤساؤهم الدينيون يروحون ويغدون أمام هذه الجثة ويعقدون جلسات للبحث فيما يدفع عنهم شر هذه النكبة

وبينما كان الناس يشاهدون هذا المنظر المنكر ويردد كل منهم ما سمعه من الاشاعات إذ صاح أحد الجنود : « هذا الرأس هو رأس قائدنا فلان رحمه الله . فتعرف عليه سائر الجنود وعرفوه، وهاج غضبهم، وسرعان ما اتصل الخبر بكل جنود الفرقة لأنهم لم يكونوا يعلمون أن قائدهم الذى يحبونه قد مات . وشاعت بينهم إشاعات مختلفة عن سبب ذلك ولكن كلهم جميعاً كانت متفقة على أن هذه الاهانة التى لحقت بهم لا يمحوها غير الدم، وقيل إن الوزير هو الذى قتله وأتى برأسه فى هذا المكان لتقع الشبهة على الجنود. وقيل إن أحد السفراء الأجانب هو الذى فعل ذلك . وأقسم الجنود برأس عثمان وبسيف عمر أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل أياً كان

وقبل أن نصف النتائج نوجه نظر القارئ إلى الحالة التى كان عليها اليهود فى ذلك الوقت وإلى محاولتهم الاختفاء والفرار من غضب الأتراك، ونوجهه كذلك إلى منظر الجنود التركية وهى تسير مسلحة فى الطرقات مقسمة أغلظ الايمان أن تنتقم باحثة عمن تصب فوق رأسه جام الانتقام. ولكى نتصور هذا المنظر يجب أن نعرف أن المدينة كانت على ازدحامها الشديد ضيقة الطرقات وكان أهلها جميعاً لا يتكلمون فى حديث غير هذا ولا يهتمون بشىء سواه وكلهم يتوقع حدوث نكبة لا تخطر لأحد ببال

فى نفس الليلة التى دعى فيها الخياط إلى قصر السلطان صدر أمر سرى بقتل قائد الفرسان وقد كان ينسب إليه أنه رأس حركة التمرد التى قامت أخيراً بين الجنود

ولما كان السلطان شديد الغيظ من هذا القائد فقد أمر بأن يعرض عليه الرأس ساعة قطعه فجاء به الجلاد إلى الغرفة فى الساعة التى كان فيها الخياط جالساً على الكرسي الذهبي ينتظر الثوب الذى سيخيط مثله ولأن الغرفة لم تكن مضاءة بالنور الكافى ولأن الجلاد وغيره من الحاشية كانوا يخشون من النظر إلى وجه السلطان — فقد وضع الرأس ملفوفاً

تحت قدمى الخياط على اعتبار أنه السلطان . ثم أخطأ الخصى فوضعه فى السلة بدلا من الهدية التى كان يجب تقديمها وقدمت تلك الهدية إلى السلطان بدلا من رأس القائد

لما عرف السلطان أن الهدية هى التى قدمت إليه بدلا من الرأس كان الخصى والخياط فى طريقهما إلى الحانوت

غضب السلطان وانتظر عودة المنصورى فلما عاد أمره بالذهاب فى الحال ليأتى بالرأس الذى أخذه الخياط وتوعده بالموت إذا لم يعد به ، فذهب وهو يكاد يجن لأنه يعرف حانوت الخياط ولكنه لا يعرف منزله . وأخذ يدور فى الطرقات لعله يرى رجلا فيسأله عنه ومضت ساعة قبل أن يتذكر قول الخياط إنه مؤذن فى المسجد الصغير فى سوق السمك

فلما تذكر هذه الكلمة جري مسرعاً إلى ذلك المسجد وكان قد اقترب وقت الأذان فانتظر وهو مفقود الصبر تحت باب المسجد . ولم يمض وقت طويل حتى رأى رجلا يقبل نحو المسجد فظن أنه الخياط ، وبعد دقائق تبين أنه لم يكن مخطئاً فى ظنه

ولما وقع نظر الخياط على المنصورى ترك الواجب الدينى الذى جاء ليؤديه فى المسجد وهو الأذان وجري كالمجنون راغباً فى الفرار . ولكن المنصورى أدركه واستوقفه برفق أطمع الخياط فقال : « هل أنت إنسان ؟ كيف تعامل مسكيناً مثلى هذه المعاملة ماالذى أسأنك به حتى تعطينى رأس رجل مقتول ؟ »

قال المنصورى : « تمهل أيها الصديق فانى لم أرد بك سوءاً وإنما وقعت غلطة يراد الآن إصلاحها »

فقال الخياط وهو يرتعش : غلطة ؟ تقول غلطة ؟ أتضحك على ذقن بيضاء مثل ذقنى وتفهمنى أننى آت لأخيط ثوباً ثم تعطينى رأس رجل مقتول ؟ إن البيت الذى قدتنى إليه بيت جماعة من اللصوص السفاكى الدماء »

فوضع الخصى يده على فم الخياط وقال : « اسكت فانك لا تعرف عمن تتكلم »

قال الخياط : « أياً كان هذا الذى تتكلم عنه فانه كلب كافر يستحق اللعنة »

فقال الخصى : « أهكذا تتكلم عن ظل الله على الأرض يا أحمق ؟ قل لى ماذا فعلت برأس القتيل ! هاته وإلا قطعت رأسك بدلا منه »

لما علم الخياط حقيقة الأمر فتح فاه كالأبله وقال : « أمان ! أمان ! لم أكن أعرف هذه الحقيقة تعال معى إلى المنزل فأنت تسعدنى بتشريفه وترفع رأسى إلى السماء »

فقال المنصورى : « لا أستطيع التأخر فالأمر يدعو إلى شدة الاستعجال فقل لى أين رأس قائد الفرسان »

وكان الخياط يسمع هذا اللقب ويذكر ما فعلته زوجته فاصطكت أسنانه واضطربت ركبتاه وقال : « ما أوقعنى فى ذلك غير القسمة وليس للانسان أى مهرب منها »

ثم سكت . وانتظر الخصى كى ينطق بشىء فلما لم يفعل . قال الخصى :

— « هل أحرقته ؟ »

— « كلا »

— « هل رميته فى البحر ؟ »

— « كلا »

— « إذن فأستحلفك باسم النبى أن تخبرنى

ماذا فعلت به ؟ هل أكلته ؟ »

— « كلا »

— « هل هو موجود الآن فى منزلك ؟ »

— « كلا »

— « هل هو مخبوء فى بيت آخر ؟

— « كلا »

فاشتد غضب الخصى وأمسك بلحية الخياط وصاح : « إذن فأخبرنى ما الذى فعلت به ؟ »

فقال الخياط وهو يكاد يختنق لاحتباس الدموع فى صدره : « إنه فى الفرن — إن الفران يشويه الآن »

دهش الخصى وقال : يشويه ! لماذا ؟ هل تريد أن تأكله ؟ »

فقال الخياط : « كلا ولقد أخبرتك بالحقيقة فماذا تريد ؟ إنه الآن فى الفرن والفران يشويه »

ثم أخبره بالأمر على حقيقته

فقال المنصورى : « أرنى حانوت الخباز . من الذى يظن أن رأس قائد الفرسان يرسل إلى الفرن ليشوي ؟ لا إله إلا الله »

ومشى الرجلان إلى حانوت الخباز وكان إذ ذاك يخرج الخبز ناضجاً من الموقد، ولما علم غرضهما لم يتردد فى إخبارهما بالحقيقة . وذهب الثلاثة (المنصورى والخياط والخباز) إلى حانوت الحلاق فسألوه عما فعل برأس القتيل فتردد مدة ثم أقسم أنه كان يظن الأمر حيلة من إبليس وأن ذلك برر ما فعله من تركها فى مطعم اليونانى الكافر الذى لا بد أن يكون قدمها لاخوانه الكفار فى جملة ما قدمه إليهم من الشواء

فاستعاذ الثلاثة بالله من غضبه وضموا إليهم الحلاق ومشوا إلى مطعم ينى اليونانى

انزعج المسكين عند ما رأى أربعة من المسلمين يدخلون حانوته فى وقت واحد وشعر بأن حاجتهم ليست إلى الطعام بل إلى أمر آخر . ولما سألوه عن رأس القتيل أنكر أنه رآه أو علم شيئاً عنه فأراه الحلاق الركن الذى تركه فيه

وأقسم بالقرآن أنه صادق وتولى المنصورى مهمة المحقق فى القضية

وفى هـذا الحين سمع الخصي ما كان الناس يتحدثون به من وجود رأس ثان لجثة اليهودى القتيل . وسمع من جهة أخرى أن الفرسان هائجون فى المدينة وأن لهذا الهياج علاقة بوجود الرأس الثانى

فذهب مع الخياط والخباز والحلاق إلى المكان الذي فيه جثة اليهودى وهناك وجدوا الجثة التى كانوا يبحثون عنها

وكان ينى اليونانى مستشعراً بما سيصيبه فلم يضيع الوقت سدى بل جمع أمواله وهرب من المدينة

ولما رأى الخصى الرأس قال : « أين اليونانى ؟ يجب أن يكون معنا ولنذهب جميعاً إلى السلطان »

فقال الحلاق : « لا بد أنه هرب لأنه هو الذى منح اليهودى رأسه الثانى »

وكان المنصورى يحمل الرأس ولكنه لما رأى كثرة الجنود حوله ووجدهم يقسمون أن ينتقموا من المسئول أياً كان أحجم عن ذلك وأخذ شهوده معه وذهب إلى السلطان . ولما أخبر المنصورى السلطان عما حدث اضطرب السلطان لأن الحركة التى بدت من الجنود قد يتسع نطاقها فيصبح من المستحيل إخمادها وقد يؤدى ذلك إلى خلعه أو قتله

فظل مدة طويلة فى حالة من الشك وأخذ يفتل شاربيه ويكرر بصوت خافت لفظة : « الله ! » ثم

أمر باستدعاء الصدر الأعظم وشيخ الاسلام وقد انزعج الرجلان عند ما دعيا فى هذه الساعة المبكرة فجاءا وهما يرتجفان ولكن لما أخبرهما السلطان عن سبب استدعائهما عاد إليهما الهدوء والاطمئنان

وبعد أن تداولا مدة قررا أن يحال الخياط والخباز والحلاق إلى المحاكمة بتهمة التآمر على حياة القائد وأخذ رأسه ليشوى ويحلق ويصنع منه شواء وأن يطلب الحكم عليهم بدفع الدية . وأصدر شيخ الاسلام أمراًباهدار دم اليونانى لأنه رابع المتآمرين وقدهرب وهو مسيحى لا تقبل منه الدية عن مسلم

وبعد أن تداول السلطان والصدر الأعظم تقرر أن يعين خلف المقتول من الذين يرضى عنهم الجنود وأن يقام مأتم عظيم للقائد المقتول

وقد دفع السلطان للثلاثة المتهمين الدية سراً ندفعوها وعوضهم تعويضاً حسناً عما تسبب لهم من المتاعب . وتمت الجنازة وتعين خلف للقائد وعاد الهدوء إلى المدينة والجنود . وبذلك نفذ كل ما تم الاتفاق عليه إلا قتل اليونانى فانهم لم يعثروا له على أثر »

* * *

هذه هى القصة التى قصها على الدرويش ولكنى اختصرتها خصوصاً فى الجزء الذى أخذ فيه الخصى يروى على السلطان ماعرفه عن أمر الجثة. ولو سردت هذه القصة كما سمعتها من الدرويش لجاءت طويلة جداً يحتاج تدوينها إلى سفر كامل . وفن القصص يقضى بأن تكون القصة مختصرة بقدر الامكان وإلا تفقد إمتاع القارىء بسبب الايجاز

ومن أجل ذلك قال لى الدرويش إنه يستطيع أن يقص هذه القصة فى شهر دون أن ينتهى منها لأن مادتها تتسع لذلك

الفصل السادس والأربعون

حاجى بابا يصير ولياً من أولياء الله

أخيراً سمع ميرزا أبو القاسم ما تناقله الناس عن صلاحى وتقواى فعزم على مقابلتى عند ما يزور القبر الذى أنا لاجىء إليه .

ولقد كنت خائفاً من هذه الزيارة خوفاً شديداً لأنه سيتضح منها جهلى الشديد . وقلت فى نفسى إن زعيما دينياً مثل أبى القاسم لا بد أن يكون على جانب كبير من العلم ولا بد أن يمتحن فيه رجلاً مثلى ذاعت شهرته ولم تتضح بعد حقيقته

ولم أكن أعرف من أمر دينى سوى أن كل من لا يؤمن بالنبى محمد وبابن عمه على فهو من حطب جهنم ، وأنه لن يدخل الجنة غير المسلمين ، وأن فريقاً كبيراً من المسلمين سيدخلون جهنم أيضاً لأنهم فضلوا أبا بكر وعمر وعثمان على الامام على ، وأن الأتراك جميعاً لن يدخلوا الجنة ولكنهم ليسوا نجسين مثل اليهود والنصارى

وكنت أعلم أيضاً أنه لا يجوز شرب الخمر ولا أكل الخنزير وأنه يجب أن يصلى المرء خمس مرات فى اليوم ويجب أن يتوضأ قبل كل صلاة

ومنذ اللحظة التى سمعت فيها بأن ميرزا أبا القاسم سيزورنى ، أخذت أستعيد فى ذهنى ما تعلمته من أمور الدين شأن الطالب الذى قرب وقت امتحانه

وبينما أنا كذلك إذ أقبل على صاحبى الدرويش وأخبرته عن سبب اشتغالى فنظر إلى وقال : « هل عشت فى الدنيا هذا العمر ولم تعرف إلى الآن أنه لا يمكن أداء أى عمل إلا بالوقاحة ؟ هل نسيت القصص التى كنت أرويها لك مع صاحبى الدرويش صفر فى مشهد ؟ »

قلت له : « إنني لم أنس حرفاً مما قلتموه لأني جلدت في ذلك المهد وليس في الدنيا شيء يقوى الدا كرة ويشحذ الدهن مثل عصا الجلاد . ولكنني الآن لست معرضاً لها بل للرجم بالأحجار فقل لي يا درويش ما الذي أفعل ؟ »

فقال : « إذا كنت لا تستطيع أن تتبجح بالعلم وتركن إليه الوقاحة في الجدل فما عليك إلا أن تلزم الصمت فلا تجيب . ومن الذي يستطيع أن يعرف مع صمتك أنك حمار ؟ إنني أكاد أخدع فيك أيضاً إذا أنت لم تتكلم »

قلت : « فليكن ما تشير به يا درويش ... الله كريم »

ثم أطرقت وتذكرت قصة من قصص السعدي ضمنها ذكر ما ينبغي على الدراويش أن يعرفوه فتشجعت وعزمت على اتباع ما أوصي به السعدي في هذه القصة .

ولم تمض إلا مدة وجيزة ثم جاء أبو القاسم ومعه تلاميذه فأقاموا الصلاة في صحن المدفن ولما أحسست بمجيئهم وقفت أصلي في خلوتي؛ ولما انتهت الصلاة خرجت فرأيته جالساً بين تلاميذه فجلست معهم ورأيتهم ينظرون إليه نظرة تقديس فألزمت نفسي أن أنظر إليه تلك النظرة . وبدأ يلقي درسه ونحن جميعاً منصتون إليه . وفي وسط الدرس دعاني إلى الاقتراب من مجلسه والجلوس على طرف سجادته كالخاصة من المقربين إليه ففعلت بعد أن قبلت طرف ثوبه في خضوع ورهبة فقال لي : « مرحباً بك ؟ لقد سمعنا كثيراً عنك وإن شاء الله بارك في خطواتك. زد دنواً مني »

فأجبت على ثنائه علي باستغفار الله من ذنوبي وبطلب رحمته فأطال نظره إلي وسادت فترة صمت عميق ثم قال : أصحيح أنك جئت إلى هذا المكان لا جئاً خشية أن يحل بك العقاب ؟ إنني وأصحابي قد ودعنا الدنيا وودعتنافلا نسألك عن ذلك فضولا، ولكنني أردت أن أعرض عليك خدمتي إن كنت في حاجة إليها لأن رسول الله قال حديثاً شريفاً أوصى فيه المبصر بأن يمد مساعدته إلى الأعمى وأوصى الغني بأن يساعد الفقير »

فتشجعت وقلت قصتي بعد أن حورت فيها حتى حسبني السامعون شهيداً من الشهداء وقال أبو القاسم : « متى كان الأمر كذلك فاني باذن الله سأكون الوسيلة التي ترتفع بها مظلمتك وسيزور الشاه هذا القبر قبل نهاية هذا الشهر وهو لا يرد لي كلمة فسأطلب إليه أن يعفو عنك ويرد العدل معك إلى نصابه »

قلت : « إن تراب قدميك كحل لعيني وإنني مخطئ لا أستحق هذه الرعاية من مقامك المقدس . ولكن الذي تفعله من أجلي يتفق مع رفعتك لا مع اتضاعي ومع طهارتك لا مع خطيئتي »

ويظهر أن أبا القاسم طرب من هذا المدح الذي كانه جزافاً فقال : « كلماتك وقصتك تدلان على أنك واحد منا ياحاجي بابا . والأتقياء يعرف بعضهم بعضاً كما يتعارف طائفة من الكفار يطلقون على أنفسهم اسم « الماسونية »

هنا صاح الطلبة إعجاباً بعلم الزعيم : « الله أكبر لا إله إلا الله » واستمر الزعيم يخاطبني فقال : « من هذا الدرويش الذي معك ؟ لقد سمعت أنه يقول عنك وعن نفسه إنكما جسمان لهما روح واحدة » فلم أعرف بماذا أجيب وترددت بين

الاعتراف بصداقته وبين إنكارها لأنى لم أتبين شعورهم نحوه . ثم قلت بعد تفكير قليل : « إنه رجل فقير وقد سمحت له بالاقامة معى وهو أدى لى خدمة يسيرة فلم أنسها له »

قال أحـد الطلبة الجالسين بجنبي : « لا تنس نفسك فان هؤلاء الدراويش فيهم اللص والوغد ومرتكب كل جريمة »

فقال أبو القاسم وقد وضع يديه على خاصرتيه ، وتلك علامة يعرفها تلاميذه فيه إذا أراد أن يتكلم: « نعم إن هؤلاء الدراويش سواء كانوا من أتباع نور على الشاهى أو من الذهبيين أو من النقشبنديين فانهم جميعاً من المنافقين الذين لا يستحقون غير الموت ، وأكثرهم يصلى بغـير وضوء رياء للناس ويتظاهر بالصيام فى رمضان وهو مفطر . وفيهم من يجاهر بأنه ما دامت العبرة بالقلوب فلا داعى للأمور التعبدية ويكفى المرء إيمانه ، وفيهم من يؤمن بالقرآن ولكنه يكفر بالأحاديث ولا يتبع ما أمر به النبي . وفيهم من يصيح بلفظة الجلالة حتى يخرج الزبد من شدقيه أو يصيح بصوت منكر ويعد ذلك من الدين . ومنهم من ينزع عنه الثياب ويمشى عارياً حافياً ويزعم أن ذلك تعبد لله مع أن النبي والصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك . وأقبح جماعة فيهم الصوفية فانهم أبعد الناس عن رسول الله وإنما بعثه الله إنساناً ليقتدي به الناس فلعنة الله عليهم » فقال تلاميذه : « آمين »

واستمر يقول : لعنة الله على الشيخ العطار وعلى جلال الدين الرومى. فقال تلاميذه : آمين

ونظر إلى تلاميذه ليروا تأثير هذا القول فى نفسى وقد كنت أكثر حذراً منهم فلم يروا على وجهى علامة للاشمئزاز أو الدهشة ولا للسرور أيضاً لأنه لو بدا ذلك لدل على أننى كنت أجهل ما سمعته. وأخذ الشيخ يلعن الصوفية متحمساً حتى خلت أنه لا يتردد فى قتل أحدهم لو كان حاضراً فى هذا المجلس

ولما انتهت خطبة الشيخ استأذنته وتركت مجلسه عائداً إلى خلوتى . ولما قابلت صاحبى الدرويش بعد ذلك أعدت عليه ما سمعته خصوصاً عن الدراويش وقلت له إن الشيخ لا يبعد أن يرجمه

فقال : « إنه وتلاميذه أولى بالرجم لأنهم سفاكو دماء وليس يهمنى شئ من الخلاف بين السنية والصوفية وأهل الشيعة مادمت أقيم الصلوات الخمس؛ ومع ذلك فانى سأترك لهم مدينتهم العامرة بالرياء المجردة من كل شئ سواه ولن أعود إليها طول الحياة »

وإنى لأعترف بأنى لم آسف لما أخبرني به الدرويش من عزمه على ترك المدينة ووددت أن أقدم فأضع عصاه فى يده وجرابه فوق ظهره وأشيعه إلى الباب مودعاً

ولم يطل عهد هذه الأمنية فانه فعل ذلك من تلقاء نفسه فى اليوم التالى تاركا لى الخلوة . وقلت فى نفسى ساعة ذهب : « اذهب لا أرجعك الله من وغد طروب، أنت فى بؤسك أوفر حظاً من الأغنياء مادمت قانعاً بالمسير إلى حيث تحملك قدماك كالذين أراهم أرقاء لألف مطلب يتبعون أتباعهم حرصاً على الجاه »

الفصل السابع والأربعون

الدرويش يسرق حاجى بابا

لم يكن يشغل ذهنى فى ذلك الوقت غير الوغد الذى وعدنى به أبو القاسم بأن يستصدر أمر العفو عني من الشاه . وقلت فى نفسى ما دمت أرجو أن يدافع عنى فلا بد من إرسال هدية إليه حتى يذكرنى

لأن الابن لا يكاد يذكر أباه في هذه البلاد حتى يرسل إليه هدية

وكنت حريصاً على المال القليل الذي جئت به إلى هذا المكان فدفنته بركن قريب من الباب حتى أصير في حاجة إليه فلما ذكرت الهدية ذكرت المال فقمت إلى ذلك الركن لأتفقده . ولا يسأل القارئ عن مقدار دهشتي وجزعي وغضبي لما وجدت المال مفقوداً كله . وكانت اللعنات على رأس الدرويش الذي كان معي في هذه الخلوة لأنه لا يمكن أن تصل إلى هذا المال يد غير يده . ودعوت الله بأن تصير حياته مرة مرارة حزني لأني ما كنت أطمع في شيء أحب إلى من فك أسري . ولكن ذلك أصبح عديم الجدوى بغير المال . وماذا يمكنني أن أفعل إن ردت إليّ حريتي وليس معي قوت يومي سوى أن أصير شحاذاً ؟ واشتد جزعي من الموت جوعاً فذلك من شر ضروب الموت

ولما كان اليأس بطبيعته خير علاج للحزن فقد أنساني يأسي من ضياع حزني على موت زينب، ثم أنساني حزني من الاضطرار إلى لزوم هذا السجن الاختياري ونسيت في النهاية حزني على خسارة المال . وبلغت بي شدة اليأس في النهاية حداً احتقرت معه الحياة حتى أنه لو وصل إلى يدي سم في هذا الحين لما تأخرت عن تناوله

وفي ذلك الوقت زارني الطالب الذي كان قد حذرني من الدرويش فشكوت إليه أمري ووجدت لنفسي فرجاً من بث هذه الشكوى إليه فقال لي : « لا تحزن يا أخي فأنت تعرف أن الله يبتلي الصالحين من عباده ليتبين الصابر من الجزوع فلماذا تترك الجزع يتمكن منك ؟ إن مالك قد ذهب ولكن نفسك لم تزل باقية فاحمد الله لأن الحياة بعد كل شيء ليست بالنعمة الرخيصة »

قلت في نفسي : ما هـذه التعزية الباردة ؟ إنني أعلم أن الحياة ليست بالنعمة الرخيصة ولكن هل ترد هذه المعرفة مالي الذي سلبه الدرويش ؟

وطلبت إلى هذا الصاحب أن يبلغ أمري إلى أبي القاسم ويعتذر إليه عن تأخري في إرسال هدية إليه ، لأن ذلك لم يكن في وسعي ففارقني واعداً إياي بأن ينقل إليه ما سمعه مني

وفي نفس ذلك اليوم علمت أن الشاه وصل إلى مدينة « قم » وفرش المدفن بأفخر السجاجيد بعد أن كنس وغسلت أرضه بالماء ، وكنت في ذلك اليوم على أشد حالات القلق لأن الساعة التي يتقرر فيها مستقبلي قد دنت ، ولأن أمد غيبتي عن طهران قد طال وأصبحت حياتي في هذا المكان مملولة ؛ وكنت أجهل مقدار ما يشعر به الشاه نحوي من البغض؛ وكنت في ساعة أظن أن الشاه لن يكتفي بشيء أقل من قطع رأسي . وكنت في حين آخر أندفع في سبيل الغرور فأرى أن الشاه لا يستطيع أن يأمر بقتلي لأن لي سنداً قوياً من ميرزا أبي القاسم

ولما دخل الشاه هـذا المدفن أظهرت نفسي لحاشيته وسلمت عليهم فردوا سلامي فاطمأن قلبي لذلك كل الاطمئنان . وأخبرني أصحابي بكل ما حدث بالقصر بعد غيابي عنه . وعلى الرغم من أني كنت آليت على نفسي أن أتزهد وألا أعبأ بشيء في الحياة فقد كنت أجـد دوافع الرغبة قوية في نفسي لسماع هذه الأخبار

وأخبروني أن رئيس الجلادين عاد بعد المواقع التي دارت مع الروس وأحضر معه رأس رجل

ورأس امرأة فقبل الشاه منه هذه الهدية ورضى عنه واستتابه عن شرب الخمر

وأخبرونى أن أمر حبى لزينب قد اشتهر وصار حديثاً للناس ، وأن سيدى القديم ميرزا أحمد وجد جفوة من الشاه فاستمر يرسل إليه الهدايا لعله يجد لديه عطفاً ، وأن غضب الشاه لفقدان الجارية الكردية قد قل كثيراً لأن رئيس الجلادين أهدى إليه جارية أخرى وأنه افتتن بها . ووصفها بأنها أجمل جارية رآها من عهد « طاووس » التى كانت تضرب بجمالها الأمثال .

وكان الشاه مقيماً فى خيامه خارج المدينة . ولست أريد وصف استقباله لأنه لم يراع فيه الأبهة التى تراعى فى غير هذا المقام . أما والغرض من هـذا السفر هو زيارة قبر فاطمة الزهراء فقد ظهر الشاه بمظهر التقى الورع الزاهد فى مظاهر الحياة . وكانت سياسته تقضى على الدوام بمسالمة رجال الدين لأنه لم يكن يجهل قوة نفوذهم على أذهان الشعب ، ولم يكن من الغرور بحيث يتصور أن قوة جنوده تستطيع التغلب على الشعب إن ثار

وكان أول شىء فعله عند ما وصل إلى (قم) أن ذهب على قدميه إلى منزل ميرزا أبى القاسم فزاره فيه ومشى كذلك فى طرقات المدينة وأرسل نذوراً كثيرة إلى قبر فاطمة الزهراء

وكان الشاه يوم وصوله إلى المدفن مرتدياً ثياباً سوداء وحوله رجال الدين فى مثل هذه الثياب . وكان مجرداً من كل حلية اعتاد أن يتحلى بها من قبل حتى خنجره

وكان ميرزا أبو القاسم يمشى وراءه بخطوة أو خطوتين . وكان يتكلم والشاه يصغى إليـه . ولما مر من أمامى سجدت وقلت : « أنا فى حماية ملك الملوك سيد العـالم . أنا أطلب الرحمة باسم فاطمة الزهراء » .

فنظر الشاه إلى أبى القاسم وقال : « من هذا ؟

فقال أبو القاسم : « هو لاجىء إلى قبر فاطمة وهو ينتظر أن يعفى عنه وفقاً للمادة التى جرت عليها هذه البلاد مع اللاجئين إلى القبور المقدسة . وهو ونحن جميعاً فداك ياجـلالة الشاه ومهما أمرت فأمرك نافذ »

قال لى الشاه : « من أنت وماذا فعلت حتى لجأت إلى هذا المكان ؟ »

فقلت : « جعلنى الله فداك . أنا كنت مساعداً لرئيس الجلادين واسمى حاجى بابا وقد جعلنى أعدائى مجرماً فى نظر مولاى الشاه . ولكننى فى الحقيقة برىء » ...

فنظر إلى الشاه نظرة طويلة ثم أطرق لحظة وقال : « إذن فأنت حاجى بابا ! سواء كنت أنت المسئول أو رئيس أطباء فان النتيجة واحدة وهى أن كرامة الشاه قد استهين بها »

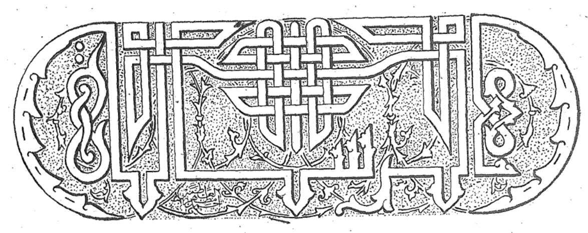
ثم نظر إلى أبى القاسم وقال : « بماذا تشير فى أمر هذا ؟ إن الشاه فقد جارية من جواريه ولها دية يجب أن تؤدى عندنا حتى للروس واليهود فكيف تضيع دية جاريتى بين الطبيب وبين مساعد الجلاد »

قال أبو القاسم : « حكم الشرع فى ذلك أن تدفع الدية إلا إذا نزل عنها ولى الدم وأنت يا مولاى ولى الدم فلك أن تعفو . وأجدر بك وأنت فى مقام الملك أن تقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فتعفو والعفو أفضل »

فقال الشاه : « فليكن كما أشرت » ثم التفت إلى وقال : « لقد عفوت عنك ولكن لا ترنى وجهك بعد الآن . اذهب من هنا »

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشا، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ قرش	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

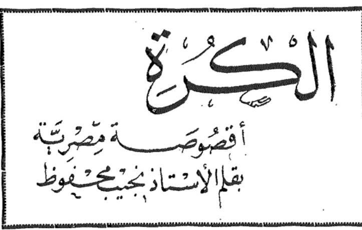
الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥١ — ١٠ المحرم سنة ١٣٥٧ — أول مارس سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد



فى مثل ذلك اليوم يحق الفرح . كيف لا وكان يوم عودة النجل المحروس من أوربا بعد غياب أربع سنين ذهبت فى طلب العلم ؟ ... واحتفلت أسرة الحلبي بالعود الحميد احتفالا جمع أشتاتها المبعثرة فى أحياء القاهرة ، فساهم فيه الأعمام والعمات والأخوال والخالات ، وتبودلت فيه التهانى ودارت أحاديث الأشواق والمنى ... ولكن — علم الله — لم يكن حمدى الحلبي مسرورا ألبتة ، بل لا نغلو إذا قلنا إنه كان غاضباً حنقاً مغيظاً ، لا يرغب فى أن يرى وجهاً من الوجوه التى تحييه بالابتسام والكلام ، ويؤذيه غاية الايذاء أن يضطر إلى مجاملتهم بالحديث تارة وبالضحك تارة أخرى . ولعل التحية الوحيدة التى صدرت عن فؤاده كانت تلك التى حيا بها أمه ، أما أبوه فكان يتمتع بأكبر قسط من سخطه أو كان على الأصح العلة الحقيقية لحنقه وتبرمه ، ولذلك كان يرمقه بنظرات تنطوى على الحقد لم يخف مرماها على الرجل الرزين وإن خفيت عن أعين الحاضرين

ولذلك لم يدم بينهما الوداد — وهو ما يوجبه اللقاء بعد البعاد — طويلا ، وانتهز حمدى فرصة انفراده بوالده فى اليوم الثانى وسأله بلهجة تنم على الحنق والانكار :

« لماذا أجبرتنى على العودة ولما أتم تعليمى ؟ »

فتنهد الرجل حزيناً أسيفاً لأنه لم يسمع هذه اللهجة الوقحة منذ أربع سنين ، ولكنه لم يغضب لأنه كان أعلم الناس بمن يخاطبه ، ولم يرد أن يستحث الصدام ، فتشاغل بالنظر إلى بعض الأوراق الموضوعة على مكتبه ، وضاعف عدم اكتراثه من حنق الشاب فاستطرد يسأله بحدة :

— لماذا أجبرتنى على العودة ؟.. ولماذا هددتني إذا لم أصدع بأمرك بمنع النقود عنى ؟

ولم يجد الرجل بداً من القول ، فقال بهدوء :

— لأنى لا أريد أن تضيع أموالى فى حانات باريس !

فتظاهر الشاب بالدهشة وتساءل :

— ومن قال لك إن أموالك تضيع فى حانات باريس ؟

فحدجه الرجل بنظرة فاحصة وقال :

— جميع الذين سافروا لزيارة معرض باريس هذا العام تشرفوا بمشاهدتك وأنت تراقص الفاجرات وتترنح ثملاً !

فقال حمدى بغضب :

— يؤسفنى أن أقول إن معلوماتك كاذبة !

ولم يغضب الأب لأن الحوادث علمته أن يعامل

ابنه معاملة الأطفال أو المجانين وقنع بأن هز كتفيه استهانة وقال :

— انتهى الأمر وفشلت التجربة

فصاح الشاب به غاضباً مهتاجاً :

— لا تقل فشلت ... إنك تهدم مستقبلي بيديك.

فلم يعبأ الرجل بغضبه وقال بصوت أسيف :

أنت ياحمدى مثال الطيش والنزق ، والحق أنى فى أحيان كثيرة أخالك مجنوناً أو معتوهاً ... أتذكر حياة تلمذتك الأولى المتعبة ؟ ... كنت آنئذ طفلا حدثا ، ولكن ما كنت ترى ليلا إلا فى الحانات ، والمواخير ، وكنت بين أصحابك جواداً كريماً تجود عليهم بما تملك يدك ، أما أهلك الأقربون فكنت لهم سوط عذاب فلم يسلم من أذاك منهم أحد لا إخوتك ولا أمك ولا أبوك ، ومهما يكن فقد نجحت فى البكالوريا بعد مر المحاولات وكانت معجزة لا أدرى كيف حدثت ، ولكنك منيت بفشل قاهر بعد ذلك فى كلية الحقوق حتى تخرج منها أقرانك وأنت ما تزال فى السنة الأولى ، واكتشفت على حين فجأة أن مستقبلك فى فرنسا لا فى مصر ! . وألححت على فى السفر لنيل أجازة الحقوق ، ويعلم الله أنى ما وثقت بوعودك قط ولكننى إزاء محاولتك الانتحار وتضرع والدتك وافقت مغلوباً على أمرى على السفر وقلت لنفسى : فلأجرب هذه المرة أيضاً لعل حسن الحظ يخيب تقديرى ولكن واأسفاه صدق تقديرى وخاب حظى ...

فزاغ بصر الشاب وقال محتجاً :

— أنت تسىء بى الظن هذه المرة بغير وجه حق .

— كلا ياسيدى ، أنا أعلم كل شىء على حقيقته وسأبين ذلك بالدليل القاطع .... إنك سافرت لتلتحق بكلية الحقوق والتحقت بها فعلا فى بادىء الأمر ثم تحولت فجأة إلى كلية الآداب فلماذا فعلت هذا ؟ ... أرجو ألا تسارع إلى تكذيبى فالذى أخبرنا بذلك صديق أخيك همام الدكتور فهيم وهو كما تعلم كان زميلك فى كلية الحقوق وقد عاد هذا العام بعد أن نال الدكتوراه ...! فقل لماذا فعلت هذا ؟

وغلب الشاب على أمره ، وبدت على وجهه الحيرة ، ودل مظهره حيناً على أنه يغالب الضحك ، وقال : « رب إنسان لا يعرف حقيقة ميوله إلا بعد التجربة ، وهذا ما حدث لى بالضبط ، فقد نظمت قصيدة أول عهدى بباريس فى وصف السين نالت إعجاب أصدقائى جميعاً ، فحملنى إعجابهم على التحول إلى كلية الآداب ... فما الذى يغضبك فى هذا ؟ »

فهز الرجل رأسه هازئاً وقال :

— أنت لا يمكن أن تعرف لنفسك ميلا ، لأنك متعدد الميول ، متقلب الأهواء ، هذه هى الحقيقة التى تعلمتها من حياتك الغريبة . ألا تذكر — وأنت طالب ثانوى — أنك كنت صادق النية على الالتحاق بالقسم العلمى ؟ ... وكانت أعز آمالك أن تصير طبيباً فيما بعد .. ولكن حدث أن شممت محامياً يلقى خطاباً فى مجتمع عام فتغيرت آمالك دفعة واحدة والتحقت بالقسم الأدبى وأبيت إلا أن تصير محامياً ...

ومع ذلك فهذا لا يمنيني كثيراً بقدر ما يمنيني أن تنجح في أي فرع من فروع الحياة ... فلم لم تثابر على دراسة الآداب ما دمت اكتشفت في باطنك شاعرية مجيدة . . . ؟

فقال الشاب بحماس مصطنع :

— إني أثابر يا أبي ... ولولا أنك قطعت عليّ طريق ...

ولكنه قاطعه قائلا :

— كلا ... كلا ... لقد ثبت لدي أنك انقطعت انقطاعاً كلياً عن الجامعة منذ عام أو أكثر ...

فقال بحدة :

— هذا كذب ...

— بل هذا ما قاله لي جميع من أوصيتهم بالاستعلام عنك من زائري معرض باريس ، وهو ما يؤكده الدكتور فهيم وإن شئت واجهتك به ... لقد فشلت التجربة الأخيرة ...

وكانت المسألة بالنسبة إلى الأب لا تعني سوى فشل تجربة نهائية ، أما بالنسبة إلى حمدي فكانت مسألة حياة أو موت ، أو هكذا صورها له خياله الجنون . ولم يكن الذي ينزع بنفسه إلى باريس أنه ودع بها آمالاً محفوفة بالمخاطر ، أو مستقبلاً يرجو أن يتعهده بالجد والمثابرة . ولكن الحق أنه ترك بها قلبه المفتون ، وحبه المضطرم ، وجنته المفقودة ، ودنيا أحلامه ، ومرتع جنونه ؛ حتى لكأنه ترك بها عالماً طليقاً لا يخضع لقانون طبيعي أو تقليد إنساني ...

وحمدي هذا إنسان غريب ، وربما أدى تعريفه خير أداء أن نقول إنه جهاز عصبي حساس تتحكم فيه غرائز وعواطف طليقة من أي عقل أو إرادة . أو أن نقول — إذا أردنا أن نرضي علماء النفس — إن عاطفته تسخر عقله وإرادته ، ولكأنه عربة ينطلق بها جواد جامح ومقعد السائق منها خال ، فهو دائماً منفعل ومتأثر إما لحزن أو لفرح كيفما تهب الرياح ، ولن تظفر في حياته بنظام مما يوصي به العقل ، أو بعمل أو إنتاج مما تحدثه الارادة ؛ وإنما تزدحم العواطف والأحاسيس في وجدانه كما تزدحم الأخيلة الشاردة في رأس الحالم دون أن تترك أدنى أثر ، ومن هنا جاء تناقضه وتقلبه اللذان جعلا منه مخلوقاً مضحكا يستدر الرثاء في كل حين ، فكان يتوهج انتباهه أحياناً عن ذكاء وقاد تخاله نبوغاً وموهبة ، ثم لا يلبث أن ينطفئ شعاعه ويظلم نوره فتظنه عتهاً وبلاهة ، وكان يندفع في أوقات كثيرة إلى العمل بهمة تبشر بالنجاح وسرعان ما ينقلب قبيل موعد الامتحان مزعزع الثقة مفرق العزيمة فيفر من صرامة الواقع إلى لذة الأحلام في الحانات ومواطن الريب ، وربما بلغت به الحماسة حد الثورة والتمرد ، فيقود المظاهرات ، ويرمي رجال البوليس بالحجارة ، ويحطم المصابيح وعربات الترام فيعد بحق من زعماء الطلبة ، ولكن إذا حدثته عن ثورته بعد يوم أو يومين هزئ بك وبنفسه وبمبادئ الوطنية والأخلاق جميعاً ؛ ومن هنا أيضاً تعددت مشروعاته وتنوعت مقترحاته وتوزعته الأحلام ، فتارة

يمد المدة لانشاء ناد رياضى كبير ، وتارة يعمل فكره لاخراج مجلة أسبوعية ، وثالثة يدعو إلى تكوين جمعية لتهذيب الأخلاق أو تشجيع التجارة الوطنية ، وربما خطا الخطوات الأولى لتأليف كتاب أو كتابة مقالة ، ولكنه لا يثابر على شيء ولا يثبت على حال

على أنه كان شخصاً محبوباً ، يتمناه عارفوه ويعشقون محضره لخفة روحه وحضور نكتته وغرابة أطواره ولكنه كان مع أصدقائه كما هو فى حياته مثال التقلب والجنون ، فقد يلازمهم أياماً وأسابيع ثم يهجرهم هجراً طويلا بلا أسف كأنه يمدهم بعض لذاته أو أهوائه أو مشروعاته ، ولكن ندر أن يجد عليه صديق لأنه فى رأيهم جميعاً الطفل الطائش الذي لاتثريب عليه مهما قال أو فعل ، ولأنه الانسان الطيب الذى لا يعلق بقلبه مكر أو خبث أو سوء نية ، ومع هذه الطيبة البالغة والظرف النادر فقد حاول الانتحار مرة وضرب أباه بالكرسى فى مرة أخرى

وبهذه النفس الغريبة سافر إلى باريس طلباً للعلم الذى يئس منه فى القاهرة ! وكان جاداً فيما اعتزم لأنه كان يود لو يختم حياته الدراسية ختاماً مشرفاً ، والتحق بكلية الحقوق بديجون وهو يتوقد حماسة ونشاطاً ، وزار باريس يوماً وشاهد السين فهاجت قريحته ونظم أبياتاً شعرية فى وصفه كانت أول ما نظم فى حياته من شعر ، وما كانت صادقة الوزن ولا ذات جمال أو رواء ولكن أثنى عليها — لملة — جميع من سمعها من أقرانه ، وأطربه الثناء أيما طرب وسأل نفسه فى حيرة ألا يجوز أن يكون شاعراً بالفطرة ؟ ثم أجاب نفسه قائلا : بلى إنه لشاعر وإن مستقبله الحق لفى الأدب والفن لا فى القانون.

وتحول بلا أدنى تردد إلى كلية الآداب بالسربون وانتقل من ديجون إلى باريس ! وأقبل على دراسته الجديدة بمثل ما أقبل على دراسته الأولى من الحماسة والعزم واستمع إلى المحاضرات بشغف عجيب ، وما زال مثابراً مجتهداً حتى اليوم السعيد الذي التقى فيه بمرجريت ، الفتاة الريفية الحسناء ، التى جاءت باريس لزيارة أختها . فكان حب ، لأن عادته المستبدة أن يحب كل امرأة يلقاها فى طريقه ولكنه كان على أية حال أول غرام له فى باريس فكان له فى قلبه لحن جيل جديد ، واستبقى الفتاة فى باريس ، وعاشرها على شريعة الهوى وسنة الطبيعة ونسى بها الدنيا والدين والشعر والآمال وأخذت حياة باريس تنعكس على روحه — خلل عينى مرجريت الساجيتين — جنوناً وفتوناً وهياماً وإباحية. ولما كانت الفتاة فقيرة بائسة فقد آمن بالشيوعية ولم يحاول قط فهمها أودراستها ولكنها استقرت فى قلبه ثورة على الأغنياء — ناسياً أو متناسياً أنه واحد منهم — وكفرا بالله وبرسله وازدراء للأخلاق والفضائل . واستسلم للغرام بين أحضان حبيبته وعاش حالماً كافراً مجنوناً حتى بعثه أبوه برسالة حازمة خيره فيها بين العودة حالا إلى مصر أو الموت جوعاً فى باريس ، وجن جنونه وثار وغضب ولعن وهدد وتوعد ، ولكن شيئاً من هـذا لم يجده نفعاً . واضطر فى النهاية إلى

هجر عشه السعيد وهو يمنى نفسه وحبيبته بعود قريب ... ووجد نفسه أخيراً فى القاهرة وفى البيت القديم الذى رأى فيه الدنيا أول ما رأى . وعاد إلى جو التقاليد والدين والهدوء واستقر فى المملكة الصغيرة التى يتولاها أبوه ويحكم . . . وأحس بضيق وسقم .. كيف يرضى بالقاهرة بعد باريس .. كيف يطمئن إلي الظلام بعد النور ؟ ... كيف يخلو إلى برودة الوحشة بعد حرارة الحب ؟ .. كيف يروض نفسه على الظلم والدين والتقاليد بعد أن ذاق جنون الحرية والالحاد والاباحية ... ؟

وها هوذا والده يعرف الحقيقة من أفواه العيون التى بثها حوله فى باريس ويصر على أن التجربة فشلت ، ويقسم ألا عودة إلي فرنسا بعد اليوم . . . فما العمل ؟ ... هل يتناسى مرجريت ؟ ... هذا مستحيل ، بل هذا جور لن يسكت عليه أبداً

ولاح له أن يدعوها إلى مصر ، وفعلا كتب إليها يقترح عليها الحضور ، ووافقت الفتاة ولكن برز لها عائق من ناحية السلطات التى أبت عليها دخول مصر ولجأ فى يأسه إلى آخر وسيلة فأراد أن يعقد عليها ولكن ذلك لم ينفعه شيئاً ونصح له رئيس (قلم الباسابورتات) بالعدول عن نيته وسوأها له ...

وسقط فى شرك القنوط وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد سوى والده ، لماذا لا يعيد عليه الكرة ؟ عسى أن يلين له بعد شدة ويرضخ بعد عناء ، وفاتحه فى مسألته مرة أخري وتضرع إليه وتوسل ووعده ومناه ،

ولكن الرجل كان ثابتاً كالجبل ، قاسياً كالصخرة ، وقال له بحزم :

— لا تعد إلى هذا الحديث مرة أخرى !

وانفجر حمدى غاضباً وتلبسته حالة جنون غير غريبة عنه وصاح بأبيه :

— لماذا تعترض سبيل نجاحى بقسوتك ؟ ... لماذا تريد أن تستذلنى لارادتك العمياء ؟ .. أنا أعلم بالسبب الذي يجعلك تستهين بآمالى ومستقبلى . . . هو حرصك المقيت على مالك الذى لا يعد ولا يحصى .. أنت رجل شحيح بخيل يقتل فيك حب المال الأبوة ..

ووجم الوالد وأخذ ، وانتفض قلبه غضباً ولكن لم يبد على وجهه أثر مما يتقد فى نفسه ، وقنع بأن قال بهدوء ساخراً :

— يا لها من فراسة !

— أتسخر منى ؟ . . . يلذ لك أن تهزأ بى فى بأسائى ! .. حسن ، سأعرف كيف أنتقم منك ... سأنتحر ... نعم سأنتحر وسترى ...

فقال الرجل بهدوء غريب :

— افعل ما بدا لك

فنظر إليه بعين محنق مغيظ وقال :

— أيهون عليك موتى من أجل بضعة جنيهات ؟

فقال الرجل :

— نعم ...

هل يعنى الرجل ما يقول ؟ ... هل أشفق منه على اليأس حقاً ؟ .. أما هو فلم يهدد بالانتحار هذه المرة وهو يعنى ما يقول لأن للحياة عنده قيمة جديدة لم تكن لها من قبل . . . كيف لا وفيها مرجريت

الحبيبة ؟ ... ولكن ما بال أبيه يقف حجر عثرة فى سبيل سعادته ؟ ! ... ياله من رجل كريه ! ...

أيجوز أن يحيا شيخ كبير ليشقى بحياته شاب يافع مثله ؟ .. ولم لا يذهب ويخلى السبيل لغيره ؟ .. إنه أب يكره ابنه فينبغي أن يكرهه ابنه كذلك ... هذا هو العدل ...

ولم ينتحر ولم يشرع فى الانتحار ، وقنع بالتسكع فى عماد الدين وبمراسلة مرجريت ، وبانتظار ما يأتى به الغد غير مستسلم كل الاستسلام إلى اليأس .

وفى مرة — وكان انقضى على عوده شهر وأيام — قابل أخاه هام فى عماد الدين وعلم منه أنه ذاهب لصرف صك لوالده بمبلغ خمسمائة جنيه ...

وابتسم حمدي ساخراً وتنهد من قلب مكلوم ... لو عهد إليه الرجل بصرف هذا المبلغ لكشف عنه الكرب فى دقائق معدودات ، ولكنه لا يثق به ولن يثق به أبداً ... خمسمائة جنيه ! ... ياله من مبلغ ... ترى لماذا سحبه الرجل البخيل ؟ ... إن عادته أن يضع فى المصرف لا أن يسحب منه ، فلماذا غير عادته على كبر ... ؟ هل خرف ... ؟ !

وعند المساء عاد إلى البيت ، وكان أبوه فى حجرة مكتبه بالطابق الأول ، غارقاً فى بذلته ومعطفه ، ومكباً على الأوراق المبسوطة أمامه ، فألقى عليه نظرة سريعة وصعد إلى حجرته ... وخلع طربوشه وجلس على حافة فراشه يستريح

لا ريب أن والده تسلم الخمسمائة الجنيه ، وأنها الآن تسكن مكاناً فى حافظته أو فى درج مكتبه ... ذلك الورق الساحر الذى يسيطر على المصائر ويتحكم فى الأقدار ، وتتعلق به آمال الانسانية ، ما أحراه أن يطير به إلى القلب الذى يخفق له على سيف البحر الأقصى ويلج به أبواب جنته المفقودة ومنية أحلامه : باريس ... يا عجباً ... أيجمعه ومفتاح سعادته بيت واحد ... ؟ أتكون سعادته قريبة منه إلى هذا الحد ولا يستطيع لها طلباً ؟ ... ولكن كيف السبيل إليها ؟ ...

وكانت خواطره من قبيل الهذيان ولكنه ألقى سؤاله الأخير بشعور من يعنى ما يقول ، ومن يجد فى الأمر جداً : نعم كيف السبيل إلى الأوراق الساحرة ... ؟

هل يعاود الرجاء والتوسل ؟ ... أم يستعين بوالدته ؟ ... وبدا له اليأس خلف هذين الرأيين فعدل عنهما وهو يتنهد حسرة وألماً ...

لماذا لا يستولى على المال بنفسه ؟ ... ينتظر فى حجرته حتى يصعد أبوه إلى مخدعه ، ويهبط فى حذر إلى حجرة المكتب ويعالج بابها ويفتش أدراجها ، ولكن ما العمل إذا وضع الرجل ماله فى حافظته ؟ تتعقد ولا شك المسألة وتتوافر الصعوبات ولكن لا يستحيل ابتغاء الوسيلة إلى غايته ، إن والده يعلق ثيابه على مشجب قريب من الباب ، فاذا فتح الباب فى سكون استطاع أن يبلغ بيده جيوب البذلة والمعطف وأن يبحث فيها عن ضالته ...

وتحفز لتنفيذ أفكاره فوضع الطربوش على رأسه وأطفأ المصباح ، ولبث ينتظر فى الظلام صعود أبيه

وشاع فى أطرافه الاضطراب والقلق وأنهك رأسه هوس الجزع ، ولكن لم يداخله أدنى تردد لأنه من طبعه إذا اندفع أن يندفع بلا ترو ولا تدبر ، ومضى يبرر نيته لنفسه فيقول ما من بأس فى أن يستولى على بعض مال أبيه ما دام له حق ثابت فى هذا المال ، وما له لا يلجأ إلى الحيلة أو القوة إذا كان أبوه يعترض سبيل سعادته بالقسوة والعدوان ؟! وطال انتظاره فى الظلام ، وجعل يقترب كل دقيقة من الباب ويلصق أذنيه بثقبه يتسمع وينصت ، ثم يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً ...

ثم سمع وقع أقدام آتية من نهاية الردهة الخارجية فأرهف أذنيه وكتم أنفاسه ، هى أقدام والده بلا ريب ، وها هو ذا باب مخدعه يفتح ثم يغلق ، ما بقى إلا الانتظار حيناً ريثما ينام الرجل ، وكانت ضربات قلبه تشتد وتضطرب ، كلما تقدم به الوقت ودنا من تحقيق عزمته الآثمة

وسمع الباب يفتح مرة ثانية ويغلق ، ووصل إلى أذنيه المرهفتين وقع أقدام خفيفة لم يستطع تبين وجهتها ، فقطب جبينه متحيراً . . . ترى هل غادر أبوه الحجرة لحاجة ؟ ... أم هى أقدام غيره ؟ ... ينبغى أن ينتظر وقتاً آخر وإن كان الانتظار قاسياً مرعباً ... ولكنه لن يتردد عن غايته ، سيهبط إلى المكتبة ويفتشها وإذا لم يفز منها بطائل فسيقتحم مخدع أبيه ... ولكن ما عسى أن يفعل إذا تنبه النائم على حركته وهب يدافع عن أعز شىء فى حياته ؟ ينبغى أن يكون صارماً هو الآخر فى الدفاع عن سعادته ... سيقول له : أنا أريد مالاً ولا بد من الحصول على المال فاياك أن تعترض سبيلى ! وإذا تغلب فى الرجل حب المال على حب الحياة فسيكون قاسياً مجرماً ، لقد ضربه مرة بالكرسى فى حالة غضب ولن يحجم عن ضربه مرة أخرى ولو احتاج الأمر إلى صرعه . . . وطال الصمت والسكون ، وجثم سلطان النوم على البيت ، فأدار الأكرة وفتح الباب بهدوء وانسل خارجاً يسير على أطراف أصابعه وبالغ فى الحذر وهو يجتاز بحجرة والده ، وهبط السلم فى تهيب ، فلما أن انتهى إلى الطابق الأول تنفس الصعداء وسار باطمئنان لأن هذا الطابق يخلو فى الليل ، ولما اقترب من باب حجرة المكتب رأى لدهشته النور يشع من أعلى بابها ، فاستولى عليه الانزعاج وهم بالعودة . . . والظاهر أنه أحدث حركة لأنه سمع صوتاً يعرفه حق المعرفة يسأل من داخل الحجرة قائلا بقوة :

— من فى الخارج ؟

فتوقف عن الحركة وخانته حيلته فرد بسرعة :

« أنا حمدى ... » فقال الرجل « تعال .. أدخل .. »

وعض شفته من القهر وتقدم إلى الباب يائساً وفتحه ودخل ، ورأى والده جالسا خلف مكتبه متدثراً بعباءته المصنوعة من وبر الجمل ومخفياً رأسه إلى أذنيه فى (الطاقية) فعلم أن والده قد صعد إلى مخدعه ليغير ثيابه وأنه عاد ثانية ليستأنف عمله إلى هذه الساعة المتأخرة ... كم ذا يتعب المال ذويه ! ..

ونظر إليه الرجل بعينيه الذابلتين وسأله وهو يتثاءب :

— لعلك راجع الآن من السهرة ؟

فقال حمدي باقتضاب :

« نعم ... »

فسأله بلهجة تنم على السخرية :

« سكران كالعادة ...؟ »

فقال :

« كلا ... »

واعتدل الرجل في جلسته وقال بهدوء ورزانة :

« جئت في وقتك يا حمدي ، لأن عندي أخبار تهمك ، وما يهمك يهمني بطبيعة الحال وإن كان ظنك غير هـذا ، اقترب مني واصغ إلي ... أتظن يا حمدي أني أبغضك وأسعى إلى هدم مستقبلك ؟... أو أني أوثر مالي حقاً على حياتك ؟ ... بئس الظن . . . أنت طائش يا حمدي ولا تدري ما ينفعك ولا ما يضرك ، وكنت دائماً مثال الطيش والرعونة .. فأجبرني شذوذك على اليأس منك ، وها أنت ذا ترى أن أخويك اللذين يصغرانك يسيران في طريقهما بنجاح فأحدهما مهندس وسيكون الآخر غداً طبيباً ، وأما أنت ... ماذا أنت ؟ ... لا تدري لنفسك مستقراً ولا مستقبلا ، ومع هذا هل تظن أني نفضت يدي منك ؟ ... قل أن يستطيع ذلك أب مثلي ... والآن فاسمع ... قابلني أمس السنيور دافنس وكيل شركة الجير لبعض الأعمال فانتهزت الفرصة وحدثته عنك وأكدت له إلمامك التام باللغة الفرنسية ورجوت منه أن يلحقك بوظيفة محترمة في الشركة ، ولم يخيب الرجل رجائي ووعدني بتعيينك في وظيفة براتب قدره عشرة جنيهات في البدء ولكنه اشترط على أن أودع تأميناً للشركة بمبلغ خمسمائة جنيه كضمان فوافقت وسحبت من رصيدي المبلغ المطلوب وهو في حافظتي الآن ينتظر موافقتك .. فما رأيك يا بطل ؟.»

رأيه !

كيف يفكر في رأيه الآن ؟ إنه يفكر طويلا ويديم التفكير في الظنون السوداء التي ظنها بالرجل البائس الجالس إلى جانبه ، ويتذكر صنوف الأذى التي بيتها له في الظلام منذ حين قصير .. ثم يذكر ما كان يفعله الرجل — في أثناء ذلك — من أجله

وغمرته نوبة عاطفية من النوبات التي يتعرض لها وجدانه كل يوم عشرين مرة ، ووخزه ضميره وخزاً أليماً ، وغلبه التأثر فأجهش وبكى كالأطفال وانتحب انتحاباً شديداً وهو يخفي وجهه بيديه عن عيني أبيه أو يخفي صورة والده عن عينيه

وابتسم الوالد في حنان ، وربت بيده على كتفه وقال له :

« بس يا رجل ... بس ... أنت طفل بعد كل شيء ... لم تكن يا حمدي شريراً قط ... أنا أعلم ذلك ... بس ... بس ... كفكف دمعك واصعد إلى حجرتك واشبع نوماً لتستعد للكفاح الجديد في ميدان العمل ... هيا يا رجل ... هيا ... »

ولم يستطع أن يقول شيئاً ، ولكنه أمسك بيد أبيه ولثمها بشفتيه المبللتين وغادر المكان ... وارتمى في حجرته على الكنبة في إعياء ، ولم يجد من نفسه رغبة في النوم ، فجمد في جلسته كالتمثال وتاهت نظرة عينيه في أفق بعيد ثم أخذت عواطفه تسكن وثائرته تهدأ ووجدانه يعود إلى حالته الطبيعية ... حتى صار انفعاله ذكرى ...

لقد فتح له أبوه باب الأمل والعمل ، وحاول أن يجدد له حياته ومستقبله ، وسيكون من الغـد

موظفاً في الشركة الايطالية ... فياله من تغير عجيب لم يجر له على بال !

وذكر فى حزن كيف أضاع على نفسه فرصة ذهبية فى فرنسا ، فلو أنه استمر فى دراسة الحقوق لكان يرجى منه الآن محام مقتدر أو وكيل نيابة « قد الدنيا » ولأمكن أن يقف مع أخويه على قدم المساواة !... ومهما يكن من أمره فالواجب أن يشكر الله كثيراً ...

ومرجريت ! .. نعم ومرجريت !

أيها القارىء ، وددت لو أستطيع أن أختم القصة عند هـذه النهاية لأرضى عواطف الخير في قلبك ولـكن أرجو أن تذكر دائماً أن المؤلف الحقيق للقصة هى أعصاب حمدى نفسه ...

لقد ارتجف قلبه لذكر مرجريت، إنه يحبها حباً لم يحبه امرأة من قبل ... وهى تبادله حباً بحب وعطفاً بعطف، ولولا تشددالحكومة لـكانت الآن بين يديه ناعمة البال هانئة الفؤاد فوا أسفاه !

كيف يرميها بخبر توظيفه وإقامته بمصر ؟ . . . وما عسى أن تفعل الحمامة البائسة ؟ . .

ويخيل إليه وهو يفكر فى أمرها أنه يراها رؤية العين بقامتها النحيفة وقدها الرشيق وشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين . وتوهم أنه يسمع صوتها ذا الفنة المطربة ... وذكر جلستها المعززة حيث كانت تقعد على (الديوان) ويستلق هو على ظهره واضعاً رأسه على حجرها ويروحان في مناغاة رقيقة ويدها تعبث بشعره . . . كم هى لطيفة جذابة . . . فكيف يزهد فى هذه السعادة ؟!

وتنهد من الأعماق حزيناً واستسلم لخواطره الفائضة ... وكان كلما أوغل فى التفكير كبرت عليه معرقة الفراق وهاله البعاد ...

وتحول بصره دون أن يدرى ناحية حجرة أبيه ... وتساءل : « ... ما المانع ... ؟! »

واندفع وجدانه في هذا المجرى الجديد بعنف كأنه نهر فائض فتح الخزان لتياره الغاص ... فعاد قلبه يدق بعنف ... وارتجفت أوصاله ... وتحفز مرة أخرى ...

الساعة تدور فى الواحدة بعد منتصف الليل ... وأبوه ملازم لمكتبه كما غادره ... فما المانع ... ؟

المروءة ... والضمير ... والبر ... لا تساوى شيئاً إلى جانب السعادة المنتظرة ...

وانتفض واقفاً وأطفأ المصباح ، وفتح الباب ، وانسل خارجاً ، وسار إلى مخدع والده وفتح الباب بحذر بالغ ودخل ، وفتشت يده بسرعة فى جيوب البذلة حتى عثرت على الحافظة المنتفخة ، وسلب الأوراق الساحرة ثم ردها إلى موضعها وخرج وأغلق الباب ، وقطع الردهة فى خفة ، وانتظر لحظة ينصت السمع عند مبتدأ السلم ، ثم خلع حذاءه ونزل واجتاز الردهة ماراً بحجرة المكتب وهو يكتم أنفاسه ويكاد يتفرق أشتاتاً من الخوف ، ثم وجد نفسه أخيراً فى الطريق الخالى ، فوضع قدميه فى الحذاء على عجل ، وتنفس تنفساً عميقاً يملأ صدره المضطرم بالهواء الرطب البارد ...

وسار فى طريقه بخطى مضطربة لا يلوى على شىء ... ...

نجيب محفوظ

كابتن شانون

والعصابة ذات الرؤوس الحمراء

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

كتب دكتور وطسن مسجل حوادث شرلوك هولمز وأخباره قال :

كان شرلوك هولمز متعباً منهوك القوى بعد أن عدنا من سياحتنا في جنوب فرنسا . إن البعض يطلقون على هذا القسم من فرنسا اسم شاطئ الذهب أو ريڤييرا تدليلا وتجميلا ولكنني لا أحب التبرج في أسماء البلاد . فان البلد المتبرج يعود كالمرأة المدللة كاحدى تلك الراقصات الأندلسيات اللواتي يدققن بأيديهن فوارغ المحار ليحدثن صخباً يصم الأذن . وكان مستر هولمز يسميه أبداً جنوب فرنسا ويلعنه في قلبه وبلسانه . أي نعم ، لأن هذا القسم من العالم لم يحو سوى المغاني والملاهي والمفاسد كملاعب القمار ومعاهد الميسر ، ومجالي الترف ومظاهر الاستمتاع

قلت : عاد مستر هولمز متعباً منهوك القوى . وكذلك مسز وطسن (زوجتي) فقد كاد يجف لبنها فيحرم طفلي العزيز رضاع لبان أمه وهو خير ما يعطى الأطفال في عامهم الأول ، ولكن هولمز قد استعاد نشاطه بسرعة فائقة كعادته . وكان النصر الذي أحرزه على أعداء الوطن بالاستيلاء على خرائط الغدر ووثائق الخيانة قد أنعشه وجدد همته وقواها . وقد بعثت إليه وزارة الشؤون الخارجية بخطاب شكر وثناء وأشادت بوطنيته وعرضت عليه وساماً فاعتذر في رقة وظرف وهو يخاطب شخصاً من أكبر ذوي النفوذ في البلاد

وإن الذي يعرف طبيعة هولمز وفرط حيائه وركونه إلى الخجل والانزواء لا يدهش من نزوله عن حقه في الشهرة وبعد الصيت وكان يقول لي دائماً : « إياك والوقوف بملتقى الأشعة التي تظهرك للناس، فانهم لا يلبثون أن يكشفوك ويعروك فتبدو كما بدا آدم في فردوس النعيم ... »

إنه لرجل عجيب حقاً . كانت المؤامرة من محض ابتكار عدونا الألد وعدو الوطن پروفسور موريارتي هل كان انجليزياً ؟ هل كان إرلندياً ؟ هل كان روسياً ثائراً أم محض فوضوي منتمياً بمذاهبه البغيضة عندنا إلى ذلك الثائر المتفاني باكونين ، أو صديقه كورپوتكين ؟ لقد كانت مذاهب هذين الرجلين لا تزال شائعة في انجلترا والناس عليها جد مقبلين لمجرد جدتها وطرافتها ولاسيما الفقراء منهم والمحاويج والمعوزين . لقد كانت حياتهم لا تطاق ولا سيما في الشتاء . غير أن الذين كانوا يفكرون في غزو انجلترا كانوا أقوياء وأغنياء وكانوا على أتم نظام وأحكمه وأدقه ، حتى بدأوا بتسجيل قوائم بأسماء الذين يميلون إليهم ويتحفزون لتعضيدهم ثم بدأوا يرسمون خطة نادرة المثال ثم وقع اختيارهم على موريارتي . فكان هولمز يقول لي وهو يحتقن بإبرة المورفين . وهو منكر لم أكن أملك أن أدفعه بيدي فاكتفيت بالاشارة دون التصريح :

إن العقل الوحيد الذى لم أستطع أن أهزمه أو أتغلب عليه هو عقل ذلك الرجل القدير . لو كان ينفق بعض قوته فى الخير ، إذن لأفاد العالم . ولكنه جد خبيث ، مخلوق للشر يتلقاه ويلوكه ويمجنه ويتغذى عليه ويعيش به . فقلت له : لقد ألمت يوماً إلى لقاء تم بينكما فكيف كان ذلك . فقال: إنها قصة قديمة . كان موريارتى فى أول مدارج حياته الاجرامية وكنت أنا كذلك لا أزال طالباً بالطب فقرأت يوماً فى الصحف أنباء إلقاء القنابل على المبانى . والاعتداء المنكر على قصر العدل فى دبلين واغتيال لورد كونجريف فى بستان المنقاء (فينيكس بارك) فهالنى الأمر ولكنه لم يسترع انتباهى كثيراً لأننى كنت أرى أنهم على حق فى طلب حريتهم ... ولكننى ما أقررت قط الطرق غير المشروعة ولا الوسائل المباشرة. وقد أبغضت الروس الذين لم يجدوا عملا أجدى عليهم من تقتيل ملوكهم وأمرائهم واغتيال الأعيان والنبلاء بدلا من تثقيف رجالهم ... لا عليك يا وطسن من نظرياتى فاننى لا أحب أن أكثر عليك. شاهد الحديث أننى لمحت يوماً فى الصحف اسم كابتن شانون فقرأت وصفه ورأيت فعلاً صورته . ولا أدرى كيف حصل عليها رجال الشرطة فى سكوتلانديارد ... لقد كان فى خدمتهم رجل شديد الكفاية نافذ الارادة اسمه اشندن . كان عماد قسم المخابرات السرية فى الشدائد والمخاطر . وكان دائب السفر فى الخارج لأنه قابض على خيوط الأسرار الثمينة . فلعله هو الذى نجح فى الحصول على صورته وإن كان فشل فى اقتفاء آثاره لتعدد أسفاره وندرة مايقيم فى لندن، وهى على الأغلب مستقر هذا المجرم الخطير .

ولكن نفسى حدثتنى بأن الشخص الذى لقيه اشندن لا بد أن يكون متنكراً وأن الصورة بلا أدنى ريب مفتعلة ومصطنعة . وإلا فكيف يحدث أنها بعد طبعها ونشرها بالملايين لا يهتدى إلى صاحبها رجل واحد من الخاصة أو العامة أو رجال البوليس . . .

بيد أننى فى أحد الأيام كنت على ظهر مركبة تجرها الجياد فصعد إلى الطابق الأعلى الذى كنت أحتل أحد مقاعده رجل قصير عريض الأكتاف ممتقع الوجه كبير الدماغ كأن رأسه لضخامته واستدارته القبة الشماء على قبر ضئيل . فرشقنى بنظرة حادة كادت تخترقنى ، ولكننى صمدت لنظرته ولم أشعره باهتمامى بمقدمه ، فاطمأن إلى اطمئنان الذئاب والثعالب وجلس بجانبى لأنه لم يكن له مقعد خال غير الذى بجوارى . فأحسست بتيار قوى كالذى ينبعث من أهل الشر والمجرمين وهو يحدث شعور بغضاء ونفور لا يعرف مداها إلا الذى أحسهما ، وكانت السحنة المجاورة لى تشبه الصورة شبهاً شديداً فى عرض الجبين وحدة العينين وضخامة الرأس ، ولكن الرجل كان ملتحياً والصورة تمثله حليقاً وهل من الصعب اصطناع اللحى والشوارب فى وقت أصبحت الشعور المستعارة أبسط ما ينال ويستعمل للتخفى وانتحال الشخصيات . إنما شىء باطن وصوت قوى وجدانى كان ينادينى بأنه هو الرجل الذى تبحث عنه الشرطة وتقتفى أثره سكوتلانديارد بل بريطانيا بأسرها ، ولقد طالما ندمت على أننى لم أقبض عليه

فقلت لهولمز : ولو كان مسلحاً ؟

قال : ولو كان مسلحاً ، فانني أنا أيضاً مسلح بمسدس من الوزن الثقيل وكنت كذلك دائماً لأنني أشعر بأحراس يزيدون على العشرة كلما أحسست مسدسي بيميني، لا عليك

غير أنني خشيت أن أكون مخطئاً . فأصبح سخرية العالم ، ويفر الطير المقصود من قفصه فى الوقت المناسب لفراره ، وبينما كانت هذه الأفكار تجول فى خاطرى ورأسى يغلى كالمرجل والعواطف والانفعالات تتنازعنى وتشدنى يميناً وشمالاً ابتدرنى الوغد بصوت أجش وهو أيضاً مصطنع وقال :

— هل أنت أيها الشاب خال من العمل . إن كنت كذلك، فان لدى عملا يليق بك، وظيفة صريحة كتابة على الآلة من الرابعة إلى السابعة وتشرب الشاى وتأكل الكمك وتقبض ستين شلناً فى نهاية الأسبوع ، ولكن عفواً ، لعلك تعمل فيذهب سؤالى هدراً

فتصنعت البساطة ما أمكننى وقلت :

— محسوبك يا سيدى طالب طب

فابتسم عن أسنان صفراء كالعاج وأنياب محددة كأنياب الضوارى وفم ضخم يسع حدوة فرس وقال:

— إلى السعد ! إلى السعد ! طالب طب ماشاء الله كان . شاب عالم ينتظرك مستقبل عظيم . ولكن يمكنك أن تربح هذه الشلنات الستين فى سهولة إذا لم يعترض وقت دراستك فرصة تدريبك فهيا فكر، وإليك عنوانى واسمى. وأخرج من جيبه محفظة بها بطاقات ، وناولنى واحدة باسمه

مستر هامبشير در فالواليس

تاجر متنقل ووسيط أعمال

هادلورث جاردنز ٨٣ بلا كبورى ستريت

ثم ألقى على نظرة منكرة تنطوى على التهديد والبغضاء والأمل فى القبض على عنق الخنق

وقد شعرت بحماسة شديدة لاقتفاء أثره وتعقب خطواته بدلاً من أن أوافيه إلى بيته الذى قد ينصب لى فيه فخاً . ولم يكن لدى سوى وسيلة واحدة وهى أن أسبق هذا الوغد إلى العنوان الذى حدده فى هادلورث جاردنز ٨٣ بلا كبورى ستريت . ولم أكن بعد قد تمكنت من امتلاك وسائل التخفى والتزيى . غير أن الظروف كانت مواتية فقد وجدت نفسى فى اكسفورد ستريت . أتذكره يا وطسن ؟

قلت لمستر هولمز : كيف لا أعرفه ؟

قال : لو لم يكن يشفع فى تذكرنا إياه إلا وصفه فى كتاب دى كوينسى الخالد لكفانا مذكراً

فقلت : ونذيراً .

فتجهم وجه هولمز ودمدم وتمتم واكفهر جبينه وانبثقت من عينيه أشعة قوية كالشرر الذى يقدح من عينى الفهود والنمرة التى تدافع عن أشبالها وقال : ألم أنبهك إلى أن تقديم النصح فى مثل هذه السن غير جائز . ولعلها عادة تورث الأحقاد عند غيرى ...

وقد أدرك أننى ألمح إلى تعاطى المورفين الذى صار له عادة وكنت أخشى منه على صحته البدنية والعقلية ..

وبعد أن اعتذرت وفسرت لمستر هولمز أن

قصدي ينصب على دى كوينسي مؤلف كتاب ذكريات « مزدرد الأفيون » الذى طالما ناح وأعول فى صفحات كتابه على مارى تلك الفتـاة الحبيبة التى ظهرت كالسراب في صحراء الحياة ، ثم اختفت بسرعة الأشباح لدى اختفائها .

« آه ما أقسى قلبك يا اكسفورد ستريت هل قلبك قدّ من صخر ؟ »

وبعد هنيهة عاد إلى هولمز هدوؤه فقال :

— فى اكسفورد ستريت وجدت نفسي حيال «صالون حلاقة» لدرنيكوتر وشمبرلان وهما من أشهر محترفى صناعة الماكياج فى بريطانيا العظمى وكان لهما صيت ذائع منذ أتقنا إخراج رؤوس الثورة الفرنسية فى رواية الزهرة القرمزية .. وهنا ضحك هولمز وقال :

صحيح أن هذه الرؤوس جميعها سقطت قبل أن يسدل الستار على الفصل الأخير من تلك الرواية ولكن ليس الذنب ذنب درنيكوتر وشمبرلان .. لقد كانت هذه الرؤوس حصاد الجيلوتين . فدفعت باب « الصالون » ورجوت عامل الشمور المصطنعة أن يعطيني شعراً أحمر ولحية شقراء فلبستهما ونقدت العامل ثمن ما أخذت وأسرعت إلى محطة ميتروبوليتان المؤدية إلى محطة كاركنويل جاردنز ومنها يأخذ المسافر سمته إلى هادلورث جاردنز .

وكان فى نيتى أن أسبق الرجل الذى انتحل اسم هامبشير درفالواليس إلى المكان الذى عينه قبل أن يتمكن من نصب فخ .

وكنت بعد أن اتخذت هذه الصورة الجديدة أقدم رجلا وأؤخر أخرى ...

لم يتم هولمز حديثه حتى استأذنت علينا مديرة المنزل وقالت إن سيداً يريد لقاء مستر هولمز . . وإنه لشخص عجيب حقاً فبينا شعره أشقر كأشعة الشمس المحرقة إذا عيناه سوداوان كفحم نيوكاسيل

فقال هولمز : وهل هو ملتح أم حليق ؟

فضربت مسز تيرنر صـدرها بيدها وقالت : أذكرتني يا مستر هولمز ، إن له لحية كشجرة جاى فاوكس !

ثم خرجت وعادت وقد أشخصت رجلاً أشقر تقشعر الأبدان لدى رؤية حمرته ، وترتعد الفرائص من أثر نظرته . فأجلسه مستر هولمز حياله وتشاغل عنه قليلا . وأتم حديثه معى قائلا :

— كنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى خشـية أن يكون مشروعى خياليا ولا أصل إلى غايتى التى تحريت بلوغها وتمنيت النجاح قريناً لها . على الرغم من أنى أتقنت هذا التخفى الذى لم يتقنه أيضاً حضرة المفتش جيمستون الذى شرفنا بزيارته دون أن يحمل إلينا بطاقة بتوصية من رئيسه فرانكفيل

فانتفض ضيفنا ورفع عن رأسه تلك (الطاقية) الشعرية المصطنعة ، وابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— لقد أحسنت يا مستر هولمز . أنا جيمستون من سكوتلانديارد . وقد جئت لأستشيرك فقد ثبت لنا أن المتآمرين الذين يلقون بالقنابل ويدسون الآلات الجهنمية [1] فى المبانى يؤلفون جمعية من ذوى الرؤوس الحمر . فاضطررت أن أتخذ هذه

(١) فى الأصل Infermal machines

الصورة لأتمكن من متابعتهم والاختلاط بهم . ولكننى علمت أنهم غيروا هذا الزى وأن زعيمهم كابتن شانون قد أقسم أن يقضي علينا نحن رجال سكوتلانديارد فرداً فرداً

فنظر هولمز إلي هذا المفتش جيمستون نظرة دهش وقال له : ومن أين لك أن زعيمهم هذا الـكابتن شانون الذى أنذركم بالفناء ؟ إعلم أن كابتن شانون هذا ليس إلا ... ولكن قبل أن أقول لك ، أيمكنك أن تدلنى على عنوان ذلك الرجل أو ما تظنه مقراً له ؟

فاعتدل المفتش جيمس فى مجلسه وقد بدا رجلا عادياً بعد أن خلع غشاء الشعر المصطنع وأخرج من جيبه كناشة صغيرة وقلب فى صفحاتها ثم قال :

— إنه يسكن بيتاً فى هادلورث جاردنز فى بلا كبورى ستريت

فضحك هولمز ونظر إلي وقال :

— يظهر أن كابتن شانون جار عزيز لمستر هامبشير درفالواليس

ولكن كلام هولمز كان بمثابة اللغز يلقى على مسمع من هذا الضابط السليم النية فلم يفطن إلى مقصد هولمز وهو يريد أن يقول إن شانون وهامبشير ليسا سوى اسمين لشخص واحد

وأخيراً نظر إلى المفتش جيمسن وقال له : من الخير أن تعود إلى حالتك الطبيعية مادامت تلك الطغمة قد بدلت من استخفائها وغيرت ، فبقاؤك على هذه الصورة يثير شكوكهم إذا لقيك واحد منهم، خصوصاً بعد أن أنذروكم بالقضاء عليكم . فقال جيمسن :

— الحق بيدك يا مستر هولمز ولكننى لا أملك أن أغير هذا الزى الآن لأنى مقيد فى الديوان بهذا الوصف إلى آخر الأسبوع ولم يبق بيننا وبين نهايته سوى يوم ونصف يوم .

ثم نهض ليستأذن فى الانصراف فقال له هولمز وهو يودعه : قد يكون حتف الفتى فى ساعات معدودة ...

ولكن جيمستون الذى عاد وجهه كالبرتقالة الاسبانية ورأسه كشال عجوز الجنوب ، لشدة صفرتهن الضاربة إلى الحمرة ، لم يفهم هذه الاشارة وسارع إلى الخروج

وبعد برهة قصيرة نهض مستر هولمز وأشار علىّ بمرافقته إلى الطريق فلما بلغنا آخر بيكر ستريت من ناحية الجنوب انحدرنا إلى النفق الأرضى الذى يؤدى إلى محطة بيكرلو ستريت ولما بلغنا آخر النفق ركبنا القطار الذي يصل بنا إلى محطة ترافلجار سكوير . وكان القطار يصل إلى تلك المحطة فى فترة من الزمن لا تزيد على عشرين دقيقة . فلما وصلنا إلى المحطة وجدنا زحاماً شديداً من رجال الشرطة والمستطلعين وخليط المسافرين . وسرعان ما وصل هولمز إلي وسط المعمعة ثم عاد ممتقع الوجه منفعلاً وأخـذ بيدى ليخرجنى من المحطة فلم أجرؤ على سؤاله عما رأى . وسرنا صامتين مسافة ليست بالقصيرة ثم عدنا أدراجنا باشارة من هولمز إلى المـكان الذى كنا فيه فكانت الشرطة تمكنت من تفريق التجمهرين حول الجثة ... نعم كانت جثة . ولم تكن سوى جثة المفتش جيمستون نفسه . نعم جيمستون الذى أنذره هولمز بالموت بأيدى

هذه العصابة الخطرة ذات الرؤوس الحمراء .

فلما دنا مستر هولمز من الجثة رأى أن نصف اللحية الشقراء منزوع عن وجه الرجل وقد دُمغت وجنته بحرفين G. I الجيم والآى . وكان القتيل مطبقاً يده على ورقة بيضاء فتناولها هولمز . وقد أذن له الأحراس ، وهم يعرفون قدره ويعلمون مكانته الرفيعة فى الفن الذى احترفوه حين أنه لا يزال فيه هاوياً .

ثم انحنى مستر هولمز على وجه مفتش الشرطة القتيل وهو ينعم النظر فى الحرفين المنقوشين على وجنته وعند ما حضرت زوجة المقتول وابنته وولده الصغير وأخذ هذا الأخير يقول : دادى[1] ، كنت ألمح دمعة تجول مترددة فى جفون مستر هولمز ولكنها لم تفلت من مآقى هذا الرجل العجيب، وكان أول عمله بعد أن نهض محاولته تعزية تلك الشابة المترملة ومداعبة اليتيم الصغير ، ثم أخذنى جانباً وقال لى : هل حذرت مدلول هذين الحرفين G. I فقلت : أبداً ولعله اسم القاتل أو الجمعية التى تضمه بين أعضائها . فهز هولمز رأسه أسفاً . وإننا لكذلك وإذا بصوت انفجار عظيم لم يسمع مثله من قبل وقد تلته أصوات صفير واستغاثات ودوى وصراخ وأجراس وقد كان هذا الانفجار قريباً منا بحيث خيل إلينا أن محطة الميترو پوليتان التى نحن بها سوف تدك دكا وتزول من الوجود ونحن معها . وقد أصـــاب العمال والجنود والمسافرين الذاهبين والواصلين من الذعر ما لا يمكن وصفه . غير أن هولمز كان الرجل الوحيد الثابت الجأش .

وقد أخذ بيدى بعدأن استولى على الورقة التى كان القتيل مطبقاً يده عليها . وقادنى إلى سرداب يؤدى إلى مصنع صغير ملحق بتلك المحطة وهناك وجدنا العمال فى هرج ومرج فقد وصـــل إليهم أثر الانفجار حتى أن أقداح الشاى التى كانوا ملأوها وأعدوها للشراب حتى اهتزت ثم انقلبت وأفرغت ما فيها . فلم يشعرهم هولمز بشىء من الذعر الذى انتشر على سطح الأرض فى طبقة أعلى من الطبقة التى يعيشون فيها تحت مجرى نهر التيمز بأربعين متراً . غير أنه رجاهم أن يدلونا على أقرب طريق للصعود فقادنا رئيسهم إلى المصعد الكهربائى وكان الأول من نوعه فقد ارتقى بنا فى خمس دقائق إلى ترافلجار سكوير وكان الناس يتجمعون ويتفرقون ويتهامسون تارة وتارة يتبادلون الكلام بأصوات مرتفعة .

فقلت لهولمز : ما بال القوم هكذا

فقال : اشتر لنا صحيفة . فعملت برأيه وعدت بعدد من جريدة « ويلى لايار » . فقال لى هولمز : ألم تعلم تفسير حرفى G. I إنهما رمز لجرين إرين أى إرلاندا الخضراء فالقاتل تابع لجمعية الفوضويين الارلنديين . وهذا المنشور الذى كان القتيل مطبقاً يده عليه فيه بيان للناس . ولكن افتح لنا الجريدة. فاذا فيها :

سلسلة من الاعتداءات

الفاجعة فى عاصمة

الأمبراطورية البريطانية

(١) تدليل للفظ والد عند الانجليز

الايرلنديون ينسفون المبانى

ويعرضون سلامة البلاد للخطر

دخلت البلاد الانجليزية فى الشهرين الأخيرين فى أزمة سياسية لم تقع فى مثلها منذ سنين بل منذ قرون ، فأفضنا كما أفاضت جرائد العالم المتحضر بأخبار المنازعة الهائلة التى يخشى أن تنتهى بحروب داخلية نمنى مشكلة إيرلاندا ورغبتها فى الاستقلال التام

فى تلك اللحظة مر بنا رجل أشقر يسير مسرعاً ويترك وراءه أوراقاً مطبوعة كما لو أنها وقعت منه عفواً دون أن يقصد إلى توزيعها بين الناس فلمعت عينا هولمز وجرى بسرعة الغزال والناس من حوله يتفرقون كأنهم يفسحون له الطريق دون أن يعلموا غايته . فتبعته بنظرى أولا ثم بساق وقدمى حتى كدت أدركه فاذا معركة حامية على باب تشارنج كروس ستيشن أقرب محطات السكة الحديدية إلى ميدان طرف الغار ولم تكن تلك المعركة سوى نزال عنيف بين هولمز والرجل الأشقر الذى كان قد أشهر مسدساً . ولكن هولمز أتى بحركة صراع يابانية من نوع الجيوجيتسو التى كان يتقنها . ونزع سلاح الرجل ثم سلمه يداً بيد إلى نفر من رجال البوليس الذين هرعوا إلى مكان الحادث ، وناول أحد الشرطيين بطاقته وانفتل إلى وقادنى بضع خطوات ثم قفزنا فى عربة من طراز هانسوم كاب ميممين شطر هايد بارك فترجلنا عند ماربل آرش وقال لى هولمز :

يجب علينا أن نبتعد عن منزلنا بضع ساعات فان هذه العصابة قد عرفتنا . وتوجهنا تواً إلى كوين آن ما نشنز ، فدخلنا فى بهو الشاى الذى ينتسب إلى شركة ليونز ثم قدم هولمز إلى ورقة القتيل فاذا بها منشور إيرلندى جاء فيه :

جرين ارين

السواد الأعظم من الشعب الايرلندى سلتى الأصل يرجع نسبه إلى أوائل من توطنوا القارة الأوربية . ونحن وسكان مقاطعة بريتانيا الفرنسية (التى ينتمى إليها إريستيد بريان برمير [1] جمهورية فرنسا) المثلون الباقون لذلك الجيش ، ونحن أصحاب خيال وعصبية وعنجهية وجاهلية . وفينا ميل طبيعى للبطش والحرب .

يدلك أيها القارىء الانجليزى على ذلك أن أعظم القواد فى جيوشكم إرلنديون ومنهم ولنجتون ونلسون وكتشنر وروبرتس وفرنش، وليس أسهل لدينا من أن نفقأ عينى خصمنا لأقل سبب وقد نلنا شهرة من هذا القبيل لا سيما فى الولايات المتحدة حيث نهاجر كل عام زرافات فراراً من الجوع والفقر ، والجوع والفقر هما البليتان اللتان جلبتهما علينا انجلترة الغنية المتنعمة التى يأكل أهلها خمس مرات فى اليوم الواحد فى حين أننا لا نجد قوت وجبة واحدة . إننا فى حالة يرثى لها من الفقر نحن سكان مونستر ولينستر وكونوت ونحن فى غاية البؤس ، وما تاريخ بلادنا منذ فتحها قبل سبعمائة عام سوى ثورات ومذابح متوالية . لقد كان أجدادكم يذبحون أجدادنا ويطردونهم إلى الجبال والقفار ويتملكون أراضيهم ويحلون محلهم أناساً من بنى جنسهم ودينهم . فنحن لا ننسى معركة

(١) رئيس وزارة

بوين التى فاز فيها الملك المغتصب الظالم وبليام أوف أورانج علينا . إن يوم الستر الذى ينعش ذكرى هذه المعركة ينعشنا نحن أيضاً ويدفعنا إلى الانتقام . لقد عانينا من نفاقكم ما عانينا ولم يبق لدينا إلا الانفجار الذى يعقب الضغط فاستعدوا لحرب شعواء فى عقر داركم ، أو اعترفوا بحرية إرلاندا . إن النزاع الهائل القائم اليوم فى لندن لن ينتهى بدون أن ننال ثمرة جهادنا الطويل »

الامضاء

G. I

فدهشت من زكانة هولمز وذكائه وتواضعه ، فانه لم يبتسم ولم يتكلم ولم يفتخر بوصوله إلى هذه الحقيقة قبل أن يصل إليها أى رجل آخر فى عاصمة بريطانيا العظمى

وبعد أن شربنا الشاى نهضنا وقصدنا إلى شارع كنجزواى الذى يتفرع على ريجنت ستريت وسرنا كبعض الناس لا نلفت نظر أحد إلينا غير أننا لم نكد نخطو بضع خطوات حتى سمعنا باعة الصحف ينادون بأرفع الأصوات :

« فرار المجرم فى حادث القنابل المفرقعة بعد القبض عليه . ذهول رجال البوليس . توزيع منشورات مثيرة للخواطر . اقرأ آخر أنباء العصابة الحمراء »

فنظرت إلى هولمز مستفسراً ، فقال لى:

— لقد انتصرنا وانهزم سكوتلانديارد !

محمد لطفى جمعه

انتحار

للكاتب الفرنسي جورج موروفير

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

سان رومانو ! كم هو بلد جميل رائع ! فيه يدرك الانسان المعنى الذى تنطوى عليه كلمات فلوبير : هنالك بقاع فى العالم يود المرء لجمالها وروعتها لو يضمها إلى صدره ضمة الوجد والحنين ... بيد أن سان رومانو وا أسفاه تشبه أيضاً ثمرة لذة فواحة لا يجسر امرؤ على تذوقها مخافة الموت الذى يقطر من عصيرها

ولسوء الحظ لا تستطيع مناظرها الساحرة الخلابة أن تدخل السرور والبهجة على قلوب الناس ففى جنبات المدينة تقابلك الوجوه الذاهلة والملامح اليائسة والعيون الحيرى الآسفة ... وفى كل مكان منها تطالعك كلمات السخط والتبرم : ألا ليتنى وضعت على رقم ١٧ !... آه ! هذا الأحمر الملعون ، لقد كسب عشر مرات متوالية ، وبالرغم من ذلك وضعت على الأسود .

ولم يكن فى البلد كله من يلقى أدنى التفاتة إلى المناظر الساحرة الأخاذة التى تنبث فيه . كانت الأرض عندهم « روليت » ضخمة ، والسماء صفحة كتب عليها أرقام ٣٠ و٤٠ و٥٠

وقد كنت أنا أيضاً ضحية هذا البلد الخطير ؛ إذ خسرت مبلغاً لم يكن جد كبير غير أنه كان كل ما أملك . وأفقت من نوى ذات صباح كيلا أجد معى سوى اثنى عشر فرنكا مع أنى مدين لصاحب المنزل الذى أقيم فيه بخمسة عشر فرنكا ؛ لذلك اختبرت مسدسى فألفيته يزخر بست رصاصات قواتل كانت فى ظنى كافية لتمزيق رأس فارغ كرأسى

وفتحت نافذتى . كان « صباحى الأخير » رائعاً جميلاً فالسماء زرقاء صافية والأمواج خضراء هادئة والنسيم يسبق بشذى زهر البرتقال والبنفسج

وغادرت المنزل إلى الشاطىء لأملأ صدرى المنفعل بهذا النسيم النقى الفواح ... بيد أنى كررت عائداً بعد أن سرت قليلا ، إذ أحسست جوعاً شديداً ، وفى أثناء عودتى ابتعت صحيفة سان رومانو المحلية ، وهى صحيفة مثيرة ، مجللة بالسواد كأنها رسالة حزينة

ورحت أقلب صفحاتها إبان الطعام فاسترعى نظرى عنوان « انتحارات الأسبوع » فجال بخاطرى دون أدنى انفعال : « هنا سيعلن خبر موتى أنا الآخر بعد أيام قلائل » بل وددت لو أشكر سلفاً محرر هذا الباب الذى سيعلن نعيى فى هذه الصحيفة .

وعلقت عيناى بخبر انفرد بعلامة الصليب فى صدره فقرأت فيه « وجدت بالأمس جثة جوسو جاكوبسن — أمريكى الجنس — معلقة فى إحدى النخيل الذى ينمو على الشرفة — وقد وجد فى جيبه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك — طبعاً »

جوسو جاكوبسن ؟ إنى أعرفه . بل لقد

خسرنا كل نقودنا جنباً إلى جنب . وبالأمس القريب حينما خسر آخر فلس معه رأيته يتنهد فى عنف وحسرة ، ثم أمسك بيدى وهزها بحرارة ونظر إلى بحزن ثم ابتسم وقال بصوت خفيض « لقد دمرت ... دمرت تماماً ... وداعاً يا صديقى »... ومن ثم ذهب فشنق نفسه

إذن ، كيف أمكن أن يعثروا فى جيبه على ثلاثة آلاف فرنك ... وماذا تعنى بحق الشيطان هذه الكلمة « طبعاً »

ولاح لى قبس كشف لى الأمر وأبان الطريق .. يا لى من غبى ! كيف لم أفطن إلى ذلك من قبل ... لقد دس — ولا ريب — أصحاب الكازينو هذا المال فى جيبه لتضليل الناس وحملهم على الاعتقاد أن انتحاره لا يرجع ألبتة إلى خسارته بل إلى أسباب شخصية ودوافع نفسية

وعلى ضوء هذا الاكتشاف الفجائى رحت أفكر ! كم يا ترى يدسون فى جيبى إذا حزمت أمرى وانتحرت على مقربة من الكازينو ؟ لقد خسرت بقدر ما خسر جاكوبسن . . . وسربت إلى رأسى فكرة بأسرع مما كان مقدراً أن تسرب الرصاصة

ثم واصلت تناول الطعام بقلب ثابت أو يكاد يكون ثابتاً ؛ وذهبت بعدئذ إلى صاحب الفندق وأكدت له أنى سأدفع له حسابه فى المساء ثم أضفت:

— هذا إذا بقيت حياً ...

— إنا نثق فيك كل الثقة يا سيدى

— إذن فأقرضنى مائة فرنك حتى المساء . . . إنى أنتظر وصول مال من باريس

— بكل سرور يا سيدي

وقضيت سحابة النهار على الشاطىء حيث وضعت — روية وإمعان — خطة السير فى انتحار يعود علىّ بربح وفير

وفى مساء هذا اليوم بعينه ذهبت إلى الكازينو مرتدياً أجمل أثوابى وقد أبنت للملأ أنى جئت أجازف بآخر ما بقى لى .. وأنى سأموت هماً وغماً إن لم أربح وطارت المائة فرنك ... فبدا علىّ الانزعاج فى بادىء الأمر ... ثم انقلبت أتململ غاضباً حنوقاً ... وأخيراً بدوت كالذاهل المأخوذ

ورثى لحالى شاب قامت بينى وبينه معرفة ، وسألنى ما الخبر فأنبأته بنبرات حزينة يائسة أنى أفلست ، فأخذ يواسينى ويخفف عنى ثم قال :

— لا تيأس فما زلت تملك نفقات السفر إلى وطنك . إن الكازينو — فى هذه الحال — يتطوع بـ ... فقاطعته بيأس قائلاً :

— إن السفر الذى أزمعه لا يحتاج إلى « تذكرة »

فنظر إلى مشدوهاً وقال :

— لا أحسبك جاداً فى هذا القول . . . آمل ألا تكون قد جننت

فظللت صامتاً ، ثم أدرت له ظهرى ورحت أجيل بصرى ذاهلاً فى أرجاء المكان بضع دقائق .. وقد لمحت أصحاب « الكازينو » يراقبوننى من طرف خفى . وانفرط عقد اللاعبين فى الساعة الحادية عشرة ، فقفوت أثر الخارجين بوجه يحمل علائم الذهول واليأس والتفكير

وكانت الليلة رائعة جميلة والقمر بدراً باقى بأشعته الفضية الناعمة على الأرض الشجراء والبحر الأزرق الساكن . وبلغ سمعى أصوات كان حنون ينوح نوح عاشقة يائسة . وجمت وجهتى — وقد أجمعت أمرى — حرشاً قريباً من الكازينو ، بقعة هادئة تمد بحق

أصلح مكان لتمثيل الدور الذي أزمعته؛ وكان ثمة تمثال من الرخام لغانية من غواني البحر بدا كأنه يبتسم وأنا أوشك أن أقوم بدوري

ودوت فجأة طلقتان ناريتان، وسقطت على أحد المقاعد في وضع مهمل وانتظرت. واقتربت مني أصوات وسقطت على عيني المسبلتين ظلال المقبلين

— يا إلهي!. إنه هو ...

— يا للمسكين! لقد قضى على نفسه برصاصتين معاً وسمعت بعد ذلك أحد أصحاب الكازينو يقول:

— هلم ... أسرع قبل أن يرانا أحد. تباً له من شيطان! أما وجد غير هذا المكان!

ثم انحنى فوقي فشعرت كأنما اندس شيء في جيبي

هنالك ارتعدت قليلا ... وتأوهت مرتين، ثم فتحت عيني ببطء شديد، ونهضت من مضجعي بعناية وحرص ناظراً في تساؤل وعجب إلى الجمع الحاشد حولي. وفي عدم اكتراث محنق أخذت قبعتي والمسدس الذي كان مازال يلفظ الدخان من فوهته وانتصبت واقفاً

وكان المحتشدون ينظرون إلي كأني حيوان غريب الخلقة وقد امتزجت نظراتهم بالعجب والاستفهام... وقلت في غضب:

— عجباً لكم يا قوم! ألا يستطيع المرء قتل نفسه بعيداً عن فضول الناس؟ لم نسمع بمثل هذا والله

واقترب مني أحد أصحاب الكازينو ينتفض من شدة الغضب وقال في تلعثم واضطراب:

— سيدي الفاضل ... أرجو ... هل ... إذا ... ماذا تقصد بهذه المهزلة؟ سأقودك إلى البوليس لتمكيرك الأمن

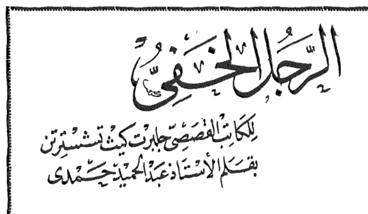
— لتمكيري الأمن؟ قول ظريف سيغدو ولا مراء حديث الموسم

قلت ذلك ثم أوليت الجمع ظهري واتخذت سبيلي ضاحكاً من هؤلاء الناس الذين اجتمعوا بدافع الفضول وحب الاستطلاع

وعدت إلى الفندق فسددت ديوني من الآلاف الثلاثة التي أخذتها مقابل قيامي بدور الانتحار. وقد بذلت إدارة الكازينو أقصى الجهود لاستعادة المال؛ ولكني لم أكن قد فكرت قط في إعادته، إذ اعتبرت أن هذا المال من حقي، وأيقنت فضلا عن ذلك أن ثلاثة آلاف فرنك لا تبدو ثمناً كبيراً لانتحاري

وقد عمدت إلى إغاظتهم ببقائي في سان رومانو بضعة أيام أخر أعيش عيشة الترف والبذخ ثم رحلت بعدها إلى باريس ... وقد سمعت أن المبلغ الذي دُس في جيبي قد رُد إلى الكازينو أضعافاً مضاعفة.

محمد عبد الفتاح محمد



فى ساعة الغسق ، وقد رطب الجو ومال لون الوجود إلى الزرقة القاتمة ، بدا حانوت الحلواني ، القائم على ملتقى شارعين متقاطعين فى بلدة « كامدن تون » كأنه شعلة سيجارة وهاجة ، أو بعبارة أدق فى الوصف ، كأنه رأس عود من أعواد الألعاب النارية ، فقد كانت مصابيحه مختلفة الألوان مشبك بعضها فى بعض ، تنكسر أشعتها على كثير من المرائي ، وتتماوج على كثير من الكعك والحلوى الملونة بألوان الذهب وغيره من الألوان البهيجة ، وفى هذه الواجهة الزجاجية الوهاجة تلتصق أنوف كثيرين ممن تبهرهم الألوان الزاهية ، فقد كانت قطع الشكولاتة ملفوفة في ورق ملون بالأحمر والذهبي والأخضر إلى آخر هذه الألوان المعدنية التي تفضل ، فى نظر الصغار ، قطع الشكولاتة نفسها . أما كعكة الزفاف الكبيرة البيضاء فكان منظرها كافياً لأن يرسم للعين صورة من القطب الشمالى وقد استحال إلى مادة مما يأكل الناس . وكانت هذه المجموعة من المغريات التى انتظمت ألوان قوس قزح كافية لأن تجذب إلى واجهة الحانوت كل أطفال الحى المجاور من سن العاشرة إلى الثانية عشرة . على أن هذه النقطة من ملتقى الشارعين كانت كذلك جذابة لأنظار الشباب ممن تجاوزوا هذه السن الصغيرة ، فقد وقف أمام الحانوت فتى لا تقل سنه عن الرابعة والعشرين ، يحدق بنظره فيما وراء الزجاج ، وقد بدا الحانوت ، فى نظره هو أيضاً ، قطعة من الجمال النارى تخطف الأبصار ، وقد لا تكون الشكولاتة وحدها هى التى استرعت أنظار الفتى وإن لم يكن هو على أي حال ممن يبغضون هذا النوع من الحلوى .

كان الفتى طويل القامة جسيما ، أحمر الشعر ، تبدو على وجهه دلائل الحزم ، ووديع الخلق وكان يتأبط حافظة رمادية كبيرة تضم بين دفتيها عدداً من الصور الفحمية ، التى كان يبيعها للناشرين بأثمان لا يهمه أن تكون غالية أو رخيصة ، وذلك منذ أن حرمه عمه (وكان من أمراء البحر) ميراثه لخلاف بين رأييهما فى النظرية الاشتراكية ، وكان الفتى ، واسمه جون تيربل أنجوس ، قد ألقى محاضرة فى هذا الموضوع

انتهت وقفة الفتى أمام الحانوت بدخوله واجتيازه القسم الخارجى المعروضة فيه الحلوى ، إلى الغرفة الخلفية التى جعلت مطعما تقدم فيه أنواع الفطائر ، رافعاً قبعته تحية للفتاة المشتغلة بتلبية مطالب رواد الحانوت ، وكانت فتاة سمراء رشيقة متيقظة ترتدى ثوباً أسود مرتفع الياقة ، سريعة الحركة سوداء العينين ، وبعد الفترة التى تعقب دخول الزائر عادة لحقت الفتاة بالفتى لتتلقى أوامره

وكان طلبه من الطلبات العادية إذ قال :

— أرجو أن تجيئى بكعكة صغيرة وفنجان من القهوة السوداء

ولم تكد الفتاة تلتفت لتأخذ طريقها إلى حيث تحضر له ما طلب حتى أضاف إلى جملته السابقة قوله :

— كذلك أريد أن تقبليني زوجاً

فجمدت الفتاة فجأة فى مكانها وقالت :

— هذا مزاح لا أسيغه

فرفع الفتى الأحمر الشعر عينيه الرماديتين وقد بدا فيهما من معانى الجد والفرح ما لم يكن منتظراً وقال :

— إنى أقصد ما أقول صدقاً وحقاً ، وأنا جاد فى قولى مثل جدى فى طلب الكعكة وما أطلبه غال غلاء الكعكة ، فانى أدفع له ثمناً ؛ ثم هو عسير الهضم مثل الكعكة أيضاً وهو إلى جانب ذلك موجع . . .

لم تحول الفتاة السمراء عينيها لحظة عن الفتى فى أثناء حديثه ولكن لاح عليها كأنها تفحصه فحصاً دقيقاً تتجلى فيه معاني الأسى ، وما انتهت من هذا الفحص حتى جلست على كرسى بالقرب منه

فقال أنجوس وهو شارد الفكر :

— ألا ترين أن من القسوة أكل هذه الكعكات الصغيرة ؟ أليس من المحتمل أن تنمو فتصبح بعد حين كعكات كبيرة ؟ لقد اعتزمت الامتناع عن هذا النوع من الرياضة حتى نتزوج

وقفت الفتاة واتجهت إلى الواجهة الموضوعة فيها الحلوى وقد بدا عليها أنها منهمكة فى تفكير عميق ولكنه غير كريه . فلما عادت إلى حيث الفتى وقد ظهر عليها أنها اعتزمت أمراً ، راعها أن وجدته ينظم فوق المائدة ، فى كثير من العناية ، مواد عديدة أخرجها من واجهة الحانوت ، بينها هرم كبير من الحلوى الملونة ، وكثير من أطباق السندوتش ، وأغلى الفطائر المصنوعة بالفاكهة . وفى وسط ذلك الترتيب الدقيق وضع الكعكة الكبيرة البيضاء التى كانت زينة الواجهة

فقالت الفتاة مضطربة :

— أى شيء هذا الذى تفعل ؟

فأجاب :

— أعمل الواجب يا عزيزتى لورا

فصاحت الفتاة به :

— بالله قف لحظة ولا تخاطبنى بمثل هذه اللهجة إنى أود أن أعرف معنى هذا كله ؟

— هي وليمة احتفاء يا مس هوب

فأشارت الفتاة إلى الكعكة الكبرى وقالت وقد نفد صبرها :

— وما هذه ؟

فأجاب الفتى :

— هى كعكة الزفاف يا مسز أنجوس

فأخذت الفتاة الكعكة وأعادتها إلى مكانها فى شيء من الانفعال ثم عادت فأسندت مرفقها الجميل إلى المائدة ونظرت إلى الفتى نظرة إن تجردت من معانى البغض فقد جمعت بعض معانى الغيظ وقالت :

— إنك لم تترك لى وقتاً للتفكير

فأجاب :

— أنا لست ذلك الغبى الذى يترك لك الوقت للتفكير . وهذه هى عقيدتى المسيحية

وكانت الفتاة لا تزال محدقة فى وجهه وعلى فمها ابتسامة انطوت وراءها معاني الجد ، فقالت فى صراحة :

— قبل أن تمضى لحظة أخرى فى مثل هذا السخف يجب أن أخبرك فى اختصار عن شيء يتصل بشخصي .

فأجاب أنجوس فى لهجة الجد :

— يسرنى أن أسمع ما تقولين ، فقد تقولين كذلك فى الوقت المناسب شيئاً عن شخصى أنا …

فأجابت الفتاة :

— بالله احفظ لسانك وأصغ إلى فليس فيما أقول ما يخجلنى ، بل وإنه ليس بالأمر الذى آسف له على وجه أخص ولكن ما قولك فى أمر ليس هو من عملى ولكنه الكابوس الذى يلازمنى ؟

فقال الفتى جاداً :

— فى هذه الحال أقترح أن تعيدي الكمكة إلى هذه المائدة

فقالت الفتاة فى إلحاح :

— يجب أول كل شىء أن تصغى إلى قصتى . وليكن أول ما أرويه لك أن أبى كان يملك الفندق المسمى « بالسمكة الحمراء » فى لودبرى وقد تعودت أن ألبى طلبات العملاء فى المشرب

فقال الفتى :

— لقد كنت دائماً أعجب لماذا أشعر بروح مسيحي يرفرف على هذا الحانوت وحده

فمضت الفتاة فى حديثها تقول :

— ولودبرى قرية صغيرة هادئة خاملة فى المقاطعات الشرقية ، وكان العملاء الوحيدون الذين يفدون على فندق « السمكة الحمراء » هم التجار المتجولون ، أمامن عداهم فأبشع من يمكن أن ترى من الناس ، وفى اعتقادى أنك لم تر قط أحداً من هذا الصنف من المخلوقات ، فهم رجال ضئال الأجسام مربدون لهم من الدخل ما يمكنهم من أن يعيشوا بين احتساء الخمر والمراهنة على الخيل مرتدين أحقر الملابس التى تعد فى الواقع أحسن ما يليق بهم .

وحتى هؤلاء لم يكونوا كثيرى التردد على فندقنا ولكن كان بينهم اثنان عاديان فى كل ناحية من نواحى الحياة .

كانا يعيشان على ما لديهما من مال وكانا كسولين كسلا يضايق الذى يباشرهما ، وقد تعودا أن يرتديا من الملابس أكثر مما تدعو إليه الحاجة . على أننى كنت أرثى لحال ذينك الرجلين ، إذ كنت أميل إلى الاعتقاد بأنهما لا يأويان إلى مشربنا الصغير الخالى إلا لأن كلا منهما مصاب بنوع من التشوه يضحك منه الأجلاف من الناس . على أن استعمال كلمة « تشوه » فى وصفهما قد يكون فيه شىء من التجاوز وقد تكون كلمة « شذوذ » أقرب إلى وصف حالهما ، فقد كان أحدهما صغير الجسم صغراً مدهشاً يكاد يكون قزماً أو على الأقل « ركيباً » من أصغر « ركيبة » الخيل أجساماً . ولو أن منظره لا يتفق فى قليل أو كثير مع منظر « الركيب » ، كان مستدير الرأس أسود الشعر معنياً بقص لحيته الكثة السوداء ، ذا عينين تشبهان فى بريقهما عيون الطيور يحمل فى جيبه كثيراً من النقود ويعلق بصدره سلسلة ساعة كبيرة من الذهب ، ولم يحضر مرة إلا مرتدياً آخر ما يستطيع أن يرتدى من ملابس ، على أنه لم يكن بالرجل الأبله وإن يكن كسولا إلى أقصى حدود الكسل ، ولكنه كان من ناحية أخرى بارعاً فى كثير من الأمور التى لا فائدة منها ، أكثرها ألعاب بهلوانية ، كأن يجعل خمسة عشر عوداً من الكبريت يشتعل أحدها من الآخر على التوالى على غرار الألعاب النارية ، أو يقطع ثمرة الموز أو ما يشبهها على مثال العروس الراقصة التى يلعب بها الأطفال ، وكان اسم هذا الفتى إزيدورا سمث ، وإنى لا أزال

أتمثل صورته وهو مقبل على الخزانة محركا فى يده خمس سجارات على مثال ابن آوى فى قفزاته

« أما الشخص الآخر فكان أكثر هدوءاً كما كان أقرب إلى الرجل العادى من صاحبه ، ولكنه قد أزعجنى بطريقة ما أكثر مما أزعجنى اسمث الضئيل المسكين . كان مفرطاً فى طول قامته نحيف الجسم ، خفيف الشعر ، أقنى الأنف لحد يسترعى النظر ، وكان من المحتمل أن يبدو حسن المنظر فى عين من يراه لولا ما فى عينيه من حول لم أر أو أسمع بمثله في إنسان سواه ، فهو إذا نظر إليك مباشرة لم تعرف أين أنت واقف ولا عبرة بالنقطة التى يكون محدقاً فيها . وأظن أن هذا العيب كان يؤلم ذلك الفتى إلى حد ما . ولما كان اسمث يعرض علينا ألعابه المختلفة لم يكن هذا الفتى، واسمه جيمس ولكن، يقدر على شيء غير أن يذرع غرفة الشرب جيئة وذهاباً أو يخرج إلى الخلاء فيطيل المشي لغير قصد معين . وفى اعتقادى أن اسمث أيضاً كان يشعر بما فى ضآلة جسمه من عيب ولكنه كان دائماً يخفى ذلك العيب بخفة ورشاقة ، لهذا كان من أكبر بواعث اضطرابى وحيرتى أن تقدم لى الاثنان فى وقت واحد طالبين يدى للزواج

والحق أننى قد أجبتهما ولا أزال منذ ذلك الحين أعد ذلك نوعا من الحماقة ، ولكن كان هـذان الرجلان على أى حال صديقين لى ، ولقد أزعجنى أن يتسرب إلي ظنهما أننى أرفض الزواج منهما لشدة قبحهما . لذلك أردت التخلص منهما بطريق لا تؤذى شعورهما فقلت إننى قد اعتزمت ألا أتزوج إلا من رجل يكون قد شق طريقه فى الحياة بمجهوده فمن المبادىء التى أدين بها ألا أعيش من مال موروث من الغير كالمال الذى يعيشان منه . وبعد يومين من هذا الحديث بدأت المتاعب تتوالى ، فقد كان أول ما سمعته أن الفتيين قد غادرا القرية ليشقا طريقهما فى الحياة كما لو كان الأمر قصة خرافية

ومن ذلك التاريخ حتى هـذه الساعة لم أر أحدهما . ولـكني تلقيت خطابين من الرجل الصغير الجسم المسمى اسمث ، والحق أنهما كانا خطابين شائقين إلى مدى بعيد

فسألها انجوس :

— ألم تسمعى قط شيئاً عن الرجل الآخر ؟

فترددت الفتاة لحظة ثم قالت :

— كلا، فانه لم يكتب إلىّ قط … وكان الخطاب الأول من اسمث قاصراً على قوله إنه خرج من القرية مع « ولكن » ماشيين على الأقدام فى طريقهما إلى لندن ، ولكن « ولكن » كان سريع الخطى صبوراً على المشى فلم يستطع هو أن يجاريه وسقط متعباً فجلس فى جانب الطريق يستريح حيث التقطته فرقة من المهرجين الذين يعرضون ألعابهم على أنظـار الجمهور ، فكان صغر جسمه الذى يجعله أقرب إلى الأقزام ومهارته في الألعاب البهلوانية الخفيفة سبباً فى حلوله بين الفرقة محل العناية حتى لقد أرسل بعد قليل إلي الأكواريوم لعرض بعض الألعاب التى نسيتها . وهذا هو كل ما احتوى عليه خطابه الأول . أما الخطاب الثانى فكان أشد تشويقاً وإثارة من الأول ، وقد تلقيته فى الأسبوع الماضى فقط

جرع الفتى المسمى انجوس ما بقى فى فنجان القهوة ونظر إلى الفتاة بعينين تجلت فيهما معانى الوداعة والصبر ، وما استأنفت حديثها حتى افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقد قالت :

— أظنك قد قرأت في كل مكان أعد للصق الاعلانات هذه الجملة «خدمة اسمث الصامتة» وإلا فأنت الانسان الوحيد الذي لم يقرأها . على أنني لا أعرف نوع هذه الخدمة ، وكل ما أستطيع أن أفهمه هو أنها اختراع أشبه باختراع الساعة يؤدي جميع الخدمات البيتية بطريق آلية فمثلا « اضغط الزر يأتك الساق الذي لا يشرب أبداً » و « اليد تحضر إليك عشر خادمات لا يغازلن أبداً » هـذا بعض ما نشر في الاعلانات فلا بد من أن تكون قد قرأته . على أنه مهما يكن من أمر هذه الآلات فانها قد جمعت ثروة طائلة لذلك القزم اسمث الذي عرفته في لودبرس وما أستطيع إلا أن أشعر بالسرور لنجاح هذا الفتى المسكين ولكن الذي يزعجني الازعاج كله هو أن يعود اسمث إلى هنا ليقول لي إنه قد شق طريقه في الحياة وإنه لقد فعل

فكرر أنجوس سؤاله وقد بدا عليه نوع من الهدوء المجيب :

— والرجل الآخر ؟

فهمت لورا هوب فجأة واقفة على قدميها وقالت :

— إني لأظنك ساحراً يا سيدي . الحق أنك لعلى صواب ، فاني لم أر في حياتي سطراً واحداً من خط الرجل الآخر وليست عندي أية فكرة ولو غامضة عن كنهه ومكان وجوده ، ولكن هو وحده الذي أخافه ، فهو الذي يعترض طريقي دائماً ، هو الذي يكاد يذهب بعقلي ، بل في الحق إني لأظنه قد ذهب بعقلي فعلا ، لأني أشعر به حيث لا يمكن أن يكون ولقد سمعت صوته حيث لا يمكن أن يكون قد تكلم

فقال الفتى وقد بدا عليه أثر الانشراح :

— حسن يا عزيزتي ، إنه لو كان هو الشيطان نفسه فقد قضى عليه الآن نهائياً بعد أن تحدثت بأمره إلى شخص ثالث ، فان الانسان ليكاد يجن إذا هو عاش منعزلاً عن الناس ، ولكن أتذكرين الوقت الذي خيل إليك فيه أنك شعرت بوجود صاحبنا الأحول وسمعت صوته ؟

فقالت الفتاة في غير تردد :

— لقد سمعت ضحك جيمس ولكن واضحاً كما أسمع حديثك الآن ؛ ولم يكن هناك من أحد سواي فقد كنت واقفة خارج الحانوت على الناصية أستطيع أن أرى الشارعين في وقت واحد ، ولقد نسيت كيف ضحك ولو أن ضحكته كانت غريبة مثل حوله ولم يخطر ذكره على بالي حوالى عام كامل ، ولكن ما لا شك فيه أنني شعرت بوجوده بعد ثوان من تسلمي الخطاب الأول الذي جاءني من منافسه

فسألها أنجوس وقد بدا اهتمامه بحديثها :

— هل حملت خياله مرة على الكلام أو الصراخ أو أي شيء من هذا القبيل ؟

فارتجفت لورا فجأة ثم قالت بصوت غير مضطرب :

— نعم إنني لم أكد أنتهي من قراءة الخطاب الذي جاءني من ايزيدور اسميث والذي أعلن فيه نجاحه حتى سمعت ولكن يقول « وعلى الرغم من ذلك لن ينالك » وكان كلامه واضحاً كما لو كان جالساً معي في الغرفة . . . وهذا أمر مروع وإنه ليخيل إلي أنني قد جننت

فقال الفتى :

لو أنك كنت حقيقة مجنونة لفكرت في أنك لا بد أن تكوني عاقلة . ولكن يلوح لي من غير شك أن هناك شيئاً عجيباً حول هذا السيد الخفي عن الأعين ، ورأسان خير من رأس واحد فلو سمحت لي أن آتي

بكمكة الزفاف مرة أخرى من الواجهة ...

وبينا الفتى يتكلم سمع فى الخارج صوت ممدنى رفيع ثم صوت محرك سيارة تجرى فى سرعة شيطانية حتى إذا وصلت إلى باب الحانوت وقفت واندفع منها كالسهم فتى ضئيل الجسم على رأسه قبعة عالية لامعة فوقف فى وسط القسم الخارجى

فقطع انجوس حديثه وخرج إلى حيث وقف القادم ووقف منه وجهاً لوجه . فكانت نظرة واحدة كافية لأن تشعره بأن هذا القادم الجديد رجل ملك الغرام عنانه ، وقد عرف فيه انجوس ذلك الشاب ازيدوراسمث الذى وصفته له لورا من قبل . هذا هو اسمث الذى جمع من صناعة الساقى الذى لا يشرب والجارية التى لا تغازل ملايين الجنيهات . هذا هو ازيدور اسمث الذى يصنع العرائس من قشر الموز وأعواد الكبريت . وقف الرجلان لحظة ينظر أحدهما إلى الآخر نظرة الكرم الباردة الغريبة التى تنم عن روح المنافسة

على أن مستر اسمث لم يشر قط إلى موضع المنافسة بينه وبين الرجل الواقف أمامه ولكنه قال فى شئ من البساطة الممزوجة بالحدة :

— هل رأت مس هوب ذلك الشئ الملصق على الزجاج ؟

فكرر انجوس قول الرجل فى لهجة الاستفهام

— على الزجاج ؟

فقال المليونير الصغير الجسم

— الوقت لا يتسع لشرح أمور أخر فهنا سخرية حمقاء تستدعى التحقيق

وأشار الرجل بعصاه إلى زجاج الواجهة التى أخرج انجوس من لحظة أكثر محتوياتها فاذا بشريط طويل من الورق ملصق على ذلك الزجاج ، فدهش انجوس لذلك فما من شك فى أن هذه الورقة لم تكن منذ لحظة موجودة حيث هى الآن ، وخرج إلى الشارع وراء المليونير النشيط وفحص شريط الورق فوجد طوله يبلغ حوالى ياردة ونصف الياردة وقد دهن بالصمغ وألصق بالزجاج بعناية تامة ، وقد كتب عليه بخط مشوه : « إذا تزوجت من اسمث فسيموت »

فمد انجوس رأسه الأحمر الكبير داخل الحانوت وصاح :

— لورا . . . إنك لست مجنونة

فقال اسمث فى شئ من الخشونة :

— هذا خط ذلك الرجل « ويلكن » ، إنى لم أره منذ سنوات ولكنه مازال يضايقنى ، ففى الخمسة عشر يوماً الماضية وجدت فى مسكنى خمسة خطابات تهديد منه وصلت إلى البيت بطريق خفية . ولقد أقسم البواب أنه لم ير إنساناً ممن يمكن أن توجه إليه أية شبهة قد دخل البيت . ثم هذا هو يلصق على زجاج الحانوت هذا النوع من التهديد العلنى بينما القوم الذين فى الداخل . . .

فقال انجوس فى تواضع :

— صدقت ! بينما القوم الذين فى الداخل كانوا يشربون الشاي . الحق ياسيدى أننى معجب بأسلوبك فى معالجة الأمور بمثل هذه الصراحة . ويمكننا أن نتكلم فى المسائل الأخرى فيما بعد . أما الآن فان الرجل الذى ألصق هذه الورقة لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيراً عن هذه النقطة فاني أؤكد لك أن هـذه الورقة لم تكن حيث هى الآن عند ما جئت إلى الواجهة منـذ عشر أو خمس عشرة دقيقة على الأكثر . غير أنني أرى من ناحية أخرى أنه

أبعد من أن نستطيع اللحاق به لأننا لا نعرف الاتجاه الذى سار فيه . وإذا قبلت نصيحتى يامستر اسميث فانى أنصح لك بأن تعهد بهذا الأمر إلى رجل إخصائى فى تقصى الأخبار وإنى أفضل أن يكون رجلا خاصاً على أن يكون من ارجال الرسميين ، وإنى أعرف رجلاماهراً جداً فى هذه المهنة لا يبعد مسكنه عن هنا أكثر من مسافة خمس دقائق فى سيارتك واسمه « فلامبو » وعلى ارغم من أنه كان فى شبابه محوطاً بكثير من الشكوك فانه الآن رجل شريف جد أمين وآراؤه تساوى المال الكثير ، ومقره فى لا كنو مانسونز هامبستد .

فقال ارجل الصغير الجسم وقد تقوس حاجبه الأسود :

— هذا غريب فانى أنا نفسى سا كن فى هيمالايا مانسونز بعد المنحنى . ولعلك تتكرم بمرافقتى ، فسأذهب إلى بيتى لاعداد هذه المستندات العجيبة التى جاءتنى منه ولكن بينما تذهب أنت لاحضار صاحبك البوليس السرى الخاص .

فقال انجوس فى كثير من الأدب :

— أحسنت ، فكلما أسرعت كان ذلك خيراً

وحيا الرجلان الفتاة ثم استقلا السيارة ، فما كادت تجتاز منحنى الشارع حتى رأى انجوس اعلاناً كبيراً عن « خدمة اسميث الصامتة » وفيه صورة عروس كبيرة من الحديد من غير رأس تحمل فى يديها وعاء كبيراً وقد كتب عليها « الطاهية التى لا تغضب أبداً » .

فقال الرجل الملتحى ضاحكا :

— إنى أستعمل هذه المخترعات فى بيتى للاعلان من ناحية وللخدمة الحقيقية من الناحية الأخرى .

والحق أن هؤلاء الخدم الصامتين ليقضون حاجاتك بأسرع مما يقضيها الخدم الأحياء لو أنك عرفت أى زر تضغط . على أنى لا أنكر أنه كما لهذه الأدوات مميزاتها فان لها أخطاءها أيضاً

فسأله أنجوس :

— حقاً ؟ أهناك ما لا تستطيع أن تعمله ؟

فأجاب اسميث فى هدوء :

— نعم فانها لا تستطيع أن تخبرنى من الذى ترك لى هذه الخطابات التهديدية فى بيتى

كانت سيارة الرجل صغيرة وسريعة مثله وهى كأدوات الخدمة من صناعته ، فقطعت بهما فى دقائق قليلة مسافات بعيدة فى ذلك الر كن من انجلترا الذى يشبه فى جمال مناظره الطبيعية ناحية ايدنبرج . وأخيراً وصلا إلى هملايا مانسونز ولا تزال فى الوجود بقية من نور النهار ، وما اجتازت السيارة المنحنى حتى رأى الرجلان فى إحدى ناحيتى الطريق رجلاً يبيع البندق وفى الناحية الأخرى جندياً من جنود البوليس ، وكان هذان كل من وجد فى هذه الساعة على مقربة من بيت اسميث ، وكان شخصاها ساعة الغسق أشبه فى نظر أنجوس بشبحين من أشباح التاريخ ...

وقفت السيارة فجأة أمام البيت ، واندفع منها صاحبها يسأل ساعياً طويل القامة يرتدى ملابس رسمية براقة ، وبواباً يلبس قميصاً قصير الأكمام عما إذا كانا قد رأيا أحداً يدخل إلى الدار أو أن شيئاً غير عادى قد حدث فى أثناء غيابه . فأكد له الرجلان أن لا أحد دخل البيت وأن لا شىء حدث منذ رآها آخر مرة . فدخل هو وأنجوس إلى البيت واستقلا المصعد الذى اندفع بهما صاعداً فى سرعة البرق إلى الطابق الرابع

وقال اسميث لصاحبه :

— أرجو أن تتفضل بالدخول والانتظار لحظة حتى أحضر لك خطابات ويلكن، وبمدذلك تذهب إلى الناحية الأخرى من الطريق فتدعو صاحبك

وضغط اسميث زراً مختفياً فى الجدار فانفتح باب مسكنه من تلقاء نفسه ، وينفتح الباب على ردهة صغيرة كل ما فيها من الأثاث صفان من الأشخاص الميكانيكية واقفين على الجانبين أشبه بنماذج الخائطين ، وهى مثلها بلا رؤوس وإن كانت بارزة الصدور مملوءة الأكتاف ، ولكل منها خطافان يمملان عمل الأيدى والسواعد فى حمل الصوانى ، وما كاد الباب يفتح حتى رأى اسميث فى يد أحد هذه الأشخاص ورقة بيضاء مكتوبة بالحبر الاحمر لم يكن مدادها قد جف بعد . فاختطفها الرجل وناولها لأنجوس وكان هذا هو نص ما كتب فيها : « إذا أنت رأيتها اليوم فسأقتلك »

وسكت الرجلان لحظة ثم قال إيزيدور اسميث :

— أتشرب قليلا من الوسكى فاني أشعر أن بى حاجة إلى القليل منه .

فأجاب أنجوس فى شيء من الكآبة :

— شكراً ، ولكننى أفضل أن أرى فلامبو فهذه المسألة تزداد جسامة فلأذهب لأحضره فى الحال فقال الآخر وعليه من مظاهر الانشراح ما يدعو إلى الاعجاب :

— أحسنت فلتحضره إلى هنا بأسرع ماتستطيع

ولكن لم يكد أنجوس يقفل الباب الخارجى وراءه حتى رأى اسميث قد ضغط أحد الأزرار فتحركت إحدى الجوارى الميكانيكية وتقدمت حاملة صينية فوقها معدات الشراب . فشعر أنجوس بشيء من الخوف على الرجل الصغير أن يترك وحيداً بين هذه الدمى الميكانيكية التى دبت فيها الحياة على أثر إغلاق الباب

ولم يهبط أنجوس ست درجات من درجات السلم حتى وجد البواب منهمكا فى بعض العمل فأوصاه وهو يناوله قطعة من النقود بأن يبقى فى مكانه إلى أن يعود وأن يرقب أى أجنبى يصعد السلم ، حتى إذا خرج من باب العمارة أوصى الساعى الواقف أمام الباب بمثل هذه الوصية ، ومنه علم أن ليس للبناية باب خلفى ، ولم يكتف بذلك بل دعا رجل البوليس الذى يمر فى الشارع وطلب منه أن يرقب مدخل البيت إلى أن يعود ، وترك رجل البوليس إلى بائع البندق فسأله كم من الوقت يعتزم البقاء حيث هو، وكان الرجل قد رفع ياقته مستعداً للذهاب لأنه يتوقع أن يتساقط الثلج . ولكن أنجوس رجاه أن يبقى فى مكانه وأن يأكل كل ما معه من البندق وقال إنه سيعطيه جنيهاً متى عاد على أن يرقب المدخل ويخبره إن كان قد دخل البناية أى رجل أو امرأة أو طفل .

فلما انتهى من إعداد هذه التحوطات سار معجباً بعمله ناظراً نظرة أخيرة إلى الحصن الذى أحاطه بهذا الحصار المحكم وقال يحدث نفسه :

— لقد أحطت البناية بحلقة قوية ولا يمكن أن يكون هؤلاء الأربعة جميعاً من شركاء مستر ويلكن

كان مسكن مستر فلامبو فى الطابق الأول من بناية لاكنو مانسونز، وكان بسيط الرياش، فلماوصل إليه أنجوس تلقاه صاحب الدار فى غرفة فيها بضعة مقاعد وكل زينتها أنواع من السيوف والقطع الأثرية الشرقية ، وكان يجالسه فيها فى هذه الساعة

قسيس كاثوليكي كان وجوده فى هذا المكان فى نظر أنجوس فى غير موضعه

فقال فلامبو :

— هذا صديقى الأب برون ولكم وددت أن تقابله . الجو جميل الليلة ولكنه بارد قليلا بالنسبة لرجل مثلى من أهل الجنوب

فجلس انجوس على أحد الكراسى الشرقية وهو يقول :

— نعم الجو جميل وأظن أنه سيستمر صحواً

ولكن القسيس أجاب فى هدوء :

— لا ، فقد بدأ الثلج يتساقط

وفعلاً كانت قطع الثلج الذى تنبأ بائع البندق بسقوطها قد بدأت تصدم زجاج الشباك وتلتصق به

فقال انجوس :

— الحق أنى أتيت في مهمة خطيرة تدعو إلى الاسراع . والأمر ، يا فلامبو ، أنه على مسافة مرمى الحجر من بيتك رجل أشد ما يكون حاجة إلى مساعدتك ، فهو ملاحق ومهدد بعدو غير ظاهر وشقى لم يستطع أحد أن يراه

ولما بدأ يروى قصة اسميث وويلكن وعلاقة لورا بهما والضحكة المزعجة ، وفى الجملة تفصيل ما سمعه ، بدا الاهتمام الشديد على فلامبو فى حين جلس القس كقطعة من الأثاث لا علاقة لها بالحديث. فلما وصل انجوس إلى التحدث عن قطعة الورق التى وجدت ملصقة على واجهة الحانوت هم فلامبو واقفاً وكأنه قد ملأ الغرفة بكتفيه العريضين وقال :

إذا كان لا يضايقك أن تروى لى بقية القصة فى أقصر طريق يوصل إلى بيت هذا الرجل كان ذلك خيراً ، فانه يخيل إلى أن ليس لدينا متسع من الوقت نضيعه فى الحديث هنا

فوقف انجوس وهو يقول :

— يسرنى ذلك وإن كنت الآن مطمئناً على صاحبى فقد أوقفت أربعة رجال لمراقبة المدخل الوحيد المؤدي إلى مسكنه

فخرج الرجلان إلى الطريق يتبعهما القسيس الضئيل الجسم كالكلب الأمين يتبع صاحبه ، وكان كل ما قاله أثناء الطريق وقاله فى أسلوب مرح هو :

— ما أسرع ما يترا كم الثلج على الأرض !

وقبل أن يصل الرجال الثلاثة إلى الشارع الواقعة فيه البناية كان أنجوس قد انتهى من سرد قصته ، فلما وصل إلى قريب من البيت تطلع يبحث عن الرجال الأربعة الذين عهد إليهم بالمراقبة ، حتى إذا وجدهم حيث تركهم بدأ بسؤال بائع البندق الذي أقسم مؤكداً قبل أن يتسلم الجنيه وبعد أن تسلمه أنه لم ير أى زائر قد دخل البيت ، وكان رجل البوليس أشد من البائع توكيداً ، وقد قال إنه تعود معرفة اللصوص من كل نوع لا يخدعه تخفيهم وراء الملابس الغالية والقبعات العالية ، فهو لا يقتصر فى تعرف المشبوهين بما يبدو من أعمالهم التى توجه الشبهة اليهم ، وهكذا وكد أنه لم يدخل البيت أى إنسان ... أما الساعى ذو الملابس البراقة فقد كان لا يزال واقفاً عند مدخل الباب يبتسم ابتسامته المريضة، وكان توكيده أشد من صاحبيه فقد قال:

— إن لى الحق فى أن أسأل أى إنسان دوقاً كان أو كناساً ، ماذا يريد من دخوله هذه البناية ، وإنى لأقسم أنه لم يحضر منذ خروج هذا السيد أى إنسان يستدعى الأمر سؤاله

وكان الأب برون واقفاً لا يكترث أحد لوجوده

فلما سمع هذه الكلمات تدخل فى الموضوع ، فقال فى لهجة فيها شىء من التهكم :

— إذن لم يصعد أحد الدرج ولم يهبطه منذ بدأ الثلج فى السقوط ؟ ولقد بدأ على ما أذكر ونحن فى بيت فلامبو

فقال الرجل الرسمي وهو يضحك ضحكة ذى النفوذ :

— لا يا سيدى ، لم يأت أحد قط إلى هنا ، وكن واثقاً من قولى هذا

فقال القسيس وقد نظر إلى الأرض بعينين تشبهان عيون السمك :

— إذن إنى لأعجب ، ما هذا ؟

فنظر الجميع إلى حيث ينظر القسيس فتلفظ فلامبو بلفظة شديدة مشيراً إشارة فرنسوية ، فقد كان هناك بالفعل على الأرض وسط المدخل وبين ساق هـذا الساعى الكبير الجسم آثار أقدام غبراء فوق الثلج الأبيض

فصاح أنجوس عن غير قصد :

— إلهى ... الرجل الخفى !

ودون أن ينطق بكلمة أخرى اندفع صاعداً الدرج يتبعه فلامبو ، أما الأب برون فقد بقى واقفاً حيث هو ينظر إلى الشارع المغطى بالثلج وكأنه قد أهمل شأن الطريدة

وكاد فلامبو يكسر الباب بكتفه القوى ولكن الفتى الاسكتلندى تحسس بيده إطار الباب حتى عثر على الزر الخفى فضغطه فبدأ الباب ينفتح على مهل وكان المدخل والردهة على حالهما لولا أن اثنتين من الدمى الحديدية قد تحركتا من مكانهما لقضاء بعض الأعمال على ما يظهر ، وكانت العتمة قد بدأت تخيم داخل الدار لولا بقية من شعاع الشمس الغاربة ،

وهناك وسط الدمى حيث وجدت قطعة الورقة رأى أنجوس على الأرض بقعة حمراء كأنها بقعة مداد انسكبت من دواة ولكنها لم تكن من المداد

فصاح فلامبو فى لهجة جمعت بين الغضب وبين الألفاظ الفرنسوية قائلا :

— جناية قتل !

ثم انطرح على الأرض فاحصاً وبعد فترة كان الرجلان يفتشان كل نقطة فى البيت ليعثرا على إزيدور اسميث حياً أو ميتاً فلم يجدا له أثراً ، ثم تقابلا وجهاً لوجه بعد البحث الدقيق ، فقال فلامبو متكلما بالفرنسية من شدة تأثره :

— يا صاحبي ... إن القاتل لم يختف وحده ولكنه أخفى القتيل أيضاً

فنظر أنجوس حوله فى الغرفة المظلمة وأحس برعشة خفيفة داخل نفسه ، فقد كانت إحدى الدمى واقفة بحيث يسقط ظلها على نقطة الدم وكانت ساعدها مرفوعة قليلا ، فخطر له أن تكون هـذه الساعد هى التى أصابت اسميث فقتلته وهكذا تكون المادة قد ثارت وقد قتلت هذه المخلوقات الآلية خالقها ولكن حتى فى هذه الحالة يعترضنا هذا السؤال الطبيعى : « ماذا فعلت هذه الدمى بقتيلها ؟ »

فألقى الوهم المخيف فى أذنه هـذه الجملة فى لهجة الاستفهام :

— أكلته ؟

فساخت نفسه لمجرد التفكير فى أن جسماً بشرياً يتلاشى ويهضم فى جوف هذه الآلات الميكانيكية

واسترد انجوس ثباته بشىء من المجهود النفسى وقال يخاطب فلامبو :

— نحن الآن أمام أمر واقع ، لقد تبخر الرجل

السكين كما تتبخر السحب ولم يترك وراءه غير بقعة حمراء على الأرض . وهذا أمر لا يتصل بمالمنا الدينوى .

فقال فلامبو :

— هناك شيء واحد يجب عمله فسواء أكان الأمر متعلقاً بهذه الدنيا أم بالآخرة، لابد لى من أن أنزل فأتكلم مع صديقى .

ونزل الرجلان فمرا بالبواب الذى كان لا يزال منهمكا فى عمله وقد أكد لهما مرة أخرى أنه لم يدع أي متطفل يدخل إلى الدار ، ثم وصلا إلى الساعى فى الملابس اللامعة فوجداه حيث تركاه وقد كرر توكيده أن إنساناً لم يدخل البيت ، وكذلك وجدا بائع البندق الذى كرر هو أيضاً مثل هذا التوكيد ولكن عندما بحثا عن الحارس الرابع رجل البوليس لم يجداه فصاح انجوس فى حال عصبية :

— أين رجل البوليس ؟

فقال الأب برون :

— عفوا فقد أرسلته للبحث فى أمر وجدته يستحق البحث والاستقصاء .

فقال انجوس فى لهجة قاطعة :

— حسن ولكننا أشد ما نكون حاجة إلى عودته فان صاحبنا المسكين لم يقتل فقط ولكنه قد اختفى وزال كل أثر له .

فسأل القس :

— وكيف كان ذلك ؟

فقال فلامبو بعد قليل من التردد :

— إنى لأعتقد ياأبي أن الأمر أدخل فى باب اختصاصك منه فى باب اختصاصى . فان البيت لم يدخله صديق ولا عدو وعلى الرغم من ذلك قد سرق اسميث كما لو تكون العفاريت قد اختطفته ، فاذا لم يكن هذا أمراً خارقاً للطبيعة فانى ...

وقطع الحديث وصول رجل البوليس فى ملابسه الزرقاء جارياً يلهث حتى وقف أمام الأب برون وقال:

— صدقت ياسيدى فانهم وجدوا جثة المسكين مستر اسميث ملقاة هناك فى القناة

فلطم انجوس رأسه بيده لطمة شديدة وسأل :

— هل جرى إلى القناة وانتحر غرقاً ؟

فقال رجل البوليس :

— إني أقسم أنه لم ينزل من البيت ثم هو لم يغرق نفسه أيضاً ولكنه مات مقتولا بطعنة بالغة فوق القلب

فقال فلامبو فى صوت خشن :

— ومع ذلك لم تر إنساناً يدخل البيت ؟

فقال الراهب :

— فلنمش قليلا فى الطريق .

فلما وصلوا إلى الجانب الآخر من الطريق قال القس :

— ما أشد غباوتى، لقد نسيت أن أسأل رجل البوليس إذا كانوا قد وجدوا كيساً رمادى اللون

فسأل انجوس مندهشاً :

— ولماذا يجدون الكيس الرمادى اللون ؟

فقال الأب بروك :

لأنه إذا كان الكيس من لون آخر فيجب أن تبدأ القضية من جديد . أما إذا كان الكيس رمادياً فقد انتهت القضية

فقال انجوس وفى لهجته تهكم صادر عن اعتقاد

— يسرني أن أسمع هذا الكلام ، فان القضية فيما يتصل بعلمى لم تبدأ بعد

فقال فلامبو فى سذاجة متناهية كسذاجة الطفل:

— يجب أن تخبرنا بكل شئ

كان الرجال الثلاثة يسيرون بخطى تزداد سرعتها عن غير قصد حتى قطعوا مسافة غير قليلة على الجانب الآخر من الطريق . وكان الأب برون يتقدمهم صامتاً وقد بدا عليه شيء من الوجوم . وأخيراً قال في غموض يسترعي النظر :

— الحق أني أخشى أن تظنوا الأمر جد ممل فنحن دائماً نبدأ من الطرف الغامض في الموضوع ، وإنكما لن تستطيعا بدء هذه القصة من ناحية أخرى

« ألم تلاحظا قط هذا الأمر — إن الناس لا يجيبون أبداً عما يسألهم الانسان عنه ؟ إنهم دائماً يجيبون بما تقصد أنت أو بما يتوهمون أنك تقصده . ولنفرض أن سيدة سألت سيدة أخرى تسكن بيتاً من بيوت الريف : « هل يقيم أحد معك ؟ » فان السيدة لن تجيب : « نعم ، إن معي في البيت الساقي وثلاثة من الرجال وخادم من النساء » إلى غير ذلك على ارغم من أن الخادمة قد تكون في هذه اللحظة واقفة في الغرفة والساقي قد يكون واقفاً وراء كرسيها . ولكنها تقول : « لا يوجد معي أحد في البيت » وقصدها « أحد » ممن تعني أيها السائل . ولكن افرض أن طبيباً موكلا باتخاذ بعض الاجراءات الصحية سألها : « من يقيم في هذا البيت ؟ » عندئذ تتذكر السيدة الساقي والخدم جميعاً لا تنسى منهم أحداً . واللغة كلها تسير على هذا النمط ، فانك لن تحظى على سؤال توجهه لأي إنسان بجواب يتفق مع حرفية هذا السؤال حتى وإن كان الجواب صادقاً ، فهؤلاء الرجال الأربعة الأمناء عندما قالوا إنه لم يدخل البناية إنسان ما لم يقصدوا في الواقع مطلق إنسان ، ولكنهم قصدوا « الانسان » الذي يمكن أن يشتبهوا في أنه « الانسان » الذي تبحثان عنه فما من شك في أن إنساناً قد دخل البناية وقد خرج منها ولكنهم لم يلاحظوه

فسأل أنجوس رافعاً حاجبيه الجراوين :

— رجل خفي ؟

فأجاب الأب برون :

— خفي معنوياً

وبعد دقيقة أو دقيقتين استأنف القس كلامه في نفس اللهجة المتواضعة فقال :

— إن الانسان بحكم الطبيعة لا يستطيع أن يفكر في مثل هذا الرجل إلا إذا فكر فيه فعلا . وهذا هو مبعث مهارته . ولكنني استطعت أن أفكر فيه من خلال أمرين أو ثلاثة أمور صغيرة في القصة التي رواها لنا مستر أنجوس : الأول ما قاله من أن ذلك الرجل ويلكن تعود أن يسير مسافات طويلة ، والثاني الورقة التي ألصقت على واجهة الحانوت ، ويأتي بعد ذلك المسألتان اللتان ذكرتهما السيدة الصغيرة واللتان لا يمكن أن تكونا حقيقيتين

وهنا بدت من مستر أنجوس حركة فجائية فقال القسيس وهو مستمر في حديثه :

— أرجو ألا يضايقك كلامي ، فقد اعتقدت هي أنهما حقيقيتان ولكنهما لا يمكن أن تكونا حقيقيتين ، فمن المستحيل أن يكون الانسان وحيداً في الطريق قبل أن يصله خطاب ما ببضع ثوان ، ولا يمكن أن تكون وحيدة في الشارع في اللحظة التي بدأت تقرأ فيها الخطاب ، فلا بد أن يكون على مقربة منها إنسان ما ، وهذا الانسان لابد أن يكون خفياً معنوياً

فسأله أنجوس :

— ولماذا لا بد أن يكون هناك إنسان على مقربة منها ؟

فقال الأب برون :

— لأنه فيما عدا الحمام الزاجل لا بد أن يكون إنسان قد أحضر لها الخطاب

فسأل فلامبو وقد بدا عليه النشاط :

— أتريد حقاً أن تقول إن ويلكن هو الذي حمل خطاب منافسه إلى خطيبته ؟

فأجاب الراهب :

— نعم لقد حمل ويلكن خطاب منافسه إلى خطيبته وكما ترى لا بد أن يكون قد فعل

فصاح فلامبو :

— إنني لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا ، فمن هو هذا الانسان ؟ وما هو منظره ؟ وكيف يكون تكوين الرجل الخفي معنوياً ؟

فأجاب القسيس على الفور وفي لهجة التوكيد :

— إنه يرتدي ملابس أنيقة تجمع ألوانها بين الأحمر والأزرق والذهبي ، وفي هذا اللباس الجذاب بل والخادع دخل الرجل هميلايا مانسونز أمام ثمانية أعين ترقبه ، وقتل اسميث وهو ثابت مطمئن ثم عاد إلى الشارع يحمل القتيل بين ساعديه ...

فوقف انجوس جامداً وقال :

— أيها السيد المحترم ، هل جننت أم أنا الذي جن ؟

فقال الأب برون :

— إنك لست بمجنون ، ولكنك لست شديد الملاحظة ، لأنك مثلا لم تر إنساناً مثل هذا ...

وخطا القسيس ثلاث خطوات واسعة للامام فوضع يده على كتف رجل من سعاة البريد العاديين مر إلى جانبهم تحت ظلال الأشجار دون أن يتنبهوا إليه

واستمر الراهب يقول وهو منهمك في التفكير

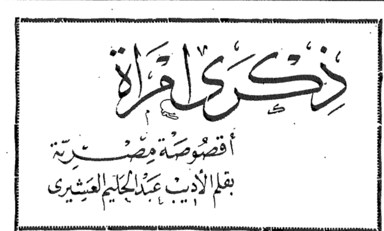
— إن الانسان لا يتنبه عادة إلى سعاة البريد ، على الرغم من أن لهم عواطف كغيرهم من الناس ومن أن في مقدورهم أن يحملوا أكياسا كبيرة لا يصعب أن يختفي داخلها جسم إنسان صغير الحجم

وبدل أن يتلفت ساعي البريد تلفتاً طبيعياً مال ووقع على الأرض مرتطما بسور الحديقة . وكان رجلا نحيلا خفيف شعر اللحية عادي المنظر ، ولكنه حين أدار وجهاً غمره الجزع أخذ الرجال الثلاثة بما في عينيه من حول شيطاني مروع

* * *

عاد فلامبو إلى مسكنه حيث ينهمك بين سيوفه وأبسطته القرمزية وقطه العجمي منجزاً ما لديه من أعمال ، وعاد جون ترنبول أنجوس إلى فتاة الحانوت التي بذل أقصى جهده في التلطف لها . أما الأب برون فقد مشى عدة ساعات صاعدا تلك التلال المغطاة بالثلج تحت نجوم الليل في صحبة قاتل ، ولن يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث ...

عبد الحميد حمدي



ذكرى امرأة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم العشيرى

ما أحسبنى كنت أذكرها بعد ذلك النسيان الطويل ، لو لم أسمع فى تلك القرية النائية من قرى مصر ، وفى تلك الأمسية الساجيــة من أمسيات الريف الغارق أبداً في الهدوء ، هذا الرجل الريفى وهو يغنى فى صوت حزين (الموال) المشهور المنتشر بين جل أهل الريف الذى مطلعه :

« ياعم يالى بلا خال تعال اعملك خالى »

« واحط قلبى الملان على قلبك الخالى »

لقد كان ذلك (الموال) وهذا الرجل يغنيه يعيد إلى ذهنى ضروبا من الذكريات متباينة مختلطة ، إذ كان يرتبط بشىء نسيته منذ زمن بعيد ، بقصة امرأة عجيبة ماتت كنت أسمعها تغنيه حينما كانت تعيش ...

لم يكن الصوت القديم ، صوت تلك المرأة وهى تغنى ذلك (الموال) ، قد بقى منه فى أذنى سوى أثره العالق ، ورغم ذلك فقد جدده صوت الرجل الريفى وهو يردد ويرجع (مواله) . فعدت أسمعه من جديد بكل ما كان فيه ، بنبراته الباكية الكئيبة ، وأنغامه المضطربة النائحة ، وكان كلما تجدد فى أذنى جدد معه ذكريات تلك الحقبة من حياتى التى عشتها وهذه المرأة تعيش وأراها وأسمع عنها .

وشعرت وهذه الذكريات تترى على مخيلتى بشعور مبهم مختلط .. شعور من يعود فجأة وبلا إنذار إلي ماضيه ، ليحيا فى بعض أيامه مرة ثانية ، ويزيل تراب النسيان عما سلف من حوادثه .

كانت تلك المرأة يوم عرفتها فى الأربعين من عمرها ، وإن كانت تبدو فى الخمسين ، ذات جسد متهدم ، ووجه ذابل تظهر فى أضاعيفه آثار جمال تولى ، وكان أعجب ما فيها بسمة وهبتها لها الطبيعة ، بسمة ذاهلة حائرة لم تكن تختفى عن شفتيها إلاقليلاً ، وعيون ضيقة ذاوية تفصح أعماقها عن الداء الرهيب الذى ورثته هذه المرأة عن أسرتها ، وداء الجنون والعته ! .

ولم يكن لها زوج ، كلا بل كان لها هذا الزوج وتوفي بعد أعوام قليلة من معاشرته لها ، ولكن كانت لها ابنة ، ابنة فى سن العشرين أو تزيد حلت ضيفة على المارستان منذ بلغت سن الثانية عشرة .

وكان أكبر ما أدهشنى مما عرفته عن هذه المرأة ، أنها تشرب الخمر ، وتضع منزلها كل مدة ما تحت تصرف رجل تجتذبه إليها بمالها ليعاشرها فيه معاشرة الزوج لزوجته دون أن تربطهما رابطة زواج شرعى . حتى إذا شبعت من معاشرته نبذته ليأتي دور رجل غيره ...

وكأنما خلق الله هذه المرأة مجموعة من المتناقضات والعجائب ، وكأنما وضع فيها أشنع صفات مخلوقاته ، وأقذر غرائز المرأة وأخلاقها ، وأشذ طباعها .

وكنت فى تلك الأثناء التى عرفتها فيها أسمع

عن طيشها وتصرفاتها وأعمالها قصصاً غريبة . وأرى من هذا الطيش وهذه التصرفات والأعمال أيضاً الشيء الكثير الغريب ...

قيل لى ذات يوم إنها شربت زجاجة خمر من زجاجات الخمر الرخيصة التي يبيعها « ديمترى » في دكانه الصغير بالقرية التي كنت أعيش بها وتعيش بها ، فلما ذهبت الخمر بوعيها انطلقت في دروب القرية وطرقاتها سكرى تفوح من فمها رائحة الخمر ، وراحت تصيح بصوت ثمل وهى تضحك ضحكات فارغة عالية مدوية :

— هكذا يجب أن تكون الحياة: خمر وطرب..

ثم ذهبت تسب من كانوا في طريقها من الناس، فاجتمع حولها الصبية وطفقوا يقذفونها بالطوب ، ويغمرونها بالتراب ، حتى لم تعد تحتمل عبثهم فسقطت على الأرض تصيح بكلام غير مفهوم ، ولم يرحمها الصبية عند هذا الحد بل ازداد تنكيلهم بها ، حتى خمدت حركتها واستكانت فى رقدتها على الأرض تنظر إليهم بعين ابتدأت تمى وتفهم وتتألم ...

ولم تستطع العود إلى بيتها فى ذلك اليوم إلا بمساعدة بعض الناس ...

ورأيت أنا بعيني مناظر كثيرة لهذه المرأة وهى تهان على هذه الصورة عقب شربها للخمر وتسلط شيطان الخمر على عقلها .

وكأنما لم يكفها ما أصابها من جنون وراثى ، فأصيبت أيضاً بجنون الخمر وهو شر جنون .

ولا أعرف لم لم تنقل هذه المسكينة إلى المارستان ولعل السبب فى ذلك هو بعدها عن عيون من فى استطاعتهم نقلها إليه ، وعدم وصول أخبارها إلى أولى الشأن فى هذا الشأن .

وقابلت هذه المرأة يوماً ، فرحت أنصحها بترك الخمر وهجر الطيش ، فنظرت إلى بعينين نفذت نظرتهما إلى أعماق وقالت ساخرة :

— عشنا لنرى أولادنا ينصحوننا ، يا صغيرى العزيز احتفظ لنفسك بهذه النصائح الغالية . وظلت على طيشها وجنونها بل تمادت فيهما .

وفى ذات مساء شهدتها وهى تتخلص من رجل كان يعاشرها وتعاشره فلته ، كانت تقول له وهو جالس القرفصاء فى ركن من أركان إحدى غرف منزلها الصغير ، وعلى وجهه دلائل الخوف ، وفى عينيه وميض الشقاء المقبل الذى سيعود إليه بعد أن استمتع بحلاوة الحياة ونعيمها وراحتها بجوار هذه المرأة .

— فى صباح الغد يجب أن تجمع ثيابك ياطفلى الغر ، وتذهب إلى حياتك التى انتزعتك منها مدة ما فلن أستطيع أن آويك أكثر من ذلك ...

فتلقى كلماتها ساكناً وهو ينظر إليها نظرة المحروم ، أو المطرود من دار حلوة ليس له حق المعارضة فى طرده منها

وعادت المرأة تقول وقد شاعت فى وجهها فرحة:

— وسوف آتى فى القريب برجل آخر من نوع آخر أبوئه مكانك ...

وظهر على الرجل أنه يكاد يبكى ، ولكنه تماسك واستطاع أن يبدد ما ظهر عليه ..

وهكذا تخلصت من رجل ممن تتخذهم أزواجاً أو بالمعنى الصحيح أشباه أزواج ..

وبعد أيام قيل لى إنها اتخذت زوجاً جديداً ، وقد رأيته ... وكان فتى ما يزال أخضر الشارب ،

مديد القامة فى امتلاء ، على كثير من الوسامة وإن كانت تقاطيع وجهه تنبئ بنفس شريرة أثيمة

وتتبعت أخبار حياتها مع هذا الفتى مدة ما ، ثم شغلتنى شواغل الحياة عن ذلك بضعة أشهر قيل لي بعدها إنها تركته وإنها تبحث لها عن رجل آخر جديد ، ويشاء الله أن يوقعها فى الحب فتنسى البحث عن هذا الرجل ...

ولم أصدق فى أول الأمر أنها وقعت فى شراك الحب ، ولكن الدلائل على ذلك كانت كثيرة فصدقت. ولقد يكون غريباً أن تحب امرأة كتلك، والواقع أنى لا أزال أعجب من هذا إلى الآن ...

ومَن أحبت ؟.. أحبت ضابط (نقطة) القرية الذى طالما ألقى بها فى سجن « المركز » والذي طالما أمر عسكره بجلدها لانطلاقها فى الطرقات سكرى. لكأنما لم تدع هذه المرأة شيئاً غريباً شاذاً دون أن تأخذ منه بقسط

وبدأت أهتم بالمرأة وبأخبار حبها ، وكثيراً ما كان يرتسم فى مخيلتى قلب امرأة فى الأربعين من عمرها وقد عادت تجرى فيه دماء الحياة والشباب والحب بعد أن شاخ وهرم ، فأقول لنفسى إن الله قادر على كل شيء يحيى العظام وهى رميم

وانقضت على هذا الحب تسعة أسابيع، وزرت ضابط «نقطة» القرية، وكانت لى به معرفة ازدادت أخيراً ، ورأيت أن أتحدث معه فى أمر تلك المرأة العجيبة التى تحبه ، فقلت له :

— هل أتاك نبأ تلك المرأة التى تحبك ؟

ففهم على الفور أى امرأة أعنى، وتبسم وهو يقول:

— طبعاً . ولكنى أعجب كيف أحبتنى هذه المرأة المجنونة ...

قلت : أواثق أنها تحبك ؟

قال : هذا ما يبدو لى ...

قلت : وماذا ترى فى ذلك ؟

قال : لا شيء . لقد قلت لك إنها امرأة مجنونة .

ثم صمت لحظة وأردف ضاحكا :

— دعنى أحدثك عن حادث عجيب ، أو قل مضحك جرى لى معها منذ أيام ...

قلت على الفور : هات ما عندك . أسرع فراح يحدثنى :

— كنت مضطجعاً على أريكة فى إحدى غرف منزلى لأستريح بعد أن قضيت يوماً كله عمل وكد وفجأة انفتح باب الغرفة ، ودخلت علىّ تلك المرأة تترنح ثملة ورائحة الخمر تنبعث من فمها ، وحينما رأتنى اندفعت تجرى إلىّ ، ومالت على تدني من فمى جبينها المغضن الكريه وهى تتمتم فى صوت لاهث ثمل مثلها:

« هيا قبلنى أيها الحبيب ، على جبينى هنا ، فانى أخاف أن تأنف من تقبيلى فى فمى الذى لوثته الخمر هيا فقد تشاجرت بسبب هذه القبلة مع الشرطى الذى يقوم على خدمتك ، حينما أراد منعى من القدوم إليك ، واضطررت فى آخر الأمر إلى حبسه فى « المطبخ » وإغلاق بابه عليه بالمفتاح ، هيا ولا تدعنى أنتظر فان قواى تتلاشى من التعب الذى سببه لى هذا الشرطى العنيد »

وكانت رائحة الخمر المنبعثة من فمها تضايق أنفاسى وكان جبينها بغضونه وقذارة شكله يثير فى نفسى الاشمئزاز ؛ فاستجمعت قواى ودفعتها بيدى بعيداً عنى ، دفعتها دفعة قوية أسقطتها على الأرض كما تسقط القطعة الكبيرة من الخشب ، وارتطم رأسها بالبلاط فخيل إلى أنه تحطم ، وسمعت صرخة خفيفة

انسابت من بين شفتيها كأنها عويل مخنوق ، ثم ... ثم نهضت وتركت الأريكة والغضب يأخذ منى كل مأخذ ، فرأيتها تنظر إلى فى عتاب رحيم وتقول :

« فى سبيلك أيها الحبيب » ولم تلفظ بغير هذه الكلمات ، وخرجت فأطلقت الشرطى المسجون فى « المطبخ » وطلبت منه أن يذهب فيحملها ويلقى بها خارج المنزل . وقد كان

وصمت الضابط وهو يخرج من علبة دخائنه دخينة وضعها بين شفتيه وتمتم :

— لقد قلت لك إن هذه المرأة مجنونة ...

وأشعل الدخينة وراح يدخنها فى صمت ، واستأذنته فى مبارحته ، ثم انطلقت إلى الطريق وأنا أشعر بقلبى قد امتلأ شجناً

ولم تفارق مخيلتى فى ذلك اليوم وليله ، صورة امرأة فى الأربعين سكرى ملقاة على أرض إحدى غرف منزل تنظر فى عتاب رحيم للرجل الذى أهانها بالقائه لها هكذا على أرض الغرفة ... الرجل الذى تحبه ولا يحبها ، وتهتف قائلة له « فى سبيل حبك أيها الحبيب ! »

* * *

وكانت الأيام تمضى وأنا أرقب عن كثب تلك المرأة العجيبة واهتمامى بأمرها يتضاعف ويتضاعف فى كل يوم وفى كل ساعة ، وكنت معها ذات يوم عندما أتاها نبأ موت ابنتها نزيلة البيمارستان ، أبداً لن أنسى ما بدا على وجهها وما لاح فى عينيها وقتذاك ، لقد لاحت فى عينيها نظرة حائرة تائهة ، وبدت على وجهها جهامة وانقباضة وتفكير ، وظلت على ذلك بضع دقائق ، ثم تندت عيناها بالدموع وهتفت فى خفوت :

— ابنتى ماتت .. أوه ! لقد كدت أنسى هذه البنت المسكينة ...

وسقطت قطرة من دموعها بين شفتيها فمسحتها بأصبعها فى سهوم وشرود ، ثم تكلفت الابتسام وهى تقول :

— ولكن لاداعى للحزن ... فكلنا سنموت.

وكنت مع بضعة نفر من أهل القرية التفوا حولها قد عمنا الوجوم والصمت ، فنظرت إلينا وهى تضحك فى اضطراب وأردفت قائلة :

— لماذا صمتكم ووجومكم هذا ؟ ! هيا عودوا إلى حالتكم التى كنتم عليها قبل الآن « فرفشو » . ابتسموا ، أيؤلمكم منظر أم ماتت ابنتها ؟! ...

وطفقت تضحك ضحكات كأنها العويل والنواح فلما وجدتنا لم نغير من حالنا انقطعت عن الضحك فجأة ونظرت إلينا فى دهش ، ثم فى ابتئاس ، ثم فى ... ثم نظرت إلينا نظرة لم أفهم لها معنى ، وتركتنا فى خطوة متعثرة دافنة وجهها بين راحتيها تنتحب ... !

محال أن تزيل يد النسيان من ذهنى هذه اللحظات ومحال أن تسلبنى منظر تلك المرأة فيها[1] محال

ومن ذلك اليوم ابتدأت أسمع تلك المرأة وهى تغنى ذلك الموال الذى يقول مطلعه :

« يا عم يا اللى بلا خال تعال اعملك خالى »

« واحط قلبى الملان على قلبـك الخالى »

وكانت تشرب الخمر حتى تتمايل سكراً ، وتنطلق فى طرقات القرية تغنيـه بصوت مضطرب يغص بالحزن والبكاء ، وكان الصبية ينطلقون خلفها فى كثير من الأحيان يرمونها بالطوب ، ويحتفنون

(١) أعنى منظرها فى تلك اللحظات

التراب يلقونه عليها ، وكثيراً ما أنقذها الناس ولهوهم يكاد يقضي عليها ...

مسكينة ... لقد كانت تعيش بقلب جريح ، وعقل مجنون ... كانت فريسة لحب يائس وجنون أليم ، وحزن تملكها بعد موت ابنتها . وعبثاً حاولت أن تجد ذلك الرجل الذي لا « خال » له لتضع على قلبه « الخالي » قلبها المملوء بالآلام والأشجان !

***

وانتابت البائسة في يوم من الأيام حمى شديدة فخرت على فراشها تعانى آلام هذه الحمى فوق ما تعانيه من آلام قلبها وعقلها ، والتفتت حولها تبحث عمن يقوم على خدمتها في محنتها الأخيرة هذه فلم تجد أحداً سواى ، كان كل الناس قد هربوا منها إلا إياى ، فلقد كنت أعطف عليها وأرثى لها فلم أشأ أن أتركها تقاسى ألم المرض وحدها ؛ ونظرت إلى وهى تقول :

— ولكنى أسأت إليك من قبل يا سيدى

فقلت : ما فات مات ...

وكانت لى صلة بطبيب يقيم فى « المركز » الذى تتبعه قريتنا فاستقدمته ليشرف على علاجها ، وأثر فى المرأة هذا العطف والاهتمام ، فراحت تدعو لى بالسعادة وراحة البال وطول العمر

وقد خف جنونها فى أيام هذا المرض ، ولكنها فى أحيان كثيرة كانت تحن إلى الخمر فلا أستطيع منعها من شربها ، وفى ذات مرة أخذتها سنة من النوم وأنا بجوارها ، فسمعتها تهتف باسم ضابط « نقطة » القرية ، وأثر فىّ ذلك فاستعبرت وأنا أرنو إلى وجهها الشاحب وأهز رأسى فى أسى وإشفاق

ولما استيقظت نظرت حولها فى دهشة وتبسمت فى كآبة وهى تتمتم :

— لقد خيل إلي فى نومى أنه أتى ليعودنى ...

ألا ما أقساه من حبيب ...

وتلألأت فى عينها دمعة ...

وبعد لحظة التفتت إلى تسألنى :

— هل قابلت ضابط « النقطة » منذ قريب ؟

قلت : أجل ...

فسألتنى فى إسراع وهى تكاد تذوب شوقاً ولهفة :

— وكيف حاله ؟

قلت : كما هو ...

فأغمضت عينها وظهر عليها أنها تستعيد شيئاً حلواً ، ثم عادت ففتحتهما والتفتت إلى قائلة :

— هل رأيت فى هذه الدنيا امرأة أشقى منى ؟

فنظرت إليها طويلاً ... ولكنى لم أجبها ...

وتصرمت أيام . وفوجئت بخبر يقول إن ضابط « نقطة » قريتنا سينقل بعد يوم إلى « نقطة » أخرى فى بلد بعيد ، وكانت صحة مريضتى قد ساءت وتدهورت لخاوات بكل ما وسعنى أن أمنع هذا الخبر من الوصول إلى أذنها حتى لا يصيبها بشر جديد ، ولكن رجلا ممن عادوها تدفعهم الشفقة أوحب الاستطلاع أوصله إليها دون أن أعلم ، فلما اختلت بى بعد ذلك وكنا فى الصباح قالت لي وصوتها يرتعش :

— سوف أذهب فى المساء لأودع ضابط « النقطة » فقد علمت أنه سينقل إلى بلد آخر غير هذا البلد . فهل تستطيع مرافقتى إلى منزله ...

قلت وأنا أعجب لها فى نفسى وأخفى عجبي

— إنك الآن فى أسوأ حالات المرض ، فلا ينبغى أن تكلفى نفسك مشقة ...

— وهل تحسبنى أستطيع تركه يذهب دون أن أودعه ؟!

— سوف آتى به إلى هنا فتودعينه وأنت على فراشك ...

فنم وجهها الفرح وصاحت وهى لا تصدق ما أقوله :

— أوَ يقبل المجىء إلى هنا ؟

فطمأنتها ...وأكدت لها أنى سأحمله على الحضور إليها ، وذهبت فرجوت الضابط أن يأتى معى إليها ، وقد رق لها قلبه بعد أن وصفت له حالها ، فأجاب رجائى ورافقنى إليها

وحينما دخل عليها كادت المسكينة تموت من الفرح ، واغرورقت عيناها بالدموع وهى تنظر إليه غير مصدقة أنه هو حقاً ...

ورق لها قلب الضابط أكثر ، فانحنى عليها يضع على جبينها قبلة ... القبلة التى أهانها من قبل حينما طلبتها منه ، وأمسكت المرأة بيده تضغط على أناملها فى عصبية وهى تصيح

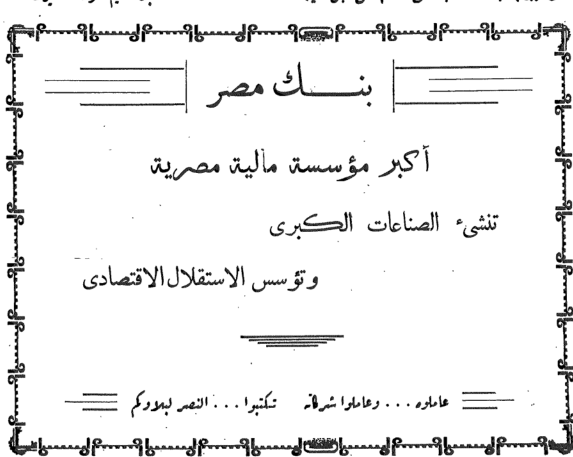
— أنت ... أنت ...

وبعد حديث ووداع دام بضع دقائق غادرها الضابط ، وقد بدت على شفتيها وهى تشيعه إلى الباب ببصرها الكليل بسمة فيها حزن ووداع وبكاء والتفتت إلى تقول بعد أن ذهب :

— إنى لا أصدق. يخيل إلى أننى كنت فى حلم ...

وفى اليوم التالى سافر ضابط «النقطة» إلى البلد البعيد الذى نقل إليه ، وبعد أيام من سفره ماتت المرأة المريضة السكيرة المجنونة التى أحبته فلم تسعد بحبها إلا مرة واحدة ، فودعت بموتها امرأة عجيبة ، مرت بحياتى كما يمر بخيال النائم حلم عجيب !

عبد الحليم محمود العشيرى



حاجي بابا أصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثامن والأربعون

حاجي بابا يعود الى بيت أبيه في أصفهان

لم أنتظر سماع كلمة أخرى وخرجت فى الحال من مدينة قم ، وكان فى جيبي دريهمات قليلة تكفى لشراء القوت فى أثناء الطريق . ولقد كان بودى أن أبقى فى مدينة قم حيا وأن أنضم إلى تلاميذ ميرزا أبي القاسم ؛ ولكن دفعني إلى العودة نحو وطني طول شوقي إلى أبي واعتقادى أن ما رأيته من الكروب والمصائب إنما يرجع إلى عقوق له وقلت فى نفسي : « أنا لو كنت ابناً باراً لما أهملت أبي فى أصفهان وتركته فى ضعف الشيخوخة مضطراً إلى مزاولة حرفة الحلاقة لكي يكتسب القوت »

ولم أزل أسير حتى بدت لى أصفهان عن بعد ، فخفق قلبي وانشغل فكري بتصور الحالة التى سأجد عليها أسرتى ، وتساءلت : هل أجد معلمي لا يزال على قيد الحياة ؟ وهل جارنا البدال الذى كنت أشترى منه الحلوى لا يزال مقيما فى حانوته ؟ وهل صاحبي بواب الخان لا يزال جالساً أمام الباب الذي اعتاد الجلوس عنده طول ليله وطول نهاره ؟ وهل إذا رآني سيذكر زيارتى مع التركمانيين لهذا الخان وسرقتنا منه ما وصلت إليه أيدينا ؟

ولما صرت قريباً من باب أصفهان وقفت خاشعاً وأقمت صلاة الشكر ، وقلت فى نفسي : إن أبي سيرانى بعد قليل وسيعرف أن ابنه لا يزال على قيد الحياة ، ونذرت لسيدنا على نذراً بأنى إن وصلت ، فوجدت أهلي بخير فسأذبح ذبيحة وأدعو إليها الفقراء

وكان خفوق قلبي لا يزال يعلو ويزداد كلما اقتربت من حانوت أبي . وسرت فى الطريق التى كانت لا تزال كعهدها وكانت معرفتى بها لا تزال حاضرة فى الذهن حتى وجدت نفسي بين حانوت أبي وبين الخان

وكان باب الحانوت مغلقاً ، وجعلني الخوف من سماع جواب سيء أحجم عن السؤال عن أبي ، ولكن لما ملكت روعي تذكرت أن اليوم يوم جمعة وأنه لا يبعد أن يكون أبي قد جعل الصلاح دينه فى أخريات أيامه فترك العمل فى أيام الجمعة . وبعد قليل فتح باب الخان ورأيت صاحبي البواب يسير محاذياً للحائط وقد احدودب ظهره وصار بياض لحيته ورأسه ناصعاً ، ولكنني عرفته من أنفه الأقنى الذى أستطيع تمييزه بسهولة من بين ألف من الأنوف فحييته التحية المعتادة ، فرد على دون أن ينظر إلى وجهي

فناديته باسمه وقلت : « ألا تعرفني يا على ؟ »

فنظر إلى وقال : « إن الخان أيها الصديق معرض للدنيا ، ففى كل يوم أرى عشرات من الوجوه ولا تستطيع ذاكرتي أن تعيها كلها »

قلت : « لا بد أن تكون متذكراً حاجي بابا الذى كان يحلق لك فى الزمان القديم » ، فقال البواب « لا إله إلا الله ! أأنت حاجي بابا ؟ لقد خلا مكانك منك مدة طويلة فهل رجعت فى النهاية ؟ الحمد لله

لقد أذن لكربلائي حسن بأن يرى ابنه قبل أن يموت

قلت : « ماذا تقول ؟ أين أبي الآن ؟ لماذا تذكر الموت ؟ »

فقال : « لقد شاخ أبوك وهو الآن على فراش الموت فلا تضيع وقتك سدى واذهب فى الحال لعلك تدركه قبل أن تفارقه الحياة ... »

واستمر البواب يتكلم ولكنني لم أقف حتى أسمع بقية كلامه بل ذهبت تواً إلى المنزل فوجدت بالقرب من بابه شيخين يتسكعان فلم أسترح لرؤيتهما لأني عرفت أنهما من رسل الشؤم

ودخلت المنزل فوجدت فيه رجالا كثيرين قد أحاطوا برجل نائم فنظرت إليه وقد عرفت أنه أبي ولم يعرفني أحد من الموجودين ولكن أحدهم لم يعترضني لأن العادة جرت فى هذه البلاد على أن يدخل غرفة المحتضر من يشاء من معارفه دون استئذان ، ووجدت فى طرفى الغرفة رجلين أحدهما الطبيب والآخر معلمى السابق ، وكان المعلم يعزى أبي بهذه الكلمات : « لا تيأس فقد يمد الله فى أجلك حتى ترى ابنك حاجى بابا ولكن الحزم يقضى بأن تكتب وصيتك وتعين اسم وارثك »

فتنهد أبي وقال بصوت خافت : « لقد عقني ابني ولم يفكر فى أمرى فهو غير جدير بأن أجعله وارثى »

فكان أثر هذه الكلمة شديداً علىّ ولم أستطع مع سماعها إلا أن أعلن وجودى فقلت : « إن حاجى بابا هنا وقد جئت يا أبي لتدعولى فلا ترفض » ثم ركعت بجانب الفراش وأخذت يده فقبلتها وبكيت ، وكان لما بدا مني تأثير قوي على جميع الموجودين وبدا القلق على وجه البعض ولكن الدهشة كانت بادية على أوجه الجميع

وفتح أبي عينيه اللتين كانتا مغمضتين وقد ومض فيهما بريق السرور وظهرت عليه الرغبة الشديدة فى رؤيتى وأمسك بيدى والتفت إلىّ وقال : « الحمد لله ! » ثم قال : هل كان حسناً منك أن تتركني كل هذا الأمد ؟ أما كان يحسن أن تأتى قبل الآن ؟ »

وكان يود أن يستمر فى عتابه ، ولكن الانفعال الذى أحدثته هذه المفاجأة كان أكبر من أن تحتمله صحته الضعيفة فخارت قواه وارتمى رأسه على الوسادة وقال لى معلمى : « اسكت يا حاجى بابا ! لا تقل شيئاً حتى يفيق لأنه يريد أن يكتب الوصية »

وقال شاب كانت عيناه تنظران إلى نظرة شديدة العداوة : « نعم . وعلينا أن نتحقق هل هذا هو حاجى بابا أم لا »

وقد تبينت أن هذا الشاب هو أخو زوجة أبي وكان يطمع أن يوصى أبي له بجزء كبير من تركته كما كان معلمى يطمع فى مثل ذلك وقد تحققت أيضاً فيما بعد أن أكثر الموجودين كانوا يطمعون فى أن يوصى لهم أبي بأجزاء من تركته ، وأن مجيئى كان نكبة عليهم لأنهم حرموا جميعاً مما كانوا يطمعون فيه . ولولا أن المعلم شهد بأنني حاجى بابا لاجتمعت كلمة الباقين على طردى من هذا المجلس ولقد زال كل شك في حقيقتي عند ما فتح الباب بعد قليل ودخلت منه أمي لأنها لما سمعت خبر مجيئي لم تستطع البقاء فى حجابها وراء الستور ودخلت الغرفة مبسوطة الذراعين لتعانقني وقد نسيت أن تضع على وجهها نقاباً وصاحت : « أين ابني ؟ أين أنت يا حاجى بابا ؟ »

فلما أظهرت نفسي لها ارتمت علىّ وبكت بصوت

عال ونطقت بكل كلمة رقيقة أملتها عليها الذاكرة فى الحين . ونظرت إلى من الفرع إلى القدم نظرة محب مشتاق — لا، بل نظرة أم، لأن العواطف التى أبدتها لا تظهر إلا من الأمهات

وفى هـذا الحين كان الطبيب يحاول أن ينبه أبى من الإغماء وأبدى أبى علامة سيئة لم يجسر الطبيب معها على إعطائه الدواء قبل أن تمر ساعتان

وبعد ساعتين أعطى الدواء وبدلا من أن يقوم فيملى وصية كما كان الـكل ينتظر ، فانه فقد النطق والحركة . ولما فحصوه وجدوه قد مات ، فقال المعلم : « أتوسل إليك باسم الله أن تفيق فاننا نريد أن تكتب الوصية »

وكان صوته وهو يقول ذلك أشبه الأصوات بالبكاء . وقام فهز رأسه ولكن بغير جدوى لأن الحياة قد فارقته . وبلوا قطعة من القطن فعصروها فى فمه وأداروه نحو القبلة . ثم أخذ معلمى يرتل آيات من القرآن ، ووضع منديلا تحت رأس أبى وربط فوق رأسه، ثم ربط إبهامى قدميه معاً ونطق جميع الموجودين بالشهادتين . وبعد ذلك اجتمع النساء حول الجثة وأخذن فى البكاء والنحيب،وفى الوقت نفسه أخـذ اثنان من حفظة القرآن يرتلان سورة من القرآن

ولما سمع البكاء فى المنازل المجاورة هرع كل نسائها إلى منزلنا لأن أبى كان محبوباً من أهل جيرته وقد حضر المأتم والجنازة من الرجال ومن النساء أكثر من العدد الذى يحضر عادة فى مأتم أى خان أوميرزا

وعلى الرغم من كثرة المعزين فقد كنت أنا الحزين الوحيد لأن موته ذكرنى بكل الحوادث المؤلمة التى مرت بى فى الحياة ، وكنت جالساً منفرداً فى ركن من الغرفة أبكى بكاء صامتاً لا كالبكاء المتكلف الذى يبكيه الباقون . وجاءنى أحد الجيران فقال إن التقاليد تقضى بأن أمزق ثيابى لأدل بذلك على أنى ابن بار فقلت له : « ألا يمكن أن أؤدى واجب البر وأحتفظ بالثوب الذى لا أملك غيره ؟ »

وقال لى أيضاً إنه يجب على أن أترك رأسى عارياً وقدمى حافيتين حتى يتم الدفن فوافقت على ذلك . وعلمت فيما بعد أن هذه الموافقة أكسبتنى سيرة حسنة فى موطنى، وكان حزن أمى عنيفاً فقد قطعت شعرها ومزقت ثيابها وكانت صرخاتها عالية تشق عنان السماء

وأخذ معلمى بيدى وقال لى ليعزينى : « لقد مات أبوك ولكن أليس الموت غاية كل حى ؟ لقد مات ولكن هل خلد إنسان قبله حتى كنت تطمع فى أن يخلد ؟ إنك قد حللت فى الدنيا محله . فأد ما كان يؤديه من الأعمال الصالحة . وأيقن أنه الآن بين حوريتين من حور الجنة يشرب اللبن والعسل الالهيين فهل هـذا هو يبكيك ؟ أنظر إلى النعم التى من الله عليـه بها واحمده فقد كان من المحتمل أن يموت كافراً ولكنه بحمد الله مات مؤمناً . وقد كان من المحتمل أن يولد تركياً ولكن الله من عليه بأن جعله إيرانياً . وقد كان من المحتمل أن ينشأ سنياً ولكن رحمة الله قضت أن يعيش شيعياً . »

واستمر يعزينى على هذا المنوال حتى سئمت فتركنى ليحادث غيرى ، وجئ برجال لم أر فى الحياة أقذر منهم ليغسلوا أبى قبل دفنه . واستشارونى هل يستأجرون عدداً من حملة الأعلام والشارات ليسيروا أمام الجنازة كعادة الوجهاء أم يجعلونها بسيطة

كالفقراء؛ فأحلتهم إلى معلمي ليجيب بالنيابة عني. وكان جوابه أن أبي كان من المعروفين في المدينة الذين اتسمت شهرتهم، وأنه لذلك يجب أن يدفن كما يدفن سائر الوجهاء. فجيء بعدد كثير من هؤلاء وساروا بأعلامهم أمام النعش الذي تطوع كثيرون لحمله على أعناقهم فدلوا بذلك على أن أبي كان محبوباً. وكانت الجنازة كلما تقدمت مسافة في الطريق انضم إليها فريق من الناس حتى إذا ما وصلنا إلى المدفن كان عدد المشيعين لا يستهان به

وبعد أن أقيمت الصلاة جرت عملية الدفن وجلس حول القبر اثنا عشر قارئاً للقرآن فتلوا آيات معينة ثم قرئت الفاتحة ثم ودعني المشيعون على أن يقابلوني فيما بعد بالمنزل

ولما صرت وحدي سألت نفسي: « هل النذر الذي نذرته عند باب المدينة أصبح واجب الأداء أم صرت في حل منه ؟ »

ولما لم أهتد إلى جواب عزمت على أن أستشير ولما عدت إلى المنزل وجدت كثيرين في انتظاري. وكان وقت العشاء قد حان ورأيت أن واجب البنوة في نظر أهل المدينة يقضي بأن أنفق عن سخاء، فلم أجد بداً من الوفاء بالنذر فأمرت بأن تذبح ذبيحة وبأن يقدم الطعام إلى كل من في المنزل من المعزين واستأجرت ثلاثة من حفظة القرآن ليقرأ واحد منهم ما تيسر منه في الغرفة التي مات أبي فيها وليقرأ الآخران عند القبر

وبعد أيام لا أعرف عددها جاء أناس كثيرون فجلسوا في أكبر غرفة بالمنزل على شكل دائرة وكان في يد كل منهم جزء من القرآن وأخذ كل منهم يقرأ بصوت عال سورة غير التي يقرؤها الآخر وكانت قراءتهم في وقت واحد وبذلك تمت قراءة المصحف كله في وقت قصير

وعلى أثر ذلك ذهبت أمي وكثيرون من النساء إلى القبر وأخذن معهن مقادير من الفاكهة وأنواعاً الطعام وفرقن ذلك على الفقراء ثم عدن إلى المنزل نائحات بأعلى أصواتهن

وبعد أيام أخرى خلعت أمي حزنها وارتدت ثياباً بيضاء وصبغت شعرها ويديها بالحناء وبذلك انتهت كل إجراءات الموت وتركت وشأني لأدبر تركة أبي ولأفكر في مستقبلي

الفصل التاسع والأربعون

حاجي بابا يصبح وارثاً لتركة غير موجودة

مات أبي ولم يترك وصية فكنت وارثه بغير منازع وكان من الطبيعي أن يسرف في ذمي الذين كانوا يطمعون في أن تنتقل إليهم التركة بالوصية وأن يتهموني بالاسراف وبأنني عاق وبأني غير متدين وبأني جواب آفاق

ولما كان في عزمي ألا أقيم في أصفهان فقد نظرت إليهم نظرة احتقار ولم أهتم بأي قول يقولونه ولما قابلت أمي على انفراد دار هذا الحديث:

قلت: « أخبريني يا أمي — فانه لا ينبغي أن يكون بيننا سر — عما تركه أبي فقد كان يحبك ولا يمكن أن يكون أخفى شيئاً عنك »

فقالت باضطراب واشمئزاز: « وماذا تريد من تركته ؟ » فاستأنفت قولي متظاهراً بأني لم أسمع جوابها وقلت: « تعرفين أن الوارث ملزم في الشرع والقانون بأن يسدد ديون مورثه وتعرفين أن نفقات الجنازة لم تدفع بعد. وأنا الآن مجرد من المال كاليوم

الذى ولدتنى فيه ولا بد لى من الحصول على المال. وإلا فانى أفتضح ويهان اسم أبى ويتمكن منى أعدائى وقد اشتهر أبى بأنه غنى ويجب محافظة على سمعته ألا يظهر عكس ذلك على أثر وفاته فأخبرينى يا أمى كم ترك من المال وكم عليه من الديون ومن هم دائنوه وهل له مدينون »

قالت أمى : « الله ! الله ! ما هذا الكلام الذى تقوله يا حاجى بابا ؟ لقد مات أبوك فقيراً ولم يترك مالا ولا عقاراً وقد كنا لا نأكل غير الخبز الجاف إلا في الأيام التى يكثر فيها زائرو هذه المدينة من التجار فانه كان يأتى بطبق من الأرز وآخر من الكباب . أما فيما عدا ذلك فان معيشتنا لم تختلف شيئاً عن معيشة الشحاذين فما هو المال الذى تسألنى عنه ؟ هذا هو المنزل أمامك فابحث فيه ما شئت وهذا هو حانوت أبيك فانظر ما الذى فيه ! لقد كان وصولك فى وقت مناسب فافتح حانوت أبيك واستمر فى صناعته وإن شاء الله جمع لك من الثروة ما ترجوه »

فقلت : « هذا الذى أسمعه يا أمى شديد الغرابة فان أبى ظل يكتسب أكثر من خمسين عاماً ويستحيل ألا يكون قد وفر شيئاً فى خلال هذه المدة . وأريد الآن أن نقتسم ذلك الربح »

قالت فى شىء من الاهتياج : « نقتسم ؟ هل تتهم أمك ياحاجى بابا بأنها سرقت منك أو من أبيك شيئاً . إذهب وسل أصدقاء أبيك . إسأل معلمك فهو يعرف إن كان أبوك ترك شيئاً أم لا »

فقلت : « إن المعلم لو كان يعرف لما ألح قبل موت أبى في كتابة الوصية . ومع ذلك فاني سأقابله وأسأله »

وذهبت فوجدته جالساً فى ركن من أركان المسجد بين حلقة من تلاميذه. ولما رآنى طرد تلاميذه وقال : إن خطواتى إليه خطوات سعيدة وإنه يسر بأن يقدم لى كل خدمة أريدها

قلت : « لا تضحك على بهذه الكلمات . لقد كنت أنتظر من القدر الذى حرمنى من أبى أن يمنحنى ما أستحقه من ميراثه »

فرفع المعلم عينيه إلى السماء وقال : « الله كريم هكذا يا بنى حال الدنيا وعلى العاقل الحكيم أن يسد عينيه عن كل المطامع الدنيوية فلا يتطلع إلى شىء من تراثها الفانى »

فقلت : « من أى عهد أصبحت صوفيا حتى تتكلم بهذه اللهجة ؟ إننى أستطيع أيضا أن أقول مثل هذا القول ، ولكن أمامنا أموراً جدية »

وطلبت إليه أن يخبرني عما تركه أبى

فتنحنح وتظاهر بالجد والوقار وأقسم أغلظ الأيمان أنه لا يعرف إلا ما سمعه من أمى ، وأن أمي قالت له إن أبى مات ولم يترك شيئا من المال

وجمت مدة طويلة ثم أبديت دهشتى مما سمعته لأن أبى كان رجلا متدينا وكان يملك بغير شك مقداراً وافراً من المال . ويبعد أن يكون قد أقرضه بالربا . وتذكرت قصة تدل على استحالة ذلك، وهذه القصة هى أن عثمان أغا أراد أن يقترض منه بالربا فذهب أبى إلى أحد العلماء وسأله هل يبيح الدين ذلك ، فتلا عليه العالم آية من القرآن تحرم التعامل بالربا قطعا وقال لى أبى بعد ذلك إنه لن يقرض ولن يقترض ما دام حيا ، وأوصاني بأن أكون مثله فى ذلك

تركت المسجد يائساً من الحصول على المعلومات التى كنت أريدها وذهبت إلى حانوت أبى فجلست

به وفكرت فى الوسيلة التى أحصل بها على رزق فى المستقبل وعزمت قبل كل شىء على ألا أقيم فى أصفهان وفكرت فى الذهاب إلى طهران لأنها خير بلد يعيش فيه رجل مثلى . وقام بنفسى اعتقاد أنه من المستحيل أن تكون أمى وململى صادقين فيما زعماه من موت أبى مفلساً . فبدا لى أن أحتكم معهما إلى القاضى

وبينما أنا أفكر فى هذه الأمور إذ رأيت صاحبى بواب الخان ، ولما وقع نظره على أقبل نحوى وعزانى ولما رأى شدة انقباضى وشرود ذهنى قال لى : « لماذا تحتمل كل هذا الهم ؟ إن أباك قد مات ولكنه تركك فى سن تستطيع معها العمل وأنت وريثه ولم يكن رحمه الله فقيراً »

قلت : « نعم إننى وريثه ولكننى لم أجد شيئاً أرثه فيه إلا هذه الطسوت النحاسية والمواسى وإلا البيت المبنى بالطوب النيء »

فقال : « ولكن أين ماله يا حاجى بابا ؟ لقد اشتهر أبوك بأن لديه مالا كثيراً . وكل إنسان فى المدينة يعلم أنه ما كان يمر يوم واحد على أبيك دون أن يزيد على المدخر عنده من المال مقداراً آخر »

قلت : « هـذا صحيح . لكن أية فائدة لى من هذا القول ما دامت أمى تنكره ومملى يشهد لها ؟ إنه لم يعد أمامى غير أن أذهب للقاضى »

فقال البواب : « تذهب للقاضى ؟ معاذ الله أن تذهب للقاضى ! لا تذهب إليه فانك لن تستفيد منه شيئاً وهو لا يهب العدل ولكنه يبيعه بالمثقال »

قلت : « وما الذى أفعل ؟ » فقال : « اذهب إلى المنجمين فانهم يرشدون عن كل مال ضائع وقد رأيت كثيرين من التجار استدلوا على أموالهم المفقودة بهذه الطريقة ولست أعرف حادثة لم يستطع المنجمون الوصول فيها إلى مال مفقود إلا حادثة اعتداء التركمان على الخان ، ولقد جلبت على هـذه الحادثة ويلات عظيمة لأن بعض الناس اتهمونى بأنى كنت شريكا لهم لأنى أنا الذى فتحت الباب للصوص وقلت إن فيهم صديقاً لى اسمه مثل اسمك يا حاجى بابا »

ولقد كان من حسن حظى أن هذا البواب ضعيف البصر فخلت شبهة فى نفسه محل اليقين فى أمر هذه الحادثة ووعدنى بأن يرسل إلىّ أعظم منجم فى أصفهان وقال لى فى وصفه إنه يخرج قطعة الذهب من تحت أطباق الأرض

الفصل الخمسون

حاجى بابا والمنجم

فى صباح اليوم التالى جاء رجل إلى غرفتى قصير القامة هزيل الجسم أحدب الظهر كبير الرأس لم أر عينين أشد سطوعاً من عينيه فعرفت أنه المنجم . وكان عليه ثوب من ثياب الدراويش .

وقد بدأ بسؤالى عن كل شىء حدث لى خصوصاً بعد عودتى إلى أصفهان وكان يدقق فى البحث عن التفاصيل ويسأل عن كل رجل له معرفة بأبى .

ولما كانت أمى فى ذلك الوقت متغيبة فى الحمام فلم أخبرها بعد ذلك عن مجىء المنجم ولكننى رجوتها أن تدعو فى اليوم التالى كل أهلى ليتغدوا عندنا ...

ولما اجتمعوا فى المنزل سلمت عليهم وقلت لهم إننى أريد الاستشهاد بهم على ما تركه أبى فنظر بعضهم إلى بعض وبدلاً من أن يشتركوا مع أمى

فى التكلم أظهروا استعدادهم لمساعدتى فى الوصول إلى الحقيقة . وفى هذا الوقت جاء المنجم بناء على اتفاق سابق معه وجاء معه أحد تلاميذه .

أطال المنجم نظره فى وجه كل واحد من الموجودين ثم أجلس تلميذه أمامه وأملى عليه آيات من القرآن وهذه الآيات تتضمن الوعيد لمن يأكل أموال اليتامى بالباطل ثم جاء بفنجان فيه قليل من الزيت ووضعه فى كف التلميذ وظل يتلو آيات ويقول كلاماً بعضه مفهوم والبعض غير مفهوم . ونظر إلى سائر الموجودين وقال : « ستظهر فى هذا الفنجان صورة المكان الذى فيه أموال كربلائى حسن وصورة الشخص الذى لا يريد إظهار هذه الأموال » .

فنظر بعضهم إلى بعض ، وبعد قليل نظر إلى الفنجان وقال : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! لقد ظهرت الحقيقة فاتبعونى »

ثم مشى فتبعناه فدخل غرفة أخرى وحاولت سيدة أن تمنعه فزجرها ونظرت إلى هذه السيدة فاذا هى أمي .

قال : « من ذا الذى يستطيع أن يمنع خادم الآية؟ إننى لا أسير بقوتى ولكن بقوة هذا الخادم »

ومشى على الرغم منها ونحن وراءه حتى وصل إلى ركن من الغرفة فأزاح عنه الحصير . وظهر لنا جميعاً أن الأرض تحته قد حفرت حديثاً فرفع التراب عنها وأخرج منها قدراً مملوءة بالذهب وقال: « هذا بعض ما تركه كربلائى حسن من المال . أما باقيه فقد سرق » وتفرس فى وجوهنا جميعاً فقال أحدنا : « لقد وجدت المسروق فأين هو السارق؟ »

قال المنجم : « لا تتعجل بمعرفته ولا تثب هذه الوثبة فان الله سيظهر الحقيقة على يدىّ » ثم دار بنظره فينا مرة أخرى وقال : « هل تريدون أن أن تعرفوا الحقيقة ؟ » فقلنا : « نعم »

وعند ذلك نادى تلميذه وأخذ منه كيساً كان معه فأخرج منه ملء اليد من الأرز وقال : « سأعطى كلا منكم بعض هذا الأرز فامضغوه . أما السارق فلن يستطيع مضغه »

ودار على كل واحد فوضع فى فمه مقداراً منه فمضغوه وهم يضحكون لأن أكثرهم كان يعد الأمر فكاهة . ولم يعطنى بطبيعة الحال مثل ما أعطى غيرى لأنه لم تقع علىّ شبهة وأنا الذى أشكو

وحاولت أمي أن تخرج من هذه التجربة بانضمامها إلى جانبي وتظاهرها بالسرور لظهور حقى ولكن المنجم أبى عليها ذلك ووضع فى فمها مقداراً من الأرز وفى لحظة كانت الأفواه مشتغلة بالمضغ وكان المنجم يقرأ فى هذه الأثناء . وبعد لحظة أخرى كان الكل قد فرغوا من المضغ إلا المعلم وأمي فانهما لم يستطيعاه

وقال المعلم : « لماذا تعطينى هذا الحصى وأنا رجل هرم ضعيف الأسنان ؟ إنه يستحيل علىّ أن أنجح فى هذه التجربة »

وقالت أمي مثل هذا القول وزادت عليه : « ما هذه الألاعيب الصبيانية ؟ هل رأيتم قبل الآن ولداً يعامل أمه ومعلمه مثل هذه المعاملة ؟ إنه يتهمنا بالسرقة ولعله هو اللص »

فقال المنجم : « لم يقل أحد عنكما إنكما لصان ولكنكما تقولان ذلك وليس الغرض فضيحة أحد وإن كان فى وسعى أن أقيم كل برهان على السارق . وفى وسعى أن أجعل لسانه يعترف عليه ببركة خادم

الآية وسأقرأ الآن قسماً وأذهب، وفي الصباح ستأتي وتأتون جميعاً فان وجدنا في هذا الركن في مكان المال الذي وجدناه اليوم بقية الأموال التي تركها كربلائي حسن فان ورثته سيقتسمونها بالعدل كما أمر الله في كتابه وإلا فان خادم الآية سيساعدني على إظهار السارق وعلى إقامة الأدلة القاطعة ضده »

وفي هذا الحين ذهب المنجم وتفرق المدعوون ليعودوا في الصباح

الفصل الحادي والخمسون

نتائج أعمال الدرويش

كان من نتائج الأعمال التي قام بها الدرويش أن حامت في نفسي شبهة مؤلمة ضد أمي وضد معلمي ولكنني كنت أشك في القول الذي أبداه المنجم .

وفي الصباح التالي جاء المنجم ومعه تلميذه وعدد من الذين حضروا حفلة الأمس . ولم يأت معلمي وخرجت أمي من المنزل مدعية أنها مضطرة إلى ذلك لتزور بعض المرضى .

وقال المنجم : « سنرى إن كانت الجن قد جاءت بالمال أم لا ؟ » وأخذ يحفر في الأرض فأخرج منها كيساً مملوءاً بالذهب فسلمه إليَّ وقال : « احمد الله على وجود مالك ولا تنس إعطائي ما أستحقه »

واجتمع الناس حولي ليروا ما بداخل الكيس الذي وجدته مختوماً بالجمع الأحمر بخاتم أبي وعددنا ما فيه فاذا هو خمسمائة ريال فدفعت إلى المنجم منها خمسين وأقسمت أنني لو كنت غنياً لأعطيته أكثر من هذا

شكرني المنجم وأبدى رضى واقتناعاً ولكنني لم أكن مسروراً لاعتقادي أن الذي حصلت عليه لم يكن إلا جزءاً يسيراً من تركة أبي وأن التركة لم تزل مسروقة وقلت ذلك لصاحبي البواب وأخبرته بأني لا أزال عازماً على رفع أمري إلى القاضي .

فقال لي البواب : « اسمع أيها الصديق نصيحة رجل حنكته الأيام والتجاريب . اقنع بالمال الذي وصلت إليه يدك واحمد الله على ذلك واعتقد أنك إذا رفعت أمرك إلى القضاء فانك ستخسر الأربعمائة والخمسين ريالاً وسيخسر خصومك مثل هذا القدر ثم لا يحل الخلاف بينكم . ألم تسمع المثل السائر : « إن كل إنسان قد خلقت أسنانه من الملح إلا القاضي فان أسنانه مخلوقة من السكر »

وبعد مناقشة مع البواب عزمت على أن أتبع نصيحته لأن رفع قضية ضد أمي ومعلمي سيزيد من شماتة أعدائي ويقلل من العطف عليَّ وربما آل الأمر إلى أن يرجمني الناس بالأحجار وليس من المنتظر بعد ذلك أن أكسب القضية وعزمت على أن أغادر أصفهان فلا أعود إلا إذا عدت إليها ذا سلطة ونفوذ

فوافقني البواب على فكرة الرحيل وشجعني على تنفيذه . ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أن الرجل كان ذا غرض من نصيحته لأن له ابناً حلاقاً اشتغل بعد سفري من المدينة مساعداً لأبي في مكاني . وكان هذا البواب يريد أن أخرج ليشتغل بدلا مني في حانوت أبي . واقترح على أن أبيعه الحانوت بكل ما فيه فوافقته على ذلك وبعت الحانوت . أما منزل أبي فلم أرد بيعه . وبالرغم من شدة تأثري من المسلك الذي سلكته أمي معي فقد عزمت على تركه لها بكل ما فيه من الأثاث

وكان الثمن الذي قبضته من البواب هو خمسمائة قرش فارسي فبلغت جملة ما معي مائة طومان وعشرة طومانات

خبأت بعضها فى ثيابى والبعض فى سرج بغلة جديدة اشتريتها

وعزمت على أن أقلع عن حياة «صاحب شمشير» (صاحب سيف) التى كنت أعيشها قبل أن أنكب وأسافر إلى « قم » واخترت أن أقضى بقية حياتى (صاحب قلم)

وكنت إلى هذا العهد أعلق إلى جانبي سيفا وأضع فى حزامى مسدسا وخنجراً وألبس على رأسى غطاء ضيقا وأترك شعرى منسدلا حول رأسى إلى ما تحت الأذنين فعزمت على تغيير ذلك كله ، وعلى أن أضع فى حزامى ملفا من الأوراق وقلما ودواة بدلا من الخنجر والمسدس ، وعلى أن ألف رأسى بشال من الكشمير ، وعلى أن أمشى مطرق الرأس بخطوات غير قوية ولا سريعة . وعزمت على أن أتكلم على مهل وأن أظهر بمظهر الوقار والحكمة وقلت فى نفسي إننى على قلة معرفتى أحسن الصمت فى موضعه فاذا ما لقيت رجلا من العلماء سكت واستفدت من حديثه ، وإذا لقيت جاهلا كنت المتكلم النطيق . وقلت فى نفسى إننى أعرف القراءة والكتابة وخطي جميل فاذا كتبت نسخة من المصحف الشريف كان ذلك شهادة لى بالعلم والمعرفة لا يمكن أن يدحضها أى اتهام

وفكرت في الطريق الذي أسلكه عند خروجى من المدينة فلم أجد خيراً من مدينة « قم » لأن بها ميرزا أبا القاسم وهو أحسن من أعتمد على مساعدته فى هذا العهد الجديد ، وكان مقصدى أن يوصى على أحد أصحابه من الكبراء فيتخذني كاتبا أو تلميذاً له

ولما وصل بى التفكير إلى ذكر أبى القاسم رأيت أن أشترى له هدية تدل على أنى شاكر لفضله ، وفكرت فى نوع الهدية فوجدت أليق ما يهدى إليه سجادة صغيرة فارسية يقيم عليها الصلاة حين يأتم به المصلون ويجلس عليها فى وسط تلاميذه

واشتريت هذه السجادة واستعددت للسفر ، ولكننى ذكرت أن نفقات الجنازة لم تدفع ، وحدثتنى نفسى بأن أهرب من المدينة دون أن أدفعها لينال معلمى وأمى هذا الشرف ، ولكن شعورى الجميل تغلب على هذه الفكرة فدفعت هذه النفقات قبل أن أسافر وقلت إن هذا أليق بى ولكيلا أعرض اسم أبى بعد الموت للعنة اللاعنين

الفصل الثانى والخمسون

حاجى بابا يصير كاتباً لرجل من رجال القانون

ودعت أمى وأنا غير آسف على السفر ولم تظهر هى نحوى أى شىء يدل على الشعور بالأسف فقد كانت تدبر خطة لمستقبلها كما دبرت خطة لمستقبلى وكان كلانا يرى أن البعد خير وسيلة

ركبت بغلتى عند انبلاج الصباح وكنت أسير مبطئاً وأنام فى القرى التى أمر بها ، وفى اليوم التاسع رأيت قبة المشهد الفاطمى وبعد أن تركت بغلتى بمربط الخيل فى خان المدينة وذهبت إلى بيت أبى القاسم وكان بابه مفتوحاً لكل طارق فخلعت نعلى وتركته عند باب الغرفة الأولى ، وتركت بجانبه السجادة التى اشتريتها ودخلت تلك الغرفة فوجدت فى صدرها أبا القاسم فحييته وجلست قرب الباب

وقد عرفنى ساعة رآنى ورحب بى وأدنى مجلسى وسألنى عن قصتى بعد ذهابى من مدينة قم وقال لى إنه مهتم بأمرى فشكرته وسردت عليه القصة

وشرحت له ما أجده فى نفسى من الميل إلى الدين ورجاله وأنى أتمنى أن أكون فى المستقبل واحداً منهم ففكر لحظة ثم قال : « لقد تسلمت فى صباح اليوم خطاباً من « ملا » (عالم) فى طهران يطلب إلى فيه أن أبحث له عن كاتب يكون لديه استعداد ليصير عالماً « ملا » فى المستقبل وأخبرنى أن هذا الرجل هو « الملا نادان » نخفق قلبى عند ما سمعت ذلك وقلت له إننى أحب أن يرسل معى خطاباً إليه ورجوته فى ذلك فكتب خطاباً وطواه وسلمه إلى ، وقال : « اذهب بغير توان وسلم هـذا الخطاب إلى الملا نادان وستجد عنده ما تريده »

نخفق قلبى وقبلت يد الميرزا وطلبت إليه أن يتفضل علىّ بقبول هديتى وهى سجادة للصلاة وقلت إن سبب إهدائها إليه هو رغبتى فى أن يذكرنى بدعوة صالحة بعد الصلاة، فدعا لى وشكرنى وقال لى : إنه لولا هذا السبب لتأثر من قبول الهـدية لأنه لا ينتظر هدايا الناس . وأوصانى بأن أتمسك بالدين ظاهره وباطنه وأن أكره الصوفيين ، وقدمت له الهدية فأخذها مبيداً الشكر والدعاء وبلغ من تعجلى أمر السفر أنى لم أنتظر حتى أتمكن من زيارة أصدقائى فى « قم » أو من زيارة المقبرة التى كنت لاجئاً إليها فى أيام محنتى

ولما ذهبت إلى طهران تجنبت الباب الذى يستلزم دخولى منه المرور على قبر زينب . ومررت من باب آخر . وحمدت الله إذ لم يعرفنى الحرس الذين كانوا تحت رياستى عند ما كنت مساعداً لرئيس الجلادين وقلت فى نفسى إنهم معذورون إذ لم يعرفونى لأن الهيئة العسكرية التى كنت عليها وأنا فى ذلك المنصب غير الهيئة المتواضعة التى أظهر بها الآن

ولما رأيت أن تنكرى تام وأن أهل المدينة لن يعرفونى مشيت فى أسواقها مطمئناً فلم أجد أحداً يعرفنى وسألت عن بيت الملا فسهل علىّ الاستدلال عليه لأنه رجل مشهور . وما كدت أن أصل إلى هذا المنزل حتى عدت فتذكرت أننا فى آخر النهار وأن الأليق أن أنام هذه الليلة فى خان وأذهب إليه فى الصباح . وقد كنت حريصاً على اتباع ما تقضى به اللياقة فى معاملة هذا الرجل لأنال عنده الحظوة فى حياتى المقبلة

وذهبت إلى الخان فاسترحت من وعثاء السفر . وفى الصباح دخلت الحمام ومسحت ثيابى وصبغت لحيتى ويدى وقدمىّ جرياً على عوائد الفارسيين ، وذهبت إلى الملا وأنا أقول إن من كان مظهره كمظهرى فى هذا اليوم فهو جدير بأن تقضى حوائجه. وكان بيت الملا واقعاً بين المسجد وبين سوق الجمال فى طريق قريب من القصر الملكى . وكان شكل المنزل من الخارج دالاً على الحقارة ولكن حديقته الصغيرة كانت منسقة تنسيقاً حسناً . ولما دخلت المنزل وجدته نظيفاً ورأيت غرفة الانتظار مفروشة بأثاث لا يدل على الثروة ولكنه لا يدل على الفقر وفيه رجل حسبته الملا ولكننى عرفت بعد قليل أنه واحد من أتباعه

حييته وجلست ولم أكن قد عرفته ولكننى عزمت على أن أشترك معه فى الحديث ليعلم أننى أكبر من خادم وحاول هذا التابع أن يعرف أمرى فألقى علىّ أسئلة كثيرة غريبة ، قال :

— « يظهر أنك وصلت قريباً إلى طهران »

— « نعم »

— « يظهر أنك تريد الاقامة هنا »

— « لم يستقر رأيي إلى الآن »

فأطرق لحظة ثم قال : « إن إقامة المرء وحده متعبة حتى ولو كانت إلى أجل قصير فاذا كانت لك حاجة فاني أؤديها »

فقلت : « زادالله فضلك فان حاجتي عند الملا »

قال : « أخبرني بها فلا فرق بيننا وإذا شئت فاني أسهل عليك أمرها عنده . وعندنا كل ما تريد بكل ثمن »

فقلت : « إنني لست تاجراً »

قال : « أنا لم أعن أنك تاجر ولكنك غريب عن هذه المدينة وقد تمكث فيها عاماً أو شهراً أو أسبوعاً فلدينا كل ما تريده في هذه المدة »

فزادت دهشتي من اللغة التي يتكلم بها هذا الرجل ولم أفهم ما يعنيه . وفي هذه اللحظة دخل « الملا نادان » . وكان هذا الملا في سن الأربعين وهو معتدل القامة وسيم الطلعة حسن الملبس وعلى الرغم من أن قامته كانت أشبه بقامة رجال السيف منها بقامة رجال القلم فقد كان يعوزها العلائم الدالة على الشجاعة . وكانت أجلى صفة تظهر على وجهه هي المكر

دنوت منه وحييته وقدمت إليه خطاب أبي القاسم فأخذه وقرأه . ولكنه لم يقل حرفاً عما فيه ثم أخذ يسألني عن صحة مرسل الخطاب وعن أحواله فصرت أجيبه متظاهراً بأنني كنت وإياه على اتصال وثيق ثم أمرني بأن أجلس ورحب بي وقال : إنه يأسف لأنه لم يكرمني على العادة الايرانية بتقديم غليونه لي وقال إنه لا يدخن وإنه يستنكر عادة التدخين ويرى لرجال الدين أن يتعففوا عن هذا النوع من الترف . وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن شرب الخمر وإن التدخين ليس من المسكرات ولكنه قد يخدر في بعض الأحيان فهو عنده في حكم الخمر المحرمة . ثم أخذ يتحدث عن نفسه ويعدد فضائله حتى حسبت أن حياتي في هذا المنزل ستكون قاصرة على استماع المباهاة والمفاخرة وأني لن أتعلم ما كنت أريد تعلمه من الدين .

الفصل الثالث والخمسون

الملا نادان يدبر خطة للحصول على الأموال ولإسعاد الناس

لما انصرف الشيخ الذي كان جالساً معنا في هذه الغرفة أخرج الملا كتاب أبي القاسم من جيبه وأعاد قراءته وقال : إنه يحترم هذه التوصية وسألني عن مؤهلاتي فأجبته بما أقنعه وأرضاه وقال لي : « لقد كنت أبحث عن رجل تتوافر فيه صفاتك فلم أتمكن من العثور عليه إلا الآن . وقد كان هذا الرجل الذي انصرف منذ لحظة يؤدي لي بعض الخدمات ولكنني أبحث عمن يرى مصالحي كأنها مصالحه وأريد من يأكل مني الخبز صامتاً ولا يطمع أن ينال أكثر مما يستحق »

فقلت للملا إنني بلوت الحياة ورأيت كثيراً من الحوادث وإنه لم تمر بي حادثة لم أستفد منها وإنه سيجد مني خادماً مطيعاً وإني أريد أن أكون مسلماً كما ينبغي أن يكون المسلم

قال الملا : « مادام الأمر كذلك فسأكون نصيرك لأنه لا صفة أحب عندي من صحة الاسلام . وليس في الناس من يصلي أكثر مني مواظباً على صلاته وليس في ثيابي شيء من الحرير أو الذهب ولست أنام إلا وأنا متوضئ ولست

أدخن ولا أشرب النبيذ ولا ألعب الورق ولا لعبة الشطرنج وأنا أكثر من الصيام ولم أنقطع قط عن صلاة الجمعة »

وقد امتدحت كل هذه الصفات وتخلقت بها أمامه فى الأيام التالية فسر منى حتى كاد سروره بى يعدل سروره بنفسه وقال لى إنه لم يتزوج وإن ذلك لا يعد مكرمة لأن النبي عليه السلام قد تزوج وإنه إنما امتنع عن الزواج ليتوافر لديه الوقت للعبادة واستعاض عن سنة الزواج بمساعدة الآخرين على أن يتزوجوا

قلت له : « أرجو ألا تترك أمراً من أمور الدين إلا علمتنيه لأنى فى جهلي بالدين كالكفار والأتراك »

فقال : « سأعلمك كل شئ تريد أن تتعلمه . وأسر إليك أن الشاه وهو أتقى الأتقياء شكا إلى رئيس العلماء « ملا باشى » من فساد الأخلاق وسريان روح الفسوق والطغيان وكلفه أن يستأصل هذه الصفات ولكن (الملا باشى) رجل حمار لا يعرف شيئاً فطلب إلى أن أجيب الشاه عن أسباب الفساد السارى فى هذا الزمن وعن وسائل علاجه . وقد دلني النظر إلى أمور الناس على أن من العيوب السائدة فى هذا العصر كثرة الطلاق فما يكاد الرجل يقيم مع زوجته عاماً أو عامين حتى يطلقها ورأيت من جهة أخرى كثرة الزنا والفسق فرأيت خير وسيلة هى أن أحصى المطلقات وأزوجهن للزناة والفساق وبذلك يستقيم الناس »

ولما أخبرت الملا باشى بهذا الرأى سر كل السرور وأمر باستئجار منازل صغيرة يسكن بها عدد عظيم من المطلقات، وصار يعقد زواجهن على كل خاطب ويأخذ على ذلك أجراً ، فكثرت أمواله ولم يقاسمني مع أني صاحب الرأي في ذلك، ومن أجل ذلك رأيت أن أفعل مثله وأنا أحق منه بالانفراد لأني صاحب الاقتراح ولكنني أرى أيضا أن يكون ما أفعله سراً وإلا استعان على بنفوذه لدى الشاه ونفاني من المدينة »

كنت أصغى إلى ما يقوله الملا وأصعد فيه نظرى وأصوبه وأنا متعجب من فكرته . وقام بنفسى الشك فى أن يكون عمله هذا منطبقا على الشرع الذى يزعم أنه يحميه . وتعجبت أيضا من قول أبى القاسم عن هذا الرجل إنه طيب . وبدا لى أن الوصف الصادق الوحيد الذى يستحق أن يوصف به هو الخبث الشديد . على أنى ظللت أطرى أفكاره .

واستمر يقول : « وعندى الآن ثلاث من النساء بمنزل صغير مجاور لهذا المنزل وأريد استخدامك فى البحث عن أزواج لهن ، فاذهب إلى كل خان بالمدينة ولاحظ التجار والغرباء وتلطف فى محادثتهم عن الزواج وقل لهم إن شروطنا أخف من شروط الملا باشى ، وسأعطيك أجراً على ذلك بنسبة المبلغ الذى تحصل عليه . وسيأتي يوم تكون فيه ملا مثلي وتنفرد أنت بهذا العمل وبكل ما فى منزلى من مال وأثاث لأنه لا وارث لى ، ومتى كان عندى ضيوف فأد فى منزلى واجب الخادم وإذا ما انصرف الضيوف فاجلس منى كما يجلس الصديق إلى صديقه وسأعهد إليك ببعض أعمال كتابية »

لما فرغ الملا من كلامه لزم الصمت ليعرف بماذا أجيب ولما رآنى واجماً أدرك مبلغ ترددى فترك لى مهلة دقائق للتفكير . ولقد كنت أنتظر أن أكون فى حياتى الجديدة زاهداً فى حطام الدنيا عاكفاً على

الصلاة والصوم عاملا مجداً للدار الآخرة فوجدت الأمر على عكس ما كنت أنتظر فان كل طريقة خبرتها للارتزاق أعف عندى وأشرف من التى يدعونى إلى مزاولتها واحتقرت نفسى لاضطراري إلى قبول ما يعرضه علي . لكنني مع ذلك قبلت العمل معه وفقاً لشروطه وقال لى إنه سيعود إلى الكلام معى عن هذا الأمر فى فرصة أخرى وإنه سيذهب الآن ليقابل شيخ العلماء ثم عاد إلى أسلوبه اللازم فى المفاخرة فقال إنه يحتقر مظاهر الدنيا وإنه لذلك لا يستبقى بمنزله من الخدم إلا ما تقضى به الضرورة وليس عنده بالمنزل من الخدم غير طباخ وسائس ووصيف وبواب . وليس عنده من الركائب غير حمار أبيض وقال لى إنه سيشترى بغلا فى المستقبل القريب لأن ركوب البغال أدل على الوجاهة من ركوب الحمير . وقد انتهزت هذه الفرصة فأخبرته أن عندى بغلا لطيفاً وبعد أن تفاوضنا فى ثمنه بعته إليه وقال إنه سيستبقى الحمار لركوبى فكان ذلك أول ربح ربحته من الملا

الفصل الرابع والخمسون

حاجى بابا وسيط فى الزواج

أمرنى الملا بأن أقدم نفسي إلى المطلقات اللواتى ينفق عليهن وأوصانى بدراسة صفاتهن حتى أستطيع التكلم عنهن مع الرجال وأن أتحرى منهن عن أعمارهن والبلدان التي ولدن فيها وعن مؤهلاتهن وبعد أن فعلت ذلك ذهبت إلى السوق فاشتريت ثوباً من ثياب العلماء « ملا »

وكان هؤلاء النساء جالسات على حصير ممزق وهن فى ثياب رثة ولكنهن كن مولعات بالتدخين .

ولما رأينني وضعن على أوجههن البراقع ، فسلمت عليهن وأخبرتهن عن مهمتى وطلبت إليهن أن يرفعن البراقع حتى أراهن لأن مهمتى تستلزم ذلك . فحيينني أحسن تحية وقلن إنهن يأملن الخير على قدومى وأسرعت اثنتان منهن إلى رفع النقاب فرأيت خدوداً قدودعت البياض والحمرة من عهد قديم ورأيت عظام الوجنات بارزة ورأيت عدداً من الغضون والتجاعيد. أما الثالثة فانها لم ترفع نقابها. قلت للسيدتين : « ما شاء الله ! هذا الجمال جدير بأن يجعلكما من زوجات « فرهد » نفسه . لا تطيلا النظر إلى حتى لا أفتتن . ما أجمل هذه العيون ! ما أحلى هذه الشفاه ! لكن لماذا لم ترفع هذه السيدة نقابها ؟ — وأشرت إلى السيدة الثالثة — لعلها ترانى غير جدير بأن أتمتع بشمس هذا الحسن »

فقالت صاحبتاها لها : « ما هذا الحياء ؟ افعلى كما فعلنا وإلا أصبحنا مضغة فى أفواه الناس »

فرفعت المرأة نقابها . وما كان أشد انزعاجى ودهشتى عند ما رأيت أنها زوجة ميرزا أحمد رئيس الأطباء »

صحت قائلاً : « لا إله إلا الله ! ما هـذا ؟ هل أتت بك الجن إلى هذا المكان ؟ »

فقالت لى بلهجة التحسر اليـائس : « نعم يا حاجى بابا ، إن القدر عجيب ولكنك أنت يا قاتل زوجى كيف أصبحت عالماً من العلماء ؟ »

قلت : « هل قتل زوجك إذن ؟ ولكن لماذا تكلمينني بهذه اللهجة ولماذا تزعمين أننى قتلته ؟ لقد كان زوجك سيدى فى وقت من الأوقات وأنا شديد الحزن على فقده

خبرينى ماذا حدث له فانى أدور فى عالم من الجهالة »

فقالت : « لماذا تدعى الجهل ياحاجى بابا ؟ ألا تعلم أنك السبب فى فرار زينب وأن فرارها كان سبباً فى غضب الشاه عليه ونتف لحيته وأن ذلك كان سبباً فى إلحاق الخزى به وأن خزيه أدى إلى موته حسرة»

قلت : « ما هذه التهمة التى تتهميننى بها ؟ لو كان زوجك مات بتخمة فهل كنت تتهمين الفلاح الذى زرع الأرز بأنه قتله ؟ »

ثم طالت بيننا المناقشة وعادت المرأة فذكرت أن طول مناقشتها لى ليست فى مصلحتها وأنها فى حاجة إلى مرضاتى . وقد تبين لى بالرغم مما تبديه الآن من الحب لزوجها الأول وحزنها عليه أنها كانت تكرهه أشد من الكراهية العادية وأنها حمدت الله على موته

ولكى أتمم الهزلة التى جئت من أجلها بدأت بأرملة الطبيب فسألتها عن مؤهلاتها الزوجية حتى إذا وجدت لها زوجاً استطعت أن أتحدث معه عنها

فقالت لى : « تعلم أننى كنت فى وقت من الأوقات من جوارى الشاه ، وكان جلالته يفضلنى على زوجاته وعلى سائر الجوارى اللواتى كن يخفن منى وترتجف قلوبهن لدى ذكر اسمى . ولكن من الذى يأمن صولة الأقدار ؟ لقد كنت معززة مكرمة فى القصر حتى شاء جلالته إكرام رئيس أطبائه فأهدانى إليه . ولا تسل عما قاسيته من الآلام عند ما انتقلت إلى منزله وتغيرت أحوال المعيشة أمامى تغيراً ما كنت أقدره . ولست أريد أن أعيد عليك قصة زينب فأنت تعرفها . ولكننى حاولت أن أسترد عطف الشاه بعد ما مات زوجى فوجدت أذنيه مسدودتين واضطررت بعد العز والرفاهية واطمئنان البال إلى البحث عن زوج آخر »

ثم أخذت تبكى وأخذت أعزيها عن سوء حظها وأؤكد لها الوعد بأنى سأبحث لها عن زوج ملائم ...

فقالت : أنت ترى أننى لا أزال جميلة وأن عهد شبابى لم ينقض . أنظر إلى عينى هل انطفأ وميض الحسن فيهما ؟ أنظر إلى جبينى الناصع وإلى خصرى النحيل . فأخذت أحملق فيها كما أرادت ولكن بدلا من أن أرى شباباً وجمالا رأيت قبحاً وتشويهاً وعددت موقفى هذا منها بمثابة انتقام إلهى لسوء معاملتها لزينب

ثم حدثتنى السيدتان الأخريان عن تاريخ حياتهما فقالت إحداهما إنها زوجة صائغ مات . وقالت الثانية إن زوجها كان جندياً فهرب خوفاً من غضب الشاه وانضم إلى الروسيين وإن القاضى طلقها منه لهذا السبب . وقد حاولتا أيضاً إقناعى بأنهما صغيرتان جميلتان فتظاهرت أننى مقتنع بذلك وقالت لى إحداهما : « تذكر أننى لم أتجاوز الثامنة عشرة وتذكر حاجبىّ المقرونين اللذين يظهران كأنهما حاجب واحد »

فوعدتها بأن أتذكر . ثم خرجت من عندهن . فلما ابتعدت عزيت نفسى عن رؤية أوجههن القبيحة بأن ضحكت ضحكة عالية .

الفصل الخامس والخمسون

حاجى بابا يزاول عمله الجديد

بعد أن أديت هذا الجزء من واجباتى ذهبت إلى خان من أكثر خانات المدينة ازدحاماً لعلى أرى فيه رجلاً من الذين أبحث عنهم

وفى أثناء الطريق وجدت زحاماً عظيما مقبلا من جهة باب من أبواب المدينة . وسألت فعلمت

أن قافلة جاءت اليوم من مدينة مشهد حيث كان يقام مولد الامام على الرضا ، فأخذت أنظر إلى وجه كل رجل من القادمين وأتفرس فيه لعله يكون من بغيتى أو لعلى أجد بعض الأصدقاء الذين عرفتهم فى تلك المدينة ، ولئن كان عهدى بهما طويلا فان ذاكرتي القوية تعى كل وجه رأيته فيها . ولما كدت أيأس من رؤية صديق رأيت رجلا ذا أنف خلق خلقة خاصة وظهر منحن يشبه الحدبة فتعلقت نظراتى به وقلت فى نفسى هذا رجل أعرفه . وكان يشبه عثمان أغا الذى أخذ معى فى أسر التركمان ، ولكن عثمان يجب أن يكون قد مات فمن عسى أن يكون هذا ؟ أما أن يكون غير ذى علاقة بعثمان فذلك غير محتمل فان لم يكن هو فأخوه أو شيطانه .

ودنوت منه فرأيت على وجهه انقباضا وزاد ذلك من شكي لأن الانقباض أظهر خلة فى صاحبي عثمان . ثم تكلم فسمعت ذلك الصوت الذى ألفته أذناى ، وقد كانت الجملة التى نطق بها هى التى سمعتها ألف مرة وهى : « أرجو أن تخبرنى عن سعر الجلود فى الآستانة »

وكان هذا السؤال موجهاً إلى تاجر معه ، فلم أنتظر جوابه بل قلت : « سيدى ، ألست عثمان أغا ؟ »

ثم عرفته بنفسي فلم يكد يصدق أننى حاجى بابا الذى كان معه فى الأسر

وبعد أن تذاكرنا حوادث الماضى مدة ما أخذ كلانا يهنئ الآخر ، ثم روى لى ما حدث له بعد أن تركته وقال لى إنه لم يكن له عمل فى أسر التركمان غير رعي الجمال ، وإنه تبلد هناك فلم يعد يتألم من الأسر ولا يفكر فى النجاة ، وإنه لم يكن يتألم إلا من أمر واحد هو عدم حصوله على التبغ ومضت عليه سنوات على هذه الحال فوطن النفس على أن يقضى بقية العمر كأنه جمل من الجمال التى يرعاها . ثم ظهر سنى من التركمانيين آمن به كل هؤلاء السذج لابدائه أموراً عجيبة بهرت عقولهم البسيطة فتسلط عليهم وقوى نفوذه . وكان هذا المشعوذ كثير الصلاح أو متظاهراً بكثرة الصلاح فعرض عليه عثمان أغا نفسه وأقنعه بأنه سنى وأنه من نسل الأشراف فأمر باطلاق سراحه

وذهب عثمان إلى بخارى، ولمعرفته السابقة بالتجارة استطاع أن يجمع ثروة فى مدة غير طويلة ، واشترى بضائع من بخارى وجاء بها إلى إيران فباعها وهو الآن فى طريقه إلى الآستانة ليبيع بها بضائع من بخارى وسمرقند وفارس ، وفى عزمه أن يذهب إلى الآستانة فبغداد وهي بلدته الأصلية

وأخبرنى أن مدة إقامته في طهران قد تمتد إلى الربيع لكى يسافر منها مع القافلة ولكى يرفه عن نفسه فى هذه العاصمة بعد أن عالج حياة الخشونة فى أسر التركمان ، ولما وجدت ميله إلى الترفيه عن نفسه كما يقول وكنت أعلم من معاشرته السابقة شدة ميله إلى النساء اقترحت عليه أن يتزوج إحدى المطلقات اللواتى أبحث لهن عن الزواج

ولقد كان موقفى بديعاً وأنا أسعى فى أن أزوج أرملة سيدى المتوفى من سيدي الذى لا يزال على قيد الحياة، وإنما اخترت تلك الزوجة لعثمان أغا لأنها أضخم المطلقات الثلاث جسما ولقد وصفتها له فأعجبه الوصف وقبل الصفقة اعتماداً على قولى

ذهبت بعد ذلك لأبشر الملا نادان بنجاحى وقصصت عليه قصتى مع هذا الصديق فى الأسر فأصغى إليها باهتمام . وقال لى إننى سأكون وكيل

الزوجة، وعلى الزوج أن يستحضر وكيلاً عنه في عقد الزواج . وأملى على شروط الزواج . وطلب مبلغاً كبيراً من المال في مقابل وساطتنا هذه

ثم ذهبت إلى السيدة لأسمع منها كلمة القبول بتوكيلي ولأبشرها بجدارة هذا الزوج الغني . وقد كان سرورها شديداً عند ما أخبرتها وبدا الحسد على وجه صاحبتها . كما تبينت على وجهها كل علائم الزهو لأنها عدت هـذا النجاح السريع راجعاً إلى جمالها

وذهبت إلى عثمان أغا ولشد ما كانت دهشتي عند ما وجدته يتطيب بالمسك وقد اغتسل وصبغ لحيته بلون أسود ويديه بالحناء الذهبية . وطلبت إليه أن يرافقني إلى بيت اللالاداان فمشى وهو يتكلف مشية جديدة . ولا شك في أن منظره في ذلك اليوم كان كمنظاره قبل عشرة أعوام

وكان الخاطر الذي يجول بفكري ساعة انعقد مجلس الزواج هو ما سألقاه من الويل إذا لم تعجبه الزوجة . وتذكرت الخمسين « ووكات » التي كنت أخذتها من ماله في مدة الأسر

وتذكرت كذلك سابق إحسانه إلى فاستكبرت أن يعتقد أنني أسأت إليه

وأخيراً تزوجا . وذهبت للتهنئة فقال لي : « لقد أفهمتني يا حاجي بابا أن العروس صبية، فقل لي كيف وجدت في جسمها مع حداثة سنها هـذه الغضون والتجاعيد التي قلما وجد أكثر منها في جسم أي جمل من الجمال ؟ »

فلم أجد جواباً على سؤاله أليق من القول بأن زوجته كانت في وقت من الأوقات نوارة القصر الملكي وأن الزواج قسمة ورزق

قال : « نعم قسمة ورزق ولكن هـذا القول ياحاجي بابا يصلح جواباً على كل نكبة . ولست ألومك على أنني تزوجت فهذه قسمة كما تقول وإنما ألومك على أنك وصفتها بأنها صبية وهي عجوز » .

ولقد خشيت بعد أن سمعت هذا القول أن يطلقها ويطالبنا بما دفعه ولكن يظهر أن عقله غلب عليه فتذكر أن مثله ـ في مثل سنه ـ لا يستطيع أن يتزوج من صغيرة جميلة .

ونقل زوجته معه إلى الخان وظهر لي من قرائن متعددة أنه لم يكن مسروراً منها ومن بين هـذه القرائن أنه دخل قبلها غرفته في ذلك الخان وقال لها إنها تستطيع أن تتبعه إذا شاءت .

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين ﴾





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ ص في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

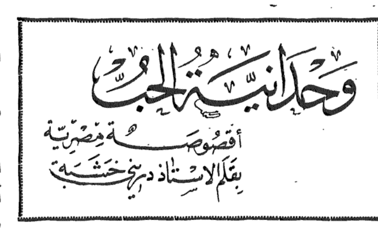
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٢ — ٢٤ المحرم سنة ١٣٥٧ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العــــدد

صفحة



— والله يا صديقى أنا لا أدرى كيف يفهم الحياة هذا الشاب ! إنه أكثر ما يكون ساهم غائر العينين ، له نظرات عميقة ممتلئة نافذة لست أعرف كيف أفسرها ولا أدرى كنهها

— هـذه حال المحبين يا عزيزى ... ألا يحب صبرى ؟

— لا أظن أنه يحب كما نفهم نحن الحب

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنه لم يهب قلبه فتاة بعينها

— هذا لا يهم

— وكيف ؟

— قد يحب الانسان فتاتين وقد يحب ثلاثاً وقد يحب أكثر من ذلك

— وماذا يكون هذا النوع من الحب ؟

— يكون مثل كل أنواع الحب !

— أكبر ظنى أنه يكون حباً حيوانياً

— ولماذا يكون الحب التمدد حيوانياً ؟

— لأن الحب كائن أرستقراطى مستبد ، لا يرى أن يشركه شىء فى صولته ، ولا أن يحكم معه أحد فى دولته ... إنه حاكم بأمره يا عزيزى ... إنه دكتاتور ! إنه قيصر مسلط على جميع الفرائز يا عزيزى !

— أنت تغالى فى تقدير هذا الكائن يا فؤاد

— لست أغالى ... ألا تعترف منى بأنه حاكم بأمره ؟

— هو ذاك ... لكنه فى الوقت نفسه يجهل الانسان ... أو يجهل القلب ... كالفراش ، فهو يطير به على كل زهرة ، ويرف به في كل بستان

— إن الفراش يفعل ذلك من أجل صالحه ، ولسنا ماديين فى الحب يا صديقى !

— هذا هو غرور الانسان ...

— ليس غروراً ... فقد كرمنا الله نخلق حبنا من نور ... من كهرباء !

— وهذه فلسفة أيضاً !

— ليست فلسفة ، بل هذا هو الواقع !

— كل هذا تقوله عاطفتك المشبوبة، ولو حكمت فيه عقلك لتبخر كله وعرفت حقيقة الحب وماهيته !

— يجب ألا تكون علاقة بين الحب والعقل... إن العقل شىء قبيح جداً ... إنه يتلف كل شىء ! إنه يشوه الجمال ويمسخه ...

— يجب أن نفهم أولا هذه المسئلة : هل نحن فى الحب نشبه الفراش أولا نشبهه !

— قلت لك إن الفراش يتنقل من زهرة إلى زهرة ليمتص الرحيق الحلو .

— والقلب ! ألا يتنقل من حبيب إلى حبيب إلى حبيب ليرشف الثغور الحلوة ، ويقطف القبل من ورد الخدود ؟ !

— هذا هو الفسق ، ليس هذا حباً ؟

— وما الحب إذن !

— الحب أن يفنى المحب فى الحبيب ، أن يؤثره بكل شىء ... ألا يشرك معه أحداً فى قلبه !

— بل الحب الأثرة !

— وكيف يكون الحب أثرة ؟

— الأثرة : الأنانية !

— ما سألتك عن معنى الأثرة لتقول إنها الأنانية ... كيف يكون الحب أثرة ؟!

— يكون الحب أثرة لأنه يجعلنا أنانيين ... فهو يجعلنا نتوهم أن الحبيب هولنا فقط وليس لأحد سوانا ، فاذا رأيناه ينظر إلى شىء أو يمشى مع شخص آخر ولو كان هـذا الشخص من محارمه ، ثرنا وتولانا الغضب ، فاذا حدث أنه غاب عنا بعد ذلك تسلمتنا الشكوك وافترستنا الغيرة وترادفت فى رؤوسنا حينذاك كلمات كثيرة حفظناها من أنانيتنا المريضة ... فمن ذاك كلمات الرقيب والعذول والهجر والخصام ... وقد نذكر البكاء فنبكى ، والدموع فنسفح الدمع الغزير ، وقد لا نقوى على البكاء فنبقى ساهمين مفكرين مشردى اللب عميقى النظرات كما رأيت صديقك صبرى ...

— وكيف يحب من تكون هذه حاله غير حبيبه ؟

— يحب غيره لأنه لا اختيار لأحد فى توجيه قلبه ... عينان تقعان على منظر حسن فيتأثر القلب ويرقص ويطرب ويعشق إذا كان هـذا المنظر فتاة حلوة ريانة ... هذا كل شىء !

— عجبا !

— أي عجب ؟! أنت أول من يكفر بالوحدانية فى الحب إذا واتتك الفرصة للخلوة بأكثر من فتاة جميلة فى يوم واحد فتراك قد ملت إليهن جميعاً ، وأنهن جميعاً قد غزون فؤادك ... هذا بشرط أن تكون أنت فتى فينان الشباب دفاق الدم فوار العاطفة وأن تكون فتياتك غيداً أماليد ذوات سحر وخفة

— إذن أنت تخلق ظروفا خاصة تبرر بتوفرها التعدد في الحب ...

— يا صديقى ، الحب استجابات للظروف التى تحيط بالقلب فى فترة ما من الزمن .

— أراك قد أطلت فى تحليل فلسفتك الجديدة، ولست أدرى ما علاقة ذلك كله بصبرى وما يعروه من وجوم وشرود ذهن !

— علاقة ذلك بصبرى أننى أؤكد لك أنه يحب !

— وكيف وهو متزوج ؟!

— أؤكد لك أنه يحب ولو أنه متزوج !

— إنه متزوج من الفتاة نفسها التى كان يهواها بل يعبدها !

— ليس يمنع هذا من أنه صبا إلى غير زوجته !

— وكيف يصبو إلى غيرها وقد وهبها حياته وتفكيره وجهاده !

— فى سؤالك عود إلى حديثنا السالف . . . وصديقك صبرى يؤدى وظيفة الفراش فى رشف الرحيق من الأزهار ، وهو قد انتقل من روضة إلى روضة ، وأؤكد لك أنه سينتقل إلى أخرى ، وسيظل هذا حاله حتى يخمد جسمه ، وتنطفئ جذوة شبابه ، ويفيق إلى الحقيقة ...

— وأية حقيقة يا غالب !

— حقيقة الحياة !

— وما حقيقة الحياة بعد هذه الجولات التى يصورها لك خيالك فى عوالم الحب ؟

— لا أستطيع أن أذكر لك ... ستعرف كل

شيء، ولكن من سجل الحوادث، فهلم بنا نتحسس أخبار البطل ...

— أى بطل ؟

— البطل الذى تماريني فيه !

— صبرى ؟

— أجل ... صبرى ... صبرى

***

كان غالب أفندى عبد الرؤوف صادق الفراسة فيما ذهب إليه من تعليل وجوم هذا الشاب العجيب، صبرى أفندى نجيب . فلقد أحب صبرى زوجته حباً جماً قبل أن يصل أسبابها بأسبابه . ولقد كان يهواها ويعبدها كما زعم فؤاد فى حديثه الطويل الجميل مع الأستاذ غالب . وكانت قصة غرامهما درامة رائعة فياضة بالدموع جارية العبرات ، فيها ألم وفيها عذاب ، وفيها من تباريح الحب ما غمر قلبيهما وصهرهما وطهرهما ، وفيها أقسام غليظة وعهود وثيقة أن يكون أحدهما للآخر وألا يشرك أحد منهما بصاحبه مادامت الأرض والسماء

وكان صبرى فتى جميل المحيا وافر الثروة أنيق الهندام يحب الغناء ، مشغوفاً بالموسيقى . . . وكانت له ضيعة فى ضواحى الزقازيق تأتى له بغلة عظيمة ، وكان يحب منزله الريفى المشرف من ناحية الشرق على حديقة متوسطة أقام فيها كرماً وارف الظلال يقسمها أربعة أقسام تلتقى عند عريش جميل كان صبرى معجباً به ، فكان يجلس تحته يغنى أو يداعب عوده ، أو ينظم أغاريده المصرية الصافية ثم يلحنها ، أو يقرأ فى ديوان ، أو يتلو قصة ، وشذا الورد وعبق الأزهار ، والحديقة كلها ، بل الدنيا جميعاً تتأرج من حوله ، فتكون بين يديه لحنا من أعذب الألحان ، أو روضة من جنات رضوان

أما من ناحية الجنوب فكان النزل مشرفا على الحقول المتلئة بالحياة المنبسطة تحت رحمة الله ، تؤتى أكلها فى لين ويسر ، فتملأ الأهراء كما تملأ الجيوب ، وتفيض على الناس خيرات وبركات

أما من ناحية الشمال ، فكانت تتدفق مياه الترعة القديمة الخالدة تحت أشجار الجميز والنبق ، وفي ظلال النخيل الباسق ، وكانت تحدث خريراً ما كان أحلاه وما كان أشجاه ، لأنه غناء الطبيعة ونشيد الخلود

هنا كان يقيم صبرى ... يغنى وينظم ويقرأ ، ويتحد بالكون الرائع الهادئ ، ويسرى فى الليالى المقمرة نفحة جميلة ذات جرس فى أجواز الفضاء ، ويستيقظ مع الشمس ملا كا نقيا ، يرف فوق عروش الشفق ، ويتطرح فى ظلال الدوح فيتأمل فى قدرة الله العلى ، ويملأ قلبه من جمال ماصنعت يداه ثم يقضى أصائله مع مغرب الشمس منحنياً فوق عوده يستودعه أسراره ويبوح له بمكنون قلبه ...

ما أجمل الريف المصرى وما أحسن انسجامه ! هنا كل شيء فطرى، فلا مجازفات ولا مخاطرات... قناعة ونفس مرسلة على سجيتها... فلماذا آثر صبرى الساذج القانع أن يذهب إلى القاهرة ! ؟ ماذا فى القاهرة أجمل مما هو هنا فى تلك الضاحية الفطرية الرائعة ؟ ! إن القاهرة كالغول الذى لا يفتأ يكشر عن أنيابه يفترس السجايا ويطحن الجبلات ... إنها مأوى الأبالسة ومرتع الشياطين وملعب الجنة ، وإن تكن أكثر بلدان الله مساجد وكنائس وبيعاً ... كل ما فى القاهرة مصنوع .. ليس فيها شيء لم تنفق على تطريته الألوف والألوف .. إنها حى من أحياء

جهنم انتقل من سواء الجحيم ليكون فتنة هذه الدنيا والناس يتهافتون عليه لـكثرة ما فيه من المغريات .. الملاعب ... المراقص ... المساهر ... الحانات ... دور اللهو ... فخاخ الشباب ... مصائد اللذات ... المواخير ... أوه لهذه المواخير !

أحس صبرى ظمأً شديداً إلى القاهرة ! لقد انتشرت الأبالسة تبحث عنه حتى وجدته يصلى بريئاً ساذجاً فى صومعة الريف ، فنفثت فى قلبه الرغبة .. ووسوست إليه بضرورة التغيير ... لقد ضحكت عليه وصرخت فى صدره بأن الحياة التى يحياها حياة خاملة متشابهة تميت النفس وتزهق العواطف ، وتكبت الروح ... والشاب الذى له مثل شباب صبرى وقريحته ومزاجه لا يخلق به أن يحيا سجيناً هكذا لا بد أن يؤدى رسالته فى محيط شاسع واسع مختلط يتغير كل ساعة ولا يبقى على سنة واحدة أكثر من يوم ...

ماهذا الريف الساكن الساكت الهادئ الصامت الذى لا تحس له ركزاً ولا تكاد تسمع له همساً ؟ ! ما أبشع أصوات البقر والجاموس والحمير والأوز والبط والـكلاب الريفية وقطاط القرية !

ما أبشع أسراب الذباب تحط على كل شيء وتنمر كل شيء ، وما أقسى لدغات البعوض !

هكذا ألحت الأبالسة على قلب صبرى ، وهكذا بغضت إليه هذا الريف البار الذى لا يؤذى أحداً ولا يلحق الضرر بأحد ، ثم حسنت إليه القاهرة الساهرة العربيدة التى لا تـكاد تنام ...

وهكذا انتوى صبرى أن يتبع الفتاة القاهرية الرائعة التى رآها فى الزقازيق ترقص فى ليلة ساهرة مع إحدى الفرق الجوالة ، والتى استطاعت أن تسحر تلك القلوب الرطبة بما حباها الله من رشاقة وخفة وجمال

لم تكن سنية من هؤلاء الراقصات اللائى يتجرن بأجسامهن فيجعلن أثماناً للنظرة والابتسامة والـكلمة والجلسة والربتة بأطراف الأصابع ثم السهرة بما يكون فيها من نصيب أوفى للشيطان ، فتكون القبلة بثمن قدره كذا، والضمة بسمروزنه كيت، والرقصة العارية المجردة بكذا من القروش المعدودات ...

لا ... لم تمارس سنية هذه التجارة القذرة وإن تكن بحكم الصنعة تعرفها ، وكانت على استعداد لممارستها لو لم يدخل صبرى افندى نجيب فى حياتها فجأة ، فكان دخوله فيها كالنور الذى يقشع الظلام ويبدده ، ويحل البشر والايناس محل التجهم الذى هو مصدر جميع الشرور

لقد كانت سنية تسبح فى حفلة الزقازيق الساهرة فى فيض من ضوء البرتقال فى خفة ورشاقة وتثن ، وكان جسمها الناضج الخصب الممتلئ بالشهوات يروح فوق المسرح ويجيء فى حركات مضبوطة متزنة ، وكانت نخذها العارية الملساء الناعمة تنقبض وتسترسل وتلف كاللولب فوق قدم صغيرة حافية لها أصابع دقيقة أنيقة وعقب جميل مستدير ، كان عامل النور الخبيث يسلط عليها ذوباً من الضوء الأبيض الناصع فيجعلها كزهرة الزنبق الغضة المنضوحة بخمرة الطل

وكان ذراعا سنيـة تستدقان عند الـكفين ، وتلتفان عند الساعدين ، وتبرزان قليلا عند الكوعين، ثم تمتلئان عند العضد ، فكانتا بذلك أجمل ذراعين تقع عليهما عين شاعر وموسيقى مثل صبرى ...

وكانت الفتاة تحمل إحداهما فى رفق وهوادة فوق صدرها الناهد ، فتغطى ثدياً وتكشف آخر

وهنا كان موضع فتنتها وسحرها ... وليس يدرى الخيال أى الثديين أوفر فتنة وأكبر نصيباً من الجاذبية: المكشوفة ، أم المختبئة تحت الكف الثرية المنداة ؟

أما ابتسامات سنية ونظرات سنية فكانت خير رأس مالها فى دولة الجمال . فلقد كانت تفتر عن فم حلو خلاب لم تعالجه إلا بقليل جداً من أحمر الورد فاذا تبسم بدت ثناياها العذاب الرطاب ، وتضاحك خداها فنازلا الأفواه الظامئة بالقبل

أما عيناها فكانتا نفاذتين أخاذتين ، لهما شك عجيب فى سويداءات القلوب ... فاذا لم يسلم الرائى بنفسه ، غرق منهما فى لجتين من السحر ، فلم يدر لنفسه قراراً ولم يفز بنجاة

هذه سنية ... هذه هى الفتاة التى شقت فؤاد صبرى شقاً عنيفاً فاستقرت فيه غير راحمة ... هذه هى الغادة التى غيرت مجرى حياة الشاعر الهادئ الساكن فجعلتها عربيدة صاخبة مضطربة كالثورة . تطلب كل شىء ، وتشتهى كل شىء ، ولا تقنع بشىء ، ولا تسكن إلى شىء

لقد كان صبرى ينكر الجمال المصرى حتى رأى سنية فآمن به ، وعرف أن الخير موجود بوفرة فى كنانة الله ، وأن الجمال المصنوع فى شركات السينما هو زيف وبهرج لا يعدل الجمال المطبوع فى هذا الوادى القديم المقدس

ولقد كانت سنية تحفة من آيات النيل طبعت على غرارها تحف كثيرة نادرة ، لكنها وا أسفاه تختنق فى مباءات الفقر وتهمل فى الأزقة والطرقات ، ويندر أن يكتشفها قلب عاشق أو خيال فنان إلا فى مرقص أو ملهى أو ماخور ، بعد أن تشوهها يد العبث ، أو تمزق عفافها يد الدنس ، أو تبتذلها الأغراض والشهوات ...

لقد كانت سنية تقف فى مفرق الطريق عند ما ساق إليها القضاء صبرى ، وكانت موشكة أن تتردى فى الهاوية التى ابتلعت الألوف من أشباهها ، لولا أن أشرق فى ليلها هذا الكوكب الدرى فجذبها إليه ليصنع منها قديسة !!

* * *

— بل الحياة فى الريف أجمل وأكثر بهجة ... إنك واهمة يا أختاه ... إن حديقتى ستسحرك بأزهار البرتقال والنارنج والخوخ والمشمش ... وستطربين إلى دوى النحل ... لا تخافى ، فنحلنا هادئ وديع لا يؤذى أحبابه ، لقد تقف النحلة على يدى فتقبلها كأنها تعرف من أنا !!

— كل هذا جميل وساحر ، وأنا أحب الريف كما لا يحبه أهله

— كما لا يحبه أهله ؟

— أجل ...

— وكيف يا سنية ؟

— إنهم من طول ما امتزجوا به يودون لو تخلصوا منه

— وإلى أين يذهبون ؟

— إلى المدن الساحرة ... المدن الكذابة !

— إلى هذا الحد لا تحبين المدن !

— أنا لا أحب المدن لأنها ترهقنى —

— وكيف ترهقك وكل من فيها صرعى هواك !

— هذا هو الذى يضجرنى ... إن الناس يهاجوننى بشهواتهم وكل منهم يريدنى لنفسه وإلى الآن لا أدرى لمن أكون

— لأحسنهم طبعاً !

— ليس فيهم أحسن وأردأ ... كلهم أبناء

آدم ، والخطيئة تجرى فى أصلابهم بالوراثة

— إنك تظنين بالناس الظنون يا سنيه !

— ليس هـذا مجرد ظن يا عزيزى ... لقد درستهم وخبرت مكنوناتهم ... أبداً لن أنسى ما تمرغ الشباب تحت قدمي لأنيلهم إحدى ثمراتى ، فلما كنت أستدرجهم وأقترح عليهم سبيل الرحمن ، كانوا يمزفون ويفرون منى كأنى طاعون !

— وى ! !

— هـذا حق ... لقد كانوا يفرون حتى لا يصيبهم طاعونى ... لقد كانت شهوتهم تنطفئ فجأة عند ما أذكر لهم الزواج ...

— ولماذا كانوا يرفضون ؟ !

— كانوا يرفضون لأننى راقصة ... ومن حق الناس على الراقصة أن ينالوها بأيسر ثمن ... ليس للراقصة أن ترتفع إلى الأفق العلوى الذى يحيا فيه جميع الناس ... إنها مخلوق وضيع ، فكيف تحسب نفسها من معدنهم !

— هذه مبالغة يا سنية !

— ليست مبالغة .. إن الناس يزدروننا ويزعمون أننا تجردنا من فضائلنا حين اضطرنا العوز إلى هذه الحرفة ... وليت شعرى ماذا كنا نصنع ؟

— لهذا قلت لك إن الريف جميل !

— ماذا تعنى ؟

— أنت تفهمين كل ما أعنى !

— أتمنى أن أنزل عليك ضيفة ؟

— حاشا لله يا سنية !

— إذن فماذا تعنى ؟

— ألا تحسين يا سنية أن كلا منا كان يفتقد الآخر من عهد بعيد ؟

— أخشى أن تكون حبيباً جديداً !

— ليكن ما تظنين !

— لكنى لا أحب لك أن تكون فى قائمة الآخرين !

— لن أكون فى قائمتهم إن شاء الله !

— هذه إذن تكون تضحية عجيبة !

— ولماذا تكون تضحية ؟

— قبل أن أفسر لك ما أريد أود أن تصارحنى !

— وبماذا أصارحك ؟

— لماذا تريدنى عندك فى الريف !

— لتكونى أجمل زهرة فى بستانى !

— خيال شاعر لا يستطيع أن يغرينى !

— ليس ما أقول من خيال الشعراء يا سنية ، ماذا تريدين أن أقول لك ؟

— أنت تعرف ماذا ينبغي أن تقول ، ولكن ... لا تكن شاعراً أرجوك !

— أتكرهين الشعر ؟

— أكره الشعر الذى يكذب به قائلوه على سامعيه !

— وأى شعر تحبين إذن ؟

— وأي شعر ترى أن يحب العذارى ؟

— الشعر الذى تغسله الدموع !

— قد يكون هذا أكذب الشعر !

— الشعر الذي يحس الانسان حرارته !

— قد تكون الحرارة طبيعية فى قلب الانسان فيتأثر بأى أنواع الشعر ويحسبه حاراً !

— الشعر الصادق الحى إذن !

— قد يكون الشعر صادقاً حياً في حين يكون صاحبه لا صادقاً ولا حياً

— وكيف ؟ أليس الشعر هو الشاعر ؟

— ليس فى كل الأحيان ، فقد يكون الشعر صناعة ومع ذاك تكون فيه حرارة وصدق وحياة

— فإذا كان شعرى حقاً !

— أى !

— أى أنه ليس صناعة يزجيها اللسان ويزخرفها القلم !

— إذن فلماذا تريدنى أن أكون عندك فى الريف ؟

— لتكونى لى وحدى فقد أصبحت لا غناء لى عنك ولا حياة بدونك !

— أهذا هو الشعر غير المصنوع ؟ !

— إى وحقك يا سنية !

— لشد ما أنتم أنانيون يا عشاق !

— لست أنانياً ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— لا أريد أن تقع عين عليك فتسمتع بجمالك بعد اليوم !

— إغراق فى الشعر مرة أخرى !

— لست مغرقاً فى شعر كما تظنين !

— أنت تراوغنى ، وأوشك أن أضيق بك كما ضقت بالآخرين !

— معاذ الله أن أراوغك يا سنية ، أترفضين أن تكونى لى ؟

— لست أرفض ولكن بأى سبيل ؟!

— بأى سبيل كيف !

— هل تسألنى ؟

— لا أفهم !

— لأنك تراوغنى كما كان يفعل الآخرون !

— وماذا كانوا يفعلون ؟

— لقد ذكرت لك كل شىء

— آه ... فهمت !

— فهمت ماذا ؟

— لقد كانوا يريدون بعض ثمارك بأيسر ثمن !

— هو ذاك !

— وتحسبين أننى أصنع كما كانوا يصنعون !

— وماذا تصنع غير ذاك !

— كلا يا عزيز ... يا حبيب ... كلا يا سنية !

— لماذا ترتبك هكذا ؟ !

— أرتبك لأنك ترفضين أن يكون كل ما أملك لك !

— إذن فاسمعها منى ... أنا أرفض أن يكون كل ما تملك لى .

— ولماذا ؟ أليس العيش مع شخص واحد خيراً منه مع كثيرين !

— إذن أنت لم تفهمنى ، ومن الخطر أن تركن إلى ...

— من الخطر أن أركن إليك ؟ ولماذا ؟

— لأنى راقصة .

— وما فى ذاك من الخطر على ؟

— سأحطم حياتك ... سأجعل سعادتك أنقاضاً ... لن تنظم بيتاً واحداً من الشعر بعد أن أدخل منزلك الريفى ... لن تغنى ... لن تشكو إلى عودك ... هل سمعت ؟!

— أنت واهمة ياسنية !

— لست واهمة ، ولكنك الآن فى فيض من عواطفك فلا تستطيع أن تفهم ... ثق أنك سوف تكون أشقى الأشقياء إذا آويتنى فى عشك الريفى الجميل ... فأنا أنصحك ...

— تنصحينني بماذا ؟

— بأن تبتعد عني ما استطعت ، فأنا خطر عليك

— أرانا قد ابتعدنا كثيراً يا سنية ... لقد أسأت فهمي

— كلا ، لقد فهمتك جيداً ... ألست تريدني لك وحدك ؟

— بلى ، أريدك لى وحدى ، فما فى ذلك مما آلمك ؟

— لم يؤلمنى شىء ، بل إنه قد سرني أن أفهمك كما فهمت الباقين ، فلقد كان كل منهم يريدنى له وحده ... مثلك تماماً !

— لكنك ذكرت أنهم كانوا يهربون منك !

— كانوا يهربون منى كما تحاول أن تهرب أنت الآن !

— وكيف أهرب منك وأنا أحاول أن أدنو منك أكثر من كل لحظة دنوت فيها منك ؟

— إذن أجب عما أسألك دون أن تلتوى هكذا: كيف تريدنى أن يضمني منزلك الريفى إذا رحلت معك إليه ؟ أأكون فيه حبيبة ؟ !

— تكونين فيه أثمن من حبيبة ؟

— أكون ماذا إذن ؟

— تكونين مالكة متصرفة !

— أى أنك تنزل لى عن بيتك ؟

— ولم لا أفعل ؟

— بعقد مسجل ؟

— بأية طريقة تحبين !

— وماذا أملكه لأنفق على هذا البيت ؟

— ضيعة واسعة !

— تكون لى ؟

— تكون لك تتصرفين فيها كما تشائين !

— ثم يكون بيننا بعد ذلك ما أمر الله أن يكون بين كل امرأة يتصل بها رجل ؟

— ... ؟ ...

— لماذا لا تجيب إذن ؟

— ... ؟ ...

— ألم أقل لك إنك لا تفضل أحداً من أبناء آدم !!

— إنك تربكيننى يا سنية !

— ولماذا أربكك ؟ ألأنى طلبت منك ما يطلب الله من الرجال للنساء ؟

— أنا لا أمانع فيما تطلبين ...

— إذن لقد اتفقنا

— ولكن لى شرط

— وما ذاك إذن ؟

— أن تكتفى بخطاب أكتبه إليك !

— وشاهدين !

— لك هذا ...

— وما يخيفك من الطريق الذى يسلكه جميع الناس !

— ليس يخيفنى شىء !

— عجيب أمرك والله ! إذن نسلكه نحن أيضاً ما دام لا ضير عليك فيه !

— لكن ...

— لكن ماذا ؟

— لا شىء !

— بل أنت تخشى أشياء كثيرة ؟

— أشياء كثيرة مثل ماذا ؟

— حتى ما تخشى منه تريدنى أن أقوله لك !

— لا وحقك ، ولكن قولي لي ...

— هـذا أمر يسير جداً ... أنت تخشى أن يعرف الناس أنك قد تزوجت راقصة ؟ أليس كذلك؟

— ما هذا الذى تقولين يا سنية ؟

— بل هـذا هو الذى يخيفك ... وأنا لذلك أرفضك !

— هذه قسوة شديدة لا أحتملها !

— قلبك ليس شجاعاً ، فهو لا يحتمل كثيراً

— سأبرهن لك أنك فهمتني خطأ

— وكيف تبرهن على ذلك ؟

— سأطلب يدك إلى أبيك !

— أبي !

— أجل !

— وهل تعرف أبي ؟

— أسأل عنه !

— تسأل من ؟

— أسألك أنت

— خير لك أن تسأل غيرى فقد أكذبك !

— لا تستطيعين !

— ولماذا لا أستطيع !

— لأن من كان له مثل لسانك لا يكذب !

— إذن ...

— إذن ماذا ؟

— لقد مات أبي !

— فأنت يتيمة إذن ؟

— أجل ، ولذلك نشأت راقصة

— إذن هلمى ...

— إلى أين ؟

— إلى القاضى ...

***

أرأيت إلى هذا الحوار الطويل ؟! أرأيت كيف كان الفتى صبرى مثل كل الناس فى مغازلة هـذه الراقصة البريئة ؟ لقد أرادها كما أرادها غيره ، فلما استعصت عليه بهذه الوسيلة عرض وسيلة أخرى... لقد أراد أن يقنصها بالمال ، لكنها أبت وصارحته أنها ترفضه ، فلم يجد بداً من أن ينقاد لها كما تريد ؛ وهو بذلك قد مسخ حبه ومزق جماله وشوه العاطفة الكريمة التى سرت بين قلبه وقلب سنية ، ولو أنه كان قد أجاب صيحة حبيبته ولبى نداءها دون هذه المراقيل التى أقامها بينهما لكان أسعد حالاً مما انتهى إليه أمره

على كل حال لقد تزوجها وذهب بها إلى منزله الريفى الجميل ، ولقد سعد بها سعادة كانت منتهى أحلامه ...

وكانت سنية تنشد هذه الحياة الزوجية الهادئة البعيدة من المراقص والملاعب والحانات ودور اللهو؛ ولم تكن مثل كل الراقصات تطرب لكلمات الثناء الكاذب التى يبعثرها العشاق حول أذنيها كى يخدعوها ... لقد كانت تعرف الباعث على هذه الكلمات ، فكانت تزدريها فى صميمها ، وتحتقر أصحابها ، وإن لم تبد لهم مكنون نفسها ، فكانت تجزيهم بابتسامة فاترة لا تغالى فيها ، ثم تمضى فى سبيلها تاركة فى كل قلب لوعة وفى كل نفس حسرات؛ وكانت لذلك تصلى لله أن يرزقها هذه الحياة الطيبة الوادعة ، وأن ينقذها من العيون الجائعة ، والنفوس السائمة ، والشهوات الوضيعة التى تنطق بالدراهم فى البؤر والمواخير .. فلما فازت بها هدأت واطمأنت ونسيت لصبرى هذا الالتواء الذى كان يضمه بينه وبينها أول الأمر ، ثم عاهدت نفسها لتجعلن بيته جنة ، ولتملأنه غناء وألحانا

ومضت شهور والالف مطمئن إلى إلفه ، سعيد به سعادة لا تشوبها شائبة ، ولا يكدرها مكدر

ثم جلس صبرى مرة فى ظل شجرة عارشة فوق دواره فسمع شابين يتناجيان خلف الجدار فيقول أحدهما والآخر يجيبه :

— كلا يا سيدى ... لقد جاء بها من مصر .. وكل الناس يقولون إنها راقصة !

— يا شيخ اتق الله، صبرى بك يتزوج راقصة؟

— والله لقد سمعت هذا من فم لا يكذب

— وممن سمعته يا صادق ؟

— من أعز أصدقاء صبرى بك ... من غالب أفندى عبد الرؤوف

— وما دخل غالب أفندى عبد الرؤوف فى أن يتزوج صبرى بك راقصة أو غير راقصة ... الرجل حر ، وهو الذى اختار لنفسه ، ورب راقصة خير من نساء قريتنا جميعاً !

— مهما يكن الأمر فغالب أفندى يقول إن صبرى بك سعيد جداً بزوجته وهى خير له من أى زوجة أخرى .

— ولماذا ؟ لماذا يقول غالب أفندى هذا الكلام!

— قلت لك إن غالب افندي لم يخطىء فى حق صديقه ...

— مجرد ذكر الزوجة التى لا شأن لأحد بها خطأ ياصديقى ، هكذا علمنا هذا الريف الذى نعيش فيه!

— هذه مغالاة ياراغب .. الحمد لله غالب أفندى رجل يحب صبرى بك ويخلص له ، وقد مدح زوجته مدحاً طيبا وأثنى عليها ثناء صادقاً .

* * *

إذن فقد كان الناس يتحدثون عن صبرى أفندي وعن زوجته ، وقد علم الناس أنها كانت راقصة ، وقد تحدثوا بذلك طويلا ، وتحدث به أصدقاء صبرى وفى مقدمتهم غالب افندى عبد الرؤوف صديقه الأعز ، ولا شك فى أن صديقه الأعز هو الذى أذاع هذا الخبر وإن يكن قد أذاعه مثنياً مادحا لا ذاماً ولا قادحا .. لكن النية معروفة على كل حال .. لقد أراد غالب أفندى أن يقول للناس إن صبرى أفندى نجيب صاحب هذا النزل الجميل المنمزل متزوج راقصة ، وسيفهم الناس أن كلمة متزوج هذه كلمة (تجوزية) فهم يقولونها ويريدون أن يقولوا إنه يؤوى فى بيته راقصة ... والناس فى الريف وفى المدن الصغيرة لا هم لهم إلا التحدث فى شئون غيرهم الخاصة ، يساعدهم على ذلك فراغهم الكثير وعدم اتصال أشغالهم ... والانسان متكلم شقشاق بطبعه ، لا يستطيع أن يخزنِ لسانه إلا على قلق ، وهو إذا لقى إنساناً آخر جمل يفكر فى ألف حديث يقوم بينه وبينه ، فاذا ضاقت به الأحاديث أرسل أى حديث والسلام ... فما يبالى أن يكون هذا الحديث غيبة وهو عادة لا يقصد الغيبة ، إنما هو يقع فيها وهو لا يدرى ؛ ومن الناس من يقع فى الغيبة وهو متعمد لأن كثرة وقوعه فيها غير عامد قد مهد لوقوعه فيها عامداً ، فهو يلفق الحادث الصغير فما يلبث أن يحوك له الأطراف ، ويغمز له بالعين والأنف وسائر أجزاء الوجه حتى تستقر فى روع السامع منه أشياء ليست من الحق ، وليس فيها من الحق شىء ...

هكذا يعيش الناس فى الريف وفى كثير من المدن الصغيرة . . . وقد سمع صبري حديث الشابين فأحس لساعته أن سحابة تنعقد فى سماء سعادته ،

وأن كأساً مرة المذاق ترتفع إلى شفتيه ، وينسكب منها شيء فى فمه

وانقلب صبرى إلى منزله مفكراً مقطب الجبين ساهماً ، فلما لقيته سنية لم تبال عبوسه وتقطيبه ، بل راحت تلف ذراعيها حول عنقه ، وتسلط عينيها الرائعتين فى عينيه السادرتين ، ثم تغمر فمه المرتجف بالقبل ...

بيد أن قبلها لم تسحره هذه المرة ، وظل صبرى فاتراً كالذى سرى فى كيانه هم ، أو فاجأته نازلة ... فقالت له وقال لها :

— ماذا ؟ هل ضاع كيس نقودك ؟

— لا ... أبداً ...

— هل خطف طفل طربوشك ؟

— ها هو ذا طربوشى

— هل حذفتك فلاحة بقثاءة ؟

— ... ؟ ...

— مالك مقطباً هكذا ؟ ماذا حدث إذن ؟

— لا شيء ...

— أمريض أنت ؟ أتحس تعباً فى رأسك ؟

— قليلا

— إذن خذ هذا القرص المسكن

ثم أذابت له القرص فى قليل من الماء ومدت إليه الكوب بيدها الفتانة الرائعة فتناوله وشرب ، ثم تطرح على السرير أمام سنية

— أين كنت يا صبرى ؟

— كنت فى الدوار

— هل لقيت أحداً ثمة ؟

— ما لقيت أحداً اليوم

— هل سمعت كلاماً ؟

— ما دمت لم ألق أحداً فكيف أسمع كلاما ؟

— أوه ! صحيح ... أنا غبية

— عفواً ...

— هل أغنى لك ؟

— أكون سعيداً لو فعلت

— وعليك أن تأخذ العود يا عزيزى

— لا أقدر

— إذن أقوم بالغناء والموسيقى معا ... هل تقترح شعراً فأغنيه ؟

— ليس فى رأسى كلمة واحدة فأقولها

— وأختار أنا مقطوعة من كلامك

ثم تناولت سنية عود زوجها فرجعت بصوتها عليه ، فما راعها إلا أن ترى دمعة تغالب عين صبرى ثم تنطلق على خده حارة ساخنة ، فألقت بالعود ناحية وقالت له :

— ماذا ؟ أنت تبكى ؟

— لا ... أبداً

— وما هذه الدموع إذن ؟

— إنها نتيجة ما برأسى من ألم الصداع

— لا ... لقد سمعتها تقول شيئاً !

— الدموع تتكلم ؟ هذا هو الشعر الذى كنت تسبيننى به

— وهذا هو الشعر الصادق الذى لم تستطع أن تضرب لى عليه مثلاً !

— غنى غنى

— لن أغنى حتى تذكر لى ما يبكيك

— عجيب والله ! أغنى أنا !

ثم تناول العود فأمر أنامله على أوتاره فذهبت تملأ الغرفة رنينا وأنينا ... وغنى غناء موجعاً باكياً فقالت له سنية :

— هذا الغناء ترجمان دموعك ... ألا تذكر لى يا صبرى لماذا كنت تبكى ؟

— لم أكن أبكى ، وما كذبتك يا سنية !

* * *

وفترت بهجة المنزل بعد ذلك ، ثم مضى شهر وصبرى لا يبوح لزوجته بشىء مما يؤلمه ... ثم أصبحت فلم تجده معها ... فبحثت عنه فلم تعثر عليه بالقرية ...

هنا ... قام طائف من الشك فى قلب الفتاة ... فقد غربت الشمس وصبرى لما يعد إلى منزله . . . أين ذهب يا ترى ؟

وخطر لها أن تقصد إلى منزل غالب أفندى عبد الرؤوف لتسأل عن بعلها ... لكنها لم تجد الرجل ثمة ، ولقيتها زوجة غالب أفندى فأكرمت لقاءها ، وكان الأستاذ غالب يتحدث إلى زوجته بدافع الفضول الريفى عن صبرى أفندى وعن زوجة صبرى أفندى ، فلما عرفت ربة الدار فيم أقبلت سنية وكان الوجد والقلق باديين على وجهها حزرت أنها ناقمة على صبرى وعلى الزمان الذى ربط حبالها بحباله فقالت :

— لا أدرى يا أختاه ماذا سرك من أمر هذا الرجل حتى رضيته زوجاً لك ؟

وهنا عرفت سنية كيف تستغل سذاجة هذه الريفية فبدت لها فى الحديث قائلة :

— هذا نصيبي يا سيدتي !

— مسكينة ، إن صبرى رجل غنى وهو لهذا لا عمل له إلا ضرب العود والغناء والسفر بين مصر والزقازيق ... ألم تعلمى الخبر الجديد ؟

— أى خبر ؟

— لقد ضحكت عليه بنت من بنات مصر وربما ذهب ليتزوجها !

— ومن قال لكم هذا ؟

— البلد كلها تقول ذلك !

— كل البلد ؟

— كل البلد ... بلدنا لا تخفى عليها خافية ولا ينام فيها بيت قبل أن يعلم أخبار جميع البيوت !

— هذا عجيب ... لكن صبرى لم يخبرنى بشىء من ذلك !

— وهل قال لأحد إنه سيتزوجك قبل أن يفعل ؟

— وماذا يقول الناس عنى يا ترى ؟

— كل خير ... كل خير يا أختاه

وجاءت القهوة فرشفت سنية رشفة ونهضت مودعة شاكرة ، ثم انطلقت إلى منزلها وبها من الهم والقلق أضعاف ما كان يقيم صبري ويقعده منهما

ترى أين ذهب صبرى ؟! أحقيقة ذهب ليتزوج ؟ ولم لا يكون هذا وقد لبث هذا الشهر واجماً ساهماً حتى لحظ الكل ذلك ، وحتى لحظه غالب نفسه ودليل هذا ذلك الحديث الطويل عن الحب والمحبين بينه وبين فؤاد !!

لقد راهن غالب صديقه فؤاد على هذا ... لقد راهنه على أن حبه لهذه الزوجة الراقصة لن يطول أمده ، لأنه حب طارىء دخل قلبه من فوق المسرح وتحت فيض من الأضواء ، وبين تثنى الأذرع وتلوى الأفخاذ ، وهز الردف وتكوير الأثداء ... ثم إرسال الابتسامات المصنوعة التى تزيد فى جاذبية الرقص وإغلاء البضاعة ...

هكذا زعم غالب ، وهكذا حكم على وحدانيـة

الحب بالفساد ، فياترى ! أين ذهب صبرى !

لقد ظل شهرا بتمامه عابسا متجهما لا ينبسط ولا يفرج عن نفسه وعن أهل منزله ... وكان يصغى إلى غناء سنية فى فتور وتكلف ، ولم يكن يبادلها هذا الانشراح الذى كان طبيعة فيه ... فأين مضى ياترى ؟

ومكثت سنية أياماً ثلاثة وهى لا تدرى أيان مضى ولا أيان يجىء ولا أين تلقاه فتنهض من فورها لتمضى إليه .

وكانت كالذى ينتظر الحكم عليه من قاضيه ، فلم تكن تذوق الكرى طوال هـذه الأيام الثلاثة . . . بل كانت تفكر أفكاراً سوداً كقطع الليل ... وهمت بالانتحار مرات ، لكنها لم تؤثر أن تموت قبل أن تعرف

إنها لم تخطئ قط فى هذا المنزل .. بل بالعكس لقد صيرته جنة وارفة الظلال ، وحاطته بالطهر ، لأنها عاشت حياتها نقية طاهرة . . . لقد ملأته غناء وموسيقى وبهجة ... لقد مثلت دور الأنثى كما تمثله حور الجنان... ماذا كان يطلب منها صبرى غيرهذا؟

* * *

ووقف قطار الصبح فى محطة القرية ونزل منه صبرى ومعه فتاة ناهد هيفاء ممشوقة القد ، يفيض بردها شباباً ويهتز جسمها الريان خصباً ... ولقيه غالب فحياه ثم سلم عليه مصافحاً ، وهتف به بالفرنسية قائلا : « عسى أن تكون قد وفقت هذه المرة ياصبري ! » فتبسم صـبرى ابتسامة مريرة وقال لصاحبه : « إن شاء الله ... لقد وفقت ياصاحبي ! » وكانت هذه آخر كلمة وجهها صبرى إلى غالب مدى الحياة !

وذهب الفتى إلى منزله فلقيته سنية موهونة محطمة كاسفة ، فلما رأت الفتاة الجميلة الرائعة إلى جانبه ، ذهلت ، وسكتت برهة ثم قالت له : « أهذه هى ؟ ! » فقال صبرى : « هذه من ؟ » فسالت دمعة ساخنة على خد زوجته وقالت : «زوجتك الجديدة» فأسرع صبرى إلى زوجته فأخذها فى ذراعيه مداعباً وقال : «أجل ياسنية! هذه ابنة أخى يا أعز الناس على. هلمى هلمى .. أعدى الحقائب فلن نعيش هنا بعد! »

وكأنما أفاقت سنية من حلم ، فنظرت إلى زوجها وقالت له :

— لن نعيش هنا ؟

— أجل ... ولا يوماً واحداً

— هذا محال !

— بل هذا واجب ... لقد استأجرت منزلا جميلا فى الزمالك ...

— ولماذا يا ...

— لأنى لا أريد أن أحرم من الجنـة التى ما دخلتها إلا معك !

— ما ذا تقول يا صبرى ؟

— ألا تفهمين ؟ إنك كنز عظيم ياسنية ولن يضيع كنزى من يدى .

— ولماذا نهجر الريف ... إنى أحبه ...

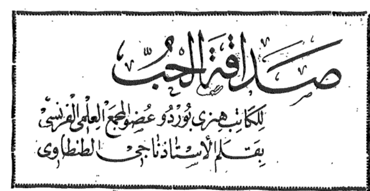
— أما أنا فلقد ضقت به

* * *

وعاشا فى الزمالك الساحرة عامين كاملين ... لكن سنية علمت زوجها كيف لا يكترث بالناس ... وما زالت تلح عليه فى العود إلى الريف حتى رضى كارهاً ...

ووقف ابنهما كامل الجميل فى حديقـة العنب مأخوذاً بسحر الريف وهو يهتف بوالده ويقول : « بابا . بابا ... حلوة يا بابا !! »

دسوقى خشبة



خاطب مسيو هير ، قاضي تحقيق الجنايات كاتبه مسيو موتون قائلاً :

— ماذا تقول ؟ أجريمة عاطفيـة أخرى ؟ ألا فليعلموا أن زمن الصفح والعفو قد انقضى . وها إن القضاة — وخاصة في بريتانية الكبرى — بدأوا يحكمون على المجبين القاتلين بالموت شنقاً ، لن يبق لدينا شيء اسمه جريمة عاطفية . هل أنت مستعد ؟ إنني سآمر بادخال المتهم ، ولكن قل لي هل وكل محامياً ؟

— نعم ياسيدي القاضي .

— لا ضير ، إننا نستطيع استجوابه بهدوء ، لأن هؤلاء السادة الذين يحامون ويدافعون يعقدون الاستجوابات بصورة رهيبة .

— إن المتهم ياسيدي ، يدعي أنه ليس جانياً .

— شيء طبيعي ، وماذا تنتظر منه غير ذلك ؟

— ويؤكد أيضاً أن القضية هي انتحار وليست بجريمة .

— انتحار ؟ فكر قليلا ، إن العمل الطبيعي والمشاهد دائماً هو أن الزوج يقتل العاشق ، فكيف نصدق أن العاشق هو الذي قتل نفسه وبحضور الزوج أيضاً ؟ لقد شغل هذا الخبر الغريب الصحافة ، وأنت على وصفه وتسجيله تحت عناوين ضخمة ، وخلاصة ما ذكرته أن رجلا يدعى بيير فالري ، وكان مستخدماً لدى شركة البترول ، نزل من القطار الذي يخرج من محطة سان لازار في الساعة ٢٠ والدقيقة ٢ قاصداً بوا كولومب التي يصلها في الساعة ٢٠ والدقيقة ١١ ، وقصد في الحال مدير المحطة وأخبره أن في عربة القطار التي كان فيها ، رجلا قتل نفسه أمامه برصاصة وجهها إلى قلبه ، وكان الرجلان وحيدين لا ثالث لهما ، ولم يسمع من في العربات المجاورة شيئاً .

وبدا لمدير المحطة أن إيضاحات هـذا الشاهد الوحيد مختلقة ، ووافقه في اجتهاده هذا الشرطي الذي دعاه في الحال ، فقرر إبقاءه وحجزه ، بعد أخذ اسمه وعنوانه .

كانت سمعة بيير فالري حسنة في بوا كولومب ، وكان محترماً بين مواطنيه ، وعلى الأخص في هذا الطريق ، إذ كان يركب القطار كل صباح من باريز ، ويعود إليها مساء به ، ولكن الاتهامات القوية وجهت إليه منذ يوم القبض عليه ، وا كتشفت مأساة حقيقية كاملة أقضت مضجعه : هجرته امرأته في العام السابق لتعيش — في شارع مجاور لشارعه — مع فيرناند بوبري هذا الذي مات تلك الموتة المحزنة الفاجعة ، والذي كان صديقاً حميماً للعائلة . وبقي بيير فالري قاطناً في مسكنه مع ابنة له صغيرة لم تبلغ ثمانية أعوام من عمرها ، وكانت أمها تأتي كل صباح لتراها وتعود ثانية بانتظام ودقة ، فارتبطت البنت بأمها وعشيق أمها برباط معنوي وثيق . ولا ريب أن الأب مل هذه الحياة غير الطبيعية ، ووجد نفسه في القطار وجهاً

لوجه أمام عاشق امرأته بطريق الصدفة ، عائداً فى ذلك المساء إلى باريز ولم يركب القطار الذى كان من عادته أن يركبه . لقد كان مصمماً على الانتقام حتى اللحظة الأخيرة . ولقد ثبت أن المسدس الذى وجد عند قدمى الضحية كان ملكا له ، وسلم نفسه دون أن يبدى مقاومة

وربما أن تؤخذ ابنته إلى أمها أثناء غيابه بقلة اكتراث ظاهرة ، وكان يردد فى هذه الأثناء بصوت هادئ : إن هذه القضية انتحار وليست بجريمة ، ولكن لم يبد عليه أنه مقتنع بهذا الادعاء الخيالي ... ودعى للمثول أمام قاضى تحقيق الجنايات

رأى القاضى أمامه رجلاً صغيراً متواضعاً ، ذابل النضارة ، لا يتجاوز الأربعين من سنى حياته ذا بزة وهيئة تدعوان إلى الاتهام ، ولم يك فى وجهه غضون مميزة ، بل كانت تبدو عليه أمارات الكآبة والحزن ، وكانت عيناه غائرتين ذابلتين ، تشبهان عينى الجدى الذى ينتظر طلقة البندقية مودية بحياته

قد يكون من الممكن أن يقال إن أمارات الحزن هذه قد ولدها فزعه من القضاء وألمه النفسى الذي كان يكابده ، لو لم تكن متلائمة مع طبيعة وجهه ، ولكن ظهر للقاضى أن هذه الأمارات طبيعية فى وجهه لا يمكن أن تزول منه ، وأيد اعتقاده هذا أن المتهم كان يجيب على الأسئلة الأولى بكلمتى نعم أو لا بانفعال وتهيج ، ولقد أقر للقاضى بكل الأمور التى سأله عنها : الخيانة وهجر امرأته ، واقتسام الطفلة ، وامتلاك المسدس ... ولكنه بعد هذا كله أنكر الجريمة !

فلم يتمالك القاضى نفسه أن صاح به :

— إذن هل لك أن تقص علينا كيف كان الأمر

— آه يا سيدى القاضى ، ما جدوى ذلك ؟ إنك لن تصدقنى ، وأنا لا يسوؤنى أن أدان

— إن كنت بريئاً كما تدعى ، فان إدانتك تسوؤك كثيراً ، وإن كنت جانياً أمكن أن يكون فى جنايتك ظروف مخففة

ولما صمت ولم يجب أردف القاضى قائلا :

— وإن لك مع ذلك ابنة ، فان كنت بريئاً لا ترضى أبداً أن تترك لها اسماً ملوثاً ملطخاً

فتمتم المتهم قائلا :

— آه لم أفكر فى هذا

وكان هذا الجواب وحده حافزاً للقاضى لأن يلاحظ أمارات الوجه البائس المخذول ، واعتقد أنه ليس بحضرة مجرم . وأبدى القاضى الذى قضى حياته فى هذا العمل حتى أصبح محنكا فى تحقيق الجرائم مهارة فى ملاحظة الملامح ، وقراءة الدلائل الوجهية والجسمية ، وعاود الكرة بلطف ورقة :

— تكلم بلا خوف ولا غضب ، وها نحن ذان مصغيان لك

— سأتكلم يا سيدى إذا كنت تمدنى أن ...

وبدت من القاضى حركة اعتراض . إنه لا يستطيع أن يتكفل بشيء ولا أن يرتبط بوعد مع متهم

— ... ألا تذيع شيئاً مما أحدثك به ، وألا تكتب منه شيئاً ، وإن لم تقبل ذلك فلن أتكلم

— إنك تعلم جيداً أن حادثتك يجب أن تسجل وأن من واجبى أن أعرف تفاصيلها إن كان فى الأمر جريمة ، أما إذا كانت القضية انتحاراً كما تدعى فسيكون اعترافك مقبولا ولن يصدر أى حكم عليك وكل ما فى الأمر أننا يجب أن نطمئن وجداننا اطمئناناً مطلقاً

وإذا كانت القضية خلاف ما تدعى، وتضافرت الأدلة على ذلك، تصبح حادثتك مرافعات وترسل إلى محكمة الجنايات الفاصلة، وهناك ستسأل بحضور السادة المحلفين من قبل رئيس المحكمة، وحتى آخر لحظة يسمح لك بإعادة إيضاحاتك، والايضاحات التى تفوه بها يوم الجلسة الكبرى هى وحدها التى تعتمدها المحكمة. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك وأنت تدرك ولا شك الفائدة الكبري التى تسديها لنا بتخليصنا من إتمام العمل بدقة ونصب

كان المتهم يصغى بصعوبة وارتباك إلي هذه المحاضرة التى ألقيت عليه بصوت عذب تبدو فيه الرأفة والشفقة. وكان الشيء الوحيد الذى كدر صفو نفسه ومس شغاف قلبه هو التفكير فى مستقبل ابنته، وفاض هذا التفكير على لسانه إذ قال فى نفسه:

— من أجلها، نعم من أجلها!

— من أجلها؟ من هى؟

— من أجل جنفييف

— جنفييف؟

— ابنتى. إنها ضعيفة لا تحتمل الضرب ولا تستحقه. أما أنا فقد ربيت على الجلد. وهذه الأشياء التى يسمونها الحياة والموت لا تهمنى كثيراً. ينبغى أن أفكر فى مستقبل ابنتى، وأرى من الواجب أن تتمكن من الزواج برجل شريف لا يثلم شرف أبيها ولا سيرته.

وقال بعد فترة صمت قصيرة: ولا سيرة أمها أيضاً

— هلم إذن وتكلم من أجلها

وبدأ المتهم يسرد قصته مضطرباً متلعثما، ثم ما لبث أن تشجع وأصبح إلقاؤه سهلا هادئاً. كان يبدو عليه أنه لا يعير أدنى التفات إلى مستمعيه: القاضى والكاتب اللذين كانا يتبادلان من حين لآخر نظرات مقرونة بالدهاء، وكان الاصغاء إليه يشجعه. كان يتكلم كأنه جالس وحده يناجى نفسه أو كأنه يرفع ستور الماضى أمام ناظريه، وكان يقاطعه أحياناً قاضى التحقيق عند ما يمعن كثيراً فى التفاصيل

— أجل يا سيدي القاضى، لقد كنا مسرورين نحن الثلاثة جداً

— أنتم الثلاثة؟

— نعم امرأتى وأنا وهذا المدعو فرناند بوري.

كانت امرأتى بائعة ورود، وكنت أمر أمام دكانها كل يوم فى طريقى إلى المحطة. وفى كل سبت كنت أشترى لها وردة أو قرنفلة أو باقة صغيرة من البنفسج أو غيره حسب الفصول، ولكنى لن أطيل فى هذا

تركت دكانها وبقيت فى الدار تقوم بالأعمال المنزلية، وكنت أعمل دائماً لأستطيع أن أقوم بأودها وأود ابنتنا الصغيرة. وكان فرناند رفيقى وصديقى يعمل فى شركة الكهرباء بينما كنت أعمل أنا فى شركة البترول. كان أكثر ثقافة منى وقد جاب بعض البلاد وزارها، وكان ذا منطق عذب، وكثيراً ما كان يتناول طعام الغداء عندى، وكان يلاطف ويداعب جنفييف الصغيرة. لم تكن امرأتى فى بادىء الأمر تنظر إليه بارتياح، وكانت ترى أن صداقتى أوثق مما يجب أن تكون، ثم أصبحت بعد حين تعتدل فى حكمها عليه وتلين، وكنا متفاهمين تماماً. وفى بعض أيام الآحاد كان يخرج بنا إلى الريف للنزهة. وفى بعضها الآخر كنا نبقى فى الدار نتسلى بلعب الورق شتاء وبالكرة صيفاً ولم نكن نذهب إلى المقهى

لم يكن يداخلنى الشك فى أمر زوجتى إذ كنت

واثقاً من حسن سلوكها ، وهي نفسها لم تكن تشك في ذلك . إنني لا أتهمها يا سيدي القاضي ولا أتهمه أيضاً . كانت هنالك أشياء تحدث بالرغم منا لم نكن نرضاها ولا نريدها ، كانت هذه الأشياء تمر ويتلو بعضها بعضاً ، وكان مرورها يحدث في حياتنا تبدلاً أشبه ما يكون بالاهتزاز الأرضي البطيء

— ولكن ما هي هذه الأشياء التي حدثت ؟

— لم يكن بيني وبين امرأتي خلاف ولا شجار. كانت تعانقني مودعة كل صباح عندما أهم بالذهاب ، وكل مساء عندما أعود إلى الدار ، آسفة صباحاً ، مبتهجة مساء ، ولم يكن ذلك مهزلة مقصودة . لم نكن نشعر بحاجة لأن نتبادل كلمات المودة ، إذ كانت المودة متأصلة في أعماق نفسينا ، وكنا نشعر بها دون أن نظهرها ، ثم كانت هنالك البنت الصغيرة التي تربطنا وتجمع بيننا .

لم يكن للبنت إلا الأب والأم ، وكان يجب أن نفكر فيها دائماً ، ولكننا كنا نطوى نفسينا على أفكار وآمال أخرى ، والنساء على ما يبدو لي يضمرن آمالا وأحلاماً أكثر من الرجال .. أما خاصة لم أكن أحلم أبداً ، ولم أكن أعني شيئاً ، ولم أكن أفكر في شيء ، إذ كان تفكيري منصرفاً إلى زوجتي وابنتي وهو هو تفكيري في نفسي ، إذ كانا جزءاً مني . وأنتما تدركان ذلك بالطبع

ثم سكت كأن جملته الأخيرة أغرقته في خضم الذكريات

فسأله القاضي قائلا :

— ثم ماذا ؟

— قلت لك إنه كان ذا منطق حلو عذب ، وكان يتقن التعبير عن مشاعره أكثر مني ، وكان لديه دائماً كلام يقوله أكثر مني . كان يضع ربطات عنق جميلة زاهية ، وكان في وجهه عينان تتكلمان ، أما أنا طبعاً فلم أكن إلا إياي . إن الذي كنت أفضله به كان معنى لا يرى ، كنت أفضله بالشعور والاحساس ، وليس لدى اتهام أوجهه إليه

— ليس لديك اتهام ؟ لقد فضحتما أنتما الاثنان

— بالرغم منا يا سيدي ودون أن نريد . لم أعرف صديقاً ورفيقاً أخلص من فرناند ، إنه كان على استعداد لالقاء نفسه بالنار في سبيلي ، وكلما وقعت في ضيق كان ينقذني ويخلصني منه . ولما كنت مصاباً بالخناق ، قبل زواجي ، مصاباً لدرجة الموت ، كان يسهر علي ولا يخاف من العدوى . أوه ! لقد كنت واثقاً أنه لم يكن يريد أن يتعبني ويؤلمني ، والدليل على ذلك أنه مات .

وسكت للمرة الثانية ... ثم تابع حديثه دون أن ينبه لوجوب متابعته :

— ولكن ، لقد لحقني منه قليل من التعب . لقد بدأت أشك في بعض الأشياء . لم تكن امرأتي المسكينة معتادة على الكذب ، ولما كانت تبيع ورودها ، كان الناس يروون لها قصصاً واقعية مسلية فكانت تضحك دون أن تبدي لها اهتماماً . لقد عرفت سريعاً أنني لست كسائر الرجال ، فلم تكن تضحك لي أبداً ، كانت تبدو محتشمة عندما كنت أقف أمام دكانها . لقد كانت فتاة عاقلة ومفكرة ، وبعد زواجنا كانت مؤنسة لي ، تضحك معي وتغني أثناء قيامها بالأعمال المنزلية ، وكنت أسمع غناءها عندما أعود من عملي ، فكانت تؤرث في قلبي نار الحب ، ولكنها بعد حين لم تعد تغني قط ، فسألتها عن سبب ذلك فأجابتني قائلة : « لا أدري » .

وظننت إذ ذاك أن ما أسكتها هو عدم ولادة طفل آخر لنا ، ولكني كنت مخطئاً في هذا الظن إذ ظهر لي أنها كانت تحتشم عندما كان يزورنا فرنانده ، وكانت تبدو عليها أمامه كل أمارات الغبطة والسرور فذكرت حالها وهيئتها عند ابتداء معرفتي لها ، وأفزعني الشبه بين الحالين ، وبدأت أتعذب وأتألم

هل كانت تحب سواي ؟ أكانت تحب صديق الذي يوشك أن يكون أخي ؟ لقد صممت على طرد هذه الفكرة من رأسي ، إذ وجدتها مخيفة وفظيعة. إن اتهامي لها معناه شتمهما وإهانتهما . كلاهما كان عزيزاً على أثيراً لدى؛ أما هي فمن أجلي وأجل طفلتنا ودارنا وحياتنا خارج الدار ، من أجل التعاون وتبادل الثقة ... ولكن لا ، لم يكن هذا فظيعاً كما تصورت ، وما أرى هل نحن دائماً مصادر أعمالنا وأصحابها الحقيقيون ؟

— أما في الأفكار فأستطيع أن أجيبك بالنفي إذ لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن بعض الناس مخطئون حتى القضاة أنفسهم ، أما في الأفعال فليس الأمر كذلك ، إذ نحن دائماً أصحاب أفعالنا والمسئولون عنها

— دائماً ؟ هل نحن نراقب أنفسنا في كل حين يا سيدي القاضي ؟ إننا لا نرى غيرنا إلا عند ما نريد أن نراه ، إذن نحن ننسى أحياناً . إننا لا نرى إلا ما نحب ، ويختفي ما وراء ذلك عن أبصارنا ، يختفي عنها كل ما يضايقنا ويؤلمنا ، ولذا فقد خفيت عن أعينهما كأنني لم أكن موجوداً . إنهما لم يفكرا في وجودي ولم يتنبها له إلا بعد لأي ، ولقد أخطأ في تنبههما إذ جلبا لنفسيهما الضيق والألم ، لأن عذابي الذي ولداه لي كان في الحقيقة عذاباً لهما

فأبدى الكاتب حركة اعتراض وشك في صحة القصة ، ولكن المتهم لم يعر اعتراضه أذناً صاغية وأتم حديثه :

— لقد حاولا أن يختليا ، ولم يكن هذا بالصعب كثيراً ، إذ أنني كنت أذهب إلى عملي كل يوم ، ولم يكن فرنانده مقيداً بالعمل مثلي فلقد كان يصلح هنا وهناك بعض الآلات الكهربائية ، كان يذهب إلى باريس وبعض نواحيها ويعود منها. إنه لمن المخيف أن يصبح المرء غيوراً . طالما حاولت أن أعلم شيئاً من أمرهما ولكني لم أستطع ذلك ويا للأسف واكتفيت بالتصور والتخيل . كنت أستيقظ في جوف الليل أحياناً ، وأصغي لزفير امرأتي . ويلاه أكانت تسمع ما أفكر فيه وهي في نومها؟ لقد كانت تستيقظ فجاءة وتأخذ بيدي وتسألني قائلة: « ماذا بك يا صاحبي؟ » فكنت أجيبها كما كانت تجيبني من قبل قائلا : « أنا؟ لا شيء » أو أقول مثلها : « لا أدري »

وعدت للدار في إحدى الأماسي ، فوجدت زوجتي حزينة ، ولما اقتربت منها رأيتها غارقة في التفكير لدرجة أنها لم تشعر بوجودي فوضعت يدي على منكبها وقلت لها : « فيم تفكرين ؟ » فأجابت : « أنا ؟ لا شيء » وعاجلتها بقولي : « إنك تفكرين فيه أليس كذلك ؟ » فما كان منها إلا أن صعدت زفرة حارة ولم تجب ، وقلت لها وأنا أهم أن أحتويها بين ذراعي : « إني سأحميك يا عزيزتي ، إنه لن يعود قط، وسيعرف كل شيء » فقالت ببساطة: « لقد تأخرت كثيراً » ولم أكد أسمع هذا الجواب حتى عرفت كل شيء ، وتركت ذراعي تهبطان بتراخ ولم أضربها ولم أطردها . فما راعني إلا أن رأيتها ترتدي ثيابها وتهم بفتح الباب فسألتها : « إلى أين

تذهبين؟ » فأجابتني : « إلى أين تريد أن أذهب؟ »
فقلت : « إليه » فهزت رأسها وقالت : « نعم إليه »
فقلت : « حسن ، إذهبي »

ولما بلغت عتبة الباب التفتت وقالت بهدوء : « وجنفييف ؟ » فقلت : « كان يجب أن تفكرى فيها من قبل » قالت : « هل تريد أن تحتفظ بها؟ » قلت : « إنها لي » قالت : « ولكنها لا تزال صغيرة » قلت : « ستعتاد الحياة بجانبي » قالت : « هل تدعني أراها ؟ » قلت : « كلا » فرفعت يديها كاليائسة ، ثم خرجت باكية ولم أرها بعد ذلك الحين

— وابنتك ؟ هل كانت تراها ؟

— كانت جنفييف تذكرها ، فكنت أقول لها إن أمها سافرت فى رحلة طويلة ، وكنت مضطراً لأن أقول لها إنها ستعود . ولما كنت أذهب إلى المصنع طول النهار ، عهدت بها إلى امرأة كانت تدير مدرسة داخلية فى بوا كولومب ، ولكن الصغيرة كانت تعاند وترفض أن تبقى هناك ، وعلمت بعدئذ أن أمها كانت تأخذها كل صباح بعد ذهابي وتعيدها كل مساء قبل عودتي. لقد عرفت ذلك ولكني لم أقل شيئاً . ماذا تريدني أن أفعل يا سيدى القاضى ؟ ماذا تريد ؟

فصدرت من القاضي وكاتبه حركة ظاهرها الاستحسان والتصويب ، ولعلهما كانا يقصدان بها موافقة المتهم موقتاً ليستطيع أن يتم حديثه ويتكلم عن الجريمة التى هى بيت القصيد. وصمت بيير فالرى كأنه تعب . فسأله القاضى :

— منذ كم هجرتك امرأتك ؟

— منذ عام على ما أذكر ، ولكن هذه المدة كانت تبدو لى كأنها عشرة أعوام . لم يتبدل شيء بعد . كنت لا أزال أركب القطار فى الذهاب والاياب ، ولكن لم تعد لى عزيمة ورغبة فى العمل . كنت أعمل كالآلة الصماء . وفى المساء كنت أرى جنفييف الصغيرة وكنت أستطيع أن أدللها وأفرحها بفضل أجرتي التى كنت أنالها من عملي . لقد كانت لبقة فى أحاديثها معى وتتضايق أحياناً لحديثي . أظن أن الأطفال عقلاء أكثر مما نعتقد يا سيدى القاضى . إنها لم تكن تجرؤ على أن تحدثنى عما فعلته فى يومها سوى دروسها وواجباتها . لقد كانت تعتقد أنها لا يجدر بها أن تذكر أمها ولا الرجل الآخر أبداً . ولكنها مع ذلك سألتني قائلة : أمن الممكن أن يكون للمرء والدان ؟ ثم أجابت من تلقاء نفسها : أما أنا ، فأظن ذلك غير ممكن

لقد كان لها أيضاً أب هنا وأب هناك ، أب فى النهار وأب فى الليل ، ولكن لم يكن لها ، ولن يمكن أن يكون ، إلا أم واحدة . ومنذ تلك اللحظة أصبحت لا أفكر إلا فى الانتحار لأترك المكان فارغاً للرجل الآخر . لم أستطع إرجاع البنت لأمها ، أما كان يجب عليّ أن أردها إليها ؟

— كان باستطاعتك أن تطالب امتلاك البنت وإبقائها عندك ، مع بضع زيارات تقوم بها الأم فى أيام محددة معينة

— صدقت يا سيدى القاضى . هذا هو العمل الذى لم أكن أستطيع القيام به . لم أكن أريد ذلك لزوجتي ولا لصديقى ، لقد كنت المجرم الأول . لا ينبغى أن نسيء إلى أحد ، وخاصة إلى المرأة الفاضلة . لم أكن أعلم يومئذ أن كلا منهما يلوم الآخر ويخطئه . إن الرجال يعتقدون دائماً أن نساءهم بأجمعهن لهم . أما النساء — وما إخالك تعرفهن جيداً — فانهن

يعلكن من العطف والحنان ما لا مزيد عليه ويظهرن ذلك لك كل يوم ، ولكنهن ينسينه عند ما يتزوجن. لقد تألمت لها كثيراً وتألمت له أيضاً . لقد كنت أعجب به طويلا . لقد كان فى نظرى مخلوقاً سامياً سلبنى أعز ما أملك وسحق بذلك العمل قلبى

— لقد كنت تمقته ، هذا واضح

— آه ، كلا يا سيدى القاضى

— ألم تكن تبغضه ؟ ألم تكن تريد أن تنتقم لنفسك ؟

— آه ، كلا . أنتقم ؟ هل كان يجب الانتقام ؟ لم يرد هو ، ولم ترد هى ، أن يحصل ما حصل . لقد تحابا ، هذا كل ما فى الأمر . وكنت أنا واثقاً من أنهما يرثيان لى ويتألمان من أجلى . فلم يبق لى إذ ذاك إلا دواء واحد ممكن ، ألا وهو الموت

— ولذلك صممت على اقتراف الجريمة

— الجريمة ؟ أية جريمة ؟ الموت ؟ لقد كنت مجزماً ولا ريب بتفضيلى الموت ، ولهذا الغرض اشتريت المسدس

فتبادل القاضى وكاتبه النظرات، وقال له الكاتب بصوت خافت : ألا يجب التسجيل الآن ؟ فأجابه القاضى قائلا : دعه يتم كلامه . إذا رأينا نضطرب ، توقف ولم يتكلم . وسأستجوبه عند ما ينتهي من سرد قصته . ثم قال بصوت مرتفع :

— إذن اشتريت المسدس الذى يفيدك فى اقتراف الجريمة

— اشتريته ياسيدى القاضى . لم يكن من السهل على تصور الموت. إن توجيه المرء الرصاص نحو صدره يتطلب كثيراً من الشجاعة ، ولم أكن مع الأسف وافر الشجاعة إلى هذا الحد ، رغم أنى اشتركت فى الحرب كسائر الناس. إن المرء يكون أكثر شجاعة عند ما يرى نفسه محاطاً بأصدقائه ، وأنا وحدى فى دارى لم أكن أستطيع العزم على الانتحار ، ولقد كنت متألماً جداً لعدم إرادتى الحياة . لقد كان كل شيء يسير فى نظرى على ما يرام ، جرمين ...

— جرمين ؟

— أجل ، جرمين امرأتى تزوجت فرناند ، واستطاعا أن يعيشا فى وضح النهار مع جنفييف ، وعندئذ أصبح للصغيرة أب وأم ، أما الأب الآخر فقد اختفى ، وأظنها نسيته ولم تعد تفكر فيه . لقد كان أباً حزيناً لا يصلح لشيء . كنت أحدث نفسى بهذا كله ومع ذلك فلم أعزم على شيء .

— إذن ما دمت لم تستطع أن توجه سلاحك نحو جسمك ، فقد وجهته نحو خصمك .

— مهلا ياسيدى القاضى . نعم كان يجب على أن أقتل نفسى ، وهكذا تخلصت من العذاب الأليم .

— قد بلغنا إذن اليوم الفاصل .

— أجل بلغناه ياسيدى القاضى . كان يعرف فرناند عادتى وواجبات عملى وقطارى الصباح والمساء اللذين كنت أركبهما . ولقد نظم حياته على خلاف هذا الشكل فكان يتجنب مقابلتى ما وسعه التجنب ، ولم أصادفه فى الطريق أبداً ، لا فى بوا كولومب ولا فى باريز . لقد كنت واثقاً من أنه لم يكن بالغافل أبداً عن الأمر الذى عزمت عليه . وفى مساء اليوم الذى وقع فيه الحادث ، أجبرت على البقاء فى المصنع بعد انتهاء وقت عملى لغياب أحد رفاقى ووجوب بقائى فى العمل عوضاً عنه ، وهكذا امتد عملى ساعتين أخريين ، واضطررت لركوب قطار الساعة ٨ والدقيقة ٢ الذى

لم يكن من عادتي ركوبه . وفي اللحظة الأخيرة التي سبقت سير القطار ، دخل رجل العربة التي كنت فيها وحدي . لقد كان هو بعينه . وقف واجماً مبهوتاً لماوقع بصره علي ، ولم يجرؤ على الجلوس ولا على الحركة .

سار القطار ووجدت الفرصة سانحة للتخلص من حياتي ، فنهضت من مكاني متجهاً نحو النافذة واقتربت منه وأخرجت المسدس من جيبي ورآني مقبلا نحوه فالتزم الباب ولم يبد حراكا ، ولم يخفه سلاحي . ترى هل كان يعلم أنني لم أرد قتله ؟ قلت له مخاطباً :

— لقد جلبت لي كثيراً من الألم والشقاء ، أتوسل إليك أن تريحني . إن الكلاب التي تهوى كثيراً تراح من حياتها

ومددت إليه يدي بالمسدس ، فأخذه وتأمله هنيهة ، ثم ... فجأة ... وجه الفوهة نحو قلبه وأطلق النار ...

يا إلهي ، ماذا فعل ؟ لقد أدان نفسه وحكم عليها يا سيدي القاضي . ولكن أنا ، أقسم لك ، لم أفكر في أن أحكم عليه . لم أكن أشعر ببغض له كما ذكرت لقد كنت بائساً شقياً ، إنني لم أتهمهما يا سيدي القاضي ، ولم تكن تلك غلطتهما بل غلطة مشاعرها التي قادتهما برغمهما

كنت جاثياً أمامه ، وتناولت بذارعي جسمه الحار ، وكان الدم يسيل منه ببطء ، ومع ذلك فان عروقه لم تكن تنبض قط . لقد مات . كانت عيناه مفتوحتين وكان ينظر إلي بهما بألم وحزن . لقد كنا متحابين كثيراً . كنا صديقين وزميلين وأخوين لم أكن أذكر نفسي إلامن خلال حبنا . لقد بكيت إذ ذاك كالطفل . آه ، لو كنت أوفر شجاعة ، أنا الذي كان يجب أن يموت لاهو ، كان يجب أن يحيا ويسعد في حياته ، دون أن آخذ منه أو أعطيه شيئاً

فتبادل القاضي وكاتبه النظرات . لقد طمأن الحادث نفسيهما . لم يكونا يستطيعان أن يشعرا بأقل ريب في صحة الرواية . إن ظروف انتحار فرناند وأسبابه كانت واضحة لا تدع مكاناً لافتراض وقوع جريمة ، ولقد نجا بيير فالري بلا ريب وأصبح حراً

قال له القاضي بصوت متزن واضح :

— لقد عدل صديقك ، كان يجب عليه أن يحترم صداقتك . والآن لم يبق علي إلا أن أطلقك . ثم قال مردفاً :

— انتظر ، لن يطول الأمد . لدينا بعض الاجراءات القانونية التي لا بد من القيام بها

وأمر بأن يقاد المتهم الذي أصبح شاهداً بسيطا

ولما بقي القاضي وحده مع كاتبه ، طلب منه قائمة أسماء الشاهدين الآخرين الذين دعوا : رئيس القطار ، مستخدمو القطار ، محافظ بوا كولومب ، وقد أتي بهذا الأخير ليصف سيرة المتهم الشخصية ، ثم مدام بيير فالري . فأمر بأن يسرح كل هؤلاء إذ ظهر له أنه لا يمكن معرفة شيء منهم ، وبأن يؤتى بمدام فالري . فأجابه الكاتب :

— إنها لا تعلم شيئاً عن الحادث

فقال له القاضي :

— أرغب في رؤيتها

فدعيت المرأة . إننا لا نستطيع في غالب الأحيان أن نفهم حب غيرنا على حقيقته ، إن أية امرأة محبوبة حتى الجنون أو حتى الجريمة ، تبدو لنا خالية من الجمال أو من الظرف . هذه هي حال أكثر

زائرات المحاكم اللواتي يبعثن الدهشة في النفوس . والجماهير المحتشدة في المحاكم لا تستطيع أن تقف على سر فتنتهن وسحرهن ، ربما استطاع هؤلاء أن يقفوا على هذا السر إذا تأملوهن جيداً ، ولكن ليس بينهم من يجد الوقت الكافي لذلك . لم تكن جرمين جميلة ، كانت صغيرة ، دقيقة الأعضاء ، ذابلة الوجه ، يلوح أنها لم تتجاوز الثلاثين من عمرها . كانت منطفئة الملامح ، ذات شعر أشقر كامد ، يبدو عليه شيء من الجمال ، ووجنتين ناعمتين ، وفم صغير لطيف ، وعينين زرقاوين ساحرتين ، مستكرتين قليلا لأنهما مغرورقتان بماء شفاف ، ولقد كانت تحاول عبثاً كتم الفزع الذي أصابها وإخفاءه . ماذا يراد منها ؟ أية أسئلة ستلقى عليها ؟ إن هذا الرجل الجالس وراء المنضدة ، تبدو عليه العبوسة والصرامة والحزم

قال القاضي موضحاً بعد فترة صمت استطاع أن يسمع فيها ضربات قلب المرأة المسكينة المرتعشة :

سيدتي : هل تعلمين أن زوجك متهم بقتل حبيبك ؟

فاعترضت المرأة مستعيدة شجاعتها وقالت :

— ليس هذا صحيحاً ؟

— ماذا تقولين إذن ؟

— لو أراد قتلنا لفعل ذلك حينما خرجت من داره . إنه لا يفكر في الاساءة إلينا ، إنه طيب القلب جداً

— ولكن طيبة القلب لها حدود تقف عندها

— هذا في غيره ، أما هو فلا . إنه لم يضربني لما رأى سلوكي . لقد تألم مثلنا ، وتركني أعاود رؤية الصغيرة

— لماذا خدعته ؟

فقامت بحركة غامضة معناها : هل أعلم ؟

— كيف أغراك هذا المدعو فرناند ؟

— آه سيدي ، إنه لم يغرني

— ألست أنت التي قدمت نفسك إليه ؟

— ولكنني يا سيدي لست امرأة فاسدة ، لقد كنت دائماً حسنة السيرة ، ولم أتهم قبل زواجي بشيء

— هل كنت تحبين زوجك ؟

— بلا ريب ، كنت أحبه

ثم أردف القاضي قائلا بصوت خافت :

— والرجل الآخر ، هل كنت تحبينه أيضاً ؟

فتنهدت إذ ذاك وقالت :

— كنت أحبه حتى العبادة

— فأنت ترين جيداً أنه أغراك

— كلا يا سيدي القاضي ، كنا نعيش معاً . أقسم لك أنه لم يكن لدي فكرة سيئة . لقد نظر كل منا إلى الآخر في أحد الأيام . آه لا أدري كيف أقول . لقد نظر كل منا للآخر ، كأننا لم ير أحدنا الآخر قبل ذلك اليوم . وتم منذ ذلك اليوم كل شيء . لقد عرفنا جيداً أننا لن نستطيع المقاومة ، إنه عمل سيء ، نحن نعرف ذلك ولكن الحب كان أقوى منا

— وها قد رأيت الإلام قادكما ذلك

— لقد قادنا إلى الموت . إنني واثقة من أنه يتألم من أجل ... من أجل زوجي ، كان يتألم أكثر مني ، وكنت آمل أن يزول ألمه على مر الزمن ، والآن قد انتهى كل شيء

— كلا ياسيدتي ، لم ينته كل شيء ، باستطاعتك

الآن تدارك خطئك والتكفير عن ذنبك

فرفعت رأسها المنخفض منتظرة ما يحدث

— نعم ، إنك أم

— جنفييف

— يجدر بك أن تفكرى فى ابنتك وزوجك أيضاً ، لماذا لا تسلكين الطريق المؤدية إلى دارك ؟

وتأمل الكاتب فى هذه اللحظة ، وجه القاضى بدهشة منتظراً خاتمة هذه الرواية . وكانت المرأة صامتة ذاهلة تنظر بعينيها إلى الأفق البعيد ، وتفكر فى هذا الاقتراح الجديد الذى سمعته ثم تمتمت قائلة:

— سيطردنى زوجى

— هل أنت واثقة من ذلك ؟ لقد قلت منذ لحظة إنه طيب القلب جداً

— آه يا سيدى القاضى ، يفصل بيننا الميت

— إن زوجك لم يقف متفرجاً ، لقد ذرف عليه الدمع منذ دقيقة لا أكثر

— كان يبكى عليه ؟

— هل تودين معرفة ذلك والتحقق منه ؟

— آه يا سيدى ، إننى لم أره منذ اليوم ...

— منذ هجرك إياه ... إننى سأدعوه الآن

— كلا ، كلا ، لا أريد ، يفصل بيننا الميت

— إن الميت يقرب بينك وبين زوجك ، أؤكد لك . لقد قتل نفسه من أجله ، ومن أجل الألم الذى سببه له

ودعا القاضى المتهم أو بالأحرى الشاهد . فوجد بيير فالرى نفسه فجاءة وجهاً لوجه أمام زوجته ، ولم يجرؤ أحد الزوجين على الكلام إذ كانا يتبادلان النظرات بخوف وخجل .

فانبرى القاضى قائلا :

— بيير فالرى ، إن امرأتك قد ندمت . وإذا طلبت منك المودة للحياة الزوجية السالفة ، بعد هذا الحادث المفجع ، فهل تقبل ؟ وهل ترضى بأن تسامحها وتعفو عنها ؟

فأجاب المسكين :

— أسامحها ؟ إننى دائماً مسامح لها

— هل تأخذها معك ؟

— نعم ، إذا أرادت

وأردف قائلا مثلها :

— ولكن يفرق بيننا الميت

فقال القاضى موضحاً :

— أجل ، إنه مات ليصلح بينكما ، ولم يمت دون مقابل. لقدقلت لها قبل لحظة: فكرى فى الطفلة التى ليس لها إلا الأب والأم

فتقدم بيير فالرى خطوة للأمام واقترب من امرأته وقال لها :

— هلمى معى

ثم التفت نحو القاضى قائلا :

— ألست متهما ؟

— كلا يا صاحبى ، أنت حر

ولما خرج الرجل والمرأة ، يمسك كل منهما بيد الآخر ، التفت مسيو هيبر نحو كاتبه قائلا :

— لقد اشتغلنا جيداً فى هذا الصباح ، هات العمل التالى . . .

« دمشق » ناجى الطنطاوى

أكان يجب أن أخبرها

(قصة منحت جائزة مائتي جنيه) عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« لقد أحبها حب اليائس ، وكان في مقدوره أن يفوز بها لو أنه قال الحقيقة : حقيقة أمر الرجل الذي اختارته زوجاً لها »

* * *

كنت و « سالى » و « بارنى » رفاق طفولة وصبا، نعيش فى بلدة صغيرة من بلدان التعدين فى شمال انجلترا ، يحتوى بيوتنا شارع واحد ، ونلعب جماعة فى الخلاء الخرب وراء بيت « بارنى » ونذهب معاً إلى المدرسة . فلما بلغنا سن المراهقة لم يكن أحدنا يفترق عن صاحبيه

وكان « بارنى » المخاطر بطبيعته ينتظر اليوم الذى يستطيع فيه أن يقتفى خطوات أبيه فيعمل مثله فى المناجم ، وكأنما بين طبيعته وبين عناصر الخطر جاذبية لا تنقطع . أما أنا فكان أمرى على خلاف ذلك ، أشعر دائماً بميل شديد إلى ضوء الشمس وإلى الفضاء الفسيح ، يكفى مجرد التفكير فى العمل داخل الكهوف المظلمة الغائرة فى جوف الأرض لأن يبعث الرجفة إلى أعماق نفسى

فكان من المقطوع به أن حياة العمل فى مناجم الفحم ليست هى الحياة التى أصلح لها ، وكان على خالى « باتريك » أخى أمى الأعزب أن يشكل مستقبلى فى الصورة التى تلائمنى

ولقد تعودت أن أقضى أيام عطلة الصيف فى مزرعة خالى وهى مزرعة وضع فوق بابها الخارجى رمز يدلك على أنها ليست من المزارع العادية ولكنها منحلة كيللى التى تنتج ألطف أنواع العسل فى العالم

وفى هذه المزرعة كان يرى الانسان فى أية ساعة من ساعات اليوم خالى « بات » منهمكا فى العمل وسط صفوف عديدة من خلايا النحل وعلى محياه معالم الحماسة واللذة التى ترى عادة على وجوه هؤلاء الذين يحبون أعمالهم . فهو يعيش بين نحله ويدرس طبائعه وحركاته ويغرس أشد الزهور جاذبية له . فكان من الطبيعى أن يسر خالى ويفرح كلما رأى منى اهتماماً بعمله ورغبة فيه ، ولقد كان يقول لى حينئذ :

— ليس هناك ياولدى من عمل ألطف ولا أصح من العمل فى مملكة النحل ، فاذا أردت أن تقتفى خطواتى فانى أخصك فى وصيتى بهذه المزرعة فانه ليسعدنى أن أعلم أن نحلى سيصبح من بعدى وديعة بين يدى من يقدره ويحبه كما أحبه أنا

ولقد كان خالى يعقب هذا الحديث بتعليمى كل ما يعرفه من أمر هذه المخلوقات الصغيرة كثيرة الحركة شديدة الطنين ، وكان يبصرنى بالوسائل التى أصرف بها العسل فى الأسواق بأكبر ربح مستطاع ، ولقد قدم لى من المؤلفات كل ما كتب فى موضوع النحل ، وكان أنفس ما أهدانى فى أحد أعياد الميلاد كتاب « حياة النحل » لمؤلفه « ماترلنك »

أما « بارنى » فكان شديد الاستخفاف بعطامى

وكان يقول لى في كثير من الازدراء والتحقير :

— ويك يا «وبل» ليس هذا من عمل الرجال ، فهلا احتذيت حذوى لتصبح رجلا قوى البنية متين العضل ، فقد اعتزمت أن أشتغل متى كبرت في المناجم فلا تلبث عضلاتى أن تصبح مثل عضلات دنيس شلتون ، على أننى أستطيع الآن أن أصرع أى ولد فى هذا الشارع ! فتعال أرك قوة ضرباتى

وكان بارنى يعقب هذه الكلمات بالتقدم نحوى قابضاً يده مهدداً ، فأتراجع إلى الوراء لأننى أكره القتال والشغب ، وكانت « سالى » هى حاميتى المتحمسة ، فعلى الرغم من إعجابها كالطفلة الصغيرة بتحرش « بارنى » كانت تقف بينى وبينه بجسمها الصغير وشعرها الأسود المتموج وعينيها الزرقاوين فتحول دون اعتدائه وتصيح به وهى تضرب الأرض بقدميها :

— دع « وبل » لا تتعرض له ، واعلم أننى لا أريد أن تكون مثل « دنيس شلتون » فكل إنسان يعرف أنه ليس إلا عربيداً مشاغباً

فكان « بارنى » يخجل من كلماتها ويعتذر بأنه لم يقصد إلى أكثر من المازحة على صورة ما

على هذا نشأنا منذ عهد الطفولة حتى إذا بلغ بنا الزمن نهاية الحلقة الثانية أصبح « بارنى » فتى طويل القامة عريض الأكتاف أسود الشعر أسمر الجلد خبيث النظرات مستهتراً بالفتيات . أما أنا فكنت ترابى الشعر نحيف الجسم خجولا متحفظاً شديد الميل إلى حياة الريف الهادئة مبغضاً حياة المدن الصاخبة

ونمت « سالى » شابة ناهداً وكانت أجمل فتاة ينبض بحبها قلب الرجل ويبعث روحها فى رأسه الدم ساخناً ، فلا عجب إذا نشأت أنا وبارنى على حب رفيقة طفولتنا الصغيرة متنافسين ، فى مودة ، على مصاحبتها السارة

ولم يكن فى نيتى قط أن أقضى أى وقت طال أم قصر ، فى تجربة العمل بالمناجم ، فلما مات والدى على أثر بلوغى سن الرشد طلب إلى خالى « بات » أن أصحبه إلى مزرعته ، ولكننى اعتذرت من عدم إجابة طلبه بأننى أود أن أقضى فترة قصيرة في تجربة العمل فى المناجم قبل أن أغادر موطنى ، فلمحت فى عين خالى النقادة نظرة الذى فهم ما وراء هذا الاعتذار ، وقد قال :

— إنك لا تريد تجربة العمل فى المناجم يا بنى ولكنك تريد تجربة الوسيلة التى بها تفوز بقلب « سالى »

ثم استأنف حديثه فى بشاشة ولطف فقال :

— حسن يا بنى ، إنها فتاة جميلة تستحق التعب ولكن لك فيها منافساً وبارنى فتى لطيف وله طريق ناجحة فى كسب قلوب الفتيات

وعلى أثر ذلك اتفقت مع والدة « سالى » على السكن فى بيتها وذهبت للعمل فى المناجم المظلمة ، ولكن الأحلام البراقة التى تغمر قلبى أنستنى ظلمة تلك المناور فلم أبال بها . فلما رآنى « بارنى » هناك لأول مرة نظر إلىّ نظرة غريبة وقال :

— لقد ظننت أنك قد عقدت عزمك على أن تركز مستقبلك حول خلايا النحل ؟

فرددت عليه :

— وهل مما يخالف القانون أن يغير الانسان رأيه ؟

فقال وعلى فمه ابتسامة عابسة :

— إنك لم تغير رأيك يا « ويل » فالحقيقة أنك وجدت قليلا من العسل هنا

فسألته متحدياً :

— وإذا كنت قد وجدت فماذا فى هذا ؟

— فحدق بارنى فى عينى وابتسم ثم قال :

— اسمع يا « ويل » لقد كنا أنت وأنا دائماً صديقين مخلصين ، وأنا أود أن تستمر هذه الصداقة بيننا ، ولكن يجب أن نتفاهم فانى أعرف أنك تحب « سالى » ، فليكن ، ولكننى أنا أيضاً أحبها ، وسأبذل كل ما يسعه جهدي وقوتى فى سبيل الفوز بها ، ولن أتنحى عنها إيثاراً لك أو لأى رجل آخر على نفسى

فقلت وقد مددت يدي فتناولها بارني مصافحاً :

— وهذا هو شأني أنا أيضاً

فقال بارنى :

— أرجو أن يفوز بها خير الرجلين كما أرجو ألا يقسو شعور أحدنا على صاحبه !

كانت حياتنا بعد ذلك معركة بين « بارنى » وبينى إن تكن قاسية فى مظهرها فقد كانت سليمة الطوية فى جوهرها . على أن موقف المسكينة « سالى » بيننا قد أصبح موقفاً غاية فى الدقة ، فقد كان ما فى نفسها من الود لكلينا متعادلا ، وكانت تبغض أن ترد لأحدنا طلباً إذا هو دعاها للخروج معه

ووقف رفاقنا فى المنجم على طبيعة ما بيننا من تنافس ، وسمعت أن بعضهم قد تراهن على أينا يفوز بالفتاة

وعلى الرغم مما كان بين « بارني » وبيني من تنافس فى الغرام بقيت روابط الصداقة بيننا قوية لا يؤثر فيها مؤثر من حقد أو ضغينة . كنا نعمل فى المنجم أحدنا إلى جانب الآخر ، فإذا انتهينا من عمل اليوم الشاق عدنا إلى دارينا مترافقين ، ولكننا لم نكن نشير قط بكلمة إلى الفتاة التى أحببناها كلانا حباً مبرحاً . ولقد كنت أعلم من أمر « بارنى » أنه لن يتردد فى مقاتلة أى إنسان يعسى بأهون كلمات الاساءة ، وأنا من ناحيتى كنت أضع « بارنى » من نفسي موضع الأخ الشقيق ، ولكننا فى طبيعتنا كنا مختلفين اختلاف النهار والليل

كان « بارنى » مغرماً بالحياة المرحة ولم يكن ليمتنع أن يشرب خمراً من حين إلى حين ، وكانت كثيرة تلك الليالى التى قضاها فى حانة « الأسد الأحمر » أبهج حانات المقاطعة

تعود « بارنى » الاكثار من زيارة حانة « الأسد الأحمر » ولم تكن هذه الزيارات لمجرد إطفاء شهوته من الخمر ولكنه كان يمتع نفسه بقضاء بعض الوقت فى صحبة « تس » فتاة الحانة ذهبية الشعر ، ولكنه بعد أن بدأ يتودد إلى « سالى » هجر « تس » وحانة الأسد الأحمر ، وقد أكبرت منه هذا التصرف الحكيم . فلقد عرفت أن جميع الرجال على التقريب قد سلكوا الطريق المعوج وقتاً ما ، ولكن كان جليا منه أنه الآن سار فى الطريق المستقيمة الضيقة

على أننى لم ألبث أن تلقيت الصدمة التى بددت كل أحلامي وضعضعت جميع آمالى . ففى صباح أحد أيام الآحاد لم أكد أعود مع « سالى » إلى دارها بعد أداء الصلاة الأولى وأقف معها برهة على عتبة الباب نستنشق النسيم النقى حتى مر بنا « بارنى » فى طريقه إلى الكنيسة لأداء الصلاة الثانية ، فلوح لنا بكفه فى الهواء واستمر فى سيره ، فلما تلفت إلى

سالى رأيت عينيها تتبعان قوامه الطويل وهما تشعان ببريق لطيف وعلى فمها ابتسامة وديعة . فأحسست كأن نفسى قد احتبس فى حلقى وكأن قلبى قد تحول صخراً يثقل صدرى

وقلت فى كثير من التلطف :

— إذن هذه هى الحقيقة يا « سالى » ؟

فنظرت إلىّ جافلة وقد ارتسمت الشفقة فى أعماق عينيها الزرقاوين وهى تهز رأسها وتقول :

— يؤلمنى يا « ويل » أن أقول أن ليس فى العالم إنسان آخر أوده وأحترمه كما أودك وأحترمك ، ولكن ...

فأتممت عبارتها بقولى :

— ولكنك تحبين بارنى

فهزت رأسها مرة أخرى وقالت في صوت لا يكاد يسمع :

— أظن أننى كنت دائماً أحب « بارنى »

فتناولت يدها وضغطتها بين يدى وقلت:

— لقد فهمت يا « سالى » فهو رجل لطيف وسيكون لك زوجاً صالحاً ، وإنى لأتمنى لكما جميعاً كل ما فى الدنيا من سعادة

فقالت :

— شكراً لك يا « ويل » وإنى ...

ولكنها لم تستطع أن تتم جملتها فضغطت يدي وجرت داخلة إلى البيت ؛ ولم ألبث أن أسرعت أنا الآخر فى الدخول ولكنى شعرت بأن ساق قد أصابها من الثقل ما أصاب قلبى

وفى اليوم التالى بدأ التوتر بين (بارنى) وبينى فى أثناء العمل ، ولم يكن لدى أحدنا الكثير مما يفضى به إلى صاحبه ، ولو أن « بارنى » كان ما بين فترة وأخرى يسلك حلقه ليقول شيئاً ولكنه كان بعد التفكير يفضل السكوت فلا تخرج الكلمات من بين شفتيه . ولقد كنت أنا أول من فض هذا السكوت فقلت متصنعاً الانشراح :

— أظننى يا « بارنى » سأغادر هذا المنجم بعد قليل فلم يبق لى هنا ما أحرص عليه

فقال صاحبي فى صوت أجش :

— إنى لآسف لذلك يا « ويل » والذى أرجوه ألا يقسو شعورك نحوى

فضحكت ضحكة مقتضبة وقلت :

— لك أن تثق أن شعوري نحوك لن يتغير ، فان « سالى » تحبك وهذا هو كل ما في الأمر ، فخير الرجلين هو الذى فاز يا « بارنى » ولأكن أنا أول من يهنئك

— أشكر لك من أعماق قلبي هذا الشعور الكريم فأنت خير صديق عرفته ؛ وإنه ليؤلمنى أن ينتهى الأمر إلى هذه النتيجة

— لتنس ذلك فلعل الخير فيما حدث

اتفق الخطيبان على أن يعقدا الزواج فى الشهر المقبل ، ووعدت بعد شىء من التردد أن أبقى بالبلدة إلى أن تنتهي حفلة الزفاف . على أننى بعد أن ضاعت جميع آمالى قد أصبحت راغباً فى أن أترك المنجم فى أسرع ما أستطيع من الوقت . وكان خالى « بات » قد كتب إلى يقول إن صحته تسير فى طريق الانحدار وإنه أشد ما يكون حاجة إلى المساعدة العاجلة . ولكن « سالى » ألحت علىّ فى أن أبقى إلى يوم زواجها، فلم يسعنى إلا قبول رجائها . ولكم اغتبطت فى السنوات التى أعقبت تلك الأيام بقبولى ذلك الرجاء

***

تركت عملى فى المنجم قبل يوم الزفاف بأسبوع واحد . وذهبت « سالى » إلى أبرشية أوكلاند لتزور عمتها ولتبتاع جهاز العرس ، ومضى يومان لم أر فيهما « بارنى »

وبعد يوم قضيته فى إعداد متاعى للسفر اعتزمت أن أتريض ماشياً فقادتنى قدماى عن غير قصد إلى الطريق التى تمر مباشرة وراء حانة الأسد الأحمر . وحمل الجو إلى أذنى ضجة نزلاء الحانة وضحكاتهم ، ثم فتح الباب الخلفى وخرجت منه امرأة تسند رجلاً يسير إلى جانبها مترنحاً ثملاً . فوقفت فجأة وقد تولانى الذهول والغضب لأن الرجل لم يكن غير « بارنى » وكانت رفيقته « تس » فتاة الحانة الطروب . ووقع نظرى عليهما تجذب وجهه إلى وجهها ثم التقت شفاههما فى قبلة طويلة ملتهبة

ثارت نفسى لهذا المشهد فخطوت نحوها وأنا لا أكاد أدرك ما أفعل ودفعت المرأة جانباً فى كثير من الخشونة

فقبض « بارنى » كفه كما لو كان معتزماً أن يضربنى وقال فى لفظ متثاقل :

— ماذا تعنى بعملك هذا ؟

فأجبته فى لهجة الآمر :

— صه وهيا إلى البيت قبل أن يراك أحد ويخبر « سالى »

فلوت « تس » أصابعها فى شكل وقح وهزت يدها فى وجهى وهى تقول:

— هذا « لسالى » أما أنت أيها الشاب فاهتم بشئونك الخاصة . وأما « بارنى » فسيبقى معى

وهاجتنى حركة الفتاة فنسيت قانون اللياقة فى معاملة النساء ولكمتها لكمة أصابت فيها الدهون وألقتها متدهورة على الأرض ، وبدون أن أفوه بكلمة أخرى التفت إلى « بارنى » الذى كان ينظر إلينا نظرة بلهاء فتأبطت ساعده فى شدة

وتخيرت الطرقات المظلمة وقدته مسرعاً إلى البيت، وهناك أرقدته فى فراشه فهمهم بضع كلمات جمعت بين الشكر والتبرم ، ولم يلبث أن استغرق فى النوم قبل أن أخلع نعليه ووقفت لحظة أنظر إليه وقد اضطرب رأسى بالانفعالات المختلطة

إذن هذا هو الرجل الذى سيتزوج من الفتاة التى أحببتها ! أيمكن بعد كل هذا أن يسعدها ؟ وماذا تكون الحال إذا تكرر مثل هذا الحادث بعد زواجهما ؟ ومن الجائز جداً أن يتكرر ! أيجب أن تقف «سالى» على ماحدث؟ وإذا عرفت، ألا تفسخ الخطبة لشعورها بما فى عمل خطيبها من إهانة لها وتحقير ؟

دار رأسى بهذه الأسئلة وبكثير غيرها ، فأغمضت عينى وتمثلت «سالى» فيما تنتهى إليه حالها فى السنوات المقبلة ، وهى تعاشر « بارنى » وترقبه إذ يعود كل ليلة إلى البيت سكران ، تتألم لعلمها أن هناك نساء غيرها يشغلن مكاناً من قلبه ؛ ومن المحتمل أن تكون حياتهما إذ ذاك حياة فقر مدقع

لم تكن الصورة التى تمثلتها صورة مبهجة ففتحت عينى ونظرت إلى الرجل النائم ، وساءلت نفسى : أيجب أن أخبر « سالى » بما رأيت ؟ ألا يكون فى ذلك منجاتها من آلام المستقبل ؟

وسمعت « بارنى » يهمهم فى نومه : « يا لك من صديق طيب القلب يا ويل » . فخلت هذه الكلمات عقدة لسانى وقضت على موقف التردد . فقلت وأنا أشعر بالتخاذل مكرراً عبارته :

« نعم، يالك من صديق طيب القلب يا ويل ... إنك لرقيق الشعور يا ويل » فقد كنت أعلم أن ما بيني وبين بارني من ولاء وصداقة سيبقى سره بمأمن في صدري . وانصرفت بعد أن أحكمت عليه الغطاء .

وجدت « سالى » في البيت عند عودتي فلم أقف معها إلا ريثما رددت تحيتها وأخبرتها أن بارني بخير إلا من تعب العمل الذي ألزمه الرقاد مبكراً ، ثم صعدت إلى مسكني حيث قضيت ليلة مشردة النوم

لم أخاطب بارني بعد تلك الليلة ، ففي اليوم التالي بينما كانت « سالى » تربني ما اشترت من أبرشية أوكلاندا استعداداً للعرس اخترقت سكون الصباح ولولة جمدت لها قلوب كل أم وكل زوجة وكل حبيبة في البلدة ، فقد كانت رنتها منبئة عن وقوع كارثة في المنجم ، فقبضت «سالى» على ساعدى وقد هرب كل أثر للدم من وجهها فأصبح يشبه وجوه الأموات . وقالت في جزع : « بارنى ... إني لأشعر بأن فاجعة قد أصابت بارنى » . وكأنما قد سمرت قدماى في الأرض فوقفت محملقاً فيها بعيني حتى شعرت بيديها تدقان صدرى وقد أصابتها نوبة عصبية فصرخت بى :

— لا تقف هكذا ناظراً إلى يا « ويل » ... إنى لأشعر بأن مكروهاً قد نزل ببارنى ... فهلا تفضلت فعملت شيئاً ...

فاندفعت من البيت واندمجت في الجموع التى كانت مسرعة في طريق المنجم .

وكان كل إنسان يتساءل : ماذا حدث ؟ ولكن لم يكن أحد يدري شيئاً ، حتى إذا وصلنا إلى المنجم علمت أن انفجاراً حدث فسد المدخل إلى قسم من المنجم أوشك ما فيه من الفحم أن يستنفد ، فكان من جراء ذلك أن دفن بعض عمال ذلك القسم أحياء ، وأن حيل بين البعض الآخر وبين طريق الخلاص .

وكانت النسوة يبكين متوسلات إلى الرجال أن ينقذوا أقاربهن، وكان الرجال قد شرعوا بالفعل يؤلفون من أنفسهم جماعات إنقاذ بإرشاد « بيل هاننج » أحد رؤساء العمال ، وكان الرجل يعرفني أنا وبارنى منذ كنا طفلين، ومنه علمت أن صديقى بين المنكوبين

وقال الرجل أن ليس هناك من يعرف ما أصاب العمال فقد يكونون أحياء وقد لا يكونون، وعلى كل حال بفرض أنهم أحياء فهناك خطر اختناقهم بالغاز فيجب أن نعمل مسرعين لانقاذهم .

ودون أن أنبس ببنت شفة انضممت إلى إحدى الجماعات المتطوعة للانقاذ وعملت معهم بأقصى ما في مقدوري من جهد ، وكنا جميعاً متجهمين نعمل صامتين نسأل الله ألا يذهب مجهودنا عبثا .

قضينا في العمل ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يكن ينقطع فيها العمل إلا لحظات ننامها غرارا ، وكنا كلما توغلنا في المنجم أقمنا عمدا ومساند خشية حدوث انهيار جديد وكنا نعمل صامتين ، فلم يكن لأحد منا ما يقوله وقد عرف كل مهمته . وما أنسى هذه الساعات الأخيرة التى قضيتها في المنجم مع هؤلاء الأبطال الصامتين الذين أقفلت أفواههم ونطقت جباههم بما ارتسم عليها من أمارات العزم والجهد الجبار .

وكان الانسان يسمع ما بين فترة وأخرى أحد الرجال يصيح « هيلو » « هيلو » عسى أن تصل أصواتنا إلى هؤلاء المساكين الذين انطبق عليهم

المنجم فيقوى ذلك فى نفوسهم الأمل فى الحياة . ولكن أصواتنا كانت تذهب هباء في جوف هـذه المقبرة المخيفة .

وكان أشق شيء على نفسى أن أرى وجه « سالى » الحزين وهى تسألنى كلما خرجت من المنجم عن نتيجة بحثنا ، فكانت كلمات التشجيع والعزاء التى أرددها عليها لا تصادف منها غير أذنين صماوين ، وهى جالسة تشخص في الفضاء كالمأخوذ تتحرك شفتاها فى صمت مبتهلة إلى الله .

وأشرق صباح اليوم الرابع صافياً وضاء . وكان اليوم الذى حدد لعقد زواج بارنى وسالى، ولكنى كنت أعلم أن هذا الزواج لن يكون ، فقد اقتربنا من البقعة التى كان يشتغل فيها هؤلاء التعساء حين انفجار المنجم ، ولم يكن هناك أى أثر للحياة في تلك البقعة المشئومة ، فما شككنا ، وإن لم يصرح أحدنا بما شعرنا به ، فى أن الموت قد حصدهم جميعاً .

وصلنا آخر الأمر إلى الرجال وكانوا سبعة عشر وجدناهم قد سحقوا سحقاً فقد أصابتهم الضربة القاضية قاسية عنيفة . فيالها من ساعات هول تلك التى أخذنا ننقلهم فيها الواحد بعد الآخر إلى خارج المنجم ، فكانت قلوبنا وأقدامنا تتثاقل كلما اقتربنا من مدخله . وياهول اللحظة التى وقع نظرى فيها على بارنى فتمثلته فى رقدته التى تركته عليها فى آخر ليلة رأيته فيها ، وكأنى أسمع كلماته الأخيرة : « يالك من صديق طيب القلب ياويل » . ما أقسى القدر وما أتعس هذين المحبين اللذين أصابهما بهذه الضربة القاتلة ! لقد كدت أختنق حزناً فى ذلك الموقف الرهيب ...

دفنا موتانا وأقمنا عليهم صلاة جامعة فى الكنيسة حتى إذا انتهينا من توديعهم الوداع الأخير ، شرعت أعد عدتى لمغادرة البلد قاصداً إلى مزرعة عمى . فقد أصبحت بعد ذلك الحادث أشد رغبة فى الابتعاد عن المنجم ، وقد يبدو غريباً أنى لم أشعر بشيء من الأمل فى الحصول على « سالى » بعد أن نزل القضاء بخطيبها « بارنى » ولكن لا غرابة فى ذلك فقد عرفت من أخلاق « سالى » ما أقنعنى بأنها من النوع الذى لا يحب غير مرة واحدة . فالوقت وحده هو الذى يخفف من آلام قلبها ، فما كان ليخطر لى على بال أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه عندما ذهبت إليها لأودعها .

وجدتها جالسة بجوار النافذة تنظر إلى الفضاء الذى كانت هى وبارنى وأنا نقضى فيه ساعات لهو ومرح تحدونا السعادة وعذب الأماني ، فلما رأتنى نظرت عنـد دخولى وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة فاترة .

فلما أدنيت أحد الكراسى إلى جانبها وجلست عليه قالت متنهدة :

— أظنك جئت لتلقى إلى بكلمة الوداع ؟

أجبت :

— نعم فانى لأشعر أن ليس هناك من شيء أستطيع أن أعمله الآن

فقالت فى كثير من الرقة :

— إنى لأحسدك ، وما أشد رغبتى فى أن أبتعد أنا أيضاً عن هذا المكان . نعم أود لو أستطيع الذهاب فلا أعود أبداً . إنك ذاهب لتعيش حيث النور والهواء وحرارة الشمس . أما أنا فسأبقى هنا حيث لا يوجد غير الذكريات السوداء

وهنا غص صوتها فلم تستطع المضى فى حديثها

وانهمرت الدموع مطلقة من عينيها ، فطوقت كتفها بساعدي مواسياً وقلت :

— تشجعي يا « سالى » وإنى لأعلم مبلغ ألمك من خسارتك الفادحة ولكن اجتهدي في أن تتعزى

فنظرت إلى بعينين مغمورتين بالدموع وقالت في تأن :

— أأطلعك يا « ويل » على سر لا تعلمه ؟ إني لأعلم أنك صديق وفىّ مخلص وأن حكمك علىّ لن يكون قاسياً . وإني لشديدة الحيرة والاضطراب

فنظرت إليها في دهشة ، أسائل نفسي : ترى إلى أية غاية ترمى ؟

ومضت في حديثها تقول :

— إن حزنى على « بارنى » ليس إلا نصف السبب فيما أشعر به من حيرة واضطراب ، فبعد سبعة أشهر سأصبح أماً . وهذا هو السبب الذى حملنى أنا وبارنى على أن نستعجل يوم زفافنا فنحدده بعد أيام قلائل من إعلان خطبتنا . أما الآن . . . فانني لا أجد حتى الاسم الذي أسمي به طفلي . أواه يا « ويل » ... ماذا عسانى أفعل ؟

إذا قلت إننى شعرت عند سماع كلمات « سالى » كأننى قد صعقت ، كنت متلطفاً فى التعبير . فما كنت لأحلم بأن أسمع ذلك الذى سمعت ، ولم يكن في مقدوري أن أصدقه لأول وهلة !

على أننى أجهدت نفسى فى امتلاك عواطفى ، فقد كانت الفكرة التى طغت على غيرها فى رأسى هى أن « سالى » واقعة فى حرج شديد وأنها أشد ما تكون حاجة إلى أن أعينها فى شدتها . ومن الغريب أننى في تلك اللحظة لم أشعر في قلبي بشىء من الضغينة أو الحقد على « بارنى » ، فقد كان شعوري كله منحصراً في الشفقة الشديدة والرغبة في المساعدة.

وإذا كانت سالى من الطراز الذى لا يحب إلا مرة واحدة فأنا أيضاً من ذلك الطراز ، وعلى الرغم من كل ما حدث كنت أعبدها . وهذا هو السبب فى أنى عند ما كنت أذرع أرض الغرفة ذهوباً وجيئة فى صمت كانت فكرة واحدة مستولية على رأسى . لقد أبدت « سالى » رغبتها فى أن تترك البلدة ، وإنه ليسرني أن آخذها معى بأى ثمن كان . إذن لقد وضح كل شىء وضوح ضوء النهار ، فركعت إلى جانبها وأفضيت بكل ما خطر لى ، قائلا فى لهجة الجد والتحمس :

— اصغ إلى يا « سالى » ! إنك لن تستطيعى البقاء هنا لمواجهة تخرصات الناس فلتقبلي مساعدتي

— وكيف ؟

— تزوجى منى

فشهقت « سالى » وابتعدت عنى وقد بدت عليها الدلة ولكنى اندفعت أقول في غير ترو :

— إني لأعلم ما لا بد أن تشعرى به حيال هذا العرض . ولكن ألا ترين يا عزيزتي أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ، فأنت زوجة لى تستطيعين أن تصحبيني إلى المزرعة دون أن يكون هنا ما يدعو إلى علم أحد بأمر الطفل . ألا ترين أن هذا هو الشيء الوحيد المعقول الذى يمكن عمله ؟ وما أشك فى أنه لو تيسر أن يعلم بارنى بهذا الأمر لاستطاع أن يدرك معناه

— أتقدم على هذه التضحية من أجلي ، عالماً بأننى لن أستطيع أن أقدم لك شيئاً مقابلا لها ، عالماً كذلك أن لا أمل فى شيء على الاطلاق ؟ ثم أنت ترغب فوق ذلك فى أن تطلق اسمك على ابن رجل غيرك ؟

فأجبت :

— ليس فيما أفعل تضحية على الاطلاق ، فاننا سنشترك فى إنشاء بيت يأوى كلا منا ، وما أطلب شيئاً غير ذلك ، فاذا شعرت يوماً ما بأن فى قلبك شيئاً من العطف علي فسأشعر عندئذ بأنني قد كوفئت بمائة ضعف لما فعلت

فلم تستطع « سالي » أن تتكلم وأدارت وجهها عني ولكنني أدركت أنني قد نجحت فيما رميت إليه وشعرت أنني فى هذه اللحظة الحرجة كنت أسعد مني فى أى وقت مضى من حياتي

وبعد أسابيع قليلة وصلت و « سالي » إلى مزرعة خالى بات الذى امتلأ قلبه فرحاً باصطحابي عروسي معى ، وقد بذل منذ اللحظة الأولى كل ما فى جهده ليشعرها بأنها فى بيتها ، وأخيراً عند ما أصبحت حالة الحمل أكثر وضوحاً عني فى أسلوب رقيق بأن يخفف عنها عبء العمل فى البيت . وكان إذا لاحظ مرة أن العلاقات بيني وبين زوجي غير طبيعية تجنب فى حكمة أن يقول شيئاً ينم عما لاحظه

وإني لواثق أن « سالي » لم تندم قط على قبولها الزواج مني ، فقد أحبت المزرعة ، وكان يبدو عليها بعض الأحيان أنها تشعر بكثير من السعادة، ولو أنها أصبحت نادرة الابتسام . ولقد كان شاقاً على نفسي أن أكون قريباً منها محباً لهـا ومع ذلك لا أجرؤ أبداً على أن أمسهـا . ولكنني صبرت مؤملا ألا يبعد جداً اليوم الذى تقبل علي فيه عن رغبة ورضا

وقلت فى نفسي : إن الحال لا بد أن تتغير بعد أن تضع جنينها ، وستعود حياتها سيرتها الطبيعية يوم يصبح لها ولد تحبه وتسهر على العناية به ، فستتعود عندئذ تدريجاً أن تقبل علي أنا أيضاً

ولما شعرنا أنا وخالى بأن عمل البيت قد أصبح كثيراً على « سالي » ، بعد أن تقدمت حالها ، استأجرنا فتاة من أهل القرية لتساعد فى المطبخ وفى الأعمال البيتية الأخرى ، وقد برهنت هـذه الفتاة واسمها مارجرى جاميسون أنها تساوى ثقلها ذهباً ، وكانت فتاة وضاءة الجبين جذابة ، محبة للعمل أنيسة يبث وجودها في البيت روح البهجة والانشراح وقد توطدت روابط الصـداقة بينها وبين سالى

وفى ذات صباح وجدت مارجرى فى المطبخ يبدو عليها أثر الحيرة والاضطراب ، فلما سألتها عن سبب ما بها أجابت :

إن الذى يشغلنى هو أمر امرأتك ، فانه ليبدو عليها أنها فى حال غير طبيعية . إنها لا تتكلم أبداً عن الطفل المنتظر . فهى تجلس شاخصة إلى الفضاء كأنها تحلم ، وقد قالت لى أمس : « مارجرى ، أتبقين هنا بعد ذهابي لتعنى بأمر ويل ؟ إنى لأرجو منك أن تفعلى ذلك »

فقلت فى خشونة :

— كلام فارغ ، إنها غير مالكة نفسها ، فهذا أول طفل لها ، وكل ما هناك أنها خائفة

وعلى الرغم من كلامي هـذا شعرت بشيء من القلق والاضطراب

ولد الطفل فى ليلة قارسة البرد من ليالى الشتاء وإذ أحست « سالى » بالآلام الأولى ساعدتها مارجرى فى الايواء إلى فراشها ومضيت أدعو الطبيب وكانت ليلة هول وجزع . فمنذ اللحظة التى وصل فيها الطبيب أحسست بتوتر غير طبيعي يملأ جو البيت ، فقد كانت مارجرى تروح وتجيء صفراء مقفلة الشفتين ، بينما كان الطبيب يؤدى مهمته وقد ارتسم القلق على جبينه واضحاً

وبعد فترة كأنها الأبد نزل الطبيب إلى غرفة

الطعام حيث كنت جالساً أنا وخالى بات منتظرين فلما رأيته سألته فى حال عصبية :

— أهناك شىء غير سار يا دكتور ؟

فهز رأسه كئيباً وقال :

— أخشى أن يكون ذلك يا « ويل » إننا نعمل كل شىء ممكن ، ولكن امرأتك تسلك سلوكا غريباً ، فلا هى مكترثة بأن تعيش أو تموت ولا هى تساعدنا فى أداء مهمتنا بأية صورة من صور المساعدة وهى أحياناً تهذى وتكرر الهتاف باسم بارنى

ثم جاءت مارجرى فدعت الطبيب الذى خرج وتركنى وخالى ينظر أحدنا إلى الآخر فى صمت مشبع بروح الجزع . ولم نلبث أن سمعنا بكاء رفيعاً ينبئ عن قدوم مخلوق جديد إلى عالم الكفاح الذى نعيش فيه

وفى مطلع النهار كنت ناعساً فوق كرسى إذ أيقظتنى نقرة خفيفة على كتفى فرأيت مارجرى واقفة أمامى تقول هامسة :

— يريد الطبيب أن تسرع فى الذهاب إليه

فاندفعت صاعداً السلم فى سكون وهناك لقينى الطبيب على باب غرفة سالى ، وقال يحذرنى :

— اجتهد فى أن تكون هادئاً متجلداً

فحسبت أول الأمر أن سالى نائمة ، ولكننى رأيت جفنيها يهتزان ثم ينفتحان ، ثم التفتت — وعلى فمها ابتسامة رقيقة — إلى المخلوق الصغير الذى ضمته فى ساعدها ملفوفاً ، وبدأت تتكلم فانحنيت لأسمع صوتها الخافت فقالت :

— ويل ... عزيزى ويل ... إننى تاركة طفلى فى رعايتك ، وسيجىء اليوم الذى يكبر فيه ويعيش ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة ، فليبارك الله عليكما وليحفظكما جميعاً

وانطبق جفناها فى بطء ، وبعد دقائق قليلة ماتت واسم « بارنى » على شفتيها

* * *

وقفت كالحالم منحنى الرأس عند ما غيبوا نعش « سالى » فى القبر غير مستطيع أن أصدق أنها قد ذهبت حقاً . على أن الحقيقة لم تلبث أن صدمتني بقوتها المرعبة عندما وصلت البيت عائداً من جنازتها ، فقد كنت جالساً وحدى فى الغرفة الأمامية غارقاً فى الذكريات الحزينة إذ أيقظنى من غيبوبتى بكاء ضعيف ... الطفل ! .. وكان الحزن قد أنسانى وجوده فى هذا العالم ، فمشيت متئداً ونظرت إلى ذلك المخلوق الأحمر الوجه الذى تركته أمه فى رعايتى . إنه ابن بارنى ! كيف أستطيع أن أشرح أو أصف الانفعال الذى تملك نفسى حين نظرت إلى الوليد الذى يبكى ؟ لقد تجمعت البغضاء كلها والحزن الكمين فى نفسى فتجسمت كرهاً مطلق العنان نحو ذلك الطفل . لقد حظى أبوه بالفتاة التى أحببتها وخانها ، ثم هى قد دفعت حياتها ثمناً لاخراج ابنه إلى عالم الوجود

وبكى الطفل مرة أخرى ، فانحنيت عليه وقلت فى خشونة : « أنت ، إنها من أجلك ماتت ، وماينتظر منى مقابل ذلك إلا أن أقتلك ! ها ! ها ! يالها من مهزلة ! حقاً إنى أبغضك ، أيها الطفل الباكى الحقير ! » ولم تلبث ثورة الغضب والحزن التى أفقدتنى كل عامل من عوامل العقل أن أحالتنى رجلا مجنوناً تملأ قلبه شهوة الجريمة . سأنتقم من القدر بقتل المخلوق البرىء الذى كان السبب فى كل هذا المصاب واتجهت يداى فى بطء إلى رأس الطفل وأطبقت أصابعى على عنقه ، وبدأت أضغط ذلك العنق الصغير متأنياً وأنا أضحك ضحكا وحشياً كلما ازدادت عينا الضحية إجحاظاً .. ابن بارنى ! أيظن أنه يستطيع أن يتغفلنى ؟ سأريه ! أن « ويل الصديق الطيب القلب » لن يكون الأضحوكة مرة أخرى

أيقظني من هـذه الثورة الجنونية وقع خطوة على عتبة الباب وخلصت أصابعي من عنق الطفل مجفلا إجفال المجرمين عند ما دخلت مارجرى الحجرة، وإذ لم تلاحظ شيئاً غير عادى ذهبت إلى فراش الطفل وحملته على ساعدها . وقالت :

— إنه جائع ... مسكين هذا الطفل اليتيم من أمه ، أخشى أن نكون قد أهملناه !

فلم أجب على قولها بشيء ، وقد أخذت أسترد قواى العقلية ، وبدأت أشعر بالعرق البارد يتدفق من جميع مسام جسمي . واستولى على إذ ذاك الشعور بالشكر وعرفان الجميل لمارجرى فقد أنقذتني من أن أصبح قاتلا لمخلوق ضعيف برئ . يجب أن أستجمع قواي ! فترنحت خارجاً من الحجرة أشعر بالهواء البارد يصدم جبهتي

فلما خلوت إلى نفسي في حجرتي ذلك المساء لعنت ما بدا من حماقتي ، فما كان الطفل بالملوم على موت « سالى » ولكنني أنا الملوم

لقد قال الطبيب إنها ماتت لأنها لم تكن راغبة في الحياة ، وأنا وحدى الذى أعرف السبب فى ذلك. كنت أعلم أن قلبها قد دفن مع بارنى . لقد كانت تعتقد أنه محبها الصادق الأمين ، ولم يكن هناك من يعلم غير ذلك سواى . وكان فى مقدورى أن أقضى على حبها له ببضع كلمات . فلماذا كتمت ما علمته من أمر بارنى والفتاة « تيس » ؟ لم يكن لهذا التكتم من سبب غـير خوفى من أن أجرحها وأن أصور نفسي فى عينيها إنساناً دنيئاً . لقد أطبقت شفتى وتركت الفتاة التى أحببتها تصحب محباً خائناً إلى العالم الآخر . كانت هذه هى الأفكار التى صورت حياتى ببضعة أشهر بعد موت « سالى »

وإجابة لطلب خالى بات سمينا الطفل « باتريك » وعلى الرغم من أننى لم أهتم بأمر ذلك المخلوق الصغير فانه لم يكن مهملا . فقد كانت مرجرى تعبده ، وقسم خالى وقته بين قفير النحل وبين الطفل الذى سمي باسمه . وإذا لاحظنا أن سلوكي حيال « ابنى » كان غريباً فانهما لم يكونا يحدثانني بما لاحظاه . وبمضى الوقت بدأت آلف وجود الطفل فى البيت كما آلف وجود عصفور عزيز من عصافير الكناريا ، مخلوق يطعمه الانسان ويأويه ويعنى به ، ولكنى لم أشعر فى قلبي نحوه بأى أثر لعاطفة الحب

ولما أتم الطفل « بات » السنة الأولى من عمره أصيب خالى بصدمة ألزمته الفراش ستة أشهر ، كنت خلالها شديد الاعجاب بمارجرى لما أبدت من صبر وعطف فى أداء واجباتها ، إذ كانت تمرض الرجل المريض وتعنى بالطفل الذى كثرت حركته حريصة كل الحرص على نظافة كل شيء فى البيت ، مؤدية فى الوقت نفسه عمل الطاهى والخائط أيضاً . وكنت من جانبي أعمل كل ما أستطيع لمساعدتها ، وقد علمتني أن أزداد كل يوم احتراماً لها وإعجاباً بها. لقد كانت الأم والطاهية ومدبرة البيت والممرضة ، فلو شاءت لتقاضت أضعاف الأجر الضئيل الذى كنا نقدمه لها ، ومع ذلك لم تكن لتشكو من شيء

وطرأ على فى الوقت نفسه شيء من التغير ، فاذا كنت أمضى فى أداء عملى فى هدوء مغاير لما كنت عليه من قبل ، فلم يكن السبب فى ذلك الحزن الذى كمن فى نفسى ، ولكن انحصار تفكيرى كله فى عملى . فقد شفى الزمن جرح نفسى ، ولم تعد « سالى » غير ذكرى محبوبة تسكن أعماق قلبي . على أننى كنت أشعر دائماً أن شبح « بارنى » يلازمني دائماً فى شخص ابنه الذى صار كلما تقدمت به الأيام يقترب شبهه من شبه أبيه ، فكانت له تقاسيمه وعيناه السوداوان الراقصتان وشعره المجعد ولم أعرف قط إذا كان خالى قد أدرك الحقيقة

أم لم يدر كها فيما يتصل بنسبة هذا الغلام ، فقد كان رجلا ماكراً لا يتكلم كثيراً ولا يبوح بما يعلم . وقد مات بعد ستة أشهر من مرضه . وعدت يوماً إلى البيت بعد موته بأسبوعين فوجدت مارجرى تبكي . فسألتها في لهفة :

— ما الذى يبكيك يامارجرى وأى سوء حدث؟

فقالت متألمة :

— إن هناك دائماً أناساً متطفلين ينتهزون الفرص للخوض فى أعراض غيرهم ، ولما كان خالك على قيد الحياة يعيش معنا لم يكن هناك ما يثير تطفل أمثال هؤلاء الناس . أما اليوم وقد مات ، فقد شرعوا يتحدثون في أمرنا ويقولون إنه من غير اللائق أن أعيش معك وأنا فتاة شابة تحت سقف واحد وليس معنا ثالث ، لهذا أرى من الحكمة أن أغادر هذا البيت حتى أقطع السبيل على المتطفلين

فقلت مرتاعاً :

— ولكن الطفل ! إن به لحاجة لمن يعنى بأمره ، وأنت الأم الوحيدة التى تفتحت عيناه على وجهها . إنك لا تستطيعين أن تتركينا يا مارجرى وما نحن بقادرين على أن نعيش بعيدين عنك

فزفرت الفتاة وقالت وهى تسرع بالدخول إلى غرفتها :

— إنه ليكسر قلبي أن أفعل ذلك ، فقد كنت عطوفاً على ، وأنا أحب «بات» الصغير كما لو أحببت ابنى الذى من لحمى ودمى

شعرت عند سماع هذه الكلمات بشىء من الاعياء يستولى على نفسي ، فلم يخطر لى من قبل قط أن مارجرى يمكن أن تتركنا ، فقد كنت أنظر إليها منذ الساعة التى دخلت فيها بيتنا ، على أنها عنصر من العناصر الأصيلة فيه ، وكأن ذلك كان أمراً مسلماً به ، فلما سمعت كلماتها الأخيرة عدت بذا كرتى إلى الثمانية عشر شهراً الماضية التى عنيت فيها مارجرى بتربية الطفل وبتمريض خالى .

فساءلت نفسي : تراها كانت تفعل كل ذلك مقابل الأجر الضئيل الذى كانت تتقاضاه منا ؟ أم كانت تشعر هى أيضاً بأنها قد أصبحت أحد العناصر الأصيلة فى ذلك البيت ؟

أيمكن أن تكون قد شعرت بشيء من العطف على رب البيت الفاتر الشعور الصامت الذى كان يروح ويجيء مشغولا عن كل شيء غير مكترث لأحد ؟ تذكرت بعض حركات صغيرة يمكن أن تدل على هذا الذى افترضت ، وهنا شعرت كأن شرارة ملتهبة قد سرت فى مجموع كيانى ، فكان من الأمور السارة أن أشعر بأننى موضع اهتمام إنسان ما وما جرى على وجه أخص ، فقد تعودت أن أنظر إليها نظرة الصداقة الحارة . ولم يكن هناك من يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تملأه فى بيتى . إذن يجب ألا تغادره

وقفت إلى جانب مارجرى وهى ترقد الطفل مساء فى سريره ونظرت إليه وهو يرضع . وعلى حين فجأة طوقت مارجرى بساعدي وضممتها إلى صدرى وقلت :

— إنك يا مارجرى لن تتركى مخلوقين عاجزين تحت رحمة الأقدار ؟ ألا ترين أننا أشد ما نكون حاجة إليك ؟

فقالت وقد دهشت لحركة التودد التى بدت منى على غير انتظار :

— ولكن ماذا عسانى أفعل ؟

قلت :

— اصغ إلى يامارجرى ! إننى لا أنظر إلى امرأة أخرى فى العالم نظرى إليك . وإنى لأعلم أن هذا الأمر مفاجيء ، ولكن أتظنين أنك تمنين بأمرى

لحد أن تقبليني زوجاً لك ؟ أما أنا فسأبذل جهدى فى سبيل إسعادك

فلم تنطق الفتاة بكلمة ولكنها هزت رأسها هزة الرضا وقد فاضت عيناها بالدموع ، فانحنيت وطبعت على شفتيها القبلة التى لم أطبعها على شفتى امرأة غير أمى

لقد عرضت الزواج على مارجرى فى ساعة انفعال ولكننى لم أندم على ذلك قط ، فقد كانت صديقة مخلصة ، ورفيقاً فرحاً مؤنساً ، وقد تعودت على الزمن أن أحبها حباً قوياً

وكان « بات » كلما كبر أصبح من المستحيل أن أتجاهله ، لقد كان طفلا نشيطا محتاجا إلى الملاحظة المستمرة ، إذ كان ميالا للعبث بكل ما يصادفه ، فلم ألبث أن لاحظت أنه لا بد من مراقبته خشية أن يؤذى نفسه ، ولم يكن من طبعى أن أهمل عامداً أداء واجبى ، وما دامت الأقدار قد ألقت إلى أمر العناية بهذا المخلوق فقد وجب على أن أحميه من كل خطر يتعرض له

وبدا على الطفل أنه يحبنى حباً شديداً ، فكان يتبعنى أين تنقلت فى البيت وكان يتعلق بى ويقبلنى ، وكان حسنه ولطفه جذابين لا يملك الانسان نفسه من التأثر بهما ، وكان يدعونى بلفظة «أبى» وما كان ليستطيع أن يدعونى بغير ذلك

وما بلغ « بات » السنة الثالثة من عمره حتى رزقت مارجرى بطفل هو ابنى من لحمى ومن دمى ، وما أستطيع أن أصف الشعور الذى استولى على نفسى حين حملت المخلوق الصغير الجديد على ساعدى ، فقد تجمع الحب والعطف اللذان حرمتهما «بات» وفاضا دفعة واحدة على القادم الجديد

على أن روح العدل الذى كنت أتشدد فى أخذ نفسى به قد حملنى على أن أقسم فى الحال وأنا أحمل ابنى على ساعدى أننى مهما بلغ حبى لهذا الطفل ما بلغ فلن أميزه بجميل أحرم منه « بات »

ولقد وفيت بهذا القسم فى أدق حدود الوفاء ، وخصصت قسما من دخلى لتربيتهما وتعليمهما ، وكان على كل منهما أن يؤدى واجباته المدرسية ، وإذا لاحظت أن « فرانك » كان ميالا إلى الكسل ، أمرت « بات » فى شدة ألا يساعده فى أداء واجباته عنه ، وكان الطفل ميالا بطبيعته الخيرة إلى إسداء هذه المساعدة لأخيه ...

ولما شب الطفلان أحزننى أن ألاحظ الفارق الكبير بين أخلاق أحدهما وبين أخلاق الآخر. فقد كان « بات » دائماً باسما سعيدا ، وكان كريما طموحاً غير أنه كان على استعداد للعراك لأقل سبب ، وكان يسلك حيال فرانك ، مسلك الحامى الذى يدافع عنه غير سامح لانسان أن يمسه بسوء .

وكان ابنى على العكس من ذلك خمولا ميالا إلى الأنانية ، فكان يستغل طيبة « بات » لمصلحته كلما أراد ذلك . وإذا كانت الأمور تسير سيرها الطبيعى كانت شخصيته تتميز بجاذبية شديدة ، وكان فوق ذلك متميزاً بذكاء عقله وقوة إدراكه وهما أمران كانا يبشران بمستقبل عظيم .

وكان مما ضايقنى بعض الشىء أن فرانك لم يكن يكترث قط بقفير النحل ، وكان «بات» هو الذى يعنى بها ويحفظ كل ما كنت أعلمه من شئونها وكنت كذلك أتضايق حين أذكر أن « فرانك » قد يرتفع شأنه فى الوجود ، وأن « بات » قد يقنع بالحياة فى المزرعة على مثال ما فعلت . على أن هذا هو ما كنت أرجوه على كل حال ، فان السنين وإن كانت قد خففت ما كنت أشعر به من البعض نحو

الطفل الغريب الذي حملني مسؤولية أن أغير مرحب بها، فانها لم تقض على هذا البغض القضاء التام ، فكنت أخشي أن يتم كل شيء طيب لابني .

وكان « بات » أدق إدراكا من أن يفوت عليه ما في مسلكي من تميز ولكن لم يكن ذلك ليترك في قلبه الصغير أي أثر غير طيب . ومن الغريب أن تكون مارجرى هي التي لم يبد من ناحيتها أي نوع من أنواع التفريق بين الغلامين ، فقد كانت تحب الولد الكبير الجميل الطيب القلب الذي تعتقد أنه ابني حبها ابنها على حد سواء !

وكان « بات » متقدماً على « فرانك » في المدرسة عند ما ماتت مارجرى ، وقد شعرنا جميعاً بالخسارة التي أصابتنا بفقدان عطفها وعنايتها وكان « بات » أشدنا حزناً وتأثراً . فكانت هي الشخص الوحيد الذي كان يفضي إليه بما في نفسه ويركن إلى عطفه . وكان « بات » يدرس الصحافة ويقول إنه سيؤلف يوماً كتاباً يحملنا جميعاً على أن نفخر به ، وكانت مارجرى هي وحدها التي تشجعه ، أما أنا فكنت أهزأ بفكرته فما كنت لأتصور أن ذلك الطفل الريفي الكبير الجسم يصلح لأن يجلس يوماً فيضمن أفكاره وآراءه كتاباً يقرأه الناس ، ولما ماتت مارجرى انقطع حديث « بات » بآماله ومطامعه

أما فرانك فكان يطمع في النفوذ وفي الثروة . كان مغرماً بالمسائل المالية ، فكان كل مساء يدرس الصحيفة الاقتصادية التي تنشرها الجريدة ، غير ملتفت إلى شيء إلا أن هذا النوع من الأسهم قد ارتفع وذلك النوع قد تدهور ، وكان يدرس الأسباب التي تؤثر في السوق مفاخراً بأنه يستطيع أن يتنبأ بما سيقع من ارتفاع أو هبوط ، وكان كلامه مغرياً حملني على أن أستخدم بعض أموالي في سوق الأسهم ، وزادني الربح طمعاً فاستخدمت فيها جميع أموالي وكان ذلك سبباً في أن تعرفت بمستر بالدوين مدير البنك المحلي ، وكان الرجل ممن يهتمون بتربية النحل فكان يزورني ويرقب ما يجري في القفير . فتوطدت بيني وبينه روابط الصداقة ، حتى إذا ترك « فرانك » المدرسة عهد إليه بوظيفة كاتب في البنك فتاه ابني بذلك عجباً . وكان يقول لي عن عقيدة : إن بعض كبار رجالنا كانوا في أول نشأتهم كتاباً في المصارف

وكان بات إذ ذاك يعمل مخبراً في الجريدة المحلية وكان الأجر الذي يتقاضاه ضئيلا ، ولكنه كان قنوعاً به ؛ وكان يكفي لمعيشته ، وكان يمضي أوقات فراغه في كتابة قصص لم يوفق قط في بيعها ، فكان كل ما يرسله منها يرد إليه ثانية ، وكنت أنا و« فرانك » نهزأ منه لاضاعته وقته في ذلك العبث . وقال له فرانك في سخرية :

— ألا تهبط أيها القروي الكبير الجسم إلى الأرض؟ ألا تعرف الوقت الذي أصابتك فيه الهزيمة ؟

وكان « بات » يبتسم من هذا الكلام غير مكترث ويقول إن روما لم تبن في يوم واحد ، ثم يمضي في الكتابة

ولم يمض إلا قليل حتى دهشت أنا وفرانك أكبر دهشة في حياتنا ، فان إحدى قصص « بات » لم ترد إليه بل جاءه بدلها « شيك » بمبلغ من المال مصحوباً بكلمة تشجيع من محرر إحدى المجلات الواسعة الانتشار . ولقد كانت هذه هي الفرصة التي يستطيع أن يقول فيها : « لقد قلت لكم ذلك » ولكن لم يقل شيئاً وأظن أن سكرة الفرح أنسته أن يتكلم ، فمشى وعلى فمه ابتسامة عريضة راضياً بحظه في الحياة ، وتوالت الشيكات بعد ذلك

وأصبح بات فخوراً بمكانته وبثروته التي تنمو على الاستمرار .

وبدأ الناس يتحدثون بأمر الفتى المؤلف ، ويهنئونني بابني النابغة ، وأخيراً أدركت أن ليس هناك من يعرف حقيقة نسبه ، فلم أر ما يحول بيني وبين الاشتراك معهم في الحديث

ولم يمض عامان على اشتغال فرانك حتى حلت بالبنك كارثة مفاجئة ضاعت فيها أموالي أرباحاً وأصلا كما ضاعت أموال غيري ، على أن هذه الكارثة على شدتها كانت أخف هولا من الكارثة التي لحقتها بعد ثلاثة أسابيع والتي فاجأتني في خطاب مكتوب على عجل بخط فرانك وفيه يقول :

والدي العزيز

عند ما تقرأ هذا الخطاب أكون قد بعدت أميالا عديدة عن الوطن . ولقد لاحظت أنت عند ما كنت في البيت في نهاية الأسبوع أنني كنت كئيباً ، وقد نفيت ما أبديت لي من ملاحظة إذ لم تكن أعصابي لتحتمل مواجهتك بالحقيقة ، فأخبرك بأن ابنك مزور ولص

وإنك لتعلم أنني كنت أشتغل بدفاتر البنك فترة من الزمن ، فلما وقعت الكارثة استولى علي اليأس فكنت أرى أحلامي تتلاشى وما اقتصدت من المال يضيع هباء ، فلم أر أمامي غير سبيل واحد للخروج من ذلك المأزق ، فأخذت من أموال البنك مبلغ أربعمائة جنيه معتزماً بطبيعة الحال أن أردها . ولكن هذا المبلغ ضاع هو أيضاً ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يطلع فيه مديرو البنك على ما حدث ، لذلك أنا أغادر البلاد قبل أن يكشف أمري . وسأبدأ حياتي من جديد في أي مكان أستطيع العمل فيه ، وآمل أن أتمكن يوماً من رد المبلغ الذي سرقته . ولا أكتب إليك بعد الآن خوفاً من أن تنم خطاباتي عن مكان وجودي ، ولكني أرجو أن تجد في قلبك مكاناً للعفو عني . وما أخشى على صحتك وحياتك لأني واثق من أن « بات » العزيز سيسهر عليك ويعني بأمرك . وقد أستطيع أن أعود يوما ما ، وإلى أن أتمكن من ذلك سأبقى ... ولدك المحب

(فرنك)

صعقني هذا الخطاب فجلست أنظر إلى الفضاء . إن هذا لا يمكن أن يكون صدقاً ! ابني فرانك لص لن يمضي زمن طويل حتى يقبض عليه كالوحش الضاري ! لابد أن يكون هناك خطأ ما . ولكن لا . هذا كتابه وهذا خطه . أيصبح لصا ؟ ابني الذي أملت منه الكثير وهو الآن هارب يبحث عن مكان يأوي إليه حتى لا تقع عليه عين القانون

فكرت في الأيام التي كان فيها طفلا وساءلت نفسي : أقصرت في تربيته ؟ ألم أعلمه تعليما حسناً ؟ ألم ألقنه مبادئ الأمانة ؟ سألت نفسي هذه الأسئلة ورددت عليها إيجاباً

إذن أين موضع الخطأ ؟ إنه في أعماق نفسي ، لقد أخطأت حين اعتمدت على نصائحه وعملت برأيه . لقد رآني أربح الكثير بإيداع القليل ، فتغلغل الشره إلى نفسه ، وأراد أن يكون إنساناً ذا شأن . والمال يزود الانسان بالقوة . لقد رأى كفي تقبض على مبالغ كبيرة من المال فأراد أن يحذو حذوي ويجمع المال لنفسه .

وإذ وصلت إلى هذا التعليل أحنيت رأسي حزناً وعاراً واعتمدت رأسي بيدي وبكيت في صوت مرتفع ..

ولم أشعر بأن « بات » قد دخل الغرفة حتى أحسست بساعده يطوق كتفي ، ونظرت فرأيته يرمقني في عطف وحنان . وقد قال في كثير من التلطف :

— إنه لأمر قاس يا أبي ، ولكن هون عليك ولا تبتئس

فسألته في صوت عال :

— أعرفت ما حدث ؟

— نعم فقد بعث إلى فرنك بخطاب

فسألته وقد شعرت بشيء من الارتياح لوجود من يشاطرني الأسى :

— وماذا عسانا نعمل ؟

فأجاب :

— لقد عملت كل ما يمكن أن يعمل فما قرأت خطاب فرنك حتى أسرعت إلى البنك وتحدثت مع مستر بالدوين، وحولت حسابي إلى البنك. ولما كان مالي يزيد كثيراً على القدر المطلوب ، وافق مستر بالدوين رعاية لك أن يترك الأمر يمر في هدوء ويبقى سراً مكتوماً

فقلت :

— أنت دفعت مالك الذي جنيته بعملك لتنقذ اسم فرنك ؟

فأجاب الفتى :

— إنه اسمنا جميعا

فلفت نظري عنه صامتاً ، فقد ازدحمت الكلمات في فمي ، وغص بها حلقي فلم تخرج من بين شفتي . لقد أردت أن أقول له إن الاسم الذي دنس ليس اسمه

ثم إذا بي كأني أسمع صوتاً من الماضي يهمس في أذني ، وكان صوت « سالي » تكرر الكلمات التي قالتها من قبل ، عند ما نظرت بعينين تفيضان بالدمع إلى طفلها الوليد وقالت : « سيأتي اليوم الذي يكبر فيه ويعيش ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة »

* * *

لقد استولى علي شعور لا أستطيع وصفه ، فغريب أن تصح نبوءتها بعد هذه السنوات الطويلة ، وأن يدب رنينها في أذني ، وأغرب من ذلك أنه خيل إلي أن الواقف إلى جانبي هي سالي نفسها ، تعمل لإنقاذ اسمي كما أنقذت اسمها فيما مضى ، فكان عرضا منها لا أستطيع رفضه . ولكن « بات » لن يعرف ماذا قصدت حين قلت : « شكراً لك يا سالي »

مضت ست سنوات على هرب فرانك ، وعلى الرغم من أني لم يصلني كلمة منه فانني أشعر أنه بخير وإني لأرجو أن يعود يوماً ، ولكنني لست وحيداً فان حياتي أمتع وأكثر انتعاشاً مما كانت في أي وقت مضى من جراء التفاهم والمودة اللذين توطدا بين « بات » وبيني

تزوج « بات » بعد ذهاب فرانك بوقت قليل محضراً زوجه الجميلة إلى المزرعة كما أحضرت أنا أمه من قبل ، ولا يزال دائبا على الكتابة مقسما وقته بين الآلة الكاتبة وبين قفير النحل

وقد رأيته منذ أيام — وأنا جالس في الشرفة — وهو يجمع الزهر الأزرق الذي يحبه النحل . وكانت ابنته الصغيرة مارجري سالي جالسة على ركبتي . وقد غمرني شعور بالرضا والقناعة عند ما ضممتها إلى صدري فنظرت إلي ورأتني أتبسم وقد سألتني :

— لماذا تبتسم يا جدي ؟

فأجبتها بكلام فارغ ، إذ كيف أستطيع أن أقول للطفلة إنني عند ما رأيت « بات » تصورت أن الأيام قد دارت إلى الوراء وإنني أرى سالي وبارني يبتسمان لي

أكان الأمر كله خرافة شيخ مضطرب ، أم تراني قد سمعت حقاً « بارني » وهو يقول :

« يالك من صديق طيب القلب ياويل فليجزك الله خيراً »

عبد الحميد حمدي

حاجى بابا اصفهانى

للكاتب الانجليزى " جيمز موير "
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل السادس والخمسون

مطامع ملا نادان

عرفت لما زادت صلتى بملا نادان أنه شديد الجشع كبير المطامع وأن غرضه الأول هو أن يصبح شيخ العلماء فى العاصمة الفارسية وأنه لم يترك وسيلة لتحقيق هذه الغاية إلا اتبعها . وكان من وظائفه المتعددة التدريس فى المدرسة الملكية . وكان يكثر من الدسائس والايقاع بين خاصة الشاه سراً ويتولى فى الجهر حل مابينهم من الخلاف ليشتهر بالكياسة والحزم . وكان فى الأعياد والمواسم التى يجتمع فيها العلماء عند الشاه يقدم نفسه على سائر إخوانه بالظهور فى الصف الأول ويرفع صوته المنكر فى الدعاء لجلالته ويتكلم بالنيابة عنهم

انقضى فصل الشتاء وبدت باكورة الربيع وجاءت الأخبار بأن الأمطار كانت قليلة فى جنوب إيران وأنها مهددة بالمجاعة، فأمر الشاه باقامة الصلاة العامة وتولى شيخ العلماء تنفيذ هذا الأمر فلم تفت الملا نادان هذه الفرصة لينتفع منها . وكان لا يجهل النفوذ الذى استفاده بين الشعب فأرسل دعوة إلى العامة من أهل المدينة ليتبعوه إلى مكان خال فى الضواحى حيث يقيم صلاة عامة . ووصل خبر هذه الدعوة إلى الشاه فأمر كل أهل المدينة باتباعه فكان ذلك نصراً مبيناً له . وفى اليوم الذى تحدد لهذه الصلاة خرج كل من فى طهران سواء منهم المسلمون والنصارى واليهود وأقيمت الصلاة ولم ينزل المطر .

ولكن الملا نادان لم ييأس بل وقف بين الناس خطيباً فقال : « أليس أمامنا شىء نفعله يا أهل إيران لكشف البلاء عن الأرض المصابة بالجدب ؟ لقد ظهر مثل ظهور الشمس أن الله غاضب علينا لأن فينا من استنزلت خطاياه نقمة الله علينا ، وهؤلاء هم الكفرة الذين يستبيحون شرب الخمر جهرة ويرتكبون المنكرات فى كل مكان، فلنذهب إلى حاناتهم ولنحطم كؤوسهم وقنانيهم لعلنا ننال بذلك رضى الله »

عند ذلك ثارت فى الناس حمية الدين ووضع الملا نادان نفسه على رأس الجموع ومشوا إلى الحى الأرمنى فى المدينة . فلما رأى أهله هذه الجموع الغاضبة لم يعرفوا ماذا يفعلون فبعضهم أوصد الباب دونه والبعض هرب والبعض تجمد فى مكانه . ولكن الجميع أدركوا نية المقبلين . وبعد قليل تحول المنظر إلى مذبحة عامة

ودخل الملا نادان يتبعه الأشداء من رجاله بيوت الزعماء من الأرمن فأخذ يبحث مجداً عن الخمر

ولما كان الأرمن كالمسلمين يحجبون نساءهم فانى أترك لخيال القارىء تصور الحالة التى نشأت عن دخول هذه الجموع المائجة للمنازل وتكسيرها أبواب النساء وتفتيشهن خوفاً من أن تكون بعض زجاجات الخمر مخبوءة فى ثيابهن

ووجدت هذه الجموع ما لم تكن تنتظره ، وما هو عندهم شر من الخمر ، وهو الكتب المقدسة والصلبان وصور المسيح والعذراء معلقة

على الحوائط فأخذوا يحطمون ما تصل أيديهم إليه ، وتوبت فى نفوسهم شهوة التحطيم فلم يتركوا شيئاً من الأثاث والرياش . ولو استمروا على ذلك مدة لحطموا المنازل كلها أو أحرقوها ولما تركوا أرمنياً على قيد الحياة

ولكن رسولاً من قبل الشاه حضر فى هذه الأثناء مع رئيس من رؤساء الأرمن فأبلغ الجمهور أن جلالته غاضب وأنه يأمر الجوع بأن تعود إلى رشدها فتراجعت الجموع ولا تسل عن شعور الملا نادان فى هـذه الساعة فقد نظر إلى الجمهور ثم إلى نظرات لعله لم ينظر مثلها رجل ذو لحية فى العالم كله لأنها كانت دالة على الطفولة والبلاهة ، ثم أمره رسول الملك بأن يذهب معه إلى جلالته . وصاح بصوت يشبه البـكاء : « وما الذى فعلته بحق رسول الله ؟ أليس أعداء الدين جديرين بأن تطهر منهم المدينة؟ »

ذهبنا إلى قصر الشاه فوجدنا رئيس الوزراء والملا باشى ينتظراننا فى غرفة رئيس الجلادين

وقال رئيس الوزراء للملا نادان : « ماذا فعلت يا ملا؟ هل جننت ؟ هل نسيت أن فى طهران ملـكا له ولاية الأمر ؟ »

ثم أشار إلى رئيس الجلادين وقال : « خذهما إلى الشاه فانه ينتظرهما » . فقادنا ونحن إلى الموت أقرب منا إلى الحياة فمثلنا بين يدى جلالته وكان يفتل شاربيه كعادته عند ما يشتد غضبه

وطأطأ رئيس الجلادين حتى كادت رأسه تصل إلى الأرض وقال مشيراً إلى الملا ثم إلى : « هـذا هو الملا نادان وهذا خادمه »

فنظر الشاه إلى الملا وقال : « من أى عهد أخذت على عاتقك أن تقتـل رعيتى ؟ من الذى منحك هذه السلطة ؟ هل صرت نبياً ؟ هل تريد أن تكون ملـكا ؟ قل لى ما الذى فعلته ؟ »

وجم هذا الثرثار الذى لم تكن تعوزه الألفاظ كلما أراد أن يتكلم، ثم تمتم بكلمات تافهةعن الكفار وعن شرب الخمر وعن نزول الأمطار . وكان فى خلال هذه المدة مفقود الحركة كأنه تمثال

فقال الشاه للملا باشى : « أفهمت شيئاً ممـا يقول ؟ خبرنى ما الذى يعنيه إن كنت قد فهمت ؟ »

فقال الملا باشى : « جعلنى الله فداك يا جلالة الشاه، إنه يقول إنه أراد الخير لرعيتك التى منع عنها الله المطر بسبب الخمر التى يشربها الكفار فى طهران »

فقال الشاه : « إذن فأنت تقتل جزءاً من الرعية لتصلح جزءاً منها يا ملا نادان . وهل أنت قد حللت محلى فى هذه العاصمة التى تريد إصلاحها ؟ أى حلم هذا الذى كنت تحلم به ؟ »

ثم رفع رأسه منادياً جنوده : « تعالوا هنا فمزقوا عمامة هذا الملا وجبته وانتفوا لحيته واربطوا يديه خلف ظهره وأركبوه حماراً جاعلين ظهره إلى رأس الحمار، ومروا به فى أسواق المدينة ثم اطردوه منها. وليكن معه تلميذه هذا » وأشار إلى. فحمدت الله لأن الشاه لم يعرف أننى صاحب زينب ، وكان حظى أحسن من حظ أستاذى لأن لحيتى بقيت لى وبقى لى احترامى

أما لحية الملا فانها نتفت كما ينتف الطباخ رأس الدجاجة ثم صفعوه وأركبوه أقذر حمـار رأوه فى الطريق ومشوا به الهوينى ، وكنت أمشى وراءه ، ولما وصلنا إلى باب من أبواب المدينة أنزلوا الملا الكبير المطامع عن ظهر حماره وطردوه وطردونى معه وكأن

المطر لم يكن ممنوعاً إلا ريثما يحل هذا العقاب بوغدين من شر أوغاد المدينة فما كدنا نخرج من بابها حتى هطل وسقى البرزة من أهلها كما سقى الأرمنيين

الفصل السابع والخمسون

حاجى بابا يتجو بأعجوبة

قلت لصاحبي لما لم يبق ممنا أحد غيرنا : « إننى مدين لك بهذه السعادة يا ملا نادان، ولو كنت أعلم أن هذه هي نتيجة التوصية التى أخذتها من ميرزا أبي القاسم لما كنت أسعى إلى التشرف برؤية وجهك ما الذى كان يضرك لو لم تنزل الأمطار ، وما الذى كان يعنيك إن شرب الأرمنيون الخمر أولم يشربوها»

ثم رأيت حالة الملا محزنة لا تسمح بأن أزيد فى تعنيفه فسكت . ومشينا وكلانا صامت إلى أقرب قرية عرجنا عليها فاسترحنا فى خان هناك . ولما تحدثنا عرف كلانا أننا لن نستريح حتى نعرف ماذا كان من أمر ممتلكاتنا فى المدينة فقد كان له عقار ومنقول ونساء ، وكانت لى ثياب وبغلة ومال . واتفق رأيانا على أن أعود إلى طهران. فدخلتها فى المساء وذهبت تواً إلى بيت الملا فدلتنى أول نظرة إليه على أنه لم تمد به بقية تصلح أن تقتنى

وكان أول إنسان رأيته فى المنزل هو رسول الشاه الذى استدعانا إلى القصر . وكان هذا الرسول فى هذا الوقت يخرج من المنزل ويركب بغلتى ويسير بها وعليها ثيابى ومالي

ملأ هذا المنظر قلبى حزناً وكنت شديد الخوف من أن يستكشف أمرى إنسان فأسرعت بالذهاب وأنا لا أعرف إلى أين تقودنى رجلاى ولم أزل أسير على غير هدى حتى وجدت نفسى أمام حمام فدخلت دون أن يرانى أحد لأن المكان كان مظلماً ورأيت أن الحظ قد ودعنى فى هذه المرة الوداع الأخير ، واستمدت فى ذاكرتى حياتى الماضية فقلت : إننى ما كدت أذوق لذة الحب حتى صار الملك منافساً لى، وما كدت أسلو الحب حتى قتل الملك حبيبتى وطردنى من وظيفتى . وما كدت أرث حتى اتضح أن مورثى لم يترك ثروة . وما كدت ألجأ إلى رجل كبير من العلماء لأحتمى عنده حتى طردت وإياه من المدينة

وكنت أعتقد أن الحمام خال فى هذا الوقت ، ولكن لسوء حظى وجدت رجلا يسير فيه على مقربة منى وكان لا يزال فى الحمام بصيص من النور يتخلل الزجاج الملون ، فعرفت أن هذا الرجل هو الملا باشى نفسه

ص ولم يلتفت إلى فحمدت الله ودخل أمامى المغطس الساخن، وبعد دقائق سمعت وقوع جسم فى الماء ، فمشيت على أطراف الأنامل حتى دخلت إلى المغطس فوجدت الملا باشى غريقاً فيه . وأيقنت بالهلاك لأننى سأتهم ولامحالة بأننى قاتله فالناس كلهم يعرفون أننى تلميذ الملا نادان ويعرفون أنه أشد خصومه خصوصاً بعد نكبته

وكنت فى هذه اللحظة عارياً لأننى لما رأيت الملا باشى يدخل المغطس خلعت ثيابى ودخلت مغطساً آخر ، وقبل أن أعود لأتمم الاستحمام أو لألبس ثيابى جاء تابع من أتباع الملا باشى وحسبنى سيده فأخذ يدلك جسمى؛ ولما كانت قامتى كقامة الملا باشي وكان تابعه ضعيف البصر فانه لم يميزنى . ولما انتهى الاستحمام لبست ثياب شيخ العلماء وتصنعت مشيته ومشيت مع التابع إلى منزله . وكان من أصعب الأشياء أن أستمر فى التمثيل إلى نهايته لأنه من

الحتم أن يعرف السيدات أنني لست إياه ، وكنت قد عرفت أنه قليل الكلام وأن بينه وبين زوجته شجاراً مستمراً لأنه شديد الغيرة

وكنت قد ألزمت نفسي الصمت منذ وجدت نفسي مضطراً إلى الظهور بمظهره . ودخلت المنزل مجازفاً مستعداً للقاء أسوأ النتائج ؛ وكان أول شيء حدث عند دخولي الباب أن تقدمني البواب فصاح بالأرقاء في داخل المنزل أن يحضروا النور فأحضره عبدان ومشيت فسمعت أصوات النساء ، ثم أضيئت غرفة استطعت أن أرى من نافذتها سيدتين وخشيت أن يقودني العبدان إليها . ولكن حسن حظي واعتياد الخدم معرفة الحالة التي كان عليها شيخ العلماء عند ما يخاصم زوجته قد حمل العبدين عند ما رأياني منصرفاً عن دخول هذه الغرفة — إلى العدول عنها إلى الخلوة حمدت الله وانتظرت أن يقودني حسن الحظ إلى التخلص من العبدين دون أن أعرف . وكانا إلى هذه اللحظة يسيران أمامي، فأخذت الشمعة من أحدهما وأشرت إلى الآخر بيدي أن يذهب، فذهب بشمعته وبقي الآخر في الظلام وذهب العبدان منزعجين

وكنت إذ ذاك كالمعلق بين السماء والأرض أفكر في حظي الذي ساعدني على ارتكاب أوقح حالة من حالات التنكر فأسر كل السرور وأفكر لحظة أخرى في مصيري بعد أن خطوت هذه الخطوة فأحزن كل الحزن

الفصل الثامن والخمسون

نتيجة الحادثة السالفة

ولما انفردت في الخلوة أسرعت إلى بابها فأوصدته ووضعت المصباح في ركن بعيد فأصبح من المستحيل على من يطل من زجاج النافذة الملون أن يدرك أنني لست بالملا باشي

ولما انتهيت من ذلك خطر لي أنه قد يمكن الوصول إلى أمور أخرى غير ما كنت أظن أولاً وعزمت على أن أبحث في جيوب الرجل وأفحص الأوراق التي في حزامه فربما وجدت ما أستفيد به في حياتي المقبلة. وقد وجدت في الجيب الأيمن خطابين ومسبحة وأختاماً ، وفي الجيب الأيسر دواة ومرآة صغيرة ومشطاً . وأما ساعته فكانت محفوظة مع كيس نقود في جيب صغير تحت الابط الأيمن وبدأت بحثي في كيس النقود فوجدت به خمس قطع ذهبية وقطعتين فضيتين، وكانت الساعة من الذهب، وأما الدواة فكانت منقوشة نقشاً بديعاً ووجدت بها مبراة وأقلاماً ومقصاً

نظرت إلى هذه الأشياء وغيرها نظرة المالك لأنني عزمت على أن أسير في طريقي إلى النهاية وبذلك وضعت كل شيء منها في مكانه ثم بدأت أفحص الخطابين فوجدت أحدهما من غير توقيع وفيه ما يلي :

أخي العزيز

(وهنا قلت لنفسي هذا الخطاب من أحد الأصدقاء) ، ثم قرأت « إنكم تعلمون شدة احترامي للكوكب المتألق في جبين الدهر وظل نبينا الكريم، وكل الذي أرمي إليه أن يزداد حبي ويقوى على مر الأيام . لقد أرسلت إليكم ست بطيخات انتقيتها من بطيخ أصفهان مما لا يوجد نظيره كل يوم. وأرجوكم أن تأذنوا لي بشرب النبيذ لأن الأطباء أكدوا لي أنني إن لم أشربه فلن أقوى على مقاتلة أعداء الدين واستئصال شأفتهم »

قلت في نفسي : « هذا ولا ريب من رئيس

الجلادين إذ من غيره فى إيران يستطيع أن يسبر فى هذه الكلمات القليلة عن تملقه وعن عشقه للخمر وعن خيلائه ؟ سأستفيد من هذا الخطاب فلأنظر فى الكتاب الآخر »

ثم فتحت الخطاب الثانى وقرأت فيه ما يلى : —

سيدى وأستاذى

إن العبد الخاضع الذى يعمل لنصرة الحق يتشرف بأن يخبركم أنه بعد جهاد طويل استطاع أن يجمع من فلاحى الضيعة مائة طومان غير الحسين حلامن الفلال، وأن الرجل المسمى حسين على لم يستطع أو لم يرض أن يدفع شيئاً رغم جلده مرتين . وعلى ذلك أخذت بقرتيه حتى يجهد نفسه ما استطاع فلو أرسلتم أحد الأتباع إلى خادمكم سلمت إليه مائة الطومان »

ثم انتهى الخطاب بالألفاظ المعتادة من وضيع إلى سيد رفيع ، وكان موقعاً بخاتم صغير منقوش عليه « عبد الكريم » وهو اسم كاتب الخطاب

قلت لنفسى : « هل يسعدنى الحظ فأجد عبد الكريم وأعرف مكان الضيعة التى كتب منها هذا الخطاب ؟ »

تركت هذا الأمر قليلا لأفكر فيما يمكن أن أصنع بخطاب النازا كشى باشى . وبعد تفكير قليل كتبت هذا الخطاب :

« أخى :

تلقينا كتابك وفهمنا ما به ولا يشك أحد فيما يجب عمله ضناً بصحتك وأنت حامى الاسلام وسيف الله فاشرب ما أردت من النبيذ وقاتل أعداء الدين نصرك الله عليهم وليجزل الله لك الثواب

واسمح بتقديم خدمة أخرى غير ما قدمت من خدمات وهى أن تميرنى جواداً لأمر يدعو إلى العجلة وسأرده كما أخذته حين تنتهى حاجتى إليه »

ووقعت هذا الخطاب بخاتم «المرحوم» وعزمت على أن أذهب به بنفسى فى الصباح التالى . ورددت على الخطاب الأول بما يلى :

عزيزى عبد الكريم

تسلمنا خطابك واطلعنا على ما تضمنه، ويحمل إليك ردنا هذا من نثق به وهو حاجى بابا فاعطه ما عندك من نقود . أما الأمور الأخرى فسنكتب إليك عنها قريباً . وفى أثناء ذلك استمر على ما أنت فيه من إعمال السوط فى ظهور الطغاة أعانك الله »

وبعد أن انهيت من كتابة ما تقدم انتظرت إلى وقت مناسب لأهرب من المكان الذى كنت فى شدة الخوف من أن يعرفنى أحد فيه فينتهى أمرى إلى نهاية مزعجة . وبعد منتصف الليل كنت أستعد للخروج من الخلوة فى سكون تام فشعرت بأن يداً تهز الباب ؛ ولست أستطيع وصف ما نالنى من رعب فان ذلك فوق مقدورى .

توقعت أن أرى على الأقل « الداروجا » كبير الشرطة مع ضباطه يدخلون ويعتقلوننى وانتظرت النتيجة فى وجل غير أنى سمعت صوتاً نسائياً يهمس بألفاظ حال ارتباكى دون فهمها .

ومهما يكن الغرض من تلك الزيارة فما كان عندى غير جواب واحد وهو زأرة شديدة تدل على أن المقيم فى الخلوة لا يقبل بحال من الأحوال أن تقلق راحته ! ولبثت زمناً حتى كان الصمت والسكون قد شملا الدار فتسللت فى هدأة إلى الباب الخارجى وفتحته بسهولة وجريت فى الخلاء وتحينت الفرص المناسبة للسير فى الطريق متجنباً رؤية الشرطة

وأخذ نور الفجر يظهر وبدأت الحوانيت تفتح أبوابها ، فاجتهدت وأنا أسير بملابس اللا باشي ألا تبدو مني بادرة تنم عن حقيقتي أو تدعو إلى الشك في أمري . وتم لي ما أردت بنفقة قليلة في حانوت ملابس قديمة . وقد حاذرت أن أخرج بشيء من الأشياء الثمينة التي وقعت في يدي

وقصدت بعد ذلك إلى دار النازاكشي باشي وقدمت خطابي إلى خادم أجهله قائلاً له : إن اللا باشي يطلب جواداً سريعاً لأنه يريد مغادرة المدينة في عمل هام . ومن حسن حظي أخبرت أن صاحب الدار في مسكن الحرم وأنه سيرسل رده كتابة . ولكنه أمر في نفس الوقت بإحضار جواد من جياده إليّ

ولقد سررت من رؤية الجواد المطهم وهم يخرجونه من مربطه وعليه سرج موشى بالذهب وفي عنقه سلسلة ذهبية . وكانت تعروني رعشة من الفرح كلما تصورت أن كل ما أراه سيصير ملكا لي . ولكن كان يريبني أن سعادة كهذه يستحيل أن تستمر طويلا

وتملكني الخوف من استكشاف أمري إذا تأخرت فأسرعت إلى خارج المدينة على ظهر الجواد . وفي زمن يسير تجاوزت أبوابها

وابتعدت في الخلوات ولم أزل أسير إلى الأمام دون أن أقف أو أنظر إلى الخلف حتى وجدت نفسي بين الوهاد التي خلفها مجرى نهر الكرج . وهناك ترجلت لأستريح

تذكرت أني سمعت أن ضيعة اللا باشي تقع على طريق همذان فوليت وجهي إلى تلك الناحية . ولكن الحق أقول إنني حين وقفت لأستريح شعرت بالرهبة تدب في نفسي من ذلك الانقلاب المجيب الذي طرأ عليّ حتى لقد شعرت بما يشعر به المطل من حافة الهاوية يدفعه دافع مبهم إلى إلقاء نفسه فيها . وبصعوبة شديدة استطعت أن أمنع نفسي من الرجوع وتقديم نفسي إلى القضاء وقلت في نفسي : « لست إلا لصاً لا أكثر ولا أقل ، ولو قبض عليّ لمزق جسمي على آلة التعذيب ولكن من الذي سبب هذا ؟ »

الحق أنني لست الملوم إذا كان القدر أراد بي هذه الحالة . إنني لم أسع إلى قتل اللا باشي ولكنه إذا كان قد قدر عليه أن يتلفظ النفس الأخير أمامي وإذا كنت أنا — أردت أم لم أرد — سأتحمل عاقبة موته فان من الواضح الجلي أن القدر أراد أن أمثله وأقوم مقامه . وما دمت محقاً في كل ما أعمل في دوري هذا فان ملابس اللا باشي تعد ملابسي ودراهمه دراهمي . وكل ما كتبت باسمه حق وعدل »

وقد أنعشتني هذه النتائج فركبت جوادي وتقدمت إلى أقرب قرية لأستعلم عن ضيعة شيخ العلماء وعما إذا كان يقطن في تلك الأنحاء رجل اسمه عبد الكريم

وكأنما كانت العناية تلحظني والحظ يلازمني ، فانني وجدت أن القرية التالية ، والتي لا تبعد إلا مسافة قصيرة هي مقصدي ، وأن عبد الكريم هو شيخ فيها يقوم لسيده القتيل بجباية المال وجمع المحصول .

قلت في نفسي : « إنه شيخ ، إذن يجب أن أغير أسلوب الخطاب وأن أخاطبه بما يستحق من الألقاب »

وسرعان ما جلست على الأرض وأخرجت الدواة من جيبي وأخذت قطعة من الورق الذي في

حزامى وكتبت الخطاب كما أريد من جديد . ثم تقدمت فى مهمتى مصمما على اختيار أقرب الطرق إلى الاستيلاء على مائة الطومان

الفصل التاسع والخمسون

خيانة حاجى بابا ، حياة الملا نادان وأعماله

أخذت أظهر بمظهر يليق بشكل الجواد الذى امتطيته حين وصلت إلى « سيراباد » وهذا هو اسم القرية التى ذكرتها . ودخلتها وعلى مظاهر السلطة والجاه حتى كان الفلاحون يحنون رؤوسهم فى خشية وخضوع إذا رأونى

وحين ترجلت أعطيت زمام الجواد لأحد الوقوف وقلت : « أين عبد الكريم ؟ »

وفى لحظة أخذ كل واحد من الموجودين يجرى للبحث عنه إلى أن جاء ، فقلت بعد السلام المعتاد : « لقد حضرت من قبل الملا باشى لأمر لا يغيب عن فهمك »

ثم سلمته الخطاب . وكان لعبد الكريم عين شزراء لم يعجبنى شكلها خصوصاً وقد ظل طوال الوقت يرمقنى بلحظ منها

وتنفست الصعداء حين قرأ الخطاب وقال لى : « إن المال موجود ولكن يجب أن تأخذ راحتك. تفضل بالدخول »

تظاهرت بشدة الاستعجال ولم أرد أن أبقى معرضاً لعينيه الناريتين ، غير أنى قبلت أن أتناول بعض الفاكهة واللبن مخافة أن أثير شبهة

قال لى وكنت قد فتحت فمى لأتناول قطعة من البطيخ : « إننى لا أذكر أننى رأيتك فى دار الأستاذ مع أننى أعرف كل فرد من أتباعه معرفة تامة »

فأجبته وقد كدت أن أختنق من سؤاله : « كلا فإنى لست من أتباعه ولكننى تابع لرئيس الجلادين . ويظهر على ما أعتقد أن بينه وبين الملاباشى بعض الأعمال المالية » وبذلك أخمدت كل شبهة فى ضمير مضيفى ، وقضيت على كل ظن جال بمخيلته.

وكان لشكل من الجواد والسرج المذهب واللجام المنقوش اللامع أثره فى توكيد قولى . وبعد أن تسلمت مائة الطومان ووضعتها فى صدرى امتطيت الجواد وتظاهرت بالرجوع إلى المدينة وأنا أكاد أطير سروراً؛ غير أنى بعد أن غبت عن النظر أدرت رأس الجواد إلى الخلاء وجعلت أنخس جنبيه راكضاً دون أن أقف حتى تصبب الزبد الأبيض على جسم الجواد وتساقط العرق عن جبينه

صممت على الذهاب إلى كرمانشاه وهناك أبيع الجواد والسرج واللجام وأواصل سيرى إلى بغداد فأكون هادئاً مطمئناً .

وبعد أن سرت نحو خمسة فراسخ من طريقى رأيت شخصاً غريباً يسير أمامى بخطى سريعة رافعاً صوته بالغناء . وكان يلبس ثوباً خفيفاً وعلى رأسه عمامة وقد لف ذقنه بمنديل ، وفى قدميه خف ، ولم يكن يبدو عليه أنه من قطاع الطريق . ولما اقتربت منه ظننت أنى رأيته من قبل . وكان الرجل طويلاً معتدل القامة عريض الكتفين نحيفاً . ولقد حسبته لولا غناؤه الملا نادان، إذ لم يخطر ببالى قط أن رجلاً له ما للملا من الوقار يمكن أن يحط من قدر نفسه بذلك الغناء . ودنوت منه رويداً رويداً حتى رأيته عن كثب ولم يكن قد رآنى بعد فعرفت أنه هو بغير شك . ووقفت جوادى لأتدبر فيما إذا كان حسناً أن أريه نفسى . وكان من القسوة أن أتخطاه ولكننى

من جهة أخرى رأيت أنني إذا أريته نفسي اضطررت إلى مرافقة من لا رغبة لي في مرافقته . ولو عرفني ورآني أتجنبه فمن المحتمل أن يتهمني بسرقة أمواله في طهران. ولئن نجوت منه الآن فاني سأظل أخافه كما لو كان بيننا عداوة .

وكنا نقترب من قرية يجب أن نبيت فيهـا فلم أجد بداً من التسليم لأن جوادي كان في حاجة إلى العناية والراحة إذ لا يزال أمامه مسافات طويلة يقطعها، فلم يكن في الاستطاعة أن أحمله فوق طاقته

واخترت أمراً وسطاً فقلت إن عرفني اللاناداان كلنه وإن لم يعرفني تجاهلته . وأسرعت فلما قاربته التفت ونظر إلى من الفرع إلى القدم فلم يظهر عليه أنه عرفني ، بل لعله خاف أن أكون قاطع طريق فتوسل إلى أن أرحمه ولم أستطع أن أقاوم شعوري إزاء هذا الاسترحام فانتظرت فترة لعله يقول كلمة أخرى ولكنه ظل صامتاً ، واشتدت علائم خوفه فأخذت أضحك ضحكا عالياً لم يكن له مبرر إذ لا يصلح الضحك جواباً على الغناء

دهش اللا نادان وتحير في أمري غير أنه حين بدأت أتكلم زال كل شك عنده وأسرع إلى فرحا مسروراً وقال : « أهـذا أنت يا حاجي بابا ؟ من أي سماء هبطت ؟ ما هذا الزي البديع وما هذا الجواد الكريم وما هذا الذهب وهذه الحلي ؟ هل صاحبت الجن أو هام بك الحظ أم اختارك السعد ؟ »

ظللت أضحك مسروراً بهذه النعوت وظل يقول: « كيف استطعت بهذه السرعة أن تستبدل ببغلك هذا الجواد ؟ ألا تعرف ماذا فعلوا بممتلـكاتي ؟ ألم تستبق لي حماري على الأقل ؟ لقد أنهكني السير على الأقدام . حدثني ! قل كل شيء بحق النبي »

وهنا لاحظت أنني إن لم أقل له ما يهدئ من روعه فقد يتهمني بالاستيلاء على ممتلكاته وتبديدها حتى ظهرت بهذا المظهر الأنيق الذي أثار دهشته فوعدته بأن أقص عليه كل شيء ، ولكنني رجوته ألا يدع في نفسه سبيلاً إلى الشك لأن ما سأقوله له قد يبلغ من الغرابة ما يجعله يظن أنني اختلقته لأرويه فقط .

ووصلنا إلى القرية وأخذنا مضاجعنا في الخان ولما كان كل من له مثل مالي من المظهر الوجيه لا يلبث أن يستلفت شكله الأنظار فقد وقف في خدمتي صاحب الخان، وأعد لنا عشاء طيباً. وفي هذه الأثناء قصصت حوادثي على رفيقي ولم أخف عنه شيئاً من دقائقها ، وقد كاد يذهب السرور والانشراح بعقله حين علم أنني ابتعت أبهتي ووجاهتي على نفقة عدوه القديم اللا باشي

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث بملء الثقة والانشراح ، والبائسون يسرهم ويخفف عنهم تبادل الأحاديث ، وقد لاحظت لأول مرة أنني لم أكن قد عرفت من كنه صاحبي ما كنت أخال أنني أعرفه .

وقلت : « لاشك أنه كان في مظهرك ما خدعني مدة وجودي معك، إذ كيف يمكن لرزين متكبر أن يكون لطيفاً أنيساً كما أنت اليوم ؟ » فأجابني : إيه يا حاجي بابا ! الدهر قلب والأيام لا تدوم وإن حياتي ليست على وتيرة واحدة بل هي في انخفاضها وارتفاعها تشبه تلك الأكر التي يلعب بها المشعوذون في أسواقنا في عيد النيروز والتي تظل صاعدة هابطة بين السماء وبين الأرض . وإنني لسوء حظي لست واحداً من أولئك الذين يسيرون على قاعدة : « لا تفرش بساطك على أرض مبتلة »

قلت له : « قص علي إذن حوادث حياتك ،

فليس أحسن من القصص فى إمضاء الوقت وأرجو أن تكون قد عرفت حقيقتى الآن فلا تبخل علىّ بثقتك »

فأجابني : « لن تسمع من تاريخ حياتى إلا ماهو عادي مألوف فى حياة كثير من الأعاجم الذين يصبحون وهم أمراء ويمسون وهم صعاليك، ولكن مادمت راغباً فى معرفة ذلك التاريخ فسأقصه عليك »

ثم بدأ يروى ما يأتى :

« أنا من أهالى همذان وقد كان والدى شيخاً عظيما ذا سمعة وفضل حتى لقد أمّل أن يكون مجتهد إيران، ولكن منافسيه ومخالفيه فى بعض المعتقدات خيبوا لسوء الحظ أطماعه وفوتوا عليه غرضه فألفوا حزباً ضده سلبه ما كان يسعى إليه من رفعة ورق . وكان أظهر ما فى طباع أبى كرهه للعثمانيين والسنيين على وجه العموم . ولقد قيل إن أحد أجدادى أوجد الكراهية والحقد على السنيين بشكل لم يكن معروفاً قبله ببدعة بسيطة أحدثها فى تلقين أطفال الشيعة، فشب هؤلاء الصبية وأول ما يشعرون به كره العمرين »

وهنا قال لى الملا نادان مفسراً تلك البدعة :

« أنت تذكر بلا شك أن الطفل فى حال تعلمه إذا أراد من أستاذه قضاء أمر شفع رجاءه بلعنة عمر . وتذكر أنك لم تنس طول أيامك كما لم أنس أن تقرن اسم عمر بكل خبيث من الأشياء وأنك قد كررت هذه اللعنة التى تلقيتها أيام صغرك مرة على الأقل فى كل يوم »

وقد صادقت على قوله فأخذ يقول :

« وقد امتد كره أبى لأتباع عمر حتى عم جميع المنافقين من يهود ونصارى ووثنيين يعبدون النار والأصنام — كل هؤلاء شملهم كرهنا وأصبحت تلك العاطفة التى كان يدعيها فى سبيل شهرته وأطماعه شعوراً قوياً ثابتاً لا يقوى عليه أى شعور أو إحساس . وقد شبت عائلته وأنا بينها على عقيدته وتشربت مبدأه حتى تغلغل فى نفسها وسرى فى عروقها .

وقد تفانينا فى هذا المبدأ حتى صرنا حرباً على الكافرين وأصبحنا من دعائم الشيعة ورافعى لوائها . وإذا علمت ذلك لم يدهشك الدور الذى لعبته فى تحطيم دنان النبيذ الأرمنية فى طهران . وليست هذه الورطة هى الوحيدة فيما جرنى إليه دفاعى عن الشيعة وغيرتى عليها . فقد أذكر أننى كنت طالباً صغيراً فى همذان من مدة طويلة وأحدثت هياجاً شديداً، وذلك لأن مبعوثاً من قبل والى بغداد وكان يسير مع أتباعه فى طرقات مدينتنا بعد أن قام بها نحو ثلاثة أيام وكان يقصد مجلس الشاه . وكنت متعصباً لمبادئ والدى وتعاليمه تواقاً إلى تطبيقها عملياً ، فجمعت عصبة من الشباب المتحمس وجعلت أخطبهم حتى أوقدت كامن شعورهم وحركت حماستهم . وصممنا على إقامة احتفال يليق بمبادئنا وعزمنا على مهاجمة ضيوفنا الأتراك وعلى مصارحتهم بحقدنا على عمر ولعنتنا له ، ثم ندعوهم إلى مشاركتنا فى عقيدتنا العلوية

ولم نكن نرى ذلك المبعوث سليمان افندى إلا عدواً للشيعة وشخصاً سنياً دون أن نفكر فيما يجب للمبعوثين من احترام

ففى يوم من الأيام كان سليمان افندى خارجاً

من داره لزيارة حاكم همذان فجمعنا أنفسنا وحييناه بضيحاتنا العالية : « لعنة الله على عمر » فأغضبت هذه النداءات أتباعه وقابلوها بالضرب فانهال قذف الأحجار من أتباعي وانقلب الأمر إلى معركة هائلة. وقد ألقيتُ عمامة مبعوث الباشا عن رأسه وبُصق على لحيته ومزقت ملابسه من الخلف. وإن هياجاً كهذا لا يمكن أن يمر بسلام ، فقد كان المبعوث يتحرق من الغضب وأخذ يهدد بإرسال الرسل إلى الشاه . وكان على وشك الرجوع إلى سيده لولا أن حاكم البلدة خاف عاقبة غضبه وأراد تسكين ثائرته فوعده بالترضية التامة وبأن يقدم مثيري ذلك الهياج إليه في أقرب وقت »

ولقد هزأت في أول الأمر من وعيد الأتراك وتهديدهم معتمداً على ما لوالدي من المكانة في المدينة وجعلت أشمخ بأنفي كبراً ، ولكن الحاكم كان يتوقع الطرد من وظيفته إذا بلغ الخبر إلى طهران . ولم يكن يهمه أن يكون عليّ عليه السلام خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو يكون الخليفة أبا بكر أو عمر أو عثمان فأمر بالقبض عليّ وعلى اثنين من رفاقي وجيء بنا أمام الأتراك الحانقين

وإن نسيت فلن أنسى ما كان يجول بنفسي من الخواطر والمؤثرات حينما أصبحت وجهاً لوجه أمام هؤلاء الذين يملئ صدري بالحقد والموجدة عليهم، ولم يلذ لي على كل حال وقع السياط التي أخذوا يعذبونني بها ولكنني تأوهت وتألمت وكاد صدري ينفجر من الغيظ والاحتقار.

كان هؤلاء العثمانيون على أتم الاستعداد لاجابتنا على كرهنا بكرم وسخاء ولم يدعوا الفرصة تمر دون أن يظهروا لنا هذه العاطفة . لكن ذلك لم يمنع أنني جلدت وأصحابي حتى ورمت قدماي ، وكان عزاؤنا الوحيد أن عاطفة الكره كانت تزداد وتتقد في صدورنا وبذلك رضي الرجل التركي وأطلق سراحنا. وقد أخمدت هذه الحادثة حميتي بضعة أعوام بالرغم من أن تعاليم أبي كانت لا تزال تنمو بنفسي

فلما بلغت الخامسة والعشرين وظهرت لي لحية جميلة ذهبت إلى أصفهان راغباً في تهذيب نفسي ورياضتها بمصاحبة العلماء ، ولكي أزيد علمي بالمجادلة والمناظرة . وقد تحقق معظم رغائبي في أصفهان ونلت شهرة وصيتاً لا بأس بهما ولم يكن ينقصني غير فرصة واحدة توجهني وجهة خاصة . ولم تلبث الفرصة أن حانت كما يظهر مما يلي :

« أقام الفرنجة في أصفهان من زمن غير بعيد دوراً للتجارة ؛ وقد كان الشاه يحميهم ويقدم لهم المساعدات فأباح لهم العبادة ، وإقامة الكنائس وإحضار القسس لها . وأشد من ذلك وأدعى لهدم الدين أنه سمح لهم بدق الأجراس دعوة للصلاة . وكان لهؤلاء الفرنجة رئيس عظيم كالخليفة عندنا يلقبونه بالبابا . ومن وظيفة هذا البابا نشر الدعوة الدينية في أنحاء المسكونة . ولذلك أقام بعض «دراويشه» وقسسه في أصفهان نفسها وفي «جولفا» بين الأرمنيين ، وبنى أديرة . وقد هجرت معظم الأديرة وأهملت بفضل ما أبديناه من الكراهية لها ، غير أن واحداً منها وظيفته بث التعاليم المسيحية ظل قائماً فأخذت على عاتقي مع بعض المشايخ

التحمسين أن نقوم بتخريبه غير مبالين بآراء الحكومة التى كانت ترحب بالمسيحيين لعملهم على زيادة ثروة البلاد بمتاجرهم . وقد خدم ذلك الدير درويشان كان أحدهما ذا خبرة واسعة بالعالم داهية لا يقاس به إبليس فى مكره وخبثه .

وكان طويل القامة نحيفاً قوى البنية حسن الهندام له عينان تبرقان بريقاً عجيباً وصوت يشبه صوت الرعد لا تفوته فرصة فى مناقشة أعظم علمائنا وأغزرهم معرفة فى مسائل الدين . وكان لا يجبن عن التصريح بأن نبينا العظيم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم كان رئيساً لطائفة من البشر فحسب . بل كان يقول بقلب لا يهاب الموت إنه كان ساحراً وبالاختصار كان ذلك الدرويش الخبيث يسبح فى بحر من الضلالات ولم يكتف بالكلام بل ألف كتاباً جمل يقيم فيه الحجج على دعواه الباطلة وآرائه الجنونية ، وعهد لسوء الحظ بالرد على ما جاء بذلك الكتاب إلى عالم من علمائنا لم يكن لديه مقدرة كافية على ذلك فأخرج كتاباً لا يقنع ولا يطفىء غلة ولا يروي ظماً . بل أساء إلى الاسلام بدل أن يعمل على إظهار فضله وعلى تبيان حكمته وعظمته

وكانت أصفهان تموج بهذه الأخبار حين وصلت إليها فعرضت على القوم أن يرسلوا دعوة إلى الدرويش الفرنجى لمقابلة مشايخ البلدة وجهاً لوجه فى يوم معين فى المدرسة الجديدة للمناقشة فى الدين فإما أن يسلم هو بالحجة والبرهان ، وإما أن يتنصر المشائخ إذا انتصر هو عليهم — عرضت ذلك الأمر لأننى كنت أتميز شوقاً إلى إظهار مواهبي وبلوغ ما أستحقه من الرفعة وعلو الشأن

وقد قبل الدعوة ذلك الدرويش حال وصولها إليه وكنا قد اعتزمنا فيما بين أنفسنا أنه يجب اقتلاع الشوكة من جانب الاسلام وألا ندع هذا البلاء فى إيران وأن ديننا يجب أن يظل سائداً ومعتقداتنا صحيحة وألا نترك للألفاظ الجوفاء والأصوات المنكرة سبيلاً للحط من إيماننا . ولا يكون ذلك إلا بالتكاتف والتعاضد

وعلى الأثر أرسلنا دعوة سرية إلى كل معمم وكل ملتح للحضور فى اليوم المعين فكان اجتماعهم لا نظير له يشعر بالقوة التى لا تقاوم والعزم الذي لا يناضل

وامتلأت المدرسة بالحضور من المشايخ وغيرهم ممن حضر من الأهالى لرؤية المنتصر من الفريقين فغصت رحباتها بهم، فكنت ترى عمامة تتلوها عمامة فى صفوف متكاتفة ورؤوساً تلو رؤوس فى جموع متراصة . وقد جاء الدرويش الفرنجى بمفرده لا مساعد له ولا رفيق معه وأخذ ينظر إلى هذه الجموع بوجل وظهر عليه التأثر منها

وقد انتخب شيخان أو ثلاثة للمناظرة التى ستحدث وكنت أنا على رأسهم وأجلسنا فى صدر المكان وكنا قد أعددنا أسئلة ليجيب عليها الدرويش. وعلى مقتضى إجابته يكون تصرفنا

أما هو فقد ظهر أنه لم يتسلح بغير لسانه وجلس أمامنا وعليه مظاهر الخوف الشديد مما رآه على وجوه الحاضرين من علائم العداوة والكره الشديدين . وقبل أن نترك له سبيلا إلى التأمل بدأنا فى أسئلتنا

قالَ واحد منا : « هل تعتقد أن الله جل شأنه تشكل بشكل آدمى ؟ »

وقال آخر : « وهل تعتقد أن الله ثلاثة فى فرد ؟ »

وقال ثالث : « هل أنت مقتنع بأن ما سميتموه بالروح القدس نزل على الأرض فى صورة يمامة ؟ »

وقد ألقيتْ عليه هذه الأسئلة متوالية وبسرعة فلم يعرف على أيها يرد حتى استجمع كل قواه ورباطة جأشه وأجاب :

إذا كان غرضكم قتلى فافعلوا ما تشاءون ولكن لن يفيدكم قتلى شيئاً . وأما إذا كان غرضكم المناظرة فان مهاجمتى بهذه الجموع للتأثير فى نفسى ليدل على وضعكم العاطفة فى موضع الدليل والبرهان، وسيعلم العالم أنى قهرتكم جميعاً »

ولما رأيت أن قوله ذو أثر على سامعيه وأننا قد نفشل فى غرضنا صرخت فى الحاضرين قائلا : « أيها المسلمون ! أيها المسلمون ! إن ديننا أمين ! إن الكافر يريد تغيير عقائدنا ! الانتقام ! الانتقام »

وكان لكلماتى أثرها السريع ، فارتفع ألف صوت . قال بعضها : « اقبضوا عليه ! » وصرخ الآخرون : « اقتلوه » وتلاطمت الجموع كالبحر الزاخر فحاول الدرويش أن يجد له مهرباً حين رأى الخطر محدقاً به . وقد ساعده شيخ أخذته به رأفة إذ خلع عباءته وألقاها على كتفى الدرويش »

وفى الوقت الذى كادت تصل فيه أيدى الثوار إليه تسرب من وسط الجماهير وتمكن من الخروج والوصول إلى منزل أحد الأرمنيين فى أمان

وقد تغيظنا نحن المشايخ من إفلات الفريسة فسرنا فى جمعنا إلى منزل الحاكم يتبعنا عدد لا يحصى من الأهالى . وقد أحدثنا هياجاً عظيما

وكان الحاكم رجلا مسلماً متديناً فأملنا أن ينضم إلينا من غير تردد . وقد اتهمنا الدرويش بابتداع عقيدة فاسدة ونشرها ومحاولة إفساد عقائدنا وقلنا للحاكم : « إن الرجل يسب نبينا ويرميه بالخداع والكذب فنطلب تسليمه إلينا »

وقد ارتبك الحاكم فيما يجب عمله لأنه يعلم الخطر الذي ينجم عن تدخله فى شئون الأوربيين ، ومن جهة أخرى فانه لم يكن يقدر أن يرد عنا أو يثنينا عن غرضنا بالقوة فقال لنا : « لماذا دعوتم الدرويش إلى مجادلتكم إن كنتم لا تودون الاستماع إلى أقواله ؟ إن لم يكن عندكم ما تجادلونه به فان القوة لا تنفعكم، بل الأمر على النقيض إذ أنها تضر الدين، ولكن إذا كان لديكم من الحجج والأدلة فوق ما لديه ولم يستطع الاجابة على أسئلتكم فانه يكون كافراً زنديقاً ويجب قتله فى شرعنا

فلما وجدنا أننا فشلنا ثانية رجعنا والرغبة فى الانتقام تغلى فى صدورنا . وإننى أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أنه لو صادفنا الدرويش فى تلك اللحظة لمزقنا جسمه إرباً ولقطعنا بدنه تقطيعاً . ولكنه كان يحذرنا . وسمعنا بعدئذ أنه ترك المدينة سراً . وبذلك تم لنا ما حاولنا إذ مضى زمن طويل قبل أن نرى وجهه فى المدينة، ولقد نبه شأنى فى هذه المسألة وظهرت حميتى وحماستى فى الدين فى ظروف أخرى حتى لقد صرت ممن يشار إليهم بالبنان . ولكننى لم أربح من كل ذلك شيئاً فشعرت أن خير ما أفعل هو أن أبحث

عن مكان أعثر فيه على مركز يسد أطماعي . وفعلا غيرت وجهتي إلى هذا السبيل فذهبت إلى « قسم » وفي نيتي أن أستميل المجتهد ميرزا أبي القاسم وهو رجل تفيدني شهرته فوق ما تفيدني صلاة عشرة أعوام وصومها ، وقد نجحت كل النجاح فان الشهرة التي كسبتها من كراهة المنافقين والسعي في أذاهم جعلت المجتهد يستقبلني بالبشر والايناس ويجعلني من أحب تلاميذه إليه ، وقد أخذت عنه مبادئه ضد الصوفية وعملت بها بحمية لم يكن يقدرها فلم يمض زمن طويل حتى التمست منه أن يوصي بي لدى مجلس العلماء في طهران ولدى رجال الدولة الرسميين ، فأظهر أسفه لفراق ولكنه قبل طلبي وبعد ذلك بقليل عينت عضواً في مجلس العلماء . وأعترف أني لم أكن سعيد الحظ في المجلس كما كنت أنتظر على الرغم من أني لست أقل من الباقين قيمة » .

وكان منافسي في التقدم كثيرون وقد تدرجوا في شئون الحياة أكثر مما تدرجت . وحاكيتهم في تعظيم رجال الحكومة وتوقيرهم . وأبيح لي الجلوس في مجلس الحكم العالي وبذلك صرت ممن يحظون برعاية رئيس الوزراء وكبير الأمناء ورئيس الجلادين وغيرهم فكنت أظهر في مجالسهم ومجتمعاتهم ، ولكنني لم أكن مع ذلك إلا شيخاً فقيراً . وقد انتظرت فرصة سانحة أدخل بها إلى بيت المال وشملني رئيس الوزراء بنظره في بادئ الأمر لأني كنت أبكيته في حفلة لذكرى مقتل الحسين رضي الله عنه وكان قد أقام تلك الحفلة في قصره وجعلت أنشد فيها وأذكر بحالة أثرت فيه وفي جميع الموجودين ، ومن تلك اللحظة بدأ يرتفع شأني وخاصة في عين الشعب . وعددت رضاء الشعب أول ما يطلبه الرجل الطموح . ولكنك عرفت ماهي مساعدة الشعب إذا تعارضت مع إرادة ملك مستبد فانني أضعت نفسي لأني اعتمدت على نفوذي في ذلك الشعب وأنا اليوم كما تراني بائس أريد العودة إلى بلدي الأولى كما خرجت منها لا أملك شروى نقير »

الفصل الستون

تدابير حاجي بابا والملا نادان

عندما فرغ الملا نادان من سرد قصته اجتهدت في إقناعه بأن الارادة التي خدمته في الجزء الأول من حياته والتي قضت بخيبته وفشله بعد ذلك ستخدمه بلا شك فتعينه حتى يسترجع مكانته وقلت له : « لقد رأينا كلانا الأمور في إيران كثيرة الانقلاب لا تظل على حالة واحدة ، وما دامت الحوادث تتوقف على إرادة رجل واحد فقد يأمر باحضارك كما أمر بابعادك ، وإن للمصائب رد فعل يبدلها مسرة ونجاحاً . ألم تر الحداد كيف يخمد لهيب تنوره المتوقد ويحل الدخان محل اللهب إذا هو ألقى عليه شيئاً من الماء فيظهر كأنه خبا . ولكن أقل حركة في المنفاخ تعيد النار إلى الظهور أعظم حرارة مما كانت وأكثر اتقاداً »

فأجاب رفيقي : « هذا ما كنت أفكر فيه وأعزي نفسي به حين صادفتني في الطريق أغنى ، فان الشاه قد يكون – مرضاة للتجار المسيحيين واستمالة لهم – قد تظاهر باقامة العدل وأداء الواجب فعاقبني ولكنه في سريرة نفسه يقدرني ويعتزم إنصافي وإنصاف رافعي لواء الدين وعندئذ تتجه فكرته إلى محبة الشعب

وتقديره إياى . ثم إن لدى فكرة أخرى وهى أننى أرغب فى خلع بردة المشائخ والعلماء وأن أكون تاجراً ولكننى سأتابع خطتى السابقة وأعتمد على الحظ

ولدى فرصة للظهور بمظهر الشهيد وذلك أجدى على من كل ما أملك حتى جوادى ومنقولاتى وحمارى الأبيض وكل شىء حتى المطلقات

فقلت له : « إذن ماذا اعتزمت صنعه ؟ هل فى نيتك أن تصاحبنى إلى بغداد أو تبقى فى إيران ترقباً للحوادث وانتظاراً للفرص ؟ »

فقال : « من رأيى أن أواصل سيرى إلى همذان بلدتى الأصلية حيث أجد والدى الذى لا يزال حياً محترماً موقراً فأحاول بوساطته دخول العاصمة ثانية واسترجاع مركزى الذى سلب منى . وأما أنت فأى طريق تسلك ؟ إننى سأحتاج إن شاء الله حين أسترجع مافقدت إلى خبرتك وذكائك لكى نستأنف مشروع المطلقات . فالأولى لك أن تبقى فى همذان معى وأن تتبعنى فيما أرسمه من سبل العيش »

فأجبته : « إننى يا صاحبى بكل ما يبدو على من مظاهر الثراء والنعمة أشد منك تعاسة وأكثر شقاء، فان الحوادث توالت على غير ما أحب وأنت ترانى اليوم قد صرت لصاً . ويعلم الله أن ذلك على غير رغبتى وسأتم السير فى الطريق الذى رسمه لى القدر الذى ألبسنى لباس شيخ العلماء وأغنانى بماله وأركبنى جواد الحاكم، هذا القدر يا صاحبى يدعونى إلى مغادرة الوطن إذ لا أستطيع البقاء به فأكون عرضة لمعرفة أمرى وقتلى والتمثيل بى على أبواب المدينة . كلا

يا عزيزى لست أرغب فى البقاء ولن أشعر بالأمن إلا إذ وصلت إلى الحدود التركية . وأرجو أن أصل إليها بعد بضعة أيام »

وعرضت عليه بعد ذلك جزءاً مما سلبته لأمنع عن نفسى غائلة لسانه وليكتم سرى وقد قبل منى عشرة طومانات وترك لى خمسة وتسعين ، وقال : إن ما أخذه يكفى . ووعد برده عند الميسرة

ولكنه بعد أن أخذ عشرة الطومانات رجا ثانياً أن أصحبه إلى همذان وأخذ يبين لى الخطر الذى ينجم عن القبض علىّ قبل أن أفارق بلاد الشاه . وقال : « فى اللحظة التى يشيع فيها قتل الملا باشى والتى يعلم فيها الحاكم بضياع جواده سيرسل الخبر خلفك للبحث عنك والقبض عليك ولك من شخصيتك ما يسهل عليهم هذه المهمة ، فالأفضل أن تختبئ عندى ريثما ينقضى أمر هذه الحادثة وبعد ذلك تستطيع أن تواصل سيرك فى أمان وسنجتهد فى تضليل من يسأل عنك . وإن لوالدى ضيعة سنقيم بها بلا خوف ونجعل جوادك ومتاعك فى مكان لا يثير الشبهة . وهمذان ليست بعيدة فاننا إن بدأنا السير فى منتصف الليل وصلنا إليها فى الصباح ، وفى استطاعتنا أن نفعل ذلك بأن نركب جوادك سوياً . وتذكر يا صديقى أن الحدود التركية بعيدة ولو عجز جوادك عن إيصالك كان هذا أدعى إلى القبض عليك »

وقد أثرت كلماته هذه فى أفكارى إذ كان ينطق عن صواب . وكنت أجهل تمام الجهل هذه الناحية من إيران وأدركت أنه لا يكفى أن ألم بالطرق الجبلية بل يجب أن أعرف طرقاً غير مطروقة وقد أدركت

أن رحيلا عاجلا إلى الحدود ليس من السهولة بالدرجة التي كنت أتصورها . ولئن كان فى عزم الملا خيانتى فان ذلك ميسور له هربت أم بقيت فانبعث مشورته؛ وقد ظهر لى أن أسلم الرأيين هو أن أثق بالملا ولا أسيء به الظن فقبلت أن أذهب معه . وفى منتصف الليل رحلنا وقد استرجع الغذاء والراحة ما ضاع من قوانا فصرنا على مقربة من همذان قبل بزوغ الشمس، ثم علونا ربوة تشرف على المدينة لنتدبر موقفنا ونفكر فيما يجب عمله فأشار نادان بأصبعه إلى قرية على مسافة فرسخ وقال : « هذه هي القرية التي يجب أن نقيم فيها حتى ينسى الناس مقتل شيخ العلماء . ولكنك لا تستطيع دخول القرية بهذه الجبة الأنيقة وعلى مثل هذا الجواد الكريم من غير أن تثير الشبهة وتوقظ الظنون . والرأى عندى أن نتبادل ملابسنا وأن تعطيني جوادك وبهذه الوسيلة تظهر فى القرية كأنك من أتباع والدى وأحتفظ أنا بشخصيتى إذ أرجع إلى دار أبى فى زي أنيق وثياب فاخرة . وبهذا الترتيب نضمن غرضنا ونخدم مصلحتنا المشتركة فتنجو أنت من شر إثارة الشبهات وأنجو أنا من شر زيى المزرى . وفوق ذلك فان قصتى المخجلة لا تلبث أن يسمع بها أفراد عائلتى فتكون مدعاة إلى خجلهم والحط من قدرهم؛ غير أنى أعرف عن هذه البلاد أنها لا تأبه إلا للمظاهر الخارجية ، فمتى رآني أهلها أرجع إليهم راكباً جواداً كريماً وفي يدى لجام مذهب وتحتى سرج موشى وفى حزامى شال من كشمير فان منزلة عائلتى ومنزلتى تبقيان كما هما . وبعد أن أستعمل هـذه الأشياء بضعة أيام فلن أعدم الوسيلة لبيعها بثمن مناسب وأدفع الثمن إليك »

أزعجنى هـذا الاقتراح الذى أبداه الملا لأنى أيقنت أن وراء ما يطلبه من الثقة به لأودع عنده حاجاتى غرضاً آخر غير ما عبرت عنه ألفاظه ، ولكننى أحسست فى نفس الوقت صدق ما قال إذ من المستحيل أن أظل فى القرية عشرة أيام أو أسبوعين بملابسي الفاخرة وجوادى الكريم دون أن أثير ظنون القوم فأدركت أننى أصبحت حقاً فى قبضة الملا غير أن فى السير على ما رسمه الملا اشتراكا له فى الجريمة إذ يصبح من المستحيل عليه أن يخوننى دون أن يوقع نفسه معى . ولكن تصور أن نازا كشياً استدل على الجواد فأى مصير يكون مصيرنا ؟ إنهم يقبضون علينا سوياً

فأجابنى الملا : « دع أمورك لله فهو قادر ، وفوق ذلك فاننا سرنا بسرعة عظيمة ، وقبل أن يصل أى ضابط إلى همذان سأكون قد وصلت إلى دار أبي وأحدثت ما أردت من تأثير . وسيكون من السهل علي إذن أن أخفى الجواد بما عليه وأنا المسئول عما يحدث »

لم أجد ما أقوله بعد ذلك فخلعنا ملابسنا وتبادلناها فأخذ هو قفطان الملا باشى وجبته وحزامه الكشمير وعباءته المصنوعة من الجوخ الأزرق وأخذت أنا ملابسه القديمة التي تمزقت على بدنه يوم طرده من طهران . وكذلك أعطيته عمامتى وقد لففت عليها شال الملا باشى الذى لا أزال محتفظاً به ، وأخذت منه عمامته ولم أستبق معى غير كيس النقود

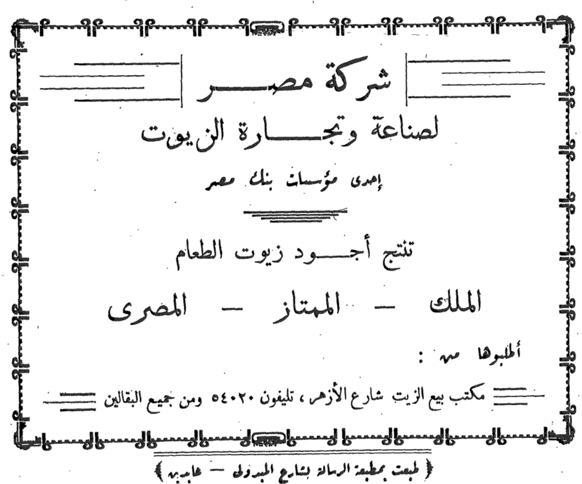
الذى وجدته في ثياب اللا باشي وساعته وخاتمه وما بقى من المال . وسمحت للملا نادان باستعمال الدواة والمرآة والمشط ، ووضع اللا نادان بعد ذلك لفائف الورق فى حزامه واعتدل وامتطى صهوة الجواد فظهر فى شكل اللا باشي نفسه حتى لقد دهشت من شدة الشبه بينهما

وافترقنا على أحسن حال من الود ووعدنى بأن يوافينى بأخباره فى القريب وأعلمنى بكل ما يتعلق بقرية والده تاركا لفطنتي وذكائى أن أخترع قصة تناسبنى والوساوس تساورنى من وحدتى فى هذا العالم وعدم وثوق بما يأتى به الغد وشكوكي فى حالتى الحاضرة

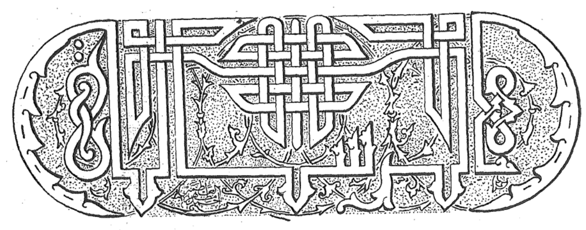
سرت إلى القرية مرتبكا أتساءل كيف أقدم نفسي إلى سكانها وقد كنت فى الحقيقة كمن هبط من السماء إذ كيف يستقبل زجل حسن الطلعة من غير حزام ولا عباءة تستر ظهره وفى قدمه خف وعلى رأسه عمامة ممزقة ؟

وبعد تردد طويل عزمت على أن أدعى أنى تاجر وأن أزعم أن جماعة الكرد هجموا على ونهبوا ما كان معى ثم أتظاهر بمرض يدعو إلى إقامتى بالقرية حتى يبعث اللا إلى بخبر يجعلنى قادراً على تحديد مدة الاقامة فى بخبئ . ولقد نجحت فى كل ذلك نجاحاً تاماً فان الله كان قد وهب أهل القريه — لحسن حظى — نصيباً وافراً من الغباء وسقم الفهم ، فصدقوا روايتي وقبلونى بينهم ، ولم أجد منفصاً غير اضطرارى إلى تجريع ما كانت تصفه لى من الدواء امرأة عجوز أحضرها القوم لمعالجتى وهى طبيبة القرية

(يتبع) عبد اللطيف النشار



(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)


الرسالة



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ ف مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٣ — ١١ صفر سنة ١٣٥٧ — أول إبريل سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد

يقظة المومياء

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

أجد حرجاً كبيراً فى رواية هذه القصة ، لأن بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعاً ؛ ولو كان مردها إلى الخيال ما تحرجت ولكنها وقعت فى عالم الحقيقة ، وكان ضحيتها رجل من رجال مصر الأفذاذ المعروفين فى الأوساط السياسية والارستقراطية ، وراويتها الذى أنقل عنه أستاذ كبير بالجامعة ، لا يجوز أن يرتقى الشك إلى عقله أو خلقه ، ولم يعرف عنه قط ميل إلى الأوهام والخرافات ، ولكنى — والحق يقال — لا أدرى كيف أصدقها فضلا عن أن أحمل الآخرين على تصديقها؟ وليس ذلك لندرة المعجزات في عصرنا ، فما لاجدال فيه أن عصرنا عصر المعجزات والخوارق ، ولكن العقلاء فى أيامنا هذه لايقبلون أمراً بغير تعليل ، كما أنه لا يستعصى شىء على إيمانهم مع التعليل المعقول . وإنى حيال قصة عجيبة لها من دواعى التصديق راوية حكيم وشواهد ملموسة ، ولكن التعليل العلمى ما يزال يتأبى عليها ، فهلا أعذر على شعورى بالحرج فى تقديمها ؟

ومهما يكن من أمر فاليك ما رواه جناب البروفسير دريان « أستاذ الآثار المصرية القديمة » بجامعة فؤاد الأول ، قال : فى ذلك اليوم الأسيف الذى خفق فيه قلب مصر خفقة الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المغفور له محمود باشا الأرنؤوطى فى قصره العظيم بصعيد مصر ، وأذكر أننى وجدت عنده جماعة من الأصدقاء الذين كانوا يترددون عليه كلما أسعدتهم الظروف ، منهم المسيو سارو ناظر مدرسة الفنون الجميلة العليا ، والدكتور بيير طبيب الأمراض العقلية ، واحتوانا جميعاً (صالونه) الأنيق البديع الحافل بآيات الفن الجميل من لوحات وتماثيل كأنها احتشدت فى تلك البقعة المتيقة لتؤدى تحية العبقرية الحديثة إلى ذكرى عبقرية الفراعين الخالدة الثاوية تحت أطلال الوادى ، يتوهج نورها خلل ظلمات السنين مثل سنا النجوم المتألقة فى السماء السارى فى تضاعيف الليل البهيم ...

وكان المغفور له من أغنى أغنياء المصريين وأوسعهم ثقافة وأسماهم خلقا ، وقد قال عنه مرة صديقنا الأستاذ لامبير إنه ثلاث شخصيات تقمصت رجلا ، فهو تركى الجنس مصرى الوطن فرنسى القلب والعقل ، فأدى تعريفه أتم أداء . والحق أنه كان أكبر صديق لفرنسا فى الشرق ، وكان يعدها وطنه الثانى ، وكانت أسعد أيامه تلك التى يعيشها تحت سمائها ، واتخذ أصدقاءه جميعاً من أبنائها سواء منهم من يعيش على ضفاف النيل أو فى جنات السين . وكنت أخال نفسى وأنا فى (صالونه) أنى انتقلت فجأة إلى قلب باريس ، فالأثاث فرنسى والجالسون فرنسيون ولغة الكلام فرنسية والطعام فرنسى ، وإن كثيراً من الفرنسيين المثقفين لا يعرفونه إلا كهاو فذ من

هواة الفنون الجميلة أو كشاعر يقرض الشعر الوجداني الجميل بالفرنسية ، أما أنا فقد عرفته — إلى هذا — محباً لفرنسا متعصباً لثقافتها وداعية لسياستها . . .

أخذت مجلسي في ذلك اليوم إلى جانب الباشا وكان المسيو سارو يقول وهو يتأمل بعينيه الواسعتين الجاحظتين تمثالا نصفياً برنزياً لإنشتين :

— إن قصرك هذا يا صاحب السعادة يحتاج إلى تغيير طفيف لكي يصير متحفاً كاملا

وقال الدكتور بيير مؤمناً على كلامه وهو يتخلل لحيته بأنامله :

— صدقت فهو معرض دائم لجميع العبقريات والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفنانين الفرنسيين

فقال الباشا :

— الفضل في ذلك يرجع إلى ذوق المعتدل الذي يساوي بين النزعات المختلفة ويعدل بين أهواء المدارس ، ويهوى تذوق الجمال سواء أكان بديعه براكستيلس أو رافائيل أو سيزان . مع استثناء البدع الحديثة المتطرفة ...

فقلت ، ناظرا بطرف خفي إلى المسيو سارو وكان يحلو لي دائماً أن أداعبه :

— لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هذا الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا ...

فضحك المسيو سارو وقال موجهاً الخطاب إلي :

— بل لعلها تستغني عن ناظر المدرسة الفرنسي أيضاً ...

ولكن الباشا قال جادا :

— إطمئن يا عزيزي سارو ، فانه إذا قدر على هذا المتحف أن يترك الصعيد فسيتخذ طريقه رأساً إلى باريس

فنظرنا إليه جميعاً نظرة استفهام ودهشة وكأننا لا نصدق آذاننا ، فالواقع أن مجموعة الباشا الفنية كانت تقدر بعشات الألوف من الجنيهات وقد تسربت جميعها إلى جيوب الفرنسيين ، فكان غريباً أن يفكر في إهدائها إلى فرنسا ؟ وكان يحق لنا أن نفرح ونبتهج ولكني لم أتمالك من أن أسأله متعجباً :

— أحقاً ما تقول يا أكسلنس ؟

فقال الباشا بهدوء :

— نعم يا صديقي دريان ... ولم لا ... ؟

فقال المسيو سارو :

— يا له من حظ سعيد حقيق باغتباطنا نحو الفرنسيين ، ولكني أقول لسعادتك مخلصاً إني أخشى أن يسبب لك متاعب كثيرة ...

وقلت للباشا مؤمناً على رأي المسيو سارو :

— نعم يا باشا هذا ما أعتقده أنا أيضاً

فردد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحت فيهما نظرة ساخرة وسألنا متجاهلاً :

— ولم ... ؟

فقلت بلا تردد :

— ستجد الصحافة في ذلك موضوعاً أي موضوع !

وقال الدكتور بيير :

— وما من شك في أن الصحافة الوطنية عدو لك قديم ... وهل نسيت يا صاحب المعالي حملاتها المغرضة عليك واتهاماتها إياك بأنك تبعثر أموال الفلاح في فرنسا بلا حساب ؟!

فصاح الباشا بانكار :

— أموال الفلاح !

فبادر الدكتور يقول معتذراً :

— معذرة يا باشا ... هذا قولهم !

فهز سعادته منكبيه استهانة وزم شفتيه احتقاراً وقال وهو يثبت نظارته الذهبية على عينيه :

— أنا لا آبه لهذه الأصوات المنكرة الوضيعة ، وما دام ضميرى الفنى لا يرتاح لابقاء هذه الآيات وسط هذا الشعب الحيوانى فلن تقبر هنا أبداً

وكنت أعرف رأى صديقى الباشا عن المصريين واحتقاره لهم. ومما يحكى فى هذا الصدد أنه تقدم له منذ عام طبيب مصرى نابغة حاصل على رتبة البكوية طالباً يد ابنته فطرده شر طرد لأنه فلاح ابن فلاح. على أنى — مع موافقتى على كثير من التهم التى يكيلها الباشا لبنى وطنه — لم أكن أتبعه فى رأيه إلى النهاية ، ولذا قلت له : سعادتك شديد النقد

فقهقه الباشا ضاحكا وقال :

— أنت يا عزيزى دريان زجل وهبت حياتك الثمينة للماضى البعيد ، وربما لاحت لك فى غياهبه لمع عبقرية خلقها القدماء لا تفتأ توقظ عطفك وحنينك على أحفادهم ولكن شتان ما بين الفراعين والفلاحين ، لا يجوز أن تنسى يا صديقى أن المصريين شعب فول ...

فضحكت وقلت له :

— عفواً يا صاحب السعادة ، ألا تعلم أن السير ما كنزى أستاذ آداب اللغة الانجليزية بكلية الآداب صرح أخيراً بأنه أصبح يفضل الفول على البودنج ؟

فضحك الباشا ، وضحك الحاضرون جميعاً وقال سعادته :

— أنت تفهم ما أعنى ولكنك تحب المزاح ، المصريون حيوانات أليفة طبعها الذل ، وخلقها التذلل ، وقد عاشوا عبيداً على فتات موائد الحاكمين منذ آلاف السنين ، ومثل هؤلاء لا يحق لهم أن يأسفوا على إهداء هذا التحف إلى باريس ...

فقال المسيو سارو :

— نحن لا نتكلم عما يحق أو لا يحق ، ولكن عن الواقع والواقع أنهم سيأسفون (ثم قال بلهجة ذات مغزى) وستأسف معهم صحافتهم ... »

ولكن لم يبد على الباشا أدنى اكتراث ، وكان بطبعه يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف المفتعلة ، وربما كان لأصله التركي دخل كبير فى تشبثه بآرائه وعناده واحتقاره للمصريين . ولم نرد أن نسترسل فى ذاك الحديث فأغلق بلباقته النادرة بابه ، وانشغلنا ساعة باحتساء القهوة الفرنسية اللذيذة التى لم أذق مثلها فى مصر ، ثم نظر الباشا إلى باهتمام وقال :

— ألا تعلم يا مسيو دريان أنى بدأت أنافسك فى اكتشاف الكنوز ؟

فنظرت إليه مستفهماً وسألته :

— ماذا تعنى يا أكسلنس ؟

فضحك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر من نافذة الصالون

— على بعد أذرع منا تجرى عملية حفر جليلة الشأن فى حديقة قصرى !

فبدا علينا الاهتمام جميعاً ، وتوقعت سماع خبر مثير ، وكان لكلمة حفر تأثير خاص فى نفسى ، لأنى قضيت شطراً كبيراً من عمرى — قبل أن أشتغل فى الجامعة — أحفر وأنقب فى أرض مصر الغنية الساحرة

وقال الباشا وهو ما يزال يبتسم :

— أرجو ألا تسخروا منى يا سادة ، فقد فمات

ما كان يفعله الملوك الأقدمون مع السحرة والمشعوذين ولا أدرى كيف رضخت وأذعنت ؛ ولكن لا داعى للأسف فقليل من الخرافة يرح العقل المكلف بالحقائق والعلوم. ومجمل الحكاية أنه جاء قصرى منذ يومين رجل معروف فى هذا البلد يدعى الشيخ جاد الله ، يحترمه العامة ويقدسونه ، وكم ذا بمصر من القدسين ، وألح فى طلبى وأذنت له وأنا أعجب لشأنه ، وحيانى الرجل على طريقته وبشرنى بأنه استدل بعلمه الروحانى وبكتبه القديمة على وجود كنز ثمين فى باطن حديقتى ، وطلب إلى بتوسل أن آذن له فى الكشف عنه تحت إشرافى ، ومنانى بالذهب واللآلئ فى مقابل أن أعده بالحلوان ، وضقت به وهممت بطرده ولكنه ضرع إلى وتوسل حتى استعبر وقال لى: لا تهزأ بعلم الله ولا تستهن بعباده المقربين. فضحكت طويلا ، ثم خطر لى خاطر سريع فقلت لنفسى لماذا لا أجارى الرجل فى وهمه وأسايره على اعتقاده ؟ ! لن أخسر شيئاً وسأفوز حتما بنوع من التسلية ، وقد فعلت يا أصدقائى ، وأذنت للرجل ، وأنا أتظاهر بالجد ، وها هو ذا يحفر فى حديقتى ويعاونه فى عمله الشاق اثنان من خدمي المؤمنين ، فما رأيكم ؟

قال ذلك الباشا وضحك عالياً، فضحك الجميع ، أما أنا فكرت بى الذاكرة إلى الماضى إلى حادثة مشابهة فقلت : « طبيعى أنكم لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد الله ، ولا أنا أستطيع أن أومن به واأسفاه ، ولكنى لا أستطيع كذلك أن أنسى أنى اكتشفت قبر الكاهن قمنا بفضل خرافة كهذه ! »

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألنى الباشا :

— أحقاً ما تقول يا سيدى الأستاذ ؟

فقلت :

— نعم يا باشا ، لقد دلنى يوماً شيخ مثل الشيخ جاد الله على بقعة من الأرض فى وادى الملوك وقال لى : إنه استدل بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها ، فضربنا فيها بمعاولنا ولم نلبث أياماً حتى اكتشفنا مقبرة قمنا ... وهذا ولا شك من عبقريات المصادفات

فضحك الدكتور بيير وقال متهكما :

— ولماذا تعلل ذلك بالمصادفات فتجحد فضل العلم القديم ؟ ... ألا يجوز أن الفراعنة يورثون أحفادهم أسرارهم الخفيـة كما يورثونهم سحنتهم وكثيراً من تقاليدهم ؟

ومضينا نتفكه بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره أحاديث كثيرة ، ومضى الوقت لذيذاً ممتعاً ، وعند الأصيل استأذن الضيوف فى الانصراف ، وأما أنا فأعلنت عن رغبتى فى مشاهدة عملية الحفر التى يجريها الشيخ جاد الله ، وغادرنا جميعاً الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى الباب الخارجى لتوديع الأصدقاء ، ولم نكد نقطع خطوات حتى وصلت إلى مسامعنا ضجة عظيمة واعترضت طريقنا جماعة من الخدم رأيناهم يمسكون بتلابيب صعيدى ويوسعونه ضرباً ولكما ، ثم ساقوه بشدة إلى سعادة الباشا وقال له أحدهم :

— يا صاحب السعادة ضبطنا هذا اللص وهو يسرق طعام بيميش

وكنت أعرف بيميش حق المعرفة ، فهو كلب الباشا العزيز وآثر مخلوقات الله بقلبه بعد زوجه وأولاده ، وهو يعيش فى قصر الباشا منعما مكرماً ، يقوم على خدمته خدم وحشم ، ويكشف عليه طبيب

بيطرى مرة كل شهر ، ويقدم له كل يوم لحم وعظام ولبن وثريد ، ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصمايدة على غذاء بيميش ... وكان السارق صعيدياً قحاً ، يتميز بالسحنة المصرية المتيقة ، ويبدو على هيئته الرثة البؤس والفقر ، وقد حدجه الباشا بنظرة قاسية وقال له بعنف :

— كيف سولت لك نفسك انتهاك حرمة بيتى ؟

فقال الرجل بتوسل وهو يلهث من أثر الجهد الذى بذله فى مقاومة الخدم :

كنت جائعاً يا صاحب السعادة ورأيت اللحم المسلوق مبعثراً على الحشائش فخانتنى قوتى ولم أكن ذقت اللحم منذ عيد الأضحى !

فالتفت الباشا إلىّ وقال هازئاً :

— أرأيت الفرق بين بائسنا وبائسكم ؟ ... إن بائسكم دفعه الجوع إلى سرقة رغيف ، أما بائسنا فالرغيف ليس عسيراً عليه ، ولكنه لا يرضى إلا باللحم المسلوق ....

— ثم التفت مرة أخرى إلى السارق ورفع عصاه وضربه على كتفه بشدة وصاح بالخدم :

— خذوه إلى الخفير ...

وضحك الدكتور بيير وهو يسلم وقال للباشا :

— ماذا تفعل غداً إذا شم الصمايدة رائحة الذهب المكدس فى كنز الشيخ جاد الله ؟

فقال الباشا فوراً :

— سأحيطه بسياج من الخفراء كخط ماجينو .

وعدنا — أنا والباشا — وتبعته صامتاً إلى حيث يشتغل الشيخ جاد الله الذى يوشك أن يصير أثريا عظيما ، وكان الرجل منهمكا فى عمله هو ومعاوناه ، يضربون الأرض بفؤوسهم ويرفعون الأتربة في القاطف ويلقونها جانباً ، وكان الشيخ جادا ، تلمع عيناه ببريق حاد يدل على العزم والأمل ، وتنبعث فى ساعديه النحيلين قوة غير طبيعية ، كأنه يدنو حقاً من هدفه الذى هداه إلى سبيله عمله الالهي ، فتمثل لى فى شخصه العجيب الانسان بنشاطه ، وإيمانه وأوهامه ، والحق أننا نخلق لأنفسنا آلهة وأوهاما ولكنا نؤمن بها إيمانا عجيباً ، فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية فى البداعة والجمال ، ألم يخلق أجداد الشيخ جاد الله — الذى يذكرنى وجهه بتمثال الكاتب المعروف — الحضارة الأولى للانسان ؟ .. ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفى بطنها على السواء ؟... أو لم يستوحوا فى عملهم وتفكيرهم أوزوريس وآمون ؟ ... وما أوزوريس وآمون ؟ .. لا شىء فى الغالب ... أما حضارتهم فكانت شيئاً وأى شىء ... بل هى أم حضارتنا الراهنة ...

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن ، أما الباشا فيبتسم ابتسامة ساخرة ، وأما أنا فأستغرق فى أحلامى ، وكلانا لا يدرى بما يخبئه له القدر تحت آكام ذلك التراب ، وكان العمل يبدو عقيما فتململ الباشا واقترح على أن نجلس فى الفراندا فاتبعته صامتا ، ولكننا لم نكد نصعد السلالم الأولى حتى لحق بنا الشيخ جاد الله عدوا وصاح بفمه الثرم :

« مولاى ... مولاى ... تعال انظر ... »

فالتفتنا إليه بحركة أتوماتيكية ، وكان قلبى يخفق خفقانا غريباً على أثر نداء الشيخ وذكرنى بشبيه له قديم كان يفصل فى حياتى بين الفشل والنجاح واليأس والأمل ، وهبطنا السلم دون إبطاء لأن الرجل كان قد عاد أدراجه ، وتبعناه وكلانا يغالب رغبة فى العدو ...

ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزحون صخرة كبيرة، مساحتها متر مربع على وجه التقريب، فدنونا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة فى مثل اتساعها، فنظرت إلى الباشا، ونظر إلىّ بعينين تنطقان بالدهشة والذهول، ثم نظرنا إلى داخل الفوهة فرأينا سلما قصيرا ينتهى إلى دهليز يتجه إلى الداخل موازيا لسطح الأرض، وكانت الشمس تؤذن بالمغيب فقلت للباشا « إلينا بمصباح » فأرسل الباشا أحد الخادمين لاحضار مصباح، وعاد الرجل بالمصباح فأمرته أن يتقدمنا، ولكنه تردد وانكمش فهممت بأخذه منه، ولكن كان الشيخ جاد الله أسرع منى إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من القرآن وتعاويذ غريبة ثم نزل بقدمين ثابتين فتبعته وتبعنى الخادمان المضطربان ...

ووجدنا أنفسنا فى دهليز مستطيل لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، ويعلو سقفه عن هامتنا بعدة أشبار، وكانت أرضه متربة أما جدرانه فمن الجرانيت وتقدمنا جميعاً في خطوات بطيئة حتى اعترض سبيلنا باب حجرى يأخذ على المقتحمين طريقهم، ولم يكن منظره غريباً على ولا الرموز المحفورة فى وسطه، فجرى بصرى عليها ثم التفت إلى الباشا وقلت بصوت متهدج :

— لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة أثرية ... فها هنا يرقد القائد حوز من عظام الأسرة الثامنة عشرة

ولكن الشيخ جاد الله قال بعنف وغضب :

— بل وراء هذا الباب كنز ... هكذا يقول الكتاب الذى لا يكذب

فهززت كتفى قائلا : « سمه كيف شئت، المهم أن نفتحه ... »

فعاد الشيخ يقول :

— فتح الكنز عمل عسير، فهذا الباب لا يطيع ويرضخ إلا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق فيها حتى مطلع الفجر ... هل أنتم مطهرون ؟

وتأثر بأقواله الخادمان ونظرا إلى مولاهما بارتباك لأنهما اعتقدا أنهما على وشك المثول فى حضرة القوة الخفية، ولم يكن فى الوقت متسع للتطهر والقراءة فقلت للشيخ بحزم :

— إننا لم نبلغ هذا الباب بقراءة فينبغى أن نقتحمه بمثل ما اقتحمنا الذى قبله ...

وهم الشيخ أن يعترض ولكن لم يجده اعتراضه وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقنى شزراً، واستأنفوا العمل من جديد، وتيقظت غريزتى فعملت معهم، حتى أزيحت العقبة الكؤود، ووجدنا أمامنا منفذاً إلى مثوى حوز الأبدى ...

وكنت خبيراً بتلك الأعمال، فأمرتهم أن يتريثوا فى أماكنهم وقتاً قصيراً ريثما يتجدد الهواء، وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعاً، وكان الباشا صامتاً ذاهلا كمن هو فى حلم عجيب، وكان الخادمان ينظران بعينين ساهمتين إلى الرجل الذى يؤمنان به، وكان الشيخ يحملنى تبعة ما قد يحدث لاستهانتى برأيه، أما أنا فكنت أحلم بما عسى أن يقع عليه بصرى، وساءلت نفسى ترى هل من المستطاع أن أفوز بتحفة أثرية أزين بها عقد متحفنا الخالد فى باريس ... ؟

ثم دخلت، ودخل خلفى الأرناؤوطى باشا ثم الشيخ جاد الله، وآثر الخادمان أن يلبثا فى الدهليز الخارجى فلما اختفى عنهما نور المصباح وأظلم المكان اندفعا إلى الداخل وانكمشا فى ركن، وكانت حجرة تابوت كما يدل مظهرها، وقد شاهدت أمثالها مرات

عديدة ، وكان التابوت موضوعاً فى مكانه وعلى غطائه صورة ذهبية لصاحبه وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعى أحدها لرجل - من المرجح أنه حور نفسه - والآخر لامرأة يستدل من وضعها إلى جانبه أنها زوجه ، وأمامها تمثال صغير لغلام ، وفى الناحية القابلة وضعت صناديق مغلقة وآنية ملونة ومقاعد ومناضد وعدد حربية ، وكانت الجدران ملأى بالرسوم والنقوش والرموز ...

ألقيت نظرة سريعة مفعمة بالروعة على ذلك العالم المبعوث ولكن الباشا لم يدعنى لتأملاتى فقال لى ولم أكن أعلم أنها آخر أقواله فى هذه الدنيا :

— الأوفق يا أستاذ دريان أن نبلغ الأمر إلى الحكومة فى الحال ...

فأحسست بخيبة أمل وقلت :

— انتظر قليلا يا باشا ريثما ألقى نظرة عجلى ...

ودنوت من الصناديق والأثاث والباشا يسير إلى يمينى ومضيت أفحصها بعين خبيرة مشوقة ، ونفسى تحدثنى بفتحها ومشاهدة ما بداخلها ، وكنت أومن بأنها تحوى طعاماً وثياباً وحلياً ولكن أنى لمثلى أن يملك إرادته حيال تلك المخلفات الجليلة التى تستحوذ على منبض التأثر من قلبى ووجدانى . . . ثم لا تنس التابوت والتماثيل والمومياء . . . يالها من مفاتن ... !

وقطع على تأملاتى أن سمعت صوت الشيخ جاد الله القبيح وهو يهتف « هش » فالتفت إليه منزعجاً مغضباً لأن أقل همسة آنئذ كانت تثير أعصابى ولكن الشيخ قال لى ببلاهة « عصفور ! »

فانتهرته قائلاً :

— أى عصفور يا شيخ ... أهذا وقت هزل ؟

فقال الرجل :

— رأيت عصفوراً يرف بجناحيه فوق التابوت

فالتفتنا إلى التابوت ولكنا لم نر شيئاً وكان من العبث أن نسأل الخادمين فقلت للشيخ :

— دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله

ثم ضحكت وقلت للباشا بالفرنسية :

— عسى أن يكون العصفور روح الميت (كا) جاء لزيارته معنا ...

ثم عدت إلى مطالعة الصناديق والجدران التى تحادث قلبى بلغة صامتة لا يعيها سواى ، ولكنى لم أستطع التأمل بتاتاً لأنا سمعنا الخادمين يصيحان بذعر :

— يا سعادة الباشا !

فالتفتنا إليهما بسرعة وقد امتلأت غيظاً وحنقاً ولكنى شاهدتهما فى حالة غريبة من الرعب ، وقد التصق كل منهما بصاحبه ، واتسعت عيناهما وجحظتا وأرسلتا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت ، وتصلب الشيخ جاد الله فى وقفته ويده قابضة على المصباح وعيناه لا تتحولان عن نفس الهدف ... فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبى ... فرأيت غطاءه مرفوعاً والمومياء ممددة أمامنا فى لفائفها ... !

ما هذا ... كيف فتح التابوت ؟ ... هل أثرت فى إقامتى الطويلة فى الشرق فغدت عينى تتأثر إلى هذا الحد المضحك بأوهامه وسحره ؟! ...

ولكن أى سحر هناك ! ... إنى أرى المومياء أمامى ، ولست الوحيد الذى يراها ، فها هو ذا الباشا قد تحول إلى تمثال ، وها هم الرجال الثلاثة يكادون يموتون من فرط الهلع والذعر ... فأى وهم هذا !

والحق أنى أحس بالخجل كلما اضطرتنى الظروف إلى سرد ما حدث بعد ذلك ، لأنى أحدث فى العادة أناساً عقلاء مثقفين درسوا تيلور وليفى برول ودركيم ولكن ما حيلتى ؟ ... إن ديكارت نفسه لو كان

فى مكانى تلك الساعة ما أتته الشجاعة على الهزء بحواسه ...

ماذا رأيت ؟

رأيت المومياء تتحرك وتقعد فى التابوت فى حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو المثقل بالنوم فضلا عن المبعوث من عالم الأموات، ثم قفزت قفزة غاية فى الرشاقة وانتصبت قبالتنا أمام التابوت . . .

وكنت موليًا ظهرى الخادمين والشيخ جاد الله فلم أر ما حل بهم ولكن ارتعاش النور الذى يضئ الحجرة دل على كهربة اليد التى تمسك به ، وكنت فى حالة يتعذر وصفها ، وأعترف بأن مفاصلى تفككت من الرعب الذى لا يوصف ، وذعرت ذعرًا لم أحس بمثله فى حياتى على الاطلاق ، ولا تكاد تذكر إلى جانبه أهوال الأيام الشديدة التى قضيتها فى الجبهة الشرقية ومعركة المارن ...

يا للعجب ! . . . ألم نكن حيال مومياء ؟ . . . أو حيال جثة ردت إليها الحياة بطريقة خفية ؟ ... أو أمام قائد مصرى كان يرجف هولاً وخشوعاً إذا اجتاز عقبة القصر الفرعوني ؟ . . . ولكن هل كان من الممكن أن يخالج نفسى فى تلك الساعة فكر من هذه الأفكار ؟ ... بل هب أنه خالجها فهل كان يستطيع أن يهدئ من رعبها شيئًا ؟ . . . فزعت فزعاً قاتلا . . . على أن عينى استطاعتا أن تريا كما استطاعت ذاكرتى أن تحفظ ما رأت عيناى ..

ولم أجد أمامى مومياء بل رجلا حياً كامل الرجولة والحياة ، وكانت هيئته تذكر بتلك الصور التى ترى بكثرة على جدران المعابد ، فكان يرتدى ثوباً أبيض ووزرة قصيرة ويغطى رأسه الكبير بقلنسوة أنيقة ، ويحلى صدره العريض بنياشين كثيرة زاهية وكان مهيباً رهيباً متعالياً ، ولكنى بالرغم من جلاله خيل إلىّ أنى رأيته من قبل وذكرت بالفعل الصعيدى الذى ساقه الخدم إلى الباشا واتهموه بسرقة غذاء الكلب بيميش ، كان شبهاً غريباً ولكنه اقتصر على الطول واللون والقسمات دون الروح والحياة ، ولولا ما كان يبدى الماثل أمامى من النبل والتعالى لربما خالجتنى شكوك ...

وكان يحدج الباشا بنظرة قاسية لا يحولها عنه كأنه لا يرى سواه ...

ماذا أقول يا سادة ؟ . . . لقد سمعته يتكلم . . . أى والله لقد تكلم حور بعد أن صمت ثلاثة آلاف من السنين ، وتكلم بتلك اللغة القديمة التى طواها الموت منذ آلاف السنين .. وسوف أنسى كل شىء فى دنياى قبل أن أنسى كلمة واحدة مما نطق به لسانه ...

قال لصديقى الباشا السيئ الحظ بصوت لم أسمع مثله جلالا لأنى لم أتشرف بعد بمخاطبة الملوك

— ألا تعرفنى أيها العبد ... ؟ لماذا لا تجثو ساجداً بين يدى ... ؟

ولم أسمع للباشا صوتاً ولا استطاع بصرى أن يتحول إليه ، ولكنى سمعت العظيم ذا الصوت العظيم يقول مرة أخرى :

— لم أشعر بقهر أسر الموت إلا حين شاهدت روحى هذه العجائب التى تحدث فى الدنيا وأنا مقيد بأصفاد الأبدية لا أستطيع حراكا ، ولم أقدر أن أذهب إليك لأن حياتى انتهت كما قضى أوزوريس... ولكنك سعيت إلىّ بقدميك ... وإنى لأعجب كيف سولت لك نفسك هذا الفعل الأحمق . . . أبلغ بك البطر الجنون . . . ؟ ألا تحمد الآلهة أن حالت بينى وبينك بالموت ... ؟ ماذا جئت تفعل أيها العبد ... ؟ ألم يقنعك أن تنهب أبنائى فأتيت تنهب قبرى ... ؟ تكلم أيها العبد ...

ولكن أنى للمسكين أن يتكلم ... إنه لا يفقه

شيئاً . . . ولا يبدى حراكا . . . لقد دبت الحياة فى المومياء ... وفارقت قلب الباشا الحي

أما المومياء فعادت تقول :

مالك لا تتكلم ؟ . . ألستُ حور ؟ . . ألستَ عبدى شنق ؟.. ألا تذكر أنى جئت بك من الشمال فى إحـدى الغزوات الظافرة ؟ . . . أتتجاهلنى أيها العبد ؟ ... إن جلدك الأبيض الذى يرمز إلى العبودية يفضحك مهما تنكرت .. ما هذه الملابس المضحكة التي ترتديها ؟ .. وما هذه الأبهة الـكاذبة التى تختفى وراءها ؟

وظن حور أن الباشا لا يريد أن يتكلم فانتفخت أوداجه وتقطب جبينه وصاح غاضباً :

— ما الذى دهاك ؟ ما الذى دهى الأرض فجعل أعزتها أذلة وأذلتها أعزة ، وخفض السادة عبيداً ورفع العبيد سادة ؟ كيف تملك أيها العبد هذا القصر ويعمل أبنائى فيه خدماً ؟ أين التقاليد المتوارثة والقوانين المقدسة ؟ ما هذا العبث ؟

واشتد الغضب بحور فاستحالت عيناه جمرتين يتطاير منهما الشرر وصاح بصوت كالرعد :

« كيف تتجاسر على ابنى أيها العبد ؟ لقد سمته الذل بقساوة دلت على العبودية التى تنضح بها نفسك ضربته بعصاك لأنه جائع ودفعت إخوته إلى ضربه أيجوع فى مصر أبناؤها ؟ الويل لك أيها العبد ... ولم يكد يتم كلامه حتى تقدم نحو الباشا مزمجراً كأسد هصور يهم بفريسته

ولكن الباشا التمس لم ينتظره ، لأنه كان قد فقد قوة الاحتمال ، فسقط على الأرض لا حراك به وكان تهديد حور قد أشاع فى الحجرة رعباً جديداً أتى على البقية الباقية من التماسك فى النفوس ، فما لبث الشيخ جاد الله أن سقط على وجهه وسقط معه المصباح فانطفأ نوره وساد الظلام ، وانكمشت بغتة كأنى أتق ضربة قاتلة لا أدرى من أين تقع على رأسى ، وحملقت فى الظلام وأنا أنتفض فرقاً وذعراً ، ثم خارت قواى ، وشاء حظي الحسن أن أفقد شعورى وأغيب عن العالمين ...

* * *

سادتى ... إنه لتأتى على أوقات يصيبنى فيها ذهول وتخامرنى شكوك فأسائل نفسى مرتاباً : هل كان حقاً ما رأيت أم كان وهما ؟ ... وربمـا ملت أحياناً إلى تكذيب نفسى ، ولكنى كلما أميل إلى الشك تصدمنى حقائق لا قبل لى بها ... فما قولكم مثلاً فى شهـادة الشيخ جاد الله وهو حى يرزق ويستطيع أن يعيد لـكم ما حكيت ؟ ... وما قولكم فى جنون الخادمين التعسين ... ومقبرة حور ... والقصر المهجور ؟... بل ما قولـكم فى حادثة موت المغفور له محمود باشا الأرناؤوطى التى ما يزال يذكرها جميع قراء الصحف ويعجبون لها أشد العجب ...؟

نجيب محفوظ

لماذا أبغضت زوجي

عن الانجليزية

بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدي

« كان مستعداً لأن يضحي بحياته ليحول دون زواج هذا الرجل من ابنته المحبوبة ، ولكن هذا الزواج قد وقع فماذا يستطيع الآن أن يفعل ؟ »

* * *

كنت طوال حياتي الزوجية على ما أذكر زوجاً لين الجانب مطيعاً لامرأته ، وكانت زوجي امرأة طيبة القلب ولكن من النوع المتصلب المتحكم ، فكانت دائماً تستسلم لعوامل الغضب والثورة ، وكنت أتركها في استسلامها إلى أن تهدأ نفسها وإذا أحسست بأن غريزة الغضب والثورة ستتحرك في نفسي رثيت لحال امرأتي وكبحت جماح هذه الغريزة . كنت أذكر أنها لم تألف غير العمل الشاق منذ طفولتها ، إذ كانت نشأتها في مزرعة لا تؤلف فيها الحياة الناعمة . ولم يكن أي اعتراض من جانبي على النمط الذي تجري عليه شؤوننا البيتية ليؤدي إلا إلى زيادة متاعب كل فرد من أفراد البيت

على أنني — مع ذلك — كنت أستنكر أسلوبها في معاملة ابنتنا الصغرى ماريانا ، وماريانا فتاة صغيرة جميلة قوية الحيوية ، وقد خيل إلي على صورة ما أن أمها تتأذى من ملامحها الجميلة ، لأنني لم أجد تعليلا آخر للأسلوب السيء الذي كانت تعامل الأم به ابنتها ...

وكانت سوزان ابنتنا الكبرى على العكس من أختها بليدة ساذجة كأمها ، فكانت هي وأمها على خير ما يكون الصديقان تبادلا للعواطف

وتسلطت امرأتي على ماريانا وظنت أن من واجبها أن تسهر على مراقبتها مراقبة دقيقة .

وما بلغت الفتاة الثامنة عشرة من سنيها حتى أصبحت جذابة الملامح فتانة ، وكانت دائمة التحدث عن الذهاب إلى المدينة والسعي للحصول على عمل في المسرح ، وكان طبيعياً أن ترفض أمها كل فكرة من هذا القبيل ، فقد كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أن الفتاة إذا دهنت وجهها وشفتيها بالأصباغ فقد انحدرت في طريق الفساد ، ولم يكن في مقدور أية قوة أن تنتزع من رأس امرأتي هذه الآراء العتيقة التي تدل على ضيق العقل

كان من أثر هذه الحالة أن نشأت بيني وبين ماريانا رابطة غريبة ، فقد ذكرتني على وجه ما بأخت لي أصغر مني سناً ، هربت منذ سنوات لتلتحق بفرقة من الراقصات . فقد كان لماريانا مثل طبيعة أختي القلقة ومثل لهفتها على العمل وراء أنوار المسارح

على أن ابنتي كانت فتاة مستقيمة الخلق وكانت مراقبة أمها لها أمراً مضايقاً لا تدعو إليه حاجة، وكان في البلدة الصغيرة التي نعيش فيها من بلاد الولايات المتحدة مصانع كبيرة للصفيح ، فكانت امرأتي تلح على ماريانا في أن تسعى إلى عمل في أحد هذه المصانع ، ولكن ماريانا لم تخلق لتعيش عيشة العزلة في المصانع، وإنما كانت لها في الحياة وجهات أخرى.

وكنت كلما أحضرت جريدة المساء إلى البيت استعارت ابنتي مني قلم الحبر وكتبت في أثناء الليل عدة خطابات تجيب فيها على ما تقرأه من الاعلانات عن الوظائف الخالية ، وكانت تدس هذه الخطابات في جيبي دون أن تشعرني بشيء ، لأضعها بنفسي في صندوق البريد في الصباح .

وكان انتصار سوزان لأمها وعطفي على ماريانا منشأ نزاع صامت مشؤوم بين أفراد العائلة . ولم يكن يسمح لأحد من الشبان بدخول البيت لزيارة الفتاة . وقد عارضت في ذلك وبخاصة منذ أصبحت ماريانا تلك الفتاة اللطيفة الراغبة في حياة المجتمع .

ولكن ماريانا لم تلبث ذات مساء أن أراحت بالي من هذه الناحية . فقد طوقتني بساعديها ضاحكة وقالت : إن أمها تجهد نفسها في منع شبان البلدة من غشيان دارنا ، ولكن ماريانا كانت تتطلع إلى شاب من طراز كلارك جابل أو وليام باول، ومن الصعب جداً أن يوجد هذا الطراز بين شبان البلدة ، فليس في الجهد الذي تبذله الأم من هذه الناحية ما تكترث له الفتاة في كثير أو قليل . فشاركت ماريانا الضحك ، ولم نستطع إلا أن نتفكه بأمر ذلك النشاط الذي تبذله الأم عبثاً لطرد الفتيان من طريق ابنتنا .

ومن حسن الحظ أنني كنت أتغيب أكثر النهار عن البيت فقد كنت أملك « جراجا » ومحطة بنزين صغيرة على الطريق الرئيسي ، فكنت إذا عدت مساء إلى البيت متعباً قرأت جريدة المساء ، وقطعت فترة من الوقت في لعب (الداما) مع ماريانا أو أصغيت إلى الراديو .

وكانت ماريانا ترجوني دائماً أن أحضر لها عند عودتي إلى البيت بعض المجلات السينمائية ، فكنت أبتاع لها ما أجده عند بائع الصحف الذي أمر به في طريقي وأدس لها ما أحضرت تحت صحيفة المساء ، وكانت هي بدورها تحمل هذه المجلات سراً إلى غرفتها حيث تقرأها بعيداً عن أعين الرقباء ، ولو أن امرأتي عرفت مرة أنني أنا الذي أحضر هذه المجلات بنفسي لجعلت حياتي عذاباً لا يطاق ، فلقد كانت تصر دائماً على القول بأن المجلات السخيفة التي تعثر عليها أحياناً في غرفة الفتاة هي التي قلبت رأسها . على أنني كنت أعمل كل ما أستطيع لأرفه حياة ماريانا ولكن مهمتي لم تكن سهلة في هذا الجو العدائي الذي كانت تخلقه أمها وأختها .

وفي ذات مساء تلقتني ماريانا عند عودتي مبتهجة طروباً وأخبرتني أنها تسلمت رداً على أحد خطاباتها التي أجابت فيها على بعض الاعلانات عن الوظائف الخالية ، وفي هذا الرد يعرض عليها معهد التصوير الفوتوغرافي في المدينة عملا تتقاضى عليه أجراً ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه في الأسبوع ، على أن تتقدم قبل ذلك إلى إدارة المعهد لاثبات كفايتها للنهوض بهذا العمل . وقد هيئ لي عند ما سمعت أقوال ماريانا وشهدت ابتهاجها أن روح الفتاة محلقة في السماء العليا ، وعلى الرغم من أنني كنت متعباً في تلك الليلة ، اعتزمت أن أقف وقفة شديدة مدافعاً عن ماريانا إذا عارضت أمها في قبولها هذا المركز ، لقد كنت أتطلع إلى مستقبل لماريانا خير من هذا ، وكان في مقدوري أن أفهم لماذا كانت ترغب في مغادرة البيت والذهاب إلى المدينة .

وبالفعل عارضت امرأتى فى قبول ماريانا المركز المعروض عليها ، ونشبت بيننا مشادة عنيفة بعد العشاء ، ولكننى ذكرت المرأة الطيبة بأنها كانت تلح على ماريانا فى أن تسعى إلى عمل في أحد مصانع الصفيح حيث لا يزيد أعلى أجر للعامل غير الدرب على جنيهين فى الأسبوع ، إذن لماذا تعارض في أن تتولى الفتاة عملاً محترماً تتقاضى عليه ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه فى الأسبوع ؟ فأصابت هذه الملاحظة الهدف الذى رميت إليه ، وبعد كثير من المناقشة ربحت ماريانا المعركة ، ولقد ارتحت لذلك ارتياحاً شديداً لأننى لم أكن أتوقع أى مستقبل حسن للفتاة إذا هى بقيت حبيسة فى بلدتنا العوراء

وكانت لى ابنة عم أرملة عجوز تسكن المدينة فاتفقت معها على أن تقيم ماريانا عندها فلا تحضر إلى البلدة إلا فى نهايات الأسابيع

لم تحبب ابنة عمى «نيل» امرأتى قط ، وكانت تقول عنها إنها ضيقة العقل بليدة . لذلك ساء امرأتى ألا تكون العلاقة بينها وبين « نيل » حسنة ، وألا تستطيع أن تعرف ما تعمله ماريانا فى أثناء الليل فى المدينة الواسعة الأرجاء . ولكننى كنت مراقباً كل شىء مرتاحاً إلى التقارير التى تجيئنى من ابنة عمى وكلها تدل على أن ماريانا سعيدة بحياتها الجديدة وأن لا شائبة على الاطلاق فى سلوكها

وحضرت ماريانا ذات مساء على عادتها فى نهاية كل أسبوع ، وأخبرتنا أنها ستصحب معها يوم الأحد المقبل ، صديقاً اسمه روى ترودواى للغداء معنا . ومن سوء الحظ أن الفتاة أعلنت هذا الخبر فى لحظة غير ملائمة . فقد حدث بعد الظهر أن أمها كانت تخرج وعاء من الفرن فحرقت ساعدها ، فكانت حالتها النفسية فى هذه اللحظة أسوأ ما تكون

فما سمعت الخبر حتى هاجت وصاحت فى غضب قائلة : إنه لا يجوز لماريانا أن تخالط شبان المدينة ، وأنها لا تسمح لها بأن تحضر أحداً منهم إلى البيت . وكنت أود أن أنتصر لماريانا لولا أن لاحظت أن أمها كانت فى حكم المريضة ، فاعتزمت أن أرجىء انتصارى لها إلى فرصة أنسب من الفرصة الحاضرة. والشىء الذى لا يستطيع الانسان فهمه حقا هو أن تعارض امرأتى فى مقابلة الشبان الذين تعجب بهم ماريانا . فلقد كنت أنا راغباً أشد الرغبة فى مقابلتهم والتحدث معهم ، فمن الطبيعى أن فتاة لها جمال ماريانا لا بد أن تكون موضع إعجاب كثيرين من شبان المدينة . ولما كانت الفتاة قوية الارادة متصلبة فان أسلوب والدتها فى معاملتها قد يضطرها إلى سلوك الطريق الخطأ فى التمتع بمباهج الحياة ، وهذا هو الذى كنت أخشاه ، وكنت دائم القلق من ناحيته

على أننى لزمت الصمت فى تلك الليلة عند ما أمرت امرأتى ماريانا بألا تصاحب هؤلاء المغامرين من شبان المدينة، وقد خيل إلى أن مثل هذا الأمر يكفي لمنع ماريانا من عمل ما تريد !

وبعد بضع ليال من ذلك الحديث أصبت بحادث أزعجني ، فقد بقيت فى عملى بمحطة البنزين إلى ما بعد الوقت الذى كنت أنتهي فيه من العمل عادة ، وما أطفأت الأنوار وشرعت أوصد الباب حتى وصلت إحدي السيارات فى طلب البنزين ، وبينما أنا أفرغ البنزين فى خزان العربة أقبلت سيارة صغيرة خضراء من النوع المكشوف ووقفت بجانب السيارة الأولى،

وخرج منها شاب من الأشقياء فاندفع نحو عميلي مهدداً وأمره بأن يعطيه حافظة نقوده ، فأطاع العميل الأمر ظناً منه أن الشقي يحمل مسدساً ، ولكنني حين تلفت أستطلع الأمر تبينت أن الشيء الذي يحمله الشقي في يده لم يكن مسدساً كما أراد أن يوهم ولكنه مفتاح انجليزي ، واستطعت كذلك أن أتبين وجهه على ضوء مصباح الطريق ، فأسرعت بالهجوم عليه ولكن كان الهجوم متأخراً ، فقد ضربني على صدغي ضربة شديدة أفقدتني توازني فسقطت مترنحاً ، واندفع الجاني واثباً إلى سيارته الخضراء ؛ ولما نهضت من سقطتي وجدت عميلي قد سلم الشقي محفظته وفيها مائة من الجنيهات

وكان طبيعياً أن أغضب وأتضايق مما حدث لأنه وقع أمام متجري ، ولكن العميل الذي ظهر أنه رجل ظريف هدأ من غضبي وقال إنه لا ذنب لي فيما حدث ، وكان الرجل تاجراً يمر بهذه الطريق مرة واحدة كل ثلاثة أشهر ولكنني لم أره قط قبل ذلك المساء ، وتكلمنا كلانا بالتلفون من الجراج فأبلغنا البوليس خبر السرقة

وقال عميلي إنه رأى جيداً وجه الشقي وإنه يستطيع أن يعرف ذلك الأنف الدقيق المدبب في أية ناحية من نواحي العالم

ولقد ضحكت عند ما سمعت ذلك لأنني قد اشتغلت أيام شبابي بأعمال البوليس السري لحساب إحدى الوكالات في شيكاغو ، وكان أعظم ميزاني عندها قدرتي على تذكر الوجوه وتمرفها، فقلت لعميلي إنني أنا أيضاً موهوب من هذه الناحية ، وإنني رأيت وجه الشقي وسأعرفه إذا ساعدني الحظ بمقابلته مرة أخرى ،

وبعد هذه الحادثة القصيرة انصرف العميل

ولم يكن بد من أن أدعو أحد الأطباء ليضمد لي مكان الاصابة ، ولكي لا أزعج امرأتي وسوزان عند عودتي إلى المنزل معصوب الرأس ، أخبرتهما أنني أصبت نفسي بالدائر الحديدي لاحدى المجلات في أثناء نزعي له ، وقد قبلتا مني هذا الكلام ، على أنني تألمت ألماً شديداً من أثر الضربة وشعرت بالدوار.

ولما كان اليوم نهاية الأسبوع فقد فضلت عدم الذهاب إلى العمل والتزام الراحة ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ماريانا في المساء ، وكنت أتشوق إلى رؤيتها فقد شعرت بوحشة لغيابها ، وكان كل شيء ثقيلاً مملاً في غير وجودها

ولكنني عند ماقابلت ماريانا في محطة سكة الحديد لاحظت تغيراً في خلقها ، فلم تكن على عادتها، فقد ألفت منها أن تجيبني في حماسة وألا ينقطع حديثها في الطريق بما كانت تعمله طوال الأسبوع في المدينة أما في هذا اليوم فقد وجدتها صامتة صمتاً ينم عن مأساة خفية فاضطربت لذلك نفسي ، على أنها لم تلبث آخر الأمر أن أفضت إلى بأن لديها أمراً تريد أن تحدثني به، وأعقبت ذلك بقولها إنها تحت تأثير حال عصبية قد تزوجت من روى تريداوى أمس ذلك اليوم فقط

وغني عن البيان أن هذا الخبر قد أزعجني فقد وقع ما خشيت أن يقع نتيجة لتصلب أمها ، فقد أدى هذا التصلب بماريانا إلى أن تتولى أمرها بنفسها

فمنذ أسبوع واحد كانت ماريانا ترجو أن يسمح لها باصطحاب روى تريدواى إلى البيت ، فمارضت أمها في ذلك ، فهل أخطأت التصرف بصفتي والداً ؟

أ كان يجب على الرغم من مرض امرأتى أن أناصر ماريانا وأصر على وجوب استصحابها الفتى الذى اختارته معها إلى البيت؟ الحق أنى اضطربت وشعرت بالتماسة وتحيرت فيما أقوله لابنتى رداً على هذا النبأ الذى فاجأتنى به

وسألت ماريانا كيف عرفت روى تريدواى فقالت : إنه من أهل انديانا وأنها قابلته فى حفلة كوكتيل وأنها ما كادت تراه حتى عقدت بينهما أواصر الصداقة فى الحال ، وهى واثقة من أنها تحبه حباً شديداً ، على أنها إذا كانت مخطئة فى تقدير عواطفها فان هناك شيئاً واحداً لا يتطرق إليه الشك ذلك أنه هو مجنون فى حبها وقد طلب منها فى رجاء شديد أن تقبل الزواج منه

وقالت فى وصف حبيبها إنه فتى رشيق عصرى الآراء جميل الملامح جداً ، وإنه سمسار أوراق مالية ناجح فى عمله ، ووكدت لى أننى سأحبه وسأزداد حباً له كلما ازددت معرفة به ، وقد وعدها روى بأن يقضيا شهر العسل فى سياحة إلى هافانا . ولولا خوفها الشديد من إبلاغ خبر الزواج إلى أمها لما شابت سعادتها العظيمة شائبة ما . ولقد كانت تتطلع إلى هذه السياحة البحرية تطلع الأطفال إلى الشيء المحبوب لأنها لم تركب البحر مرة فى حياتها

لم يكن أمامى حين سمعت هذا الكلام إلا أن أبذل أقصى ما أستطيع من جهد لأوجه الأمور خير وجهة مستطاعة . وبعد العشاء أخذت على عاتقى أن أستعين بكل ما فى مقدورى من لباقة وكياسة على نقل خبر زواج مريانا إلى أمها . وكان من المستحيل ألا تنشب بينى وبينها معركة حامية من جراء ذلك ، على أننى كنت متأهباً لخوض هذه المعركة . وقد قالت امرأتى إن الغلطة هي غلطتى أنا لأننى أنا الذى سمحت لماريانا بالذهاب إلى المدينة ، وها هى ذى قد تزوجت من رجل لم تره الأسرة قط قبل هذا الزواج . ولكننى لأول مرة طرحت ما كنت ألجأ إليه من مجاملة امرأتى حرصاً على عدم جرح شعورها ، ولمتها فى لهجة ثائرة عنيفة ملقياً عليها مسؤولية هذا الزواج الفاجئ

ذكرت امرأتى برفضها مجيء روي تريدواى إلى بيتنا عند ما اقترحت ماريانا ذلك ، وذكرتها بالرقابة البلهاء التى كانت تفرضها باستمرار على الفتاة وقلت لها إن رد الفعل الفجائى الذى ظهرت به ماريانا لم يكن إلا أمراً طبيعيا تحت تأثير هذه الظروف

كانت مفاجأتى امرأتى بهذا الكلام سبباً فى أن تعود إلى نفسها ، فاعترفت بالفعل بأنها ربما كانت قد أخطأت ، وقد رجونا كلانا فى حرارة أن تكون ماريانا قد وفقت فى اختيارها وأن يكون زواجها سعيداً ، فان الغاية التى كان يرمى إليها كل منا هى سعادة ابنته

ولأول مرة تنبهت زوجتى إلى أن ماريانا قد أصبحت شابة نامية لا طفلة صغيرة فبدأت تعاملها بشيء من التقدير والاحترام ، وحتى سوزان مالت إلى تغيير أسلوب معاملتها لأختها . وهكذا لم تنته إذاعة خبر زواج ماريانا إلى النتيجة السيئة التى خشيت أنا وهى أن تنتهى إليها . وتم الاتفاق بيننا جميعاً على أن تحزم العروس حقائبها المعدة لرحلة هافانا وتنتظر فى البيت ، وأن يحضر زوجها روى تريدواى ليأخذ الحقائب بنفسه، وبذلك يتمكن أفراد الأسرة من مقابلته . وكتبت ماريانا إلى روى موكدة

له أنه سيقابل مقابلة حارة ، وأخبرته بما تم الاتفاق عليه من قضاء الليل معنا قبل السفر فى رحلة شهر العسل ...

وتكلمت فى الوقت نفسه مع ابنة عمى تليفونياً فسألتها عما تعلمه من أمر روى ولكنها أجابتنى بأنها لم تره قط . وقالت إنه تكلم كثيراً مع ماريانا تليفونياً ، وإنها تعرف أن ماريانا كانت تخرج مع رجل اسمه روى ولكنها لم تفكر قط فى أن الأمر بينهما جد ، لذلك كانت دهشتها شديدة عند ما أخبرتها بزواج ماريانا ، ولكنها لم تدهش حين أخبرتها كيف كان هذا الزواج مفاجئاً لأنها تذكرت أنها قضت أغلب أيام الأسبوع على شاطئ البحر

وانهمكت ماريانا فى تجهيز معدات السفر منتظرة قدوم روى

ومن الطبيعى أننا جميعاً كنا متطلعين إلى رؤية سمسار الأوراق المالية الشاب ، وقد أعدت له امرأتى غداء حسناً ، وكانت ماريانا مبتهجة تتهلل بشراً . ولأول مرة لم تعارض الأم فى مظاهر ابتهاج ابنتها وإن يكن قد بدا عليها أثر الصدمة التى أصابتها من عدم إفضاء ابنتها إليها بأمر زواجها قبل وقوعه

لم يخطر لامرأتى قط على بال أن ماريانا كانت تعلم أن أمها ستعارض فى زواجها من أى إنسان حتى لو جاءت معلنة أنها ستتزوج من رئيس الجمهورية ولو أن هذه الأم كانت من النوع العادل الذى يحسن التفاهم لأخبرتها الفتاة بما اعتزمت

تركت ماريانا وأمها فى عملهما وقصدت إلى مكتب البريد فلما عدت إلى البيت وجدت أن روي تريدواي قد حضر فى أثناء غيابى

لما دخلت غرفة الجلوس كان روى تريدواى موليًا ظهره نحوى فاستطعت أن أرى رجلا طويل القامة عريض الأكتاف، يلبس رداء رمادياً، ضاحكا مكثراً من الحديث مع ماريانا . وما رأتنى ماريانا مقبلا حتى حيتنى وقالت منشرحة تقدمنى إلى روى الذي التفت ناحيتى :

« هذا أبى ! »

— وخيل إلى عند ما وقع نظر الفتى على رأسى المعصوب أننى قد رأيت فى عينيه نظرة خاصة ، فقد ضاقت فتحتاها وبدا فيهما معنى الانزعاج ، وصافحنى الفتى هازا فى شىء من التملق يدى التى بقيت ممدودة له لحظة قبل أن يراها .

واعتقدت ماريانا أن سلوك زوجها الغريب ليس له من سبب إلا أن رأسى كان لايزال معصوباً فأمسكت بذراعه فى عطف شديد وقالت :

« لقد جرح أبى رأسه إذ صدمه باطار عجلة إحدى السيارات فى الجراج فى أثناء نزعه »

فدمدم روى بضع كلمات فيها بعض التألم لهذا الحادث ، وفى طرفة عين بدا لى أن فى هيئة الفتى شيئاً غير غريب عنى . فرد الفعل العصبى الذى بدا عليه حين رآنى والحركة التى هز بها رأسه لينظر من النافذة كمن يفكر فى الهرب ، كل ذلك أحدث شيئاً من التوتر فى الغرفة ، ثم تلك الغنة فى صوته التى ذكرتنى بغنة الصيحة التى سمعتها منذ بضع ليال عند ما اقتربت من شاب شق يحمل فى يده مفتاحاً إنجليزياً ! أيمكن أن تكون هذه هى الحقيقة ؟ لقد كانت الفكرة حوشية غير قابلة للتصديق ! ولكن عند ما أدار روى تريدواى وجهه إلى الشباك ورأيت صفحة خده ورأيت تلك

الذقن وذلك الأنف الدقيق اللذين رأيتهما لحظة طائرة على الضوء الأحمر ارتجفت ركبتاى . لقد كان الشبه بين صورتى الشخصين أخاذاً ، فهل يمكن أن تكون ماريانا بحيلة غريبة من حيل الحظ قد تزوجت من ذلك اللص الشقى الذى سرق التاجر على باب جراجى ، والذي ضربنى تلك الضربة الشريرة بالمفتاح الانجليزى ؟ لقد وقعت فى حيرة شديدة !

لم يلاحظ تريدواى أننى شككت فى أمره ، فقد كان الوقت الذى وقع فيه الحادث ظلاماً وكان ضوء الطريق الذى رأيت عليه وجهه لحظة سريعة ضوءاً ضئيلاً ، ثم هو لا يعرف شيئاً عن قدرتى على تذكر الوجوه . ولكن كان ظاهراً أن هذه المقابلة المفاجئة فى بيتى قد هزت أعصابه ، حتى أنه عند ما نظر من الشباك إلى الخارج وقد دس يديه فى جيوبه لم يسمع صوت ماريانا إذ كلمته إلا بعد أن كررت ما قالته مرتين ، الأمر الذى دل على أنه كان شديد الانهماك فى التفكير . ولم ألبث أن نظرت من النافذة لأرى إذا كان قد حضر فى نفس العربة الخضراء المكشوفة التى رأيتها من قبل ، ولكننى وجدت بدلها عربة سوداء مقفلة لا تزال جديدة . فمن الجائز أن أكون قد أخطأت فى ظنونى . ومن المحتمل أن يكون الشبه بين الشخصين شديداً جداً ولكنهما ليسا برجل واحد

ولكن لماذا سلك الرجل ذلك السلوك الغريب منذ رآنى ؟ من المحتمل أن يكون ذلك أيضاً من نبات خيالى ، ولقد دعوت الله فعلا أن أكون قد أخطأت فيما توهمت . على أنه إذا كانت ابنتى قد تزوجت من لص شقى فانى أود أن أعرف ذلك ، وكانت ماريانا قد ذهبت إلى غرفة أخرى لتحضر غطاء جديداً لمائدة الطعام ، وكانت سوزان قد ذهبت إلى غرفة الجلوس لتتحدث مع تريدواى ، ودخلت أنا مصادفة إلى الغرفة التى كانت فيها ماريانا ورأيتها مشغولة فى عد الفوط

وما رأتنى ابنتى حتى سألتنى وفى عينيها وميض الحب ؟

— كيف وجدته يا أبى ؟

وكانت وهى تلقى هذا السؤال صورة مجسمة من صور السعادة ، وكان من المستحيل أن تحلم بالأفكار الفظيعة التى كانت تملأ رأسى فى تلك اللحظة ، ولا بالخوف المزعج الذى استولى على نفسى

وكان صوتى أجوف كأنه آت من أميال بعيد عند ما أجبتها :

— أظنه شاباً ظريفاً

فاسممت منى هذه الكلمات حتى طوقتنى بساعديها وقبلتنى ، وكنت لا أزال أدعو الله أن أكون قد أخطأت فى تصوراتى ، وقلت وقد نظرت من النافذة

— إن عربة زوجك هذه الصغيرة جميلة

فقالت ماريانا :

— أليست غاية فى الجمال حقاً يا أبى ؟ لقد ابتاعها روى أمس ليجعل منها مفاجأة سارة لى فقد تحطمت سيارته الخضراء المكشوفة !

لقد كانت هذه الكلمات الثلاث : « سيارته الخضراء المكشوفة » كافية ! لقد قاومت فى عنف صدمة الشلل الذى كان خليقاً أن يصيبنى عند سماع هذه الكلمات ، وقد اقتنعت الآن اقتناعاً لا سبيل إلى التشكك فيه ، بأن تريدواى واللص الشقى ليسا إلا شخصاً واحداً

فماذا أنا فاعل ؟ أأحطم حلم سعادة ابنتى بأن

أبث فى رأسها الشك من ناحية ذلك الرجل ؟ لقد أصبح الرجل زوجها وانتهى الأمر ! وإذا ظهر فيما بعد أننى مخطىء في ظنونى فهل يمكن أن تنفر لى يوماً ما أقوله لها الآن ؟ اضطرب تفكيرى وأنا أحاول حل هذا الاشكال ولكنني فضلت أن ألجأ كعادتى إلى الصبر وأن أحكم فى وقتى فلا أتسرع

وكان من المستحيل علىّ وقد اضطرب شعورى هذا الاضطراب أن أجلس معهم على مائدة الغداء ، فأخبرت ماريانا أننى أشعر بشىء من الصداع لكثرة حركتى منذ وقع لى حادث الاصابة ، وأننى سآوى إلى غرفتى طلباً للراحة ، وأقنعتها بأننى لن أصلح لمجالستهم وأنا أشعر بذلك الألم . وأننى على كل حال لن أستطيع أن أطعم بغير فنجان من عصير الطماطم ووعدتها بأننى إذا تحسنت حالى بعد الطعام فسألحق بهم وأؤكد معرفتى بزوجها . فقبلت ماريانا عذرى كما قبله الآخرون ، وانصرفت إلى غرفتى لأفكر فيما أفعل

إذاً لم أكن مخطئاً فى أمر هذا الرجل فيجب أن أسرع فى العمل ، وليس يحتاج الأمر لأكثر من أن أبلغ البوليس خبره فيقبض عليه وفى الوقت نفسه يفسخ زواج ماريانا

ولكن الفضيحة التى تنشأ من ذلك التصرف ! ثم لنفرض أننى كنت مخطئاً فى ظنى ! ألا يجوز أن يقبض علىّ بتهمة البلاغ الكاذب ، وبأننى تسببت فى القبض على رجل برىء وبغير ذلك من التهم ؟ إذن يجب الاحتراس والحذر . ولو أننى استطعت أن أخلو بالرجل بضع لحظات لأمكننى أن أستقر على خير الطريق التى يجب أن أتبعها فى أمره ، لقد كان رأسى مصدعاً حقاً كما لو كان الجرح قد فتح وسال منه الدم ، ولكن الصداع لم يكن من الجرح إنما كان من التفكير ، وما كان لى أن أنام في غرفتى متألماً

وكلما سمعت صوت أسرتى وهم يتحدثون على المائدة ازداد اضطرابى وساءلت نفسي : أهم يطعمون الآن مع لص شقى ؟ وقد سمعت أكثر من مرة ضحكة تريدواى المصبية وهي تخترق الجو واصلة إلى أذني تذكرني بتلك الصيحة المزعجة وتلك الضحكة التهكمية اللتين سمعتهما ليلة ضربني بالمفتاح الانجليزى على صدغى قبل أن يهرب بسرقته ، ولم ألبث أن ركزت فى رأسى ما حدث ليلة السرقة ، وهنا ظهر لى واضحاً شخص تريدواى وبخاصة أنه كان يملك عربة خضراء . صحيح أن هناك سيارات خضراء كثيرة ولكن كل هذه الاتفاقات بين الشخصين لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة

وبعد الغـداء حضرت ماريانا إلى غرفتى مستفسرة عن حالتى وأخبرتنى أنها صاعدة إلى غرفتها حيث تلحق بها سوزان لمساعدتها فى إعداد حقائبها فعرفت أن روى سيكون وحده فى غرفة الجلوس إذ لا بد أن تشتغل امرأتى بغسل أدوات الطعام فى المطبخ ، إذن جاءت الفرصة . فقلت لماريانا : إننى أشعر بتحسن فى حالتى وإننى لذلك سألحق بزوجها فأتحدث معه بعض الوقت . فطلبت منى وهى ضاحكة أن أسرع لألحق به قبل أن ينصرف لأنه كان يقول إنه سيخرج لابتياع كمية من السجاير

كان هذا كافياً لتوكيد شكوكي ، فقد كان الفتى يرسم خطة الهرب ، ولعـل تغيبي عن الغداء معهم قد أقلق نفسه . إذن لن أتركه يذهب ، وبدل أن أقصد إلى غرفة الجلوس اندفعت إلى خارج الدار

آملا أن يكون قد ترك مفاتيح السيارة فيها ، ولقد كان من حسن الحظ أن تحقق رجائي ، فلم أتردد في أخذ المفاتيح ودسها في جيبي ثم دخلت إلى غرفة الجلوس . وكان تريدواي عند دخولي على أهبة أخذ قبعته المعلقة على المشجب . فسألته كأني لا أعلم شيئاً عن عزمه :

— أخارج أنت ؟

فلم يرفع قط نظره إلى وهو يجيب على سؤالي مدمدماً بضع كلمات تفيد أنه ذاهب ليبتاع علبة سجاير . فقلت له :

— إنك تستطيع أن تخاطب مخزن السجاير تليفونيا فيرسل لك ما تريد

وأظن أنني تبينت رعشة عصبية في صوته عند ما أجابني بأن ذهابه شخصياً قد يكون أسرع من الكلام بالتليفون . فقلت متطوعاً :

— إذن سأذهب معك

وكأن اللهجة القاطعة التي نطقت بها هذه الكلمات كانت صاعقة قد انقضت عليه ، فبدل أن يخبرني بأنه يسره أن أصحبه تردد واضطرب ، وعقد لسانه فلم يتكلم . وعندئذ توكدت أنه هو نفسه اللص الذي ضربني ، فقلت آمراً :

— إجلس ولا تتسرع

فجلس واضعاً قبعته على ركبته بينما أصابعه تعبث بها في حال عصبية ، فقلت له في غير مواربة :

— إنك تعلم أن هذه الاصابة التي في رأسي ليست من إطار عجلة ، ولكنني لم أرد أن أزعج أسرتي فاخترعت هذا السبب ، والواقع أنني أصبت بضربة من مفتاح انجليزي

وهنا بدأ الفتى يتحرك حركات عصبية ، ولم ينظر إلى ولكنه جلس عابساً كأنه يتحداني أن أستمر في حديثي ، ولم يكن ممثلا بارعاً فأي إنسان غيري كان يستطيع أن يفضح أمره من موقفه ، وقد شجعني ما رأيته منه على أن أواجهه بهذه الكلمات :

— ولقد كنت أنت أيها الشاب حاضراً السرقة ، وتعرف كل ما يتصل بأمرها

فوثب الفتى واقفاً صارخاً صرخة شريرة مزعجة شبيهة بالصرخة التي شهدتها ليلة الحادث ، والتوت شفته العليا التواء الشر فكانت أشبه بشفة حيوان يعوى . ولقد أدرك أنه فضح نفسه بتصرفه فلم تبق هناك فائدة في الانكار

وشعرت عندما ألقى على نظرة خاطفة أنني قد أصبت بجنون فظيع وخيل إلى أنني سأثب عليه فأخنقه حتى أقضي عليه انتقاماً أولاً من الجرح الذي أصابني به ، وفوق ذلك لتهوره في الزواج من ابنتي الصغيرة . ولكنني بمجهود فوق القدرة البشرية ملكت عواطفي ، فلما لاحظ الفتى هدوئي وتبين أنني لن ألجأ لشيء من العنف زال عنه هو أيضاً المظهر الشرير الذي بدا عليه عندما سألني في صوت مضطرب : ماذا اعتزمت أن أفعل

فقلت له : إن أسهل الطرق أمامي هي أن أبلغ البوليس خبره . وهنا شهدت في غرفة الجلوس منظراً غريباً ، فتريدواي اللص الوحشي انقلب حملا وديعاً يتوسل إلى كما يفعل الطفل الصغير ، فقال إنه هو أيضاً يحب ماريانا وإنه يجب أن نفكر في أمرها ، فلقد أراد أن يسعدها ، فقد أحبها حباً لم يشعر بمثله من قبل لأي مخلوق ، وإنه كان خالياً من العمل الثابت وكان مصدر رزقه المراهنة على الخيل ، وكانت ماريانا

تعتقد أنه سمسار أوراق مالية

وبعد أيام من خطبته ابنتى اعتزم فى أن يجتهد فى ربح مبلغ كبير من المال فوضع كل ما عنده من النقود على جواد كان من المؤكد أنه سيربح ولكن الجواد خسر وبذلك أفلس الفتى واستولى عليه اليأس وكره أن يخبر ماريانا بأنه خالى الوفاض وتحير فيما يفعل ، وكان جالساً فى أحد المقاهى يطعم بعض الزاد إذ دخل رجل لا يعرفه وجلس على المائدة المجاورة له

ويقول تريدواى إنه رأي الرجل وهو يدفع الحساب للخادم قد أخرج رزمة كبيرة من الأوراق المالية ثم عاد فدسها فى حافظة نقوده ، فقرر الفتى أن يتبعه دون أن يرسم فى رأسه خطة معينة

وكان تريدواى ، على ما ورى ، قد استولى عليه اليأس لحاجته الشديدة إلى المال بعد الخسارة التى حلت به ، فتبعت سيارته الخضراء سيارة الرجل الآخر لمسافة عدة أميال ، ولم يدفعه إلى هذه الملاحقة الجنونية السخيفة غير عامل اليأس وحده ، ولم يكن يدرى كيف يستطيع أن ينتزع حافظة النقود من صاحبها ولم يكن كذلك مسلحاً . وكان عقله يعود إليه ما بين لحظة وأخرى فقرر أن يرجع عن هذه المطاردة . ولكنه حين رأى السيارة الأخرى تغيب عن عينيه دفعته الحاجة الملحة من جديد إلى استئناف اندفاعه الأحمق ، على أنه لم يلبث أن انتهى آخر الأمر إلى الاقتناع بأنه مقدم على مغامرة شديدة الخطر ، فعدل عن مواصلة المطاردة ووقف ليبتاع علبة من السجاير ويشرب شيئاً خفيفاً

ولما رأى أن السيارة التى كان يلاحقها قد غابت فى الأفق تنهد تنهد الارتياح ، وزال من نفسه فى تلك اللحظة عامل الاغراء الجنوني . ولكنه حين استأنف السير فى الطريق الرئيسى غير قاصد إلى مكان معين رأي من جديد السيارة التى كان يلاحقها وقد وقفت أمام جراجى

هنا استولى عليه عامل الاغراء مرة أخرى ، ورأى أن الفرصة قد هيأت له نفسها ، وكان الطريق خالياً ، وقد اعتقد أن سبب وقوف السيارة خلل أصاب إحدى عجلاتها ، ولم يخطر له أنه كان يتزود بحاجته من البنزين ، ولما كنت على وشك إغلاق المحل عند وصول عميلى فقد أطفأت جميع الأنوار ، ولما كنت أعرف موضع خزان البنزين فى السيارة ، فقد كنت أفرغ فيه البنزين فى الظلام ولذلك لم يرنى تريدواي عند ماهاجم العميل وإلا فانه لو علم أنه هناك شخصاً آخر لما أقدم على مجازفته الخطرة . وهذا هو الذى يفسر الرعب الذى فاجأه عند ما رآنى مقبلاً عليه على غير انتظار ، وهذا هو السر أيضاً فى أنه عاجلنى بتلك الضربة القاسية عن غير عمد لأنه كان يفكر فى الهرب أسرع ما يستطيع . هذه هى قصة الفتى فى تفاصيلها رواها لى فى بساطة وإخلاص

وطبيعى أننى قد تبينت أن الرجل الذى أمامى ليس باللص اليائس ولكنه شاب أحمق أغرته الظروف بالاثم ، وقد استطاع أن يقنعنى فى أثناء سرد قصته بأن مركز اليأس الذى وجد فيه نفسه لم يكن له من سبب إلا أنه لم يرد أن يحزن ماريانا التى كان قد وعدها بأن يقابلها فى اليوم التالى بدار البلدية لعقد زواجهما . استعرضت كل ما حدثنى به الفتى ورأيت أن الأمر يتصل بابنتى وما ترنو إليه من سعادة المستقبل فلت إلى التسامح والعطف

على أنني وجدتنى قد وقعت فى الحيرة وقد

واجهتنى مشكلة صعبة الحل ، فقد ألقى الفتى بأمره بين يدى ، وأصبحت سعادة الفتاة التى نحبها نحن الاثنان معلقة على الخطوة التى سأخطوها بعد ذلك

لقد كانت عقيدتى فى الطبيعة البشرية ثابتة دائماً لذلك اعتزمت أن أعالج الأمر كله بنفسى ، فقلت لتريدواى إنه يجب عليه أول كل شىء أن يسلمنى الحافظة التى اغتصبها من التاجر حتى إذا عاد الرجل إلىّ أعدتها له وقلت إن اللص قد شعر بتأنيب ضميره فأرسلها إلى فى البريد دون أن يذكر اسمه

فلم يتردد تريدواى فى تسليمى الحافظة قائلا : إنه أنفق مما فيها أربعة جنيهات ، فوعدته بأن أعوضها من مالى ، ثم قال الفتى فى لهجة الحزين المتألم إنه الآن لايملك المال الذى يعينه على اصطحاب ماريانا إلى هافانا فى رحلة شهر العسل وهى الرحلة التى تتطلع إليها الفتاة فى لهفة وشوق .

فسألته : ولكن ماذا بعد هافانا ؟ وكيف اعتزم أن يعيش إذا ما انتهت رحلة شهر العسل ؟ فأجاب فى استخفاف بأنه يستطيع دائماً أن يحصل على رزقه من طريق المراهنة على الخيل ، وليس من شك فى أنه حين يصل إلى هافانا سيلعب على السباق فى حذر واحتياط وسيجنى بذلك بعض المال .

ولكن لم أحبب ذلك فليست هذه هي الحياة التى تناسب ابنتي الصغيرة ، ورأيت أنه لا بد من عمل شىء ما . لقد ظهر على الفتى أنه جاد فى قوله وأنه قد تاب من ذنبه الذى دفعه اليأس إلى ارتكابه ، وكان ذلك واضحاً فى حديثه وسلوكه المتواضع . وظننت أننى إذا هيأت له فرصة حقيقية للعمل المفيد فقد يصبح رجلا صالحاً فى الحياة ، وإننى أعتقد اعتقاداً ثابتاً أن هناك بعض الخير حتى فى نفوس شر الرجال

وأن هذه الناحية الخيرية لا تلبث أن تظهر إذا عرف الانسان طريق الوصول إليها ، وأن فتاة طيبة مثل ماريانا تستطيع أن تحمل زوجها على أن يسلك سبيل الاستقامة فلا يحيد عنها .

وتحت تأثير هذه العواطف تقدمت للفتى باقتراح ملخصه أننى ، وكل يوم يمر تتقدم بى السن خطوة إلى الشيخوخة ، يحسن أن أستعين بمساعد لى فى الجراج ، فليكن هو مساعدى ، وإذا برهن على كفايته للعمل اتخذته شريكا ، وفى يوم ما يصبح الجراج ملكا له ، وعرضت أن أقرضه مائة جنيه لقضاء رحلة شهر العسل إلى هافانا إذا وعد بالاستقامة وبقبول العمل معى فى الجراج ، فما سمع الفتى هذا الاقتراح حتى غمر السرور نفسه . وإننى بتهيئة هذه الفرصة له إنما أبرهن على أننى أميز بين الرجال ، واتفقنا على نسيان أمر السرقة فلا يذكرها أحدنا بعد الآن وتصافحنا على هذا العهد .

أحسست كأنني ساحرى طبيب القلب وشعرت بعد أن أتممت هذا الاتفاق بالهزة التى يشعر بها المصلح الذى ينقذ الأرواح من الآثم . وبدا لى أن ما فعلته هو أحكم ما يمكن أن يعمل . فانى عند ما فكرت لأول مرة أن هذا الفتى لص يجب أن أرسل به إلى السجن أرشدنى التفكير المتزن إلى أننى لن أجنى شيئاً من وراء ذلك ، ولكن ستكون نتيجة سلوك هذه السبيل جلب الحزن والشقاء لابنتى . كذلك فكرت فى حالة امرأتى الشاذة وفى طبيعة سوزان وفيما أعرفه من كبرياء ماريانا فأدركت أن الفتاة لن تعيش إذا سنحت لأمها وأختها فرصة تذكيرها بالزيجة الفاسدة التى عقدتها من وراء ظهرهما ،

لذلك لم أتردد فى حل الاشكال الذى واجهنى على الصورة التى حللته بها

وبعد لحظات من هذا الاتفاق كنت أنا وروى نشرب معاً كأسين من الجعة وقد ساد نفسينا روح الصداقة المتبادلة ، فلما دخلت ماريانا علينا الغرفة خبرتها بأن روي سيعمل معنا فى الجراج بعد عودتهما من رحلة شهر العسل ، فأمن روى على كلامى مغتبطاً ، ولم تعارض ابنتى فى هذا الاتفاق

ومن حسن الحظ أن روى كان قد أخبر ماريانا قبل يومين أنه اختلف مع أصحاب بيت الأوراق المالية الذى يعمل فيه وأنه فقد مركزه فى ذلك البيت ، أخبرها بذلك ليعدها بقبول اشتغاله بعد عودتهما من الرحلة بالمراهنة على الخيل ، ولم تخبرنا ماريانا بهذا الخبر لأنها خشيت أن تعترض أمها على إنفاقهما المال فى رحلة بحرية فى الوقت الذى أصبح فيه زوجها عاطلا من العمل

على أن ماريانا — على كل حال — لم تهتم بفقدان زوجها عمله في ذلك البيت المالى ولم تقم لذلك الحادث كبير وزن ، لأنها كانت شديدة الثقة بروى وبقدرته على أن يجد لنفسه عملا جديداً على أثر عودتهما من الرحلة . فلما عرضت عليها الاتفاق الذى تم بينى وبينه قبلت ذلك بارتياح ولكنها اشترطت شرطاً واحداً هو أن تقيم هى وزوجها فى بيت خاص بهما

مرت بعد ذلك بضعة أسابيع مراً سريعاً ، لم أتسلم فى أثنائها من ماريانا غير تذكرة بريد واحدة وخطاب مكتوب على عجل ، علمت منهما أنها كانت مسرورة من رحلتها إلى هافانا وأنها تقضى فيها على ما يظهر أياماً طيبة ، ولم تقل عن زوجها إلا القليل جداً إذ قالت إنه فى صحة جيدة وإنه يرسل تحياته واحتراماته للأسرة

وعاد العروسان إلى البيت مساء أحد أيام السبت ، وإذا كانت ماريانا قد نعمت بأيام طيبة كما قالت في خطابها فان نظراتها تكذبان هذا القول ، فقد ظهرت تحت العينين دائرتان سوداوان ، وبدا عليها كأنها كانت تعانى آلاماً نفسية شديدة . وقد تصنعت السرور والانشراح فخدعت مظاهرها أمها وأختها ولكنها لم تخدعني مطلقاً وقد أدركت أنها تخفى فى نفسها أمراً لا تبوح به على أننى لم أحاول أن أسألها شيئاً .

وتأخر روى فى النوم صباح الأحد وانفردت بماريانا على مائدة الفطور إذ كانت سوزان وأمها قد ذهبتا إلى الكنيسة ، ولم تتكلم ماريانا كثيراً في أثناء الطعام ، ثم تناولت جريدة يوم الأحد وبدأت أنظر إلى محتوياتها

وعلى حين فجأة سألتنى ماريانا هذا السؤال :

— أتظن يا أبى أن الرجل الذى يغش فى لعب الورق يعد لصا ؟

أدهشنى هذا السؤال ولكننى أجبت عليه فى لهجة قاطعة :

— الرجل الذي يغش فى أية لعبة من الألعاب لص ما في ذلك ريب

فلم تزد ابنتى شيئاً على ما قالته ، ولكنها اكتفت بأن تنظر إلى الفضاء نظراً تائهاً ، على أننى أحسست بأننى سأسمع أمراً غير سار ، فسألت ماريانا عرضاً :

— ومن هو الشخص الذى تعرفين أنه يغش فى لعب الورق ؟

فلم تجب لأول وهلة . ثم أقبلت نحوى فجلست على ساعد الكرسى الذى كنت جالساً عليه وخبرتنى بتجربة محزنة مرت بها . فقد كان روى يلعب الورق مع بعض الرفاق فى الباخرة كل مساء

وفى ذات ليلة كان واقفاً على ظهر الباخرة مائلا على الحاجز ينظر إلى الماء وكانت ماريانا جالسة على أحد الكراسى فوقف إلى جانبها سيدتان لا تعرفان أن روى زوجها وجرى بينهما الحديث ، فقالت إحداها وهى تشير إلى روى :

— أترين هذا الرجل الواقف هناك المرتدى ملابس التيل الأبيض ؟ لقد قال زوجى إنهم طردوه الليلة الفائتة من على منضدة اللعب لأنهم ضبطوه وهو يغش

فعلت حمرة الخجل وجــه ماريانا عند ما سمعت ذلك الحديث وشعرت بأنها قد أهينت وحقرت ، وكان شراً من ذلك أنها وثقت من صدق ما تحدثت به السيدتان ، لأن روى عاد فى الليلة التى ذكرتاها إلى غرفتهما مبكراً على غير عادته ، وبدأ يحرق عدداً كبيراً من أوراق اللعب على شمعة مشعلة ، فلما سألته عن السبب فيما يفعل أجاب بأنه لم تعد به من حاجة إلى هذه الأوراق بعد الآن . ولم يقل شيئاً عن طرده من غرفة اللعب

ثم قالت ماريانا :

— فلما سمعت حديث السيدتين أدركت أن روى كان يحرق بعض (الآسات) الزائدة التي كان يدسها فى حزم الورق التى غش فيها

وأخبرت ماريانا زوجها بما سمعت فلم يزد على أن ضحك وقال لها : أن لا تهتم بما سمعت فان رفاقه فى اللعب قد هاجهم أن حظه كان مواتياً

ولكن ابنتى كانت واثقة من أن زوجها قد غش بالفعل فى الورق ، وكذلك كنت أنا واثقاً من ذلك ، وقد اضطربت ماريانا اضطراباً شديداً لذلك الحادث الذى عكر عليها صفاء شهر العسل ، ومن الطبيعى أننى تأذيت من سماع ذلك الخبر لأنه كان مقرراً أن يبدأ روى عمله فى الجراج يوم الاثنين المقبل ، فاذا كان الرجل لصاً حقاً فان الأمر سيكون مشكلا

لم يمض على عمل روي فى الجراج غير أسبوعين حتى أدركت أنى قد أخطأت فى عدم إرسالى به إلى السجن عند ما كشفت أنه لص . فلقــد ولد الفتى لصاً يجرى دم الجريمة فى عروقه ، فقد وجدته يغش الزيت فيعطي عملائى زيتا رخيصا بثمن مرتفع ، كذلك كان يغش فى بيع البنزين إذ يتقاضى من العميل ثمن عشرة جالونات ولا يعطيهم غير ثمانية

ولكن الضربة الأخيرة كانت عند ما غير عجلة إحدى السيارات ثم أخفى بعض الأدوات الرئيسية الخاصة بالسيارة ، حتى إذا سار العميل بسيارته قليلا وكنت قد كشفت السرقة جريت وراءه وصحت به أن يعود لأنه قد نسي بعض أدواته

فنظر الرجل إلى روى نظرة قاسية وقال :

— أظن أنك أخبرتنى أيها الشاب أنك قد وضعت جميع أدواتى فى مكانها من مؤخر السيارة

فدمدم روى بكلمات تفيد أنه قد نسى ، وسار الرجل متبرماً بعد أن شكر لى

أما أنا فكنت واثقاً من أن روى كان يقصد عامداً أن يسرق هذه الأدوات . ورأيت أن الأمر قد وصل إلى حد يتطلب أن أتحدث معه ، فأخبرته بأننى قد لاحظت ما كان يفعله ، وقلت له : إننى عشت طوال عمرى رجلا أميناً وإننى معتزم أن أسلك

مسالك الأمانة إلى نهاية أيام حياتي ، واتهمته بأنه كان يريد سرقة هذه الأدوات

فهاج الفتى هياجاً شديداً وصاح هازئاً بأمانتي قائلا إنها هي السبب في أن أعمالي لم تتقدم تقدماً كبيراً . وقال أيضاً إنه كره حياته في الجراج وإنه قد اعتزم العودة إلى المدينة متى توافر له شيء من المال يستعين به على ذلك . فذكرته بوعده الذي تعاقدنا عليه ، وقلت له إنه يستطيع أن يذهب إلى المدينة إذا أراد ولكنه لا يستطيع أن يأخذ ماريانا معه .

وهنا تجدد هياجه في صورة وحشية شريرة وتحداني أن أمنع ذهاب ابنتي معه إذا استطعت قائلا إنها امرأته وأنه ينصحني بأن أهتم بشؤوني الخاصة ، وتركت المكان في وسط المعركة قاصداً إلى البيت للغداء

ومن حسن الحظ أنني كنت أعلم مما سمعته من ماريانا عن سوء خلق زوجها في الأسابيع الأخيرة أنني مستطيع أن أقنعها في سهولة بألا تذهب معه إلى المدينة . ولقد علمت منها أنها في الواقع لم تحببه قط حباً حقيقياً فسررت لذلك سروراً شديداً . وظهرت لي أنها كانت قد أخذت بمظاهره الجذابة ، ولما كان الماء لا يمتزج بالزيت فقد أدركت ماريانا حتى قبل أن تكشف ما كشفت من عدم أمانته ، أن هناك هوة واسعة تفصل بينهما ، وأنهما ليسا من فصيلة واحدة . فلقد نشأت ماريانا في بيئة متشددة ضيقة التفكير ولكنها كانت أمينة شريفة بطبيعتها . أما روى فكان شاباً عديم الخلق ظهرت نقائصه حتى في الأمور التوافه كالغش في ورق اللعب . وقد كان من أثر هذا التفاوت بين الزوجين أن انصرفت نفس ابنتي عن الرجل الذي ساقته الأقدار إلى طريقها ...

وإذ علمت ذلك كله ازدردت غدائي مسرعاً وعدت إلى الجراج حيث تركت روى في هياج شديد ولست أدري ماذا يمكن أن يفعل

ولما عدت إلى الجراج وجدت أمامه سيارة عليها لوحة من لوحات ولاية بنسيلفانيا ، وتبينت أنها سيارة التاجر الذي سرقت حافظة نقوده أمام عيني ، فسررت لذلك لأنني أستطيع الآن أن أرد له الحافظة . ولكنني عندما خطوت إلى الداخل رأيت مشهداً غير عادي في انتظاري ، فقد كان التاجر شاهراً مسدسه على روى متحدثاً في الوقت نفسه تليفونياً مع مركز البوليس . فما أن توسطت الجراج حتى أمرني الرجل أن أرفع ساعدي وأن أقف إلى جانب روى . وكانت لهجته قوية ثابتة ، وكان طبيعياً أن أشعر بأنني قد صعقت ، فقلت له إن حافظة نقوده معي وإنني أريد أن أردها إليه

فقال التاجر في تهجم :

— ليس ثمة ما يدعوك إلى التسرع ، فانني سآخذها من يد البوليس .

فاعترضت على هذا الكلام وقلت له : إنه مخطىء فيما تصوره وإنني مستعد للايضاح. ولكنه ضحك وقال:

— لقد سمعت من الايضاحات ما يكفي لهذا المساء .

فالتفت إلى روى تريدواي ، فرأيت على وجهه أمارة ارتياح غريبة ورأيت شفتيه ملتويتين التواء إجرامياً في ابتسامة صفراء . ولم يقل الشقي كلمة واحدة في صالحي على الرغم من علمه ببراءتي ، بل

لقد كان على العكس من ذلك مغتبطاً باشرا كى فى تهمته .

ولم يحول التاجر مسدسه عنا لحظة واحدة ، بل بقى مصوبه نحونا حتى انتهى من حديثه التليفونى مع البوليس ثم تلفت إلى وقال :

— لقد كانت لعبة محكمة جميلة ، ولم يخطر لى قط على بال أنكما أعددتماها معاً ، على الرغم من أنى لم أكن رجلا غبياً ، ولكن من حسن الحظ أن الجريمة التى وقعت على مكنتنى من الحصول على رخصة بحمل المسدس ، ولقد أخبرتك من قبل أننى لا أنسى أبداً الوجوه التى أراها مرة ، فلم يقع نظرى على هذا الرجل حتى تذكرت كل ما حدث

فقلت فى شىء من الضعف :

— إنك مخطيء يا سيدى فانا لم تكن لى يد فيما حدث

فقال الرجل فى هدوء :

— الآن سأقول : واحد

وهنا تلفت إلى تريدواى وقلت :

— قل له الحقيقة فانك تعلم أن لا يد لى فى السرقة

فحدجنى روى بنظرة خبيثة وقال فى لهجة العداء والتحدى :

— لا فائدة فى أن تنكر أننا كنا متفقين يا أبى فليس الرجل أبله ولا غبياً

وهنا شعرت بدوار شديد يستولى على حواسى فهكذا كان أسلوب ذلك اللص الشقى في مكافأتى على إحسانى إليه وشفقتى عليه ! لقد أشركني فى تهمته . إذن كان هذا هو انتقامه منى لما كان بيننا من مشادة قبل ذهابى إلى البيت للغداء . ولكن ما حيلتى وقد وقعت فى هذا المأزق الحرج !

وحضر البوليس واعتقلنا نحن الاثنين !

وكان اعتراف روى فى مركز البوليس كافياً لاتهامى اتهاماً شاملا بالاشتراك معه فى الجريمة اشتراكا تاماً ، فقد روى قصة شيطانية وصف فيها طريق تدبيرنا خطة الجريمة قائلا : إنه أعطانى الحافظة على أثر ابتعاد التاجر بسيارته عن نظرنا

ومن حسن الحظ أن رئيس البوليس كان رفيقا ماسونيا فى المحفل الذى أنتمى إليه ، وقد اشتم رائحة الكيد فى اعتراف روى تريدواى . وكان الرجل يعرفني منذ سنوات عديدة ويعلم أنني رجل شريف مستقيم ، وقد اعتقد أن تريدواى يكذب فى اعترافه ولكن كيف السبيل إلى إثبات ذلك ؟ فهو حيال شكوى التاجر واعتراف تريدواى الذى يتهمنى فيه مضطر لأن يبقينى فى الاعتقال إلى أن تثبت الوقائع التى تبرر الافراج عنى . وبدأ البوليس فى الحال التحريات عن حياة تريدواى فظهر أنه قبض عليه عدة مرات فى مدن مختلفة بتهمة تزوير أوامر صرف من بعض البنوك ، وأنه كذلك اتهم فى كثير من السرقات ، وهو فوق ذلك متزوج بامرأة تقيم فى نبراسكا وقد هجرها منذ سنوات. إذن زواجه من ابنتى باطل بطبيعته ثم هو جريمة يعاقب عليها

أما ملف سوابقي فكان نظيفاً ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن بد من أن أبقى سجيناً حتى يتم التحقيق ونقدم للقضاء . وقد رويت لرئيس البوليس كل ما حدث على حقيقته وأظن أنه قد تبين خطر

مركزى فى الاتهام على أنه عجب من وضعى كل ما وضعت من ثقة فى لص ، ومن رأيه أننى أستحق الوقوع فى هذا المأزق لأننى لم أسلم تريدواى للبوليس فى الحال عند ما عرفت أنه لص

ومن الطبيعى أن تجزع سوزان وامرأتى عند ما اتصل بهما خبر سجنى ولم يفكرا إلا فى العار الذى يلحق بهما من جراء ذلك وأن تكونا متحققتين من بطلان التهمة الموجهة إلى، وبدأتا تحملان ماريانا مسؤولية كل ما حدث ، لزواجها من تريدواى ، ولكننى تدخلت فى الأمر بحزم وطلبت منهما ألا تزيدا فى متاعب ماريانا بمثل هذا اللوم

وجاءت ماريانا لزيارتى فى سجن المقاطعة وكان قلبها يتقطع حزناً على ما أصابنى ، وقد رويت لها كل ما حدث ، فانقلب فتورها نحو تريدواى إلى بغضاء شديدة حين عرفت كيف جحد جميلى وتنكر لاحسانى وشفقتى عليه ، وقالت إنها مسرورة لعلمها أن ذلك اللص الشقى امرأة على قيد الحياة فان ذلك يجعل زواجه منها باطلا بطبيعته دون حاجة للالتجاء إلى قضايا الطلاق المتعبة

وطلبت من ماريانا أن تتصل بمحام كبير للدفاع عنى لخطر الاتهام الموجه إلى وللظروف الخاصة المحيطة بالقضية من جراء اعتراف تريدواى ولكنها رفعت رأسها عالياً وقالت فى لهجة حازمة :

— ليست بك يا أبى من حاجة إلى محام وستطلقون سراحك قبل المحاكمة فسأحمل أنا ذلك اللص على الاعتراف بالحقيقة

فوكدت لها أن لا أمل هناك فى حمل روى على القول الحق ولكنها ابتسمت ابتسامة أشبه باللغز وقالت :

— إنه لا يعرف مقدار بغضى له ، فقد لزمت الهدوء فى حياتى معه ولم أشتبك معه قط فى نزاع ، فأنا أعرف كيف أنتزع الحقيقة منه، وها أنا ذى ذاهبة لأفعل ذلك

وبهذه الكلمات تركتنى ماريانا أسائل نفسى كيف تستطيع حمل ذلك الشرير على الاعتراف بالحق

وأنا أنقل هنا ما حدث بعد ذلك عن لسان رئيس البوليس واثنين من المفتشين فيظهر أن ماريانا قد ذهبت مباشرة إلى الرئيس وارن فأخبرته أنها تريد مقابلة روى تريدواى لتحصل منه على اعتراف يجلى الحقيقة فى موقف أبيها . فأجابها الرئيس بأنها تتعرض لمهمة شاقة لأن تريدواى متشبث بأقواله وليس فى مقدور أحد أن يزحزحه عنها .

ووكد الرئيس لماريانا أنه عارف بأننى مظلوم فى هذا الاتهام وأن محامياً ماهراً يستطيع أن يظهر الحقيقة أمام القضاء . ولكنها رجته فى أن يسمح لها بالمقابلة وأن يسمح لاثنين من رجال البوليس بالوقوف فى سجن مجاور لسجن روى ليسمعا ما يجرى بينها وبينه من حديث . فوافق الرئيس على طلبها وهو قليل الرجاء فى نجاح مهمتها ، لأنه بالطبع لم يدرك أحد مبلغ مهارة ابنتى وحذقها ، فان قراءتها لجميع صحف السينما التى كنت أحضرها لها لم تذهب عبثا ، ثم هى كانت دائماً راغبة فى أن تلتحق بالمسرح

ولما دخلت ماريانا على روى فى سجنه وجدته جامداً مغموماً ، ولكنها لم تلبث أن أنعشته فى مهارة

تامة إذ طوقته بساعديها وأخبرته أنها آسفة لعدم استطاعتها زيارته قبل هذا الوقت ، فقد حبستها أمها فى غرفتها منذ اليوم الذى قبض فيه عليه وعلى أبيها . والحق أن روي كان شديد الحاجة إلى من يحوطه بشيء من العطف وقد سقته ماريانا جرعة وافية من عطفها وحنانها .

ثم بدأت الفتاة تلعب دورها ، ومن حسن الحظ أن روى لم يكن قد عرف بأن البوليس قد تحرى عن سوابقه ، وأن ماريانا قد علمت بأن له زوجة شرعية على قيد الحياة . وكان الفصل الأول الذى مثلته إظهارها الغضب عليّ ، فقالت إنها عاركتنى عراكا شديداً لأننى رفضت أن أسمح لها بمرافقته إلى المدينة بعد تركه عمله فى الجراج . ثم أردفت ذلك بهذه الكلمات :

— كأنه يستطيع أن يفصلنا أحدنا عن الآخر ، وبودى أن أرى ذلك المخلوق الذى يستطيع أن يفرق بيننا . لقد قلت لأبى إننى مستعدة أن أذهب مع زوجى إلى أى مكان يريد الذهاب إليه ، قلت إن روى هو زوجى الذى أحبه ويحبنى وإنى واثقة أن ليس فى الوجود من أحد يمكنه التفريق بيننا

وابتلع غرور تريدواى كل هذا الملق ، ثم مضت ماريانا تنفذ بقية خطتها ، وكان روى قد تأثر تأثراً شديداً باخلاصها وولائها له فقال إنها ملاك فى وقوفها إلى جانبه

فقالت ماريانا قالبة أوراقها الأخيرة :

— ولم لا أقف إلى جانبك ؟ ألم تعرض نفسك للخطر بارتكاب جريمة السرقة حتى لا تقطع عليّ الفرصة التى تطلعت إليها فى رحلة هافانا ، فأية مخلوقة أكون أنا إذا لم أقف إلى جانبك بعد أن علمت بذلك؟ على أنه إن كان هناك ما يحزننى قليلا فهو أن أبى قد اشترك معك فى هذه المغامرة ، لقد كنت أود أن تكون أنت وحدك الذى عرضت نفسك للخطر فى سبيل إرضائى وإسعادى

وماسمع تريدواى هذه الكلمات حتى اندفع فى غير وعى إلى الشرك ، فقد قال على مسمع من رجلى البوليس الواقفين فى السجن المجاور لسجنه يسجلان أقواله :

— أصغى إلى يا ماريانا . إننى قد تشاجرت مع أبيك حين أراد أن يفرق بيننا ، لذلك أشركته فى التهمة معى ، ولكن الواقع أنه لم يشترك معى فى السرقة فقد غامرت هذه المغامرة وحدى ، ولكننى أريد الانتقام منه . لذلك سأتركه يشاركني العقاب

ودفعه الغرور إلى المباهاة بمغامرته فى سبيل إرضائها ثم قال :

— وموضع الفكاهة فى هذه القصة أننى لم أكن أحمل مسدساً عند ما هاجت الرجل ، ولم يكن فى يدى غير مفتاح انجليزى ، وقد اضطررت أن أضرب به أباك على صدغه، على أنه بقى فى يدى عند ما هربت ولا يزال عندى إلى الآن

كان ذلك كافياً ، فلم ينته تريدواى من هذه الكلمات حتى دخل رجلا البوليس إلى سجنه فطوقاه . ثم التفتا إلى ماريانا وقالا :

— لقد أحسنت كل الاحسان أيتها السيدة الصغيرة

ومفهوم بالطبع أن تريدواى لم يكد يتبين الدور

الذي مثلته ماريانا ويرى نفسه قد اندفع فى بلاهة إلى الشرك الذى نصبته له ، حتى هاج وثار داخل السجن رامياً ماريانا بكل ما فى القاموس من ألفاظ السباب مكرراً : خائنة خائنة ..

لقد كان ماحدث لماريانا محنة وتجربة من تجارب القدر ولكنها خرجت منها ظافرة . وقد أفرج عنى في الحال بعد هذا الاعتراف الجديد الذى سجله أحد رجلى البوليس وشهد عليه زميله

وروى تريدواى يقضى الآن مدة الحكم الذي صدر عليه فى سجن الولاية . على أننى بعد الذى حدث لم أفقد ثقتى فى الطبيعة البشرية ، ولا أزال مستعداً لأن أهيء فرصة الإصلاح لأى إنسان ، ولكنى قد أدركت شيئاً آخر هو أن من المستحيل إصلاح مجرم متعود الاجرام مثل روى تريدواى

أما فيما يتصل بماريانا فاني واثق من أن بعض المخرجين لا بد أن يكون فى حاجة إلى مثلها ، فقد برهنت على كفايتها النادرة فى تمثيل المأساة ، وقد وفرت على نفقات المحامي الكبير ووقتنى عار الوقوف أمام المحكمة . وإنى لأتساءل غالباً : أليست ابنتى أرق طبيعة من أن تحتمل التجربة التى مرت بها فى الحياة وإذا لم أكن أنا بعد كل الذى حدث قد أصبت فى عدم إخبارى ماريانا بما عرفته من أمر زوجها قبل سفرها فى رحلة شهر العسل !

عبد الحميد حمدى

بنـــك مصر

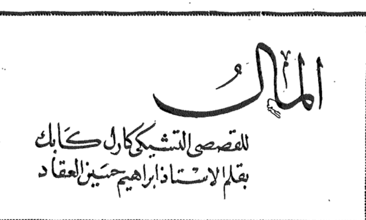
انعقدت الجمعية العمومية العادية لمساهمى بنك مصر بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٩٣٩ بدار البنك بالقاهرة . وبعد التصديق على تقرير مجلس الادارة لسنة ١٩٣٨ اعتمدت الحسابات عن السنة المذكورة . ووافقت على صرف مبلغ اثنين وثلاثين قرشاً أرباحاً لكل سهم مقابل تقديم الكوبون رقم ١٨ ابتداء من يوم الاثنين ١٧ ابريل سنة ١٩٣٩ إلى مركز البنك الرئيسى بالقاهرة أو فروعه بالأقاليم .

وبما أن الكوبون المشار إليه هو آخر كوبون ملصق بالأسهم فنرجو حضرات من يحفظون لديهم أية كمية من أسهم البنك أن يقدموها لمركز البنك الرئيسي بالقاهرة ابتداء من يوم ٣ مايو سنة ١٩٣٩ لالصاق كعوب جديدة بكوبونات أخرى .

وستحجز من قيمة الكوبون ضريبة الحكومة بواقع ٧ ٪ مضافاً إليها خمسة مليات عن السهم الواحد نظير إلصاق الكعوب الجديدة .

عضو مجلس الادارة المنتدب

محمد طلعت حرب



غلبه الداء ثانية وهو يتناول غداءه وأحس برأسه يكاد ينفجر فأسنده إلى راحة يده فى الوقت الذي انسحبت فيه مدبرة البيتِ راثية له وقد آثرت تركه مضجعاً على المقعد الطويل ناعماً — كما خيل لها — براحة كانت فى الواقع عذاباً كابد المسكين قسوته . فقلبه غير منتظم الضربات وممدته قد استحالت فى ثقلها حجراً ، وشعر وقد خارت منه القوى برغبة فى النوم ولكن ... آه ! لو أن الكري واتاه وكحل السهاد عينيه !

ومرت ساعة عادت بعدها مدبرة البيت تدق بابه لتعطيه برقية فضها مسرعاً وقرأ :

٤٠ — ٧ × ١٠ — ١٩ أصل الليلة

« روزا »

أية ليلة تراها هذه الليلة ؟ ! تلك كانت الفكرة التى شغلته والتى وقف حيالها فى حيرة والبرقية فى يده محاولا أن يفسر طلاسم أرقامها ؛ وبعد جهد استطاع أن يفهم أن شقيقته المتزوجة روزا ستصل فى قطار الليل وعليه أن ينتظرها قريبا حضرت لشراء بعض حاجاتها ولكن ... لعن الله نقيصة التسرع فى خلق النساء ! إذ حرمته دون مبرر بعض راحة كان ينشدها

وراح يذرع حجرته جيئة وذهوباً والقلق يسود نفسه لفساد برنامج أعده لقضاء ليلته ... لقد أراد أن يقضيها مضجعاً على المقعد الطويل والكتاب فى يده وضوء المصباح الهزيل يداخل نفسه بروح من الهدوء والاستقرار..

يا للعجب ! لطالما برم بهذه الضجعة وكرهها فى نفسه ولكن . . لأى سبب تراه قد أحبها الآن ؟ ! أى سر غامض جعل هذا الاحساس يسوده فيحب وحدته ويفضلها على كل شيء وبخاصة فى هذه الليلة التى وصلته فيها البرقية التى أمسك بها فى يده وهو تحت سلطان الفكرة الجديدة الطارئة فغلبته رعونة من طفولته القديمة وسرعان ما كان يمزقها إرباً ؟ !

ما أسرع ما يغيرنا الزمن . وما أقصرها فترات تلك التى يجعلنا فيها نتحول من حال إلي أحوال ! ! لقد تغير إحساس الشاب عند ما كان ينتظر فى ذلك الجو الرطب مقدم القاطرة التى تأخرت عن موعد وصولها ... ساده إحساس من الأسى والرثاء إذ كان كل ما حواليه يوحى بالفاقة والفقر والبؤس ... تلك أشياء لسها مجسمة فى وجوه أولئك المنتظرين هباء أو القادمين وقد مستهم الضراء وعبث الكلال بأجسادهم الهزيلة المرهقة

ووسط زحام جموع القادمين استطاع أن يتعرف كيان شقيقته الضامر وأن يلمح وجهها الشاحب وعينيها الشاردتين وهى تسير متهالكة تجر وراءها حقيبة كبيرة ، جعله مرآها يعتقد أن شيئاً ما قد دهم شقيقته العزيزة

واستقل الشقيقان عربة أسرعت بهما إلى البيت دون أن ينسى خلال الطريق أن يعرض عليها المبيت فى فندق يستأجر لها إحدى حجراته إمعاناً فى توفير راحتها ولكنها لم تجبه إلا بسيل من الدموع علقت بعض قطراته بأهدابها فأمسك يدها الضامرة بيديه وراح فى حنان يربت عليهـا . ولكم كانت سعادته عظيمة عندما اكتسى وجه المسكينة بابتسامة مشرقة وهى تنظر إليه نظرة الممتنة الشاكرة ولكن سرعان ما تغير كل هذا عند ما وصلا المنزل وجلست روزا على المقعد الطويل تحوطها الوسائد . . . كانت بادية الرجفة شاردة النظرات تاريتها مرتعشة الشفتين مما روع شقيقها فأقبل عليها مستفسراً طالباً منها أن تكون فى حديثها أكثر هدوءاً خشية أن تمزق سكينة الليل وهى تكلمه فى عصبية قائلة :

— أقول لك إنى فررت... هربت من زوجى ... آه ! لو أنه كان فى وسعك أن تتصور مدى آلام ثقال كنت أنوء تحتها ! ولكن لا ... إنك لن تستطيع أن تصدق كم كان يكرهني... أخى... لقد فررت ... هربت من بيت الزوجية وأتيتك طالبة نصيحتك وإرشادك ...

وانفجرت المسكينة تبكى بدموع غزيرة بينما تجهم وجه شقيقها جورج، وراح يخطو داخل الحجرة فى عصبية ثائرة تصور خلالها حياة أخته مع زوج لا خلاق له يتعمد تقريعها وإهانتها أمام الخدم ... لا يعرف غير ملاهيه وملاذه يجول فيها ويصول ثم يقتر ويغل يده إلى عنقه إذا ما طالبته زوجته المسكينة ببعض ضروريات الحياة ... أية قصة تراها تلك التى أرغم على سماعها خاصة بطريقة الزوج المعيشية وكيف يتناول الطعام ويقابل بالشر ماتسديه زوجته إليه من الخير، وإذلاله الدائم وتحقيرها والمشاجرات التى تنشب بينهما فى وحشية ! وأحس المسكين بموجات من الاشفاق تطغى عليه تخيل إليه معها أنه من الغبن أن يتحمل كل هذا دون أن يحتج أو يحرك ساكنا

ونظر من خلال أساه إلى تلك الشابة المسكينة المهدمة التى غلبها الضنى وأذوى عودها الهم وهى التى ما عرفت الخنوع ولا رضيت المهانة وعاشت مدللة محبوبة ثورية ذات كبرياء وأنفة ... هذه الفتاة التى كانت تناقش ولا تخضع لرأى ، والتى كانت عيناها تتوهجان ببريق لامع يعبر عن الذكاء ... المسكينة ! تجلس الآن وقد جرفتها سيول الحزن وفاضت مدامعها وتهدج صوتها الطروب حتى كانت تتكلم بصعوبة لم تحتملها أعصاب جورج الذى صاح يريد إسكاتها وهو يغالب أحاسيسه الرائية :

— كفى ... إننى أعرف كل شيء

وخارت قوى المسكين ولم يستطع إتمام حديثه فى الوقت الذى زاد فيه نشيج روزا وهى تقول :

— لا تقل هذا ... إننى ضالة فى هذه الحياة، وليس لى فى هذه الدنيا سواك

واتسع المجـال للبكاء فملا صوتها وهى تقص مأساتها وما حدث لها وصوتها يتلون مع رهبة الحوادث وقسوتها . . . وفجأة توقفت عن البكاء وسألت شقيقها :

— وأنت جورج ... كيف حالك ؟

— بالنسبة إلى أعترف لك أنى لا أستطيع

الشكوى ولكن .. بالنسبة لك .. هل تنوين العودة إليه ثانية ؟ !

— أنا ! ! محال ... هذا مستحيل لن يحدث بل إني أوثر الموت على ذلك ... آه ! لو أنه كان في وسعك أن تتصور أي حياة كنت أحياها !

— حسن . . . ولكن انتظري . . . في هذه الحالة ما الذي تنوين عمله ؟

لقد فكرت في هذا قبلا ... سأقوم بمهمة التدريس أو ألتحق بأي عمل ما ... لا تعجب فان الزمن كفيل باقناعك أني مستطيعة النجاح في عملي وبأني سأكون سعيدة إذ أربح قوتي بنفسي . . . لست أطلب إلا نصيحتك وتشجيعك .. أما مسكني فسأجده سريعاً في أي مكان ولكن فكر معي قليلا ..

ونهضت من مكانها في عصبية وراحت تذرع الحجرة إلى جانب جورج وهي تحدثه قائلة :

— إن المنقولات القديمة التي تركها أبوانا ستكون من نصيبي ... لا تنظر إلى هكذا حتى أتم حديثي ... لست أريد شيئاً ولكني أريد أن أعيش في هدوء وسلام غير عابئة بكوني فقيرة ، لأن أقل شيء سأجد فيه كفايتي ما دمت بعيدة عن ذلك الجو ... إن العمل هو غايتي وإليه أصبو ... سأغني فقد مر زمن طويل لم تردد فيه شفتاي أي لحن .. بجورجي ... آه لو تعلم !

— تطرقين أبواب العمل ! ! إنني في شك من تحقيق ذلك بل إني أؤكد لك أنك لست مستطيعة هذا لأنه شيء لم تتعده نفسك ... ستجدين العمل صعباً ... صعباً جداً يا روزي

— كلا ... أنت لا تعرف كيف كنت أعيش ... أي آلام كابدت حزازتها وأي تقريع كان يوقر أذني ويضني جسدي من أجل اللقمة التي كنت أتبلغ بها أو الكساء الذي كان يسترني ... لا أستطيع أن أعمل ! ! كلا أنا واثقة من قدرتي على العمل وسترى بنفسك كيف سأخطو بنجاح وكيف سأكون سعيدة في حياة أتخيلها مظللة بالهدوء والأمن ... سأجد راحة النفس في كسرة جافة أمسك بها رمقي وهدوء الضمير في مكان خشن آوي إليه ... شجعني بكلمة ... قل إنه باستطاعتي أن أصبح إحدى النساء اللائي يعملن ويجاهدن من أجل العيش ... وحتى لو ما كستني الظروف سألتحق بأحد المصانع .. ها أنت ذا ترى أني عددت للأمر عدته تماماً ...

أيتها السموات الرحيمة ! ! أي أمل براق هذا الذي جعلته يداخل نفوساً محطمة ! ! لقد أحس جورج بالخجل يجلله إذ كان ينظر إلى العمل نظرة غريبة حورتها هذه الفتاة المشبوبة الحماس ... هاهي ذي تعود أعواماً إلى الوراء .. إلى أيام طفولتها .. إنها لا بد مصيبة كل نجاح ... بل كيف يقدر لمن لها مثل هذا الروح أن تلاقي الفشل ؟ !

واستطردت روزا ثانية تقول :

— سأغامر وإنك لتراني مقدمة على هذه المغامرة ... لن أقبل مساعدة من مخلوق وسيكون في وسعي أن أربح وأن أزين مائدة طعامي ببعض الأزاهير . . . وحتى هذه الأزاهير إن عز علي نيلها سأكتفي بأن أراها وأن أجتاز الطرقات ... أية أحاسيس طاغية غمرتني بالهدوء عند ما استقر رأيي

على الهرب ... الفرار من ذلك الجحيم الذى كنت أعيش فيه، وما أبعد الفرق بينه وبين حياة بدأت الآن أراها طالما احتلت خيالى وتفكيرى ... كم أنا سعيدة!!

— أيتها المجنونة الصغيرة، إنه ليس بالأمر السهل ما تفكرين فيه ... سنفكر سوياً ولكن ... عليك أن تريحى الآن جسدك المرهق على ألا تتحدثى فى هــذا الأمر واتركينى إلى وحدتى فلدى بعض أفــكار . وحتى إذا ما طالعنا الصباح الجديد بأضوائه صارحتك برأيى فى الأمر الذى تنتوين ... اذهبى الآن لتنامى .

كان من العبث إقناع روزا باحتلال فراش أخيها إذ صممت على قضاء ليلتها نائمة على المقعد الطويل وهى فى كامل ملابسها ، الأمر الذى لم يجد جورج معه إلا موافقتها، فدثرها بكل ما لديه من غطاء دفىء ثم أطفأ المصباح، فساد الهدوء المسكن إلا من تهدجات صدرها التى كانت كمن تستصرخ السماء مطالبة بالرحمة.

وفى دعة فتح جورج النافذة لتغمر الحجرة نسمات هذه الليلة الهادئة من ليالى أكتوبر وقد صفت السماء وراحت النجوم تلمع على صفحتها ... وجرت به الذكريات إلى الماضى أشواطاً بعيدة.... تذكر ليلة ما وهما صغيران : هو وروزا ، وقد وقفا متلاصقين إلى جانب النافذة فى إحدى الليالى الباردة يرقبان الشهب وهى تنتقل من بروجها وقد جمــل جسد روزا يهتز إثرعبث رياح الليل به ... إن صوتها الساذج الحنون ما زال يتردد فى سمعه وهى تهمس قائلة :

« عند ما يهوى نجم سأتمنى على الله أن يجعلنى ولدا وأن يشد أزرى لأقوم بعمل عظيم » .

كان الأب فى تلك الليلة غارقاً فى نوم عميق بينما كان الأخ يستشعر العظمة فى نفسه فضم الصغيرة إليه ليحميها فى صدره إذ كانت ترتعد من برد الليل وحمى أحلامها ... وهوى نجم من السماء إلى الحديقة وعلا صوت الصغيرة روزا تقول « جورج...» وأجابها أن نعم وهو يفكر فى نفسه فى ذلك العمل العظيم الذى تتمنى القيــام به ... أيتها المخلوقة المسكينة التعسة ... أى عمل جليل هذا الذى تحلمين به ؟! إنك إذ تحلمين بالمجد تنبذين الراحة وتحملين كتفيك الرقيقتين من الأثقال والهموم ما لا قبل لهما بحمله .. نعم إنك لست بالقادرة على شىء وحتى لو أردت أن تمدى يدك لصرعى البؤس لجرتك أيديهم إلى الهاوية .. وسمع وهو فى وقفته تلك همس الصغيرة وهى تناديه ثانية : « جورج » فالتفت إليها قائلاً :

« أنصتى إلى ... لقد فكرت فى الأمر فلم أجد من الأعمال ما يليق بك ... إن هناك أعمالاً كثيرة ، ولــكنك لست مصيبة منها الربح الذى تبغين »

وأجابته وهى فى هدوء :

— سأرضى بالقليل

— كلا ... انتظرى لحظة لأنك لا تعرفين معنى قولك.. ها أنت ذى ترين أنى سعيد بعملى قانع بمرتبى ، بل وفى وسعى أيضاً أن أحصل على عمل آخر « بعد الظهر » ولكنى لا أريد لأنى لا أعرف أى عمل سأمارس ولذا أعرض عليك بعض المال

— أى مال تعنى ؟!

— سأتنازل لك عن نصيبى فى أرباح تركة

والدى ... إنه مبلغ تحصلين منه على إيراد سنوى يبلغ خمسة آلاف جنيه

وهبت الفتاة صارخة:

— هذا مستحيل

— أوه! لا تصرخى ... إنها الأرباح فقط فاذا لم تريديها فبوسعك عدم صرفها

— وأى شىء سيتبقى لك أنت بعد ذلك؟

— لا تهتمى بهذا ... كثيراً ما غلبنى الخجل على أمري من العمل «بعد الظهر» ... والآن ... هذا المال يضايقنى وجوده فهل تريدينه أم لا؟!

واقتربت الشابة من شقيقها ثم طوقت عنقه بذراعيها وقربت من وجهه وجهها المندى بالدموع وقالت والفرح غالبها:

— جورج ... لقد قبلت ما عرضته على وهو شىء ما فكرت فيه ... أقسم لك أنى لم أكن أنتظر منك أى مساعدة ولكن ما دمت أنت تريد ...

— دعى هـذا الآن فليست له الأهمية التى تظنين ... إن هذا المال يا روزا ليس بذى الأهمية بالنسبة إلى ... يجب على الرجل أن يعمل ... إلا أنى أعود لأسألك: وماذا عسى أن يصنع رجل واحد؟ إن الطواف والتجوال مهما طال به أمرهما فانه لا بد عائد مرة أخرى إلى نفسه ... إنه لأشبه ما يكون بانسان تحوطه المرايا من كل جهة بحيث لن يرى إلا صورته التى تنطق بالوحدة ... آه أيتها العزيزة لو أنك تعرفين المعنى الحقيقى من كل هذا؟ لا. لا يا روزا، لن أجملك تتصورين كل هذا الهول بل أرى أنه من واجبي أن أعترف لك بأنى سعيد بمقدمك ... أنظرى إلى السماء الصافية رصعتها لآلئ النجوم الدرية ... ألا يعيد مرآها إلى خيالك ذكرى ليلة وقفنا فيها صغيرين إلى جانب نافذة بيتنا نرقب النجوم وهي تهوى ؟!

وحولت وجهها عنه وقد علته صفرة رهيبة، ونظر إليها فروعه ذلك البريق المخيف الذى اتقدت به عيناها وسمعها تقول:

— كلا ... لست أذكر شيئاً مما تقول، بل لا أعرف للآن أى شىء يجمل هذه الذكرى حبيبة إلى نفسك!

وغلبته الفرحة وهو يقترب منها سعيداً وقد جعل يمر براحة يده على شعرها الأملس وهو يقول:

— دعى الآن حديث المال ... ما كان أبرك عند ما فكرت فى الحضور إلى هنا ... أيتها السموات كم أنا سعيد لأن النافذة انشقت من بين المرايا العديدة ... هل تتصورين هذا؟! لم أكن أهتم بغير نفسي حتى لقد برمت بها ... أتذكرين؟! أتراك تذكرين ليلة تساقطت النجوم فيها ... ما عساها كانت أمنيتك التى أردت؟! وهذه الليلة ... أية أمنية تجول بخاطرك لو هوي نجم .. أى شىء تطلبين؟

— شىء لى ... لا ... وأطلب شيئاً لك ... حادث تتمناه، أطلب من السماء أن تحققه لك

— ليست لى مطالب ولا رغبات، وإنى أشكر الله على ذلك يا روزا .. والآن .. هل فكرت فى شىء؟ انتظرى حتى الغد فأستأجر لك مسكناً يشرف على مناظر بهجة ... إنك لن ترى من هنا

سوى فنـاء البيت ، ولكم يحز فى النفس ألا تنعم دواماً برؤية السماء وما على صفحتها من نجوم لامعات

وغادر الحجرة وقد غمرته أحاسيس غريبة بين صور باسمة للمستقبل وسعادة مواتية ، ثم عاد إليها ثانية فألفى روزا وقد داعب الوسن جفنيها وهى تنظر ناحيته قريرة هادئة ، فراح فى نشوة من غبطته يتصفح الصحف لعله واجد فيها مسكناً جديداً يرضيها . . . وهكذا ظل حتى طالعه الصباح وهو بأفكاره جد قرير ...

وبدأ جورج حياة جديدة وانتقل إلى مسكن جديد واعتاد أن يؤدى الكثير من الأعمال الاضافية التى أرهقته بادئ ذى بدء ولكنه اضطر إلى احتمالها إذ كان يسمع صوتاً داخلياً يقول له : « تحمل لأنك لا تعيش لنفسك فقط بل من أجل غيرك » حقاً لقد كانت تلك حياة جديدة بالنسبة إليه ...

وحل على جورج فى يوم من الأيام ضيف جديد كان أخته الأخرى تيلدا المتزوجة من أحد أصحاب المعامل القريبة من المدينة والذى لم يصب فى عمله نجاحاً كبيراً . وقد اعتادت كلما حضرت إلى براغ أن تزور جورج فتقص عليه من سيرتها وسيرة أبنائها الثلاثة الصغار الشيء الكثير حتى لكأن العالم قد أقفر ممن فيه إلا أطفالها ... ولكن زيارتها هذه كانت غريبة روعته ، فدق قلبه هلعاً ورهبة ، إلا أن الهدوء داخله سريعاً عند ما علم أن الأولاد الثلاثة بخير ، وأن المعمل يسير من سيئ إلى أسوأ وأنها حضرت إلى المدينة لتبحث عمن يقبل أن يشتريه ... ونظرت حواليها نظرة غريبة ثم استقرت عيناها على ثقب فى البساط ونظرت إلى جورج فجرى دم الخجل فى عروقه وهى تسأله :

— وإذاً روزا هنا ؟ لقد تركت بيت زوجها لأنه كما تقول يتعمد إهانتها ... قد يصح وقوع هذا ولكن ... لا بد لكل شيء من سبب ... لقد كان لزوجها ملء الحق فى كل شيء فعله ... إن روزا ... لست أدرى بم أسميها ... إنها ليست بالصالحة لكى تكون زوجة ... لا أولاد لها ولا عمل ولذا لا تراها تهتم إلا ... بنفسها ... إنها مبذرة جعلت المسكين زوجها يغرق فى الدين ثم تركته ... ألم تلاحظ ثوبها ؟ !

— لا ...

— إنك لا تعرف كم يساوى ... إنها تشترى الفراء بآلاف الجنيهات لتبيعه ببعض المئات كى تشترى بهـا أحذية ثم تخفى قوائم المطالبة بالدفع فتصلهم الانذارات ... ألم يصلك نبأ هذا ؟ !

— كلا . فانك تعلمين أنه لا صلة تربطنى بزوجها

— إنه مخلوق عجيب ... يثور عند ما تترك ثوبه دون إصلاح وتتفنن هى فى زينتها حتى لتبدو كإحدى الدوقات ... تغشى المجتمعات وتصاحب الرجال و ...

— كفى ...

— ربما تكون قد أقنعتك بأنها ستقوم بتدبير شئون منزلك فجعلتك تترك مسكنك إلى آخر أكثر سعة . . . إنهـا ليست فى حاجة إلى كل هذا لأنها أحضرته معها إلى هنا . . . ضابطها ... لقد صدر أمر بنقله إلى براغ ولهـذا هربت من بيت زوجها

وحضرت إلى هنا مع عشيقها ... إنها دون شك لم تخبرك بشيء من هذا

— تيلدا ... إنك تكذبين

— حقق بنفسك هذا الأمر . . . إنك طيب القلب ولولا حبي لك ما صارحتك ... إن روزا لم تهتم بك في يوم من الأيام حتى إنها قالت عنك إنك ...

— كفى ... اذهبي ... اذهبي أتوسل إليك واتركيني أنعم بهدوء أتطلبه

— سأذهب ولكن ... إن المكان هنا قذر وجدير بك أن تبحث عن آخر أكثر ملاءمة لك ... إنك لترى الظلمة تسوده ... هل أرسل لك ...

— لا ... لست أريد شيئاً

— حسن ... أنا ذاهبة ... إلى اللقاء يا جورج ...

واعتورت الرعدة بدنه المحموم وجف حلقومه وحاول دون طائل أن يؤدي أي عمل فلم يجد سوى أن يحطم القلم ويمزق بعض الأوراق، ثم غادر مسكنه ذاهباً إلى البيت الذي اتخذ من أحد أقسامه مسكناً لشقيقته روزا، ولكن مديرته أخبرت جورج أن السيدة الصغيرة قد خرجت منذ الصباح ولم تعد وإن كان لديه خبر فستحمله لها، ولكن الشاب الثائر تركها دون كلمة وعاد يجر نفسه كمن يحمل على كتفيه أثقل الأحمال حتى وصل مسكنه فولج بابه وجلس إلى نضده محاولا أن يعمل ولكن الساعات مرت دون أن يفرغ من الصحيفة التي أمامه كما أن الليل خيم دون أن يفكر وهو في جلسته أن يوقد المصباح. وأخيراً دق الجرس دقات مرحة ولم تمض لحظات حتى كانت روزا أمامه تبتسم في حنان وهي تسأله :

— نائم أنت يا جورجي ؟ ! كيف ... ما أكثر ظلمة هذا المكان ... أين أنت ؟ !

— كنت مشغولاً ...

— أنصت إلي ... لقد فكرت أن آتيك هنا مباشرة ولكن فكرت في أنك ربما لم تعد إلى البيت

— لماذا ... وأين تظنينني أكون ؟ ! أظن أنك أنت لم تكوني في بيتك

— أي مكان تظنني كنت فيه ؟ ! ما أجمل مسكنك هذا وما أشد فرحي لأني معك ... تعال ... تعال واجلس إلى جانبي ... إنني سعيدة ...

وأسند وجهه إلى فرائها الذي تندى برطوبة الخريف وقال يحدث نفسه « لعلها ذهبت إلى مكان ما فما شأني أنا بذلك ؟ » ، ولكن ذلك لم يكن داعياً ليداخل الهدوء نفسه إذ جعل قلبه يدق مرتاعاً فأخاف روزا وقالت له :

— ما الذي حدث ؟ !

— لا شيء ... لقد زارتني اليوم تيلدا ...

— تيلدا ... وتحدثت عني ؟ ! ما الذي نقلته إليك ؟ ! تعال . . تكلم . . إنها ولا بد سبتني لك . . ما الذي قالته ؟

— لا شيء قلت لك ... بعض أخبار صغيرة

وانفجرت الشابة باكية معولة وهي تقول :

— المخلوقة القذرة التي ما أحست طوال حياتها نحوي إلا بالغيرة. وماذا عساي فاعلة إزاء هذه الظروف التي تناصبني العداء ... إنها ولا بد قد أتت عند ما عرفت ما فعلته من أجلي وما قدمته لي من المال، وإني أقسم لك أن لو كانت هي وزوجها في بحبوحة من

الرزق ما فكرت فى طرق بابك أو التحدث عنك كانسان تربطك بها وشيجة الرحم ... إنها تريد كل شىء لها ... لأولادها ... هؤلاء اللاعبين الصغار ...

— لا تطرق لهذا الحديث بابا وكفى عن ذكر هؤلاء جميعاً ...

— بلى، إنها تريد أن تفسدعلى كل شىء وأن تحطم حياتى بل إنها لم تكد تعلم بما أصبته هنا من هدوء بال وراحة حتى أتت تنغص على عيشى ... صارحنى ... هل صدقت ما قالته لك ؟!

— كلا ...

— أنا لم أكن أتطلب من شىء سوى أن أستشعر حريتى ... أوليس من حقى أن أنشد السعادة ؟ ما أردت شيئاً ولكن نلت بعض ما كنت أبغى وها هى ذى قد أتت ...

— لا تهتمى بذلك .

وقام من مكانه ثم ذهب إلى المصباح فأوقده وعاد يطيل النظر إليها وهى مطرقة الوجه وشفتاها ترتعدان ... ما أجملها وأبدع هذا الثوب من الشباب الفاتن يزيدها روعة ! كانت فى رداء قشيب وقفازين صغيرين أفصحا عن محاسن يديها وجوارب حريرية ... كانت مضطربة الأعصاب فتركت يدها المرتجفة تعبث بخيوط المقعد الكبير ... وتنهد ثم قال لها :

— هل تسمحين ... إن لدى بعض أعمال تتطلب الانجاز .

— حسن ...

وقامت من مكانها وقد تجسمت فى هيئة تمثال خائف مشبك الدراعين على صدره وهى تنظر إلى شقيقها الذى رفع إليها وجهه، ثم تمتم ألا تجزعى وعاد ثانية ليواصل عمله . وكان العمل المستمر هو سلوانه الوحيدة فى غده إذ ظل منكباً على أوراقه من مطلع النهار إلى غروب الشمس عند ما أتته ثانية روزا وإذ نهض ليتبينها طلبت منه فى همس أن يستمر فى عمله لأنها ستجلس قبالته ... وحاول جورج أن ينفذ طلبتها دون جدوى إذ كان يحس أن عينيها النافذتين المتلألئتين بشتى الأحاسيس والعواطف ما انفكتا تنظران إليه وتديمان التطلع إلى وجهه ... وفجأة سمعها تقول :

— لم لم تأت اليوم لزيارتى وقد انتظرت مقدمك دون أن أبارح البيت ؟!

ووضع جانبا القلم ثم التفت إليها ... كانت فى ملابس سوداء رشيقة وقدا كتسى وجهها صفرة وشحوباً ... وأجاب :

— يخيل إلى أن الجو أكثر برودة هذه الليلة

— لا شك أنك تعرف ما آل إليه حال تيلدا . إن زوجها رجل ساذج تغره الظواهر ولذا لم يعرف كيف ينظم أعماله فساءت ... كان له عميل سرقه وغرره بالأمانى فساءت العاقبة ... إنه على شفا الافلاس، وها هم أولاء مقبلون على مصير غامض وقد كان جديراً به أن يفكر قبل تورطه فى مصير أولاده

— لا أعرف عن هذا أى شىء ...

وسكتت روزا على مضض ولكنها لم تيأس ثانية من مهاجمته وآثرت أن ترمى آخر سهم فى جعبتها فقالت متممة :

— ولما ساء حال زوج شقيقتي تيلدا إلى هذا الحد لجأ إلى زوجي ملتمساً عونه ولكنه رفض إذ كيف يبقى وزوجته على مال وقد كان لهما منه ثلثمائة ألف أضاعاها

— وهل هناك من سر جعلك تصارحينني بما قلت ؟!

— رغبة مني في أن أجعلك تقف على الحقيقة لأنك طيب القلب وتحب مساعدة الآخرين ...

— هذا لطف منك

لم يحول عينيه عنها وهي في مكانها وقلبه يدق مضطرباً بين جنبيه ... لكم كان في شوق إلى سماع كلمة حنان منها تصارحه فيها بأنها تود أن تبحث عن عمل ولا تعيش عالة على الآخرين. تقوم بخدمته المنزلية ... تترك مسكنها الفخم إلى آخر ولكنها لم تفعل بل راحت تطيل النظر إلى النافذة ثم بدأت حديثاً آخر

وفي اليوم التالي تلقى جورج من شقيقته تيلدا الرسالة التالية :

عزيزي جورج :

لكم أسفت إذ تركتك في مثل حالتك ولكنها الظروف . . . هي أيضاً ما حدا بي إلى الكتابة ثانية إليك لأصارحك أنه قد ساءت حالنا ولن تستقيم إلا بعد أن ندفع خمسين ألفاً نحن زعيان بأنها لا بد عائدة ، لأن المستقبل لصناعتنا وبوسعي أنا وزوجي أن نعطيك الضمان الكافي للتسديد في ظرف عامين لو أنك دفعت ديننا وأنقذتنا من هاوية الفقر ...

إنني أعرف فيك طيبة القلب وهي التي ستدفعك إلى مساعدتنا ولاساءت العاقبة وعضنا الدهر بنابه فيتشرد الأطفال ويصبح أكبرهم شارل الذي يحلم بالمستقبل شحاذاً منبوذاً ... وأنا واثقة أنك ستحضر لانقاذنا وأنك سوف تحب الأطفال

لك حبي أنا ... أختك التعسة : (تيلدا)

حاشية : — « أما ما قلته لك عن روزا وأكدت أنت لي كذبه فأخبرك أن زوجي سوف يحضر إلى براغ ومعه حجج دامغة تثبت صدق ادعاءاتي ... إن روزا لا تستحق حبك وعطفك لأنها لطخت بالعار هاماتنا ؛ والخير لها أن تعود إلى زوجها، وإنه لصافح عنها كي تترك لأولادي الصغار لقمة العيش التي بها يتبلغون »

أي ضيق هذا الذي يحسه ... إنه من العبث أن يستمر في عمله على هذه الصورة من الارتباك الذهني، وإنه لخير له أن يغادر مسكنه إلي الخارج عساه يستطيع أن يروح عن نفسه ... واعتزم الذهاب لزيارة روزا ... وصل إلى مسكنها ولكنه لم يكد يقدم على دق بابها حتى سمع من الضمير صوتاً نهاه فعاد أدراجه متلصصاً، وإذ هو في الطريق أبصر شابة تتشح بالفراء متعلقة بذراع أحد الضباط تخط الخطي خلفهما كعاشق تعبث الغيرة به ، ولكنه لم يجدها روزا ... كانت فتاة أخرى فاتنة متبرجة فيمم شطر مسكنه ولم يكد يلجه حتى ألفى روزا المسكينة مستلقية على المقعد الطويل غارقة في بحر من مدامعها وبمقربة منها سقطت رسالة تيلدا التي تركها جورج عند مغادرته المسكن ... وأحست بمقدم أخيها فقالت له متوسلة بصوت خنقت الدموع نبراته :

— يا شقيقي المسكين ... أرأيت هذه المخلوقة

التمسة التي تريد أن تسرقك علانية؟ لا تعطها شيئاً ولا تصدق كلمة مما قالته ... إنك لا تعرف أي نوع من النساء هي ... ألم تر إلى تهجمها كيف تصبها كذباً عليَّ؟ ما الذي فعلته لها؟ ما أروع هذه الأفكار ... إنها لا تريد شيئاً سوى المال وعن طريق سلبك. مالك تعمدت الاساءة إلى ...

— إنها أم لأطفال ياروزا.

— تلك هي ذريعتها الأبدية ... لطالما سرقتنا وما كانت لتهتم بسوى المال.. تزوجت من أجل المال. ألا تذكر أن أمانيها وهي طفلة كانت تنحصر في تخيلها الغنى واليسار ..؟ إنها مخلوقة شرسة، فهل لك أن تدلني على ذلك الشيطان الذي تقمصها ؟! إنها تريد الآن أن تسرقني فهل أنت يا جورج معطيها هذه الفرصة ؟! هل ستتخلص مني ؟! لخير لي أن ألقى الموت غرقاً من أن أعود ثانية

وكان جورج يسمعها وهو محنى الرأس . . . أجل .. إن هذه الفتاة تقاتل من أجل كل شيء.. تقاتل تيلدا .. بل تقاتله هو نفسه إن حاول أن يسلبها شيئاً ... المال ... ودوت في أذنيه هذه الكلمة وجملته ينصت مرة أخرى إلى روزا وهي تقول :

— لقد كان منحك إياي المال أشبه الأشياء بالمعجزات . . . إنك أنت الذي وهبني هذا المال وكان جديراً بك ألا تهبه مادام التفكير في استرداده كان يراود خيالك

— إنه مالي ... ملكي الخاص وإني سأفكر في هذا الأمر

تلك كانت أول مرة يهين فيها روزا فلمعت عيناها ببريق من الكراهية ولكن صرامته البادية أسكتتها فأحنت رأسها وانصرفت

وفي اليوم التالي طرق بابه زائر . . . كان زوج تيلدا الضخم الجثة الذي يشبه الكلب في ملامحه .. ولقيه جورج متجهماً ولم يقم احتراماً لمقدمه كي يتركه واقفاً ثم سأله في لهجة آمرة :

— ما الذي تريده ؟!

وروع الحديث المفاجئ الضيف القادم فأرتج عليه وقال :

— أنا ... أنا ... إن تيلدا هي التي أرسلت هذه الأوراق التي طلبتها أنت ...

— أنا ما طلبت شيئاً

— لقد كتبت تيلدا إليك أيها الأخ وشرحت ظروفنا ... فان كنت تريد مشاركتنا العمل، وإني أؤكد لك أن المستقبل ...

وفي هذه اللحظة انفرج الباب في بطء وأطلت روزا التي روعها أن ترى زوج تيلدا ... وقال جورج لها :

— ماذا حدث ؟

— جورج ...

— لدي أعمال وزائر كما ترين ... هل تسمحين ؟!

وفي رهبة قدم زوج تيلدا الرسائل وهو يقول:

— وهذه يا سيدي هي الرسائل التي كتبها لنا زوجها وبعض أوراق أخرى ...

وتهالكت التمسة وأمسكت بالباب إذ خانتها القوى في الوقت الذي شمت فيه شقيقها يطلب من القادم أن يعطيه الرسائل، فلما أخذها لم يكلف نفسه عناء تصفحها بل أعطاها أخته وهو يقول:

— خذي هذه . . . واسمحي لي أن أقول لك

لا تذهبي إلى المصرف من أجل المـال لأن ذهابك لا فائدة فيه ... والآن يا سيدي ما هي مهمتك ؟ !

— المسألة تنحصر في ... رأس المال ...

— اصغ إلي يا سيدي ... لست أراك كما تدعي رجل أعمال

— سأعمل جهدي و ...

— كيف أستطيع أن أوليك ثقتي وتكون أميناً في نظري ؟ !

— أعدك بذلك ... إن لدينا أطفالا ...

— كفى ... يمكنك أن تأتيني بعد عام

— بعد عام !

— وداعاً يا سيدي ...

ومادت الأرض تحت قدمي التمس وغشت عينيه سحابة من الكدر واستدار مغادراً الحجرة وهو يقول

— وداعاً و ... شكراً لك

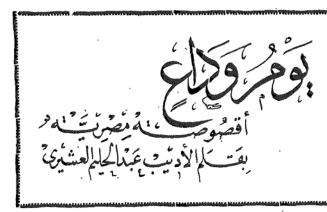
. . . .

وأحس جورج هدوء الوحدة وساده ضعف حبيب فقام يرتب الأوراق المبعثرة على النضد ثم نادى مدبرة البيت التي ما إن أتت حتى كان قد نسي ما اعتزم قوله لها .. وأرادت السيدة أن تعود ولكنها سمعت صوته

— قفي ... إذا أتت اليوم ... أو في الغد ... أو في يوم من الأيام شقيقتي روزا فقولي لها إني منتكف و ... إني لا أستطيع أن أقابل أحداً ...

وخرجت السيدة وشملته الوحدة ثانية فاستلقى على المقعد الطويل وهو ينظر إلى عنكبوت بدأ نسيجه في ركن الحجرة الواقع فوق رأسه

ابراهيم حسين العقاد



« فتى وفتاة فى سن الشباب يسيران جنبا إلى جنب فى شارع مقفر موحش ، وفى يوم من أيام الشتاء التى تحمل معنى الشتاء »

***

الفتاة — كم هو قبيح هذا اليوم ! جو رطب مشبع بالضباب ، سماء ملبدة بالغيوم تنبئ بمطر قريب ، صمت ووحشة ، ترى لماذا استدعيتنى فى مثل هذا اليوم يا حبيبى ؟!

الفتى — حسبتك أحسست ...

الفتاة — (فى خوف وهى تلتفت إليه) ماذا تقصد ؟

الفتى — (يهم بان يتكلم ثم يتردد ويطبق فمه ثانية)

الفتاة — لماذا لم تجب ؟

الفتى — إنى خائف ...

الفتاة — مم ... ؟

الفتى — عليك ... على قلبك ...

الفتاة — (فى حدة) إنى لا أفهم كلامك ، ليس هكذا كنت تكلمنى ...

الفتى — يؤسفنى هذا ... ولكن يجب أن تعذرينى . فانى ... فانى ...

الفتاة — قل ما ستقول ... إنى لا أرتاح لهذا التردد ...

الفتى — ولكنى خائف ...

الفتاة — (ثائرة) تخاف ... أتكررها للمرة الثانية ؟ إنى لا أفهمك ، لقد تغيرت كثيراً يا صاحبى

الفتى — يؤسفنى هذا أيضاً و ...

الفتاة — ويجب أن تصمت إذا كنت تريد أن تجعل كل كلامك على هذه الوتيرة ...

الفتى — (فى حيرة) لو عرفت ما بى لما قلت هذا الكلام ، ولما ثرت هذه الثورة ...

الفتاة — (تتكلف الهدوء) وما بك يا عزيزى ..؟

الفتى — إنى خائف ...

الفتاة — (فى صوت منفعل) قلت لك تكلم كلاماً مفهوماً . إنك تخلع قلبى ...

الفتى — يؤسفنى هذا أيضاً ... و ...

الفتاة — (فى صوت منفعل أيضا) أف منك ! إنك تغيرت كثيراً جداً ...

الفتى — (فى حيرة) قد أكون تغيرت حقاً ، ولكن يجب أن تهدئى من ثائرتك بعض الشىء ، إن ما بى فيه الكفاية ...

الفتاة — وماذا بك ؟ ليتك تجيب هذه المرة ..

الفتى — (فى عزم وهو يستجمع قوته) أجل سأجيب ... إنى ... إنى ... إنى ...

الفتاة — إنك .. إنك .. إنك ، إنك ماذا ؟ لقد أصبح من الواجب عليك أن تصمت ...

الفتى — لقد كنت أود هذا ، لولا أنه من الضرورى أن أتكلم ...

الفتاة — حسن . تشدد يا عزيزى هذه المرة أيضاً وحاول أن تتكلم ...

الفتى — (فى عزم وهو يستجمع قوته) أجل سأتكلم هذه المرة ، إنى ... إنى استدعيتك لأقول لك ... لأقول لك ... لأقول لك ...

الفتاة — (برافو) . لقد زدت على كلامك السابق ثلاث كلمات ، حاول أيضاً حاول بقوة ...

الفتى — إني استدعيتك لأقول لك كلمة واحدة

الفتاة — وما هى أيها الحبيب ... ؟

الفتى — هى ... هى ... إنى خائف ...

الفتاة — خائف .. خائف .. يا صاحبى يجب أن تنزع عنك هذا الخوف ...

الفتى — يخيل إلى أنى لا أستطيع ذلك

الفتاة — بل تستطيعه بقليل من العزم . هيا .. هيا قل كلمتك ...

الفتى — (يبتلع ريقه ويحاول أن ينزع عنه خوفه)

الفتاة — كن قوياً ...

الفتى — كلمتى هى ... « يتردد »

الفتاة — كن قوياً تشجع ...

الفتى — هى ... (يتردد)

الفتاة — (حانقة) إن صبرى فرغ .. بودى لو أصفعك ...

الفتى — (فى جد وهو يقدم لها خده) أوه هذا قليل والله اصفعى ...

الفتاة — (ضاحكة) إنك بطل ...

الفتى — تكذبين . فأنا والله أضعف خلق الله اليوم ...

الفتاة — دع هذا . ما هى كلمتك ...

الفتى — أجل كلمتى . يالله ... لو أتمكن من إخراجها من فى ...

الفتاة — (ساخرة ضاحكة) هل تستطيع القبلة إخراجها ؟

الفتى — بل هى تمنعها أكثر من الخروج

الفتاة — (متصنعة الجد) يا لها من كلمة !

الفتى — نعم ، يا لها من كلمة . إنها الحد الفاصل بين حياتين ، بين قلبين .. بين ..

الفتاة — (هالعة) اصمت . اصمت إنك تؤذينى

الفتى — ألم أقل لك ...

الفتاة — بل تكلم ... قل كلمتك ...

الفتى — الا ...

الفتاة — (تنظر إليه فى خوف)

الفتى — الود ...

الفتاة — (تنظر إليه فى خوف)

الفتى — الوداع . أشهد أن لا إله إلا الله ، هذه هى الكلمة التى استدعيتك لأقولها لك ...

الفتاة — (تنظر إليه فى دهش ورعب)

الفتى — (فى حزن) ألم أقل لك . ألم أقل لك الذنب ذنبك ...

الفتاة — إنى . إنى لا أفهمك ...

الفتى — وهذا ما اعتقدته ، ولكن حاولى ، حاولى أن تفهمينى ...

الفتاة — سأحاول ... وضح مرماك ...

الفتى — إذن سأكرر كلمتى أتريننى أستطيع ؟

والفتاة — . . .

الفتى — ولكن يجب أن أستطيع (يتشدد) إستدعيتك لأودعك ...

الفتاة — (كأنها تحلم) إستدعيتنى لتودعنى ...

إستدعيتني لـ... (تقطع كلامها وتلتفت إليه جادة) هل تعني أننا سنفترق ... ؟

الفتى — هو ذاك ...

(صمت)

الفتاة — (بعد قليل) يخيل إلى أني لست معك حقيقة . فهل تراني أحلم ...

الفتى — بل أنت معي ...

الفتاة — إذن فأنت تهذي ، تسخر ...

الفتى — ولا هذا ...

الفتاة — ولكن كلامك ...

الفتى — ولكن كلامي يدعو للشك . هذا ما أوافقك عليه ...

(صمت)

الفتى — (بعد بضع دقائق) هل كنت تحبينني يا عزيزتي ؟

الفتاة — (غضبانة وهي تكاد تبكي) ألم تعرف ذلك بعد ؟ أتتناسى الماضي ... يا لحظي العاثر ؟

الفتى — لا تغضبي . اعذريني . إني مخطئ . ولكن ... ولكن ...

(يصمت و تصمت)

الفتاة — « بعد هنيهة » ولماذا تودعني يا عزيزي ... ؟

الفتى — هذا أمر يحتاج إلى شرح طويل ... وأخاف عليك من برودة الجو إذا طال بنا المسير وأنا أشرحه لك ...

الفتاة — لا تخف . فإني أحس الآن حرارة في الجو ، يخيل إلى أن برودته زالت ...

الفتى — « مفسولا » هذا كلامي الأليم في نفسك ... والحقيقة أن الجو لا يزال على برودته ...

الفتاة — على أي حال ... يجب أن تخبرني بكل شيء الآن وعلى أنا تحمل تبعة ما يحدث إذا طال مسيرنا ...

الفتى — ولكن يا عزيزتي ...

الفتاة — « مقاطعة » اسمع كلامي ...

الفتى — حسن . سأخبرك بكل شيء ... « يتردد »

الفتاة — قل . قل . لا تكن بطيئاً هكذا في إخراج الكلام من فيك ...

الفتى — الحق أن الأمر يؤلمني . ولكن ماحيلتي سأقول . سأقول كل شيء فاسمعي .

الفتاة — إني منصتة إليك بكليتي ...

الفتى — إن لي ابنة عم تحبني حباً لا غاية بعده ، كنت أحبها قبل أن أعرفك وأعدها زوجتي المقبلة وتعدني زوجها المقبل . هذه ابنة العم هي السبب في أني سأودعك اليوم . قولي لم . لأنها كادت تقتل نفسها حينما علمت أني متصل بك . كانت ستشرب السم لو لم ننقذها في اللحظة الأخيرة . إنها مسكينة هذه الفتاة ، وبعد أن خلصناها من الموت التفتت إلى تقول في صوت كله إصرار « لعلك عرفت الآن كم أحبك .. فعليك أن تعرف أيضاً أني سأعاود ما كنت أريد أن أفعله بنفسي إذا لم تقطع علاقتك بتلك الفتاة التي شغلتك عني » . خفت يا عزيزتي . خفت عليها من الموت فقد وجدتني لا أزال أحبها .. أجل وعلى الرغم من أني أحبك . وقلت في نفسي إن قتل قلب ليس كقتل نفس ، وعزمت — وكلي

ألم وحزن وأسف — على قتل القلب الذى ستحيا بموته هذه النفس البائسة .

الفتاة — ولذلك استدعيتنى ؟

الفتى — أجل ...

الفتاة — (تضحك فى تكلف والدمع ينحدر من عينيها على خديها) واخترت هذا الشارع المقفر الذى لا يكاد يرى فيه رجل من رجال الشرطة ، أو حتى بعض الناس ؟

الفتى — لقد يكون . ولكنى على كل حال لن أخاف من القبض على متلبساً بجريمتى ...

الفتاة — يا لك من مجرم شجاع ...

الفتى — ليس هذا وقت هـذه السخرية . خبرينى هل تعفين عنى ..؟

الفتاة — لا أدرى . ربما ...

الفتى — هذا مؤلم . كنت أطمع فى عفوك ...

الفتاة — سأحاول أن أعفو عنك . فقط بعد أن تقوم بجريمتك ... « صمت »

الفتاة — (بعد قليل عائدة إلى سخريتها) ولـكن خبرنى أى سلاح ستستعمله فى قتل قلبي المسكين . إنى أفضـل البندقية لأنها تقتل بسرعة فلا يتألم المقتول بها إلا مرة واحدة ...

الفتى — ما زلت على سخريتك . ترى هل تقدرين موقفك الآن ؟

الفتاة — (تفيق قليلا قليلا وتنظر إليه نظرة من أخطأ) إنى آسفة لقد خيـل إلى أنى أستطيع الترفيه عن نفسينا بهذا الـكلام .. (صمت)

الفتاة — (بعد قليل) وإذن سنفترق حقاً .؟

الفتى — ألم تصدق بعد كل هذا ... (صمت)

الفتى — (يقطع الصمت) إن أيام الحب تمر دائماً كالأحلام ، وما أكثر من يشقون بالحب بعد أن تمر أيامه هذه التى كالأحلام ...

الفتاة — ...

الفتى — لقد فكرت حينما استدعيتك اليوم فى حبنا الكبير الذى سيموت ، فكنت أعجب هل يمكن أن يموت حقاً وهو فى ربيعه ...

الفتاة — ...

الفتى — وفكرت أيضاً فى قلبك الذى سيقتل... فعجبت هل يمكن أن يقتل قلب يحيا بحياتين ... حياة الحب ... وحياته هو ؟

الفتاة — ... ...

الفتى — وفكرت أخيراً فى أمر هذه الدنيا ، التي تأبى أن تبقى للسعيد سعادته بينما يكون فى أشد الحاجة إليها . فرحت ألعنها وألعنها

الفتاة — ... ...

الفتى — وحينما انتهيت من تفكيرى ثرت على نفسى لأنها كانت السبب الأول فى كل هذا

الفتاة — ... ...

الفتى — وطمعت فى غفرانك . ولكن يظهر أننى لن أناله ...

الفتاة — (تفارق الصمت) ولم لا تناله ؟ إنك مجبر فيما تفعل . سوف أغفر لك يا صاحبى ... بل ليغفر لك الله ...

الفتى — (بفرح) الآن أنا سعيد . وسوف أقوم بما استدعيتك من أجله . ولـكن دعينا أولا

نعيش لحظة فى جو حبنا ... لحظة أخيرة ...

الفتاة — كلا ...

الفتى — عجيب . ولكن لا يجب أن نفترق هكذا . على الأقل يجب أن أقبلك ...

الفتاة — كلا لن تقبلنى (تستدرك) بل قبلنى عشر قبلات على ذكراها تساعدنى على الحياة عشر سنوات

الفتى — وبعد عشر السنوات ؟

الفتاة — أوه، سأشكر الله لو استطعت أن أعيش عشر سنوات ...

الفتى — إنك تزعجيننى . بل سيطول بك العمر أكثر باذن الله ... وهاتى الآن فك ...

الفتاة — كلا ليس بهذه السرعة . يجب أن نجلس أولا فى مكان بعيد عن العيون إذا كانت هناك عيون ، لا تنس أننا في شارع ...

الفتى — حسن . بعد خطوات سنصل إلى حديقة صغيرة على جانب الشارع يمكننا أن نجلس بين أشجارها فلا يرانا أحد ...

(يوسعان الخطى نحو المدينة والصمت يسودهما)

الفتى — (بعد أن جلس بجوار الفتاة على أحد المقاعد المختفية عن الأنظار بالحديقة التى قصداها) : والآن هل يمكنك أن تتفضلى باعطائى فك ؟

الفتاة — (باسمة وهى تقرب منه فمها) بالطبع ها هو ذا يا عزيزى ... فلتطبع عليه عشر قبلات كاملة طويلة ...

الفتى — (وهو يهم بتقبيلها) ولننس كل شىء الساعة

الفتاة — (ضاحكة) ولكن حذار أن تنتهز هذه الفرصة فتقتل قلبى

الفتى — (فى استعطاف) أرجوك ، دعى هذا الآن وإلا أفسدت جو هذه اللحظة (يقبلها)

الفتى — (بعد أن قبلها عشر قبلات) انتهت القبلات العشر ... (يريد أن يبعد فمه عن فمها فتتشبث برقبته وتدنى فمها من فمه ثانية)

الفتاة — قبلنى أيضاً . اعطنى على العشر قبلة (تبتسم) أو نصف قبلة إذا كانت القبلة كثيرة (يقبلها)

الفتى — (وهو يعتدل فى جلسته بعد أن قبلها) ، والآن ...

الفتاة — أ ... أقتل قلبى ...

الفتى — (يستمر فى قول ما كان سيقوله) والآن دعينا نستمد شيئاً من ذكريات حبنا

الفتاة — (تصمت فى تفكير ثم تبتسم وهى تغالب دموعها) حسن . هل تذكر يوم كنا نسير بجوار إحدى الترع الصغيرة بقرية (المنصورية) وأنت تقرأ لى شعراً منثوراً قلت لى إننى أنا التى أوحيت به إليك، فلما أخذت منك الحماسة مأخذها وأنت تتلوه زلت قدمك فسقطت فى الترعة ، وطارت الورقة التى كتبت فيها شعرك فى الهواء

الفتى — أوه، أذكر هذا جيداً، ولقد خاصمتك يومى لأنى عند ما خرجت من ماء الترعة ظللت تضحكين على طول الطريق ...

الفتاة — وهل تذكر يوم جذبتنى من أنفى لتقبلنى قبلة . قلت لى يومها إنها ستكون : « فتحاً جديداً فى عالم القبلات »

الفتى — أذكر هذا تماماً ...

الفتاة — وهل تذكر يوم (قرصتنى) فى أذنى بشدة جعلتنى أصرخ من الألم حينما طلبت منك أن تعطيني درساً فى قواعد اللغة العربية . فلم أفقه مما تقول شيئاً ...

الفتى — أجل أجل . وأعتقد الآن أنى كنت قاسياً على أذنك يومذاك . فلقد احمرت من أثر (القرصة)

الفتاة — وهل تذكرت يوم مثلت معى دور الزوج ، ومثلت معك دور الزوجة (تصمت هنيهة وهي تبتسم فى تحسر وحنين) حينما كنت تأمرنى أن أفعل كذا ، أو أترك كذا ، فاذا رفضت اتخذت هيئة الزوج الغضبان على زوجته وهددتنى بالضرب أو الطلاق

الفتى — (يبسم في تحسر ولا يجيب)

الفتاة — (تهم بأن تستمر في ذكرياتها ثم تتردد فجأة) بحسبك هذه الذكريات ، هيا اقتل قلبي الآن

الفتى — (يتأهب) حسن . (يقف) . الوداع .

الفتاة — (صارخة فى ضراعة) كلا . . كلا . . انتظر ...

الفتى — لقد طال الانتظار يا عزيزتى ...

الفتاة — لحظة أخرى ...

الفتى — كلا . . . ولنفترق ونحن على أحسن ما نكون من الصفاء ... إذا كان ما بيننا الآن صفاء ... وداعاً ...

الفتاة — آه ... قلبي ...

الفتى — قتيل ؟ أليس كذلك ؟ حسن . الذنب ذنبك فأنت التى طلبت الاسراع فى قتله (يبتلع ريقه) ولكن يجب أن تعرفى أن قلبي هو الآخر قتيل . أو كما هو الواقع قتلت منه قطعة ، والرصاصة التى قتلت قلبك وقتلت تلك القطعة من قلبي واحدة ... (للمرة الثالثة) الوداع . سوف تذكرينني بخير . أليس كذلك ؟ كلا ، بل انسيني ...

الفتاة — (فى غير وعى وهى تضم إلى صدرها اليد التى قبلها وبصرها تائه) وداعاً . . . وداعاً ياحبيبي (تردد للمرة الثانية وهى ذاهلة ساهمة) . ياحبيبي .

(الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

(يتقدم إليها ويتناول يدها ليقبلها)

الفتاة — (تمنعه من تقبيل يدها) بل انتظر حتى أقف لأودعك بدوري ...

الفتى — لا . إنك لن تستطيعى الوقوف وما زال الثقب الذى أحدثته فى قلبك الرصاصة التي أطلقتها عليه ينبثق منه الدم . ودعيني وأنت جالسة

الفتاة — (دهشة وكأنها أفاقت من غيبوبة) إذن سنفترق ؟!

الفتي — (مندهشا) إلى الآن لم تصدق ؟ عجباً !

الفتاة — (ساهمة ذاهلة وهى تعطيه يدها) حسن قبل يدى . (يقبل يدها)

الفتى — وداعاً ...

الفتاة — (فى غير وعى وهى تضم إلى صدرها اليدالتى قبلها وبصرها تائه) وداعاً ... وداعاً يا حبيبي (تردد للمرة الثانية وهي ذاهلة ساهمة) ... يا حبيبي ...(الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

الفتى — كلا (يا حبيبتى) لا تقولى يا حبيبي

الفتاة — (وهى تبتسم والدمع على خديها يتلألأ) وأنت أيضاً ياحبيبي لا تقل يا حبيبتى !

عبد الحليم محمود العشيرى

حاجى بابا اصفهانى

للكاتب الانجليزى "جيمز موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والستون

عقوبة حاجى بابا تقع على نادانه

أقمت في مخبئى عشرة أيام طوال متعبة دون أن يصلني خبر عن ملا نادان وقد خشيت أن يكون حظه العاثر قد لازمه أو أن الأمور لم تجر فى المجرى الذى كان ينتظره . ولم يكن بين همذان والقرية التى أنا فيهـا اتصال كبير . وقد بدأت أيأس من رؤية جوادى وما عليه من سرج ثمين ويئست كذلك من رؤية ملابسى، إلى أن حدث فى مساء أحد الأيام أن فلاحاً كان قد ذهب أخيراً إلى همذان ليشتغل فى الحقول وعاد منها عابساً، وألقت كلماته التى رواها بصيصاً من النور على مخاوفى فقد قال : إن قلقاً عظيما حدث لقدوم نازا كشى وقبضه على ابن صاحب الضيعة وأخذه الجواد وحمله أسيره إلى العاصمة متهماً إياه بقتل شيخ العلماء فى طهران . وإننى أترك للقارئ الحكم على ما شعرت به عند سماعى هذه القصة فقد أدركت السر فى صمت الملا نادان . ورغم أنى شعرت بأن لا خوف على فى ذلك الوقت فانى كنت أشك فى دوام هذا الشعور وأعلنت فى القرية أنى استرجعت كامل صحتى واستأذنت مضيفى وأسرعت إلى همذان لأتحقق مما رواه لى الفلاح

وكان والد نادان معروفاً فى المدينة فلم يصعب على أن أهتدى إلى داره وقد أحجمت عن دخول الدار والاستفهام عما تم فى أمر نادان، ولكننى ذهبت إلى حلاق مجاور للدار لغرضين الأول أننى أردت أن أقص شعر رأسى ووجهى، والثانى وثوقى أنه هو الذى يمكن أن يروى لى حقيقة ما حدث بحذافيره . وقد صدق ظنى فانى وجدت الحلاق ثرثاراً، ولم أكد أسأله عن أخبار اليوم قائلاً له إننى أجهل تلك القصة العجيبة التى حدثت أخيراً والتى يتحدث عنها القوم بملء الدهشة حتى تراجع خطوتين إلى الوراء متعجباً وقال : « من أين أتيت إذن حتى خفيت عليك قصة ذلك الأبله الملا نادان ؟ إنه لم يكتف بقتل شيخ العلماء حتى لبس ثيابه ولم يكفه كل ذلك حتى سرق جواداً من أكرم جياد الحاكم، ياله من نذل خسيس يأكل المال الحرام ! »

فرجوت من محدثى أن يقص على كل تفاصيل القصة التى تظاهرت بجهلها جهلا تاماً فسرد لى ما يأتى من غير انتظار لتكرار السؤال :

« منذ ثمانية أيام تقريباً جاء هذا الملا إلى بيت أبيه راكباً جواداً مطهماً ولابساً حلة تليق بعظيم من العظماء أو قائد من القواد، ولبس برجل من رجال الدين فقد كان عليه شيلان من أجود الأنواع وكان يشبه حقيقة شيخ العلماء . وأحدث ظهوره بهذه الحلة الأنيقة وهذا الشكل البديع تأثيراً غريباً إذ من مدة وجيزة قبل حضوره كان قد شاع عنه أنه أتى بعمل أغضب الشاه فطرد من طهران طرداً قبيحاً

وقد ترجل عن جواده فى تيه وعجب، وحين سئل عن طرده من العاصمة لم يأبه الأمر كثيراً وقال : إنه أخبر بصفة سرية أن غضب الشاه عليه وقتى وأنه للتقليل من وقعه أهدى إليه هذا الجواد

وصدق كل إنسان روايته واستقبل فى منزل أبيه بالاجلال والاحترام ، ولكن لسوء حظه أنه كان فى اليوم التالي يتأهب لركوب الجواد وإذا بناز كشى يدخل المنزل وكان قد وصل من طهران ثم أخذ ينظر إلى الجواد ويفحص اللجام والسرج الذهبيين ثم استفهم عن اسم صاحب الجواد فأخبروه أنه الملا نادان

قال مغضباً : « الملا نادان ! من هذا الكلب الذى تقولون عنه ؟ إن هذا جواد سيدى الحاكم ومن يقول بغير ذلك فقد كذب سواء كان ملا أو غير ملا »

وفى تلك اللحظة حاول الملا أن يختبئ عن أنظار الناز كشى وهو أحد الذين أجلونا عن العاصمة يوم عاره وفضيحته ، وكان فى لبس ملابس شيخ العلماء وعمامته ما أظهر أمام عينيه فظاعة جرمه . ولحته عين الضابط فصاح بأعلى صوته : « اقبضوا عليه ! أزهقوا روحه ! إنه هو نفس الرجل ! أقسم برأس على أن هذا قاتل شيخ العلماء »

وكان الناز كشى فى تلك اللحظة قد ترجل وقبض على الملا بمساعدة أتباعه والحضور الذين أدركوا أنه يعمل تنفيذاً لأوامر الحكومة وقد أخذ الملا يبرئ نفسه بالقسم يتلوه القسم على أنه لم يقتل ولم يسرق وأنه مستعد أن يحلف على المصحف الشريف أنه برىء

وقص الحلاق ما دار بين الملا وبين الناز كشى بصدق وأمانة ، وكانت النتيجة أن أخذ الأخير الملا معه إلى طهران رغم توسلاته وتوسلات والده ورجاء أصدقائه ومساعيهم . وقد شعرت بما لم يشعر به إنسان من الحسرة والحزن على ما ألم بصاحبي من الأمور التى رواها لى الحلاق وحزنت حزناً شديداً على فقدى للجواد والملابس الغالية ولكننى حمدت الله على سلامتى حين فكرت فى أننى لن أسأل عن حوادثى الأخيرة إذا قطع رأس الملا نادان، وشعرت أننى لا أزال فى حفظ العناية وصفاء الحظ بينما قدر على الملا أن يكون شقياً منكوداً، وإلا فلماذا استبدلنا ملابسنا ؟ ولماذا أخذ جوادى فى وقت لم أجد فيه بداً من الخضوع لما طلبه منى ؟

ولكن شعورى بأن الملاسينال عقاب ما لم يجن بدلا منى جعلنى أحس ولو مؤقتاً بالخطر ما دمت فى إيران . ولذلك صممت على أن أتابع خطتى الأولى وأن أترك إيران دون إبطاء ؛ وعزيت نفسى عن فقدان الجواد والملابس بما بقى لى من المال وهو الخمسة والتسعون طوماناً . وهذا المبلغ كاف لما أحتاج إليه الآن . وبعد ذلك تذكرت أن الله قادر على كل شىء فأملت فى المستقبل . وقديماً كانت هذه الثقة بالله تعزية وسلواناً لكثير من التعساء أمثالى وشعرت أنها ستقينى ما حييت من مصائب خفية

الفصل الثانى والستون

حاجى بابا يسمع بقية قصة الحمام فينزعج

عزمت على أن أنزع ثوب المشايخ إذ لم ينلنى منه خير وتزييت بزى التجار ولحقت بقافلة كانت ذاهبة إلى كرمان شاه واتفقت مع رئيسها على استئجار بغل هزيل مقابل أجر تافه . ولما لم يكن لدى من البضائع غير ما أحمله على ظهرى فقد اقتنعت به . ووصلنا إلى كرمان شاه فى اليوم السابع من رحيلنا وهنا كان لابد لى من البحث عن قافلة أخرى . ولما سألت قيل لى إن ذلك يستدعى شهراً من الزمن

لأن اللصوص الأكراد يغيرون على الحدود فلا تقدم قافلة على اجتيازها إلا إذا كان عدد أفرادها كبيراً

ولكن قيل لى إن قافلة من الحجاج قامت قبل وصولنا بيوم واحد إلى كربلاء وأنه يمكننى بقليل من الجهد أن ألحق بها قبل أن تصل إلى المنطقة التى يهددها الأكراد فلم أتردد فى اختيارى، ولحقت بالقافلة بعد ما خبأت مالي فى حزامى ولم يكن معى غير عصا غليظة ...

وفى مساء اليوم الثالث وبعد أن أنهك التعب قواى رأيت عن بعد نيراناً يتصاعد دخانها فشرحت صدرى رؤيتها وقصدت إليها وتبينت حين اقتربت منها بغالا وماشية ترعى في السهل المنبسط فأدركت أنني لم أكن مخطئاً حين حسبت القافلة قريبة

وشاهدت حين اقتربت من الوهاد التى تكدست فيها الأحمال خيمة صغيرة بيضاء منصوبة فى ناحية غير بعيدة وقد دلنى شكلها على وجود حجاج من ذوى المكانة بين أفراد القافلة وأنهم يصحبون نساءهم لأننى رأيت هودجاً على مقربة من الخيمة فتقدمت من رئيس القافلة كأحد الحجاج ، ورأيت منه استعداداً تاماً لاعطائى بغلا يحملنى فى سفرى

وأردت ألا يتنبه أحد لوجودى نظراً للحالة السيئة التى كنت فيها غير أن الخمسة والتسعين قطعة ذهبية التى فى حزامى جعلتنى لا أستطيع حبس خيلائى وكظم زهوى كعادة مواطنى الايرانيين وشاهدت بين الأحمال على مقربة من مكانى أكياساً عديدة خيطت على أجسام مستطيلة منتشرة على الأرض أزواجاً بشكل يدل على أنها كانت محمولة على ظهور الجمال . ولما كان منظرها لم تألفه عيناى فقد سألت عنها فقيل لى إن بالأكياس جثثاً يراد نقلها إلى كربلاء ، وقال لى قائد القافلة وكان رجلا كثير الكلام زكى القلب كعادة رجال القوافل من أمثاله

« يظهر لى أنك غريب وإلا لما سألت عن أمر معروف مشهور. إننا نحمل أشياء عزيزة إلى كربلاء»

فأجبته : « نعم إننى غريب قادم من جهة بعيدة ولا علم لى بشىء مما تقول فحدثنى بالله ماذا تنقلون إلى كربلاء »

فقال محدثى : « ما هذا ؟ ألم يصل إلى علمك شىء عن مقتل الملا باشى ؟ أما سمعت كيف فارق الحياة فى الحمام وكيف ظهر شبحه بعد ذلك ممتطياً جواداً ثم ظهر فى منزل الحرم وكيف أن ذلك الشبح اختفى على جواد من جياد الحاكم ؟ أين كنت تعيش أثناء وقوع هذه الحوادث ؟ »

قال ذلك وهو يشير بيديه ويهز كتفيه

أرعبنى ما قاله الرجل فتظاهرت بالجهل وطلبت إليه أن يشفى غليلى عن تلك الأمور التى تحدث عنها، فأجابنى إلى ماطلبت بحالة لولا أننى كنت متورطاً فى نفس تلك الحوادث لأثارت عجبى ودهشتى، قال :

« ثق أولاً أننى أقص عليك أموراً حقيقية لا مجال للريب فى صحتها لأنى كنت فى مكان وقوعها فى الوقت الذى وقعت فيه. ذهب شيخ العلماء فى مساء أحد الأيام بعد أن أدى فريضة المغرب إلى الحمام ثم رجع إلى داره محاطاً بأتباعه ودخل إلى خلوته لينام تلك الليلة فى جناح الحرم

ولست فى حاجة إلى إخبارك بأن معظم حمامات إيران تفتح أبوابها للنساء أول النهار إلى ساعة معينة منه وبعد ذلك تخصص للرجال

ففى صباح اليوم التالى لليوم الذى استحم فيه

اللا باشي ذهبت زوجته بين أتباعها وعبيدها إلى نفس الحمام، وكان ذهابها عند شروق الشمس وكانت هي ومن معها أول من دخل الحمام فى ذلك اليوم

ولشدة احترام أتباعها لها لم تستطع إحداهن أن تتقدمها إلى مغطس الماء الساخن، وكان لا ينير قبو الحمام غير شعاع الفجر، فنزلت زوج اللا باشي إلى المغطس فى ظلام دامس، فتخيل رعبها وخوفها حين تقدمت خطوتين فى الماء فوقعت يدها على جسم من اللحم عائم

ولم تستطع السيدة إلا أن تصرخ صرخة حادة وإلا أن تسرع إلى الخروج من الماء ثم أغمى عليها من فرط ما نالها من الرعب

وتخيل ذعر الخادمات مما حدث فقد كانت كل واحدة منهن تتقدم وفى يدها مصباح لترى السبب فى رعب سيدتهن ثم لا تلبث أن تصرخ صرخة وترتد مذعورة مرتمية إلى الوراء، ولم تتحقق واحدة منهن ذلك الجسم العائم فى الماء، وأخيراً تشجعت رئيسة الخادمات العجوز ونظرت متجلدة إلى المغطس. ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أن الجسم العائم جثة رجل ثم تبع ذلك صرخات عديدة وصياح حاد أعاد رشاد زوج اللا إليها وجعلها تشارك خادماتها، ولكنهن لم يعرفن الجثة التى انتفخت وتغير لونها ثم جىء بمصباح ونظرن إلى وجه الجثة فصرخن جميعاً : « إنه اللا باشي ! إنه اللاباشى »

وعادت السيدة إلى إغمائها وبدأ الرقيقات فى صراخهن، واختلط حابلهن بالنابل حتى ظن من رآهن أنهن فى يوم القيامة. غير أن إحدى الخادمات قالت فى وسط ذلك الصراخ والعويل الذى اشترك فيه جميع النسوة : لا يمكن أن يكون هذا سيدنا فقد رأيته بعيني رأسي يعود من الحمام سالماً وأصلحت له الفراش وأنا على يقين أنه نام بعد ذلك فيه. وليس من الممكن أن يكون نائماً فى فراشه فى نفس الوقت الذى يكون فيه ميتاً فى هذا الحمام. كلا ! هذا إنسان غيره بلا ريب »

وقد زادت هذه الملاحظة من رعب النسوة وذعرهن عن ذى قبل لأنهن تصورن أن من رأته الخادمة كان بلا شك عفريت اللا باشي

وكانت زوج اللا قد عادت إلى رشدها فقالت مشيرة إلى وجه الجثة : « أنظروا إلى هذا الخدش الذى أحدثته فى وجهه بالأمس فقط »

وقالت إحدى الخادمات : « وهذا مكان خصلة الشعر التى اقتلعتها من ذقنه »

وسببت هذه الذكرى اللذيذة انهمال الدموع من عينى السيدة الأرملة فلم يوقفها إلا تأكيد الخادمات بأن اللا باشي لا يزال على قيد الحيـاة. وقالت لها خادمة : « من إذن الذى أوصد الباب من الداخل وأمرنى بالانصراف ؟ ومن الذى سمعنا غطيطه ؟

وقد اقتنعت الخادمة بصحة قولها فلبست ملابسها وأسرعت إلى الخارج لترى سيدها نائماً فى حجرته دون شك ولا ريب

وهنا قالت إحدى الخادمات مشيرة إلى الجثة : « ولكن إذا كان سيدى نائماً فى منزله فلمن هذه الجثة التى نراها »

فقالت أخرى : « يجب أن يكون هذا عفريت سيدى إذ لا يعقل أن يكون الانسان ذا بدنين يعيش بواحد ويموت بالآخر »

وقالت ثالثة ذات صوت أجش : « هذا غريب

مدهش لا يتصوره العقل »

وكان قد دخل الحمام فى ذلك الوقت نسوة أخريات للاستحمام . وبينما كان نسوة شيخ العلماء يفكرن فى أمر سيدهن ويفرضن الفروض إذ بالجارية التى كانت قد ذهبت لتتحقق من وجود اللاباشى فى منزله قد عادت وأخبرتهن بأنها لم تجده ولم تجد غير آثار نومه على الفراش فتعالت الصرخات وارتفع صوت العويل ، ونما الخبر إلى خارج الحمام فتجمع حوله عدد كبير وطلبوا السماح بدخول المكان . وقبل أن يتمكن النساء من لبس ملابسهن وستر أجسادهن العارية امتلأ الحمام بالرجال ولم يحدث قط أن حماماً فى طهران اختلط فيه الرجال بالنساء كما حدث ذلك اليوم

وكان المنظر عجيباً من نسوة يندبن ويبكين ، وأخريات يصرخن ويلطمن ويجرين فزعات من رؤية الرجال لهن وهن عاريات . ثم جاء أقارب المرحوم وأصدقاؤه ومعهم الغاسلون الذين أخذوا الجثة إلى مكان آخر فغسلوها وحنطوها وأعدوها للسفر إلى كربلاء حيث تدفن فيها كما تقرر من ذى قبل . وأبدت زوج القتيل رغبتها فى مرافقة الجثة . واستأجر القوم بغالاً لهذه المهمة . ففى هذه الخيمة التى تراها هناك زوجة القتيل مع جواريها، وأما الجثة فهي بين تلك الأكياس . وأما الجثث الأخرى التى تراها فهى جثث من ماتوا فى طهران وفى البلدان التى مررنا بها أثناء السفر . وقد جئ بها لتدفن فى كربلاء فى كرامة شيخ العلماء إذ قد يشفع فيها يوم القيامة ليدخل أصحابها الجنة »

وهنا سكت محدثى وكنت قد ألجم لسانى الخوف الذى استولى على أثناء سرد القصة فلم أتكلم ، وفكرت فى أننى قد أردت الخلاص من خطر دائم فألقيت بنفسى فى ذلك الخطر ، إذ قد يعرفنى خادم من خدم شيخ العلماء . ومنهم من كان بينى وبينه معرفة وصحبة فيستكشف أمرى ويظهر تنكرى

وأردت أن أعرف هل لاحظ القوم ملابسى التى كنت تركتها فى ركن من أركان الحمام ، فقلت لرئيس القافلة : « ماذا تم بعد إخراج الجثة من الحمام ؟ »

فأجابنى : « لست أذكر ما حدث، على أنى أعلم أن الروايات اختلفت وأن الاشاعات تعددت وأن كل رجل كان له رأى يخالف رأى الآخر ، فقال البعض : إن شيخ العلماء بعد أن قتل غرقاً رؤى فى خلوته وبعد ذلك نام فى فراشه . وقال البعض : إنه ظهر فى الصباح التالى فى منزل رئيس الجلادين وذهب ممتطياً جواداً من خيرة جياده . وقد أظهر رئيس الجلادين نفسه ورقة عليها خاتم اللاباشى وفيها إذن بشرب النبيذ . وبالاختصار فان اختلاف الراويات وتعددها جعلا المرء لا يعرف أيها يصدق، غير أن القوم ارتبكوا وتحيروا فى تعليل خروج اللاباشى حياً من الحمام (وبذلك شهد جميع خدمه وشهد صاحب الحمام) ثم وجدوه بعد ذلك فى المغطس غريقاً ، وكلما ازداد الناس فى البحث وأكثروا من التعليل زادت حيرتهم وكثر ارتباكهم إلى أن استكشف أمر ألقى على تلك الظلمات قبساً من الضياء إذ وجدوا بعض الملابس الممزقة فى ركن مظلم من أركان الحمام ، واستدلوا فى غير عناء على صاحب تلك الملابس وهو شيخ مأفون يدعى حاجى بابا كان تابعاً لملا نادان عدو شيخ العلماء اللدود والذى اشتهر بإثارة الشغب والهياج .

ولما علموا ذلك صاح كل واحد من الموجودين: « حاجى بابا هو القاتل ! لا ريب فى أنه هو الذى قتل العالم الأكبر ويجب أن ينال القاتل جزاءه » .

وأخذ جميع سكان المدينة يبحثون عن حاجى بابا وقد قال كثيرون إن نادان هو القاتل .

وأرسلت الرسل للبحث عن نادان وحاجى بابا وإحضارهما إلى طهران حيين أو ميتين، ولست أرجو أكثر من أن أصادف واحداً منهما فأنال مكافأة تعادل أجرة جميع هذه البغال المسافرة إلى كربلاء »

أترك لكم جميعاً أن تتصوروا ما كنت أشعر به عند سماعى ذلك الحديث إذا علمتم أنني لم أتعود مقابلة الخطوب والمكاره بقلب جرئ وأننى طالما فضلت سرعة قدمى وخفتى فى الفرار على أية وسيلة أخرى من وسائل الأمن والسلامة . ولكننى أدركت أن التقهقر فى موقفى الحاضر لا يجديني نفعاً بل هو شر من الثبات والتقدم إذ لم يبق بيني وبين حدود إيران غير مسافة قليلة أسير بعدها فى أرض حكومة أخرى فعزمت على أن أخفى نفسى ما استطعت وأن أسير في طريقى بحذر من يعلم إنه محاط بالخطر من كل ناحية

الفصل الثالث والستون

حاجى بابا يستكشف أمره ويقبض عليه
غير أنه حسن حظه يمكنه من الخلوص

تابعت القافلة سيرها فى الصباح التالى . ولكى أتجنب الأنظار اخترت أن أسير بين البغالين والحمالين وتقدمتنا زوجة شيخ العلماء فى هودجها ومعها أتباعها ومن خلفهم الجمال التى تحمل الجثث وبعد ذلك باقي القافلة من بغال محملة تسير فى خط متعرج طويل فى طريق كربلاء

كنت أحسد كل ذى سحنة منكرة وملابس خلقة وهيئة رثة لخوفى أن يكون حسن طلعتى سبباً فى اتجاه الأنظار إلى . وقد خفت الاقتراب من خدم السيدة زوجة المرحوم خوفاً شديداً فكنت أدير وجهى إذا ما نظروا إلى الجهة التى كنت فيها وذلك رغم شوقى إلى أن أعرف هل فيهم أحد من معارف.

ومر اليوم الأول من رحيلنا دون حدوث أمر فوضعت رأسى على وسادة من الأمتعة التى كنا نحملها ونمت الليل كله نوماً هادئاً . و كذلك مر اليوم الثانى وحملنى اعتقادى بحسن حظى على أن أبحث عن رفقاء فى السير أفضل من سائقى البغال والحمالين وأخذت أحادث أسقفاً أرمنياً وأتبسط معه حتى جعلته يشعر بواجب الشكر والامتنان لرجل مسلم يعيره شيئاً من اهتمامه . ومر فى هذه الأثناء بجانبي أحد الخدم اللاعبين فوجف قلبي خوفاً من أن يعرف حقيقتى . ولو أن اللا باشى نفسه ظهر فى هذا الحين لما كان انزعاجى من رؤيته أكثر من انزعاجى عند ما رأيت هذا الخادم . وأدرت وجهى إلى جهة أخرى غير أن الرجل مر ولم يتنبه لوجودى وأعادت هذه الحادثة إلى نفسى الحذر الذي كدت أتجنبه فعزمت على أن أرجع إلى موقفى الأول بين البغالين وتركت الأسقف يفكر فى شئونه

وكنا سنمر فى اليوم التالى بالجهة غير المأمونة التى تقيم فيها عصابات الأكراد، وسيكون كل فرد فى شاغل من خوفه على نفسه عن أن يفكر فى . ومتى اجتزنا تلك الجهة أصبحنا فى أرض غير أرض إيران . ويمكننى إذا عرف أمرى أن ألجأ إلى حماية الأتراك

وجاء ذلك اليوم المخيف : اليوم الذى لن أنساه

طول عمري والذي سأظل أذكره ما دمت أذكر شيئاً من حوادثي . وذلك أن القافلة مشت مشية عسكرية وشهر كل من كان معه سلاح سلاحه . وذكرني ذلك المنظر بمنظر آخر يشبهه وقد قصصته في جزء آخر من هذا الكتاب حينما كنت في صحبة عثمان أغا ولاقينا جملة التركمان . وما أشبه خوفي ورعبي في هذه الحادثة بخوفي ورعبي في تلك . وإني أصدقكم القول أن الزمن لم يغير من عزيمتي ولم يقو أعصابي ولم يسكن فؤادي

سارت القافلة في نظام وعلى استعداد لكل طارئ تحت قيادة جاويش وتقدمها الدليل فكوّن هو وأتباع زوجة الملا باشي ما يشبه طليعة الجيش

وأما أنا فقد كان لخوفي على نفسي أكثر من سبب واحد . ولذلك اختلطت برجال القافلة وحمدت الله على أن ليس معي من المتاع غير المال الذي أحمله في حزامي

وكنا نسير في سكون تام فلم يكن يسمع إلا صوت أجراس القافلة . وسبحت في بحر من الخيال وجعلت أفكر فيما سأفعل بالخمسة والتسعين طوماناً عند ما أصل إلى بغداد إذ حانت التفاتة مني فرأيت دليل القافلة قادماً إلى يصحبه أعجمي حسن الهندام وقد أشار الدليل بيده نحوي وقال لرفيقه : « هذا هو الرجل نفسه »

فقلت لنفسي : « ورأس علي لقد قلب الحظ لي ظهر المجن وتنكر لي القدر بعد أن صافاني » .

نظرت إلى رفيق الدليل ولم ألبث أن تبينت فيه شخص عبد الكريم الذي استوليت منه على مائة الطومان في قرية سيراباد بواسطة الخطاب الذي كتبته وبصمت عليه بخاتم المرحوم الملا باشي .

وكنت على وشك الترحم على نفسي غير أن الدليل خفف من جزعي وقال : « لقد كنت آخر رجل التحق بالقافلة وقد تستطيع إخبارنا عن المكان الذي يظن أن اللص على خان موجود فيه على الحدود »

فأجبته قلقاً مضطرباً ، بيد أني جعلت أطيل النظر إلى عبد الكريم وكذلك أخذ هو يحدق في بعينيه اللتين ترسلان النظر حاداً نفاذاً فكادت تنخلع أضلاعي ويثب فؤادي من الرعب .

وظل عبد الكريم ينظر إلى كمن كان يشك في أمر بينما كنت أحاول الفرار من أمامه . غير أنه لم يلبث أن استجمع أمره وصاح : « وجدته ! وجدته ! إنه هو بعينه ! إنه الرجل الذي ضحك على ذقني وسلب مائة الطومان » .

ثم وجه الخطاب إلى الواقفين حولنا وقال : « إن كنتم تريدون لصاً فها كم هو اللص . اقبضوا عليه بحق النبي الكريم ! »

فبدأت أحتج احتجاجاً شديداً وأنكر التهمة التي ينسبها إلي عبد الكريم وكان من المحتمل أن أنجح في إقناع الواقفين حولي بأني اتهمت ظلماً وعدواناً وأني بريء لولا أن جاء لسوء حظي في تلك اللحظة المأذون الشرعي وعرفني لأول وهلة وناداني باسمي فافتضح أمري واتهمت بقتل شيخ العلماء وشغلت هذه الحادثة كل من كان في القافلة وأحدثت لغطاً شديداً وجلبة وضوضاء حتى نسي الخوف من قطاع الطرق الأكراد إلى حين ، وأقبل على كل فرد في القافلة ينظر إلى سحنتي ويحدق في وجهي .

قبض علي وربطت يداي إلى ظهري وأوشكت أن أسحب على وجهي فأعرض أمام زوجة شيخ

العلماء وإذا بالحظ يساعدنى والقدر يمهد لى سبيل الخلاص

سمعت فجأة صرخة عظيمة دوت عن بعد ، ورأيت كوكبة من الفرسان تنحدر إلينا من جانب التل المجاور فأدركت وأنا أبتهل فرحاً أن هؤلاء الفرسان هم الأكراد الذين ألقوا الرعب فى القلوب وخشيتهم القوافل

سرى الخوف والذعر فى القافلة كلها وحل فيها الاضطراب والارتباك فلم تستطع المقاومة ، إذ كان يعوزها الاقدام والقوة فهرب راكبو الدواب وخاف البغالون على بغالهم فقطعوا حبال الأحمال وتركوها منتشرة فى السهل فى متناول يد اللصوص وتحت رحمتهم ، وكذلك ألقى ما كان على ظهور الجمال من الجثث فكانت ترى مبعثرة فى كل مكان وقد لاحظت أن الكيس الذى فيه جثة الملا باشى سقط فى نهير هناك وكأنما القدر لم يكتف باغراق شيخ العلماء حتى أغرق جثته . وبالاختصار فقد عمت الفوضى فى القافلة وانتشر الهياج وبذلك انفردت بنفسى فخلت وثاقى بسهولة ولاحظت أن الأكراد وجهوا جل اهتمامهم إلى الهودج ومن حوله من الأتباع لأنهم توقعوا أن يجدوا به من هو خليق بالأسر من ذوى المكانة ، وسرنى وأثلج صدرى أن أجد من كانوا منذ لحظة يسيرة يدبرون لى وسائل الخراب والدمار وينظرون إلى كمن قضى عليه أصبحوا هم أنفسهم فى نفس الحالة التى اختاروها لى وحل بهم الخطب الذى كنت فيه والمصاب الذي نجوت منه

ولقد ذهب تهديد أتباع الأرملة ووعيدهم سدى ولم تجد مقاومتهم ولم يمنع مهاجيهم غلاظ الأكباد متحجرى القلوب ، مانع عن السلب والنهب وأسر من ينتظرون له فدية . وعلمت أن نجم حياتى قد عاد إلى تألقه وإشراقه ، لأن من يملك متاعاً أو يلبس ثياباً تنم على نعمة وثراء قصد إليه اللصوص ، أما أنا وبغلى الحقير فكنا فى حالة لا تسترعى أنظارهم ولا تستدعى أى اهتمام ، فسرت بلا مشقة ولا عناء فى طريقى إلى مقصدى وليس دونى عائق إذ لم يكن لى بين الجثث المنتشرة هنا وهناك قريب أو صاحب أدفع عنه فدية ، وكنت حراً كالهواء طليقاً كالماء ، فتابعت طريقى حتى تخلصت من تلك الأخطار ونجوت من المصائب التى كانت تحيط بى بمعجزة هى أشبه بالسحر قائلاً : « بارك الله فى قدر يرعانى وحظ يخدمنى وتوفيق ليس بعده من توفيق »

الفصل الرابع والستون

الوصول الى بغداد . مقابلة حاجى بابا لسيده الأول اتجاه نظره للتجارة

تركت أرملة الملا باشى وعبيدها وأتباعها بين أيدى الأكراد وأسرعت فى طريقى لا ألوى على شيء محاذراً أن أحادث أحداً بعد الذى حدث أخيراً بل اتبعت فى سيرى خطة لا تسترعى الأنظار ولا تثير الاهتمام

رأيت فى طريقى بعض من أفلتوا من الأكراد ولكنهم لم يبتعدوا عن مكان الحادثة كثيراً إذ كان لكل منهم بغية فى القافلة فحاموا حولها رجاء التمكن من متاع أو مساعدة صديق

وكنت أنا الوحيد الذي لا ناقة له فى القافلة ولا جمل فبعد أن سرت فرسخين أو ثلاثة أمنت الطريق الذى لم يشاركنى فيه أحد ومرت بخاطرى حوادث حياتى كلها واستعرضت أمام مخيلتى

ما شاهدت وما قاسيت وانتهيت إلى النتيجة الآتية:

قلت فى نفسى : « مادمت يخدمنى الحظ ويساعدنى القدر فلأسمين إلى مطامى ولأجرين وراء أغراضى ورجوت أن يكون فشلى الأخير مقدمة لتحقيق آمالي وإدراك ما أطمع فيه من نعمة وثراء »

وقلت : « فى حزامى خمسة وتسعون طوماناً وطريق العمل مفتوح أمامى فلو أن اللا نادان تقطع جسمه على آلة التعذيب وأرملة شيخ العلماء قبض عليها الأكراد وقتلوها فماذا يمنعنى من العجب فى مشيتى والتيه فى مسيري كأحسن رجل فى إيران ؟ »

وأخيراً رأيت قباب بغداد ومبانيها ثم وصلت إليها فدخلتها غريباً جاهلاأحياءها، وكنت أعلم أننى أستطيع العثور علي خان فى كل بقعة من المدينة ولكننى تركت البغل يقودنى حيث شاء

وكان البغل على دراية تامة بطرق المدينة وشوارعها فوصل بى إلى خان كبير لاشك أنه كان معتاداً أن يبيت فيه فى رحلات القوافل . وعند اجتيازه عتبة الخان نهق بضع نهقات منتظراً سماع الجواب من رفاقه فى اصطبل الخان

وكنت أشعر بضيق وانقباض صدر، وزاد فى اغتباطى وسعادتى، إن صح أن يسمي ما كنت أشعر به سعادة أننى أبصرت جماعة من مواطنى فى رحبة الدار، ولم ألبث أن أدركت أن الخان مكان تلاقيهم

جعلت أخفف عن نفسى بقولى إن مظهرى لا يدعو إلى الالتفات ولا يجلب النظر وكم كانت خيبتى حين ظهر أن الأمر على عكس ما ظننت إذ ما كدت أترجل حتى وجهت إلى آلاف من الأسئلة فقد كان قوم ينتظرون القافلة من آونة لأخرى وكان التجار ينتظرون وصول بضائعهم بفارغ الصبر وظن الجميع أن فى إمكانى الافضاء إليهم بما يودون

أجبت إجابات تناسب المقام غير أننى عزمت على أن أترك قوماً فضوليين لا يفرغون من أسئلتهم كهؤلاء القوم وأن أرحل عنهم إلى مكان آخر أختفى فيه

وعلى ذلك تركت بغلى تحت رحمة الأقدار معللا النفس بأن صاحبه لايلبث أن يحضر ويأخذه ويممت ناحية أخرى من نواحى المدينة

بدأت بإتمام تنكرى فغيرت قلنسوتى المصنوعة من جلد الغنم بما يضعه أهل المدينة على رؤوسهم وهو كيس طويل أحمر اللون من قماش يتدلى أعلاه إلى الظهر . وربطته على رأسي بقطعة ملونة من الحرير وابتعت ثوباً قديماً من الثياب التى يلبسها الأتراك عادة . ولما لبسته فوق قفطانى ظهرت كالثمانيين سواء بسواء ثم أكملت هندامى بحذائين لونهما أحمر

وبعد ذلك فكرت فى أن أقدم نفسى إلى عائلة سيدى القديم عثمان أغا لأننى بواسطتها أستطيع أن أتصل بمعارف فى المدينة وأن أتقدم فى ميدان التجارة

وانطلقت فى المدينة أسير فى أسواقها لأسأل عن ضالتى وكنت أقف على كل بائع جلد إذ كنت أذكر أن صاحبي مغرم بتجارة الجلود، وذكرت أيضاً كل ما كان يقصه على أثناء رحلاتنا حتى تصورت أننى أصل إلى باب داره من غير سؤال

وأخيراً انتهت حيرتى هذه بأن وقفت أمام حانوت كبير من حوانيت البخاريين وسألت أصحابه عما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن رجل اسمه عثمان أغا

من بغداد ، فسمعت صوتاً تعرفه أذناى حق المعرفة يجيبني : « من يريدني ؟ أنا عثمان أغا »

وتصور أيها القارئ مقدار سروري ودهشتي فقد كان المتكلم هو نفس عثمان أغا ذلك الشيخ الهرم ... دهشت غاية الدهشة من مقابلتي إياه كما دهشت سابقاً من رؤيتي له في طهران ، وكذلك دهش هو من مقابلتي وقصصت عليه من حكاياتي مارأيت أن أقصه عليه ضروريا وروى لى هو الآخر حديثه الآتي :

ترك عثمان أغا طهران وفي عزمه مواصلة السير إلى الآستانة لجعلها مركزاً لتجارته ولكنه سمع أن أخطاراً عظيمة تهدد المسافرين بين أريفان وأرضروم إذ لا يسلم المار في تلك الجهة من السرقة ففكر في زيارة بغداد ووصل إليها وهي موطنه الأصلي بعد غيابه عدة أعوام ، وقد وجد أن ابنه قد كبر وبلغ مبلغ الرجال بعد أن أقام مأتم والده الضائع واتخذ في الأسرة مركزه بين والدته وأخته . ولكنه بعد أن رجع والده لم يظهر أى امتعاض بل امتثل كمسلم صحيح الاسلام للآية القرآنية الشريفة التي تحض على البر بالوالدين وتوجب ألا يقول لهما أف ولا ينهرهما ويقول لهما قولا كريما

ثم أضاف محدثي إلى ذلك أنه وجد زوجته حية ترزق وابنته في سن يؤهلها للزواج ، وبعد أن انتهى الرجل من سرد حوادثه على التفت ونظر إلى نظرة شزراء لم أعهدها فيه من قبل وقال لي : « يا حاجي بابا قل لى بحق نبينا محمد ما الذى دفعك إلى تزويجي من تلك الشيطانة الخبيثة في طهران ؟ هل أردت أن تجعلني أنسى متاعبي وهموي أم أجددها بين ذراعي تلك العجوز القبيحة ؟ وحق ما بيننا من ألفة قديمة وصداقة متينة لقد كانت أيامي معها أتعس وأنحس من الأيام التي قضيتها في أسر التركمان !

هل يليق بك أن تعامل صديقاً قديماً هذه المعاملة ؟ »

فما كدت له أنني لم أكن أسعى إلا إلى سعادته ، ولم يكن في الأمر غاية أخرى ، وأنني حسبت أن تلك السيدة التي كانت جارية للشاه ذات جمال ومحاسن تستبقيها إلى آخر أيامها ، واعتقدت أنها بذلك فوق مايتمنى رجل مثلك قضى أعواماً عديدة في رفقة الجمال.

فصاح صاحبي : « جمال ! أتقول الجمال ؟ إن تلك الجمال لو قورنت بالشيطانة التي أتيتني بها لكانت مثل الملائكة . ليتك زوجتني من ناقة بدلا منها ، فقد كان في مكنة ذلك الحيوان التعس أن يكون هادئاً في عشرتي ساكناً في مصاحبتي ، وأن يتركني أذهب حيث أشاء ، وأفعل ما أريد . بيد أن تلك الحية الخبيثة لم تجد ما يقطع وقتها مني غير الترنم بأنها أسعدتني وشرفتني . لأنها كانت تقود الشاه من ذقنه وتضطره إلى إجابة رغائبها بخفة روحها ورشاقة قدها ودلالها وغنجها . وكان لا يعصى الشاه أمراً إذا داعبته بلطمة خفيفة »

ثم قال محدثي وقد لطم خده بيده : « أمان ! أمان ! إنني أكاد أشعر بوقع تلك اللطمات الآن »

وأخيراً اقتنع الرجل بأنه لم يكن لى دافع إلى تزويجها منه غير الرغبة في إسعاده . ثم دعاني إلى ضيافته ، وأن أتخذ مقامي في بيته مدة إقامتي في بغداد فقبلت منه ذلك مسروراً بلا تردد

حدثت هذه المناقشة بيني وبين عثمان أغا في الحجرة الخلفية من حانوت التاجر البخاري ، وقد سقاني عثمان أغا مقداراً وافراً من القهوة التي كان يستحضرها من مشرب جاره ، وبعد انتهاء الحديث عرض على الذهاب إلى حانوت ولده في نفس السوق بعد بضعة حوانيت

وكان اسم ابنه سليمان ، وكان سليمان هذا في

أثناء غياب أبيه قد تزيا بزى التجار ، وعاش عيشة طيبة ، جالساً طول يومه — عدا أوقات الصلاة — على مصطبة دكانه ، ومن حوله بضاعة مرصوصة رصاً بديعاً على رفوف مركزة على الحوائط وكان سميناً قصير القامة يشبه أباه أتم الشبه وحين علم أنني حاجى بابا رحب بى وهش فى وجهى ونزع غليونه الذى كان يدخن فيه من فمه وناولنى إياه

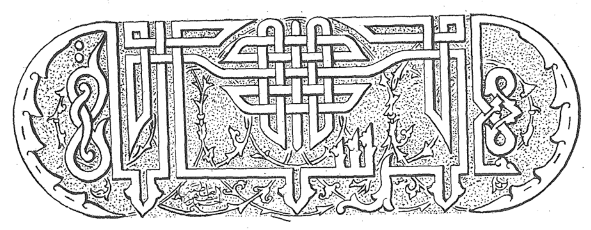
وقد رجوت أن أتمتع بعيش رغد ومقام طيب فى بغداد فى صحبة هؤلاء القوم الأخيار ولكى لا أظهر بمظهر العالة عليهم أخبرتهم بأن لدى خمسة وتسعين طوماناً واستشرتهم فى أنجع وسيلة أتبعها لأربح منها فى المتاجرة وقلت لهم إننى قد تعبت من حياة التجارب وكثرة الطواف وإننى عزمت على أن أخصص وقتى وأقصر جهدى فى المستقبل على الحصول على عيش ناعم بواسطة التجارة . وقلت كذلك إن كثيراً من الناس أدركوا الغنى وجمعوا أموالاً طائلة رغم ابتدائهم بحالة أصغر من التى أريد أن أبتدىء بها ووافقنى عثمان أغا وولده على هذا الرأى ، وعند ما انتهينا من أمر الثروة التى سأجمعها قال عثمان أغا بيت الشعر الذى وعاه أثناء رحلاته وهو :

« يسقط الماء من بين الصخور نقطة فنقطة حتى يصير فى النهاية بحراً » .

وحين وصلنا إلى هذه النتيجة أخذنا وجهتنا عثمان أغا ونجله وأنا إلى المنزل الذى كان يقع على مسافة غير بعيدة من السوق .

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

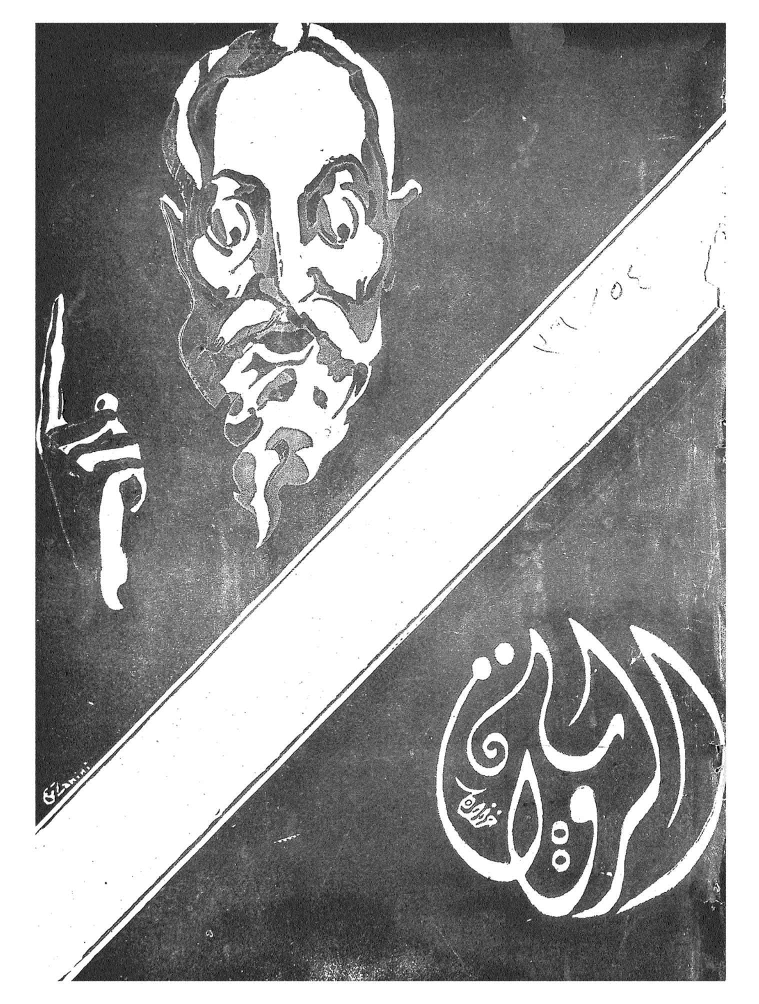
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشا، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

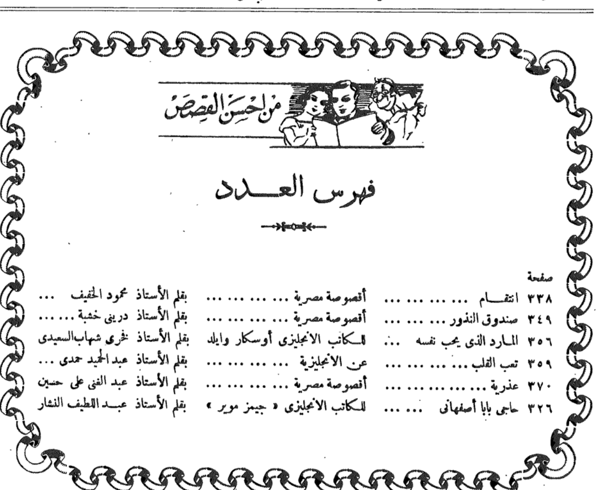
بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ قرش	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

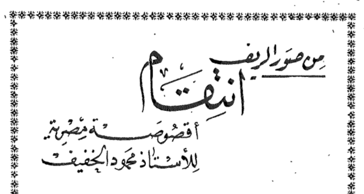
الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٤ — ٢٥ صفر سنة ١٣٥٧ — ١٥ إبريل سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد



جلس أمام داره وقد غربت الشمس وأخذت تتلاقى فى سماء القرية ظلال المساء ، وتشيع فى زرقة الأفق حمرة الشفق ، كما أخذت تنسم أنفاس الليل فتستروحها الأنفس الضائقة التى كاد يزهقها حر النهار ...

ودار الشيخ عثمان بوجهه يستقبل النسمات الوانية التى كانت تنساب إليه متقطعة من ذلك الفضاء الذى يمتد أمام بصره من موضعه إلى حيث تنبسط الحقول البعيدة ، وكان ذلك القروى الشيخ يفتح صدره لتلك النسمات وينشق منها ملء رئتيه ، وكان يبدو من تربد وجهه وقلقه وما يختلج فى عينيه الذابلتين أنه يلتمس فيها فضلاً عن طراوتها روحاً لنفسه من همومه التى بات يؤوده حملها

كان الشيخ عثمان يدلف للستين ، ولكنه كان يبدو مما يثقل فؤاده من هم كأنه أربى على الثمانين ! فقد اخترم ذلك الهم جسده أكثر مما اخترمته السنون ، وتزايدت فى وجهه التجاعيد حتى ليعجب الناظر إلى ذلك الوجه كيف كان خلوا منها فى يوم ما !

ودنت منه امرأته فسمعته يتنهد تنهداً عميقاً ، ويئن أنيناً لا يكاد يطلقه حتى يكتمه مستسلماً تارة ، برماً ضائقاً بالحياة تارة أخرى ؛ ولما ألفاها إلى جانبه تظاهر أنه إنما يشكو الحر

ونظرت إليه نظرة صارمة فيها الزجر والاستخفاف والغضب ، وفيها كذلك التهديد بأنها لم تعد تطيق منه هذه الحال التى جعلت عيشتهما نكداً على نكد ؛ وفهم الرجل مغانى نظرتها فأطرق يخشى أن ينطق فتزيده كلماتها ضيقاً على ما به من ضيق

وكانت امرأته فى الخامسة والأربعين من عمرها لا تزال تحتفظ بقسط كبير من جمالها السابق ، فما يزال فى وجهها بقية من ملاحته وصباحته ، وما زال يحمل جسدها نصيباً من سالف نعومته وطراوته ، وعيناها الواسعتان اللامعتان ما يزال يختلج فيهما قبس من ذلك الإغراء ، ثم من ذلك السلطان الذى طالما تحكمت به فى فتيان القرية أيام الشباب والحب ، ذلك السلطان الذى أذعن له عثمان وبرهن على إذعانه بما أنفق فى سبيله من مال حصل عليه ثمناً لفدان من أجود أرضه باعه فى غير تردد ولا إبطاء

وانتهرت زوجها قائلة :

— فيم هذا الغم كله يا رجل ؟ دائماً تجلب لنا النكد من غير سبب ... ماذا جرى ؟ فى هذه السن تسمع كلام الكاذبين ؟

— لا شىء ... لا شىء ... الحر شديد ... أنا أشكو الحر ... أنا تعبان

ووصلت فى تلك الساعة إلى الدار ابنتهما نبوية تسحب البقرة والجاموسة ، فرفع إليها أبوها بصره وفى عينيه مثل ما يكون فى عين نمر غاضب يكاد يتميز من غضبه ، ولكنه عاد فأطرق مسرعاً خشية أن تقع عليه عينا امرأته ، وإنه ليحاول أن يخفى ما تركه فى جسده مرأى ابنته من رعشة بلغت حد الانتفاض

ودخلت نبوية فعلفت الماشية ، وألقت بعض الماء فى أوانى الطير لتجدها ملأى إذا أصبح الصبح، ثم ذهبت لتهيئ الطعام لأخويها فقد عادا من الحقل وجلسا ينتظران بالباب

* * *

غص مسجد القرية قبيل العشاء بأهلها من كل ناحية ، وما حان موعد الصلاة حتى كان الناس فى ذلك المسجد الكبير صفوفاً خلف صفوف من المنبر إلى البابين الكبيرين ، وقد نهضوا على تكبير الإمام يقيم الصلاة فى صوت رنان يسمع واضحاً فى أركان المسجد كأنما يحمله مكبر صوتي، وركع الناس وسجدوا ثم سلموا وخرجوا من صلاتهم يريدون دورهم إلا الشيخ عثمان فقد سار مسرعاً نحو المحراب حتى جاء الإمام فدنا منه وسلم ثم تناول يده فلثمها على كبره وسأله : « يا سيدنا الشيخ كيف نتبين ؟ سمعت فى الصلاة ما أفهم منه أنه يجب علينا أن نتبين إن جاءنا ... »

وأجاب الإمام « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أى انظروا فى هذا النبأ أهو نبأ صحيح أم كاذب »

— ولكن كيف أتبين ؟ أخبرني رجل بشيء لم يره غيره فكيف تكون البينة ؟

— وهذا الرجل هل تثق به ؟

— نعم إنما هذا شيء لا يصدق وإن كان ليأكل الهم بعده قلبي

قالها الرجل والدموع تنحدر من محجريه فتجرى فى أخاديد وجهه ، وكان فى ذلك الوجه لوعة وجزع لم يتمالك الإمام لها دمعة فتندت عيناه ولكنه ابتدر الرجل قائلاً :

« على أى حال لست أفهم ذلك الشيء الذى تكتمه عنى ولكنك تقول إنك تثق بذلك الرجل ، فإن كان ما جاءك به لا يصدق فاطلب إليه أن يحلف يمين الله »

ومضى الشيخ عثمان منصرفاً إلى داره وكأنما خفف ما أشار به عليه الإمام بعض آلامه ، فهو فى سيره خفيف الخطى ، لا يتوكأ كثيراً على عصاه كما كان يفعل فى ذهابه إلى المسجد أو كما كان يفعل منذ نمى إليه ما كدره وأحزنه

* * *

أسفر الصبح وأفاق الناس من نومهم ولما يبد وجه الشمس ، وعاد الشيخ عثمان من المسجد ، فما كاد يصل إلى عتبة داره حتى كانت ابنته خلفه قد عادت فى سرب من صاحباتها يحملن من الترعة جرارهن ويسرن بها خفيفات فى وجوههن بشر ونور من بشر الصباح ونوره، وفى وجهها دونهن كدرة وشحوب لم تقو على إخفائهما

وأسند أبوها عصاه إلى جدار الدار ، ومد يده تحت إبطه فأخرج شيئاً ملفقاً بورق ؛ وفض الورق فتبينت بنته مصحفاً صغير الحجم عرفته لأنه شبيه بمصحف أخيها مصطفى الذى طالما شدد عليها ألا تمسه إذا هى فتحت صندوقه ؛ ولقد دق قلب الفتاة دقاً عنيفاً حتى لقد سمعت أمها تلك الدقات وهى تعاونها على وضع جرتها فوق المصطبة ، ذلك أنها ظنت أن أباها ما جاء بهذا المصحف إلا لتقسم هى به .

ولكن الرجل كان يدور بعينه بين الفينة والفينة نحو مدخل حارة من الحارات القريبة ينتظر مقدم شخص يريده، ونظر بعد هنيهة نظرة تمشت على أثرها صفرة فى وجهه المسنون المتغضن ، فها هو ذا حسن يسير نحوه .

— السلام عليكم ياعم الشيخ عثمان ، ما هذا ؟ هل نويت أن تصبح فقيها ؟

— عليكم السلام . اجلس ياحسن أنا عاوزك .

لا ، قم بنا إلى داخل الدار .

ودخل حسن الدار وراءه ، ونظر الرجل فلم يجد أحداً قربه وأنصت فسمع صوت امرأته فى الحظيرة فأدرك أنها وابنتها مشغولتان فى حلب الماشية فعول على انتهاز الفرصة ، وأخذ يد حسن قائلا :

« هات يدك ، ضعها على هذا المصحف ، قل أحلف بكتاب الله ... »

وجذب حسن يده متعجباً وقاطعه قائلا : « فيم هذا ؟ ماذا جرى ياعم عثمان ؟ »

— احلف على المصحف أن ما قلته لى بخصوص أحمد والبنت صحيح ؟

— أحلف أنها تحبه وتتودد إليه وأنه يتودد إليها ويعطيها أشياء يشتريها لها من ماله .

— إذن أنت الآن يابنى تغير ما سبق أن قلته . يابنى هذا حرام لا يرضى الله . تتهم بنتاً فى عرضها ؟ حرام عليك، حرام على كل من له ولاية ... أهكذا يابنى تحرمنى النوم وتسخر من ذقنى ؟ دا أنا أكبر من أبيك ، منك لله .

— ما هذا ؟ قلت لك أحلف أنه ...

— هل تحلف على ما سبق أن ذكرته ؟

— لا أحلف على شىء نسيته .

— لا لا ياحسن ، الله يجازيك بذنبك ، يابنى كفى ما جرى ، من اليوم لا تدخل دارى وكل واحد منه لله .

— أنا ياعم عثمان أدخل دارك من اليوم أو من البارحة ؟ أنا أدخل دارك منذ سنين حصل منى إيه ؟

— كفى كفى يا بنى .. أهنتنى فى شرفى واتهمتنى فى عرضى ... الحمد لله أنك كاذب وإلا فهو العالم ماذا كان يحدث لها أولى .

* * *

لاحظ الناس أن الشيخ عثماناً يغلق باب داره عليه بعد الغروب ، وأنه هو وابنيه يستروحون نسيم المساء على السطح بدل مدخل الدار ، وعجب الجيران أن أصبحوا يرون حسناً يدير وجهه مغضباً كلما مر بتلك الدار ، وأنه لا يلقى التحية على الشيخ عثمان إذا صادفه فى الطريق . وكذلك عجب الجيران أنهم لم يعودوا يرون أحمد يجلس لدى الباب مع مصطفى وعبد الصمد وقلما كان يتخلف ليلة فى الصيف عن ذلك ...

وظل هذا شأن الشيخ عثمان وأهل داره إلى أن كانت ليلة قمراء يهب فيها النسيم غير وان ولا متقطع ، فكأنما جذب المكان لدى مدخل الدار الشيخ عثمان جذباً حينما وصل من المسجد فجلس وفى نفسه ألا يطيل ، ولكنه لم يكد يجلس حتى مر به الشيخ مبروك فسلم وجلس ، وماهى إلا برهة حتى مر الشيخ عبد المطلب ، فجلس ثم مر من بعدهما الشيخ عمر واثنان غيره من الجيران ممن هم دون هؤلاء سناً وهما الليثى وعبد الفتاح فجلسوا جميعاً حول الشيخ عثمان وسأله الشيخ مبروك قائلا :

ياشيخ عثمان إيه حكاية الخلاف بينك وبين حسن أبو سالم ؟

— لا ، مسألة بسيطة، لا خلاف ولا غيره

وتجهم وجه الشيخ عثمان وأحست نفسه الضيق فلا بد أن الجيران قد نمى إليهم سبب القطيعة بينه وبين حسن ، ولعل فيهم من يفهم الأمر على غير

وجهه كما هى العادة فى كل الإشاعات ، أو لعل فيهم من يصدق ما افتراه حسن على أحمد من حديث ، وإلا فما بالهم يعيرون الأمر هذا الاهتمام فيسألوا ؟

وراح الشيخ عثمان يتنهد تنهداً عميقاً ويعقب كل مرة من تنهده بقوله : « يا ألله يا لطيف ... » وما درى أنه بذلك إنما يزيد هؤلاء المتسائلين شكاً ويستثير فضولهم . ولكنه لم يكن يستطيع كتمان همه

* * *

تنكر الفتيان أحدهما للآخر يريد أن يثأر منه لنفسه ؛ أما حسن فقد كان يضمر السوء لأحمد منذ عرفا نبوية، ذلك أنه كان يعتقد أنه يغريها بألفاظه المعسولة ووعوده الخلابة ، ولكنه كان يداريه حتى لا يصل إلى الناس أمر خلافهما؛ وأما أحمد فقد كان يمقت حسناً لأنه يخشى أن يأخذ الفتاة من أبويها قسراً بما كان له من بطش لا يجهله أحد فى القرية

لم يكن من إعلان الخصام بد بعد أن طرد حسن من بيت الشيخ عثمان فليس فى رأيه من أوغر صدر هذا الشيخ حنقاً عليه إلا أحمد. وبات من يعلم نبأهما مشفقين أن ينال أحمد من بطش خصمه ما لا قبل له به . ومنذا الذى يستطيع أن يفلت من هذا الفتى إذا اعتزم الكيد والانتقام ؟ ليس فى المتفتين فى القرية والمتنمرين من يدانيه فى إشعال الحرائق وتسميم الماشية ، وقيادة الأشرار إلى إتلاف الزرع . وليس فى المجرمين من يفوقه فى سعة الحيلة وإحكام الجريمة والقدرة على الإفلات من سطوة القانون

على أن أحمد على الرغم من ذلك كان مطمئناً بعض الاطمئنان، ذلك أن وشائج النسب قد ربطت بينه وبين كثير من أسر القرية على نحو غريب ، وفى عصبة حسن نفسه بعض ذوى قرباه ولا يستطيع هذا أن يهمل جانب هؤلاء أو يفرط فى صحبتهم .

ولقد خشى الناس كذلك على الشيخ عثمان أن يمسه شىء من غضب حسن ؛ ولكن الشيخ عثمان نفسه كان لا يعبأ بذلك . وكثيراً ما كان يقول لمن يجاوره فى هذا الأمر إن كل شىء عنده يهون فى سبيل محافظته على شرفه، وإن الأمر كله بيد الله؛ ثم يتمتم فى يقين قائلاً : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »

ولقد أحسن الشيخ عثمان صنعاً بأن أشار على أحمد كذلك ألا يدخل داره ؛ وإن كانت امرأته قد خالفته فى ذلك وجادلته فيه جدالا شديداً ، لأنها كانت تحب أن يكون هذا الشاب زوجاً لابنتها وإنها لتعلم ما بينهما ... ولكن الرجل أصر ولم يعبأ هذه المرة بإرادة امرأته مهما يترتب على ذلك العصيان وكأنه أراد أن يثبت لها سلطانه ولو مرة ...

* * *

ما كانت نبوية لتقدر أن تتسلى عن صاحبها ، وكذلك ما كان يقدر أن يتسلى هو عنها ، وهيهات لقلبين يربط بينهما الحب أن يفرق بينهما إلا الموت ! لذلك كانا يتلمسان السبل للقاء وهما أشد ما يكونان خوفاً وحذراً أن تراهما عين فيصل خبرهما إلى أبيها أو إلى حسن فتكون الكارثة

كانت نبوية فى العشرين من عمرها كالزهرة فى ريعان الربيع اكتمل نماؤها وتمت روعتها وتوافى لها من معانى السحر والفتنة ما تتمنى لو كان لهن بعضه الكثيرات من فتيات القرية ؛ ترى الأعين فى وجهها الصبوح ملامح أمها وترى فى عينيها ذلك الإغراء الذى أخذ يتلاشى فى عين الأم ، والذى يأمر ويتحكم اليوم وينبعث من مقلتى الفتاة كما تنبعث السهام

ولقد نشأت نبوية مدللة يحنو عليها أبوها كأنه لم يرزق من البنات والبنين غيرها ، وتوليها أمها حنان الأم ومحبة الأم كأعظم ما يكون الحنان والحب، ثم ترى فيها صورة منها فيحملها شعورها أن مرد هذا الجمال إلى جمالها هى على العجب والزهو، وتستشعر نفسها الغبطة والسرور أنها بابنتها تحيا اليوم فى ماضيها؛ فلئن كان لها أمس السلطان والدلال بما وهبت من جمال فإن لها اليوم الفخر والزهو بما أنجب ذلك الجمال

وما كانت تختلف نبوية عن أمها فى اعتدال قوامها ودقة خصرها وبضاضة جسمها ، ولكنها كانت تختلف عنها فى لون بشرتها فكانت شديدة البياض إلى حد غير مألوف فى قرى مصر ، يتجلى لك ذلك البياض على طبيعته إذا شمرت عن ساعديها أو إذا كشفت عن ساقيها ، أما وجهها ونحرها فقد طبعت شمس الريف عليهما لون الورد الأحمر حتى لتحسب أن عليهما طلاء وما مسهما الطلاء يوماً ... وإذا انحسر منديلها إلى أعلى قليلاً عن جبينها المستدير السمح ، رأيت فى موضعه من البياض فوق هذه الحمرة ما يشبه الغرة تسيل فوق جبين مهرة جميلة ... أما ضفائرها الذهبية فما يدرك مبلغ سحرها إلا تلك القلوب التى طالما هفت إليها وأحست كأنما علقت بها: قلوب الشباب فى أنحاء القرية ، وقلوب الشابات التى كانت تحس لديها مع الإعجاب معانى الحسد والغيرة والتمنى

***

تصرمت الأيام وانقضى الصيف ولم يعد يرى أهل القرية حسناً ولا أحمد يساعدان الشيخ عثمان فى حقله كما كان يفعل كلاهما من قبل ، كذلك لم يعد يراها الناس عند داره كما تعودوا أن يروها ...

وتجنب كل من الفتيين مجلس الآخر وكره لقاءه حتى ما تقع عين أحدهما على الآخر إلا وفيها من معانى البغض وأمارات الشر ما ينذر بالويل والخطر

وانطوت الأيام على هذا الحال ونعم الشيخ عثمان زمناً بهدوء البال وحلت فى وجهه محل القطوب والعبوس بسمة الرضا والدعة والاطمئنان ، فلقد استراح من بواعث الخوف ودواعى الهم وأسباب القيل والقال

وظل احمد يتلمس السبل للقاء فتاته دون أن يعلم بذلك أحد إلا أمها واثنتين من صاحباتها ، إلى أن كان ذات صباح من أصباح (هاتور) وقد بعث الربيع فى إقباله الحياة فى كل ناحية من نواحى الحقول ، وأوحت إلى النفوس براعمه الوليدة معانى الأمل والبعث والقوة ، وحدثت أزهاره قلوب الفتيان والصبايا أحاديث الهوى والسحر والجمال ، وألهمت شوادى الغصون من طيره المحبين سر المرح والخفة والانتشاء ، وذكرتهم العشاش المأهولة أن هذا هو زمان الوصل والمناجاة والألفة والبناء

فى هذا الصباح خرجت نبوية تسبق الطير قاصدة إلى الترعة لتملأ جرتها وسارت وحدها وإن نفسها لتفيض بمعانى الحبور والجذل والنشوة كأن هامساً يهمس فى سمعها بأحاديث المنى ويبشرها بما طال انتظارها إياه من نعيم وسكن ؛ وكانت ترى فى هذه البكرة أروع ما تكون جمالاً وفتنة، وأعذب ما تبدو رشاقة وملاحة ودلالاً ، وقد اتسق جمالها فى جمال الكون من حولها حتى ما يعرف على وجه التحديد: أسرت إليها من الربيع الفتنة والحسن ، أم ألقت هى محاسنها ومفاتنها فى محاسن الربيع ومفاتنه فأضافها إلى معانيه وزاد بها فى مسراته ومباهجه ؟

وصلت إلى الترعة وكانت غير بعيدة فوقفت إلى جانب شجرة من أشجار التوت قد رد عليها الربيع رداءها جديداً رائع الخضرة فأمسكت جذع الشجرة بيسراها ووضعت رجلها اليمنى على حجر فى الماء قرب الشاطئ ثم أدلت جرتها حتى امتلأت وهى تنصت إلى ضحكات الماء فى فوهتها ثم جذبتها بكلتا يديها فأخرجتها وأسندتها إلى الشجرة وأصلحت حويتها فوق رأسها ودارت بعينيها تبحث عن فتاة قادمة أو غلام أو رجل يعينها على حملها . ولكن عينيها الجميلتين لم تقعا إلا على حقول الفول الداكنة وحقول القمح التى أخذت تمشى صفرة النضج فى خضرتها ، فجلست على حافة الترعة تنتظر ، ثم بدا لها فكشفت عن ساقيها وأخذت تلقى عليهما الماء وتغسل عقبيها كأنما تأبى أن يعلق التراب بهذا المرمر الناصع الذى تدل به وتزهى

ورفعت عينيها ولكنها لم تكد تلتفت حتى التقت تانك العينان بعينى أحمد وألفت نفسها بين زراعيه القويتين فمانعت وغالبت، ولكن أنى لها أن تدفع هذا الهيام أو أن تكبح هذا الشوق ؟ وراح هو كالمجنون يلقى على ثغرها قبلاً مختلفة الطول ، فعشرة متقطعة فى زمن واحدة، وواحدة متصلة فى زمن عشرين !. وذهلت عن نفسها برهة ثم أفاقت فعادت تدفعه وقد دب الخوف إلى قلبها أن تراهما عين ، ونهض على رغمه ونهضت فتناولت حويتها وأعانها على حمل جرتها وجرى إلى حيث كان بين شجيرات الفول ، وسارت هى نحو القرية ينتفض جسدها انتفاضاً . وتتنازع محياها الأبلج صفرة المفاجأة وحمرة النشوة ، وتختلج على شفتيها بسمات الرضا حيناً وسمات الخوف والقلق أحياناً

خالطت لفحات الصيف شيئاً فشيئاً أنفاس الربيع الرخية ، ونضجت سنابل القمح وراحت عيدانها الذهبيـة توحى بمنظرها وخشخشتها إلى المزارعين أغانى الحصاد ورنين المناجل وسحر العشايا والبكر وروعة القمر فى تلك الليالى التى تشيع البهجة فى النفوس وتحيى الزهاء فى القلوب ، وتمنى كثيراً من الشـبان والشواب بتحقيق الآمال المنشودة وحلول الأيام الموعودة

وعاد مجلس الشيخ عثمان سيرته الأولى أمام داره عقب صلاة العشاء كل ليلة حافلا بأهل الناحية من الشيوخ والشباب . أما الشيوخ فقد أحبوا عشرته وأولعوا بحديثه ؛ وأما الشباب فقد توثقت بينهم وبين ولديه أواصر المودة . ولكن السر الحقيق فى اجتماعهم حول داره لا يكاد يخفى على أحد ، فلقد كان كل من هؤلاء الشبان يمنى نفسه أن تكون له نبوية ، ولولا ما كانوا يخشونه من بطش حسن لراحوا جميعاً يتنافسون فى طلب يدها

وطال الحديث ذات ليلة وتشعب ، فمن ذكريات قديمة يستعرضها هؤلاء الشيوخ عن حياتهم فى القرية ، إلى الكلام فيما وعوه عن آبائهم من أحاديث « كالعملية » فى عهد سعيد و « هوجة » عرابى ومنهم من شهدها ، إلى غير ذلك مما طوته الأيام ؛ وكان الشبان ينصتون إلى حديث الشيوخ فى اهتمام ، فإذا تكلم أحد الشيوخ ناعياً على شباب اليوم أحوالهم تهامس الشباب ساخرين أو تغامزوا بالأحداق ، وقد منعهم احترامهم لهؤلاء الشيوخ أن يردوا عليهم بما يخالف آراءهم

وانفض السامر والشيخ عثمان يرد على المسلمين تحية الإسلام ودخل ابناه الدار ، وبينما كان هو يهم

بالدخول استوقفه شبح يقرب منه فنظر فاذا هو حسن، فاربد وجه الشيخ عثمان وأخذته ربكة اهتزت لها أوصاله ، وأخرج حسن مصحفاً من جيبه فناوله إياه ثم وضع يده عليه وراح يقسم على ما رآه بعينيه وهو مختبئ بين شجيرات الفول قائلا إنه إنما سكت هذه المدة لأنه كان يجتهد أن يتحرى مبلغ الصحة فى إشاعة علمها ولكنه لا يستطيع أن ينطق بفحواها . ولم يجب الشيخ عثمان بكلمة ودخل داره يجر رجليه جراً وإنه ليكاد يتهدم من الضعف . ولم يقرب النوم من جفنيه طول ليله ولم تفارقه الوساوس لحظة ؛ وإنه ليوشك مما بلغ به من الضيق أن يلفظ النفس الأخير كلما صورت له هواجسه ما عسى أن تكون فحوى تلك الإشاعة التى أشار حسن إليها

وعجب الناس أن رأوا الشيخ عثمان فى اليوم التالى يكاديسقط من الإعياء، وهالهم أن يذبل وجهه وتنطفئ عيناه ، وقد كان بينهم بالأمس موفور المرح بادى العافية ، وراح هو يوهم السائل أنه إنما يشكو مرضا فى صدره هو سبب ما هو فيه .

وصبر حتى جنه الليل فذهب كعادته إلى المسجد. ولما صلى العشاء ذهب إلى حيث كان يجلس الإمام فدنا منه وسلم ثم سأله هل يكون جزاء القاتل جهنم مهما كانت دوافع ارتكاب الجريمة ؟ وكيف يساق إلى جهنم من يقتل حفاظاً عن نفسه أو دفاعاً عن عرضه؟ وأجابه الشيخ إجابات زادته حيرة على حيرته. فانصرف وفى نفسه شك من كل ما يقول به ذلك الإمام . . .

فعاد من المسجد فشرب بعض الماء وعافت نفسه الطعام فآوى إلى مضجعه مبكراً شاكياً إلى زوجه ما يحسه من مرض ، وهى تحاول أن تسرى عنه حتى نام أو تظاهر أنه نام .

وتزاحمت فى رأسه الوساوس والأوهام حتى صار مخبولا أو كالمجنون ، وكان يطلب إلى الله ضارعاً أن يريحه بالموت أو أن يصيب ابنته بكارثة من غرق أو حريق أو علة تودى بحياتها ... ثم تزعجه تلك الأفكار فينتفض جسده ويتصبب عرقه ، وتكاد تزهق روحه .

وأخذته سنة فرأى فيما يراه النائم أنه صعد فوق مشنقة والجلاد يوشك أن يضع الحبل فى عنقه ، وبنته على مقربة منه وهو يتوسل إليها أن تعفيه فلا تجيب؛ وظل على هذا الحال برهة، ثم تقدم الجلاد فهم به ليشنقه ، ولكنه أفاق قبل أن يموت على تلك الصورة !

وراح يسأل نفسه أهى مظلومة ؟ وإنه ليرجو الله أن تكون كذلك ، ويسأله أن يبين له الحقيقة ... ولكن الشك لا يلبث أن يستولى على نفسه فيحس كأن ناراً حامية تتمشى فى جسده كله حتى ليهب واقفاً ثم يهذى كأن به جنة .

ونامت الدار فلا تسمع فيها حركة إلا ما تأتيه الماشية فى حظيرتها من حركات وأصوات ، وكانت نبوية تنام وحدها على سطح الدار تتوسد حصيراً وتلتحف بملاءة خفيفة ، وكانت فى تلك الليلة تغط فى نوم هادئ ووجهها إلى السماء يقابل ملك الليل فيكون من وجهيهما قمران أحدهما حالم فى نعاسه ، والآخر حالم فى سهده

ونهض الشيخ عثمان فمشى فى فناء الدار كأنه شبح من أشباح الليل لا يسمع لوقع أقدامه أى صوت كأنه لا يطأ بهما الأرض ، ودخل حظيرة الماشية

فأخذ منها شيئاً ، ثم صعد على السلم إلى حيث تنام ابنته، وجلس إلى جانبها فى رفق، وقد ارتعش جسمه وجمد ريقه ، ثم مد يده المعروقة فوضعها على بطنها وراح يتحسسها فى هوادة، ووسوس له الشيطان أن فى بطن ابنته علواً لا يكون فى بطن الأبكار ، فارتفع الدم إلى وجهه وهانت الدنيا فى نظره ثم عقد النية على تنفيذ ما اعتزم، وواتته وقتئذ جرأة عجيبة حتى ما يفكر فى شىء... وغشيت القمر فى تلك اللحظة سحابة فكأنما راح يتوارى من سوء ما يرى، وتناول الشيخ عثمان الحبل الذى أحضره معه وقد أعده على شكل مخنقة ليشد طرفيها حول عنق ابنته ورفع بيسراه رأسها من فوق الوسادة. وبينما هو يتأهب لوضع عنقها فى المخنقة أفاقت مذعورة وقد خرج القمر من خلف السحابة بغتة فوقعت عيناها على وجه أبيها وعلى الحبل فى يده فصرخت صرخة دوت فى السطح وشاعت فى فناء الدار ، ولطمها أبوها لطمة قوية على وجهها وقد سقط الحبل من يده ثم أمسك عنقها وشد عليه بكلتا يديه وصاح بها : «يا فاجرة»

وهرعت الأم إلى السطح وقد ألقى فى روعها ما حدث وأقبلت على زوجها فدفعته فى عنف فألقته على ظهره وراحت تكيل له الشتائم، ثم أخذت بنتها بين ذراعيها وراحت تهدهدها وهى من فرط ذعرها فى غيبوبة شديدة يعلو صدرها ويهبط، ويدق قلبها دقاً متوالياً ينذر بالخطر حتى لقد كادت تصرخ الأم لولا أن خشيت أن توقظ الجيران ...

ولما ذهب عن ابنتها الروع وضعت رأسها على الوسادة وألقت على جسدها ملاءتها ، ثم جذبت بعلها من يده فطاوعها ومشت تجره حتى السلم فدفعته دفعة كادت تلقيه على وجهه وهى تقول له : « انزل يا رجل يعوض علينا ربنا فى عقلك . خلاص بقيت زى اللعبة فى أيدى العيال . انزل. الله ينتقم من اللى كان السبب»

وانهمرت دموعها ساخنة على خديها فتمسحها بكفيها ، وجرؤ زوجها فالتفت إليها قائلاً : « الله ينتقم منك أنت ومن بنتك ... يا رب عجل بالموت ... ما ذنبى يا ربى حتى أصاب بهذه الفضيحة التى تعلق بشيبتى ... الله يصيبك بالعجز والعمى يا نبوية يا بنتى ... أنا برىء منك إلى يوم الدين »

ولما نزلا إلى فناء الدار أخذت الأم تنتحب وزوجها صامت لا يجيب ؛ ثم قالت وهى تشهق من فرط الدمع : «سآخذ ابنتى ونترك لك الدار لتستريح»

ووقعت هذه الكلمات فى نفس ذلك الشيخ وقعاً أليماً ، فهو لا يطيق أن تبعد زوجه عن الدار ساعة ، ولمحت هى أثر كلماتها فى نفسه فاستطردت : « حكاية عيال من أولها إلى آخرها ... وإذا كنت تريد أن تطمئن على شرف ابنتك ففى الصباح تقسم لك على المصحف وأمرنا لله »

— أى نعم أريد أن تقسم على كتاب الله أنها ما فرطت فى عرضها

— يا رجل، استغفر الله! هل يصح الكلام ده على ابنتك ؟

— أقسم لى حسن على المصحف أنه ...

— أعرف هذا كله ... وما قيمة يمين واحد فاجر زى ده ... يا راجل افهم، واحد ما يخفشى من ربنا يقوم يخاف من المصحف ؟

— وهل أنت تنكرين أن ابنتك تحب أحمد وأحمد يحبها ؟

— وإيه يعنى ... دا شىء يحصل بين كل شابة وشاب

— عال قوى! شيء يحصل بين كل شابة وشاب؟

— اسم الله على عقلك ، هوه ما حصلشى بينى وبينك ؟ افتكر يا رجل اللى عملته علشان تأخذنى. وهو أنا يوما فرطت لك فى عرضى ؟ يا راجل حرام عليك دانت من اللى بيصلوا الفجر ، والبنت على كل حال تطلع لأمها

ولاحظت المرأة شيئاً من الاطمئنان يخالط نفس الرجل لهذه العبارة ، فأقبلت عليه وأخذت بيده وقالت : « قم يا شيخ بكره تستريح فستحلف لك ابنتك على كلام الله »

وذهب الرجل إلى فراشه وصعدت الأم إلى السطح فوجدت ابنتها ما تزال تبكى، فما زالت بها حتى اطمأنت ثم رقدت إلى جوارها حتى أصبح الصبح

***

وثق الشيخ عثمان من براءة ابنته فصحت عزيمته على أثر ذلك أن يزوج نبوية من أحمد فى أقرب فرصة ولتكن فى موسم القمح هذا . وسرعان ماذاع هذا النبأ فعرفه جميع أهل القرية ... وجزع من كانوا يمنون أنفسهم بنيل يدها من الشبان، وأشفق كثيرون على أحمد من كيد حسن حتى لقد أخذ بعضهم يؤكد أن هذا الزواج لن يتم وفى جسد حسن عرق ينبض . ونصح بعض من أشفقوا للشيخ عثمان أن يرجع عن هذا فرفض فى شدة ما عرفوا عنه مثلها من قبل، وعاد يتمتم بتلك الآية التى كان يتمثل بها أبداً « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »

وفرحت الفتاة فرحة جاءت مضاعفة بعد ما كانت فيه من بلاء وغم ، أما أحمد فقد أصبح من فرط ما سره هذا النبأ فى شبه ذهول يتقبل تهانى أقرانه فتقع كلماتهم على قلبه برداً وسلاماً، وكأنما هو يحبهم جميعاً حباً لم تستشعره نفسه من قبل ؛ وما كدر عليه صفوه ما تحدث به الناس عما عسى أن يفعل حسن، فلقد ملك الفرح عليه شعوره حتى صار لا يفكر إلا فيما هو مقبل عليه، ولكن حدث أن جرى بينه وبين سليمان أحد لداته حديث ذات يوم فاستطال ذلك عليه وآلمه حتى لم يطق أحمد صبراً فتهدده وتوعده؛ ولولا أن تدخل بعض الشبان فباعدوا بينهما لعظم شرهما وتفاقم أمرهما ..

أما حسن فقد تظاهر بعدم المبالاة لا يشير إلى هذا النبأ فى أحاديثه ولا يلتفت إلى أحاديث رفاقه عنه ، فإذا حدثه أحدهم عنه حمل محدثه فى دهاء على أن يصدق أنه لا يحفل به وأنه انصرف عن تلك الفتاة ولو أن له فيها رغبة ما وقف فى سبيله أحد

وفى ذات ليلة روع أهل القرية بمنظر النار على بعد تجرى فى حقل من حقول القمح ، وقد صعد النسوة على أسطح الدور ينظرن ويتبين الجهة وكل تحسب النار فى حقلها أو حقل قريب لها ويعلو صراخها ، وجرى الفتيان والرجال نحو الحقول ولكن أنى لهم أن يدركوا شيئاً وقد كانت النار تجرى فى ذلك الهشيم فى سرعة هائلة مروعة ؟ وعاد الناس بعد قليل يعلنون أن النار لم تترك فى قمح سليمان عوداً واحداً . . . ولم تنحصر الشبهة أول الأمر فى أحد فما كان يسمع على ألسنة الناس إلا قولهم : « ربنا يعوض عليه » أو قولهم : « ربنا يؤذى أولاد الحرام » . ووجد رجال الشرطة من معاينة الحقل عدداً من الكرات القماشية المحشوة بالبارود ونترات الصودا والكبريت ، تلك الكرات التى اخترعها الفلاحون ليجاروا بها روح العصر فى التجديد ! وإنهم ليجعلون لها فتيلاً يغمس

فى الزيت ، ومتى مست النار ذلك الفتيل سرت فيه على مهل حتى تمس تلك المواد فتنبعث النار وتشب ، وفى تلك الآونة يكون ملقى الكرة فى هدفها قد بعد تمام البعد عن مكان ذلك الهدف …

وسرعان ماجرى اسم احمد على ألسنة أهل القرية وأخذ الناس يتهامسون بالاتهام ، وما لبث سليمان أن اتهمه فى غير تردد ، وقام الشرطة بتفتيش داره فوجدوا فيها بعض الكرات وكان قماشها من نفس قماش تلك الكرات التى وجدت متناثرة قرب الحقل كما كان حشو هذه كحشو تلك لا تفترق عنها فى شىء

وتقدم بعض الشبان فشهدوا بما يثبت الجريمة على المسكين ولم يغن عنه إنكاره ودفاعه . . . وصدق الكثيرون من الناس أنه هو المجرم ، وإن كانوا ليعجبون لذلك أشد العجب فما عهدوا عليه شيئاً من هذا ، وما كان الشر من طبعه أبداً … أما القليلون فقد كانوا يبتسمون لهذا ابتسامة الألم والسخرية ، وفى عيونهم أمارات الخبث التى تنطق بأنهم يعلمون كل شىء ولكنهم على عادة أهل القرى فى مثل تلك المواقف لا يستطيعون أن يفصحوا عن شىء وإلا لحقهم هم أيضاً مثل ما لحق هذا البائس من كيد وغدر ، وما أيسر أن تدس الكرات أو غير الكرات فى أية دار من الدور !

***

فرغ المحقق فى مركز الشرطة من تحقيقه ، ووضع الحديد فى يدى أحمد وسارمغلولا أمام شرطى على جواده يسوقه إلى عاصمة المديرية ، وكان الوقت بعد الظهيرة بساعة ، وقد حبس القيظ الناس فى دورهم فلا يرى أحد فى دروب القرية كأنما كان الوقت منتصف الليل ؛ وأمر الشرطى أهل المتهم أن يقفوا فلا يتبعوه ، وتوسل إليهم أحمد أن يفعلوا ، وكانت أمه وأختاه يبكين بكاء يفتت الأكباد كأنما كان يساق فتاهن إلى الموت،وهذا هو آخر عهدهن به ولم ينقطع دعاؤهن أن ينتقم الله ممن ظلمه .

واقترب أحمد من دار الشيخ عثمان فدق قلبه ووهى جلده ومشى يجر رجليه ، ومر بالدار فلم يلتفت إليها كأنه لا يعرفها فلقد كره أن تقع عينه على نبوية وهو هكذا مغلول اليدين يساق على رغمه إلى حيث يساق المجرمون .

وسار أحمد يتبعه الشرطى على جواده فى الطريق المؤدية إلى الحقول ليسلكاها إلى طريق العاصمة ، وقد اشتدت حرارة الشمس حتى كانت لفحاتها فى الوجوه كأنها ألسنة من اللهب ! وكان أحمد مطرقاً فى مشيه يقاسى نارين : نار الشمس فى وجهه ، ونار الغيظ فى صدره … ورفع عينه وقد اقترب من شجرة عند منعطف الطريق ، ولم يكد ينعطف حتى وجد نفسه أمام نبوية ! فافتر ثغره عن ابتسامة ما لبثت أن انطفأت فيما شاع فى وجهه من شحوب وكدرة؛ فلقد رأى فتاته تحاول حبس دموعها فلا تقوى فتجهش وتشهق وتئن أنة مكتومة نفذت إلى أعماق قلبه ، وحاولت الكلام فلم تنفرج شفتاها ، وحاول هو أن ينطق فاستعصى عليه الكلام كأنما انعقد لسانه . وأخذت الشرطى الشفقة فاغرورقت عيناه ودار بوجهه ليدع لهما حرية الكلام ولكنهما ظلا جامدين . ثم إن الفتاة تقدمت فدست فى جيب الفتى بعض دريهمات وألصقت صدرها بصدره فراح يغالب الحديد فى يديه على غير وعى منه ، والتفت نحو الشرطى فلما وجده لا يراه قبل فتاته بين عينيها … وانطلق بعد ذلك فى سبيله ، ووقفت هى إلى جانب

الشجرة تشيعه بنظراتها فى جزع يتقاصر عن وصفه أى كلام

***

مضت أيام كان لا حديث لأهل القرية فيها إلا ذلك الحادث ، وبات الناس يرجون أن يقف الأمر عند هذا فلا ينال الشيخ عثمان من بطش ذلك الغادر الفاجر حسن ما يعجل به إلى القبر . ودخل أحمد السجن ليقضى فيه ستة أشهر طويلة ، وتلقت نبوية ذلك النبأ فى صمت كان فى الواقع صمت اليأس ، وظلت على صمتها هذا يتمشى السقم فى بدنها ويغشى الحزن وجهها فيلبس جمالها روعة على روعة ويترك على محياها طابع الشكوى الدائمة والضراعة

وحصد الناس قمحهم وامتلأت البيادر والأهراء وسعد من سعد من الفتيان والصبايا إلا نبوية فقد حيل بينها وبين ما اشتهت نفسها ، وحل محل الأمل فى قلبها الضراعة والمسكنة والمذلة . وجعل الشيخ عثمان يصبر نفسه وأصبح لا يختم صلاته إلا بطلب الانتقام من الله ، على أنه ما تسرب إلى قلبه خوف بعد ما حل بأحمد ، حتى لقد دهش الناس من بسالته وثباته على رأيه وإصراره على أن يزوج ابنته من صاحبها مهما حدث وهو فى تلك السن

ولم يمض شهر حتى وقع فى القرية حادث تلقاه أهلها بمزيج من الدهشة والرهبة والاعتبار ، وكان جانب العبرة فيه أقوى تلك الجوانب ، يخالط أتعس القرويين إزاءه شعور الراحة والغبطة والاطمئنان ، فبينما كان حسن فى طريقه إلى حقله ذات صباح رأى غلاماً يسحب دابتين ربط حبل إحداهما بحبل الأخرى فأسرعت الدابتان لأمر ما وجذبتا الغلام فتقدم حسن لنجدته وأمسك بالحبل المتصل من وسطه واتجهت إحدى الدابتين إلى اليمين والأخرى إلى الشمال فكان من الحبل مخنقة دارت بعنقه ، والدابتان تمعنان فى الابتعاد إحداهما عن الأخرى وتجريان معاً إلى الأمام فى وقت واحد فتجران هـذا الذى علق بينهما ... وما هى إلا لحظات حتى كان جثة هامدة وقد كسرت ذراعه عند مفصل الكتف !

وهكذا كانت المخنقة من نصيب هذا الفتى ، وقد كانت بسبب ما افترى ودس ستدور حول عنق آخر ضعيف هين لا يستحق إلا أن يدور حوله عقد العرس

الخفيف

صندوق النذور

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ درينى خشبة

كان مقام العارف بالله رضى الله عنه وأرضاه هادئاً ساكناً فيه روعة وفيه جلال وفيه خشوع . وكانت القبة السامقة الشاهقة تمكس فوقه أخيلة رفافة يزيدها البلور الملون ، والقاشانى العجيب ، وألواح الرخام والمرمر والبلـنط ، وقاراً فوق وقار ، وجلالةً فوق جلالة ، ونوراً دنيوياً فوق ما يفيض عليها من نور الآخرة ، وسناء التقوى ، ولألاء المثوبة ووضاءة الرضى . . .

وكان أَرَج المسك يعبق فى أرجائها ، وريحان التقى يملأ بشذاه أجواءها ، وكانت شبابيك الضريح النحاسى تلمع وتُزهى وتبتسم ، والثريات من فوقها تتألق وإن لم تكن مضاءة ، وبيض النعام المعلق فوق الضريح يروح مرة ويجىء مرة ، وما هزته ريح ، ولا حركته ... وكانت السفينة المعلقة بين بيض النعام تهتز قليلاً فتكون كأنها فوق موج رفيق بها حدب عليها يهدهدها فى أمن ودعة إلى بر السلام .

أما الضريح فكان مكسوا بغطاء أخضر زيتونى نقشت عليه آيات من القرآن الكريم خيطت فيه بخيوط من حرير وعملت بصنعة دقيقة باهرة برزت فيها سلوك الذهب والفضة فجعلت تتألق وتمكس بريقاً هادئاً خفيفاً .

وكانت العمامة الكبيرة البارزة الملتفعة بالكشمير الثمين تُلقى فى القلوب رهبة ، وكانت عينا محمد أفندى عبد الغفور لا تريمان عنها . لكنه كان يبتسم أو يخفى ابتسامة خبيثة ضايقت صديقه الشيخ على عبد الواحد الجالس إلى جانبه يتمتم بأدعية خافتة وصلوات طيبات .

وكان اليوم يوم جمعة ، وكان الوقت ضحى ، وكان زائرو المقام الكريم قد أخذوا يقبلون أفراداً أفراداً ، أو أزواجاً أزواجاً ، أو جماعات جماعات ، لكن الزحام كان نادراً وخفيفاً على كل حال ، لأنه لا يكون على أشده إلا بعد أداء صلاة الجمعة حين يقبل الناس متزاحمين متدافعين لنيل البركات والتماس النفحات

وأقبلت فتاة ناهد ذات جمال وذات رواء تثب كالحمامة فوق السجاد السعيد ، فجعلت تطوف بالضريح سبعاً وكلما أتمت مرة وقفت عند صندوق النذور فدست فيه قطعة كبيرة من النقد كان يسمع رنينها فى الداخل حين تدفع أخواتها فى الصندوق لتحتل مكانها بينها ... فلما أتمت الفتاة طوافها وقفت عند رأس الشيخ الذى تحسبه قاراً تحت العمامة الكبيرة الخضراء ، ثم راحت تتمتم وتهمهم ، ثم تسر وتغمغم ، ثم وقفت لحظة ساكتة صامتة ، ثم انحدرت من عينيها دمعة ترقرقت فوق خديها الجميلين الأسيلين ، وشهقت شهقة عميقة حارة ثم انصرفت ذاهلة أو كالذاهلة ...

وقد ذعر قلب محمد أفندى عبد الغفور عند ما لمح

الفتاة، وعند ماشهدها تخطر ريانة فينانة بارعة المحاسن جمة المفاتن، فلما تنبه إليه صديقه على، وهو يوشك أن يلتهم الفتاة بعينيه الجائعتين اعتدل فى جلسته، وترك أدعيته وصلواته وقال له، ثم قال محمد له:

— إتق الله يا محمد فأنت هنا فى حَرَم حرام ومكان مقدس... غض من طرفك يا صديقى وانظر أمامك!

— أنظر أمامى لأرى ماذا؟

— لترى هذا الضريح يكاد ينشق فيلتهمك!

— يا حفيظ! وكيف ينشق يا أخانا الشيخ على؟

— لقد رأيته يتحرك تأففاً من فعلك!

— يتحرك تأففاً من فعلى؟ وماذا فعلت؟

— لقد كنت تهيم ببصرك فى إثر الفتاة!

— وكيف لا أفعل وقدماها جميلتان ناصعتان كأنهما خلقتا من مرمر يتدفق فيه دم؟

— ما هذا الكلام يا أخى؟ إتق الله يا شيخ... أنت هنا فى مكان طاهر له حرمته وله قداسته!

— لكن الجمال الذى زار هذا المكان الآن أفتك بالنفس وبالقلب وأشد تأثيراً فيهما من قدسية هذا المكان!

— استحى ياشيخ! تأدب فى حديثك هنا!

— هذه لهجة شديدة يا شيخ على فهذب حديثك قليلاً!

— أقسم لك لقد شهدت الضريح يتحرك تبرماً بك!

— الضريح يتحرك؟

— أجل... ولا شك فى أنك قد رأيته!

— وكيف يتحرك الضريح، ولماذا؟

— ماذا أقول لك وأنت رجل رقيق العقيدة ضعيف الإيمان!

— ولماذا كنت عندك رقيق العقيدة يا شيخ علىّ؟

— لأنك تنكر ما وقع أمامك الآن من كرامة هذا الشيخ المبارك!

— أية كرامة يا صديقى؟

— اهتزاز الضريح من السخط عليك والضيق بك؟

— أنا لم أر الضريح يهتز... إنك واهم... لقد تركت الخيال يستولى على نفسك والوهم يغشى ناظريك

— اتق الله يا شيخ... أسكت... أسكت واتق الله!

— أنا أشد لله تقوى منك... ما هذا الذى تقول؟

— بل إبليس أشد لله تقوى منك ياعزيزى... إنه لو رأى الفتاة التى خلبتك لما حاول أن يأكلها مثلك!

— وأنت؟ ألم تَصْب إليها عَمْرك الله؟

— إخسأ... إننى أعرف منك بقداسة هذا المقام الكريم... أنظر!

— أنظر ماذا ياشيخ على؟

— بيض النعام!

— ماله؟

— إنه يهتز!

— وما ذاك ياعم؟

— هذه علامة سخط الشيخ !

— أى شيخ ؟

— سيدى شمس الدين ... سيد العارفين بالله !

— سيدنا شمس الدين ساخط ؟

— إنه ساخط لا شك !

— وفيم يتسخط أو لا يتسخط ؟

— ساخط عليك

— وماذا بينه وبين بيض النعام ؟

— بينهما سر !

— بينهما سر ؟ ماذا تقول ؟

— أجل . . .

— وكيف ؟

— نعلم أنه إذا غضب غضباً هيناً اهتز البيض ، فإذا غضب أكثر اهتزت هذه الثريات ، فإذا اشتد غضبه اهتز الضريح ، فإذا حنق وامتلأ غيظاً رأيت هذه السفينة تهتز وتعلو وتهبط وتروح جيئة وذهاباً كأنها فوق سطح اليم المضطرب !

— يا حفيظ !

— هل تسخر ؟

— كلا . . . لست أسخر

— بل أنت رجل لاعقيدة لك ولاأدب عندك !

— عَوْد إلى العقيدة والأدب ...

— أنصحك يا محمد أفندى !

— وبم تنصحنى ؟

— قم فتوضأ وصل ركعتين لله عسى أن يغفر لك الشيخ ؟

— وهل يملك الشيخ أن يغفر أولا يغفر ؟

— يا شيخ ! إتق الله يا مسلم !

— من منا يجب أن يتقى الله ؟ أنا ؟ أم أنت ؟

— بل أنا !.. عجيب والله !.. بل أنا يا سيد محمد فلا تحزن ! . . أنا لأننى لا أستحيى من النظر إلى ما حرم الله وأفعل هذا المنكر فى مقام سيد العارفين بالله ...!

— على كل حال أنا لم أكفر بالله مثلك !

— إخسأ قاتلك الله. . . أنا أكفر بالله ! لا بارك الله فيك !

— وكيف تنكر ذلك وقد جعلت لله شركاء ؟

— أنا ! غفرانك اللهم !

— أجل أنت ! ألم تقل إنه يجب أن أتوضأ وأصلى عسى أن يغفر لى هـذا الشيخ الذى اتخذتم ضريحه وثناً ؟

— نحن اتخذنا ضريح العارف بالله وثناً ؟

— أجل ...

— نحن ؟ المسلمين المصلين !

— أجل . . . إنكم اتخذتم منه ما هو شر من الوثن !

— ماذا تقول يامحمد ؟ وهنا تقول هذا الكلام؟

— أقوله هنا لأنه منكر ؟

— قاتلكم الله يا شباب ! مقام سيدى شمس الدين منكر ؟ أى كفر هذا ؟

— يا لهذه العمامة ويا لهذا الكشمير ! ! ماذا يكون الوثن إن لم يكن هذا الضريح وثناً ؟!

— ثم ماذا أيضاً ؟ !

— ثم هـذا البيض المعلق الذى يفيض على

عقولكم شعبذات ، ماذا هو ؟ !

— ألا تقصر يا محمد افندى ؟

— حدثنى عن تلك السفينة ؟ أسفينة نوح هى ؟!

— أأنت أعقل من الدولة إذن ، وأهدى ممن وضع هذه الآثار ؟ !

— الدولة لم تعلق هـذه الآفات ، وليس من وضعها ممن هدى الله !

— أليست الدولة هى التى شيدت هـذا المقام الشاهق ؟

— بلى ، لقد شيدته الدولة التى كانت تفكر كتفكيركم !

— واليوم؟ أليست الدولة هى التى تتولى صيانته؟

— كل هذا منكر سيبدله الله !

— ولماذا تبقى عليه الدولة ما دام منكراً ؟ !

— تبقيه لأنها تخشى الرعاع ، ولن نكون بخير حتى يأتينا الله بدولة تهدينا السبيل ولا تخشى فى محاربة الأوثان لومة لائم !

— السلام عليك إذن ... هداك الله أيها الأخ . إن كلامك شىء لا يطاق ... مسكين ! ... أى بلاء سيحل بك ... اليوم أو غداً ... ومن يدرى ؟ فلعله يحل بك الساعة ... قاتل الله المدنية وقاتل الله شباب العصر !

***

ونهض الشيخ على وحمل معه خُفَّيْه ، ثم ذهب إلى ناحية أخرى قَصِيَّة فى المقام واستقبل القبلة وكبر ، ثم راح يصلى لله ركعات يمحو بها الرجس الأثيم الذى علق بأذنيه من حديث محمد افندى عبد الغفور

وأراد محمد افندى أن يتخذ من هذا الأمر دعابة فنهض ويمم شطر الشيخ على ، ولما وجده يصلى تبسم ثم قال له : « عجبت لكم كيف تتخذون من مقابر موتاكم مساجد وقد نهاكم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ... أليس هذا منكراً ؟! ... »

وسمع الشيخ هذا الكلام ولكنه كبر تكبيرة ثم ركع ، ثم قام ، ثم أهوى إلى الأرض ، ثم ظل ساجداً سجوداً طويلاً خاشعاً

ثم تلفت محمد أفندى فلمح الفتاة ... بعينها ... الفتاة الجميلة الأسوانة جالسة فى رهط من أترابها فى الركن الغربى من أركان المقام ، فآثر أن يجلس حيث هو ليطالع القمر السافر الذى يحيل مقبرة العارف بالله جنة وارفة من جنان الحب ... لكنه ما كاد يفعل حتى رأى شيخ المسجد يقف حياله ، ويتفرس فيه ، ثم يمد يده فيقبض على ذراعه ، ويدعوه إلى خلوة معه ... وما كاد يستقر بهما المقام فى خلوة الشيخ حتى يدوى المؤذن بأذان الظهر ، فتتردد فى جنبات المسجد الكلمتان العظيمتان اللتان فتح الله بهما للاسلام فتحه المبين « الله أكبر ... الله أكبر ... »

وتنتهى الصلاة ...

ويلتفت الشيخ إلى محمد أفندى ويطلب إليه ألا ينصرف لأنه سيريه من آيات العارف بالله عجبا ...

ثم يقصد وإياه إلى مقام شمس الدين ، فما يبلغانه إلا بعد جهد وبعد طول عنـاء ، لأن الزحام يبلغ أشده عقب الصلاة حينما يتدافع الناس نحو الضريح ليطوفوا به ، وليلتمسوا من بركات الولى الكريم ، ولتشملهم نفحاته ...

ودخل الشيخ ... ووقف محمد أفندى عبدالغفور إلى جانبه . . . وجعل رئيس المسجد يتمتم بصلوات ودعوات ، وجعل الناس يتدافعون نحو صندوق النذور يدسون فيه قروشهم

وكانت سيدة وقور تجلس عندالصندوق، فما راع النـاس إلا أن تقفَ فجأةً وتأخذ مقصاً صغيراً ثم تتناول غدائرها الذهبية فتقطع كل (محمودية) وتدسها فى ثقب الصندوق وتصنع هذا سبع مرات ثم تجلس قليلاً ، ثم تعود فتقف وتعمل المقص فى غدائرها ... فعلت ذلك سبع مرات ، ورئيس المسجد واقف يتمتم ويُعَوِّذ، ثم يُسَبحل ويحوقل، وهو بين هذا وذاك يتفصّد جبينه بالعرق فيدع حبّاته تترقرق فوق وجهه المشرق المنير ...

ثم يتدافع الناس فجأةً فيفسحون طريقاً لرجل فقير أشعث الشعر خلق الثياب عارى القدمين نابى الهيئة ، قد علق فى ذراعيه حلقاً ثقيلاً من حديد ، وجعل فى رجليه سلاسل وأغلالا ، وأغرب من كل ذلك وأعجب جعله فى شفتيه قُفْلاً ثقيلاً من فولاذ ، وفى يمناه سيفاً مفلولاً من خشب له غمد زَرِى كئيب ...

وقف هذا الفقير حيال ضريح الولى ، ثم أخرج مفتاحاً فدسه فى القفل المتدلى من شفتيه ، ولَوَاه فانفتح ، وسلك اللسان الطويل من ثقبين كبيرين فى شفتيه ، وراح يصلى صلاة خافتة أول الأمر ، ثم جعل يغمغم مرة ويهمهم أخرى ، ثم راح يَعصف بصوته ويقصف ، ويجلجل كالرعد ، ويقول :

يا سيدى يا شمس الدين ... مَدَدْ

يا سيد العارفين بالله ... مَدَدْ

مددْ ، مددْ يا نور العين ، مددْ

يا أبا الكرامات يا ولى الله مددْ !

يا سارى فى الليل مدد ، مدد !

يا كاشف أسرار الناس ، مدد !

خذ بيدى يا شمس الدين ، مدد !

هز الهلال يا زين ، مدد !

أنت المقصود يا زين ، مدد !

مدد ... مدد ... مدد ...

فى القلب شجون ، وشجونه فنون ... مدد !

حبك يضنيه ، وهواك دواه ... مدد !

عرش الرحمن ، لك فيه إيوان ، مدد !

.... الخ

وكان الرجل ينشد هذه الهتافات فى صوت متهدج ، وفى لساننا الدارج ، ثم يزنها وزنا سليماً مستقيماً مع أنها ليست شعراً

ووجم الناس ... ووقفوا لا ينبس أحد منهم بكلمة ... ووقف السيد محمد عبد الغفور مسبوهاً مشدوهاً ... فقد خلبه ذلك الإخلاص الحلو الذى كان يتدفق من فم الرجل فيحل بَرْداً فى قلوب الناس ، ويستولى على مشاعرهم ... فلما قال الرجل :

— الشك حرام ... مددْ ... مددْ !

— عبد الغفور ... اسمه محمد ... مددْ مددْ !

— يا رب اهديهْ ... مددْ مددْ !

— يا شمس الدين.. إشفيه إشفيه.. مددْ مددْ!

شعر محمد أفندى بفيض من الشعور العجيب يسرى بارداً فى دمه ، وأحس كأنما الأرض تسوخ

تحت قدميه ... وخيل له أن القبة ترقص مع الرجل وتهبط وتعلو وتروح ذات اليمين وذات الشمال . . ثم نظر إلى الناس فوجدهم جميعاً يرقصون على نغمات الشيخ ، ويغمغمون بهتافاته

ثم هلل رئيس المسجد فجأة وكبر ... فسكت الرجل الفقير وصمت الناس ، ووقف الهواء وأمسك الحاضرون أنفاسهم ... ورفع ارئيس يديه نحو العمامة الكبيرة المكورة ، فاهتز بيض النعام ورجفت الثريات ، وتأرجحت السفينة يمنة ويسرة ، ثم مضت لحظات على هذا الحال ... ثم اشتد الصمت وظل الناس مأخوذين بروعة المشهد العجيب ... لكنهم هللوا فى صوت واحد وكبروا ، حينما لمحوا العمامة الكبيرة الهائلة تهتز وتتحرك ، ثم يتحرك الضريح كله حركة هينة لينة لكنها ملحوظة لأنها حدثت مرتين أو ثلاثاً ... ثم خرجت أصوات جميلة من داخل الضريح تقول :

« الله ... الله ... لا إله إلا الله ! »

فما كادوا يسمعونها حتى تدافعوا بالجنوب والمناكب نحو صندوق النذور . . . وكان عجيباً أن يسبقهم الرجل الفقير فينثر فوقه كثيراً من الريالات المصرية الكبيرة كان الخادم يجمعها ثم يقذف بها فى الصندوق كما يقذف القروش والملاليم والبرائز وأنصاف البرائز وأخماسها ... وحاولت السيدة التى كانت تقطع الذهب من غدائرها أن تدس فى الصندوق إحد (محمودياتها) ، لكن الخادم (رجاها) أن تستأنى حتى يفرغ الزوّار . ومع ذلك فقد استطاعت أن تدس (محموديتين) ، وكانت فرحة يطفح البشر من وجناتها وهى تصنع ذلك ...

* * *

وخلا المقام من الزائرين إلا قليلاً .

ثم شعر محمد أفندى بيد تقبض على ذراعه من خلف ، وسمع صوتاً يقول :

— ألا تستغفر يا محمد أفندى !

والتفت محمد أفندى فبصر بالشيخ على عبدالواحد فدار الحديث بينهما ، واشترك فيه رئيس المسجد :

— أستغفر الله يا شيخ على !

— ألا تلتمس الصفح من سيدى شمس الدين ؟

— بلى ... ألتمس منه الصفح بعد أن شهدت بعينى وسمعت بأذني !

ثم قال رئيس المسجد :

— حقاً ! لقد أتلفت المدنية قلوب شبابنا ، وأضعفت ثقتهم بأولياء الله ... ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...

فقال محمد أفندى وهو يستعبر :

— أجل ... لكننا معذورون ... فتالله إن هذا أول يوم أرى فيهم كرامة لولى ، وتالله لأكونن خادماً بعد اليوم لسيدى شمس الدين ... وتالله لأحملن إلى مقامه تحفاً وآيات من الآيات ...

ودعا له الشيخ الفقير ، ثم أخذ قفله فجعله فى شفتيه ، وذهب يجلجل بسلاسله ، ويضرب فى الهواء بسيفه الخشبى .

ونظر محمد أفندى فى الركن المبارك حيث جلست الفتاة فى رهط من أهلها ، وكان فيهم رجل شيخ كبير ، فاستأذن رئيس المسجد فى أن يمضى معه إلى الرجل ، فلما لقياه سأله محمد أفندي إذا كان هو

والد الفتاة . فقال الرجل : « نعم يا بك ! » . فقال له محمد أفندى : « وابنتك هذه متزوجة ؟ » . فقال الشيخ : « كلا يا بك ... سهّل الله لها » . فقال له محمد أفندى : « فهل تزوجنى إياها وأنا لها كفء وهؤلاء شهودى ؟ » . فقال الرجل : « أنظرني أياماً يا بنى ! » .

فقال محمد : « وأرجو أن أنال القبول إن شاء الله » فقال الرجل : « القبول إن شاء الله »

ثم عرّف نفسه إلى الشيخ وعرّفه ، وقرأ الجميع الفاتحة ...

***

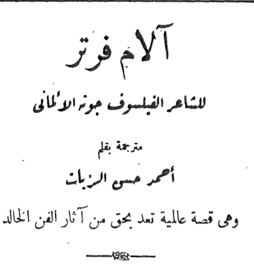
وما كاد يخطو محمد وصيد الضريح حتى سمع خادماً خبيثاً من خدم المسجد يقهقه ويقول لصاحبه : هل رأيت ؟ أنا أم أنت ؟ . . . لقد دخلت الضريح هذه الجمعة فملأت الصندوق وهديت الضال وزوّجت فتاة ... فماذا صنعت أنت الجمعة السالفة ؟ »

فقال له صاحبه : « حقاً إنك لشيطان ! ... لكن الذى ساعدك هذه المرة هو الشيخ أبو السلاسل ! » فقال الأول : « لقد لقّنه الرئيس دوره فأداه على خير وجه ... لشد ما كنت أفزع أن يضيع أحد الريالات ! »

ولم يكن الخادمان يريان محمد افندى وهما يتناجيان هكذا ... فلما ربت على كتف أحدهما وأبصرا به ... فزعا فزعاً هو أقرب إلى الخجل والحياء

لكن محمد افندى عبد الغفور كان أشد استحياءً على كل حال ... ومع ذلك فقد تزوج الفتاة ، لأنها وقعت من قلبه موقعاً عظيما ...

دريني خشبه



المارد الذى يحب نفسه

للكاتب الانجليزى أوسكار وايلد
بقلم الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

كان الأطفال قد اعتادوا دخول بستان المارد واللعب فيه حين يعودون من المدرسة عصر كل يوم . وكان بستاناً واسعاً ، رقيق الحواشى ، قد اكتست أرضه بالعشب الأخضر الطرى ، وانتثرت فى أرجائه الأزهار الجميلة كأنها النجوم . وكانت فيه اثنتا عشرة شجرة من أشجار الخوخ التى تتفتق فى الربيع عن أزهار رقيقة زاهية الألوان كأنها اللآلىء ، تتحول فى الخريف إلى ثمار يانعة سائغة . وكانت الأطيار فيه تعتلى غصون الشجر وتغرد فى عذوبة تصرف الأطفال عن ألعابهم وتستوقفهم مأخوذين ، فلا يملكون أن يعبروا عن نشوتهم بغير هذا القول :

— ألاَ ما أسعدنا فى هذا المكان !

غير أن المارد عاد يوماً من زيارة أحد أصدقائه الغيلان ، بعد أن لبث معه سبع سنين ، أنهى فى خلالها كل ما أراد أن يحدثه به — فإن محادثته كانت محدودة تنتهى ولا شك — عاد العملاق إلى قصره فرأى الصغار يلعبون ويمرحون فى البستان ! فصرخ فيهم بصوت خشن غليظ قائلاً :

— ماذا تصنعون هنا ؟

فانطلق الأطفال من فورهم هاربين ! ثم استأنف المارد صراخه قائلاً :

— إنما هذا البستان مِلكى ، وذلك ما يستطيع إدراكه كل إنسان ؛ ولست أسمح لأحد غيرى باللعب فيه أبداً !

ثم قام فصنع له جداراً رفيعاً سوّر به بستانه ، ورفع لوحة كتب عليها هذا الإعلان :

> سَيُجْزَى المخالفون
> بئس الجزاء

فياله من مارد لا يؤثر أحداً بالحب سواه !

ولم يبق حينذاك للأطفال المساكين ملعب يرتعون فيه . لقد حاولوا أن يتخذوا لهم من الشارع ملعباً ، ولكنهم زهدوا فيه حين وجدوه مليئاً بالأتربة والأحجار ، وظلوا كذلك يحومون حول الجدر الرفيعة — حين ينتهون من دروسهم — لاهجين بجمال ذلك البستان الذى وراء تلك الأسوار ، وبأيام سعادتهم التى انتهت ، يقولون :

— ألا ما كان أسعدنا هناك !

ثم قدم الربيع وانتشرت بمقدمه الأزهار والأطيار فى كل ناحية على الأرض غير بستان هذا المارد اللئيم الذى لم يبرحه الشتاء . إن الأطيار لم يَعنِها أن تغرد فيه حين غاب عنه الأطفال ؛ وإن الأشجار قد أُنْسِيَتْ أن تورق أو تزهر ...

ولقد أخرجت إحدى الأزهار الجميلة مرة رأسها من بين الأعشاب فهالها وأحزنها أن ترى لوحة الإعلان تمنع الصغار من غشيان البستان ، وانسلت هاربة لتستأنف نومها العميق الذى كانت مستغرقة فيه .

ولم يكن فى العالم أحد قد استولى السرور عليه غير « الثلج » و « الجليد » اللذَيْن قالا فى نفسيهما :

— إن الربيع قد أُنْسِىَ هذا البستان ،

ولذلك فإننا سنحيا هنا طوال العام !

وكذلك طغى « الثلج » على الأعشاب وأسبل عليها طرف ردائه السابغ ، وانتشر « الجليد » على الأشجار فكساها حلة من الفضة ازدانت بها ؛ ثم إنهما أمرا ريح الشمال أن تبقى معهما فلبّت أمرهما ، وجاءت ملتفة بالفراء تصفر طوال النهار خلال البستان والمداخن ، فرحة بهذا المكان البهيج

ثم إنهم قرروا دعوة « البَرَد » فنزل وأنشأ يتحدر كل يوم ثلاث ساعات بشدة حتى يكسر بلاط القصر ، فإذا تم منه هذا أمعن هرباً حول البستان يطوف بأقصى ما أوتيه من سرعة ! لقد كان برداً عجيباً أغبر ، وكانت أنفاسه بيضاء كالثلج !

وقد جلس المارد اللئيم ذات يوم فى الشباك المطل على البستان الأجرد الشاتى ، وقال يحاور نفسه :

— ما أقدر أن أفهم سبب تأخر الشتاء حتى الآن ! وما أظن إلا أن تغيراً قد طرأ على الجو .

ولكن الشتاء لم يأت ، ولا جاء بعده صيف ولا خريف . . . بل إن الخريف نفسه جاء وأنضج الثمار فى كل بستان إلا فى بستان هذا المارد الذى كان يعرفه الخريف لئيماً لا يحب أحداً غير نفسه !

وإن المارد لمضطجع ذات صباح فى فراشه إذ سمع أنغاماً شجية تطرق أذنيه خُيّل إليه لعذوبتها أنها من فرقة موسيقى الملك حين كانت تجتاز فى الطريق ، ولم تكن تلك الأنغام الشجية غير صدح طائر صغير كان يشدو على بعد من نافذته . لأنه ما كان سمع من أمد بعيد شدو طائر ، فظن أن ما طرق أذنيه أعذب ما فى العالم من ضروب الألحان !

ثم إن البرد وقف تهتانه من حوله ، وريح الشمال قطعت هزيزها ، وجاءت المارد من النافذة نفحة من أريج عبق جميل . فقال المارد فى نفسه :

— ما أحسب إلا أن الربيع قد جاء أخيراً .

وقفز من فراشه ، فماذا رأى !

إنه لمنظر جد جميل !

أولئك هم الأطفال الصغار ، قد دخلوا البستان من خلال نقب صغير وجدوه فى أحد الجدر واعتلوا الأغصان وبقوا هنالك جالسين . وقد ابتهج الشجر بمقدمهم فأورق ، وماس على رؤوسهم فى حب وحنان ، وكان الطير يشدو حيناً ويطير حيناً فى جذل وابتهاج ، والزهر يرنو إلى ذلك بسام الثغور من بين الأعشاب

— إنه حقاً لمنظر بهيج !

ولكن الشتاء لما يبرح تلك الزاوية القصية التى وقف فيها أصغر الأطفال يعول طوراً ، ويطوف بما حوله طوراً آخر ، والشجرة المسكينة التى بقربه ما تزال شاتية .. إن ذلك الطفل لم يتمكن من الوصول إلى الفنن لصغره ؛ وكانت الريح الشمالية تعصف حوله ، والشجرة تنحنى له ما استطاعت وتدعوه قائلة :

— تسلق أيها الصبى الصغير ... ولكنه مايقدر على شىء من هذا !!

... وأدركت المارد عليه الشفقة حين رآه فقال :

— ألا ما كان أشد إيثارى لنفسى ! لقد عرفت الآن سبب انقطاع الربيع عن المجئ إلى هنا .. سأذهب إلى ذلك الطفل فأضعه على الشجرة ، ثم أثنى على الجدار فأهدمه وأجعل من بستانى هذا ملعباً وقفاً على الأطفال حتى الأبد . . . واشتد أسفه على ما كان بدر منه

ثم إن المارد نزل وفتح بابه فى هدوء وسار فى بستانه ؛ ولكن ما إن رآه الأطفال حتى أوغلوا هرباً ، وعاد الشتاء إلى البستان من جديد ! ولكن صبياً واحداً منهم لم يهرب ، ذلك هو الصغير الذى ملأت عينيه الدموع لما رأى المارد قادماً إليه

وتسلل المارد إلى الطفل ورفعه بلطف فأجلسه

على الشجرة فما كان أسرعها حين أورقت وازدهرت ، وما كان أسرع الأطيار حين تساقطت عليها مغردة حائمة حول الصبي الصغير الذي كان يحولها عنه إلى عنق المارد مسروراً . ثم انحنى الطفل على المارد فقبله ، فلما رأى أصحابه ذلك أمنوا المارد وعادوا وعاد معهم الربيع ، فقال المارد يخاطبهم :

— إنه بستانكم أيها الصغار الآن . ثم تناول معولاً كبيراً فهدم به الجدر القائمة حول البستان . فكان الناس إذا مروا به فى طريقهم إلى السوق فى منتصف النهار رأوا المارد يلاعب الأطفال فى أجمل بستان تقع العين عليه !

وظل دأب الأطفال كذلك ، يلعبون طوال النهار ، حتى إذا أمسى المساء وخيم الليل ، جاءوا إلى المارد فحيوه وانصرفوا ...

وقد سألهم المارد مرة عن صديقهم الصغير الذى كان رفعه على الشجرة ، فأجابوه بأنهم لا يدرون عن أمره شيئاً ، فإنه ذهب ولم يعد ... إنهم لم يروه من قبل ، ولا رأوه من بعد ، ولا يعرفون أين يسكن . لشد ما حزن المارد على ذلك الطفل الصغير الذى قبله !

* * *

بقى الأطفال على هذا : يختلفون إلى البستان عصر كل يوم بعد انتهاء دروسهم ، فيلعبون مع صديقهم المارد ... غير أن الطفل الصغير وحده كان المتخلف من بينهم أبداً . ولكم كان المارد يشتاقه ويحبه ، ويتحدث عنه ويتمنى أن لو رآه .

ومضت على ذلك السنون تتبعها السنون ، فشاخ المارد وعجز عن مشاركة صغاره اللعب . فكان يجلس على مقعد وثير ليتفرج عليهم هانئاً مغتبطاً . وكان يقول فى نفسه :

— إن فى هذا البستان لكثيراً من الأزهار الجميلة . ولكن أجمل منها فى نظرى هؤلاء الصغار

وفى صباح يوم شات .. وقد أصبح الشتاء الآن لا يفزع المارد ، فما هو الآن عنده غير إغفاءة قصيرة لا يلبث الربيع بعدها أن ينهض بأزهاره وتهاويله . فى صباح ذلك اليوم ، بينا كان المارد يرتدى ثيابه إذ بصر بشىء هاله ، فكذب نظره وكذب نفسه ... إنه منظر مدهش عجيب! أفى الإمكان هذا ؟ شجرة حالية بالنوار الجميل فى تلك الزاوية القصية وتحتها طفله الصغير الذى أحبه واقفاً ؟

هرول المارد نازلاً يستخفه الفرح ، وجاز أرجاء الحديقة مسرعاً حتى جاء إلى الطفل ؛ وما كاد أن يقترب منه ويراه حتى طما غضبه واربد وجهه ، وسأله قائلاً حين بصر بآثار مسمارين على يديه ومثلهما على رجليه :

— من ذا الذى تجرأ فجرحك ؟ قل من ذا الذى تجرأ عليك ففعل ؟

فأجابه الطفل الصغير :

— كلا . ما تلك بجروح حقيقية . إنها جروح الحب !

وهنا استولت على قلب المارد الرهبة والخشوع فخر ساجداً أمام قدمى طفله وسأله قائلاً :

— من أنت إذاً ؟ .

فأجابه الطفل باسماً : أنا الصبى الذى سمحت لى مرة باللعب فى بستانك هذا ، جئت لآخذك معى إلى بستانى الذى هو الفردوس

* * *

وحينما جاء الأطفال عصر ذلك اليوم كعادتهم وجدوا المارد ميتاً فى مكانه تحت تلك الشجرة ، وقد نثرت على جثمانه الأزهار والنَّوَرُ الأبيض الجميل

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

تعب القلب

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« إذا كان الطبيب شابا شديد الجاذبية فانه خليق بأن يجد كل مريضة يزورها مصابة بتعب القلب »

***

صاحت المريضة الشابة الراقدة على السرير فى لهجة ساخرة :

— أيتها الأخت حنا ! يا أخت حنا ! من عساك ترين من الشباك ؟

فتلفتت حنا مبتعدة عن الشباك وقد التهب خداها بحمرة الخجل ، فلقد أصبح عادة لها أن تقف فى الشباك مترقبة كلما دنا موعد ساعى البريد

وسارت الممرضة حتى دنت من مريضتها فانحنت عليها ناظرة إلى وجهها الجميل الشاحب ، وقالت عن غير قصد :

— لا أرى أحداً غير الدكتور سيمور ، وما أظنه قادماً إلى هنا

فضحكت فيث ميرتون ضحكة خفيفة مستهترة ، وقالت :

— ولم لا ؟ لم لا يحضر إلى هنا يا أخت حنا ؟

فأجابت حنا منبهة المريضة فى شىء من الرقة :

— أنا لست أختاً إن أنا إلا ممرضة عادية

— ولكنك تقطعين وقت فراغك كله فى ترقب إنسان ما أو شىء ما ، إذن يجب أن تكونى الأخت حنا . ثم أحب أن أعرف لماذا لا ينبغى أن يزور الدكتور جون سيمور إحدى مريضاته ؟

أجابت حنا فى لهجة الجد :

— لأنه زارها صباح اليوم ، وليست حالتك الصحيـة بداعية إلى زيارة ثانية

— ولكننى مريضة بقدمى . فهل تظنين أن الطبيب لا يحضر إلا لزيارة مريض يحتضر ؟ إن هذا لهو السخف يا عزيزتى ! والآن هاتى علبة الزينة ، وسأريك فى الحال لماذا يهتم الدكتور جون هذا الاهتمام بمريضته ؟

فأجفلت حنا وقالت منكرة :

— علبة الزينة ؟ ولكن لا يجوز أن تصبغى وجهك ولو الآن على الأقل

— ولماذا ؟

— لأن الطبيب قد يخدع بلون الصبغ عن لونك الطبيعى .

فغمزت فيث بعينها لممرضتها وقالت :

— إن طبيبى لن يخدع ، وعلى كل حال لقد تحسنت صحتى ، وليس بى ما أشكو منه . والحق أننى لا أدرى لماذا يقضى علىّ بأن ألزم الفراش هذا الوقت الطويل . إنى لأرى أن المسألة كلها مؤامرة !

فقالت حنا متلطفة :

— يجب أن تتحملى فترة أخرى قصيرة .

— واها ! لا تلجئى إلى هذا الأسلوب الذى يخاطب به المرضى يا أخت حنا ! ولتمطنى المشط إذا كنت لا تسمحين بأحمر الشفاه . ولتعلمى أن الرجل العزيز إنما يحضر ليرانى لا ليزور المريضة رقم ٩٩

فنظرت حنا فى سكون إلى جسم مريضتها الجميلة الرشيقة . فرأتها جذابة فى مرضها كما هى جذابة

فى صحتها حين تجرى من مكان إلى مكان مع أصدقائها الرحين . فلا عجب إذا رأى الدكتور جون سيمور أن الضرورة تقضى بزيارتها .

وحبست حنا فى صدرها زفرة كادت تخونها ، إذ من المؤلم أن يرى الإنسان سعادة غيره من الناس وقصص غرامهم ، فى حين لا يشعر هو بالسعادة ، ولا ينعم بقصة غرامه أو على الأقل فى حين تتجه سعادته وقصة غرامه اتجاهاً خاطئاً .

فقد مضى عليها الآن أكثر من خمسة عشر يوماً منذ تسلمت آخر رسالة جاءتها من روبن ، فليس بعيداً أن تكون صحيحة تلك الإشاعات التى اتصلت بها عن العلاقة بينه وبين الفتاة روت . فكيف السبيل إلى التأكد من الحقيقة ؟ ! فهذا الشك الفظيع هو الذى كاد يقتلها .

وابتسمت فيث لمرضتها بعد أن أصلحت شعرها وقالت :

— أنظرى الآن يا أخت حنا ! هل ترينى أعجب من يرانى ؟

فأومأت حنا برأسها إيماءة إيجابية وقالت :

— إنك لفتانة ياسيدتى .

فقالت فيث وفى عينيها معنى الخبث :

— هذه هى الفكرة ، فقد أعد المسرح ونحن الآن فى انتظار دخول البطل

وفى هذه اللحظة سمع نقر على الباب ففتحته حنا وتنحت مفسحة الطريق للدكتور جون سيمور

وكان الطبيب شاباً طويل القامة ، أسمر اللون ، تبدو على فمه إمارة الجد وفى عينيه معنى الإنسانية ، وكانت حنا ترتاح لمنظره

فمدت « فيث » للطبيب يدها البيضاء النحيلة وقالت :

— مرحى يا دكتور جون ! هل جئت لتوقع ورقة الوفاة ؟

فوقف الطبيب أمام السرير وانحنى ينظر إلى المريضة وقال :

— أظن أننى أستطيع أن أرجئ ذلك إلى مابعد يوم أو يومين

ثم وجه الطبيب الحديث إلى المرضة وقال :

— سأغير الدواء للمس ميرتون ياحضرة المرضة.

ملوت فيث وجهها وقالت :

— إنك تحسن لو مزجت بالدواء نوعاً يقرب طعمه من طعم الكريز ...

— هذا الطلب يذكرنى بأن أقول لك إنه بعد شفائك يجب أن تستمرى فترة من الزمن منقطعة عن الكوكتيل والتدخين والسهر الطويل

فقطبت فيث وجهها وقالت :

— ليس لأحد من الرجال أن يتدخل على هذه الصورة فى شؤونى الخاصة فإن الحياة تفقد مباهجها فى نظرى ياد كتور إذا أنا كلفت نفسى كلما تسألنى أن أكلفها من حرمان ! وإنه ليجمل بى عند ذلك أن أمزق حذائى فى الحال

فلم يجب الطبيب على هذا الكلام ولكنه أمسك بالمعصم النحيل بين أصابعه ونظر إلى مريضته نظرة الجد . وانتهزت المرضة حنا هذه الفرصة لتنظر إلى صفحة وجهه نظرة المختبر الدقيق . وما من شك فى أن الطبيب كان جميل الوجه ، فلا عجب إذا أحبته مريضاته وأغرمن به ، ولا عجب إذا أرادت فيث ميرتون أن تتجمل وتتخذ من أسباب الزينة مايزيدها فتنة وجاذبية استعداداً للقائه

وحدثت المرضة نفسها وهى تنظر إلى المريضة وطبيبها بأنهما إذا تزوج أحدهما من الآخر كانت



زيجتهما صفقة رابحة ، فإن أموال فيث تساعد طبيباً قروياً مثله على النهوض بعمله الضئيل وتوسيع دائرته ، وحزم الدكتور جون كفيل بأن يكبح جماح هذه الفتاة المرحة الفارغة الرأس التي ظنت أن خير ما فى الحياة هو اللهو والعبث . فإن الأضداد تستطيع دائماً أن تحسن العمل إذا سارت جنباً إلى جنب

واستمر الدكتور جون جالساً وقتاً طويلاً على الرغم من أنه يعلم كما تعلم فيث وكما تعلم حنا أن حالة مريضته لا تدعو إلى القلق . بل هى على العكس من ذلك قد وصلت إلى مرحلة النقاهة . ولكنه استمر جالساً وأطال الجلوس

وقالت فيث على أثر انصراف الطبيب تخاطب الممرضة :

— أتذكرين ما قلته لك ؟ هل هناك من رجل يبدى من دلائل الحب العميق أكثر ...

فقطعت الممرضة على مريضتها الحديث بقولها .

— لقد حانت الساعة التى يجب أن تتأهبى فيها للنوم ...

فعبست فيث وقالت :

— لا تكونى هكذا كالقط المشاكس ! ألا أستطيع أن أتحدث عن الدكتور جون إذا أنا أردت ذلك ؟ يجب أن تعترفى بأنه جميل إلى حد مزعج .

فصاحت حنا فى حدة :

— إنه لأجمل جداً من أن يكون طبيباً

فقالت فيث منهمكة :

— أحسب أننى كنت أتقدم فى طريق الشفاء بأسرع مما تقدمت لو أنه كان ذا لحية وخطها الشيب يسير متكئاً على العصا ! حسن؛ إننى لن أفعل ذلك، وسأتلكأ فى طريق الشفاء وسأكون مريضة تسترعى اهتمام طبيبها ما دام يريد هو ذلك . عجباً ، إن الرجل المسكين لا بد أن يكون معذوراً فى إطالة قبضه على يدى ! ألم تلاحظى أنه اختبر سرعة نبضى ثلاث مرات هذه الليلة ؟

بلى، لقد لاحظت حنا ذلك

وألقت فيث رأسها على الوسائد مسترخياً وقالت وهى تنظر إلى حنا :

لقد كنت أخشى أن يصبح هذا المرض عبئاً يثقل علىّ حمله ، ولكننى أرى الآن أننى لا أبالى به مثقال ذرة ، ففى حضرة طبيب جميل يحمل قلبه على كفه، ووجود ألطف وأرق ممرضة فى العالم، لا أجد موضعاً للشكوى على الإطلاق.

فتأثرت حنا تأثراً فجائياً وانحنت على مريضتها فقبلتها ، فقد كان فى تكوين فيث شىء يجذب إليها الناس ، وكانت على بينة من شعور الدكتور جون ، كما كانت تعلم أن الحب هو أحسن علاج فى الوجود ، وقد أحدث العجائب فى مرض فيث . وعما قريب تصبح فى غير حاجة إلى ممرضة

وساءلت حنا نفسها بعد أن طافت هذه الأفكار برأسها :

وماذا عسى أن يحدث لى عندئذ ؟ أأبحث عن مريضة أخرى أسهر عليها أم ترانى أتزوج من رون ؟

لقد كانت الفتاة منذ سنتين على استعداد للزواج من رون ، وقد أنهت — فى مخيلتها — كل غرزة فى جهاز العرس ، كما رتبت فى عناية أثاث كل غرفة من غرف بيتها الخيالى

غير أن « رون » كان دائم الاعتذار . فهو مرة غير مطمئن إلى البقاء فى العمل الذى يشغله ، ومرة لا يجد بيتاً يستأجره ، وتارة يقول إن الوقت صعب والمال شحيح ، وطوراً يقول : خير أن يتزوج الإنسان فى سعة من أن يتسرع ثم يندم ساعة لا ينفع الندم !

فلم يكن أمام حنا إلا أن تستمر فى التمريض بينما « رون » مستمر فى الاعتذار

وما تشك الفتاة فى أن خطيبها يحبها ، لقد كانت من ذلك جد واثقة وكل هذه الإشاعات التى أثيرت حول علاقته بالفتاة « روث » لا تستند إلى أساس من الحقيقة ، فإن هى إلا تقولات بليدة سخيفة يختلقها أناس بلداء سخفاء . وقد اعتزمت الفتاة ألا تصدقها وألا تصغى إلى مروجيها

صاحت المريضة تدعو الأخت حنا مكررة النداء وكانت حنا واقفة فى مرقبها من الشباك تنظر إلى الطريق على عادتها . وكان ساعى البريد قد اعتاد فى الأيام الأخيرة أن يبطىء فى الحضور ، بينما اعتاد الدكتور جون أن يبكر فى مواعيد زياراته . ورأت حنا عربة الطبيب العتيقة ذات المقعدين تقف أمام مدخل الباب ، فردت على نداء المريضة :

— ها هو ذا قد أقبل يا عزيزتى

فصاحت المريضة :

— أسرعى بالمرآة إلىّ ، فإنى لأكاد أشبه الغراب !

كان من العادة أن تعفى حنا من العمل ساعتين كل يوم بعد الظهر، وأن تتغيب نصف يوم كل أسبوع، وكانت الخادم تحل محلها لدى المريضة فى أثناء راحتها أو غيابها ، فلما عادت فى أحد الأيام بعد عطلة نصف اليوم ، وجدت سيارة الدكتور جون واقفة أمام الباب ، فصعدت السلم مسرعة خشية أن تكون

مريضتها قد ساءت حالها على حين فجأة ، ولكنها اطمأنت حين سمعت صوت الدكتور جون الحنون يصل إلى أذنيها من خلال الباب نصف المفتوح ، وهو يقول :

— إننا لن نتناقش فى ذلك مرة أخرى إذا كان الأمر يضايقك ، وما أريد منك فى هذه اللحظة أن تقطعى برأى فى الموضوع ، فالوقت لا يزال متسعاً أمامنا ، وما زلت أنا شاباً ؛ ولا يزال فى مقدورى أن أكيف مستقبلى على ما أريد ، ولكنك تستطيعين أن تساعدينى إذا أنت أردت ، وإنى لمحتاج إلى إنسانة مثلك .

وما سمعت حنا هذه الكلمات حتى انصرفت تسير على أطراف أصابعها ، فلم يكن مثل هـذا الحديث بالذى يقصد به إلى أن تسمعه ، واستمر الطبيب بعد ذلك عشر دقائق فى حضرة المريضة ، ثم انصرف ، وارتدت حنا ملابس التمريض وذهبت إلى مكانها فى غرفة فيث ، وكانت فيث لأول مرة مستلقية ساكنة هادئة يبدو عليها الانهماك فى التفكير ، فقالت الممرضة :

— آسفة لأننى كنت فى الخارج عند ما حضر الطبيب

فدمدمت « فيث » :

— لا بأس فى ذلك ؛ فقد كان لدينا ما يحسن أن نتناقش فيه منفردين

واتجهت حنا إلى الشباك وأطلت منه فرأت سيارة الطبيب قد بدأت تتحرك فى الوقت الذى وصل فيه ساعى البريد على دراجته . فطارت الفتاة إلى الدرج تهبط عليه فى سرعة البرق وقد اشتد نبض قلبها ، وهى تقول فى نفسها : هذه المرة ... بالتوكيد هذه المرة ...

وسلمها الساعى خطاباً وكان من روبن ! فحدقت فيه كأنها لا تصدق عينيها فيما تريان . إذن لم ينسها روبن ! فهو لا يزال يحبها ، أما الفتاة روث فلا تشغل أية ناحية من نواحى تفكيره

فضت حنا غلاف الخطاب فى لهفة فلم تجده خطاباً طويلاً ، ولكن الإنشاء لم يكن من مواضع قوة « روبن » وجملة واحدة تكفى لكشف غرضه من الكتابة ... وهذا ما جاء فى الخطاب :

« فى نفسى شىء أريد أن أسر به إليك ، ولكننى لا أعرف كيف أصيغه كتابة . فهل لك أن تقابلينى حيث تشائين فى يوم عطلتك من الأسبوع المقبل ؟ على أننى أنتهز هذه الفرصة لأبلغك أننى قد تحسن مركزى على غير انتظار ، فقد دعانى الشيخ تشارلتون يوم أمس إلى مكتبه وأخبرنى أننى قد ارتقيت إلى مركز شريك أصغر ، فما رأيك فى ذلك ؟ »

لقد أدركت حنا ممنى هذا الذى قرأته ، وليس معنـاه إلا أن أيام عملها ممرضة ولياليها المضطربة قد أوشكت على نهايتها . فروبن يريد أن يتحدث معها فى المستقبل وما يجب أن يعدا له . ولقد حال الخجل بينه وبين أن يكتب ما يريد أن يقول ، ولكنهما حين يجتمعان ... وهنا التهبت وجنتا حنا بحمرة الانفعال السعيد ...

ولما عادت حنا إلى غرفة المريضة فاجأتها هذه بقولها فى لهجة الناقد الدقيق :

— إنك أيتها الأخت حنا أجمل جداً من أن تكونى ممرضة

فاحمر وجه حنا حياء ومضت فيث تقول فى لهجة التأنيب اللطيف :

— ويجب أن تتزوجى

فلم تستطع حنا أن تجيب على هـذا الكلام بأكثر من قولها :

— قد أتزوج يوماً ما . وقد يكون هذا اليوم قريباً ...

الزواج ! هو الحلم الذى يشغل رأس حنا ! إنها لترنو إلى اليوم الذى يصبح لها فيه بيت خاص بها ، إلى اليوم الذى تستطيع أن تنفق فيه المال ، وتبتاع الملابس ، وتعنى بحديقتها ، لا يقلق نومها صوت الجرس الذى يدق فى منتصف الليل ، وأنات المرضى المتوجعين ، والواجبات التى تصدع الرؤوس . اليوم الذى تتحرر فيه من قيد مواعيد قياس الحرارة ، ومن إعداد قنانى الماء الساخن ، حرة فى أن تعيش كما يجب أن تعيش ، حرة أن تمتع نفسها بما تصبو إلى التمتع به .

وترقية روبن التى أنبأها خبرها هى الوسيلة إلى تحقيق هذا الحلم السعيد ، لأنها تمكنهما من الزواج بعد هذا الانتظار الطويل .

وبعد أسبوع قابلت حنا خطيبها روبن فى مقهى الطير الأزرق فى كلثون ، فلما مدت إليه يدها مصافحة ضغط أصابعها ضغطاً مؤلماً وهو يصيح :

— مرحى ، ياحنا !

فلمعت عينا الفتاة وهى تقول :

— إنه لمن السعادة أن أراك ثانية ياروبن ؟

فرد الفتى على هذه التحية بقوله :

— ألا تشعرين بحاجة إلى فنجان من الشاى ؟

فضحكت حنا وقالت :

— هل عرفت فى حياتك ممرضة لا تحتاج إلى الشاى ؟

وجلس الاثنان على مائدة فى أحد الأركان . وشرعت حنا تفرغ له الشاى فى فنجانه ، غير ناسية أنه يضع دائماً ثلاث قطع من السكر فى الفنجان الواحد ، وأنه يحب الشاى القوى ، وشعرت بأن صب الشاى لروبن أشد إثارة للنفس من صب قطرات الدواء للعجائز المصابات بالروماتزم . وعما قريب ستكثر من مشاركة روبن مجلس الشاى .

ونظرت حنا إلى صديقها بعين مستحيية وقالت :

— لقد كان عظيماً نبأ ترقيتك يا روبن !

فتناول روبن طبقاً فيه نوع من الفطير وقدمه إلى حنا وهو يجيب على قولها السابق بعبارة مضطربة إذ يقول :

— آه ... آه ... نعم ... ألك فى شىء من هذا الفطير ؟

فقالت الفتاة :

— أنسيت يا روبن أنى لا أستطيع أن أطعم هذا النوع من الفطير ، إنى أفضل قطعة من الخبز العادى المحمر

ومضى الفتى يتحدث فى شؤون مختلفة كالأشرطة السينمائية التى شهدها والروايات التمثيلية التى حضرها والكتب التى قرأها . فأصغت حنا لهذا الحديث متجلدة كما لو كانت تصغى إلى حديث مريض مشاكس ولكنها لم تلبث أن تنبهت إلى أن روبن ليس بمريض ممن تسهر عليهم . فسألته :

— متى تبدأ ياروبن عملك الجديد شريكا أصغر ؟

فبدا على الفتى شىء من الحيرة وقال :

— المتعب فى الموضوع يا حنا ... هو ... هو أننى لن أشتغل هنا بعد الآن ، فقد قررت الشركة إرسالى إلى نيويورك

فصفقت الفتاة طرباً وصاحت :

— مرحى ! لقد كنت أصبو دائماً إلى الحياة فى أميركا . ألا ترى يا روبن أن الحياة هناك ستكون مثيرة لعواطفى ؟

ولكن روبن لم يجب على هذا الكلام ، وسادت

الجو فترة سكون طويل عميق غامض انزعجت له نفس حنا ، فلم تلبث أن نظرت إلى وجه روبن وقد علته حمرة الخجل ، فأدركت الحقيقة على حين فجأة وسألته في هدوء :

— إذن كان صدقاً ما شاع عن العلاقة بينك وبين روث يا روبن ؟

فهز روبن رأسه إيجاباً وقال :

— أخشى أن يكون ما شاع صحيحاً ، ولقد كنت أحاول منذ جلسنا هنا أن أخبرك ولكنني كنت أجبن من ...

فقطعت حنا عليه الحديث قائلة ، وقد ملكت عواطفها :

— ولا شك في أنك تكون أجبن من ذلك إذا أنت تزوجت من امرأة لم تحبها . وإني لأستطيع أن أحتمل هذه الصدمة يا روبن ؛ وأتمنى لكما السعادة في الحياة

إنها لمهزلة أن تجلس حنا في ذلك المقهى تصب الشاي لروبن متذكرة ما يحبه وما لا يحبه من قوة الشاي وقطع السكر ، وعجبت إذا كانت روث تعلم أيضاً بهذا الاجتماع وما يجرى فيه

لم تدمع عين حنا من أثر الصدمة التي أصابتها ولم تعتب على صاحبها ، واقتصرت على أن صافحته مودعة ، وانصرفت تمشي الهوينا في شارع هاى استريت ، بينما عاد روبن مسرعاً إلى محطة سكة الحديد

ووقفت سيارة الدكتور جون على حين فجأة إلى جانب حنا فقال الطبيب :

— هل أستطيع أن أوصلك أيتها الأخت حنا ؟

فوثبت حنا إلى العربة وكانت هذه هي أول مرة يدعوها فيها الدكتور جون بعبارة « الأخت حنا » وضحك الطبيب لما بدا من إجفال الفتاة وقال :

— هل يضايقك أن أستعير هذه التسمية من المس ميرتون ؟ فقد كانت هي التي تناديك هذا النداء أم ترينني مخطئاً ؟

فأجابت حنا وهي تجلس إلى جانبه :

— نعم يا دكتور هي التي تناديني بهذا النداء

فحرك الطبيب العربة وهو يقول :

— هذا حسن جدا ... وعلى فكرة لقد كنت أراك دائماً تطلين من الشباك على الطريق ...

فمضت حنا شفتها ، وقالت في نفسها : إنه لن يراها في الشباك بعد الآن ، فلم تعد بها من حاجة إلى الترقب ، ولم يعد أمر ساعي البريد ليهمها في كثير أو قليل

وجرى الحديث بين حنا والطبيب في أثناء الطريق على المريضة فقال الطبيب :

— ستغادر مسس ميرتون الفراش بعد قليل ، وقد لاحظت أن لهؤلاء الفتيات الحديثات تكويناً عجيباً . وهي في الواقع أصبحت في غير حاجة إلى ممرضة

فقالت حنا في شيء من المكر :

— ولا إلى طبيب أيضاً !

فقطب الطبيب جبينه وقال :

— ولكن لابد لي من أن أزورها بضع مرات أخرى فالأمر كما ترين ...

ثم حبس الطبيب الكلام في فمه وعاد فقال :

— آسف فقد كدت أفشي لك سراً ، وقد طلبت مني فيث أن أحتفظ به لنفسي إلى حين

فلم تقل حنا شيئاً ، فقد كانت على علم بما يرمى إليه ، فليس من المفروض أن يقع الأطباء في غرام مرضاهم ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يملك نفسه دون الوقوع في حب فيث ؟ وفيث نفسها

كانت تداعبه فى خلاعة حتى فى حضرة حنا نفسها !

ووقف الطبيب سيارته أمام البيت وقال :

— لن أدخل الآن ولكن أرجو يا حضرة الممرضة أن تتصلى بى إذا احتجت إلىّ .

فقالت حنا مبتسمة :

— سأفعل يا دكتور

فقال الطبيب :

— وعلى فكرة ! أيتها الأخت حنا ...

ثم تردد لحظة عاد بعدها يقول :

— أرجو متى انتهت مهمتك فى هذا البيت أن تحضرى لزيارتى فسأجد لك عملاً عند مريض آخر

فأجابت فى هدوء :

— أشكرك يا دكتور .

وقالت الفتاة فى نفسها وهى تصعد السلم : « مريض آخر ! لقد تعبت من المرضى والسهر عليهم إنى لأصبو إلى النعيم والخيال والحب ، وكل شىء مثل الذى تنعم به فيث ! »

وكانت فيث الآن فى دور النقاهة ، فهى تجلس وتنتقل من غرفة إلى أخرى وتخرج قليلاً إلى الشرفة. وأدركت حنا أن أيامها فى ذلك البيت قد قاربت النهاية فلا بد لها من أن تغادره قريباً وأن تبحث عن عمل آخر .

وبعد قليل كانت فيث فى الحديقة تقود سيارتها وتستقبل أصدقاءها ؛ وكانت حنا تحزم حقيبتها استعداداً للرحيل .

ولم تكن الفتاة راغبة فى ترك ذلك البيت الذى كانت تنعم فيه بشىء من الراحة والسعادة على الرغم من جناية روبن ... وستشعر بعد رحيلها بوحشة لابتعادها عن فيث وما يحيط بها من مظاهر المرح والأنس ، ولحرمانها الصداقة الوفية التى بدت من جانب الدكتور جون

فكرت الفتاة فيما عسى أن يكون المستقبل مخبئاً لها ، فقد تجد عملاً عند مريض آخر وقد يكون شيخاً مضطرب الأعصاب ، يتعبها بطلباته فلا تقف لها قدم عن الحركة طوال الليل والنهار ... فهى غير راغبة فى مغادرة هذا البيت

شفيت فيث ، وجاءت ساعة الوداع فعانقت ممرضتها وهى تقول :

— سأشعر بوحشة للأخت حنا ! ولا بد لى من أن أتزوج سريعاً ، وسيكون لى كثير من الأطفال وسأعيدك إلى بيتى مرة أخرى يا عزيزتى

فابتسمت حنا وقالت :

— أرجو أن تتزوجى منه قريباً ، وإنى لواثقة من أنك تستطيعين أن تحيطيه بأجمل مظاهر السعادة

فحملقت فيث بنظرها فى حنا وقالت :

— أتزوج منه ؟ من هو الذى تقصدين ؟

فحملقت حنا بدورها فى فيث وقالت :

— أقصد بالطبع الدكتور جون !

فضحكت فيث ضحكا عالياً متصلاً وقالت :

— هل جننت يا عزيزتى ؟

فجلست حنا مندهشة وقالت :

— ولكنكما متحابان !

فهزت فيث رأسها وقالت :

— يجوز أن يكون قد أحبنى ، ولكنى ما زلت طليقة القلب ، ولا شك فى أنى أعترف بأنه مليح صفحة الوجه ، وله شعر متماوج جذاب ولكننى أطلب من الزواج شيئاً أكثر من ذلك ، وأخشى أن يكون ذوقى منصرفاً إلى البحوث البخارية والسيارات والطيارات وما إلى ذلك ، وإنه ليحزننى يا عزيزتى

ألا أستطيع أن أمثل لك الرواية الغرامية التي تخيلتها
فنظرت إليها حنا نظرة قاسية وقالت :
— إذن كان يجب ألا تشجعيه
فنظرت إليها فيث بدورها مندهشة وقالت
— أشجعه ؟
— وقالت حنا وقد شعرت بصدمة من تصرف فيث :
— نعم ... لقد كنت تحاولين أن تظهرى فى أحسن صورة كلما زارك
— ولكن ما أظنك يا عزيزتى كنت تريدين أن أظهر كإحدى العجائز المقعدات ، والحق أن المرض ليصبح حملاً ثقيلاً لا يطاق إذا لم يستطع الإنسان أن يداعب طبيبه قليلاً

جزعت حنا لهذا الموقف وأدركت أن فيث لم تكن إلا عابثة . ولكن ماذا يكون وقع هذا الأمر فى نفس الطبيب ؟ إنه أكبر جداً من أن ينظر إلى الحب هذه النظرة الطائرة . لقد حضر فى ذلك المساء ليرى فيث فلما صاحبته حنا إلى غرفتها قال :
— أريد أن أرى المس ميرتون على انفراد فى أمر خاص فإن كان ذلك لا يضايقك فأرجو ...

فاكتفت حنا بهذه الإشارة ومضت ، ولكن صوت المتحدثين كان يصل إلى أذنيها غامضاً . وأخيراً فتح الباب وسمعت صوت الطبيب يقول فى صوت مرتفع ولهجة غاضبة :
— ولكن لماذا شجعتنى هذا التشجيع كله إذا كنت لا تقصدين إلى تحقيق ما وعدت به ؟ إنى غاضب منك أشد الغضب يا فيث !

فأجابت فيث فى طلاقة :
— إنك تحمل كل شىء يا دكتور جون على محمل الجد . ولابد أننى كنت فى ذلك المساء جد بلهاء عند ما أجبتك « بنعم » ولكننى على كل حال لم أعن ما قلت

فلم يزد الطبيب على قوله : « صحيح » وكان صوته غاضباً وقد خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه فى عنف ثم اندفع إلى الدرج يهبط عليه مسرعاً . فلحقت به حنا مسرعة فأدركته فى الردهة وأمسكت بساعده وقالت :
— أوه ... دكتور ، أرجوك العفو إذا كنت قد سمعت شيئاً من حديثكما فقد كان صوتكما عالياً ، ولكنى أرجوك ألا تسىء الظن بفيث، وتذكر أنها كانت مريضة فلم تكن مالكة أعصابها ، وسيأتى اليوم الذى تدرك فيه الحقيقة ، وأنا أيضاً أعرف صدمة الفشل فى الحب ... فأرجوك ...

وقطع الحديث صوت فيث وهى تنادى :
— الأخت حنا ! الأخت حنا !

فأسرعت حنا فى الصعود وهى تقول :
— ها أنا ذى حاضرة يا عزيزتى

ووقف الدكتور جون لحظة ينظر إلى الفتاة الصاعدة السلم وقد بدت عليه أمارات الدهشة

ولآخر مرة سمعت حنا صوت فيث يناديها فى لهجة التهكم ضاحكة :
— أيتها الأخت حنا ! يا أخت حنا ! من عساك ترين من الشباك؟ هذا ساعى البريد يعود إلينا والدكتور جون يذهب !

فتلفتت حنا مجفلة وهى ترى من غير الطبيعى أن الطبيب يغادر البيت على هذه الصورة . وقد أنساها التفكير فى الطبيب وما أصابه أمر ساعى البريد الذى

وصل فى ذلك الوقت ، إلى أن جاءتها الخادم بخطاب جاء به هذا الساعى

إنه خطاب من روبن ... فضت حنا غلافه وقرأت فيه ما يأتى :

« عزيزتى حنا ...

أرجو أن تغفرى لى ! فقد كنت أبله سخيفاً ! فأنا أعلم الآن أنها أنت وأنت فقط، لقد هزئت روث بفكرة الذهاب إلى نيويورك ، وفسخت خطبتنا ، فهل تتفضلين بمقابلتى مرة أخرى يا حنا ، ناسية الماضى مغتفرة لى ذنبى ؟ حبيبك (روبن)

وما انتهت حنا من قراءة الخطاب حتى سألتها فيث عرضاً :

— أخبار طيبة يا ممرضتى ؟

فعلت الحمرة الشديدة وجه حنا وقالت :

— لا أدرى . . . على أنى أظن أن الوقت قد حان لذهابى

وهبطت الفتاة إلى الطابق الأول وطلبت من « كارتر » أن يحمل متاعها فى السيارة إلى محطة سكة الحديد وخرجت إلى الطريق ماشية

وكانت الساعة ساعة العمل فى عيادة الدكتور جون سيمور ، لذلك اضطرت أن تنتظر حتى ينتهى من عمله . حتى إذا دخلت عليه الغرفة نظر إليها منعماً وقال :

— خير ؟ أرجو ألا تكونى مريضة ؟

فجلست الفتاة أمام الطبيب وقالت :

— لقد قلت لى منذ أيام يا دكتور جون إنك مستعد أن تجد لى عملاً إذا أنا احتجت إلى ذلك . والآن جئتك أطلب العمل

فنظر الطبيب إليها نظراً مستقيماً وقال :

— كنت أظن أن هناك مسألة شاب وخطبة

فأجابت حنا فى ثبات :

— لقد كان ذلك ، ولكن لا وجود لهذا الشاب فى نظرى بعد الآن ، ولقد مهد لى فرصة جديدة للعودة إلى ما مضى ، ولكننى أفضل أن أجد عملاً آخر

فقال الدكتور جون فى هدوء :

— أريد أن أعرف منك يا حنا ماذا كنت تظنين على وجه الدقة ، فيما يتصل بالعلاقة بينى وبين مس ميرتون ؟

فاحمر وجه حنا وقالت له متلعثمة ...

— ولكن ... ألم تكونا ... أنت ... وهى ...

فهز الطبيب رأسه وقال :

— لقد كنت جد مخطئة فى ظنك . فالأمر كله أننى كنت أحاول إغراءها بأن تنزل عن شىء من مالها الكثير الذى تبعثره فى الهواء لبناء مستشفى قروى . وقد وعدتنى بذلك ثم أخلفت الوعد

فتنهدت حنا وقالت فى دهشة :

— أوه ...

فحدق الطبيب فى الفتاة وقال :

— ولكن ما الذى حملك على أن تظنى غير ذلك ؟

فأجابت حنا فى لهجة الجد :

— لقد كنت أنت تعلم وكنت أنا أعلم أن حالة المريضة لم تكن تدعو إلى أن تزورها مرتين فى اليوم

فابتسم الطبيب وقال :

— ولكننى لم أكن أحضر لزيارتها ، إنما كنت أحضر لأننى لم أكن لأستطيع الانقطاع طويلاً عن رؤية الأخت حنا الصغيرة وهى تنظر من الشباك وديعة فتانة

فخفضت حنا نظرها وقالت :

— أوه ... عجباً !

فمضى الطبيب يقول :

— وكانت ترقب على ما أظن مجىء ساعى البريد يحمل لها رسالة من حبيبها

فقالت حنا :

— نعم كان ذلك أول الأمر . ولكنها لم تكن فى الأيام الأخيرة تهتم بأمر ساعى البريد حضر أو لم يحضر . وعند ما انصرف الدكتور جون من البيت هذا المساء ... أحست هى ... هى ...

ثم رفعت الفتاة رأسها ومضت تقول :

— لقد نسيت ما جئت من أجله ، فأنا إنما جئت أطلب منك العمل الذى وعدتنى به ، فأين هو هذا العمل يا دكتور ؟

فتظاهر الطبيب بأنه يفحص بعض الأوراق على المكتب وقال :

— آه ... نعم ... إنها حالة محزنة حقاً . حالة شاب فى مقتبل الحياة ، أمامه مستقبل حسن يبشر بالنجاح ، وبكل شىء طيب ، ولكنه يشكو من تعب القلب ، وكان يظن أن مرضه غير قابل للشفاء ولكنك إذا توليت أمره ياعزيزتى حنا ...

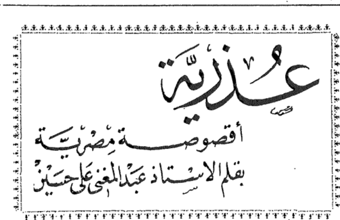
فسألته حنا فى هدوء :

— وما اسم هذا الشاب ؟

أجاب الطبيب :

— چون سيمور

عبد الحميد حمدى



فى أحد الأحياء المترفة بمدينة القاهرة ، وفى طريق أقفرت من المارة فى ليلة من ليالى الشتاء ، مشت آنسة نحيفة العود ، شاحبة اللون ، تلبس على عينيها عوينات وتحمل بيمينها حقيبة ثياب ، يبدو عليها الإعياء الشديد ، وتنظر أمامها فى شبه ذهول

ووقفت الآنسة فجأة والتفتت نحو مبنى أنيق من طابقين ومشت إلى باب سوره بخطى وئيدة ومدت يداً نحيلة فعالجت الباب الحديدى فطاوعها وانفتح ، وأسفر عن روضة بديعة التنسيق . مشت الآنسة إلى درج من الرخام الأملس ، على جانبيه صفان من أصص الرياحين . وتوقفت حائرة وهمت أن تعود ثم عدلت ، ومضت ترقى الدرج فى بطء شديد كأنما تجر بقدميها طنّ حديد ، ووقفت أمام باب فخم عريض قدّ من أثمن البلور وازدان بإطارات لجينيــة . ومدت يداً مرتجفة إلى ضاغطة عاجية فمستها فأزّ الجرس وتلا الأزيز وقع أقدام خفيفة ، ثم انفتح الباب وأطل منه خادم نوبى فى قفطانه الناصع ، وحزامه القانى ، وخفه المقوف

تفرس الخادم فى الطارقة المجهولة ووقف برهة صامتاً وأرتج على الآنسة فوقفت هى أيضاً صامتة ثم تمالكت نفسها وقالت :

— هل السيدة موجودة ؟

الخادم — أية سيدة ؟

الآنسة — ...

الخادم — من حضرتك ؟

الآنسة — ...

فتردد الرجل برهة ثم تركها وخف إلى الداخل فغاب حيناً ثم عاد فدعاها إلى الدخول . ومشى أمامها على طنفسة بنفسجية فى ردهة صقيلة تكاد حوائطها تضئ ولو لم يضئها مصباح ، وأدخلها حجرة رحيبة يشيع فيها ضياء هادئ وردى اللون جميل ، وجلست الآنسة فغاصت فى مخمل وحرير

وخرج الخادم موصداً الباب وراءه . وبعد حين سمعت الآنسة وقع أقدام مسرعة ، وفتح الخادم الباب إلى أقصى اتساعه ووقف ممسكا به فى احترام . وخطرت إلى الحجرة ربة القصر ، سيدة نصف فى العمر ، قد ضمت الحسن من أطرافه مجلوبه وغير مجلوبه ، جمعت الأنوثة الكاملة الناضجة والعقل الراجح المثقف ، فى عينيها سيال حنان ، وفى فمها كنز محبة ، يتقدمها أريج كأنه نفح من جنات الخلود

جلست السيدة والآنسة متقابلتين . قالت السيدة بعد سكوت : « خيراً يا عزيزتى ؟ ! » قالت الآنسة فى تكرار وعثار « علمت أنكم . . . يا سيدتى . . . بحاجة إلى فتاة متعلمة لتربية الأطفال ... فجئت ... أطلب الخدمة ... فنظرت إليها السيدة فى دهشة وقالت : « من أنبأك هذا ؟! » قالت الآنسة فى ارتباك ظاهر : « ... عرفته ... »

كان للسيدة أطفال قامت على تربيتهم إلى اليوم بنفسها دون استعانة بمربيات ، فقد ارتأت ألا تعهد

إلى غيرها بأول واجباتها وأسمى وظائفها . ولكن حدث أن دعيت للاشتراك فى جمعيات نسوية فلبت داعى الجهاد فى ميدان النفع العام . ولم يكن ذلك فى البدأ ليشغلها عن أطفالها ، أو يستنفد من وقتها إلا يسيراً . ولكن نشاطها الاجتماعى نما وتشعب ، وصار يشغل من وقتها بضع ساعات فى أكثر الأيام تضطر فيها إلى ترك بنيها فى رعاية خادمات جاهلات . لذلك رغبت فى استخدام مربية متعلمة تنتقيها بعناية وتشرف على عملها ما استطاعت .

أما موضع الدهشة فهو أن هذه الرغبة لم تخطر ببالها إلا يوم أمس ، ولا يعلم بها أحد سوى قرينها الذى لم تفاتحه فيها إلا ليلة أمس ، ولم يتفقا بعد على التنفيذ . فمن أين جاء الفتاة علمها ؟! كررت السيدة على الآنسة السؤال ، ولجت الآنسة فى الارتباك .

قالت السيدة : « اسمحى لى ... برهة ... » ثم غادرت الحجرة ، ودخلت على قرينها فى حجرة مكتبه ، وهو مكب على أوراق يستعرضها ، فقد كان مديراً لشركة هندسية وزعيماً اقتصادياً كبيراً .

قالت : « عزيزى ! ... هل أعلنت عن حاجتنا إلى مربيـة ؟ » قال : « لا » قالت : « ألم تخاطب أحداً فى هذا الشأن ؟ » قال : «لا» قالت : « شىء غريب ! ! » قال : « ماذا ؟ ! ! » فروت له حديث الفتاة .

فتبسم البك وقال : « لا بد أنك حادثت أحداً فى هذا الأمر ولا تذكرين » فهزت رأسها بالنفى المؤكد ، وكان البك يعرف أن قرينته تعنى دائماً ما تقول .

قال البك : « لعل الآنسة طرقت بابنا مصادفة للسؤال عن عمل » قالت : « إنهـا لم تسأل . . . بل تقول إنها تعرف ...!! » قال البك : « أدخلى علىّ هذه الزائرة إذا سمحت » فأرسلت فى استدعائها .

وأقبلت الفتاة وجلة صفراء ، فحياها البك متلطفاً ودعاها للجلوس . ثم قال بصوته الجهورى : «من قال لك أننا بحاجة إلى مربية ؟ » قالت الآنسة : « هذا يا سيدى يحتاج إلى شرح ، وأنا متعبة جداً الآن ، وستعرفون ذلك منى بعد استخدامى » فنظر إليها البك بارتياب . قال : « أتعرفين أحداً من خدم هذا المنزل ؟ » قالت : « لا » فنظر إليها بارتياب أشد . وسكت قليلاً ثم قال : «هل سبق أن اشتغلت مربية؟» قلت : «لا» قال : «أتعرفين أحداً يمكن أن يعرفك إلينا ؟ » قالت : « لا » قال : « اسمى يا آنسة ! لا يمكننا أن نستخدم شخصاً لا نعرفه ، ولم يقدمه إلينا شخص معروف أو جهة معروفة .. متأسف ! . » ودار بكرسيه ليواجه أوراقه

فنهضت الفتاة واقفة ، واغرورقت عيناها ، ويممت نحو الباب . ثم توقفت وقالت : « أيمكننى يا سادتى أن أبيت هنا الليلة ؟ » . فنظر البك محرجاً ثم قال : « أليس لك مسكن ؟ » . قالت : « لقـد طردنى أخى » وأجهشت بالبكاء . قال البك : « من هو أخوك ؟ » فلم تجب . قال : « أليس معك نقود ؟ » فلم تجب . فأخرج من جيبه نقوداً ومد يده قائلا : « خذى هذه واقض الليلة فى فندق ... و ... تعالى إلى فى الغد ، وأنا أنظر فى أمرك » . فأبت الفتاة أن تأخذ النقود وغادرت الحجرة

عندئذ نادت سيدة الدار قائلة : « إدريس ؟ » ، فجاء الخادم النوبى . قالت : « لا تدع الزائرة تخرج ... أدخلها حجرة الاستقبال ... أغلق الباب » . ثم التفتت إلى قرينها وقالت : « ماهذه القسوة يا عزيزى !

فتاة ضعيفة ، نحيلة الجسم ، رقيقة الثياب ، مشردة فى هذه الليلة الباردة ، تهيب بنا أن نؤويها ، فندفع بها إلى الشارع ولدينا سعة لمبيت عشر مثلها ؟! »

قال قرينها : « مهلاً يا عزيزتى! ألا ترين فى أمر هذه الفتاة ما يدعو إلى الريبة ؟ نحن لا نعرف من أمرها شيئاً ألبتة ، وهى تأبى أن تقول أى شىء عن أمرها ، وكل احتمال بشأنها جائز عندى . وحتى لو صدق ما قالت من أن أخاها طردها فأكبر الظن أنها أتت أمراً إداً حمل أخاها على طردها فى هذه الساعة من الليل »

قالت : « قد يكون شىء من ذلك . ولكن ألا يجوز أن الفتاة سليمة النية ؟ »

قال : « هذا جائز أيضاً . ولذا قدمت إليها نقوداً لتأوى إلى فندق ، ودعوتها للعود فى الغد لأتعرف أمرها فى فسحة النهار » . قالت : « قلبى يحدثنى أن هذه الفتاة تستأهل العطف . إن لى حاسة سادسة تمكننى من الحكم على الأشخاص حكماً صحيحاً دون استدلال منطق » . فتبسم البك وقال : « أنا يا عزيزتى لا أعرف شيئاً عن هذه الحاسة السادسة ، وليس لى إلا خمس حواس فقط بعضها فى غاية البلادة وليس لعاجز مثلى إلا التعويل على المنطق والمعقول . أنا لا أرتاح مطلقاً لمبيت هذه الفتاة هنا الليلة »

وفى هذه اللحظة انبعث من الردهة صوت رضّى ثم طُرق باب الحجرة بلهفة ، وفتحه الخادم إدريس قبل أن يؤذن له ، وصاح : « النجدة يا سيدتى ... ! الزائرة سقطت فى الردهة مغشيًّا عليها »

فنهض السيدان وخفا إلى الردهة . ومشى إدريس فى إثرهما يقول : « دعوتها إلى حجرة الاستقبال فأبت ، وظلت واقفة ، ثم سقطت هكذا »

جثت السيدة بجوار الآنسة تقلب فيها وتجس نبضها ، ووقف البك لايفعل شيئاً . بل لقد خطر له أن الأمر كله رواية مدبرة وهذا فصل منها . قال إدريس : هل أدعو الإسعاف يا سيدى الباشا ؟ » . و (الباشا) هو اللقب الذى اعتاد إدريس أن يمنحه لسيده . فلم يجبه سيده بشىء ، وأشارت إليه سيدته أن احملها ، ونقلوها إلى حجرة نوم ، وطفقت السيدة تسعفها بما فى مقدورها دون أن تفيق

قال إدريس : « هل أدعو الإسعاف يا سيدتى الهانم » . قالت سيدته : « لا ... بل استدع الدكتور فلان ... بالتليفون ... أسرع ... »

وحضر الطبيب ، فلما فحص المريضة هز رأسه فى يأس ، ثم طفق يعالجها بالحقن والأشربة المقوية والمنبهات والتدليك وقتاً طويلاً دون أن تفيق .

قال الطبيب : « لا أملك ياسادتى أن أمكث أكثر من ذلك ، ولكن أرى المريضة بحاجة إلى عملية فنية متواصلة مما لايتيسر إلا فى مستشفى ، وحيث أنها زائرة مجهولة لكم فالرأى عندى أن تنقل إلى قصر العينى بواسطة الإسعاف »

فتقدم إدريس ليلتقى الأمر باستدعاء الإسعاف.

ولكن الطبيب مضى يقول « غير أنى أصارحكم القول بأن نقلها شديد الخطر على حياتها . والحل الآخر هو أن أذهب أنا ، وأبعث إليكم بممرضة مزودة بما يلزم من التعليمات والأدوية فتسهرعليها حتى الصباح » قالت السيدة : « ليكن ذلك يادكتور » وذهب الطبيب ، وجاءت الممرضة .

وهمّ السيدان بالذهاب إلى الفراش فقالت الممرضة « أرجو ياسيدتى الهانم أن يكون أحد الخدم على مقربة منى طول الليل ، فقد أحتاج بعض أشياء » قالت

الهانم : إدريس ! إسهر مع السيدة إلى الصباح ، وناولها ما قد يلزم » ثم انصرفت .

ومضى إدريس مهموماً ، فجاء بكرسيه الخشبي ووضعه على باب الحجرة ، وهو يزمجر بلهجته النوبية قائلاً : « ليلة طويلة بتاعتو . جاي منين البلاوى دي »

وأصبح الصباح فبادرت ربة الدار بالسؤال عن المريضة . قالت الممرضة : « إنها كما هى ، ولكنها تنبهت بضع دقائق أثناء الليل ، فأردت أن أحادثها فلم أجد ما أقول إلا السؤال عن اسمها ، فقالت إن اسمها عذرية ، وهو اسم لم أسمع به قبل اليوم ياسيدتى الهانم » .

وفى مساء ذلك اليوم اجتمع بحجرة المريضة ربا الدار ، والطبيب . قال الطبيب : « إنى متحير فى مرض هذه الآنسة ، وأرى عرضها على فلان باشا » وأسمى نطاسيا مشهوراً ، وأستاذاً كبيراً . فوافقت ربة الدار على استدعاء الباشا ، وأصرت عليه .

وجاء الباشا ، فلما فحص المريضة قال « هبوط عام ، ولكنه ليس خطيراً ، وسأصف لها دواء أعتقد أنه سيشفيها » وبينما هو يكتب الدواء رنا إلى الآنسة وقال : « لقد رأيت هذه السحنة مرة ، ولكنى لا أذكر متى ولا أين » وأتم وصف الدواء ، ثم سأل عن اسم المريضة فقالوا : « عذرية » قال رب الدار « اسم غريب ياسعادة الباشا » قال الباشا : « نعم غريب ، ولكن الأغرب منه أنى سمعته مرة ورأيت هذه السحنة مرة ، ولكنى لا أذكر متى ولا أين » وطفق يفرك جبهته مكرراً « . متى ؟! . وأين ؟!. » ثم قال « لا أذكر » ونهض مستأذناً فى الخروج .

ورجاه رب الدار أن يتناول القهوة ، وكان الخادم قادماً بها ، ثم جلسا يحتسيانها ويتحدثان فى شئون عامة .

وفجأة وضع الباشا قدحه فى الطبق قائلاً : « تذكرت ... تذكرت تماماً ... أتعرف يا سيدى البك فلاناً الأديب الشاعر الذى توفى منذ بضع سنين ؟ ... جاء إلى عيادتى ذلك الرجل الفاضل رحمة الله عليه ، منذ نحو عشرة أعوام ومعه ابنة له فى نحو الخامسة عشرة ، وقال إنها مصابة بمرض عصبى ، ففحصتها ، فلم أجد بها مرضاً عصبياً ، بل وجدت ضعفاً عاماً فقط ، وعالجتها حتى شفيت ، وكان اسم الفتاة عذرية ، وهى هذه بعينها ، فقط كانت تلبس على عينيها عوينات » فأشار رب الدار إلى عويناتها وكانت على نضد بجوار الفراش

وتعجب الجميع من هذه المصادفة

قال البك : « وما الذى حمل أباها على الظن بأن مرضها عصبى ؟ » قال الباشا : « سألته فى ذلك ، فقال إنها تذهل أحياناً ، ثم يبدو كأنما حجب الغيب تكشفت أمامها ، فتقول مثلاً : إن فلاناً قريبنا فى مكان كذا يعمل كيت وكيت ، أو ترشدنا إلى شىء نبحث عنه ، أو تنصحنا فى بعض الأمور » قال : « فطمأنت الرجل وأفهمته أن مرضها قد زال ، أما هذه الحال فلا خوف منها وهى طبيعية »

قال البك مندهشاً : « . . . طبيعية ! »

قال الباشا : « نعم . هى خاصة نفسية معروفة ، تتجلى واضحة فى بعض حالات النوم المغنطيسى ، وتنشأ ذاتية عند بعض الناس ، ويمكن إرهافها بالتصوف ، وقد عرفت فى كل العصور ، وبلغت أوجها فى الأنبياء »

قال البك : « اغفر تطفلى يا باشا ولكنى بحاجة إلى زيادة إيضاح »

قال الباشا : « أنت تعرف يا سيدى البك أن ماندركه بحواسنا الخمس وبالأجهزة العلمية التى اخترعت

فى مدى قرنين أو ثلاثة ، لا يعد قطرة فى محيط هذا الوجود ، فاعلم ياسيدى أن فى الناس شواذ يستطيعون الحس ببعض ما لا ندركه بالحواس ولا بالأجهزة العلمية المعروفة حتى الآن ، كأنما وهب هؤلاء الناس حاسة سادسة أو امتداداً فى حواسهم الخمس »

قال البك : « إن قولاً كهذا من عالم كبير مثلك ياسيدى الباشا يفتح الباب واسعاً أمام الدجالين والمشعوذين » قال الباشا : « إنى أقرك على هذا مع الأسف الشديد ، فادعاء هذه الخواص للتغرير بالجمهور أمر ميسور ، والذين يرتزقون من هذا السبيل فى مجموعهم محتالون أدعياء ، ولا حيلة إلا أن يبطش بهم القانون بلا استثناء » قال البك: «ألا ترى أن الأولى إنكار هذه الخواص كلية لقطع السبيل على الدجالين ؟ » قال الباشا : « قد يكون ذلك ولكن الحقائق الثابتة لا تنكر ؛ ثم إن إنكارها لحماية الناس من الدجل قد يجر إلى ما هو شر من الدجل فهو يمهد للهزء بكرامات الأولياء واعتبارها خزعبلات ، ثم إلى إنكار النبوة نفسها واعتبارها دجلاً ، ثم إلى الإلحاد المطلق »

قال الباشا ذلك ونهض مستأذناً ، وودعه رب الدار إلى سيارته بالتجلة

تماثلت المريضة للشفاء بسرعة بفضل دواء الباشا وتولت مهمتها فى المنزل كمربية ، وأنس أهل البيت فيها الذكاء وسمو الخلق والتقوى ، فازدادوا اطمئناناً إليها يوماً بعد يوم

قال البك ذات يوم لقرينته : « ألم ترو لك الآنسة شيئاً من ماضى حياتها ؟ » قالت السيدة : « لم أفاتحها فى ذلك فقد يكون فيه ما يؤلمها » فاستدعاها البك وقال : « نحن لم نعهد عليك سوءاً فما الذى أغضب أخاك عليك ؟ » فأطرقت الفتاة قائلة : « عفا الله عن أخى » ومضت تقول : « لما توفى أبواى كنت فى مرحلة التعليم الثانوى ، وكان أخى قد نال شهادة عالية وألحق بوظيفة حكومية هامة ، ولم يترك والداى أى مال ، فانقطعت عن الدرس ، وعشت من مال أخى فى منزله . ثم وسوس الشيطان لأخى فبدأ يستغل سلطة وظيفته فى الحصول على منافع مادية ، وأحسست إحساساً خفياً بأن الرزق غير نقى ، وكان والدى منذ وفاته يتمثل لى فى بعض غفواتى وأشاهده مشاهدة أشد وضوحاً من مشاهدات اليقظة ، وجاءنى أبى يوماً فقال : « نبهى أخاك إلى سوء المصير الذى ينحدر إليه . إنه سيفلت من بطش القانون فى حياته الدنيا ، وهذا من سوء حظه ، فالويل الذى ينتظره فى أخراه لا يوصف »

قالت : « فأبلغت ذلك لأخى حرصاً على صالحه ولكنه غضب ، وحقد على حقداً شديداً ، وتغيرت معاملته لى . إلى أن كان فجر اليوم الذى جئتكم فيه فتمثل لى أبى وأخذ بيدى ، وقال : « تعالى معى » ثم أحسست أننا ننتقل ، وإذا بنا نحلق فى أجواء منعشة ، وأنوار بهيجة ، ونشرف على رياض ناضرة وأنهار صافية ، ومساكن طيبة ، ومشاهد لا تصور جمالها ريشة أى فنان ، ولا تتسامى إليها أحلام أى شاعر ، وثمة رجال ونساء كلهم فى ميعة الصبا ، وعلى أقصى غاية الجمال . قال أبى : « هنا الفردوس ، وإلى هنا يأتى كل من قضى حياته الدنيا عاملاً لإسعاد البشر ، ساعياً بنفسه وبهم إلى التسامى . إنى أقيم هنا يا ابنتى ، وما كنت أحلم أن جهودى المتواضعة تستحق عشر معشار هذا الأجر » قلت : « يا أبى هذا العالم حقيقى محسوس ، وهو موجود فى سماء الوجود ، فما بالنا على الأرض ننظر فلا نراه ؟ » قال : « إنه فى الأثير . إن كل أشياء هذا الكون

حتى المادة التى تحسونها إنما هو موج فى الأثير ، ولكنكم لا تحسون إلا صنفاً واحداً من الموج وهو المادة

ثم أخذ بيدى . وأحسست أننا نهوى فى سرعة وإذا بنا على أرض جرداء لا نبت فيها ولا شجر ، مظلمة الأجواء ، فيها أكواخ عاطلة من كل زينة ورجال ونساء عليهم سيما الفقر والقنوط ، قال أبى : « نحن بالقرب من سطح الأرض ، وإلى هنا يأتى الذين لم يهتموا فى حياتهم الدنيا بغير نفوسهم ، ولم يصب العالم منهم خيراً ولا شراً . إن حواسهم الروحية ميتة ، وكيانهم الروحى كثيف » قلت : « وهل يظلون هكذا ؟ » قال : « نعم . إلا من بدأ يشعر بما فوت على نفسه من فرص فيمضه الندم وتحرقه الحسرة ، وهذا العذاب يوقظ من حواسه الروحية ، وينقص من كثافته ؛ فيرتفع فى بطء وعناء إلى عالم النور »

ثم أخذ بيدى ، وأحسست أننا نهبط ، ولكن فى صعوبة وبطء ، فقد كان الجو كثيفاً قاتماً وازداد الجو كثافة وقتاماً ، وصار حاراً كريهاً خانقاً لا يطاق قال أبى : « أنعمى النظر » فإذا بى أرى أشباحاً مروعة ، ليس فيها من الصورة الآدمية إلا أثراً ، وجوه شوهاء وأطراف طويلة وعيون جاحظة وأجسام من ظلام ، فيها المتبعج حتى التكور والأعجف حتى العظام . قال أبى : « هنا الذين اجترحوا السيئات قد رسبوا إلى الحضيض ، وحشدوا معاً ينهش بعضهم بعضاً ، ويسخر بعضهم من بعض ، ويوسوس بعضهم إلى بعض وإلى من على شاكلتهم من أهل الدنيا . أكثرهم لا يؤمن بالله ، ويعتقد أن ليس فى الوجود إلا هذا الذى هو فيه . أما من أحس منهم بخيبته وبواره ، وأدرك أن فى الوجود حالاً أفضل من حاله فيا لطول حسرته وعذابه وبعد الشقة التى تنتظره حتى يصعد إلى أرض النعيم »

وأشار إلى ناحية وقال : « أنظرى ! هنا يقبع الذين كانوا يرتشون ، يخونون الأمانة ويفسدون الخلق ، ويعطون الحقوق لغير أربابها ويفوتونها على أصحابها . وأشار إلى أحدهم فرأيته يلطم خده ، ويمزق جلده ويقطع شعره ويبكى بدمع سخين ويندب قائلاً : « ويلى ! ويلى ! والله لو أوتيت ملء الأرض ذهباً لافتديت نفسى به ولو ساعة واحدة مما أنا فيه »

ثم أخذ بيدى وأحسست أننا نصعد، وإذا بى فى حجرتى، قال أبى: سأتركك الآن على أن تصفى لأخيك ما رأيت . إن كلامك قد لا يفيده ولكن افعلى ...

ثم اختفى وعدت إلى نفسى

قالت الآنسة : فانتظرت حتى عاد أخى فى المساء وقصصت عليه ما رأيت . فعبس وبسر ، ومن على إعالتى وإطعامى ، وأقسم يميناً غليظة ألا أمكث فى منزله بعد ذلك لحظة واحدة . فجمعت ملابسى وخرجت حائرة لا أعرف أين أذهب . وإذا بهاتف يقول : أنظرى أمامك ، فنظرت فرأيت هالة من النور ، قال الهاتف : تتبعى هذا النور ، فتبعته حتى صرت أمام هذا المنزل ، وافتقدت النور فوجدته على باب سور الحديقة ، ثم سمعت الهاتف يقول : « ادخلى هنا فهم بحاجة إلى مربية أطفال »

وسكتت الآنسة ثم أطرقت وعيناها تدمعان

مضت الشهور والسنون والآنسة كأنها فرد من أفراد الأسرة وأحبها كافة من بالمنزل ، حتى أن إدريس نفسه بدأ يشعر نحوها بحب واحترام خالصين . ولم يعد يسميها « البلاوى » بل تعلم أن يقول « السيدة عذرية »

عبد المغنى على حسين

حاجى بابا اصفهانى

للكاتب الانجليزى "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والستون

تجارة الغلايين . حب ابنة عثمان أغا

كان منزل عثمان أغا يقع فى حارة ضيقة تتصل بالشارع الموصل إلى سوق من أكبر الأسواق فى المدينة، ورأيت أمام باب المنزل كثيباً من القاذورات عليه عدد من الدجاج وبعده كثيب آخر عليه كلاب صغيرة تحرسها أمها، وكان عواء هذه الأجراء خليقاً بأن يمنع الطمأنينة والهدوء عن النفس، وبين هذين الكثيبين باب منزل عثمان أغا الذى دخلنا منه ، وكان المنزل بناء صغيراً يحتوى على حجرات قذرة لا أثر للنظافة فيها ولا ينم شكلها عن نعمة وثراء . ولم يكن لدىّ من المتاع غير سجادة صغيرة فانتقلت من الخان الذى نزلت فيه إلى منزل الأغا ، وجعلت مقامى فى ركن من أركان حجرته الخاصة ووضع هو فراشه بجانبى ونام بجوارى

ولكى يحتفل بى عثمان أغا ذبح لى كبشاً وسواه وأحضر لى صحناً من الأرز وأضاف إلى ذلك بلحاً وجبناً وبصلاً، وقد جهزت ذلك الطعام زوجته نفسها وابنتها تساعدها جارية ليس فى المنزل سواها من الخدم ؛ ولم أكن إلى تلك اللحظة قد رأيت واحدة منهن إذ وصلنا إلى المنزل فى الظلام . ولم يكن من حسن الخلق أن أسأل عثمان عنهن إلا بقدر مايسمح هو بإخبارى

وشاركنا فى المأدبة تاجر جلد دعاه عثمان أغا للحضور ، وكان قد عرفه فى رحلاته فى بخارى . ودار الحديث فى الشئون التجارية التى كنت أجهلها ولذلك لم أشترك فيه إلا ما ندر ، فرغم إرادتى الشديدة فى التحدث مع الرجل عن تلك الشئون اكتفيت بأن أنصت إلى كل ما يقال ، وجلست أسمع مناقشة فى التجارة تدور بينهما وقد حذرانى من الاتجار فى الجلد وشجعانى على شراء الغلايين للتبغ لأن سوقها فى ارتفاع ولأنه لاينتظر هبوط أسعارها

انتهت الوليمة وذهب الضيف وقد شغلنى ماسمعت حتى لم أعد أفكر إلا فى الغلايين وفى الاتجار بها . وجلست طول اليوم فى ركن هناك أحسب كم غليوناً تبتاعها طوماناتى وكم أربح من بيعها فى الآستانة . وحين وصلت بخيالى إلى تلك الثروة التى ستهبط علىّ من تجارة الغلايين قلت فى نفسى : « ما أربحه منها أبتاع به تبناً من أزمير وأذهب به إلى أوربا ، وهناك أبيعه بأثمان باهظة أحصل منها على ربح وافر ، ثم أشترى طرابيش أحملها إلى القاهرة وأبيعها هناك فيجتمع لدىّ مال كثير أضعه فى أكياس وأذهب به إلى الحبشة فأشترى منها عبيداً وإماء أبيعهم بأثمان غالية فى اليمن ومنها أشترى بناً وأعود به إلى إيران فأنال ربحاً كثيراً ثم أستريح فى موطنى الأصلى إلى أن أتمكن من شراء منصب من مناصب الدولة قد ينتهى بى مع الزمن إلى رياسة الدولة فى حكومة ملك الملوك

وحين رتبت أمورى على هذه الكيفية شرعت فى تجارتى بعزيمة ونشاط ، وبعد أن تخيرت أحسن

الطرق وأفضل الوسائل تعاقدت مع حطاب على أن يذهب إلى جبال « لور » وهناك يجد غابات من شجر يصنع منه الغلايين فيتخير منها أصلحها ثم يعود إلى بغداد حيث تجهز وتصنع لها المباسم وتصدر إلى تركيا

وعلى هذا النظام سرت ولكن فى أثناء انتظارى رجوع الحطاب أصبت بمرض لا يسلم منه المقيم فى بغداد فضلاً عن الغريب الزائر ، وانتهى بى ذلك المرض إلى قرحة حين تجف تترك وراءها أثراً خبيثاً فى الجلد يطلقون عليه اسم « أخت بغداد »

وكانت قرحتى فى وسط الخد الأيمن فوق نهاية شعر اللحية . وهناك تركت أثرها الخبيث بعد أن نحلت جزءاً من الشعر وتركت بقعة قبيحة الشكل زرية المنظر . وتحملت تلك البلوى بصبر وجلد رغم ما كنت أشعر به أحياناً من الضغينة على القدر والحقد على الحظ لاختيار ذلك المكان من وجهى وكان لهما أن يختارا من جسمى أى مكان آخر . ثم تنهدت وقلت لنفسى : « فليكن ما أراد الله ؛ فلو خير كل حجر لاختار أن يكون ماساً ، ولو استشير كل رجل فى مكان قرحته لما رأيت وجهاً قبيحاً فى بغداد

ثم عزيت نفسى قليلاً بأن وجه عثمان أغا لا يعدله وجه فى الدمامة والقبح رغم أن قرحته لم تصبه فى وجهه . وقد سر عثمان أغا من مصيبتى بدلاً من أن يعزينى ويشاركنى فى الألم فقد قال لى : « إذا لم يصبك فى حياتك يا حاجى بابا غير هذه القرحة فى وجهك فعدها نعمة من الله . نعم لقد شوهت نصف الوجه ولكن النصف الآخر بقى سليماً بحمد الله »

فقلت فى نفسى : « بئس هذا الرجل ! إن قبيح الصورة لا يطيق رؤية الحسن كما لا يطيق خيار الناس أشرارهم »

ورغم ما أصبت به فى وجهى من التشويه فقد رأيت أننى أصبحت فتنة فى نظر « ديلارام » وفى قلبها . و « ديلارام » الجميلة هذه هى ابنة عثمان أغا التى لم تترك وسيلة إلا اتبعتها لتفهمنى شعورها نحوى. وكانت هى وأمها على دراية تامة بعلاج هذا المرض الذى أصبت به ، فأخذتا تعنيان بى وتمرضاننى وكأنما كانت قرحتى وحب ديلارام لى - كأنما كان الأمران على موعد فقد ظهرا معاً وتقدما معاً . وفى الوقت الذى بلغ فيه مرضى أشده بلغ حب ديلارام درجة لا تطاق. والحق أقول إن عدوى ذلك الحب لم تصبنى إذ كانت فاتنتى صورة صحيحة من والدها وكنت لا أستطيع أن أميز وجه أحدهما من وجه البعير . وكنت كلما نظرت إلى وجه « فاتنتى » انقبض صدرى وتدافعت إلى مخيلتى الأفكار السوداء . ولذلك تلقيت خبر اجتماع القافلة للذهاب إلى القسطنطينية بسرور وانشراح . وجمعت غلايينى وربطتها ودفعت أثمانها واشتريت ملابس السفر . وكم كان سرورى حين أعلن أن القافلة ستتحرك عند أول فرصة . مسكينة تلك الفتاة ديلارام ! لقد جعلت تنظر إلى خدى المصاب نظرة يأس ، وما كاد يذهب الورم عن خدى وفك آخر الأربطة عنه حتى حسبت أنها فكت كل قيد كان يمنعها من الابتهاج والسرور

الفصل السادس والستون

فى طريق القسطنطينية

بدأت القافلة مسيرها فى طريق القسطنطينية فى صباح يوم من أيام الربيع وجلست فوق حمل من أحمالى وسائرها حولى، وكنت أنظر إلى القافلة نظرة ارتياح وأصغى إلى أجراس البغال كما لو كنت أصغى إلى نغمات الزمار

وكان فراشي معقوداً إلى سرجي وقد حسبت نفسي تاجراً عظيم القدر مغبوط الحال . ورافقني في رحلتي عثمان أغا وصاحبه تاجر الجلود البخاري الذي تشرفت بلقياه في الولبية وتاجر أو تاجران من تجار بغداد . ورأيت فضلاً عن هؤلاء كثيراً من مواطني من بلاد مختلفة يقصدون إلى الآستانة في أعمال تجارية وفيهم من كنت أعرفه من قبل

وكانت قصتي مع المرحوم شيخ العلماء قد نسيت تماماً ؛ وقد جعلتني ملابسي التي اخترتها لهذا السفر والمرض الذي أصاب خدي أظهر بمظهر أهل بغداد حتى لم أعد أخشى كثيراً أن ينم شكلي على أنني إيراني . ولا أريد أن أتعب القارئ بوصف مسهب لما حدث أثناء مسيرنا في تركيا وهو يتلخص في خوفنا من اللصوص ونزاعنا مع البغالين ونزولنا في الخانات . ويكفي أن أقول إننا وصلنا إلى مقصدنا في سلام، غير أنني لا أستطيع إخفاء شعوري عند مشاهدتي للآستانة

إنني كإيراني أصفهاني كنت معتاداً أن أحسب بلدتي الأصلية خير بلاد العالم وأرقاها فلم يخطر ببالي قط ولا دار بخلدي أن بلدة أخرى يمكن أن توازن بها حتى لقد كنت أضحك مستهزئاً ممن يصف عاصمة أرضروم بما يفوق بلدتي حسناً . ولكن أية دهشة استولت على وأي ذهول شملني حين رأيت لأول مرة تلك المدينة الضخمة

كنت أحسب أن مسجد أصفهان الشاهاني المبني في الميدان الأكبر أضخم مباني العالم وأحسنها فإذا بي أرى هناك مائة مسجد أعظم وأفخر مما كنت أحسب وكل مسجد يفوق الآخر حسناً وبهاء

لم أكن أظن أن مكاناً أوسع وأرحب من موطني الأصلي فإذا بي أرى ما لا عداد له مما يضل النظر فيه . ولئن كانت أصفهان نصف الدنيا فهذه المدينة هي الدنيا بأجمعها ! وأين من هذه المباني الفخمة مباني أصفهان ؟! هنا مبان مقامة على ساحل متعرج جميل وهي تطل على الماء الأزرق الرجراج ، وهناك مبان أحاطت بها الجبال الجرداء

ولاتساع المدينة وجمالها ووقوعها على ضفاف البحر تظهر كأنها منعكسة على سطح مرآة فيتضاعف اتساعها ويكثر رونقها وجمالها . ولئن أردت وصف كل ما في المدينة من جمال يسحر النظر ويخلب اللب فلست بمنته أبداً ... آلاف من القوارب المختلفة الأشكال والأحجام تسبح على سطح الماء ، وبوارج لساريتها شكل الغابة ملأت ذلك المرفأ الجميل وجعلت للميناء شكلا رهيباً

قلت لواحد ممن كانوا حولي : « والله هذه جنة فليتني لا أفارقها ! » ... غير أنني ما فكرت فيمن بأيديهم هذه الجنة ولا في العداوة التي بين قومي وبينهم ؛ ولما فكرت في ذلك ذكرت أنهم قوم لا تصلح لحاهم مكانس لأبناء وطني، وشعرت بتنزلي العظيم وبوضعي من قدر نفسي باختلاطي وإقامتي مع هؤلاء القوم . وخرجت من تأملاتي بتعزية واحدة تعزيت بها ، وهي أن هؤلاء القوم الذين أراد الله أن يتمتعوا بتلك الجنة ويمرحوا في جنباتها في هذه الدنيا لهم يوم رهيب تصطك منه الفرائص وتنخلع من هوله القلوب وهو آت لا ريب فيه

بعد أن انتهينا من الأعمال التي لا بد منها في الجمرك ركبت أنا وأصحابي زورقاً أقلنا من أسكوتاري إلى دار السعادة ونزلنا بمتاجرنا وأمتعتنا في خان يؤمه تجار إيران واقع في الجزء المتوسط من

المدينة وعلى مقربة من أسواقها ، وقد شعرت أننى ضئيل لا قيمة لى عند ما فكرت فى أننى لست إلا فرداً واحداً بين تلك الجموع الهائلة التى تنساب فى طرق المدينة ليل نهار من غير انقطاع ، وحين شاهدت النفائس الغالية تملأ المخازن، والملابس الفاخرة يرتديها كل ساكن، والنبلاء والأغوات على صهوات الجياد المطهمة لا ينقطع لهم مرور ولا يقف لهم تيار ، وتنهدت محدثاً نفسى : « أين من عظمة القسطنطينية وجلالها وأبهتها وغناها فقر إيران المدقع وفاقتها الشاملة ؟ »

ثم استأجرت مع عثمان أغا حجرة فى الخان الذى أودعنا فيه بضائعنا وجعلت أثناء النهار أفرش غلاييني على أحد الأرصفة ، ولجودة بضاعتى ورخص أثمانى أخذت أبيع كميات وافرة وأحصل منها على ربح عظيم ، وجعلت لما رأيت المال يعود إلى جيبى ثانية أمتع نفسى بملاذ لم تكن تخطر لى على بال من قبل : جملت نفسى بملابس أكثر حسناً وهنداماً وابتعت شُبُكاً جميلاً وتحزمت بشال له ألوان زاهية

واشتريت كيساً حريرياً للتبغ ولبست حذاء أصفر لامعاً وحملت خنجراً له بريق يخطف الأبصار

كنت محاطاً بكل ما يدعو إلى الإنفاق ويغرى بالتبذير ، وبدأت أنظر إلى ما فى الحياة من مباهج وملاذ — نظرة المتعلق المشغوف؛ وكان بالمدينة محال كثيرة أستطيع أن أظهر فيها أمام الجماهير بشكلى الأنيق ولم أحجم عن ارتياد المقاهى الغاصة بالناس أجلس على دكة عالية وأتكئ على وسائد ناعمة وأدخن فى غليونى وأرتشف القهوة كأحد أفراد الطبقة العليا

وقد علمتنى الحوادث وما قاسيت فى إيران أن أحذر أبناء جلدتى وأتجنبهم فتجنبتهم وجعلت أبحث عن صداقة الأتراك ؛ ولكن مواطنىَّ من الإيرانيين كانوا فضوليين وكانوا يشعرون بالإهانة عند أقل إعراض عنهم فلم يلبثوا حتى عرفوا من أنا ومن كنت . ثم جعلوا ينظرون إلىَّ نظرة لا تنطوى على شىء من الاحترام . وعلى أية حال فقد اجتهدت أن أعيش على وفاق معهم ، وتركونى أسلم من شرهم ما دمت لا أنازعهم فى أى شأن من شئون التجارة

وكنت أعلن عن نفسى فى محال اللهو العامة أننى من أغنياء بغداد وقد أكد قولى وألبسه ثوباً من الصحة أثر العلة التى انتابتنى والتى كنت أعدها مصيبة عظمى قبل أن أجنى بسببها الربح

ولم أجد أسهل من غش الأتراك وخداعهم بالمظاهر الخارجية ، وحاكيتهم فى سكونهم ووقارهم وفى سلوكهم الهادئ الرصين حتى وفى مشيتهم البطيئة وألفاظهم المرتبة ؛ وقد رجوت أن أتقن كل ذلك فى وقت قصير حتى إذا ما تم لى ذلك اندمجت فيهم

وكنت أكثر من ذكر الله بصوت خافت ضعيف ومن عد المسبحة حتى كنت أستقبل فى المقهى الذى كنت أرتاده بكل احترام وتعظيم

وكان صاحب المقهى يصنع قهوتى بيده ويصبها بحركة فنية ولم ينس مرة أن يرحب بى ويلقبنى بلقب أغا . وقد بلغ من نفوذى على القوم وعظم قدرى فى نفوسهم أنه إذا حدثت مناقشة حادة أو جدال عنيف فى المقهى عن الخيل أو الكلاب أو السلاح أو التبغ (وهى الأشياء التى تدور حولها مناقشاتهم) كان يشار إلىَّ بالبنان ويكفى أن تلفظ شفتاى كلمة « نعم » أو « لا » لكى أنهى الجدل فيعود الحديث إلى ما كان عليه

الفصل الخامس والستون

حادثة حاجي بابا مع أرملة الأمير

ظللت أعيش كما وصفت مدة من الزمن إلى أن لاحظت فى ثلاث ليال متوالية حوالى الغروب أثناء خروجى من المقهى أن امرأة عجوزاً تقف فى ركن من زقاق ضيق تجاه المقهى وتحدق فى وجهى وتظهر عليها الرغبة فى محادثتى، وكانت بين كل آونة وأخرى تنظر إلى نوافذ المنزل الذى اتخذت بأسفله المكان الذى تقف فيه ثم تدعنى بعد ذلك أمر فى طريقى. لم أعرها شيئاً من الاهتمام أول مرة فإن وقوف سيدة عجوز فى ركن من أركان زقاق صغير ليس بالأمر الذى يدعو إلى الاهتمام أو الملاحظة، ولكننى دهشت فى المرة الثانية وانتبهت إلى نفسى، وأثارت المرة الثالثة عجبى وريبتى، وصممت فى رابع ليلة إن أنا وجدتها فى مكانها أن أعرف مقصدها. وعلى ذلك لبست أفخر ملابسى معتقداً أن جمال طلعتى وحسن حظى كفيلان، بوقايتى ثم خرجت من المقهى ومشيت متمهلاً مختالاً إلى جهة تلك السيدة الغريبة، وكنت على وشك لقائها إذ فتحت نافذة من نوافذ المنزل فجأة ورأيت وجهاً نسائياً ساحراً أمام ناظرى وكان آية فى الجمال والحسن وفى يد صاحبته وردة أدنتها من وجهى ووضعتها على فؤادها ثم ألقتها إلىّ وأغلقت النافذة بسرعة مدهشة حتى لقد ظننت أن ما حدث كان خيالاً ظهر ثم اختفى

ظللت واقفاً فاتحاً فمى ناظراً إلى النافذة حتى شعرت بيد العجوز تجذبنى من كمى وقد التقطت الوردة وناولتها لى فالتفت إليها وقلت لها: « ما هذا بالله عليك! أمن الإنس ذلك الوجه الصبيح أم من الجن؟ »

فأجابتنى تلك العجوز: « ألا تزال غراً فلا تعرف معنى إلقاء هذه الوردة إليك؟ إن لك ذقناً طويلة ولست غلاماً؛ ويظهر أنك سافرت كثيراً وتغربت ولكنك إن كنت لا تعرف ماذا تقصد السيدة من إلقاء وردة إليك فقد سافرت بلا نتيجة ولم يعلمك الاغتراب والتجاريب شيئاً »

فقلت لها: « بلى، إننى أعرف أنها تريد القرب وتعنى المحبة والائتلاف وتشير إلى أن رأسينا يجب أن ترفعهما وسادة واحدة: تعلمت هذا من أسفارى وتجاريبى ولكن الأسفار والتجاريب علمتنى فوق ذلك أن أمثال هاتيك الحوادث لها مالها من خطر وضرر وأن رأسينا قد تقطعان بدل رفعهما على وسادة واحدة »

فقالت محدثتى متأثرة منفعلة: « لا تخف شيئاً. أقسم لك بحرمة نبينا الكريم إنه لا خوف عليك ولا ضرر. إننا قوم عظماء وقد تفوتك ثروة إذا لم تقبل ما أعرضه عليك. هل وصل بك الحمق والغباوة أن تخشى الأوهام وتخاف الظلال؟ إن خوفك لا أساس له »

فقلت لها: « حدثينى من هذه السيدة التى رأيتها وماذا يجب أن أصنع؟ » فأجابتنى: « لا تتعجل كثيراً. لا يمكن أن يتم أمر فى هذه الليلة وعليك بالصبر فإن الوقت والمكان غير ملائمين. قابلنى غداً وقت الظهيرة عند مقبرة أيوب وستعرف كل ماتود معرفته. سأكون جالسة على قبر أول أمير على يمينك ويمكنك أن تميزنى عن سائر النساء بشال أحمر تراه على كتفى الأيسر فاذهب الآن والله معك! »

وافترقنا على ذلك فرجعت إلى حجرتى فى الخان أفكر فيما حدث ولم أشك فى أن خيراً ينتظرنى، غير

أننى كنت أسمع عن غيرة الأزواج الأتراك قصصاً عجيبة وخفت أن أصير ضحية غيرة شديدة وأن يقتلنى زوج على مذبح غضبه ، ثم توالت على مخيلتى ذكرى كل حب عاثر ، وحادثة كل غرام ضائع ، فذكرت زينب وبرحها ، ومريم ويوسفها ، وديلارام وفرحتها فخفتت كل رغبة كانت عندى فى مجاراة عواطفى ، وخفتُ أن تكون النتيجة شؤماً علىّ .

غير أن دم الشباب كان لايزال يجرى فى عروق فعزمت على أن أقبل كل ما تطلبه . وفى ظهر اليوم المعين ذهبت إلى مقبرة أيوب وبحثت عن أول قبر لأمير فرأيته ، ولهذا القبر شاهد عليه عمامة خضراء . ووجدت هناك العجوز بوشاحها الأحمر ، وتجنبت معها الطريق العام واتخذنا مجلسنا فى ظل شجرة عالية فى جانب المقبرة ، وهناك جلسنا وأمامنا منظر الميناء البديع وبدأنا نتحادث فى موضوعنا . بدأت السيدة بشكرى على احتفاظى بميعادها ثم أخذت تؤكد لى أن ما ستعرضه علىّ لا خوف منه . وكان للسيدة حنكة العجائز ومكرهن . وأخذت تكلمنى بخبث ودهاء دون أن تقترب كثيراً من موضوعها وصرحت لى بميلها إلىّ ورغبتها فى قضاء الأوقات معى .

وكنت أخشى أن يضيع معظم كسبى من الغلايين فلم أتركها تسترسل كثيراً وأوقفتها عند ذلك الحد ، وطلبت إليها أن تخبرنى عن قصة الغادة الجميلة التى رأيتها فى النافذة فحدثتنى الحديث الآتى

قالت : « إن السيدة التى رأيتها والتى أخدمها هى ابنة أحد التجار فى حلب . وكان لأبيها خلافها ولدان ، ومات الوالد من زمن ليس بالبعيد فخلفه فى تجارته ولداه وهما الآن تاجران لهما ثروة طائلة ، ويقيمان فى نفس هذه المدينة .

وتزوجت سيدتى واسمها « شكرليب » أى «معسولة الفم» من أمير هرم واسع الثروة ، وكان يأبى أن يكون له أكثر من زوجة واحدة لأنه عرف من تجاريبه أن بيته لا تحل فيه الراحة ، ولا تزوره السعادة إن هو سمح لنفسه بالإكثار من الزوجات معتمداً على إباحة دينه جواز التعدد .

وكان مغرماً بالسكون والراحة العائلية ، وظن أنه باقترانه من فتاة صغيرة السن يستطيع أن يعودها طباعه ويمرنها على ميوله فلا تعارض له رغبة ، ولا تعصى له أمراً . ونجح فيما أراد إذ لم يخلق الله من هى أرق طبعاً ، وألين جانباً من سيدتى . ولكن أمراً واحداً ظل منشأ الاختلاف ومصدر النزاع بينهما فلم يكن فى استطاعة الزوجين أن يتفقا عليه . وكان ذلك الأمر من العوامل التى أدت إلى موت الأمير فيما بعد .

وكانت سيدتى تحب الفطائر المحشوة بالزبد ، ويحبها الأمير محشوة بالجبن فظلاً خمس سنوات يتشاحنان على مائدة الإفطار كل يوم إلى أن حدث منذ ستة شهور أن الأمير الهرم تناول كثيراً من الفطائر المحشوة بالجبن والتى يحبها فأصيب بتخمة ومات على الأثر تاركاً لزوجه حسب الشريعة المحمدية ربع أملاكه من عقار ومنقول وعبيد وغير ذلك

وقد رغب فى سيدتى الكثيرون لشبابها الغض وجمالها الفتان وثروتها الطائلة ، ولكنها أوتيت ذكاء وحكمة نادرين فيمن هو فى مثل سنها من النساء فلم تقبل أن ترتبط بعقد جديد وآلت على نفسها أن تصبر حتى تتاح لها فرصة الزواج من رجل تحبه حباً حقيقياً ولا يكون الدافع له ثروتها أو مركزها

ولوقوع منزلها أمام مقهى من أعظم المقاهى

فى المدينة أخذت تراقب من يرتادها من الزوار . ولست فى حاجة إلى إخبارك أنها رأتك أجمل من وطئت قدماه المقهى ، ورأت فيك الرجل الذى كانت تحلم به »

ثم قالت العجوز بعد ذلك : « وأخى هو صاحب المقهى فطلبت إليه أن يستعلم عنك ويعرف من أنت وما شخصيتك . وقد أطربت سيدتى إجاباته واجتهدنا بعد ذلك أن نلفت نظرك إلينا وأن نتعرف عليك إن أمكن ، وأنت تعلم كيف كلل مسعانا بالنجاح . ولك أن تحكم الآن هل ترانى قدمت لك خدمة عظمى أم لم أقدم »

وقد شعرت بأنى كمن أفرج عنه بعد الحكم عليه بالموت إذ لم أكن أتصور فى أول حديثى مع تلك العجوز أننا سنصل إلى هذه النتيجة . واختفى من أمام ناظرى ما كنت أتخيله وأخشاه من عجائب وأسرار ومن تسلق للحوائط وقفز من النوافذ ومن مؤامرات تركية وخناجر ودماء . وحل محل ذلك كله تصور الثروة والراحة من عناء وكد . ورأيت باب السعادة مفتوحاً أمامى على مصراعيه

لم أتردد ولم أحجم بل قلت لها : إننى سأكون لسيدتها محباً متفانياً فى الحب إلى الأبد واستعملت كل ما وهبنى الله من كلام معسول ، وقول خلاب وأقسمت لها أننى سأجزل لها العطاء مكافأة على خدمتى

فقالت العجوز : « إن أمراً واحداً طلبتْ منى سيدتى أن أستوثق منه قبل أن ترضى بك وتقبلك وهو مركز أسرتك وقيمة ثروتك إذ يجب أن تدرك أن أخويها وأقرباءها متكبرون فإذا ما أقدمت على زيجة لا تليق بمركزها كان ذلك مدعاة لمعاملتها بكل قسوة وخشونة وسبباً فى إساءة زوجها إن لم يكن فى ضياعه »

ولم أكن مستعداً لمثل هذا السؤال . ولكن سرعة البديهة التى أدركت بها مقدار ما ينتظرنى من جاه وثروة كانت عونى فى الإجابة من غير تردد، وقلت: أسرتى! أتقولين عائلتى؟ من فى العالم لا يعرف حاجى بابا ؟ سلوا إن شئتم من أول حدود اليمن إلى آخر حدود العراق ومن بحار الهند إلى شواطىء قزوين فستجدون اسم حاجى بابا أشهر من نار على علم

فقالت : « ولكن من يكون أبوك ؟ »

قلت بعد أن سكت برهة : « أبى ! أأبى تعنين ؟ لقد كان أبى صاحب سطوة وجاه عظيمين وكم من رؤوس خضعت لإشارة من أصبعه وكم من رجال أحنت أمامه رؤوسها وسحبها من ذقونها وفعل بها ما لم يفعله رئيس الوهابيين »

وكنت فى أثناء قولى هذا قد وجدت من الوقت ما يكفى لخلق قصة مناسبة فى مخيلتى وظللت أقول للسيدة ما يدهشها فأطالت التحديق فى وجهى، وقلت: « إن كانت سيدتك تريد دماً نبيلاً وأصلاً كريماً ومنبتاً فاضلاً فإلىَّ يجب أن تتجه نظراتها، وإلىَّ يجب أن يكون مصيرها . إنها وإخوتها مهما بلغ من أمرهم فلن يفوقونى حسباً ولا نسباً . كان جدى المنصورى من بطن نجد فى جزيرة العرب وقد أقامه الشاه اسماعيل شاه العجم العظيم مع قبيلة فى جهة من أخصب مراعى العراق فأقام فيها منذ ذلك الحين

وكان جدى لأبى يدعى خاطر بن خور بن أسب ابن المدين من قبيلة قريش وهو شريف من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام »

فصاحت المرأة : « ماشاء الله ! كفى ! كفى !

إن كنت أنت من وصفت فسيدتى لا تطمع فى المزيد؛ ولئن كانت ثروتك تتناسب مع شريف أصلك فليس لنا بعد ذلك أى قول »

فأجبتها : « أما من جهة ثروتى فإننى لا أفخر بما لدى من مال عينى وثروة مجموعة فأى تاجر لديه مال أو ثروة من نقد ؟ لكن مال التاجر فى بضائعه المنتشرة فى كثير من بقاع العالم والتى لا تلبث حتى تعود بربح عظيم . إن حرائرى وبضائعى الأخرى من قطيفة وديباج فى طريقها إلى خراسان وسأستحضر بدلاً منها جلوداً من بخارى وعملائى اليوم فى مشهد بما معهم من ذهب وعطر لشراء شيلان الكشمير وأحجار الهند الثمينة. وفى استراخان يستبدلون بالسمور وأنواع الزجاج بضائعى الهندية أما بضائعى فى حلب فسترد إلىّ بدلها طيالس وشيلان على أننى لا أحدد ثروتى ولا أحصيها ولو أردت ذلك لكنت كمن يريد عد حبات القمح فى المزرعة . وإنما قولى لسيدتك فى غير مبالغة إن الرجل الذى وقع عليه اختيارك لو جمع ثروته لأذهلك وأذهل أسرتك مقدارها »

فقالت المرأة : « حمداً لله وشكراً ! هذا ما كنا نتمنى ولم يبق إلا أن أجمعكما معاً فلا تنس أن تكون فى ركن من الزقاق عند ما يخيم ظلام الليل حتى أقدمك بكل حيطة وحذر إليها . وإذا رقت فى عينيها لم يحل حائل بين زواجكما وسعادتكما . ولم يبق إلا أن أنصح لك نصيحة وهى أن تحب الفطائر المحشوة بالزبد وأن تبدى نفورك من المحشوة بالجبن وأما فيما يتعلق بأى موضوع آخر غير هذا فسيدتى لا تعلق أهمية ولا تبدى اعتراضاً »

ثم سلمت علىّ متأذنة بالذهاب فوضعت فى يدها قطعتين ذهبيتين أخذتهما بغير اعتراض . ثم تركتنى فى تأملاتى وسارت .

الفصل الثامن والستون

زواج حاجى بابا من شكر لبب

لم أبق فى موضعى تحت شجرة الصفصاف كثيراً إذ كان يجب أن أؤدى جملة أعمال قبل أن يحين موعد التلاق ، وعدت لألبس لباساً يدل على النعمة وينم على الثروة والجاه ، ولأحمل كيس دراهم مملوءاً ، ولأظهر بمظهر يليق بمركزى الجديد . وفوق ذلك فقد سرنى أن أجمل شخصى ما استطعت بأن أذهب إلى الحمام فأغتسل ثم أتعطر وأتطيب ، وجعلت أثناء مسيرى أحدث نفسى مسروراً : « إيه يا حاجى بابا ! لقد برهنت هذه المرة على ما بين العاقل والغبى من فروق ... لقد أحسنت وأجدت يا ابن المنصورى ويا ربيب قريش ! »

وصلت إلى الخان وأنا أسبح فى لجة من الأفكار وبحر من الآمال . رأيت الشيخ عثمان أغا جالساً فى ركن من أركان الحجرة يعد ما ربحه من بضائعه ، ورأيت فى الركن الآخر غلايينى وقد وازنت بين هذه التوافه وبين مايجول بخاطرى من عظيم الآمال حتى ظهر على تأثير هذه الموازنة وشعرت بكبرياء وعظمة لم أشعر بمثلهما من قبل . ولست أدرى إن كان عثمان أغا قد لاحظ شيئاً من ذلك، ولكنه ذعر حين طلبت منه أن يعطينى بغير إمهال خمسين قطعة ذهبية على أن أودع بضائعى رهينة لديه ضماناً لماله

قال لى : « ما هذا الذى تطلبه يا بنى ؟ ماذا تريد أن تفعل بمثل هذا المبلغ الكبير وبمثل هذه السرعة ؟ هل جننت أم أصبحت من ضحايا الميسر؟ »

فأجبته : « غفر الله ذنوبى ! لست مجنوناً ولا مقامراً ولا يزال عقلى معى وقد أقبلت على الدنيا بعد إدبارها ، فأعطنى المال أولاً وسأقص عليك خبرى بعد ذلك »

ولم يتردد الرجل طويلاً فى إجابتى إلى رغبتى إذ كان يعلم قيمة بضاعتى ويعلم أن الصفقة رابحة ، فأخرج المال وعد خمسين قطعة ناولها لى ، فأخذتها وتركته وخرجت فاشتريت ملابس فى غاية الوجاهة وأسرعت إلى الحمام فاغتسلت وأتممت كل ما كنت أريد من زينة وحسن زى وخرجت كأحد الأغنياء

وكان فى أثناء ذلك قد حل ميعاد المقابلة فسرت بقلب يخفق وينبض إلى المكان المعين ، ووجدت العجوز فى الانتظار . وبعد أن نظرت حولها لترى هل من أحد يلاحظنا تقدمتنى إلى باب فى مكان مختف فى المنزل ودخلت فدخلت وراءها ، وسررت من السكون والهدوء الشاملين للمنزل إذ كنت أنظر إلى نفسى كأننى صاحب المنزل ، وسيد من فيه .

ذهبنا إلى الجناح المخصص للسيدات وكان حذرنا واحتراسنا كما لو كان الأمير لا يزال حياً يرزق . دخلنا من الباب إلى ردهة كبيرة فيها نافورة ماء . ثم صعدنا سلماً خشبياً فرأينا فى نهايته ستاراً متعدد الألوان وتخطينا الستار إلى حجرة أخرى لم أر فيها من المنقولات غير أحذية نسائية وغير مصباح معلق

تركتنى قائدتى فى هذه الحجرة ، وذهبت تخبر سيدتها بقدومى ثم سمعت أصواتاً عديدة من الحجرات المجاورة فظننتها لصاحبات تلك الأحذية . وأخيراً فتح باب فى طرف الحجرة — وكان بالحجرة أربعة أبواب غيره — وأشير علىّ أن أتقدم .

أخذ قلبى يخفق فى عنف ، وأنا أتقدم إلى ذلك الباب . وأردت أن أظهر فى شكل الرجل الوقور فلففت نفسى بأطراف عباءتى ودخلت حجرة يضيئها مصباح واحد يلقى نوره على ما بها من متاع .

وكان بالحجرة إيوان عليه غطاء من أطلس ثمين لامع أزرق اللون ، ورأيت فى زاوية منه بقرب النافذة من أتيت لرؤيتها .

لم أتمكن من رؤية شىء منها غير عينين سوداوين ظهرتا كأنهما تضيئان فى سماء حياتى . وأشارت إلىّ بيدها أن أجلس، فأبيت احتراماً لها ، ولكنى حين وجدت أن الإباء لا يجدى خلعت نعلى وتربعت على البساط وأدخلت يدى فى أكمام ردائى وتكلفت حياءً وخجلاً لا أزال إلى اليوم أضحك حين أذكرها .

جلسنا متقابلين بضع دقائق لم نتحدث فى غير المألوف من ترحيب وتسليم، وبعد ذلك أمرت السيدة خادمتها عائشة (وكان هذا هو اسم التى قادتنى إلى المنزل) أن تترك الغرفة وتخرج ثم تظاهرت بالميل تريد أخذ مروحتها المصنوعة من ريش الطاووس وكانت على الوسادة فسقط نقابها ورأت عيناى أجمل وجه خلقه الله وكانت حركتها هذه دليلاً على انعدام الكلفة فأخذت أنظر إلى معبودتى نظرة هائم مدله مظهراً لها شدة إخلاصى وإعجابى بجمالها وشوقى وهيامى بها حتى لا أجعلها تتردد لحظة واحدة فى الاعتراف برقة فؤادى ونبل شعورى ودقة فهمى وسلامة ذوقى ، ولم تتمالك أرملة الأمير من أن ترى فىّ الرجل الذى تتمناه فى أحلامها ، وعلمت أننى أرضيتها ونلت ثقتها حين ائتمنتنى على أسرارها وأطلعتنى على دخائل نفسها وقالت : « إننى فى مركز حرج وحال مرتبكة فقد فعلت عيون الحساد فعلها فى حياتى وأنت تعلم أن زوجى أسبغ الله عليه رحمته

وغفرانه ترك لى مالاً كثيراً فأصبحت باضافته إلى مالى الخاص على درجة من الغنى تحرك الأطماع وسببت لى ثروتى الطائلة متاعب وآلاماً كادت تذهب بعقلى

ادعى كل من أقربائى حقوقاً لا أصل لها وطلب كل من يمت إلىّ بصلة طلبات كأننى أنا جزء من بيت المال وكأن ثروتى ثروة عامة . وأظهر أخواي أفكاراً خاصة ورغبات معينة فى اختيار زوج لى كأنما الزوج الذى أختاره يجب أن يوافق مزاجيهما قبل مزاجى، ويجب أن يرتاحا إليه دون نظر إلى عواطفى وميولى ، وكان لزوجى ابن أخ من رجال القانون وقد ادعى أن التقاليد القديمة تخول لقريب الميت حقاً على زوجه وأن فى استطاعة ذلك القريب أن يظهر رغبته فى التمسك بحقه ليلقى عباءته على أرملة قريبه المتوفى

وادعى قريب آخر أن لا حق لى فى كل ما ورثت وما أملكه الآن وهددنى بأخذ ثروتى . فساورتنى الهموم والمتاعب ولم أجد فى ظروفى التى ذكرتها لك من ينقذنى ويمد لى يد المساعدة غير زوج أختاره أنا وقد أرسلك القدر إلىّ فالحمد لله على ذلك »

ثم أعلمتنى بكل ما أعدت لعقد زواجنا العاجل

وأشارت فى حديثها إلى رجل من رجال الشرع اختارته لكتابة الوثائق وقالت : إن الرجل موجود بالمنزل وعلى استعداد لإتمام العقد فشعرت باضطراب عنيف إذ لم أكن أنتظر مثل ذلك الانتقال من حالى التى كنت فيها إلى سماء العز والغنى؟ غير أنى لم أنس أن أظهر لها الحب الكامن فى صدرى وقلت لها : إن حبى سيكون أبدياً وإن عاطفتى لا تزول ما بقى فىّ عرق ينبض وفؤاد يخفق ، ولم أقل عن نياتى ومقاصدى إلا كل ماتطرب له ويرقص فؤادها لدى سماعه . ولقد خافت التأخير فأسرعت بنداء خادمتها العجوز عائشة وأمرتها أن تقودنى إلى المأذون الذى حدثتنى عنه والذى كان ينتظر أوامرها فى مكان آخر من المنزل . ورأيت مع الرجل إنساناً آخر أحضره معه ليكون الوكيل عنى فى العقد . وقال لى المأذون الشرعى إن ذلك واجب من جانب الرجل كما هو لازم من جانب المرأة ثم عرض سجل العقود وكان قد قيد فيه ما تملكه العروس من مال وضياع ومتاع وطلب إلىّ أن أخبره بما يقيده ليضيفه إلى ما كتب

وهنا أخذت وذعرت، غير أنى لم أجد خيراً من أن أجيبه بمثل الذى أجبت به عائشة من قبل فقلت : « إن التاجر لا يستطيع تحديد ثروته المتفرقة فى مختلف الجهات وشتى البلدان بضاعةً ومتاجرَ إلا أننى أهب كل ما أملك لزوجتى فزواجنا أبدى لا افتراق بعده ولا طلاق»

قالت العروس : هذا حسن غير أننا نريد ذكر شىء محدد فقل لنا ما تملكه هنا فى دار السعادة على سبيل المثال . إنك لم تحضر طبعاً إلى هذه المدينة إلا لأعمال هامة فاذكر لنا ثروتك التى تحت يدك وذلك يكفى مؤقتاً

فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت : « ليكن ذلك ! فليكن ما تريدين ! اصبرى قليلاً » ثم سكت كأننى أحسب ما معى من بضائع . وبعد لحظة قلت فى ثبات وجرأة : « إننى أعطى زوجتى عشرين كيساً من الذهب وعشر حقائب من الثياب »

ودار بعد ذلك حديث بين أرملة الأمير وبين المأذون . وبعد مفاوضة قصيرة انتهى الأمر برضاء وقبول وبصمنا جميعاً على وثيقتى الزواج والهبة بعد

أن انتهى المأذون من خطبة الزواج . وبذلك تم العقد على حسب الشريعة وهنأنى الحضور وشكرت لهم

ولم أنس أن أكافئ الشيخ وابنه وأن أعطى الخدم وأرسلت مبلغاً ليقسم على المقيمين بالقصر جميعاً. وبدلاً من أن أرجع إلى عثمان أغا وأنام على وسادة من غلايين دخلت إلى مكان الحرم تحف بى مظاهر العظمة والجلال وأحس كأنى رجل آخر غير الذى تعرفه أيها القارئ

الفصل التاسع والستون

من تاجر غلايين الى أغا عظيم

متاعب من شخصيته المستعارة

سرعان ما أدركت أن أمامى طريقاً وعراً وأننى مقابل عقبات كثيرة. ولقد قيل إن فيلسوفاً صينياً قال مرة: إن عملية الأكل لو اقتصرت على ما يحدث بين الفم وطبق الطعام لكانت أسهل العمليات وأطيبها، ولكن هناك المعدة وأجهزة الهضم بل هناك بقية أعضاء الجسم كله وهى التى تحكم إن كانت عملية الأكل طيبة أم خبيثة

وكذلك الحال فى الزواج فلو اقتصر الأمر فيه على ما بين الرجل والمرأة لهان الخطب ولكن هناك الروابط العائلية وعلاقات القرابة تقرر سعادة الزواج أو شقاءه وراحة العروسين أو تعاستهما

أخذت عروسى الفتانة بعد زواجنا تحدثنى أياماً متوالية وليالى طوالاً بأتفه الأحاديث وأخبثها عن أفراد أسرتها وتنازعهم وغيرتهم وبغضهم وعن كل مايشعرون به نحوها من شر وما يريدونه لها من أذى حتى ظننت أنى إنما دخلت وكر ثعابين وعش عقارب

ولقد فضلت زوجتى أن تستعمل نهاية الاحتياط فى إخبار أخويها بزواجنا وقالت : إن الزواج وإن كان شرعيًّا إلا أن دوامه متوقف على إرادتهما إذ هما من أغنياء التجار ولهما نفوذ كبير فى المدينة فيجب ألا تدخر جهداً فى مرضاتهما

وكانت عروسى قد رأت أن تخطو خطوة فى سبيل غرضها فى حذر وانتباه، فأعلنت أن فى عزمها أن تتزوج من أكبر تجار بغداد غنى وجاهاً ، ولكنها لم تقل إن الزواج قد تم

وكان إشهار زواجنا يستدعى أن نولم وليمة ندعو إليها كل أفراد أسرتها ، ونبذل عن سعة لتكون الوليمة أفخر الولائم ، ولكى يقتنع أهلها بأنها لم تلق بنفسها بين أحضان حقير أو محتال

وقد وجدت منى ملبياً لرغباتها مطيعاً لأوامرها وسرت بسنوح فرصة سريعة يذيع فيها أمر ثروتى وبدأت فى استحضار سرب من الخدم كل منهم له عمل خاص ولقب يناسبه . واستبدلت بقصبات التدخين التى أحضرها الأمير المرحوم قصبات أخرى أحسن منها وأغلى ثمناً وأحدث طرازاً . وكذلك أحضرت طقماً جديداً للقهوة بديع الصنع غالى الثمن بعض قطعه موشى بالذهب والبعض الآخر مطعم بالعاج وفيه طبق أو اثنان طعما بالأحجار الكريمة لاستعمالى خاصة

ثم اخترت من أحذية الأمير ما راق فى نظرى وكان الأمير مغرماً بانتقاء فاخر الملابس وغاليها من عباءات وقفاطين وفراء تصلح للملوك ، وقد أخبرتنى زوجتى أن تلك الملابس من آثار عائلة الأمير ومخلفاتها الثمينة فلم أحجم عن اتخاذها لنفسى ووجدت قبل أن يحين يوم الوليمة من الوقت ما يكفى لإعداد ما يليق بأغا من أعظم الأغوات . وإنى أعتقد رغم كونى

ابن حلاق أن ليس لأحد من الشكل والأخلاق وحسن التصرف ما يؤهله لإتقان دورى هذا الجديد خيراً منى، ويجب أن أذكر أننى قبل ذلك الاحتفال العظيم لم أنس أن أزور أفراد عائلتى الجديدة كما يقضى الواجب . .

كنت أحسب لتلك الزيارة ألف حساب متخوفاً من نتيجة مقابلتى أفراد الأسرة ولكننى حين سرت فى شوارع المدينة راكباً جواداً من جياد المرحوم يحيط بى جمع غفير من الخدم والحشم ذهب عنى الخوف وشعرت بالطمأنينة والانشراح . وإن من ينظر إلى الجموع السائرة وهى تفسح لى الطريق وتتطلع إلىّ ثم تضع أيديها على صدورها عند مرورى ، وإن من يرى جوادى وهو يضرب الأرض بحوافره ويتبختر فى مشيته نخوراً بمن يحمل على ظهره، وإن من يتنعم بما كنت أنعم به من جلسة على ظهر جواد كريم بينما يمشى الآخرون على أقدامهم — كل من يرى ويشعر بما كنت فيه ولا يأخذه الذهول ويملكه العجب فليس آدمياً

ويجب أن أضيف هنا أننى حين خرجت فى شكلى المتقدم وقعت عيناى على بعض مواطنىّ وأبناء بلدتى « الأعزاء » ممن رافقونى فى القافلة من بغداد وكانوا فى أسمال بالية وحال زرية وكأنما كان ظهورهم أمامى فى شوارع المدينة باعثاً على ذكر ما أنعم الله علىّ وشكر ما أعطانى

ولم أعرف إن كانوا قد تبينوا حقيقتى أم جهلوا أمرى فإننى أدرت وجهى وسرت مجتهداً أن أخفى ملامحى فى ظل عمامتى الكبيرة ولحيتى الطويلة

وكانت نتيجة زياراتى فوق ما كنت أتصور ، ولست أعرف ماذا كان شعور أصهارى غير أن أخوى زوجتى عاملانى بلطف ورقة ورحبا بى قائلين : إننى زدت أسرتهما شرفاً وفخاراً باقترانى من شقيقتهما ولاشتغالهما بالتجارة تحول مجرى الحديث إلى الشئون التجارية فاجتهدت أن أدخل فى روعهما أننى تاجر عظيم ، وأن تجارتى منتشرة فى أنحاء المعمورة . فتدفقت فى الحديث تدفق الماء على أنهما أخذا يسألان عن تجارة بغداد ، وعن المتاجر فى جزيرة العرب ، والهند ، والصين ، وأخذا يطلبان إيضاحاً دقيقاً عن الحاصلات ، وأحوال السوق فأسرعت إلى اقتضاب الحديث ، وتحويل وجهته إلى المعلومات العامة . وأجبت إجابات لا تفيد شيئاً وحين انتهيت شعرت بأنه لا يزال ينقصنى شىء ، وهو أن يرى عثمان أغا ما أنا فيه من سعادة ، وأن أخبره بأمر زواجى ، وأدعوه إلى الوليمة .

ولكن هل أنا سعيد حقاً ؟ هل أنا صاحب هذه الثروة الطائلة ؟ إننى أشعر بأنى أمثل دوراً لا حقيقة له . وهنا خفت أن يفتضح أمرى وتظهر حقيقتى ولم أجرؤ على الثقة حتى ولا بعثمان أغا لثرثرته ولعلمه بحقيقة حالى

وصممت على ألاّ تكون لى به ولا بأى إنسان من مواطنىّ علاقة ما ولو إلى أجل موقت إلى أن أشعر بأنى فى أمان وأنى قد ثبتت أقدامى فى مركزى الجديد فلا أخاف الافتضاح

الفصل السبعون

نزاع الزوجين

انقضت الوليمة على أحسن حال وأحسب أننى نجحت فى إقناع الضيوف بأنى نفس الرجل الذى زعمت أننى هو وأن شخصيتى حقيقية لا ريب

فى صدقها ، ومن ثم بدأت أطمئن على نفسى وأخذ شبح الخوف يغيب عن عينىّ فانصرفت إلى الملذات والتعرف على أصحاب اللهو وإخوان السرور وأن ألبس أفخم الثياب ، وكان منزلى موضوع الأحاديث ومطمح الأنظار فى المدينة ، ولست أستطيع أن أنكر أننى كنت أزداد كل يوم شعوراً بأنى مدين بكل ما أملك لزوجتى وآلمنى ذلك الشعور ونغص علىّ عيشتى ، وقد أدركت أن ستقوم بيننا منازعات عديدة على موضوعات أخرى غير فطائر الزبد وفطائر الجبن حتى لقد قلت فى نفسى : « ما كان أحسن حظ الأمير الشيخ ! لقد استطاع أن يعيش مع هذه الزوجة ثم لم يختلف معها إلا على أمر واحد مع أننا نختلف على كل أمر حتى لست أجد ما لسنا نختلف عليه »

وكنت قد عللت نفسى بأمنية غريبة وهى أن أظهر أمام مواطنىّ فى الخان الذى يقيمون فيه بشكلى وأبهتى . وأن أمتع نفسى بما يظهر على عثمان أغا عند رؤيتى من الذهول والارتباك ؛ فلما رأيت أن لا خطر علىّ وأننى أصبحت آمناً مطمئناً لم أردأن أقاوم تلك الرغبة فلبست أحسن ثيابى وامتطيت خير جيادى وسار حولى كل خدمى وأتباعى وسرت فى ذلك الموكب فى أكثر ساعات النهار حركة إلى الخان الذى كنت قد أقمت فيه باسم تاجر غلايين أول مجيئى إلى الآستانة

لم يعرفنى حينما تخطيت باب الخان أحد بل اجتهد الكل فى خدمتى واحترامى ظانين أنهم سيجدون منى شارياً لكل ما لديهم من البضائع ، وجاء خدمى ببساط ثمين من أنفس الأبسطة وأغلاها وفرشوه لأجلس عليه . وناولونى كذلك شبكاً غالى الثمن أدخن فيه فجلست وسألت عن عثمان أغا فجاء الرجل وجلس على طرف بساطى بكل خشوع واحترام دون أن يعرفنى أو يخال . وأخذت أكلمه فى غير اهتمام مدة ما . وقد لاحظت أنه كان ينظر إلى نظرة المتشكك ثم صاح : « بحق النبى الكريم ألست حاجى بابا ؟ »

قال ذلك بعد أن عجز عن ضبط نفسه وإخفاء ما كان يدور بخلده

وضحكت كثيراً من منظر الرجل ومن قوله ثم تعارفنا وقصصت عليه مجمل أمرى وكيف تحولت الخمسون قطعة ذهبية التى اقترضتها منه إلى تلك الثروة التى يرى علاماتها بعينيه

ولاحظت أن عثمان أغا لم يتأثر من انتقالى الفجائى إلى ما كنت فيه من نعمة وثراء ولم يحركه منظرى وقصتى كثيراً إذ كان له عقل فيلسوف قليل الاهتمام . غير أنى لاحظت أن مواطنى حينما علموا أن لابس تلك العمامة الكبيرة والثياب الغالية وراكب ذلك الجواد وصاحب هؤلاء الخدم إنما هو حاجى بابا الذى كان بائع سلع مثلهم لم يستطيعوا كظم غيظهم ولا إخفاء حسدهم فأدركت ولكن أخيراً جداً أننى أخطأت خطأ جسيماً فى ظهورى بذلك المظهر أمام أبناء بلدتى وأردت أن أنسحب فى سكون من غير جلبة أو ضوضاء وإذا بأحدهم يقول :

« ماشاء الله ! أهذا حاجى بابا ابن الحلاق الأصفهانى ! دنس الله قبر أبيه وفضح أمه ! »

وقال آخر :

« أجدت وأحسنت يا ابن الأعجام ! لقد هزئت من ذقون الأتراك فليبعث الله إليك من يهزأ بك ، ويسخر منك »

وقال ثالث :

« أنظروا إلى عمامته الكبيرة ، وسراويله الطويلة ، وغليونه الثمين . والله إن أباه لم ير مثل هذه الأشياء حتى ولا فى أحلامه » .

وظل آل بلدتى يوجهون إلىّ الكثير من هذا التقريظ إلى أن استجمعت كل ما أملك من عظمة ووقار بعد الذى كان ، وقمت من مجلسى فامتطيت جوادى ، وتركتهم يشيعوننى بالنكات المريرة والضحكات المزرية والسخر والاحتكار .

حنقت أول الأمر عليهم ثم حنقت على نفسى بعد ذلك حنقاً شديداً . وقلت : « لقد جوزيت ياحاجى بابا جزاءً عادلاً ! وحق رأس أبيك كربلائى حسن الحلاق لقد كوفئت على رعونتك ، وغبائك ! هل يجرؤ يوماً كلب أن يمشى بين ذئاب مفترسة ؟ هل قدر غبى من أغبياء المدن أن يسير بين وحوش العرب بدون أن يسرقوه أو ينهبوه .

قد يصير حاجى بابا عاقلاً حازماً فى يوم من الأيام ولكن يجب أن يذوق مرّ العذاب ويتجرع كؤوس الألم قبل أن يصل إلى تلك الغاية

ثم قبضت على لحيتى بيدى وتأوهت قائلاً : « ماذا أفادتنى هذه اللحية وماذا أكسبتنى شعراتها الطويلة ! لقد أصاب من قال : إن المرء لا يسره أبداً أن يرى ابن وطنه فى ارتفاع وارتقاء اللهم إلا إذا كان مرتفعاً إلى المشنقة ! »

وبقيت أحدّث نفسى بأمثال هذه الخيالات إلى أن وصلت إلى منزلى وهناك دخلت إلى محل الحرم محاولاً أن أجد الراحة من عناء اليوم ومتاعبه غير أنى لم أصب ما أردت فإن زوجتى زادت فى كربى وبلائى كأنما كانت تدفعها الشياطين وتحرضها أبالسة الجحيم إلى مضايقتى

طلبت إلىّ أن أقدم لها حالاً كل المبلغ الذى ذكرته فى وثيقة زواجى . وظلت تلح فى طلبها وترديده بحالة لم أتحملها مع ما كنت فيه من غيظ وضيق صدر بسبب ما حدث بينى وبين أبناء بلدى

ولم أشعر إلا وقد انفجرت انفجاراً شديداً وجعلت أهذى هذياناً مريعاً مصحوباً بالإشارات العنيفة وأمطرت أبناء بلدى وزوجتى وابلاً من اللعنات والشتائم القبيحة والسباب البذئ حتى غدوت أنا الذى كنت وديعاً لطيفاً أكثر شراسة من الوحوش الضوارى

ذهلت زوجتى مما أبديته وتفوهت به وتراجعت قليلاً إلى أن وقفت ومن ورائها خدمها وعبيدها وأتباعها تتقدمهم عائشة منتظرة فرصة تستطيع فيها الكلام

وأخيراً تكلمت وتكلمت حتى بدا ثغرها أصغر من أن يسع كل ماتفوهت به من ألفاظ وما خرج من فمها من كلام

ولم يمنع عائشة ومن معها من الخدم والأتباع ما كانت تقوله سيدتهم من الكلام فتكلمن حتى كأنما هبت فى الحجرة عاصفة من ألفاظ عنيفة وشتائم متوالية كلها موجهة إلىّ

كنت أرغب فى المقاومة غير أنى لم أستطع فقد كانت الحجرة كأنها ساحة ضجيج وسوق شتائم وصراخ وضاقت الحجرة عن أن تسعنا جميعاً . وكنت أول من فكر فى التقهقر والهرب فانسحبت من مسكن الحرم بين اللعنات والسباب والضجيج والتدافع والتلاطم وعلى رأس الجميع زوجتى العزيزة فكانت هذه المخلوقات اللطيفة أشبه بالشياطين منها بالحور التى وعد الله بها عباده المتقين فى الفردوس المنشود .

أويت إلى حجرتى منهوك القوى مضعضع العزم خائر النفس مما حدث فى يومى من أرزاء وخطوب وأوصدت باب حجرتى وجلست فيها وأنا أشعر بأنى أتعس مخلوق دب على الأرض رغم ما يحيط بى من عز وأبهة ورغم أنى صاحب كل هذه الرياش والنفائس وجعلت أندب سوء حظى متوقعاً ما يجىء به الغد . وشعرت بما يشعر به المسجون من الظنون والريب وكان من الواضح أنى لو حاولت أن أخفف من بلواى باختلاق أكاذيب جديدة فإن آخرتى ستكون شر آخرة ومصيرى أقبح مصير

ثم قلت لنفسى فى ألم وحيرة : « رحم الله أياماً كنت فيها حرا طليقاً فلو كنت لم أرتبط بعقود وأختام لتركت زوجتى تفعل ما تستطيع دون أن أحفل بما تفعل ، ولكننى الآن تقيدت بكتابات رسمية عليها توقيعى وسأظل أمام العالم كذوباً محتالاً

الفصل الحادى والسبعون

حاجى بابا يستكشف أمر احتياله ويفقد زوجته

بت ليلتى قلقاً مسهداً لازمنى فيها الأرق فلم تذق عيناى الكرى حتى سمعت المؤذنين يعلنون انقضاء الليل وبزوغ الفجر ويدعون الناس إلى الصلاة . وكان استيقاظى إذ ذاك قبل أن تمر ساعة واحدة على اغماض عينى ، على صوت ضجة غير عادية فى رحبات المنزل . وأخبرنى أحد خدمى أن أخا زوجتى قد حضر إلى المنزل يصحبه قوم آخرون . فأصابتنى رعشة شديدة أفقدتنى كل ما كان لدى من عزيمة وقدرة . وقام فى ذهنى خمسون خاطراً كل منها يزيد على الآخر أهمية وخطورة ، وبدأت أشعر بأصابع قدمى قد أصابها خدر شديد فلم تقو السنون التى مضت على إضاعته ، وذكرت فى تلك اللحظة الدرس الذى تعلمته فى مشهد

ثم فكرت فى حالتى قائلاً : « ولكن أليست شكرليب زوجتى رغم كل ما حدث ؟ إنها زوجتى شرعاً مهما يكن ما حدث أو ما سوف يحدث ، ولئن كنت قد بالغت قليلاً فى مقدار ثروتى فإننى لم أفعل لذلك غير الذى يفعله كل أبناء آدم »

ثم التفت إلى خادمى وقلت له : « بحق النبى دع القوم يأتون إلى هنا وأحضر لنا القهوة والغلايين »

رفع الخدم فراشى ونظفوا حجرتى ودخل الزوار واحداً بعد الآخر فى صف طويل وجلسوا على إيوانى وهم أخو زوجتى وأخو زوجها الأول وابنه ورجل آخر متجهم الطلعة شرس المنظر لم أكن قد رأيته من قبل

جلس هؤلاء ورأيت غيرهم سرباً من الخدم والأتباع وقوفاً فى آخر الحجرة وبينهم رجلان بشعا الشكل قد تسلحا بالعصى الغليظة ووقفا أمام الخدم ينظران إلىَّ نظرات تنطوى على الشر ولا تدل على صفاء ولا خير. اجتهدت أن أكون ساكناً رزيناً وألاَّ أظهر بمظهر الخائف ما استطعت وتظاهرت بالبشر والارتياح لتلك الزيارة ورحبت بالزوار فلم يكن جوابهم على ما أبديت غير تمتمة لم أفقه لها معنى

أمرت بإحضار القهوة والغلايين ورجوت أن أعلم السبب فى تشريفى فقلت لشقيق زوجتى الأكبر : « أسعد الله صباحك يا عزيزى . هل أستطيع أن أؤدى لك أية خدمة فى هذا الوقت المبكر من النهار ؟ ليس عليك إلا أن تأمر فتطاع »

فقال بعد أن لزم الصمت برهة : « حاجى بابا ! أنظر إلىَّ ! هل تظننا حيوانات لا تفقه ولا تنفع ؟ هل تعد نفسك رجل اليوم فلا قرين لك ولا نظير فتضحك من ذقوننا وتعبث بكرامتنا ما شئت وشاء لك عقلك ؟ »

فأجبته بقولي : « ما هذا الذى تقوله يا سيدى الأغا ؟ إننى لا أدعى أى دعوى ولست إلا رجلاً وضيعاً لا يزن قبضة من التراب »

فقال أخوه الثانى فى حماس وحدة : « أيها الرجل كيف تزعم أنك لا تدعى الدعاوى العراض ؟ ما الذى صنعته بنا إذن ؟ هل حسبتنا أغناماً حتى نتحمل مشقة المجئ من بغداد إلى هنا لكى تسخر منا ؟ »

فصحت متألماً : « يا الله ! يا الله ! ما هذا ياسادتى ؟ لماذا تتحدثون بهذه اللهجة المرة ؟ ماذا صنعت حتى أستحق منكم كل هذا ؟ تكلموا بحق السماء وأصدقونى ! »

فقال عم زوجتى وهو يهز رأسه ولحيته البيضاء :

« ما أخبثك يا حاجى بابا ! ما ألأم طبعك ! لقد صاغك الله يوم صاغك من خبث ورياء فظننت أن خبثك يجوز علينا ورياءك ينطلى على عقولنا . كلا كلا ! إن ذلك لن يكون »

فقلت له : « ولكن بحقك يا عماه ماذا جنيت ؟ تكلم ! »

فقال ابن عم زوجتى : « ماذا جنيت ! ؟ أتقول ماذا جنيت ؟ إنك قد كذبت وسرقت وتزوجت امرأة بعد أن خدعتها . ألا يرضيك كل هذا ؟ أنك لا تستحى ولا ماء فى وجهك . هل تظن أنك لم تأت أمراً ؟ »

وهنا قال صهرى الأكبر : « ربما ظننت أنك أكسبتنا شرفاً عظيماً وأن ابن حلاق أصفهانى قد تواضع فرضى بالزواج من ابنة أسرة من أغنى أسر الآستانة ! »

وقال آخر : « ربما خطر ببالك أو صور لك الوهم أن بائع قصبات التدخين تاجر عظيم يستحق أن يعقد له على شقيقتى »

وقال عمهما ساخراً : « نحمد الله ونشكر فضله ! إن حاجى بابا تاجر لا نظير له فإن حرائره ودبياجه فى الطريق إلى بخارى لتستبدل بها جلود ، وإن شيلانه فى طريقها إلينا من كشمير وإن سفنه قد حجبت سطح البحار ما بين الصين وبوشهر ! »

وقال ابنه متمماً : « ونسبه وأصله ! هل قلت إنك ابن حلاق ؟ حاشا لله ! اللهم رحمتك وغفرانك فإن نسبه ينتهى إلى قريش وليس هو من قريش فقط بل هو شريف من العترة النبوية . من ذا الذى يوازى أسرة المنصورى ! ؟ »

وكنت قد لاحظت أن العاصفة على وشك الهبوب فجعلت أكرر : « ولكن لماذا كل هذا ؟ إن كنتم تريدون قتلى فافعلوا يا قوم ولا تنتزعوا جلدى قيراطاً قيراطاً بقارص كلامكم »

فقال الرجل المتجهم الوجه العبوس الطلعة بعد أن ظل صامتاً أثناء كل هذه الأحاديث : « أنا أتولى إخبارك عما ترى وتسمع أيها الكافر المنافق . إنك خسيس نذل لا تستحق أن تعيش فإن لم تترك ادعاءك ومظاهرك الكاذبة وتترك زوجتك وهذا المنزل وكل ما يحتويه بغير إبطاء فأنت ترى هذين الرجلين (وأشار إلى المتشردين الواقفين أمام الخدم بالعصى الغليظة) وهما ينزعان روحك من جسدك النجس كما تنزع بقايا التبغ من الغليون . لقد أخبرتك بما سيكون وتركت لك الخيار فاختر لنفسك ما يحلو »

وكأنما أثرت ألفاظه فى جميع الموجودين فأطلقوا لأنفسهم العنان وصبوا علىّ اللعنات والشتائم دون مبالاة ولا احترام . وظللت صامتاً فى تلك العاصفة الثائرة لم أنبس ببنت شفة ووجدت من صمتى فرصة للتفكير .

رأيت أن أتبين ماذا تكون نتيجة المقاومة فقلت لصاحب الوجه العبوس : « ولكن من أنت حتى

تجرؤ على دخول بيتى ومعاملتى كما يعامل الكلب الأجرب ؟ إن هؤلاء أصهارى ، وهم فى منزلهم ، وأهلاً بهم ومرحباً ، ولكن أنت ماذا تكون قرابتك من زوجتى ؟ لست بأبيها ، ولا بأخيها ، ولا عمها فماذا تصنع هنا ؟ إنى لم أتزوج ابنتك أو أختك فماذا يهمك ؟ » .

وكان أثناء حديثى يحتدم غيظاً وغضباً ، ونظر إلىّ كما ينظر الأسد إلى فريسة يهم بالهجوم عليها . وقال وصوته يتمثل فيه الغضب والحنق : « إن أردت أن تعلم من أنا فسل الذين أتوا بى إلى هنا . إننى ورجالى نعمل بأمر الحكومة وسلطة القانون ، فإن قاومت كان الأمر وبالاً عليك وخسراناً » .

فأدركت أن الرجل وأتباعه من رجال الشرطة فقلت وقد خفضت من لهجتى وألنت من ألفاظى : « ولكنك إن أردت أن تفرق بينى وبين زوجتى التى تزوجت بها على كتاب الله وسنة رسوله فاترك لى فرصة أستشير فيها رجال الشرع إذ كل مسلم تحميه نصوص القرآن الشريف وأظنك لا تأبى علىّ استعمال هذا الحق . وفوق ذلك فإن زوجتى لم تبد رغبتها حتى الآن فى الانفصال أو قبول ما تعرضه علىّ أنت ... إنها هى التى بحثت عنى ولم أكن الباحث عنها ورضيت بى بعلاً وأحبتنى دون أن تفكر فى أى أمر مادى مما تشيرون إليه . وحين قبلت أن أقترن بها لم أكن أعلم من أمرها شيئاً ولم أكن أعلق أية أهمية على غناها أو مركز أسرتها . لقد كانت إرادة الله السابقة هى التى جمعتنا وأنتم مسلمون فهل تعارضون تلك الإرادة ؟ » .

فقال أكبر أصهارى سناً : « لا تجهد نفسك فى الكلام عن إرادة شكر ليب ورغبتها فإنها تتمنى الانفصال أكثر مما نتمناه نحن »

وسمعت فى هذه اللحظة جملة أصوات تصيح :

« نعم نعم بحق النبى ! أتركوه يذهب إلى سبيله . بالله عليكم أريحونا من طلعته »

صدرت هذه الكلمات وآلاف من قبيلها عن ناحية الباب فنظرت إلى جهة الصوت من مسكن الحرم فرأيت عند بابه زوجتى على رأس جماعة من النساء كأنما أحضرت لتشهد ضدى ولتبدى رغبتها فى الانفصال عنى

وأخذ النسوة يصرخن ويلعننى ناقمات نادبات كأنما لبستهن روح عفريت وكأننى كنت رجساً من عمل الشيطان ويجب تنظيف المنزل منه

وجدت نفسى وحيداً غريباً فى بلدة لا مساعد لى فيها ولا معين ، ورأيت أن لا حيلة لى أمام قوة عظيمة لا أستطيع الوقوف أمامها فتجلدت قليلاً وقمت من موضعى وأنا أقول :

« إن كانت هذه هى رغبتكم فليكن ما تريدون إنى غير راغب فى شكرليب ولا فى مالها ولا فى أخويها ولا فى عمها ولا فى أى شىء مما يملكون ما داموا جميعاً لا يرغبون فىّ ، غير أننى أقول اليوم إنهم عاملونى معاملة لا يعاملها مسلم لأخيه ، ولو أننى كنت كلباً بين جماعة من الكفار لعوملت بأحسن مما أعامل به الآن . وفى يقينى واعتقادى أن العذاب الذى سيناله من أساءوا إلى النبى سيناله يوم القيامة من أساءوا إلى واضطهدونى »

ووقفت فى وسط الحجرة بين الموجودين وقد تشجعت وتحمست بسبب ما ألقيته عليهم من الكلمات وخلعت جميع ما كان علىّ من الملابس التى اشتريتها أو أخذتها من مال زوجتى ورميت بذلك على الأرض فى احتقار وعزة نفس كأنما هى وباء يخشى منه ثم طلبت جبة قديمة كانت لى ووضعتها على كتفى وانطلقت إلى الخارج وأنا ألعن كل من تركت

(يتبع) عبد اللطيف النشار





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

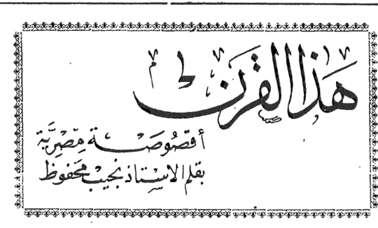
بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٥ ١١ ربيع أول سنة ١٣٥٨ — أول مايو سنة ١٩٣٩ السنة الثالثة



فهرس العـــدد



انتصف الليل ؛ وخيم السكون ، وشمل الصمت الدور والطرقات ، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة كأنها تؤنس وحشة الأشجار المغروسة فى الأفاريز

وقد مزق السكون الآمن بوق سيارة أتت مسرعة من مبتدأ شارع العباس ، ثم وقفت أمام الباب الحديدى المغلق لفيلا آية فى الأناقة والجمال ، ونفخ السائق فى البوق مرات ، فخرج البواب من كوخه الخشبى وفتح الباب ، واندفعت السيارة إلى داخل الحديقة التى لا يبدو منها إلا أشباح الأشجار ودارت دورة غير كاملة ، وصعدت منحدراً ثم وقفت أمام الباب الداخلى للقصر ، ونزل السائق مسرعاً وضغط على مفتاح كهربائى على كثب من الباب فأضاء مصباح وأرسل نوراً أزرق هادئاً ، ثم فتح باب السيارة ووقف كالتمثال ...

وانتظر لحظات وثوانى ودقائق ، ثم أخذه العجب فأرسل ناظريه إلى داخل السيارة ، فرأى الباشا وزوجه مستغرقين فى نوم ثقيل ، وكانت السيدة ملقية برأسها إلى الركن ، وجسمها الضخم الهائل ممدداً ، يبدو فى الفستان اللامع الملتصق به ، كفرس البحر ، وكان الباشا مسنداً رأسه إلى كتفها يحسبه من رآه لضآلة جسمه ونحافته وقصر قامته — غلاماً صغيراً . لولا شاربه الغليظ الطويل الذى يرسم مع جسمه الدقيق صورة صليب متساوى الأطراف على وجه التقريب ...

ولم ير السائق بداً من إيقاظ سيده فقال بصوت خافت :

— سعادة الباشا ... سعادة الباشا ...

فلم يبعث نداؤه فيهما أى أثر للحياة ، فرفع الرجل صوته قائلاً :

— سعادة الباشا ...

واستطاع نداؤه فى هذه المرة أن يوقظه فتحرك رأسه ، واضطرب شاربه كأنه جناحا نسر يخفقان ، وقال بلسان ثقيل متلعثم :

— من ... ؟

— وصلنا يا صاحب السعادة ...

— وماذا تريد ؟

— عفواً يا صاحب السعادة ... تفضل بالنزول لتصعد إلى مخدعك

ففتح الباشا عينيه المحمرتين وكأن النور اللطيف الذى ينير المكان آذاهما ، فأغمضهما بسرعة وتحسس بيده ذراع زوجه العارى كأنه قربة مملوءة بالمياه وقال بصوته الثقيل :

— يا هانم ... زينب هانم ...

فشهقت المرأة شهقة قوية لو أصاب تيارها الباشا لابتلعته ، وقالت بتبرم وسخط :

— من ... ؟

— وصلنا ...

— وماذا تريد يا باشا ؟

— تفضلى لنصعد إلى مخدعنا

— أصعد ؟ ! ... أنا لا أستطيع أن أتحرك فكيف لي بالصعود !

— ما العمل ... هل نقضى الليل فى السيارة ؟

— ولم لا ؟ ... المقعد وثير لين كالفراش ، وهذه ضجعة مريحة فما معنى التعب ؟

فقال الباشا للسائق وهو مايزال مغمض الجفنين:

— يا حسن ... إذهب أنت .. سننام ها هنا

فارتبك السائق وقال بتحرج :

— العفو ياصاحب السعادة ... هذا غيرطبيعى . وسيرى البواب فى الصباح ويرى الخدم ...

فانثنى الباشا إلى زوجه قائلاً :

— يا هانم هذا غير طبيعى وسيرى البواب فى الصباح ويرى الخدم !

— من الذى يكلمك ؟

— السائق

— أف ... لاتضايقنى... ماذايهمنا من البواب أو الخدم أو السائق ؟

فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة :

— أف ... لاتضايقنى... ماذايهمنا من البواب أو الخدم أو السائق ؟

فسكت الرجل ولكن لم تطاوعه نفسه على الذهاب فوقف ينتظر ، أما الباشا فأخرج منديله وجفف عرقه ، وقال وهو يفك ربطة عنقه :

— الدنيا شديدة الحرارة ...

فاعتدلت المرأةفى جلستها ، ولم تلبثأن صاحت :

— يا لطيف !

— مالك ... ؟

— المقعد يميد بى كأنى فى أرجوحة !

وأرادت أن تمسك بشيء ، فوقعت يدها المتخبطة على شارب الباشا ، فتألم الرجل ونزع شاربه من كفها وهو يقول ضاحكا :

— دعى شاربي . . . هل تحسبينه حبل الأرجوحة ؟

— أنا فى غاية التعب

— شربت كثيراً يا زينب هانم . . . شربت أكثر مما ينبغى لك !

— وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك ؟ الكل كان يشرب رجالاً ونساء . . . أنت نفسك شربت كثيراً يا باشا

— أنا متعود على الشراب يا هانم . . . أنا أستطيع أن أشرب حانة كاملة فى ليلة واحدة !

— ومع هذا لم تمالك أعصابك الليلة . . . وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك ، بل وضحكت منى أنا يا ناقص !

— كيف ذلك ؟ ... هذا مستحيل

— مستحيل ! . . . ألا تذكر ساعة خروجنا من البوفيه ؟ . . . كنت تسير ورائى فنظرت إلينا عديلة هانم تلك المرأة الوقحة وقالت : « كان الله فى عون إبراهيم باشا فهو زوج ومروّض » وضحك جميع المدعوين وضحكت أنت أيضاً !

— أنا لا أذكر هذا !

— طبعاً لأنك لم تكن فى وعيك ، ومع ذلك فأنت تزعم أنك تستطيع أن تشرب حانة فى ليلة واحدة . . . أليس كذلك ؟ ولكنى انتقمت منك

فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذلك مباشرة

— وكيف كان ذلك ؟

— كان جماعة من الحاضرين يتعجبون لنحافة قدك فاعتذر الأميرالاي فتحي بك عن صغر حجمك بقوله « إن شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النمو » فضحكت مع الضاحكات والضاحكين . . . وواحدة بواحدة

— ياله من ضابط وقح !

— أنت المسئول عن جعلنا أضحوكة فى كل مكان . . . لماذا لا تقص شاربك ؟

— أقص شاربى ؟ ... هل جننت يا هانم ؟ !

— وما وجه الجنون فى هذا ؟ . . . إنه حمل ثقيل على جسمك الرقيق

— لا يكون الرجل رجلاً بجسمه !

— أيكون رجلاً بشاربه ؟

— معلوم ! أنظرى إلى مثلك ، فانت امرأة ولك جسم فيل .. ولكن هل توجد امرأة بشارب ؟

— الحق أقول لك إنى هممت مرة بقص شاربك فى أثناء نومك ... لولا الخوف

— وما الذى أخافك ؟

— أشفقت من أن يصبح زواجنا لاغياً

— وله ؟ هل أنت زوجى أنا أم زوج شاربى ؟

— الحقيقة أنك بغير هذا الشارب تغدو غلاماً لما يبلغ السن القانونية للزواج !

— هذا هذر سكارى والأولى بك أن تنحف جسمك الهائل ، فضخامته الشاذة هى المدعاة الحقيقية إلى السخرية ... ألم ترى صديقاتك الليلة ؟.. كلهن نحيفات اللهم إلا راضية هانم وهى على كل حال لا تزن نصف وزنك ...

— أنت المسئول عن وزنى

— أنا !

— نعم ... لأنك كنت دائماً تؤكد لى أنك تحب اللحم العجالى والبقرى ... وأنك تحتقر الوزن (الهايف) ! . . . وها أنت ذا تتملص من تبعاتك كما كنت تفعل وأنت وزير !

— ما شاء الله !.. هذا قول أعدائى السياسيين ، وأرى أنى أجحد فى بيتى كما جحدت من قبل فى ميدان السياسة اللعون وأنى خسرت الدنيا جميعاً

— بل ربحت شيئاً مؤكداً ...

— وما هو ؟

— أنك صاحب مقام رفيع !

— يا هانم أنت فى سكرك كالحشاشين ، والحق أنك تستأهلين رتبة ولكنى لا أدرى أى رتبة تناسبك . . . فلأفكر قليلاً . . . ما رأيك فى لقب الصدر الأعظم ؟ !

... وهنا قطع حديث الزوجين طرق عنيف على باب القصر الخارجى ، وشق الصمت المخيم صوت منكر يصيح :

— يا بواب ... يا عم محمد ...

فسكت الزوجان دهشة واعتدلا قليلاً فى جلستهما وأرهفا السمع ، وخف السائق مسرعاً إلى الباب ليرى ما هنالك ...

***

كان الشرطى المكلف بالحراسة الليلية يسير

الهوينى فى شارع العباس ، ولما بلغ قصر الباشا سار بحذائه وعرج ملازماً للسور إلى شارع الإلهامى وانتبه من سهوة إلى حركة فى أعلى السور فنظر إلى مصدرها فرأى رجلاً يقفز من الحائط ويسقط على بعد ذراع منه ، وقد تولاه الذعر لظهور الشرطى المفاجئ فتسمرت قدماه بالأرض .. وأسرع الحارس إليه وقبض على ذراعه بقسوة وهو يصيح به :

— يا ابن الملعون ! أتحسب البلد بلا حكومة ؟

وكان المقبوض عليه أفندياً ، أنيق الملبس ، كشف نور المصباح الخافت فى وجهه عن ملامح وديعة ونظرة أدنى إلى الرقة والجبن منها إلى الشر أو التحدى ، ففحصه الشرطى بنظرة شديدة وهو يتحسس جيوبه وقال له متهكماً :

— إخالك لم تسرق سوى هذه البذلة !

فقال الشاب وهو يلهث من الإضطراب والخوف :

— أتركنى يا حضرة الشاويش أنا لست لصاً كما تتوهم

— عفارم عليك ... فمن تكون يا مولانا ؟

— أقسم بالله العظيم أنى لست لصاً ... ولم أسرق فى حياتى قط وهاك جيوبى فتشها كما تشاء

— آه ... هل كنت فى القصر زائراً إذاً ؟

— أنا ... أنا من أهل القصر

— فهمت يا سيدى فهمت ... أنت ابن الباشا بلا شك وما قفزك من السور إلا رياضة بدنية كنت تقوم بها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل !

— بل أردت أن أخرج بسرعة

— وما الذى يدعوك إلى الخروج بعد منتصف الليل ؟

— سفر لا يقبل التأجيل

أو ليس للقصر باب ؟

— لم أجد وقتاً لإيقاظ البواب

— يا مغيث ... هذا حقاً عصر السرعة ... وليس ببعيد أن أرى غداً من يقفز من نافذة الطابق الثالث أو الرابع لأنه ليس لديه متسع من الوقت يهبط فيه السلم ... عوفيت يا سيدى عوفيت ...

— أراك لا تصدقنى يا حضرة الشاويش ... أؤكد لك أنى من أهل القصر ... غير أنى استسهلت أن أقفز على هذا السور القصير

— معلوم ... معلوم ... ليس الذنب ذنبك .. ولكنه ذنب من يحتم تعليم الألعاب الرياضية والتدريب العسكرى ... على أنى أجد نفسى مضطراً إلى تأخيرك يوماً أو عدة أيام وربما عدة أشهر

قال ذلك ودفعه أمامه .. ولكن الشاب ألصق قدميه بالأرض وقال بتوسل :

— لست لصاً ... لست لصاً والله ... أنا من أهل القصر

— إذا كان ما تقوله حقاً فما عليك إلا أن تدخل القصر ثانية فأصدقك

— حسن ... أتركْ ذراعى وسترى ...

— أدخل البيت من بابه ... تعال

وساقه إلى باب القصر وطرقه ، وهو ينادى البواب ...

وأتى السائق على صوته مسرعاً وأيقظ البواب فقام الرجل ساخطاً وفتح الباب ، وأحدث ظهور الشرطى والشاب المقبوض عليه دهشتهما ، ونظرا

إليهما متسائلين ، فقال الشرطى :

— قبضت على هذا الشاب وهو يقفز من سور القصر ، فادعى أنه من أهل الدار فهل تعرفانه ؟

فأضاء البواب المصباح الكهربائى ، ونظر السائق إلى وجه الشاب الشاحب وقال مسرعاً :

— هذه هى المرة الأولى التى تقع عليه عيناى ...

وسأل البواب الشرطى :

— هل وجدت معه شيئاً ؟

— سيفتش فى القسم

وفى تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح فى سكون الليل :

— ياحسن . من عندك ؟

فهرع السائق إلى الباشا ، وطمع الشرطى فى سماع كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشاب أمامه وتبع السائق ، وقال حسن لسيده :

— قبضوا يا صاحب السعادة على لص يقفز من سور القصر .

فقام الباشا واقفاً وغادر السيارة ، وهو يقول :

— كيف ؟ دى لولو كانت فى البيت وحدها

وهرع نحو الباب الداخلى وتبعته زوجه فى تعثر ظاهر وكان الباشا يصيح : لولو .. لولو !

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة فى لباس النوم الأبيض الشفاف ، أشرقت فى الظلماء كالشمس ناشرة فى الجو عطراً يفعل بالأعصاب فعل الموسيقى العذبة . فصاح الوالدان :

— الحمد لله .. هل أنت بخير يا لولو ؟

فأجابت بصوت له فى الأذن وقع كالعطر فى الأنف :

— نعم ياماما ... ماذا حدث ؟

فقال الباشا :

— قبضوا على لص يقفز من سور القصر .

نخفق قلب الفتاة وقالت بصوت متهدج :

— لص !

— ألم تسمعى حركة ؟

— كلا ...

— الحمد لله ...

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللص والشرطى والسائق والبواب وتبعته زوجته ولولو ، ورأت الفتاة وجه المقبوض عليه على ضوء المصباح الهادئ فاشتد خفقان قلبها ، وزاغت عيناها ، وخفضت بصرها ذاهلة مضطربة ...

وقال الشرطى :

— يدعى هذا المجرم أنه من أهل البيت يا صاحب السعادة

فأنعمت زينب هانم النظر فى وجه الشاب بعينين أطفأت الخمر نورها وقالت :

— كذب ... هذا لص جرىء

ولكن ساورها شك فى صحة بصرها فمالت إلى زوجها وسألته بصوت خافت :

— أليس كذلك يا باشا ؟

فنظر الباشا إلى الشاب بعينين ذاهلتين كعينى زوجه وقال :

— بلى ... بلى ... هذا لص ولا شك

ثم مال على أذن لولو وسألها :

— أليس كذلك يا لولو ؟

ولم تجب الفتاة أو على الأصح لم تسمع السؤال .

فسأل الباشا السائق :

— هل تعرف هذا الشاب يا حسن ... ؟ هل هو من أهلنا ؟ !

وكان السائق حسن يختلس من لولو نظرات ملتهبة ويراقبها بارتياب ، فقال بانفعال :

— هذا لص مجرم يا صاحب السعادة

فقال الباشا للشاب بلسان متلعثم ثقيل :

— كيف تسول لك نفسك ادعاء قرابتي ؟

— لست لصًّا يا صاحب السعادة

— فماذا كنت تفعل هنا ؟

— لا أدرى يا صاحب السعادة

— ما شاء الله ... هل سقطت من طائرة فى حديقتى ؟

— كلا يا سعادة الباشا . . ولكنى وجدت نفسى بغتة فى الحديقة ... لا أدرى كيف ساقتنى قدماى إلى هنا ! !

فقال الشرطى :

— ستجد نفسك بغتة فى السجن إن شاء الله

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطى وقال له بعنف :

— يا عسكرى ... لا تقطع على التحقيق ...

فقال الشرطى بسرعة :

— حاضر يا أفندم

وسأل الباشا الشاب !

— كيف تدخل إلى الحديقة وأنت لا تدرى ؟

— أنا آسف ياصاحب السعادة ، كنت سكران وقادتنى قدماى إلى هنا من غير أن يرانى أحد ونمت على الحشائش بضع ساعات ، ثم استيقظت فى حالة أدنى إلى الوعى والانتباه ، فأدركت خطئى ، وحاولت إصلاحه بالهروب فوقعت فى يدى الشرطى .. لست لصًّا ... فتشونى فلن تعثروا على شىء

— وماذا شربت ؟

وكان السائق فى حالة سيئة من الغيظ والحنق فقال :

— هذا لص كذاب يا صاحب السعادة وينبغى أن نسوقه فى الحال إلى القسم

ولكن الباشا انتهره قائلاً : لا تقاطع التحقيق

وسأل الشاب وهو يهز رأسه بدهاء :

— ماذا شربت ؟

— ويسكى يا صاحب السعادة

فسألته زينب هانم :

— بالصودا ؟

— نعم يا سيدتي

فمالت المرأة على أذن زوجها وهمست :

— معذور ...

فرد عليها قائلاً بصوت خافت :

— نعم ... الويسكى بالصودا شراب ملعون

ثم دنا من الشاب وهو يقول : دعنا نفتشك أولاً ... فاستسلم الشاب إليه ، ودس الباشا يديه فى جيوبه ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها ، ولكن الشاب لم يمكنه منها ، وأثارت مقاومته شكوك الحاضرين ، فقبض الشرطى على يديه بقسوة وأخذ الباشا الحافظة ، وكانت لحقت به زوجه وابنته ، وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة من ذات الجنيه ، وعدة بطاقات وصورة صغيرة ، ولاحت منه نظرة عارضة إلى الصورة ، فأيقظت انتباهه وشحذت بصره

فنظر إليها بإمعان فرأى صورة لولو ، لولو بذاتها ، هل يصدق عينيه ؟ ... أم أنها الخمر ؟ ... ونظر إلى زوجه يستعين بعينيها فرأى بهما دهشة وإنكاراً ، والتفت إلى لولو فرآها تنسحب بخفة وتعود إلى القصر تسير بخطوات متزنة متئدة غير مبالية بشيء ...

وسمع الشرطى يسأل بصوته الغليظ :

هل وجدت بها مسروقات يا صاحب السعادة ؟

فرد محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى صاحبها وهو يقول بلسانه المتلعثم :

— كلا ... ما بها يخصه دون غيره ...

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت عيناه الحادتان أن تريا ، فارتد إلى حالة جنونية من الغضب والغيظ وقال لسيده بصوت متهدج :

— إن عدم العثور على شيء معه لا يبرئه بحال وهو ولا شك قد حاول السرقة فلم يفلح .

فقال الباشا :

— سأتحقق مما إذا كان سكران ...

ومال على فم الشاب يشمه ثم قال :

— الآن حصحص الحق ... هذا الشاب سكران بغير شك ...

فكاد السائق يجن وقال بغضب :

— العفو يا صاحب السعادة ، العادة أن الإنسان إذا كان شارباً لا يشم الخمر فى أفواه الآخرين !

فانتفخ الباشا غضباً ، وفتل شاربه بغطرسة وصاح بالسائق :

— إنه شارب يا كلب !

— العفو يا صاحب السعادة ... أنا أعنى ...

— لا أقبل منك كلاماً ياسفيه ، لقد قضت سفاهتك على أسباب رزقك فى هذا البيت. يا عسكرى دع هذا الشاب لى الآن، وخذ هذا الوقح خارجاً ...

وصدع الشرطى بما أمر ، وخلا المكان إلا من الباشا وزوجته والشاب .

قال الباشا للشاب بلهجة تنم على التهديد والوعيد

— ألا تعرف من أنا ؟

— أعرف طبعاً يا صاحب السعادة ...

— فكيف إذاً تسول لك نفسك انتهاك حرمة بيتى ؟

— أنا غايتى شريفة يا صاحب السعادة . . .

— وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل ؟

وسألته السيدة :

— ما صناعتك ؟

— موظف . . .

— هذا يعنى أنك صعلوك . . .

— صعلوك !

— نعم . . . إن الكاتب الحقير الذى لا يجد له وظيفة تشرفه يطبع على بطاقته كلمة موظف وهى لا تعنى فى الواقع إلا أنه كاتب حقير . . . أليس كذلك ؟ . . .

— . . . !

— فى أى وزارة ؟

— المساحة . . .

— ما شاء الله !.. وما هى مؤهلاتك ؟

— ... !

— ما هى مؤهلاتك .. أجبنى ؟ !

— البكالوريا ...

— بس يا خبر أسود .. وماهيتك ؟

— ... !

— وماهيتك .. أتوسل إليك أن تجيبني !

— ستة جنيهات !

— عال .. ولماذا تحب ابنة باشا ؟

— سيدتي . .

— لماذا لم تحب ابنة كلب من طبقتك ؟

وتنهد الباشا من قلب مكلوم وقال للشاب :

— تفضل مع السلامة . .

وصعد الزوجان إلى مخدعهما وقد نال التعب منهما كل منال فارتمى الباشا على « الشيزلنج » واستلقت السيدة على الفراش وكانا واجمين حزينين ...

وتنهد الباشا وقال لها :

— أيعجبك هذا ؟

— أنت دائماً تلقى عليّ تبعة كل شيء ..

— أنا رجل ينوء منكباه بعبء ثقيل سواء في الوزارة أو مجلس الشيوخ أو الشركات ، فأنت وحدك المسئولة عن فساد أخلاق بناتك !

— لا تتكلم يا سيدي عن بناتي بهذه اللهجة التي لا أقبلها بحال ... إني أعلم أنهن أشرف النساء جميعاً !

— إذاً أنت ترضين عن هذه الأفعال الشائنة ؟ ...

ألا ترين أن مأساة الأخت الكبرى تتكرر؟ تلك الفتاة البائسة التي أردت أن أزوجها من طبيب كبير فوقعت في غرام صعلوك متشرد ممن يسمونهم بالموسيقيين !

— لا تتكلم عن صهرك بمثل هذه الألفاظ ، فليس هو الآن بالصعلوك ولا بالمتشرد ، ولكنه مفتش موسيقى محترم بوزارة المعارف !

— أنا الذي عينته في هذه الوظيفة التي هو غير أهل لها بحال ... أنا الذي خلقته

— اخلق هذا أيضاً من أجل لولو

ولكنه غير قابل للخلق . . . لقد كان الأول مغنياً فاستطعت أن أصنع منه مفتشاً للموسيقى وإن كان لا يفقه شيئاً في الموسيقى ، ولكن ما عسى أن أصنع بهذا وكل مؤهلاته البكالوريا ؟ ... الأوفق أن نطرده !

— ليت ذلك كان ممكناً ! . . . ولكنك تعلم أن لولو عنيدة صلبة الإرادة ، فلنوار سوأتنا ونصنع منه شيئاً . . .

— مهما فعلت فلن يكون أكثر من كاتب

— حنانيك يا باشا ، هل شح الزمان حتى تتزوج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (ووزير لاحق إن شاء الله) من كاتب ؟ !

— وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة مثل لولو ؟

— دع أحاديث الغضب جانباً ، وقل لي ألا يمكن إلحاقه بأي وظيفة في مفوضية أو قنصلية ؟

— مفوضية أو قنصلية ! .. أهذا كلام يقال على واحد كل مؤهلاته البكالوريا ؟

— أف .. أنا أعلم جيداً أنك متعب ومهما

يكن من أمر فينبغي ألا تكون درجته أقل من السادسة وألا تقل ماهيته عن خمسة عشر جنيهاً ... وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أي واحد منهم سكرتيراً له ..

— ليس الأمر سهلاً يا هانم كما يبدو لك فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيات والاستثناءات

— وهل يرضى الصحف أن تتزوج ابنة واحد باشا من كاتب بستة جنيهات ؟

— إن للصحافة هموماً لا تدع لها وقتاً للتفكير في مسألة زواج لولو !

— وإن مستقبل لولو لفوق الصحافة وهمومها فينبغي أن تخلق هذا الشاب من جديد ...

— هل كتب عليّ أن أخلق كل يوم شاباً من جديد ؟

— أرجو أن تذكر أنك كنت موظفاً بائساً حين تزوجتك وأنه لولا المغفور له والدي ...

— إن أباك لم يخلقني ولكنه أتاح الظروف المناسبة لعظمتي الكامنة !

— صه .. لولا أبي لكنت الآن موظفاً بالدرجة السابعة على أكثر تقدير ؟

— أبهذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك القذر ؟

— معلهش يا باشا ، إنهن ورثن عني ذاك الذوق الذي حملني فيما مضى على الزواج منك !

***

وكان السائق هائجاً غاضباً ، يلعن ويتوعد ، والشرطي يهدئ روعه ويعزيه عن « قطع عيشه » بكلمات لا تغني وقد قال له :

— أنت مخطئ يا حسن ... لماذا تتداخل فيما لا يعنيك ؟

فقال محتدًّا :

— أهذا رجل ؟

— وما الذي يغضبك أنت ؟ ... إنها ابنته لا ابنتك !

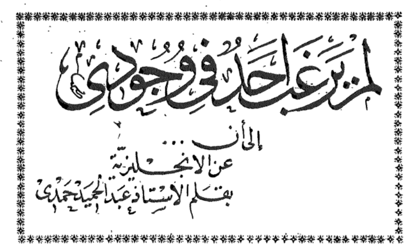
ثم غمز بعينه وتساءل :

— أم هنالك سبب آخر لهذا الغضب ؟... أهو غضب أم غيرة يا شيطان ؟!

فلما لم يرد عليه الجواب قال له وهو يودعه :

— معلهش ياحسن... فالحق أن الباشا لم يعرف ربي غير شنبه !

نجيب محفوظ



« هل هناك مأساة أعظم من أن يكون الانسان غير مرغوب فى وجوده ؟ هنا قصة مثيرة عن امرأة واجهت هذه المشكلة وما زالت تواجهها إلى أن ... »

***

جلست إلى جانب شباك غرفتي الوحيدة التى فيها أنام وفيها أجلس ، فى خط رفيع من شعاع الشمس المائلة إلى الغروب ، وقد طرحت على ركبتى قطعة القماش التى كنت أحيكها

ونظرت بعينين كليلتين إلى الجدران العارية القائمة على الجانب الآخر من الطريق ، وهى كل ما يمكن أن تقع عليه العين من شباك غرفتى ونحن الآن فى شهر مايو من فصل الربيع وقد تفتحت الزهور وعطر شذاها الجو

وقد مضى علىّ الآن ثلاث سنوات لم تقع عينى فى خلالها على زهر الخزامى الجميل ، وهو يستقبل الربيع باسماً جذاباً ، ولا شممت شذى الليلق المنعش للصدور . مضى ثلاث سنوات على اليوم الذى مات فيه زوجى جون ، فاضطرني موته لأن أعيش متنقلة بين بيوت أبنائى ثلاث سنوات طويلة جوفاء قضيتها وحيدة فى عزلة عن الناس !

جلست إلى جانب الشباك تعبث أصابعي الخشنة المشوهة من عمل السنوات العديدة ، بقطعة الصوف الزرقاء المطروحة على ركبتي وقد بلغت فى ذلك اليوم السادسة والسبعين من عمرى فاليوم هو عيد ميلادى ولكن أحداً لم يذكر ذلك ولم يشعر به ، لا ابنى هارى الذى أعيش الآن معه ولا امرأته الينور الذكية الجميلة ولا ولداها .

قضيت اليوم كله أداعب أملاً حبيباً حزيناً فى أن يتذكر أحدهم فيحضر إلىّ ويقبلنى ويقول لى : « عيد سعيد يا عزيزتى ! » . ولكن لم يكن هذا الأمل إلا حماقة ، فقد كانوا جميعاً مشغولين بشئونهم الخاصة . لذلك نسينى هارى وإلينور وحفيداى ، وكذلك نسينى أبنائى الآخرون : توم وهو محام فى برمنجام ، وآلان الطبيب فى نورثامبتون وجورج الذى كان يحرر جريدة فى مدلاندز ، وجين التى تعيش فى لندن وتكتب لإحدى المجلات النسائية مقالات تتقاضى عليها أجوراً عالية وقد قضيت عندها جزءاً من شتاء العام الماضى

ولكن لا بأس ! فأنا امرأة شيخة وأبنائى جميعاً جد مشغولين ولهم من نجاحهم فى الحياة مايلهيهم عن الاهتمام بأمر عجوز مثلى . ولم يعرفوا بعد الشقاء الذى يشعر به الإنسان عند ما يشيخ ويرى الحياة تمر به مندفعة وتتركه وراءها . إنهم لا ينتظر منهم أن يدركوا ما فى الشيخوخة من قسوة ووحدة . يا لهول ما فى الشيخوخة من وحشة وخوف !

لقد كان كل شيء قبل ثلاث سنوات ، مخالفاً فيما يتصل بحياتى لما هو كائن اليوم ، إذ كان زوجى جون لا يزال على قيد الحياة فلم أكن أبالى بالشيخوخة

تنزل بى وهو إلى جانبى . لقد كان حبه وقربه منى يملآن نفسي شجاعة ويحيطان حياتى بالهدوء والسعادة والآن قد ترك جون هذا العالم وتركنى وحيدة تكتنفنى الحيرة والخوف فى عالم هو فى عينى شديد الاتساع والحداثة وسرعة الحركة

ولقد عزانى عما أنا فيه أن جون لا يستطيع أن يعلم الحقيقة ، فلقد كان واثقاً من أننى سأكون هنية وفى خير بعد ذهابه . لقد قال لى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

— سيعنى بك الأولاد يا مارى ولن تكونى وحيدة يا عزيزتى ، سيحبك أبناؤنا ويرفهون حياتك

نعم ، فبعد أن انتهى كل شىء وبعد أن رأيت جون يوضع فى مقره الأبدى بمقبرة البلدة الصغيرة أخذنى أبنائى معهم . فأقمت أول الأمر مع آلان ثم مع توم ، وبعد توم أخذتنى جين فقضيت معها فترة من الزمن وأنا الآن مقيمة مع هارى . لقد أدى الجميع واجبهم ، ولكن يبدو لى على صورة ما أنهم أصبحوا لا يشبهون أبنائى الذين من لحمى ودمى . فهم يعاملوننى كأننى غريبة فى بيوتهم ، غريبة لا تتصل بهم ولكن يجب أن يتحملوا عبئها

لقد أزعجنى ذلك وشعرت فى أعماق قلبى بشىء صغير جازع يصيح بهم طالباً الحب والراحة والتفاهم ويرجوهم أن يقتطعوا من حياتهم المملوءة حركة فترة وجيزة يقولون لى فيها إنهم لا يزالون يحبوننى ويحتاجون إلى ويرغبون فى وجودى إلى جانبهم ، كما أحبونى واحتاجوا إلى ورغبوا فى وجودى عند ما كانوا أطفالاً

ولكننى لم أنطق قط بهذه الصيحة الدفينة ، فقد علمتنى هذه السنوات الثلاث ألا أقول شيئاً وأن أبتعد عن طريقهم . لقد كان لهم من مشاغلهم وضيق وقتهم وشدة مللهم ما يحملنى بعاطفة الأمومة على أن ألتمس لهم فى أعماق قلبى العذر من عدم إقبالهم علىّ

كانوا يتبرمون بطراز ملابسى ، كانوا يكرهون القماش المطبوع الذى أخيط منه الملابس ، والمئزر الأبيض الذى كنت ألبسه فوق ثوبى . فابتاعوا لى رداء من الحرير الأسود لبسته إرضاء لهم ، ولكننى كنت أشعر أننى فيه غريبة غير مرتاحة ، أشعر بالوحشة إلى جلابيبى القطنية القديمة الطراز

كذلك كانوا يتبرمون بأسئلتى إذا خطر لى أن أسألهم سؤالاً ما ، ولقد سمعت لندا امرأة «آلان» تقول فى كثير من الضجر :

— إن أمنا متعبة تشبه الأطفال فى أسئلتها

ذكرت هذا كله فى جلستى هذه فسرى الجزع إلى نفسي

وذكرت أن جين انتهرتنى مرة إذ قالت غاضبة :

— إنك تثيرين أعصابى يا أمى بكثرة كلامك على أمور قد مضت . ألا يمكن أن تفهم ابنتى أن الماضىّ هو كل ما أملك فى الحياة ؟ لقد سرت نظرة التأذى على وجهى عند سماع هذه الكلمات وامتلأت عيناى الكليلتان بالدموع البطيئة ولكن جين لم تلحظ شيئاً من ذلك

لقد تبين لى الآن أننى كنت دائماً عقبة فى طريقهم ، كلما حاولت المساعدة فى بعض الأعمال المنزلية ، وما كنت أقصد بذلك إلا أن أجعل لنفسى بينهم فائدة وأن أملأ فراغ ساعات أيامى الطويلة

الفارغة . كنت أود أن أذهب إلى المطبخ فأسوى من حين إلى حين بعض الفطائر ، كما كنت أحب أن أصلح ملابس أحفادى أو أنظف غرفة الجلوس ولكننى لم أكد أقدم على عمل من هذه الأعمال لأول مرة حتى عبست الينور وقالت وهى تلوى رأسها :

— إنى أفضل أن تتركى ذلك للخادم

وطلبت منى لندا ألا أتدخل فى شؤن بيتها قائلة فى صراحة :

— إنه (بيتى) كما تعلمين وأنا أفضل أن أرتبه على الطريق التى أراها

وشعرت من جراء عدة أمور صغيرة كهذه أننى قد جرحت وأننى لم أكن فى بيوت أبنائى إلا غريبة طفيلية . وهكذا تعلمت أن أكتف ساعدى وأن ألزم غرفتى وإن كنت أشعر فيها بالوحدة والفراغ

وحدث مرة فى بيت آلان ولندا أن كان هناك بعض الضيوف لتناول الشاى ، فلبست ردائى الجديد الأسود ، وجعدت شعرى الأبيض الرفيع ، وشبكت بنيقتى بدبوس رأسه من حجر الأمايست كان زوجى جون أهدانيه فى الذكرى الثانية لزواجنا ، ثم نظرت إلى المرآة نظرة الناقد لأرى إن كان فى منظرى مايدعو إلى النفور ، ومررت بلطف بكفى على ردائى وعلى شعرى ، ثم هبطت السلم إلى غرفة الاستقبال حيث كان الضيوف جلوساً ، على أننى عند ما وصلت إلى الباب وقفت لحظة مترددة

وأحسست فى وقفتى بارتجاف يدى من التأثر العصبي كما أحسست بقلبى ينبض بشدة . ترى أكان فى منظرى ما يدعو إلى الاشمئزاز ؟ لقد سألت نفسى هذا السؤال غير مطمئنة إلى الجواب . وسألت نفسى أيضاً : ترى ترحب لندا بقدومى ؟ وهل تبتسم عند ما أقبل عليها وتقدمنى لضيوفها ؟ من يدرى، ولعلها أيضاً تسمح لى بمساعدتها فى تقديم الشاى والفطائر الصغيرة . لقد كنت أرجو من أعماق قلبى المهجور أن تسمح لى بأن أجالس المدعوين

فتحت الباب فى استحياء ودخلت ، فتلفتت لندا وإذ رأتنى قطبت جبينها علامة عدم الارتياح لوجودى . ثم قالت فى جفاء :

— لقد حسبتك ستبقين فى غرفتك

فأجبت :

— لقد أتيت لقضاء فترة وجيزة يا لندا

وكانت عيناى وأنا أتكلم تتوسلان إليها فى أن تسمح لى بالبقاء وأن تشفق على

فتنهدت لندا تنهد المقهور وأشارت إلى كرسى فى ركن بعيد من أركان الغرفة فجلست عليه فى هدوء وأخبأت يدى المرتجفتين فى حجرى حتى لا يلاحظ الضيوف اضطرابى .

وتكلم النسوة فى أمور لا أعلم من أمرها شيئاً وتجاهلن محاولاتى المتواضعة التى كانت تنم عن رغبتى فى الاشتراك فى الحديث ، فشعرت بأننى قد زجرت وأننى وحيدة لا موضع لى فى ذلك المكان . لذلك وقفت فى الحال ، وتركت الغرفة فى سكون ، مقفلة ورائى الباب فى بطء ، ثم تسربت إلى غرفتى فنزعت ثوبى الأسود ، وفككت دبوس الأمايست ، وبقيت فترة طويلة ممسكة هذه الهدية الزوجية العزيزة فى يدى النحيلة المرتجفة ، بينما سالت الدموع على وجنتى المجعدتين .

ولم ألبث أن قلت لنفسى :

— إننى لشيخة حمقاء إذ أبكى .

لم يبق من أثر لأشعة الشمس حيث جلست على الكرسى الواطى فى غرفتى ، ولم تلبث عتمة الغسق أن ملأت الجو ، على أننى ما زلت جالسة فى مكانى مطبقة جفنى مطلقة لفكرى العنان يسبح فى ذكريات الماضى السعيد الغامض .

عاد الخيال إلى مزرعتنا الصغيرة فى كورنيش ، تلك المزرعة التى لا تنفك عواطفى تحن إليها كلما شعرت بالفراغ الذى يكتنفنى وسط المدينة الآهلة فارتسمت أمام عينى صورة العريشة والحقول والبيت الأبيض الخشن المنظر الذى ولد فيه أبنائى الخمسة وشبوا ، ورأيت غرفة النوم الكبيرة وقد بهت ورق جدرانها ورأيت السرير الخشبى الكبير المزخرف الذى كنت أعانى عليه آلام الوضع كلما أخرجت أحد هؤلاء إلى عالم الوجود .

رأيت نفسى بعين الماضى شابة صغيرة رشيقة سريعة الحركة لا عجوزا بطيئة كما أنا الآن ، ورأيتنى متنقلة فى خفة من مكان إلى مكان أنجز عمل البيت وأربى الصغار . رأيتنى أغسل الملابس والآنية ، منحنية على الوجاء متعبة شاحبة ، مشتغلة فى الحديقة فى أشعة شمس الصيف الحارة ، معدة نار الشتاء بيدين خشنهما وشققهما الصقيع ، معنية بتغذية الأطفال وتنظيفهم وتنشئتهم على الصدق ومعرفة الحقائق ، مجتهدة فى إفهامهم معنى الشرف والصبر والكرم ، ولا أذكر أننى أهملت فى ناحية من هذه النواحى ، وإنى لأسمعهم الآن كما كنت أسمعهم أطفالاً يرتلون صلاتهم كل مساء .

إنى لأذكر كيف كنت أنا وجون نقتصد ونقتر على نفسينا لنستطيع أن نبتاع للأطفال أحذية جديدة ولنسدد لهم نفقات التعليم فى المدارس ، ولنمكنهم من أداء مدة التمرين للمهن التى أعدتهم لها دراساتهم وإنى لأسمع جون وهو يكرر قوله :

— إن أبناءنا هؤلاء ياماری ليستحقون كل هذا العناء والتعب فسيأتى يوم نفخر بهم فيه ، وسيكونون مبعث رفاهتنا فى شيخوختنا .

ولقد صدقت زوجى حينذاك ، وتطلعت إلى الزمن الذى يصبح فيه أبنائى رجالاً ونساء ناجحين فى الحياة يؤلفون بيوتاً هنية سعيدة نزورها أنا وجون ، فنجد فيها أحفاداً لنا أعززهم وأدللهم وأهز مراجيحهم لأنيمهم

مرت بى هذه الذكريات وأنا جالسة فى مكانى ساعة الغسق فابتسمت ، فإن أبناءنا لم يدعونى وأباهم لزيارتهم إلا نادراً ، وبعد أن غادرونا الواحد بعد الآخر بقينا نحن الاثنين فى مزرعتنا زوجين شيخين وحيدين منسيين

أما الأحفاد ، فقد كانوا فى الحق أطفالاً من الطراز الحديث فلم يسمح لى بأن أدللهم أو أهزهم ، بل إننى حتى لم أر قط « آن » ابنة جورج ، فقد كانت فى المدرسة التى ألحقها بها أبوها فى سويسرا ، عندما مات جون ، ولم تحضر جنازة جدها

نظرت إلى يدى الجافتين المشوهتين المبسوطتين على ركبتى ، وذكرت كيف كانت هاتان اليدان تتسابقان فى سرور فى سبيل العناية بالأطفال ، فأصبحتا الآن عديمتى الفائدة شيختين مشوهتين لا يرغب فيهما أحد .

وبينا أنا غارقة فى هذه الأحلام إذا صوت إلينور الحاد يخترق غشاء رأسى ويقطع على أحلامى ، متسرباً خلال بابَ غرفتى نصف المفتوح ، كانت مقبلة من الردهة ، وكان كعبا حذائها العاليان يقرعان الأرض بشدة تبعث فى الجوصدى عالياً ، يسيرهارى إلى جانبها فى خطوات بطيئة ثقيلة ... سمعتها تقول له :

— أقول لك إن صبرى قد فرغ يا هارى ! ويجب أن تبعدها عن هذا البيت ، إنها تتدخل لحد بعيد فى ترتيباتي الاجتماعية

ساءلت نفسى متحيرة : ترى من هى التى تريد الينور إبعادها عن هذا البيت ؟ أهى الخادم الجديدة أم لعلها الطاهية ؟

ثم سمعت صوت هارى بطيئاً تبدو فيه الحيرة وهو يقول :

— ولكنها أمى يا إلينور ، صحيح أنها عجوز كالأطفال ومتعبة قليلاً ، وأنا أيضاً لا أحب بقاءها هنا ولكن ماذا أستطيع أن أعمل ؟

فقالت إلينور فى حدة :

— يجب أن تعمل شيئاً ، ويحسن أن ترسلها إلى جورج ، فإنه لم يتحمل قط نصيبه من هذا العبء وليس يهمنى أين ترسلها ولكن يجب أن تبعدها عن هنا فى أسرع وقت

سمعت صوت إقفال باب غرفتهما وجلست فى الظلام مصعوقة لا أستطيع حراكاً

لقد كنت أنا التى يدور الحديث حولى ! أنا التى يراد إبعادها عن البيت ! أنا « العجوز كالأطفال المتعبة قليلاً » كما قال هارى

وفى هذا اليوم يوم ذكرى ميلادى هيأت لى الحماقة أنهم سيحضرون إلىَّ مهنئين معبرين عن حبهم لى وعطفهم علىَّ ! !

أحنيت رأسى فى بطء وأطبقت جفنى

وفى صباح اليوم التالى بكرت فى الهبوط إلى الطابق الأول لأستطيع الاجتماع بهارى وحده ، فلما وجدته فى غرفة الطعام ابتسمت ابتسامة مرتجفة وقد جهدت فى تملك أعصابى والتزود بالشجاعة ، وقلت وقد بدا فى صوتى الرفيع أثر الاضطراب على الرغم منى :

— لقد كنت أفكر فى أمرى يا بنى وقد وجدت أن بى حاجة إلى تغيير الهواء ، وإننى لأحب أن أبقى هنا معك أنت وإلينور ، ولكننى أرى أن أسافر الآن إلى جورج ، فهل لك أن تكتب إليه لتخبره بأننى ذاهبة إليه فى الحال ؟

لم يكد هارى يسمع هذه الكلمات حتى بدا أثر الارتياح على وجهه ؛ فوخز ذلك نفسى ، وآلمنى أن أرى ابنى أيضاً مسروراً للتخلص منى !

فرد جورج فى شىء من التذمر يقول إنه مستعد لاستقبالى إذا كان من الضرورى أن أذهب . فأجابته إلينور برسالة تلغرافية إن ذلك من الضرورى جدا . وهكذا أعددت حقيبتى العتيقة وأركبنى هارى القطار وقبلنى قبلة وداع عاجلة معتذراً بأنه مضطر أن يسرع فى الذهاب لارتباطه بموعد هام يتصل بأعماله ؛ على أننى لم أكد أشعر بما فى عمله من إهمال لشأنى ، لأنى بعد أن علمت أن ليس بين أبنائى من يرغب فى وجودى لم يبق ماهو أشد من ذلك إيلاماً لنفسى .

فقد أصبح قلبي كسيراً يدمى كما يدمى كل قلب عجوز كسير ...

كان كل ما أملكه هو أن أحاول الترفيه عن نفسي بأن جورج يعيش فى بلدة صغيرة على مقربة من المزرعة التى أحببتها وتعودت حياتها وفى ذلك بعض العزاء . غير أننى كنت أضطرب كلما ذكرت أننى ذاهبة إليه غير مرغوب فى وجودى .

نزلت من القطار فوقفت على إفريز المحطة دائخة متعبة من الرحلة غريبة بين الناس حائرة فيما أفعل

ثم سمعت ورائى خطوات تجرى مسرعة ؛ وشعرت بيد تمسك بساعدى فى لطف وسمعت صوتاً يقول :

— هل أنت جدتى ؟

فتلفت فرأيت أمامى فتاة طويلة رشيقة بنية الشعر مرسلته لها عينان واسعتان صافيتان ، تبدو على فمها العذوبة والرزانة . فقلت :

— نعم أظن أننى لا بد أن أكون جدتك

فطوقتنى بساعديها الفتيتين القويتين وقبلتنى قبلة حارة ، هى أول قبلة حقيقية تمتعت بها منذ ثلاث سنوات . وقالت :

— أنا « آن »

وقادتنى حفيدتى إلى سيارتها الصغيرة الزرقاء فساعدتنى فى الصعود إليها ، حتى إذا أدارت المحرك ابتسمت لى وقالت :

— حقًّا إننى لسعيدة يا جدتى بقدومك !

وقعت هذه الكلمات من نفسى موقع الغذاء من نفس الكلب الجائع ، وكالكلب الجائع اختطفت هذه الكلمات متلهفة . لقد وجدت أخيراً من يسعد بوجودى إلى جانبه ! وجدت من يرى أنه محتاج إلىّ لقد كان ذلك معجزة ! كان إجابة لصلواتى ودعائى .

فأطبقت عينى المتعبتين لأخفى الدموع التى غمرتهما فجأة ، والإنسان إذا كبر كانت دموع الفرح أسرع إلى عينيه من دموع الألم والبكاء

وكانت « روث » امرأة جورج تنتظرنى فى البيت ، ولم أكن قد رأيتها غير بضع مرات منذ زواجها من ابنى ، وأذكر أنها كبيرة الجسم شقراء معتدة بنفسها زرقاء العينين قاسيتهما مرتفعة الصوت .

ولقد رأيتها الآن قد تغيرت قليلاً ، إذ أصبحت أقل نشاطاً مما كانت وأشد تحكماً ، ولكن صوتها كان كما عهدته مرتفعاً ، وكذلك كانت عيناها على عهدى بهما قاسيتين

رحبت بى امرأة ابنى فى فتور وقبلتنى قبلة باردة وإنى لأظن أن « روث من هؤلاء النسوة اللواتى يحسبن أن الشيوخ من الآدميين كالخيل التى أتلفها العمل الشاق يجب قتلها متى أصبحت عديمة النفع »

نظرت إلى « آن » نظرة تفيض بالجزع والرعب ، فابتسمت لى ابتسامة تبعث الاطمئنان إلى النفس الحائرة وقالت :

— لقد غادر أبى البلدة اليوم لحضور اجتماع سياسى ، وسيعود إلى هنا صباح الغد ، فهلمى إلى غرفتك المجاورة لغرفتى ، وسأفك لك حقيبتك لأنى أعلم أنك متعبة يا جدتى

ثم تأبطت ساعدى ومضت بى

وشعرت وأنا أصعد معها السلم متباطئة بعاطفة الشكر تغمرنى وقلت فى نفسى : « مهما حدث الآن

فإننى سأجد « آن » إلى جانبى »

لقد صدق ما توقعته ، ففى الأشهر التى تلت ذلك اليوم ، كانت « آن » هى المستعدة دائماً للدفاع عنى فى حماسة وغيرة ، وهى التى كانت تغمر أيامى بضوء الشمس وبالسعادة . . . كانت تجيب على أسئلتى المتواضعة وتحدثنى بأخبار أصدقائها وما تهتم به من الشئون ... كانت تعرض على مسائلها طلباً لنصيحتى ، كانت تعاملنى على أننى إنسانة حية ، لا على أنى عبء ثقيل عديم الفائدة ، فكنت أقابل هذه المعاملة بأرق ما أستطيع من مظاهر الشكر وعرفان الجميل

ولولا « آن » لكانت حياتى فى بيت جورج كئيبة موحشة كما كانت فى بيوت أبنائى الآخرين . ولم يكن فى تصرفات جورج ما يدل صراحة على عدم شفقته ، وكل ما هنالك أنه لم يكن ليهتم بى على نوع ما . فقد كان كل همه محصوراً فى الصحافة والسياسة

وكان اهتمام « روث » منصرفاً إلى عملها الاجتماعى وإلى تدبير زيجة طيبة « لآن » ، ولم ألبث أن أدركت أن «روث» إنما قصدت «بالزيجة الطيبة» أن تتزوج « آن » من ستيوارت باكستون ابن أحد مديرى البنوك

وكنت قد التقيت بهذا الفتى على أثر وصولى إلى بيت جورج . وإذ كنت تعودت ملاحظة وجوه الناس منذ خمسين سنة وأكسبتنى التجربة صدق الحكم على أخلاقهم الكامنة وراء مظاهرهم ، فقد دققت فى وجه ذلك الفتى القصير النحيل ثقيل الحركة التى رأت فيه « روث » الزوج الصالح لابنتها ، نظرت إلى عينيه الصغيرتين الزرقاوين الماكرتين ، وإلى فمه الرقيق الضعيف الذى يدل على القسوة فلم أحبب ما رأيت ، لقد كان وجهه مجرداً من أمارات القوة والشفقة وكرم النفس ، وهذا هو الرجل الذى تخيرته « روث » ليكون زوجاً لابنتها !

شعرت عند ما رأيت هذا الفتى برعشة الخوف تسرى فى نفسى ، ورجوت ألا تكون « آن » قد أحبته ، فقد كنت أشفق عليها من ذلك الحب لعلمى بأن الشباب متلهف إلى الخيال تعميه فى سهولة الهالة التى تحيط بالثروة والمركز العالى

ثم قابلت « كن ادامز » فلم تلبث أن تلاشت جميع مخاوفى فيما يتصل باستيوارت باكستون وعلاقته « بآن » ، ففى مساء يوم من أيام شهر يونية بينما كنت جالسة فى الحديقة أقبلت « آن » ومعها فتى طويل القامة قدمته لى بقولها :

— هذا هو « كن » يا جدتى

قالت هذه الجملة فى صوت متهدج ، فنظرت إلى الفتى نظرة حادة عند ما تناول يدى المجعدة وانحنى عليها مقبلاً

كان « كن » ذا عينين واسعتين رماديتين ضاحكتين ، فى وجهه الأسمر بساطة ، شعره أسود سميك ، فمه واسع سار . ابتسامته شىء ذكرنى بزوجى جون وقد أحببته حباً شديداً لأول مرة وقع نظرى عليه . وكان رداؤه قديماً رثاً وكان هو نحيل الجسم ، وعلى الرغم من ذلك قلت فى نفسى : « هذا هو الرجل الذى يليق بآن » ولكن هذا إذا أمكن أن تحبه الفتاة

ثم رأيت « آن » تنظر إلى « كن » نظرات ملتهبة ، ورأيتها تبتسم له ابتسامة حيية مضطربة ، فعلمت كما لو كانت هى التى خبرتنى بأنها تحبه من أعماق قلبها حباً يدوم إلى الأبد

ولكن الأمر عند أم « آن » كان على العكس من ذلك ، فقد كانت تبغض « كن أدامز » بغضاً قتالاً لا يرتكز على سبب معقول . فقد قالت لى مرة فى لهجة غاضبة :

— إنه رجل أفاق لن يصلح لها بحال، فإنه لا يحصل حتى على مرتب محترم ! والحق أننى لا أدرى أى شىء فيه يعجب « آن » !

فنظرت إلى « روث » فى دهشة ، فقد أعلم جيد العلم ما الذى يعجب « آن » من « كن » فقد أعجب بمثله من زوجى جون ، فيه الطيبة والبهجة والقوة والشرف والرقة فى معاملة المرأة التي يحبها ، وهذه هى الخلال التى تحمل الفتاة على أن تعمل وتتحمل المتاعب من أجل رجلها وتشعر فى الوقت نفسه بأنها تلقى الجزاء الذى يعوض عليها المشقة والتعب .

لن تكون لـ « كن » يوماً ما مثل ثروة « ستيوارت باكستون » ولكن الحياة مع « كن » ستكون أغنى من نواح أخرى ، نواح عظيمة هامة كالضحك والحب والسلام والمؤانسة

ولكن « روث » لا تستطيع أن تفهم ذلك ، فقد كانت مصممة على أن تتزوج «آن» المال والثروة ومعنى ذلك أن تتزوج من ستيوارت باكستون . فلم تسمح لـ « كن » بوضع قدمه فى البيت وأمنعت « آن » من مقابلته فى أى مكان آخر . وكان ستيوارت باكستون يزور البيت كل ليلة على التقريب وكان الجميع ، ما عداى وآن ، يقابلونه بالترحيب القلبى الحار

وفى مساء يوم من الأيام خرجت لأبتاع بعض الحاجات فلقينى « كن » فى الطريق ، فرأيته قد ازداد نحولاً وشحوباً عما كان من قبل ، وقد استوقفنى إذ رآنى وقال :

— خبرينى يا مسز مارتن ماذا عسانا نستطيع أن نفعل « آن » وأنا ؟ إننى أحبها حباً شديداً وأبواها لا يسمحان لى بأن أراها . وإنى لأعلم أننى غير كفء لها لأننى رجل فقير ، ولكن سيأتى يوم أؤلف فيه كتاباً يعود علىّ بالربح ، وعندئذ أستطيع أن أقدم لها كل ما تحتاج إليه ، وإلى أن يجىء هذا اليوم أعطيها كل ما فى نفسى من الحب

فابتسمت لما فى حديثه المتحمس من لهجة جادة وقلت :

— إنى أظن أن حبك كاف « لآن » فلا تفقد الأمل يا « كن » فسينتهى الأمر نهاية طيبة على وجه من الوجوه

واجتهدت أن أساعد « آن » بتنبيهى « روث » إلى عدم ارتكاز بغضها « كن » على أساس معقول ، ولكننى بذلك قد زدت الأمر سوءاً . فقد أجابتنى فى جفاء :

— أرجو أن تهتمى بشؤنك الخاصة ، وكفى تدخلاً فى شؤون « آن » فإن ما تسببه لى من المتاعب كاف بدون تدخلك

وسمعت روث بعد ذلك تتحدث مع جورج فى أمرى فتقول فى لهجة الغضب :

— إذا كنت لا تريد أن تتزوج ابنتك من هذا الأفاق المفلس فيجب أن ترسل هذه العجوز إلى أحد إخوتك ، فإننى لا أريد بقاءها فى بيتى !

وفى هذه الليلة نفسها نشأ بينها وبين « آن » شجار عنيف ، حتى إذا انتهى تسللت « آن » إلى غرفتى ، وكان جسمها يضطرب لشدة انفعالها ، وكانت تبكى بكاء شديداً وركعت فى الظلام إلى جانب سريرى فوضعت يدى فى لطف على شعرها الأحمر المجعد ، وقد قالت لى هامسة :

— ماذا أعمل ياجدتى ؟ إنهم لايريدون أن أرى « كن » وأنا أحبه حباً شديداً ! وسيرغمنى أمى وأبى على الزواج من ستيوارت ، ويقولان الآن إنك سترحلين من هذا البيت ؟

فربت على وجنتها المبللة بالدموع وقلت :

— إسمعى ياعزيزتى ! قد أكون مضطرة لمغادرة هذا البيت إذا هماطلباذلكمنى ، ولـكنهمالايستطيعان أن يرغماك على الزواج من إنسان لا تحبينه .

— سيفعلان ! نعم أعرف أنهما سيفعلان ذلك ! إنك لاتعرفين كيف يتصرفان إذا هما اتفقا على أمر ، وتشبثا به فإن أمى ستجعل حياتى كلها شقاء إلى أن أتزوج من ستيوارت ، ولـكننى أبغضه .

فنظرت إلى خط من ضوء القمر على نهاية سريرى ، ثم قلت فى تأن :

— إننى عندما كنت فى مثل سنك يا « آن » أحببت شاباً كما تحبين أنت « كن » فهربت معه ، وتزوجت منه بعيداً عن أهلى ، ولم أندم على ذلك قط . لقد كنا فقيرين ، كما ستكونان أنت و« كن » فى أول الأمر ، ولـكنا كنا سعيدين . إنكما صغيران وفى نفسيكما شجاعة ، ويحب أحدكما الآخر ، فلا تسمحا لأى شىء بأن يحطم حبكما .

فرفعت الفتاة رأسها ، ورأيت الدموع تنحدر على وجنتيها ، وقد بدا فى عينيها بريق لطيف ، وقالت هامسة :

— شكراً لك يا جدتى ، فانى الآن أعرف ما يجب أن أفعل ، وسأهرب الليـلة مع « كن » فباركينا ياعزيزتى .

فضممتها إلى صدرى وقبلتها ، ثم تناولت مفتاحا من فوق مائدة إلى جوارى ، وكنت قد وضعته عليها استعداداً لما توقعت أن سيكون ، ثم وضعته فى يدها وقلت :

— هذا مفتاح بيتنا القديم فى المزرعة ، والمزرعة فى كورنوول على مسافة خمسة أميال من ليسكيرد ، وستجدينها على خريطة الطريق ، والدار لا يسكنها الآن أحد ، فتستطيعان أن تقصداها وتعيشا فيها إلى أن يجد « كن » ما هو خير منها ، وعلى الأقل إلى أن يؤلف الـكتب التى ستجعل منه رجلاً ذائع الصيت

وهنا ابتسمت لنفسي فى الظلام ثم أتممت حديثى فى رقة :

— وليبارك الله لـكما ياعزيزتى .

ثم هممت من فراشى فلبست ردائى الصوف ، وتسللت أنا وآن إلى الممر الخارجى ، ثم مررنا متلصصين فى الظلام بباب الغرفة التى يرقد فيها جورج وروث ، وهبطنا بعـد ذلك السلم إلى ردهة الطابق

الأرضى حيث آلة التليفون ، فأضاءت « آن » مصباحاً كهربائياً فى الجدار

وبينما وقفت عند قاعدة السلم أرقب وأنصت لأية حركة تبدو أدارت آن رقم تليفون « كن » ، وفى هذه اللحظة سمعنا صوت تشقق لوح من الخشب فوق رأسينا ، فنظرت كل منا إلى الأخرى جاحظتين فماذا نفعل إذا كان جورج أو روث قد سمع حركتنا وجاء يستطلع الخبر ؟ ! ومضت لحظة سكون مخيفة ثم إذا كل شىء فى البيت نائم فى هدوء

وفجأة جمت آن نفسها على آلة التليفون التى حملتها فى يدها وسمعتها تقول مستفهمة فى صوت خافت :

— « كن » ؟ أنا « آن » أريد أن أقول لك إنك كنت على حق حين قلت إننا يجب أن نهرب ، وسنهرب الليلة ونتزوج أسرع ما يمكن ! نعم سنهرب فى اللحظة التى تصل فيها إلىّ . . . نعم ! نعم ! أنا أقصد ما أقول !.. إنى أحبك يا عزيزى !

وإني لأستطيع أن أتصور النشوة والجذل اللذين غمرا « كن » عند سماع هذه الكلمات

وأعادت « آن » سماعة التليفون مكانها فى هدوء وعانقتنى بكل ما فيها من قوة ، وكانت عيناها تبرقان من شدة الانفعال ، وقالت :

— شبكى أصابعك من أجلنا يا جدتى إلى أن نبتعد عن هذا المكان

وعدنا فصعدنا السلم متلصصين ، وساعدت «آن» فى سرعة صامتة فى إعداد حقيبتها ، ثم حملنا الحقيبة إلى الطابق الأرضى ، وفتحت « آن » رتاج الباب بأصابع مرتجفة ، ولم تكد تخطو إلى العتبة حتى وثب « كن » فعانقها فى شدة كأنه يخشى أن تفلت من بين يديه وهو لن يسمح بذلك أبداً

وابتسمت وأنا واقفة فى ضوء الردهة الضئيل متذكرة الماضى — لقد كان ساعدا جون فتيتين قويتين كساعدى « كن » وكان قلبى ينبض شوقاً وعيناى تشعان ببريق الأحلام السعيدة شأن عينى « آن » فى هذه الساعة

وقبلانى قبلة الوداع ثم جريا ممسكا أحدهما بيد الآخر إلى حيث كانت سيارة « كن » العتيقة فى الانتظار عند الباب الخارجى

وأقفلت الباب وأوصدت رتاجه ، وأطفأت مصباح الردهة الضئيل ، ثم تسللت فى هدوء إلى غرفتى ، ولم ألبث أن نمت نوماً عميقاً هادئاً ، وأنا لا أزال أشعر بعذوبة قبلة آن على وجنتى المجعدة العجوز ، عالمة بأن هذين الصغيرين يسرعان فى الظلام فى طريق الحرية ، ولم أعد أبالى بما قد يصيبنى بعد أن مهدت « لآن » الطريق إلى السعادة

وبعد أيام قليلة تسلمت تلغرافاً جاء فيه :

— لقد تزوجنا ونحن سعيدان ونحب المزرعة والحياة فيها ، شكراً لك يا جدتى وتقبلى حبنا

وكانت الرسالة موقعة فى كبرياء باسمى « آن وكن آدامز »

وعندئذ هبت الزوبعة ، فهذت روث هذياناً جنونيا ونطق جورج بعبارات شديدة لا تقبل الغفران . وحملنى كلاهما مسئولية هرب « آن » وزواجها وقالا إنهما لن يغفرا لى ذلك أبداً ، وقد نغصا علىّ حياتى فى الأسابيع القليلة التى تلت ذلك الحادث ، رافضين أن يبادلانى الحديث إلا إذا دعت

لذلك ضرورة ملحة ، فأشعرانى بذلك أننى ازددت عن أى وقت مضى بأننى غريبة فى بيوت أبنائى

وكتبت آخر الأمر خطاباً إلى ابنتى جين أسألها فيه فى تواضع إذا كنت أستطيع أن أزورها ، فأجابتنى بأنه يستحيل عليها أن تقبلنى فى دارها قبل انتهاء فصل الصيف

وكانت خطابات « آن » هى الشعاع الوحيد الذى يضىء ظلام حياتى . حتى إذا جاء شهر أغسطس تلقيت منها خطاباً تقول فيه :

« إحزمى حقيبتك يا عزيزتى واحضرى إلى المزرعة . إننا هنا سعيدان كل السعادة ونشعر بالحاجة الشديدة إلى وجودك معنا . فكل بيت يحتاج إلى جدة ترعاه ! و« كن » يشتغل بالفلاحة فى النهار وفى الليل ينكب على تأليف كتبه . وهو راغب أشد الرغبة فى حضورك . ويمكنك أن تخبرى بقية العائلة أن ليس بأحد منهم من حاجة فى إيوائك فأنت لنا دون غيرنا ! لقد مهدت طريق السعادة « لكن » ولى فنحن نحبك من أعماق قلبينا »

قرأت هذه الكلمات العذبة من خلال الدموع التى ملأت عينى ، ففاض قلبى بشعور عظيم من الراحة والرضا . فقد أيقنت أن الحياة لن تكون بعد اليوم حرباً على ، فقد وجدت من يحبنى ويحتاج إلى وجودى معه ، وقد أصبحت ملكا لأناس يحبوننى . إننى لن أكون وحيدة بعد اليوم وستصبح الحياة عذبة سعيدة

وفى ساعة مبكرة من الصباح قبل بضعة أيام من الموعد الذى حددته للسفر إلى المزرعة تكلم « كن » معى تليفونيًّا ، وكان صوته يهتز انفعالاً ، وقد قال فى لهجة منفعلة :

— لقد وجدنا معدن الصفيح فى الحقل الجنوبى . وجدنا معدن الصفيح ، فهل تفهمين معنى ذلك ؟ ستصبحين غنية يا جدتى ! فاحضرى فى الحال

تركت سماعة التليفون فوجدتنى أنا أيضاً أضطرب انفعالاً ، وحضر جورج وروث إلى الردهة ونظرا إلى محملقين وتساءلا :

— ماذا هناك ؟

فأجبت :

— لقد أخبرنى « كن » الآن أنهم قد وجدوا معدن الصفيح فى المزرعة

فنظر جورج مبهوتاً وقال :

— الصفيح ! . . . مرحى مرحى يا أمى إنك ستصبحين غنية

واندفعت « روث » نحوى فطوقتنى بساعديها وصاحت :

— يا للعجب ! لا تفكرى فى مغادرة هذا البيت أيتها الأم العزيزة ! يجب أن تفكى رباط حقيبتك فى الحال ! وإنك لتستطيعين أن تنتقلى إلى غرفتنا فهى أحسن غرفة فى البيت . وسيذهب جورج إلى المزرعة ويتولى الإشراف على العمل بنفسه ، ألا تذهب يا جورج ؟ والآن يجب أن تكلى إليه كل شىء

ولكننى ابتعدت عن روث وقلت فى فتور :

— لا ، وشكراً لك فإن « كن » و « آن » فى انتظارى وسأذهب إليهما ، فالمزرعة مزرعتى والصفيح صفيحى وسأتولى الأمر بنفسى

فبدا الحزن على روث وقالت :

— ولكنك لا تستطيعين أن تذهبي ، بل يجب أن تبقى هنا معنا يا عزيزتي وهذا البيت بيتك . . . ونحن . . . نحن محتاجون لوجودك معنا . . .

فابتسمت فى نفسي .. فصحيح أن روث محتاجة الآن إلى وجودي معها ، فقد أصبحت شيخة غنية بعد أن كنت عجوزاً مفلسة . هذه هي أخلاق روث

كذلك كان أبنائي الآخرون على شاكلة جورج وروث ، فلم يكد توم وآلان يسمعان الخبر حتى حضرا لزيارتي ، وقد حملا دعوتين ملحتين من زوجتيهما الماهرتين ترجوان فيهما أن أعيش معهما وكذلك أرسلت لى جين تلغرافاً تسألني فيه أن أذهب فى الحال إلى لندن ، ويظهر أن وجودي قد أصبح خفيفاً عليها فلن يقلق راحتها فى شيء

وجاءنى أيضاً تلغراف من هاري وإلينور يؤكدان فيه أن الوقت مناسب جداً لعودتى إليهما ، فابتسمت مرة أخرى ابتسامتي الخفيفة . وقلت فى نفسي :

— إنهم جميعاً يفكرون فى أنني سأموت بعد قليل ، ويتطلعون إلى الثروة التى سأتركها .

كان هذا شأنهم جميعاً ما عدا « آن » و« كن » فهما اللذان احتاجا إليّ عند ما لم أكن إلا جدة . لم أزد على أن كنت شيخة ضئيلة الجسم متواضعة حنونا أحببتهما من كل قلبي .

فالآن سأذهب إليهما ، وستكون الثروة التى يدرها علىّ منجم الصفيح ثروتهما بالغا ما بلغ مقدارها. لقد كان الله رحيماً كريما يواسي القلوب الكليمة بأسلوبه الحكيم ، لقد أفاض تعالى نعمته على عباده الحائرين صغاراً وشيوخاً ... نعم لقد كان الله كريماً رحيما . .

عبد الحميد حمدى

زئير الصين

مسرحية في فصل واحد

للآنسة منيرة سيم شاه

بقلم الأديب ابراهيم ت . ج . ما

منيرة سيم شاه محررة « مجلة الكتلة الاسلامية » . وقد وصفت فيها المؤلفة مشهداً صغيراً من مشاهد مقاومة السكان المدنيين المسلمين فى الصين للمعتدين . والقصة المفصلة فى هذه المسرحية حقيقة واقعة ، فهى جديرة إذن باهتمام القراء

الزمان : أول أيام سقوط تسينينج فى يد اليابانيين (٤ ابريل سنة ١٩٣٨)

المكان : فى الجامع الأكبر بمدينة تسينينج . ولاية سانتونج بالصين

توطئة للمترجم

صحت الشعوب من سباتها العميق على دوى المدافع فى البلاد المتمدنة الجديدة ، ولم تشذ عن هذه القاعدة بلاد الصين التى يبلغ عدد سكانها ٤٥٠ مليون نفس منهم ٥٠ مليونا من المسلمين . لقد عرفت الصين المدنية منذ أقدم العصور ، حينما كانت سائر الشعوب غارقة فى ظلمات الوحشية ، وحملت مصباح الحضارة فأضاءت الطريق للأمم بواسطة فلسفتها السلمية . وأخيراً درجت بخطى سريعة فى سبيل التقدم والنهضة منذ اتحادها فى سنة ١٩٢٦ فبرهنت للأمم الصديقة أنها تستطيع النسج على منوالها والسير على مثالها والحياة معها على أحسن ما يرام من الوفاق والوئام

لكن هذه النهضة المباركة التى نالت إعجاب الأمم والشعوب لم ترق لبلد كانت تربطه بالصين صلات الأخاء والجوار ، بل كان أول من ورث عنها المدنية والحضارة . فقد اعتقد هذا البلد أن تقدم الصين سيكون خطراً عليه . إلا أنه أخطأ كل الخطأ ، لأن الشعوب المقيمة فى الجمهورية الوسطى ليست من سلالة جنكيز خان أو تيمورلنك

وفى ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ بدأ الهجوم على هذا الشعب الآمن السالم ، إذ هجم أعداؤه دون مبرر معقول على بلاده المستقلة مبتدئين باحتلال قنطرة لوكو (المعروفة عند الأوربيين باسم قنطرة ماركوبولو)

كم تحمل الشعب الصينى من صنوف الاهانات والاعتداءات ، وأخيراً عيل صبره وهو الشعب الذى اشتهر فى التاريخ بتحمل المكاره دون أن يشكو . درج الصينيون على حب السلام ، مما جعلهم ينفرون من تسوية الأمور بالسيف والنار . أما الآن فقد غيرت صروف المقادير طباعهم فأصبحوا شعبا مجاهداً ، مولعا بالحروب ، شجاعا مدافعا عن نفسه ، فنال بذلك إعجاب العالم وتقديره

وفيما يلى مسرحية قصيرة فى فصل واحد ، بقلم الآنسة

الأشخاص : الشيوخ : —

الامام وانج (فى الصين يسكن الامام عادة فى الجامع ويتولى عدا الشؤون الدينية الجزء الأكبر من شؤون بنى دينه وهو شيخ بلحية طويلة)

المؤذن ما : رجل مسن بلحية طويلة

الوجيه يانج : رجل مسن بلحية طويلة

أشخاص أصغر منهم سنا : —

الوجيه لى

المرأة أ

الشبان : —

سينجتان يانج (ابنة الوجيه يانج)

أنشيانج يانج (ابن الوجيه يانج)

الرجل آ

الجموع : —

اثنا عشر رجلا وامرأة لاجئون في الجامع

اثنا عشر جنديا يابانيا

المشهد : وجهة قاعة كبرى . نظيفة جداً . آية فى فخامة البناء . حوائطها مدهونة باللون الأخضر ومزينة بنقوش باللغة العربية على شكل أهلة بيضاء . وإلى جانبى القاعة بابان . وبجوار الباب الأيسر لوحة مزينة بالرسوم والخطوط العربية . وقد علقت فى هذا المكان لاخفاء مخرج مغلق

وفى القاعة منبر ولوحات صغيرة محلاة بالخطوط العربية ، وأرضها مفروشة بالأبسطة الثمينة ، من صناعة سينتيانج ، والقاعة منقسمة قسمين بحاجز خشبى متنقل (باراڤان)

رفع الستار : صوت مطر يسمع من الخارج ، فيحدث انقباضا فى النفس ، وجو ساكن محزن فى الجزء الأمامى من القاعة يشعر بقرب وقوع كارثة فادحة . الامام وانج يسير ذهابا وإيابا مضطرب الأعصاب . ويتنهد حينا بعد حين

تنهدا عميقا مداعبا لحيته بحركة عصبية . والوجيهان وانج ولى جالسان على مقعدين فى حالة وجوم ، ويلقيان بين وقت ووقت بنظرهما على الامام وانج . ثم لا يلبث أن ينقطع صوت المطر ويتغلب عليه دوي المدافع الرشاشة .

* * *

الإمام وانج — (يقف فجأة) اسمعوا . لقد دخل اليابانيون المدينة

الوجيه يانج — (مرتعداً) آه !

الوجيه لى — (رافعا يديه إلى السماء) اللهم إليك نسلم أمورنا ، لقد قطعنا سنة لا تسمح لنا بحمل السلاح ، للدفاع عن المسجد ، وعن حياة الآلاف من إخواننا . اللهم نسألك معونتك (ثم أطرق برأسه بينما أخذت أصوات المدافع الرشاشة والبنادق تزداد وضوحا)

الإمام وانج — (واقفا أمام الجدران ، وقد وضع يده على جبهته كأنه أدرك شيئا) كلا . إن الله لا يحب الجبناء ورغم تقدمنا فى السن ، يجب علينا أن نسير إلى الأمام ونواجه الحوادث ، حتى ننقذ الآلاف من إخواننا . لنقل لليابانيين إن هذا هو المسجد فيتعين منحنا امتيازات وحمايتنا . (المؤذن يدخل من الباب الأيسر بخطى سريعة ثابتة وهو يرتدي جلبابا أسود)

المؤذن ما — أصبت يا سيدى الإمام وسأذهب معك لمفاوضة هؤلاء اليابانيين ، والإسراع خير من الانتظار ، لأن مئات من الناس أسلموا لنا أرواحهم فآويناهم فى المسجد فهل يمكن أن يظلوا إلى ما شاء الله فى الظلام . (اقتربت طلقات الرصاص . وسمع من خلف اللوحة التى تخفى باب الخروج طرقات قوية متوالية)

الإمام وانج — (مشيراً إلى اللوحة ومخاطبا ما) كيف الحال هناك ؟

المؤذن ما — (أخرج مفتاحا من جيبه) الحالة حسنة ، والباب مغلق بالمفتاح ؛ لكن الظلام حالك وعددهم كبير

الإمام وانج — (مخاطبا يانج ولى وهو يتنهد) ما رأيكم فى أن نذهب لمقابلة اليابانيين

الوجيه لى — أظن أن هذا هو الحل الوحيد ، سنفهمهم أننا رجال مثلهم ، وأنه يجب أن يكون عندهم شيء من الرحمة (استؤنفت الطرقات بشدة خلف اللوحة وساد الوجوم فى القاعة)

من خلف اللوحة (صوت رجل) : أيها المؤذن ما ! افتح الباب ودعنا نخرج . إننا لا نستطيع البقاء مختبئين فى هذا المكان . نريد الخروج . إن الحالة لا تطاق هنا

المؤذن ما — (مقتربا من اللوحة) إلزموا الهدوء قليلا ، تحملوا الظلام بصبر . ألا تعلمون أن اليابانيين قوم لا رحمة فى قلوبهم ؟

من خلف اللوحة (صوت امرأة) : دعنا نخرج . نريد أن نحدثك فى أمر مهم

الوجيه يانج — (متجها نحو اللوحة) : منجتان ! بنيتى منجتان ! إن اليابانيين هنا . إنهم فى الشوارع المجاورة . أصغى قليلاً إلى دوى المدافع الرشاشة والبنادق (تسمع أصوات المدافع) . إبقى فى مكانك ولا تتحركى . إصبرى قليلاً فى الظلام . فقد ينقذ حياتك وحياة أخيك وزملائك من الهلاك المحقق

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : سمعنا كل شيء يا أبتاه ، لكننى لا أستطيع تحمل الظلام أكثر من ذلك ... ياللعار ! وا خجلاه من الشباب الصينى !

من خلف اللوحة — (صوت رجل) : احترس من الذهاب للقاء اليابانيين أيها المؤذن ما . إنهم أناس لا رحمة فى قلوبهم . إنهم شياطين لا يتحدثون عن العدل ولا يدركون له معنى . فإذا ذهبت فلن تعود بالفشل فحسب ، بل تعرض حياتك للهلاك المحقق . ألم يأتك خبر ما ارتكبوه من المذابح فى البلاد

التي فتحوها ؟ ألا تدرى أنهم يجهلون المبادئ الإنسانية ولا يفهمون إلا فلسفة الدم ؟ ... إنهم وحوش ضارية يفترسون بني الإنسان ...

الوجيه يانج — (مقاطعا) : حسن جدًّا ، كلنا نعرف اليابانيين على حقيقتهم . فالزموا السكينة انتظاراً لقرارنا ...

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : يا أبتاه قل للمؤذن (ما) إننى لاأستطيع الانتظاراً كثر من ذلك ، أريد الخروج بل أفضل الموت على البقاء هنا . إن اليابانيين بين يدينا . أريد الدفاع عن نفسي والهجوم عليهم باسم أمتي وديني وشرفي . أنت تعلم أنني كنت دائماً سريعة التأثر قليلة الصبر ، فهل يرضيك أن أختنق هنا حية ؟... أبتاه ... أبتاه ... دعني أخرج ... (صوت رجل) : ماذا ننتظر هنا ، الموت أم الحياة ؟

الوجيه يانج — وا حسرتاه . . . ولكن . . . (متجها إلى المؤذن فى حركة عصبية) إفتح الباب ودع أولادى يخرجون . لا مانع لدىّ ما داموا يريدون التضحية بحياتهم فى سبيل الأمة والدين . بل إنه لشرف عظيم .

الإمام وانج — (اجتذب إليه الوجيه يانج وهمس في أذنه) لا تتسرع فى الأمر . واعلم أن اليابانيين لا يرحمون الشباب، فالأفضل أن نذهب نحن ونحدثهم بهدوء ، لن ينزلوا بنا أى عقاب، أؤكد لك ذلك . (ظل الوجيه يانج صامتا واكتفى بالايماء برأسه ثم تبع الامام)

الوجيه لى — أنظر إلى لحانا الطويلة . إنهم لن يلحقوا بنا أى أذى ، وسيحترمون بلا شك الرجال المتقدمين فى السن، أو يتسامحون معهم على الأقل . ومع ذلك فهل هم يلتهموننا أحياءويأكلوننا لحماًوعظماً ؟

الإمام وانج — على أنه لو نزل بنا مكروه لما أسفنا على ذلك أمام خالقنا وبنى ديننا .

المؤذن ما — هذا صحيح يا سيدى الإمام . سنبذل أقصى جهودنا لمحادثتهم، وإن أخفقنا فنسوى الأمور بهذه (مشيراً إلى قبضة يده — الجميع يضحكون بصوت عال)

من خلف اللوحة (صوت رجل) : علام عولتم هل تواجهون اليابانيين ؟ إنه جنون . ستلاقون حتفكم جميعاً . دعونا نخرج ، فمن واجب الشباب أن يذهب لتسوية الحساب مع العدو . (صوت امرأة): لا . لا . أتوسل إليكم . لا تذهبوا . إذا وعدتم ببقائكم كففنا عن المطالبة بالخروج ، ولزمنا الهدوء ولم نضايقكم (صوت تنهد)

الوجيه يانج — وهو كذلك . الزموا السكينة فالشيوخ لن يخاطروا بحياتهم (بصوت خافت) ومع هذا .. من خلف اللوحة (صوت رجل) : لا حرية بلا قوة .

(صوت امرأة) : إذا لم نعتصم بالقوة ، فلن يأتينا العدل من السماء .

الوجيه يانج — (بصوت مرتجف) : هل نذهب لنلاقي حتفنا بظلفنا . كلا .

الإمام وانج — (بصوت متهدج) : لم يبق لنا إلا هذه البارقة من الأمل .

الوجيه يانج — إهدأوا يا أولادى سنفتح لكم

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : حقاً . ما أسعدنا : إذاً ستبقون هنا معنا .

الوجيه يانج — نعم يا أولادى

من خلف اللوحة (صوت رجل) : هيا بنا لنخبر الآخرين يا منجتان . إنه لنبأ عظيم (وقع أقدام ونشيد وطني حماسي ... المقاومه . المقاومة ... اقتراب يوم

الانتصار والمجد ... ثم يبتعد صوت النشيد) ... (أما الأشخاص الظاهرون على المسرح فيلزمون الصمت ... ثم يضرب المؤذن ما الأرض بقدمه متحمسا غاضبا)

المؤذن ما — لقد آن أوان الاستشهاد يا إخوانى

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

فالدم هو الطريق الوحيد للحياة الأبدية الخالدة ، أليس من واجبنا أن نشيد صرح السلام فى هذا العالم الغارق فى الدماء ؟ لقد نشدنا الحق فوجدناه. أنظر ، إنه شاخص أمامنا . الله أكبر . الله أكبر .

(ارتسم السرور على جميع الوجوه)

الإمام وانج — (وقد رفع الأربعة أيديهم مبسوطة إلى السماء أمام صدورهم) الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم. اللهم سدد خطوات جميع محبي السلام، آمين .

(ثم يخرجون من المسرح وتسمع خطواتهم من خلف اللوحة)

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : أبتاه .

(صوت رجل) : أيها الإمام وانج. (صوت امرأة) . أيها المؤذن ما . (تسمع طرقات شديدة خلف اللوحة ثم تخف الطرقات شيئا فشيئا . وفجأة تسمع طلقات نارية على مسافة قريبة من المسجد . وتليها ضحكات عالية وحشية)

(صوت امرأة) : آه إنى أشعر بضيق فى صدرى . قلبي يحدثنى بأن الكارثة على وشك (صوت جسم يسقط)

(صوت رجل) : منجتان . استيقظى. استيقظى انهضى (وقع أقدام وأصوات كثيرة متضاربة) شكراً ياسيداتى وسادتى . لقد تحسنت صحتها الآن بعد أن أغمى عليها فزعاً من أصوات الطلقات النارية .

(صوت امرأة) : هل تعلم يا إنشياج أن أبى وزملاءه ذهبوا لملاقاة اليابانيين ؟ ترى هل أصيب أبى ورجال الدين بمكروه ؟

(صوت رجل) : لا . لا أظن ذلك . أغمضى عينيك واستريحى قليلاً يا منجتان

(تخف الصرخات وكذلك طلقات النار وبعود صوت المطر . يدخل من الباب الأيمن رجل زاحف على بطنه نحيف الهيكل مبللة ثيابه بالماء والدماء . هو الوجيه لى ويظهر أنه جريح . وقد بدا أصفر سنا برغم الدماء المخضب بها جسمه . يبتسم ابتسامة مرة . وينسى جرحه . فيحاول النهوض ، ولكنه يسقط مغشيا عليه . صمت دقيقتين على المسرح ، ثم تسمع أصوات الطلقات على مسافة بعيدة للدلالة على أن العدو لا وجود له تحت الأحذية الحديدية التى تطأ بها جيوش الامبراطورية اليابانية أرض الأعداء)

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : أخى . أتظن أن مصاباً حل بأبينا ؟

— (صوت رجل) : إفهمى جيداً يا منجتان . إن مئات الألوف يذبحون بسيوف اليابانيين الماضية فمن ذا الذى يضمن أنه لن يحدث شىء لأبى ولنا أيضاً ؟ لقد أمرنا الله عز وجل أن نصد هجمات العدو . فلماذا نبقى مختبئين هنا . إن هذا الجبن يؤلم نفسى . أكاد أجن من شدة الأسى . وأتساءل : لماذا لجأنا إلى هذا المكان ؟ يا للعار ! ألا يفتح لنا المؤذن ما هذا الباب لنخرج ؟ ... نعم يا أختاه ، لقد أصبت فى قولك إن اليابانيين بين أيدينا . فيجب أن نلقى عليهم درساً قاسياً ، احتراماً للأمة وللدين ولأنفسنا

— (صوت امرأة) : نعم يا أخى ، لقد فهمت ولو كان أبى ... فيجب أن أفكر فى بنى وطنى الذين يتألمون .. لا .. لست مريضة .. (تقرع الباب) افتح لنا . أيها المؤذن ما ... نريد أن نخرج لنقتل اليابانيين (طرقات قوية جداً)

الوجيه لى — (يستيقظ ويئن أنينا مؤلما) آه ! آه ! إنى أتألم .. أتألم ألماً شديداً (تكف الطرقات) آه اه آه ! يا لهول المصاب !

من خلف اللوحة (صوت رجل) : أتسمعين ؟ ترى من هذا ؟

— (صوت امرأة) : مَن أنت ؟ هل أنت أبى ؟ من أنت ؟ أجب !

الوجيه لى — أنا ... أنا ... لى ...

من خلف اللوحة — هو العم لى . ماذا حدث لك ؟ أين الآخرون ؟

— (صوت امرأة مضطرب) : إني خائفة ياأخي .. خائفة جداً

الوجيه لى — إنهم ... إنهم ... آه ! آه ! ما أشد آلامى !

من خلف اللوحة — (صوت رجل) : سنأتى إليك فى الحال يا عم لى ... إننا على استعداد ...

(ركلات أقدام قوية على الباب الذى تخفيه اللوحة ، حتى كادت تسقط من شدتها)

الوجيه لى — تمالكوا قليلاً.. لا يوجد شيء هنا (لكن ركلات الأقدام على الباب تشتد فيصبح صوت الشيخ غير مسموع) لا . . لا شيء ... إن الذين يريدون السلام راقدون الآن فى سلام ... لا تخرجوا (يزحف على الأرض متناسيا آلامه المبرحة) أنا ... لم أصب بشيء ... لكننى أخشى عليكم (وأخيراً تسقط اللوحة من شدة الضربات وتخرج جموع من الرجال والنساء كالسيل الجارف بعد كسر الباب . وقد بدا على وجوههم الهول والفزع وأثر السجن الطويل . وتظهر فتاة « فى المقدمة » . ثم تتملكهم الدهشة عند مايرون الوجيه لى غارقا فى دمائه)

منجتان يانج — (تقترب بسرعة) عمى (لى)

انشيانج يانج — (يبحث مع أخته) الدم يسيل من جبهته (يبحث فى موضع آخر) لا ... لا شيء فى موضع آخر (يمزق قميصه ويعطيه أخته) خذى ضمدى الجرح هنا

منجتان يانج — (تضمد جرح لى) إنه لفخر عظيم أن تسقط جريحا يا عماه ... والآخرون ؟ (ترتعد) وأبى ...

إنشانج يانج — (يرفع لى ويسنده إلى صدره) عماه

الوجيه لى — (عيناه مغمضتان . يفتحهما قليلا وينظر إلى الشبان) أما أنتم ... أما أنتم ... فاخرجوا من هنا (مشيراً إلى الباب الأيمن)

الرجل أ — نعم (يضم قبضة يده بشدة) سنخرج لنهزم أولئك اليابانيين الشياطين

الوجيه لى — هيا . إذهبوا ... إذهبوا ... (تبدو على شفتيه ابتسامة مرة وحركة تدل على محاولة إخفاء الألم) هيا ... إذهبوا ... إن الذين أحبوكم راقدون فى ركن الشارع الغربى . أنقلوا إلى هنا هؤلاء الشيوخ الأجلاء (يغمض عينيه) اللهم اشملهم ببركتك واجعل جنة النعيم مأواهم !

الرجل أ — باسم الله وباسم الدم الذى ورثناه عن أجدادنا ، لن نخاف شيئاً وسنكافح إلى النهاية . هيا بنا . هيا بنا ...

الجموع — هيا بنا . هيا بنا (اختفت الجموع من المسرح ، وقد حاولت منجتان يانج أن تنهض لتلحق بهم ، ولكن الوجيه لى منعها)

الوجيه لى — لا . لا . إبقى معى ، إننى فى حاجة إليك . إبقى معى قليلا !

منجتان يانج — أمرك يا عماه (تنظر إلى لى الذى كان يبدو عليه ما يدل على رغبته فى الكلام ، بيد أنه صمت)

إنشيانج يانج — ننقلهم إلى هنا (مخاطبا لى) إذن فأبى والآخرون جرحوا أيضاً وحالتهم خطرة جداً ، ولا يستطيعون السير على أقدامهم (منجتان يانج تحدق فى أخيها)

الوجيه لى — لا.. نعم.. إنهم.. (تدمع عيناه)

منجتان يانج — عماه . إنهم ...

الوجيه لى — (مضطربا) ستعلمون ذلك فيما بعد (ممسكا بيد إنشيانج يانج) يا ولداه لم نشأ الاستماع إلى نصيحتك ، فكانت النتيجة أن الإمام وانج والمؤذن ما ووالدك كلهم ...

انشيانج يانج — (محدقا فى لى بهدوء تام وقد امتقع وجهه ...)

منجتان يانج — (مضطربة) ماذا ؟ كلهم يا عماه ؟ ماذا حدث لهم ؟

الوجيه لى — أصغى يا بنيتى . لقد اعتقدنا أن إخفاءكم فى ركن مظلم من المسجد ليس بالوسيلة

المثلى لإنقاذ حياتكم . وكنا نعلم حق العلم أيضاً أن لا جدوى من التحدث فى العدل والإنصاف مع اليابانيين . ومع هذا فلم نتردد فى الالتجاء إلى محاولة أخيرة ، عسى أن نجد فى قلوب أولئك القوم شيئاً من الشفقة والرحمة . نعم إننا أدركنا ما فى نصائحكم من سداد الرأى ، لكننا ظننا أن اليابانيين سيحترمون سننا المتقدمة ولحانا الطويلة ... وأنهم ... أنهم ... فهل هناك من يتصور أن الشيوخ الكبار لا يمكن أن ينجوا من براثن هذه الذئاب الضارية ؟ نعم . وا أسفاه . هذه هى الحقيقة المؤلمة . لقد ذهبنا برغم ذلك . كانت الطرقات مقفرة كأنها قبور موحشة ، أو ميدان الوغى غداة الموقعة . خرجنا إلى الشارع . سمعنا أزيز . . . ززز . . . (وأشار إلى الجهة الغربية بصوت خنقته العبرات . . . على حين تبدو منجتان يانج فى أشد حالات الاضطراب) وأصابت رصاصة . . أصابت . . أصابت . . . أباك . . .

منجتان يانج — لكنه لم يمت . . أليس كذلك؟

الوجيه لى — مات . . . وا أسفاه

منجتان يانج — آه . أواه . واحسرتاه عليك يا أبى (بكاء) وا أبتاه نقسم بالله العلى العظيم أننا سننتقم لك! (يستمر الوجيه لى فى الأنين من شدة الألم ... وتكف منجتان يانج عن البكاء شيئا فشيئا)

انشيانج يانج — سنذكر إلى الأبد عدونا اللدود يا شقيقتى . أتسمعين ما أقول ؟

منجتان يانج — (تستأنف البكاء)

انشيانج يانج — خبرنا يا عمى (مخاطبا الوجيه لى) ماذا حدث للامام وانج وللمؤذن ما ؟ هل قتلا أيضاً بأيدى أولئك الشياطين . (منجتان يانج مطرقة الرأس تستمع باهتمام)

الوجيه لى — لقد أصيبوا جميعاً لسوء الحظ . أصيبوا بطلقات الرصاص وقتلوا لساعتهم وجرحت أيضاً ثم سقطت إلى جانبهم . لم أعرف هل كنت مبللاً بالماء أم بالدم ، وفى بادىء الأمر كنا معاً وحاولنا النهوض ، ولكن جهودنا ذهبت سدى . كان بعضنا يصرخ من شدة الألم ، وبعضنا يئن ويذكر اسم الله ... وبعد دقائق قليلة سكتوا ... وأصبحوا لا يتحركون . ثم سمعت دبيب أحذية حديدية مرت بجوارنا تتخللها ضحكات سخرية . حاولت أن أقف فاستطعت ، وبعد جهد جهيد اقتربت من زملائى ومسست أجسامهم فوجدتها باردة كالثلج . نعم . لقد رقدوا فى سلام . .

انشيانج يانج — حسن ! سنرد إلى أعدائنا تلك الطلقات النارية ، سننتقم ، سننتقم (ضحك مرمؤلم ،

الوجيه لى — (مخاطبا منجتان يانج) إنى متألم لمصابك ، ويكاد قلبى يتفتت من شدة الأسف . لكن صبراً جميلاً . فقد كان أبوك وزميلاه رجالاً صالحين فى هذه الحياة الدنيا . واستشهدوا فى سبيل أمتهم . وهم الآن فى جنات الخلد حيث ينعمون بالجزاء الحق ورضا العلى العظيم . (يسود السكون المسرح ويتخلله انتحاب منتانج يانج . تبتعد أصوات الطلقات النارية ويدخل رجال يحملون ثلاث جثث مضرجة بالدماء ، تجثو منتانج يانج وتبكى)

إنشيانج يانج — (يترك الوجيه لى وينهض) : أبتاه . يا أيها الإمام . يا أيها المؤذن أقسم بالله أننى سآخذ بثأركم (يحاول الخروج فيمسك بثيابه الوجيه لى) كلا . يجب أن أذهب (يمنعه الوجيه لى مرة أخرى) سأواجه الموت للانتقام . من أولئك اليابانيين الملعونين . إن وجهى يحمر خجلاً أمام بنى وطنى . على أن الوقت مازال متسعاً للانتقام (بكاء)

الوجيه لى — (يكفكف عبراته) هيا انقلوا جثث المتوفين إلى غرفة الأموات (رجال يحملون الجثث ويخرجون من باب آخر . مخاطبا أنشيانج يانج) ساعدنى على النهوض ، لأننى أريد الاضطجاع على سرير لأستريح (انشيانج يانج يساعده على النهوض ... مخاطبا

منجتان يانج : ضعى القفل فى الباب (الوحيه لى يسير ببطء متكئا على كتف انشيانج يانج . وتضع منجتان القفل فى الباب)

منجتان يانج — (واقفة بجوار الباب تنظر إلى الدم المختضبة به الأرض) : الدم ... الدم ... هذا دم أبى ... هذا دم بنى وطنى ... لقد سقطت مدينة تسنينج فى يد الأعداء . لقد هزمت جيوشنا القوية ... هذا هو اليوم الأول الذى أصبحنا فيه بلا أهل ولا أب . اغتيل الإمام وزملاؤه . أين بنى وطنى ؟ هل هربوا أم قتلهم العدو ؟ ... هذا هو اليوم الذى دخل فيه اليابانيون بلادنا . تُرَوْنَ ماذا سيحدث بعد هذا ؟ إلى أى مصير نحن مسوقون ؟ هل سنعيش إلى الأبد عبيداً أذلاء ؟ اللهم ارحم عبادك . لقد سئمت الحياة ، ولا أقبل الذل (ينخفض صوتها ... ثم يرتفع فجأة) : كلا . أريد أن أنتقم ... أريد أن أنتقم ... أريد أن أثأر لأبى ولبنى وطنى . نعم . نعم . لقد قررت هذا (تختفى من الباب الأيسر ... ثم يسمع دبيب أحذية حديدية من الباب الأيمن يتخلله ضحكات عالية)

منجتان يانج — (فى يدها سكين مطبخ) الانتقام الانتقام (تتقدم من الباب الأيمن فتسمع طرقات وضحكات وصراخ من الأعـداء) آه (دهشت ثم وقفت وفكرت وفكرت وفهمت كل شىء ... عادت أدراجها واصطحبت معها امرأة أخرى .. طرقات بقبضة اليد أولا ، ويليها طرقات بفوهة البنادق)

منجتان يانج — من الطارق ؟

من خلف الباب — ها ها ها (ضحكات عالية)

إفتحوا يا آنسات . إفتحوا لنا الباب ، نحن عشاقكن

منجتان يانج — (تضحك ضحكة فاترة) : هيه . (ثم تجرى إلى الباب ، وتغمغم بعض كلمات بصوت منخفض ثم تخرج وتشير إلى المرأة الأخرى بفتح الباب) : إفتحى الباب .

المرأة — (تفتح الباب يظهر على المسرح ستة جنود يابانيون سكارى) : آه ... (ثم تتقهقر عدة خطوات)

الجنود اليابانيون — (يرون منتجان يانج فيضحكون ضحكا عاليا ... تتقهقر منتجان يانج قليلا نحو الباب الأيسر)

ها ... ها ها ... لا تهربي منا يا آنسة (تحضر المرأة الأخرى منضدة فيجلس عليها الجنود اليابانيون ويقـذفون بقبعاتهم على منتجان يانج . فتهرب من الباب الأيسر وتفر المرأة الأخرى من الباب الأيمن ويركض الجنود للاحقتهما . تسمع من خلف الأبواب أصوات : أمسكوا بهم .. أمسكوا بهم . وبعد لحظات يظهر الجنود الستة موثقة أيديهم وأرجلهم ويسبقهم على المسرح إنشيانج يانج ومنجتان يانج وفى يد كل منهما بندقية يابانية

أنشيانج يانج — (يبحث فى جيوب الجنود وينزع منها المسدسات وأكياس الرصاص . ثم يعثر على حلى ثمينة وغيرها من النفائس التى تتزين بها السيدات) لا تخافوا ، سنرد إليكم هذا الرصاص فى الحال (ضحك سخرية)

الرجل أ — لنذهب بهم داخل الحجرة ليروا الذين اغتالوهم وليؤدوا ثمن ما جنت يداهم

انشيانج يانج — سنقضى على جميع الذين يأتون إلى هنا باحثين عن الهلاك !

الجموع — لن يخرجوا من هذا المأزق (يقذفون بالجنود نحو الباب الأيسر . ثم تسمع ست طلقات نارية ... وتعود الطرقات على الباب الأيمن . فتفتح المرأة نفسها ويظهر على المسرح ستة جنود يابانيون آخرون . تستدرجهم منتجان يانج إلى الباب الأيسر ، وتخرج بهم موثقى اليدين والقدمين . ثم يقذف الجنود الستة إلى الباب الأيمن خلف المسرح ... وأخيراً يعود الجميع وقد حمل كل منهم بندقية يابانية)

انشيانج يانج — الآن وقد أصبح لكل منا بندقية يابانية سنرد لهم رصاصهم (ثم يصطف الرجال ثلاثة ثلاثة ويخرجون من المسرح وهم ينشدون النشيد الآتى :)

هل تسمعون دوىّ مدافع الأعداء التى تخرب حقولنا ومنازلنا ؟

هل تسمعون أزيز الطائرات التى تلقى بقنابلها فتحرق مدننا الآهلة ؟

فلننهض ! فلننهض !

سنكافح الى آخر قطرة من دمنا لحماية وطننا العزيز !

ستار

من أحسن القصص

الحب أقوى من الموت

للكاتب الروسى ديمترى ميريجكوفسكى
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كانت أسرة « ألمرى » السالفة — من أهالى فلورنسا — فى قديم الزمن تتجر فى نوعين من التجارة مختلفين ، فقد راح البعض منهم يقدس « سانت أنتونى » حامى القصابين ، على حين اتخذ الآخرون شعاراً رسم عليه صورة حَمَل إذ كانوا يتجرون فى الصوف

وقد احترف الاخوان جيوفانى وماتيو ألمري ـ كأسلافهم الأولين ـ هاتين التجارتين ، فامتهن جيوفانى تجارة اللحوم فى مكان السوق القديم The Marcato Vecchio واتخذ ماتيو مصنعاً لغزل الصوف فى « آرنو » ، وكان الناس يتقاطرون على محل جزارة جيوفانى ، لا لأنهم يجدون لديه أحسن اللحوم من خنزير طازج وعجل طرى وأوز سمين فحسب، ولكن لأنهم ـ إلى هذا ـ يحبون صاحب المتجر لطباعه المرحة البهيجة ولسانه الحلو المعسول

تعريف بالقصة

كان ديمترى . س . ميريجكوفسكى أحد كتاب الروس الحديثين الذين كتبوا فيما وراء بلادهم ، وربما فعل هذا لأنه كان أقل عصبية من زملائه الروسيين . ولما رأى أن أدب بلاده آيل إلى الانحطاط والتفكك ، لفت نظر الكتاب إلى الرمزية الفرنسية كوسيلة لانعاش الأدب وإحيائه ، ولمح لهم إلى الأسلوب المحزن الكئيب الذى يصورون به آراءهم وأحاسيسهم نحو حياة هذا الوقت ، وقد أحس سحر المخلفات القديمة ، ولذة ما فى القصص التاريخية من تفاصيل غريبة وتصاوير دقيقة تناسب عبقريته ونبوغه ، وها هو ذا يقدم لنا فى قوة وبراعة « الحب أقوى من الموت » ، ومرجع هذه القصة إلى الأصل الايطالى لقصة جنيرفا كما ظهرت فى : «The Novellæ Domenico Manni» من آثار القرن الثامن عشر الفلورنسى . وقد عمد ميريجكوفسكى إلى كتابة القصة من جديد معتمداً على أسلوبه الخاص

المترجم

وما من أحد يستطيع أن يتبادل النكات المرحة ويلقى الملح الطريفة على السابلة ، أو الجيران ، أو المشترين فى حذق ومهارة كما كان يفعل ألمرى القصاب ، وما من أحد كان يقدر أن يتحدث بمثل تلك الزلاقة والإلمام عن الأحداث السياسية للشعب الفلورنسى أو عن تاريخ سلاطين آل عثمان أو عن مؤتمرات ملوك الفرنسيس

وما كان يسوء مزاح القصاب وهزله من الناس إلا قليلاً ؛ وكان يطبق عليهم المثل « إن المزاح لا يسوء الجار الطيب ، وإن اللسان لحاد مرهف فى المزاح كالموسى »

وكان أخوه ماتيو — تاجر الصوف — على خُلُق مختلف : كان حاد الذهن فى دهاء ومكر ، سياسى الطباع ، صموتاً عبوساً ، وقد اطرد نجاح أعماله أكثر من جيوفانى المهمل المهذار ، وكان له مركبان يغادران — كل سنة — ميناء « ليفورنو » محملين بالصوف إلى ثغر القسطنطينية . كان وثاباً طموحاً سلك فى سبيل إنماء ثروته سلوك السبيل إلى منصب فى الدولة كبير ، وقد انخرط فى سلك الطبقات الراقية والمجامع الأرستقراطية أو « الناس السمان » كما كان يطلق عليهم آنئذ

فى فلورنسا . وقد أمل أن يسمو بأسرة ألمرى إلى أعلى مرتبة اجتماعية . بل ربما يرى اسمه محلقاً على أجنحة شهرة خالدة وصيت باق ، ومضى ينصح لأخيه أن يهجر مهنة الجزارة لأنها مهنة ليست راقية وأن يضم أمواله إلى رأس مال ماتيو ، بيد أن جيوفانى أبى أن يأخذ بنصيحته إذ كان يخشى أخاه بقدر ما يعجب بمقدرته ، وراح يقول لنفسه دون تصريح « لسان معسول وقلب خؤون »

وفى يوم قائظ عاد جيوفانى إلى مثواه من دكانه تعباً مكدوداً ، ومن ثم أترع بطنه بعشاء ثقيل كعادته وجرع كما كبيراً من خمر مثلوجة ؛ فأصابته فجأة سكتة قلبية ، إذ كان بدين الجسم فى إفراط ، غليظ العنق فى قصر . قضى نحبه ليلاً دون أن يجد الفرصة لإشهاد أحد أو كتابة وصية . فسلمت مونا أرسولا أرملته ــ وهى امرأة طيبة القلب فى سذاجة وبلاهة ــ مقاليد تجارة زوجها إلى أخيه ماتيو الذى عرف كيف يخدعها بدهائه وكلماته المعسولة ؛ إذ استطاع أن يقنع المرأة الساذجة أن زوجها قد ترك « دفاتر حساباته » مضطربة نتيجة إهماله وتقصيره وأنه مات وهو على شفا الإفلاس وأنها إذا أرادت أن تنقذ البقية الباقية فعليها أن تغلق دكان اللحوم فى السوق القديم . وقد تناقلت أقاويل السوء أن ماتيو الداهية قد خدع الأرملة دون رحمة ليدير برأس مال جيوفانى مصانع الصوف تحقيقاً لرغبته القديمة . على كلٍّ ، شيء واحد كان واضحاً جلياً ، هو أن أعمال ماتيو قد تقدمت تقدماً كبيراً منذ ذلك الحين ، وبدلاً من مركبين اثنين مضى الآن يرسل إلى القسطنطينية خمسة أو ستة مشحونة بأفخر أنواع الصوف التوسكانى. وسرعان ما أضحى صاحب أكبر مصنع للصوف فى فلورنسا

وكان الراتب الذى أفرده لأرملة أخيه كل شهر جد ضئيل ؛ حتى أنها قاست أسباب الحرمان والفاقة لا سيما وهى ليست وحيدة ، إذ كان لها ابنة صغيرة عزيزة محبوبة اسمها جنيرفا . وما كان أحد من طلاب الزواج فى ذلك الوقت يقبل على العذارى اللواتى بدون صداق ، كما هو الحال الآن . بيد أن اليأس لم يتسرب إلى قلب مونا أرسولا المؤمنة الورعة إذ أخذت تصلى بحرارة وإخلاص لكل قديسى الله ورسله خصوصاً « سانت أنتونى » حامى القصابين فى الدنيا والآخرة . كان أملها قوياً فى أن الله — نصير الأرامل واليتامى — حتماً سيرسل إلى ابنتها التى لا تملك بائنة ، زوجاً صالحاً ثرياً

وكان ثمة سبب آخر يبشرها بقرب تحقيق ذلك الأمل ، هو جمال جنيرفا وسحرها . حتى أنه لما يصعب تصديقه أن جيوفانى البدين المهذار ينجب تلك الابنة الطرية الفينانة . وكانت جنيرفا دائماً ترتدى ثوباً أسود فضفاضاً وتضع حول عنقها الطويل الجميل قلادة من اللؤلؤ تتوسطها ياقوتة أثرية صفراء ، وتربط رأسها بعصابة من الموسلين تصل حتى منتصف جبينها شفافة حتى أن المرء ليرى خللها خصلات شعرها الذهبى الباهت ؛ وكان وجه جنيرفا هو وجه العذراء التى صورتها ريشة الرسام فيلبى لبى ، العذراء الطاهرة التى تبدت للقديس برنارد فى الصحراء ، وبأصابع كالشمع قلبت صفحات كتابه ...

كانت شفتاها اللتان كشفتى الطفل ، ونظراتها الهادئة الحزينة وحاجباها الخفيفان العاليان ، كان كل أولئك يحمل أقصى معانى البراءة والطهر . ومع أنها كانت ندية كالزهرة شابة كالربيع إلا أن منظرها كان يدل على ضعفها وقصر عمرها كما لو كانت لم تخلق للحياة

وعند ما كانت ابنة القصاب تتخذ سبيلها إلى الكنيسة فى هدوء واحتشام بأعين مسبلة وبكتاب الصلوات فى يديها كان الشبان المسرعون إلى وليمة أو رحلة صيد يوقفون خيلهم ويعلو وجوههم توا أمارات الاهتمام ، ويختفى هزلهم وضحكاتهم ويمضون يتبعون جنيرفا الجميلة أبصارهم

وعند ما سمع العم ماتيو كلمات المديح والإطراء تنصب انصباباً حول أخلاق ابنة أخيه الفاضلة ، حزم أمره على أن يزوجها من فرنسسكو ديلاً جولانتى أحد سكرتيرى الجمهورية وكان رجلاً شيخاً ، ولكنه كان محترماً من الجميع يرتبط بصلات وطيدة مع عظماء المدينة البرزين فى ذلك الحين ، وكان فرنسسكو أحد تلاميذ المدرسة اللاتينية الكبار ، وقد دأب على أن يكتب تقاريره ومضبوطاته بالأسلوب الفلسفى الذى كان لليفى وسالوست ، وكان بطبعه عبوساً متجهماً ؛ بيد أنه كان أميناً (كرومانى قديم) لا يحمل سلوكه منفذاً للوم والتعنيف ، وكان وجهه كوجه أحد أعضاء « السناتو » أيام الجمهورية ، وقد عرف كيف يرتدى عباءة موظفى فلورنسا الطويلة الحمراء القاتمة كأنها «روب» رومانى حقيقى «Areal Roman Toga»

وكان يحب اللغات القديمة حباً جماً حتى أنه حينما كانت اللغة الإغريقية شائعة فى توسكانيا وحينما جاء المعلم البيزنطى « عمانوئيل كريزو لوراس » من القسطنطينية يحاضر فى قواعد اللغة الإغريقية فى الاستديو (اسم الجامعة آنذاك) لم يستنكف أجولانتى بالرغم من سنه المتوسطة ومركزه كسكرتير فى الجمهورية الفلورنسية أن يجلس جنباً إلى جنب مع الصبية الصغار على المقاعد المدرسية ، وقد أتقن اللغة الإغريقية حتى استطاع أن يقرأ النسخ الأصلية لفلسفة أرسطو ومحاورات أفلاطون . على الجملة لم يكن يأمل تاجر الصوف (وهو الداهية الطموح) فى شخص ينتسب إليه أكثر نفعاً وأسمى مركزاً من هذا . وقد تعهد ماتيو أن يهب ابنة أخيه بائنة كبيرة على شرط أن يرتبط اسم أجولانتى باسم ألمرى

وقد صادف ذلك طبعاً هوى فى فؤاد فرنسسكو ؛ غير أن جنيرفا مضت تمهل عمها وتؤجل موعد الزفاف من سنة لسنة ، وحينما سألها عمها حزم أمرها أعلنته بأن ثمة رجلاً آخر تحبه أكثر من أجولانتى . وبالرغم من خوف مونا أرسولا ودهشتها ، فقد صرحت باسم أنتونيو روندنيللى المثال الشاب الذى يقوم مصنعه فى أحد الشوارع الضيقة فى « بونت فيكيو »

وقد تعرف أنتونيو بجنيرفا فى بيت أمها منذ أشهر قلائل . فقد استأذن أن يصنع تمثالاً من الشمع لرأس الفتاة الصغيرة ابتغاء بث جمال جنيرفا فى صورة بارزة للشهيدة المقدسة باربارة أوصاه بها راهب ثرى يثوى فى إحدى ضواحى المدينة . ولم تشأ مونا أرسولا أن ترفض للمثال الشاب طلباً كهذا لوجه الدين . وإبان العمل وقع المثال فى حب نموذجه الجميلة ، ثم تلاقيا فى المحافل الشعبية والمجتمعات الشتوية حيث كثيراً ما كانت تدعى جنيرفا بحرارة وإلحاح ، إذ كان جمالها من أقوى أسباب الترحيب بها فى كل حفل أو وليمة

ولما أن جهرت مونا أرسولا ـ مع إبداء أسفها واعتذارها ـ إلى ماتيو بأن جنيرفا لها خطيب آخر تحبه ، وحينما ذكرت اسم انتونيو روندنيللى ، تمالك نفسه وكبح جماح غضبه المتضرم وسدد إلى مونا أرسولا نظرات وادعة وقال فى لين وهدوء :

— لو لم أسمع ياسيدتى ما قلته الآن بأذنى

لما كنت أصدق أبداً أن امرأة حكيمة فاضلة مثلك تعير شابا أرعن قليل الاختبارمثل هذا أدنى اهتمام . لست أدرى كيف يحدث مثل ذلك فى هذه الأيام ؛ ولكن فى عصرنا لم يكن للبنت أى رأى وليس لها أن تلفظ أى كلمة فى اختيار زوجها . فى كل شيء كن يطعن آباءهن ، وأولياء أمورهن. تبصرى قليلاً فى الأمر . من هذا الأنتونيو التى شرفته ابنة أخى باختيارها ؟ . أيحتمل أن تكونى غيرعالمة أن المثالين والشعراء والممثلين والمطربين الجوابين إن هم إلاأناس لا يملكون ما يفعلون غير هذا ، ولا يصلحون ألبتة لأعمال مثمرة مفيدة ؟ . إنهم أخف الناس عقولاً ، وأكثرهم وهماً وخيالاً فى هذه الدنيا الواسعة . إنهم سكيرون بوهيميون ، كسالى ملحدون ، مترفون مبذرون لأموالهم وأموال غيرهم . أما عن أنتونيو ، فلا إخالك لم تسمعى بكل ما تعرفه فلورنسا عنه . وسأذكر لك ببساطة إحدى ميزاته . تلك السلة المعلقة بحبل فى دكانه ، فى تلك السلة يضع أنتونيو كل المال الذى ينزع دون حصد ولاعد . وكل من يرغب ، سواء أكان تلميذاً له أم أحداً من معارفه ، فى استطاعته أن يأتى وينزل السلة دون أن يعلم صاحبها أو يستأذنه ، ويأخذ ما يشاء من المال ، نحاس أوفضة أو ذهب . فهل تحسبين ياسيدتى أنى أضع مالى ــ البائنة التى وعدت ابنتك ــ فى يد مثل ذلك المعتوه ؟

« وليس هــذا كل ما فى الأمر . ألا تعلمين أن أنتونيو ينطوى على إلحاد خفى وإباحية مستبدة غرسهما الشيطان فى قلبه، فجعله لا يذهب إلى الكنيسة ويسخر بالسر المقدس ولا يعتقد فى الله . لقد أنبأنى بعض الأخيار أنه يعبد تلك التماثيل والأوثان الرخامية التى تمثل الآلهة والأرباب ، والتى ابتُدئ يُكشف عنها . يقدسها أكثر مما يبارك صور القديسين ، والرســل الخالدة .. وقد حدثنى بعضهم أنه ، وتلاميذه يشرِّحون الجثث التى يبتاعها من حراس المستشفى بأبهظ الأثمــان ليدرس عليها خفايا الجسد البشرى من أعصاب وعضلات ادعاء التثبت من فنه والتضلع فيه ؛ ولــكنه فى الحقيقة يفعل كل هذا إرضاء لمساعده وناصحه ، عدومخلصنا القديم ، الشيطان الذى يوصى إليه بالشعوذة السوداء. لقد أغوى ذلك الضال بنتك الطاهرة واجتذب قلبها برقته الزائفة ، وسحره الجهنمى وأساليبه الشيطانية »

بمثل هذا الحديث مضى ماتيو يخيف مونا أرسولا ليحملها على الاعتقاد أنه على حق . ولما أن أنبأت ابنتها أنها فى حالة رفضها الاقتران بفرانسسكو ديلاجولانتى سيكف عمها حتما عن إعطائهما راتبهما الشهرى . أترع الحزن واليأس قلب الفتاة ؛ بيد أنها رضخت لحظها وجمت أمرها على إطاعة عمها

وفى أثناء تلك السنة انقضت على فلورنسا رزيئة فادحة ، مصيبة تنبأ بها المنجمون من قبــل ، لأن كوكب المريخ دنا منه كوكبا زحل والعقرب دنواً كبيراً . كان عدد كبير من تجار الشرق قد أقبلوا يحملون بين طيات أقمشتهم الهندية ميكروبات الطاعون وتقــدمت المواكب الرهيبة فى الطرقات يرددون المزامير حاملين صور جميع القديسين ، وسُنَّتْ القوانين تحرم تفريغ القامات فى المدينة وحرم على المدابغ والمذابح تصريف فضلاتها فى « آرنو » وضرب نطاق حول المرضى خشية اختلاطهم بالأصحاء وخوفاً من التعرض لعقاب الغرامة أو السجن بل الموت أحياناً ، حرص الناس ألا يتركوا فى بيوتهم أولئك الذين ماتوا أثناء الليل إلى شروق الشمس

حتى ولو كان سبب الموت أدواء أخرى

وانبث لذلك مفتشون يحرسون خلال الطرقات والسبل قارعين الأبواب سائلين عن مرضى في البيوت أو موتى . بل قد يفتشون البيت بأنفسهم إذا ساورتهم الشكوك والريب . وكانت ترى هنا وهناك العربات الملطخة بالقار بين دخان المشاعل يحف بها رجال فى ثياب سود صامتين ملثمين يحملون الخطاطيف التى يلتقطون بها ضحايا الطاعون ويلقون بها فى العربات اتقاء مسها . وكان ثمة إشاعات أن هؤلاء الطغاة العتاة الذين يطلق عليهم الناس لقب « الشياطين السود » كانوا يلتقطون الأجساد التى ما زال بها رمق كيلا يعودوا إلى المكان عينه مرة ثانية

وظل الطاعون الذى انتشر فى أواخر الصيف ، منتشراً حتى وقت متأخر من الخريف ، بل حتى فصل الشتاء الذى أقبل مبكراً هذه السنة ، ولم يمح آثاره ولم يقتل جراثيمه . وهرع أغنياء فلورنسا الذين لا تربطهم مهام قوية بالمدينة إلى بيوتهم الريفية حيث الجو طاهر نقى من جراثيم الطاعون

وخوفاً من أن تغير جنيرفا رأيها تعجل العم ماتيو يوم الزفاف بحجة أن مونا أرسولا وبنتها يجب أن تبرحا المدينة بأسرع ما يمكن ، وأن فرنسسكو ديلاجولانتى قد عرض أن يأخذ جنيرفا وأمها إلى جوسقه الجميل عند سفح « مونت ألبانو »

كانت هذه رغبة ماتيو ، وقد تحققت ، إذ تم الاتفاق على أن تكون ليلة العرس بعد أيام قلائل . فأقيمت الحفلة دون جلبة ولا ضوضاء كما كان سائداً فى تلك الأيام الحزينة . وفى ليلة العرس وقفت جنيرفا كالخيال ممتقعة شاحبة يعلو قسمات وجهها هدوء رهيب . بيد أن عمها أمل أن تزول تلك الأوهام ، أوهام الشباب عقب الزفاف . وأن فرنسسكو سيعرف كيف يكتسب حب عروسه الصغيرة

ولكن آماله لم تكن لتتحق . فعند ما غادرت العروس الصغيرة الكنيسة ودخلت بيت زوجها بدأت تحس دواراً . وفجأة سقطت على الأرض كأنها ماتت . وبلغ ظن الكل أولاً أنها فى غشية وحاولوا أن يثيبوا إليها رشدها ؛ بيد أن عينيها ظلتا مسبلتين وأخذ تنفسها يضعف ووجها وسائر بدنها يتحولان إلى صفرة الموت ، وسرت البرودة فى أطرافها . وجاء طبيب بعد بضع ساعات (فى ذلك الحين كان الناس يستدعون الأطباء رغماً عنهم وفى طى الخفاء كيلا يتسرب فى المدينة خبر وجود مريض بالطاعون فى البيت) ؛ ولكنه عند ما أدنى مرآة من فم جنيرفا المسلوبة الحياة لم يبد عليها أى أثر لأخف نفس

هنالك اعتقد الجميع والحسرة تملأ نفوسهم والحزن يخيم على رؤسهم أن جنيرفا قد ماتت حقا ولغط الجيران أن الله قد صب جام عقابه على ألمرى لإقامته الزفاف فى مثل ذلك الوقت غير اللائق . وأن عروس فرنسسكو الصغيرة نالها الطاعون فماتت عقب عودتها من الكنيسة . وقد انتشرت هذه الاشاعات سريعاً لأن أهل الفتاة كانوا فى خوف من زيارة « الشياطين السود » لذلك كتموا خبر غشية الفتاة وموتها حتى اللحظة الأخيرة . ولكن عندما أقبل المساء أتى المفتشون الذين وقفوا على دقائق الحال من الجيران وطلبوا إلى أهل الميت أن يسلموهم جثة جنيرفا أو يدفنوها توًّا ؛ بيد أنهم حينما أخذوا « رشوة » جسيمة ، قبلوا أن يتركوا الجثة فى بيت فرنسسكو حتى مساء اليوم التالى .

لم يبق أحد من الأهل فى مرية من موت جنيرفا

إلا مربيتها العجوز التى يرميها الجميع بالجهل والغباء . فتوسلت إليهم فى بكاء مؤلم ألا يدفنوا جنيرفا مؤكدة أن الطبيب مخطىء فإن جنيرفا لم تمت ، بل أنها فى نوم عميق . وأقسمت أنها حينما وضعت يدها على قلب عزيزتها (أحست أن القلب يخفق فى ضعف ، فى ضعف ، بل أضعف من رفيف جناح فراشة) .

وتصرم اليوم ولم تبد جنيرفا أى دليل على حياتها فطويت فى أكفانها ووضعت فى نعشها ، ثم حملت إلى الكتدرائية . وكان القبر الجاف الخشن مرصوفة أرضه بالآجر التوسكانى ، جاثما بين بابى الكنيسة فى إحدى ساحات الجبانة تحت ظل أشجار السرو الشماء العالية ، بين قبور أشراف فلورنسا وأعيانها . وقد دفع ماتيو فى ذلك القبر ثمناً باهظاً . ولكن المال أخذ من البائنة التى كانت ستدفعها جنيرفا . وكانت عملية الدفن يحف بها المهابة والوقار. إذ أضيئت الشموع وأعطى كل فقير — لذكرى جنيرفا — كيلاً من زيت الزيتون مقابل نصف « صولدو [1] » . وبالرغم من برودة الجو وهول الطاعون كان فى الجنازة جمع غفير . ولم يستطع البعض — حتى الغرباء منهم — حبس دموعهم حينما سمعوا قصة موت العروس الصغيرة ، وراحوا يتمتمون بجملة بترارك الحلوة

« يبدو الموت جميلاً على وجهها الجميل » .

وقد ألقى فرنسسكو على قبرها رثاء مقتبساً ليس من اللاتينية فحسب ، بل من الإغريقية لأفلاطون وهومـيرس ، وقد كان ذلك حدثاً جديداً فى هذه الأيام ، أخذ بألباب جميع المنصتين إليه حتى أولئك الذين لا يفهمون الإغريقية .

(١) « الصولدو » عملة إيطالية

وقد حدث بعض الاضطراب فى أخريات الحفل حينما حمل النعش من الكتدرائية إلى الرمس لتوديعها بالقبلة الأخيرة . إذ شق رجل شاحب الوجه فى عباءة حريرية طريقه إلى الفتاة المسجاة ، ورفع عن وجهها غطاءه ، وبدأ يحدق فيها بنظرات ثابتة . فطلب إليه أن يتنحى ويبتعد ، وأخبر أنه عار عليه — وهو غريب — أن يدنو من جنيرفا ، ولما يتركها أهلها بعد . فلما سمع الرجل المتقنع أنه وصف بالغريب ، وأن ماتيو وفرنسسكو قد نعتا بالأهل ، ابتسم فى مرارة وقبل الفتاة الميتة فى ثغرها وأعاد الغطاء على وجهها ، ثم ابتعد عن الجمع دون أن ينبس . فدار الهمس بين المحتشدين ، وأشاروا إليه مرددين اسم انتونيو دى روندنيللى ، الرجل الذى أحبته جنيرفا ، والذى ماتت فى سبيل حبه .

واختفت بقايا الشفق وانتهت الجنازة ، وبدأ الجمع فى الانصراف . فرغبت مونا أرسولا فى قضاء الليل بجانب النعش ، فعارضها العم ماتيو . إذ أنها بلغت من الحزن مبلغاً كان يخشى على حياتها من قسوته . فقط بقى الأخ ماريانو — وهو راهب دومنيكانى — بجوار القبر ليقرأ الصلوات على الميت

وتقضت بضع ساعات . وفى هدوء الليل الشامل لم يكن يسمع سوى صوت الراهب ودقات الساعة من أعلى برج « جيوتو » من حين لحين . وأحس الأخ ماريانو بعد منتصف الليل بظمأ شديد. فسحب زجاجة من الخمر فى عنف وأمال رأسه إلى الوراء ، وتناول بضع جرعات قليلة بسرور ولذة . ثم خيل إليه أنه سمع زفرة ، فأرهف السمع فبلغت سمعيه زفرة أخرى . وفى تلك المرة بدا له كأن غطاء وجه الفتاة قد اهتز وارتعش . فتملكه رغب شديد بعث

فى هيكله الرجفة . ولما كان قليل الاختبار فى مثل تلك الأمور ، ويعلم جيداً أنه حتى من خبروا هذه الحالات تطفى على أذهانهم خيالات وأوهام ، حين ينفردون بجثة أثناء الليل . فقد عوّل على ألاّ يلقى بالاً إلى الأمر ، ورسم علامة الصليب ثم مضى يردد الصلاة بصوت جهورى طنان .

وانقطع صوت الراهب فجأة ، وتصلب مكانه ، وثبتت عيناه الجاحظتان على وجه الفتاة الميتة ، لم تكن هذه المرة زفرة ، بل أنين أتى من بين شفتيها . ولم يبق لدى الأخ ماريانو أدنى شك بعد ذلك ، إذ رأى صدر الفتاة يعلو ويهبط ببطء ، فيهز الغطاء الشفاف الذى على وجهها ، كانت تتنفس ، فرسم علامة الصليب وهو يرتعد من الرأس إلى القدم . ثم اندفع نحو الباب ، وقفز فصار خارج القبر . ولما استعاد نفسه بفعل الهواء البارد حمل ما حدث على الوهم والتخيل وعاد إلى الباب مستعيذاً بالعذراء ، ونظر إلى جوف المقبرة ؛ فانفجرت من بين شفتيه صرخة مفزعة . كانت الفتاة الميتة قد استوت جالسة فى نعشها بعينين مفتوحتين ، فأسرع الأخ ماريانو يعدو عبر الجبانة دون أن يلتفت خلفه . ثم عبر ساحة سان جيوفانى ثم طريق « ريكاسولى » . فقط كان يُسمع وقع (صندله) الخشبى على الشارع المرصوف المغطى بالثلج فى سكون الليل الرهيب .

وعندما أفاقت جنيرفا ألمرى من نومها ، أو من غيبوبتها التى تشبه الموت ، راحت تفحص نعشها بعينين يشع منهما الخبل ، وانبث فيهما الرعب حينما أدركت أنهـا دفنت حية . وبقوة يائسة قامت من نعشها وأحكمت أكفانها حول جسدها . ثم اتجهت إلى الباب الذى تركه الراهب مفتوحاً ، وخرجت إلى الجبانة . ثم إلى الساحة أمام الـكتدرائية . وكانت أشعة القمر تنساب من بين السحب السريعة التى كانت الرياح تمزقها شر ممزق ، وبدا برج «جيوتو» الرخامى فى ضوء القمر منتصباً فى صلابة وشمم . وكانت أفكار جنيرفا مرتبكة مضطربة ورأسها يتمايل ويترنح وقد خيل إليها أنها والبرج سيحملان إلى السحب المغمورة بضوء القمر . لم تدرك تماماً إذا ما كانت حية أو ميتة ، إذا ما كان هذا حلماً أم يقظة .

وسارت على غير هدًى فى شـوارع مقفرة ساكنة . واسترعى بصرها بيت تعرفه ، فتوثقت ثم سارت إليه وطرقت الباب ، كان بيت عمها ماتيو

وبالرغم من هذه "الساعة المتأخرة ، لم يكن تاجر الصوف قد آوى إلى فراشه . كان فى انتظار رسول من القسطنطينية إثر إخطار أتاه . وقد كانت بضع إشاعات قد بلغت العم ماتيو تدور حول غرق سفن كثيرة على مقربة من ساحل « ليفورنو » وخشى أن تكون سـفينتاه ضمنها ، وأحس وهو فى انتظار رسوله بالجوع . فأمر خادمه « نينسيا » . ــ وهى فتاة جميلة ذات شعر أحمر وثنايا بيض سواحر ــ أن تجهز له ديكاً محمراً . وكان العم ماتيو عزباً عجوزاً وفى تلك الليلة كان يجلس فى المطبخ بجوار النيران حيث كان البرد شديداً فى بقية الحجرات . وكانت نينسيا تجهز الديك بوجه مورد وذراعين مشمرين . وكان لهيب النار ينعكس على الخزف البراق والأباريق المغسولة والصحون التى استوت على الرفوف . وقال ماتيو وهو يرهف السمع :

ــ نينسيا . أما سمعت شيئاً ؟

ــ إنها الريح . سوف لا أذهب . لقد أرسلتنى إلى الخارج ثلاث مرات .

— وما ذلك بريح . امرؤ يطرق الباب . إنه الرسول . إذهبي وافتحي الباب حالاً .

فبدأت نينسيا المكتنزة تنزل الدرج الخشبي في تراخ وكسل بينا وقف العم ماتيو على رأس السلم ممسكاً بمصباح ينير لها السبيل . وسألت الخادم

— من هناك ؟ ... فأجاب صوت خافت من وراء الباب :

— إنه ... إنه أنا جنيرفا ألمرى ... فتمتمت الخادم فى ذعر :

— يسوع .. يسو ...

وابتدأت ساقاها ترتعدان ، ولتنقذ نفسها من السقوط تشبثت بسياج السلم ...

واصفر وجه ماتيو وسقط المصباح من يده . وتوسلت جنيرفا قائلة :

— نينسيا . نينسيا . افتحي الباب . أسرعى . دعيني أدفىء نفسى . إننى مقرورة أنبئى عمى أنه أنا

وبالرغم من بدانة الخادم ، اندفعت نحو السلم تجرى عليه صاعدة حتى سُمع للدرج صرير تحت قدميها :

— هو ذا رسولك الذى تنتظر . لقد أنبأتك أنه خير لك أن تذهب وتنام كمسيحى مؤمن . . . أوه ! أوه ! يطرق ثانية . . . أتسمع ؟ إن الروح المسكين يئن ويتألم . كم هو مؤلم أنينه . آه يا إلهى ! أنقذنا وارحمنا نحن المذنبين صل من أجلنا أى قديسنا لورنس ... فقال ماتيو فى تردد :

— اسمعى يا نينسيا . سأذهب لأرى ماذا هناك من يدرى ... ربما ... فصرخت نينسيا وهى تشبك يديها :

— ماذا ستفعل أيضاً ... فكر فيه فقط ... يا للرجل الشجاع ! أو هل تظن أنى أدعك تذهب ؟ إنك ترتعد كما لو كنت ذاهباً إلى الآخرة ... هيه ؟ ليس ثمة فائدة من ذهابك . إبق هنا واحمد الله أنْ لم يحدث لنا أسوأ من هذا

وأخذت نينسيا زجاجة ملأى بالماء المقدس ورشت منها على الباب الخارجى وعلى أرض البيتْ والسلم والمطبخ ، وعلى ماتيو نفسه . . . وأطاع الخادمَ ولم يُخَيِّبْ رجاءها ، زعماً منه أنها أكثر معرفة فى التصرف مع الأرواح . واستحلفت نينسيا الروح بصوت مرتفع قائلة :

— أيها الروح المبارك . إذهب بربك .. الموتى للموتى جعل الله مثواك دار الحق

فلما أن سمعت جنيرفا أنها خوطبت كأنها ميتة أدركت أنه ليس ثمة داع لبقائها هنا ، فنهضت من جلستها على مدخل البيت حيث كانت قد سقطت إعياء ، وضربت فى الطريق تبحث عن مأوى

سارت بقدميها المتجمدتين فى تعب وإرهاق حتى وصلت إلى الشارع المجاور حيث يقوم منزل فرنسسكو ديلاّ جولانتى

كان سكرتير جمهورية فلورنسا فى هذا الوقت يكتب رسالة فلسفية باللاتينية إلى صديق له فى ميلانو يدعى ميشيو ديللو برتى كان مولعاً هو أيضاً بالملاحم القديمة . كانت رسالته فى اللاهوت عنوانها : « خطاب لذكرى الروح التى ارتبطت برابطة الموت ، روح زوجتى الحبيبة ، جنيرفا ألمرى » . ومضى فرنسسكو يقارن بين مذهب أرسطو ومذهب أفلاطون ، مُفَنِّداً وجهة نظر توماس أكويناس الذى يجزم بأن فلسفة أرسطو تتفق وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية من ناحية الجنة والنار ، بينما راح فرنسسكو يدلل فى براعة ومنطق سليم أن أرسطو

كان فى الخفاء شاكاً ملحداً وأن « أفلاطون » المعجب الكبير بالآلهة هو الذى كان يتمشى مع تعاليم الكنيسة المسيحية

وكان مصباحه الزيتى المثبت على مكتبه إلى جانب عدد كبير من الأدراج ، وأقسام الورق والحبر ، والأقلام ، يحترق فى لهب هادىء لطيف . وكان المصباح عبارة عن تمثال صغير « لتريتون(١) » يعانق إحدى غوانى البحر ، وهذا يدل على ولع فرنسسكو طوال حياته باقتناء التحف التى على هيئة النماذج القديمة وكان على المكتب أيضاً تماثيل من ذهب تمثل رقص كيوبيد ، وملائكة تحمل أكاليل من زهور الجنة ينعكس بريقها على صفحات القراطيس الناعمة كالحرير ، الصلبة كالعاج .

وكان فرنسسكو يهم بتحليل نقطة لاهوتية من مذهب تقمص الأرواح . ويُلمِّح فى حذق ، ومهارة إلى مذهب « البيثاجوريان(٢) » الذى يحرم أكل البقول زعما أنها تحتوى على أرواح الأولين — عند ما سمع فجأة طرقا على الباب . فقطب حاجبيه ، إذ كان لا يطيق أى إزعاج إبان عمله . على أية ، فقد ذهب إلى النافذة وفتحها ، ثم أطل منها إلى الشارع وعلى ضوء القمر الشاحب رأى جينرفا ملتفة فى أكفانها .

فنسى فرنسسكو أفلاطون وارسطاليس وأغلق النافذة فى سرعة حتى أن جينرفا لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة . ثم ابتدأ يردد صلاة العذراء ، ويرسم علامة الصليب فى رعب هائل مثل نينسيا ؛ بيد أنه تمالك نفسه سريعاً . وخجل للرعب الذى ران على قلبه حينما تذكر ما قاله بلوتونيس الأسكندرى ، وبروكلس عن ظهور الموتى ، تمالك نفسه توا وأطل من النافذة وقال فى صوت ثابت :

— إذهب سواء أكنت روحاً سماوياً أم روحاً أرضياً . إذهب إلى حيث كنت لأنك تحاول عبثاً أن تخيف ذلك الذى استنار عقله بالفلسفة الحقة . قد تستطيع أن تخدع عينى الظاهرتين ؛ ولكن عبثا تحاول خداع عينى عقلى وإدراكى . إذهب بسلام . الموتى للموتى .

ثم أغلق النافذة جامعا أمره ألا يفتحها ثانية حتى ولو أقبلت فرقة بأكملها من الخيالات والأطياف البائسة تقرع الباب .

فشرعت جنيرفا تضرب فى المسير . ولما كانت على مقربة من السوق القديم فقد أُلفَتْ نفسها عند مأوى أمها .

كانت مونا أرسولا جاثية أمام الصليب وبجوارها وقف الراهب جياكومو شاحب الوجه ضعيفاً واهنا من أثر الصيام . فرفعت عينيها الجزعتين إليه وقالت :

— ماذا أصنع يا أبت ؟ ساعدنى . لا أحس صبراً ولا خضوعاً . ولا أشعر فى نفسى برغبة إلى الصلاة . يبدو أن الله خذلنى ، واجتوانى وهجرنى ، وقضى على روحى بالهلاك . فقال الراهب يحثها على الصبر :

— أطيعى الله فى كل شىء حتى النهاية . لاتتذمرى . هدئى من صوت جسدك المتمرد . فإن حبك المحض لابنتك إن هو إلاّ حب جسدى لا روحى . ليس الحزن لأن جسدها مات . بل الحزن لأنها مثلت أمام الله ولما تتب توبة صادقة . خطيئة

(١) تريتون : نصف إله ، أحد نافخى البوق من أتباع نبتون إله البحار .

(٢) بيثاجوارس : فيلسوف إغريقى قديم عاش سنة ٥٣٣ ق . م

كبرى وذنب عظيم . وفى تلك اللحظة سمع طرق على الباب :

— أمى . أمى . افتحى سريعاً . إنه أنا . دعينى أدخل . أسرعى

— جنيرفا !

قالتها مونا أرسولا فى دهشة عنيفة وهمت بالاندفاع نحو بنتها . ولكن الراهب تصدى لها :

— أين تذهبين ؟ إن ابنتك الآن فى قبرها ميتة . . . ولن تقوم حتى يوم الحساب . إنْ هذا إلا الروح الشريرة تخدعك بصوت ابنتك . بصوت جسدك ودمك . توبى وصلى . صلى قبل أن يفوت الأوان وتولى الفرصة . صلى من أجل نفسك وروح جنيرفا الخاطئة . هذا ما ينقذكما من الخسران المبين

— أمى . ألا تسمعين ، ألا تعرفين صوتى ؟ إنه أنا . إنى على قيد الحياة ... لست ميتة !

— دعنى أذهب إليها ، أى أبى . دعنى

— اذهبى . ولتعلمى أنك بذلك لا تعرضين نفسك للهلاك فحسب ، بل روح جنيرفا أيضاً . . . عليك لعنة الله فى الدنيا والآخرة

وامتلأ وجه القس بآيات البغض الشديد وتوهجت عيناه ببريق من النار غريب ، مما جعل مونا أرسولا تقف خائفة وجلة . ثم شبكت يديها وجثت تحت قدميه تصلى

فاتجه الراهب جيا كومو نحو الباب ورسم إشارة الصليب وقال :

— باسم الأب والإبن والروح القدس ... أستحلفك بدم المسيح الذى صلب أن تختفى ... أن تذهبى أيتها الملعونة . إنها أرض مقدسة . أى إلٰهى لا تقدنا إلى الغواية والضلال بل خلصنا من السوء والوبال ...

— أمى ... أمى ... رحمة بى ... إنى أموت

وهمت الأم مرة ثانية ومدت ذراعيها نحو ابنتها بيد أن الراهب ، فى شحوب كالموتى ، وقف حائلاً بينهما ...

فسقطت جنيرفا على الأرض وأحست البرد يكاد يقتلها . وعقدت يديها حول ركبتيها ونكست رأسها ثم عقدت النية ألا تقوم ثانية ولا تتحرك حتى تموت ... ومضت تفكر « ليس للموتى أن يعودوا إلى الأحياء » ثم ذكرت أنتونيو فقالت فى نفسها : « أيحتمل أن ينبذنى أيضاً ؟ » ... لقد فكرت فيه من قبل ؛ ولكنها شعرت بالخجل يطغى عليها ، إذ أنها لم تشأ أن تذهب إليه ليلاً بمفردها وهى ذات بعل ... ولكنها الآن ميتة أمام الأحياء

واختفى القمر ، واكتست الجبال بالثلج ، وانتصبت شاحبة أمام الصبح السافر . ومن مجلسها فى مدخل بيت أمها وقفت جنيرفا ، ثم اتجهت إلى بيت غريب بعد إذ ضاقت بها بيوت الأهل والأقارب

وكان أنتونيو قد قضى الليل كله فى صنع تمثال من الشمع لجنيرفا . لم ينتبه إلى مرور الوقت وكيف تسرب الضوء البارد ، ضوء صباح الشتاء الأزرق ، إلى الغرفة من خلال النافذة . وكان يساعده فى عمله تلميذه المقرب بارتولينو وهو شاب فى السابعة عشرة من عمره ذو شعر ناعم ووجه كوجوه الفتيات

وكان وجه المثال هادئاً . خيل إليه أنه يعيد الحياة إلى المائتة ويهبها بقاء جديداً . وبدت الجفون كأنها ستهتز وتنفتح ، والصدر كأنه سيعلو ويهبط وكأن الدم الحار يتدفق فى عروقها الجميلة

وانتهى من عمله ؛ وبينا كان يحاول أن يرسم على شفتى تمثال جنيرفا ابتسامة طاهرة ، إذ سمع طرقاً على الباب . فقال دون أن يترك عمله :

— بارتولينو ! إفتح الباب

فذهب التلميذ إلى الباب وسأل :

— من هناك ؟

فأجابه صوت كصوت نسيم المساء لا يكاد يسمع :

— أنا جنيرفا ألمرى

فقفز بارتولينو إلى أقصى مكان فى الغرفة شاحباً مرتعداً ، وراح يهمهم وهو يرسم علامة الصليب : « الميتة ... ! »

بيد أن أنتونيو عرف صوت حبيبته فاندفع إلى بارتولينو وخطف منه المفتاح خطفاً فعاجله التلميذ قائلاً وأسنانه تصطك:

— فكر فى نفسك ياأنتونيو . ماذا أنت صانع ؟

فأسرع أنتونيو نحو الباب وفتحه ؛ فألفى جنيرفا ملقاة على عتبته كأنها جثة هامدة ، وقد تجمد الطل على خصلات شعرها الناعم ، ولكنه لم يحس أى خوف إذ كان قلبه مفعما بحنو شديد . انحنى فوقها تتناثر كلمات الحب من فيه . ثم حملها وعاد إلى مثواه .

أرقدها على بضع وسائد وغطاها بأحسن غطاء لديه ، ثم بعث بارتولينو إلى السيدة العجوز التى استأجر منها غرفة عمله . ثم أوقد ناراً فى الموقد وأدفأ عليها بعض الخمر وسقاها منه قطرات . فتنفست بعد ذلك فى راحة وسهولة وهى وإن كانت لم تستطع الكلام ، إلا أنها فتحت عينيها . فامتلأ قلب أنتونيو بالفرح ، وقال لها وهو يذرع الغرفة غدوا ورواحا :

— ستقبل المرأة حالاً ، لقد دبرت كل شىء .

فقط اغفرى لى تلك الفوضى التى ترين ياسيدتى جنيرفا

وأنزل أنتونيو السلة خجلان حيران وأخرج منها بعض المال ناوله بارتولينو وأخبره أن يسرع إلى السوق ليشترى لحما وخبزاً وخضراً لطعام الافطار . ولما أقبلت المرأة العجوز ، أمرها أن تهيء حساء فروج ساخن

وأسرع التلميذ إلى السوق بأسرع ما فى مكنته ، بينا ذهبت العجوز تذبح فروجاً وبقى أنتونيو مع جنيرفا وحده . فنادته ، فلما جثا بجوارها حدثته بكل ما مر بها من حوادث ، ثم عقبت قائلة :

— أوه ياعزيزى ! أنت وحدك الذى لم تخف حينما جئتك ميتة . أنت وحدك الذى يحبنى حباً صادقاً

فسألها أنتونيو : هل أستدعى أهلك ؟ عمك ، وأمك ، أو زوجك ؟

— ليس لى أهل . ليس لى زوج ولا عم ولا أم . إنهم جميعاً غرباء إلا إياك . إننى ميتة فى نظرهم ... ولكنى على قيد الحياة فى نظرك أنت ... وأنا لك .

وبدأت أشعة الشمس الأولى تنصب فى الحجرة فتبسمت له جنيرفا . وكان لون الحياة يفيء إلى خديها كلما ترجلت الشمس . وجرى الدم حاراً فى عروقها

وحينما انحنى أنتونيو عليها ، وضمها إليه وقبلها فى ثغرها ، أحست كأن الشمس تعيد إليها الحياة ، وتهبها حياة أخرى خالدة . وهمست تقول له :

— أنتونيو ! تبارك الموت الذى علمنا الحب . تبارك الحب . إنه أقوى من الموت .

محمد عبد الفتاح محمد

حاجى بابا اصفهانى

للكاتب الانجليزى "جمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثانى والسبعون

حادثة فى الطريق — حاجى بابا يجد فى نصيحة عثمان أغا تعزية وسلوانا

خرجت من المنزل لا ألوى على شىء وأسرعت فى مشيتى وظللت مدة لا أشعر بشىء ولا أسمع حتى ولا وقع قدمىَّ إذ كنت مشوش الأفكار مهموماً محزوناً أحس باللوعة تكاد تمزق صدرى وبالأسى يوشك أن يفتت كبدى . وحين وقع نظرى على البحر جملت أقول : « إن من الحكمة أن ألقى بنفسى فيه » غير أنى أثناء اجتيازى ميداناً فسيحاً من ميادين المدينة رأيت حادثاً كان له رغم تفاهته أثر عظيم فى نفسى إلى حد أنه غير مجرى أفكارى وأنقذنى من الانتحار

وقفت أشاهد معركة من معارك الكلاب مما يكثر وقوعه فى شوارع الآستانة فتسلل كلب إلى حظيرة جماعة من الكلاب واعتدى على حقوقها بأن سرق قطعة عظم وجرى بها . وتبع ذلك عواء شديد ونباح وانطلقت الكلاب جميعاً وكادوا يصلون إليه . وهنا تصادف أن قابل الكلب السارق بعض رفاقه فطلب منهم المعونة ورجع بهم إلى مهاجمة مطارديه وبذلك بدأت المعركة

وقد خطر لى خاطر أثناء وقوفى أشهد هذا المنظر فقلت : « يارب ما أعظم قدرتك وأحكم إرادتك وما أقل عقل من يندم على شىء أنت أردته وقدَّرته ! يارب لقد شاءت قدرتك أن أمر من هنا لأتعلم درساً ولأعلم الطريق الذى يجب اتباعه . إن المونة والمساعدة فى متناول الذى يطلبها. ذلك هو الدرس، وإنى لمتبعه إن شاء الله رغم أن الكلب هو الذى علمنيه . نعم يجب أن نعجب من حكمة تأتى بها الحيوانات ويفوت الآدمي إدراكها، فلن أدع اليأس يتسلط علىَّ وسأبحث عن صديق أجد العزاء والسلوان فى تجاريبه كما رأيت هذا الكلب يفعل الآن

واتجهت خطواتى إلى حيث كان صديقى الأمين ومرشدى وناصحى الشيخ عثمان أغا فهو على الرغم من كونه تركياً كان يعاملنى كما لو كان مواطناً لى ومشاركا لى فى عقيدتى

استقبلنى فى سكون وهدأة كعادته، وحين قصصت عليه بلواى صعد نفساً طويلاً من غليونه الذى لا يفارقه وتنهد قائلاً : « الله كريم ! » ثم قال لى : « اعلم يا صديقى أنك حين حضرت إلينا بكل ما عليك من مظاهر النعمة ودلائل الثراء والغنى ورآك مواطنوك كذلك تنبأت لك منذ تلك اللحظة بضربة تصيبك ومصيبة تحل بك ... إنك لا تزال صغيراً ولم تحمل على كتفيك من الأعوام الطويلة والتجاريب القاسية مثل الذى أحمل ، فأنت لا تدرك أثر النعمة الحادثة فى نفوس الأشقياء المناكيد . . . أكنت تتصور أن قوماً من طبقتك فى الحياة يرزحون تحت مايعانونه من العمل المتواصل والكد العنيف لا يعتمدون فى رزقهم إلا على قصبة تبغ يبيعونها أو كيس تبغ شيرازى يتجرون فيه ، أكنت تحسبهم يطيقون أن يروا زميلاً عليه من مظاهر العز والغنى مالم يتصوروه

فى أحلامهم أو يتخيلوه طول أيامهم ؟ إنك لو كنت تفوقهم حذقاً أو تبزهم مقدرة وعزماً ثم ظهرت أمامهم بلباس أحسن من لباسهم وحال أنعم من حالهم، أو رأوك تمتطى الجياد وقد اعتادوا ركوب الحمير لهان الأمر ولما أوغرت صدورهم وأثرت حزازات نفوسهم. ولكن الذى أوقد نيران الحسد وأشعل لهيب الضغينة ظهورك بملابسك الأنيقة وغليونك المذهب وجوادك المطهم بين خدمك وحشمك وما كنت فيه من عظمة وكبرياء وعجب وخيلاء . وإن ذلك كله كان مفاجأة لم يسبقها امتياز لك عليهم ولا تدرج فى التفاوت بينك وبينهم فأذللتهم بذلك وحطمت عزائمهم فلم يحتملوا الأمر وحقدوا عليك ووطدوا العزم على إرجاعك — إن أمكنهم — إلى حالتك الأولى، فمن الجلى أنهم هم الذين أسروا إلى أصهارك أنك لست بالتاجر البغدادى ولكنك ابن حلاق فى أصفهان وأنك بائع سلع حقيرة

ولم يشك أصهارك فى صدقهم بسبب الريبة التى كانت تحوم حولك ولتلاعبك فى عقد الزواج وحيرتك فى تحديد ثروتك . ومن الواضح أيضاً أن أصهارك أدركوا كذبك فيما ادعيت من شرف الأصل وكرم المنبت وسعة الثروة، فمن متاجر فى بخارى إلى مراكب تسبح فى بحار الصين . ولو كنت ظهرت أولاً فى غير جلبة ولا ضوضاء بمظهرك الحقيقى لكنت نصحت لك وحذرتك من الظهور أمام أبناء بلدك بشىء يدل على النعمة أو ينم على الغنى . ولكن الأمر انتهى ووقع المقدور ولا حيلة لنا اليوم فيما حدث . وكل ما أوصيك به الآن أن تتعلم من ماضيك ما ينفعك فى مستقبلك »

وبعد أن انتهى الرجل من حديثه عاد إلى غليونه

فقلت له : « قد يكون حقاً ما ظننت، وقد يكون الأمر قد انتهى ونفذ السهم وليس لنا غير السكون والصبر؛ غير أننى مسلم يا صديقى أعتقد فى عدل الله ولم أسمع قط أن امرأة طردت زوجها من بيتها وإن كان العكس كثير الشيوع . ولست أعلم ولا أستطيع أن أعلم بأى حق تقبلنى هذه السيدة زوجاً ثم لا تلبث أن تطردنى من منزلها فى هيئة تخجل الكلاب . إنها امرأة خبيثة سرها أن تعاشرنى فى الصباح ثم تهجرنى فى المساء

إن فى المدينة قضاة وشيوخ إسلام كما هى الحال فى كل بلد إسلامى فلماذا لا أرفع مظلمتى إليهم ؟ إنهم يقبضون مرتباتهم لإقامة العدل ورد المظالم فكيف يجلسون مطمئنين إذا سمحوا بمثل مظلمتى ولم يردوا العدل إلى نصابه ؟ إننى باحث بإذن الله عن حقى »

فقال صديقى عثمان أغا : « هل جننت يا حاجى بابا حتى تطلب مقاضاة أرملة أمير من أعظم أمراء الإسلام ، بينما يحميها أخواها وهما تاجران من أغنى تجار الآستانة ؟ أين عشت كل حياتك حتى لا تعلم أن الذهب والمال هما الحق والعدل ؟ إنك لو ظهرت أمام المحكمة تطالب بحقك ومعك ما شئت من حجج وبراهين ووقف أمامك صهرك بماله وجاهه، هل تشك فى أن الحق يكون فى جانبه ؟ »

فقلت متأوهاً : « إرحمنى يا أرحم الراحمين ! هل ضاع العدل وفقد الناس الذمم ؟ بئس عالما هذا شأنه ! إننى لا أستطيع أن أنزل عن حقوقى وسأطالب بها »

وجعلت من يأسى وحسرتى أبكى بكاء مراً وأنتحب نحيباً شديداً وجلست من يأسى وحسرتى أبكى وأنتحب ونزعت بعض شعرات من لحيتى فحاول عثمان أغا أن يهدئ من روعى ويسكن من هياجى

فأخذ يذكرنى بحياتى الماضية وبحوادثنا وما شاهدناه أثناء سجننا لدى التركمان وقال لى : « إن الله قادر وحليم وكل ما يصيبنا فى حياتنا فهو مكتوب مقدر فليس لنا إلا الرضوخ لما قدر علينا »

فخطر لى خاطر جديد وقلت : « ولكننى إيرانى فكيف أقبل ظلماً من تركى ؟ إننا أمة عظيمة لها تاريخها وعظمتها من عهد جنكيز خان وتيمور خان ونادر خان الذين رفعوا شأننا وأذاعوا فضلنا بين العالمين ، والذين قتلوا رجال الترك ونهبوا ديارهم أينما وجدوهم . سأسعى إلى سفيرنا وأقص عليه الأمر . فإن كان رجلاً شهماً رد لى حقوقى من مغتصبيها . نعم . نعم . إن السفير سيرد زوجى إلىّ . ما أحسن هذا الخاطر وأطيبه ! ثم سنرى من يستطيع أخذها منى ثانياً » .

وكنت قد تشبعت بهذا الخاطر ، وامتلأت به نفسى حتى لم أقف لأسمع مايقول عثمان أغا فى الموضوع وانطلقت ممتلئاً نشاطاً وإقداماً أسعى إلى ممثل ملكنا الأعظم الذى كان لحسن الحظ قد وصل قريباً فى شأن من شئون الدولة مع الباب العالى .

الفصل الثالث والسبعون

عثوره على صديقه - بعض أخبار ميرزا فيروز

علمت أن السفير يقطن فى حى اسكوتارى . فيممت ذلك الحى ، وجعلت أرتب أفكارى وأنظم خواطرى لأقدم للسفير مظلمة جديرة بالاهتمام . وبعد أن نزلت من القارب سألت عن منزل السفير . فلما وصلت إليه رأيت حديقة حافلة بالأتباع والخدم، وقد ذكرونى بموطنى الذى يختلف كثيراً عن البلاد التركية بمابدا لى من ملامحهم وسرعة حركتهم .

ولما تكلمت معهم أدركوا أننى واحد منهم رغم ملابسى التركية ، ووعدونى أن يدخلونى إلى سيدهم من غير عناء .

غير أننى كنت أريد قبل أن أدخل إلى السفير أن أعلم شيئاً من طباعه وأحواله حتى أستطيع أن أظهر أمامه بالشكل الذى يريد ، وأحادثه باللغة التى يحب .

لذلك تحادثت مع أحد الأتباع من غير حذر أو مواربة عن كل ما أستفهم عنه ، وكانت نتيجة حديثى أننى علمت أن السفير اسمه فيروز ، وقد ولد فى شيراز من أبوين محترمين ، ولو أنهما ليسا من علية القوم خلا أمه التى كانت شقيقة وزير قديم ذى سطوة وجاه ، والذى كان السبب فى ارتقاء الشاه إلى العرش .

وتزوج السفير من ابنة خاله الوزير المذكور ، وساعده ذلك الزواج أن ينال مركزاً فى الحكومة وكان قبل ذلك قد مارس عدة شؤون جعلته يزور كثيراً من الممالك ، ونتج عن ذلك أن اختاره الشاه وزيراً لشئونه الخارجية .

ثم قال : « إنه رجل ذكى القلب سريع الخاطر جبار العقل سريع الغضب غير أنه مع غضبه كثير التسامح ولو أنه حين يغضب لا يسلم المرء من شدته

وقد وهبه الله ملكة الخطابة والتأثير ، وبها استطاع أن ينجو فى مركزه من أية ورطة يقوده إليها مركزه وحدة طبعه ، وهو يعامل خدمه وحاشيته بالحلم والرقة أحياناً وأحياناً بالشدة والقسوة فيسمح لهم فى بعض الأحيان أن يقولوا ما يشاؤون فى حضرته ، وفى البعض الآخر لا يجرؤ أحد أن يقترب منه ، ولكنه يغلب عليه التبسط فى الحديث

والرقة واللين وحب المزاح .

ذلك هو الرجل الذى قادونى إليه . وقد رأيته جالساً فى أحد أركان الغرفة كعادة أهل إيران ، وبسبب جلوسه لم أعرف أطويل هو أم قصير ... غير أن وجهه كان من أجمل الوجوه ، وهو عريض الكتفين ، عريض الصدر ، أقنى الأنف ، واسع العينين متألقهما ، جميل الفم جذاب ، له لحية يحسده الراؤون عليها . وكان مثالاً للجمال الفارسى ، وبعد أن تبادلنا السلام قال لى : « هل أنت إيرانى » ؟

فقلت : « نعم » .

قال : « إذن لِمَ تتزيا بالزى العثمانى ؟ إن لنا بحمد الله ملكاً ودولة لا يخجل من الانتماء إليهما أي إنسان » .

فأجبته : « لقد قلت حقاً . ولما لبست ثياب الأتراك وتشبهت بهم صرت أحقر من كلب ورأيت أيام بؤس لا توصف ، وتفتت كبدى أسى حيث اختلطت بهؤلاء القوم الملاعين ، وليس لى من حام غير الله وغيرك » .

فقال لى : « وكيف ذلك ؟ تكلم ! هل نال أحد الأصفهانيين، إذ يظهر من لهجتك أنك أصفهانى، ضرر أو أذى من ترك ؟ عجيب هذا والله ! إننا ما حضرنا إلى هنا ، وما قطعنا كل هذه المسافات الشاسعة إلا لنذيقهم العذاب لا لكى يعذبونا » .

قصصت عليه كل أمرى منذ البدء إلى النهاية وكنت كلما تقدمت فى الرواية ازداد هو إقبالاً علىّ وانشراحاً بحديثى إلى أن وصلت إلى قصة زواجى فأخذ يضحك ضحكا عالياً متواصلاً من الرواية التى رويتها عن زوجتى ، وقد سره ما أخبرته به من أمر الوليمة التى أقمتها والاحترام الذى قوبلت به وأبهتى وعظمتى اللتين ظهرت بهما ، وكنت كلما ذكرت شيئاً من خديعتى لعجول الأتراك (كما كان يسميهم السفير) وغشى لهم زاد سروره وانشراحه وكثر ضحكه وأخذ يقاطعنى بقوله : « بارك الله فيك يا أصفهانى ! بارك الله فى ذكائك أيها المفلس ! والله لو كنت فى مكانك ما صنعت خيراً مما تصنع »

ولكننى حين قصصت عليه ما فعله مواطنىّ من حسدهم وضغينتهم وما تم أخيراً فى منزلى ، والشتائم التى انهالت علىّ من النسوة وأقارب زوجتى . وحين مثلت له حالتى حين خرجت من المنزل رأيته بدل أن يظهر الشفقة والأسى لما نالنى أخذ يضحك ويتمايل من شدة الضحك وقد احمرّ وجهه وانتفخت عروق جبهته ولم يلبث أن استلقى على وسادته من تأثير الضحك الشديد

فقلت له : « أتوسل إليك ياسيدى أن تفكر فى مركزى الحاضر . لقد كنت أنام على فراش من ورد فأصبحت لا أجد ما أتوسده . وكنت أمتطى خير الجياد فأصبحت أتمنى أن يكون لى حمار حقير

إننى حين أتصور ما كان لى من ثروة وغنى، من ثياب فاخرة وخدم وحشم وحمامات من رخام وغلايين وفناجين وكل ما يمكن أن يشتهي المرء، ثم أرى نفسى اليوم لا أملك ما أتبلغ به ؛ حين أتصور ذلك أعانى حسرة أية حسرة! وأكابد لوعة أية لوعة! إن هذه الذكريات لتثير كل شعور فى نفسى إلا السرور، وتحدث كل شيء بنفسى إلا الضحك مهما يكن تأثيرها فى نفسك »

فصاح السفير ضاحكاً : « إن هؤلاء الأتراك معاتيه وإننى أتخيلهم الآن بلحاهم الطويلة ورؤوسهم الصلعاء ، وقد انطلت عليهم رواية الإيرانى الخبيث وأكاذيبه . ولولا أن أبلغهم الأمر فارسيون من

جنسه لظلوا فى عمايتهم ولما خامرهم شك ولا ريبة .

ثم قال لى : ماذا أستطيع أن أعمل ؟ لست والدك ولا عمك لأتدخل فى أمر زواجك ، وأقنع أهل زوجتك ، ولست قاضياً ولا مفتياً لأفصل فى موضوعك » .

فأجبته : « نعم . لست واحداً ممن ذكرت غير أنك حامىَّ هنا ونصيرى ، وأنت تمثل ظل الله على الأرض فلا تتخلَّ عنى ولا تسمح باضطهاد يصيب مسكيناً غريباً مثلى »

فقال لى : « هل ترغب فى استرجاع زوجتك على أن تظل عرضة للقتل فى كل لحظة ؟ ماذا يفيدك الغنى والثروة والجاه والسطوة إذا وجدوك قتيلاً فى صبيحة اليوم الذى تستردها فيه ؟ كلا ! كلا ! كن عاقلاً وأصغ إلى قولى واستمع لنصحى . ألق كل ما عليك من ملابس الأتراك وارجع كما كنت فارسياً . فإذا ما استعدت شكلك الأول فكرت فى أمرك ، وفيما يجب أن أعمل من أجلك . لقد أطربتنى قصتك وأعجبنى ذكاؤك وفطنتك وصدقنى أن فى الحياة ما يفوق النوم على فراش من ورد ، والتدخين طول اليوم فى قصبة تبغ أو ركوب جواد ضخم فالبث هنا وإذا اشتقت يوماً إلى اللهو والضحك أحضرتك لتقص علىَّ قصتك ثانياً » .

وعند ذلك قمت فقبلت أطراف ثيابه شاكراً فضله . وتراجعت غير عالم بما يكون من أمرى فى حالتى هذه .

الفصل الرابع والسبعون

حاجى بابا يحوز ثقة السفير

لقد قيل إن الحاجة لجواد يعدو براكبه فيصل إلى ما لا يصل إليه الجواد السابق . وكنت قلقاً كثير الهم والتفكير ، فآمالى من حيث الحياة الناعمة والعيش الطيب قد ذهبت أدراج الرياح ورأيت نفسى مضطراً إلى الكد والنصب لأحصل على ما يقوم بأمورى

وأخيراً قلت لنفسى : « لئن فقدت المنزل فقد عثرت على صديق وليس من العقل أن أرفض حمايته ولا شك أن العناية التى حفظتنى والقدر الذى سدد خطواتى سيتمهداننى فى مستقبلى وقد أصل يوماً من الأيام إذا شاءت المقادير إلى حالة لا أقلق معها على الحياة »

وصممت على التقرب من السفير ، وسرنى أن رأيت أن البشاشة التى أظهرها عند أول مقابلة قد زادت ، وكثر عطفه علىَّ مع توالى الأيام . وقد استفاد السفير منى إذ جعلنى أستطلع له الأخبار ، وأؤدى له خدمات حكومية ، وأخرى خاصة بمهمته التى جاء من أجلها .

وشغلنى عن البحث فى مستقبلى الاهتمام بالحوادث العامة ، والأمور الخارجية ، وكنت لا أعرف عن الأمم من قبل غير أمتى وأمة الترك ، وأسماء بعض الأمم الأخرى مثل الصين والهند والأفغان والتاتار والكرد . وكنت أعرف العرب كذلك ، وأعرف من الأفريقيين بعض أجناس كنت أراهم يخدمون فى منازلنا .

وعرفت من الفرنج الروسيين (إذا كان هذا هو اسمهم) وقد كنا كثيراً ما نرى بعض رجالهم فى إيران . وسمعت عن الإنكليز والفرنسيين .

فلما دخلت إلى الآستانة دهشت إذ سمعت بوجود أجناس أخرى من الفرنج غير الثلاثة الأجناس التى ذكرتها ، ولكننى كنت مشغولاً بأمورى الخاصة

فلم ألتفت كثيراً إلى ما يختص بهذه الأجناس .

فلما انضممت إلى أتباع السفير ، وصرت فى معيته سمعت عن أشياء لم تكن تخطر ببالى من قبل وسر السفير إذ علم أننى أسعى إلى مرضاته ، وانتهى أمره بأن منحنى ثقته التامة .

ففى صباح أحد الأيام بعد أن تسلم رسائله الرسمية ، أرسل فى طلبى وقال : إنه يريد محادثتى على انفراد فى أمر هام . وأمر كل من كان موجوداً بالانصراف وأجلسنى . ثم قال لى بصوت منخفض : « يا حاجى بابا . إننى أريد أن أحادثك . فإن القوم الذين تتكون منهم معيتى لا يفقهون ما أريد . وهم فارسيون أذكياء إلا أنهم لا يدركون من شئون الدولة شيئاً ، ويعطلون الأعمال التى حضرت من أجلها أكثر مما يساعدوننى على إنجازها . غير أننى والحمد لله قد وجدت فيك الرجل الذى أطلب . فأنت فوق هؤلاء الرجال خبرة ودراية ، وقد رأيت من العالم وحوادثه وتجاريبه فوق ما رأوا ، ويمكن الاستفادة بك . إنك تستطيع أن تضحك من الذقون ، وتستخرج لباب الأمور من غير أن تلمس ظواهرها . وأنا فى احتياج إلى رجل مثلك . فإن أخلصت لى وللشاه ملك الملوك كان ذلك سبباً فى رفعتنا سوياً ، وفى ارتقائنا وعظمتنا » .

فقلت له : « إننى وما أملك من قوة ونشاط رهن إشارتك . فما أنا غير عبدك وخادمك ، وليس على سيدى السفير إلا أن يأمر فيطاع أمره على الرأس والعين » .

فقال السفير : « قد يكون وصل إلى سمعك مما تتداوله الألسن أن مهمتى التى قد جئت من أجلها هى شراء الرقيق للشاه من نسوة بارعات فى الرقص والعزف على آلات الطرب وغير ذلك من الشئون المنزلية ، وأن اشترى للحزم الملكى حرائر ورياشاً وبدائع وطنافس ... لقد أشعنا ذلك لتضليل الجمهور وإخفاء غرضنا الحقيقى ، فلم يرسلنى الشاه لأمثال هذه السخافات بل حضرت فى غرض أهم وأشرف مما ذكرت . حضرت فى مهمة فوق ما تتصور ، ولا ينتخب الشاه لمثلها إلا الذكى الحصيف ، وقد وقع اختياره علىّ فأرهف سمعك لما أقول . منذ بضعة أشهر وصل إلى طهران عاصمة إيران سفير من أوربا قال : إن الذى أوفده هو امبراطور اسمه نابليون بونابرت شاه الفرنسيين . وقال إنه يحمل رسالة وهدايا للشاه وتحدث ذلك السفير كثيراً عن قوة الامبراطور وأعماله وصفاته ، وأكد رغبة سيده فى عقد محالفة مع الشاه . وقال السفير : إن لديه من التعليمات ما يخوله عقد المحالفة ، وظهر فى كلامه وحركاته بمظهر عظيم حقاً ، وصرح بأن باقى الأمم الأوربية أى أمم الفرنج ليست إلا مواطئ لقدمه لا تستحق منه أى اعتبار ووعدنا السفير بأن يتخلى لنا الروس عما فتحوه فى جرجان ، وأن يعيد إلى الشاه تفليس وغيرها من المدن التى كانت للفرس فى الزمن الماضى وقال إنه سيفتح الهند ويطرد منها الانكليز ، وأنه يهبنا كل ما نطلبه وتصبو إليه نفوسنا .

وقد كنا سمعنا عن الفرنسيين أنهم يجيدون غزل الأقمشة وبضع صناعات أخرى غير أننا لم نكن نعلم أن فى استطاعتهم تنفيذ ما كان يدعيه ذلك السفير . وسمعنا فوق ذلك شيئاً من أخبار هجومهم على مصر إذ ارتفعت على أثر ذلك الهجوم أثمان البن والحناء . وذكر أحد العظماء سفيراً فرنسياً من قبل ملك فرنسا لويس ولكن أحداً منا لم يعلم أن ذلك البونابرت

قد صار ملكاً على فرنسا . وعلمنا من تجار الأرمن الذين طافوا بلاد العالم بوجود رجل بهذا الاسم وبأنه مثير هياج ومسبب شغب وقلق . وقد قبل الشاه بسبب ماعلمه من هؤلاء التجار وبسبب ظروف أخرى أن يسمح للسفير بالمثول بين يديه . غير أن أحداً من الناس لم يستطع أن يعرف إن كانت الرسائل التى أحضرها ذلك السفير مكتوبة بخط يمكن تفسيره أو لا يمكن وأن ما قاله السفير كان حقاً أو باطلاً، فأعيا الأمر وزراءنا كبيرهم وصغيرهم ولم يستطع الشاه أن يدرك شيئاً رغم علمه الواسع بكل ما تقع عليه أشعة الشمس وإذا استثنينا « الخواجه عبيد » الأرمنى الذى كان قد وصل إلى مرسيليا وهى بلدة فى فرنسا وظل فيها سجيناً أربعين يوماً ، وإذا استثنينا كذلك « تاسيس » القس الفرنجى الذى تلقى العلم مع الدراويش فى جهة من جهات تلك الممالك المجهولة . إذا استثنينا هذين الرجلين لم نجد بباب الشاه من يستطيع إرشادنا أو يلقى على ظلمات عقولنا شيئاً من النور أو يستطيع على الأقل أن يخبرنا إذا كان هذا البونابرت وسفيره محتالين أو صادقين ؟ وهل جاءنا السفير لينهب بلادنا أو ليرفع من شأننا ؟ ثم لم تطل حيرتنا فإن الإنكليز الذين كانوا يتجرون بين الهند وإيران ويقطن بعضهم فى « بوشير » حين علموا بمجىء ذلك السفير أرسلوا إلينا الرسل والرسائل وبعثوا بعامل منهم يحثنا على عدم السماح لذلك السفير بالتقرب منا وحاولوا كثيراً أن يمنعوا تقدمه ونجاحه حتى أدركنا أننا نستطيع الاستفادة كثيراً من هـذا النزاع بين الإنكليز والفرنسيين

وقد قال الشاه : « وعزتى وتاجى إن العناية الإلهية هى التى أحدثت ما حدث . إننى أجلس على عرشى ويقبل علىّ أهل الشمال والجنوب وسكان الغرب والشرق ويقدمون إلىّ الهدايا والنفائس ، لأسمح لهم بالمقاتلة تحت قدمى فليتقدم منهم من يتقدم وليفد علىّ منهم من يفد فالله معنا »

وعند ما تركت باب الشاه كانت فارس تنتظر قدوم سفير انكليزى . والخطابات التى تسلمتها الآن تنبىء بأخبار طلبه السماح له بالمقابلة والمخابرات الدائرة بهذا الشأن غير أن الشاه لا يستطيع البت فى الأمر قبل أن تصله أخبارى لأنه حين علم أن فى الآستانة كل الأجناس الأوربية وأن لكل أمة سفيراً فيها رأى جلالته بما له من الحكمة وسداد الرأى أن يبعثنى إلى هنا لأحصل له على المعلومات التى نحن فى حاجة إليها حتى يزول من فارس كل ريب يتعلق بالفرنسيين والإنكليز وحتى أعلم إذا تمكنت حقيقة ما قالوه عن أنفسهم .

وقد رأيت يا حاجى بابا أننى رجل واحد هنا والعمل الذى كلفت به يحتاج إلى أكثر من خمسين رجلاً فالفرنج أمم مختلفة وأجناس لا عداد لها كما لاحظت هنا من تباين اللغات واختلاف السحن واللهجات، وقد أخبرتك أن رجال حاشيتى لا خير فيهم ولا منفعة منهم فى مثل أبحاثى فوقع اختيارى عليك. وها أنذا أنتظر نتاج مجهودك وثمرة أبحاثك ويجب أن تتعرف على بعض هؤلاء الكفار . ولمعرفتك باللغة التركية تستطيع أن تستعلم منهم عن كثير مما نود . وسأنقل لك نسخة من تعليمات الشاه فى هذا الصدد ويجب أن تخفى هذه التعليمات فى أبعد مكان من عقلك غير أنك تسير على مقتضاها فاذهب الآن إلى أن أستحضر لك هذه الأوامر واجلس فى مكان منفرد وفكر طويلاً فيما يجب أن تتبعه من الطرق وتتخذه من الوسائل »

وبعد ذلك أمرنى بالانصراف فتركته وخرجت وقد فتح أمامى طريق جديد من طرق الحياة

الفصل الخامس والسبعون

جهود حاجى بابا فى الحياة العامة ونفعه لمخدومه

خرجت بعد أن أعطانى السفير صورة من تعليمات الشاه ويممت مقبرة مجاورة لأتلوها على انفراد بهدأة وسكون وقد أبقيت الورقة ملفوفة فى طيات عمامتى، ولأن هذا العمل كان أول عمل لى فى الحياة العامة فقد ظلت محتوياتها منقوشة فى ذهنى ثابتة فى مخيلتى

وكان أول أبحاث السفير متجهاً إلى معرفة حقيقة تلك المملكة التى تسمى الفرنجستان وهل ملكها الذى يلقبونه فى فارس بشاه الفرنج موجود حقاً وأين عاصمته إن كانت له عاصمة ؟

وكان السفير فوق ذلك يريد أن يستعلم عن عدد قبائل الفرنجستان وهل هم ينقسمون إلى سكان مدن وسكان صحراء كما هى الحال فى إيران ومن هم رؤساء قبائلهم وكيف يحكمونهم ثم يستعلم بعد ذلك عن فرنسا وعن اتساع أنحائها وهل هى قبيلة من قبائل الفرنج أو مملكة مستقلة ومن هو ذلك البونابرت الذى يلقب نفسه امبراطور تلك المملكة ؟ وأمر السفير أن يوجه كثيراً من التفاته إلى معرفة حقيقة هؤلاء الإنكليز الذين يعرفونهم فى فارس بأقمشتهم العريضة وساعاتهم وخناجرهم، ويعرف من أى طبقة من طبقات الكفر هم ؟ وهل يقيمون طول العام فى جزيرة من غير أن يكون لهم مصيف ولا مشتى وهل يعيش معظمهم فى المراكب ويقتصرون فى قوتهم على الأسماك ؟ وإن كان هذا هو أمرهم فكيف استطاعوا الاستيلاء على الهند . ثم يبذل جهده فى كشف مسألة حيرت ألباب الفارسيين وشوشت عقولهم وهى كيف أن انكلترا ولوندرا قد اختلطتا واشتبكتا فهل انكلترا جزء من لوندرا أم لوندرا جزء من انكلترا ؟

ثم أمر السفير أن يستعلم فوق ذلك عن حقيقة الإمبراطورية ومن أو ماهى وكيف وجدت العلاقة بينهما وبين انكلترا وهل الإمبراطورية امرأة عجوز كما يتردد على بعض الألسنة أم تتكون من جملة عجائز ؟ وهل ما يروى عن عدم قابليتها للفناء مثل (لاما التبت) خرافة أم حقيقة ؟ ثم يستكشف حقيقة بعض أمور غامضة خاصة بالحكومة الإنكليزية ونظمها

ومن مهمة السفير أيضاً معرفة بعض أبناء الدنيا الجديدة . وأخيراً أمر السفير أن يكتب تاريخاً عاماً عن الفرنجستان وعن أحسن الوسائل المؤدية إلى تنفيرهم من شرب الخمر وأكل الخنزير وإلى اعتنقاهم دين الإسلام

وبعد أن قرأت هذه التعليمات وفكرت ملياً رأيت أن خير من يجيب عليها هو كاتب فى خدمة (الريس افندى) كنت قد تعرفت به إبان الزمن القصير الذى كنت فيه أنيق المظهر

وكنت أعرف المقهى الذى اعتاد أن يجلس فيه والساعة التى يذهب فيها وكان من عاداته ألا يكثر من الحديث ولا يسترسل فى الكلام غير أنى رجوت أن تنشرح نفسه ويحدثنى عما يراه فى هذه المسألة إذا ما شرب قهوته ودخن غليونه كما كان يحدث من إقباله علىّ بالحديث فى بعض الأحايين

ولما اقتنعت بهذه الفكرة أخبرت بها السفير الذى سر منها واغتبط إلى حد أنه عزاها إلى نفسه وقال لى : « ألم أخبرك بهذا ؟ ألم أقل لك إنك ذكى القلب

حاضر البديهة . اعترف إذن بأن لى بصيرة نفاذة ونظراً ثاقباً، وأنه يجب أن يكون المرء متوقد الذكاء والفطنة ليعرف أقدار الرجال ويميز الكنايات ! لولاى لما اتجهت أنظارنا إلى هذا الكاتب ولما فكرنا فيه . سيخبرنا ذلك الكاتب بكل شىء ويساعدنا على انتشار الإسلام فى جميع أنحاء الكون »

ثم أخبرنى السفير بأن فى إمكانى أن أعد ذلك الكاتب بالهدايا إذا وجدت صعوبة فى الاستعلام منه وإن استعصى على الكاتب أمر فله أن يستفهم عنه من نفس الريس افندى

وذهبت فى الوقت المناسب إلى المقهى فوجدت الكاتب هناك ودنوت منه مظهراً البشاشة والترحاب والود ثم دعوت الساقى وطلبت أن يحضر لنا فنجانين من القهوة اللذيذة التى يصنعها من البن اليمنى . وجلست أمام الكاتب وقد تصادف أنه أخرج ساعته فوجدت الفرصة ملائمة للبدء فى مأموريتى . وقلت : « هل هذه الساعة من الفرنجستان ؟ »

قال : « هذا صحيح فليس فى العالم من يستطيع عمل الساعات غير الأوربيين »

قلت : « عجباً ! يظهر أنهم قوم غير عاديين »

فقال : « أجل غير أنهم كفار »

فقلت وقد أخرجت الغليون من فمى وناولته إياه : « بالله عليك يا صاحبى أن تخبرنى بشىء عن هؤلاء الفرنج . هل الفرنج مملكة عظيمة ؟ أين يقيم ملكهم ؟ »

فأجابنى : « ماذا تقول يا صديقى ؟ أتقول مملكة عظيمة ؟ نعم ممالك كبيرة لا يحكمها ملك واحد بل ملوك كثيرون »

فقلت : « ولكننى سمعت أن الفرنج قبائل عديدة لكل منها اسم خاص وحاكم وهذه القبائل رغم ذلك تكون أمة واحدة »

فقال : « لك أن تقول أمة واحدة إذا أردت وقد تكون هذه هى الحقيقة إذ كلهم يحلقون ذقونهم ويرسلون شعورهم ويلبسون القبعات على رؤوسهم ، وكلهم يرتدى الملابس الضيقة ويأكل لحم الخنزير ويشرب النبيذ ولا يؤمن برسول الله . غير أن من الواضح أن لهم ملوكاً كثيرين . ألا ترى هؤلاء السفراء العديدين الذين يتوافدون على الباب العالى ؟ إنهم لا عداد لهم حتى لا يسع المرء أن يحصيهم »

فقلت له : « تكلم ! تكلم بحق رسول الله ! وسأكتب ما تقول . أشهد الله أنك رجل واسع الاطلاع غزير العلم »

فسرح الرجل شعر لحيته وأخذ يفتل شاربيه ويستجمع أفكاره ليحصى أمم الفرنجستان ، بينما كنت مشتغلاً بإخراج الدواة من حزامى والاعتدال أمامه استعداداً للكتابة

وبدأ الرجل حديثه بقوله : « ولكن لماذا تشغل نفسك بهذا الأمر ؟ إنهم جميعاً ملاعين من منبت نجس ومخرج دنىء ، ويوم القيامة سيصلون ناراً حامية »

ثم قال وهو يحصى على أصابعه : « أولاً هناك النمساويون جيراننا وهم قوم كثيرو التدخين يرسلون إلينا الأقمشة والصلب والزجاج ، ويحكمهم شاه من أعرق عائلات الكفر وأقدمها وله ممثل عندنا نطعمه ونكسوه . ثم هناك طائفة المسكوب وهم أمة قذرة لعينة مملكتهم كثيرة الاتساع حتى قيل إن لها طرفاً تغطيه الثلوج الدائمة والطرف الآخر نار القيظ الملتهبة . إنهم أعداء ألداء لنا وقد طالما حاربناهم

صارخين بأعلى أصواتنا «الله أكبر ! فى سبيل الله !» ويحكم الرجال والنساء على حد سواء . ولكنهم يماثلوننا فى قتل حكامهم والثورة على ولاة أمورهم . ثم يجىء بعد هؤلاء من طوائف الكفر طائفة البروسيين وليس غير الله يعلم لماذا يرسلون إلينا سفيراً لا حاجة لنا به ولا منفعة؛ فإننا أبعد من أن نهتم بمثل ذلك الحقير؛ غير أن الباب العالى مفتوح على مصراعيه يلجه النجس والحقير كما يدخل منه المؤمن الوقور فتشمل الجميع عنايته

ثم ماذا أقول بعد ذلك بحق رسول الله ؟ توجد طائفتان أخريان من طوائف الكفر تسكنان فى شمال العالم وتقيمان فى آخر حدود الأرض ، وهما طائفتا الدانمركيين والسويديين وهؤلاء قبائل صغيرة رجالها قصار القامة لا يذكرون بين الرجال رغم ما قيل من أن شاه الدانمركيين من أكثر ملوك الفرنجستان اطمئناناً على ملكه وراحة فى عيشه لا يزعجه مزعج ولا يخيفه منازع بينما شاه السويد مشهور بالحماقة والجنون فقد أثار مرة فى أوربا حرباً شعواء لم ينظر فيها إلى البلاد التى يحاربها بل كانت الحرب غايته ومقصده ، وقد أدى به جنونه وساقته حماقته إلى اختراق حدودنا التركية . فأسرناه كما يؤسر الوعل الشارد .

وكانت هذه الحادثة سبباً فى معرفتنا تلك الأمة . ولولا ذلك لكنا ظللنا إلى ما شاء الله لا نعلم من أمر هذه الأمة حتى ولا وجودها .

وسأذكر لك قوماً آخرين يقال لهم أمة الفلمنك، وهم كفار أغبياء ثقال الظل باردو الطبع ينظر إليهم الفرنج كما تنظر نحن إلى الأوربيين لا يفكرون إلا فى جمع المال ، ولا يطمعون إلا فى الثروة والغنى وهؤلاء يرسلون إلينا سفيراً خاملاً يقوم بشئون تجارتهم وتصريف صادراتهم من جبن وزبد وسمك محفوظ . غير أن حكومتهم قضى عليها ظهور بونابرت وبونابرت هذا رجل فى مقدمة الرجال حليق بأن نضعه فى صف نادر شاه الفارسى وسليمان القانونى التركى دون أن نخجل أو نحط من قدر أنفسنا » .

وهنا لن أتمالك أن قاطعت الكاتب وقلت حين سمعت اسم بونابرت : « بونابرت » . هذا هو اسم الرجل الذى أريد معرفة شىء عنه فقد سمعت أنه كافر لا نظير له مقدام شجاع ، وأرجو أن أسمع منك شيئاً عنه »

فقال صاحبى : « هل تظننى أستطيع أن أحصى أخباره ؟ لقد كان جندياً بسيطاً من عهد قريب ، وهو اليوم سلطان أمة عظيمة ، وهو الذى وضع لبلاده قانونها، وحاول جهد استطاعته أن يقضى علينا باستيلائه على مصر فأرسل جيوشاً جرارة لفتحها . غير أنه نسى سيوف المجاهدين وقتال المؤمنين فاضطره المصريون إلى العودة بعد أن خوف بضعة مماليك ، وأرغم الأعراب إلى الالتجاء للصحراء »

فسألت الكاتب : « ألا يوجد بين الكفار قبيلة اسمها الانكليز ؟ لقد قيل إنهم أقل القبائل عدداً وإنهم يقيمون فى جزيرة ، ويصنعون الآلات الحادة » .

فقال مجيباً : « أجل ذلك صحيح ، وقد حظى الانكليز منذ قرون بما لم يحظ به غيرهم من أمم الفرنج لدى الباب العالى فنالوا ودهم ، وهم قوم بحريون لهم أسطول كبير، ولا يماثلهم أحد فى صناعة الساعات ، ونسيج الأقمشة »

فقلت له : « وماذا تعلم من أمر حكومتهم ؟

ألا تتكون من شيء آخر غير الشاه »

فأجابني : « كيف يمكنني أو يمكنك أن نفهم عقلية هؤلاء القوم المجانين ؟ لست أنكر أن لهم شاهاً ولو أنه من المضحك أن ندعوه بالشاه إذ لا ينطبق عليه هذا الاسم فهم يطعمونه ويكسونه ويسكنونه فى القصور الشواهق ويقررون له مرتباً سنوياً ويحيطونه بكل مظاهر العظمة وأبهة العرش بل ويلقبونه أضخم الألقاب وأعظم الأسماء سخرية منهم لأن الأغا البسيط من أغواتنا يملك من النفوذ أكثر مما يملكه هذا الشاه. الانكليزى الذى بلغ من ضعفه أنه لا يستطيع حتى جلد أحد وزرائه مهما كانت جنايته . بينما يستطيع الأغا عندنا إذا أراد أن يصلم آذان نصف المدينة ولا يجازى بغير التشجيع والمكافأة . ولهم محال مملوءة بالمجانين الحمقى يجتمعون فيها للجدل السخيف والتطاحن والتراشق بالألفاظ إذا قال فريق منهم عن شىء هذا أبيض اللون قال الآخر لا بل هو أسود ، ويثيرون ضجة عظيمة من مناقشات وردود وخطابات حول أية مسألة عادية يكفى أن يقطع فيها بالرأى أى مفتٍ عندنا فتفرض على قطر بأسره . وجملة القول فإن أمراً واحداً لا يمكن أن يقرر فى تلك المملكة دون أن يثير الشعب تلك الضجة الحمقاء والمناقشات الجوفاء مهما بلغ من تفاهة هذا الأمر كقطع رأس أغا ثائر أو مثل ذلك من الأمور البسيطة . إن الله جلت قدرته وعظمته قد أعطى العقل لبعض الأمم وحجبه عن البعض الآخر ، وليس لنا إلا أن نخضع لما أراد وعلينا أن نشكره تعالى على أننا لم نخلق بين هؤلاء الإنكليز المجانين ، وعلى أنه أوجدنا فى أمة راقية رزينة ندخن غلايبننا مطمئنين آمنين على ضفاف البوسفور

فقلت : « ما أغرب ما تقص علىّ وما أعجبه ! لو لم أكن قد سمعت منك هذه الأمور لما صدقت منها حرفاً واحداً ؛ غير أن شيئاً واحداً بقى وهو مسألة الهند فكيف استطاع الإنكليز أن يحكموها مع أن حكامهم نساء عجائز »

فأجابنى : « لا يدهشنى والله أى أمر أسمعه عن هؤلاء القوم فليس لهم عقول . ولكن لم يصل إلى علمى أن الهند تحت حكمهم . قد يكون ذلك وقد لايكون والله وحده يعلم. وكم للمجانين من أفعال شاذة وأمور غريبة »

فقلت بعد برهة صمت : « والآن هل قصصت علىّ كل ما تعلم أم لازال عندك علم بكفار آخرين ؟ قل لى بحق الصداقة إذ من كان يعلم أن فى الدنيا الغريبة التركيب والتكوين أمما بهذا الشكل ! »

فقال بعد أن فكر قليلاً : « أجل لقد نسيت أن أذكر أمتين أو ثلاث أمم ، غير أن ما نسيت أن أذكره غير جدير بالحديث . هناك غير ماذكرت الأسبانيون والبرتغاليون والإيطاليون وهؤلاء أقوام يتغذون بالخنازير ويعبدون الأصنام وليس لهم أية قيمة حتى بين الفرنج . وقد وصل علمنا إلى أولاهم بسبب نقودهم الفضية المتداولة بيننا، ويفد من الثانية بعض اليهود ، وتبعث الثالثة إلينا دراويش يدفعون مبالغ طائلة لبناء الأديرة ودق الأجراس . ويجب أن أذكر لك شيئاً عن البابا خليفة الفرنج فهو يقيم

فى إيطاليا ولا ينى عن السعى فى نشر دينه ، غير أننا لا نهتم به وقد توفقنا إلى هداية كثير من تابعيه وهذا لا يمنع من العذاب الذى يصيبهم على ما قدمت أيديهم قبل اعتناقهم الإسلام ديناً »

فقلت لصاحبى : « لم يبق غير سؤال واحد ليس لى بعده سؤال وشكراً لك على ما قدمت ، هل تذكر لى شيئاً عن الدنيا الجديدة فقد سمعت أخباراً متناقضة حيرت عقلى . كيف وصل الناس إليها أمن تحت الأرض أم بأية وسيلة ؟ »

فقال الكاتب : « ليس بيننا وبين من ذكرت علاقات كثيرة ، ولذلك لا أستطيع أن أقص عليك كثيراً من أخبارهم غير أن المرء يستطيع الوصول إلى الدنيا الجديدة على سفينة إذ رأينا هنا كثيراً من سفن الدنيا الجديدة وكلهم نصارى ضالون »

ثم تابع حديثه متنهداً : « كلهم نصارى مثل سكان الدنيا القديمة وسيكون مقامهم فى جهنم وبئس المصير . هذه إرادة الله وحكمته »

ورأيت بعد ذلك أن الكاتب بدأ يتذمر ويتضجر فلم أسأله عن شيء آخر ، وكنا قد مضى علينا وقت طويل ونحن نتحادث فلم أطلب قهوة ولم أدخن وافترقنا بعد أن تواعدنا على المقابلة ثانياً

الفصل السادس والسبعون

حاجى بابا يكتب تاريخ أوربا
ويرجع مع السفير الى ايران

عدت إلى السفير فرحاً طروباً بما مى من الأخبار وبنجاحى فى أول مهمة كلفت بها فى حياتى السياسية وقد سر السفير من التقرير الذى قدمته إليه مما قصه علىّ الكاتب . وظل السفير بعد ذلك مدة إقامتى فى الآستانة يرسلنى يومياً فى شئون أخرى واستعلامات شتى إلى أن حسبنا سوياً أن فى استطاعتنا بما لدينا من المعلومات أن نكتب تاريخ أوربا الذى كلفه مليكه بكتابته عند عودته . فأخذت أشتغل بجد فى وضع ذلك التاريخ وبعد أن فرغت من كتابة مسودته عرضتها على السفير لتنقيحها وتصحيحها لتوافق أغراض الشاه فنقحها وزاد فيها ما رآه لازماً وحذف منها ما يجب حذفه ، وحين انتهى منها سلمت إلى كاتب نقلها بخط جميل فأخرجها مجلداً قيما مرتباً ترتيباً بديعاً ووضعها فى كيس من الحرير قال السفير إنه حرى بيد الشاه ، واعتقد السفير أنه أتم مأموريته التى جاء من أجلها وأعلن أنه سيأخذنى معه إلى إيران بل زاد على ذلك أننى سأستمر فى خدمة الحكومة بعد رجوعنا إلى طهران ، وقال إن رجلاً له مثل هذه الدراية والخبرة الواسعة بأحوال الفرنجستان سوف ينفعنا نفعاً كبيراً فى معاملة السفراء الموجودين فى إيران »

ولم أكن أتمنى فوق ما عرضه على السفير إذ أن سوء المعاملة التى لقيتها من الترك جعلتنى أكره الإقامة بينهم فلم أعد أرى فى مدينتهم ما يجملها فى عينى ، وكنت كلما ذكرت شكرليب غلى صدرى بالغيظ والحقد الشديدين

وكان قد مضى زمن طويل على حادثتى مع شيخ العلماء فى طهران ، وكنت قد علمت أن الملا نادان قد مزق جسده على آلة التعذيب وأن أرملة شيخ العلماء التى تركتها بين أيدى قطاع الطريق لم ترجع

قط إلى فارس فاستنتجت من كل ذلك أن فى مقدورى أن أعود إلى الظهور فى فارس دون خوف

وقلت فى نفسى : « وإذا عرفت وظهرت حقيقتى فمن الذى يجرؤ أن يمسنى بأذى وأنا فى حماية رجال الحكومة ذوى النفوذ والجاه ؟ لقد استرد رئيس الجلادين جواده ومتاعه عند القبض على الملا نادان ، وأغلب الظن أن الشيخ عبد الكريم قد لقى ما لقيته سيدته أرملة الملا باشى إذ لم يسمع عنه أى خبر فلست أخشى أن يعود إلى مطالبتى بالمائة الطومان، وأى شىء أخشاه بعد ذلك من العودة إلى طهران ؟ »

لم أر ما يجب علىّ أن أخشاه إذ يكفى أن يعلم القوم أننى فى خدمة الشاه لأسير مطمئناً فى تيه وعجب واختيال فى كل أنحاء البلاد الفارسية مهما يكن من ذنوبى ، وشجعت عزيمتى هذه الأفكار فأخذت أجهز نفسى للرحيل مع السفير . غير أننى عقدت النية على أن أزور قبل رحيلى الخان الذى فيه أبناء وطنى لأتمكن من الظهور أمامهم بمظهر ذى النفوذ والسلطان بعد ما لقيت من الخزى والعار فى حادثتى الأخيرة

وقد تعبت فى إقناعهم بأننى من موظفى السفارة ثم لم أخش بعد ذلك أن يهزأوا بى ويسخروا منى إذ لم يكد يستقر فى عقولهم أننى من أتباع السفير المقربين حتى كنت محل عنايتهم واحترامهم ، وكانت الكلمات التى يوجهونها إلىّ لا تقل عن : « إذا تفضلت » أو « إذا قبلت مكارمكم » أو « نرجو من مكارم حضرتكم » ، وغير ذلك من كلمات التبجيل والاحترام التى لا تنقطع وخطابات التعظيم والإجلال التى لا نهاية لها . وكان الذى يسمعهم فى احترامهم هذا وتعظيمهم لا يخطر بباله أننى نفس الرجل الذى ضحكوا منه وشهروا به منذ أقل من شهرين بل يعتقد أننى رجل بلغ من سلطانه وقوته أن حياتهم أو موتهم يتوقفان على إشارة من بنانه

غير أننى لما استأذنت من عثمان أغا لم ألاحظ عليه أى تغيير ، ودلنى كلامه على أن عاطفته نحو ابن حلاق أصفهان هى هى لم يطرأ عليها أى تبديل وقال بلهجته العادية حين افترقنا : « إذهب يا بنى . إننى سأصلى وأبتهل إلى الله أن ينيلك ما تصبو إليه نفسك من رفعة ونجاح ، وأن يسدد الله خطواتك أينما ذهبت وفى أية حالة — سجيناً عند التركمان ، أو عالماً من العلماء ، أو بائع غلايين ، أو أغا تركيًّا أو سفيراً فارسيًّا — كن ما شئت وسأدعو الله لك فى صلاتى »

وترك السفير اسكوتارى بعد أن انتهى من حفلات الوداع ، واستأذن الحكومة فى الرحيل ، وصحبه كثير من الفارسيين فى مسيره وظلوا معه نحو فرسخ ثم استأذنوه فى العودة

وكانت رحلتنا هادئة لم يحصل فيها ما يستحق الذكر من يوم أن بدأنا المسير إلى يوم دخولنا فارس وسمعنا فى « أريفان » أخباراً مبهمة غير واضحة عما يشغل بال القوم وعما يحدث فى البلاد إلى أن وصلنا إلى تبريز التى يحكمها عباس ميرزا فعلمنا أهم المسائل التى تشغل بال القوم وأهمها التشاحن بين السفيرين الفرنسى والإنكليزى وسماح الشاه لأولهما بالمثول بين يديه وعدم استطاعة الثانى المثول أمام جلالته بعد

وسمعنا أخباراً عدة عما يبذله السفيران من الجهد

فى الوصول إلى أغراضهما ، وقد وصل التعجب والاندهاش من الفارسيين مبلغهما عند رؤيتهما النصارى يتركون بلادهم متحملين كثيراً من المشقة والتعب ليتشاحنوا ويتنابذوا أمام شعب كامل يحتقرهم ويتمنى لهم الهلاك والموت العاجل .

أخذ السفير الفرنسي لكي يحصل على مطالبه يذكر ملكه وعظمة مملكته وسيادتها فى جميع أنحاء أوروبا وعدد الجيوش الجرارة التى يمكن أن ينزلها امبراطوره إلى الميدان ، وقد أجابه الشاه عن كل ذلك بما يأتى :

« قد يكون ما قلت صحيحاً ، ولكن مالنا نحن ولقوتكم وعظمتكم ، وأية علاقة بين فرنسا وبين إيران ؟ أى غرض لكم تسعون إلى تحقيقه ؟ »

فقال السفير : « غرضنا أن نفتح الهند ونخرجها من يد الانكليز ، ونرجو أن تسمحوا لنا بطريق نمر منه فى بلادكم » .

فقال الشاه : « وماذا نستفيد نحن ؟ قد تكون رغبتكم فى الهند قوية ، ولكن أى شأن لنا فى هذا ولم نسمح لجيوشكم بالمرور من أرضنا ؟ لا رغبة لنا فى ذلك » .

فأجاب السفير : « صبراً . فسنفتح لكم جرجان ونملككم تفليس ، ونحميكم من اعتداء الروس على أرضكم فى المستقبل ! » .

فقال الشاه : « هذه مسألة أخرى فحين تبرهنون لنا على صدق أقوالكم ، ونرى نتيجة أعمالكم ، ونسمع أنه لم يبق روسى على جوانب القوزاق نتعاقد معكم ، ولكن قبل ذلك الوقت لانستطيع أن نفتح لكم طريقاً فى أرضنا أو نعادى أصدقاءنا القدماء : الانكليز .

وقال سفير الانكليز من جهة أخرى : « ليس للفرنسيين أى غرض فى المجىء إلى فارس إلا مضايقتنا ومنازعتنا فنريد ألا تقبلوهم فى فارس » .

فقال الشاه : « كيف تريد أن نفعل ما تأباه قوانين الضيافة ؟ إن أبواب قصرنا مفتوحة لكل قاصد »

فقال السفير الانكليزى : « ولكن يجب أن تتخيروا صداقة أحدنا وعداء الآخر ، فإما أن تستمروا أصدقاء لنا فتطردوا السفير الفرنسى وإما أن تقبلوه فتكونوا أعداءنا »

فأجابه الشاه : « ولم نعادى الناس لنسركم ؟ إننا نريد أن نكون أصدقاء الجميع » .

فقال السفير : « ولكن فى استطاعتنا مساعدتكم على نمو قوتكم وإعطائكم ما يلزمكم من المال »

فأجاب الشاه : « عافاك الله ! هذه مسألة أخرى فأخبرنى ماقدر المال الذى تدفعونه فينتهى كل أمر ؟ »

كانت هذه هى الحال عند وصولنا إلى تبريز . ولما كان وصول متبوعى السفير إلى طهران منتظراً بفارغ صبر فلم نتريث فى سيرنا ولم نلبث كثيراً عند الأمير عباس بل أسرعنا فى المسير . ووصلنا إلى مقر السلطان فى صباح أحد الأيام فشاهدنا فى طريقنا صفاً طويلاً من الفرسان معهم أمتعتهم ولا حظنا أنهم ليسوا فارسيين وقد تبينا عند الاقتراب منهم أنهم من الفرنج

وكان يصحبهم ضابط فارسى من قبل الشاه أخبرنا أن هؤلاء هم رجال السفارة الفرنسية راجعين إلى بلادهم بعد أن أرسل إليهم الشاه خطاباً رقيقاً

برجوهم فيه مغادرة البلاد . وأخبرنا ذلك الضابط أن السفير الإنكليزى وأتباعه سيحلون محل الفرنسيين قريباً . واستنتجنا مما رأينا مجمل سير الأمور فى حكومة إيران وأن الشاه أيده الله بنصر من عنده قد استفاد من النزاع والشحناء بين الفرنسيين والإنكليز . وقد دهش السفير الذى أصحبه من تلك النتيجة ومن البت فى الأمر بهذه السرعة وعدم انتظار الشاه له مع ما يحمل من أخبار أوربا، ولكن سرعان ما فسر هذا تأثير المال الذى لا تقف أمامه عقبة مهما عظم شأنها

سنحت لنا هذه الفرصة لملاحظة الفرنسيين الذين سمعنا عنهم كثيراً فى الأيام الأخيرة. ولم يعدم السفير الفارسي وسيلة يتعرف بها بالسفير الفرنسي .

وانتظرنا أن نجد الفرنسيين منقبضى الصدور منحلى العزيمة بسبب طردهم من حضرة الشاه ولكن دهشتنا كانت عظيمة حين رأينا الأمر على نقيض ما ظننا . لم تر إيران قبل هؤلاء القوم قوماً أكثر مجوناً ولاعبثاً ولاجنوناً فقد كانوا يرقصون ويغنون ويضحكون طول اليوم ، وكانوا يتحدثون جميعاً فى وقت واحد بأصوات تختلف فى العلو والارتفاع من غيرفارق فى المراتب إذ يظهر أنهم جميعاً من طبقة واحدة فى نهاية الانحطاط .

وكانوا يدوسون أبسطتنا بغير احترام مما أثار عواطفنا وحرك نفوسنا . وإذ كنت أحسب نفسى ذا خبرة واسعة بأحوال الفرنجة لما قاسيته فى الاستعلام عنهم فقد حاولت أن أعرف إن كان يوجد تشابه أو مشاكلة بين لغتنا وبين لغتهم ، غير أننى لم أنجح فى فهم كلمة واحدة مما يرطنون به . وكل ما حسبت نفسى قادراً على تذكره أو رسمه ثلاثة ألفاظ سمعتهم يكررونها ، ويعيدونها كثيراً فى حديثهم . وهى « سفير » و « باريس » و « الأمبراطور » .

وخطر ببالى أن هؤلاء الفرنسيين لن يغيروا شيئاً من مرحهم أو ضحكهم ومجونهم يوم تحتويهم نار جهنم فى الدار الآخرة ، وأن حالهم فيها ستكون مثل حالهم التى رأيناهم عليها فى مقر السلطنة . وافترقنا فى الصباح التالى فساروا ضاحكين صاخبين فى طريقهم وسرنا نفكر خائفين مما عسى أن يستقبلنا به الشاه ملك الملوك

الفصل السابع والسابعون

وصف الاحتفال باستقبال سفير الفرنجستان

استقبل رئيسى ميرزا فيروز فى قصر الشاه بالحفاوة والإكرام، وسر الشاه من الإجابات الحاضرة التى كان يتلقاها من سفيره على أسئلته المتعددة الخاصة بشئون أوربا فأظهر السفير بذلك أنه خليق بمركزه جدير بعناية مولاه وأن أحداً غيره لم يكن ليقوم بما قام به فى المهمة التى انتخب لها

كان لا يتوانى لحظة فى الإجابة على أسئلة الشاه ولا يتلعثم ولا يتلجلج ولم يبد عليه الجهل ولا وقفت أمامه عثرة ولم ينطق أمام الشاه بكلمة « لا أعرف » قط فقد كان يعلم أن هذه الكلمة مما لا تحتمله آذان الملوك

وكان يرسل الكلمات فى رصانة ورزانة وثبات ويبعث القول قوياً مقنعاً حتى لا يمكن أن يخطر

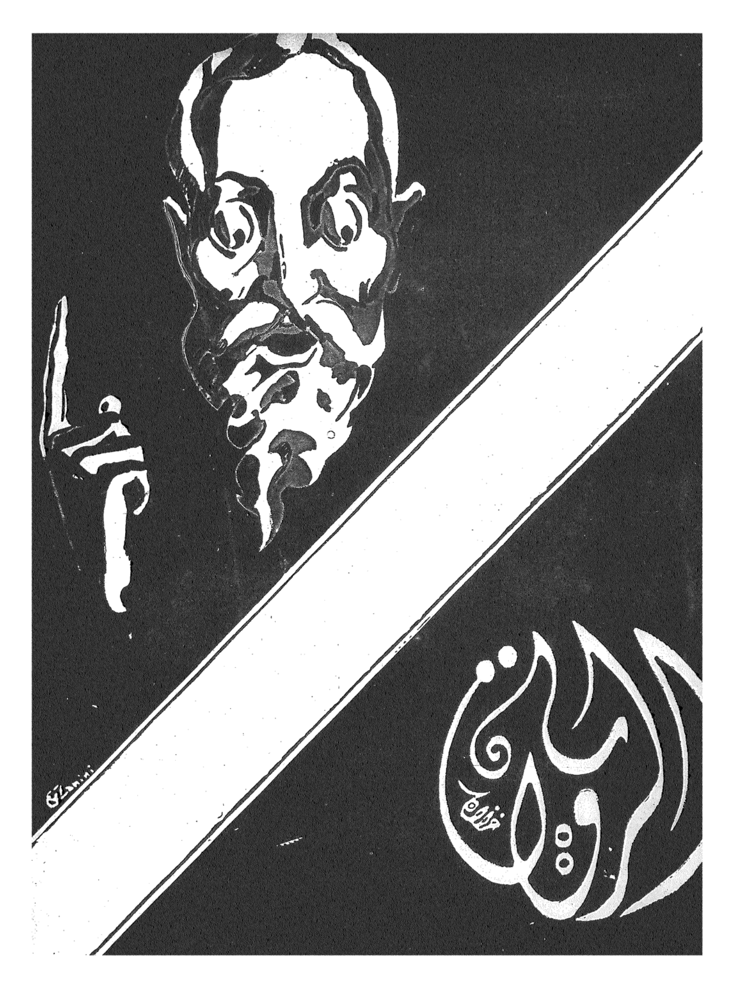
على بال سامعيه خاطرة شك فى قوله، وإن من أصغى إليه وهو يتكلم عن أوربا ليخال أن السفير إنما ولد ونشأ وتربى بينهم

وشاع بين القوم أن السفير استخدمنى فى تصيد أخبار الأوربيين وفى كتابة تاريخ أوربا فنلت شهرة فى معرفة العالم والعلم بأحوال الناس، ولم يكن لى مثل ما للسفير من قوة الحجة والمقدرة على الإقناع غير أننى عزمت على أن أعمل ما فى وسعى فى الإجابة على الأسئلة التى تلقى علىّ بسرعة رغم خوفى من سبق السفير وحرصى على أن أظهر دونه علماً ومنزلة فكنت بين عاملين عامل الخوف من الظهور بمظهر الجاهل ومحاذرتى أن أظهر بمظهر العالم

وعلى أية حال فقد نظر إلينا الفارسيون أبناء وطننا كما ينظرون إلى أصحاب المعجزات إذ لم يكن بينهم من يستطيع نقض ما نقول. وذكرنى ذلك بحكمة رددتها الألسن وهى: «إن أى صوت يظهر كأنه النغمة اللذيذة فى بلاد البكم، ولو كان الصوت صوت حمار»

(يتبع) عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

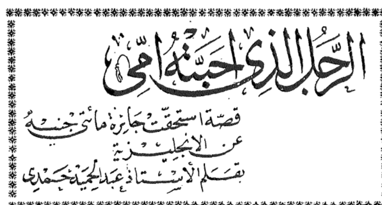
قرش	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٣٣٩٠

العدد ٥٦ — ٢٥ ربيع أول سنة ١٣٥٨ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

من أحسن القصص

فهرس العـــدد



« هل يستطيع أن يفهم يوما ما كان يشعل قلب أمه وزوجها ، تلك الأم الجميلة التى لا يمكن أن ينم منظرها عن غير فتاة عذراء لم تدخل بعد دور الأمومة ؟ »

* * *

لا أستطيع أن أذكر الوقت الذى بدأت فيه العلاقة بينى وبين أمى تتشكل فى صورة صداقة بين رفيقين متقاربين فى السن . وحتى فى حياة أبى — وقد كنت فى الثانية عشرة عند موته — كان سلوكى مع أمى سلوك الأخ مع أخته . ولعل السبب فى هذه العلاقة غير العادية بين أم وابنها أن أمى تزوجت وهى فتاة صغيرة من رجل يكبرها بأربعة عشر عاماً ، ولم تكن سنها يوم ولدتنى تتجاوز السابعة عشرة . وحين شببت وبدأت أتعرف مايدور حولى فى العالم الذى خرجت إليه ، أخذت أدرك أن متاعبى ومشاغلى الصبيانية من الأمور التى يمكن التفاهم عليها وحلها مع أمى الشابة الرقيقة الشعور بأسهل مما يمكن ذلك مع أبى الكهل الذى تلزمه طبيعة الكهولة نوعاً من العبوس الجدى

وما أقصد بذلك إلى أن أقول إن أبى كان رجلاً عسير المعاشرة فالأمر على العكس من ذلك ، فلقد كان يبذل على الدوام كل ما فى جهده ليسهل لنا الحياة ويرفهها علينا ، فإذا أحس منا أقل رغبة فى شىء من الترف والكماليات أسرع بتحقيق رغبتنا ، حريصاً على أن نعيش فى مستوى عال من الحياة

ولعل شعورنا نحو هذا الأب الكريم كان أقرب إلى الاحترام منه إلى المحبة، فلقد كنت أنا وأمى فى جسم الأسرة كالعضوين الآليين وكان أبى هو الرأس المدبر الناجح فيما يعمل . فلما قتل فى حادث تصادم فى سكة الحديد — وكان فى الثالثة والأربعين من عمره — شعرنا بالخسارة التى أصابتنا شعور البحارة بالخسارة التى تصيبهم بموت ربان السفينة ، وازدادت الرابطة بينى وبينها توثقاً فى سبيل المضى فى الحياة بغير قائد

ولم يكن فى حياتنا ما يشغلنا من الناحية المادية فقد ترك لنا أبى وثيقة تأمين على الحياة بمبلغ كبير ، فمضيت فى حياتى المدرسية على ما كنت فى حياته . وقضت ظروف التعليم بأن ننتقل من البلدة الصغيرة التى ولدت فيها بمقاطعة وورشسترشير إلى مدينة كبيرة من مدن ميدلاند حيث التحقت بالجامعة ، ولما كنا غريبين فى تلك المدينة فقد كان الكثيرون ممن يروننا يحسبون أننا أخوان ، وكان البعض يبتسمون لنا ابتسامات لا تخلو من معنى التساؤل عن نوع العلاقة التى بينى وبين السيدة التى ترافقنى على الدوام . ولقد كنا نترك هؤلاء المتسائلين يتيهون طويلاً فى حيرتهم قبل أن نطلعهم على الحقيقة

كانت هذه الغلطة العامة فى تقدير العلاقة التى بينى وبين أمى من أكبر بواعث تسليتها ، فكانت تشعر دائماً بروح الشباب والمرح ، وكان ذلك مما يقوى رغبتها فى الحرص على جمال شبابها، أما فيما يتصل بشخصى ، فقد كان انهماكى فى تكوين نفسى يحملنى على التفكير فيما سأضطلع به فى المستقبل حين أصبح رب أسرة ، وكنت أشعر بشىء من الكبرياء والفخر حين يرانى الناس فى صحبة «أختى» الجميلة ...

وحدث فى ذات ليلة عند ما خرجنا آخر الليل من حفلة ساهرة كنا من حضورها أن دنا أحد الضيوف من أمى وقال لها إنه قد سره أن يلتقى بزوجها. فارتبكت لحظة — عند سماع كلماته — ولكنها لم تلبث أن أدركت أنه كان يقصدنى بما يقول ، ولم نلبث أن تبادلنا الابتسام ، وفى أثناء عودتنا إلى البيت ضحكنا لهذا الحادث من أعماق قلوبنا

وقلت لأمى مازحاً :

— لقد بدأت أشعر بالإهانة فى أن يحسبنى الناس زوج سيدة عجوز مثلك !

فردت علىّ بدورها برد لعلى لم أتبين معناه على حقيقته قالت :

— وما ظنك بشعورى حين أرانى مضطرة لأن أسلك سلوك تلميذة بلهاء ؟

نعم . لقد ازددنا ارتباطاً وتلازماً على مر السنين. كنا نحضر الحفلات معاً ، وكنا شريكين بأسباب اللهو والمرح ، وكنا نرحب مشتركين بأصدقائنا ، وفى الجملة ننعم بجميع مباهج الحياة على صورة نادرة بين الأمهات والأبناء

وكان يحدث أحياناً أن أرافق شباناً من سنى فى بعض الجولات ، وأن تخرج أمى وحدها لبعض الأغراض الاجتماعية ، ولكن لم يكن أحدنا يسأل الآخر عما عمله أو عن الأشخاص الذين التقى بهم فلم تكن ثمت من حاجة إلى مثل هذا السؤال . فقد كنا صريحين فى أن يفضل كل منا فى بعض الظروف ما يلائم ذوقه من الترتيبات التى تتصل باجتماعه ببعض الأصدقاء أو المعارف

وإنى لأذكر جيد الذكر مناقشة جدية نشأت بينى وبين أمى على مائدة العشاء على أثر عبارات تفوهت بها عن مركزنا الاجتماعى إذ قلت :

— أحسبك تعلمين يا أمى أنه يجب أن نعمل شيئاً فى هذا الموضوع . فسألتنى :

— أى موضوع تعنى ؟

فاحتبست الكلمات لحظة فى حلقى ثم قلت :

— لقد سألت اليوم إحدى الفتيات أن تخرج معى مساء يوم السبت المقبل ، فرفضت طلبى دون أن تبدى أول الأمر سبباً لهذا الرفض ، ولكننى حين ألححت عليها فى تعرف السبب أجابتنى صراحة بأنها لن تشبك نفسها بأى رجل متزوج ! ولقد اقتضانى الأمر نصف ساعة لإقناعها بأن السيدة الجميلة التى يرانى الناس معها أحياناً ليست امرأتى

فلم تجب أمى بشىء على هذا الكلام ولكن بدت على وجهها نظرة غريبة

وبعد لحظات قالت أمى ، وقد انتقلنا من غرفة المائدة إلى غرفة الجلوس :

— لِمَ يا « تيم » لا تكثر من اصطحاب الفتيات ؟

فضحكت وقلت :

— ولم أكثر من ذلك ولم يبق فى الوجود فتيات من ذوات العقول ، فكل ما تستطيع الفتيات أن تعمله الآن هو صبغ الوجوه وارتداء الثياب، واحتساء الكوكتيل بغير حساب ، وهذا هو السبب الذى يحملنى على أن أفضل الخروج معك يا أمى فلقد جمعت كل شىء : الجمال والذكاء

فقالت أمى :

— إننى جادة يا « تيم » فيما أقول ، فهذا هو الوقت الذى تبدأ تنظر فيه إلى الأمام ، فبعد قليل ستحصل على إجازتك العلمية ، وستجد لك مركزاً تشغله ، ثم تشعر بحاجتك إلى الاستقرار ، والأيام الطيبة التى قضيناها ولا نزال نقضيها معا هى من الأوقات السعيدة حقاً ، ولكنى أحسبك تعلم أنها لن تدوم إلى الأبد ، لأننا كلينا يا بنى نكبر مع الزمن وأنا الآن فى السادسة والثلاثين

فقلت مازحاً :

— طفل فى الغاية !

ولكنها قالت ملحة وقد بدت عليها سمات الجد :

— إن عليك أن ترسم خطتك فى حياتك الشخصية ، وأنا أريد منك أن تكثر من الخروج وأن تقابل أناساً من سنك وأن تتعرف بأهل عصرك ..

فقلت أناقشها :

— فليكن،ولكن ماذا تفعلين أنت؟ ألم تفكرى قط فى أن تحيطى نفسك ببعض الأصدقاء ؟

قالت :

— ولكنك تعرف يا « تيمى » أن لى أصدقاء وأنهم كثيرون ... وأننى ...

فقاطعتها بقولى :

— أقصد أصدقاء من الرجال ! فإنك ما زلت صغيرة وفيك من الجاذبية ما يلقى أى رجل على قدميك ولا يزال أمامك نصف حياتك تنعمين به ، ويستطيع بعض الرجال أن يهيىء لك حياة بالغة السعادة حقاً . إذا أنت سمحت له بذلك

فضحكت أمى ضحكة غير متزنة وقالت :

— دع عنك هذا البله يا « تيم » إذ أية حاجة تدعونى لأن أطلب الزواج مرة ثانية ؟

قلت :

— ألا تريدين أن يكون لك بيت خاص ؟ ألا تحبين أن يكون إلى جانبك رجل يحمل المتاعب المالية عن كتفيك ؟ وإنك لتعلمين أننى لن أفيدك أبداً من هذه الناحية ، فما أنا إلا طفل كبير مدلل لا فائدة منه ... وأنت المسؤولة عن ذلك !

وطالت المناقشة بيننا عنيفة مشبعة بروح المحبة ولكننا لم ننته إلى نتيجة ، فجئت بزجاجة من النبيذ المعتق الذى نحتفظ به عادة لبعض الظروف الخاصة ، وشربت نخب الاستقلال الجديد الذى لم يعترف أحد منا بأننا محتاجان إليه

وبقيت أمى لحظة بعد هذا الحديث مشغولة البال وقد ظهر لى أن المناقشة أقلقتها قليلاً . وبدا لى أننى عرفت السبب فى ذلك . فلقد قضينا عدة أعوام

متلازمين فى معزل عن الناس وكنا راضيين بحياتنا . أما الآن وهذا العالم الخارجى حولنا منتظر أن يدعونا لنفسه منفردين وأن يسلكنا فى حياة الأمر الواقع فإن الخوف قد بدأ يستولى على أمى، وكذلك شعرت أنا بالقلق من التغير الذى يتعارض مع أسلوب حياتنا

ومن ذلك المساء سارت حياتنا على نمطها الأول مع فارق أننى بدأت أزيد من اختلاطى بالفتيات والفتيان من سنى ، وأن أمى أخذت تكثر من دعوة الأصدقاء إلى بيتنا بدل أن كانت تكثر من الخروج. كذلك أكثرت أنا من الخروج فى غير صحبتها ، ولكننى كنت فى كل مرة أخرج فيها من غيرها أزداد شعوراً بعدم الاستقرار فى نفسى . ولم يكن فى مقدورى أن أتصور ما هو طارئ علىّ من تغير؛ وكنت أتحير فى أمرى فى لحظات غريبة فأنا الآن إذ أنظر إلى الماضى أرى أنه لم يكن من الأمور العادية المألوفة . إن الحياة تتحدانى بما فى نفسى من رغبة ملحة فى العمل ، وبما فيها هى من مغريات مطالبها وقضاياها الكبيرة . فما أنا بعد بالصبى ولكننى قد أصبحت رجلاً وبدأت أدرك إدراكا تاماً ما علىّ من المسؤوليات

كذلك أصبحت أمى تظهر اهتماماً متزايداً برجال مختلفين ممن كانوا يأتون إلى بيتنا ليصحبوها إلى الخارج أو ليقضوا بعض الوقت فى التسامر معها ، ولقد أحببت أنا أكثرهم ، وكنت أتحدث معهم وأساجلهم فيما يتصل بلعبة الكريكت أو حفلات بطولة الملاكمة المقبلة أو الحوادث الجارية . وكنت فى كل مرة أشعر بوجود أمى وبأهمية هذه الزيارات وكنت أسائل نفسى : ترى ما شأن هذا الرجل أو ذاك ، وهل يمكن أن تكون أمى قد أحبت واحداً من هؤلاء الأصدقاء ؟ وهل يمكن أن يصبح هذا الذى أحبته زوجاً لها صالحاً وأباً لى طيباً ؟ على أننى كنت أشعر بأن فى كل منهم نقصاً فى نوع ما .

ويبدو لى أن رأى أمى فى هؤلاء الأصدقاء كان متفقاً مع رأيى فيهم . فقد كنت أرى على وجهها بعض الأحيان إمارات واضحة تنم عن نفس منكسرة يغالبها اليأس ، كأنما قد روعتها سرعة مرور الزمن وهى وحيدة لا شريك لها فى الحياة . وأردت فى يوم من الأيام أن أستعيد فترة من فترات مرحنا الماضى فقبلتها فى شوق وقلت :

— لا فائدة يا أمى فى هذه الحياة الجديدة . فما أستطيع أن آلف هؤلاء الفتيات اللواتى أخرج معهن . فما أجد فيهن من الفطنة والذكاء ما يحببنى فى عشرتهن

فابتسمت ابتسامة المستفهم وقالت :

— أى شىء تشكو الآن يا تيمى ؟

— لقد خرجت مرة أخرى ليلة أمس مع جوديت كارتر فقطعنا مرحلة فى السيارة ، ثم وقفنا حيث أكلنا قطعتين من الساندوتش وشربنا فنجانتين من القهوة ، وبعد ذلك استأنفنا السير . فما فعلت فى أثناء ذلك غير أن لعبت العواطف بنفسها على حين فجأة ، فبدأت بقولها إننى شاب مدهش ، ثم انتهت بأن خطبتنى إلى نفسى بالفعل، أليس عجيباً أمر هؤلاء الفتيات ؟ !

فضحكت أمى ضحكة بدا فيها أثر التصنع وقالت

— يخيل إلى أنك قد أكثرت من الاجتماع بجوديت أم ترانى مخطئة ؟

— بل أظن الأمر كما ترين . فإنى أجتمع بها مرتين فى الأسبوع ولكن ليس بيننا شىء جدى

— قد يكون ذلك من ناحيتك ؛ ولكن لعل الأمر فى نظرها أكبر مما توهمته أنت يا تيم . فإن المرأة لا تخرج مع الرجل مرتين فى الأسبوع فترة من الزمن دون أن تحمل الأمر بينه وبينها على محمل الجد ؛ وجوديت فتاة قد عثرت على الرجل الصالح فى رأيها ؛ فأى شىء أقرب إلى الطبيعى من أن تبدأ تحلم بالبيت ، بالسعادة الدائمة ؟

فأجفلت عن سماع هذا الكلام ، وشعرت على حين فجأة بالحيرة والقلق يستوليان على نفسى وحاولت أن أضحك من كلام أمى فقلت :

— كلام فارغ يا أمى ! إنك لا تستطيعين أن تتخلصى منى بمثل هذه السهولة ، فأنت وأنا ملتصق أحدنا بالآخر ويجب أن نستغل ذلك على خير الوجوه

وهنا روعت مرة أخرى بما بدا على وجه أمى من أثر الاضطراب النفسى والشعور باليأس والوحدة فهل يمكن أن تكون قد وقفت فى لحظة من لحظات الانفعال من أحد الرجال مثل موقف جوديت منى ؟ لقد خطر لى هذا السؤال فتمنيت أن تكون هى أيضاً قد وقعت على الرجل الصالح فى رأيها !

نظرت إلى أمى نظرة الناقد الدقيق فرأيت كما رأيت فى ظروف عديدة أنها حقًّا جد جذابة . والحق أنها لم تبد يوماً فى نظرى كامرأة جاوزت الخامسة والعشرين من عمرها . كان شعرها غزيراً لونه نحاسى يضرب إلى السواد ، غضة المحيا لا تكاد العين تقع فى وجهها على أثر خط من خطوط الزمن ، ولم أملك أن ساءلت نفسى إن كانت جوديت ستبدو حين تبلغ السادسة والثلاثين فى مثل جمال أمى ونضارتها ؟

ثم دخل فى حياتنا عنصر جديد ، ذلك هو ميخائيل ردج

ومن اللحظة الأولى بدت لى عدة أمور : الأول أن ميك — وقد بدأت أدعوه بهذا الاسم المصغر فى ثالث مرة لزيارته بيتنا — كان رجلاً محبوباً لدرجة غير عادية . والثانى الأسلوب الذى انتهجته أمى فى معاملة هذا الرجل الطويل الحيى الهادئ الصوت . فقد ظهر عليها فى اللحظة الأولى التى دخل فيها ميك الغرفة ، أنها قد دخلت فى حياة جديدة وأن شرارة جديدة قد سرت إلى نفسها

تعرفت أمى بميخائيل فى أحد الاجتماعات ، واشتد ميل أحدهما إلى الآخر عندما تبينا أن بينهما ميلاً متبادلاً إلى الشعر ، وعلى وجه أخص شعر أحد شعرائنا الحديثين . وأحضر ميخائيل فى إحدى زياراته كتاباً قدمه هدية لأمى فوطد ذلك دعائم الصداقة بينهما ...

أصبح ميك بعد ذلك زائراً لبيتنا مواظباً ، وأصبحنا جميعاً نتطلع إلى العشاء معاً ، وإلى تبادل الأحاديث وإلى التروض جماعة فى سيارته

ومضت فترة من الوقت قبل أن أبيح لنفسى الاعتقاد بأن بين أمى وبين ميك حبًّا متبادلاً ، وحتى بعد أن اعتقدت وجودَ ذلك الحب لم يكن فى مقدورى أن أحلل المركز تحليلاً دقيقاً . فقد كانت

أمى حتى ذاك تبدو متعالية فوق شؤون الحب وتنظر إليها نظرها إلى هنات من أعمال الفتيات الصغيرات لا من أعمال أمهات لهن أولاد فى سن التاسعة عشرة

على أننى احتفظت بآرائى فى نفسى واعتزمت أن أترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى ، فمهما يكن من أمر ، وسواء أتزوجت أمى من ميك أم لم تتزوج منه فليس ذلك من شأنى . وصحيح أن هذا الزواج سيترك شيئاً من الأثر فى حياتى ، ولكن لما لم أكن أظن فى الرجل إلا كل خير فقد شعرت بأننى لن ألبث أن آلف التغير الجديد فى حياتنا

وعلى كل حال كان من الحسن أن أشهد حياة جديدة وأن أرى شعاع الغبطة يبدو من عينى أمى ، ولقد شكرت للأقدار أن هيأت لها قطرة من السعادة ورجوت ألا تندم يوماً على اختيارها

ومشت قصة الغرام سريعة الخطى ، فكانت نادرة تلك الليلة التى لا تجتمع فيها أمى بميخائيل ، فكانا دائماً يخرجان معاً فى السيارة ويزوران أصدقاءهما معاً أيضاً ، وكانا أحياناً يختلفان إلى دور التمثيل أو إلى الحفلات الموسيقية . أما أنا فقد تركت لمغريانى التى لا ءمتنى إذ بدأت أزداد اهتماماً وتعلقاً بجوديت كارتر فقد كانت فتاة ماهرة نشطة ، لم تعبث الخلاعة بأخلاقها ، ووجدت أننى أستطيع بقضاء سهرة معها أن أنعم بخير مما كنت أتصور أننى مستطيع أن أنعم به

وكلما مرت الأيام ازددت تعجباً لتأخر النتيجة التى كنت أتوقعها ، فقد كنت كلما عدت إلى البيت ووجدت أمى مع صديقها انتظرت أن أسمع منها قولها :

— هلم يا ولدى « تيم » ستصبح ولك أب جديد فما رأيك فى ذلك ؟

ولكن هذا اليوم لم يأت ، ومرت الأيام ثم لحقت بها الأسابيع وتبعتها الأشهر ، وشعرت بأن فى الجو توترا غير طبيعى ، ولم أستطع كشف السر فى ذلك ، واستمر ميك جاعلاً من بيتنا مركزه الرئيسى ، أما فيما يتصل بجميع المظاهر الخارجية فقد تقدم حبه أمى فى طريق جديدة ، وقد بدأ يظهر فى عينه ما ينم عن التخاذل والتعب ، كذلك بدا لى أن أمى ترزح تحت عبء نفسى ثقيل فقد أصبحت تستسلم على غير عادتها للانفعال أحياناً ، وعلى الرغم من أنها كانت تسرع فتعتذر من انفعالها ، فإننى كنت ألحظ أن هناك شيئاً غير طبيعى .

واستقر رأيى فى يوم من الأيام على أن أكشف الحقيقة وقد وجدت أمى مشتغلة بكى الملابس فجلست على مقربة منها وأشعلت سيجارة ثم قلت :

— متى تتزوجين من « ميك » يا أمى ؟

وقد حاولت أن أبدو فى صورة من خطر له هذا السؤال عرضاً .

ولم تدهش أمى لسؤالى ولم تزد على أن ابتسمت وقالت :

— لست أدرى يا تيم ، فإن ميك يقول : إنه لا يربح من المال ما يكفى لحياة الزوجية . فقد أصابه سوء الحظ فى السنوات الأخيرة وتأبى عليه كرامته النفسية أن أمد له يد المساعدة !

إذن ، لقد تكلما معاً فى موضوع الزواج ، وإذن كنت مصيباً فيما ظننته ، فشعرت فى آن واحد

بالسرور وبالأسف وقلت :

— وعلى فكرة أيمكن أن تقولى لى بم يشتغل ميك ، فإنى لم أعرف قط شيئاً يتصل بعمله فى الحياة .

أجابت أمى :

— إنه يشغل مركز كاتب فى أحد المصانع الكبيرة بالمدينة ، فقد أضاع كل ماله وخسر عمله السابق ، فاضطر أن يقبل هـذا المركز ليستعين به على الحياة .

ميك — كاتب صغير !

لم يكن الأمر أمر المركز الذى يشغله الرجل ولكن ما كان يبدو على ميك من مظاهر الثقة الهادئة وحسن الجرثومة كان ينم عن كفايته وعن استعداده لأن يكون الآمر المطاع ... ولقد كان يخيل لى أنه على أقل تقدير من السماسرة أو المديرين الماليين ...

وبدأ ميك يكثر من شرب الدخان ولست أدرى إذا كان الباعث على ذلك رغبته فى أن ينسي ما أخذ يخيم على مجتمعنا الثلاثى من العبوس والوجوم ، أو إن كان هناك باعث آخر لا أعرفه . وكل ما أعرفه أنه أصبح الآن يأتى إلى البيت مسلحاً بقنينة من الوسكى ، كان يخلط به أنواعاً أخرى من المسكرات

كذلك بدأت أمى تشرب الخمر من حين إلى حين وقد أقلقنى ذلك ، وإذ كنت عصرياً فى كل شيء حتى فيما يتصل بالخمر ، فإننى لم أكن أعارض فى شرب كأس من الكوكتيل فى بعض الظروف ، ولكن أمى كانت دائماً محافظة فى كل شيء ، تكتفى بتعرف مثل تجريبية من الحياة هنا وهناك . أما الآن فقد بدا لى أن هناك نوعاً من الضجر الغريب يشغل نفسها ، كما لو أن هناك حاجة ملحة تدفعها مرغمة فى الطريق التى تسلكها .

ولاحظت فى إحدى الليالى — بعد انصراف ميك — أن خطوات أمى لم تكن على ما عهدتها من الثبات والاتزان ، ولم ألبث أن صعقت إذ تبينت أنها كانت منتشية من الخمر ، فاستولى الغضب فجأة على نفسى . ثم بدأت أقول :

— ألا تظنين يا أمى أنك قد اندفعت أخيراً فى طريق الحياة اندفاعاً قد يكون شديداً بعض الشيء ؟

— فأزاحتنى من طريقها وغطت عينيها بكفيها وقالت :

— إذهب إلى فراشك يا تيم واتركنى وحدى

ولكننى أصررت على موقفى وقلت :

— يخيل إلى أن ميك الذى يرى أن موقفه المالى السيء لا يسمح له بالزواج ، ينفق فى الوقت نفسه مالاً كثيراً فى ابتياع الخمر

ولأول مرة فى حياتى رأيت أمى تغضب غضباً حقيقياً ، فاقتربت منى ووقفت إلى جانب كرسى ، وكانت عيناها تبرقان غير مستقرتين وقالت :

أريد منك يا تيم ألا تقول مرة أخرى مثل هذا الكلام . فإننى أمك وأنا ... على كل حال إن ما نعمله هو من شئوننا الخاصة ، وأريد منك ألا تتدخل فى أمرنا .

كانت هذه هى المعركة الأولى بين أمى وبينى ، فأحدق كل منا لحظة فى وجه الآخر ، ثم تلفتت

واتجهت إلى السلم فصعدتها ، وإذ شعرت بثقل فى قلبى وجزعت فجأة من شيء لم أستطع أن أتبينه ، فقد أويت إلى فراشى وحاولت أن أنام ، ولكن النوم لم يعرف طريقه تلك الليلة إلى جفونى

وبعد ليال من هذا الحادث خرجت مع جوديت فى سيارتى ، وسألتها أين تريد أن نذهب ، فأجابت بأنها لا تفضل مكاناً على آخر ، فقلت وأنا أشعر بشىء من الانقباض :

— لست أشعر برغبة فى الذهاب إلى السينما ، فهل توافقين على أن نتجول بعض الوقت فى السيارة ؟

فوافقت الفتاة على رأيى

استقر فى نفسى أن العمل بهذا الاقتراح هو خير الوسائل لتخلصى من التفكير فى أمور معينة ، فقلت لجوديت :

أظن أنه يحسن بنا أن نعود إلى البيت لآتى بصديرى من الصوف فإن سرعة السيارة تزيد شعورنا بشدة البرد

وأدرت السيارة فى طريق البيت حتى إذا وصلنا أمام الباب الخارجى وثبت من مقعدى تاركا جوديت فى انتظارى وأخرجت مفتاحى الخاص وفتحت الباب ، وتذكرت أن أمى وميك لا بد أن يكونا فى هذا الوقت لا يزالان فى البيت ... فاتجهت إلى غرفة الجلوس ...

وما أحسب أن المنظر الذى وقعت عليه عيناى سيفارق مخيلتى ما حييت ، فقد كانت الغرفة مجموعة من الأثاث المبعثر ، وكانت آلة الراديو تذيع فى أعلى درجاتها نغمات موسيقى «جاز» من النوع الواطى ، وكان الجو مشبعاً برائحة الوسكى ودخان السجاير

وكان ميك وأمى مشغولين أحدهما بالآخر ، وكانا يتبادلان الضحكات الفاترة المستهترة فلم يشعرا بدخولى

وشعرت بدافع جنونى يدفعنى إلى الوثوب على الرجل والقبض على عنقه ، واستولى على الخوف من الانفعالات الشديدة التى بدأت تغلى فى صدرى

وتقدمت إلى آلة الراديو فوقفت حركتها ، ومضت لحظة لم يصل فيها أثر السكون الذى طرأ على الغرفة إلى عقليهما اللذين غيبتهما الخمر ، ولكن يظهر أنهما قد تنبها على حين فجأة إلى أن الراديو لا يمكن أن يكون قد سكت من تلقاء نفسه ، فالتفتا وأحدقا فى وجهى

وأظن أن أمى لم تدرك فى الثوانى الأولى القليلة لشدة ذهولها ، الخطر الحقيقى لحضورى فى ذلك الوقت . فجلست فى مكانها وقد التصق شعرها بكل ناحية من وجهها ، ونظرت إلى نظرة بلهاء . ولم أستطع أن أنظر إليها فحصرت نظرى فى ميك ، وما رأيت عينيه المحمرتين ووجهه الملتهب حتى انقلب شعور الغضب والعنف الذى استولى على إلى احتقار واشمئزاز ! أيكون ميك الذى وثقت به واعتقدت فيه أخلاق السادة هو المجرم الذى يرتكب هذا !

على أن مخيلتى لم تلبث أن طمستها ثورة مفاجئة فتقدمت خطوة نحوه ، ولكننى مع ذلك لم أمسه



بيدى . لقد كنت أكبر منه جسماً وأقوى عضلاً غير أنني رأيتني غير مستطيع أن أمد إليه يداً بالأذى فابتعدت عنه كما يبتعد الإنسان عن الأفعى

ووجدتني بعد ذلك أتحرك كاللعبة المرنة التي تحركها يد اللاعب بخيط متصل بأجزائها ، فإذا يدى تبحث عن أحد أدراج المكتب ففتحته وأخرجت منه مسدساً كان لأبي ، فحركت مفتاح الأمان ، وصوبت فوهة المسدس إلى ميك ، وقلت في نغمة جامدة :

— ميك ... قف بعيداً فسأقتلك !

ولكنه جلس في مكانه مترنحاً محاولاً أن يلتقى نظره بنظرى ، وقد أخذ خطر المركز يتبين له فى بطء فرفع يداً مضطربة وقال :

— لا تطلق النار يا تيمى ! وضع جانباً هذا المسدس قبل أن ينطلق !

فقلت :

— إنه سينطلق ، فقف وانتقل إلى هذه الناحية ولا تحاول أن تبتعد عنها ، فإنك لن تخرج أبداً من هذه الغرفة حياً

عندئذ صاحت أمى صيحة وحشية يائسة ردت إلى رأسى كل ما أطاره المنظر من صواب . ولم تلبث أن وثبت من مكانها فوقفت حائلة بيني وبين ميك . وقد تجسم الرعب فى عينيها وأخذ أثر الخمر يتلاشى مسرعاً ، وقالت :

— تيمى ! تيمى ! لا تطلق النار ! تيمى إنك لا تدرى ما أنت فاعل !

كنت فى هذه اللحظة أرتجف من قمة رأسى إلى إخمص قدمى ، وأحسست بجسمي كله يهزه

الغضب الذى ملكنى هزاً عنيفاً . وشعرت بثقل شديد فى معدتى . وفجأة رأيتنى مندفعاً اندفاع اليائس لإنهاء هذا الموقف أسرع ما أستطيع

وخرجت الكلمات من بين أسنانى المتقلصة بطيئة قتالة

اتهمت الرجل — اتهمته بكل ما استطاع عقلى الشاب أن يتصوره ، فابيض وجه الرجل من قسوة التهم وحقارتها ، ولكن لم يبد فى عينيه أى أثر للخوف . وكأنى به وهو يبحث عن الكلمات التى قد تعيد إلى هذا الموقف الجنونى شيئاً من الهدوء والسكون ، ولكنه لم يهتد إلى هذه الكلمات

وسألتنى أمى فى صوت ضعيف متهدج :

- ماذا أنت فاعل يا تيم ؟

فلم أنظر إليها ولكننى أجبت على سؤالها ، وقد جززت على أسنانى وصوبت مسدسى وقلت :

— سأقتل ميك

فقال ميك فى صوت هادئ هدوءاً غريباً :

— لا ، يا تيم ! إنك لن تقتلنى قبل أن تصغى إلىّ لحظة

قلت غاضباً :

لن يكون فيما يمكن أن تقول ما ينجيك

فاستمر فى حديثه كأنه لم يسمعنى وقال :

— إنى أحب أمك يا تيم ! أحببتها منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، وأعتقد أنها هى أيضاً تحبنى ، وقد اعتزمت أن أتزوج منها ، ولكن الناحية المالية هى التى جعلت هذا الزواج حتى الآن مستحيلاً وليس لدى يا تيم ما أعتذر به مما حدث الليلة ، وإنى متفق معك فى أننى أخطأت ، وأفهم جيداً كيف يبدو الأمر فى نظرك ، وكل ما أستطيع قوله هو أننى آسف لرؤيتك لنا فى هذا الموقف ، ولست أتلمس لنفسى العذر من استسلامى للضعف ، ولكننى ضعفت أول الأمر فى مقاومة الخمر فلما خضعت لها زادتنى ضعفاً على ضعف

فقاطعته فى عنف قائلاً :

— أسرع وأوجز يا ميك فلم يبق أمامك فى الحياة غير لحظات فتنهد الرجل تنهداً طويلاً وقال :

— إن ما قلته يا تيم ، عن أمك منذ لحظة صدق كله ، ولا يزال صدقاً ، ففى كل الوقت الذى عرفتها فيه لم أسمع منها كلمة نابية ولم أشهد منها عملاً حقيراً ، ويجب أن تثق بأن هذا هو شأنها الحق — سواء أصدقت مثل ذلك فيما يتصل بشخصى أم لم تصدق ، ولكن اسمح لى يا تيم أن أسألك سؤالاً واحداً ، فقد حدث أنك شربت شيئاً من الخمر ، وما من شك فى أن الخمر قد أثر فى رأسك أحياناً ، كذلك لا بد أن تكون قد شربت الخمر مع بعض الفتيات ، فهلا توافقنى إذا قلت إنه قد يسهل أحياناً حين ينتشى الإنسان بالشراب ، أن يندفع غير مدرك إلى الشطط فى تصرفاته ؟

ما سمعت هذه الكلمات حتى شعرت لفجاءة بشىء من الضعف والدوار يستولى علىّ . فأغمضت عينى وأسندت يدى إلى المائدة لأحفظ توازنى . ثم فتحت

عيني مرة أخرى ونظرت إلى ميك ... ميك الذى كان واقفاً أمامى مستقيما أبيض الوجه . ومع ذلك كان شعور الاحتقار يملأ قلبي ، وما من شك فى أن ميك قد لحظ ذلك فى عينى فغمز بعينه وهو يدمدم :

— والآن إذا كنت لا تزال يا تيمى مصمما على قتلى فاضغط هذا الزناد واقض أمرك !

فحدقت فى الرجل ، وشعرت فجأة بأن جميع أعصاب التوتر ترتخى فى كل ناحية من نواحى جسمى وبعد أن كان كل همى أن أقتل أصبح كل ما أطلبه الآن أن أهرب . أردت أن أندفع خارجاً من الغرفة فلا يقع نظرى بعد ذلك عليها ، ولا على الشخصين اللذين فيها . أردت أن أستبدل برائحة الوسكى ، والدخان المطبق فى جو الغرفة نسيم الليل الرطب النقى فى الخلاء .

فالتفت إلى أمى وقلت :

— ليكن ما تريدين ، ولتندفعا فى طريقكما على ما تشتهيان وسواء أتزوجتكما أم لم تتزوجا فإن الأمر عندى سواء . ولكن لا تنتظرى أن ترينى مرة أخرى ما حييت ! لا تحاولى أن تبحثى عنى ، فإنى لم أر بي من حاجة لأن أنظر إلى أى منكما بعد الآن !

ثم التفت وخرجت من الغرفة فشعرت بنسيم الليل كنفحة من نفحات العطر الزكى ، وقصدت إلى السيارة فتلقتنى جوديت بضحكة قصيرة مرحة وقالت :

— ما هـذا يا تيمى ؟ لقد بدأت أظن أنك إنما تنسج الصديرى نسجاً ، ولكنك مع ذلك لم تأت به !

ولكنها لم تكد ترى وجهى حتى قطعت حديثها ونظرت إلىّ نظرة استفهام فقلت :

— هل يضايقك يا جوديت أن أوصلك إلى بيتك مباشرة ؟ لقد حدث شيء لا أستطيع الآن شرحه .

ولا شك فى أنها لاحظت ما أنا فيه من اضطراب فقد أجابتنى فى صوت خافت :

— فليكن ما تريد يا تيمى .

بقيت أسبوعاً كأننى فى حلم مزعج ، أحاول ما استطعت أن أصرف عن مخيلتى ذلك المنظر الذى وقع عليه نظرى فى تلك الليلة المشئومة . ولم أحاول قط أن أتصل بأمى ، واستأجرت غرفة فى أحد الفنادق ، ولم أقترب مرة من البيت

وفى نهاية الأسبوع وجدتنى قد أصبحت هيكلاً محطما مضطرب الأعصاب ، أقضى الليالى فى أرق فلا تتذوق عيناى طعم المنام ، وفى النهار لا تفارقنى صورة ذلك المنظر الشنيع . واجتهدت أن أختلط بالناس لأنسى، فكانوا يتلقوننى فى بشاشة وترحيب ويسألوننى عن أمى . وأخذت شيئاً فشيئاً أتعود الحياة الجافة، وقد خيل إلى أنه من المستحيل أن أجد فى الحياة لذة بعد الآن

واستقر عزمى آخر الأمر على أن أهجر البلد ، وصممت أن أبحث عن عمل وأن يكون عملاً شاقاً

لأتخلص من الحال التعسة التي أخذت تكتنفني

واتصلت تليفونياً بالبيت معتزماً أن أغير صوتي إذا تصادف أن ردت عليّ أمي ، ولكن مضت فترة لم أتلق جواباً على الدق المتواصل فعلمت أن ليس من أحد في البيت ، فأسرعت إلى سيارتي ومضيت بها إلى هناك ، منتهزاً فرصة غياب أمي لأنني لم أكن أريد أن ألتقي بها ، وقد اعتزمت أن أنفذ تهديدي بقطع كل علاقة بيني وبينها

وجدت البيت على الحالة نفسها التي تركته عليها فشعرت لحظة بالحنين إلى الدار ، فلقد كانت هذه داري ، وهذا هو مربعي الذي ألفته ، فما الذي أصاب السعادة التي نعمنا بها حيناً ؟!

تسللت إلى غرفتي وبدأت أحزم حقائبي ، حتى إذا انتهيت من عملي وأصبحت على استعداد لمغادرة البيت فتح الباب ودخلت أمي تحمل على ساعديها كثيراً من أنواع البقالة . فلم تكد تراني حتى وقفت فجأة وحدق أحدنا في الآخر . ولم تلبث أن طرحت أحمالها وقذفت بنفسها عليّ وهي تزفر زفيراً هستيرياً وتصيح :

— تيمي ! تيمي! أين كنت ، لقد بحثت عنك في كل مكان . آه يا تيم لقد خيل إلى أن نهاية العالم قد حلت بنا

لم أدر ما أقول ، ولكنني أحسست أن عزيمتي أخذت تتلاشى . فمن العجيب أنني شعرت بشيء من السعادة إذ وجدتني مرة أخرى على مقربة من والدتي ، وأحس ساعديها يطوقان عنقي . ولم أستطع أن أفكر إلا في أننا قد اجتمعنا معاً مرة أخرى ، وفي أنني لسبب سخيف قد أعددت حقيبة ملأى بأمتعتي كما لو كنت ذاهباً إلى سياحة طويلة ، أو ما يشبه ذلك :

وقلت مدمدماً :

— لقد ... لقد كنت أعتزم الذهاب

فتنهدت وتعلقت بي وقالت :

— لا تذهب يا تيم ! فسيكون كل شيء على ما تحب . لقد انتهيت من ميك وهجرته . وقد قلت له إنني إذا خيرت بينه وبينك فإنني أختارك. وها أنا ذي لم أره من ذلك اليوم

وحاولت أن أستعين بجميع الأسباب التي تمكنني من التمسك بعزمي الأول ، ولكن كل ما استطعت أن أحس به هو الشفقة على هذه المرأة التي هي أمي . لقد كانت تتعذب عذاباً شديداً وهي تتوسل إلى الشخص الوحيد الباقي لها في الحياة ليغفر لها ويسامحها . فكان كل ما قلته :

— لا بأس ، سننسى ! سننسى كل شيء ، ولن نذكر اسمه بعد ذلك أبداً !

وخيل إلى أن الأمر سيصبح بعد ذلك سهلاً . ظننت أننا باتفاقنا على أن نخرج ميك من محيط حياتنا مستطيعان أن نستأنف سعادتنا الماضية . ولكن لم يكن ذلك إلا وهماً لم يتحقق

فلم أستطع أن أنسى . فقد كنت إذا جلسنا إلى المائدة أو تمددنا في غرفة الجلوس أختلس النظر إلى أمي من حين إلى حين فأراها محدقة بي تقابل

نظرتى بابتسامة حزينة أقابلها بابتسامة متكلفة ، ولكن كان كل منا يعرف ما يفكر فيه الآخر ، لقد كانت ذكرى مزعجة تلك التى تلازمنا فى كل مكان : أم مدنسة فى نظر ابنها ! أيوجد شىء يستطيع أن يطمس معالم هذه المأساة ؟ !

لقد أجهدت رأسى فى البحث عن الوسائل التى أستطيع بها أن ألين ذلك التوتر الذى أصاب حياتنا فابتعت لها كثيراً من الهدايا ولكن الهدايا لم تكن غطاء للغفران الذى لم أستطع أن أسبله عليها وحاولت أن أدخل فى حديثنا الملح والنكات على ما تعودنا قبل أن تفارقنا السعادة ، ولكنها كلها كانت تبدو مبتذلة جوفاء . وأخذت أعصابنا تزداد كل يوم تضعضعاً ، وعلى الرغم من أننا كنا نحاول أن تكون لهجاتنا هادئة لا يتخللها شىء من الغضب والانفعال فقد كنا نشعر أن لابد من نهاية لهذه الحال غير الطبيعية .

عدت ليلة إلى البيت فوجدت أمى تنظر من النافذة جامدة ، وكانت الغرفة مظلمة . فلما أدرت مفتاح الكهرباء رأيت عينيها محمرتين كما لو كانت تبكى . . .

وأحسست طوفاناً من الندم يغمرنى وتمثل أمام عينى رمز الأسف والحسرة يحول بين أمى وبينى ، وكان يسخر منا فى موقفنا العاجز ، وليس فى يدنا ما نستطيع أن نعمله للتخلص من براثنه .

كان يبدو على أمى الانكسار والضعف والشعور بالعزلة المؤلمة فلم أتمالك أن ركعت إلى جانبها وأمسكت بيدها ، وحاولت أن يكون صوتى رقيقاً مداعباً وأنا أقول :

— يا أمى ! إن بنيك الصغير تيمى سيضرب الصخر برأسه إذا لم تعودى إلى مداعبته

فقالت :

— حسن يا تيمى ، وسأجتهد ، سأجتهد ..

ثم اختنق صوتها . فنظرت إليها متألماً وقلت :

— ما هذا يا أمى ؟

فقالت :

— لا شىء يا تيم ، كل ما هناك أننى كنت تعيسة شقية ، وإنى لمسرورة أن أراك فى البيت

بت تلك الليلة يقظان أفكر وقد غمر اليأس نفسى إذ تبينت أنه على الرغم من المظاهر التى تبدو على حياتنا فإن شيئاً غريباً قد أصابنا ولن نكون أبداً كما كنا من قبل أماً وولداً . فهناك دائماً ذلك الرمز ، ذلك الشىء الذى لم نستطع أن ننساه ، هذا الشىء سيطل علينا دائماً هازئاً بنا يشعرنا بالتعاسة والشقاء

وفى يوم من أيام الآحاد بقيت وحدى فى البيت واستقلت أمى السيارة لزيارة بعض صديقاتها وقالت : إنها لن تعود إلا متأخرة

فلما وجدت نفسى وحيداً خطر لى أن أتجول فى غرف البيت لغير غاية معينة ، ثم شرعت أقرأ الصحيفة اليومية فلم أترك فيها سطراً لم أقرأه . ولما انتهيت منها اضطجعت ودخنت عدة سجائر مجتهداً فى أن أجد طريقاً للخلاص من الموقف الذى بتنا فيه

ولم أتمالك نفسى من التفكير فيما رأيت من إهمال أمى فى ارتداء ملابسها وهى تستعد للخروج ، ولا فى المظهر الحزين الذى بدا عليها وهى تجتاز عتبة الباب

ولم يلبث نظرى القلق أن وقع على كتاب فوق المائدة ، وكنت قد رأيته عدة مرات من قبل ولكنى لم أفتحه قط ، أما فى هذه الليلة ففتحته ، ونظرت متكاسلاً إلى غلافه ، لقد كان ديواناً من دواوين الشعر ، وهو الديوان الذى أهداه ميك إلى أمى ، منذ زمن طويل ، وقرأت فى الورقة البيضاء التى تلى الغلاف هذه الكلمات : « تحيات إلى صديق جديد من ميخائيل دوج » ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى عشرة أشهر مضت

حدقت فى الاسم مندهشاً كيف لم يعد يؤثر فى نفسى ، ترى هل ضعفت ذاكرتي ؟ كم ترانى دخلت فى دور الجمود وعدم الاكتراث ؟

قلبت صفحات الديوان فوقع نظرى على كثير من الأبيات التى رسمت تحتها خطوط بالحبر الأحمر ، وكان جلياً أن ميك هو الذى رسم هذه الخطوط وقد قرأت فوق أحد الأشعار هذه الكلمات : « لعل هذا يفسر لك بأسهل مما أستطيع ما حاولت أن أشرحه لك فى الليلة الماضية

وقرأت الشعر فتأثرت بما فى فكرته من جمال ورقة

أدركت إذن أن ميك قد أحب هذا الشعر وقد أوصى أمى بقراءته، لقد كنت نسيت أن مثل هذه الأفكار قد خطرت يوماً برأس ميك ونسيت كذلك أنه أهدى أمى هذا الكتاب .

وعلى حين فجأة خطر لى الحل الذى أبحث عنه ، فكان كالشعاع الذى ينبثق فجأة فى زاوية مظلمة، إن الحياة بين أمى وبينى لن تعود سيرتها الأولى حتى نعالج السبب الذى أدى إلى ما نحن فيه ، ولم نكن حتى الآن قد عملنا شيئاً غير محاولة النسيان . فكان مجهودنا فى استرداد سعادتنا الضائعة مجهوداً رجعياً والحياة لا يمكن أن تعود إلى الوراء . لقد حاولنا أن ننسل إلى السكن الذى كنا نعيش فيه قبل أن تحل بنا المأساة ، ولكن منذ ذلك اليوم وقع من الأحداث ما يترك فى نفوسنا أثراً دائماً يحول دون ما نبغيه ما لم نحول هذه الأحداث إلى الطريق التى تلائمنا . وهناك أمر واحد ما فيه من شك ذلك أن أمى قد أحبت ميك وهى لا تزال تحبه !

شعرت فجأة بالحرارة والاقتناع يملآن نفسى فوثبت مندفعاً إلى آلة التليفون ، وأدرت رقما فما وصل إلى أذنى صوت ألفته من قبل حتى شعرت كأن شرارة كهربائية سرت فى كل جسمى وقلت :

— ميك ... ! ميك ... ! مرحى ... ! هذا تيم الذى يخاطبك ... ليسألك إذا كان لديك ما يحول دون مجيئك إلينا هذا المساء ؟ أرجو أن تحضر فالأمر جد هام ... فأنا ... أنا أريد أن أعتذر من عدة أمور ... أود أن أصافحك ... وأسألك إذا كنت ترغب فى مساعدتى فى رد السعادة إلى أمى ؟ ماذا تقول ؟ ستحضر ؟ أشكر لك يا ميك !

بقيت فى البيت وكأن فى حلقى سداً يكاد يخنقنى

إلى أن جاء ميك . فتلقفت يده ، ودفعته إلى أحد الكراسى ، وساد السكوت بيننا فترة طويلة كنت فى أثنائها أطل من الشباك محاولا تملك نفسى ، ولم ألبث أن سمعت صوت الرفيق المتعب من ورائى يقول : « هنا فلنتظاهر ياتيم بأننى كنت هنا طوال هذا اليوم . ففيم كنت أنت شاغلاً نفسك كل هذه الساعات ؟ »

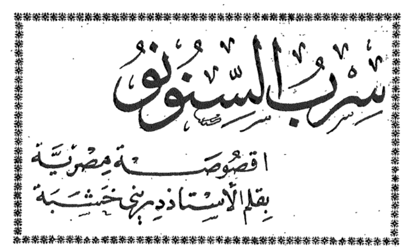
وهكذا نجح ميك حيث فشلت أنا ، فى وضع الأمور على أساس متين .

ترى هل بى من حاجة لأن أصف مظاهر الدهشة والسرور التى ملأت وجه أمى عند ما دخلت البيت فرأتنى ألعب الورق مع ميك ؟ أبى من حاجة لأن أصف كيف تلاشت هباء جميع المتاعب والوحدة وأشباح الذكريات السوداء التى كانت تملأ حياتنا . . .

لما وقفت بعد شهر من هذا اليوم ، أنا وجوديت فى بهو الكنيسة الصغيرة المزينة بالأزهار وشهدنا القسيس يعقد زواج أمى وميك ، ساءلت نفسى مندهشاً كيف يستطيع ابن أن يبرر اتهامه أمه ، لأى سبب من الأسباب ، إذا هو لم يكن أهلاً حتى لأن يفهم الأمور التى يمكن أن تحتفظ بها أمه سرًّا فى قلبها ؟

أما جوديت فقد أبدت إعجابها بحفلة الزواج وجمالها ، ومن رأيها أنه يكون جميلاً أن تتزوج فى الكنيسة نفسها ... فى الخريف المقبل

عبد الحميد حمدى



يكون ملك الموت الكريم مازال يرف على القصر وينظر فى حزن إلى الزهر الأسوان والشجر الكاسف أو أن يكون قد قبض الروح هناك ، وشهد ذاك الغدر هنا ، فيحمل إلى الله العلى رسالة البشرية الظالمة مع رسالة الموت الحق فى آن ، والله بكل شىء عليم ...

كانت تصغى إلى حديثه فى انتباه شديد وذهول ، وكانت الحمرة الفاتنة التى طالما تأججت بالغزل الملتهب فى خديها قد استحالت إلى شحوب وصفرة ، وكانت عيناها النجلاوان قد أخذتا ترتعشان ، وقد بدا فيهما أثر البكاء الصامت

وكان نعمان يروى لزوجته الجميلة الهيفاء أسطورة ساذجة مما يطالعه الناس عفواً فى بطون الكتب ولم يكن يدور بخلده أن حديثه يتدفق فى قلب فتاته فيثير فيه الهم ويعكر عليه الصفو ، وينتزعها من أحلام الحاضر الجميل فيقذف بها فى عالم الذكريات

— فلما مات الملك صفا الجو لأخيه الذى عاثت الشياطين فى فؤاده ، ورقصت الأبالسة فى رأسه ، فلم يطق على لقاء الملكة الفاجرة صبراً ، بل انطلق فى جنح الليل البهيم للقائها . . . وكأنما كانت وإياه على موعد ، فقد تركت جثة الزوج الراحل الوفى مسجاة على سريرها ، وذهبت دون أن تذرف عليها دمعة لتتبادل البشريات والتهانئ هى وعشيقها الآثم

وهناك ... تحت الدوحة الحزينة الباكية التى شهدت غرام الملك ، وسمعت يمين الملكة ، أهوى العاشق الجديد على الفم الغادر يقبله ، غير مبال أن

لقد علقت الملكة أخا الملك وهويته كما هويت زوجة العزيز نبى الله فى مصر ، وكما هويت أنتايا بليروفون فى اليونان

لعلك لا تعرفين هـذه الأسطورة ! إنها بعينها قصة يوسف ، تلك القصة الرائعة التى تمثل على مسرح الزمان فى كل زمان ومكان

علقت الملكة أخا الملك الذى شغفها حبا ؛ وقد تردد أخو الملك أول الأمر ، وجعل يصارع جبروت الحب ، لكن الملكة كانت جميلة وساحرة ، وكان لها جسم ممشوق يثير النداء القديم فى القلوب المحيطة به ... لقد كانت تميس كالظبي ، وترنو بعينين مثل عينيه ، تمهد لها ابتسامات الفم الجميل الدقيق المشتعل كل سبيل إلى كل قلب ... لذلك لم يستطع أخو الملك أن يقاوم طويلاً ... فاستسلم ، وجرفه تيار الحب ، وقامت العلائق الأثيمة بينه وبين الملكة

ولما كانت الملكة هى التى تطارد عاشقها بحبها فلم تكن تخشى شيئاً فى سبيل لقائه والانفراد به ... لقد كانت تنسرق فى ظلام الليل من مخدع الزوج الوفى المريض لتتقلب فى أحضان خليلها المسكين ، حتى إذا بلت أوام قلبها الشرير عادت دون أن تستشعر

وخزة من ضميرها الميت ، فتجد زوجها يبكي ويشكو من علته ، ولو درى لبكى وشكا من زوجته

ولم تمض أيام حتى كان العاشق وصياً على العرش وقائماً مقام الطفل الصغير ولى العهد ، وراعياً للطفلة البائسة التى فقدت أباها أشد ما تكون فى حاجة إليه

ومضى عام أو نحوه ، ثم قيل إن ولى العهد مريض ، وإن علته قاسية قاتلة ، وإنه فى حاجة إلى الشمس المنعكسة من الثلج فوق قمم الجبال

ترى ، هل كان مريضاً حقاً ؟ أم أراد الوصى على عرشه حاجة فى نفسه فهو يخفيها لحينها ؟ !

وذهبوا بالطفل البرئ إلى قمة جبل منيف شاهق فى مملكة مجاورة ، وخصصت له طائفة من الخدم من بطانة الوصى

ولم تمض أشهر حتى جاء نعى ولى العهد ، ولكن ليس كما يجئ نعى أحد من الناس . لقد قصوا فى ذلك قصة عجيبة لو صدقت لكانت أسطورة فى أسطورة ذكروا أن العلة اشتدت بالغلام الذى كان يضيق بالدواء وبالخدم ، فتغفل حراسه وانسرق فى غابة قريبة ، فلم يزل يتغلغل بين الأشجار حتى أمن الأنظار ثم انتحر ...

— أجل ، سأقص عليك كيف فعل ، فإنهم يروون فى ذلك قصة هى إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ...

يقولون إنه ما زال منطلقاً فى الغابة لا يدرى أين يستقر ولا ماذا عساه يفعل ، وكان الطقس بارداً والريح زمهريراً ، فلما غربت الشمس أو كادت ، تطرح الغلام عند جذع شجرة هائلة ، ثم أخذت جفنيه سنة من النوم فاستغرق فى سبات عميق

— انتظرى ، فسأروى لك كل شيء . . . ثم يقولون إن سرباً من الكراكى وعصافير السنونو كان آيباً من رحلته الطويلة إلى الشمال فشهد الغلام مستلقياً عند جذع الشجرة ، فذهب رائد الطير ليتحسس الخبر ، ثم عاد إلى السرب ، فما هى إلا لحظة حتى أقبل الطير كله يحمل الزهر الجميل فجعل يلقيه فوق الطفل ، ثم أخذ الطير يرف فوق الغابة ويعود بالزهر ليصنع منه مهاداً وثيراً لولى العهد . . . وانطلقت العصافير والكراكى ... وأصبح الصباح وأرسلت الشمس أشعتها خلل الأفنان فسقط منها شعاع فوق الطفل الذى لم يستيقظ بعد ...

وأقبل كركى جميل فجعل يغنى ويهتف بالطفل ، لكن الطفل ظل نائماً ولم يستيقظ ... وأقبل كركى آخر وأخذ ينشد ويغرد ، ويقف على الجبين الباهت الناصل الشاحب . . . لكن الجبين الباهت الناصل الشاحب ظل ساكناً ولم يتحرك

وهنا وصل العسس الكثير ، ووقف الحراس مسبوهين مشدوهين ... وتقدم رئيسهم فانحنى فوق الجثة الهامدة فحملها ، وجعل يمطرها بدمعه الكريم الحزين ...

وحزنت الملكة أياماً ثم فاءت إلى هواها فأخذت فيه من جديد كأنه لم يحدث هذا الحادث المؤلم لولى العهد .

— انتظرى فسأروى لك حديث الطفلة ... فهم يذكرون أنها ظلت أياماً تبكى ، وتسأل أين ذهب أخوها ، وكانوا يقولون لها إنه ذهب ليحضر لها باقات الورد من الغابة ، وإنه لا يلبث أن يعود ... فلما مضى العام أو تصرم معظمه ولم يعد ولى العهد ، أخذت وحشة الفتاة اليتيمة تتضاعف ، وبدأت تحس مرارة العيش بعد أبيها الملك وأخيها ولى العهد ... وبدأت

الدنيا تنقلب فى عينيها وفى قلبها ظلاماً حالكا برغم مباهج الملك المحيطة بها ، وبرغم الموسيقى التى تبكى كل صباح ، وكل مساء فى حدائق القصر ، وبرغم الأنوار الخاطفة المتألقة التى تحارب ظلمات الليل ، فتطغى عليها الظلمات ، وتنشر على لألائها ظلال الحداد والحزن ... لأن ظلمات الليل وحدها تعرف كل شئ ولأنها شهدت كل شئ

— ثم أصبح الصباح يوماً وجاءت وصيفة الفتاة إلى الملكة وهى تصرخ وتندب وتشق جيبها، لأن الفتاة فرت ، ولأنهم بحثوا عنها فى كل مكان فلم يقفوا لها على أثر !!

هل ذهبت تسأل الناس عن الغابة لتلقى أخاها ؟

إن الغابة فى أرض مملكة أخرى غير هذه المملكة فيا ترى أين تذهب الفتاة ، ومن يدلها على مكان أخيها ، وهل يذكرلها أحد أنه جثة هامدة ، أورفات سحيق فى قبر ضيق مظلم ... ؟

والجديد اليوم أن الملكة أخذت تستيقظ من أحلام هواها ، لقد كان حزنها الجديد أمض على نفسها من كل حزن ، لأنه حزن متجمع متمكن ، ولأنه حزن صادف ما تفتح فى نفس الوصى على العرش من أمانى ومآرب .. لقد شعرت الملكة أنه يريد أن يتخلص من كل الأشخاص الذين يضايقونه ليخلص له الملك ، وليصبح الآمر الناهى ، وليكون السيد المطلق ... ولقد شعرت أيضاً أن دورها قد جاء مثل دور زوجها الملك ، ودور ابنها ولى العهد ودور ابنتها البريئة الضعيفة التى أبقت لأنها لم تستطع ذلك البعد القاهر المرير عن أخيها

جلست الملكة وحيدة فريدة تحت الدوحة المعهودة تفكر ثم تفكر ... وأخذت أطياف الذكريات والموتى ترقص فى هواء الحديقة الخانق الكريه ... وأخذت قبلات الغرام الأثيم ترقص مع الذكريات سافرة متهكمة مطلة على الملكة من حدق النوار ومقل البنفسج وأعين النرجس ، وآماق البنسيه . وكانت هذه القبل تسقط كالسهام فى حشاشة الملكة لأنها كانت تنشر رائحة الماضى كأنها تنشر رائحة صارخة من قبر قديم ... ومضت سنوات قلائل ... ولم يعرف أحد أين ذهبت الأميرة الصغيرة التى لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها بعد

ووقعت الجفوة بين الوصى الذى أصبح ملكاً وبين الملكة التى لم تصبح شيئاً ... ولم يكن الملك يجهل ما يقوم بنفس صاحبته من غيظ وحنق فكان يحوطها بالجواسيس ويرصد لها العيون كل مرصد ، وكانت هى تحس بهم يحدقون بها ويتعرفون كل حركة من حركاتها ، ولم تكن تجهل أنهم يفعلون ذلك بأمر الملك ، وينقلون إليه خبر كل نفس من أنفاسها ، وعدد الخطوات التى تخطوها فى كل حجرة وفى كل مكان

عرفت ذلك الملكة فحفظته وأضمرته وتظاهرت بالسكون ، وآثرت العزلة ، ثم راحت تدبر خطتها للقضاء على غريمها

وقد عاونتها فى ذلك خادمة عجوز من خدمها اللواتى أقصين عنهـا بأمر الملك ، فما زالت تتملق بعض عيونه عليها وترشوه وتغمره بالأعطيات والهدايا والحلى ، حتى أصبح أطوع لها من بنانها ، فلما وثقت به أسرت إليه بما تحاوله من إنقاذ الملكة من عسف الملك ، فارتعدت فرائصه أول الأمر ، ثم لان قليلاً قليلاً ، ثم وعدها أنه سيعمل بما ترسم له حتى تنجو الملكة ...

وقد أفلح تدبير العجوز ، وكان الرأى على أن تفاجىء الملك عصبة من الرجال الأقوياء ممن لم يقروا تصرفاته فى الوصاية ، وممن شموا رائحة الجريمة تنتشر فى كل تصرفاته منذ وفاة الملك ، فعقدوا الخناصر على القصاص منه لسيدهم وولى عهدهم ، وإن كانوا يعلمون أن للملكة فى كل ما تم يداً مجرمة تستحق القطع مثل يد عدوهم وأشد تنكيلاً ...

وفى هدأة ساكنة من ليالى أغسطس ، كانت أشباح ملثمة تتهادى كالظلال فى حديقة القصر ، وتقفز من شباك هناك إلى حجرة الملكة

وقبل أن يتنفس الفجر صعقت هذه الأشباح كلها ، لأنها سمعت صوتاً مدوياً فى ردهة العرش المجاورة لمخدع الملك ينذرهم فيقول : « مكانكم أيها الأشقياء وإلا قتلتم جميعاً ... ليترك كل منكم سلاحه على الأرض وليتقدم نحو السور ، ثم ليقف هناك حتى يؤذن له ... »

وألقى المتآمرون أسلحتهم ، ثم نظروا فرأوا أشباحاً ملثمة أخرى تصوب نحوهم سهاماً لو طارت عن قسيها لنفذت فى صدورهم فقضت عليهم قضاء مبرما

وأشرقت الشمس واستيقظت المدينة ، وما دهى الناس إلا أن يروا شوارعهم تعج بجنود كثيرين يهتفون باسم ولى عهدهم الذى زعموا أنه انتحر بالورد منذ عشر سنوات ... أو الذى زعموا أن عصافير السنونو قد قضت عليه بالورد حين قصدت أن تمهد له منه فراشاً

وظل الجنود يهتفون للحكم الشرعى ويطوفون فى المدينة برأس الطاغية ، وعرف الملك الفتى ما كان ينتويه الرجال الملثمون فعفا عنهم ...

أما أمه ... نعم ... أمه ... يا لهول اللقاء !

لقد وضع فوق وجهها لثاماً حتى لا يراها وهو يكلمها ...

— أجل ، هى لذتك البهيمية التى حسنت لك قتل أبى ، ثم ائتمارك بى لألحق بوالدى حتى يخلو لك الجو أنت وخليلك

— إعف عنى يا بنى واصفح ما دام الله القادر قد حرسك ، وإنى لأقسم لك إن صدقت لى قسماً أننى كنت أريد به ما صنعته أنت أمس !

— ولم لا تريدين له ذلك وفى طبيعتك الشر ... إن مثلك لا يفكر إلا فى الجريمة لأنه فطر عليها

— يا بنى إنه الشيطان قد أضلنى فلا تقتلنى بكلامك ألف مرة قبل أن تقتلنى بسيفك مرة واحدة!

— الشيطان ! ويلكن يا بنات حواء ! دائماً تتهمن الشيطان بما ليس يحسن شيئاً منه كما تحسنه إطمئنى ، فلن أقتلك ... لقد خسرت قيمتك لأنك شهدت عقبى تدبيرك

— حقاً يا بنى ! وإنى على كل ما كان لآسفة !

— أحب أن أسألك قبل أن نفترق إلى الأبد لماذا عاشرت أبى وأنت لا تحبينه ؟

— ترفق بى يا ولدى !

— لا بد أن تجيبى ؟

— أقسم لك إذن أننى لم أحببه ، و . .

— إذن لماذا تزوجته ؟

— لأنه ملك وللتاج بريق يخلب ألباب العذارى

— أى أنك آثرت بريق الملك على منى القلب

— هذا هو ! ولو كان لى عقل ناضج لما فعلت ذلك ! !

— وماذا كنت تحسين نحوى باعتبارى ابنك الوحيد البكر ؟!

— ألا تترفق بي يا بني ؟

— قلت لك لا بد من أن تجيبي قبل أن نفترق إلى الأبد ، وأحب أن تصدق

— كنت أحس نحوك بكل محبة وعطف إلا إذا ذكرت أباك

— فماذا كنت تحسين إذن ؟

— كنت أمقتك ، لأنك ثمرة زواجنا الذى لم يقم على دعائم من الحب

— وأختى ؟ !

— أختك ؟ !

— أجل ... أختى التى فرت من عسفكم

— إنى أجد ريحها فى كلامك ... أصدقنى يا بنى كما صدقتك ، هل تعرف أين هى أختك ؟

— وماذا يهمك منها ؟

— يهمنى منها أننى كنت أحبها حباً لم أشعر به لا نحوك ولا نحو أبيك ... لقد قتلنى بعدها عنى إن الوقيعة التى تمت بينى وبين عمك كان سببها بعد ابنتى ... لقد كرهته وكرهت الدنيا كلها حين قيل لى إنها فرّت !

— عجيب أن توجد هذه القطرة من الخير فى نفسك !

— ألا تقول لى إن كانت ما تزال على قيد الحياة؟

— إذن فاطمئنى ...

— إذن هى عائشة

— إنها عائشة

— وهل هى قريبة من هنا ؟

— بل هى هنا ... فى هذا القصر !

— بنى ! ...

— ماذا ؟..

— ألا أراها ؟

— لن تريها على أنكِ أمها ، فقد أخبرتها منذ ثمانى سنوات أنك مِت ، ففرحت ، ولم تذرف عليك دمعة كما تفعل البُنَيّات الصغيرات إذا توفّيت أمهاتهن . وثقى أنها إذا علمت أنك ما تزالين حية فإنها تنقلب إلى طبيعتك الإجرامية وتقتلك .. أنا بالطبع لم أذكر لها شيئاً عن جرائمك لأن مثل هذا لا ينبغى أن يقال للصغار

— إذن مُرْ أن أراها مرة واحدة قبل أن أموت ...

— سترينها ، وإن كنت أكره لها ذلك ، لأن نظراتك تدنس كل إنسان تلحقه

— ما أقساك !

— جاء اليوم الذى تعدين فيه كلمة قاسية أشد من قتل زوج وإزهاق روح ابن ، وهدم سعادة أسرة وتقويض مملكة ... إسمعى ... احذرى أن تذكرى لها شيئاً ، فإنك إن فعلت فإنها سوف تسفّهك ولن تصدق من دعواك شيئاً ...

ثم لقيت الفتاة أمها دون أن تدرى من هى ، وإن تكن قد عجبت للدموع التى كانت تنهمر من عينيها ... وعاشت الأم بعد ذلك فى شبه دَيْر تصلى لله وتستغفره ، ثم ماتت ... ومن يدرى ، عسى أن يغفر لها الله ...

— انتظرى فسأروى لك كيف فر ابن الملك ، وكيف كانت أسطورة عصافير السنونو والورد كذباً مفترى ، وكيف نشأ الفتى فى بلاط أحد الملوك من أصدقاء أبيه ...

***

ولكن عزيزة لم تشأ أن تصغى إلى الحديث

أكثر مما فعلت . . . لقد كان القلق بادياً عليها ، وكان الوجوم يشتد بها ثم يشتد كلما أوغل نعمان فى قصته المؤسية المشجية

لقد نهضت وقد راح الدمع ينهمر من عينيها المحزونتين ، ثم ذهبت إلى مخدعها ، فهب نعمان فى إثرها وقد ظن أنه سبب لها الألم بروايته تلك المأساة ... هب ليلاطفها ويرفه عنها ، ويذهب عن فؤادها الحزن ... لكنها أغلقت الباب وراءها ، ثم قالت له حينما هتف بها : « انتظر قليلاً أرجوك ... » وهتف بها ثانية فلم ترد عليه ، فجلس على كرسى ذى مسندين ، وراح يفكر فيما آلت إليه الحال من أمر تلك القصة ...

وبعد قليل انفتح باب المخدع ، ثم برزت منه عزيزة فى ثوب ضافٍ أسود ، وليس فى وجهها أثر من دمام (تواليت) وفى يدها حقيبة صغيرة منتفخة قليلاً ، ثم قالت :

— نعمان ... الوداع يا عزيزى !

— الوداع ؟! عزيزة ! ماذا تقولين ؟

— أقول لك الوداع ... إنى ذاهبة !

— رباه ماذا حصل ؟!

— لا شىء ...

— أصدقينى يا عزيزة ... ألست زوجتى ؟

— بلى . . . أنا زوجتك ، ولكنى أرجوك أن ترسلنى ...

— رباه ... أكاد أجن ... أريد أن أعرف ماذا حدث !

— لم يحدث شىء ... الأفضل لنا معاً أن ترسلنى ، تصدّق على الفتاة التى أحببتها كما أحبتك بكلمة الطلاق !

— ما هذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت مريضة ؟

— لست مريضة قط !

— إذن ماذا حدث ؟

— أفضّل ألا تعرف

— بل يجب أن أعرف !

— إذن . . . وما دمت مُصِرًّا ، فاعلم أنى خدعتك !

— خدعتنى ؟ وكيف ؟

— خدعتك يوم بكيت لك ليلة زفافنا لتغفر لى زلتى ... ألم أقل لك إن شاباً أغوانى ؟

— بلى ، ولقد غفرت لك ونسينا كل شىء ...

— إذن فاعلم أن أحداً من الناس لم يغونى ، بل إنى كنت متزوجة زوجاً لم أحبه ، فلما عاشرته ضقت به ثم هربت ، وقد لقيتنى أنت فعطفت علىّ عطفاً جعلنى أحبك بل أعبدك حتى نسيت السنوات الثلاث التى عشتها مع الرجل الأول

— وما فى ذاك ؟!

— ألا تدرى ؟

— لست أرى فى كل ذلك شيئاً !

— كلامك غريب يا نعمان

— ليس غريباً كما تظنين !

— عجيب !

— أى عجيب ؟

— كيف أكون لك زوجة وأنا زوجة رجل آخر ؟!

— وما العمل إذن ؟

— سأذهب إلى زوجي الأول

— وأنت لا تحبينه ؟ !

— أجل !

— وكيف يكون هذا ؟

— لأني لا أريد أن تكون آخرتي مثل آخرة الملكة بطلة قصتك ؟ !

— ماذا تعنين ؟

— أعني أن لي طفلين مثل الطفلين في قصتك !!

— تعنين أنك تفضلين أن تعودي إليهما !

— أجل ... هو ذاك !

— وعبد الحميد !

— أوه ! عبد الحميد ! مسكين !

— هذه مشكلة يا نعمان !

— مشكلة وأي مشكلة !

— لكنه ما يزال صغيراً ، وسينسى !

— أتدعينه بغير أم ؟ !

— هذا من غير شك عزيز عليّ ، لكنها مصيبة ذات شطرين ، ولا بد ...

— لا بد ماذا ؟

— لا بد أن نقتسمها معاً .

— وهل تضمنين أن يقبلك رجلك الأول ؟

— من غير شك سوف يقبلني ، لأنه كان يعبدني ...

— وإذا لم يقبلك فما العمل ؟

— سأرى أولاً ...

— وكيف أقدمت على الزواج مني وأنت متزوجة؟

— هذه زلة ، وإن تكن كبيرة ، لكنك ستغفرها لي

— مشكلة !

— ألا ترسلني يا نعمان ؟

— لا قيمة لكلمة الطلاق لأن زواجنا باطل !

— إذن وداعاً ... وداعاً أيها الرجل الذي حماني ومد ظله عليّ ... وداعاً برغمي يا أعز الناس عليّ ... ماذا أعمل ... لقد ذكرت نجيباً وصفية فدارت الأرض بي ، وضاقت عليّ بما رحبت ...

* * *

هذه هي القصة التي رواها لنا نعمان أفندي عبد الجليل عند ما قابلناه مرة يتردد على مستشفى المجاذيب حيث كان يزور زوجته عزيزة ، وقد ذكر لنا أنها جنت لأن زوجها طردها لأن ابنها نجيباً ، وصفية كانا قد اختارهما الله ، ولأنه كان قد طلقها منذ زمان بعيد .

دريني خشبة

البعث

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب عادل الجمال

— ١ —

لم يكن هناك فى قرية « فيكامب » من يجهل تاريخ الأم « باتان » الحافل بألوان الشقاء ... كما لم يكن يختلف اثنان فى الحكم على قسوة معاملة زوجها لها طيلة حياته

اتخذها باتان زوجة له منذ عدة سنوات حين كانت فى نضارة الصبا وقد حباها القدر بقسط وافر من الجمال والجاذبية ... فى حين كان هو بحاراً ماهراً عملاقاً اعتاد الذهاب إلى حانة العجوز «أوبان» لتناول أربع أو خمس كؤوس من الكحول . ولم يكن ذلك هو الحد الأعلى لملء فراغ معدته ... بل كثيراً ما ارتفع ذلك الرقم إلى ثمانى أو عشر كؤوس ... ربما زادت على ذلك قليلاً إذا ما كانت صفقة صيده رابحة . وكانت ابنة أوبان هى التى تشرف بنفسها على خدمة رواد الحانة الذين أسرتهم عيناها الحالكتا السواد، وامتلكت أفئدتهم بقوامها الرائع المشوق

ويوم جاء باتان إلى تلك الحانة للمرة الأولى ... اكتفى بإطالة النظر إلى الفتاة فى شوق وحنين وهو يشير إليها من طرف خفى . وازدادت فتنتها فى عينيه حين ارتشف كأسه الأولى ... فما كاد يأتى على الثانية حتى كان يلتهمها بعينيه فى نشوة وشراهة . واستقرت محتويات القدح الثالث فى جوفه فتمتم قائلاً دون أن يتم جملته : « لو كان فى إمكانك فقط أيتها الآنسة ديزيريه ... »

ومع فراغ القدح الرابع كان باتان ممسكا بثوب الفتاة وهو يحاول تقبيلها

وتعددت الكؤوس ... واكتملت عشراً ... وحينئذ أرسل أوبان العجوز ابنته إلى الخارج وراح هو بنفسه يشرف على خدمة البقية الباقية من زبائنه الساهرين . كان أوبان رجلاً حاذقاً لا تخفى عليه خافية ... فكان يترك ابنته تتنقل برشاقتها بين الموائد لإغراء الزبائن حتى يستزيدوا من خمره تاركا لها مطلق الحرية فى توزيع ابتساماتها الرائعة وإرسال سهام عينيها إلى أفئدة المخمورين وهو واثق منها كل الثقة دون أى محاولة من جانبه لاكتشاف سر ذلك البريق الذى كان يشع من عينيها .. البريق الغامض الذى كان ينعكس فى أغوارها كلما حاولت امتحان عواطفها إزاء رجل من زبائن الحانة

وأصبح وجه ديزيريه مألوفاً لدى باتان من طول تردده على حانة أوبان ... فكان يراها ماثلة أمامه وهو فى مركب صيده ناشراً شباكه فى المياه الهادئة أو الصاخبة على حد سواء ... أو كان يتخيلها تومئ إليه فى حلكة الليل الساجى . أو تحت ضوء القمر الفضى الساهر ... فكان يطيل التفكير فيها ... وكم كان يهنأ بذلك التفكير وهو فى جلسته عند

مؤخرة المركب ، ويده مستقرة على سكانه ... بينما ارتكزت رؤوس بحارته الأربعة على أيديهم ، وقد راحوا تحت تأثير نومة استسلام هادئ لذيذ بعد إجهادهم اليومى المرهق ... وفى كل تلك الحالات التى كان يتخيلها فيها ... كان يراها تبتسم إليه وهى ترفع يدها لتملأ كأسه بالرحيق الملون هامسة وهى تتأهب للابتعاد عنه :

— أليس ذلك هو كل ما تطلب ؟

وأحس أخيراً أنها أصبحت تشغل حيز تفكيره كله ... فلم يستطع كبت تلك الرغبة التى كانت تلح عليه فى أن يتخذها حليلة له . وطلب يدها من أبيها

وأجيب باتان إلى مطلبه : فقد كان يمتلك مركباً وشباكاً ، علاوة على منزل بالقرب من الميناء . . . فى حين كان أوبان العجوز لا يمتلك شيئاً ... وتمت معدات الزفاف دون تأخير .

وانقضت ثلاثة أيام استيقظ بعدها باتان من الحلم الذى كان يعيش فيه ، وهو يعجب كيف أنه اعتقد يوماً أن تلك الفتاة ديزيريه تختلف فى شىء عن غيرها من النساء . وابتدأ ينعت نفسه بالجنون ، ويعيب عليها ضعفها وخضوعها لذلك القيد الذى قيدت نفسها به . . . القيد الأبدى الذى استسلم إليه تحت تأثير الخمر . . . نعم ! لقد كانت الخمر هى السبب فى ذلك الزواج . . . الخمر التى كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الفتاة قد مزجتها ببعض العقاقير السحرية للايقاع به

ولم يكف باتان عن سب نفسه طوال ذلك الوقت ... وما كاد يصل إلى ذلك الحد من التفكير حتى ألقى فضلات التبغ المتبقية فى غليونه ، وراح ينقل أسماكه الواحدة إثر الأخرى، وهو يغمغم غاضباً

وعندما وصل إلى منزله وجد زوجته — ابنة أوبان العجوز — قابعة هناك كعادتها . فلم يحيها بحرف . بل راح يكيل لها ألفاظ السباب الحادة ... فقابلتها الفتاة بأحد منها ، إذ كانت طبيعة والدها الهمجية متأصلة فيها . وكان ذلك مما يزيد فى غضب زوجها وإيلامه . ولكن تلك الآلام لم تبلغ الذروة إلا فى تلك الليلة التى اعتدى عليها فيها بالضرب

وخلال السنوات العشر التى تعاقبت بعدئذ . . لم يكن هناك من حديث يدور بين أهل الميناء إلا عن تلك المعاملة القاسية التى كان يتبعها باتان مع زوجه، لا لشىء إلا لأنه كان موهوباً بالسليقة بلهجة فى سبابه لم يكن هناك فى فيكامب من يضارعه فيها

وعاشت المرأة المسكينة فى جو من الخوف والرعب عشر سنوات كاملة اعتادت أثناءها الوحدة والسكون، عشر سنوات كاملة كان فيها الكفاية لتجعل منها هيكلاً هزيلاً يشبه هيكل سمكة صغيرة جافة .

— ٢ —

استيقظت المرأة فجأة ذات ليلة على صوت أنين الرياح وهمهمة رياح البحر ... فجلست على فراشها وراحت أفكارها تتجمع فى نقطة واحدة حتى تركزت فى ذكرى زوجها الغائب فى مركبه وسط ذلك البحر الثائر ، وسكن الصوت ... فاستلقت على فراشها ولكنها لم تكد تغمض عينيها حتى هبت فزعة وقد روعها صوت العاصفة ، وقفزت من الفراش ثم هرولت نحو الميناء التى كانت قد امتلأت بجموع النساء وقد حملن فى أيديهن المصابيح ينرن بها الطريق للرجال الذين هرعوا بدورهم إلى هناك لمحاولة نجدة من يحتاج إليهم من الصائدين ... وظلوا محدقين فى المياه السوداء الممتدة أمامهم فى جلال وروعة وقد بدت أشباح مراكب الصيد الصغيرة وهى ترتفع وتنخفض فوق الأمواج الصاخبة ،

ودامت العاصفة خمس عشرة ساعة

وكان من نتيجة ثورة الطبيعة أن أحد عشر صائداً قدر عليهم ألا يعودوا إلى منازلهم قط . . . وكان پاتان من بينهم

وقذفت الأمواج بحطام سفينة پاتان « أميلى الصفراء » إلى أحضان شاطئ « سان فاليرى » . ولكنها لم تظهر أى أثر لجسد پاتان

كان من الممكن أن يكون قد أصبح طعاماً للأسماك ... كما كان من الممكن أن يكون قد انتشل من المياه وأبحر مع منقذيه إلى حيث يقصدون

وعودت المرأة نفسها الحياة كأرملة ... ولكنها إلى جانب ذلك لم تكن تمتنع عن استقبال سائل أو مسافر أو بحار داخل مخدعها

وانقضت أربعة أعوام على اختفاء رجلها

ومالت الشمس إلى المغيب ... وهبت نسمات باردة تنذر باقتراب الليل ... وفزعت الأطيار إلى أوكارها ... فى حين كانت المرأة تسير فى شارع « اليهود » وقد لفت نظرها منزل قبطان عجوز ... كان يقف ببابه « دلال » ينادى على أثاث المنزل لبيعه ... وفى تلك الآونة كان الرجل ممسكا بقفص قد استقر فيه ببغاء وهو يهتف :

— ثلاثة فرنكات ... طائر يتكلم كرجل القانون ... فقط ثلاثة فرنكات

وتمتمت ديزيريه لصديق كان يتأبط ذراعها :

— يجب عليك شراؤه فسيكون لك نعم السمير. إننى واثقة من أن ذلك الطائر يساوى ثلاثين فرنكا ثقتى من أنك تستطيع بيعه ثانية بعشرين أو خمسة وعشرين فرنكا

وارتفع صوت الدلال مرة أخرى قائلاً :

هيا ... أربعة فرنكات أيها السادة ... أربعة فرنكات.. إنه يستطيع الترتيل، فياله من أعجوبة نادرة.

وأخيراً . . انتقلت ملكية الببغاء وقفصه لديزيريه بعد أن رفعت ثمنه لأربعة فرنكات وخمسين سنتيما

وتمتمت المرأة قائلة بغضب لما رأت نقطة من الدماء تلوث يدها حين لامست رقبته وهى تضع له شيئاً من الطعام فى حجرتها

— يا لله ... لم أكن أعلم أنه جريح

وتوجهت إلى فراشها بعد أن وضعت للطائر شيئاً من الطعام وإناء صغيراً مملوءاً بالماء

ولم تكن أنوار الفجر الوردية قد بدت بعد، حين تعالى إلى أذنى مدام پاتان صوت واضح جلى يقول :

— ألم تستيقظى بعد أيتها المنكودة ؟

لقد رجع زوجها أخيراً . . . فذلك الصوت صوته وتلك عادته فى مناداتها إذا ما استيقظ فى الصباح . وأحست برعشة تسرى فى عروقها فدفنت وجهها تحت الوسادة بينما راح جسدها يرتجف ارتجافاً واضحاً وهى تتمتم قائلة لنفسها :

— يا إله السموات ... لقد رجع ثانية وها هو ذا . . . يالله

ومرت بضع دقائق دون أن يعكر صفو السكون الشامل صوت .. فأخرجت رأسها من تحت الوسادة، كانت متأكدة من وجوده بالقرب منها يرقبها وهو على أتم استعداد للانهيال عليها بالضرب كما كان فى الماضى البعيد ... ولكنها لم تر شيئاً غير أشعة الشمس التى ابتدأت تخترق زجاج النافذة ، فهمست قائلة لنفسها :

— لا بد أن يكون مختفياً فى مكان ما

وظلت تنتظر ... وطال انتظارها فعاودها بعض هدوئها وغمغمت :

— إننى لم أره ... إذاً . . . لا بد أننى كنت أهيم فى وادى الأحلام

وأغمضت عينيها مرة أخرى فى اللحظة التى ارتفع فيها صوت پاتان كالرعد قائلاً :

ألا زلت نائمة أيتها الملونة ؟

وقفزت من فراشها وقد انتابها فزع المرأة المطيعة التى ظلت أربعة أعوام كاملة وهى ترزح تحت عبء الذكرى الأليمة ... ذكرى العذاب الذى كان يسببه لها صوت ذلك الرجل الكريه ... وهتفت :

— ها أنا ذى يا باتان ... ماذا تريد ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتلفتت حولها فى دهشة ... ثم أخذت تبحث فى كل مكان . . . ولكنها لم تجد أحداً . . . وتهالكت على مقعد بالقرب منها وهى تحس بروح باتان ترفرف فوق رأسها ... وأخيراً تذكرت الحجرة الصغيرة الإضافية الواقعة فوق حجرة الطعام .. لا بد وأن يكون مختبئاً هناك فى انتظار مفاجأتها ... ثم... ثم العودة إلى نفس الحياة القاسية التى كانت تحياها من قبل... ونظرت إلى سقف الغرفة وهى تقول متسائلة

— هل أنت فوق يا باتان ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتسللت إلى الخارج فأحضرت سلماً تسلقته ونظرت فى الحجرة الصغيرة لترى ... لتراه ... ولكنها لم تعثر عليه ... فجلست على الأرض وابتدأت تبكى وهى ترتعد. ومن أسفل جاءها صوت باتان يقول:

— أى جو وأى رياح ..؟ إننى لم أتناول وجبة الصباح بعد

وصرخت المرأة من أعلى قائلة :

— إننى هنا يا باتان.. ها أنا ذى فى طريقى إليك لإعداد طعامك فلا تغضب.. ها أنا ذى آتية. وهبطت السلم بسرعة فائقة . ولكنها لم تجد أحداً بانتظارها

وأحست بضعف مميت يغمرها من رأسها لأخمص قدميها . وفكرت فى أن تهرع إلى الخارج مستغيثة حين ارتفع صوت باتان قائلاً :

— إننى لم أتناول طعامى بعد أيتها الا ...

كان الببغاء فى قفصه يتابع كلماته ، وهو يحدق فيها بعينين كجمرتين .

ونظرت إليه والدهشة تغمرها ثم تمتمت :

— إذا ... إنه أنت . وتكلم الببغاء ثانية وهو يحرك رأسه :

انتظرى ... انتظرى قليلاً ... فسألقى عليك درساً لتكونى أشد كسلاً منك الآن .

أى أحاسيس شعرت بها المرأة فى تلك اللحظة ؟ لقد شعرت تماماً أن الرجل الميت قد بعث مرة أخرى ... بعث حياً فى هيئة ذلك الببغاء .

إذا ... سيعود مرة أخرى لإهانتها ... كما كان فى الماضى ... وسوف لا يمر يوم بهدوء ... وجيرانها ... سيعودون حتما للهزء بها والسخرية منها

وأسرعت المرأة نحو القفص ففتحته . وأخرجت الطائر الذى راح يدافع عن نفسه بمخالبه فيدمى يديها ... ولكنها لم تعبأ به ... وتهالكت فوقه على أرض الغرفة ... وراحت بكل قواها تضغط على رقبته حتى سكنت حركته .

لم يعد يتحرك، لم يعد يتكلم. ولكنه كان مستكينا استكانة الأبد بين ذراعيها . وجمعت الريشات الخضراء المتناثرة هنا وهناك بيد مرتجفة ووضعتها مع الجسد المسجى على الأرض فى لفافة صغيرة ... ثم هرولت إلى الخارج عارية القدمين ... وقذفت بالحزمة الحاوية لل ... للشىء الميت فى مياه البحر الهادئة ... فبدت كحزمة من البرسيم الأخضر طافية فوق المياه الزرقاء .

وعادت إلى حجرتها فركعت على ركبتيها أمام قفص الطائر الميت ... وراحت تبكى .

كانت تشعر أنها ارتكبت إثما ... إثما هائلاً كأكبر الجنايات وحشية ... فابتدأت تدعو الله أن يغفر لها .

عادل الجمال

الرَّاهِبَة

قِصَّة مَسْرَحِيَّة فى فَصْل وَاحِد

بقلم الآنسة جميلة العلايلى

المشهد: إيزيس راهبة عذراء جميلة ساحرة فى الخامسة والعشرين من عمرها، جالسة تحت ظل شجرة كثيفة بعيدة عن بناء الدير وحديقته فى طريق أشبه بالصحراء الموحشة ترمى المغزل فى بطء وتسند رأسها الجميل إلى يدها البضة محدقة فى الأفق ببصر سارح وذهن شارد، ثم تحول بصرها لترمق طيراً رف عليها ثم حلق بعيداً، وأخيراً تغض الطرف لتخفى دموعها التى بدأت تقبل وجنتيها فى استحياء ولا تجد من قلبها غير بسمة شاحبة مريرة

***

تفاجئها زميلة لها راهبة دميمة قد جاوزت الأربعين من عمرها، عليها طابع العقل الرصين، تتمشى فى هوادة حتى تقف بجانبها فتضع يدها على كتفها فى حنو قائلة بصوت خفيض بطىء:

— إيزيس، طال بك المكث هنا والجو مكفهر غير بهيج

إيزيس (تنظر إليها فى بطء ثم تقول بصوت أشبه بنغم الحلم العميق) — بالعكس، ما رأيته أبهج منه اليوم.. أنظرى إلى هذا الغمام! تأمليه. تأمليه جيداً. ألا ترين اليقظة الحارة تسرى فى شرايينه لتحبو الكون حلماً يحمل خلاصة الرجاء والحنين؟ ...

كامليا (بلهجة المتخابثة) — ما عهدتك هكذا تحلمين بمعانى الدنيا وتخرجين من يقظة الحقيقة القدسية؟

إيزيس (متنهدة وقد خانتها مدامعها) — ما زلت أجهل يا أختاه الفارق بين اليقظة والحلم، نحن نحلم دائماً حتى فى يقظتنا، لذلك أعتقد أن اليقظة هى الحلم الصريح والحلم هو اليقظة المتنكرة

كامليا (تجلس بجانبها حانية) — أراك فى هذه الأيام تحنين إلى العزلة، عزلة سكان الأرض (تشير إلى مغزلها) حتى شغلك يثبت أنك لاهية عنه ... ما الخبر؟ هل من جديد؟



إيزيس (فى هدوء) — كامليا ... (يخونها إحساسها المبهم الغامض فتبكى بصوت خفيض)

كامليا (فى حرارة) — ربّاه، أى شيطان يراودها؟ إيزيس هيا قومى إلى محرابك ليعود إليك

صوابك فلا شك أن الشيطان قابع فى هذا المكان الذى ملأه بعبير السحر الكاذب والحلم الموهوم (تحاول إيقافها)

إيزيس (تمتنع عن القيام) — كاميليا .. إستمعى إلى . تعلمين أننى لجأت إلى الدير هرباً من أضاليل الجموع ، وتخلصاً من الذئاب البشرية التى تجرى وراء الفريسة النسوية فى كل مكان ... هربت لأن الله بقدر ما منحنى من جمال ، وهب الآخرين جشع الجسد وضعف النفس . وقد نزعت عنى كل رغبة بشرية وتحررت من قيود كل شعور دنيوى لاعتقادى أن السعادة فى خلو البال وتحرر الجسد من النزعات. أجل فررت من الرياض النضرة العامرة بالأمانى والأحلام ولجأت إلى الصحراء المقفرة مهبط الحقائق والسلام ... ولكننى أدركت أخيراً أن كل حياة مهما تنوعت صورها ناقصة مبتورة — كاميليا — أصدقينى ... ألا تشعرين بحاجة ماسة إلى شىء مجهول . ألا تحسين فى أعماق صدرك بعذاب الحرمان؟ ألا توسوس لك نفسك أحياناً أن تدفعى ما تبقى من عمرك لقاء بعض أيام هنيئة مليئة بأعذب الآمال

كاميليا (متنهدة فى حرارة) — ولكن هذا الأمل عبث يا إيزيس ، لقد وهبنا أنفسنا للعذراء ، وليس من حقنا أن نسترد الهبة .

إيزيس (فى شبه ثورة) — العذراء لا تحلل الباطل أبداً ... هذا وهم ... توارثته الأجيال. لا يمكن أن تكون العذراء أنانية وهى أطهر من الطهر ... كيف تحرِّم علينا حقاً مشروعاً ؟

لقد تمتعت العذراء بحب وحيدها وتنعمت به إلى حين ... ذاقت الحب والأمومة . . .

كاميليا (متكلفة منطق الحكمة) — اغفر لها يارب (تشير إلى الصليب) يايسوع رد إليها صوابها

إيزيس (فى هدوء) — لست مجنونة . بل أنا اليوم أعمق فكراً وأغزر إحساساً . . . لقد خلقنى الله لأقدم رسالة الكل إلى الكل ، ولشد ما أعجب كيف يمنحنى الله حقاً ويحرمه على البشر !

كاميليا (تقاطعها بوضع يدها على فمها) — كفى كفى لقد ازددت شططاً . حذار أن تسمعك الأم. إنها لا ترحمك مطلقاً وإذا غضبت لا ترضيها صلاة أعوام طوال ... لأنها تغضب ليسوع المهان ... قومى لنصلى معاً وليغفر لك الرب ، وليشفع لك يسوع

إيزيس (بصوت اليقين) — الرب يعلم حقيقة السرائر ويسوع يدرك الحقيقة . أما نحن فجهلاء آثمون.. نحارب الإثم بالإثم ونقول ذاك هو الإيمان. ما أفظع هذا ! قومى إلى محرابك يا أختاه ، لأن من يخاف لهب الشمس وبرد الشتاء ويفر من الوحوش لا يبلغ عمق الحقيقة أبداً ... أبداً

كاميليا — أى حقيقة يا بلهاء ؟ الحقيقة هناك ... تنتظرك فى معبدك القدسى تحت مصباح العذراء . أنظرى (تشير إلى الصليب المعلق على صدرها) هذا علامة الحقيقة

إيزيس (تهز رأسها مستنكرة ... يترامى إليهما صوت ناقوس الدير)

كاميليا — الصلاة ... هيا

إيزيس — دعينى . . . لا يمكننى الصلاة الآن ...

كاميليا — عفوك يارب .. شد أزرها يايسوع. إهربى من الشيطان يا أختاه ... وتعالى معى لتستردى إيمانك المفقود

إيزيس — من قال لك إننى فقدت إيمانى ؟ ومن أنت حتى تعرفى خفايا الضمائر ؟ الله وحده يعلم سرائر القلوب . . ألا يحتمل أن يكون الشرير

السفاك أكثر إيماناً من رجل يتزيا بمسوح الراهب ؟

كامليا (تجفف مدامعها) — إيزيس .. حسبك. قومى واعتمدى على ذراعى

إيزيس — سأصلى هنا ... كل بقعة فى الأرض يجب أن تنال حظها من عبادة الله لأنه موجود فى كل مكان وهو يشرف على المحراب القدسى كما يشرف على دار البغى ، يمنح الأول رضاه، ويهب الثانى حكمة الأناة ...

(يتكرر دق الجرس)

كامليا (فى ثورة الغاضبة) — عجلى يا إيزيس الصلاة تدعونا ...

إيزيس — اذهبى أنت ...

(يترامى إليها نشيد الراهبات، يبدو طيف راهب يتمشى فى طريقهما حتى يبلغهما ... ويفهمهم عن مشيته أنه كان ينشدهما) .

المشهد الثانى

كامليا . إيزيس . الراهب

الراهب — طال بحثنا عنكما ... ألم يبلغكما نداء الصلاة ؟

كامليا — التوت ساق إيزيس فصعب عليها السير ، وها نحن تان نتأهب للذهاب إلى الصلاة .

إيزيس — (محتدة) لم الكذب يا كاميليا ؟

كاميليا — (تنظر إليها عابسة غاضبة) قلت الصدق يا إيزيس ... أيخجلك أن يعلم الأخ أنك طفلة لا تحسن السير ...

إيزيس — (متهكمة) أعرفت أننا لا نمتاز عن أبناء الدنيا بغير قوة الكبت ، وبراعة التلفيق .

الراهب — ما معنى هذا ؟ لم أفهم شيئاً .

إيزيس — معناه أننا نكذب أيضاً وقد نسرق وقد نقتل ونظلم. ولكن بأسلوب غير أسلوب الناس.

(تضحك فى شبه جنون وسخرية) .

كاميليا — لا شك أنه أصابك مس من جنون لا بد من مخابرة الأم (تنصرف)

الراهب — (بصوت لطيف) يا أختى الحسناء أراك غاضبة ثائرة، علام ؟...

إيزيس — بدأت أفهم الحياة .

الراهب — خلقت الحياة لكى تكون خادمة لك وأعتقد أن الرب يوم ولدت خلقك على مثال العذراء جمالاً وطهراً ، لا أكتم عنك أننى أزداد إيماناً وقوة كلما لمحت وجهك النضير ... آه ليت الدين حلل للراهب أن يأتنس بالجمال كما يأتنس به ابن الحياة .

إيزيس — (متخابثة) هل تعنى أنك تحبنى ، وتشتهينى .

الراهب (فى ثورة وحماسة) — كل الحب والشهوة

إيزيس (فى دهاء المرأة) — وإذا طلبت منك الفرار من هنا لنعيش سويا كأبناء الحياة ، أتقبل ؟

الراهب (يتردد ويطرق مفكراً ملياً ثم يقول) — ولم لا نجمع بين الدين والمتعة ؟ ... لم لا أقنع بأخوتك مع تأدية رسالتى الدينية ...

إيزيس (متماكرة) — تريد أن تتمتع بى وأنت فى لباس الراهب ؟

الراهب — متعة بريئة طبعاً

إيزيس — وهل تفرق بين النظرة النهمة والاستمتاع الدنئ ؟

الراهب (خجلا) — هناك فرق شاسع بين نظرتى العاطفية إليك وبين استمتاعى بك

إيزيس (فى جد) — لا أفهم هذا أيها الراهب؛ والذى أفهمه أنك أصرح ما عرفت من الرهبان ... هم يحبسون شهواتهم وقد يتنفسون فى خفاء ونفاق

أما أنت فقد استطعت أن تكون أكثر شجاعة وجرأة ... ميزة طيبة على كل حال ... تقدرها المرأة ... لكن فى غير المعابد .. لأن الرجل الذى يعجز عن كبت شهوته فى المعبد أكثر خطراً على المجتمع من الرجل الذى يقضى طوال النهار والليل فى دور البغايا

الراهب (يحمر وجهه وتبرق عيناه ويتمتم) — أراك أسأت فهم مرماى ؟

إيزيس — ظن ما شئت

وتركته فى مكانه بعد أن رمته بنظرة شزراء وراحت تسير الهوينى ... تسمع صوت ناى بعيد يقترب منها رويداً ... رويداً ... فتتابعه ... تقف بغتة وهى تشد حبل صليبها وتقول: يا يسوع ... ما هذا الصوت ؟ كأنه صوت الشيطان جاء ليردنى إلى حظيرة الذكرى المريرة ... آه ...

(يقترب الصوت حتى تتبين أنغامه ويتراءى لها صورة الطيف)

(تقول بذعر) إنسان هنا .. تحاول الفرار (الصوت يستوقفها) ... يا أختاه ... يا أختنا إيزيس (تقف) من ينادينى ؟ ... يواجهها رجل فى زى رعاة الغنم سقيم الجسم شاحب الوجه فى صوته رنة حزن عميق دفين ...

المشهد الثالث

الراهبة . إيزيس . الرجل

الرجل — أنا

الراهبة — أظامئ أنت أم جائع أم تائه تبحث عن الطريق ؟

الرجل — ظامئ إلى الحقيقة ، راغب فى الموت ولكن بعد أن ... (يتهدج صوته تحت تأثير اضطراب قوى فيتلعثم ويسكت ثم يقول بعد عناء أهذا الذى أراه هو الدير ؟

الراهبة — آه ، تريد أن تترهب لتتعلم الحقيقة من الدير وتعتكف فى المحراب لتتطهر من الرجس الذى تظنه يقطن فى كل بقعة من بقاع الأرض ؟

خير لك يا سيدى أن تبحث عن الحقيقة فى هذا المكان المقفر فإن فيه معنى لها . إبحث عن الحقيقة فى النور وفى الضوضاء ، وابحث عنها فى المراقص والملاهى ودور المفاسد ... هناك النفوس عارية تعيش بحقيقتها الأصيلة وإن أسموها حياة الكذب والخداع ...

الخداع والنفاق هنا حيث يتستر الإنسان بالدين ليقف الألسنة ويغمض العيون

المس كل شيء ... وذق كل شيء ... فإذا زهدت أخيراً فأنت من المؤمنين المتطهرين ...

أما أن تجيش نفسك بين جدران الهيام لتتقى الشر وتصون نفسك من إغراء الحياة ... وتظن نفسك فاضلاً فأنت أضعف الضعفاء وأكذب الكاذبين. إن استطعت أن تعيش وسط الظلم صابراً وبين المجون طاهراً وفى أعماق الأضاليل نزيهاً فأنت مؤمن قديس . أما أن تحبس نفسك فى الدير فأنت بالحرمان المطلق تعيش فى كنف عبودية مراسيم لا تفقه لها معنى ولا حقيقة فأنت أشبه بالكافر ...

وما الذى تجنيه من الدير؟ عقلك يصاب بالشلل وقلبك يبليه السقم ، وأخيراً تموت

الرجل — سأموت عاجلاً أو آجلاً ولكننى أريد الموت على الصورة التى تحبب إلىّ ظلمة القبر وتهوّن علىّ وحشة الآخرة

الراهبة (متهكمة) — أى صورة ؟

الرجل (يتأملها طويلا) — فى صوتك حنانها وفى لحاتك معانيها وفى معانيك فلسفتها ووحشيتها

الراهبة (وقد ملكتها الدهشة) — صورة من؟

الرجل — (متلعثما) صورة ... آه صورة.. من أبحث عنها .

الراهبة — عمن تبحث يا سيدي ... ؟

الرجل — كأن حقيقتها سكنت فيك .. ؟

الراهبة — آه، تبحث عن الحقيقة .. تضحك متهكمة ... كل الناس يبحثون عن الحقيقة ... والحقيقة ظل كل شيء في الوجود. هي الضوء والنور، وهي الأمل واليأس ، وهي الفرح والحزن ؛ وأخيراً هي الرجل والمرأة (تعاود الضحك) أي حقيقة تنشد يا سيد والحقيقة هي الصورة الرمزية للقدر ، هي القوة والضعف ، هي العدل والظلم ، هي الرحمة والرجاء ... وأخيراً هي الحب

الرجل — (مبهوتا) كأنك هي .. أ كاد أجزم. قلبي نبأني ... (يرتمي على الأرض في شبه إعياء)

الراهبة — (وقد ملكتها الرحمة) إلى هذا الحد أنت تعب ... مسكين ... (تساعده على الجلوس) ... أنت جائع بلا ريب ... تعال معي إلى الدير لتأكل وتستريح

الرجل (محاولا أن يسترد قواه) — يا أختاه هل تسمحين لي بسؤالك ؟

الراهبة — سل !

الرجل — أمتصلة أنت بكل راهبات الدير ؟

الراهبة — بالتأكيد

الرجل — متى جئت الدير ؟

الراهبة — منذ عشر سنين (تتنهد) قبل أن يكتمل صباي ... كنت أخطو نحو الصبا في عجالة ..

الرجل (متمتما) — بالضبط منذ عشر سنين ... هل تعرفين راهبة دخلت في ذلك الوقت ؟

الراهبة — وماذا يهمك من هذه الراهبة ؟ هل تعرف أن الراهبات تناسين أبناء الدنيا ؟ وهل تظن أنها تسمح بمخاطبتك لو تقدمت إليها اليوم ... ؟ احفظ ماء وجهك ! !

الرجل — أريد أن أستغفرها

الراهبة — (مقاطعة وقد أحست بشعور مبهم) علام ؟

لقدغدرت بها من أجل فتاة غنية صورت لي المجد والعظمة في الثراء ؛ فأنستني المطالع المادية الحب والوفاء . تركتها بعد أن تقبلت قلبها ... وتنحيت عنها في جبن ونذالة، وآثرت فتاة اللهو بثرائها، عن فتاة الحب بشرفها ، فذهبت المسكينة المظلومة إلى الدير ، وكأنها ذهبت لتكون دعواتها أقرب إلى الله فانتقم مني لها !

عبثت المرأة الغنية برجولتي ، وهتكت شرفي وكرامتي ، وأخيراً لم يستطع بريق الذهب أن يهون على المصاب فيما بذلته من دماء شرفي ، ولم يستطع الجاه المزيف أن يرد على مجد الكرامة

ولما ثارت كرامتي لرجولتي . . . لطمتني المرأة وطردتني كما يطرد الكلب غير المرغوب فيه . . .

أدركت للتو أن الله انتقم للمسكينة البائسة . فجئت أبحث عنها راجياً أن أموت تحت قدميها

الراهبة — (بصوت منكسر حزين محاولة أن تخفي مدامعها) جئت بعد فوات الوقت . لقد ماتت !

الرجل (مذعورا صارخاً) — ماتت !

الراهبة — (فى اختناق) أجل ماتت فتاتك المحبة …

الرجل — إذن يجب أن أموت … فأين قبرها لأموت أمام بابه ، وأصلب نفسى على صليبه فأموت شهيداً … ؟

الراهبة (مشيرة إلى شجرة بعيدة) — هناك … حيث كانت دائماً ، وقد أوصت أن تدفن هناك

الرجل (يركع تحت قدميها) — باركينى يا أختاه واذكرينى عند ربك بأننى مت شهيداً إذ كفرت عن ذنبى — باركينى يا أختاه قبل أن أموت — ولتشهدى موتى لتذكرينى عند ربك بأنفاسك الطاهرة .

الراهبة — (تباركه) غفر الله لك .

الرجل (يتمشى موليا وجهه شطر الشجرة التى أشارت إليها وهى تتبعه فى صمت رهيب وحزن قاتل حتى يبلغ الشجرة) — هنا دفنت ؟

الراهبة — أجل

الرجل — باركينى مرة أخرى

الراهبة (تشير بعلامة الصليب) — غفر الله لك

الرجل (يخرج الخنجر ويصوبه إلى صدره متمتما) — متمتماً … إيزيس … إيزيس . . . هأنذا أجيئُك مغتسلاً بدمى لأبلغك طاهراً

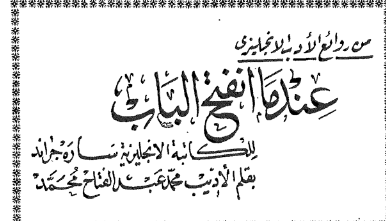
الراهبة (تأخذ الخنجر من يده صارخة) — زكى … ماتت إيزيس الساذجة … وعاشت إيزيس المتحصنة الماكرة … وستحيا للحياة بعد اليوم …

الرجل (صارخا فى بشر وطلاقة) — إيزيس !

الراهبة — زكى !

إلى الحياة . . . إلى الحقيقة . . .

جميلة العلايلي



لطالما التمعت فى الحياة بارقات لوامح ، وقعت لدينا حادثات خوارق ، دون أن نلق إليها السمع أو نحد البصر . حادثات بارقات تضطرب فى قاموس الحياة الهادرة، وتتوارى فى رحبات الدنيا الصاخبة، وتضيع وسط العجيج واللجب ، حادثات غامضات ترف أمام الناس فى المدينة الزاخرة ، والمركبات الفارهة ، وفى السيارات العامة ، تتواثب على طوار القُطُر ، فى عربات تقف وتمُر ؛ تتراءى فى أعمال الناس صغيرة درجت عليها حياتهم رتيبة تافهة طوال الليل والنهار

وفى الحياة قصص أى قصص : قصص بَنَتْه شتى العواطف والخُلُق ونسجته مختلف المشاعر والأحاسيس : نبالة ونذالة وبطولة ، حب ومقت ورذيلة؛ وقصص يتوالى فيها تصاوير الأفراح وتهاويل المآسى والآلام

ولو كان بين يديك قصة تقتصر على بداءة فحسب ، فأى شوق يحدوك إلى معرفة النهاية ؛ وإن كانت نهاية فأى نصب تلقاه فى تصوير البداية ؟ وإنه لما يثير الغيظ أن يكون فى القصة البتراء من الروعة ما تقصر عنه القصة الكاملة ذات البداية المريحة والنهاية السارة المقنعة .

وقد لا تخلص من ضيق يسببه لك استطلاع أثارته قصة بتراء على حين تكون قد أنسيت من القصص الكاملة كماًّ كبيراً

فقد ركبت القطار فى طريق العوْد إلى مثواى من إحدى الضواحى ، وكان أنْ جلست فى ثوِيّ به أشخاص ثلاثة : رجل أسود الشعر قسيم الوجه وسيمه يحوّم حول الأربعين ، وزوجان فصلت بينهما السن فالرجل كما يبدو يكبر زوجه ، وكان يلوح أن نزاعاً حل بينهما قبل أن ألج الثوى ، فقد كانت سحب الغضب والحدة تظلل وجه الزوجة ، بينما كان الرجل حزيناً مهموماً

وقد بادل الزوج جاره الغريب كلمات قلائل بلهجة المتعارفين من قبل حتى يسدل على ما حدث ستاراً . أما السيدة — فعلى النقيض — لم تحاول أن تخفى شعورها فقد استوت سامدة كأن على رأسها الطير ، مقنعة رأسها تحدق فى الظلام ، حتى إذا ما وقف القطار ومد لها زوجها ذراعه ، غادرا الثوى فأمسيت مع الثالث وحدى

وأنشأنا نرقب الزوجين إذ يسيران سوياً . وكان طبيعياً أن يستأنفا التشاحن قبل أن يسيرا بضع خطوات ، وكان رفيق السفر يواجهنى ، فلما أن اختفى الزوجان تلاقت أعيننا فى نظرة كلها تفاهم وإدراك ، وهز كتفيه هزة خفيفة ساخرة فرأيتنى أقول على رغم منى :

— كم كان بودى أن أمحضهما النصح .. فتنهد الرجل وقال :

— آه ! وأنا أيضاً ، ولكن ليس من اليسير السهل أن يفعل المرء ذلك فى هذه الحال

— أحسبك توقن بأن الناس يعلمون من أمرهم أكثر مما يعلم الآخرون

— كلا ، فليس هذا من رأيى ، فالنظارة ترى أكثر مما يرى اللاعبون كما تعلمين ، ومع ذلك فمن العبث أن يمحض المرء زوجين على خلاف وتنازع نصيحة خاصة إذا كان كلاهما صلب الدماغ خاطئ الرأى ، وحتى العاقل الرزين من الناس ذو القلب الطيب والمرمى الشريف تراه يأتى أحياناً بأخطاء فاحشة شنيعة على إدراكه فداحة هذه الأخطاء وجسامتها . والآن هذا الرجل — كان هنا منذ لحظات ، كان يرقب زوجه ويحملها على السكوت ويلزمها الصمت ، أو على الأقل يريد أن يبسط عليها حمايته كما لو كانت تجهل كيف تسوس نفسها وتملك قياد أمرها . فى يقينى أنها ستحمل له الكره والسخط والشحناء وسيحملها — ولا ريب — على انتهاج سبيل يربأ بها أن تسلكها ، ويتحاشى أن تضرب فيها . أرانى عاجزاً عن أن أفهم لم يبيح الرجل لنفسه أن يتخذ من زوجه عبداً يطيعه ولا يعصى له أمراً ، فأنا أوثر أن أمنح المرأة حرية غير موكوسة إلا فى حالات خاصة

— ولكن غالباً ما يكون لهذه الحرية المطلقة عواقب وخيمة ، وكيف يميز المرء هذه الحال الخاصة ؟

— أوه ! لا صعوبة ألبتة فى ذلك . إن أخلاق النساء كتاب مفتوح فى سنهن الباكرة ، وفى وسع كل من يقرأ أن يقرأه . ومن رأيى أنه إذا انعدمت الثقة بين الزوجين فلا يجديهما الشجار شيئاً ، ولا تخلق الشحناء بينهما هذه الثقة المفقودة . غير أنى لا أجيز ترك الحبل على الغارب لفتاة صغيرة رعناء . إن ما تريده المرأة رفيقاً لا ولياً ، صديقاً لا قيّماً ، وكثيراً ما يأتى العقلاء — كما أسلفت — فى حياتهم الزوجية بأخطاء جسيمة منكرة . لقد تزوجت بفتاة تصغرنى بسنوات عشر ولا أظن أن هذا الفرق فى العمرين جد كبير إذا كان بين الاثنين توافق فى الطبع وامتزاج فى الخُلق ؛ غير أننا كنا على طرفى نقيض . إذ كنت أهيم بالحياة الهادئة الساجية المفعمة بالفنون والأدب ، وأمقت تزجية الوقت بالثرثرة فى الحفلات والولائم مقتاً كبيراً ، وكانت زوجى تضيق بكل ألوان الفن ، وليس ثمة شىء يدخل على نفسها أسباب المرح والسرور أكثر من وجودها بين جمع صاخب وحفل جياش . وقد أجمعت أمرى على أن أدعها وما تهوى فلا أسألها مرة البقاء معى فى البيت على أن تدعنى هى أيضاً وما أبغى فلا تطلب إلىّ مصاحبتها إلى حفلاتها ومآدبها . وبالرغم من ذلك الحب الكبير الذى يجمع بينى وبينها لم أستطع أن أدرك لماذا جهد كل منا فى العمل على توحيد أمزجتنا المختلفة وأخلاقنا المتباينة . إن الزواج لموفق ناجح إذا كان أساسه التجانس فى الأخلاق والتجاذب فى الطبع . وليت شعرى لِمَ يجلب الزوجان المختلفان فى المزاج المتناقضان فى الطبع على نفسهما الشقاء والبؤس بالسعى فى توحيد أخلاقهما ، وفى وسع كل منهما أن يتخذ سبيله التى يحب على

أن يرقب بعض الفرص السانحة فيسمدو ينعم برفيقه؟ إننى موقن أن هذه هى السبيل الوحيدة المؤدية إلى السعادة فى الحياة الزوجية المقامة على أساس متباين الأركان من الأخلاق والطباع . ألا ترين معى أنهما يدعمان حياتهما بالتلاقى من حين لحين يتناقلان الكلمات الحلوة ويتجاذبان الأحاديث المعسولة

أقول قد تركت زوجتى تضرب فى طريقها كما اتخذت أنا أيضاً سبيلى . وقد أجدت هذه الطريقة وسيرت دفة حياتنا على خير ما نرجو . وكانت أحياناً تبدى رغبة أن أرافقها إلى الحفلات والولائم . كذلك كنت أحياناً ألح لها برغبتى أن تبقى معى فى البيت . وبذلك استطعنا قليلاً أن نوفق بين رغباتنا وأخلاقنا . ولكنى لا أستطيع الجزم بأن إنكار الذات على هذه الصورة قد صادف فى حياتنا نجاحاً كبيراً ...

وكان ثمة حفلة مقنعة أصرت على أن تذهب إليها . وأظن أنها لمحت برغبتها فى أن أرافقها ؛ ولكنى تجاهلت تلميحها ليقينى أنى سأضيق بالحفلة وضجيجها

وقد ذهبتْ إلى الكرنفال فى ثوب قشيب على هيئة أحجار الدومينو موشى بخطوط قرنفلية باهتة ، ومفوف بشرائط بيضاء ناصعة ، وأخذت معها « مروحة » من ريش النعام الأبيض الثمين . وتدلى من قناعها شرائط حريرية هفهافة غطت فمها الخمرى الدقيق . كانت رغبتها قوية فى الذهاب ؛ ولكن رغبتها ضعفت حينما رأت أنى لن أرافقها . غير أنها ذهبت لارتباطها بموعد مع أصدقاء لها . ولما أنبأتها أنى سأبقى بالبيت وعدت ألا تتغيب فى الحفل كثيراً وران علىّ السأم والملل عند ما ذهبت وتركتنى وحدى، فأمسكت بكتاب وأشعلت سيجاراً ؛ ولكن تبلد ذهنى وعزب لبى حينما حاولت القراءة فنحّيتُ الكتاب جانباً ، واستويت فى جلستى أدخن وأسرّح الخيال المضطرب فى أجواء شتى

وبدأت أفكر : ترى ماذا تصنع زوجى فى الكرنفال الآن ؟ وهل قابلت أصدقاءها ؟ وجال بخاطرى أنها ربما لا تلتقى بهم . وقد يسبب لها ذلك شيئاً من الارتباك والحيرة . وإن مثل هذه الحفلات العامة لتجمع خلقاً كثيرين من شتى الطبقات والأجناس . وهناك بعض الحرية والإباحية لا سيما والوجوه ملثمة مقنعة . وزوجى حتى فى هذا الثوب — ثوب الدومينو — تبدو جميلة ساحرة . وقد يزعجها من لا أخلاق لهم من الذين يغشون هذه الحفلات كثيراً . وقد تكون الآن تراقص امرأً راغبة عنه زاهدة فيه . أترانى أصبت فى تركى إياها تذهب وحدها ؟ وفجأة ألقيت سيجارى فى الموقد وفزعت واقفاً ولما أهتد لأمر . وأعملت فكرى قليلاً : آه ! إن لدى ثوباً تنكريًّا ذهبت به مرة إلى إحدى حفلات الكرنفال عند ما كنت عزباً . كان ثوب «دون إسبانى» من المخمل الأسود من عهد فيليب الرابع . وقد كان بحق زيًّا جميلاً اقتبس من صورة وأحكم صنعه . وقد كنت أعجب بنفسى أى إعجاب وأنا أرتديه . وذهبت إلى غرفتى التى جعلت منها « استديو » وفى إحدى الخزائن ألفيت الثوب وقناعه

كان الوقت مبكراً . لماذا إذن لا أرتديه وأذهب إلى الكرنفال ؟ لقد استقلت زوجى المركبة ، بيد أنه بجوارنا اصطبل للعربات . ثم استدعيت الخادم وأرسلته فى طلب عربة

وكان مكان الحفلة يزخر بالناس، رجالاً ونساء حين دلفت إليه . ولكن لحسن الحظ وقع بصرى لأول وهلة على زوجى بزيها ، ومروحتها ، وشرائط الحرير المتدلية من قناعها على فمها . عرفتها دون صعوبة فاتخذت سبيلى إليها قدماً . بيد أنى تنبهت حينما اقتربت منها إلى أنها سوف لا تعرفنى بزيى هذا إذ لم ترنى فيه أبداً . بل ربما لاتعلم عنه شيئاً . على أية حال لم أستطع أن أرتد ، وقد رأتنى أمشى إليها. وقد أدركتْ أنى أقصدها فلم تعترض ، ولم تشح بوجهها أوه ! أيمكن أن تسمح لرجل غريب أن يحادثها ، أو حتى تشجعه على الدنو منها ؟ وساورتنى الرّيب والشكوك . فأزمعت لأبلونّ إخلاصها ووفاءها . وبدون أن أهتم باللياقة والتقاليد ، قلت لها فى رقة :

— يخيل إلىّ أنك فى انتظارى ، هلا أجبت بنعم ؟

— حسن ! إنى فى انتظار متعة ولهو .

قالت ذلك فى لهجة رقيقة هى أيضاً كأنما آتت مرماها من هذا التطفل البغيض إذ كان فى وقوفها هكذا وحيدة شىء من العرض والإغراء

ورانت على عينى غشاوة ، فلم أر ولم أسمع من الحفل شيئاً ، ولكنى تمالكت نفسى . وبدأت الموسيقى تعزف ألحانها الطرية الحنون فسألتها أن تمنحنى هذه الرقصة فقالت وهى تهبنى بسمة مضيئة :

— كم أسر بذلك !

ثم تناولت ذراعى ، وقادتنى إلى حلبة الرقص ، وأنا ذاهل مأخوذ . لا ريب أنها غامرت قبلى مع كثيرين . ولكن هل يتأتى لقناع على وجهى أن يسدل على شخصيتى كل هذا التستر ؟

كانت فى الرقص بارعة كأنما خلقت لترقص .

وعند ما كفت الموسيقى عن العزف طلبت إلىّ بعض المرطبات وأرتنى الطريق إلى المقصف . ولما أن نالت منها كفايتها — وقد كانت كما كبيراً — تأبطت ذراعى ، وراحت تدور بى فى المكان . كان يبدو أنها تعرف منه الداخل والخارج ، وتلم بكل غرفة فيه . وقد أدهشنى ذلك كثيراً ، إذ كنت أعلم أنها لم تزر هذا المكان من قبل، وقد سألتها فى ذلك فأجابت :

— أحضر هنا كثيراً ؟ إنى أحضر عند ما يحلو لى .

وهل تعلمين زوجك ؟

فتعجبت قائلة :

— أوه ! زوجى ؟ ومن أدراك أنى ذات بعل ؟

— إن حسناء مثلك ، ولها ظرفك ، وسحرك لا يمكن أن تفلت من قيود الزواج .

— وأى فرق بين العشاق والأزواج ؟ أليس من الجنون أن تتزوج المرأة وفى مكنتها أن تلم حولها العشاق المناميد ؟

وشدت بيدها على ذراعى ، ثم رفعت إلى من تحت قناعها عينين تشعان فتنة وإغراء ... وعجبت ، أهذه المرأة زوجى ؟ أم هى غانية قارحة تبحث عن القوت من هذا السبيل ؟ كلا ، لا أعتقد . وحملت نفسى على الظن بأن ذلك الأسلوب فى الحديث وتلك العواطف الحارة الجامحة التى تبديها زوجى ، إنْ هى إلا من مستلزمات الكرنفال ، تحت ستار الأزياء الغريبة والأثواب الشاذة ... ولكن المرأة لا تتقن ذلك الضرب من الغزل إلا عن اختبار وتجربة ، وها قد اعترفت أنها تغشى المكان كثيراً ، مما يبدو لى أنه تصنع منها وتمثيل أنْ لم ألحظ عليها غشيان

هذه الحفلات أبداً . ألم تتمسك بالذهاب إلى الكرنفال بحجة أنها لم تر حفلاً له من قبل ؟ وإنى أقرر لثالث مرة أنى كنت مجنوناً إذ تركتها تذهب وحدها . وإننى وإن كنت أعلم عنها الرعونة والطيش إلا أنه لم يدر بخلدى قط أنها مستهترة قارحة ليس فى عينيها ملح . كنت أعتقد أنها أمينة على عهدى حافظة لشرفى فى كل مكان تغشاه ، وكل حفل تحضره ، ولكنى عرفت هذه الليلة ما انطوت عليه نفسها الخبيثة الآثمة

ولا مرية أن أصدقائى قد عرفوها أجمعين وأشفقوا علىّ من تبذلها واستهتارها . كانت صدمة قاسية . كنت مشتت الذهن عازب البال طوال الوقت . كنت أتهمها بالخيانة والغدر حيناً ، ثم ألتمس لها المعاذير وأبعد عنى شبح اتهامها حيناً آخر . كانت كل القرائن ضدها . بيد أنى لم أستطع أن أتحرر من حبى لها واحترامى إياها فى مدى لحظات قصار . ومع كل ، فماذا صنعت لتستحق أن أؤاخذها وأرميها بالغدر والخيانة . حقاً لقد اتبعت فى الحديث سبيلاً ملتوياً مبتذلاً ، ولكنى لم أوغل معها فيه ، ولو أوغلتُ لأبدت ولا ريب استياءها واستنكارها . أتراها تفعل ؟

وكانت يدها مستقرة على ذراعى . فترددت قليلاً ثم أخذتها وضغطت عليها ، فضحكت لشرود ذهنى ثم بادلتنى الضغط على يدى وقالت :

— ها قد صحوت أيها الدون العبوس . إنك بارد العاطفة ، حليف الجهامة والكآبة . ألا ترانى أبعث الحياة والشعر ، وأنفث الحب والسحر؟ وسوف أبعث كل أولئك فيك

فغلى الدم فى عروقى لهذه الكلمات . ومضى وقت ليس بقصير قبل أن أملك زمام نفسى . لقد أترع اليأس قلبى ، وتحطمت الآمال فى فؤادى . وددت لو أنتحى ركناً مهملاً وأبكى كطفل صغير . وقد ران علىّ لا غضبٌ وثورة ، بل حزن وأسى فليس ثمة غضب حين ينعدم الأمل . كنت كالقامر الذى يلقى بآخر درهم معه ، وَطَنْتُ النفس أن أوغل فى ذلك الغزل فأعطيها فرصة أخرى ، قلت :

— لقد سبانى سحرك . وأصبانى جمالك ودلّك الأمر الذى لا أطيق معه فراقك وهذا الزحام يرهقنى فهلمى نغادر المكان . إن العربة فى انتظارى . هلا أتيت معى ؟

فقالت ضاحكة كأنما تحدث نفسها :

— وعلام الرفض وهو عصبى المزاج ؟ والآن . هذا حسن . صدقنى أيها « الدون » الكئيب . ينبئ وجهك أنك لم تتعود أن تجيبك امرأة بلفظة «لا»

— ولم ؟ ... حسن جداً ؟

— إن مزاجك العصبى يدل على توقد عاطفتك واضطرامها ، فمالى أراك جامداً بارداً ؟ الحق أنى لا أهضم هذا البرود الذى تشتمل به

— إذن فعلى أن أبعث فيك السرور والبهجة أما وقد أحسست ذلك فسأبذل كل ما فى وسعى . هلا أتيت معى ؟

فضحكتْ ثانية ... يالله ! هل يدل ذلك منها على الخضوع والاستسلام ؟ وقدتها إلى مخرج المكان رغبة الشاب المفتون فلم تتمنع . بل قالت إنى نافد الصبر . وقد كنت حقاً نافد الصبر . كانت كل دقيقة تمر علىّ كأنها ساعة مترعة بالألم والعذاب إلى أن انتهت المهزلة . ولم يكن بوسعى أن أعجل بإنهائها ،

فقد كان الأمر جد خطير . وكان لا مندوحة عن الذهاب بها إلى البيت . وتسللت إلى الخارج بنفسى أبحث عن المركبة ، إذ خشيت أن يعلن اسمى أمامها وأمرت الحوذى بالعود إلى البيت بينا كنت أساعدها على الركوب .

ولشد ما خشيت أن تنتبه إلى حقيقتى فى ذلك الحفل العام . وكأنما مر دهر طويل على بدء تحرك العربة فى طريق الرجعة إلى البيت .

ابتعدنا عن جلبة الحفل وضجيجه ولكنى ظللت صامتاً بضع دقائق حتى بدأت تمازحنى كرة أخرى حول وجومى وا كتئابى، وارتمت على بجسدها؛ ولست أدرى أ كان ذلك لاهتزاز المركبة أم عن فجور منها وفسق . على كل حال ، فقد طوقت خصرها بذراعى فلم تعترض ، بل سألتنى وقد اقتربنا من طيتنا :

-- أين تقيم ؟ إن هذه الشوارع جد متشابهة ولا أستطيع بحال أن أعرف أين نحن الآن .

— على أية حال لقد وصلنا .

ووقفت المركبة فساعدتها على النزول ثم فتحت الباب الخارجى بمفتاحى ، ودلفنا إلى الردهة حيث كان الضوء خافتاً ضئيلاً . فأمسكت بيدها وقدتها إلى غرفة الاستقبال ، وكان الظلام يطمئن فى جو الحجرة ، بيد أنى بددته بأن أشعلت السراج ، ثم واجهتها، فرأيتها تضحك عالياً، ولكنها بدت كأنها لم تعرف أين هى !

قلت بلهجة شديدة :

— الآن فلنرفع اللثام يا سيدتى

وما ترددت ، بل أماطت لثامها ونضت عنها ثوب الدومينو .

فشهقتُ شهقة حادة وجحظت عيناى حتى كادتا تقفزان من محجريهما .

ثم سقطت على أحد المقاعد . كانت المرأة التى أمامى غريبة ، مخلوقة بشعر فاحم جعد وعينين سوداوين وأهداب مصبوغة ووجه ملطخ . امرأة من النوع الذى لايشرف المرء مسايرتها فى أى مكان ، أو مصاحبتها إلى أى حفل . وددت لو أجثو عند قدميها فأقبل طرف ثوبها . هكذا كان شعورى حينما تحررتُ من الوساوس والظنون ، وتعطل ذهنى فلم أستطع شيئاً سوى التحديق فى وجهها مبتسما .

وغرتها هيئتى إذ حسبت أن ذلك منى إعجاب صامت بعث فىّ الذهول من جمالها وحسنها ، فوقفتْ صامتة فى هيئة مسرحية تمثل الخجل المصطنع والدّل الزائف؛ وظلت الحال كذلك حتى ثُبتُ إلى نفسى . كان أول ما خطر ببالى هو أن أتخلص منها ؛ ولكن كيف أفعل دون أن أخدش كرامتها وأجرح عزتها؟ كان عقلى يعمل بسرعة فى انتحال عذر مقبول . ولكن قبل أن أهتدى إلى شىء ، سمعت صوت عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت المفتاح وهو يدار فى القفل ، ثم حفيف ثوب من حرير ، ثم خطوات خفيفة تصعد السلم .

لقد بكرت زوجى بالعودة كما وعدت . وأقبلت خطواتها نحو غرفة الاستقبال ، وهمت يدها بإدارة مقبض الباب ...

وكف عن الحديث ثم أطل من النافذة . كان القطار قد وقف منذ لحظات دون أن نحس به . قال الرجل فى دهشة :

— « هال ها » لقد بلغت طيتى . وقفز من القطار عندما تحرك ثانية يواصل السفر

ولم أره مطلقاً منذ ذلك الحين . وأحسبنى لن أراه أبداً ، لذلك سأظل طوال حياتى أ كدح ذهنى فى تصوير ما حدث له عند ما انفتح الباب

محمد عبد الفتاح محمد

فرانوب

للكاتبين : مارك صونال وجورج مونتياك
بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

الأشخاص : مدام إيدوان ٣٥ سنة ، إيليان ١٦ سنة ، الكونتس ميرفيل ٤٠ سنة ، بوليت ٢٠ سنة

في العهد الحاضر قرب بلدة تور الفرنسية ، غرفة ذات أثاث بسيط ، باب في منتهى الغرفة وبابان آخران على طرفي المسرح .. إلى اليسار تظهر أريكة ومنضدة شغل .. إلى اليمين مقاعد وأرائك .

***

المشهد الأول

مدام إيدوان — ثم بوليت — ثم إيليان

عند رفع الستار تظهر مدام إيدوان وهي تزين قبعة جميلة بشريطة زاهية . سكون وصمت ، تنظر إلى الساعة في يدها لتعرف الوقت

مدام إيدوان — الساعة الآن تبلغ الثانية والنصف ... ستتم قبعة إيليان عند ما تستيقظ من قيلولتها (تتنهد) بعد أيام ثمانية في مثل هذه الساعة (تستسلم للقدر) يجب علينا أن نوطن أنفسنا على تحمل ما لا مفر منه (يرن الجرس في داخل الغرفة) من ذا يا ترى ؟ إنني لا أنتظر زيارة أحد الآن (تذهب لتفتح الباب)

(صوت بوليت في الردهة) — هل أنا الآن بحضرة مدام إيدوان ؟

— أجل يا سيدتي ، تفضلي بالدخول

بوليت (تدخل) — إنني قادمة من دار عمتي مدام بوفيت

— الخياطة ؟ حسن ، هل أتيت بالثوب ؟

— (تظهر علبة) ثوب الآنسة إيليان ؟ نعم يا سيدتي . لقد عملت فيه أنا وعمتي حتى أنهيناه برغم الأعمال المزدحمة لدينا الآن ، وقد أمرتني أن أسلمه إليك

— (آخذة العلبة) نعما صنعت عمتك . إن باستطاعة إيليان أن ترتديه الآن حالاً (تدخل إيليان من ناحية اليمين بزة حسنة ولباس بسيط متواضع) هاهي ذي قد أتت (تخاطبها) أيتها الآنسة خذي ثوبك الجميل

إيليان (فرحة) — ما أسعد حظي ... هاتيه حالاً يا أمي ... أرجو أن يكون ملائماً لي

بوليت — لا تخرج الأثواب من بين يدي مدام بوفيت إلا حسنة وملائمة دائماً

إيليان — حسن ، سأرتديه باعتناء وسأبدو به كأنني إحدى نجوم السينما (تخرج من ناحية اليمين)

مدام إيدوان (تخاطب بوليت) — تفضلي بالجلوس قليلاً

بوليت (تجلس) — إن ابنتك ظريفة جداً

— إنها ليست ابنتي

— سمعتها تدعوك أمها

— إنها تدعوني أمها منذ أن تسلمتها من لجنة المساعدة العامة

— المساعدة العامة ؟

— أجل ، وضعت عندي منذ أن كانت رضيعة وكل الناس يعرفونها عندي ، ألم توضح لك مدام بوفيت الأمر ؟

— كلا ، إنها تعمل بسرعة لإتمام الثياب وليس لديها وقت للكلام ، ولولا ذلك لحدثتني ... إذن فالآنسة إيليان ؟

— ما هى إلا يتيمة أتتنى من لجنة المساعدة العامة ، وأنا كما تعرفين يدعوننى بالمرضعة

— فهمت ...

— إن بى ميلاً شديداً إلى الأطفال وليس عندى أى طفل . كان زوجى قد سبقنى إلى فكرة تبنّى الأطفال ، فأودعوا عندنا حسب طلبه طفلاً كان أصله مجهولا لم نستطع معرفته . ولقد سألناه فما أجدى سؤالنا إذ أنه لا يذكر شيئاً ، وقد نشأ هذا الطفل شديد الذكاء طول حياة زوجى ، وبعد وفاة زوجى لم يعد فى إمكانى أن أشرف على تربيته فأصبح كثير الشغب وقحاً سفيهاً قاسياً محطماً كل شىء ، عاصياً كل أمر

— يعلم الله ما أصله

— فأدركت أن فى ذلك خطراً على ، وبعد عدة حوادث رهيبة حدثت لى معه وأبقت له فى ذاكرتى صورة غير حسنة، طلبت استبدال بنت صغيرة به

— ألم تخافى أن تنشأ البنت كالولد ؟

— كنت أشعر برغبة ماسة لأن أرى بقربى مخلوقاً يودنى وأوده ، طفلاً أهبه قلبى وأربيه وأعنى به حتى أراه ينمو ويكبر أمام ناظرى ، وأنا أعلم أن التجربة التى قمت بها لم تكن ذات نتيجة حسنة ولكن خسارتى ستكون أقل مع طفلة صغيرة ، وسيكون تدريبها وتهذيبها أسهل علىّ ... ولقد أصبت فى ظنى إذ أننى وجدت فى إيليان الحبيبة الطفلة التى كنت أنشدها بل وجدتها أسمى مما كنت أتخيل ... كانت سنها عند ما عهد بها إلىّ أربعة أعوام ، وهى تبلغ الآن من العمر ستة عشر عاماً ، لقد قضيت بقربها اثنتى عشرة سنة كلها مسرة وسعادة وحبور

— ويبدو لى أنها هى أيضاً تكنّ لك من الحب مثل ذلك

— نعم إنها تحبنى كثيراً (تضطرب) وبعد ثمانية أيام على الأكثر سوف ...

— بعد ثمانية أيام ؟

— ستترك منزلى وهو منزلها لتذهب ...

— إلى أين ؟

— ستذهب لتقطن قصر ريكور وهو على بعد ثلاثين كيلو متراً من هنا

— مستخدمة ؟

— كلا ، إنها تتركنى إذ لا يحق لى ـ حسب القانون ـ أن أبقيها عندى ما دمت أحيا هذه الحياة البسيطة ، فلقد قدمت لها ثروة كبرى وعُرضت عليها حياة فخمة

— إننى لا أفهم ما تعنين

— أعنى أن الكونتس مرفيل هى مالكة قصر ريكور ، وهى أرملة ليس لها أولاد مثلى ، طلبت منى أن أكون بقربها وأن أتبنى إيليان شرعاً

— مادامت المسألة مسألة ثروة فباستطاعتك ..

— كلا لا أريد . إننى لم أبلغ بعد السن المخصصة للتبنّى ، ولا أملك المال الكافى لأنفق على إيليان حسب رغبة اللجنة وتعليماتها ، ولم يعد هناك مجال للمفاضلة بين حياتى المتواضعة البسيطة وحياة الكونتس الفخمة الثرية

— لا ريب فى ذلك

— ومن أجل هذا ستأتى الكونتس مرفيل بعد أيام ثمانية لتأخذ إيليان وتدعنى وحدى فى هذه الدار أرى بعينى آثار إيليان وذكرياتها دون أن أستطيع عمل شىء (تدنى منديلها من عينيها لتمسحهما

من الدموع) أستميحك عذراً . إن هذا ليس من اللياقة ...

— لا تقولى هذا يا مدام إيدوان ... أتظنين أن البكاء من فرط الألم ليس من اللياقة ؟ ولكن أما كنت تعاملينها معاملة حسنة وتعطفين عليها ؟ يجب أن يخفف هذا من ألمك ، ويجب أن يعزيك علمك أنها مسرورة وسعيدة عند الكونتس

— صحيح ولكن ... (متألمة) ذهبت إيليان لتتلقى دراستها الابتدائية فى مدينة تور ، وفى دار إحدى صديقاتى اجتمعت بالكونتس فشعرت هذه نحوها بعاطفة قوية وذكرتها بابنتها الوحيدة التى ماتت منذ ست سنوات ... وبعد أيام قلائل زارتني ، لتعرض على مشروعها فى التبنى وهو حقها الذى يخولها إياه القانون ، فلم أستطع أن أقابل ذلك إلا بالخضوع والتسليم ، وأنا أفكر فى مستقبل إيليان ومستقبلى بعد إيليان . . .

(تدخل إيليان مرتدية ثوبها الجديد وهو على أحدث زى ومخيط باعتناء ودقة)

إيليان (تسلم وهى ضاحكة) — أقدم لكما نفسى إننى إحدى نجوم السينما !

مدام إيدوان (تنظر إليها) — حسن جداً وموافق ... إلتفتى يا ابنتى . إن هذا الثوب ذو جمال باهر (تخاطب بوليت) أرجو أن تبلغى شكرى مدام بوفيت وتهنئتى على نجاحها فى الخياطة

بوليت (وهى تنهض) — سأبلغها ذلك وأعتقد أنها ستسر

إيليان — خبريها أن الحزام طويل

بوليت — لا ضير ، سأصلحه لك الآن فى بضع دقائق

مدام إيدوان — (تشير بيدها إلى منضدة الشغل) تجدين هناك كل ما يلزمك ... سأتركك قليلاً لتهيئة طعام الغداء (تخرج من اليسار)

المشهد الثانى

إيليان — بوليت

إيليان — أأنزع الثوب ؟

بوليت — لا حاجة لذلك فإن العمل لن يطول (تأخذ خيطا وإبرة وتبدأ العمل)

إيليان — لاتسرعى بالعمل فإننى لست مستعجلة وأرجو أن يعود الحزام ملائماً .

— سيكون ملائماً وعلى حسب رغبتك .

— (تتأمل الثوب) أراه فاتناً أليس كذلك ؟

— جيد ، سيملؤك طرباً وابتهاجاً ، حقاً إنه من ثياب القصور !

— آه ... أحدثتك أمى بشىء ؟

— قالت لى إنك ذاهبة بعد ثمانية أيام لتسكنى قصر بريكور .

— نعم ، وإنه لجميل جداً ... لقد تناولت فيه طعام الغداء مرتين . إنه قصر ساحر ، فيه روضة كأنها إحدى روضات فرساى

بوليت — (بسذاجة) وفيه مياه كثيرة ؟

— يمكن أن يكون كثير الماء . لم يكن لدى الوقت الكافى لأرى كل ما فيه .

— إن حظك عظيم .

إيليان (بابتهاج) — أليس كذلك يا عزيزتى ؟ لقد رأيت غرفتى فيه ، إنها فاخرة : نافذتان كبيرتان وقطعة من الديباج ملأى بالورود ، وسرير جميل مذهب ، وأرائك يغوص الجالس فيها ، ومنضدة من الخشب الثمين ، وأخرى للزينة ، و . . . و . . . . ماذا أحدثك !

— ما أجمل هذا القصر !

— وفى الروضة بركة بها قارب أخضر اللون

— هل تحسنين التجديف ؟

— كلا ، ولكنى سأتعلمه (تلعب بيديها) كم يسليني هذا !

— أكل ذلك بعد ثمانية أيام ؟

— نعم .

بوليت (وقد أتمت عملها) دونك الحزام فالبسيه

إيليان (تضع الحزام) — موافق جداً ، أشكرك حقاً إن هذا الثوب جميل ... أراني مضطرة للصعود على درجات القصر بتؤدة كيلا يفسُد

— سيكون تحت إمرتك خادمة بلا ريب

إيليان (مسرورة) — طبعاً (تمثل دوراً هزليا) هل عادت مدام مرفيل من زيارتها الكاهن أيتها الخادمة ؟

بوليت (تمثل دور الخادمة) — إن سيدتى الكونتس عادت يا آنسة

— خبريها أننى فى غرفتى

— أمرك يا آنسة

— سأنزل لأراها بعد قليل .

— أمرك يا آنسة (تنفجران من الضحك ، ويسمع رنين الجرس من الداخل)

إيليان — ألا تسمعين الجرس يرنّ

— إحدى الزائرات ولا ريب .

— يمكن أن تكون الزائرة ثقيلة . ماذا يحدث إذا رفضنا أن نفتح ؟ ولكن لا ، إن أمى لا ترضى بذلك (يرن الجرس ثانية)

— لا تبدلى شيئاً ، سأفتح الباب ، وسأعلم مدام إيدوان .

— أصبت ، وأنا ذاهبة إلى غرفتى لأتم كتاباً بدأته هذا الصباح (تخرج من اليمين ، وتخرج بوليت من أقصى الغرفة . وتدخل مدام إيدوان من اليسار)

المشهد الثالث

مدام إيدوان — بوليت

مدام إيدوان — (تظن أن إيليان موجودة) لقد سمعت الجرس يرن مرتين

بوليت — (داخلة) مدام الكونتس مرڤيل

مدان إيدوان — (فى ذهول) مدام مرڤيل ؟ وفى هذا اليوم ؟

بوليت — (بصوت منخفض) يمكن أن تكون هناك بعض تبديلات فى القصر .

— أدخليها بصورة لبقة وباحترام

بوليت — (خارجة) هل تتفضل سيدتى الكونتس بالدخول .

(تختفى بوليت وتدخل الكونتس وهى امرأة فى الأربعين من عمرها ، ذات مظهر ارستقراطى قليلا ، تتجافى فى أول الأمر)

المشهد الرابع

مدام إيدوان — الكونتس

مدام إيدوان — (فى دهشة وتحفظ) تفضلى بالدخول يا مدام كونتس

الكونتس — أنعمى صباحاً يا سيدتى العزيزة ، يبدو لى أنك دهشت لرؤيتى .

— نعم ، أعترف بذلك (تقدم لها أريكة)

— (تجلس) لماذا دهشت ؟

— (تواصل كلامها) ذلك لأنك أتيت اليوم ... يمكن أن ... تكونى عدلت عن مشروعك

— عدلت ؟

— نعم عن مشروعك

— أى عن تبنى إيليان ؟

— نعم

— كلا ياسيدتى العزيزة ... لقد نضج مشروعى بعد أن فكرت فيه طويلاً ، ولقد تمت كل المعدات ولم يعد هناك أى داع للعدول

— (بحزن) آه ، حقاً أن ...

— سأشرح لك بكل بساطة سبب زيارتى الآن قبل أن آتى إلى هنا . كنت فى زيارة المرأة التى علّمت إيليان حتى خرّجتها ، وقد زرتها حسب وعد قطعته لها إثر كتاب عاطفى أتانى منها ، ولما خرجت من عندها عزمت على أن آخذ إيليان معى اليوم دون أن أكون بحاجة للعودة بعد ثمانية أيام

— (بحزن) اليوم ؟

— كيف صحة الطفلة ؟ (مدام ايدوان لا تجيب) سألتك هل صحتها جيدة ؟

— (تمتلك عواطفها قليلا) نعم يا سيدتى

— هل تنام القيلولة بعد كل غداء ؟

— دائماً

— حسن ، هل فكرت فى تصويرها ؟

— نعم ، وإن صورتها الآن عند صانع الأطُر

— هل نجح التصوير ؟

— نعم

— ستبقى لك هذه الصورة ذكرى جميلة ، وستعطيننى طبعاً تكاليف التصوير

— كلا يا سيدتى إننى لست غنية وأنت تعرفين ذلك

— حسن إذا كان هذا يسرك فلست أدرى لماذا أريد أن أعارضك به ، ولكنك قلت لى ذلك بلهجة معادية قليلاً

— معادية ؟ كلا ياسيدتى ... إن لهجتى كانت حزينة جداً

— ذلك لأننى أتيت قبل مضى ثمانية أيام ، ولا أراك تصافيننى الود

— سواء صافيتك أم لم أصافك إن هذا لا يبدّل شيئاً ... أرجو أن تعلمى أننى أعد هذه الأيام الثمانية دقيقة بعد أخرى ... وأراك اليوم فجاءة تقولين إنك ستأخذينها (تخفض صوتها) وتوحين إلى بصورة غير إرادية أنك آتية لتسرقيها !

— (مالكة زمام نفسها) ولكنك يا سيدتى العزيزة قد نسيت أن القانون كان باستطاعته أن يسرقها — على حد تعبيرك — منذ ثلاثة أعوام لكى يضعها تحت التمرين ويسمح لها بأن تعيش حرة . فأنت إذن قد ربحت أموال ثلاث سنين وهى أكثر من ثمانية أيام فيما أظن !

— إننى لن أناقشك فى هذا الموضوع الذى يؤلمنى ، بل أبقى ألمى فى شغاف قلبى

— لقد كانت دهشتك أقل منها الآن عندما أتيت أعرض عليك مشروعى ، أتذكرين ؟

— هذا صحيح ، لم أكن أنظر إلا لسعادة إيليان التى عزمت على أن تضمنى لها مستقبلها ، ولكن ثقى أن هناك قلب أم حنون يتلوى من الألم ، لقد قلت ذلك قبل ساعة لابنة عمتى مدام بوفيت

— مدام بوفيت ؟

— نعم الخياطة التى صنعت ثوب إيليان الجديد

— (رأت موضوعا تتكلم فيه) هل انتهى الثوب هل رأيته جميلاً ؟ كيف بدت فيه ؟ أجيبينى بسرعة !

— لقد اتبعوا فيه تعليماتك (صمت) آه لو أننى

تنبهت إلى نفسي ، إنني منذ اثنتى عشرة سنة أنتظر حزناً عميقاً .

— ألا تفكرين في امتلاك البنت وتبنيها ؟

— كلا .

— أما أنا فأقول لك يجب أن تقولى نعم لأنك منذ اثنتى عشرة سنة تشعرين بالفرح لوجود هذه الطفلة إلى جانبك ، وإنك مصيبة في ذلك لأن هذا الفرح أشعر به أنا أيضاً عندما أكون أماً دون أن أفكر في الألم الذي سيحدثه لى فقدان ابنتى التى أحبها حب العبادة .

— إننى لم أكن أبداً أماً ، ومع ذلك فإننى أفقد اليوم ابنة لى في الوقت الذى تجدين فيه أنت ابنة . إننى لا أحسد أحداً ، ولكننى لا أستطيع أيضاً أن أمنع نفسى من التألم والحزن لحياتى الفقيرة التى لا تسمح لى باستبقاء إيليان

— حياتك الفقيرة ... ؟ إنك تغالين

— كلا . إننى أقول الحقيقة !

— سيدتى العزيزة، إننى أكون تحت تصرفك إذاً . . .

— (بلاجفوة) أواه يا سيدتى ، إننى لا أطلب صدقة ، ولقد أردت فقط أن أقول إن دخلى لو كان كافياً للدرجة التى يطلبونها ، لم أتردد قط في استبقاء إيليان ، إن الحظ يكون في بعض الأحيان رهيباً

— لقد كان رهيباً لى قديماً عندما أفقدنى ابنتى. إننا لا نستطيع إلا أن ننحنى أمامه كبيرنا وصغيرنا. إن أوامر الله ومقدراته نافذة على الجميع (تدخل إيليان حاملة بيدها كتابا ، ويبدو عليها السرور) هذه هى الطفلة العزيزة

المشهد الخامس

مدام إيدوان — الكونتس — إيليان

إيليان — سيدتى الكونتس؟ لشد ما أنتظرك !

مدام إيدوان (بحماس) — أنظرى إلى ثوبها !

الكونتس — (بعد أن تعانق إيليان وتقبل جبينها) :

— جميل جداً ، لقد زادك جمالاً

إيليان — أرأيت ياسيدتى ؟ إن أمى قد أحسنت باعطائه للخياطة (تخاطب مدام إيدوان) سأقرأ لك الكتاب الذى انتهيت الآن من كتابته لأرسله إلى أليس فاينيه (تخاطب الكونتس) : هل تسمحين يا سيدتى ؟

الكونتس (ضاحكة) — أسمح

إيليان (تقرأ بصوت مرتفع) — « أعذرينى يا عزيزتى أليس إذا تأخرت في إجابتى على كتابك الأخير الذى تسألينى فيه عن الحادث الجديد بانتقالى إلى قصر بريكور الذى وصفته لك »

الكونتس — (مستحسنة) جيد جداً

إيليان (تتابع قراءتها) — « هذه الحياة الجديدة بكل معنى الكلمة توقظ فيّ في هذه اللحظة أفراحاً ليست كلها صبيانية ، ولكنها مع الأسف متبوعة بلحظات ألم . ذلك عند ما أفكر في الذكريات التى سأتركها في هذه الدار التى عشت فيها سعيدة بقرب التى وهبتنى خالص حبها دون أن تعرف عنى شيئاً ، كما تحب الأم الحنون ابنها الوحيد ، وأظهرت لى من العطف والود ما لا يفيه شكر »

مدام إيدوان (تشرق بالدموع) — إيليان !

إيليان (تتم) — « إننى أشعر أن ذكرى هذه الأعوام ستبقى منقوشة في أعماق فؤادى . ثم إنك تعلمين يا عزيزتى أليس أننى لن أغادر هذا

السكان دون أن أشعر بحزن قاتل » (تطوى الكتاب وتخاطب الكونتس) أظنك فهمت عواطفى يا سيدتى

الكونتس — (بدهشة) نعم . نعم . ولكن ما الوسيلة لحل مقبول ؟

مدام إيدوان (تمسح دموعها) — إننى أشكرك يا إيليان من أعماق قلبى

إيليان — بل أنا التى يجب على أن أقدم لك شكرى الجم بعد ثمانية أيام

مدام إيدوان — لم يبق هناك ثمانية أيام واأسفاه !

— كيف ذلك ؟

— إن مدام صرفيل قادمة لتأخذك معها

— (فزعة) اليوم ؟

الكونتس — نعم يا ابنتى العزيزة

إيليان — هكذا فجاءة ؟

الكونتس (بهدوء) — نعم . لقد وضحت السبب لمدام إيدوان

إيليان (بعد صمت قصير) — إذن أنا متهيئة للذهاب معك يا سيدتى

الكونتس — لا تتعجلى يا ابنتى ، لن نذهب الآن ...

إيليان — ماذا يجب أن أدعوك منذ الآن ؟

الكونتس — بوسعك أن تدعينى بكلمة قصيرة وجميلة : ماما

إيليان (تضطرب) — ماما ؟

الكونتس — نعم ماما ، إذ أننى احتللت مكان ...

إيليان (صائحة بحزن) — كلا ، إن هذا لن يكون (ترتمى على عنق مدام إيدوان) ماما ، ماما

مدام إيدوان (تضمها) — يا عزيزتى

إيليان — لا أريد أن أتركك ، استبقينى عندك

مدام إيدوان — لشد ما أود ذلك ، ولكنك تعلمين جيداً أن هذا غير ممكن الآن

الكونتس (تخاطب إيليان) — إننى أشاطرك حزنك يا إيليان (تهدئها بعطف) ولكن يجب على أن أذكّرك أن أمر مستقبلك قد وكل إلىّ وأنا مضطرة لتأمين سعادتك ، وثقى أننى لن أرد لك طلباً . إمسحى عينيك يا ابنتى العزيزة واذهبى لتتهيئى ، وسأبقى مع مدام إيدوان (تأخذها نحو اليمين) حالاً يا ابنتى إيليان حالاً (تخرج إيليان)

المشهد السادس

مدام إيدوان — الكونتس — ثم إيليان

مدام إيدوان — أرجو أن تعذريها

الكونتس — بل إننى أستحسن ذلك منها

— إننى أخاف أن ...

— لقد عجبت لصيحتها

— إن ذلك شىء طبيعى فى فراق كهذا ، إذ أننا سنفترق لغير لقاء .

— فكرة جميلة . إنك سترينها غالباً هنا أيضاً . سآتى بها إليك كل وقت أستطيع فيه ذلك بالسيارة

— يمكن ذلك فى الشهر الأول .

والثانى أيضاً وكل الأشهر التالية ، لمَ لا ؟

— لأن الزمن يسيرُ ، ويأتى معه النسيان . إننى لا أشك أبداً فى عاطفتك الحسنة ولكننى أخاف . لقد عشنا معاً اثنتى عشرة سنة ، الواحدة منا قرب الأخرى . إنك ستأتين بها ، هذا صحيح ولكنها ستأتى زائرة ثم إنها ستنسانى ، وأنا أيضاً سأنساها بحكم العادة

الكونتس (تفكر) — إلا إذا ...

مدام إيدوان — ماذا قلت ؟

— قلت ، إلا إذا

— (يظهر لها بريق أمل) إلا إذا ؟

— هناك ... من الممكن ... وسيلة ؟

— أية وسيله ؟

— إننى أفكر . . . ليس بعيداً عن بريكور ... لي صديقة عزيزة ذات قلب رحيم ... أستطيع أن أطلب إليها ... إنك تبيعين أقمشة جيدة أليس كذلك ؟

— بقدر المستطاع .

— (تريها القبعة التى نسقتها مدام إيدوات) وهى راقية .. أنظرى قبعة إيليان الجميلة هذه ، إنها خرجت من عندك كما أظن ...

— نعم .

إذا طلبت من صديقتى أن تأخذك لتبيعى الأقمشة عندها وتلاحظى الخدم وما يتطلب المنزل، أترضين ؟

— إذا كان وجودى لديها يسمح لى برؤية إيليان بسهولة وفى غالب الأحيان فإننى أوافق

— إذن ستتركين هـذه الدار وتنتقلين إلى صديقتك ... وسترين إيليان متى شئت

— أذهب من هنا ؟ إننى مستعدة لذلك ، ولكن هل لى أن أسألك ...

— عن اسم هذه الصديقة ؟ هل قبلت ؟

— نعم وبامتنان عظيم ولكن ما اسمها ؟

— احزرى

— لا أستطيع

— (ضاحكة) تدعى الكونتس مرفيل

— (بفرح زائد) أنت يا سيدتى ؟

— (ضاحكة) نعم أنا بكل بساطة

— (بفرح عظيم) أأستطيع أن أرى إيليان دائماً ؟ اسمحى لى أن أعانقك ؟

— بامتنان (ترتمى بين ذراعى الكونتس المدودتين ، تدخل إيليان)

إيليان — لقد تهيأت ، لا ينقصنى إلا قبعتى (تأخذ القبعة من على المنضدة وتلبسها)

الكونتس — أنا ذاهبة لأرى السائق (تخرج من أقصى الغرفة)

إيليان — إننى لست واهمة ، لما دخلت رأيتك تعانقين الكونتس

— (مسرورة) كلا، إنك لست واهمة يا عزيزتى إن مدام مرفيل طيبة القلب وكريمة ورحيمة

— نحوى . أما نحوك ؟

— نحوى أيضاً إذ ستأخذنى معها

— إلى قصر بريكور ؟

— إلى قصر بريكور لأساعدها فى إدارة الدار وسأكون معك منذ أن أنقل أثاثى من هنا فى وقت قصير

إيليان — أأنا أحلم ؟

— إنك لا تحلمين يا ابنتى . سترى كل منا الأخرى كما كنا هنا تماماً

— (مسرورة) : كم أنا فرحة ومسرورة !

الكونتس — (تظهر) سيؤخذ الأثاث إلى غرفتك فى القصر يا عزيزتى وسنذهب معاً

— لقد قالت لى أمى كل شىء ... إننى سعيدة جداً ، وأشعر نحوك بحب عظيم

الكونتس (تأخذ بيدها بحنو) — لقد أصبتُ فيما فعلت ، أسرعى الآن (تخرج)

إيليان — (ترجع إلى مدام إيدوان فرحة) سأدعوها أمى إذا أردت ، ولكن أنت لا أدعوك إلا ماما ... دائماً ماما

(دمشق) ناجى الطنطاوى

حاجى بابا إصفهانى

للكاتب الانجليزى "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تتمة)

وكان السفير الإنكليزى قد وصل إلى طهران قبل وصولنا إليها ببضعة أيام واستقبل بأعظم ما يمكن أن يستقبل به كلب من كلاب النصارى لدى خليفة رسول الله . وأثار الاحتفال به ضجة فى المدينة وصرح بعض كبار علمائنا بأننا قد ارتكبنا بعض الإثم باحتفالنا بكافر هـذا الاحتفال العظيم وأننا سنعذب من أجل ذلك يوم الحساب عذاباً أليماً

وذبحت الذبائح من عجول وأبقار تحت حوافر خيل السفير الإنكليزى ، ونثرت الأزهار فى كثير من الطرق، وسمح له بأن يدق رجاله الطبل يوم دخولهم المدينة ، وهذا لعمرى فضل كبير لم ينله أحد غير أمراء إيران

ثم بدأت الضيافة كأحسن ما يمكن أن تكون فأعد خان كبير لنزول السفير ، وفرشت الأبسطة الثمينة ، وأخذنا من الجيران ما احتاج إليه الخان وألحقنا به حديقة بديعة . وأمر خازن المال الأعظم بإطعام السفير ومن معه من بيت المـال ما أرادوا الإقامة فى المدينة وأرسلت الملابس والشيلان بعد أن جمعت من رجال الحـكومة إلى السفير . وأعلن الشاه فى جميع المدينة أن السفير ومعيته فى ضيافة جلالته الخاصة فلم يكن، والحالة هذه، بد من ملاطفة هؤلاء الأغراب والاحتفاء بهم خشية غضب الشاه

ويمكن أن يقال إن كل هذه التعطفات كانت أكثر مما يجب للترحيب بهؤلاء الـكفار وإكرامهم ومنحهم وسائل الراحة ولـكن حين حل موعد الرسميات نشأت صعوبة مبهمة الأسباب دلت على جمود هؤلاء الضيوف ونكرانهم للفضل ، وكان السفير أكثر خلق الله جموداً وعناداً، فأولاً عند ما مثل بين يدى الشاه أبى أن يجلس على الأرض وطلب كرسياً يجلس عليه فأحضر له كرسى وضع فى مكان بعيد عن العرش . وثانى الأمور التى دلت على عناد السفير مسألة الحذاء فلم يقبل ذلك الـكافر أن يخلع نعليه أو أن يلبس جواربنا الحمراء . وثالث الأمور أن السفير أبدى رغبته فى رفع قبعته عن رأسه أثناء انحنائه أمام الشاه رغم محاولتنا إفهامه أنه ليس من الأدب أن يكشف رأسه . ثم نشأت عن اللباس مشكلة كبرى ، فقد كانت أعدت للسفير ورجاله ملابس يرتدونها تغطى جميع أجسامهم فيمكنهم بها أن يظهروا أمام الشاه بمظهر لائق ، وأعلن ذلك للسفير فأباه إباء شديداً وقال : إنه سيظهر أمام الشاه الفارسى بما تعود أن يظهر به أمام ملـكه الإنكليزى من الثياب

ظهرت هذه المشكلة عسيرة الحل إذ لم يحدث أن أحد الفارسيين وجد يوماً فى بلاط ملك من الملوك الأجانب ليعرف الملابس الواجب ارتداؤها أمامه . ففى وسع السفير ما دمنا نجهل عادات بلاده أن يرتدى ثياب نومه ! ويقابل بها الشاه إذا أراد. غير أننى فكرت ملياً فى الأمر فتذكرت أن من بين الصور الموجودة فى القصر ذى الأربعين عموداً فى أصفهان توجد صور بعض الأوربيين الذين كانوا

يفدون على الشاه عباس الكبير وبينهم من أقام في المدينة

وتذكرت أن بين الصور صورة ظهر فيها نفس الشاه عباس فلا شك أن الثياب التى تمثلها تلك الصورة والتى ارتداها الأربيون أمام الشاه عباس هى الثياب الواجب أن يرتديها كل أوربى أمام رأس متوج

فأسرعت بإخبار رئيسى بما رأيت . ونقل هو حديثى إلى الوزير الأكبر وهذا أمر بأخذ نموذج من تلك الصورة بواسطة أمهر صناع أصفهان فى أقرب وقت ممكن . وعند ما وصلت الصورة إلى طهران أرسلناها إلى السفير الإنكليزى وقلنا له : إن الشاه قبل أن يراه فى ثيابه التى اعتاد السفراء لبسها فى البلاط الفارسى ، وإن نموذجاً منها مرسل إليه ليرتدى هو ورجاله على مثاله وليقابلوا الشاه بهذا الزى . ولم يكد الأشقياء الملاعين أن يروا الرسم ويسمعوا خطابنا حتى علا ضحكهم وكثر صياحهم بشكل لا يمكن وصفه ، ثم قالوا لنا : « إننا لن نضع هذه الثياب على أجسامنا » . وأصروا على البقاء بزيهم المعتاد واضطرونا أخيراً إلى الإذعان لرغبتهم

ساد السكون والهدوء بين القوم الذين حضروا اجتماع السفير بالشاه بشكل لم يكن ينتظر من قوم جهلاء لم يتمدينوا ، وعجبنا ودهشنا من قوم هذه حالهم من الجهل بأحوال العالم ثم يستطيعون ضبط شعورهم والسيطرة على إرادتهم فى مثل هذا الاجتماع فلا يحدث فيه ما يعكر الصفو

وجلس الشاه على عرش من ذهب وعليه حلة مزركشة بالياقوت والأحجار الكريمة ذات البريق الذى يخطف الأبصار والوميض الذى يبهر الأنظار وجعلت رعيته تصيح : « من جمشيد ؟ من دارا ومن أنو شروان أمام شاهنا المظيم الجالس على العرش ؟ »

ووقف الأمراء على يمين العرش وعلى يساره فكانوا أبهى وأجمل من الأحجار التى تتألق على حلة أبيهم ، ووقف على مسافة من العرش وزراء المملكة الثلاثة ورجال الحكمة وأصحاب المشورة ، واصطف غلمان الشاه من كل أصبح الوجه أسود الطرف معتدل القد أمام الحائط يحملون تيجاناً فى أيديهم فكانوا كالملائك يحملون الأنجم الزاهرة ليرصعوا بها قبة السماء

وأخذ الفرنج مقاعدهم فى وسط الجمع وأحذيتهم فى أرجلهم وعليهم أرديتهم التى ترتفع إلى خصورهم وذقونهم حليقة فكانوا كالطير الذبيح المجرد من ريشه أو القردة المريضة التى تساقط شعرها أو أى شىء آخر خلا بنى آدم إذا وازنتهم بمن حولهم من السادة الأمجاد ، وقد تجلدوا وتماسكوا فلم يرهبهم هول الموقف ولم يزعجهم وجود الملك حتى خلنا أنهم مثلنا ثباتاً وجلداً فى هذه المواقف

تكلم السفير الانكليزى فعدد مناقب الذين يمثلهم، تكلم على مثال لهجة قومه وعاداتهم فى الكلام فلم يجمل من لفظه ولم يحسن من قوله ، ولولا حذق المترجم وذكاؤه لما لقب الشاه فيما نقل إلينا من حديث السفير بملك الملوك وقبلة العالم

وإنى لأحاول مستحيلاً إذا حاولت أن أصف ما بين أخلاق القوم وأخلاقنا وعاداتهم وعاداتنا من الفوارق التى لا تحصى والمفارقات العديدة ، وحاول بعض فلاسفتنا أن يلموا بشىء منها أو يدركوا مبادى القوم فعزوها إلى أن مناخ بلادهم قاتم رطب وإلى

أن الشمس لا تظهر على ربوعها : « كيف يمكن أن يشبه قوم تحيط بهم المياه ولا يشعرون بحرارة الشمس قوماً لا يمر بهم يوم لا ينعمون فيه بأشعة الشمس ويكادون لا يعرفون ما هو البحر — غير أن العامة أرضاهم وأقنعهم قول بعضهم : « إن كفر القوم وجحودهم أنزلا عليهم اللعنة حتى فى دنياهم، ولوأسلم السفير وأتباعه وأمته أيضاً واعتنقوا الدين الصحيح لتغيروا جميعاً فى لمحة عين وأصبحوا مثلنا ولزال عنهم ماهم فيه من نجاسة وأقذار ولكان مآلهم الجنة فى الآخرة يوم يسكنها الله عباده الصالحين

الفصل الثامن والسبعون

حاجى بابا تلحظه عناية كبير الوزراء

كان ما تقدم مساعداً لى على التقدم معيناً على النجاح فقد عهد إلىّ بمعظم ما يتعلق بالأوربيين فى فارس من الأعمال نظراً لما ظن فىّ من العلم بأوربا والخبرة بشئونها وأدّى ذلك بى إلى أن أصير معروفاً عند كبير الوزراء وزملائه الوزراء وذوى النفوذ والقوة فى الدولة

ولم يكن ميرزا فيروز صاحب ثروة، وانقطع عنه ما كان يمطى له نظير قيامه بأمور الدولة بعد عودته إلى طهران فلم يستطع وهذا أمره أن يمدنى بما أحتاج إليه للعيش، وقد سرّه أن رآنى قادراً على كسب قوتى والعمل لنفسى فى الحياة . غير أنه لم يترك فرصة تمر إلا وامتدحنى فيها معدداً مناقبى وكفايتى ذاكراً جدى واجتهادى ، وقد برهنت على صدق ما قال عنى فلم أهمل ولم أتهاون حتى أكسب رضاء الكل وأن أحول نظرهم إلىّ مسلمين وغير مسلمين فهجرنى نحس الطالع وتركنى الشؤم

كان الوزير الأكبر هو الرجل الوحيد فى فارس الذى له تأثير على الشاه لما اتصف به من الحذق والمهارة وحضور الذهن وقد شغل منصب الوزارة على حكم الشاه لم تزعزعه التقلبات عامة كانت أوخاصة ولم تضعف نفوذه التغيرات فأصبح ألزم لفارس من أى رجل آخر

فرأيت أن أول ما يجب أن أحاوله هو كيف أمال رضاء الوزير الأكبر عنى وحمايته لى . وبدأت بالظهور أمامه يومياً، وإذ كانت مسائل الأوربيين قد شغلت كثيراً من اهتمامه فقد كان لا يرانى إلا سألنى عن شىء من شئونهم ، وأدى ذلك إلى أن الوزير الأكبر كان يعهد إلىّ برسائل إلى السفير الإنكليزى أعود إليه بالإجابة عليها مضيفاً من عندى مديحاً للوزير وإطراء وإعجاباً به وبقدرته العظيمة وتدخلت بين الأحزاب وغدوت محبوباً مقرباً من كبير الوزراء

وكان أحب ما تصبو إليه نفس الوزير أن تهدى له الهدايا، فجعلت هذا الأمر قبلتى فى علاقتى مع سفير الإنكليز وبذلت جهدى فى الحصول منه على شىء يقدم للوزير فيرضيه ويكون مساعداً لى على نيل الحظوة لديه، ولم يكن تبادل الهدايا إلا أمراً عادياً لا يجلب مظنة ولا يثير شبهة فألقيت كل اعتمادى فى خدمة نفسى على هذا الأمر . وكنت قد نجحت مرة أو مرتين فى المفاوضة لصالح أمتى ووطنى، فكان الوزير الأكبر ينظر إلىّ بإعجاب وسرور

وكان فى النية عقد محالفة مع الإنكليز وعين رئيس الوزارة مفوضاً من قبل الشاه فأخذت أحوم حول المفاوضات والمفوضين ككلب يبحث عن قطعة عظم، رغم أنه لم يكن لى أى عمل فى المفاوضات، وكنت أشعر بين آونة وأخرى بأنى على باب النجاح

وأخيراً أرسل إلىّ كبير الوزراء يطلبني في صباح أحد الأيام بعد جلسة استمرت طول اليوم السابق في المفاوضات . وأمرت أن أقابل الوزير في حجرته الخاصة التي لا يدخلها أحد غير الأخصاء من أتباعه

وجدته لا يزال في فراشه ولم أجد معه أحداً آخر، وحين رآني قال بصوت لطيف : «حاجي بابا ! اقترب مني واجلس بجانبي إذ لدىّ من المهام ما أريد أن أحدثك به »

عند ذلك شعرت برهبة وخجل غير أنني لم أستطع إلا الركوع بجانب الفراش إذ كان كلام الوزير بصوت منخفض جداً لا يكاد يصل إلىّ . لم يبدأ الوزير كلامه بمقدمة ولم يستهل أى استهلال بل قال إنه في مركز حرج جداً إذ طلب السفير الإنكليزى مطالب لا يمكن قبولها ، وقال إنه سيغادر طهران إذا لم تقبل مطالبه

ثم قال الوزير: « وقد هددنى الشاه بقطع رأسى إذا سمحت للسفير بترك طهران ، ومن جهة أخرى فإنني والمفوض الآخر الذى يشاركنى مقتنعان تقريباً بأن الشاه لا يمكن أن يوافق على مطالب الإنكليز فما العمل ؟ »

فقلت بخضوع وكأنما كان لكلماتى معنى آخر غير ظاهرها : « ألا يمكن أن نرشوه ؟ » .

قال الوزير : « نرشوه ؟! من أين نأتى بالرشوة ؟ هذا إلى أن الإنكليز قوم أغبياء فلا يقبلون الرشوة . ولكن أصغ إلىّ . إننا لا نشاركهم فى هذه الغباوة . والسفير يريد أن ينال مطالبه بأى ثمن . وأنت بلاشك تعلم أننى ما تناولت أمراً إلا وأنجزته ، فانطلق إلى السفير وكلمه بما لك من حق صداقته . قل له إننى مرسلك ، وإن فى استطاعتك أن تقول له ما لا يمكننى أن أقوله . هل فهمت ؟ »

فقبلت يده باحترام ورفعتها إلى رأسى قائلاً : « اطمئن ياسيدى وأقسم إننى إن شاء الله حامل إليك أحسن الأخبار ، ومبيض وجهى عندك »

وانصرفت من لدن الوزير وقصدت إلى دار السفير الإنكليزى ، وكلى آمال طيبة فى حسن المستقبل . ولست أريد أن أذكر ما قلت وفعلت لأقنع السفير بموافقة رئيس الوزارة على آرائه غير أننى نجحت نجاحاً باهراً ، وعدت أحمل فى يدى كيساً مملوءاً بالذهب .

دهش الوزير الأكبر عند ما رآنى ألقى بالكيس أمامه ، وجعل ينظر إلىّ ثم إلى الكيس مدة قبل أن ينطق بحرف ثم انطلق يمدحنى ويقرظ ذكائى ، وقال : «حاجي بابا ! إنك أصبحت لى وحدى ولست أتركك دون أن أكافئك فتمن علىّ ما شئت »

فجعلت أذكر له أننى خادمه الأمين وتابعه المخلص وأننى لم أفعل غير ما يحتمه علىّ واجبى وأنى لا أطلب غير سماحه لى بالوقوف أمامه . فظهرت بمظهر من الإخلاص للوزير والأمانة لا يمكن أن تتطرق إليه الريبة ، غير أنه فهم ما وراء هذه الكلمات وقال لى : « لا تسترسل فى كلامك على غير جدوى . لقد كنت أبحث عن رجل مثلك بحث اليائس حتى وجدتك ، وأنا أعرف قيمة الخدمة التى أديتها . تقدم يا بنىّ فى طريقك الذى بدأته تحت حمايتى ورعايتى، وعليك بالفرنج فاسلب منهم ما تشاء فإن الذهب مكدس فى خزائنهم ، وهم فوق ذلك محتاجون إلينا . وماذا أقول لك أيضاً ؟ إن أهل إيران كالأرض العطشى يفعل فيهم الذهب ما يفعله الماء فى الأرض . يتظاهر الفرنج بالشعور القوى والإحساس الوطنى ، وإنهم

إنما يخدمون مصالح بلادهم فى كل عمل أو قول أو حركة ، وهذا لعمرى ما لست أفقه له معنى . من يدريني بعد موتى أو موت الشاه أن إصلاحاتنا باقية وأعمالنا لا تذهب بها الأيدى العابثة ؟ إن للوطن رباً يحميه ويقيه كيد الكائدين ، فعبث ما يقول المكابدون إنهم يخدمون أوطانهم إذ ليس لفرد أن يفهم ما هى هذه الخدمة فكيف يقوم بها ؟ »

وكأنما أزالت كلمات السفير حجاباً كان فوق عينيّ ، وفتحت لى طريقاً جديدة للكسب ورنت فى أذنى كلمات الوزير : « إن الذهب مكدس فى خزائن الفرنج وهم محتاجون إلينا » وإلى هذه الغاية وجهت عنايتى ...

الفصل التاسع والسبعون

لاقيت صعوبة كبيرة وبذلت مجهوداً عظيماً إلى أن توصلت إلى الإعلان عن نفسى فى المدينة أننى صاحب الوزير الأكبر المقرَّب إليه ونشرت بين الفرنج أن أمراً واحداً لا يمكن إنجازه من غير وساطتى ، وسرعان ما أنتجت هذه الشهرة نتاجها وأثمرت ثمرها . وأخذت تكثر لدى الطلبات بما يتبعها من الأجر والمنفعة . وكان أظهر ما فى طباع ضيوفنا الإنكليز ميلهم الشديد إلى منفعتنا رغم إرادتنا غير مبالين بما يصرفونه فى هذا السبيل ورغم ما نقوله نحن عنهم

وكانوا يشعرون نحونا بما لم نشعر به نحو أنفسنا من الود والمنفعة . ولم نستطع رغم ما بذلناه من بحث وتفكير أن نستكشف السر الذى حدا بهؤلاء القوم إلى السعى فى مصلحتنا ذلك السعى الشديد — نحن الذين لم ننقطع قط عن رميهم بالكفر والإلحاد ودنس الأجسام وخبث الأرواح وبأن مصيرهم جهنم وبئس المصير .

وليس من شأنى أن أبحث فى طبائع هؤلاء الناس ولا فى أذواقهم بل كان بحثى منصرفاً إلى كيفية الحصول منهم على المال . وقد أنتج عملى وأثمر وعاد علىّ بالمال الوفير فلم يذهب تعبى سدى

ويذكر القراء عموماً أننى تحدثت فى جزء سالف من هذا الكتاب عن طبيب أجنبى كان يحاول أن يوجد فى فارس طريقة لعلاج الجدرى بالتطعيم

لم تنجح طريقته نجاحاً كبيراً وظللنا نعالج أطفالنا المرضى كما كان آباؤنا يعالجوننا . ولكن الطبيب كان يظهر شغفاً شديداً بتحقيق فكرته ونشر طريقته . وكان يخاطب بنفسه كل سيدة يتمكن من رؤيتها فى وجوب التطعيم بمصل الجدرى حرصاً على حياة أبنائها . وقد رأيت أن فى تقربه من النساء بهذه الوسيلة خطراً عظيماً على الآداب مهما كان السبب الذى يتذرع به فأقنعت رئيس الوزارة بأن يجعل جندياً على باب هذا الطبيب ليمنع كل امرأة من دخوله وكان هذا العمل قاضياً على كل أمل للطبيب فأدخل اليأس على نفسه

فذهبت إلى هذا الطبيب الأحمق وقلت له : ما الذى يدعوك إلى الحزن مع أنك لم تستفد مالاً فى مقابل تعبك ؟ »

فقال لى — وكان قد تعلم لغتنا — ويلك إنك لا تعرف معنى لما تقول . إن طريقة التطعيم يجب أن تعم فى جميع البلاد لإنقاذ الأطفال من الموت »

فقلت : « وما الفائدة من ذلك ؟ لماذا لا يموتون وهم أطفال وأى نفع جنيناه من حياتهم ؟ »

قال : « إذا كنت تريد النفع والفائدة فإنى أدفع

لك المبلغ الذي تطلبه وتتركني أعود إلى نشر العمل الذي لم تكن ترى فيه فائدة قبل الآن »

هنا بدأت مفاوضتي معه وأظهرت له مقدار المخاطرة التي أتحملها بالتكلم في شأنه مع رئيس الوزارة ثم اتفقت معه في النهاية على المبلغ وبعد أيام عاد الزحام على بابه ولم يقل أحد أي شيء عن مخالفة الآداب بمقابلة الطبيب للنساء

ومن حماقات هذا الطبيب أنه طلب تشريح الجثث الآدمية فقلت له : « هل تدعي في هذا الموضوع أيضاً أن العالم سيستفيد من تقطيعك أجساد المسلمين ؟ »

فقال : « يستحيل أن تقدر الفوائد التي تعود على الإنسانية من علم التشريح ويستوي عندي تشريح المسلمين والنصارى واليهود »

ثم عرض عليّ مبلغاً كبيراً لأسمح له بذلك فمهدت له الطريق وصرت أشفي غيظي من الكفار بتقديم جثثهم إلى الطبيب لتشريحها وفي الوقت نفسه أجمع ثروة طائلة من هذا الطريق

ولقد كان السفير نفسه يزعم أنه يريد الإصلاح لبلادنا وأنه سيخدم الإنسانية بتنفيذ مشروعاته في هذه البلاد ، وكانت لهجته كلهجة الطبيب وقد طلب إليّ أن أساعده على عمل آخر عند رئيس الوزارة ووعدنا بهدية كبيرة جداً ، ولما كان من عادات رئيس الوزارة أن يظل أنفه عالياً ما دام في الجو هدية فقد استمر يسألني كل يوم عن هذه الهدية بعد أن قصصت عليه الحديث الذي دار بيني وبين السفير

وقد علم أن السفير أحضر من بلاد الإنكليز مقداراً عظيماً من المنسوجات الغالية وكان الوزير شديد الشغف بالثياب الفاخرة

لكن الهدية التي أرسلها السفير من تلقاء نفسه كانت من الأطعمة التي تزرع في بلاده ولا يوجد مثلها في فارس ، وقد قال إنه يريد مساعدته على تعريف الناس بها لتكون أساس تجارة واسعة بين البلدين فامتعض رئيس الوزارة وكلفني أن أذهب إلى السفير وأخبره بأن الأرض الفارسية ممتلئة بالخيرات وأنه لا يقبل مثل هذه الهدية بل يريد هدية من القماش الثمين الذي لديه

ولما أبلغت هذا القول إلى دار السفارة ضحك الشبان الذين فيها والذين ليس لهم لحى ولا شوارب وقالوا : « هل يريد رئيس الوزارة أن يحيل أغذية يستفيد بها الشعب إلى كساء يضعه على ظهره ؟ »

وضحكوا ضحكات عالية مني ومن الذي أرسلني ولكن السفير نفسه كان أعقل كثيراً من هؤلاء الشبان فقابلني بمنتهى الأدب وأمر بتسليمي ما طلبته من الثياب ، وفي الوقت ذاته أبى أن يسترد البطاطس الذي أرسله وطلب توزيعه على الشعب قائلاً إن هديته إلى الوزير علامة على الصداقة وهديته إلى الشعب برهان على الاحترام والتقدير

ولما عدت في ذلك اليوم إلى رئيس الوزارة أطراني وامتدحني وقال إن منزلتي عنده أكبر منزلة وإنني سأظل أقرب أخصائه ما بقي على قيد الحياة

الفصل الثمانون

الخاتمة

كادت تنتهي المفاوضات التي بيننا وبين الكفار على أن يرسل الشاه سفيراً من قبله إلى بلاد الإنكليز لتقوية الروابط بيننا وبينهم . وكان كل يوم يمر يزيد في إقناعي بكبر المنزلة التي نلتها عند رئيس الوزارة وكانت حاجته إلى مساعدتي تزداد ظهوراً بمرور الأيام

وفى اليوم التالى لتوقيع المعاهدة مع انكلترا استدعانى إلى غرفته الخاصة وقال لى : « أصغ إلىّ يا حاجى بابا فإن لدىّ حديثاً هاماً أريد أن أحدثك به ولما كنت واثقاً منك فإنى مقدر ما ستبديه من الاهتمام »

فأظهرت له أننى عند ظنه وأكدت له ولائى وطاعتى فقال : « سواء أكانت المعاهدة بيننا وبين الإنكليز حسنة أو سيئة فإنها قد تمت وقد قرر الشاه أن يرسل من يمثله فى لوندرا . وأنت تعرف الفارسيين كما أعرفهم وتعرف أنهم لا يحبون مغادرة بلادهم وسنجد صعوبة كبيرة فى اختيار من يصلح لهذه السفارة ممن يقبلون السفر إلى بلاد الإنكليز . وإنى واضع نصب عينى اسم رجل خاص أريد أن يفارق البلاد الفارسية بأسرع ما يمكن وأريد أن تبذل كل ما فى وسعك لإقناعه بقبول هذا المنصب »

فهمت لأول وهلة أنه يريد إرسالى وتقليدى هذا المنصب ، ولكننى لم أفهم لماذا يريد إخراجى من فارس. وعلى كل حال فإني لم أشأ أن تفوتنى هذه الفرصة فأظهرت أننى فهمت وأننى شاكر ودعوت له ودنوت منه وقبلت يده وقلت له : « إننى عبدك الخاضع وسأبرهن فى كل موقف على خضوعى لك وولائى . مرنى وستجدنى مطيعاً ولو أدى ذلك إلى موتى »

قال : « هذا كلام حسن يا حاجى بابا والرجل الذى أعنيه هو ميرزا فيروز »

فظهر التجهم على وجهى وبدت علىّ علائم اليأس واستمر رئيس الوزارة يقول : « لقد وجدت نفوذه لدى الشاه آخذاً فى الازدياد ، وهو رجل قادر على الكلام والإقناع ، وهو داهية فى الرياء قادر على الكذب والاختلاق . وقد أظهر الشاه من السرور به أكثر مما أظهر من السرور بأى إنسان . وقد سمعت أنه يضمر لى عداء شديداً وإن كان يتظاهر بأنه خادم مطيع ولم يجرؤ إلى الآن على إعلان عداوته لأى إنسان أو على الدس ضد أى أحد . ولكننى لا أزال خائفاً منه حتى يرحل عنا، فمتى بعد عن وجه الشاه بالسفر إلى بلاد الكفار استرحت من أكبر مسبب لمتاعبى وسأدبر فى غيابه الخطط حتى إذا ما عاد ظافراً من مهمته (وأسأل الله ألاّ يعود) لم يجد مثل ما له الآن من النفوذ »

وافقت رئيس الوزارة دون تردد وإن كان ضميرى غير مستريح إلى أى عمل أقوم به ضد هذا السفير الذى كان أصل نعمتى

وقال لى الوزير : « إننى لم أطلعك إلا على جزء من مشروعى فإننى أريد غير ما أخبرتك به — أن تذهب أنت أيضاً مع السفير بوظيفة السكرتير الأول وأنت جدير بهذا المنصب لما لك من الإخلاص والمعرفة التامة بما أريده ، والخبرة بمختلف الشئون » ولقد سرنى تقلدى هذا المنصب ، ولكن لعرضه فى وقت واحد مع منصب أكبر منه ، واختيارى لأصغرهما امتعضت ، وكنت من جهة أخرى أفضل البقاء فى إيران ما دمت لن أنال منصب السفير فإن مجال الكسب والعمل فيها أكبر من مجالهما فى المنصب الذى اختاره لى . وكنت لا أزال أذكر ألم الغربة ، وأخشى أهوال البحر فى رحلة طويلة إلى بلاد الإنكليز التى سمعت عن ظلامها وبردها ما بغضنى فيها وعلمت من جمود أهلها وثقلهم ما جعلنى أتصور الإقامة بينهم فوق الطاقة . وعلى أية حال فقد أجبت

بكلمة القبول التى تجدها حاضرة على لسان كل فارسى مهما كان شعوره الحقيق ، وقلت له إننى قابل أمره على العين والرأس ، وإننى سأظل خادمه . ثم سكت سكوت الحجر الأصم ففهم الوزير سريعاً ما عنيته وقال لى : « إذا لم تكن تحب ما عرضته عليك فعندى مناصب أخرى ليس بالصعب تعيينك فى أحدها ، ولكننى آثرت صالحك ولا يزال موعد السفر بعيداً فاذهب الآن إلى أصفهان مندوباً من قبل الشاه واجمع من أهلها ما تستطيع جمعه من الهدايا لتقدم باسم إيران إلى البلاط الإنكليزى . ولك من هذا العمل مورد كبير للكسب »

لم أدع الوزير يتمم قوله فقد كان اقتراحه بأن أعود إلى مدينتى فى مثل هذه المهمة معزياً لى وقلت بلهجة من استخفه الطرب : « أقسم بالخبز والملح الذى أكلته عندك وأقسم بحياتك وبرأس الشاه إننى مستعد لتلبية ما تأمر به وسأذهب إلى أى مكان تأمرنى بالذهاب إليه ولو أمرتنى بالذهاب تحت أطباق الأرض لآتى بشيطان من الشياطين »

وقال الوزير : « حسن ما تقول فاذهب أولاً إلى فيروز خان وأخبره إنه هو الرجل الوحيد الذى يصلح من بين الفارسيين لمنصب السفارة وأقنعه بالفوائد المظيمة التى تعود عليه من قبول هذا المنصب . وقل له إن رجلاً آخر يزاحمه عليه وأنه أعقل من أن يضيع هذه الفرصة فيغنمها منافسه . ومتى قلت له ذلك سهل إقناعه »

تركت رئيس الوزارة وأنا لا أعلم هل أنا صاعد إلى السماء أم هابط إلى الأرض وهل تحققت كل أطماعى أم سأعود إلى حياتى الماضية المملوءة بالأخطار والمخاطرات ؟ وهل سأقطع ألسنة الذين كانوا يشتمون بى ويعيروننى بأنى ابن حلاق أم سأزيدهم شماتة بى ؟

وأخذ فكرى يحوم حول هذه الخواطر ومشيت فى الطريق منتفخاً بحالة تستلفت الأنظار . وكنت أحلم بمسيرى على جواد مطهم فى أصفهان وتحتى سرج موشى بالذهب وفى يدى لجام مذهب وحولى الجنود يحرسوننى . وصلت إلى بيت ميرزا فيروز فوجدته مستعداً للكلام معى فى شأن السفارة وظهر لى أن السفير الإنكليزى كلمه فى نفس الموضوع الذى كلمنى رئيس الوزارة بالكلام معه فيه، وقد سهل علىّ موقفى الذى كنت أستصعبه أن ميرزا فيروز أظهر سروراً شديداً واغتباطاً بمنصب السفير فى لوندرة ، وقد سألنى هل أريد بعد أن استعدت مكانتى أن أعود إلى زوجتى شكرليب، فتحرجت من الجواب على هذا السؤال لأنى كنت أكره الذكرى السيئة .

وفى اليوم التالى أعلن الشاه أنه اختار ميرزا فيروز ليكون سفيراً فى انكلترا . وصدر أمر رئيس الوزارة بأن أذهب إلى أصفهان لجمع الهدايا من هناك

ولست أريد أن أجهد القارئ بذكر التفاصيل عن هذه المهمة ويكفى أن أقول إننى سافرت إلى أصفهان كما يسافر إليها رجل كبير الأهمية وإننى كنت مفعم النفس بشعور من العظمة والجلال لا يمكن أن يدركه إلا أمثالى من الإيرانيين، وقد ظهر لى أن سوء الحظ فارقنى فصرت فى مأمن منه ودلتنى كل الظواهر على أن صفحة جديدة من حياتى قد فتحت ليكتب فيها القدر سطور السعد.

ودخل حاجى بابا مدينته باسم ميرزا حاجى بابا نائب الشاه، وهل أريد بعد ذلك أن أقول شيئاً ؟

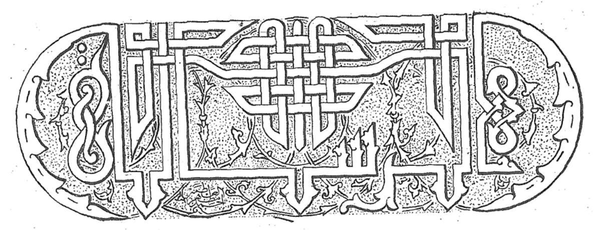
وهنا يقول واضع القصة باللغة الانكليزية إنه قد اتبع نصيحة الدرويش الفارسى فلا يعود إلى سرد القصص إلا إذا أعجب بها السامعون، فإن شجعه القراء وضع قصة أخرى يسرد فيها حوادثه بعد ذهابه إلى انكلترا وما حدث بعد عودته من انكلترا إلى إيران بعد أن عرف عن الغرب وشئونه ما ليس يعرفه الإيرانيون . وواضع هذه القصة فى انتظار تشجيع القراء يستأذنهم فى إتمام قصته

ويقول مترجم القصة إلى اللغة العربية إن واضع القصة باللغة الإنكليزية قد وفى بوعده فوضع كتاباً آخر عنوانه حاجى بابا فى انكلترا وقد ترجمناه ونشرناه فى مجلة الرواية فى العام الماضى . وقد أعجبنا أيما إعجاب بطريقة المؤلف فى استعراض مظاهر الحياة فى إيران فحاكيناه فى طريقته ووضعنا على غرار كتابه كتاباً نستعرض فيه الحياة المصرية المصرية وعلاقتها بالشرق وبالغرب وجعلنا بطل القصة « الدكتور مبارك السنتريسى الملقب بحاجى بابا بولاق وأخباره فى مصر وفرنسا والعراق »

وسنوافى به القراء بعد حين

عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد فى الآداب العربية

الرسالة تحيى فى النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور فى الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلى ستون قرشا ، والخارجى ما يساوى جنيها مصريا ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

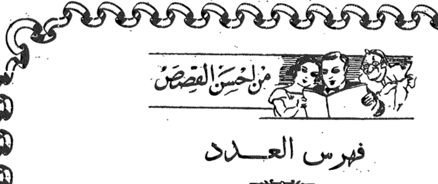
بدل الاشتراك عن سنة

قرش ٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

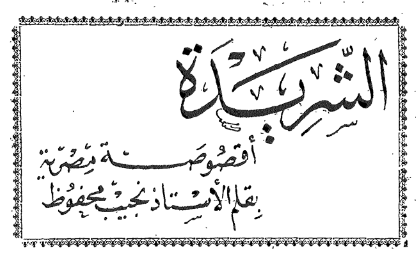
الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٧ — ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — أول يونيو سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة



فهرس العـــدد



الغالب على أحاديث الشبان فى هذه الأيام أن تتجه نحو غرضين : النساء والسياسة ، وحول هذين الموضوعين دار الحديث فى مجتمع من الأصدقاء كان من حظى المشاركة فيه محدثاً ومنصتاً . وقد بدأ الحديث فاتراً مبتذلاً فلم يستطع أن يجذب إلا بعض انتباهى ، حتى تكلم ذلك الصديق البارع وتدفقت الذكريات على لسانه الذرب فألقيت إليه بانتباهى كله ، لأن حديثه كان قصة مستوفاة العناصر ، ومثل هذا الحديث يستبد بمشاعرى استبداد المال بقلب اليهودى الشحيح وإليك ما قصه صاحبى — قال :

لا يكاد يخلو تاريخ شاب من امرأة ، ولكنه قد يخلو من المرأة المؤثرة التى تترك وراءها شاهداً عميقاً لا ينال منه طمس السنين كالوشم فى اليد أو الصدر . وقد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهن إلا أثراً ذاهباً من اللذة أو الألم ، أو أطيافاً غارقة فى الظلام والنسيان ، إلا امرأة ، بدت فى فترة من حياتى كالكوكب الدرى ينير أبداً ويضئ ما حوله ، فلا أنا أنساها ، ولا يغمر النسيان حياتى التى غمرتها بروحها الرقيق... لماذا ... ألأنها كانت أجمل من عرفت ؟... أو أحبهن إلى قلبى ؟... لا أعتقد هذا ولكن ربما لأنها كانت أتعسهن جميعاً ولأن تعاستها هذه كانت السبب الخفى فى سعادتى بها زمناً طيباً لن يعود أبداً

ويرجع عهد معرفتى بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠ وكنت آنئذ طالباً فى السنة الأولى بمدرسة الزراعة العليا ، استيقظت ذلك اليوم فى الصباح المبكر كعادتى فجاءتنى والدتى وقالت لى :

— حسونه ... أرى أن أخبرك أن ضيفة نزلت ببيتنا ، وأنها ربما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمى ...

فنظرت إليها بغرابة وقلت لها :

— من هى ...

— زينب هانم زوج اليوزباشى محمد راضى جارنا .

فاستولت علىّ الدهشة وقلت :

— لكنها ما زالت عروساً فى شهر العسل ... أليس كذلك ...؟

— هو ذلك يا بنى ، والظاهر أنها تعسة الحظ لأنها اضطرت إلى هجر بيتها والالتجاء إلىّ فى الصباح المبكر ، وزوجها ولا شك رجل غليظ فظ لا تسهل معاشرته ، وإلا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم أن لا أقارب لها فى القاهرة ...

وكانت والدتى شديدة التأثر فقلت :

— مسكينة ...

فقالت بانفعال :

— كانت أم هذه الشابة صديقة صباى ، وإنى

أرجو صادقة أن تعيش بيننا سعيدة ...

ثم أردفت بلهجة ذات مغزى

— وأن تكون لها يا حسونة أخاً كريماً ...

وبادرت قائلاً :

— طبعاً ... طبعاً ... يا أماه .

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتي الأخيرة واللهجة التي قالتها بها ؛ وأحسست بمزيج من الخجل والغضب . ترى هل تشفق والدتي من سلوكي على ضيفتنا ؟ ثم خطر لي أن أتساءل — هل هي جميلة إلى حد تبرير والدتي ... حامت أفكاري حول ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة . والحق أن كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ البداية الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيما إشفاق .

وكان جو بيتنا غاية في الهدوء ، فوالدي كان حينذاك قاضياً بمحكمة طنطا الأهلية ، وكان يقيم نصف الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محل عمله ؛ وكان أخي على في المدرسة الحربية ، وأخي عادل في بعثة مدرسة الطب بالنمسا . وفي ذلك الجو المغمور بالهدوء والسكينة عرفت زينب هانم العروس التعسة . . . وقد خيل إليّ وأنا ألقي عليها النظرة الأولى أني أرى صبية صغيرة . نعم كانت بضة ممتلئة بادية الأنوثة ، ولكني قرأت في عينيها العسليتين نظرة براءة وسذاجة . بل طفولة كاملة لولا ما يلوح فيهما بين الحين والحين من الحزن العميق الذي لا تعرفه الطفولة الحقة ...

وكان الشباب في ذلك العهد غيرهم الآن كانوا أعظم استقامة وأدنى إلى العفة والطهر ، وأرعى عهداً للتقاليد ، وكانت المرأة المصونة تبدو دئماً وكأنها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة . وكان الحب بعيداً نسبيا عن التهتك والابتذال اللذين صرعاه أخيراً وأورداه الإباحية والجنون ، فكانت العواطف تزدهر في القلب وتنبت الآمال والأماني ، وتنصهر في العقل وتخلق الأخيلة والأحلام ، وتكتسي بحلى نادرة من صنع الأوهام والأطياف ...

فكان يقنعني من زينب نظرة أختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البض ، لتكون زادي في النهار والليل وفي اليقظة والنوم ، وأصبحت وأمسيت في عالم أثيري جميل بث في وجداني حياة ناضرة كالحياة التي ينشرها الربيع في الحقول والبساتين . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك فجرى الحديث بيننا مرات ، ولعبنا الورق مرة والنرد أخرى ... وغالبتني عواطفي فوسوست إلى نفسي أن أتشجع وتساءلت بخبث لماذا لا أجرب حظي . لماذا لا ألمس أناملها في أثناء اللعب مثلاً ؟ أو أهدي إليها مجدولين فتكون فاتحة حديث لذيذ لا يعلم ختامه إلا الله ... ولكني لقيت من التردد الشيء الكثير ، ولم تسعفني الجرأة التي تعلمتها فيما بعد ، وضاع الوقت هباء حتى رجعت يوماً إلى البيت ، فوجدت والدتي وحدها ... وكنت تعودت أن أراها إلى جانبها ، فأحسست بوحشة وضيق ، وكتمت رغبة تلح عليّ بالسؤال لأن تلوث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء ، وظننت السؤال فاضحي ، ولم تدعني والدتي فريسة العذاب فقالت لي :

— شكراً لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر

لزوجه وعاد بها لأنه نقل إلى أسيوط وقد كلفتنى أن أهدى إليك تحياتها ...

وأحسست فى الحال إحساس الطالب الذى يمنى بالسقوط فى الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة اللائقة به . وضاق صدرى ذلك اليوم بالبحث ففررت إلى الخارج لأخلو إلى نفسى بعيداً عن عينى والدتى . على أن الصبا دائماً قادر على جرف الأحزان والهموم فاستطعت أن أبرأ فى مدة وجيزة ونسيت فى غمرة الحياة والآمال تلك الحسرة التى عصرت قلبى أياماً فكانت مثل « الزكام » الذى يفقد الإنسان طعم الحياة حينا يزول سريعاً فكأنه لم يكن ...

ودارت الأيام وانتهيت من الدراسة وحصلت على الدبلوم ، ووظفت فى وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥ ، ثم انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس سنوات . وفى الأيام الأولى لهبوطى إلى الإسكندرية آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعثاء السفر وأبحث فى هدوء عن مسكن مناسب ؛ ووقع اختيارى على فندق (ريش) لحسن موقعه من البحر لأننا كنا فى سبتمبر وهو من الشهور المحبوبة فى الإسكندرية يطيب فيه الجو ويهدأ البحر ويصفو ؛ فحملت حقيبتى إليه ونزلت فى حجرة من حجرات الطابق الثانى . وأذكر أنه لم يكد يتركنى الخادم ويغلق وراءه الباب حتى سمعت طرقاً فدلفت إلى الباب وفتحته ورأيت لدهشتى صديقنا الدكتور أحمد شلبى ، واستقبلته بشوق وأجلسته إلى جانبى وكان يقول لى :

— أحقًّا هو أنت ...

ثم أردف :

كنت تاركاً باب حجرتى مفتوحاً فلمحتك وأنت تتبع الخادم وعرفتك فى الحال ..

— هذه فرصة سعيدة

— يا حظك ...

— أى حظ تعنى ... أنت تعلم أن موظفى الزراعة لا حظ لهم يحسدون عليه

فقال ضاحكاً :

— أنا لا أتكلم عن الكادر ... ولكن عن فوزك بهذه الحجرة ... فيا حظك ...

— وما الداعى إلى هذا الحسد ... هى حجرة دون حجرات الصف المقابل التى تطل نوافذها على البحر ...

— هذا حق ، ولكن شرفتها تمس شرفة الحجرة رقم ٢٤ التى إلى يمينك ؛ وحسبك هذا ...

— وما شأن الحجرة رقم ٢٤ ... ؟

فقال وهو يتنهد :

— تقيم بها امرأة حسناء وحيدة ...

— وحيدة ... ؟

— نعم ... وإلى هذا يعود السبب فى أن حجرات هذا الطابق مأهولة كلها

— لعلها ممثلة أو راقصة ...

— هو ما يظنه الرقم ٢٧

فقلت مستفهماً :

— الرقم ٢٧ ... ؟

— أعنى زميلى الدكتور الصواف المقيم فى الحجرة رقم ٢٧ ، ولكننى لم أوافقه على ظنه ، لأنى خبير بالصالات والمراقص جميعاً . والأعجب من هذا أنها تبدو محترمة ولا ينقصها إلا زوج لتكون من المصونات حقًّا

فابتسمت وقلت :

— عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

— أوه ... كل الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة

— ألم يفز أى رقم منها بطائل ... ؟

— فى الظاهر لا ، والله أعلم بالسرائر

وجالسنى الصديق ربع ساعة ، تحدث فيها ما شاء له الحديث ، ثم ودعنى وانصرف إلى حجرته .

وكنت تعباً منهوك القوى فنمت ساعة نوماً عميقاً واستيقظت عند العصر ، وفتحت شرفتى وجلست فيها أستروح هواء البحر المنعش . ولاحت منى نظرة إلى الشرفة التى إلى يمينى ، فتذكرت ما قال صديق الدكتور ، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف ؛ ولكنى استرددت نظرى بسرعة لأنى سمعت صرير بابها وهو يفتح ، ونظرت أمامى ، ولحظت بروز شخص ، وخيل إلىّ أنه امرأة ، وتأكد ظنى عند ما عطست ، وحافظت على جمودى وتظاهرت بعدم الاكتراث ... وغالباً ما يفيد البرود وهو إن لم يفد يعز عن الخيبة ...

ولكنى لم أثبت طويلاً ، ونازعنى الشغف إلى النظر فألقيت ببصرى إلى جارتى . ورأيت امرأة أول ما راعنى منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحول إلى يقين بأنى رأيتها من قبل ، وأنا أتمتع بذاكرة لا تخيب قط فى حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت ... ذكرت جارتنا القديمة ... التى عاشت معى فى بيت واحد بضعة أيام كانت كافية لإنضاج وجدانى ... وتملكتنى الدهشة والاهتمام ...

ولاحت منها نظرة إلىّ فالتقت عينانا ، وتوقعت بقلب خافق أن أطالع فى وجهها آية التذكر ، وتحفزت للسلام ولكن خاب رجائى ، لأن نظرتها كانت جامدة لا حياة فيها ولم تلبث أن ولتنى ظهرها وعادت من حيث أتت . واأسفاه لقد نسيتنى بغير شك ...

وما من شك فى أنها هى جارتنا القديمة وهى ما تزال تحافظ على جمالها وأنوثتها ، ولكن مالها تعيش وحدها فى هذا الفندق ... وما الذى يحملها على هذه الوحدة الغريبة ... وأين زوجها يا ترى ...

وطال تفكيرى فى شأنها حتى قمت لارتداء ثيابى وغادرت حجرتى ، وشاءت المصادفات أن يفتح باب حجرتها على أثر خروجى مباشرة ، فتباطأت فى خطاى حتى حاذتنى وهبطنا الأدراج معاً ووجدت فى نفسي رغبة شديدة فى محادثتها ولم أكن أحجم فى مثل ذاك الموقف فقلت لها بهدوء غريب :

— سعيدة يا هانم ... لعلك تذكريننى ...

فحدجتنى بنظرة إنكار ، ولعلها ظنت أنى أتذرع بالحيله لاستدراجها إلى محادثتى ، وأسرعت الخطا فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها :

— أهكذا تنسين جيرانك بسرعة ... ألا تذكرين حرم حسن بك همام القاضى ؟ ..

فألقت علىّ نظرة غريبة ولاحت فى عينيها الأحلام وسمعتها تتمتم :

— عدالات هانم ... شارع الزقازيق ...

فقلت بفرح :

— نعم ، هذه والدتى ... وهذا شارعنا ...

فهشت لى وسارت إلى جانبى وهى تقول :

— أأنت ابنها ؟ ... تذكرت ... كيف حال عدالات هانم ؟ ...

فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدى القديم بها:
— والدتى بخير ... كيف حالك أنت يا هانم ؟
— عال ، ولكن أين عدالات هانم ؟ . . .
هل أنت هنا وحدك ؟ ...
— نعم ، الأسرة فى رأس البر لأن والدى يحبها ويفضلها على الاسكندرية ، وأنا هنا بحكم عملى
— نسيت اسمك ...
حسونة ...

وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنى نفرت بطبعى من سؤالها عنه ، فمشيت إلى جانبها صامتاً وكان وجدانى فى يقظة قوية ، وأصارحكم القول بأنى من الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أيا كان جمالها ، وأن رغبتى فى النساء عامة لا تعرف التخصص ، وقد كنت قبل نحو عشرين عاماً ذا استعداد للحب، ولكنى فقدت بمرور الزمن واطراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيراً من الحيوانات الراقية . وكنت فى ذلك الوقت خاطباً ، وكنت اخترت خطيبتى من بين عشرات الفتيات ولكن ذلك لم يمنع قلبى — ذلك اليوم — من التعلق السريع بتلك المرأة ومعاناة الرغبة والطمع ، قلت لها :

— أأنت وحدك هنا ؟ . . .

فقالت بلا اكتراث :

— نعم !
— وزوجك ... ؟
— فى السلوم
— ولماذا تعيشين وحدك ... ؟

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

— لا ينقصك إلا أن تفتح محضراً للتحقيق وتطالبنى بالشهود ...

فخجلت من فضولى ، وضحكت أدارى خجلى ، ولم تكن عواطفى تكف عن الطغيان فقلت :

— ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس ...

فهزت رأسها وقالت بعناد ظريف :

— كلا أنا أفضل المشى لأنى أريد أن أنحف

فنظرت إلى جسمها البض الممتلىء نظرة معذب ووجدت فى كلامها فرصة ذهبية لا ينبغى أن تفلت منى فقلت بإعجاب :

— وما جدوى هذا التعب ... إن جسمك كامل الفتنة ...

فألقت علىّ نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهى تشير إلى جسمها :

— هذه موضة قديمة

فقلت بحماس :

— هذا جميل وكفى ... وما عدا ذلك فلا وزن له عندى

— وعند الناس ... ؟

نعم وعند الناس ... كدت أنسى هذا ، إذ خيل إلىّ الوهم الساحر أنى صاحب الشأن الأوحد ، وعلى أنها قالت ما قالت وهى تبسم إلىّ بإغراء ، فاستخفنى الوهم مرة أخرى واشتد بى الطمع فقلت :

— أنت لم تتغيرى فى هذه الفترة الطويلة وكأن التى أراها الآن هى السيدة الجميلة التى أشرقت بغتة

فى بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام ، وغربت بغتة كذلك فتركتنى أحلم بها أياماً وشهوراً

فنظرت إلىّ بخبث وقالت :

— يا لك من ماكر ...

فقلت ضاحكا :

— ما وجه الغرابة فى ذلك ... من يرى هذا الحسن ولا يتمناه ؟

— الظاهر أنى سأجد من الواجب أن أفارقك لأنجو من أمانيك ...

— حاشا أن تفعلى ... بل حاشاى أن أتركك تفعلين . إن فوزى بلقائك بعد هذا الغياب الطويل نعمة من البطر الشرير الكفر بها ...

— إنك تحدثنى كما لو كنا عاشقين افترقا ثم تلاقيا ...

— هذا شعورى بحق ...

— هو أدنى إلى الوهم

— أما من ناحيتى فلا ...

— وأما من ناحيتى فنعم ...

ولكنها قالت ذلك بدلال ورقة ، وهى تبسم ابتسامة عذبة تسيل إغراء (فعلمت أن يمينها لم تحرج) ولم أدهش لما تبدى من استسلام لأن حالتها فى الواقع كانت تدعو إلى الريبة ، وتذكرت ما قال صديق الدكتور شلبى فقلت :

— إنى أعجب لماذا تقيمين وحدك فى هذا الفندق؟

— أراك تعود إلى التحقيق ...

— كلا لا داعى للتحقيق ... ولكنى علمت أن المقيمين بالطابق الثانى يضايقونك ...

— أبداً لعلهم يضايقونك أنت ...

فتنهدت وتعمدت أن أسمعها تنهدى ثم قلت :

— فليكن ... ألا ترين من الحكمة أن (نترك) فندق ريش ... ؟

— نترك ...

— نعم ... أنا أعنى ما أقول ، وأعرف فندقاً هادئاً فى لوران فما رأيك ؟

ولم تجبنى ، ولازمت الصمت حيناً ، وبدا على وجهها الاهتمام والتفكير ، فخفق قلبى وساورنى الخوف والقلق ؛ ولكنى أحسست فجأة بذراعها تلتف بذراعى وسرنا مشتبكين كالعشاق أو الأزواج ؛ فأثلج صدرى وغمرنى الفرح والفوز ، وقنعت بذلك جواباً ...

وفى مساء ذلك اليوم افتتحنا معاً مأدبة الحب ، فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران ونزلنا فى فندق اكس لاشابل ، وهو فندق هادئ منعزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يولى ظهره ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام

وعشت أياماً أذكرها دائماً كما يذكر السقيم عهد الصحة والعافية ؛ كان الحب فيها الحاكم القاهر المستبد الطاغى الذى لا يترك لشىء مكاناً من عقولنا أو نفوسنا ، وكنت أعلم أنها أيام وإن طالت قصار ، وإن صفت فإلى انتهاء سريع ؛ فأقبلت عليها بنهم وجشع ، أملأ من حسنها قلبى وحواسى ، كيلا أدع زيادة لمستزيد ، غير مؤجل متعة إلى غد أو مبق على لذة إلى حين، أو تارك ثمرة بلا قطف والتهام... وكانت شريكتى سعيدة راضية يسكرها الحب وتستخفها آيات العطف، فتستزيد منها كما يستزيد الثمل من الطرب

وتبين لى بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة ،

فكنت لا أفكر إلا فى حاضرى ، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة فى رشفة واحدة ... أما هى فكانت تنظر إلى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة فى أن تطمئن إلى دوام السعادة والحب . وقد عجبت لذلك وعلمت أنى لم أفهم بعد تلك المرة ؛ وقد ظننتها حيناً امرأة مستهترة متقلبة الأهواء ، تجوب البلاد بعيداً عن زوجها طلباً للحب الآثم وانتهاباً للذات ... ولكنى وجدتها هادئة الطبع ، عظيمة المودة ، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التى تورد أصحابها مهالك الفتن ...

وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص ، فلم يكدر صفوى مكدر ، إلا أن إفراطى الشديد ردنى إلى شىء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكرى أن يتناول أموراً غير الحب ....

فكرت فى أنى أعتدى لأول مرة على حرمة الزوجية ، ولم يكن سبق لى أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزتنى شكة الألم وأحسست بخوف غامض ، وزاد من ألمى أنى كنت على عتبة الحياة الزوجية وساءلت نفسى فى رعب ألا يجوز أن يقتص الله منى ويصيبنى يوماً فى المقتل الذى طعنت فيه الآخرين ..؟

— وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلاً :

— وهل صدقت مخاوفك فيما بعد ...؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزراً ثم استأنف حديثه قائلاً :

ثم فكرت فى أمر آخر لا يقل عن سابقه خطورة . فكرت فى أمر الزوج الغريب الذى يترك لزوجته الحبل على الغارب . ما الذى عساه يفرق بينهما ؟ ... وكيف يرضى عن هذه الحياة الغريبة ؟ .. وإلا يمكن أن يظهر بغتة فى أفقنا الهادى فتكون الطامة التى لا تدفع ...

وكانت هذه الأفكار تساورنى خارج الفندق بعيداً عن ظلها الخفيف ، ولكنى وجدت نفسى مسوقاً إلى مفاتحتها بهذا الحديث وقد فعلت ، فسألتها يوماً :

— أما من أخبار عن زوجك ...؟

فاكفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت :

— دع هذا الحديث جانباً ...

فاضطررت ساعتئذ إلى السكوت ، وفى نيتى أن أعيد الكرة مهما كلفنى ذلك . وكانت تتحامى هذا الحديث وتتهرب منه ، ولكنى قلت لها يوماً بإخلاص وحزم :

— ينبغى أن تعلمى أنه ليس الفضول الذى يدفعنى إلى معاودة السؤال ، ولكنه الاهتمام بشخص أعزه وأحبه وأرجو دائماً أن يفتح لى صدره وقلبه ...

كم فرحت لكلامى هذا ... لقد التصقت بى بوجد وحنان وتنهدت بسعادة وقالت :

— يا للسعادة ... طالما ضرعت إلى الله أن يهبنى قلباً حنوناً محباً ...

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدى وقلت :

— إذاً هيا وصارحينى بكل شىء

— ولكنه حديث مؤلم كريه

فقلت :

— أنا لا أدرى شيئاً ، لأنك لم تريدى أن تطلعينى على شىء ، ولكنى كنت أرجح دائماً أن حياتك الزوجية غير سليمة . ومهما يكن من أمر فينبغى أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا ...

فهزت منكبيها باستهانة وقالت :

— إنه لا يعرف مقرى على وجه التحقيق …

— ما أعجب هذا … أستطيع أن أفهم أنكما غير متحابين ، ولكن الذى لا أستطيع فهمه هو أن تبقيا زوجين بعد ذلك …

— إنه لا يطلقنى لأنه لا يستطيع الاستغناء عن مالى … وسوى ذلك فلم يكن زوجاً قط وهو لا يطيق أن يكون زوجاً فى يوم من الأيام … على أنى فى الواقع لا أرغب فى الطلاق …

فحدقت فى وجهها دهشاً وقلت :

— هذا أعجب !

— لا تعجب لشىء . ألا ترى أنى هكذا مالكة لحريتى ؟… ولو كنت مطلقة ما استطعت أن أذهب إلى حيث أشاء . ولو كان لى من يهمه أمرى ويحنو علىّ بصدق لتغير مصيرى من بادئ الأمر ، ولكنى وحيدة ، وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة . أنت لا تدرى ما الوحدة . . . أما أنا فقد تجرعت مذاقها المر طوال هذه السنين … مات أبواى والتحق أخى الأوحد بوظيفة فى قنصلية اليونان ، ونبذنى زوجى .. فليس لى مكان آوى إليه أو قلب يعطف علىّ … أنا منبوذة فى هذه الدنيا …

فوجمت صامتاً وغلبنى التأثر الشديد ، ورأيت وجهها الجميل محتقناً كقطعة من الجمر ولمحت دمعة حبيسة فى عينيها فقلت :

— إنك جميلة وغنية فماذا كان يريد هذا الأحمق؟

— إنه وحش ضار وقاس جحود ، لم أستطع أن أعاشره كزوجة إلا أياماً معدودات ثم اضطرنى إلى حياة التشرد والهيمان … ولو وهبنى الله طفلاً لاستعنت به على الصبر والرضا ولكنى حرمت حتى من هذا العزاء …

وكانت تتكلم بتأثر شديد فخيل إلىّ أنى سأتبعها إلى البكاء ، وثرت فى نفسى على الحظ التعس الذى ضيّق عليها الخناق ، وخطرت لى فكرة فقلت لها :

— ألم يكن فى وسعك إصلاح ما أفسد الحظ ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت :

— الحظ التعس لا يصلحه شىء وأنا ما قصرت قط ، وأصارحك القول بأنى كنت أحبه وما وافقت على الزواج منه إلا لأنى أحببته يوماً ، ولكنه مضى بعد الأسبوع الأول من زواجنا يقضى الليل خارج البيت ولا يعود إلا قبيل الفجر ، وكنت إذا انبريت لإصلاحه ومدافعة الشقاء الذى يهددنى به سخر منى وهزأ بمحاولاتى ، ولما ضاق بى ترك السخرية والهزء وعمد إلى الخشونة والفظاظة …

وسكتت عن الحديث دقائق وهى مستسلمة إلى الشعور الأليم الذى أحدثته الذكريات ، ثم أردفت بصوت أعمق ووجه أشد اكفهراراً

— وأدركنى اليأس منه ، ولما أتم شهراً كاملاً فى بيتى الجديد ، وكان ذلك لحادثة همجية لا يمكن أن تمحى من ذاكرتى أيأستنى من الخير ودمرت كل فضيلة فى نفسى . ففى ليلة من ليالى شهر العسل كنت مستغرقة فى النوم بعد سهاد حزين ، وإذا بهزة عنيفة توقظنى من نومى فاستيقظت فزعة صارخة ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيته جالساً إلى حافة الفراش ، وهممت بتعنيفه ، ولكن لسانى لم يتحرك فى فمى لأنه كان فى حالة سكر شديد كما تبينت ذلك من نظرته الذاهلة ووجهه المحتقن والرائحة التى تنبعث

من فه ، وكان هنالك ما هو أدهى من ذلك ، كانت تقف قريبة منه امرأة غريبة فى مثل حالته من السكر الشديد . كانت تنتظر بلا ريب أن أوسع لها مكانى من فراش العرس ، ولم يمهلنى حتى أفيق من فزعى ودهشتى فقال لى بلسانه الثقيل الملتوى : (تفضلى خارجاً) ولم تنتظر صاحبته، فدنت من الفراش وارتمت إلى جانبى ، ولم أتمالك نفسى ففزعت من مكانى إلى أرض الغرفة وفقدت رشدى ؛ فانفجرت غاضبة وانهلت عليه سباً ولعنا، ولكنه هز كتفيه استهانة واستلقى إلى جانبها فغادرت الحجرة فى حالة جنونية ، وأحسست برغبة لا تقاوم فى هجر البيت ، وكانت ثيابى فى الدولاب داخل الحجرة ، فأخذت غطاء المائدة القطيفة وتلفعت به وفتحت الباب ووليت خارجاً ، والديوك تصيح معلنة طلوع الفجر ، وهرولت فى الطريق الموحش لا ألوى على شىء حتى انتهت قدماى إلى البيت الوحيد الذى تعودنا الذهاب إليه ... بيت والدتك ... ولعلك تذكر الأيام القلائل التى قضيتها عندكم ... إنى لا أنسى تلك الليلة أبداً ... ولن تزال قائمة فى نفسي بجميع تفاصيلها . . . وقد كانت فاصلة فى حياتي بين عهدين ...

إنى أذكر تلك الأيام بلا ريب ... ولكن كم كنت أجهل ما تخفى من التعاسة والبؤس ...

واحترمت فترة الصمت التى تلت ذلك ثم سألتها :

— كيف عدت إليه بعد ذلك ؟...

فهزت رأسها باشمئزاز وقالت :

— فى تلك الليلة انتهت حياتى الزوجية فى الواقع ولكنى كنت بلا مأوى وبلا معين فماذا أصنع ؟... عرض على اتفاقية فقبلتها ، وهى أن أعطيه من مالى على أن يعطينى حريتى ، وقد كان ... وغدوت حرة أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل ...

وهالنى الأمر فقلت :

— وهل عشت سعيدة بعد ذلك ؟ ...

— فتنهدت وقالت :

— ليت ذلك كان ممكناً ... ما تمنيت على الله من شىء مثلما تمنيت أن يسلبنى حريتى هذه فى لقاء أن أحظى بالسعادة التى أحلم بها والعطف الذى أتحرق إليه ، وأنا مستعدة دائماً أن أتنازل عن حريتى بائنة لمن يهبنى قلبه وإخلاصه .. كم تعبت وكم بحثت ... وكم ضقت بحريتى ...

الآن علمت كل شىء ... لقد صرفت هذه المرأة التعسة عشرة أعوام فى البحث عن العبودية السعيدة فهل يا ترى وفقت إلى ما تريد ؟ ... كلا ... هى لم توفق ولا ريب، ولو أنها وفقت إلى الحبيب الصادق ما ارتمت بين يدى أنا بهذه السهولة . لقد انصرمت السنوات العشر فى خيبة مريرة وخدع أليمة ، وما من شك فى أن الكثيرين تلقفوها بشراهة وجشع كما أفعل الآن ، ثم ردوها قهراً بعد شبع إلى حريتها البغيضة . وهكذا فالحرية نفسها تهون وترخص أحياناً وتعيى فى طلب المستبد الغاصب ..

ولما انتهت من سرد قصتها نظرت إلى بطمأنينة واستسلام، ثم ألصقت جبهتها بجبهتى وسمعتها تهمس فى أذنى قائلة :

— وأخيراً ...

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنى ألعب فى روايتها البائسة دور الأمل الأخير، فإما أن أقوم به كما تتمنى أحلامها وإما أن أشفى بها على اليأس القاتل

وأحسست بثقل تبعتي وران على صدري همٌّ عظيم وتساءلت حيران ترى ما هي أحلامها ؟ ... أأن تدوم هذه العشرة ... وكيف لي بدوامها وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الزواج ... ومضى تأثري الشديد لتعاستها يهدأ نوعاً ، وأخذت أفكر في نفسي وأنظر إلى علاقتي بها بعين متشائمة، وأتساءل في قسوة وأسفا عن طريقة للخلاص ... وكانت تأتي عليّ أوقات أعجب فيها من أنانيتي وأتساءل في اشمئزاز — إذاً كيف كان شأن من لم يشعروا نحوها بغير الشهوة والطمع ؟ ... الحق أن عالمنا الإنساني عالم شديد القسوة ، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها في الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء ، فهي في الحق تحصيل حاصل وجهد ما كان أحرى بأذليه بالضن به ...

على أن الذي أزعجني هو أن زينب فطنت لمشاعري الخفية من غير أن أصارحها بها ، وبدا لي ذلك في وجومها وبرودها وقنوطها . ولم أدهش لذلك فإني من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم ، وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم . ولم أكن بيّت قط نية مصارحتها بعاطفة مما يعتلج في صدري أو بفكر مما يحترق في رأسي ، وقد كنت أفكر في حالتها بعطف ومودة ، ولكن العطف شيء والحب شيء

وكنت أتوقع في خوف وإشفاق أن تفاتحني بما يقوم في نفسها من الوساوس ، وكان ذلك يضاعف آلامي النفسية ورجوت أن تنقشع تلك السحابة من سماء حياتي دون أن تترك وراءها أثر الحزن أو ألم أو تأنيب ضمير . وانقلبت حياتنا تمثيلاً ثقيلاً ، وكان كل منا يعلم ما يشعر به صاحبه نحوه ولكننا كنا نتجاهل كل شيء ... لماذا لم تصارحني بشعورها ؟.. ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة . . . لم يحدث شيء من هذا

وقد عدت ظهر يوم من عملي بالتفتيش فوجدت حجرتنا خالية ، وبحثت عيناي عن آثارها اللطيفة التي تعوّدت رؤيتها كالفساتين التي كانت تعلقها على المشجب أو الحقيبة التي كانت تضعها على المائدة فلم أر لها أثراً ، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه فلم أجد سوى ثيابي ، وناديت الخادم وسألته عنها فأخبرني أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة صباحاً وأنه أحضر لها بنفسه التاكسي ...

وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأني كنت أتوقع أن تترك لي كلمة ، ولكني لم أعثر على شيء ...

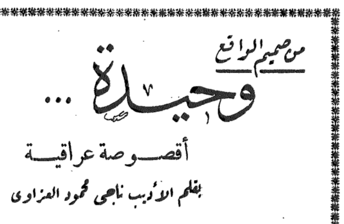
لقد تركتني دون كلمة وانتهى كل شيء

وجلست صامتاً واجماً تتنازعني العواطف ، ولم أشعر براحة للخلاص الذي جاءني بدون مشقة ، وأحسست بخجل وألم ووحشة ثقيلة ، ولم أجد رغبة إلى الطعام فقمت من فوري أبحث عن مسكن جديد ، لأنه كان يتعذر عليّ أن أبيت ليلتي في تلك الحجرة المهجورة ...

وسكت الراوي لحظة ثم أردف :

ومضت سنوات لم أرها فيها ؛ ثم رأيتها منذ عهد قريب تساير شاباً أنيقاً في ميدان المحطة ؛ ولكني لا أدري إن كانت ما تزال تبحث عن الحب والعطف أم أنها استنامت إلى القنوط ؟!...

نجيب محفوظ



« مهداة إلى الأستاذ الكبير الزيات اعترافا بفضله على الأدب والأدباء . » ن . م

* * *

السيد كامل بك وهذا هو اسمه المعروف والذى تنبئ عنه بطاقته ذات الحروف البارزة ، رجل فارع الطول ، عريض المنكبين ، يعجزك تقدير سنه ، فهى ثمانى عشرة سنة أوخمس وخمسون أو ما بينهما ، وهو من صنف الرجال الذين لا تذويهم الأعمار لأنهم قط ما أزهروا[1] ! . . .

لم يكن كامل بك من ذوى المناصب العالية ، والوظائف الكبيرة ، وإنما هو من أصحاب الثروات الضخمة والمال الوافر الذى جمعه بالسعى الدائب ، والتدبير المعجز ، والربا الفاحش ، والشح الدنئ ، والتقتير المهلك[2]

وقد تيسر له بهذا الغنى العريض أن يناسب إحدى العائلات ذات الحسب العالى والشرف العالى والصيت البعيد . فأحبَّ زوجه الحب كله وبسط يده المغلولة إلى عنقه ، فشاد القصر الضخم وأثثه بالأثاث الفخم ، واشترى السيارة المريحة . كل هذا وغيره إكراماً وإرضاءً لها ، ولكن سريعاً ماذبلت الزهرة وطواها الردى ، وخلفت له ابنة سماها وحيدة !

ولقد كانت هذه تشبه أمها كل الشبه . . . عينان متألقتان ، جبين منبسط ، أنف دقيق ، شعرٌ ذهبي غزير جسم بض حلوٌ شهى ، كلها آيات توحى الرقة والإبداع . . .

* * *

نشأت وحيدة فى كنف والدها الذى أحاطها بعطفه وحنانه حتى أنساها موقع الأم التى فقدتها ! وكان يتحفها بشتى الهدايا لمناسبة أو لغير مناسبة . وما كان أسعده عند ما يرى شبح ابتسامة تلوح على ثغرها البديع !

ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها السعيد أضحت كأنها الزهرة النضرة : فتاة ممتلئة بالحيوية ويوحى جسدها المشتعل أن فيه روحاً متوثبة مرحة ، وفيه حياة تتدفق كأنها الشلال الصاخب لا يكف لحظة عن الاندفاع ... سهلة الضحك ، تحب أن تقضى النهار كله فى الحديث والمسامرة ، لا مع أبيها الذى كانت تتضايق كل المضايقة من صمته الممل وسكونه الدائم ولكن مع ابن خالتها « أمين » الطالب فى كلية الطب ! !

كان جميل الطلعة ، برئ التقاطيع ، صافى العينين ، دقيق الأنف ، يجمع بين نشاط الرجولة ورقة الأنوثة

(١) برنارد شو
(٢) أحمد حسن الزيات

فى إحدى الأمسيات ... كان يسير معها ... وكان الجو صحواً والنسيم عليلاً ، والهواء معطراً بشذى الزهور ، والقمر العاشق يغمر بأشعته الفضية أطياف المحبين الدنفين ... فتحركت عواطفه وفاض غرامه ... واعترف بحبه ، وقبل أن تفيق من دهشتها كان قد احتواها بين ذراعيه وسجل غرامه بقبلة على شفتيها !

ووقفت الفتاة أمامه مضطربة ، مرتجفة . . . وقالت :

— ولكن ... لم يكن ينبغى أن تفعل هذا ...

وترقرقت الدموع فى عينيها وأردفت :

— لو رآنا أبى ...

فقاطعها بلهجة الواثق :

— لا يهم ، سأفاتح والدك بالأمر ...

* * *

وقصد إلى غرفة أبيها وفاتحه فى الأمر ، ولكنه قال فى لطف إنه وعد ابنته رجلاً آخر ...

— رجلاً آخر ؟ كيف ! لماذا ؟ ألست أحق الناس بها ؟!

ومع ذلك فهى تبادلنى الحب ، وما قالت لى إنها مخطوبة ؟

— لعلها لا تعلم ، ولعلك نسيت أن تقاليدنا فى الزواج لا تجعل للفتاة أهمية فى هذا الموضوع !

— ولكنها تبادلنى الحب !

— اسمع يا أمين : إنك شرفتنى بطلب ابنتى . ويحزننى أننى لا أستطيع إجابة طلبك ، ومن الخير ألا نعكر صفو مودتنا بالتحدث فى هذا الموضوع مرة أخرى !...

ومضى عام ... وعام ، وفى الربيع زفت وحيدة إلى الباشا !

كان زوجها قصير القامة ، ناحل الجسم ، أسمر الوجه بارده ، لا يثير عاطفة ما فى نفس المرأة ، ولهذا بدأت تحس بانقباض فى صدرها وبوحشة فى نفسها ، وظنت أنها أصبحت حقاً وحيدة !

ولقد أثر فيها فى البدء عطف زوجها وحدبه عليها ، لأنه دائم الحرص على راحتها ، وتوفير أسباب الهناء لها . وما من مرة لمحت بحاجتها إلى شىء إلا أسرع فكفله لها ، وإذا حدث وأحست مرضاً أو توعكا فإنه يفنى راحته فى سبيل راحتها ، ويغمرها بعطف وحب كثيرين . كان يسرف فى خدمتها ويعده جميلاً منها لو أنها كلفته بالقيام بأى عمل من أجلها ؛ وأحاطها بجيش من الخدم يلبون نداءها لأول إشارة ، وما عليها إلا أن تأمر فتطاع ، ومع ذلك فهى تشكو وتتذمر !

أما أسعد الأوقات عندها فهى حينما يأتى «أمين» لزيارتها ، فيتسامران ويتمازحان ، ويقرأ لها أشعار الحب والغزل ، وتحدثه أحاديث الغرام والوجد ! لقد رأت فيه رجلاً جديداً يختلف تمام الاختلاف عن زوجها . وجدت فى نفسه الرقيقة الفياضة بالعاطفة ، صدى لنفسها المتعطشة إلى الحب ، وتأكدت أنها لو تزوجته لعاشت حياة كلها مرح وسعادة ، تختلف تمام الاختلاف عن حياتها

التى تحياها مع زوجها الباشا !

***

ومضى عام ... و « أمين » العاشق المغرم يرى بأن وحيدة ضرورية لسعادته كما هو ضرورى لها ! ولم يكن يستطيع أن يتصور أن وحيدة فى كنف زوج مغرم بها وعليه أن يتركها ليسلو وينمى وتنسى !

والعجيب من زوجها الباشا أنه ما شك يوماً فى نية أمين . والحقيقة أن « أمين » ما فكر يوماً أن يعبث بقريبته وينتهك حرمة الزوجية وقدسيتها، ولم يكن يخطر على بال وحيدة أنها ستستسلم يوماً ما لأمين التى تعبده عبادة أو ستعمل المستحيل للزواج به ثانية ! ولكنها امرأة ، ولكنه إبليس !

***

وفى إحدى الأمسيات المدلهمة خرج الباشا لزيارة صديق له فلم يجده . وفى ذلك الحين همت عين السماء بمطر كأنه أفواه القرب ، وازدادت الوحول واشتد زفيف الريح فناله من البرد والمطر ما لم يتحمله جسمه الواهن فوقع فريسة الحمى والمرض ، واشتد عليه المرض فجاء الطبيب ووصف الدواء محذراً الزوجة من أن تعطيه أكثر من عشر قطرات فى كل وقت وقامت فى نفسها فكرة ... شرب زوجها الدواء فنام إلى الأبد ، وانتهت حفلة الدفن ورجع الناس يعدون خصاله ويترحمون عليه ، وترك لزوجته ثروة لا تُعَدُّ ولا تحصى ، ملايين من الأصفر الرنان !

***

وهنا نقرب من الخاتمة ، فبعد المدة بشهرين زُفَّتْ وحيدة إلى زوجها الجديد الدكتور «أمين» ! الذى لم يكن يعلم مادبرته وحيدة للخلاص من زوجها والزواج به

ولقد كان من سوء حظها أن تكتب يومياتها فى مفكرة صغيرة عثر عليها أمين فقرأ فيها ما كان ، فهاله الأمر وتجاهل أنها فعلت ذلك رغبة فيه. فخرج جاءت وحيدة فهالها أن تجد مذكراتها ممزقة ، مبعثرة تتطاير من هنا إلى هناك ، وأن أمين قد خرج ...

وقضت ليلة أرقة مسهدة فيها محنة وفيها عذاب ، فضاقت فى عينها الدنيا ورمت بنفسها من النافذة فإذا هى على الأرض كومة من العظم واللحم والدم ! ...

ناجى محمود العزاوى

من روائع الأدب الروسى

رثاء !...

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف

بقلم الأديب فيصل عبد الله

فى صبيحة يوم صاح مشرق مات « عضو التحكيم » (كيريل أفانوف بابيلونوف) صريع الداءين اللذين كثيراً ما أوديا بحياة الروس : إدمان الخمر وفظاظة الزوج . . . وكان الناس فى شغل بتشييع موكب جنازته الذى كان فى طريقه إلى القبر ... إلا أن (بولافسكى) وهو صديق حميم للفقيد ، أسرع فامتطى عربة أدت به إلى صديق له يدعى (زابوكين) . ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال الخطب فائقة ، فهو يقولها أنى كان وحيثما يدعى ، فلا تعوقه سنة ولا حمى ولا سكر عن ارتجالها . . . سواء أكان فى مأتم يرثى ، أو فى حفل يلهج ويشيد ، كانت الكلم تتدفق من فيه كالماء غزيراً سلسالاً ...

وكان هذا ما حدا ببولافسكى أن يسرع إليه ، ولا سيما والخطب الذى ألم يحتاج إلى خطيب يعدد مناقب الراحل الفقيد كزابوكين ... وقال بولافسكى لزابوكين حينما لقيه :

— إننى آت لأدعوك ... فهيا يا صاح ارتد معطفك واتبعنى . لقد مات اليوم أحد زملائى ، وموكب جنازته فى طريقه الآن إلى القبر . وليس لنا فى مثل هذه الخطوب غيرك . . . ليس لنا من خطيب راشٍ مفوه سواك ... ثق يا صاح أنه لو كان الميت وضيعاً مركزه لما أزعجتك . ولكنه (الأمين) ... فلا يليق بنا أن نوسده التراب دون ما مراثٍ تلقى أو خطب تقال ...

فتثاءب زابوكين وقال :

— الأمين ؟ آه . أتعنى ذلك السكير ؟

— إنه هو ... ولكن لا تنس يا عزيزى أن مأدبة عشاء ستؤدب ، وأجر العربة سيدفع ، هيا يا صاح فما عليك إلا أن تلقى بإحدى خطبك على القبر ... وستلمس بعينيك مدى إعجاب المشيعين بك وتقديرهم لك ...

فأجاب (زابوكين) طلبه دون ما تردد ولا إحجام . . . وتكلف الحزن العميق تأهباً لما سيلاقى . ثم قال لصاحبه : إننى أعرف (الأمين) .. ذلك الوغد الزنيم .. عليه رحمة الله ! وأدركا الموكب وقد بلغ المقابر ، وحط النعش على الأرض ، ووقفت أم الفقيد وزوجه وأختها تذرفان الدمع الهتون — تبعاً للعرف — وما إن أنزل النعش فى القبر حتى أعولت زوجه وصاحت باكية : دعونى أرحل معه . إلا أنها لم ترحل معه ؛ مع أن أحداً ممن حولها لم يحل دون ذلك . ولعل ما حال دون أن تشاركه رمسه ذلك الراتب التقاعدى الذى ستتناوله . أما (زابوكين) فقد سكت حتى شمل الجمع السكون ، فأدار بصره فى الحاضرين وبدأ خطبته قائلاً :

يا ترى أبصرى وسمعى صادقان ؟! أم إننى أشهد حلماً مرعباً يبدو لى فيه هذا الرمس المظلم الرحيب وهذا الحشد الباكى الحزين ... وا أسفاه ... إنها الحقيقة . فليس ما أراه حلماً ، وليست أبصارنا — ويا للأسف — بخادعة .. إن من كان حتى الأمس يفيض صحة ونشاطاً .. قد مات ووورى فى التراب وأصبح ذكرى تستدر الدمع الساخن الغزير . لقد سلبه الردى منا ، وهو لايزال فى عنفوان قوته

وبهائه .. وأوج فتوته ونشاطه .. وإن يك متقدماً في السن ... أية خسارة منينا بها ... من ذا الذي يستطيع أن يحتل مكانه في قلوب عارفيه ... لدينا أيها السادة كثير من الموظفين .. إلا أن (بروكوفي أوزبتش) كان جوهرة يتيمة فيما كان يزدهي به ويفخر. وكان – أيها السادة – المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه ، السامي بنفسيته . لقد كان الفقيد يأبى الرشوة فلم يرتضها يوماً . وكثيراً ما كان يبدي مقته واحتقاره لمن كان يلح عليه في أخذها وتقبلها. لقد كان يرفضها كل الرفض ويزدري ضعاف النفوس ممن كانوا على نقيضه . كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه التافه على مشهد منا لزملائه المعوزين. وها أنكم الآن تسمعون بآذانكم نحيب الأرامل والأيامى اللائي كن يعشن من فيض إحسانه . لقد ذهب ذلك الذي وهب حياته للبر ، ونذر نفسه للخير ، وإنكم لا تعلمون بلاشك — أيها السادة — أنه كان أعزب ولم يزل كذلك حتى وسد التراب ... إنني لأتصوره الآن بوجهه المشرق الحليق وبسماته الحالمة العذاب ، ويخيل إلي أنني أكاد أسمع صوته الرؤوف الذي كان يفيض حناناً ويقطر رقة وإخلاصاً . فإلى رحمة الله يا (بروكوفي أوزبتش) ... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز ... وداعاً أيها الراحل الكريم ...

وكان الخطيب مبدعاً حقا في إلقائه فأحرز بهذا إعجاب السامعين . . . إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء . ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب اسم الميت على أنه (بروكوفي أوزبتش) مع أنه كان (كيريل أفانوفتش) . وثانياً أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته في تعكير صفو حياة زوجه ، فكيف يقول الخطيب إنه كان عازباً عن الزواج ؟ وأخيراً لقد كانت للميت لحية حمراء كثة ولم يك بحليقها ... فلماذا يصفه الخطيب بأنه كان حليقها ؟! ... واشتد عجب السامعين وتبادلوا الهمس والنظرات ... وهزوا أكتافهم ساخرين

وتابع الخطيب كلامه : « إي (بروكوفي أوزبتش) لقد كان وجهك شاحباً مرعباً ... إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلباً طاهراً نبيلاً ونفساً كريمة » .

وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الذهول. فقد اتجه بصره إلى ركن من الحشد، ثم التفت إلى بولافسكي زائغ البصر، وقال بتهدج : إنه حي!

— من تعني ؟ !

— بروكوفي أوزبتش . إنني أراه واقفاً عند القبر

— ومن قال لك إنه الميت ... ؟ إن الذي مات هو (كيريل إيفانوفتش) أيها الأبله ...

— ولكنك قلت لي إن (الأمين) قد مات

— لقد كان (كيريل أفانوفتش) أميناً أيها الأحمق ... لقد حل محل (بروكوفي أوزبتش) بعد أن نقل هذا ككاتب في مستهل العام المنصرم

— وأنى لي أن أعرف هذا ولم يسبق لي به علم؟!

— ولماذا توقفت عن خطابك ؟ استمر أيها البليد

فأدار زابوكين وجهه شطر القبر وواصل رثاءه وعينا (بروكوفي أوزبتش) عالقتان به تحدقان في حنق وغضب ... وما إن انتهى من الدفن وعاد المشيعون حتى أخذ زملاء (زابوكين) يلغطون ... لقد دفنت رجلاً حياً ... وأسرع (بروكوفي أوزبتش) إلى الراثي حانقاً ساخطاً : « لا بأس أيها الغبي الأحمق بخطبتك إذا كانت رثاء لميت . . أما أن ترثيني وما زلت حياً فإنها سخرية بي بليغة وتهكماً بخلق فظيع ... لقد قلت إنني لم أقبل الرشوة ولست بذي أغراض ومنافع ... ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حي إلا بقصد إدانته واتهامه ... لم يطلب منك أحد أن تصف وجهي بالمخيف المرعب ... إنها إهانة فظيعة سوف ترى مني العقاب عليها »

« بغداد » فيصل عبد الله

مغامرات فنانة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان المنزل حزيناً واجماً ... وكانت الأم الرؤوم قد نخلت مسحوقاً أسمر اللون جافياً وأخذت تعجنه ، وبحثت ابنتها (سيّدة) عن علبة الثقاب طويلاً ، ثم لم تجد بها غير عود واحد ... عود واحد من الكبريت فى هذه الليلة الهائلة من ليالى أمشير القمطرير ... وصعدت وداد فوق السطح تجمع أعواد الحطب المبللة ، وعليها أسمال لا تقى من البرد الذى كان يشك المسكينة كما تشك الإبر ... وكان الطفل الصغير طاهر يبكى ويئن ويتلوى من الجوع والبرد ، وكان يغافل أمه فيلتهم قطعاً صغيرة من عجينة السن يعالج بها بطنه الخاوى ، فلما شهدته أمه يصنع ذلك جرت من عينها دمعة غليظة كانت تجاهدها مجاهدة عنيفة ، وكانت تحرص على ألا تنذرف حتى لا تفجر أحزان العائلة البائسة ... لكن الدمعة غلبت الأم الضعيفة الواهية فجرت على خدها الشاحب المتقع ... ولمحتها سيدة فتفجرت بالبكاء الذى كانت تحبسه ، فلما نزلت وداد ورأت هذا المنظر قالت ضاحكة :

— أنت تبكين يا أماه !

— كلا يا ابنتى . إنها دموع تغلبنى من البرد . يالها من ليلة !

— وأختى سيدة ؟ أتبكين يا سيدة ؟

ولكن سيدة لم تكن تبكى فحسب ... إنها كانت تذرف روحها من عينيها الجميلتين المحزونتين .

لقد حاولت الفتاة أن تخفى ما بها لكنها لم تستطع ... لقد انهمرت دموعها بشدة فقالت لها وداد :

— كلا يا سيدة ! كلا يا أختاه ! إننا لسنا بهذه الدرجة من الشقاء التى تنكأ فى فؤادك مثل هذا الألم ... يجب أن نصبر ... إن الله القدير ينظر إلينا وهو بنا لطيف خبير . . . افرضى أننا جلسنا حول هذا العجين نبكى طول الليل، فماذا يكون حالنا؟ هل تخبزه دموعنا ؟

فنظرت إليها سيدة ، وهى تكفكف دمعها ، وراحت تقول :

— أنا والله لا أبكى لحالى يا أختاه ... إنما يبكينى ما يقاسيه أخى من الجوع ...

فضحكت وداد ثم قالت :

— أى جوع وقد تغدى منذ ثمانى ساعات فقط !

فقالت سيدة :

— ثمانى ساعات ! وكيف ؟ إن لنا يومين لم نذق خلالهما طعاماً !

فقالت وداد :

— يومان، كيف؟ وحبات الأرز والعدس التى سفها طاهر بعد الظهر ؟

وتبسمت الأم المحزونة ، ثم أومأت إلى سيدة أن تشعل النار فى الفرن .

لشد ما كانت الريح تعصف هذه الليلة ! ولشد ما كان البرد والصقيع يلفحان هذه الدار الواهية ! يا للفقراء !

توفى الشيخ محمد (الفقي) عن هذه الأسرة الشقية ، ولم يترك لها ما يقيم أودها إلا بر أصدقائه وعطف عارفيه إن كان بر الأصدقاء وعطف العارفين يقيمان فى هذا الزمان أودا أو يسدان رمقاً أو يستران عورة ، أو يمسحان تلك الدموع التى فجرها ألم البرد وأنين الجوع وزمهرير أمشير فى تلك العيون الشقية البائسة !

لقد كان المغفور له يشترى بآيات الله ما يتصدق به المرزءون عند المقابر ، وما يشترون به رحمة الله يستنزلونها فوق الأجداث بالعيش والكعك والملاليم وأوصال القصب . . . وكان المغفور له محبوباً من الناس لأنه كان يخدم جميع الناس ، ويقضى لهم حوائجهم ، ويحمل أطفالهم ، ويحميهم مكر الطريق وأذى الكلاب ... وكان قنوعاً لا يساوم فى أجر ولا يلحف فى طلب ولا يثقل فى سؤال ... وأحسب هذا هو الذى حبب الناس فيه ... فهم كانوا يستغلون قناعته البائسة فى نقصه أجره ، وهذا من ألأم طباع الناس ...

وكان الشيخ محمد يحرص على إعزاز عائلته حرصاً شديداً برغم هذا العوز الذى كان ملاقيه ... فلم يكن يسمح لزوجته أو ابنتيه بالذهاب إلى منزل أحد من أعيان المدينة فى حاجة مما يدفعهن الفقر إلى سؤالها ... ورفض ألف مرة ما عرضته عليه زوجته من الخدمة فى منازل الأغنياء « لأنه ابن أصل وحامل لكتاب الله » ، كأنهم قالوا إن زوجة ابن الأصل وحامل كتاب الله لا يجوز لها أن تخدم الناس ولا أن تساعد نساء الأغنياء فى الغسل والخبز ولوازم المنازل . فتساعد بهذا زوجها الشقى بما يؤجرها به عملها ، وتخفف من ضغط ما يصنع الفقر بأبدان أبنائها وما يشيع فيها من مرض وجوع ووصب ...

على كل حال . . . هذا قانون تصنعه العزة ويشرعه التعفف ومصدره الفضيلة والحياة فى نفوس الفقراء ... وهذه هى الغرائز التى فصلت بيننا وبين الحيوانات فجعلت لنا تيارات من التفكير ندفع ثمنها برغمنا أحزاناً ودموعاً وشكويات

وكانت سيدة ابنة الشيخ محمد فتاة ممتلئة الجسم بضة المظهر ، لها ابتسامة يحسبها الرائى مفتاح القنص . . . وكانت تلفت الأنظار إذا خطرت فى الطريق بقدميها الحافيتين الجميلتين البيضاوين، وبجسمها المشوق الملتف فى الملاءة السوداء الساحرة .

وكان للشيخ محمد صديق حدث السن ابن تاجر غنى يسمى خالداً ، وكان هذا الصديق مولعاً بسيدة ولعاً شديداً ، وقد دخل غرامه بها إلى فؤاده عن طريق قدميها . فكان غراماً قذراً لأنه نشأ من التراب وتمرغ فى الطين، ولم يكن كهذا الغرام الذى تبثه العيون النجل فتطهره بالنار وتصهره بالسحر وترفعه إلى السماء .

وقد ظن خالد أن موت الشيخ محمد سوف يسهل عليه قضاء لباناته من الفتاة التى خلبته وسلبت فؤاده وأقامته وأقعدته فى هوى مبرح وغرام متقد وفكر سابح فى جسمها البض ، وقدها الغض ، وجمالها الفينان

وكانت سيدة تعرف ما ينطوى عليه خالد من حبها لكنها كانت تعرف أيضاً أنه يريدها للشيطان

وليس يريدها الله الرحيم الرحمن ، فكانت تشيح عنه دون أن تقطع حبل أمله، وكانت تصلى لله أن يهديه إلى سواء الحب ، فيثور على تقاليد البيئة ، ويتفتح لها بقلبه ، كما تفتح لها بجسده ، فيتقدم إليها خاطباً لا أن يقعد لها بكل طريق حاطباً . . . على أنها مع ذلك لم تحبه قط ، بل إنها لم تمل إليه ولو أقل الميل وأهونه ...

أما وداد فكانت فتاة مرحة لا ترى أن يكون الفقر سبباً لهم أو طريقاً إلى ألم ... لقد كانت تشدو شيئاً من التعليم حصلته فى كُتّاب القرية ، وكانت لذلك تشدو كثيراً من آيات الله وقليلاً من القصص الدينى . . . وهذا الكثير من آيات الله والقليل من القصص الدينى إذا صادفا ذهناً مستنيراً كانا غناء لفتاة فى مثل ظرف وداد وفى مثل طلاقتها وإيناسها وحدة ذكائها

وكانت مع ذلك جميلة ولو لم تبلغ من ذلك جمال أختها ، لكن جمالها القليل كان أخطر من جمال أختها الكثير . . . لقد كان جمالها خطراً عظيما على كل قلب غرير ونفس خالية ... لقد كان لها عينان تحسنان الغمز وتجيدان التكلم وتعرفان طريقهما إلى سويداءات القلوب ... فإذا أرادت أن تثير فيها الرحمة عرفت كيف تفجر فيها الألم، فينهمر من العيون دموعاً ... وإذا أرادت أن تغرقها فى لجج الغرام فلا نجاة لها ولا خلاص سلطت عليها سهاماً مراشة تدمي شغافها بل تمزقه ، بل تشب فيها ضراماً لا ينفع فيه طب ولا حيلة معه لدواء

هاتان عينا وداد !

أما صوتها فكان سلاحاً لا يقل خطراً عن مهلكات الغرام جميعاً ... لقد كانت ترسل نبراتها فى الهواء فتحسبها موسيقى تنزل من السماء كالحيا يهتز له الروض وتتراقص تحته الأزاهير

كانت وداد بارعة فى مضغ كلامها ومطه وإرساله سهلاً هيناً ليناً ، وإمالته وترصيعه بطرف لسانها أو بمس شفتيها ..وكانت ترنه إذا شاءت فيجلجل، أو تخطفه فينقطع كالنغمة الصامتة التى تقف حين تقف أنملة الموسيقى على أحد أوتار العود

ما كان أجدر وداد بجنة من زهر وطير وأنهار من لبن وخمر وعسل مصفى تعيش فيها مع الملائكة الأطهار الأبرار ! !

ما كان أجدرها بجنة من سحر وشعر وموسيقى وغناء وحب !

ما أكثر وداد على هذا الفقر اللئيم اللعين ! !

ولكنها ليست كثيرة على هذه الأم المفئودة ، والأخت المنكودة ، والأخ الطفل الضعيف اليتيم ... ليست كثيرة على هذه الأسرة البائسة التى غال الموت عائلة فقضى عليها بالصبر والجور والحرمان . . . إنها ضحكة مكبوتة فى صدر مكروب حزين . . . إنها بارقة الأمل فى حلك اليأس وليل الشقاء البهيم ! ... فَلْتُصَبِّر أحزان أمها سعادة إذن ، ... ولتلعب فى مأساة أختها الناشبة بينها وبين خالد دور البطل .. ولتنظر كيف تعبث بعبث الزمان ، وكيف تبدد هذه الآلام والأحزان ... وكيف تحل محل والدها الفقيه فتبتز الكعك وتحتال للرغفان ، وتربى الطفل المسكين بملاليم الحزانى وصدقات الثكالى وقروش المجانين !

* * *

كان الحطب مبللاً ، وقد حرصت سيدة لذلك ألا يذهب عود الكبريت سدى فلا يكون خبز ولا يكون أكل ولا يكون دفء ، ويكون عكس ذلك جميعاً

وذهبت تبحث عن ورقة تشعلها تحت الحطب ، ولـكن عبثاً حاولت أن تجدها ... فلم يكن فى البيت من كتاب غير كتاب الله القدير ، وغير الـكتب الدينية القليلة التى كانت تقرؤها وداد فى الـكُتّاب .. وقد حاولت أمها أن تجعلها تأتى بورقة منها لا لزوم لها فتشعلها لتشتعل النـار وليخبزوا ويأكلوا ويستدفئوا ... لـكن وداد دافعت عن كتبها التافهة فى دعابة وحزم ، وأبت أن تنزع منها ولو غلافة داخلية لا تؤثر فى بهجة كتاب الديانة ، إن كان لـكتاب الديانة القـديم الرث بهجة — ولا تنقص من كتاب التهذيب شيئاً ، إن كان للـكتاب كله وزن فى هذه الليلة الليلاء التى اشتد قرها وفدح صرها

واشتد الأخذ والرد بين الأم وسيدة من طرف وبين وداد من طرف آخر ... وعبست الأم ، لأنها كانت تضيق بمزاح وداد ذرعاً ... ثم فاضت كأسها فزمجرت وراحت تسب وتشتم وتلعن الـكتب والـكُتّاب وبنات المدارس ... والحمد لله فلم تكن وداد منهن ، وإن تكن من بنات الـكُتّاب

وخشيت وداد أن تتناول الأم كتاب الديانة كله فتشعله بالثقاب لـكى تأخذ فى عملها ... وفى الحق لقد أوشكت الأم أن تصنع ذلك ... لولا أن تضاحكت وداد ثم طأمنت أمها وأكدت أنها ستأتى لها بورقتين جيدتين ينبغى أن تحرقا حالاً ، وينبغى أن تتخلص منهما الدنيا بأسرها لا هذا البيت الحزين وحده ...

وذهبت إلى غرفة النوم والاستقبال وتربية الـكتاكيت والمخزن ، وفتحت صـندوق الملابس والأطباق والقباقيب ، ثم عادت تحمل الورقتين الـكبيرتين وهى تضحك ضحكات ساخرة ، ثم أشعلت عود الثقاب ، ودب اللهب فى الورقة الأولى تحت القش ، فتصاعد الدخان الـكثيف يملأ أرجاء المنزل ، وقبل أن تنطفئ أشعلت الورقة الثانية وقد علا ضحكها وأغربت فيه حتى نهرتها أمها وصبت عليها جاماً كاملاً من الشتم واللعن والسباب ... ولـكن ذلك لم يمنع الورقة من أن تحترق وتطوى سرها معها إلى الأبد كما طوت سرها الورقة الأولى آخر الدهر

وسألتها سيدة ماذا كان يضحكها ، وكيف سرها أن تضحك على ما هم فيه من هذا الـكرب .

فقالت لها وداد : « خمنى ! »

فقالت سيدة : « وكيف أخمن ؟ »

فقالت وداد وهى (تبط) الرغيف و (تخدعه) : « يجب أن تخمنى ! »

فاستشاطت سيدة ، وحدجتها بنظرة محنقة ثم سكتت

وأكلوا لا هنيئاً ولا مريئاً ... وكان طاهر يتربص بالرغيف الأول الذى خرج من الفرن فالتهمه بقليل من الملح ؛ ثم نام فوق الفرن وتغطى ، وأخذ يرسل فى أرجاء المنزل غطيطاً مزعجاً

وانطلق المؤذن يرسل فى سماء المدينة أذان الفجر ... فنهضت العائلة المقدسة تتوضأ وتصلى ، وتتهيأ لزيارة المقابر ، وكان اليوم يوم الجمعة المبارك الذى تتردد فيه الأرواح على رموس الموتى كما يزعم الحزانى من أهل سكان القبور

وبدت لوداد فكرة خاطفة فلم تتردد فى تنفيذها قالت لأمها :

— اليوم الجمعة يا أماه ، فبم نتصدق على روح المرحوم ؟

فقالت لها الأم الموهونة :

— نتصدق ؟ ولم نتصدق يا ابنتى ، وبم ؟

— لم تتصدق ؟ ألا تعرفين لماذا يتصدق الناس؟

— أعرف لماذا يتصدقون ... ولكن الناس كلهم لا يتصدقون !

— أجل ، ولكن يتصدق خيارهم !

— وهل الذين لا يتصدقون هم شرار الناس ؟

— وماذا يكونون إذن ؟

— يكونون إما قادرين على الصدقة ولكنهم لا يفعلونها ، وإما معوزين فهم بالصدقة أحق ... أليس كذلك ؟ !

— ومن أيهم نحن يا أماه ؟

— نحن من الناس الذين لم يكن عندهم أمس غير عود واحد من الكبريت ، وغير قدحين من النخالة ...

— ولكنا أكلنا ودفئنا والحمد لله !

— الحمد لله ... هذا ما لا شك فيه ! وهل يحمد على المكروه غير الله ؟

— ونستطيع أن نتصدق أيضاً !

— ولم لا نستطيع إذا كنا أغبياء مثلك ؟

— مثلي أنا ؟ ...

— والله يا ابنتي أنا لا أدري بأي أجزاء جسمك تفكرين ؟ !

— أفكر برأسي طبعاً !

— إذن نترك لرأسك المدبر المفكر الحصول على ما نتصدق به

— إذن دعوني أنطلق إلى القرافة وحدي ، ولا تلحقوا بي إلا بعد الشروق ...

— وماذا تصنعين ثمة ؟

— لا أستطيع أن أذكر لك هذا الآن ... ولكن أرجو أن تطمئني إلى ما أنا صانعة

— إذهبي وأنا غير راضية ... واذكرى أننا فقراء إلا من الكرامة يا ابنتي

— إطمئني يا أماه

وهنا قالت سيدة :

— وماذا لو أتيت معك يا وداد ؟

فقالت .

— لا ... لا أريد أن يأتي معي أحد ... بل إن لكم موعداً فلا تخلفوه ...

وانطلقت وداد في ملاءتها السوداء الشاحبة ، وراحت تطوى الطريق الموحلة تحت قطرات الطل

* * *

المدينة ما تزال نائمة ، ولم يستيقظ من أهلها إلا عباد الله الصالحون ... وهؤلاء عادة هم الطاعنون في السن الذين ينظرون إلى شبابهم المولى فيطمعون في شباب مثله يكون لهم في جنة عرضها السموات والأرض ؛ فيعملون له بالصوم والصلاة وإدمان التفكر والضراعة إلى الله .. وهذا شيء محمود منهم، وكان يحمد لهم أكثر لو أنهم فعلوه في فتوة العمر وشرخ الشباب وعنفوان الصبا ... حين تحمد للمرء مجاهدته للنفس الثائرة والقلب الجموح والغريزة الشابة. أما هذه التقوى التي تأتي عن عجز الجسم وموات القلب وعزوف الرغبات فهي تقوى الطمع والبكاء على ما فات ... على أنها تقوى محمودة ، وهي برغم ما قامت عليه من نقص خير من شيبة تصر على الغي وتمرح في الضلالة ولا تأبى أن تعصى الله ...

كانت تتهادى وداد في غبشة الفجر بقدمين رشيقتين كقدمي دمية ، وكان الشيخ سيد أحمد قد خرج من المسجد بعد صلاة الصبح يسبح ويحمد الله ويسأله أن يمد في عمره حتى يعمل عملاً صالحاً يرضاه

وقبل أن ينحنى ليربط حذاءه حانت منه التفاتة إلى هذه الأنثى السارية وحدها فى هدأة الصبح ، وقد شدّت ملاءتها حول ردفها شداً وثيقاً فجعل يهتز ويرتج ويغازل الأبالسة والشياطين ، ويُطلق الأفاعى والشهوات ، ويسلط الفتنة على أمثال الشيخ من الصالحين الأوابين

ونسى الشيخ صلاته وتسبيحه ، وهرول وراء الفتاة دون أن يمنى بربط الحذاء ، فالتصقت الأربطة بالوحل ، وفى سبيل الشيطان ما يلقى الفؤاد الهيمان

وجعل السيد أحمد يتحنح ويرسل فى الهواء بعض ما كان يتقنه من لغة المغازلات أيام الدنيا شباب والعمر فينان والقلب مشبوب ... وكانت وداد تعرف ما أصاب فؤاد الشيخ وما انطوت عليه أضالعه ، فكانت تتخلع فى مشيتها أكثر فأكثر لترى ماذا يصنع المدنف المتصابى ... وهكذا كانت وداد خبيثة مرحة فى طريقها إلى الموتى ! !

وهرول الشيخ سيد احمد ، وأسرعت وداد ... ثم برز من الظلام فتى عريض الكتفين مشدود العضل طوال يبعث فى القلوب رهبة ، ويثير فى النفوس حالاً من الوهم لا تدرى مصدره ... فانطلق فى إثر الشيخ حتى إذا حاذاه قبض على قفاه بيد جبارة عاتية وقال له :

— إلى أين أيها الوالد !

— ومن أنت ؟

— ألا تعرفنى ؟

— كيف أعرفك وقد أرخيت هذه العباءة على رأسك كاللصوص والقتلة هكذا ؟

— أى لصوص وأى قتلة يا شيخ سيد احمد ؟

— عجباً ! أتعرفنى ولا أعرفك ؟

— إذن فاطمئن لمعرفتى إياك على الأقل

— من أنت بالله عليك ؟

— ليس من شأنك أن أذكر ذلك لك ...

— ومن شأنك أن تكسر رقبتى يا ولدى ؟

— وما قيمة رقبة تخرج من المسجد لتنطلق وراء امرأة كالكلب المسعور هكذا ؟

— أنا يا ولدى ؟ أستغفر الله ... أستغفر الله !

— أحقاً تستغفر الله يا شيخ سيد احمد ؟

— أستغفره وأتوب إليه . . . لقد تركنا هذه الصبوات لكم يا شباب العصر

— إذن أين كنت معتزماً أن تذهب ؟

— أزور مقابر المسلمين

— وماذا لك فى مقابرهم أيها الأب !

— عظة وعبرة لمن لا يتعظ ولا يعتبر يا . . . ما اسمك إذن !

— أنا ... أنا عزرائيل !

— أعوذ بالله منك يا سيد عزرائيل ... أترك رقبتى جعلت فداك !

— لن أتركها حتى تصدقنى ... ألم تكن تتبع هذه المرأة الردّاح ؟

— والله إنك لا ذوق عندك !

— وكيف ؟

— لا أنت تركتنى فى سبيلى ولا أنت الذى تسرع حتى ...

— حتى ماذا يا سيد أحمد ؟

— حتى لا تفوتنا يا خبيث !

— إذن هلم ...

وانطلق الشيخ والفتى فى إثر وداد ، وكانت قد ابتعدت كثيراً عنهما ، بيد أنهما لحقا بها بعد جهد ، وكان الطريق قد انعرج ناحية المقابر ، وكانت

رهبة الأبدية تنشر ظلالها ثمة ، وأشباح الموتى ترف فى فجر أمشير ، لـكنها لم تكن تثير الرعب فى قلب وداد اللعوب ، ولا تردع الرجل والشباب عن متابعة الفتاة .

قال الشيخ وقال الفتى له :

— هل صليت الصبح يا ... سيد عزرائيل ؟

— صليته ما فى ذلك شك ...

— وماذا أفادتك صلاتك، وقد جعلها الله لتنهى عن الفحشاء والمنكر ؟

— إنها إن لم تنهنى هذه المرة فإنها سوف تنهانى يوماً ما ... لـكنك أنت ... هل صليت ؟

— إنى أغالب نفسى على الصلاة فلا أستطيعها وأسأل الله أن يهدينى قريباً

— ومتى تنتظر أن يهديك الله ياسيد عزرائيل ؟

— أحسب أننى لن أهتدى قبل أن أتزوج

— وماذا يمنعك من الزواج ؟

— لا يمنعنى شىء ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— أخشى ألا أهتدى بالزواج كما لم تهتد أنت به !

— ستعود إلى رذالتك من جديد .. أسرع .. أسرع يا مغفل ... لقد فاتتنا الفتاة ...

* * *

وكانت وداد قد فاتتهما بالفعل، وكانت قد غابت عن أنظارهما كأنما ابتلعتها المقابر

ماذا هنا فى هذا العالم الثانى ؟ !

لماذا يبكى الناس كثيراً هنا ؟

هل هو الفراق الذى يفجر دموعهم ويملأ أفئدتهم أحزاناً ؟ !

هل نحن فى هذه الدنيا الخاتلة أحسن حالاً من سكان هـذا العالم الثانى ؟ لا أحسب أن الفراق هو الذى يبكى الناس . إنه الفزع من ظلام القبر وديدانه . الفزع من أن يأتى اليوم الذى نغيب فيه فى ظلمات التراب وتأكلنا ديدانه ... نحن نخاف على أنفسنا ؛ ولذلك فنحن نبكى علينا لا على ذوينا . وإن يكن منا قليلون يبكون على أحبائهم !

أية فلسفة فارغة هى هذه الفلسفة ؟ أين وداد ؟ .

آه ! ها هى ذى جالسة على الثرى تتلو آيات من الـكتاب ! حقيقة إن فى الدنيا جمالاً هو الذى يحبب الناس فيها حتى ليؤثروها على كل شىء ، حتى على الحياة الباقية ... !

ما أجمل ما يرتل القرآن قبل الشروق بصوت ساحر هادئ رقيق مثل صوت وداد ؟ ! هـذا هو القرآن المشهود ... قرآن الفجر !

لقد اجتمع الناس من كل صوب ليسموا إلى هذا الترتيل كأنه ينطلق فى آذانهم من مزمار داود ... ثم سكتت وداد، فدست الأم المحزونة الجالسة فوق ثرى ابنها قطعة فضية من ذات القرشين فى يدها، وأقبل الناس يدسون فى اليد نفسها قروشاً كثيرة تهللت لها أسارير القرئة الجريئة . ولما انتقلت فى صف آخر من المقابر القريبة وجدت أخانا الشيخ سيد أحمد عند قبر منفرد يتحدث إلى صاحبه الذى يسمى نفسه عزرائيل ، فلما شاهداها صمتا . . . ثم رأى الشيخ أن يمزح كأن فرصة المزاح كانت مؤاتية ، فقال لها وقالت له :

— ألك فى صورة تقرئينها على موتانا يا ست الشيخة ؟

— ولم لا ... أنا مستعدة يا شيخ سيد !

— يا خبر ! أنت تعرفيننى ؟

— وكيف لا أعرفك وقد كنت صديق والدى!

— والدك !

— أجل والدى ! هل نسيت ؟

— ومن والدك يا ست الشيخة ؟

— يا للوفاء ويا للأوفياء !

— لست أذكر ! من أنت ؟

— ألا تعرفنى ؟

— لى الشرف !

— ما دام لك الشرف فاسمعنى أقرأ لك أولاً

— تفضلى !

— آمل أن يروقكما ترتيلى ... أليس كذلك يا سيد خالد ؟

— خالد ؟ ومن خالد ؟

— صديقك هذا . . . أليس هو خالد أفندى عبد النبي ؟ !

وجذب الشيخ سيد أحمد الغطاء عن رأس صاحبه فإذا هو خالد عبد النبي حقيقة ... وقد عجب عجباً شديداً كيف لم يعرفه وقد ماشاه كل هذا الوقت من مسجد ولى الله إلى هذا العالم الثانى !

ولكن كيف عرفت وداد خالداً ؟ ! المسألة بسيطة جداً ... إن هذا الجسم الممتلىء الذى اكتنز عضله ليس لأحد فى البلدة إلا لخالد . . . وقد كان خالد المدنف بسيدة بنت الشيخ محمد يحوم حول حمى حبه فى مثل هذا الوقت من كل فجر . . . وكانت وداد تعرف هذا الأمر ، وكانت غيرة خفيفة تدب فى قلبها من أجل أن القنص ليس قنصها ، فلما خرجت هذا الفجر قاصدة إلى القرافة كان خالد يقطع الطريق أمام المنزل الفقير جيئة وذهوباً . . . وقد عرفته برغم العباءة الكبيرة التى كان يخفى فى ثناياها رأسه ... أما هو فقد تبعها بعد أن عرفها ليرى إن كانت الفرصة تسنح ليخاطبها عن سيدة ؟ لكنها كانت خبيثة ، وكانت تعرف أنها ذاهبة إلى المقابر لترى إن كانت تستطيع أن تصل عمل المغفور له والدها العزيز الراحل . . . لذلك لم تتلكأ ليكلمها خالد ، حتى كانت أمام المسجد ، وكان ما كان من لقاء الشيخ سيد أحمد للسيد عزرائيل ...

وتربعت وداد على الثرى المبلل وأخذت فى ترتيل آيات الذكر الحكيم ... فلما رتلت : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...) جعلت ترددها فى خشوع وخشية ، وكان الأفق الشرق قد بدأ يصطبغ بأمواه الورد والبنفسج ، وكانت حواشى السحاب الرائع تنشر فى الشرقين أذيالها فتضاعف جلال الترتيل ، وتمتزج بالصوت البكر والقراءة العذرية ، ثم تترقرق جمالاً وتقوى فى قلب خالد وفؤاد سيد أحمد ، الذى عرف من صاحبه أن الفتاة هى ابنة صديقه الشيخ محمد رحمه الله

وختمت وداد آياتها ، ثم همت بالانصراف ، فمد خالد يده بقطعة فضية كبيرة ، وكذلك صنع الشيخ سيد أحمد ، ودست وداد القطعتين فى جيبها ثم ذهبت من طريق ، وذهب الرجلان من طريق آخر ، كما ذهبت الشياطين كلها من طرق شتى وفى وجوهها حسرة ، وفى أفئدتها تلدد ، لما أصابها من الفشل فى أداء مهمة الشر التى أبقت من الجنة بسببها ؛ والتى من أجلها قاسمت الله العلى أن تقعد للناس صراطه المستقيم .

* * *

— لماذا لم تحضروا لميعادكم ؟

— كان أخوك نائماً فخشينا أن نتركه وحده ...

عسى أن يكون الله قد فتح عليك يا وداد ! !

— الحمد لله حمداً حتى يرضى !

— وما هذا الذى فى (طرفك) إذن !

— خير كثير ومال !

— مال !

— ولم لا يكون مالاً ؟

— ومن أين لك المال يا ابنتى !

— كما كان أبى يصنع صنعت !

وجلست وداد تمد الرغفان والكعك، وأقبلت سيدة وأقبل معها أخوها على أوصال القصب يمصانها بشغف ، وهما بين الفينــة والفينة يقضمان كعكة أو يأكلان قطعة من العجوة المقشورة الملبسة بالسمسم وكلما أبدت الأم انتقاداً لما صنعت وداد راحا يجادلانها ألا سبيل إلى (الستر) إلا هذا السبيل ! !

أما النقود فقد أربت على الخمسة وعشرين قرشاً فكانت وحدها أكبر برهان على عبقرية وداد وصحة براهين سيدة ، وعقم مرارة الأم وفساد انتقاداتها

***

اشتهر أمر وداد القرئة ومحيية ليالى المولد النبوى فى كل القرى المجاورة ، وأخذت أنهار الخير تنصب فى البيت البائس الفقير حتى عمرته ، وحتى بدلت أتراحه ، وما راع الناس إلا هذه العمارة التى جددت شباب المنزل وكسته بالبلاط ودهنت بابه وشبابيكه فأصبح (ڤيللا الشيخ محمد ! !) ، كما كان الخبثاء من أهل المدينة يسمونه ! !

ترى ! ماذا كان يختبئ فى أعماق وداد من الأمانى والآمال ! ! إن الله قد وهبها مسحة من الجمال الساحر الغامض تكفى لأن تكون رأس مال امرأة تريد أن تلعب دورها فى الحياة بمهارة ... فما بالها إذا كان الله العلى قد زودها بهذا الصوت الساحر الذى أخذ يلعب بألباب الجماهير ويخلب أفئدتهم ، والذى لا تنقصه إلا صنعة قليلة وإلا عود مرن ، أو وتر مرنان لينطلق مدوياً بين أصوات الفنانين !

وبعد ، فلقد ضاقت البلدة الصغيرة بعبقرية الفتاة ، وأخذ الطائر المختبئ فى صدرها يهفو إلى جنات أخرى ... إنها تسمع إلى راديو المقهى البلدى القريب من منزلها فتتعجب كيف اشتهرت هـذه الأصوات المنكرة وكيف تدوّى فى آفاق العالم على حساب شهرة أصحابها ، فى حين تثوى هى فى هذه البلدة الصغيرة المجهولة كيوسف المحبوس وهو النبى الوفى الأمين ! !

ولكن أين تذهب وداد وفى عنقها هذه العائلة المقدسة ؟ ! إن القاهرة قريبة حقاً ، لكن كيف السبيل إليها ، وبينها وبين مدينة الملك هـذا الملاك الحارس الذى هو أمها ؟! ثم ماذا تصنع فى القاهرة الفاروقية التى لا تعرف فيها أحداً ؟

ولكن لماذا لا تجازف ؟ هل كانت تعرف أنها ستبرع تلك البراعة فى ترتيل القرآن وإحياء المولد ؟ إن كل مشروع مفتقر قبل كل شىء إلى المقامرة . وكم أمل طويل عريض قضى عليه التردد ، ولو سنده قليل من الإقدام لطار بصاحبه بجناحى نسر فى سموات المجد والشهرة .

— سأسافر غداً يا أماه إلى القاهرة ؟

— القاهرة !

— أجل ... القاهرة العظيمة

— ما هذه المفاجأة يا ابنتى ؟

— لا مفاجأة ، ولا شىء ... لقد عزمت أن أجرب حظى هناك !

— يا ابنتى لقد كبرت ، فكيف أطمئن عليك فى بلاد الغربة ؟!

— القاهرة بلاد غربة !

— ألست ستكونين بعيدة عنى ؟

— ولماذا أكون بعيدة ؟

— لا أفهم !

— ستلحقون بى بعد قليل

— كلنا !

— كلكم

— وماذا تصنعين هناك وليس فى القاهرة أحد يعرفك !

— سيعرفنى الكثيرون بعد قليل .

— وكيف تعرفين هذا !

— هاتف يا أماه ! هاتف جميل ما يزال يدعونى ويوسوس بالأمانى البراقة فى صدرى . لابد أن أتبعه لا بد أن أتبعه !

— ألا تسمعين نصيحتى يا وداد !

— وبم تنصحين يا أماه ؟

— بألا تغادرى بلدتنا هذه

— ولماذا ؟

— لأنها درت علينا أخلاف الرزق

— وهل لا تدر القاهرة أخلاف الرزق ؟

— إن القاهرة يا ابنتى بلدة عظيمة شاسعة ، وبناء الشهرة فيها من المضلات ... وليس أشأم فى حياة الإنسان من ترك ما هو فيه مما عرفه وخبره من وسائل الرزق إلى ما لا يعرفه من وسائله ، خصوصاً فى بلد مثل القاهرة . وقد كنا فى حال من الضيق قبل أن يفتح الله عليك ، فبدل الله ضيقنا سعة وشقاءنا نعيما ودعة ، فإذا سمعت نصيحتى فامكثى هنا والبثى فى تلك البلدة فهى الأهل والوطن والمحيا والممات ...

— ولماذا لا أجرب يا أماه ؟ إن لدينا من النقود ما لا نخشى معه مغبة التجربة !

— هذا كلام جميل ... لكن ...

— لكن ماذا ؟

— لكنى أخشى عليك من القاهرة يا وداد !

— ولماذا تخشين على منها يا أماه ؟

— إنها فتنة يا ابنتى ... وصنعتك أقرب ألوان الصنعة إلى فتنة القاهرة وضلالاتها ، فإذا كان الهاتف الذى يدعوك ويجذبك إلى القاهرة قوياً مغرياً ؛ فإن هاتفاً أقوى منه قد قذف فى قلبى الرعب من مشروعك هذا !

— ليس هاتفاً هو الذى قذف فى قلبك الرعب من أجلى !

— إذاً ماذا عساه أن يكون ؟

— إنه قلب الأم

— ليكن هو الذى تقولين !

— من كان يصدق يا أماه أننى أحفظ هذا الكثير من الكتاب ، ثم أحترف هذه الحرفة التى تريدين أن تربطينى ببلدتنا من أجلها ؟

— لم يكن أحد يصدق ... هذا صحيح !

— فلماذا لا أطلب المزيد من الشهرة والمال ؟

— الشهرة والمال !

— أجل ... الشهرة والمال ... أليس هذان هما أكثر جوانب الحياة بريقاً ؟ أليس كل الناس يطلبون الشهرة والمال ؟ فكرى يا أماه فى حالنا قبل أن يطير ذكرى فى هذه القرى وقبل أن تمتلئ أيدينا بالمال ... هل كان حال يسر ؟ أتذكرين ليلة

أمشير ؟ أما زلت تذكرين أخى طاهراً وهو يلتهم قطع المجين ؟

— أذكر هذا كله يا وداد ، لكن الشهرة والمال ليسا شيئاً قط ما لم يكن تحتهما دعائم من السعادة !

— وماذا يصنع السعادة كما يصنعها المال ؟

— المال وحده لا يصنع السعادة يا وداد

— هذه أقوال الفلاسفة النظريين يا أماه ، أو هى أقوال المساكين والفقراء ، وهم يقولونها ليسلوا أنفسهم ... إنها علالة يملأون بها أدمغتهم الفارغة .. إن الرجل الذى لا يسنده المال لا يستطيع أن يعرف ما هى السعادة ! يشقشق الفقراء فيقولون وماذا ينفع المال إذا أصابت الإنسان مصيبة فى صحته أو فى عرضه أو فى ولده ؟ ! كأن الفقير بنجوة من أن تصيبه المصيبة فى صحته أو فى عرضه أو فى ولده، وهى إذا أصابته فى شىء من هذا كانت مصيبته أفدح من مصيبة ذى المال ، لأن مصيبة الفقير تصادف قلباً مكتظاً ويداً فارغة أما مصيبة الغنى فتصادف عكس ذلك . إنها تصادف قلباً فارغاً ويداً مكتظة وشتان بين الحالين ... لا تصدق يا أماه أن للفقير قيمة فى عالم الحقيقة ... إن أكثر قيمته ناشئ من عطف الناس المصطنع ... وهم يقولون إن للفقير ملكات قد لا تكون للغنى ، ولست أدرى لماذا لا يكون للغنى أحسن وأكثر من ملكات الفقير ؟ على أنه إذا كان للفقير ملكات فماذا ينميها إلا المال ؟ إن الفقير محتاج لكى ينمى ملكاته إلى ملجأ أو جمعية خيرية أو غنى من أهل البر أو حكومة منصفة عادلة كى تأخذ بيده وتعينه بالمال حتى تنضج ملكاته ، فإن لم يجد معينه الذى يسنده بالمال فلا قيمة مطلقاً لملكاته ، لأنها سرعان ما تبلى ويأكلها الصدأ وتنقلب حسناتها إلى سيئات ربما دفعت الدولة أموالاً طائلة لتتقى غوائلها ...

— لقد أسرفت فى مدح المال يا وداد

— ولماذا لا أسرف فى مدحه وهو عندى كل شىء فى هذه الحياة !

— كل شىء !

— أجل ، كل شىء ، لأننا أصبحنا فى عصر تبدلت فيه الظروف القديمة؛ فتحول الناس عن صوفية الفقر إلى صوفية الغنى

— ومع ذاك ، فأنا أخشى عليك من القاهرة ؟

— وماذا تخشين علىّ منها يا أمى ؟ أتخشين أن يجرفنى تيارها ؟

— كدت أقول هذا !

— إنه تيار جميل رخى لمن يحسن السباحة فيه

— ومن ذاك الذى يحسن السباحة فى تيار القاهرة

— أنا !

— أنت ؟

— ولم لا ؟

— لأن التماسيح تسبح فيه بكثرة ، وهى كما تعلمين تسبح أحسن منك !

— إطمئنى ... فسأحمل بندقية صيدى دائماً

***

لم تستطع الأم الرءوم أن تثنى عزيمة ابنتها عن السفر إلى القاهرة ... لأن إرادة وداد كانت إرادة فولاذية لا تلين ، وفى الحق ، لقد كانت وداد تسمع هاتفاً قويا يناجيها ويلون لها الأمانى ويبهرج لها الأحلام، ويتبدى بها جالسة على عرش عظيم ممرد من

المجد والشهرة إذا هى ذهبت إلى القاهرة ، وقد استجابت لندائه ؛ فذهبت إلى المحطة بعد أن ودعت العائلة المقدسة ، وركبت القطار للمرة الأولى فى حياتها

ولقيها الشيخ سيد احمد فحياها وحيته ، وجلسا على مقعد واحد من مقاعد الدرجة الثالثة :

— إلى أين إن شاء الله يا ست الشيخة !

— ست الشيخة ؟

— يا ست وداد !

— هذا أفضل !

— ولِمْ ؟

— أنا ذاهبة إلى القاهرة ، فكيف أكون الست الشيخة ؟

— زيارة لأهل البيت أم ماذا ؟

— سأزور أهل البيت إن شاء الله ، ولكن ليس لهذا اعتزمت السفر إلى مصر !

— لعله خير إن شاء الله !

— خير ... خير عظيم إن شاء الله

ثم أخذ الشيخ يداعب ويمزح ، وذكر الفتاة بفجر أمشير ، فقالت له :

— وبمناسبة فجر أمشير يا شيخ سيد ، هل أعجبك صوتى يوما ؟!

— أعجبنى صوتك ؟ الله أكبر ؟

— لم أفهم !

— ما هذا السؤال يا ست وداد ! لقد سحرنى صوتك وهو ما يزال يرن فى أذنى إلى اليوم !

— وهل سمعتنى بعد ذلك ؟

— سمعتك كثيراً !

— وما رأيك فى صوتى بصفتك من موازين الفن فى بلدنا ؟

— رأيى !

— أجل ... أنا أسألك عن رأيك الحق ، ودع عنك محاولة إرضائى

— رأيى أنك لم تخلقى لبلدتنا الصغيرة ياست وداد!

— ولأى البلدان خلقت إذن ؟

— أقول لك الحق !

— هذا هو ما أطلبه منك

— لقد خلقت للدنيا بأسرها يا وداد ، واعذرينى إذا خاطبتك هكذا

— أنت تبالغ ياشيخ احمد ... يا شيخ سيد ... لا تؤاخذنى فقد ربكتنى

— والله إنك مخطئة فى البقاء هناك ! طيرى يا شيخة ! طيرى إلى القاهرة فهى مهد الفن ، وهى وحدها التى تتسع لك

— وماذا أصنع هناك وأنا لا أعرف فيها إلا قليلين من أقاربى !

— ماذا تصنعين ! أتركى لى هذا الأمر أدبره وأنا أضرب بك كل فنانى مصر والشرق !

— يا رجل ...

— أقسم لك يا وداد لو سلمتنى زمامك لغدوت ملكة الغناء فى مصر ؟

— ملكة الغناء ؟

— أى نعم ، ملكة الغناء ... إنى أرى ألا تقصرى حياتك الفنية على ترتيل القرآن وإحياء الموالد ... إن صوتك المطاط الرنان هو أليق الأصوات للغناء ، فلو درست الألحان وشدوت شيئاً من الموسيقى لغدوت ملكة الغناء كما قلت لك !

— كلامك جميل ولكنه لن يخدعنى

— ليس إلى خديعتك أردت يا وداد ... ثق أننى أقول لك الحق !

— وكيف لى أن أتعلم الألحان والموسيقى ؟

— هذا من أيسر الأشياء عليك إذا رضيت أن تأخذى برأيى !

— إذن ماذا نصنع !

— صديق الشيخ زكريا !

— الشيخ زكريا ؟

— أجل ... إنه يملك الألحان والعود فى ثلاثة أشهر

— ثلاثة أشهر فقط !

— بل فى أقل من ثلاثة أشهر يا وداد !

— هذه مبالغة لا شك

— ليست مبالغة ، لأنك فنانة بطبعك ، والطبع كالأرض الخصبة التى لا ينقصها إلا البذر لتعطى أكلها

— إذن ...

— اتفقنا ...

— اتفقنا يا شيخ سيد !

— وعلى ذلك نقصد من محطة مصر إلى منزل الشيخ زكريا مباشرة !

***

المال ! !

هذه هى الأنشودة الهائلة التى كانت تملأ خيال الفتاة الفنانة وداد ! المال هو كل شىء فى هذه الحياة ، إنه محور السعادة فى نظرها ... والسعادة فى نظرها هى القصور والبساتين والسفر وتملق الفقراء للأغنياء ، وشعور القدرة على قضاء الحاجيات ، والتحكم فى مقادير الخلق ... المال هو كل شىء فى حياة الأفراد كما هو كل شىء فى حياة الدول . . . أما المفلسون الذين يذمون المال ويشتمونه ، ويفضلون عليه راحة البال والصحة والحياة الهادئة فى كسر بيت حقير . فهؤلاء فى رأيها معذورون لأنهم لا يملكون أن يقولوا إلا هذا . وهم يقولونه وهم يعرفون أنهم يغالطون أنفسهم ويغالطون المنطق ، لأن الصحة فى الغالب لا تتوفر إلا للغنى ، وراحة البال كذلك هى من نصيب الغنى قبل أن تكون من نصيب الفقير ، والحياة الهادئة إن كان فى هدوء الحياة شىء من الفضل ، هى أقرب متناولاً للغنى منها إلى الفقير ، لأن الفقير يخشى الجوع دائماً وهو من خشية الجوع ينسى كثيراً من فضائل الإنسانية العالية ، فهو دائماً يتملق من هو أعلى منه ، وهو دائماً ذليل يغضى على الهوان ، ثم هو مع ذلك شديد الحقد شديد الحسد ، ثم هو منبع دائم للجرائم . فإذا عف عن الجريمة فإنه قلما يعف عن الحقد وحسد الأغنياء ؛ والدولة التى يشتد الفقر بين أفرادها هى أشد الدول انحطاطاً وأكثرها عكوفاً على الموبقات ؛ والدولة التى لا تعالج فقراءها بإصلاح أحوالهم المعاشية وفتح أبواب الرزق لهم ، لن تستفيد كثيراً بالمستشفيات والملاجئ والسجون التى لا تبنيها إلا للفقراء ، ومثل هذه الدولة معرضة دائماً للحسد الأكبر ، والحسد الأكبر هو البلشفية ، لأن البلشفية هى ثمرة حسد الفقراء للأغنياء ، ثم هى ثمرة غريزة حب التملك ، لأنه ليس صحيحاً أن البلشفية تأبى التملك ، فلقد أراد معتنقوها بادى الرأى حرمان الأغنياء من أملاكهم ليملكوها هم باسم الدولة ، والملكية هنا وإن لم تمن حق التصرف فإنها تمنى فائدتها الكبرى وهى الانتفاع

استطاعت وداد هذه الفتاة الفتية المحدودة الثقافة ، التى ازدهرت عبقريتها أول ما ازدهرت

بين القبور وثرى الموتى ، وفى بيت والدها الفقير البائس المعوز المغفور له الشيخ محمد ، استطاعت أن تفكر كل هذه الأفكار ، لأنها أفكار خفيفة سطحية تدور بخلد كثير من الناس فيما يتعلق بدولة المال ، لكنها امتازت عن هؤلاء الناس بإقدامها وحسن استغلالها لما زودها به الله من جمال قليل لكنه غامض ، وهنا مقدار فتك الجمال إذا أجيد استخدامه ، ثم هذه الحنجرة الغالية التى اكتشفتها وداد فى فجر أمشير ، وعرف قيمتها الشيخ سيد أحمد فاقترح تقويمها بالألحان والموسيقى لتكون صاحبتها ملكة الغناء فى مصر .

وقد صدق الشيخ سيد أحمد ، فقد مضت ثلاثة أشهر ثقفت فيها الفتاة عقد الموسيقى العملية ، واستطاعت أن تلعب على العود فتأتى بنغم كان له الفضل الأكبر فى تقويم صوتها ، لأنه كان كالماء والسماد صادفا أرضاً صالحة فأنبتت من كل زوج بهيج

وقد أعجب الشيخ زكريا بوداد ، وراعه منها حسن استعدادها وتوفرها على دروسه ، وكان يربكه منها جمالها الغامض ، واستطاع أن يقاوم مغناطيس الحب فى فؤاده شهرين متتابعين طويلين ، وفى الشهر الثالث صرعه التيار المنيف فباح بحبه ، ولكن ليس بلسانه بل بدموعه ، ولم تسأله وداد لماذا يبكى ، فقد كانت أذكى من تلك المنزلة لكنها داعبته بكلمات ظريفة نسى بها تباريحه ، ثم ظلت تحاصر هواه وتعبث به حتى برعت فى الألحان وألمت بدروس العود ... وحينئذ ... أخذت تقف منه موقف الفتاة التى لم يتفتح قلبها للحب بعد ، لأنه قلب يشغله أمل أوسع من الحب دولة وأقوى منه سلطاناً ، ذلك هو أمل المال .. المال قبل الحب ، لأن المال صحة وقوة والحب مرض وضعف ، ثم إن أمها لم تخش عليها من القاهرة إلا الفتنة ، وما هو من باب الفتنة من حب وغرام وضلالة أخرى

وكأنها عاهدت نفسها قبل أن تركب القطار إلى القاهرة إلا أن تحقق رجاء أمها فلا تنهزم أمام أبالسة العاصمة ، وشياطين الضلالات فيها ، فكانت دائماً تذكر ما حذرتها أمها منه ، فلم تكن تأبه كثيراً لنظرات العشاق الطائرة ، ولا لكلماتهم المصنوعة ، ولا لأشاراتهم الفاسقة التى لا يريدون بها غير وجه الشيطان ، وغير إشباع اللبانات والشهوات .

برعت وداد فى الغناء الفنى براعة هائلة ، واستطاعت أن تبتكر ألواناً جديدة من الغناء التمثيلى ثارت بها على عرف التخت الشرقى الجامد ، ولم تبال أن تمزج بين الغناء وبين الرقص التوقيعى ، ولم تزل بأختها سيدة تطن فى أذنيها بالأمانى الجميلة والآمال المعسولة حتى حببت إليها الحياة الفنية ، وجعلت تغمسها برفق فى أجواء المسارح والسينمات ، وكان أكثر همها أن تشاركها أختها فى عملها ، فقد أوتيت سيدة من الجمال نصيباً لم يتوفر لوداد ، وجمال ربات الفن هو نصف رأس مالهن ... فإذا اقتسمتا العمل فستكون وداد للغناء وستكون سيدة للرقص ، وجسم سيدة كفيل باجتذاب الجماهير ، لأنه جسم مرمرى سليم له بشرة وردية يترقرق فيها عطر ليست فيه رائحة ، ولكن فيه مغناطيس يكسبه زغب المذرية سحراً وقوة .

ولكن الرقص مازال ممدوداً فى مصر خلاعة إن لم يكن فجوراً ، والناس — أو أكثر الناس — لا يعرفونه فناً من أرفع الفنون التى لا تقل قيمة عن الشعر أو الرسم أو التصوير أو الموسيقى ، بل

يعدونه من تجارة تكسب المال بالأجسام، فهو عندهم باب الزنا . ولذلك فهم يعدون كل راقصة فاجرة تتجر بجسمها أمام الناس وتوزع محاسنها بالقروش على أبصارهم يأكلونها ساعة أو ساعتين ثم ينصرفون وقد تأججت شهواتهم بين أضالعهم ، وفى خلدهم صورة الراقصة المسكينة ما تزال تميس وتدل وتتأود وتتثنى ...

هكذا ينظر الناس فى مصر إلى الرقص والراقصات، وقل منهم من ينظر إليه نظرة أرفع من هذه النظرة وأسمى ، ولذلك فقد وقعت وداد أمام مشكلة هائلة وهى تحاور أختها كى تقنعها باحتراف الرقص، وكانت وداد قد تلقت دروساً فى الرقص التوقيعى على يدى فنان عظيم ، فلم يسعها يوماً إلا أن تدبر حيلة لتحارب فى نفس أختها النفور من تلك الحرفة الجميلة ، فدبرت حفلة مجانية فى صالة من أكبر صالات القاهرة؛ ثم دعت إليها طائفة كبيرة من علية المصريين الذين سعدوا بغنائها وعرفوا ما فيه من أسرار القوة والنبوغ ، فلبوا الدعوة جميعاً ، ولما حان موعد الغناء تجردت وداد من ثيابها العادية ثم أضفت عليها ثياب الرقص للمنظر الأول الذى أطلقت عليه اسم « أمل فتاة ! » . وكانت صور المنظر قد نقشت على ستائر المسرح بأيدى كبار الفنانين المصريين الذين أوتوا فى هذا السبيل نصيباً عظيماً من العبقرية وسلامة الذوق فى أداء المعنى وإضفاء الروح الشعرى على المنظر المطلوب... وبرزت وداد بعد إطفاء الأنوار وأخذت فى الغناء وتوزيع الرقص فى غمر جميل من الأشعة ذات الألوان المختلفة ... لله ما كان أجملها وما كان أروع تثنيها وهى تتأود فى فيض أشعة البرتقال ! لقد كان الناس معذورين فى هذه النوبة الجنونية التى أعقبت الانتهاء من عرض المنظر الأول ، والتى أطلقوا فيها أكفهم وحناجرهم تصفق وتدوى بالتحية والإعجاب ، وكانت باقات الورد والرياحين تنتثر فوق المسرح تحت قدمى وداد ، ووداد تبتسم ابتسامة رقيقة محتشمة ، وتنظر نظرة واجفة نحو أختها سيدة لتنظر ماذا تم من أثر هذا العرض فى نفسها

وانتهت الحفلة ، ونالت نصيبها اللانهائى من النجاح ، وفى اليوم الثانى ، بدأت طائفة من أكرم الهدايا تصل إلى وداد من شخصيات مصرية كريمة لا يمكن أن يكون تقديرها لما رأت من رقص وسمعت من غناء تقديراً شائهاً إبليسياً كما تعود الآخرون أن يفعلوا ؛ وقد انتقت وداد من الهدايا حلياً غالية وضعتها بيدها على جيد سيدة وفى رأسها وإصبعها ...

— أرأيت يا سيدة !

— ... ؟ ...

— هل أصابنى سوء مما فعلت يا أختاه ؟

— أنت جريئة ... جريئة جداً يا وداد !

— ولم لا تكونين جريئة أنت أيضاً يا أختى ! !

— أتمنى أن أكون كذلك ... ولكنى لا أستطيع الآن !

— بل تستطيعين ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— تتعلمين

— وماذا أتعلم

— تتعلمين ما تعلمت ... الأستاذ صادق فنان متقدم فى السن ، حميد الخصال موفور الأدب طيب السيرة ، وهو الذى تولى تلقينى هذه الدروس فى الرقص ، وهو الذى سيتولى تلقينك أيضاً !

— وأمى يا وداد ! آه لو رأتك الليلة الماضية ! !

— أمى ! وما دخل أمنا إلا فى المحافظة علينا من أن نزل ! !

— هى تعتقد أننا فى حياتنا هذه أدنى إلى الخطيئة

— لتعتقد ما تشاء ، أما نحن فنسأل الله أن يقينا مصارع الزلل

— وكيف نسأل الله أن يقينا مصارع الزلل ونحن نلقى بأنفسنا مكتوفين فى اليم ؟ !

— هذا وهم كاذب ... إنك يا أختاه ستقومين بأداء أدوار من الرقص التوقيعى التمثيلى إما بمفردك وإمامى ، ولن يشترك معنا أحد ... إن آمالى الواسعة فى عالم الفن مفتقرة إلى جسمك الخصب أشد الافتقار ... إن جسمك المشوق الممتلىء لم يخلق لشهوات الأزواج فقط يا سيدة ! إنه خلق للكفاح فى دنيا الفنون ، وثقى أن الله سيحفظنا من شياطين الإنس ما دمنا لا نقع فى حبائلهم ولا ننغمس فى خبائثهم ... فهلمى ... أعينينى يا سيدة ... يجب أن نعيش سعداء وأن ننهض بتربية أخينا الصغير ، ونضمن لأمنا آخرةً سعيدةهانئة. أما نحن .. أما أنا وأنت ، فسترين كيف يصطرع العشاق تحت أقدامنا فنختار منهم زوجينا ، فإذا ولى الشباب ، ولم يعد لنا رونقه الذى هو أول ضرورات الفن ، اعتزلنا الرقص والغناء ، وأقمنا فى قصرينا المنيفين إن شاء الله ، تكلأنا عينه ، ويسندنا ما ادخرناه لهذا الغد المحتوم

***

آه لو كان للرجال مثل إرادة وداد !

لقد تألق نجمها فى عالم الغناء كما تألق نجم أختها فى عالم الرقص ... وقد جُنّ الأستاذ صادق بسيدة كما جن الأستاذ زكريا بوداد ... لكن الأختين التزمتا الحفاظ أعواماً ثلاثة استطاعتا خلالها اقتناء المال الكثير والثروة الديدة ، واستطاعتا أن يكون لهما مسرح خاص أصبح قبلة رواد محبى الفن الخالص المجرد الذى لا يستعين فى استغواء الشباب بالأرداف والأفخاذ والنجوى المخنثة والخلوة التى يطير فيها الميراث وتتبدد الثروات ... وكان لزكريا برغم صدود وداد منزلة الملحن الأول فى المسرح كما كان لصادق برغم صدود سيدة منزلة مخرج أدوار الرقص ... وقد طال حب البطلين للبطلتين ، لكن الفتاتين لم تفتحا قلبيهما لأحد ... لقد أصبح جمع المال وتنمية الثروة طبيعةً لهما ... فهما لا تعرفان حباً كحب الذهب ولا غراماً كغرامهما بالأسهم والسندات والدور والقصور والمزارع والضياع ... لقد أصبح لهما من ذلك الشىء الكثير ... لكنهما مع ذاك صانتا عفافهما ، ولم تجمعا مما جمعتاه مليماً واحداً حراماً ، ولو قد التفتتا إلى جمع المال من طريق حرام لاجتمع لهما هرم كهرم خوفو من الذهب . . لقد كان غناء وداد دروساً فى الوطنية وأغاريد فى الحب والجمال وحفز الهمم إلى المعالى ، وكان غناؤها يمتزج برقص سيدة فتكون حولها جنة كلها إعجاز وكلها حور ومياه دافقة وزهر وشجر وطير وثمر يانع جناه دان ودوح غصونها حوانى ... لقد كان فنهما شيئاً جديداً فى الفن المصرى ... لأول مرة شهد الجمهور المصرى رقصاً لا يثير شهوةً ولا يتملق الغريزة الجنسية، وإن يكن جسم سيدة جسماً يانعاً يافعاً فيناناً وإن يكن لهذا الجسم اليانع اليافع الفينان ثديان يقلقلان الفؤاد الخلى ، وساقان ناعمتان مستويتان، وخصر لطيف نحيل وذراعان لدنتان ، تنتهيان بأصابع عاجية تكاد تنعقد من لين وطراوة . . أما وجهها فهو دولة كاملة من المباهج والمفاتن ، وحسب الفم تلك الابتسامة الغريرة البريئة التى لم تعرف الختل ، وحسب العينين

تلك النظرات الهادئة التى لم تتلفها الصنعة ، وحسب الجبين تلك الأشراقة التى تملأ القلوب نوراً ووضاءة، أما شعرها فقد كان فاحماً ساجياً يغدودن على الكتفين، ثم تطير خصلة منه غير مصفوفة على الجيد ، فى حين تنتثر أخرى فى الهواء ، حسب ما يتفق التثنى فى الرقص وكانت سيدة مع كل هذه المفاتن لا تثير الحيوان فى اصلاب النظارة ، بل كانت تبتعث فى أفئدتهم روعة الفن ونعمة التلذذ به ممتزجاً بسحر التصوير وجمال توزيع الضوء ... ثم ... سمو الغناء الجميل الذى كانت وداد تبعثه مع النسيم من فوق القمم ومن صميم الوديان أو من بين السحب !

وتبسم الحظ الوافر للفتاتين

لكن زكريا لم يعد يطيق صبراً على حاله المبرحة من هيامه بوداد ؟ ولا الأستاذ صادق بمطيق التجلد على هوى سيدة

— لست أدرى يا صديقى زكريا لماذا أرسلك القضاء إلىّ بهذه الفتاة ! لقد أورثنى حبها السقام ، وصرت من غرامى بها فى جحيم وفى نعيم ، وأخشى أن يحرق جحيمى جنتى !

— أسكت يا صادق ! أسكت يا عزيزى ! والله إن قصة حبنا لتثير الشجون ... إن كنت أنت فى جحيم وفى جنة ، فأنا فى علة دائمة لا أحسبها تنتهى إلا بمنيتى ... عجباً لهذه الفتاة عجباً ! إنها لغز! إنها سر غامض .. أتصدق أننى لم أستطع إلى اليوم أن أنتزع منها تصريحاً أو تلميحاً بأنها تميل إلىّ ولو بعض الميل ، ولو كصديق ، ولو كرجل لقنها ألحانها جميعاً وعلمها أسرار الموسيقى ! أنا !؟ لشد ما يحزننى أنها هزمتنى ! أنا الذى لا أعلمها إلا أحاديث الحب وكلمات الغزل وآهات الغرام ! أعلمها كل ذلك وأعجز عن ابتماث شىء ولو تافها من الحب فى قلبها !

— ألا أقول لك يا زكريا ؟

— تقول لى ماذا ؟

— لقد صرنا هرمين يا صديقى ، والبنتان فى شبابهما الريان ، ثم لا تنس أنهما أصبحتا من الغنى بمكان يبعدهما عنا كثيراً ... إنهما تطمحان إلى من هم أكفأ منا وأعلى مقاماً ...

— ماذا تقول يا زكريا !

— أقول الحق يا صديقى ... والرأى أن نظل عائشين فى ظلهما نسعد ونشقى فى وقت معاً ...

وأطرق صادق رأسه ، ثم نظر إلى زكريا وفى عينه عبرة مترقرقة توشك أن تنهمر ، ولم ينبس بكلمة

ثم نهضا ليذهبا إلى منزل وداد ... أو فيللا وداد بمصر الجديدة ، فقد كانا على موعد معها لشأن من شئون العمل

***

— أهكذا يكون جزائى يا آنسة وداد !

— أى جزاء يا رجل ؟ إن كنت فى حاجة إلى نقود فأنا أعطيك ما تريد !

— نقود ؟ أنا لست فى حاجة إلى نقودك يا آنسة !

— إذن ماذا تريد ؟

— ألا تعرفين ؟

— ومن يدرينى ؟

— إذن أريد قلبك .. أو أريد قلبى يا عزيزتى !

— لغة لا أفهمها ... إسمع يا شيخ سيد أحمد ، لا تظن أنك تكلم مطربة ممن تعرفهن فى عرض الطريق

— طبعاً ... أنا أكلم الآنسة الفنانة الكبيرة وداد بنت الشيخ محمد الفقى الله يرحمه !

— رحمه الله رحمة واسعة ، وهل فى ذلك ما ينقص قدرى !

— ومن قال إن ذلك ينقص قدرك !
— إسمع يا شيخ سيد ! كم سنة عمرك ؟
— خمس وأربعون
— وكم سنة عمرى ؟
— خمس وعشرين !
— كذاب !
— بل أكثر من خمس وعشرين !

وكانت أمها حاضرة هذا اللقاء ، وكانت أمها تود من قلبها أن تزوجه ابنتها وداداً ، لأن الرجل ليس طاعناً فى السن كما تحسب الفتاة ، ثم هو فى سعة من العيش ، ولم يكن أحد يظن أن مثل الشيخ سيد يرضى أن يتزوج بنت الشيخ محمد الفقى ، فلما جاءت مسئلة السن تدخلت وادعت أن وداداً لا تزيد عن عشرين أو إحدى وعشرين ، ثم قالت : إن شهادة ميلادها موجودة وكذلك شهادة ميلاد سيدة ، ومع أن الموقف لم يكن موقف هزل ، فقد تضاحكت وداد فجأة ؛ ثم بالغت فى الضحك حتى استلقت على كرسى الذراع القريب ، وهى ما تكاد تملك نفسها من شدة الضحك

— ماذا أضحكك يا وداد ؟
— لا شىء يا أمى ...
— لا يمكن ... لا بد أن أعرف !
— لقد ذكرت شيئاً ...
— وماذا ذكرت ؟
— شيئاً قديماً ... قديماً جداً !
— تكلمى يا وداد
— أمتأكدة أنت أن شهادتى ميلادى وميلاد سيدة عندنا ؟
— طبعاً ... ! إنى محتفظة بهما
— إذن فوني هاتيهما

— ولماذا ؟ هل أنا كذابة !
— أستغفر الله أن تكونى يا أمى ... ولكن لأراها وليقتنع الشيخ سيد

وكان خالد أفندى عبدالنبى قد أقدم مع الشيخ ليخطب سيدة فتنحنح ثم قال إنه لا يظن أن الآنسة وداد تزيد عن ثمانى عشرة سنة ، وكان تملقاً ثقيلاً ما كان أغناه عنه ... وذهبت الأم ثم عادت بورقتين دفعتهما إلى وداد التى أغرقت فى الضحك إغراقاً شديداً ، لأن الورقتين كانتا ورقتى عقد إيجار ... ثم ذكرت وداد ليلة أمشير التى لا تنسى ، وأنها جاءت لأمها بورقتى الميلاد لتستعين بهما فى إشعال النار ... فكانت تسلية ظريفة أضحكت الجميع ...
ولما هدأت العاصفة قال خالد :

— وأنا يا ست سيدة !
— وأنت ماذا يا سيد خالد ؟
— إنه ليسعدنى أن تقبلينى زوجاً
— أنا ؟
— طبعاً أنت ؟
— أنا لا شأن لى فى هذه الأمور ياعزيزى
— ولمن الشأن إذن ؟
— سل وداد !
— أسأل وداد وأمك حاضرة !
— أمى لا تجيد هذه الأمور كثيراً !

وهنا ثارت الأم وزجرت ابنتها فقالت وداد :

— تريد أن تقول إنى وإياها شريكتان فى عمل لا نستطيع أن نتركه ، وعملى وعملها لا يسمحان بالزواج يا أماه ، وإذا كان لا بد من زواج ...

وهنا دخل الأستاذان زكريا وصادق فجأة فقالا :

— فِهِمنا ... أليس كذلك يا آنسة وداد ؟

ثم قال زكريا :

— ألسنا أحق من هذين ؟

وقال صادق :

— ألسنا أحق يا آنسة سيدة

فقالت وداد :

— إذن كنتما مختبئين ؟ وسمعتما كل شيء !

فقال زكريا :

— أي والله !

فقالت وداد :

— إذن فابشرا

فقال زكريا :

— بشرك الله بكل خير يا ... يا حبيبتي !

— إذن فابشرا أننا لن نتزوج أبداً يا أستاذ زكريا

وهنا وجم الجميع ، ونهض الشيخ سيد احمد فجأة فقال :

— ومن يرضى أن يتزوج مطربة ؟

وقال خالد :

— ومن يرضى أن يتزوج راقصة ؟

ثم انطلقا غير مأسوف عليهما

قالت وداد :

— أسمعت يا زكريا ؟ أعرفت لماذا نرفض أن نتزوج ؟ أليست حياة الفن شقاء في مصر ؟ ! وأنت يا سيدة ! هل عرفت أن المال لأمثالنا هو كل شيء ؟!

دريني خشبة

الباب المفتوح

للكاتب الانجليزي الكبير « الساقي »

بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدي

تعريف

« الساقي » أو « ساكى » كما تنطق بالانجليزية هو الاسم المستعار الذى تخيره الكاتب الانجليزى الكبير هكتورهيونج مونرو لتوقيع مقالاته وقصصه العديدة التى نشرت فى الصحف والمجلات الانجليزية . وقد تخير هذا الاسم من إحدى رباعيات عمر الخيام التى يخاطب فيها (الساقى) بقوله : « إذا مررت أيها الساقى بالرفاق المنتثرين على الأعشاب انتثار النجوم ... الخ »

« وقد ولد مونرو فى بورما سنة ١٨٧٠ وماتت أمه وهو فى السنة الأولى من عمره فنقله أبوه هو وأخويه إلى نورث ديفور ليعيشوا بين جدتهم وعمتهم . وقتل مونرو فى فرنسا سنة ١٩١٦ فى إحدى معارك الحرب الكبرى . وله كثير من القصص القصيرة والمقالات النقدية البارعة . وقصة « الباب المفتوح » التى نعزبها هنا هى إحدى قصصه القصيرة الطريفة »

— ستحضر خالتى فى الحال يا مستر « نتل » ، ولكن يجب فى الوقت نفسه أن تجتهد فى إنهاء حديثك معى

بهذه الكلمات بادرت الفتاة ضيفها عند عودتها إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت قد تركته ريثما تذهب لإخبار خالتها بقدومه : وفتاتنا صبية رزينة لم تتجاوز الخامسة عشرة من سنيها

وحاول فرامتول نتل أن يتخير الكلمات اللائقة التى يستطيع أن يرضى بها ابنة الأخت الماثلة أمامه دون أن يكون فى هذه الكلمات ما لا يرضى بغير مقتضى ، الخالة التى ستحضر بعد قليل . وقد شك الفتى بينه وبين نفسه أكثر مما شك فى أى وقت مضى ، فيما إذا كانت هذه الزيارات الرسمية التى يتقدم بها إلى سلسلة من العائلات التى لا تربطه بها أية رابطة على الإطلاق ، سيكون لها أثر فعال فى علاج مرض الأعصاب المفروض أنه مصاب به ... فقد قالت له أخته وهو يتأهب لرحلته الريفية :

— أنا عالمة بما ستكون عليه رحلتك ! فلسوف تدفن نفسك حيث لا تتحدث إلى مخلوق من الأحياء ، وعندئذ تضاعف الكآبة مرض أعصابك؛ وها أنا أكتب فى الحال خطابات توصية أقدمك بها إلى جميع الأشخاص الذين أعرفهم هناك . ولقد كان بعضهم ، على ما أذكر ، وديعاً ظريفاً »

تذكر فرامتون كلمات أخته وتساءل فى نفسه : ترى مسز سابلتون التى سيتقدم إليها بعد لحظة بأحد خطابات التوصية التى يحملها ، تدخل فى نطاق هذا البعض الوديع الظريف »

وإذ لاحظت الفتاة الرقيقة أن فترة السكوت قد طالت بينها وبين الزائر الغريب سألته :

— أتعرف كثيرين من أهل هذه الناحية ؟

فأجاب :

— أكاد لا أعرف أحداً هنا . ولقد كانت أختى كما تعلمين ، مقيمة هنا فى الأبرشية منذ حوالى الأربع السنوات ، وقد أعطتنى خطابات توصية لفريق من أهل هذه الناحية ...

وصاغ الفتى كلماته الأخيرة فى لهجة تنم عن الأسف فتابعت الفتاة الرزينة حديثها قائلة :

— إذن أنت تكاد لا تعرف شيئاً إطلاقاً من أمر خالتى ؟

فأجاب الفتى :

— لا أعرف غير اسمها وعنوانها

فهو لا يدرى إذا كانت متزوجة أو أرملة . ولكن شيئاً فى الغرفة لا يستطيع أن يتبينه على التدقيق كان يوحى إليه بأن فى البيت رجالاً ... على أن الصبية لم تلبث أن قالت :

— لقد نزلت بخالتى مأساتها الكبيرة فى مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنين كاملة ، ويوافق ذلك الوقت الذي غادرت فيه أختك هذه الجهات

فسأل الفتى الذى لم يكن ليتصور أن المآسى تجد طريقها إلى مثل هذا المكان الهادئ المطمئن :

— تقولين مأساتها ؟

فقالت الفتاة وهى تشير إلى أحد الأبواب المطلة على الشرفة وكان مفتوحاً :

— قد يدهشك أن ترى هذا الباب مفتوحاً فى مساء يوم من أيام شهر اكتوبر كيومنا هذا ؟

فأجاب فرامتون :

— إن الجو دافئ بالنسبة لهذا الفصل من السنة ، ولكن هل لهذا الباب أية علاقة بالمأساة التى تشيرين إليها ؟

فشرعت الفتاة تحكى القصة الآتية :

— فى مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات خرج من هذا الباب زوج خالتى وأخواها الأصغر منها سناً ليصيدوا الطير على عادتهم اليومية ، ولكنهم لم يعودوا من رحلتهم ، لأنه عند اجتيازهم المستنقع للوصول إلى الميدان المفضل عندهم لصيد البكاشين ساخت أقدامهم فى بقعة خادعة من الأرض اللينة ، حدث هذا فى ذلك الصيف الذى كثرت أمطاره ، على ما تعلم حتى إن الأماكن التى كانت مأمونة فى السنوات الأخرى لم تقو على الثبات فانهارت ، وقد اختفت أجسامهم ولم يقف لها أحد على أثر ، وهذا هو أفظع ما فى المأساة

وما وصلت الفتاة إلى هذه النقطة من قصتها حتى فقد صوتها ما فيه من رنة الثبات وغلب عليه التأثر ، ثم مضت تقول :

— ومسكينة خالتى لا تنفك تتصور أنهم سيعودون يوماً ما ومعهم كلبهم الأسود الصغير الذى ساخ معهم أيضاً ، وأنهم سيدخلون إلى البيت من هذا الباب كما تعودوا أن يفعلوا كل يوم . وهذا هو السبب فى تركه مفتوحاً كل مساء إلى أن يهبط الغسق . وما أتعس خالتى العزيزة فلكم كررت على سمى قصة خروجهم ، إذ كان زوجها يحمل معطف المطر الأبيض على ساعده ، بينما رونى أخوها الأصغر ينشد أغنية : «لماذا تثب يا برتى» ، كما كان يفعل دائماً ليغيظها فقد كانت تقول إن هذه الأغنية تهز أعصابها ، ولا أخفى عليك يا سيدى ، أننى فى بعض الليالى الساكنة الهادئة مثل هذه الليلة ، يتسرب إلى نفسى غالباً شعور خفى بأنهم جميعاً سيعودون إلينا من خلال هذا الباب ... »

ووقفت الفتاة فجأة عن الكلام مضطربة بعض الشىء ، وأحس فرامتون بالفرج عند ما دخلت الخالة إلى الغرفة تسوق أمامها سلسلة من المعاذير

لتأخرها فى إصلاح زينتها وقالت :

— أرجو أن تكون « فيرا » قد سلتك بحديثها ؟

فقال فرامتون :

— لقد كان حديثها جد شائق

وقالت مسز سابلتون فى نشاط وخفة :

— أرجو ألا يضايقك فتح هذا الباب ، فإن زوجى وأخوى على وشك أن يعودوا من الصيد ، وقد تعودوا أن يدخلوا دائماً من هذا الباب ، ولقد خرجوا اليوم لصيد البكاشين فى البرك ، وما من شك فى أنهم متى عادوا تركوا على سجاجيدى المسكينة آثار ما تحمل أقدامهم من الأوحال ، وهذا هو شأنكم أيها الرجال ؛ فهل توافقنى على ذلك ؟ »

ومضت تتحدث فى انشراح عن الصيد وعن ندرة الطيور ، وبخاصة البط فى فصل الشتاء ، ولقد بدا هذا الحديث لفرامتون مزعجاً فظيعاً ، فحاول جاهداً أن يحوله إلى مجرى أقل فظاعة وهولاً ، فلم ينجح فى ذلك إلا بعض النجاح ، وقد تبين أن مضيفته لا توليه من عنايتها إلا جزءاً جد يسير ، ولكن نظراتها كانت تتخطاه إلى الباب المفتوح وإلى ما وراءه من حقول ومستنقعات . فما من شك فى أن زيارته هذه الأسرة فى مثل هذه الذكرى المؤلمة لم تكن إلا مصادفة جد سيئة

وصور الوهم لفرامتون أن القوم الغرباء الذين يجتمع بهم والذين هم معارف الصدفة ، عطاش إلى تعرف أقل ما يمكن من التفصيل عن مرضه وعلته ووسائل شفائه فقال :

— لقد اتفق الأطباء فى أمرهم لى بأن ألزم الراحة التامة وأن أتجنب الانفعالات النفسية ، وأن أبتعد عن كل شىء يتصل بالمجهود الجسمى ، ولكنهم غير متفقين اتفاقاً تاماً فيما يتصل بمسألة الغذاء

فقالت مسز سابلتون :

— ألم يتفقوا ؟

وكان صوتها فى هذا السؤال صوت الذى جاهد التثاؤب فى اللحظة الأخيرة . ثم لم تلبث أن ابتهجت فجأة وبدا عليها مظهر التنبه الشديد ... غير أن هذا التنبه لم يكن لحديث فرامتون . ثم صاحت :

— ها هم قد عادوا آخر الأمر فى الوقت المناسب لشرب الشاى . ألا يبدو عليهم أن الأوحال تغطيهم إلى رؤوسهم ؟

فارتجف الفتى ارتجافاً خفيفاً ، ثم نظر إلى ابنة الأخت نظرة تحمل معنى الإشفاق . وكانت الطفلة تحدق من خلال الباب المفتوح ، وفى عينيها معنى الرعب الخاطف . فدار فرامتون فى مقعده وقد أحس بصدمة مرعشة من جراء خوف لا يدرك معناه ونظر إلى حيث تنظر الفتاة

فرأى خلال الغسق الهابط ثلاثة أشخاص يجتازون الحقل متجهين إلى الباب المفتوح ، وكانوا جميعاً يحملون البنادق على سواعدهم ، وكان أحدهم يحمل ما عدا البندقية معطفاً أبيض من معاطف المطر ألقاه على كتفه ، وكان يتعقب أقدامهم كلب صغير أسود تبدو عليه مظاهر التعب . واقترب هذا الجمع فى سكون من البيت ، وإذا بصوت فتى أجش يغنى فى الغسق :

« إنى أسألك يا برتى لماذا تثب ؟ »

لم تكد عين فرامتون تقع على هذا المنظر حتى

أمسك فى عنف بعصاه وقبعته ، وفى أسرع من لمح البصر كان قد اجتاز باب الردهة والممر المرصوف والباب الخارجى كأنه السهم المارق ، حتى أن رجلاً مقبلاً على دراجة لم يتق التصادم به إلا فى اللحظة الأخيرة منحرفاً فجأة إلى السور

ودخل القادمون من الباب المفتوح وقال حامل المعطف الأبيض :

— ها نحن يا عزيزتى قد عدنا ملوثين بالأوحال ولكن أكثرها جاف . ولكن من هو هذا الرجل الذى تلاشى لمجرد ظهورنا ؟

فقالت مسز سابلتون :

هو رجل غريب الأطوار جداً اسمه مستر « نتل » لا يستطيع أن يتكلم إلا عن مرضه ، ولم يكد يراكم حتى اندفع إلى الباب خارجاً دون أن يلقى بكلمة وداع أو عبارة اعتذار ، حتى لكأنه قد رأى شبح عفريت مخيف

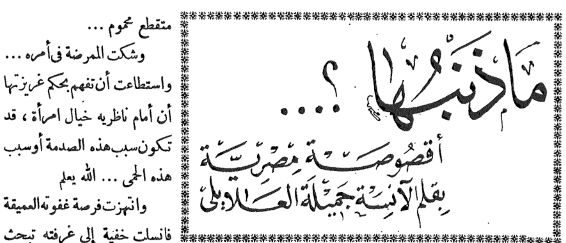
فقالت ابنة الأخت فى هدوء :

— أظنه قد خاف الكلب ، فقد خبرنى أن بعض الكلاب الضالة هاجمته مرة وطاردته حتى ألزمته الهرب منها إلى مقبرة فى ناحية ما على ضفة نهر الجنج ، وقد اضطر أن يقضى الليل فى قبر جديد لم يدفن فيه أحد بينما الكلاب من فوقه تنبح مكشرة عن أنيابها ، وفى ذلك ما يكفى لهز أعصاب أى إنسان

***

لقد كانت خاصة فتاتنا الرزينة اختراع الروايات على البداهة !

عبد الحميد حمدى



صعق الرجل عند ما بلغه خبر خطبتها وكان على يقين من أنها لن تتزوج غيره ، لأنها أحبته بدليل أنها بادلته الحب وارتضت به زوجاً، والآن ما عساه يفعل ... هل ينتقم ؟ أم يتناساها ويحب غيرها ؟ أم يسعى إليها علها تعود إليه ... ؟

وارتمى الرجل على مقعده مهموماً مفكراً يتخيلها بجمالها الرائع وروحها الساحرة وعواطفها الطاغية وعقلها النابه ...

استعاد كل ماضيه وما يحمله من ذكرى جامحة، فأحس أن خسارته بفقدها لن تعوض أبداً ... أبداً ... وأنه لن يعثر على فتاة تماثلها عفة ورقة وسحراً وذكاء ...

فما أعظم المصاب !

بكى فلم يرفه الدمع عنه !

وخرج إلى الشارع يتمشى كالشارد فاصطدم بسيارة حمل على أثرها إلى المستشفى ... وظن الأطباء أن الحمى التي انتابته من أثر الصدمة . ولو أنهم كانوا بخفايا القلوب عالمين لعرفوا موضع الداء الدفين ، ولأدركوا أن الحمى فى قلبه ، وصداها فى مخه !

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

لم يكن لديه سوى ترديد هذه الألفاظ بصوت متقطع محموم ...

وشكت الممرضة فى أمره ...

واستطاعت أن تفهم بحكم غريزتها أن أمام ناظريه خيال امرأة ، قد تكون سبب هذه الصدمة أو سبب هذه الحمى ... الله يعلم

وانتهزت فرصة غفوته العميقة فانسلت خفية إلى غرفته تبحث فى محفظته ... حتى رأت بين أوراقه رسالة موجزة من فتاة تقول فيها :

أخى الفاضل

لا أحب أن أكون أكذوبة هائلة فى تاريخ حياتك ، إذن يجب أن نسدل الستار

واستمع إلى بعقلك ولعلك لا تكون من الظالمين .

لقد تعارفنا على غير ارتقاب ، وتحاببنا لغير غاية ... ولعلك تذكر يوم لقيتنى فى منزل الخالة وقدمنى إليك زوجها ... وكان ذلك فى عيد ميلاد ابنته ... وانتهزت فرصة خلو المكان إلا منا فحدثتنى عن نفسك فى صراحة مطلقة أكبرتك من أجلها ... وصورت إلى فى مرارة ما تعانيه من حرمان وآلام من جراء يتمك ... ولم تكد تصل إلى هذا الحديث المحزن باكياً فى هدوء حتى أحسست أن دموعك خرجت من قلبك لتسكب فى قلبى ، ولذا أؤكد لك أن دموعك وحدها هى التى جذبتنى ... ثم عرجت فى حديثك على حياتك الخاصة فأفهمتنى أنك تلهو بالحسان وتقضى طوال الليل خارج الدار مع جمهرة من الشبان وعلقت على ذلك بأنك مضطر إلى هذا الفساد لخلو قلبك من الحب ولعدم توفيقك إلى امرأة تحميك وترعاك ...

وافترقنا على أمل أن نكون كصديقين أو أخوين، ولم أر غضاضة فى قبول صداقتك ما دامت تدفع عنك الضر والشر كما زعمت ...

تراسلنا وتقابلنا وحاولت جهدى أن أتخذ من رسائلى أداة لإصلاحك وأن أسيطر على عواطفك كلما قابلتك لأوجهك إلى الطريق المستقيم ...

فلم أدع صغيرة ولا كبيرة تدفعك فى طريق المجد إلا لفت نظرك إليها ...

أغريتك بكل ما فى قلبى من رحمة وبكل ما فى عقلى من ذكاء لأنتشلك من البؤرة الدنسة وأرفعك من الأوحال إلى سماء الطهر والكمال ...

فكنت تكتب إلى بأسلوب رائع لتوهمني أنك تسير فى الطريق المرجو فى غير هوادة ... وأنك على خير ما أتمنى لك من خير وفضيلة

ورغم تصرفاتك الخاطئة التى كنت أكتشفها بالمصادفة ... كنت أتسامح وأقول لنفسى من العسير أن يتحرر من قيود المجتمع دفعة واحدة ...

وفى الواقع ياأخى أنت بارع فى تلفيق الأكاذيب .. بدرجة أننى كنت أثق فيك مع أن البراهين تؤكد سوء تصرفك .. والكذب عندك غريزة. أوه ..! لطالما ضايقنى كذبك وأرقنى وأسلمنى إلى أمر الآلام وأظلم الأحلام ... ورغم ذلك كنت أريد أن أجرب قدرتى فيك ...

فكنت أتجاهل وأتسامح علّنى أنجح فى تأدية مهمتى ...

ولكن عبثاً ...

كيف أنجح وأنت بعيد عنى تعيش هناك كما يحلو لك ... مطمئناً إلى تسامحى وحبى ... فى الواقع لم أحبك ...

ولكننى اتخذت الحب وسيلة إلى إصلاحك لأنك أفهمتنى أنك لا ترتدع عن الإثم إلا إذا أحبتك امرأة ...

ولم أمقتك بل كنت أشفق على شبابك الذى يذويه الفجور وكنت أتمنى أن أخلق منك الرجل الكامل ، ثم أدع الطبيعة بعد ذلك تدنينى منك أو تقصينى عنك ...

نوهت لى عن الزواج فلم أمانع ... لا حباً فيه أو فيك ... بل رغبة فى أن أصل بك إلى مستوى أرفع من مستوى الرجال ... ضحيت فى سبيلك بمالى ووقتى وجعلتك محور تفكيرى وحسّى ... على أمل أن تصلح ولكنك كنت تقول ولا تفعل ... كنت تصارحنى بأنك ستعمل كذا وكذا ... وقد عملت كذا وكذا ... فإذا اكتشفت الحقيقة واستوضحت الأمر ... ظهر كذبك ونفاقك ...

ربّاه ... لشد ما عذبنى هذا وكنت أصبر راجية أن تكون من المهتدين ...

كانت رسائلى وحدها كافية لإصلاحك وكان حنوى وعطفى كافيين لإشباعك ... ولكنك فى الواقع خلقت لغير الحب الأكيد — صدقنى — لم يكن فى نيتى أن أحب غيرك أو أتزوج سواك؛ إذ كنت أريد أن أشعر بالتيه الخالد، لأننى خلقت رجلاً ... وعجيب أن يكون للعاطفة شيطان يحولها من الفضيلة إلى الرذيلة ومن الأمل إلى اليأس ومن الحب إلى الكراهية ...

وكان شيطان حبى ... كذبك ... فطغى عليه وحوله إلى يأس مرير

ولطالما صارحتك بذلك وقلت لك إن الرجل الذى يكذب مرة لا يصدق مرة. وأخشى أن تفقدنى بسبب

هذا الكذب فحاذر ... فكنت تدافع فى براعة المحامين ولباقة السياسيين حتى أضطر للسكوت لاعن إيمان وتسليم بل عن جد ورجاء ...

أخيراً ...

أجل أخيراً أيقنت أننا لو تزوجنا لا يمكن أن نتفق أبداً ... أبداً ... وسنكون وصمة فى جبين التفاهم الروحى الأكيد — فآثرت أن أقف بجانبك موقف الأخت البارة ترعاك من بعيد بقدر المستطاع مرحبة بالخطيب الحبيب لما بيننا من تفاهم وتآلف ... وأحمد الله الذى وحد بين قلبينا وروحينا ...

والذى أريده منك الآن ... أن تعود إلى رسائلى وأن تستعيد ذكرى كل ما قلته لترى أننى أخلصت لك يوم ظننت أنك تصلح لأن تكون مثلى الأعلى ... فلما واجهتنى بحقيقتك تنبه وجدانى ، فإذا بالحب كظلك الذى تلاشى عند ما اختفيت عن ناظرى فى آخر لقاء ...

يا سيدى ... أو يا أخى إن شئت : الحب كالبنيان تندك قوائم عرشه بالثقة ويزعزعه الشك وأخيراً يحطمه الكذب والبهتان

ونصيحتى إليك أن تحب المرأة صادقاً وتفهمها صادقاً وتكشف لها عن مساوئك صادقاً ، ثم حاول إصلاح نفسك صادقاً. إنها تدفع دمها ثمناً لهذا الصدق. والشيطان يسخر منك عند ما يحلل لك الكذب فحاذر . . . كوثر

* * *

فهمت الممرضة كل شىء ... فأشفقت على الرجل وفكرت ، أترى المرأة أخطأت ؟

وكانت الممرضة ذكية فلم تشأ أن تحكم لها أو عليها حتى تراها ...

ولكن كيف ؟

آه ... ها هو عنوانها فى الرسالة ...

إذن فلتكتب إليها فالمريض يحتضر ويدعوها ...

وظل المريض يهذى :

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

اندمل جرح الصدمة الطارئة ولم يندمل جرح القلب الدامى ...

حتى جاءته

مريض يحتضر يدعوها ؟ ... ولم تجد غضاضة فى عيادته .

وأفهمتها الممرضة فى حكمة ودهاء ... أنها بعثت إليها رحمة به لأنه يهذى باسمها وقد فهمت من هذيانه كل شىء .

فشكرتها الفتاة وولجت باب المريض فى هدوء ولهفة ... ونادته ...

فرفع بصره فى بطء ، وقد اربد وجهه فجأة ... ثم غض طرفه مليا ، وأخيراً ابتسم فى مرارة وقد انطلق وجهه وغمغم ... كوثر ...

قالت : ساءنى مصابك. لكن الممرضة طمأنتنى فالحمد لله

قال : وهل تهمك حياتى ... خير لى أن أموت

قالت : كيف لا تهمنى حياتك وأنا أرجو لك كل خير وتوفيق ...

وهنا أحس الرجل بانتعاش غريب فنسى ما كان يشغله من الهواجس القاتمة ، واعتدل فى مقعده ثم اقترب منها لتمتزج أنفاسها العبقة بأنفاسه الحرّى قائلاً : أوتذكرين يا كوثر ما مر من حلو الأيام ...

فلم تشأ أن تغير مجرى خياله وقالت : طبعاً أذكر

فابتسم وأعقب : أتذكرين يوم اجتمعنا فى غفلة

القدر تحت خميلة فى إحدى الحدائق النائية وكنا أشبه بعصفورين اليفين ضمهما الوكر فى حمى الصفاء، وأحسست يومئذ رغم حاجز العفة الذى كنت تحرصين دائماً على إقامته بيننا أننا التحفنا بغطاء واحد — لا أذكر كيف كان — أكانت ماديتنا هى التى تغطى روحينا، أم نور الحب هو الذى كان يكتنفنا حتى بتنا كأننا نور من نوره. لقد كنت أجهل موضعك منى وموضعى منك … ولما سألتك: أين أنا منك؟ أجبتنى: وأين أنا منك؟

ولم يكن كلامنا بهذه الحروف المعهودة بل كان بلغة الصمت الجليلة التى تنساب من قلب إلى قلب كما ينساب النور فى الأفق. ولما قلت لك: يخيل إلى لو أننى جردت نفسى من العفة واعتصرتك لما ارتويت أبداً … أبداً …

فأشحت بوجهك عنى حياء وابتعدت عنى ثم قلت: لأنك بقدر ما تسلب منى أسلب منك!

فانهمرت دموعى من فرط النشوة وقلت: كل يوم يزداد حسنك كأن فى معينك كنزا من الجاذبية لا يفنى

فلت برأسك دلالاً قائلة: من عند ربى. ولما عاودنى السهوم وأنت حيالى وبدا على وجهى ظلال أحلامى …

أهبت بى إلى مكالمتك … ولكننى كنت متفانياً فى نفسك سارحا فى جنبات قلبك

وظل قلبى يخفق، ونظرك ينطق

وما زلت أذكر نشيدك الذى كنت أتغنى به دائماً كأنه تعويذتى الخالدة:

أخشى عليك من العباب ... يطغى عليك بلا حساب
يا قرة العينين بل يا منيـة القلب المـذاب
تفديك روحى يا حبيبى ... فى حضور أو غياب
ما العيش بعدك فى الحياة ... سوى بريق من سراب
خـذنى إليك ونجنى ... مما أعانى من عذاب
أنا إن أعش فلأجل أن ... ألقاك عنوان الشباب
أنا إن أعش فلأجل أن ... أدنيك من كل الرغاب
أمودعى عنـد المساء ... وتاركى لضنى ارتقاب
أتخاطبى؟ مهلاً لعلى ... أن أعود إلى صوابى!
يا مهجتى الحرّى حنا ... نك قد سئمت من العتاب
ماذا علىّ إذا فتحت ... له لدى الترحيب بابى
ووهبته ما شاء من ... عطفى وحبى المستطاب
يا ويح نفسى، هل أطيق ... غيابه بعـد اقتراب؟
أأطيق وهو هو المضىء ... بخاطرى مثل الشهاب؟
يا من هدته عواطفى ... فى كل مختلف الشعاب
أبداً أحن إليك يا ... رمز الأمانى العذاب

وهنا انشرح ملياً ثم عاد يتأملها فى لهفة بادية قائلاً: غنى يا كوثر … أعيدى على مسمعى هذا النشيد … إن كلامك أعذب من أغاريد البلابل … غنى غنى …

فاغتصبت بسمة وقالت بصوت تشيع فيه المرارة:

— عند ما تعاودك العافية كاملة أسمعك أجمل الأناشيد …

فانتصب واقفاً قائلاً:

— أنا بخير … انظرى … هأنذا أتحرك … وأسير أيضاً … فى مقدورى أن أخرج الآن … ولابد أن أخرج معك … لن أتركك تخرجين وحدك

فأشفقت عليه لأن آثار الحمى كانت ما زالت ظاهرة عليه وقالت:

— لأعودك فى الغداة وأصحبك إلى الخارج … والآن يجب أن أخرج …

وحاول أن يستمهلها فاعتذرت وانصرفت وتركته واجماً ساكناً لا يبدى حراكاً كالطفل الصغير الذى تتركه أمه فيعجز عن اللحاق بها أو استبقائها بجانبه

***

مرت الأيام وهى تعوده … حتى عوفى وترك المستشفى … وطلب إليها أن تزوره فى منزله فوعدته

وانتظر فى الميعاد فلم تحضر، ومرت الأيام تباعاً ولم تعد …

وعثر الرجل على الرسالة وكان نسيها، أو لعل الحمى هى التى أنسته إياها فقرأها …

تذكر كل شىء … فثار جنونه واشتعل وجدانه مفكراً فيما يصح أن يعمله. حتى صح عزمه على أن يبعث بجميع رسائلها إلى خطيبها، وهى مجموعة موفورة من الحب المشبوب المتأجج، وفيها ميثاقها على ألا تتخذ منه بديلاً …

***

قد يتخيل المحب أن فى مقدوره أن يصفح ويغفر وأن ينسى الإثم والبهتان

وقد يسهل ذلك على المحب العاقل النبيل إلى حد ما …

وقد يعتقد المحب أن حبيبه كان يحب من قبل غيره … ولكنه لا يساير هذا الاعتقاد إذ ليس لديه ما يثبته … حتى إذا حدث ما يؤكد هذا الزعم حدث ما لم يكن فى الحسبان؛ فإما هجر لا لقاء بعده، أو شك يظل يعذب صاحبه على طول الأيام …

وخطيب الفتاة كان رزيناً حكيماً ولكنه إنسان له غرائز البشر وخصائص الحب …

لطالما قالت له الفتاة إنها عرفت كثيراً وجاملت بعض المحبين، وسارت أحياناً فى طريق الحب إذا تراءى لها عفا بريئاً حتى إذا تكشف لها عن خدعة تنحت عنه وابتعدت … وكان يستمع إليها ويسامرها دون أى عبث أو ملام …

ولكنه اليوم بعد أن تسلم رسائلها ساوره الشك واعترته الريبة؛ وفاجأها ثائراً لائماً وكأنها تبدلت من ملائكيتها إلى شيطان رجيم أمام ناظريه فاهتاج وراح يرميها بأبشع التهم وهى ساكتة هادئة باسمة …

حتى إذا انتهى قالت له: كلانا خدع فى الآخر يا سيدى … أنت ظننتنى ملكاً كريماً فأحببتنى وأنا ظننتك المثل الأعلى للرجولة الكاملة فأحببتك. والآن … ليس ثمة ما يدعو للغضب ما دمنا فى أول الطريق … فليبحث كل منا عن شريكه …

فاغتاظ وفاض شكه وقال: آه فى الطريق أكثر من رجل ينتظرك لأنك رميت شبكة الخداع على كثيرين … أصدقينى هل أحببت هذا الرجل؟

قالت: أجل، كما أحببتك قبل اليوم. فدهش الرجل لجرأتها، ولكنه ظن أنها تهاجمه فعاد يقول: ولماذا لم تتزوجيه؟ قالت: إذا خاب الحب انتصر العقل بما يكتسبه من التجارب والأهوال … أما الزواج فحياته موت لا حياة بعده مهما تجدد بظل طابع الخيبة على جبين المرأة مدى السنين … وصمتت ملياً ثم قالت: يا سيدى إن الرجل إذا أحب صدقاً يغفر للبغى إثمها … وأنت كما زعمت تحبنى … فكيف تريد أن تحاسبنى على تصرف لا تدرى كيف فعلته ولماذا؟!

إذا صعب عليك أن تغفر ذنبي في ماضي فقد صعب عليك أن تغفر ذنوبي في حاضري والإنسان لايسلم من الخطأ ... إذن إبحث لك عن فتاة لم تتعرف على أي رجل ، وأنصحك أن تأخذ طفلة لم تبلغ الرابعة من عمرها ... وتركته وانصرفت

يا للشيطان ... إنه يلعب على مسرح العقول بمهارة ...

خرج الرجل وانقطع عنها فوطنت النفس على أن ترفضه وتسلوه ...

وحاول الرجل أن يسلوها فلم يستطع لأن ثقته بطهرها من اختباراته كانت أشد تأثيراً في نفسه من شكه فيها ، ولكن يعاوده من حين إلى حين وقع رسائلها في نفسه فيأرق ويتألم ، وظل كذلك ... حتى ذلك اليوم الذي بعثت فيه أخته إلى كوثر رسالة تدعوها لزيارتها لأمر هام ...

فذهبت كوثر ، وفي نيتها أن تضع حداً للعلاقة بينها وبين أخيها وتعلن له رفض يده ...

وهناك قابلتها أخته، ودخل الخادم يطلب الأخت لمقابلة الوالد ... فخرجت وغابت ... ثم دخل الرجل ... دخل الرجل الحبيب الأول ... مفاجأة لم تكن متأهبة لها . كيف حضر إلى هنا . ولماذا ؟!

لم يترك لها الرجل فرصة لمخاطبته إذ قال : كوثر ... يدهشك أن ألقاك في منزل خطيبك ، وبعد أن عرف علاقتنا القديمة ... ولكنه نبيل كريم كما يدل تصرفه ... إذ لم يشأ أن يحطم قلبي فأباح لي لقياك هنا لنجدد العهد وقد تنازل عنك لي

فضحكت الفتاة متهكمة وقالت : ها ها ها . أتراني سلعة وأنا لا أدري !

لم تعد لي صلة بك أو به ...

فقاطعها : أنسيت حبي يا كوثر ... لقد أحببتني حباً لم تحبه امرأة لرجل وكذلك أحببتك أنا ...

فعادت تضحك ، ثم قالت : لقد أحببت طيفاً مجهولاً فيك ... أما أنت فلم أحبك ... أحببت الإنسان الذي أنشده فيك وله كنت أكتب وعليه أحنو ؛ فلما وجدت ذاتك غير قادرة على حفظ الروح الذي أهفو إليه تنحيت عنك باحثة عن مقر ذاك الروح

لقد كنت تحاول أن تخدعني بالحب لتباهي بحبي فخدعتك بالحب أيضاً لأعرف حقيقتك ؛ فلما عرفتها ارتفعت إلى سمائي ... ولعلك لاحظت فيما مضى أنني كنت أحاول دائماً أن أرفعك إلى الأفق الذي أعيش فيه موطنة النفس على القناعة بك لو استطعت الصعود إلي ... فلما فشلت وعجزت عن السمو بنفسك إلى مستواي ... تركتك في الأوحال وحدك وحلقت في عالمي النوراني هناك ... فما ذنبي أتريد أن أهبط إلى الأرض لأعيش معك لأكون محبة وفية بينا في عمق هذه المحنة الذلة والهوان ...

لماذا لم ترتفع بإنسانيتك إلى سمائي مادمت تهواني كما كنت تزعم ...

إن الرجل الذي يعجز عن السمو بنفسه في سبيل الحب لا يقدر قيمة الحب ولم يكن محباً أبداً ... أفهمت ما ذنبي إذا استغللت الحب في سبيل الإصلاح فإذا عمر الخراب به أجمل به من حب ، وإن عجز عن البلوغ بصاحبه إلى الغاية المثلى فليذهب في ذمة التاريخ الضائع ...

ماذنبي إذا ابتسمت ساخرة من عفتك في التغرير بي ظناً منك أن كل الفتيات أسيرات الكلم المعسول والحب المصطنع !

ما ذنبي إذا تغنيت بعذب النشيد مناجية الإله المجهول ، فتظنك المعنىّ بذاك القصيد ؟!

ما ذنبي إذا صعب عليك تفهم الحقيقة لتـدرك معنى الحب ؟!

وما ذنبي إذا عجزت عن إصلاح نفسك لتدعيم حياتك كما ترجو ...

فقاطعها: أنت الجانية . كان فى مقدورك إصلاحى ورعايتى ... لقد تركتنى وسط أعاصير الحياة الهوجاء

فقالت: أكنت تريد أن أحبس نفسى فى دارك لأرعاك ...

فقال : كنت أريد أن أتزوجك ...

فضحكت متهكمة ثم أعقبت : هيه ... آه ... كان يجب أن أتقدم إليك لأعقد عليك ... أليس كذلك ؟! ... معذرة يا سيدى ... كان يجب أن أفعل ذلك ...

فقال : لقد لوحت لك كثيراً فكنت تماطلين

فأجابته جادة : اسمع . الرجل الذى يريد المرأة ويتمناها لا يسألها رأيها ، ولا يستشيرها ماذا يفعل لنيلها . إنه يقتحم الطريق الشائك فى سبيل الوصول إليها ، بل يختطفها من بين ذراعى القدر إن تحداه ، أتفهم ؟

أما هذه التعاويذ الشيطانية التى يلجأ إليها الرجل ليخدر بها أعصاب المرأة ليطيل من عمر الحب لينعم ويتسلى فلا أجيزها ولا أفهمها

أنت تعرف جيداً أننى دفعت الثمن غالياً من عواطفى لإنقاذك ... ولكنك أبيت إلا أن تعيش فى الظلام فما ذنبى ...

ولقد أكدت لك أكثر من مرة أننى لم أحبك لأى غاية ولن أحبك أيضاً لغاية ... بل أحببتك لأصلحك ...

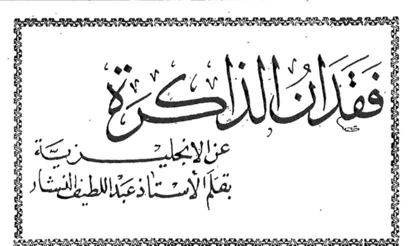
إذن لم أكن أنا التى أحببتك ... إنما هو الحب الذى سخرنى ليهديك ... فكفرت به

قال : سأكون كما تشائين ... صالحاً تقياً مؤمناً محباً وفياً ... إن قبلتنى زوجاً ؛ وإن أبيت فلأمت ، ولتنزل عليك نقمة الله ...

فقالت : الله يعلم كيف أضحى فى سبيل الإيمان به فحسبى ...

وهنا دخل خطيبها ملتفتاً إلى الرجل مصوباً إليه نظرة شزراء، ثم قال: كفى يا صاحبى. لقد فهمت كل شىء ... إنها ملك .

« المنصورة » جميلة العلايلى



« ما أغرب هذا المكان يا جيمي ؟ »

ونظرت الفتاة إلى جوانب المطعم نظرة استخفاف فقال لها صاحبها : « إياك أن يسمعك فرانسو وأنت تقولين ذلك فيطلب إليك الخروج من المطعم »

وكان فرانسو هو رئيس الخدم وقدوقف مزهواً بين الجالسين كأنه يعتقد أنه ليس فى لوندرا مطعم آخر غير مطعمه ، ومشى نحو هذين الصاحبين وقال بلهجة انكليزية مشوبة بلهجة فرنسية : « من زمن لم تأت أيها السيد ، وأنت يا آنسة هذه أول مرة تزورين فيها المطعم « نى اسباه » ؟

فقالت الفتاة وهى تبتسم ابتسامة رقيقة: «ولكن أرجو ألا تكون آخر مرة »

قال الندل : « إن الذين يزورون هذا المطعم مرة يعودون دائماً إليه لأنهم يعرفون مزاياه »

ضحكت جيمي وطلب الشاب الذى معها أصناف الطعام فذهب فرانسوا ، وقال الشاب لصاحبته : « أظنك تضايقت من هذا المطعم ولكنى أحبه وأفضله على كثير من المطاعم »

قالت جيمي : « ولماذا تظننى أتضايق منه ؟ » ثم نزعت قفازيها فبدا تحتهما كفان جميلتان أخذ يحدق فيهما وأجاب : « ذلك لأنى لا أثق بأنى أستطيع أن أفعل شيئاً يسرك »

ثم قال بصوت منخفض : « ولا أثق بأنك تحبيننى ، ولذلك أفضل الظهور معك فى مثل هذا المكان على الظهور معك فى الأماكن المزدحمة »

فتنهدت الفتاة تنهداً يدل على الحزن وقالت : « إننى أتمنى من أعماق قلبى أن أحبك فأنت عزيز عندى ، ولكن أعطنى مهلة فربما ... »

فقاطعها بقوله : « إننى لا أستعجلك ، وإننى مستعد لانتظارك سنوات »

ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال : « أنا لست راغباً فى الانتظار سنوات ولكن إذا لم يكن بد من ذلك فسأنتظر »

قالت الفتاة : « لقد ناقشت نفسى كثيراً فى هذا الأمر ولا أرى من حق أحد أن يطالب الآخر بالانتظار ، على أننى أجد نفسى أفعل ذلك وهكذا أكثر النساء »

وعادت الفتاة إلى ابتسامتها الحزينة فأجابها فى رقة : « ولكننى راغب فى الانتظار ، وأنا مكتف بما ترين إعطاءه لى ، وكل ما أتمناه أن تنسى بطرس والزمن كفيل ... »

فهزت الفتاة رأسها وعض الفتى شفته ثم قال : « وهل ترين أنه من انصاف نفسك أن تستمرى فى طريق أنت تعرفين أنه لا أمل فيه ؟ إنه لم يعد شك فى أنه قد مات ، وأنت قد نزعت خاتم الخطبة ،

أليس الأولى بالإنسان أن يواجه الحقائق ؟ »

ضحكت الفتاة ضحكة خفيفة ثم قالت بصوت يشبه البكاء : « نعم ذلك هو الأولى بالطبع ، ولكن ألا تستطيع أن تقنع بالصداقة فى البداية يا جورج؟»

فقال : « نعم أستطيع أن أقنع بها »

قالت : « إننى أشعر بأنى فقدت جزءاً من نفسى وأظننى عاجزة عن أن أحب مرة أخرى أى رجل وأنا أميل إليك يا جورج ، ولكننى لا أعرف هل أحبك كما كنت أحب بطرس ؟ »

فقال : « أنا أعرف أن ذلك هو الذى سيكون ولهذا أخاطر »

قالت جيمى : « أنت تستحق كل شيء يا جورج ولن أقاوم نفسى فى حبك إذا استطعت »

فقال : « إن أقل ما تهبينه لى أحب من أكثر ما تهبه امرأة أخرى أيتها العزيزة . ولست أريد استعجالك ولكن ها هو الفندق فوق هذا المطعم فهل تقولين نعم ؟ إنك لن تنسى هذه الليلة وأقسم إنك لن تندمى عليها »

فسكتت الفتاة لحظة ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت : « نعم ». فقال: « هل أنت راغبة يا جيمى؟» فهزت الفتاة رأسها وقالت : « إننى أعنى ما أقول »

***

بعد ساعتين عادت جيمى إلى غرفتها وأغلقت الباب ، وكانت لا تزال ترن فى أذنها قبلاته وهمساته ووقفت لحظة بجانب الموقد وهى تبتسم ابتسامة حزن ثم ذهبت إلى الحائط فوقفت أمام صورة ضابط فى فرقة الحرس ثم جثت أمام هذه الصورة خمس دقائق خالت فى أثنائها إن الصورة تفتح شفتيها وتتكلم ، فقالت : « إنه صديقك يا بطرس فأرجو أن تسامحنى أستحلفك بالحب أن تسامحنى يا بطرس »

وخالت أن الصورة تبتسم ابتسامة رفق ثم مدت يدها إلى المنضدة فتناولت خاتم الخطبة الذى أهداه إليها بطرس فقبلته وهى تبكى

وقضى جورج شهرين وهو سعيد ولم يبق غير أسبوعين على زواجه من جيمى حينما حدث هذا الحادث الفجائى الذى لا يكاد يحتمل التصديق فوجد أمامه بطرس

وكان اسم بطرس قد نشر منذ ثلاثة أعوام فى قوائم المفقودين فى الحرب . واعتقد الجميع أنه مات لانقطاع أخباره طول هذه المدة

وأحس جورج بدوار شديد ثم مشى إلى بطرس وقال بصوت يتهدج : « أين كنت يا عزيزى بطرس وما الذى تفعله هنا ؟ »

وقبل أن يجيب بطرس على هذا السؤال لاحظ جورج أن بجانب بطرس امرأة من نساء النور الغجريات فدهش وأعاد سؤاله : « ما الذى تفعله هنا يا بطرس وما الذى جاء بك ؟ »

وكانت الغجرية وبطرس يحملان بعض الألاعيب التى تلعب بها قبائل النور فى المدن الكبرى . وقال بطرس : « خفض من صوتك حتى لا يسمعك البوليس »

وقالت الفتاة : « إنه لا يريد أن يعلم رئيسه السابق فى الجيش بأنه عاد إلى إنكلترا »

قال جورج مخاطباً بطرس : « ولكن لماذا لم تخبر أصدقاءك بعودتك ؟ »

فقالت الغجرية : « إنه لا أصدقاء له غيرى »

قال جورج فى نفسه : « إذاً لم يكن الأمر غير مفهوم ألبتة فلا بد أن تكون قصة بطرس إنه نجا

من الحرب بأعجوبة وإنه فقد ذاكرته فنسى كل شىء يتعلق بالماضى

وقال مخاطباً بطرس : « ومن أى عهد تلعب هـذه الألعاب الممنوعة ؟ » فقالت الفتاة بحدة : « هذا ليس من شأنك ولا علاقة لك به فإنى أتولى شئونه »

لم يتردد جورج لحظة واحدة وكان صوت خفى يهمس فى نفسه قائلاً : « لا تكن أحمق وتجاهله فإن جيمى لن تعلم شيئاً عن أمره »

ثم قال : « لقد كان الأمر غلطة منى وقد حسبته صديقاً لى كنت أظن أنه مات » فقال بطرس: « إننى لا أتذكرك ، إننى فقدت ذاكرتى وهذه ليزا تنظر فى شئونى »

قال جورج فى رقة : « أنا أعرف ذلك وألف شكر لك يا ليزا . ولـكنى أدعوكما إلى زيارة منزلى وهذا عنوانه »

ثم كتب عنوان منزله فى ورقة وسلمها إلى الفتاة وهو يقول : « إن تركه على هذه الحالة مؤلم ياليزا وأريد أن أعرضه على أحد الأطباء »

قال بطرس : « شكراً لك ولكنى لا أريد أن أرى طبيباً » . فقالت ليزا : « بل خير لك يا بطرس أن يراك طبيب » ويظهر أن هذا الرجل رقيق القلب »

ثم التفتت إلى جورج وقالت : « ألا تأخذه منى إذا تم شفاؤه ؟ »

قال جورج بلهجة جدية : « إننى أعدك بألا أحاول أخذه منك . ولـكن عدينى أنك ستأتين إلى منزلى . إننى أطلب ذلك لمصلحته فقط »

نظرت ليزا إلى جورج نظرة بين الرجاء وبين الخوف وبعد تردد لحظة قالت : « إننى سآتى به . ولـكنه لى ولا أريد أن تنسى ذلك »

وتركهما جورج وهو يمشى متباطئاً وقدانطبعت فى مخيلته صورة ليزا وهى تنظر إلى بطرس نظرة الأم الرحيمة إلى ابنها المريض

ولم يزل يسير حتى وصل إلى حى بيكاديللى ، وليس يشغل ذهنه إلا خاطر واحد هو أن بطرس لا يزال على قيد الحياة . وكان يقول إنه من المستحيل على جيمى أن تعرف الحقيقة ما لم يخبرها بها ، وأن بطرس فى حالته هذه سعيد مع ليزا وليزا سعيدة معه . وأنه من المحتمل ألا تعود ذاكرته إليه . وما فائدتها ؟ ولماذا أكثر من الـكلام مع ليزا ؟ ولماذا دعاها إلى منزله ؟ ولماذا لا يقول إن هذا الرجل ليس هو الذى كان يعرفه ، وإنه لا شأن له معه ؟ إن تغيير حالة بطرس تضر كثيرين ولا تفيد أحداً حتى ولا بطرس نفسه ...

وتقابل مع خطيبته جيمى فلاحظت عليه التغير الشديد فقال : إن حادثاً حدث فشغله عن كل شاغل وقال : « إذا رأيتنى أبكى فلا تعلقى أهمية على ذلك » ثم استدرك فقال : « إنه لا يريد إخبارها » وتظاهر بالضحك وقال : « إنه لم يجد هدية مناسبة ليقدمها فى العرس ، وأن هذا هو الذى يشغل خاطره »

سكتت جيمى وسكت جورج أيضاً . وكان شارد الذهن . ثم قال : « أريد منك جميلاً هو أن تعطينى صورة بطرس التى عندك »

فوقفت جيمى وهى منـدهشة وكادت تنقطع أنفاسها وقالت : « ألهذا علاقة بهدية العرس ؟ »

فقال : « أريد شيئاً شبيهاً بذلك »

قالت : « ما أعزك يا جورج ! ما أعزك ! لقد كنت أفكر فى ذلك منذ عدة شهور أننى سأعطيك الصورة »

ثم صعدت إلى غرفتها وأتت بالصورة وأوصته بالعناية بها . ثم وضعت يدها على كتفه وقالت : « لا أظن الآن أنك ستنتظر مكتفياً بالصداقة مدة طويلة » .

وفى اللحظة التالية كانت وحدها . وبعد لحظة كان جورج مع الطبيب ، وكان الطبيب يقول : « هل تقول إنه فقد ذاكرته تماماً ؟ »

فأجابه : « إنه لم يعرفنى »

ثم نظر الطبيب إلى الصورة وقال : « أهذه صورته ؟ » فقال : « نعم »

— وهل علم أهله ؟

— لم يعلم أحد إلى الآن غيرى وغيرك ، وقد حصلت على الصورة اليوم من جيمى دافترى

قال صديقه الطبيب : « تعنى أنك حصلت عليها من خطيبتك ؟ »

فأجابه : « نعم وقد كانت خطيبة لبطرس وهى تظن أنه مات . وهذا هو السبب الوحيد الذى جعلها تقبل خطبتى »

ومضت فترة فى صمت وكلا الرجلين ينظر إلى الآخر . وقد كانت نظرة الطبيب مزيجاً من الدهشة والإعجاب ثم قال : « ولكن ما رأيك إذا نجحت العملية ؟ »

فقال جورج : « وهل تظن فى العالم هدية فى العالم أفضل من العريس الذى تحبه الفتاة ؟ »

قال الطبيب : « وإذا لم تنجح العملية ؟ » فقال جورج : « الله أعلم ! إننا لم نصل إلى تلك الغاية »

وفى هـذه اللحظة دخل بطرس تقوده ليزا وسألت عن الرجل الجالس إلى جانب جورج فقال : هو الطبيب

فنظرت إليه نظرة خوف ، وكان أول ما فعله الطبيب أن عرض على بطرس صورته فى ثوبه الرسمى

مشت ليزا إلى جانب بطرس ووقفت معه أمام الصورة وكانت هى البادئة بالكلام فقالت بلهجة الأم حين تخاطب ابنها المريض : « هذه هى صورتك يا بطرس . هل كنت ضابطاً بهذه الرتبة ؟ »

ثم بدت على وجهها علائم الزهو وهى تنظر إلى حبيبها وإلى صورته وهو ضابط . وقال بطرس : « لست أتذكر ، وهذه الصورة تصيب رأسى بالصداع »

وبدا عليه الغم فغضبت ليزا وقالت : « وما فائدة ذلك ؟ هذه سخرية بنا . إن هذه الصورة كادت تجننه فلماذا لا تتركه وشأنه ؟ » فقال : « لأنى أحاول أن أنبهه »

فوضعت المرأة ذراعها حول عنق بطرس وقال الطبيب : « إننى أريد أن أفحصه فى غرفة أخرى وأن أكون معه على انفراد »

فضربت الغجرية برجلها الأرض وقالت مخاطبة جورج : « هل تريد أن تترك ليزا ؟ »

قال جورج برفق : « إننا لا نريد أن نأخذه وقد وعدتك بذلك »

نظرت المرأة إليه نظرة ألم وقالت : « هل تقسم على ذلك ؟ » ؛ فلما قال إنه صادق فى وعده قالت : إنها ترى أموراً غريبة وأنها لا تفهم شيئاً مما تراه

قال لها الطبيب : « كيف وجدته ؟ » فقالت الغجرية : « وجدته ضالاً فى المجاهل التى فيها خيام قبيلتنا ، وهو لا يعى شيئاً فأخذته وعنيت به وعلمته ألعاب الغجر ، ونحن سعيدان معاً . وهو لا يتذكر أى شىء فى عهد مضى على مقابلتى إياه »

وقال جورج : « إن هـذا طبيب من أكبر

الأطباء بالبزا ، وهو يعتقد أن إجراء عملية جراحية له يشفيه من مرضه ، ويعيد إليه ذاكرته .

فقالت الغجرية : «وبذلك يعرف أنه كان ضابطاً»

وقال جورج : « نعم ويتذكر حياته الماضية كلها . وبطرسك هذا يالبزا هو السير بطرس سفوندون الذى كنا نحسبه مات فى الحرب »

ثم عرض عليها صورة فتاة وقال : « وقد كان مخطوباً إلى هذه السيدة » . فقالت الغجرية : « إنه لاينظر إلى أى إنسان إذا رأى صاحبة هذه الصورة »

قال جورج : وهى تحبه جداً يالبزا ، وهو أيضاً يحبها ، ولا أعرف أن فى العالم اثنين يحب أحدهما الآخر مثلها ومثله . وهذه الفتاة مخطوبة لى الآن »

فقالت لبزا : « وإذا شفى بطرس فإنها تتركك »

قال بطرس : « نعم هذه هى الحقيقة كما يظهر لى الآن » .

ثم ضحكت الغجرية ضحكة أدل على الحزن من الدموع وقالت : « والعمل الذى تريده الآن يجعلنى ويجعلك من أتعس الناس »

فقالت جورج : « نعم يالبزا وإنما أقول ذلك لتعلمى أن التضحية ليست من جانبك فقط بل أنا مشترك معك فيها . والطبيب يريد أن يبقى بطرس هنا هذه الليلة ليجرى له العملية غداً فانتظرى معه إذا شئت »

نظرت لبزا إلى صورة جيمى وقالت : « وفى غد تأخذه هذه الفتاة . لماذا قابلتنا ولماذا تريد أن تأخذه منى ؟ إنه سعيد ، وإننى سعيدة . لقد قلت لك إنه سعيد معى .

وقد بكت الغجرية كما يبكى الطفل وظل جورج يراقبها وهو مطرق فقالت : « إننى لا أريد شفقتك ولكنى أريد رَجُلى »

ولما رآه يتأمل فى صورة الفتاة قالت « تذكر الخسارة التى تخسرها بسبب هذه الشفقة . وإنى طالما كنت أفكر من زمن طويل فى أن بطرس ليس بالرجل الذى أصلح له ، ولكننى ألفته وألفنى »

قال جورج : «وهل أنت حسنة الحظ يالبزا ؟»

فقالت : « لقد كنت سعيدة ولكننى أخذت نصيبى من السعادة عاماً »

قال : « ما الذى تفعلين الآن ؟ » . فقالت : « ليس هذا شأنك ولكنه شأنى » . ثم خرجت مندفعة من الباب ...

وقال الطبيب بعد أن فحص بطرس إنه يعتقد أن العملية ستنجح تمام النجاح ، وأنه سيجريها فى صباح الغد ، وأرسل الخدم فأعادوا لبزا ، وطلب إليها الانتظار مع المريض ، وأن تجعله ينام ؛ فبقيت وهى تنظر إلى المريض نظرة الإنسان إلى أعز ما يملكه

***

ونجحت العملية بمعاونة لبزا. وفى الصباح التالى وجد جورج ورقة كتب عليها : « لا تبحثوا عنى — لبزا »

فلم يكن فى وسعه أن يفعل أى شئ لأنه لا يعرف عنوانها . ولو كان يعرفه لكتب إليها أن بطرس قد استرد ذاكرته ، ولكن عهداً واحداً قد اختفى من ذهنه تمام الاختفاء ؛ فهو لا يعرف أى شيء عن الأعوام الثلاثة الأخيرة . وكان من أوائل الأسئلة التى ألقاها كيف تسير الحرب الآن ؟ ونسى لبزا وعهدها !

في هذه الأثناء استبطأت جيمى صاحبها جورج فجاءت لتزوره في منزله . ولكن لما وقع نظرها على النائم في السرير اصفر وجهها وتحركت شفتاها وصارت يداها تنقبضان وتنبسطان . وصاحت : « لقد جننت ! لقد جننت ! إننى لا أصدق نظرى فهل هذا هو بطرس يا جورج ؟ »

وسمعها بطرس فالتفت ورآها وقال : « أأنت جيمى ! تعالى يا عزيزتى »

فصاحت صيحة فرح ، وجثت على ركبتيها عند سريره . فأغلق جورج الباب وخرج من الغرفة . فجلس وخواطره سابحة فى العالم المجهول . فلم ينبهه إلا مجئ لبزا . وقالت : « لقد رأيتها وهى تأتى »

قال جورج : « لقد استرجع ذاكرته يا لبزا ، ولكنه نسى الثلاثة الأعوام الأخيرة »

قالت وشفتاها ترتعشان : « هل نسينى ؟ »

فقال : « نعم يا لبزا ، ونسى ألعاب الغجر ، ونسى كل شىء فى هذا المهد . وهو يظن أنه لا يزال فى الحرب »

قالت لبزا : « وهل هى معه الآن ؟ » . فقال : « نعم هى معه »

قالت : « الأفضل أن أذهب فلا أريد أن أراه معها ، إن ذلك يكسر قلبى ، لقد أخذت نصيبى منه عاماً ودعته بالأمس »

ثم ذهبت فراقبها من النافذة فرآها تقف كلما خطت خطوتين وتتلفت إلى المنزل

قالت جيمى لجورج : « أهذه هى هديتك ؟ » فأجابها وهو يبتسم وعيناه مغرورقتان بالدموع : « نعم فهل أحببتها ؟ »

قالت : « لست أفهم ماذا حدث ولا أعرف إلا أن بطرس قد عاد »

فقال جورج : « هذا يكفى ! أليس يكفى يا عزيزتى ؟ » ثم أمسك بيدها اليسرى وأخرج خاتم الخطبة الذى كان قد أهداه إليها وهو يقول : « لا تضعى الخاتم فى هذا الأصبع ولكن احتفظى به لديك تذكاراً لى »

وهنا سمعت صوت بطرس فقالت : « ادخل فكلمه فهو ينادى » . فقال : « كلا يا عزيزتى فهو لا يريدنى وسأخرج الآن من المنزل »

ثم خرج من منزله فلم يكن المحبان فى حاجة إليه ولا إلى لبزا

ولكن كلاً أخذ نصيبه من السعادة عاماً كما قالت الغجرية .

عبد اللطيف النشار

الشيطان

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب عادل الجمال

كانت المرأة العجوز مُسجاة على فراشها وهى تعالج سكرات الموت، وترقب من بين أهدابها المرهقة ابنها وهو منتصب أمام طبيب القرية وتحاول بكل ما أوتيت من قوة وإحساس أن تتبين ماهية الهمس الذى كان يدور بينهما . كانت هادئة ساكنة رغم ثقتها من أنها ستموت عن قريب ... ولكنها كانت مستسلمة للواقع الملموس . فهى قد أكملت الثانية والتسعين من عمرها ... وهذا يعنى أنها قد أتمت رسالتها فى الحياة

وتخللت شمس يوليو النافذة ... وغمرت أشعتها الملتهبة أرض الغرفة وارتفع صوت الطبيب قائلاً بشدة:

— إنك لا تستطيع أن تترك أمك وحيدة يا « أونوريه » وخصوصاً وهى فى مثل تلك الحالة فهى قد تموت بين آونة وأخرى

وأجاب أونوريه بقلة اكتراث :

— مهما يكن الأمر ... يجب على أن أذهب لحصاد الحنطة ... وها هو ذا الجو الملائم لذلك ... ماذا تقولين فى ذلك يا أماه ؟

ورغم شعور المرأة برعشة الموت وهى تسرى فى جسدها ... فقد أشارت إلى ابنها بالموافقة وهى تحت تأثير جشعها وعبادتها للمال .

وضرب الطبيب الأرض بقدمه محنقاً وهو يهتف :

— ما أنت إلا وحش غليظ القلب ... ولكننى لا أسمح لك أن تفعل ذلك ... هل فهمت ؟ إن كان عليك حقاً أن تحصد حقل الحنطة فلا أقل من استدعاء المرأة « رابت » للعناية بأمك وأنا أصر على ذلك ... أما إذا لم تفعل ما أشرت عليك به ... فسأتركك تموت وحيداً كالكلب الأجرب إذا ما افترسك المرض بأنيابه وحانت منيتك ... فتذكر ذلك

أى أحاسيس وجلة خالجت مخيلة أونوريه فى تلك اللحظة ؟ لقد كان يخاف الطبيب الوحيد فى القرية ، ولكنه إلى جانب ذلك كان يعبد المال ويقدسه ؛ وتردد قليلاً قبل أن يسأل الطبيب فى النهاية قائلاً بارتياب :

— وكم تطلب المرأة رابت أجراً للعناية بأمى ؟

وتمتم الطبيب :

وأنى لى أن أعلم .. إنها تتقاضى أجرها بالنسبة للزمن الذى تعمل فيه ... فما عليك إلا أن تتفق معها شخصياً ... وإننى أنذرك أننى أريد أن أراها هنا قبيل مرور ساعة واحدة

— حسن .. يمكنك أن تطمئن أيها الطبيب .. هأنذا ذاهب إليها

وغادر الطبيب الغرفة بعد أن قال للشاب بلهجة تهديدية متوعدة :

— مرة أخرى ... إننى لست هازلاً فى تحذيرى إياك ...

وحين انفرد الشاب بأمه التفت إليها قائلاً بلهجة المغلوب :

— إننى ذاهب لاستدعاء الأم « رابت » كما أصر على ذلك هذا الغر ... فكونى هادئة حتى أعود ، ودون أن ينتظر إجابتها غادر الغرفة

كانت الأم « رابت » امرأة عجوزا تشتغل بكى الملابس وتنظيفها ... وإلى جانب ذلك كانت تعمل كممرضة لقاء أجر معلوم ، وكان وجهها مجعداً كتفاحة مُممرة ... وهى حقود حسود . . . ذات طبع حاد لا يمكن أن يمت للرحمة البشرية بصلة

وحين استقبلت أونوريه فى منزلها . . . كانت منهمكة فى مزج بعض الألوان لصبغ ثياب بعض فتيات القرية فبادرها قائلاً :

— كيف حالك أيتها الأم رابت ؟ هل تسير الأمور فى طريقها العادى ؟

والتفتت إليه المرأة مجيبة :

— نعم. نعم ... شكراً ... كيف حالك أنت ؟

— على أحسن حال ... إنها أمى التى تشكو

— أمك ؟ !

— نعم أمى

— وما خطبها ؟

— إنها فى طريقها نحو الأبدية وهذا كل ما هنا لك

— هل بلغ بها سوء الحال إلى ذلك الحد ؟

— لقد قال الطبيب إنها لن تعمر حتى الضحى

— إذاً لا بد أن تكون انتهت الآن ؟

وتلعثم أونوريه قليلاً . . . فلقد أراد أن يهون المهمة التى جاء من أجلها ... فكانت المرأة أشد منه دهاء .. فلم يجد بداً من مفاتحتها مباشرة بقوله :

— كم تأخذين للعناية بأمى حتى النهاية ؟ إننا يائسون من التحسن كما تعلمين ... وأنا أشفق على النساء اللاتى يشتغلن بأنفسهن .. يا لأمى المسكينة .. لقد كانت تعمل كفتاة فى العاشرة رغم بلوغها الثانية والتسعين .

وأجابت الأم رابت فى اقتضاب وتحفظ :

— إننى أتقاضى سعرين .. فللأغنياء .. فرنكان لليوم وثلاثة لليل ... أما للفقراء ... ففرنك واحد لليوم واثنان لليل ... وسأعاملك كالفريق الثانى: واحد واثنان ...

وراح أونوريه يفكر .. إنه يعرف أمه تماماً .. ويعرف مقدار مقاومتها للمرض ... فلربما عمرت أسبوعاً آخر رغم زعم الطبيب بموتها العاجل فأجاب المرأة قائلاً :

— كلا . . . إننى أريد أن أكافئك إجمالياً لإتمام المهمة .. إنه نوع من المقامرة .. فلقد أكد الطبيب أنها ستموت حالاً ... فلو تم ذلك فسيكون ربحاً لك وخسارة لى. أما إن عمرت يوماً أو اثنين . فسيكون ذلك أقل ربحاً لك وأقل خسارة لى ..

ونظرت إليه الأم رابت بدهشة ... فلم يسبق لها أن عاملت محتضراً بعقد ... وترددت لحظة ... وفجأة ... راودتها فكرة الخداع فأسرعت قائلة :

— لا يمكننى الموافقة على ذلك حتى أرى أمك

— إذن ... هيا بنا لرؤيتها

وجففت المرأة يديها ثم تبعته صامتة طوال الطريق ، وحين مرورهم بالحقل المجاور للمنزل مرا بجموع الماشية وهى ترعى الكلأ الجاف . . . فغمغم أونوريه : « اطمئنوا ... فستأكلون القمح الجديد عن قريب » .

ولم تكن المرأة العجوز قد ماتت بعد . . . بل كانت مستلقية على ظهرها ، وقد امتدت يداها فوق

غطاء الفراش الملون وقد بدا عليهما الضعف والهزال. واتجهت الأم رابت نحو الفراش ثم حدقت فى المرأة المحتضرة وتحسست بنفسها ثم مرت بيدها على صدرها وهى تصغى لصوت تنفسها الخافت الذى يشبه النزع، وألقت عليها بضع أسئلة حتى تتأكد من ضعف صوتها؛ ثم غادرت الغرفة بعد ذلك الامتحان يتبعها أونوريه. كان رأيها الشخصى أن المرأة لا يمكن أن تستمر على قيد الحياة حتى المساء

وسألها أونوريه بلهفة :

— والآن ؟

وأجابته المرأة بخبث :

— ستعيش يومين وربما ثلاثة أيام .. وسأتقاضى منك ستة فرنكات .

وردد أنورية قولها :

— ستة فرنكات ... يا لله ... ست فرنكات كاملة ؟؟ هل جننت أيتها المرأة ؟؟ سوف لا تعيش إلا خمس أو ست ساعات على الأكثر

واشتد الجدل بين الرجل والمرأة ... وأصرت المرأة على الرحيل ... فتخيل أونوريه حنطته فى انتظار الحصاد، فلم يجد بدا من الخضوع وتمتم مستسلماً :

— سأعطيك المبلغ على أن ينتهى الأمر كلية مهما طال أمده

وأوسع خطاه نحو الحقل ... فى حين رجعت الأم رابت إلى حجرة المريضة وهمست قائلة لها :

— لا شك أنك تريدين الاعتراف يا مدام بونتمبس ؟

وأشارت مدام بونتمبس برأسها إيجاباً ... فنهضت الأم رابت بسرور ونشاط وهى تهتف :

— يا إله السموات...سأذهب لإحضار القس

وأسرعت المرأة فى طريقها نحو القس ...

وعادت معه وهى تضطره إلى الإسراع غير عابئة بدهشة الرجال الذين كانوا ينظرون إليهما باستغراب، ولا بنظرات النساء اللائى كن يرسمن علامة الصليب على صدورهن . ورآهن أونوريه عن بعد ... فتساءل عن سبب إسراع القس ، وما كان أسرع جاره فى الإجابة عليه قائلاً :

— إنه سيتلقى اعتراف أمك دون شك

ولم يساور أونوريه العجب لذلك ... بل واصل الحصاد فى هدوء

وتلقى القس اعتراف مدام بونتمبس ، ثم غادر المكان .. ومرة أخرى أصبحت المرأتان على انفراد، وابتدأت الأم رابت تفقد صبرها وهى تعجب كيف أن المرأة لم تمت حتى الآن

وشحب لون النهار ... وازدادت برودة الجو . وراحت فراشات الليل تحوم حول النافذة تحاول التحرر من أسرها كروح المرأة العجوز التى كانت راقدة دون حراك وعيناها محملقتان وكأنها فى انتظار رؤية شبح الموت ... بينما كانت أنفاسها تتدافع من صدرها بطيئة ذات صفير خافت أليم .

وعاد أونوريه ... فوجد أمه ما زالت على قيد الحياة ... فتساءل دهشاً عن كيفية إمكان ذلك ... ثم ودع الأم رابت بعد أن أوصاها أن تعود فى تمام الخامسة من صباح اليوم التالى ... وفعلاً عادت المرأة قبل انبثاق الفجر وأسرعت بسؤال أونوريه قائلة :

— ألم تمت أمك بعد ؟

وأجابها وهو يسير نحو الحقل :

— كلا وأظنها أحسن حالاً

وضاقت الأم « رابت » ذرعاً ، فتوجهت توا إلى حجرة المرأة المحتضرة فوجدتها كما كانت بالأمس تماماً ... هادئة ساكنة مفتوحة العينين ، ويداها

ممدودتان فوق غطاء الفراش الملون ... يبدو عليهما الضعف والهزال؛ ورأت الأم رابت أن المرأة يمكن أن تظل هكذا يومين أو أربعة.. بل ربما عاشت أسبوعاً آخر ... فأحست بانقباض يسود نفسها ... وبحقد هائل نحو ذلك الذى خدعها بأمه التى لا تريد أن تموت. وظلت عيناها محدقتين بمدام بونتمبس طيلة هذا الصباح حتى عاد أونوريه للغداء . ثم رجع إلى حقله لإكمال حصاد حنطته .

وكادت الأم رابت تفقد شعورها . فلقد خيل إليها أن كل دقيقة تمر إنما هى زمن مسروق منها ومن حقها أن تتقاضى عليه أجراً .

وأحست برغبة قوية . رغبة مجنونة فى أن تضغط على ذلك العنق الهزيل فتخمد أنفاس المرأة التى كانت تسلبها وقتها المقدس ، ولكنها استطاعت حينئذ أن تتصور بشاعة جريمتها .

وراودتها فكرة أخرى .

واقتربت من المرأة المحتضرة ، وهمست تسألها

— ألم ترى الشيطان بعد ؟

فأجابتها مدام بونتمبس هامسة :

— كلا

وابتدأت المرضة تلقى على مسامعها بعض القصص الخرافية المخيفة . فقالت : إن الشيطان يظهر عادة لهؤلاء الذين على وشك الموت قبل موتهم بدقائق معدودات ... ثم راحت تصف لها شكل الشيطان ، فادعت أنه يحمل فى يده محصداً كبيراً وعلى رأسه قدر مملوءة بسائل يغلى مسمر به ثلاث قرون . واستمرت فى حديثها الرهيب ، فعددت لها أسماء من زعمت أن الشيطان قد ظهر لهم قبل موتهم : وفعل ذلك الحديث فعل السحر فى مدام بونتمس

فبدت مضطربة حائرة ، لا يستقر رأسها على الوسادة فى مكان واحد .

واختفت الأم رابت حينئذ وراء الستار المسدل بجانب الفراش . وتناولت من صندوق بالقرب منها ملاءة بيضاء ألقتها فوق رأسها فحجبتها من قمة رأسها إلى أخمص القدم . ثم وضعت على رأسها قدرا بدت أرجلها الحديدية كثلاثة قرون مدببة . ثم أمسكت بيدها مكنسة مستطيلة . وما كادت تنتهى من كل ذلك حتى صعدت فوق مقعد مرتفع .

وفجأة رفعت الستار وبدت بهيئتها أمام المريضة ومرت لحظة فزع ورعب ... وحاولت المرأة المسكينة بكل قواها أن تهرب من الشيطان ... شيطان الموت الرهيب ... ولكنها ما كادت تتحرك حتى خانتها قواها وارتمت على الفراش مرة أخرى وانتهى كل شىء

وبكل هدوء ودعة ... أعادت الأم رابت بضاعتها إلى أماكنها ... ثم أغلقت عينى المرأة الميتة ... العينين الفزعتين المحدقتين فى خوف وفزع ... ثم ركعت على ركبتيها جانب الفراش وابتدأت تصلى على الراحلة بحكم العادة

وحين عاد أونوريه من الحقل عند الغروب ... وجد الأم رابت راكعة على ركبتيها تصلى ... فتأكد أن روح أمه قد صعدت إلى باريها

وابتدأ يفكر .

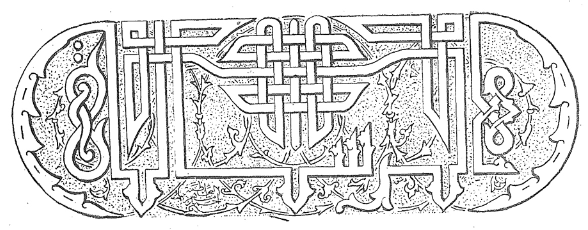
لقد استمرت المرأة فى خدمة أمه ثلاثة أيام وليلة .. أى أن أجرها كان يجب أن يكون خمس فرنكات .. ولكن ... يجب عليه الآن أن يدفع ستة

وغمغم قائلاً بغضب :

— يا للحظ السيء ... لقد خسرت فرنكاً

عادل الجمال

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾

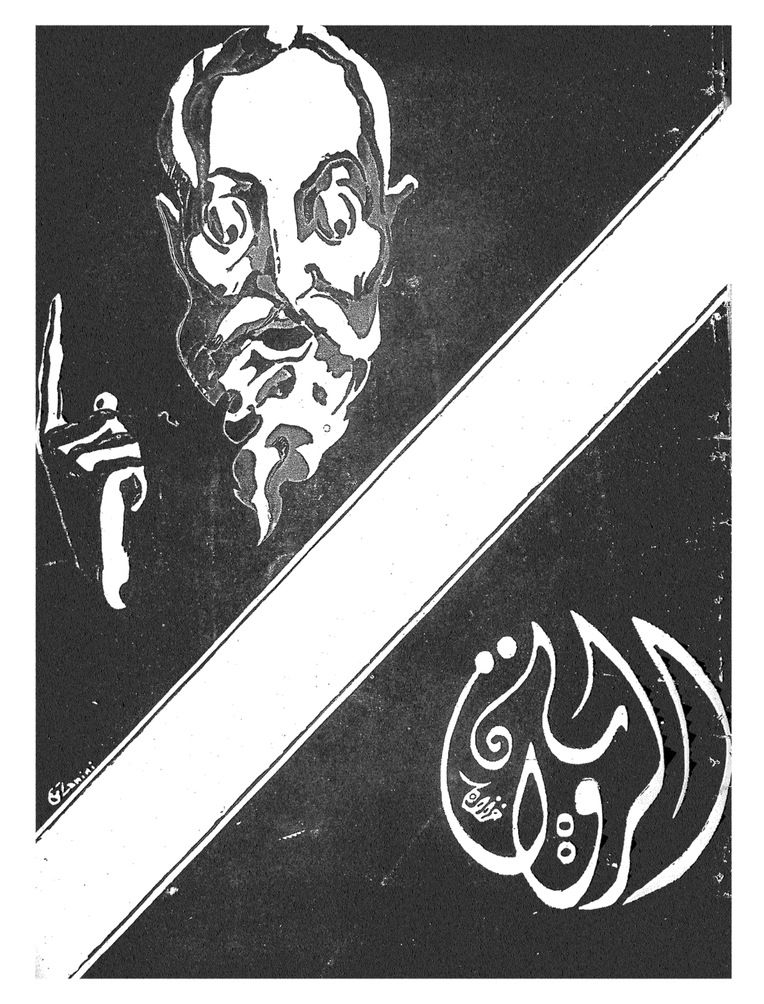


مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية
تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية
الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية
الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية
الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪


GZanini



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

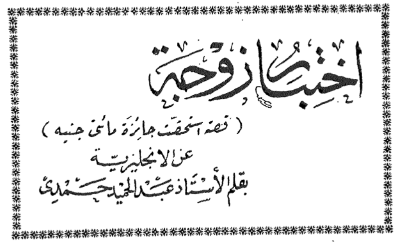
الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٨ — ٢٧ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ — ١٥ يونيو سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

من أحسن القصص

فهرس العدد



أحقاً كانت هذه الزوجة غير وفية ؟ وهل كانت أية امرأة أخرى تسلك غير سلوكها إذا هى فوجئت بـ ... ؟

***

كنت فى الثانية والعشرين من عمرى عند ما وقع هذا الحادث . وكانت عشرون سنة من هذا العمر قد انقضت مفعمة بكل أسباب السعادة . كنت محبة لعيشتى ولكن فلسفة حياتى كانت بسيطة فالرجال فى نظرى إما خيرون وإما سيئون . والسيئون منهم كانت تحبسهم عن العالم تلك السجون الغبراء القائمة كذلك السجن الذى يقع فى الوادى القريب منا . والحياة عندى شىء يجب أن يعيشه الإنسان وينعم به ، ولم تكن الأيام فى نظرى من الطول بحيث تتسع لجميع مباهج الحياة . وكانت لغيرى من الناس أحزانهم ولكن أجنحة الحزن العابسة لم تهو ناحيتى مرة من المرات ، ولقد كنت طليقة فرحة ككل شىء صغير فى مزرعة أبى

كان اسمى إلين دراكوت وكنا نعيش منذ ولادتى فى الولايات المتحدة على رمية حجر من سنجن الولاية . وكنا إذا ذكرنا السجن أشرنا إليه بأنه البناء الواقع هناك فى المنحدر ، لأن بيتنا كان قائماً على بقعة مرتفعة إلى الشمال ، ولم يكن يفصله عن فناء السجن غير « الطريق الكبير »

مات أبى وأنا فى العشرين من عمرى ، وبعد شهر من موته تزوجت من جون هارداواى وهو الحبيب الوحيد الذى عرفته

وكانت مزرعة أبى جون مجاورة لمزرعتنا ، وقد اتفقنا على أن نعيش فى بيتنا لأنه كان أكبر من بيت جون وأتم استعداداً

ورغب أبو جون فى أن يعيش معنا وكان كما يصف نفسه « قد ولد مزارعاً » فأشرف بنفسه على خدمة أرضنا وأرضه

وكان جون أشد ميلاً إلى الماشية منه إلى الأرض وكذلك كان شأنى ، لهذا ربط بيننا نوع من الشركة الطبيعية ، فكان جون يرعى القطيع الذى تركه لى أبى

وجرت أمورنا سهلة هنية مرضية إلى أن ساقت الأقدار هايل كيليون إلى طريق حياتنا

وكانت الفتيات من صاحباتى يقلن لى إننى جميلة وإننى لو عنيت بمظهرى وبترتيب شعرى لأصبحت فى طليعة الجميلات ، على أن جمال وجهى لم يدخل إلى نفسى شيئاً من الغرور الذى يبعثه عادة مثل هذا الإطناب

وكان جون أجمل رجل فى المقاطعة ، طويل القامة مستقيم الصدر قوى البنية ، أسود العينين ، له شعر فاحم متماوج تحسده عليه جميع الفتيات .

وكان من الناحية الخلقية مثله من الناحية الجسمية شديد الاستقامة ، وكان مبدؤه ألا يغضى نظره أمام أى مخلوق وألا يدين لإنسان

لقد وهبت جون هارداواى من الحب كل ما تستطيع زوجة صغيرة سليمة الجسم أن تهب الرجل الذى تحبه ، وكنت كذلك أحيطه بنوع من حب الأمومة الذى لم ينعم به قط ، فقد ماتت أمه وأمى ونحن طفلان ، ويظهر أن هـذا العامل المشترك كان من الروابط التى جمعت بين قلبينا

ولقد بلغ من حبى جون أننى حين كنت أراه يكاد ينزلق فى طريق خطرة منقاداً لبعض الرجال ، الأكبر سناً والأكثر تجارباً ، لا أتردد فى أن أصارحه برأيى ، ولكنه لم يكن يصغى إلى نصائحى . على أننى لم أكن بطبعى لحوحة ولم أكن ميالة إلى مضايقة الناس بتدخلى فى أمورهم لذلك كنت أكتم حزنى فى نفسى عندما كان يتركنى الليلة بعد الليلة ليذهب إلى المدينة مع هايل كيليون

وكنت بعض الأحيان أتوسل إليه أن يترك هايل وأن يبقى معى فى البيت إذ كنت وحيدة منقطعة ولكنه كان يجيبنى على ذلك بقوله :

— ولكنك لست وحيدة ياعزيزتى فإن أبى معك

ولكن أباه كان يعمل كثيراً ، وكانت حاجته شديدة إلى التمتع بساعات نومه ، فلم يكن لى من عمل إلا أن أجلس فى الطابق الأول وحيدة أو أصعد إلى فراشى فأبكى حتى أنام ، ولم يكن كل ما يهمنى أننى وحيدة فقط ولكننى بدأت على مرور الأيام أشعر بالخوف من سلطان هايل على جون

وقال لى حمى مرة وهو يحاول أن يواسينى :

— لا تخافى فليس هايل بالشرير الذى تتصورين إنما هو عصبى المزاج عنيد ، فهو يميل إلى مخالطة الجماعات غير المستقيمة فى المدينة ، ويشرب قليلاً ولكنه لم يقع قط فى ورطة ، وقد راقبه أبوه مراقبة شديدة فى طفولته . لذلك قد أبطأ فى الاستفادة من تجارب الأيام ، ويخيل إلىّ أن جون يشعر بشىء من الخيلاء فى أن يصطحبه رجل أكبر منه سناً مثل هايل ، فعليك يا ابنتى بالصبر ، ومتى وضعت مولودك فسيصبح جون رجلاً غير الذى ترين الآن

بعد هذا الحديث غالبت مخاوفى وشرعت أسلى نفسى بأشياء أخر خارج البيت

وكانت الدراسات الخارجية للكلية قد شاعت فى تلك الأيام فسجلت اسمى فى درس التاريخ الانجليزى ، ووجدت أعظم اللذة فى المذاكرة التى كانت تشغل ليالى طوالاً لولاها لكانت ليالى وحدة مملة مزعجة .

وقد ضحك جون من أن زوجته أصبحت طالبة تشمخ بأنفها ولكنى تركته فى تهكمه ومضيت فى درسى .

وفى يوم من الأيام سمح جون لهايل أن يأخذ قطيعاً من الماشية إلى السوق على غير إرادتى ، وكان كل شىء فى هذه الأيام ينقل على قطرات سكة الحديد ، وكان من المألوف أن يصحب القطيع فى العربة أحد الرجال ، وقد أردت أن يذهب جون بنفسه على عادته ، ولكنه رفض أن يسمع أى معارضة فى ذهاب هايل بدلاً منه ، ولما عاد هايل نقدنى فى الحال نصيبى من ثمن القطيع ، وكنت لا أزال غاضبة ، فسلمته صكا بالمبلغ دون أن أنطق بكلمة واحدة فقد لاحظت أنه سكران .

ولما ذهبت إلى البنك لإيداع المال علمت أن جون

لم يودع نصيبه ، وكانت قد مضت عدة أيام بعد عودة هايل وتسديده ثمن القطيع ، فلما جلسنا إلى مائدة العشاء ذكرت ما علمت من البنك لجون وقلت له محذرة :

— يجب ألا تحمل هذا المبلغ الكبير من المال معك يا جون حيثما ذهبت فقد يهاجمك بعض الأشرار

فأجاب جون فى شيء من الكآبة :

— ليس عندى من المال ما أودعه ، فقد ادعى هايل أن المال كله له

ولكن جون دافع عن صديقه عند ما رمى أبوه هايل كيليون بعبارة تحقير وازدراء ، فقال :

— سأحصل على مالى يا أبى عند ما يفيق هايل ، وإنى لأظنه قد وقع فى أيدى عصابة هناك فى ميدان السوق فصحبوه إلى اجتماع أعدوه . ولتثق يا أبي أن هايل رجل مستقيم

وقضت الأسرة بقية وقت العشاء فى صمت . وبعد قليل وصل هايل إلى فناء البيت راكباً وخرج جون معه متجهين إلى المدينة على عادتهما . أما ما حدث بعد وصولهما إلى المدينة فقد علمناه من غيرهما على الصورة الآتية :

تعارك جون وهايل أمام قاعة البليارد عندما أعلن هايل أنه غير مدين لجون بشيء من المال . وكانت المركة حامية جداً قاتل كل فيها أخاه قتالاً عنيفاً عند ما حاول المشاهدون أن يفرقوا بينهما . على أنهما بعد ذلك تركا المدينة عائدين وهما فى أعين الناس على خير ما يكون من المودة والصداقة ، ولكنهما فى الواقع قد استأنفا القتال على مفترق الطريق

ورآهما جو استاسى فى أثناء عودته وكان جون فاقد الوعى ، أما هايل فكان جثة هامدة وبندقيته إلى جانبه . واستعان جو بما يحمل من الخمر على إفاقة جون من غيبوبته . وكان جوادا المتعاركين قد اختفيا ، ولكن جو قال إنه سمع ركض الخيل فى طريق المدينة فى أثناء مجيئه منها

وعادوا بجون إلى المدينة ؛ ولم يكن فى وسعه أن يخبرهم بأكثر من أن هايل غلبه من أول لكمة فأفقده الرشد . وأودع الشريف جون سجن المقاطعة حيث وجده أبوه فى صباح اليوم التالى

وقال لى حمى عند ما عاد إلى البيت :

— يريد جون ألا تهتمى بما حدث فهم سيحققون معه التحقيق الابتدائى بعد ظهر اليوم وسينتهى كل شيء على خير

فلما بكيت صارخة فى حال عصبية قال حمى :

— لا تخافى يا إلين واذكرى أن فى أحشائك جنيناً يجب أن تفكرى فيه

ولاحظت فى عينى الرجل نظرة غريبة فبذلت جهداً عنيفاً لأخفف من ضربات قلبى الهائجة وصحت :

— ولكن يا أبى إذا كان هايل ميتاً وليس هناك شهود على ما حدث فماذا يكون موقف جون ؟

فقال الرجل فى حزم :

— نعم يا إلين إنى أرى المركز دقيقاً حرجاً ولكنى واثق من براءة ابنى

وبدأت محاكمة جون فى اليوم التالى للتحقيق الابتدائى ، ولقصر الوقت بين التحقيق والمحاكمة رفض طلب إطلاق سراحه بكفالة فبقى فى السجن

ولما كانت حالتى الصحية لا تسمح لى بحضور المحاكمة فقد اكتفى بسماع شهادة قصيرة أدليت بها ولم أر جون بعد ذلك إلا عندما أحضره الشريف إلىّ ليودعنى الوداع الأخير ، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد

بنى الحكم على جون على شهادة القرائن ؛ فقد روى قصته على حقيقتها فى غير تردد، ولكن القاضى والمحلفين لم يقيموا لها كبير وزن . قال إن هايل كان لا يزال تحت تأثير السكر عند ما غادر المدينة ، ولم يستطع أن يقول أين ذهب بمال جون ، فتشاجرا وكان هايل هو الذى ضرب الضربة الأولى مدعياً أن جون قد وصفه بأنه لص ، على أنهما لم يلبثا أن تصالحا وضحكا على ما كان منهما ، ولكنهما فى أثناء عودتهما إلى البيت استأنف هايل القتال

وفى مفترق الطريق ترجلا عن جواديهما وقررا أن يتقاتلا بقبضاتهما عارية عن القفازات ، وألقيا ببندقيتيهما على الأرض وأجفل الجوادان فركضا هاربين . وضرب هايل الضربة الأولى فكانت ضربة قاضية أفقدت جون وعيه فلم يعرف شيئاً بعد ذلك إلى أن استيقظ فوجد أستاسى منحنياً عليه

وقال جون :

— لقد كانت بندقيتانا ملقيتين على الأرض إحداهما إلى جانب الأخرى فابحثوا عن بندقيتى فحيث وجدتموها وجدتم القاتل

ولكن القرائن ضد جون كانت من القوة بحيث بدت كلماته عديمة القيمة ، وكان الشعور العام متجهاً إلى أنه بعد أن قتل هايل ألقى ببندقيته بعيداً حتى إذا شعر باقتراب أستاسى اصطنع الغيبوبة والإغماء . واعتقد آخرون أن البندقية التقطها أحد الباحثين عن الأشياء الغريبة عند ما ازدحم الناس حول الجثة ليلة ارتكاب الجريمة . ولم يصدق ببراءة زوجى إلا نفر قليل من شهود المحاكمة

ولما وصلنى خبر الحكم على زوجى شعرت بأن الحياة لا تساوى متاعبها ، وأحسست بأننى مريضة النفس والجسم ، ولكن الأمل فى محاكمة ثانية شجعنى على احتمال الصدمة ، على أن هذا الأمل لم يكن ليتحقق ، ولكنه على كل حال قد قوانى على النهوض يوم أحضر الشريف كلم هاوكنز زوجى إلى البيت لتوديعى قبل الذهاب به إلى السجن

فك الشريف القيد الحديدى من يدى زوجى لمجرد دخولها إلى البيت ثم أدار لنا ظهره وأطل من الشباك ، فعانقنى جون وقال :

— إلين . ثقى بأننى برىء من قتل هايل ثقتك بأن الله موجود فى السماء

قال جون هذه الكلمات فى ثبات وخشوع كما لو كان يقسم قسماً عظيماً ، ولأول مرة زال من نفسى كل شك فى براءة زوجى . فعانقته وانحنيت عليه فقال :

— لم يكن بد من أن أراك يا إلين لأقول لك هذه الكلمات لأنى أعلم أنك كنت تشكين فى براءتى . لقد قرأت أفكارك يا عزيزتى ، وكنت دائماً قادراً على قراءتها ، والآن أطلب منك أن تعدينى بألا تحضرى أبداً إلى السجن لرؤيتى . فإنى لا أطيق أن ترينى أنت أو طفلنا سجيناً . ولا تكتبى لى فإن ذلك يصعب على البقاء هناك ... وسيتكفل أبى بزيارتى . والذى أرجوه منك يا إلين هو ألا تخبرى طفلنا أن أباه سجين. عوديه على أن يحسبنى ميتاً . وثمة شىء تستطيعين أن تعمليه من أجلى . فسأنتظر فى الساعة السادسة من كل مساء أن أسمعك تقولين : « إنى أحبك ياجون » كما كنت تقولين كلما كنت بعيدة فى الكلية وسأسمع كلماتك وسأرد عليك بمثلها »

وكنت أنا وجون نعتقد بالإيحاء وقد أقمنا الدليل على قوته فى كثير من الفرص .

وقد سألني جون !

— أو ستفعلين هذا الذى أطلب منك يا إلين؟

فوعدته فى كلمات تقطعها الزفرات :

— نعم يا أعز الناس على نفسى لا بد أن أفعل ذلك ولن أنسى أبداً ، وإنى لأصدقك ، وأعتقد ببراءتك وبأنك لم تقتل هايل كيليون . لن أنسى ذلك ما حييت .

وكانت عينا جون جافيتين عند ما قبلنى ، وكان صوته ثابتاً رزيناً عند ما ألقى إلى بكلمة الوداع . وكان ظاهراً أنه قد غالب نفسه وشعوره قبل حضوره لوداعى ، ولكننى تعلقت به فى عنف عند ما أعاد الشريف القيد الحديدى إلى يده وقال : « هلم بنا يا جون فلا بد من أن نذهب » .

فقال جون :

— ابق مع إلين يا أبى وحافظ عليها ، واعن بأمرها واحضر لرؤيتى كلما استطعت الحضور .

وكان من نعمة الله على أن أصابنى الإغماء ؛ فحملنى حمى إلى فراشى . وفى المساء شعرت بأنه يغسل وجهى ، وكان الطبيب قد غادر المنزل فى هذه اللحظة ، وسمعت حركة فى المطبخ بالطابق الأول .

وقال حمى :

— يجب على الإنسان أن يحتمل الحياة يا إلين . وليكن طفلك أول ما تفكرين فيه ، وسأحضر لك الآن شيئاً من الحساء الساخن ، وقد حضرت مارى جونز وفرانك لمساعدتنا ، وقد عنينا بكل شىء فى البيت، وإنى لواثق من أنك ستتزودين بالشجاعة فى حياتك المقبلة . ومن المحتمل أن نصل إلى محاكمة جديدة كما تعلمين .

ونطق حمى العبارة الأخيرة بلهجة المواساة الرقيقة . فغالبت حزنى واستويت جالسة فى فراشى وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء .

تذكرت وعدى لجون فصليت لله ضارعة وقلت بينما ذهب حمى لإحضار الحساء :

— اللهم مكنه من أن يسمعنى .

فلما دقت الساعة السادسة قلت :

— إنى أحبك ياجون .

وبعثت هذه الرسالة بكل ما فى نفسى من قوة معنوية .

واضطربت إلى أعماق نفسى عند ما سمعت الرد يدب فى أذنى .

— إنى أحبك يا إلين .

كانت هذه الرسائل فاتحة رسائل إيحائية عديدة بيننا فلم أنس قط أن أرسل كل يوم هذه الرسالة الطائرة التى كان جون ينتظر وصولها إليه وهو جالس هادىء فى سجنه الصخرى .

وكان حمى يذهب بنظام لزيارة جون فى المواعيد المحددة للزيارة ولكننى لم أعرف قط ما كان يجرى بينهما من حديث . على أنه كان يبلغنى أموراً تتصل بجون كالفرقة التى كان زوجى يعلمها فى أيام الآحاد ، وهى مؤلفة من جماعة لم تكن من قبل تهتم بأى شأن من شئون الدين ، وأخبرنى أيضاً أن إدارة السجن عهدت إلى جون بالإشراف على الحركة الرياضية الجديدة التى أدخلت على نظام السجن .

وأخبرنى مرة أن جون أقنع فريقاً من المسجونين بالعدول عن الهرب من السجن ، وسلم الأسلحة التى صنعوها بأيديهم إلى أولى الأمر دون أن يذكر لهم أسماء المتذمرين . وفى مرة أخرى أخبرنى أن جون

اعترف له بالقيادة والشجاعة لإخماده حريقاً فى نبات القنب.

ولم يدهشنى ما علمت من صفات الشجاعة والقيادة التى تميز بها جون ، ولكنى دهشت عندما سمعت أنه قد اختار العمل فى المناجم مع أشد المسجونين تهوراً . وقد قال الحارس لحمى إن جون اختار هذا العمل لأن هؤلاء المسجونين كانوا بحاجة إليه لأنه يستطيع أن يقودهم إلى حياة أفضل من حياتهم الحاضرة إذا هو فضل هذا النوع من العمل على الدرس الدينى الذى كان قد عهد إليه بإلقائه أول الأمر .

ولقد شعرت عندما سمعت هذا الكلام بشعور الفخر بزوجى . فكان من النادر أن يغيب ذكره عن رأسى

واحتفظت بصورة جون الفوتوغرافية على مائدة زينتى ، وكنت أقول لابنى الصغير :

— هذا هو أبوك ، ونحن نحبه وهو يحبنا ، وما نستطيع أن نراه أبداً ، ولكننا نعلم أنه يفكر فينا على الدوام .

وكنت قد وضعت ابنى بعد شهرين من دخول أبيه السجن ، وكان طفلاً جميلاً قوياً ، وقد سميته رونالد كاسم أبى ، ولكن اسم رونى كان أكثر انطباقاً عليه ، وتعودت أنا وحمى أن ندعوه بهذا الاسم المصغر . وقبل أن يتكلم بوقت طويل تعلم أن يهز يده مرسلاً فى الهواء بقبلة إلى صورة أبيه وكانت أول كلمة نطق بها هى كلمة « أبى » .

وكتبت فى بعض الأحيان خطابات مطولة لجون أصف له فيها ابننا الصغير ، ولكننى لم أرسل قط هذه الخطابات .

حافظت على وعدى لجون بالبقاء بعيدة عن السجن ، وكنت فى كل ليلة أتحدث إليه ، وليس من يشهد موعد غرامنا غير النجوم والقمر أو ربما خيالات الشتاء القارس .

وكان فى مرعانا المجاور للتل على مقربة من مزرعة السجن أكمة صغيرة ، فكنت أقصد إليها غالباً بعد انتهاء عملى ، وكان يلذ لى أن أجلس فوقها وأرقب مصابيح السجن حين تضاء . فكان المنظر أشبه بقصر من قصور الجان بأضوائه البراقة التى تبعث بأشعتها إلى غسق الوادى المنحدر . فلم يكن السجن فى هذه الساعات ليشبه فى شىء مأوى الآمال الضائعة وبيت العقاب .

كان يحلو لى أن أجلس هناك وأفكر فى جون فأرسل له وأتلقى رسالتى حبنا الصامتتين . وكان يخيل إلىّ فى بعض الأحيان ، عندما يكون ضوء النهار لم يغب بعد عن الأرض المرتفعة ، أن بناء السجن وحش رابض فى ظلال الوادى ، فكنت أبغضه لأنه قد التهم حبيبى .

وفى مساء يوم من الأيام أتيت برونى معى فى هذه الرحلة اليومية ، وكان قد بلغ السنة الخامسة من عمره . فلما وقفنا هناك موليين ظهرينا ناحية الشمس الغاربة ، رأينا فريقاً من المسجونين فى عربة محملة بالحشائش الجافة تسير بهم مبطئة فى الطريق الموصل بيننا وبين السجن ، وكانوا عائدين من أحد الحقول البعيدة وقد استطعت أن أرى هؤلاء الرجال الصامتين رؤية تامة ، ولكن بعد المسافة لم يمكننى من تمييز قسمات وجوههم . وعلى حين فجأة وقف واحد منهم ورفع قبعة السجن ، وبقى على ذلك إلى أن غابت العربة عن نظرى. فساءلت نفسى: أيمكن أن يكون هذا الرجل هو جون ؟ وذكرت عندئذ أن حمى قد أخبرنى أن جون كان يشرف على الفرقة من

المسجونين التى عهد إليها أن تعمل فى الزراعة هذا الصيف . فعرفت أن جون هو ذلك الرجل الذى وقف وحيانى أنا وولدنا هذه التحية الصامتة .

ولم أخبر حمى بما حدث فقد كان هذا الحادث أمراً مقدساً احتفظت به لنفسى ، ولكنه عند ما عاد إلى البيت بعد يوم الزيارة من الأسبوع التالى قال لى :

— لقد عزمت يا إلين ألا آخذ رونى معى مرة أخرى إلى المرعى ، وأظن أننى أنا نفسى لن أذهب إليها ، فهناك مغريات لا تقوى الطبيعة البشرية على مقاومتها . وجون رجل برىء ، فنفسه خالية من الشعور بعدلماينزل به من عقاب، هذا الشعور الذى من شأنه أن يحمل كثيرين من الرجال على أن يخضعوا لأحكام السجن ممتثلين . ولقد كان جون حتى الآن مثلاً طيباً فى السلوك ، ولكننا جميعاً معرضون للتأثر بالمغريات

فصحت :

— ولكن أليست لى يا أبى حقوق ؟ أيجب علىّ ألا أشعر أنا أيضاً ؟

فأجابنى حمى :

— تذكرى يا إلين أن جون لو هرب من السجن لعوقب كما يعاقب أى سجين آخر ، وهو حتى الآن قد حصل على أحسن تقرير يحصل عليه السجين فإذا هو أضاع سمعته هذه فقد كل ثقة فيه إلى الأبد

لم آخذ رونى معى بعد ذلك ولكننى كنت أذهب وحدى وأجلس مفكرة فى جون آملة أن أراه مرة ثانية ، ولكنى لم أسمع صوت عربة السجن قادمة إلا مرة واحدة بعد ذلك ، فطرحت نفسى على الحشيش حتى مرت بى

وإذا كنت قد رويت هذه الحوادث المحزنة فليس معنى هذا أن الحياة كانت كلها متاعب وأحزاناً فلقد أصبحت فى تلك الأيام امرأة كثيرة المشاغل ، فقد غيرت طبيعة مزرعتى من البيع بالجملة إلى الاتجار فى الألبان ، وقد ارتفعت سمعة قطعان هارداواى فى جميع أرجاء الولاية وحصلت على الجوائز الأولى فى المعارض ، وصرت من العملاء الدائمين مع مخازن ألبان الحكومة ، وتلقيت كثيراً من المحاضرات الخارجية فى كلية الزراعة الحكومية

واشتركت فى كثير من النوادى وهذا هو الميدان الذى اتجه إليه نشاطى ووجدت فيه العزاء من الأحزان التى كادت تدفننى فى الظلام . وكان حمى ابنى أكبر عامل فى شعورى بالانشراح والسعادة فقد قضينا معاً أوقاتاً هنية حقاً ، وقابلت كثيرين من ألطف الرجال وكان فى مقدورى أن أتزوج إن أردت ، ولكن لم يكن هناك غير رجل واحد يحتفظ له قلبى بالحب والولاء هو جون هارداواى

وفى أحد أيام الشتاء من العام السابع لسجن جون عاد حمى إلى البيت مصاباً ببرد شديد ، وكان قد ذهب لزيارة جون وقد بدا عليه أنه يشعر بهبوط فى حاله النفسية ، ولما ذهب رونى إلى فراشه حملت حمى فى إصرار على أن يقص علىّ ما حدث

قال : إن جون قد أصبح بطلاً فى السجن ، وقد شب حريق فى مصنع المراتب أودى بحياة كثيرين من المسجونين وأحد الحراس ، وأنقذ جون أرواحاً عديدة بسرعة تفكيره وحسن قيادته ، وقد لحقته بعض الإصابات ولكن أباه لم يقف على مبلغها لأنه اضطر أن يغادر السجن قبل أن ينتهى الطبيب من عمله ، فقد أصر جون على أن يتولى الطبيب إسعاف جميع المصابين سواه وأن يتركه

هو إلى أن ينتهى منهم جميعاً

وأرقدت حمى فى فراشه بعد أن وضعت على صدره « اللصقة » التى يحبها ، ولكن أعراض البرد اشتدت عليه وساءت حاله ، وحضر الطبيب لعيادته ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً . وفى اليوم التالى توفى حمى وتركنى أنا ورونى وحيدين ، فكانت وفاته صدمة شديدة لى فقد كانت منزلته فى نفسى بعد منزلة أبى مباشرة، وكان الرفيق الذى لا يفارقه رونى

وعلمت بعد مدة طويلة أن الحروق التى أصيب بها جون كانت شديدة ، وكان أفظعها ما أصاب يديه ، وقد فقد أحد إبهاميه من جراء ذلك الحادث فكان كل ما استطعت أن أعمله هو أن أزيد فى رسائلى الإيحائية إليه حاملة له حبى من فوق تلك الأكمة التى لم أنقطع يوماً عن زيارتها

وبعــد وفاة حمى انتقل فرانك ومارى جونز للإقامة معنا فى البيت، وقد كانا حتى الآن يساعداننى فى أعمال مصنع الألبان ، ولكننى أصبحت محتاجة إلى مساعدتهما فى أعمــال المزرعة أيضاً . لذلك أصلحت بيت جونز ليسكنه جاك وود وأخته جين ، وقد أثبت جاك أنه مدير صالح للمزرعة، ولم تلبث جين أن عرفت فى جميع الجهات المجاورة بمهارتها ونشاطها

وكانت جين فى نهاية السنة العشرين من عمرها جميلة المنظر جذابة الروح ، وكانت شديدة الحب لرونى فكان الطفل دائماً على استعداد لمصاحبة الخالة جين ، فكان من النادر أن تذهب إلى المدينة قبل أن تمر علينا بعربتها فتستصحبه معها ، ولم يكن جاك أقل تعلقاً برونى من أخته ، وهكذا كان الطفل يقضى أغلب أوقاته عندهما

لم أتكلم حتى الآن كثيراً عن طفلى ، والحق أنه أصبح فى العام السابع من عمره صبياً كاملاً يشبه أباه فى شكله شبهاً شديداً ، كانت له عيناه الكبيرتان السوداوان اللتان تلمعان فى الغضب وتشعان فى السرور ، أما شعره فكان فى سواد شعرى . وكان الطفل نظيفاً بطبيعته مثل أبيه ، فالناظر إلى وجهه ويديه يخيل إليه أنه لا ينقطع لحظة عن تنظيفها ، وكان يندر أن يراه الإنسان منفعلاً أو شرس الخلق ، فلم يكن يحتاج إلا إلى القليل من الإرشاد ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يدور حوله ، فكان فى هذه السن طفلاً محبوباً من كل من يراه ، كثير التخيل بعض الأحيان ولكنه كان دائماً شديد التأمل

كان الشتاء فى هذا العام قارساً مللنا أيامه الطويلة الفظيعة ، ولــكن أيام الدفء لم تلبث أن أقبلت ، وكنا فى الأيام الأولى من شهر أبريل ، وقد بدأنا نسمع نقيق الضفادع فى بركة المرعى . فابتسمت مبتهجة عندما مررت بالبركة فى طريقى إلى أكمتى المحبوبة . وقد شــعرت بانتعاش فى نفسى لأننى سأستطيع الآن أن أذهب إليها فى أغلب الأوقات لأتبادل مع جون رســائل حبنا ، وإذ بعثت إليه برسالتى فى هذه الليلة شعرت بأنه أقرب إلىّ منه فى أى وقت مضى .

لقد قدر أن تكون هــذه هى أخرى زياراتى للأكمة . وكانت الضفادع تنق مطمئنة وأنا عائدة إلى البيت مبطئة فى مشيتى . وفى منتصف الطريق التقيت بمارى جونز وكانت قادمة للبحث عنى ، فما رأتنى حتى قالت وهى تلهث :

— لقد كنا نبحث عنك فى كل مكان ، فقد اعترف دينى بلاين بأنه هو الذى قتل هايل كيليون

فهو مريض ، وقد أحضروا له القسيس فاعترف له بكل شىء ، فلتسرعى يا مسز هارداواى فإنهم يريدون أن تذهبى مباشرة إلى بيت بلاين

لم أرد أن أسرع لأننى أردت أن أبقى هناك تحت سماء ابريل أشكر لله هذا النبأ المبارك ، على أننى لم أضع وقتاً فى الوصول إلى بيت بلاين

وكان دينى فى الواقع مريضاً جداً ، ولكنه فى هذيانه روى قصة ما حدث على مفترق الطريق منذ سنوات عديدة ، فقال إنه كان عائداً فى طريقه إلى بيته على جواده الصغير بعد زيارة لإحدى العائلات المجاورة ، فلما وصل إلى مفترق الطريق رأى جون وهايل يتقاتلان ، وكان هايل قد ألقى بجون على الأرض وشرع يخنقه ، فالتقط بلاين إحدى البندقيتين من على الأرض وأطلقها على هايل فأصاب الطلق جنبه

وكان جون فاقد الوعى فسقط هايل إلى جانبه جثة هامدة ، ولم يتبين بلاين إذا كانت الإصابة قاتلة أو إذا كان المصاب لا يزال حياً ، ولم يلبث أن سمع صوت جواد قادم من ناحية المدينة ، فوثب إلى سرج جواده ودفعه مسرعاً فى الطريق المعارض ، وكان لا يزال حاملاً البندقية فى يده ؛ فلما وصل إلى البيت وضعها على رف هناك وهى لا تزال هناك من ذلك التاريخ

وهكذا وضح الحق فى قصة جون ، فهو بعد اليوم حر طليق وسيعود إلىّ بعد قليل ! ولو أن السعادة تقتل الإنسان لكانت قتلتنى فى تلك الليلة

لم يعش دينى حتى يحاكم على فعلته ، فقد قضى عليه المرض بعد أسابيع قليلة من هذا الاعتراف

وكان لا بد من انقضاء بضعة أيام يحقق البوليس فى أثنائها رواية بلاين وتعد فيها الأوراق الخاصة بالإفراج عن جون ، وقد قضيت هذه الأيام منهمكة فى إعداد ما تتطلبه عودته من مظاهر الاحتفال ، وقد قلت لرونى إن أباه عائد إلى البيت فلم يكن الطفل أقل منى تأثراً وابتهاجاً بهذا النبأ السعيد

وحضر فرانك إلى البيت فى اليوم الثالث لتأكيد البوليس من صدق رواية بلاين وأخبرنى بأن الأمر قد صدر بالإفراج عن جون وأنه سيعود إلى البيت فى اليوم التالى ، ثم مضى ليشرف على حلب الماشية

وصعدت إلى الطابق العلوى لألبس رداء نظيفاً قبل الإشراف على عملية إخراج الزبد وإعداد أدوات التبريد

فلما عدت إلى الطابق الأول سمعت دقاً شديداً على الباب الجانبى ، فظننت أن الطارق قد يكون جون ولكنى لم ألبث أن ذكرت أنه لا يمكن أن يجىء بهذه السرعة ، فذهبت أفكارى كل مذهب ، غير أننى لم أتصور أن جون يطرق باب بيته . وبينا هذه الأفكار تساورنى تخيلت جون وهو يدخل من الباب مندفعاً يبحث عنى فى لهفة وشوق فاتحاً ذراعيه كما كان يفعل عادة

ثم فتحت الباب فرأيت واقفاً على عتبته رجلاً قذر المنظر يلبس صديرياً قصيراً تميل قبعته إلى الأمام حتى تكاد تخفى عينيه ، وقد أمسكت إحدى يديه الوسختين طرف الباب ، وقد بدا ما بقى من إبهامه المقطوع بشع المنظر لم تلتئم ندبته التئاماً تاماً ، فجزعت أول الأمر وودت لو أن فرانك أو مارى كان معى ، ثم قلت :

— أسعدت مساء ، هل تريد شيئاً ؟

فتراجع الرجل قليلاً وقال فى صوت أجش :

— إلين ! ألا تعرفينني — أنا جون ؟

فصحت :

— جون ؟ أوه ، لا ! لا ! لست أنت جون ، لست أنت زوجي !

ثم تذكرت السنوات المديدة التي مرت بنا ؛ فلطفت لهجتي وقلت :

— جون ؟ آه . عزيزي . أدخل .

وشعرت على حين فجأة أن الدنيا قد فقدت بهجتها ، وأدرجت أن جون زوجي قد بات في نظري في عداد الأموات ، لقد ختمت مأساة حياتي بهذه الخاتمة الموجعة .

ودخل جون البيت متردداً وكان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . وقال :

— لقد أفرجوا عني بأسرع مما كانوا يتوقعون يا إلين، ولم أستطع أن أنتظر إلى الغد فقطعت الطريق جرياً ، واجتزت المرعى بجوار الأكمة فشعرت بوجودك فوقها ، فانطرحت على الأرض وقبلت البقعة التي وطأها قدماك يا عزيزتي ! ولكن التي أراها الآن ليست إلين التي عهدتها ، فهذه امرأة جامدة كأنما يفصل بينها وبيني مدى بعيد ! أين ولدي؟ هل علمته أن يكرهني أيضاً ؟

فقلت :

— صه يا جون ! وسنتكلم بعد أن تغتسل وترتدي ملابس نظيفة . إنك متأثر بما مر بك من حوادث ومفاجآت، وهاهي غرفة أبيك في انتظارك وستجد فيها ملابس جديدة معدة لك

لم أخبر جون أنني قضيت النهار كله في عمل متواصل لإعداد غرفتنا على ما يجب أن تكون بعد أن نقلت فراش روني إلى الغرفة الصغيرة المجاورة . ثم صعدت السلم يتبعني جون مبطئاً فلما دخل الحمام أسرعت بنقل ثيابه إلى الغرفة التي كان يسكنها أبوه . وكانت هذه الثياب هي التي كان يلبسها قبل ذهابه إلى السجن ، وهي البقية التي وضعناها في الصندوق الخشبي بعد إخراجنا ثياب أبيه

وأدركت أن الثياب ستكون واسعة عليه جداً فقد نحل جسمه كثيراً ، وبالأمس رقعت ثوب النوم ذا الطراز القديم أمام عيني وقبلت رقبته وتصورت جون وهو يلبسه . والآن إذ أسرعت بوضع الثياب فوق سريره تحدرت الدموع من عيني واجتهدت في تملك عواطفي حتى لا يخونني صوتي عند ما ناديته من خلال باب الحمام قائلة :

— لقد أعددت لك الثياب على الفراش وهناك ثياب أخرى في الصندوق ، فلتحضر إلى العشاء متى انتهيت

وحرصاً على حياتي لم أستطع أن أودع كلماتي شيئاً من حرارة الحب . ونزلت إلى الطابق الأول مهزوزة الأعصاب لحد عنيف وقد سحق الحزن قلبي فلم أستطع الإشراف على عملية اللبن ، وتولت ماري العمل نيابة عني وقد قالت :

— من رأيي أنه كان يجب أن يخبروك بما ستواجهينه فإن حياة السجن تشوه رجلا مثل جون تشويهاً فظيعاً ، فعملهم هذا إثم وعار . ولا عجب إذا شعرت بانكسار نفسك فدعي عنك أمر اللبن فسأتولاه واذهبي أنت فاجلسي وحاولي أن تألفي ما طرأ على حياتك من تبدل

فقلت في نفسي : إنني لن آلف ذلك أبداً ! فماذا عساني أستطيع أن أفعل ؟

لقد تعودت أن أري جون جالساً معي إلى المائدة

فلن أستطيع أن أتعود أبداً أن أرى مكانه هذا الرجل المشوه الذى عاد ليدعونى امرأته .

ساعدت مارى فى إعداد مائدة العشاء ، ولكن مارى هى التى أرشدت جون إلى مكانه على المائدة . ولقد جلست ساكنة كشخص متجمد ، أما رونى فقد استدارت عيناه من الدهشة ولم ينبس ببنت شفة ولم يأكل شيئاً . وتكلم فرانك وجون فيما طرأ على المزرعة من تغير وعن شئون التعاون وعن موت أبيه ، ولكنهما لم يذكرا شيئاً عن شؤون جون نفسه . فكان الرجل غريباً على مائدته .

لقد نظف جون نفسه جهد ما استطاع ولكن الصابون لا يزيل قذارة السجن من أول مرة . وكان جون شاعراً بحالته فلم يأكل إلا قليلاً . وعند الانتهاء من الطعام قال فرانك :

— لاتزال هناك بقية من الضوء تمكنك يا جون من مشاهدة بعض أعمالى فى المزرعة إذا أردت أن تمر بها قبل هجوم الظلام .

فنهض جون وتلمس قبعته ثم بدا عليه أنه يتذكر فتبع فرانك عارى الرأس يسير بخطوات ثقيلة أشبه ما يكون بالشيخ الهرم . ولعل وراء جفنيه المسبلين دموعاً متجمعة تغشى البصر كالدموع التى ملأت عينى فى تلك اللحظة .

وعاد جون متأخراً فى المساء فآوى إلى الغرفة التى كان يسكنها أبوه ، ولم يحاول أن يفتح باب غرفتى ، ولو أنه حاول ذلك لوجده موصداً بالمفتاح

واستمرت حياتنا شهراً كاملاً على هذا النمط . ولو أن جون بدأ فى الحال يساعد فى أعمال المزرعة ولم يكن له من مركز محدد فى العمل فقد تلاشى ما كان يتميز به فى شبابه من النشاط والخفة والتسلط وأصبح ينتظر ما يلقى إليه من التعليمات ، ولكنه كان يعمل برغبة صادقة ولذة واضحة فى إنجاز ما يشير عليه فرانك بعمله

وكان فى سلوكه معى رقيقاً غير فضولى ، وكان فى بعض الأحيان يشتد به التواضع إلى حد الخجل؛ وكان قليل الالتفات إلى رونى ولكننى لاحظته بعض الأحيان وهو يرمق الطفل بعين ملؤها الحب والاهتمام ، أما رونى فلم يقبل قط أن يكون جون أباً له .

شهر واحد من هذه الحياة كاد يدفع بى إلى الجنون . ولو أن جون ضمنى بين ساعديه وقبلنى بالقوة لكان من المحتمل أن أثور فى وجهه وأن أدفعه عنى ولكنى لم أكن لأحتقره كما احتقرته الآن

يجب أن ينتهى الأمر بيننا بالطلاق . ولقد شعرت باقتراب هذه النتيجة ، فإن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هى عليه الآن ، ولكننى ترددت فى النطق بالكلمة التى تؤدى إلى هذه الغاية . لم يبق فى نفسى شىء من الحب لجون ولكننى لم أرد أن أجرحه ، فقد أعرف أن نفسه الحساسة لا تزال مقيمة فى جسمه المشوه ، فالجرح الذى أصابه كان بالفعل بالغاً عميقاً ، عميقاً إلى أبعد المدى

وجلست فى إحدى الليالى المطرة إلى مكتبى أراجع بعض الحسابات المهملة ، وكان رونى قلقاً كثير الحركة ضايقنى بكثرة مطالبه فوضع جون الصحيفة التى كان يقرأها جانباً وناداه :

— تعال يا بنى

وكانت حركة جون غير متوقعة فلم أملك أن وقفت عملى ونظرت لأرى ما يكون ، فرأيت رونى يذهب إلى جانب أبيه ، فقال جون:

— قل لى ما هى الهدية التى تفضل أن أحضرها لك ... ؟

فأجاب رونى مسرعاً :

— جواد

— حسن ! فلأحضر لك «سيسى» خاصاً بك.

فقال رونى فى لهجة التوكيد :

— لا . فإنى أريد جواداً كالذى يركبه أبى، جواداً أبيض كبيراً

— ولكنى لا أفهم يارونى ما تريد؛ فأنا أبوك ولكننى لا أركب جواداً أبيض

فقال رونى والتفت إلىّ :

— أقصد أبى الحقيقى الذى أراه فوق مائدة زينة أمى ، فقد حدثتنى عنه ... ألم تحدثينى يا أمى عن أبى ؟

فقلت :

— لقد رويت له يا جون قصة جالاهاد فكان بعد ذلك يقرنها دائماً بصورتك الفوتوغرافية . ولقد علمته أن يحب صورتك هذه ولم أحلم قط ...

فقاطعنى جون قائلاً :

— فهمت ... فهمت ... رونى يحسب أن له أبوين ، فماذا نفعل فى ذلك يا إلين ؟ هل ترين أن أتركه فى أحلامه ، أم نوقظه كما استيقظنا أنت وأنا ؟

فأجبت فى حدة :

— بل لنتركه فى أحلامه

فأجاب جون فى لهجة حازمة لم يتكلم بمثلها منذ عودته من السجن :

— أما أنا فأرى الأمرين . فإن عقل الطفل أشد ليونة من عقل الإنسان الكبير ، وسيدرك الحقيقة تدريجاً ثم يقبلها .

عدت إلى مواصلة عملى ، وتكلم جون ورونى عن مركب وعد جون ابنه بأن يصنعها له من قطعة خشب صغيرة وجدها ، وقد فهمت من حديث جون أنه قد غوى الحفر فى الخشب واشتغل به .

وبعد برهة قصيرة أخذت رونى إلى فراشه فى الطابق الثانى ، ولما عدت وضع جون جانبا المجلة التى نشرت فيها مقالتى الأخيرة عن صناعة الألبان . وسألنى :

— إلين ، ألا تشعرين بأنك تريدين أن تتكلمى ؟ أظن أن هناك أموراً يجب أن نتكلم فيها معاً ، فما أنت بالسعيدة ولا أنا بالسعيد . لقد قاسينا كلانا الألم الشديد من هذه التجربة الفظيعة . وليس أحد منا بلوم على ما حدث، وما أنا بالرجل الذى أخذوه منك ولا أنت أيضاً بالفتاة التى تركتها ورائى .

ولكل منا ذكرياته القديمة لا يستطيع نسيانها ، وكلانا صغير ، فأنا لم أتجاوز السادسة والثلاثين ، والماضى وراءنا ، ولا يزال أمامنا مستقبل طويل وعلينا أن نفكر فى مستقبل ولدنا ، فهو فى هذا الجو المشبع بالأسى والتوتر سينشأ قلقاً تعيساً ، لهذا أشعر بأنه يجب علينا أن نعمل فى الحال عملاً ما لتصحيح هذا الموقف .

لقد قررت أن أذهب إلى البيت الآخر ، واتفقت مع جاك وجين على إعداد ما يلزم لأن أقيم هناك وأحتل مركزى الشرعى مديراً للمزرعة . ولدينا كمية وافرة من الأرض يا إلين تمكننا من تربية ما نشاء من القطمان دون تعرض لقطيع معمل ألبانك . ولك إذا أردت أن تمضى فى عملك كما مضيت حتى الآن .

ثم رفع المجلة وقال :

— إنك قد نجحت نجاحاً مدهشاً. وإنى لمعجب بروحك القوى وقدرتك على إتمام الأعمال الكبيرة التى اضطلعت بها. فأنت امرأة عاملة قديرة وتستطيعين أن تعنى بأمر نفسك، وليست بك من حاجة إلى إحداث أى تغيير فى أسلوب حياتك، ورونى ابنك. ولم أترك قط لنفسى العنان فى الشغف به، لأننى أدركت منذ اللحظة الأولى شعورك نحوى. لقد قضينا عدة أعوام متقاربين تقارباً شديداً من الناحية المعنوية. فلا يتفق مع هذا أن أعجز اليوم عن قراءة أفكارك. وأريد يا إلين أن أشكرلك قبل أن نفترق تلك الرسائل التى لم أكن لأحتمل حياة السجن بدونها، ولقد دأبت على انتظارها كل يوم حتى اليوم الأخير.

انهمرت دموعى لأننى لم أستطع حبسها، وكان من موجبات العزاء أن أعلم أن جون كان ممتعضاً منى أيضاً حتى أنه ليريد الذهاب.

ولكنى شعرت فى كلماته بتيار خفى من الحزن أثر فى نفسى. وقد وقف عن الحديث، ولكنه لم يرفع نظره إلىّ حين جاوبته:

— لقد كانت الغلطة الأولى غلطتك أنت يا جون حين حملتنى على أن أعاهدك بألا أزورك فى السجن. ولو أننى رأيت بالتدريج ما طرأ عليك من تغير لكان من المحتمل أن أحتفظ بحبك حياً فى نفسى، غير أنك مع ذلك على حق فيما تقول، فليس اللوم فيما حدث بواقع على أحدنا.

« إن الغلطة هى غلطة المجتمع فى أن تؤخذ منى شاباً قوياً جميلاً ثم ترد إلى شيخاً مكسور القلب. وإنى ما زلت على استعداد لأن أوجه الأمور خير وجهاتها، ولكن حب المرأة يا جون يسقط حيث يريد هو لا حيث تريد هى. فلا أنا أحبك ولا أنت تحبنى.

فرفع جون رأسه فى حركة سريعة، ولكنه حول نظرته جانباً وقال فى هدوء:

— إذن أنت تقرين اقتراحى وتوافقين على أن أنتقل من هنا، وهذا هو ما توقعته من قبل، وطبيعى أن يقيم رونى معك ولكننى أريد أن أراه فى أغلب الأوقات

فقلت:

— هذا طبيعى ورونى صبى رقيق الحس وفى مقدورك أن تكسب حبه وصداقته فى سهولة. وهو لا يزال أصغر من أن يفهم الأمور على حقيقتها، وإنى أريد منك يا جون أن تحبه، كما أود أن تدرك مبلغ حزنى لما صارت إليه الأمور، وإنى لأخجل من موقفى بعد الذى قاسيته أنت من الآلام، ولكنى أريدك كما كنت يوم أخذوك منى زوجى الصغير الجميل بجسمه القوى الرشيق ونظرته الثابتة وشعره الغزير ... ويديك يا جون ...

« ألا فاغفر لى يا جون ولتبق هنا فلا تتركنا وسأحاول أن أصلح كل شىء! »

ثم غطيت وجهى بيدى وبكيت

فقال جون:

— أبداً! فإن بقائى هنا أسوأ من إرسالك إلى السجن لتقضى فيه بقية حياتك. لقد كنت أفكر فى غلطتى حين منعتك من زيارتى فى السجن وانتهيت إلى أن الغرور الوقتى هو الذى حملنى على ذلك ... على أن أولى غلطاتى مع ذلك كانت تركى إياك تقضين لياليك وحيدة مندفعاً وراء هايل كيليون فى حياته الجنونية، ولقد دفعت ثمن ذلك غالياً

يا عزيزتي ، دفعته ندماً وحزناً ، ولكنني الآن أريد أن أعيش ... وإنك لخطئة إذ تتصورين أننا نستطيع أن نكون سعيدين أو حتى راضيين في حياتنا معاً في هذا البيت ، ولقد قررت الانتقال إلى البيت الآخر غداً ، وعندي بعض أشياء أريد أن أرتبها، وهي ما يحويه الصندوق الذي جاءني أمس من إدارة السجن ، وأنا من أجل ذلك صاعد إلى الطابق الثاني

والآن أرجو يا إلين ألا تحاولي مرة أخرى إصلاح ما حدث، وإنك لتعلمين أن لا فائدة في الندم ، ولنعش من الآن للمستقبل، لنستقبل ابننا الصغير

حييت جون تحية المساء وتركت الغرفة وقد شعرت الآن بالارتياح بعد أن واجهنا قضيتنا بهذه الصراحة

انتقل جون إلى البيت الآخر ليعيش فيه وعاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل عودته من السجن ؛ غير أنني أصبحت أشعر بأن هناك شيئاً ينقصني . لقد أضعت شيئاً كان يشغل ناحية من حياتي ثم مضى فأنا شاعرة بفقدانه . لقد فقدت زوجي من قبل ، أما الآن فقد انتزعت ذكراه أيضاً من قلبي

وكان روني يقضي وقتاً طويلاً في البيت الآخر ، وقد استحكمت الصداقة بينه وبين جون منذ اليوم الأول حين عاد إليّ يحمل بين ساعديه مجموعة من اللعب المصنوعة من الخشب ، وقال :

— أنظري يا أمي ... هذه مزرعة كاملة أعطاها لي جون. أنظري هذه الفتاة الجميلة التي تشتغل بصناعة اللبن

ومد يده باللعبة في وجهي ، فكانت تمثالاً جميلاً لفتاة عقصت جدائلها كالتاج حول رأسها ، وقد ثني ذيل ردائها إلى أعلى فهي صورة طبق الأصل لي يوم تركني جون ذاهباً إلى السجن : هي الفتاة التي كان يحلم بها جون ويعززها في الخيال

وقلت لابني :

— أعطني يا روني إحدى لعبك فعندك منها كثير

فقال الصبي :

إذن خذي هذه العروس الصغيرة فإن الأولاد لا يلعبون بالعرائس

ثم مضى يقول في حماسة :

— أنظري يا أمي إلى هذا الجواد وهذه البقرة والخنازير الصغيرة ، أنظري إلى ذيولها الجميلة الملفوفة

نظرت ولكنني لم أستطع أن أرى شيئاً لأن الدموع قد ملأت عيني . لقد كان جون يفكر في ابنه الصغير وهو في السجن فصنع له هذه اللعب من الخشب !

وقال الطفل :

— إني أحب جون مثل حبي أبي الذي في الصورة . وهو أب حزين جداً ولكنه يضحك معي ويروي لي أعجب القصص ، وسيصحبني غداً في صيد العصافير التي كان يصطادها وهو صغير . فهو كان صغيراً مثلي وكان يعيش في المزرعة التي يعيش فيها الآن جاك وجين ، وهو يعرف أشياء عن رعاة البقر وعن الهنود ويعرف كل شيء تقريباً !

ولقد كان الأمر كما قال جون : الطفل يألف حكم الظروف بأسرع مما يألفه الكبار

وفي مرة أخرى عاد روني من زيارة أبيه وأخبرني أن جون يعرف كل شيء عن السجن ، فهم هناك يحبسون الرجال بعيدين عن أبنائهم الصغار وبناتهم لأن هؤلاء الرجال أشرار ، وأنا أعرف أن جون لم يكن رجلاً شريراً لأنه

لم يعمل العمل الذى أدخل السجن من أجله ، ويقول جون إنه يحدث أحياناً أن يتعذب الناس بسبب أغلاطهم ، وهذا هو ما يحمل الإنسان على التفكير والحذر من الوقوع فى بعض الأغلاط مثل إيذائك شخصاً تحبه فى سبيل الجرى على هواك

ويعرف جون يا أمى كل شىء عن الفحم . يعرف العناصر التى يتولد منها ، كما يعرف طريقة إخراجه من الأرض ، وسيفتح محلاً هناك بجوار التل ويسمح للفقراء أن يحضروا إليه ليأخذوا ما يحتاجون إليه من الفحم لتدفئة أطفالهم الصغار .

وهكذا أطلع جون رونى على السر الذى اجتهدت فى إخفائه عنه . ولقد عرفت كيف حدث ذلك ، فقد سأله رونى السؤال الذى كان يحيره فأجاب عليه جون بالصدق وحدث الطفل كما لو كان يحدث رجلاً رشيداً

لقد شعرت فى أحيان كثيرة أن رونى محتاج إلى صحبة رجل طيب ، لذلك فكرت فى أن أتزوج مرة أخرى تحقيقاً لهذا الغرض ... والآن أرى أن رونى قد أحب جون ، بل هو يحبه أكثر مما يحبنى ولكننى لم أغضب لذلك !

كانت هذه أول سنة لرونى فى المدرسة ، ولقد كنت أتتبع بلهفة حركات تقدمه ، وكان يمر فى طريقه إلى المدرسة ومنها ببيت جين وود ، وكانت جين تأتى به إلى البيت فى أغلب الأحيان ، وكان جون يصحبهما فى بعض الأوقات . ولقد قابلت صداقته لجين دون أن أحس بأقل أثر من الغيرة ، وقد خطر لى - إذا كانت جين تهتم به - أن أطلقه فقد تكون قادرة على إسعاده ، وما من شك فى أنها تصبح زوجة صالحة .

ولم تكن جين أقل منى ابتهاجاً بحياة رونى الجديدة ، فلقد كان التغير الذى أحدثته فيه المدرسة كبيراً . وكانت الفتاة تستوقفه كل ليلة عند عودته لتعطيه فطائر طازجة من الجنزبيل أو الكعك ، وكانت دائماً تخاطبنى بالتليفون إذا هى أبقته عندها وقتاً طويلاً . وكانت تقول فى بعض الأحيان : لقد ذهب رونى مع والده إلى جهة ما وسيحضر إليك بعد قليل

وكنت أشعر بالاطمئنان والرضا حين أعلم أن رونى فى بيت جين

كنت فى هذه الأيام كثيرة المشاغل فقد قبلت أن أتولى كتابة صفحة فى مجلة مصانع الألبان ، عدا الاشتراك فى مسائل أخرى كثيرة ، وكلما كثرت أعمالى قل تفكيرى فى نفسى . ولقد عاد إلى الشعور بالسعادة ، فكنت على الأقل أنعم بالحياة وقد خلت نفسى من كل غل أو حقد أو غيرة

وعاد شهر إبريل وكان الربيع بارداً رطباً وصحبت رونى إلى المدرسة فى صباح أحد الأيام ، وكانت السماء قد أمطرت بعد العشاء مطراً بارداً فاعتزمت أن أذهب هذا المساء بنفسى إلى المدرسة لإحضاره ، ولكن جاءنى رجل لأخذ صور للمجلة . وبلغت الساعة الخامسة قبل أن أتنبه إلى الوقت ، فجزعت لعدم عودة رونى إلى البيت ودققت التليفون لبيت جين وود ولكن لم أتلق رداً لدقاتى . وإذ كنت أتأهب للبس معطفى استعداداً للخروج أبصرت بجون يحمل رونى إلى البيت ، وأسرعت إلى الباب وفتحته لحظة وصوله إلى عتبته وصحت .

— ماذا حدث ياجون؟ هل أصيب رونى بسوء؟

فأجاب جون :

— هو مريض فلا تجزعى . لقد مرض

فى المدرسة وجاء إلى بيتنا ماشياً ، ومن هناك حملته إلى هنا .

وبينما هو يتكلم ذهب رونى إلى الصفة فأرقده فوقها ، وكانت حرارة الصبى مرتفعة ولم يكن فى استطاعته أن يرفع رأسه ، وقد قال لى فى صوت خافت :

— لماذا لم تحضرى يا أمى ؟ لقد شعرت بأننى مريض جداً

عندئذ أدركت أننى كنت حتى هذا الوقت أفكر فى نفسى وفى أعمالى أكثر من تفكيرى فى رونى على الرغم من شدة حبى له .

وإذ استوى جون واقفاً بعد أن رتب الوسائد بما يتفق وراحة رونى قال له الصبى :

— ابق هنا يا جون

فأجاب جون :

— سأعود يا رونى ، فهناك شىء آخر لا بدّ من عمله وسأراك ثانية ياعزيزى .

ثم التفت جون إلى وقال :

— سأنقله إلى فراشه يا إلين ، ولكننى ذاهب الآن لإحضار الطبيب فأعطينى مفاتيح سيارتك .

عرفت حكم الطبيب قبل أن ينطق بكلمة « نيمونيا » فنسيت كل شىء فى الدنيا إلا هذا العالم الصغير الذى يحيط بولدى وهو فى فراشه يكافح الموت .

وبقى جون بجانب رونى الذى لم يسمح له بالذهاب وقضى إلى جانبه أياماً وليالى طوالاً لا يفارقه لحظة فى أثناء يقظته ، ولا يبعد عنه إلا قليلاً إذا هو نام .

وكان يعنى بابنه المريض فى لطف وحنان ولكنه لم يكن أقل لطفاً وحناناً مع الزوجة التى جحدته .

ثم جاءت الليلة التى علقت فيها حياة الصغير فى ميزان القدر ، فقد اقتربت الأزمة وجلس الطبيب منحنياً عند نهاية السرير يرقب التنفس ، ووقفت إلى جانب السرير ووقف جون إلى الجانب الآخر

وعند منتصف الليل تلاشى الظل الأغبر عن وجه رونى ولم يبق مكانه إلا شحوب رائق . ثم فتح عينيه يتلمس أحداً حوله وقال همساً :

— جون ؟

فأجابه جون :

— هأنذا يارونى ، هأنذا يا صديقى العزيز ...

فمرت على الشفتين الصغيرتين ابتسامة ملائكية وقال :

— حدثنى يا جون عن بعض الهنود ورعاة البقر

فقال جون :

— لا شك فى أننى أعرف من أخبارهم أشياء كثيرة رائعة ولكن يجب الآن أن تنام هادئاً فترة طويلة

فأطاع رونى إشارة أبيه وأدار رأسه واستغرق فى النوم

فوقف الدكتور جونستون وقال :

— سيعيش . وكل ما يحتاج إليه الآن هو العناية . ترى هل أعدت مارى شيئاً من القهوة ؟ أظن أنى أشم رائحة قهوة وسأهبط إلى الطابق الأول لأرى

رفعت رأسى فرأيت جون ينظر إلىّ بعينين ملؤهما الحب ، فقلت همساً :

— جون ، جون ، إنى أريدك ، أريدك كما أنت

فدار جون حول السرير قادماً نحوى وقابلته فى منتصف الطريق ، وإذا أنا بين يديه يضمنى من جديد بعد هذه السنوات الطوال ، وهو يقول :

— إنى أحبك يا إلين ، ولم يقف قلبى قط عن

النبض بحبك ؛ ولكننى تركتك تعتقدين أن الحياة بدونك كانت مستطاعة ميسورة ، ولم أكن أثق بضبط نفسى إذا نظرت إليك . وكنت أخشى أن تدركى أننى أحبك ، والآن ستعود إلينا السعادة يا عزيزتى .

فأجبت :

— جون ، إنى أحبك حباً صادقاً آخر الأمر

فقال جون فى رقة ولطف :

— ترى هل يفرح صبينا الصغير بهذا ؟

لم أجب على هذا السؤال لأن الطبيب عاد فى هذه اللحظة إلى الغرفة وقد فاجأنا بقوله :

— خذ زوجتك فأرقدها فى فراشها

ولما نظر إلى وجهى قال :

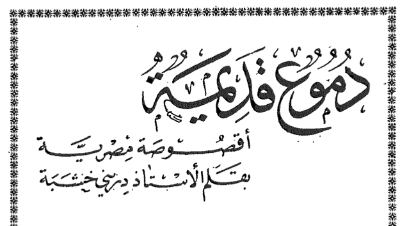
— لقد تعبت كثيراً ولكنها كانت تتجلد فلا تشكو

ثم مضى يقول :

— إنكما لا تدركان مبلغ سرورى بشفاء طفلكما . وستصبح حياتكم جميعاً سعيدة رائعة بعد الآن . وأنت أيضاً يا جون اذهب واسترح وسأبقى أنا هنا فترة من الزمن

قضيت أنا وجون ساعتنا الأولى معاً محاولين أن نجمع فيها كل ما فقدنا من السعادة طوال هذه السنوات المرة . وإن هناك من التجارب ما لا تستطيع الكلمات أن تصفه ، إنما يستطيع أن يقدرها من يمر بها فيعرف قيمة الحياة بعدها

عبد الحميد حمدى



جلس الوالد السعيد يسمر إلى أولاده السعداء حول منضدة كبيرة فى الردهة الفسيحة المزدانة بصور العظماء وأعلام الفكر . وكانت ثريات الكهرباء تسكب أذوابها على الوجوه الصغية إلى الحديث الساحر الجذاب ، يلقيه إسماعيل أفندى عبد الرءوف بطريقته الرائعة وأسلوبه القوى وعبارته الهادئة فينفذ بكل ما فيه من جمال إلى أفئدة بنيه

وكانت ليلة من ليالى الصيف المقمرة . وليالى الصيف المقمرة فى مدائن الوجه القبلى عامة وفى مدينة المنيا عروس مصر العليا خاصة تشبه ليالى القدْر .. لأنها ليالى الأحلام والمحبة والشعر والسمر الجميل الحلو الذى تهدهده أغانى الصعيد الفتانة ، وتحمله نسائم الصحراء فترطب به القلوب والأكباد

لله ما أروعك يا قمر الصعيد ! ولشد ما كان آباؤنا معذورين فيك حين اتخذوك إلهاً !

خونسو !

هكذا كانوا يُسَبِّحون لك ويضرعون بأكفهم إليك ، ويتمنون عليك الأمانى !

فكم سطرت فى أديمك المتلألئ من قصة حب يا خونسو الجميل ، وكم شهدت دموعاً تذرفها عيون مُسَهّدة تحت ذَوْب الفضى وهى لا تجد أحداً غيرك تجعله مستودعاً لأسرارها ، فتشكو إليك بثها وهى واثقة بك ، مؤمنة أرسخ الإيمان بألوهيتك التى تمسح الدموع وتكتم الأسرار ولا تفشى ما تؤتمن عليه من بنات القلوب !

نظر إسماعيل أفندى إلى القمر الساطع خلال الشرفة الكبيرة ، وظل برهة مسبوهاً كأنه فى حلم ، ثم اقترح أن يذهب الجميع إلى الحديقة ليجلسوا ثمة تحت قمر المنيا وسماء المنيا ، وليشرفوا من ربوة الخلد على النيل القديم المقدس المتثل فى هدوء ودعة لوحى خون[1] العظيم

كان إسماعيل أفندى فى مستهل حياته ضابطاً من ضباط البوليس ، وكانت له سطوات كان صداها يتجاوب فى فضاء قلبه ، فتارة يبتسم وتارة يتجهم ، وتارة يشرد لبه ... وهكذا كان يبدو أثر ذكرياته على وجهه حين ينفعل بها

وكان يقص لأبنائه بعض مجازفاته فى مطاردة اللصوص إذ هو معاون بوليس ببندر طنطا منذ ثلاث وعشرين سنة ... وكانت طريقته فى القصص طريقة جذابة شائقة ، ولذلك كان أبناؤه يصغون إليه إصغاء تاماً ، وكانت القصة — أو الحادثة — التى يروى وقائعها قصة أخلاقية رائعة ممتلئة بالمخاطرات التى يزيدها ظلام الليل ، ونقيق الضفادع ، وعواء الذئاب فى ريف الغربية الشاسع روعة ورهبة .

---

(١) خون وخونسو من أسماء القمر عند المصريين القدماء ...

لـكن إسماعيل أفندي سكت عن الحديث فجأة ، وانتظر أبناؤه أن يصل قصته ، بيد أنه لم يفعل ، وبدل أن يتـكلم راح ينظر إلى القمر ، أو إلى خونسو بلغة المصريين القـــدماء ، كما كان ينظر إليه عُبّاده الأولون ... ثم راع الأبناء الواجمين أن يذرف أبوهم عبرةً ترقرقت فوق خديه الشاحبين ، لم يستطع أن يمنعها من أن تنذرف .

ولم يجرؤ أحد من الأبناء أن يسأل أباه لماذا يبكي ، لـكن أمهم لم تبال أن تفعل ...

— أوه ! ماذا ؟ لعلك أسفت لأنك تسببت في إعدام اللص ؟

— أبداً .. آه .. أجل .. والله لقد آلمني ذلك !

— ولم ؟ أليس يستحق القاتل أن يُقتل ؟

— قد يستحق القاتل أن يقتل ، لـكن كثيرين من القتلة لا يستحقون أن يقتلوا .

— إذن تريد أن تضع شريعة جديدة ...

— لست أحاول ذلك .

— ولـكن قل لنا أولاً : لماذا أحزنك إعدام القاتل إلى هذا الحد ؟ !

— لقد ترك أسرة شقية لا عائل لها غيره .

— ولِمَ لَمْ يلتمس عيشه من طريق حلال ؟

— ومن يدرينا أنه لم يفعل ! لا شك عندي أن أكثر لصوص بلادنا مضطرون إلى هذه الدناءة برغمهم .

— ومنهم المجبول عليها وهو في غير حاجةٍ إلى السرقة .

— هذا حق لـكنه قد يكون معذوراً كذلك !

— كلام عجيب ، وأعجب منه أنه يخرج من فم رجل كان ضابط بوليس فيما مضى ... وكيف يكون معذوراً وهو في غير حاجة إلى السرقة ؟

— قد يكون معذوراً لأنه ربما نشأ في منزل يعلم الإجرام !

— فلسفة جديدة !

— ليست فلسفة لـكنها الحقيقة !

— وكيف ؟

— لو علمنا الناس وحاربنا الفقر لانتفت الجريمة

— وما علاقة المنزل بكل هذا ؟

— المنزل هو البناء والسكان ، وما دام البناء غير صحي فسيظل الجسم غير صحيح . وما دام الجسم غير صحيح فسيظل صاحبه يفكر تفكيراً سقيماً ملتوياً ، ومع ذاك فهو لا يفكر إلا في الشر والحسد والحقد و ... الجريمة ... هذا من جهة البناء ... ومن جهة السكان ، فهم غالباً امرأة جاهلة شريرة ، وابنة أجهل من أمها تريد أن تتزوج بأية وسيلة إذا دب الحيوان في أصلابها . . . ثم أبناء متخاصمون متنافرون لا يرحم بعضهم بعضاً ، ولا يريد أحدهم الخير للآخر ، لا سيما إذا كان أحدهم متزوجاً ...

— أرجوك أن تدع هذا كله ... ولـكن ماذا أبكاك ؟ أحقيقة أنك تألمت لأن الرجل ترك أسرة لم يكن لها عائل غيره ؟

— هذا هو !

— أبداً ! ...

— إذن فماذا تحزرين ؟

— أحزر ؟

— أجل

— لابد أن في المسئلة سراً ، وقد حاولت إخفاءه عنا بهذه الفلسفة في أصل الجريمة !

— أبداً

— أبداً ... هل هذا صحيح ؟

— وماذا يهمني أن أقول كل شيء عن سر حدث منذ ثلاث وعشرين سنة ؟

— ليس يهمك شيء ؟

— بلى ... لا يهمني مطلقاً ...

— على كل، شكراً للقمر العجيب الذى أبكاك !

* * *

وقبل أن تنهض الأسرة المباركة لتنام ، وكانت الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة سُمع صوت سيارة تقف عند باب الحديقة ، فأومأ إسماعيل افندى إلى الخادم لينظر من المقبل

من ؟ !

سيدة نَصَف(١) مُلَثَّمة بلثام أسمر خفيف يداعب النسيم حواشيه ، وفتاة ناهد فى مقتبل الصبا وشرخ الشباب ، ترفل فى ثياب ثمينة تدل على السعة والثروة والعيش الناعم المخفرج ... ثم شاب سامق كالرمح يثب فى خطاه كذكر الحجل ، عليه بذلة رسمية مما يلبس تلاميذ مدرسة البوليس ، أخذ القمر يراقص أزرارها الصفر النحاسية ويغازل أشرطتها الحمر الزاهية

— مرحباً مرحباً ، لعلكم فضلتم أن تستريحوا عندنا !

— شكراً يا إسماعيل بك ! ألا تستطيع أن تذكر من أنا ؟

— أنت ! ! ... أهلاً وسهلاً ... إجلسوا أولاً ... أ ... لعل الطقس ملائم هنا ... أو ... تفضلوا فى حجرة الجلوس يا حامد ... يا حامد ... أودة الجلوس يا ولد !

(١) النصف التى بلغت الأربعين من النساء

— كلا ، كلا ... لا داعى ... صافحى أباكِ يا إحسان ... قبلى يده ! هذا هو أبوكِ يا وجدى ...

ما هذا الظلام الحالك الذى انتشر فجأة فى عينى إسماعيل ؟! إحسان ؟! من إحسان يا ترى ؟!

لقد وجم إسماعيل وجوماً شديداً ، ووقفت العائلة السعيدة ترمق القادمين بأعين دهشة ساهمة ... من هؤلاء يا ترى ؟ ! لقد تساءل الصغار كل بينه وبين نفسه : مَنْ هؤلاء ؟ ! مَنْ إحسان ؟ ومَنْ وجدى ؟ ومن هى هذه السيدة ... ؟ إن السيدة تقول : إن أباهم هو أبو إحسان وأبو وجدى ، فإحسان إن صح هذا هى أختهم ... ووجدى ... هذا الشاب اليافع المعجب ببذلته العسكرية هو أخوهم ... أخت من الطريق وأخ من السيارة ... وعائلة طرقت باب الحديقة من جوف الليل المقمر

ما هذا يا خونسو ؟ ! ما هذا يا كاتم الأسرار الرهيب ؟ ألم يتفق عبادك على أنك مستودع بنات القلوب الذى لا يفشى منها شيئاً ؟ كيف تفجأ عائلة بعائلة هكذا من غير أهبة وعلى غير استعداد ... ؟! ألا ما أقساك يا خونسو الخبيث الساهر الساهى ! !

تقدمت إحسان إلى إسماعيل افندى فصافحته ، ولمَّا همت بتقبيل يده سحبها فى رفق وتلطف ... ثم تقدم وجدى افندى فصافح الرجل المرتجف المضطرب ، ولم يحاول تقبيل يده ، بل لم يحاول الانحناء القليل اليسير وهو يتناول اليد القاسية الصارمة التى كان يمنى نفسه منذ أن أدرك معنى الحياة وحملها الثقيل بحسابها الحساب العسير

أما سميحة هانم ، أم الأنجال وربة العائلة ، فقد أحست أنها فى مسرح كبير شاسع مكتظ بالرواد ، تضج جنباته بالصفير والتصفيق والصخب ... وأول

المصفقين الصاخبين هو ذلك القمر الساطع الساخر فى عليائه ، الذى يكاد ينشق قطعتين من شدة الصفير والتصفيق .

لقد راحت سميحة هانم تتفرس فى هذا الركب الذى انشق عنه جوف الليـل كما تنشق القماقم عن عفاريت سليمان !!

وراحت تسائل نفسها عن هذا الفتى وهذه الفتاة ولدى السيد إسماعيل زوجها العزيز

ثم جعلت تفكر فى الرسالة التى وردت باسمها اليوم تحمل إليها نبأ هذا اللقاء المفاجئ العجيب ... « لقاء سيدة يسعدها كثيراً أن تنال مساعدتها فى أمر هام سيجلب السعادة لـكثيرين ، وسيشفى جراحاً طال عليها الزمان ما تفتأ تسبب آلاماً لـكثيرين ... » ... هذه كلمات من الرسالة الهائلة التى تسلمتها سميحة هانم اليوم واليوم فقط ... لقد تسلمتها فى الساعة الثامنة صباحاً ، والساعة الآن الحادية عشرة ونصف مساء ... فكأنه لم يمض إلا نصف يوم وبضعة ساعات حتى تم اللقاء التى أنذرت به ـ أو خبرت به ـ الرسالة الهائلة

ولم تكن سميحة هانم تصدق أن وراء زوجها الوفى الأمين سرًّا عميقاً كهذا السر ، إذ كيف يكون ما جاء فى الرسالة حقاً وهذا هو زوجها الوفى الأمين يعاشرها عشرين عاماً لا تدل إلا على الوفاء الجم والمحبة الصافية لها ولأبنائها ... وكيف يستطيع رجل مثل هذا الرجل الوفى الأمين أن يكتم سراً مثل هذا السر فى أعماق قلبه فلا يبوح به لزوجته التى هى نصف حياته إن لم تكن حياته كلها ؟!

لقد قرأت سميحة هانم رسالة تلك السيدة التى وصلتها اليوم عشرات المرات ، وكانت تخرج منها فى كل مرة بمعنى جديد لم يخطر لها ببال ، ثم كانت تارة تصدّق وأخرى تكذّب ، تصدّق لأن ألفاظ الرسالة ألفاظ حزينة مكتئبة فيها إخلاص وفيها دموع وفيها حسرات ، وتكذّب لأنها لم تعهد فى زوجها إلا الأمانة والصدق والبساطة أحياناً . فكيف يستطيع أن يخفى عليها سره هذا وهو سر هائل هكذا ؟

وخُيل لسميحة هانم أن الرسالة مفتوحة أمام عينيها . فهى تتلوها سطراً سطراً وكلمة كلمة . بل خيل إليها أن حروف الرسالة أحلام سـوداء عانق بعضها بعضها ، وأخذت ترقص فى رأسها المضطرب هكذا :

حضرة السيدة المحترمة حرم إسماعيل بك عبدالرءوف

« لا تنزعجى يا أختاه فهذه رسالة من أخت ، أو صديقة ، لا تحقد عليك ، ولا تتمنى لك إلا كل خير وسعادة ... على أننى لست أدرى إذا كنت قد علمت قصتى أو عرفت اسمى قبل اليوم ؟ أنا أرجح أنك لا تعلمين من أمرى شيئاً ، ولذلك ، فربما تظنين أننى أرسـل إليك بهذه الـكلمة الحزينة لأحدث فى حياتك الهانئة حدثاً يرنق صفاءها لا قدرالله .. كلا يا أختاه ... فلقد صبرت للنكبة التى حلت بى صبراً جميلاً ، وكرست حياتى لإسعاد ولدى مجدى وإحسان ، وسامحت إسماعيل على ما صنع بى ، وإن لم يكن له عذر قط ... قد لا تظنين أننى أقصـد إسماعيل بك عبد الرءوف زوجك المحترم .. إطمئنى يا أختاه ... إنه هو نفس الرجل الذى أعنى ... قد لا يكون عندك خبر بما كان بيننا منذ ثلاث وعشرين سنة ... أوه ! ثلاث وعشرون سنة زمان طويل جداً وقديم ، وإثارة الذكريات التى ترجع

إلى قبل هذا التاريخ هو شيء مؤلم، ومثير للعواطف.
لماذا لا نفضل أن ننسي هذا الماضي؟ آه! قد تعصف بنا ضرورة فنثير هذه الذكريات برغمنا ... فمثلاً ...
لا تنزعجي يا أختاه إن لم تكوني قد عرفت ماسأذكره لك ... فمثلاً ... لقد حدث أمر قهري بيني وبين اسماعيل بك قبل ذلك التاريخ البعيد ... قد تسأليني ماذا حدث، وسأريحك حتى لا تفكري طويلاً ...
لقد أحبني اسماعيل وأحببته، وأحب كل منّا الآخر حبًّا من ذلك الحب الذي تستعر ناره بسرعة وفي عنف لأنه يصادف قلوباً خالية فيتمكن ويكون جارفاً عارماً قوياً ... حب الشباب يا أختاه ...
وأحسبك قد أحببت إسماعيل كما أحببته، لأنه قبل عشرين سنة كان فتى سمهري القامة، خلاب اللفتات؛ وكان في روحه شيء غريب غامض تنجذب إليه أرواح الفتيات في شدة من دون أن تكون لهن إرادة في ذلك، فلا يلبثن أن يقعن في شراكه كما تقع الحشرة في نسيج العنكبوت ... أخشى أن أملّك لأني أطيل عليك ... فاعذريني إن خرجت عن موضوع رسالتي، لأنني أذكرك بما كان في إسماعيل، زوج كلينا، من جاذبية وسحر، لأن تذكيرك بهذا سيكون أقوى أدلتي عندك على صحة قولي ... ولا بد أنك تذكرين جاذبيته وسحره تماماً، خصوصاً إذا كنتما قد تحاببتما قبل الزواج.
— نما حبنا يا أختاه، وسقته دموعنا، فترعرع وأظلنا كالدوحة الباسقة ... وارتبط قلبانا برباط قوي مقدس ... لكننا لم نصبر على جوى الحب كما يصبر الآخرون. لقد زلت قدمنا ياسميحة هانم. يالله لماذا أبوح بكل هذا؟ ... ولما لا احظ المأسوف عليه — أو المغفور له — والدي ما تغير من حالي، استشاط غضباً، ودبر لنا حيلة ليجمعنا وإياه معاً ليرى فينا رأيه ... وا أسفاه! ليته لم يفعل يا أختاه! لقد جمعنا ليلقى حتفه بيد إسماعيل! ... أما كيف كان ذلك فلهذا قصة طويلة حالكة ما تزال طي الكتمان إلى وقتنا هذا، وأنا ألخصها لك في كلمات ... لقد احتدت المناقشة بين أبي وبين ... حبيبي ... وهم الوالد المغيظ المجروح في عرضه المطعون في شرفه أن يبطش باسماعيل، فأخرج من جيبه غدارة محشوة ليفرغ نارها في صدر الشاب، ولست أدري كيف نسي إسماعيل عند ذلك حبه، وتنمرت في رأسه عسكريته؛ فإنه أخرج مسدسه بأسرع من البرق، ثم أطلقه في رأس أبي ...
— يا للهول! ... إنني أتذكر الوالد المسكين يا أختاه وهو يسقط إلى الأرض ناظراً إلي ... إلي أنا وحدي ... تصوري أيتها العزيزة موقفي ذاك بين أبي وبين حبيبي ... أستغفر الله ... بل بين أعز الآباء وأكرمهم وبين هذا الحبيب الوحش القاتل، سافك الدماء! ... على أن أبي العزيز كان كريماً حتى في موته ... لقد ظل يجود بروحه أكثر من عشر دقائق نسي فيها موقفه ومأساتي، وذكر خلاصي وخلاص ... إسماعيل!!
« لقد طلب إلي قلماً وورقة، فأحضرتهما على عجل، فكتب بيد مرتجفة أنه ينتحر تخلصاً من مرضه، وسجل الاعتراف بكتابة اسمه في هدوء عجيب وطمأنينة لا يذكرهما أحد ساعة الموت!
وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه، انحنى إسماعيل يقبله، فتبسم أبي ثم تمتم: « هل تتزوج كريمة يا إسماعيل؟ » . فأجهش إسماعيل بالبكاء ثم قال: « إطمئن أيها الوالد فسأتزوجها، والله على ما أقول شهيد ... »

وقيدت الحادثة انتحاراً كما أراد والدى الكريم الرحيم البار ، ولم يحنث إسماعيل فيما قاسم عليه أبي ، وتزوجنا ، ورشونا المأذون فقيد التاريخ فى صحيفة سابقة ، حتى لا يكون كلام بين الزواج وبين الحادث وبين الوضع ...

وعشنا فى ظلال الحزن أعواماً ثلاثة ، كانت تتمثل لنا الحياة طوالها جحيماً لا صبر لنا عليه ... فقد فترحبنا ، وخمدت جذوته التى كانت تشيع بالكهرباء فى جوانحنا ... وولدت لإسماعيل إحسان ، لكنه لم يرها إلى اليوم ، فهل تصدقين ذلك ؟ وظنى أنه لا يذكر أخاها وجدى ... وجدى الحبيب الذى لو رأيته اليوم لسرك شبابه ، وراقك عنفوانه ... وجدى هذا لا يذكره إسماعيل أبوه ... كما لا يذكر أخته ، لأنه ، عفا الله عنه أبي إلا أن ننفصل قبل أن أضع ابنته بأربعة أشهر ، وكان عمر وجدى إذ ذاك عامين ونصف العام على وجه التقريب

ولم أعارضه فيما رأى ... وأبرأته من كل شىء ، وافترقنا على ألا نلتقى إلا الأبد

وعلمت بعد ذاك أنه خطبك وبنى عليك ، فوالله ما حزنت لهذا ولا ضقت به ، بل ذكرت الله ربى لى ولولدى ، وصليت له من أجلهما

واليوم ... وبعد عشرين عاما يا سميحة هانم ... كبرت عزيزتك - إن رضيت منى هذا التعبير - «إحسان» وتقدم إلى خطبتها شاب رضى الخلق سرى النفس كريم الأرومة ، من أسرة عريقة فى بلدتنا طنطا . وهو طبيب من أشهر أطباء المدينة له جاه وله سمعة طيبة ... غير أنه ، ولا أدرى كيف عرف هذا ، علم أن والد إحسان ما يزال حياً يرزق ، وإنه يقيم فى منزله فى مدينة المنيا كأحسن ما يقيم الوالد الكريم بين أبنائه ... فأصر على وجوب اشتراك الوالد فى خطبة ابنته ، وفى عرسها أيضاً ...

— حاولت يا سميحة هانم أن أثنيه عن هذا الإصرار فأبى ، وقال إنه ذهب إلى المنيا وعرف من سيرة إسماعيل بك الشىء الكثير ... إن جميع أهالى المنيا يمتدحون أخلاقه ويطرون سيرته ، ويضعونه فى الذروة من شرفهم جميعاً ، فماذا يمنعه من المشاركة فى عرس ابنته ، ولماذا لا ننتهز هذه الفرصة الثمينة لنسيان الماضى ؟

— خفت يا أختاه أن أصر على الرفض خشية من العواقب ، وإقصاء لأشباح الذكريات المرة حتى لا تعكر علىّ صفو أحزانى ؟ أجل ! صفو أحزانى يا أختاه ... فقد صار لأحزانى صفو رضيت به ، فأنا أتجرع غصته فى سكون وهدوء وشجاعة ... لأني أنسى ماضىّ كله فى سبيل حاضرى المستمر ، وهو السهر على تربية وَلَدَىّ اللذين فر أبوهما وتركهما فى عنق ...

— فماذا تقولين يا سميحة هانم ؟ هل كثير أن عرفت هذا السر المزعج الذى ما أظن إسماعيل قد وقفك عليه ؟ وهل كثير أن أضرع إلى هذا الوالد الكريم أن يشارك فى عرس ابنته مشاركة إن شاء جعلها رمزية ، وإن شاء جعلها فعلية ؟ إن هذا أو ذاك لا يكلفه كثيراً ... فأنا والحمد لله فى سعة ، وقد ترك لى المرحوم والدى أطياناً واسعة وعقاراً عظيماً ومالاً جماً ... فمن جهة المادة لا أريد أن أكلفه شيئاً ، والذى أطلبه منه أن يكون أباً لإحسان يوماً أو يومين ، وأن يذكر تضحيتى فى سبيل ولَدَىّ ؛ فقد رفضت خطبة أطباء ومثرين

ومحامين وقضاة ، وفضلت أن أعيش لوجدى وأن أعيش لإحسان أرعاها بعين الأمومة الحزينة الباكية وأعطف عليهما بالصدر الذى كله أشجان وحشوه آلام وذكريات وأحزان ...

« فماذا تقولين إذن ؟ هل ستكونين شفيعتى لدى هذا الرجل ؟ هل تضمين صوتى إلى صوتك فى سبيل إيقاظه من هذه النومة الطويلة ؟ ! لقد عزمت أن أزوركم فجأة ... و ... وربما لا يمضى طويل حتي أكون عندكم ...

« وتقبلى يا أختاه تحيات أم مهيضة كسيرة ، وقبلات ابن يتيم وأبوه حى ، وسلام فتاة بريئة لم تسعد بوالدها القريب البعيد ! ! »

« كريمة بهاء الدين »

تخيلت سميحة أن هذا الخطاب الطويل مبسوط أمام عينيها ، فهى تقرأه ، ثم تقرأه ، ثم تعيد قراءته عشرات المرات فلا تستغرق المرة أكثر من طرفة عين ، وعجبت كيف يكون ما جاء فيه حقا وكيف تكون هذه السيدة ــ كريمة هانم بهاء الدين ــ حقيقة لا ريب فيها ... ثم تفرست فى الشاب ... وجدى... ما أحلى هــذا الاسم وما أرقه ! ! وجدى ! ! الثمرة البريئة لحماقة عاشقين ! ! فيا ترى ، هل يعرف وجدى هذه القصة القديمة المؤلمة ؟ . . . إنه قطعة من أبيه ما فى هذا شك ، وها هى ذى ظلال فضية من أشعة القمر تنكسر على جبينه فتعكس السحر من ناظريه ... صورة قديمة كالصورة التى وصفتها كريمة هانم فى خطابها لشباب إسماعيل وجاذبيته وسحره ... ولقد أحبت سميحة هانم زوجها إسماعيل وهامت به بتأثير هذه الجاذبية الغامضة التى كانت تفيض بها روحه كما ذكرت كريمة ... لكن إسماعيل أيضاً كان يبادل زوجته حباً بحب وهياماً بهيام ... فيا ترى ، هل كان يذكر كريمة فى فصول غرامه التى كان يملأ بها أذنى سميحة ، ويرتلها على سمعها ترتيلاً ؟ ؟ أليس فى هذا العشق بعد العشق نفاق على القلب وتدليس على الروح ؟ ؟ لقد تكلم إسماعيل عن الجريمة والمجرمين الليلة ، وقد سكت فجأة وهو يقص على أبنائه إحدى مخاطراته ... فلماذا سكت فجأة يا ترى ؟ ! أيكون قد ذكر هذه المأساة الدامية ؟ ! إنه لابد قد ذكرها إن لم يكن قد ذكر ما هو أشد منها هولاً وأغزر دماء بريئة ؟ ! ولكن وجدى ... هذا الفتى المشوق السمهرى ما ذنبه ؟ ؟ كيف ساغ لإسماعيل أن يتركه ويترك ما فى بطن أمه ثم يفر كالجبان النذل ليتزوج مرة أخرى بدل أن يعتكف فى خلوة أو يعتزل الناس فى جبل أو دير ؟ ! ألا ما أشق الإنسانية بكثيرين ممن ينتسبون إليها ظلماً وهم إلى وحوش الغاب أقرب !

ثم هذه الفتاة الجميلة إحسان ؟ ! كيف نشأت طوال هذه السنين ؟ قد يظن الإنسان أنها كانت تكون أشد شقوة لو أنها كانت فقيرة ، والإنسان حين يظن هذا ينسى أن ملء العالم ذهباً لا يعوض على فتاة مثل إحسان تلك الأبوة التائهة ... ! إنها لابد قد سألت نفسها ألف ألف مرة : أين أبى مادام موجوداً ؟ ولماذا لا يعيش مع أمى كما يعيش الآباء مع الأمهات ؟ ولماذا يكون أبى بهيما هكذا وكل الآباء بشر لهم قلوب وفى قلوبهم رحمة وعطف ومحبة ؟ ! لا بد أن إحسان قد سألت نفسها هذه الأسئلة ألف ألف مرة ، بل هى تسألها صباح مساء وفى كل لحظة . وليس صحيحاً أنها لا تعرف ما الأبوة لأنها لم تجربها ولم تنعم بها ... ليس صحيحاً هــذا ... وإلا فقد بطل علمنا بالله لأننا لم نره ، فإن إحسان

تعيش كما يعيش أترابها ، ولـكل من أترابها والد بر رحيم محب ودود ، لـكن إحسان ليس لها أب لا بر ولا غير بر ، وإذا سألت أمها أجابتها بدموع غزار حرار ، ثم لم تشأ أن تكذب ابنتها ، فتصرفها عن سؤالها فى رفق وعطف وحزن وتلدد

ما هذا الوالد اللئيم الذى يفر من أبنائه كما تفر ذكران القطاط والـكلاب والحمير و ... و ... ؟!

كيف يسمو علينا نحن الآدميين الحمام والعصافير وسائر الطير وهى من مراتب الحيوان ولو أن لها أجنحة ؟!

* * *

— «صافحى أباك يا إحسان!! قبلى يده!! هذا هو أبوك يا وجدى ! » قد يكون الإنسان جالساً مع بعض صحبه فيسقط عليه جلمود من الصخر فجأة فلا يحس الألم فى الحال ، لـكنه يقع فى شبه غيبوبة عميقة إذا أفاق منها بدأ يصيح كالطفل ، وقد لا يشعر أين مكان الألم من جسمه ، لـكنه كلما ذكر أن حجراً سقط عليه من علو استفظع الأمر واستمر فى الصياح ... وهكذا كان حال إسماعيل افندى حينما سمع السيدة تقول هذه العبارة الهائلة : « صافحى أباك يا إحسان ! قبلى يده ! هذا هو أبوك يا وجدى ! »

إنه فوجئ لأول مرة فى حياته بأن له ابنة تدعى إحسان ! لم يكن يعرف ذلك من قبل ، وإن يكن يعرف أنه ترك كريمة حاملاً . . . يا لقسوة الفؤاد الذى ينسى رجولته تحت إصر الجريمة ؟ ! لقد نزل عليه الخبر كما يصطدم رأس السارية بعامود من حديد أو جدار من الحجر الصلد ، وقد أسلمه ذلك إلى غيبوبة عميقة زاد فى عمقها أنها حدثت أمام زوجه وأبنائه ...

لقد نظر كل من هؤلاء نظرات تائهة إلى السيدة الملثمة فى ضوء القمر ، فلما قالت قولتها ، انصرفت نظراتهم متبعثرة تنتثر على وجه أبيهم ووجه إحسان ووجه وجدى ... لـكنها كانت أعلق بوجه الوالد من أوجه الغرباء المفاجئين !

هل عرفت الماء الآسن الراكد حين تقذف فيه بحجر ماذا ترى على سطحه من تغيرات ؟ ! لقد كان وجه اسماعيل أفندى يشبهه تماماً ! بل كان وجه اسماعيل أفندى يتقلص مرة ثم تعلوه كآبة ثم تشيع فى أساريره ظلمات فتجعله كالبحر اللجى ... ففمه مفغور كالهوة السحيقة بين كل موجتين ، وعيناه كأنهما زورقان يتلاعب بهما الماء ليقذف بهما من حالق ...

— لماذا لا تحيى أبناءك يا إسماعيل بك

— أبنائى ؟! ...

أجل . . . إحسان التى لم ترها قبل اليوم ، ووجدى الذى كان أعز مخلوق عليك فى الحياة ؟... ألا تذكر ؟ ! هل نسيت ؟ عجباً ! هل نسيت كل شىء ؟ ...

— ومن أنت ؟ ...

— من أنا ؟ . . . أنا أم ولديك هذين ! أنا كريمة بهاء الدين !

— آه ... كريمة !

ثم التفتت كريمة إلى سميحة هانم فقالت :

— هل وصلك خطابى يا سميحة هانم ؟

— أجل يا عزيزتى لقد وصلنى

— لعله لم يزعجك !

— وكيف يزعجنى وقد كتبته عزيزة جداً مثلك؟

— عفواً ... كم كنت أفضل ألا أسبب لـكم فكراً قد يسوؤكم !

— ولماذا يسوؤنا أن نعرف ؟

— هذا أمر طبيعى إن لم يكن إسماعيل بك قد ذكر لك شيئاً من ماضيه

وهنا تدخل إسماعيل قائلاً :

— على أننى لا أدرى ما الذى جعلك تذكريننى بعد عشرين سنة ؟

— وهل كنت تظن أن الدهر كله يفصل بينك وبين أبنائك ؟

— من هم أبنائى ؟

من هم أبناؤك ؟ إسماعيل بك ! أفق تماماً ، ولا تجمل البلوى بلوتين بإنكارك ... قد تحاول أن تقطع الزمن فتجعل لك ماضياً تحب أن تجهله أسرتك الثانية براءة من أسرتك الأولى، ثم تجعل لك حاضراً تشعره أنك ملاك ... إحذر أن تحاول هذا أيها الرجل ... على أننى لست أفهم لماذا تحاول ذلك ؟ لقد جاهدت طويلاً فى أن يظل وجدى يذكرك ، ولا ينساك لأنك أبوه ، ومن لا والد له فهو لاشرف له وإن يكن هومظلوماً فى ذلك. أما إحسان فهى ابنتك التى فررت من أبوتها فظلمتها وهى لم تر الدنيا بعد ، فهل تريد أن تنكرها هى أيضاً ؟ قبل أن تفعل ، تذكر أنك كنت رجلاً رسمياً من رجال الحكومة ، ففكر فى العواقب التى تبنى على إنكارك ... وأريد أن أطمئنك ... إنى لم أحضر إلى هنا لأنغص عليك صفوك ... أو لأقتص منك ... لا ... لقد نسيت كل شىء ... لقد علمتنا مأساتنا الخير المحض ، فأنا ووجدى وإحسان نمرح دائماً مذ فررت . فى رعاية الله وحمايته ... وقد عرفت أنك تزوجت من سميحة هانم فى نفس الشهر الذى بنيت عليها فيه ، فلم يثر فى قلبى أى حقد عليكما ، بل ـ والله شهيد على ما أقول ـ لقد طلبت لكما السعادة كما طلبت لنفسى المعونة على تربية ولدىّ ... وكان يبكينى فقط أن يسألا عن والدهما أين هو ؟ فأقول لهما إنه حى يرزق ، وهو سعيد ، فاطلبا من الله أن يزيده سعادة ، أليس كذلك يا وجدى !

— أمى !

— ماذا يا بنى ؟

— أيريد أبى أن ينكرنا ؟

— سله أنت يا بنى ... إنه لابد مجيبك بالحق ... فهذه لحظة لا يستطيع فيها لسان آدم أن يفترى ... إنها لحظة من لحظات الله !

— أبى !

— ... ؟ ...

— ألست أنا حبيبك وجدى ؟

— وجدى من ؟!

— حبيبك وأعز الناس عليك، وجدى الصغير. ألست أنت الذى كتبت هذا الكلام تحت صورتى هذه من سبعة عشر عاماً ؟!

ومد الشاب يده بالصورة بعد أن أخرجها من جيبه ، ثم أعطاها لأبيه ... ولكن الأب الشارد كان ما يزال فى غيبوبته فلم يمد يده ليتناول الصورة القديمة العزيزة التى طالما طبع عليها آلاف القبل ، وسفح عليها آلاف العبرات قبل أن يعتزم الفرار من كريمة .

— لماذا يا أبى تأبى أن تتناول الصورة ؟ هل صرت قاسياً إلى هذا الحد ؟ ... تكلم أرجوك ... لقد كبرت ، ولى سبعة عشر عاماً أو أكثر لم أرك. ألم تفكر فى كما فكرت فيك ؟ كم كنت أتمنى أن أراك أيها الوالد ... أهؤلاء ... أولادك ؟ . . . لله

ما أسعدنى بهم ! كم كنت أتمنى أن يكون لى أخ فهؤلاء إذن إخوتى ! تكلم يا أبى .. إنى أحس كأنما قلبي ينجذب إليك ...

بيد أن الرجل وقف متخشباً بل وقف كأنه صنم من أصنام بوذا ... تفكيرة عميقة لكنها من صخر ، ولا يهم أن تكون من مرمر ! وهنا تألمت سميحة هانم لضراعة الشاب الذى يشبه أباه شبهاً كبيراً ، فقالت والهم يعتصر فؤادها :

— لم لا تجيب يا إسماعيل؟ أليس وجدى ابنك ؟

— ليس ابنى ولا أعرفه !

— عجيب جداً ... لكنه يشبهك كثيراً ...

— هذا لا يهم !

— أرنى الصورة يا وجدى أفندى !

ثم تناولت الصورة وجعلت ترمقها فى ضوء القمر ، فراعها أن يكون الخط خط زوجها ... لكنها لم تعجل ، بل دعت الجميع ليدخلوا فقد أخذ الموقف يتحرج ، ولم يُحَىَّ القادمون بأية تحية ، وليس هذا من عرف الصعيد الكريم المضياف ... وحاولت كريمة هانم أن تعتذر فأقسمت سميحة أن تقبل دعوتها ... وهنا بدأ الجميع يتحركون كالأشباح المتعبة إلى الداخل ... وبقى إسماعيل فلم يتحرك .. وبقى معه ولداه .. وجدى .. وعُبيد

ولما جلسوا قليلاً فى الغرفة الفسيحة المؤثثة ، وشربوا عصير البرتقال المثلوج ... دار الحديث فكان ذا شجون :

— مرحباً بك يا كريمة هانم ... ما شاء الله الآنسة إحسان جميلة جداً ... إن شاء الله ربنا يتمم بخير .. الله ! إن لها خالاً فى خدها .. مثل إسماعيل تماماً ... وفى نفس الوضع

— شكراً لك يا سميحة هانم ... أرجو ألا أكون قد سببت لك قلقاً

— أى قلق يا عزيزتى ! كلا والله ... عشمى ألا تتأثرى من إسماعيل ... إن الموقف مربك من غير شك ...

— ولماذا يرتبك ؟

— لماذا يرتبك ؟ على الأقل لأنه لم يذكر لنا عنكم شيئاً مطلقاً ... ثم هذه السنون العشرون ... إنها عمر بأكمله يا عزيزتى ...

— ألم يقرأ خطابى يا سميحة هانم ؟

— خطابك ؟ ... بل أنا الذى قرأته !

— وهو ؟

— لم يقرأه ... بل لم أذكر له عنه شيئاً

— ولم ؟

— لأننى لم أصدقه بادئ الرأى ... إنه قصة مشجية ، أليس كذلك يا كريمة هانم ؟

— لكن لهجته الباكية تدل على أنه حق !

— الآن فقط عرفت أنه حق .. بل ربما لم يحو كل الحق يا كريمة هانم ... ما شاء الله ! إن صورة وجدى وهو صغير تشبه صورة عُبيد تماماً

— ومن عُبيد ؟

— عُبيد ابنى ، أخو وجدى !

— والخط الذى فى ظهر الصورة !

— هو خط إسماعيل ، ليس فى هذا شك !

— إذن ... فإليك هذه الصورة أيضاً ...

— آه ... آه ... هيه !

— آه ماذا يا سميحة هانم ؟ !

— هذه هى صورتكما !

— هى بعينها ... هل كنت تعرفينها ؟

— لقد كشفتها فى كتاب قديم بعد (دخلتنا) !

— ثم ...

— ثم أنكر أن تكون السيدة شيئاً إلا ...

— إلا ماذا ؟

— ... ؟ ...

— لعله أخبرك أنها حظية أو واحدة من صويحباته ! !

— لا تحزنى يا كريمة هانم ... الحق أن زواجكما بعد الحادث المؤلم الذى ذكرته لى كان ينبغى ألا يتم !

— وأين كنت أذهب بوجدى يا أختاه ! ؟

— وجدى ... آه ... بل كان ينبغى أن تتزوجا ! ما ذنب وجدى ؟

— لو لم يكن فى أحشائى منه شىء لما آثرت أن . .

ثم حبس الدمع منطق السيدة المحزونة فلم تستطع أن تكمل

— على كل حال لقد برهنت على نبل وأرومة مجد يا كريمة هانم !

— شكراً لك يا أختاه ! ماذا كنت أستطيع غير هذا ؟ !

— عجيب جداً أمر إسماعيل ... الآن عرفت سر أحلامه !

— أحلامه ... ؟ !

— أجل ... لقد كان يحلم فى اليقظة وفى المنام . . وكان يتمتم بكلمات لا نفهمها وعيناه مفتوحتان جاحظتان

— ولكن لماذا يحاول أن ينكرنا ؟ لعله ظن أننا فى حاجة إلى عونه المادى ؟ !

— وإذا كنتم كذلك فماذا يمنعكم من طلب هذا العون ؟ إنه ملزم بهذا بل هو ملزم بأكثر من هذا ... إنه ملزم بنفقة ابنته طوال هذه السنين ، وأحسب أن نصف ثروته لن تقوم بذلك !

— ومع ذلك فأنت التى تقولين هذا !

— ولم لا أقول هذا وقد خيل لى أنه ربما فرمنا مثلما فر منك ؟ !

— لا ... لا قدر الله ... ولماذا يصنع ؟ إنه لم يفر منا يا أختاه ، بل هو قد فر من الذكريات ، ولولا هذا ما أعفيته ...

— هذا ضعف ، فقد غفر له والدك قبل أن يموت وأنجاه من القصاص العادل . . . إن هذه يد لا يجحدها إلا لئيم ...

— سيدتى . . . أنا أعتذر . . . يبدو لى أننى ورطتك فى الثورة على زوجك ...

— بالعكس ... حقيقة أننا كنا نعيش سعداء ، لكن أحلامه كانت تنغص علينا صفونا ، وكان جهلنا أسبابها يرهقنا بل يزعجنا ... لقد كانت تنتابه حالات من الذهول والشرود هى أشبه بالجنون ... فكنا كلنا نبكى من أجله ... ولن ننسى مرة حين سمعناه يصرخ فى سكون الليل طالباً المغفرة من ابنه ... قائلاً : يا رب ... إغفر لى يا بنى ... ليست خطيئتى أنا وحدى ... إصفح عنى يا وجدى ! ... هذا الغلام الذى لا أشك الآن فى أنه هو ... ولقد جعل مرة يضحك فى رمضان ساعة الأصيل ويقول : نفاق ... رياء ... أنا منافق ... لقد كنت لا أصوم رمضان . . . ولكنى أصومه منذ عشرين سنة ، وكنت لا أصلى كذلك ، ولكن هأنذا أصلى منذ عشرين سنة أيضاً . فلماذا ؟ ! لماذا أعبد الله على هذا النحو ؟ ! أليغفر لى ؟ . . . أبداً . . . أبداً . . . لن يغفر الله لى .. فالآن يا سيدتى عرفت السبب .. لقد كان يخفى عنا كل شىء ، فأما وقد عرفنا كل شىء فسيكون يسيراً جداً أن نعالجه ... لقد كسبنا كثيراً ...

— عجيب جداً ... إنك زوجة كاملة !

— أشكرك .. بل أنا شريكتك فى هذا الأمر ورجائى أن تليني معه ، فهو رجل طيب ، وقد تنفعينه أكثر من أى شخص آخر .

ماذا حدث فى الخارج ؟

ما هذا الصياح الشديد ؟

— كلا ... كلا ... لا تقتلنى يا وجدى ... حرام عليك يا بنى ... أنا أبوك ... كيف تبوء بإثمى ؟ ... تعال ... سأقدم لك الدليل الذى يبدد شكوكك ...

كانت هذه الكلمات ترتفع ثم ترتفع ... ثم دخل إسماعيل أفندى فجأة ... وتناول صورة كبيرة ذات إطار مذهب فكسرها ، وفض ألفافها من خلف ، ثم أخرج من داخل ذلك كله صورة متوسطة فقدمها للفتى الذى كان يعدو وراءه ... لوجدى !

— ها أنت ذا يا بنى ... أليست هذه صورتك بينى وبين أمك . . . أليست هى نفس صورتك وأنت طفل ؟ لقد صورت الصورتان ، هذه والتى معك ، فى يوم واحد . . . فاطمئن يا بنى . . . إنك ابنى وأنا أبوك

وتناول وجدى الصورة من يد أبيه فحملق فيها ثم ذهب إلى أمه باسماً فقدم إليها الصورة قائلاً :

— لقد تكلم والدى كلاما لم أصدقه ... يبدو لى أنه متعب ، أو مريض ... أصحيح ما قال يا والدتى

— ماذا قال لك يا بنى ؟

— لا داعى لذكر ما قال ... لا بد أنه متعب ... إن هذه الصورة التى كان محتفظاً بها هى حسبى ... ألست ابن حلال يا أمى ؟!

فعرفت الأم كل ما قال زوجها القديم . لقد طمن الشاب بالسر الهائل . ربما ذكر له أنه ابن إثم ، وثمرة جريمة . ولذلك ثار وجدى وحاول أن يقتل أباه

* * *

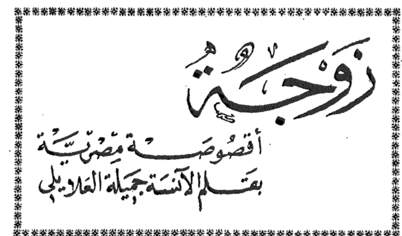
وسافرت الأسرتان إلى طنطا للاحتفال بعرس إحسان ... وحينما تقدمت الفتاة لتأخذ من والدها هديته — ألف سهم من أسهم بنك مصر — نظر إليها أبوها نظرة عميقة صامتة ، ثم طبع على جبينها الجميل قبلة طويلة ... لكنه سقط إلى الأرض مغشياً عليه . .

وتقدم الدكتور العريس فجثا بجانب الرجل وأخذ يفحصه ، ثم أمر بإخلاء الردهة لتجديد الهواء ...

وتوفى إسماعيل أفندى عبد الرءوف فى مدينة المنيا العامرة بعد عرس ابنته بعشرة أيام ، بعد أن كان فى معالجته حيل الأطباء ...

لكنه مات كريماً آخر الأمر ، وترك خلفه قلوباً صحيحة

دريني خشبة



في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعتني صاحبتي لحضور عرسها وقد أسمعتني يومئذ أجمل أناشيد السعادة المرتقبة ، وأرتني الأمل الوضاء إلهاماً وسحراً

يا لفرحة العروس عندما يجمع القدر بينها وبين الرجل الذي تحبه

لا أحسب إلا الفرحة خلقت لها في مثل هذا اليوم . وما زالت صورتها برداء عرسها الأبيض تتراءى لي من وراء الخيال الذاهب تمثل ما كان يحبوها من مرح وبشر لا أدري إن كان مبعثهما ذلك الزواج المرغوب فيه، أم الحب المشبوب الصادق، أم أن الله خلق البهجة والمسرة لها وحدها أم خلقها لها — لا أعرف — والذي أعرفه أنني تمنيت يومئذ أن ينيلني الله ما يبعث في نفسي هذه الفرحة الصافية فأكتسب مثلها من الأمل المحقق طلعة الأطفال الأبرياء وفرحة السعداء المتفائلين ...

وتساءل الناس في شبه همس ما الذي حداها أن تضع باقة زهر البنفسج على صدرها والمفروض أن تضع باقة من الفل أو الياسمين لتماثل لون رداء العرس الأبيض . . . وصوّر كل متسائل السبب حسب ما رسمه ذهنه على ضوء تفكيره وإحساسه..

وأنا وحدي كنت أعرف السبب . . . فقد أهدى لها خطيبها أول يوم صارحها بهواه باقة من زهر البنفسج ثم جعله بعد ذلك تحية معطرة يقدمها إليها كلما لقيها حتى خيّل للفتاة أن هذا الزهر رمز سعادتها المنشودة ومفتاح تفاؤل نفسها المتعطشة لكل ما تطمع إليه عذراء في سن العشرين من عمرها ... وكانت تحرص كل الحرص على أن يحتفظ الزهر برونقه وعطره حتى أنها راحت تبحث في كتب الطبيعة لتعلم كيف تصون الزهر من الذبول ، وانتقت له إناء جميلاً كانت لا تعني بأي عمل في منزلها إلا تنظيفه ، ولم تحاول أن تعرف تنظيف أي أداة من أدوات البيت غيره ...

لم أرها غير مرة واحدة وهي تتقبل منه الباقة — لما زارها في منزلها — تقبلته في فرحة الطفل الطروب الذي عثر على أعز ما يتمناه من لعب قد يكون ذرف في سبيل العثور عليها أحر الدموع . قبلت الزهر في حنان ثم وضعته في الإناء بخفة ما لمحتها فيها أبداً ... كأنها تستودع أحلامها وأمانيها قلب القدر ... حتى في يوم العيد كان يرفق الهدية بالباقة ...

تصرف مألوف كأي عمل معروف . . . إنما الإنسان هو الذي يخلق من العدم الوجود بحسّه وتفكيره ... نحن نرى الزهر في كل مكان ونجمّل به كل مكان نتزين به . . . ولكن الإحساس الذي

يغمر هذا لرؤية الزهر غير ما يغمر ذاك، والشعور الذى ينتابنى حينما أرى الزهر أو الورد وخصوصاً ما ترتاح إليه نفسى ويطمئن إليه قلبى غير الشعور الذى ينتاب صاحبتى أو أى إنسان... فأنا أرى فى الياسمين معنى يوحى إلى بأحب الأخيلة بينا يمر عليه غيرى غير آبه.

قلت لصاحبتى مرة لأداعبها :

— ما أعجب شأنك . . . إن فى لون البنفسج معنى يدفع المرارة إلى النفس

فضربتنى على شفتى بأطراف أناملها فى لطف وهى تقول :

— لو قدّم لك خطيبك زهر « التيولب » لكانت أحب الزهور إليك

فطوقتها بذراعى وأنا أنظر إليها مسرورة لسعادتها وتفاؤلها قائلة :

— الآن فهمت يا صاحبتى أن السعادة فى المعنى لا المظهر

ثم حضرت مجلسهما مرة أخرى فشمت فى الرجل غموضاً لا يتفق مع براءة الفتاة ... وأنا أعرف أن الغموض لا يحدث إلا مع عشيقين مدنسين يحاول كل منهما أن يخفى حقيقته ليحظى برفيقه ... أما الخطيبان الحبيبان فلا مكان لتآلفهما غير الصراحة والصدق

وعجبت كيف اتفقا مع تناقضهما ، ولكننى رجحت أن يكون الله جمعهما لحكمة لا يعلمها إلا هو

كانت الفتاة فى نهاية مرحلة التعليم الثانوى ولقد ذهبت إلى المدرسة تنفيذاً لأمر والدها الذى يرغب أن يجعل منها فتاة مستنيرة ولكن الفتاة لا تميل إلى التعليم مطلقاً فقد كانت معى فى المدرسة الابتدائية ثم تركت المدرسة وخلفتها ورائى فى الفرقة الثانية، وظلت هكذا متوانية متأخرة لا تترك الفرقة إلا بعد أن تمكث بها سنتين على الأقل ...

وهى فى المنزل لا تمتاز عن المدرسة لا تحاول أن تساعد أمها فى أى شىء وتستنكر القيام بأى عمل مهما كانت ظروف البيت ، وتعتقد أنها خلقت لتبدى جمالها الذى منحها الله أكبر قسط منه، ولكى تجيد لعب الباسكت والتنس وتقارن بين جمال جريتا ونورما وبين عظمة جارى كوبر ورامون

هى بحق تجيد معرفة كل ما يتعلق بالسينما والمسرح والرياضة والتجميل

وساءلت نفسى يوم علمت بخطبتها : أيمكنها أن تكون ربة بيت ...

وأيقنت يومئذ أنها لا بد عاكفة على دراسة شئون الدار وخصوصاً بعد أن انقطعت عن المدرسة ولكى أتأكد من صحة يقينى سألتها :

— ما ذا أنت فاعلة فى مقبل الأيام ؟ علّك بدأت تتفهمين حقيقة الواجبات المنزلية ...

فضحكت فى بلاهة وقالت : أى واجب ياصاحبتى أتظنين أنه يمكن أن أعرف غير مضجعى الذى أقضى فيه ساعات النوم والمائدة التى أجلس عليها وقت تناول الطعام والقيثار الذى أعزف عليه بعض الألحان؟

قلت: هه.. أتظنين ذلك كفيلا بتهيئة بيتك .. هناك غير ذلك أشياء كثر أجل شأناً وأعظم خطراً ـ لتهيئة بيتك ليكون كالدوحة الظليلة لزوجك والفردوس الأرضى لأسرتك التى سوف يكل القدر أمر تكوينها وإسعادها إليك ... وتكونين بحكم الزواج ملكة مسئولة عن مملكتها الصغيرة المتواضعة

فهزت كتفيها ومطت شفتيها وقالت فى غير اكتراث : خطيبي يحبني وأنا أحبه

قلت : للزواج مطالب أخرى غير الحب أكثر خطورة . إن الحب يقنع بكل شيء لأن من صفاته التسامح واللين، أما الزواج فيحتاج إلى العقل والحكمة بجانب القلب والإيمان

فقالت مستخفة : بقي أن تقولى لى ويحتاج للشعر والفلسفة أيضاً …

قلت : ما عنيت هـذا … ولا يمكن أن أقوله لأن هذه ملطفات تلجأ إليها النفس بإيحاء غير مدرك ولا علاقة لها بالزواج ، فالشاعر غير الزوج وكذلك الأديب أو الرسام أو العامل أو الفلاح أو الوزير فسياسة الزعيم فى مكتبه غير معاملته لأسرته، أنظرى إلى الفلاح … إنه أمام صاحب الأملاك كالعبد الذليل ولكنه فى المنزل كسيد آمر قاهر، والدكتاتور كقوة القدر الجائر يبدو أمام الناس ، ولكنه أمام زوجته أو أولاده ألطف من السحر . والذى أرجوه ياعزيزتى كصديقة تحب لك السعادة أن تحاولى معرفة المسئولية التى ستلقى على عاتقك . أنت مسئولة عن سعادة زوجك وتكييف حياته ومساعدته بفكرك وحسك ليسمو بنفسه وأسرته إلى السماك، ومسئولة عن صغارك ليكون لهم فى العالم مكان علىّ : ومسئولة عن بيتك ليكون مجمعاً عالياً …

فقاطعتنى متهكمة … أى مجمع تعنين يا صديقتى ؟ أتريدين أن يكون بيتى أكاديمية للعلوم والفنون والآداب ؟

ثم ضحكت متهكمة …

قلت : وأجل منها إن شئت … إى والله، أليس البيت كالمملكة يحتاج للآداب والفنون والفلسفة ؟

لا تضحكى فلست هازلة . . . إن أعقد المسائل العالية تشبه أبسط الظواهر المنزلية . . . إنه مملكة تحوى مجموعة وزارات ، وأنت وحدك المسئولة أمام الله والشريعة والناس عن رياسة هـذه الوزارات وتسييرها بحكمة تتطلب منك عقلاً عليا يشبه عقل وزير المعارف وسياسة وزير الخارجية وحكمة وزير الداخلية وإدراك وزير الصحة ولباقة وزير التجارة والصناعة وذكاء وزير الزراعة وقوة وزير الحربية . وأخيراً لك قلب الملك الصالح . فظلت تضحك حتى كادت تستلقى على ظهرها وهى تقول : ما دام فى وسع زوجى أن يحضر إلىّ الخدم فماذا يهم ؟ حسبى أن أشرف على الوزراء .. وقهقهت، وساورتنى مرارة من الشك فى سعادتها المرتقبة ولكننى لم أشأ أن أكون متشائمة . فقلت : يا منى : الخادم لا يمكن أن يحسن العمل إن لم يلحظ فيك خير مثال للعاملين النابهين . أبعدى عن ذهنك ياعزيزتى هذا الخاطر ، وتأكدى أن بيتك لا تثبت أركانه إلا إذا ثبتت قوائم عرشك فيه بفضل قلبك وعقلك

إفتحى قلبك .. وحكمى عقلك ..

ليكن هذا شعارك دائماً .

وهنا دخل الخطيب فهرعت إليه تقول : أحمد ، جيجى تخيفنى من الحياة الزوجية ..

فربت الخطيب على خدها فى لطف قائلاً :

لا شك أنها تداعبك .

قالت فى دلّ ظريف : بل تجد !

فلم أشأ أن أصارحه بالأمر خوفاً من أن يكون

على يقين من أنها ملمة بشئون البيت . فأفتح ناظريه على ما لا يعلم فيرتد .

فقلت : إسمع يا سيدى ... كنت أتصفح هذه المجلة فأعجبنى ذاك القصيد . . . قلت لها اسمى . . . فقالت : لا أحب أن أسمع غير كلام خطيبى ... وأنت تعرف أننى أحبها ... (فطبعاً عِزت) ... وإذا كان هذا حالها اليوم فما عساها تفعل بعد الزواج ؟ طبعاً ستنسى جيمى .

فابتسم وقال : وهل يمكن أن تنساك ؟ إنها تحبك ؟ ! ... وكل ما فى الوجود يذكرها بك .

فقاطعته قائلة : لا ... إنها لم تقل ذلك ، ولكنها تقول : يجب أن أقوم بشئون البيت . ثم دنت منه رابتة على كتفه فى خفة مردفة : وأنت تعرف أننى لا أعرف أى عمل فى البيت . ثم مطت شفتيها وهى تقول : حتى ملابسى لا أعرف كيف أنظمها أو أعلقها على المشجب . فضحك طويلاً وقبض على يدها وهو يقول : لا تفكرى فى هذا .. سيقوم الخدم بأعمال البيت ، وأنا مستعد يا حبيبتى للقيام بكل عمل بدلاً منك . . .

فنظرت إليه فرحة ، وقد شاع طرب نفسها من كل خالجة فيها . لكننى تألمت إذ كان فى مقدوره أن يهيب بها إلى تعرف المسؤولية فى لطف لتحاول أن ترضيه على الأقل ولكى يشعرها بقيمة حياتها ، وضرورة تأدية واجباتها ـ ولو فعل ـ لردها إلى عقلها وعملت على تعرف ما لم تعرف .

فقلت فى شبه دمدمة : وإذا مرض الخادم ؟

فأعقبت : غيره يقوم بعمله .

قلت : لنفرض أن الخدم تآمروا عليك ، وتركوك بغتة كما حدث لإحدى الملكات فماذا تفعلين ؟ فهزت كتفيها ، ونظرت إليه كأنها تستلهمه الجواب ، فقال مسرعاً : أقوم أنا بكل شىء .

قلت : ولكنك لا تعرف واجبات ربة الدار والزوجة والأم ، أنت تعرف واجب الزوج ، ورب الدار .

قال مستخفاً : ياستى نستعين بكتاب التدبير .

فقالت ضاحكة : آه نسيت « مرشد الفتاة »

قلت : وغيره إن شئت ... إنما التجارب أنفع من القراءة .

ووجدت من العبث أن أحملهما على تعرف ما وراء المستقبل القريب لأنهما فى نشوة الحب .

فانسحبت راجية لهما كل خير وتوفيق .

* * *

واليوم عيد ميلاد زفافها السعيد ، وقد مضى العام دون أن أراها إذ سافرت مع زوجها بعد الزفاف مباشرة إلى مقر عمله ، وأتتنى رسالة منها البارحة تنبئنى بأنها نقلت منذ أيام إلى المنصورة وأنها متلهفة لرؤيتى ...

وتذكرت أن ذاك اليوم عيد ميلاد زفافها فذهبت إليها لأقدم إليها تهنئتى الصادقة ولعلنى كنت شغوفة لرؤيتها بعد ذاك العام لأعرف ماذا فعلت بحياتها الزوجية وكيف صارت .

وهرعت إليها وبى من الشوق إليها ما يزرى بشوق كل حبيب .

وطرقت بابها وقلبى يخفق ويكاد من لهفة الحنين يضمت . . .

ولما فتح الباب أدخلتنى الخادم فى غرفة (الصالون) ومرت دقائق ، وأنا وحدى أنتظرها ، تأملت خلالها محتويات الغرفة . ولشد ما أدهشنى أن أرى الأثاث

الجديد يبدو كأنه من تراث جدها القديم! أى خيبة ساورتنى عند ما لمحت الإهمال يتجسم فى الغرفة ؟

ورددت طرفى لكيلا أشوب حرارة حنينى ببرارة أنين نفسى لما أصابها من ألم له فى عالم الحقيقة صورة مرتسمة فى أرجاء هذا (الصالون) . . .

ودخلت (منى) وقبل أن أعانقها ارتمت على صدرى كأنما شاءت أن تستودعه حرارة وجدانها لتستريح حتى أحسست أن كل كيانى بحرارتها يحس وينتفض... ثم رفعت وجهها بيدى وأنا أتأمل الوجه الجميل فى شغف لأتبين وجه المرأة وأقارن بينه وبين وجه العذراء ...

أجل ... نظرت إليها طويلاً لأقارن بين وجه رفيقة طفولتى وبين وجه المرأة التى تخطت قبلى عتبة باب المسئولية

وظللت هكذا أتأملها لأقارن بين حياة الحلم الماضى والواقع الراهن ، وبين حياة المتعة والحرمان كما يقولون ...

لم تتكلم ونظرت إلى بعينين دامعتين وشفتين مرتعشتين ... ولم أتكلم ونظرت إليها بعينين شاع منهما خوفى عليها وحبى لها ، وقد بدت ظلال هذا الشعور الحار المتوثب على شفتى فى شبه بسمة مريرة

وأخيراً تمتمت بصوت من يستيقظ بعد حلم عميق : منى ...

فأجابتنى بصوت مرتعش كأنه قطرات من الماء الصافى تنسكب فى هوادة ورقة تمازجها قوة لا تبين : جيمى ...

قلت : أخيراً التقينا ... مضى العام ... اثنا عشر شهراً هى فى حسبانى اثنا عشر عاماً ...

ونظرت إليها نظرة معناها : أليس كذلك ؟

قالت : بل اثنا عشر دهراً يا جيمى

قلت : إذن أحسست بالوحشة كما أحسست بها ولقد ظننت أن زوجك أنساك جيمى وسعادتك . محت من ذاكرتك ذكريات الطفولة المليئة بأجمل ما فى الحياة من طهر ومرح وحلم وسذاجة

فتنهدت قائلة : ليت هذه الأيام يا جيمى قيدتنا فى باطن الغيب كما تقيد الجاذبية البدر بين الأرض والشمس ، أو لعلنا متنا قبل أن تتفتح بصائرنا على ضوء الأحلام والآمال فتتخيل . . . حتى إذا داهمنا الواقع رأينا الحياة تخفى وراءها من الحقائق ما تخفى ...

وغالبت دموعها — على ما أظن — لأننى لمحت الضوء يبدو فيهما ويتلاشى ليبدو أكثر قوة والتماعاً

وكانت لهجتها متكسرة عميقة بطيئة كأنها آتية من أعماق الأبد ... تخرج قوية ثم تفتر وتتلاشى لطول مسافة الزمن ... فعجبت لهذا المظهر الجديد الذى لم أتبينه فيها من قبل فقلت : لم يكن فى حسبانى أن الزواج يعلم الفلسفة ، أهكذا يمنحك الزواج من من الحكمة فى عام ما لم تمنحك إياه الحياة فى عشرين عاماً ... يا عجباً !!

قالت : وعلمنى أكثر ... ثم أسندت رأسها إلى صدرى كأنها تحاول أن تتخيل ـ بالإحساس على الأقل ـ أنها مرتكزة على صدر حنون . ثم رفعت بصرها إلىّ فى التماع مترقرق بالدمع الحار وغمغمت : جيمى ... كيف ترينى ؟

قلت : آه . أنسيتنى ما يجب أن أقوله ... ترى هل جئت بجميلة أو جميل ، وكنا اتفقنا منذ زمن أن تسمي كل منا بكرها باسم صديقتها تخليداً لذكرى الصداقة الأكيدة البريئة

فتمتمت بشفتين مبللتين بالدموع : جاءت جميلة ...

ولم أدعها تتم عبارتها وعدوت أبحث عن الطفلة الجميلة التي كانت تتصورها قبل زواجها أجمل أطفال العالم، ورسمت لها منهج حياتها رسماً يسمو بها فوق متن الريح لتستقر على عرش الطهر والرفعة والكمال

هرعت إلى مخدعها علّ الصغيرة نائمة فيه ... تدفعني عواطفي لالتهامها كأنها كانت ابنة روحي قبل أن تكون ابنة أمها . . ولما لم أجدها في مخدع الأم ضحكت من خيالي الذي أنساني أنها لا بد أن تكون في مخدع صغير خاص جعل لنوم الصغيرة بعض الوقت ، وتحرسه ملائكة الرحمة والحب كل الوقت ، ولكنني لم أجد السرير الصغير أيضاً . .

أتكون في غرفة أخرى ؟ لا بد . وقبل أن أغادر الغرفة لحقت بي منى قائلة: حسبك تعباً. وجذبتني في رفق وهي تقول : لم يشأ الله أن يتركها تحت تصرف القدر الجائر . فاستردها ليستودعها حنان حور الجنان . ثم صمتت من فرط الالتياع وتركت دموعها تعبّر عن أساها .

ففهمت وحنوت عليها أشجعها بأجمل الأماني المرتقبة قائلة في النهاية : آمني بالله ! فقالت بلهجة الخشوع :

عندما ولدتها وجربت كيف يفصل الله بين الروحين بقدرة قادرة . . آمنت بالله وأقمت له الصلاة

ولما ماتت وكنت يومئذ متبرمة من حياتي ناقمة على ولادتها ... ازددت إيماناً به ورحت أرتل باسمه بكرة وأصيلا . .

قلت وأنا أشد منها إيماناً : يا سبحان الله ... في لحظة يثبت لنا الله قدرته وعظمته بما تعجز عن إثباته قوى العالمين في أجيال. ثم اغتصبت ضحكة لأرفه عنها وقلت : أتذكرين يا « منى » يوم كنت أدعوك لنؤدي فريضة الصلاة معاً ؟ . . . كنت تضحكين وتسخرين مني وتقولين : فرضت الصلاة على الناس يوم كان لا عمل لهم . أما اليوم فالوقت يضيق بالعمل والجهد . ثم تبتسمين في بلاهة وتردفين : إن الله غفور رحيم ...

ولطالما حاولت أن أغالب شيطانك بنصحك فكنت أفشل لأن تأثير بيئتك كان أشد وأقوى عليك مني . . . لأن أمك متمدينة متطرفة لا تقيم للحياة ميزاناً إلا بما تجلبه عليها من طرب ومسرة ومتعة ...

وهنا لمحت الأسى يغالبها فسحبت رأسها وأسندته إلى صدري ورحت أنا أفكر في ماضيها وحاضرها . وأقارن بين هذا وذاك ...

من يصدق أن منى المرحة الطروب الجاهلة التي تبدو كأنها في سن الثامنة من عمرها أو أقل بينا هي قد بلغت الحلقة الثانية منه من ـ يظن أنها الآن تبدو وكأنها في سن الخمسين من عمرها مع أنها لم تزد على العشرين غير عامها الأول من عمر الزواج ؟

تبدل بالمرح سكون رهيب مخيف وتلاشت النضارة ليحل مكانها الشحوب البارز .

لمن لم يصدق أن يقارن بين ابنة العشرين الحالة المتفائلة ، وبين أختها المتألمة المتشائمة ليعرف أن عمر الحياة ليس في حساب الزمن إنما في معناه وما يجلبه من مرح أو ترح . وفجأة تذكرت زوجها ...

فرفعت وجهها فى رفق وأنا أقول : فاتنى أن أسألك كيف حال زوجك ؟.

فنظرت بعيداً كأنها تفكر فيما تقوله .

فعجبت لهذا المنظر واضطررت أن أكرر سؤالى: زوجك كيف حاله ؟

فتنهدت وأطرقت قائلة بصوت خفيض : بخير . فشمت فى لهجتها سراً رهيباً أفزعنى وراعنى أنها جعلت حيزاً من الفراغ بين (زوجى بخير) حتى أحسست أنها تفصل بينهما لكيلا تصل بين زوجها والخير

فارتعدت وخفت أن يكون جدّ لها مالا أرجوه فقلت لأستدرجها : أهو على سفر ؟ المفروض أن يكون فى المنزل اليوم لأنه يوم العطلة الرسمية ...

فقالت وقد اعتدلت كأنها تتأهب لمصارحتى بما كتمته عنى : أتعرفين صلاح ؟

قلت : كيف لا أعرف زوجك ؟ مالك شاردة كالذاهلة هكذا ؟ أترين مجيئى أزعجك ! ! عله لا يبيح لك لقاء صديقاتك ، إن كان ذلك كذلك فدعينى أنصرف وحسبى أننى رأيتك فكل ما أتمناه هناك

ووقفت أتأهب للانصراف فأجلستنى فى هدوء وهى تقول : جيمى ، كان يجب أن تفهمى كل شىء بمجرد رؤيتى ، وأنت أعرف الناس بطبيعتى . . . من كان يظن أن « منى » الزهرة الناضرة تذبل دون أوان؟ ولطالما قلت لك عند ما كنت أراك تتألمين لمشهد محزن : يا صديقتى ... خلقنا لنضحك وإذا عشنا لمشاطرة الناس آلامهم ماذا نستبقى من الزمن للفرح . . لا شىء بالتأكيد. إذن خير لنا أن نخلق البهجة والمسرة لنغلب بها الحزن والضنى ...

ولطالما داعبتك بنوادرى لأبدد تجهمك ولاأتركك حتى يسمع الجيران ضحكنا ..

قلت : حقاً ، ولقد حرمت متعة الضحك الأكيد منذ فارقتك

قالت : إذن ماذا تفهمين من دموعى

قلت : قد تكون الدموع من تأثير الفرح كما تكون من تأثير الحزن. ولقد تعمدت أن أتجاهل ما انتابنى من شك فى سعادتها لأستنطقها

فقالت : قولى ذلك لمن لا يعرفك . . . أما أنا فقد علمتنى كيف أعرف ماذا أنت قائلة قبل أن تفصحى عن مرماك

قلت: تغرير جميل ... من تعليم مدرسة الزواج حقاً. كل ما فيك قد تغيّر ...

فقاطعتنى : ذهب جمالى وتلاشى فرحى وماتت بهجتى ...

قلت : أمن أجل موت طفلة تميتين نفسك حسبك زوجك والله نعم المعوض ... وماذا يجدى الحزن ؟ ...

قالت : لم يكن مصابى فى ابنتى كمصابى فى زوجى

فاضطربت وقلت : أمريض هو ؟

قالت : لو كان لهان الخطب ، على الأقل كنت أتعزّى بالأمل فى المعافاة

قلت : لهجتك مروعة تخيفنى ، أفصحى ماذا جرى ؟ ...

قالت : مات وهو حى

قلت : يا لله ! هل أصابك مس من الجنون يا « منى » كيف تتهمين زوجك الحبيب بالموت وهو حى

صمتنا إذ سمعنا طرقاً على الباب . فازداد وجه

صاحبتى امتقاعاً ثم سمعناه يسأل الخادم بلهجة جافة : من هنا ؟

فقلت لها : اسرعى إليه لتستقبليه ثم تعالى معه إلىّ — إن شاء — لأحييه

فلم تتحرك ولازمها الوجوم ... وقبل أن أحملها على الخروج دخل علينا وقد ابتسم — ولعله تكلف البسمة — قائلاً : كيف حال الآنسة ؟ أراك على أحسن حال ، صحتك ونضارتك ...

فقاطعته لكيلا يستطرد : وأنت علك كذلك

فقاطعنى : الجو هنا بديع ... بديع جداً ...

ففهمت أنه لا يريد أن يعترف بأنه على خير ويأبى أن أشتم رائحة سوء تفاهمهما ...

فاحترمت رغبته واستأذنت لأنصرف وقبل أن أصافحهما خاطبها بلهجة جافة : لقد نسيت هنا بعض أوراق رسمية فى غلاف كبير ، أين هو ؟

قالت : لا أدرى !

قال (موجهاً الكلام إلى) : اسمى « ياستى » الهانم (مديرة البيت) لا تعرف أين يضع زوجها حاجياته .

فابتسمت على مضض قائلة لها : أنت مخطئة يا منى إن كان ذلك حقاً ... على أنك لا بد تريدين أن تعلميه كيف يأخذ معه أوراقه خوفاً من أن تتعطل أعماله. لاشك، وأظنه عقاب حلو باصلاح بك

فقاطعنى: ذلك تعليل قد أقبله لو كنت أجهلها. ثم انفجر كالبركان الثائر مردفاً :

إنما حضرتها لا تعرف كيف تكون زوجة ... أقوم فى الصباح ... أرتدى ملابسى وحدى وهى فى مضجعها وإذا قامت فلكى تقول لى لا تتأخر فضحكت : جميل أن تدعوك دائماً إلى العودة لتأتنس بك وأجمل منه أنها تعلمك الاعتماد على نفسك لكيلا تعجز عن ارتداء ملابسك إذا كانت مريضة مثلاً أو على سفر !

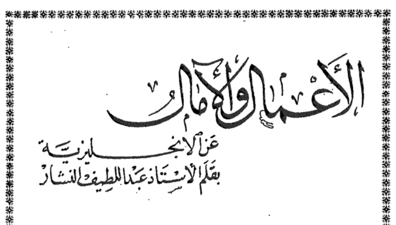
قال : يا آنسة . . يخجلنى أن أصور لك مبلغ إهمالها وعدم اكتراثها بحياتها المنزلية .. أعرف أنك صديقتها ، وأعرف أن لك فى الحياة رأياً سديداً . فماذا تقولين لمن تعجز عن إعداد الغداء إذا خرج الخادم وتضطرنا لأكل الجبن والزيتون فى الظهر . أو استحضار اللحم والخضار من (مطبخ) السوق فصرخت فى وجهه : حضرتك تعرف أننى لا أعرف كيف (أطبخ) ؟ وتزوجتنى وأنت تعلم أننى لا أعرف أن أؤدى أى عمل منزلى ؟ فقاطعها : لكن الفتاة فى بيت والدها غير المرأة فى بيت زوجها ...

وهنا خفت أن يشتد عراكهما ؛ فسحبت صديقتى وخرجت بها إلى الخارج ، ثم رجوتها أن تتركه ريثما يهدأ وتباشر الخادم لإعداد لوازم راحته وتعمل له كوبا من الليمون أو الشاى أو القهوة حسب ما يجب . وتركتها بعد أن هدأتها ، وقد فهمت من حوارهما لم مات قلب الرجل ، ولم شقيت المرأة .

ولما عدت إليه وعدته أن أرشد صاحبتى إلى ما تجهله من شئون الدار . ولما هدأ قلت بلهجة جادة : اسمح لأختك أن تقول لك كلمة تقبلها منى بسعة صدر الرجل الحكيم، تذكر أننى أعرف كيف تحابيتما وتزوجتما وأنك قلت لها على مسمع منى إنك رضيت بها زوجاً حبيبة ، ولم تأبه يومئذ لعجزها عن تأدية مهماتها ، فما ذنبها ياسيدى ؟

فكر واحفظ الجواب لنفسك وخذ من الجواب مايعينك على توجيه زوجك إلى حياة الاستقرار

« المنصورة » جميلة العلايلى



جلس فردريك جيمز سميث ماداً قدميه أمام الموقد جلسة تدل على العظمة والزهو . وكان له الحق فى ذلك فقد تقرر فى ذلك اليوم أن يزاد راتبه الأسبوعى من ثلاثة جنيهات إلى خمسة . وفى هذه الزيادة تقدير عظيم لخدمته مدة سبعة أعوام فى شركة بنسبيت

وكان يسمع وهو جالس هذه الجلسة صوت زوجته وهى تغنى فى غرفة المطبخ أغنية هندية وتغسل أطباق السردين من آثار العشاء ، وكان فى الوقت نفسه يسمع صوت البيان فى المنزل المجاور

وأشعل فردريك جيمز لفافة وألقى نظرة على إحدى الصحف ولكنه كان لشدة سروره لا يستطيع أن يتناولها ليقرأها ، وكان يفكر فى مستقبله فينعش نفسه بالأمل فى صيرورته يوماً من الأيام مثل المستر بنسبيت الذى أصبح من أغنى الأغنياء بسبب الاتجار فى المفروشات

ودخلت زوجته وفى يدها عدد من الملاعق والشوكات والسكاكين فوضعتها فى مكانها ثم التفتت إلى المرقد الذى عليه ابنها النائم . وعادت فالتفتت إلى زوجها الذى كان يتأمل فى وجهها أو لعلها لم تحل فى عينيه إلا الآن

وقال : « سنذهب غداً إلى السينما يا عزيزتى » فقالت : « لا بأس ولكن على ألاَّ نغيب أكثر من ساعتين »

وقال : « إن القطعة التى يعزفها الجيران على البيان هذه الليلة قطعة جميلة » فقالت : « نعم إن هذا الدور من أحسن الأدوار »

ومضت فترة فى صمت كان فيها الزوجان يصغيان إلى البيان، قالت الزوجة: « هل كنت مشغولاً ؟ »

فقال : « نعم . لقد استغرق شغلنا طول النهار ويظهر أن أكثر الناس أغنياء . فهم يشترون أثاثاً من كل نوع وبأى ثمن . إن الأغنياء سعداء الحظوظ

قالت: « لا تكرر هذه الجملة الظالمة . فإن حظك ليس بالسيء » . فقال : « إننى غير ساخط على الحظ ولم أقصد إلى الشكوى ؛ ولكن تجارة الأثاث تدهش الإنسان لكثرة ما يراه فيها من الغرائب . وإذا استثنينا الأطباء فإن تجار الأثاث يطلعون على الباطن من حياة أية طبقة أخرى ، وقد ألزمت نفسى خطة هى أنى لا أسأل أى سؤال ، ولا أفتح فمى بكلمة عما أراه .

ثم أشعل لفافة أخرى وتناول الجريدة ، وقرأ قليلاً لزوجته ثم كتب خطاب شكر . وخرج من المنزل فاشترى علبة سكائر وعاد . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة . فأطفأ الزوجان النور وناما .

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى تناولا طعام الإفطار ، وقبل الزوج زوجته وهو يغادر المنزل وسألها عن رأيها فى الذهاب إلى السينما . فقالت إنها

ستقابله فى الساعة السادسة قرب دار السيما فى شارع كرانبورن .

وفى الساعة التاسعة وأربع دقائق كان جالساً إلى مكتبه فجاء الخادم وأخبره بأن المستر بنسبيت يريد أن يراه فى اللحظة التى يأتى فيها .

قال فى نفسه : « لماذ يريدنى ؟ » . ثم خالجه الشك فى أن يكون قد حدث خطأ ، وأن زيادة المرتب ليست له . وألقى نظرة على الأوراق التى أمامه وذهب إلى « قدس الأقداس » وهذا التعبير صالح جداً للاعراب عن نظرة الموظفين إلى الرؤساء .

وقابل المستر سميث سكرتير الرئيس فاستأذن له عليه ...

وقف الرئيس وهو رجل طويل القامة متقدم فى السن ذو لحية كبيرة يبدو عليه التهذيب وقال الرئيس : « ماذا تعمل يا مستر سميث ؟ » فقال : « أنا فى قسم المبيعات يا سيدى »

قال الرئيس: « أرى أن تترك هذا القسم فاذهب وسلم ما بعهدتك وانتظرنى عند أسفل السلم بعد خمس دقائق »

وبعد أربع دقائق ونصف كان سميث ينتظر كالحارس فى أسفل السلم . وبعد نصف دقيقة نزل الرئيس فتجاهل وجود سميث فى طريقه وخرج من الباب فجلس فى العربة ثم التفت إلى سميث وأشار له بالجلوس

وجرت العربة إلى شارع اكسفورد . وفى الطريق قال الرئيس : « نحن ذاهبان إلى ريشموند لنقابل فيها عميلاً جديداً هو المستر مارشال فلا كستون الأمريكى ويظهر أنه متعجل جداً ولا أعرف ماذا يريد وقد يدعوك عمله إلى الاشتغال طول النهار »

فقال سميث : « لا بأس »

ولكنه ذكر فى نفسه موعده مع زوجته فى الساعة السادسة ، ووصلت العربة إلى ريشموند فى نصف ساعة، ثم وقفت عند منزل، فاستقبلهما رجل يظهر أنه كان فى انتظارهما ، وهو صغير الجسم كبير العمر مجعد الجلد أسمر اللون . وقال ساعة رآهما : « بول وبنسبيت ؟ » . فأحنى المستر بنسبيت رأسه وقال : « أنا بنسبيت وهذا مساعدى »

فنظر المستر مارشال إليهما نظرة احترام . وأدهش سميث أن تكون كل هذه النظرة موجهة إليه . ثم مشيا إلى الردهة فظهر أن المنزل خال من الأثاث

ونادى المستر مارشال فنزلت سيدة مسرعة وحيت الزائرين ثم تبادلت مع زوجها المستر مارشال نظرة ، وجلس الجميع فأخذت الزوجة تملى على سميث بيان الأثاثات المطلوبة من سجاجيد ومفروشات وكراسى وأدوات زينة الخ الخ

ولم يزالوا يتنقلون من غرفة إلى غرفة وسميث يكتب قوائم جديدة حتى أصبح ثمن الأشياء المطلوبة يستغرق ثروة رجل ميسور ... ولكن ذلك لم يكن كثيراً على المستر مارشال ملك النترات والبوتاس فلما صارت الساعة العاشرة قال مارشال : إنه متعجل جداً

قال بنسبيت : إنه سيعرض عليه النماذج وقائمة الأثمان فى ظرف أسبوع، فضرب مارشال الأرض بقدمه وقال : « ليس الأمر أمر نماذج ولا أثمان

ولـكني أريد أن يكون المنزل مفروشاً بكل ماطلبته في الساعة الثالثة من هذا النهار»

وكان بنسبيت قد لاحظ على عميله الجديد علائم ظنها دالة على الجنون ، فبعد الحركة الأخيرة لم يبق عنده شك في صدق هذا الظن

قال صاحب المتجر : « أظن هذا مستحيلاً »

فقال الأمريكي : « كم عدد موظفيك ؟ »

قال : « عندنا في المصانع والمتاجر والإدارة والمخازن بضعة آلاف »

قال الأمريكي : « هذا حسن فادعهم جميعاً إلى العمل » فقال صاحب المتجر : « أخشى أن تكون تكاليف ذلك ... »

قال الأمريكي مقاطعاً : « إنني لم أسألك عن التكاليف ... أليس في المدينة سيارات ؟ أليس فيها تليفونات ؟ أليس عندكم مخازن ؟ إنني أكرر لك القول بأني لا أبالي التكاليف وبأني أريد أن يكون المنزل مفروشاً في الساعة الثالثة »

دارت عينا بنسبيت كما تدور عينا كلب الصيد حين يرى الأرنب ؛ ولم يتبين بعد هل هو الأرنب أم لا . واستمر الأمريكي يقول : « استحضر أسطولاً من سيارات النقل وخمسين رجلاً لفرش كل غرفة »

قال سميث : « ولـكن السجاجيد والستائر ... »

فقال الأمريكي مقاطعاً : « مالها ؟ إن المقاسات أمامك وقد فرش اللورد جاستوتش منزله بالأمس . وغرفه في مثل اتساع هذه الغرف »

قال سميث : « ولـكن منزل اللورد . . . »

فصاح الأمريكي محتداً : « اللورد في جهنم . استدع خمسين عاملاً بالتلفون واستحضر أنواعاً مختلفة من الستائر لعمل التجاريب »

ووجد التاجر حماسة الرجل لا تقبل المناقشة ؛ فاستدعى العمال بالتلفون وترك المستر سميث لينوب عنه وعاد إلى متجره ليرسل البضائع .

* * *

لم يمض غير عشر دقائق حتى صارت حديقة المنزل المراد فرشه بالأثاث كأنها معسكر لكثرة من جاء إليها من العمال ولـكثرة السيارات في الحديقة وأمام الباب .

وكان سميث واقفاً أمام النافذة ينتظر مفروشات الغرفة التي هو فيها فلمح عربة فخمة تقف عند الباب وسمع الجرس يدق وعلى أثر ذلك دخلت الغرفة زوجة المستر فلـكستون تتبعها فتاة متناهية في الحسن وقالت الفتاة لأمها : « من هذا ؟ »

فأجابتها : « هو تاجر الأثاث »

ثم خرجتا وسمع سميث صوت الفتاة تقول : « ألم يأت خبر عن الـكونت ؟ »

قالت : « كلا »

وقالت الفتاة : « ما أشد الشبه بين الشاب الواقف في الغرفة وبين أنطونيو ! »

وكان سميث قد ألزم نفسه ألا يهتم بشؤون الغير فلم يعر هذه المحاورة اهتماماً وانتقل إلى الغرفة المجاورة ليعد المعدات لفرشها . وفي هـذا الحين رأى الذين جاءوا في العربة الفخمة يدخلون من حديقة الدار وهم جماعة من الصينيين وقالت السيدة : « عفواً يا مستر

سميث ! لاتنزعج من أى شيء وستنال ترضية على كل شيء تفعله . إن حادثاً لم يكن منتظراً قد وقع الآن ونريد منك أن تدعى شخصية لست صاحبها لمدة لحظة واحدة . ولك مكافأة كبيرة »

قال : « لا مانع يا سيدتى ولك الشكر »

ودخل الصينيون فاستقبلتهم السيدة وكان يصحبهم المستر فلكستون . وقدمت السيدة المستر سميث باسم السنيور أنطونيو بن الكونت أندوسى فأحنى رجل وجيه من بين الصينيين رأسه أمامه . واضطر سميث براً بوعده لصاحبة المنزل إلى إحناء رأسه أيضاً . وتقدم المترجم لينقل إلى اللغتين الصينية والإنكليزية كلام الطرفين

قالت صاحبة المنزل : « إن سعادة الحاكم الصينى يريد منك يا سنيور أنطونيو تنازلاً كتابياً عن خطبتك لرودا ماليسترا وعن جميع الحقوق التى لك فى مملكة جزيرة بارى »

وهنا غمز المستر فلكستون ذراع سميث فقال إنه مستعد لتوقيع هذا التنازل

وقال المستر فلكستون : « إن هذا الشرط هو الذى اتفقنا عليه لزواجك من بنتى وسيتزوج سعادة الحاكم الصينى من رود التى كانت مخطوبة لك »

ثم كتب ورقة هذا نصها :

« أنا أنطونيو برونو أندروسى أقرر أنى نزلت عن خطبة الأميرة رودا ماليسترا وعن حقوق كلها فى مملكة جزيرة بارى » . التوقيع

وقدم هذه الورقة إلى الحاكم الصينى فتناولها هذا ثم أحنى رأسه وخرج مسرعاً

وعلى أثر خروجه دخل مئات من العمال يحملون الأبسطة والستائر والنمارق والكراسي . وبعد قليل دخل المستر بنسبيت وأخذت المطارق تدق والمفروشات ترتب وسميث واقف يراقب ذلك ويشترك فى كل عمل يستطيع الاشتراك فيه

وفى وسط هذه الحركة القوية أعلن المستر فلكستون أن الساعة هى الثانية عشرة ، وأنه لم يبق غير ثلاث ساعات . وأخذ سميث يصيح بالعمال أن يسرعوا . فلما انتهى فرش الغرفة الأولى جاء فلكستون بستين جنيهاً وأمر بتوزيعها على العمال مكافأة لهم على الإسراع ، واستنهاضاً لهمتهم حتى يتم العمل فى الموعد المطلوب .

وفى الساعة الثانية وخمس دقائق كان سميث واقفاً وحده ليستريح قليلاً فى غرفة لم تفرش بعد . وكان يرتب بنظره كيفية فرشها . فرأى على حين فجأة أربعة من الصينيين ، وأشار له أحدهم فتبعه إلى أعلى السلم وهناك شعر بمادة ذات رائحة غريبة قد ألقيت على وجهه . ثم امتنع شعوره بعد ذلك .

ولما أفاق سميث بعد ذلك وجد نفسه نائماً مكتوف اليدين فى سفينة ، ورأى البحارة حوله جميعاً من الصينيين . فخال نفسه فى إحدى جزر الأرخبيل اليابانى ، أو فى جزر الهند الشرقية .

ولكن وجه الغرابة هو أن البحارة كانوا يتكلمون باللغة الإنكليزية .

وقال لأحدهم : « أين نحن الآن ؟ » . فأجابه : « ستعلم متى جاء سعادة الحاكم » .

قال سميث : « ولماذا أنا مقيد اليدين ؟ » .

فأجابه البحار : لا أستطيع إخبارك بشيء حتى يأتي الحاكم . ولكن لماذا تتكلم بالانكليزية ؟ ألست إيطالياً ؟

قال سميث : أنا فردريك سميث، وصناعتي كاتب في شركة بنسبيث . فتدخل بحار آخر وقال : ألست السنيور أنطونيو ؟

حاول سميث أن يتذكر كيف وأين سمع هذا الاسم ولكن ذاكرته خانته وقال : إنه جائع فجاء له البحار بقليل من الطعام ثم غلبه النعاس بعد ذلك فنام

وعند ما أفاق من النوم سمع البحارة يتكلمون وكان واحد منهم يقول : إن سعادة الحاكم لم يطمئن إلى التنازل الذي كتبه السنيور أنطونيو وليس يكفي أن يطالب بحقوقه في الملك ولا أن يأمن في حب خطيبة أنطونيو ما دام هذا الأخير موجوداً . ولذلك اختطفه بعض أعوانه وجاءوا به إلى هنا لإرساله إلى إلى جزر الملايو . ولكن الغريب أن الرجل كما ظهر لنا الآن ليس إيطالياً مع أنه اعتقل في نفس المنزل الذي وقعت فيه الوثيقة بتوقيع أنطونيو . وكان أحد الذين اختطفوه ممن حضروا توقيعه على وثيقة التنازل فلا يبعد إذن أن يكون الأمريكي قد خدع الحاكم وجاء برجل مزيف ليمثل دور السنيور انطونيو

وهنا تهامس البحارة بلزوم الصمت لأن سعادة الحاكم مقبل

وعند مجيئه سمع سميث صوت رئيس البحارة وهو يكلمه بصوت منخفض فلم يتبين ما قاله . ثم سمع الحاكم يقول بصوت كهزيم الرعد : « لا تتركوه يتكلم ! إقطعوا رقبته وألقوه في الماء » اضطرب سميث لعلمه أن هذا الكلام عنه وانتظر ما يخبئه له القدر على يد هذا الحاكم الصيني ، وبعد دقائق دخل الحاكم ونظر إليه نظرة وعيد وقال : « إنني أمرت بإعادتك إلى منزلك ولكن إذا فهت بأية كلمة عن أي شيء مما رأيته اليوم فإني سأهشم رأسك وسآتي لتأديبك ولو كنت في أقصى مكان من الأرض »

وكان صوت هذا الجبار مثل نظراته شديد الدلالة على الوعيد

قال سميث : « لن تجد مني غير الصمت وألف شكر لك »

وبعد قليل كان سميث مغمض العينين في عربة تجرى في شوارع لوندرا وهو لا يعرف هل مضى عليه بعد مفارقته هذه المدينة أيام أو ساعات أو أعوام »

ولم يرفع المنديل عن عينيه إلا عندما وقفت به العربة أمام باب منزله . وكان تشييع الصيني له نظرة تهديد قال جواباً عليها إنه ذاكر وعده وإنه سيلزم الصمت

ودخل سميث إلى منزله فنظر إلى نتيجة معلقة على الحائط فوجد أنه لا يزال في اليوم الذي باشر فيه المهمة في بيت فلكستون ، ونظر إلى ساعته فوجد نفسه في الساعة الخامسة فأسرع إلى مقر عمله وهناك رأى كل شيء على نفس النمط الذي كان عليه عند ما ترك هذا المتجر . وتلقاه المستر بنسبيت فقال : « كيف حالك الآن يا مستر سميث ؟ »

قال : « بخير »

وقال بنسبيت . « لقد علمت أنه أغمي عليك في أثناء العمل بمنزل فلكستون فنقلوك إلى منزلك في عربة » فقال سميث : « نعم لقد كان الأمر كذلك »

ولكنه عجب من رواية ما أصابه على هذه الصورة المقتضبة . وتذكر وعده بلزوم الصمت فسكت ...

وقبيل الساعة السادسة أسرع إلى المكان الذى اتفق مع زوجته على مقابلتها فيه ليذهبا إلى السينما ؛ فوجدها فى انتظاره وقال : « أظننى جئت متأخراً »

قالت : « كلا بل جئت فى الموعد . هل كان عندك اليوم شغل كثير ؟ » فأجابها : نعم نحن لا نستريح طول النهار بل هى حركة مستمرة »

قالت : ماذا رأيته اليوم ؟ فقال : إننى لا أحب التدخل فى شئون العملاء وإذا استثنينا الأطباء فلا أحد يطلع على أسرار البيوت كما يطلع عليها تجار المفروشات ؛ ولكننى أنظر ولا أسأل ، وأى شأن لى بأسرار العملاء ؟ لقد تنازلت اليوم فى أثناء عملى عن حقوقى فى مملكة بارى ، وعن خطبتى للأميرة رودا الصينية وخطبت بنت مليونير أمريكى واختطفنى رجال العصابة الصينية وكاد رأسى يقطع بالسكين ؛ وسافرت بى السفينة إلى جزر الملايو ، وهأنذا أعود فى الساعة السادسة بعد أدائى كل هذه الأعمال »

فضحكت زوجته لاعتقادها أنه يمزح وقالت : « هل كنت اليوم تمثل فى رواية من روايات شارلى شابلن ؟ »

فقال : « سامحينى إذا لم أجبك فإنى مأمور بالصمت »

وكم يرى المرء فى حالتى النوم والإغماء ، وكم فى شئون الحياة مما يظنه المرء حقيقة رآها وهو وهم يخيل له . أليست الأعمال كلها وليدة الآمال ؟ !

عبد اللطيف النشار

الورقة الثالثة عشرة

للكاتب القصصي فيليبس أوبنهيم

بقلم الأديب عزت السيد ابراهيم

خرج جاسبر سلين مع رفاقه من المقصف إلى قاعة اللعب بمنتدى لافندر عندما جاء الخادم قائلاً :

— التليفون يناديك يا سير جاسبر

فلزم سلين الصمت برهة وهو يفكر فيمن سيحدثه فى مثل هذه الساعة من الليل ثم قال :

— هل تعلم من هو ؟

— لم يذكر لى اسمه يا سيدى ولكنى أظنه صوت اللورد مينشنجهام وهو يطلبك لأمر هام

فنظر سلين إلى رفاقه قائلاً :

— احجزوا لى مكاناً على المنضدة فسوف أعود بعد أن أعلم لم يطلبنى مينشنجهام فى مثل هذه الساعة من الليل

ودخل غرفة التليفون ووضع السماعة لصق أذنه وقال :

— أهذا أنت يا مينشنجهام ؟

فأجابه الصوت فى لهجة مختصرة :

— نعم أيها الدجال … ماذا تفعل عندك ؟

— كنت على وشك أن ألعب البريدج

— هذا ما كنت أفعل أنا أيضاً لولا معاكسة الأقدار . هل تستطيع الحضور حالاً إلى بيتى فى كننجهام مانشون

— حالاً ؟ ! أم بعد انتهاء اللعب ؟

— حالاً وفى أى سيارة لأمر هام

— حسن …

واعتذر سلين إلى رفاقه ووضع قبعته على رأسه وارتدى معطفه واستقل أول سيارة صادفته إلى مسكن صديقه اللورد مينشنجهام …

ودخل سلين مسكن صديقه بالطابق الثالث وبعد أن أعطى الخادم قبعته ومعطفه ولج غرفة المكتب حيث رأى اللورد جالساً مع اثنين من رفاقه على مائدة اللعب وقد طفت على وجوههم موجة من القلق والاضطراب … ومد رب البيت يده مصافحاً سلين قائلاً :

— إننى سعيد بمجيئك يا سلين … أظنك تعرف رفيقىّ

فألقى إليهما سلين بالتحية وقد عرف الأول جورينج بريت الموظف بوزارة الخارجية والثانى السير مارتن فيلبس عضو البرلمان والمساهم فى عدة شركات وله اسم رنان فى الأسواق المالية ، ولحظ سلين خلو المقعد الرابع ولما كان يعرف أن لعبة البريدج لا تصلح إلا بوجود شخص رابع قال :

— ولكن أين رابعكم ؟

— كان صديقنا رونى كارتريت فجلسنا منذ ساعة نحن الأربعة حول المنضدة وفرق الورق أحدنا ثم دخل خادمى طومسون وأخبر كارتريت أنه مطلوب فى التليفون فخرج هذا ولا يزال نصيبه من ورق اللعب فى يديه يرتبه أثناء سيره إلى قاعة التليفون وقبعنا ننتظره مدة طويلة دون أن يعود، وأخيراً قمت لأرى ماذا يفعل فوجدت الغرفة خالية وأوراق اللعب ملقاة

على المنضدة بجوار آلة التليفون وباب المسكن مفتوحاً على مصراعيه فاستدعيت الخادم ورحنا نبحث فى أرجاء البيت دون جدوى

وأخيراً هبطت الدرج إلى البواب فوجدته فى حجرته المطلة على الباب، وبسؤاله أجاب أنه واثق من عدم خروج أى شخص فى نصف الساعة الأخير وبذلك اختفى كارتريت ولكنى لا أظنه اختفى بعيداً بل هو فى نفس العمارة ، ولكن أين ؟! هذا ما استدعيتك من أجله والطابق الأرضى كله حوانيت مطلة أبوابها على الطريق العام والطابق الأول عبارة عن مكاتب لبعض رجال الأعمال وتغلق أبوابها فى تمام الساعة السابعة من كل يوم والطابق الثانى الذى يقع أسفل مسكنى مباشرة تسكنه الأميرة الروسية مادزيويل

— وهل كان يعرفها كارتريت ؟ !

— كلا ...

— إذن دعنا نبحث فى مسكنك أولاً ...

وتقدمهم سلين إلى قاعة التليفون فوجد ورق اللعب مرتباً حسب لونه ولكنه عند ما عده دهش إذ وجده اثنتى عشرة ورقة بدلاً من ثلاث عشرة فأخذ سلين يبحث عن الورقة الناقصة فى جميع أرجاء البيت ولكنه باء بالفشل فحاول أن يتصل بالسنترال بالتليفون ولكنه وجده معطلاً فسأل طومسون :

— هل تحدث مستر كارتريت من هذه الآلة ؟

— نعم يا سيدى

— وهل حدثنى سيدك اللورد منها أيضاً ؟

— كلا يا سيدى بل تحدث إليك من غرفة البواب عند ما هبط لسؤاله ...

ودخل اللورد مع صديقيه فسأل سلين :

— هل اهتديت إلى شىء ؟ !

— إن التليفون معطل وسأهبط الآن لأوجه بعض الأسئلة إلى البواب قبل أن نزور الأميرة الروسية

وبسؤاله أجاب بأنه واثق من عدم دخول أحد أوخروجه من العمارة وكذا أكد خادم المصعد، وطلب سلين من البواب أن يرافقه إلى الطابق الأول حيث فحصوا جميع الأبواب فإذا هى محكمة الإيصاد وعندما سأل البواب عن أصحاب هذه المكاتب قال :

— إنهم جميعاً محترمون فمستر هابل المحامى خرج مبكراً الليلة ولم يلبث وكيله أن تبعه وأما كاتباه والخادم فقد خرجوا فى الساعة السادسة ، ومستر سمبسون متعهد الأفلام الأمريكية مستأجر المكتب لمدة ثلاثة أعوام وقد خرج مع سكرتيرته الساعة السابعة والشخص الثالث هو مستر ميشايل تاجر الفراء والتحف وهو رجل لا غبار عليه

— وما ذا تقول عن سكان الطابق الثانى ؟ !

— إنها الأميرة الروسية مادزيويل وهى أرملة كريمة نادراً ما تخرج ولكنها كثيراً ما تزار من بعض الشخصيات البارزة ...

— وهل عندها خدم كثيرن ؟

— سكرتيرة صغيرة ووصيفة وخمسة آخرون من الرجال

وبعد أن نفحه سلين بورقة مالية ليفك عقدة لسانه سأله :

— لقد رأيت فى غرفتك آلة تليفونية لتصلك بجميع سكان العمارة فما السبب الذى من أجله قطع السلك الموصل إلى تليفون اللورد مينشنجهام؟ !

— يا إلهي . . . لقد كان سليماً عنـد ما رأيته لآخر مرة

— أفهم ذلك فقد حدثني اللورد في الساعة التاسعة من تليفونه فلا بد إذن من وجود أحد إما خرج أو دخل إلى العمارة بعد الساعة التاسعة

— كلا يا سيدي ما عدا سكرتيرة الأميرة التي تخرج في مثل هذا الوقت من كل يوم لتنزه الـكلبتين الصغيرتين ، وكذلك أحد خدم الأميرة فقد خرج ليدخن سيجارة أمام الباب ولينتظر عودة الفتاة، أما فيما عداها فلم يدخل أو يخرج أحد من الساعة السابعة . وفي رأيي أن مستر كارترايت ألقى بنفسه من نافذة أو هبط إلى مسكن الأميرة .

— سـنرى ذلك فأرجو لا تغادر غرفتك حتى آذن لك .

ثم صعد سلين إلى رفاقه وقال : إنه لم يبق إذن سوى البحث في مسكن الأميرة فقاطعه اللورد :

— من الصعب أن تفعل ذلك يا سلين إذ كيف تطرق باب سيدة في مثل هـذا الظرف والساعة الحادية عشرة مساء .

وأحس سلين وهو يهبط إلى مسكن الأميرة أنه يقترب من حل هذه المشكلة الدقيقة وعند ما ضغط بأصبعه على زر الجرس انفرج الباب عن خادم وقور فسأله :

— هل سمو الأميرة موجودة ؟!

— نعم يا سيدي ، ولـكنها لا تستقبل أحداً في مثل هذه الساعة من الليل .

— إن الأمر أهم مما تظن فأرجو أن تقدم إليها بطاقتي هذه :

وغاب الخادم برهة ثم عاد يقول :

— تفضل يا سيدي .

ثم قاده إلى قاعة الجلوس ، حيث وجد الأميرة ممددة على إحدى الأرائك، وهي متشحة بالسواد بينما جلست على يمينها فتاة ممسكة بكتاب كانت تقرأ فيه لسيدتها وبعد أن أبدى لها سلين أسفه على إزعاجها أشارت له بالجلوس .

فأطاعها وسرد لها قصة اختفاء صديقه كارترايت والأبحاث التي قام بها دون أن يجده أو يعثر عليه ، ثم أردف :

— ولم يبق يا سيدتي الأميرة سوى مسكنك فهو الذي لم نفتشه .

وامتعضت الأميرة وبدا على وجهها الأرستقراطي شيء من الضيق ثم قالت :

— ثق يا سير جاسبار أن أحداً لم يدخل مسكني منذ الساعة الثامنة مساء ، وغير ذلك فأنا لا أستقبل سوى أصدقائي الأعزاء أما صاحبك فأنا لم أسمع باسمه قبل الآن .

— ولـكن ياصاحبة السمو إن الظروف التي أحاطت باختفائه غريبة وليس من المعقول أن إنساناً مكوناً من لحم ودم وعظام يتبخر ويصعد إلى السماء وقد بحثنا عنه في كل شبر من العمارة فلم نعثر له على أثر ولا أطمع في شيء سوى أن تسمحي لنا بالبحث هنا حتى يهدأ بالي وأطمئن أصدقائي الذين ينتظرونني في الطابق الأعلى ...

فضحكت الأميرة برهة ثم قالت :

— كما تشاء يا سير جاسبار . اقرعي الجرس يا آنا ليرافق جرابلنج السير جاسبار .

فشكر سلين الأميرة وتبع الخادم الذي أخذ

يطوف به غرف المسكن ابتداء من مخدع الأميرة ، وغرفة الزينة دون أن يقف على أثر يدل على زيارة كارترايت هذا المكان ، وأخيراً قال جرابلنج :

— لم يبق يا سيدى مكان لم تره .

فنفحه سلين بورقة مالية ثم عاد به إلى قاعة جلوس الأميرة التى ابتدرته قائلة :

— لاأعتقد أنك وجدت صديقك ياسير جاسبار مختبئاً تحت فراشى أو فى خزانة ثيابى ؟!

وتضرج وجه سلين بحمرة الخجل ، ثم كرر شكره للأميرة على سماحها له بالتفتيش فى مسكنها ثم قبل يدها وحيا السكرتيرة وتأهب للانصراف بينما قالت ربة البيت :

— أرجو ألا تكون هذه آخر مرة تزورنى فيها ياسير جاسبار .

— سأفعل دون شك يا صاحبة السمو .

وبينما هو في طريقه إلى باب الخروج لمح شيئاً على منضدة صغيرة فتقدم منها وراح يتظاهر بأنه يشتم باقة الزهر الموضوعة عليها بينما تناول ذلك الشيء ، وأخفاه دون أن يراه أحد لأن جسمه كان حائلاً بين المنضدة وقاعة الجلوس التى فيها الأميرة والسكرتيرة

وصعد سلين إلى رفاقه وقبل أن يسألوه عما فعل ابتدرهم قائلاً :

— ليعد كل منكم أوراق لعبه

فعقلت الدهشة ألسنتهم ولكنهم أطاعوه فإذا مع كل ثلاث عشرة ورقة بينما عد سلين الأوراق التى تركها كارترايت على المنضدة المجاورة للتليفون فإذا هى اثنتا عشرة ورقة ، وهنا أخرج من جيبه الشيء الذى وجده على منضدة الأميرة فإذا هو الورقة الثالثة عشرة ، ثم قال :

— قبل أن نقدم على أى مغامرة لنتأكد من أن هذه الورقة هى الناقصة فهل مع أحد منكم العشرة الديناري ؟

— كلا !

— حسن . إذن فقد كانت هذه الورقة ضمن أوراق كارترايت وما احتفظ بها إلا سهواً أو ليعبث بها فى طريقه . . . وقد وجدتها مطوية جملة طيات على منضدة الأميرة

فقال اللورد مينشنجهام :

— ولماذا دخل هذا الأحمق عند الأميرة وغاب لديها إلى هذا الوقت ... هل وجدته ؟

— كلا .. لم أترك شبراً فى مسكنها إلا وبحثت فيه كما أكدت الأميرة أن أحداً لم يدخل عندها هذه الليلة ، فأين إذن اختفى وشهادة البواب تثبت أنه لم يخرج من الباب

فقال جورج بريت :

— لعله قفز من النافذة ...

— إننا فى الطابق الثالث والشارع مرصوف ولو فعل لدقت عنقه ... وعلى كل حال لنجرب هذه الفكرة . وهبط الأربعة إلى الطريق العام بعد أن طلب سلين من خادم المصعد أن لا يسمح لأحد مهما كان بالدخول أو الخروج من العمارة

ورافق سلين البواب فطافا حول البيت يبحثان عن أى أثر يؤيد شكوكهما دون أن يوفقا وكان الضوء ينبعث من نوافذ مسكن الأميرة فسأل البواب :

— نوافذ من تلك التى تحت نوافذ الأميرة ؟

— إنها نوافذ مستر ميشايل تاجر الفراء والعاديات ... وهو رجل ضخم الجثة مرسل اللحية يرأس عدة موظفين ...

واتجه سلين إلى اللورد سائلاً عما إذا كان يمتلك سلاحاً ومصباحاً كهربائياً ، فدهش أصدقاؤه بينما أتى اللورد بما يريده سلين الذى قال :

— فى استطاعتكم أن تهبطوا معى لاختلاس السمع خلف باب مكتب مستر ميشايل ، فإن لم نسمع شيئاً فقد عجزنا عن الاهتداء إلى صديقنا كارترايت

وعند ما صاروا أمام الباب تقدم سلين وراح يصيخ بأذنه من ثقب المفتاح ، وبعد برهة أضاءت عيناه ببريق غريب وأشار لرفاقه بالهبوط إلى غرفة البواب وأعطاه مسدساً وأمره بأن يحذر من خروج أحد من العمارة بينما يتصل هو بقسم البوليس ... وعند عودته سمع رنين جرس المصعد فعاد يسأل البواب :

— من ذا الذى يطلب المصعد ليخرج فى هذه الآونة من الليل ؟

— لا أدرى يا سيدى !

وصعد الخادم بالمصعد ثم ما لبث أن هبط وفى داخله مدموازيل أنا سكرتيرة الأميرة وهى تحمل الكلب الصغير على يدها ، فاعترضها سلين قائلاً :

— آسف يا سيدتى فليس الوقت مناسباً لنزهة الكلب فضلاً عن أنك خرجت به قبل الآن

فألقت الفتاة عليه نظرة احتقار وأجابت :

— إننى أخرج به جملة مرات كل ليلة ولولا زيارتك المتأخرة لكنت ...

فقاطعها سلين :

— آسف يا سيدتى ، فليست نزهة الكلب بالأمر الهام

ثم التفت إلى البواب قائلاً : احتفظ بهذه الفتاة ريثما أتحدث بالتليفون

وحاولت الفتاة أن تصيح لولا أن وضع الرجل يده على فمها ، بينما طلب سلين سكوتلانديارد وطلب حضور المفتش ستمبسون مع أربعة من رجاله ، فلم تمض عشر دقائق حتى كانوا جميعاً فى كننجهام مانشون ، وسرد عليهم سلين قصة اختفاء كارتريت وعندئذ قال المفتش :

— لقد أتانا اليوم تقرير عن المدعو ميشايل تاجر الفراء

فالتفت سلين إلى البواب قائلاً : أعط حضرة المفتش المفاتيح الاحتياطية ودع الآنسة تنزه كلبها

وما إن فعل حتى قال المفتش :

— إننا سنهاجم عصابة قوية فأرجو أن يتكرم أصدقاؤك بالابتعاد

ولكن اللورد ورفقاؤه أبوا إلا المكث ، ففتح المفتش باب تاجر الفراء وأشعل الضوء الكهربائى فوجدوا أنفسهم فى ردهة مليئة بأفخر أنواع الفراء ، وعندئذ سطع ضوء فى إحدى الغرف المطلة على الردهة ثم انطفأ ، فطلب سلين من المفتش أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء لحراسة العمارة من الخارج ففعل ثم تقدموا جميعاً إلى الغرفة التى انبعث منها الضوء ولكن بابها كان موصداً ففتحه بالمفتاح الاحتياطى ثم دلف إليها شاهراً مسدسه ، ولشد ما دهش عند ما وجد أن المكان خال إلا من رونى كارترايت وقد شد وثاقه فى مقعد ضخم وتدلى من السقف سلم من الحبال الغليظة وما كاد رونى يرى أصدقاءه حتى صاح :

— إن هذا السلم الذي يوصل إلى مطبخ الأميرة وقد صعد الطاهي اللعين مع ميشايل منذ برهة ... هيا قبل أن يلوذوا مع عصبتهم بالفرار ... إنهم جواسيس ملاعين

وفي مساء اليوم التالي كان السير جاسبار مدعوًّا مع أصدقائه في الحفل الذي أقامه وزير الخارجية اعترافاً بجميله حيث قال :

— إن الحكومة يا مستر جاسبار عاجزة عن شكرك لتمكنك من القبض على هذه العصبة بعد أن فشل رجال بوليسنا في تعقب أثرها ، ولم نكن نظن في يوم من الأيام أن الأميرة الروسية مادبزويل مندمجة فيها ، بل كنا نعلم أنها فرت من روسيا بأموالها بعد أن ادعت أنها من مؤيدي الثورة ، ثم تغير اعتقادها فاعتنقت البلشفية ظانة أنها تفيد بلادها فأخذت توافي حكومة موسكو بتقاريرها السرية حتى حدثت هذه الحادثة الأخيرة التي تعرفها من كارترايت

فقال سلين : ولكن كارترايت لم يذكر لي شيئاً عنها

— هناك باخرة تمخر عباب بحر المانش وعلى ظهرها مليون من الذهب الروسي وقد بذل معتنقو البلشفية هنا جهدهم كي يحصلوا على ما اعتزمته حكومتنا من أمر ضبطها ، وكان كارترايت هو الرجل الوحيد الذي يعرف ذلك فنصب البلشفيون هذا الفخ لاصطياده وانتزاع المعلومات منه.

وقال كارترايت يروي ماحدث له : عند ماطلبت إلى التليفون خاطبني شخص وقال لي كلمة المرور السرية الخاصة بوزارة الخارجية وهي « إنك مطلوب حالاً » فاتبعت أوامره التي كانت تقضي بالهبوط إلى مسكن الأميرة الروسية لمقابلة مندوب وزارة الخارجية عندها ... وما كدت أقبل يد الأميرة حتى هجم علي الطاهي وكان ما تعرفونه

وعند ما سأل سلين وزير الخارجية عما تم في أمر هؤلاء الجواسيس أجابه :

— خشينا أن نعاقبهم فتنشأ عن ذلك أزمة دولية فاكتفينا بنفيهم جميعاً وأرجو ألا يصل خبر هذه الحادثة إلى الصحف حتى لا ينقلب علينا الرأي العام

وسأل كارترايت سلين : كيف أمكنه أن يعلم المكان الذي سجن فيه عند الأميرة ، فقال وهو يضحك :

— عرفته بعثوري على ورقة اللعب الثالثة عشرة يا صديقي !

عزت السيد ابراهيم

نصيحة !...

مترجمة عن مجلة « ترو ستورى »

بقلم السيد ناصر عزيز

طلعت إحدى الصحف الصادرة فى (أمريكا) ذات يوم على القراء وفى إحدى زواياها نبأ مؤلم تحت عنوان : « خطب عائلى » وهذا نصه :

هنالك أسرة تتألف من الأب (حنا) وزوجته (مرغريت) وأطفالها الأربعة . وقد كانت إلى عهد قريب أسرة سعيدة هانئة ؛ ولكن الدهر يأبى أن يبقى على سعادة أو يديم سروراً

فقد هربت ابنة حنا الكبرى بصحبة رجل متزوج لكى تعيش معه . وكم كان وقع هذه المصيبة على هذه الأسرة أليماً ؟! لقد أصبح أعضاؤها نهب الأسى والغم ، وشعروا بالخجل يغمرهم والخزى يحيط بهم فسحبوا أنفسهم من المجتمعات وأصبحوا عن أصدقائهم بمعزل

ثم أوعزت (مرغريت) إلى (حنا) أن يبيع حانوته بغية الرحيل إلى مدينة نائية حيث لا صلة لأحد بهم ولا علم له بعارهم

ولكن حنا .. كان من رأيه أنه ليس لمجرد فضيحة فرد من أفراد الأسرة يهيم الباقون على وجوههم فراراً من ذلك العار . . . لقد حلت النكبة ... فالأحرى بهم أن يلبثوا فى محلهم وألا يذهبوا بعيداً ، وأن يصمدوا للأرزاء حتى تخف وتلين قناتها . . . »

* * *

ولم تلبث نفس الصحيفة أن طلعت على القراء بعد يومين بخطاب خارجى موجه إلى حنا ومرغريت رئيسى الأسرة المنكوبة ، وكان هذا نصه :

عزيزتى مارغريت ... عزيزى حنا

ما أشد الشبه بين موقفكم الآن بعد نكبتكم وآخر وقفته أسرتى لعشر سنين خلت ! وسأقص عليكم حادثتنا مفصلاً على قدر إمكانى آملة أن تجدوا فيه عزاء لمصابكم وسلواناً :

كان عدد أفراد أسرتنا مطابقاً تمام الانطباق لأفراد أسرتكم : أب وأم وثلاث بنات كبار وابن صغير ، وقد كان الأخ على أى حال أصغرنا سناً وأنا أليه فى الكبر

عشنا فى بلدة لا تقاس بمدينتكم ، فقد كانت صغيرة الحجم ولا يربو عدد سكانها على ستة آلاف شخص ، وفى مثل هذه البلدة يندر ألا يكون شخص ملماً بأسماء باقى الأشخاص وأحوالهم ، وعلى ذلك كنا معروفين من السكان جميعاً ... وهذا وحده كاف لجعل فضيحتنا أشد من أن تحتمل

لعشر سنوات مضت ... بدأت أختى الكبرى المشرفة على الثالثة والعشرين تماشى رجلاً متزوجاً ولم يمض طويل وقت حتى عرف الجميع ذلك

ولم نكن لندرك ما سيعقب ذلك حتى نزلت المصيبة !

فقد أعلنت جهراً فجأة أنها عازمة على الذهاب بصحبة الرجل المتزوج للمعيشة معه ... وتركت البيت فعلاً إثر تصريحها وصحبته حيث أخذا فى التنقل من محل لآخر كما كانت تستدعيه لذلك أعماله ... ولكنهما كثيراً ما قصدا بلدتنا فى عطلة آخر الأسبوع أو فى العطل الأخرى ...

وما كاد يطرق سمع زوجة الرجل علاقته بأختى حتى طلبت الطلاق على الفور ... وقد أجيب مطلبها فى الوقت المناسب

وعلى أثر ذلك اقترن الرجل بأختى (سوزان) وعاشا فى بيته رغم قضائهما جلّ الأوقات فى السفر والتنقّل

وهكذا ... ضربت أختى سوزان رقماً قياسياً فى الوقاحة إذ ذهبت تنتهل السعادة من أحضان زوجها وخلفتنا نحرق الأرم وننذب حظنا العاثر ... ونرجو بانزوائنا اندمال قلبنا المكلوم !

كان أبى يشتغل فى معمل إعداد اللوازم الحديدية ، وكان يظهر عليه أنه قادر على تجميل بيته وتجهيزه وإدخال ضروب اللهو والترف إلى أسرته ...

وقد أنهى بصحبة أمى الشطر الأكبر من عمره فى المدن ... فأصبحا بذلك ذوى صلة بكثير من الأصدقاء

من المعلوم أن الخطب يشتد وقعه على المرء كلما عظم شأنه ، وتعالى قدره ! فمن البديهى أن يعظم فى نظرنا ما نزل بنا ، ونحن أسرة ألفت المجتمعات ، وربطتها التقاليد الدينية السائدة ، فكان أفرادها فى الكنيسة أعضاء عاملين !

أنهيت تحصيلى العالى فى الكلية وأنا مشرفة على الحادية والعشرين ... وسرعان ما شغلت وظيفة تدريسية شاغرة فى مدرسة محلية ...

أما أختى سوزان فلم تدرس سوى سنتين فقط فى البدء . . . لم نكن نظن أننا سنقع فى فضيحة . . . أما الآن وقد حلت الكارثة وأصابنا القدر بسهمه الصائب فقد حجبنا أنفسنا عن جميع الناس . . . حتى عن أصدقائنا القدماء ! ولا تسألى عما دهى أخى وأختى الصغرى أثناء تنقلهما فى المدارس العديدة لتلقى العلم ، من ألم وكد ! . .

وقد دار بخلدنا أخيراً أن مواجهة الصدمة فى محلنا ليس فى قدرتنا ، فاعتزمنا الرحيل . . . وكان علينا قبل تنفيذ فكرتنا أن نعمل أشياء كثيرة بسرعة متناهية . . . لذلك ألحفنا على الوالد أن يترك شغله دون أن يتقاضى لقاء خدماته الطويلة شيئاً ! غير أنه كان قد ادخر من شغله قليلاً من المال كان خير عون لنا بعد أن تنكر لنا الدهر ، فصممنا على تشييد دار جديدة لنا ... بعيداً جداً ... حيث لا يعرفنا أحد

ولم يواتنا الحظ فى بيع دارنا (وهل لى أن أقول إننا ذوو حظ ؟) ، فإننا لم نجد لها شارياً فتركناها خاوية ! ...

تركنا دارنا بعد أن أدبر عنا الحظ ، قاصدين بلداً

بعيداً نأمن به شر العار ... وأخيراً أشرفنا على قرية س ... الصغيرة النائية فعشنا فيها ، وكانت هذه القرية واقعة فى الشمال ، وقد تيسر لى الحصول على وظيفة تدريسية فيها .

دهمنا سبتمبر ونحن فى مقرنا الجديد ، وقد عثر والدى على شغل ولو أنه لم يكن راغباً فيه ...

وكان من المنتظر أن نكون فرحين بعد عثورنا على مورد معيشتنا ، ولكن فى الحقيقة لم نكن كذلك ! فقد غدت والدتى مريضة قانطة ، ولم تكن تقدر أنها ستشعر بكل هذه الآلام حتى كانت تحثنا على الرحيل ، وقد كان عجيباً حقاً أن تشعر بأى ألم بعد انتقالنا إلى عشنا الجديد تاركين مهد الفضيحة وراءنا بعيداً، ولكن لعل ذلك راجع إلى انقطاعها عن الأصدقاء القدماء ... الأصدقاء الذين تربطنا بهم رابطة الصداقة المتينة التى يرجع عهدها إلى زمن الطفولة ، وقد أحس والدى أيضاً بهذه الخسارة برغم أننا لم نعدم أصدقاء عديدين فى محلنا الجديد ، ولكن ما أشد تباين الصداقتين !

والآن ، لأبسط لكم حالنا .. لقد لزمنى المرض والقلق ، وكان هذا حال أختى الصغرى ، وأخى بوب المشرف على الخامسة عشرة !

وسوف لا أطيل الكلام حول تلك السنة التى قضيناها فى قرية س ... وإنما يكفى أن أقول إن والدتى ضعضعها المرض طوال الشتاء ، ولزمتنى الكآبة مع أختى وأخى

أما والدى فبالرغم من تركه العمل لم يكن يشكو شيئاً ، ولكن ظهر عليه أنه يتقدم فى العمر بسرعة ولم نعد نرى ابتسامته القديمة المشرقة : تلك الابتسامة التى طالما علت شفتيه فأسكرتنا بهجة ورضى

وأخيراً ... حدث الأمر الذى لا مفر منه !

مهما أردت التخلص من شىء بهروبك منه وجدت ذلك الشىء مندفعاً نحوك اندفاع السهم ، لا يعوقه عن مواجهتك عائق خصوصاً إذا كان فى الأمر فضيحة

فقد قذفت الأقدار إلى قريتنا شاباً جاء من مدينتنا القديمة لقضاء عطلة عيد الفصح فيها، ويشاء حظنا العاثر أن يلمح أخى (بوب) فى الطريق وأن يعرفه على الفور ! ولم يأل جهداً فى استقصاء أخبارنا فعلم أننى أشغل وظيفة تدريسية، وهنا تأتى بقية القصة

رجعت إلى وظيفتى بعد انقضاء العيد ، ولكنى لم أكد أخطو فيها حتى لمست فى الجو تكهرباً . وقلما أخطأ شعور الإنسان إذ ما لبثت أن كشفت سر ذلك التكهرب ، فقد أخطرتنى المدرسة باستغنائها عن خدماتى منذ الآن !

يا لله ! أيلاحظ النحس البائس أينما حل ! ماذا ترانى فاعلة بعد هذا المصاب ؟ ولم يبق لدى شك فى أن حالة والدتى الصحية ستزداد رداءة وخطورة عما كانت عليه فى السنة الماضية . وظهر لدينا جلياً أن سحابة اليأس والقنوط موشكة أن تظلنا جميعاً

ولم يكن فى وسعنا بعد الآن غير السفر ثانية إلى بلدة أخرى نلتمس فيها الاستقرار والصحة . فسافرنا فعلاً وحمد والدى الأقدار على أنها لم تربطه الآن بعمل آخر ليضحى ثانية به .

ألقت السفينة مرساها فى مدينة تناثرت المصانع فى أرجائها ، وتعالت سحب الدخان من أفواه الداخن

كثيفة قاتمة ... فنزلنا فى تلك المدينة مصممين على السكنى فيها .

وبعد أيام أسعفنى الحظ بالعثور على وظيفة تدريسية فى (مدينة المصانع) . . . وكان لرئيسى القديم الفضل الأكبر فى إيجادها لى .

أما أختى وأخى فقد شغلا وظيفتين فى حانوتين صغيرين ، فقد كان من العسير جداً العثور على وظائف حسنة فى ذلك الوقت . وكانت الحاجة أيضاً هى التى دفعتهما لهذا الشغل التافه الأجرة .

وقد كان الشتاء التالى من أشد أيام حياتنا إذ لم يكن بيتنا مريحاً كالبيوت التى اكتريناها سابقاً ... ولم يشأ والدى أن يتورط فى شغل آخر بعد الآن !

***

انصرم الشتاء وأقبل الربيع بإشراقه ، وعبير أزهاره ، وسحر جماله ، حاملاً تحت طياته نبأً خطيراً

فقد وافتنا الأنباء بحلول كارثة مروعة شتتت شمل أختى سوزان وبعلها ... ومفاد تلك الأخبار أن السيارة التى كانا يسوقانها انقلبت فقتل الزوج شر قتلة ، وأصيبت سوزان بجراح خطيرة نقلت على أثرها إلى المستشفى وهى بين الحياة والموت !

هل تحسبان أننا فكرنا يوماً فى الذهاب إليها ؟

نحن كثيراً ما دعونا وابتهلنا لو أنها ماتت ، إذاً لكان ذلك أولى من أن تجلب لأسرتنا تلك الفضيحة !

أما الآن . . . وهى بين براثن الموت . . . فهل فى الإمكان نكرانها ؟!

تحرك الحب الأمى وهو أقوى صلة وأعظم رابطة على سطح الأرض !

من الجائز أن والدتى قد ظنت فى وقت من الأوقات — بسبب الفضيحة — أنها قطعت تلك الرابطة وأسقطت ابنتها من حسابها ، ولكن ... ولكن صرخة الطفل وقت الكرب يجب أن تلبى !

وهكذا كان ... فقد قرر والدى ووالدتى الذهاب لرؤية سوزان ، ولم يمكنى تركهما يذهبان دون أن أرافقهما . . . فقد كانت صحة والدتى متضعضعة وخشيت أن تصبح السفرة ولقاء الجريمة وبالاً عليها ، لذلك صحبتهما

لا أنسى قط نظرة الارتياب المشوبة بالفرح التى ظهرت على وجه سوزان المعذبة عند ما فتحت عينيها فأبصرت بوالدتها واقفة بجانب سريرها !

كانت لحظة عنيفة خالدة ... أتت على جميع ما حمل قلب والدتى من الأحقاد التى ولدتها السنتان الخاليتان ! لقد أجهشت فى البكاء ، وأخذت دموعى تنهمل على خدىّ ... وفى نفس الوقت تملكتنى الدهشة وعرانى الذهول لما أبصرت من قدرة والدتى على التجلد وحبس الدموع فى ذلك الموقف الهائل !

والدتى التى كانت آثار المرض : مرض الجسم والنفس ، ظاهرة على قسمات وجهها بجلاء ووضوح !

مضت بضعة أيام كانت حياة أختى سوزان خلالها معلقة فى الميزان ، ولكن والدتى لم تدع لليأس إلى نفسها سبيلاً . وأخيراً ... أخذ الخطر يزول تدريجيًا حتى أيقنا أن سوزان لن تلبث طويلاً أن تتعافى !

كنا أثناء زيارتنا سوزان قد استأجرنا غرفاً في إحدى المنازل ، فقصدنا أصدقاء كثيرون ليعربوا عن سرورهم بشفاء سوزان

لماذا لا ترجعون للمعيشة في منزلكم ؟ لماذا بالله؟

كان هذا السؤال يتردد على ألسنة جميع أصدقائنا وقد أسمعونا إياه أكثر من مرة . حقا .. لقد خطرت لنا نفس الفكرة حيناً ثم أخذت في النمو ... لماذا لا نرجع إلى منزلنا الذي لا زلنا نملكه ... ؟ لماذا لا نهرع إليه في التو واللحظة بعد كل ما حدث !

ولم يلبث الخاطر أن بعث إلى العمل وتحقق . فقد رجعنا إلى منزلنا في البلدة ، وقفلت راجعة لأنهي أجل تعليمي في (مدينة المصانع) ... وبعد ذلك قصدت دارنا في يولية حيث كانت في انتظارى وظيفة تدريسية ... نفس الوظيفة التي أسندت إلى قبل فرارنا بسنتين ؟

لشد ما تبدل الأحوال ! فقد وجدنا بعد رجوعنا إلى منزلنا القديم في بلدتنا أن العار القديم قد طمست معالمه وتطرق إليه النسيان فقد كانت السنتان اللتان احتجبنا فيهما كفيلتين بتخفيف وطء العار القديم ، وتقليل تأثيره . أما نحن فنادراً ما كنا نفكر فيه

دخلت سوزان على أثر شفائها المستشفى للتدرب على التمريض ، وقد برعت في عملها فأرسلت إلى مدينة نائية لتقوم بعملها كمرضة ؛ ولا زالت إلى الآن تمارس مهنتها بجد ونشاط . ولم يكن يؤرقها ويشغل فكرها سوى شيء واحد : ذلك هو عارها القديم !

آه لو أمكن اندثاره ونسيانه ، إذاً لعاشت سعيدة هانئة !

وكأنما الأقدار أشفقت عليها مما حل بها فحققت أمنيتها ! فقد أمكنها من تكوين شخصية محبوبة لا تمت لشخصيتها الأولى بسبب . فقد أحبها الناس لبشاشتها ورقتها وحدبها على الفقراء وطول باعها في العمل ! ثم أخذت بين مدة وأخرى تزورنا فبرهنت بذلك على توبتها واستقامتها !

* * *

وأخيراً تزوجت منذ خمس سنوات وسبقتني أختي الصغرى في زواجها بسنة واحدة ، وعشنا سعيدتين بالقرب من والدينا . وبفضل ابتسام الحظ وزوال التجهم أصبح والدى قادراً على المساهمة في الشركة التي كان بها عاملاً من قبل . ولم تلبث الشركة أن أصبحت تحت إدارته الحازمة حيث لاقت نجاحاً باهراً فاتسعت أعمالها وعظمت شهرتها !

أما والدتي فقد استرجعت سرورها وبشرها ، ولم يعد يقلقها المرض ثانية ، ولم يزل أخي بوب في عمله مثال النشاط والإقدام !

* * *

فلأجل ذلك ... أحب أن أهمس في أذنك يا عزيزى حنا ألا تضحى بعملك وبمجهوداتك التي بذلتها في أحسن سني حياتك متشبثاً بالأمل الواهي، الأمل في إيجاد سلوة عن الخطب بذهابك إلى محل ناء عن بلدك ؛ فقد علمتنا التجارب القاسية أننا لا نقدر على الإفلات من الهم أو الهرب من المتاعب ، ووجدنا أن الأجدر بنا مواجهتها في المحل الذى وقعت فيه ، إذ يظهر أن تلك المصيبة تلاحق الشخص إلى أقاصي المعمورة !

وفي نفس الوقت...احرص على توطيدعلاقاتك

مع الأصدقاء ، فإنهم عند الشدة درع حصين ، وخير معوان على درء الكوارث أو إضعافها !

إيه مارغريت العزيزة . . . لقد أطلعتك على قصتنا ولا شك أنك قد ظفرت بحقيقة لا شك فيها، ذلك أن الزمن كفيل بإزالة القسم الأكبر من الشقاء والبؤس ... وعما قريب سيواتيكم الحظ فتسعدون !

أنا لا أنكر أن ملاقاتكم ما نزل بكم فى مدينتكم يفتقر إلى شجاعة فى البدء ... ولكن ذلك خير لكم من الفرار إلى بلد آخر ما دامت المصاعب تلاحق الإنسان أينما ذهب أو حلّ !

وفى النهاية . . . أختم كلمتى هذه ببضعة أبيات اقتطفتها من قصيدة صغيرة طالما وجدت الراحة فى ترديدها أثناء ما حل بنا وهى :

عند بلوغك أخطر نقطة فى حياتك ،

يجب عليك مواصلة سعيك برغم كل الصعوبات

إذ لا سبيل لرجوعك إلى الوراء أو إلى أى جهة أخرى .

وليس لك سوى السير حثيثاً إلى الأمام ،

فإن الدياجير لن تلبث أن تتبدد ، والعاصفة العاتية عن قريب ستزول .

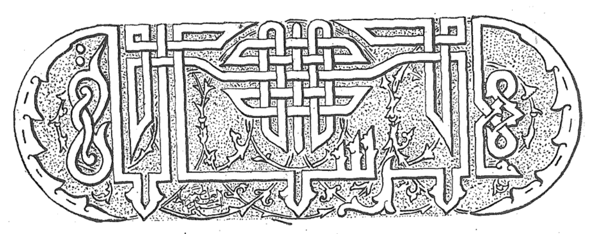
والله على إراحتك خير معوان ونصير !

المخلصة : س . ب . س

« البصرة » ناصر عزيز منصور

مدرس بمدرسة العشار الابتدائية

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين ﴾







مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٥٩ — ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ — أول يولية سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

من أحسن القصص

فهرس العــــدد



ساعة الأصيل هى الساعة المختارة التى يهبط فيها عبد الرحمن أفندى إلى حديقة البيت الصغيرة وهى عادته التى يلازمها أو التى تلازمه أغلب شهور السنة ، لأنه من القلة النادرة التى لا ترتاح إلى ترك البيت إلا لعمل أو ضرورة . وقد نزل إلى الحديقة ذلك اليوم من أيام سبتمبر المعتدلة ، وألقى عليها النظرة المعهودة ، وتمشى بين طرقاتها الملتوية يسرح بصره بين شجيرات الورد وأصص الزهور ، ثم جلس على أريكة على كثب من السور المقام من الأسلاك الشائكة الذى يفصل بين حديقة بيته وحديقة البيت المجاور ، وبسط جريدة من جرائد المساء كانت مطوية تحت إبطه ومضى يطالع ...

وكان فى مشيته كما كان فى جلسته آية للرزانة؛ فمن كان يراه لا يشك لحظة فى أنه بإزاء رب بيت وعاهل أسرة؛ فحركاته وإيماءاته تقترن دائماً بالهدوء والاتزان ، ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة والمسئولية ، ورأسه الكبير وشاربه الغزير يدلان على أنه ابن أربعين وإن كان فى الحقيقة لم يجاوز الخامسة والثلاثين إلا بشهور قلائل . وكان مستغرقاً فى مطالعته حين استيقظ فجأة على صوت رقيق يهتف به قائلاً :

— سعيدة يا عمى ...

فأزاح الجريدة عن وجهه ونظر إلى حديقة البيت المجاورة نظرة التمع فيها الابتهاج فرأى وجهاً مشرقاً يرنو إليه بعينين ســوداوين صافيتين يطالعانه بالبراءة والحسن ، فأحس إحساس الحران هب عليه نسيم بارد معطر بالياسمين ورد تحيتها قائلاً :

— أهلاً بالآنسة سمارا !

فابتسمت إليه ووقفت تلاعب كلبها الأبيض الصغير. كانت فى السادسة عشرة ، يتجاذب وجهها الصبوح وقدها المشوق براءة الصبا وأنوثة الشباب

وأشار إلى كلبها وسألها :

— كيف هو اليوم ؟

— تم شفاؤه ... الحمد لله ...

فضحك قائلاً :

— لعل هواء الأسكندرية لم يوافق مزاجه ؟ !

— على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا لا تسعه من الفرح ...

فنظر إلى وجهها الذى كسا الشاطئ بياضه حمرة كأنه غمسه فى الشفق وقال برقة :

— لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سمارا !

فاستضحكت ، وعدا الكلب فى تلك اللحظة فولته ظهرها وعدت وراءه ...

وبدا عليه تغير ظاهر ، ففاضت من عينيه نظرة الجد والرزانة وخلفتها نظرة حنان وأحلام ، وطاب له أن يختلس منها نظرات طويلة سعيدة ، فشاهدها ، وهى تجلس إلى الكرسى ، وتنحنى لتلاعب كلبها الصغير ، وجعلت أناملها تتخلل شعره الأبيض

الطويل ، ومضى الكلب يلعق يدها مسروراً ويثب على ركبتيها وذنبه يرقص طرباً ، وفى أثناء ذلك تدلت خصلات شعرها الحريرى وحامت حول عنقها وخديها ، وكان فى مشاهدته سعيداً مبتهجاً ، ولكن انقبض صدره فجأة ، فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئاً ، لأنه تذكر أن سلوكها نحوه لم يتغير مذ كانت تدرج فى الطفولة والصبا ، وأنها ما تزال تناديه بقولها « عمى » كما كانت تفعل وهى صغيرة تلعب بالعرائس ، وكان فيما مضى يفرح بهذا النداء ويعده آية على ما له فى نفسها ونفس أبيها من المودة والصداقة ، أما الآن فهو يضيق به ويتأذى منه ولا يكاد يسمعه حتى ينقبض صدره وتتولى عنه المسرة

واتجه بصره إليها مرة أخرى وتساءل — ولم يكن يفعل ذلك للمرة الأولى — أمن المستحيل أن تصير سمارا زوجى يوماً من الأيام ؟

وهز رأسه فى إنكار واستغراب كأن الفرض من المستحيلات حقاً ، ولكنه لم يسلم بلا جدال فتساءل مرة أخرى: ما وجه الاستحالة؟ ... العمر! ... فهو ابن ستة وثلاثين وهى بنت ستة عشر ، فعشرون عاماً تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرر « عمومته » لها فكيف يتأنى للعم أن يصير زوجاً وحبيبا ؟! حقاً إن الكثيرين لا يعترفون بعقبة العمر ، ولا ينزلون عند حكمها ويذللونها بغير مبالاة ، ولكن لكل تضحية من هذا القبيل ثمن ، فما عسى أن يكون الثمن الذى يبذله لمثل هذه التضحية الغالية ؟ ... هو فى الواقع ليس إلا موظفاً منسياً فى وزارة الداخلية لا يتجاوز مرتبه الخمسة عشر جنيهاً فلا مكانة له يعتد بها ، ولا مال له يسدل به على نقائصه ستراً من الرواء والجلال ؟ ومع ذلك فهو يحبها ، ويبدو له أنه لم يكن من حبها بد ، وكيف كانت تتاح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يوماً بعد يوم ستة عشر عاماً ؟ ... وكانت إلى ذلك الإنسانة الوحيدة من الجنس الثانى التى رمته بها الأقدار فى عزلته القاسية ... فتسرب الحب إلى قلبه خفية ، فى أناة وهدوء ، وبلا قصد أو حذر تسرب الكرى إلى أجفان حالم مستسلم إلى هبات النسيم اللطيفة فى جلسة طويلة هادئة على شاطىء النيل ...

وكان فى أول عهده بها يتمتع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذاً لحنان صدره المكتوم ، فلما أن انقلب عاشقاً أنشبت فيه الحيرة أظافرها وحرم القناعة السعيدة وصار يعذبه كل شىء حتى عطفها وحديثها ، لأنها كانت تقبل عليه ببراءة ولم تشعر حياله شعور امرأة بأزاء رجل ، وقد حدجها مرات بنظرات نفذ منها لهيب الهوى قهراً فلم تستجب له ولم تحس به وأصرت على أنه « عمها العزيز » لا أقل ولا أكثر . ! ما عسى أن يكون ردها لو طلب يدها ؟ ... كيف يكون شعورها ؟ ... وكيف تكون دهشتها ؟ ... وماذا تقول لأبيها ؟ ... وماذا تقول لنفسها ؟ ... وهل يمكن أن يراها بعد ذلك كما يراها الآن فى حديقتها وأن يتمتع برؤيتها مقبلة مدبرة محدثة مداعبة أم ينقطع عهده بها إلى الأبد ؟

وهب أنه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفاتح أباها — صديقه العزيز — فى هذا الشأن الخطير فما عسى أن يقول له ؟ ... يا له من قول عسير ! ... وفكر طويلاً ، ثم أغمض عينيه وحدث نفسه وكأنه يحدث صديقه: « صديقى العزيز لقد جئت أحدثك فى أمر خطير لم تكن تتوقع أن أحدثك فيه أبداً ، وربما لم أكن أتوقع ذلك أنا أيضاً ، ولست واثقاً من موافقتك ولا من أهليتى للطلب الذى أتقدم به ولكنى لم أرد أن أضيع فرصة ذهبية لمجرد توهمى الإخفاق ... سيدى ... وصديقى ... »

ولم يتم حديثه لأن صوتاً عذباً أيقظه من حلمه قائلاً:

— أنائم أنت ؟

فانتبه خافق القلب وقد تولاه ما يشبه الرعب ، وقال:

— كلا ...

— معذرة ... رأيتك مغمض العينين ...

— كنت أفكر ...

— وفيم تفكر . ؟

حدق فى وجهها بعينين حائرتين وتساءل بماذا يجيب ؟ ... أيقول لها فيك أنت ؟ ... ولكنها مجازفة سابقة لأوانها ، فلازم الصمت ، وأحس رغم ارتباكه بلذعة سخرية لاضطرابه أمام هذه الطفلة ، وكان ينعم النظر فى عينيها السوداوين ، ومرت دقيقة على جموده ، فشعر بسريان تخدير لذيذ ولم يعد يرى إلا سواداً جميلاً ، ثم لاحظ تغيراً فجائياً يطرأ عليها ، فرأى وجنتيها تتوردان وشفتيها تقلقان ، وعينيها تتحولان إلى هدف وراءه ... وشاهدها تفر نافرة إلى داخل البيت ، ونظر خلفه دهشاً فرأى أخاه أنور يقف مبتسماً ويمد له يده للسلام . وأحس بكآبة لم يدر ما سببها وخفق قلبه خفقان الخوف والخيبة ، ولكنه سلم عليه مبتسماً وقال له : أهلاً كيف حالك يا دكتور ؟

فضحك الشاب وقال بصراحة :

— كم أنت سعيد يا أخى !

وأدرك ما يعنى من اتجاه بصره ولهجته ، وآلمه ذلك غاية الألم ، ولكنه تجاهل الأمر وقال بإنكار :

— سعيد ؟!

— طبعاً ، من يحدث سمارا ينبغى أن يكون سعيداً

فابتسم ابتسامة صفراء وقال لنفسه : إما أن هذا الشاب خبيث ماكر ، وإما أنه غبى لا يفقه لما يقول معنى . ليس السعيد حقا من تحدثه سمارا ولكنه من تخجل من محادثته ومن يتورد وجهها حين رؤيته فلا تملك إلا أن تفر هاربة . . . هذا هو السعيد حقاً . . . أفلا يفهم ذلك هذا الشاب أم أنه يتغابى ويمكر ؟!

على أنه كان يحرص على ألا يبدو عليه شىء مما فى نفسه ، فقال يغير مجرى الحديث :

— كيف كانت ليلتك بالأمس ؟

فجلس الشاب إلى جانبه وقال :

— كان قصر العينى أمس حافلاً بالحوادث المزعجة ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر

وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلم بعينين ساهمتين وعقله دائب على التفكير ... كان ذا قلب كبير يفيض حنانه ، فهو يحب شقيقه وقد أمده هذا الحب الأخوى بالعون والصبر فرباه ورعاه كما ربى أخوين له من قبل ، ولكن يداخله أحياناً من ناحيته خوف وجفول وربما أكثر من ذلك ... نعم هى الحقيقة فهو يكرهه أحياناً وهو أشد ما يكون كراهية له إذا جرى ذكر سمارا على لسانه ، فمجرد نطقه لذلك الاسم الحبيب يؤذيه ويعذبه وتستحيل هذه الكراهية المؤقتة مقتاً إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما حدث منذ حين قليل ... على أن هذا لا يعنى أن هذه الكراهية عاطفة ثابتة فهى مجرد انفعال عنيف ، وغير ذلك فهو يحبه ، وينظر إلى مستقبله كشىء جميل من صنع قلبه وكده ، فأى حيرة وأى عذاب ... ! ترى هل يفطن الشاب إلى ما يحدثه فى نفس شقيقه الأكبر من الشقاء ... ؟ كلا ... هو بلا شك لا يتصور أن مثله يمكن أن يحب هذه الصبية الجميلة !

وكان الدكتور الشاب يفكر فى تلك اللحظة من حياته السعيدة فى أمور هامة فقال لأخيه :

— لدى أمور هامة أريد أن أفضى إليك بها

ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هذه الرغبة فقال :

— إخلع ملابسك أولاً وارتح قليلاً ...

ولكن الشاب قال بإصرار :

— استمع لى أولاً يا أخى فإن حياتى فى مفترق الطرق . . .

فسكت الرجل وأردف الشاب :

— ستنتهى بعد أشهر مدة تمرينى كطبيب امتياز فى القصر وقد أخبرنى أستاذى الدكتور

براون بأن النية متجهة إلى اختيارى عضواً فى بعثة كلية الطب . . .

فأحس الرجل بارتياح غير منتظر وقال بفرح :

— مبارك . مبارك . أنت أهل لذلك بغير شك .

والظاهر أنه كان لدى الشاب ما يقوله غير ذلك لأنه قال بارتباك وبصوت خافت :

ولكنى ... أعنى ... أريد أن أقول ... إنى إذا سافرت فلن أسافر منفرداً ...

— لا أفهم شيئاً ...

فى الواقع أنه يفهم كثيراً ، أو فهم على الأقل ما جعل قلبه يرتد إلى الجفول ، وكان الشاب قد تغلب على ارتباكه فقال :

— سأسافر زوجاً إن شاء الله

— يا لها من مفاجأة ! . . . إنه لم يسبق لك التحدث إلى أحد فى هذا الموضوع . . . أليس كذلك ؟

— بلى . . .

— هل نبت فى رأسك على حين غرة ؟

— كلا ولكنى أوثر الصمت حتى أخرجنى عنه السفر المنتظر !

وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثم قال :

— هل أفهم من ذلك أنك وفقت إلى الاختيار ؟

فأحنى الشاب رأسه وأشار بذقنه إلى بيت الجار وقال :

— سمارا . . .

وساد الصمت ، وقلق الشاب لسكوت أخيه ، فسأله بلهفة :

— ما رأيك يا أخى ؟ ... ألا تعجبك ؟

فقال الآخر بسرعة :

— نعم الاختيار ... نعم الاختيار ...

فابتهج الشاب وقال :

— أشكرك يا أخى . . . وأرجو ألا تتوانى ، فعدنى أن نذهب غداً إلى مقابلة والدها ولعلى لا أصدم هناك بما يخيب أملى

— حسن .. ولكن ما الداعى إلى هذه السرعة ؟

— لابد من السرعة فليس أمامى سوى شهور قلائل ينبغى أن يتم فى أثنائها الاتفاق والاستعداد للسفر إلى انجلترا

ثم ضحك الشاب وقال وهو يهم بالوقوف :

— ألا ترى أنى سأمضى شهر العسل خارج القطر كالوجهاء ؟

فابتسم الرجل ، وحياه الشاب وذهب إلى داخل البيت ...

وتبعته عيناه حتى غيبه الباب ثم عادتا تنظران إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تعى التفاصيل ، فأحس إحساساً غامضاً بالسمرة التى أخذت تشوب الكون والسكون السارى فى مفاصله ، وضاق بجلسته فقام يتمشى فى الحديقة الصغيرة يائساً محزوناً مختنقاً ودار دورتين ثم رجع إلى الأريكة وارتمى عليها بشىء من العنف كأنه يسلم إليها حظه التعس لا جسمه المنهوك ...

ووجد فى تلك اللحظة رغبـة خفية قاهرة فى الفرار إلى الماضى ...

فطار خياله فى الزمان عشرين عاماً فى غمضة عين إلى تلك الفترة من العمر التى تبدو فيها الحياة كقطعة من العجين فى يد الخيال يعبث بها كما يشاء ويصنع منها ما يملى عليه هواه بعيداً عن قساوة الواقع . فى ذلك الوقت البعيد كان هذا الرجل الممتلىء رزانة وهماً وحزناً صبياً مرحاً مدللاً يفيض قلبه بالأفراح والآمال وقد ميزته الطبيعة مذ رأى النور ، فكان أول من خفق له قلب والديه بالأبوة والأمومة من الأبناء . ثم كان من بعد ذلك غلاماً مجتهداً تضىء حياته المدرسية استعدادات عاليـة ومواهب نامية تبشر بالنبوغ والتفوق والمستقبل

البسام ، ولكن الحقيقة أن ما خفى من فضائله كان أعظم ، وأنه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور فى أبهى الحلل ، وقد جاءت هذه الفرصة ولكنها لم تكن واأسفاه سوى وفاة والده ...

ترك الوالد المتوفى أسرة بائسة مكونة من أرملة وأربعة أبناء أكبرهم — عبد الرحمن — فى مستهل الشباب ، وأربعة جنيهات معاشاً ، وهكذا تصدت الحياة للشاب السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس ، استأدته أشد الواجبات ، وحتمت عليه أن يخلع رداء الطفولة ليحمل على عاتقه اللدن أثقل التبعات . . . وكان عليه قبل كل شىء أن يتناسى أطماعه ، ويدرج فى الأكفان آماله ، ويقبر مواهبه لكى يهيء للأسرة الضعيفة حياة سعيدة ، ويوليها بعض العناية التى كان يوليها إياها الأب الراحل ، ورضى كارهاً بوظيفة بائسة لم يتصور قط أن تنتهى إليها آماله ...

كانت تلك الأيام فى بدئها مؤلمة شديدة المرارة تبعث فى النفس الأسى والحسرة واليأس ؛ ولكنها لم تبلغ به قط حد الثورة أو الغضب الهائل . لماذا ؟ كان قلبه كبيراً ينضح بالحنان والأخوة . فوهبه أمه وإخوته ، وهانت لذلك تعاسته ، وخففت الأيام من وقع الخيبة فى نفسه ، وتجددت فى قلبه آمال أخرى لا تتعلق بمستقبله هو ، ولكن بسعادة إخوته ومستقبلهم ، وذاق سعادة جديدة ، هى السعادة التى يحدثها بذل النفس والعمل من أجل سعادة الغير ، وبذلك شغل الشاب مكان أبيه ، ودخل فى طور الرجولة الحق قبل الأوان ..

وذكر هنا كيف أنه كان يشعر بالفراغ الأليم رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال ، ولكنه كان ينجح دائماً فى إبعاد فكرة الزواج عن قلبه حباً فى أسرته وإيثاراً لإخوته ، واستوصى بالصبر ، لكن أثبتت له الأيام أن إخوته أقل صبراً وأعنى بنفوسهم منه وربما كان للزمن فى ذلك شأن وأى شأن ، فما كاد أكبرهم يتخرج ضابطاً فى مدرسة البوليس حتى تزوج وترك العبء له وحده وتبعه بعد قليل أخوه الثانى المهندس فاضطر إلى البقاء أعزب حتى هذه السن ...

ثم ذكر كيف أنه كاد يختار أخيراً ما يكمل به حياته وكيف جاء الاختيار بعيداً عن التوفيق وكيف أتته الطعنة النجلاء من يد طالما آثرها بالحب والعطف ، وقد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة بالأمل والسعادة كأنه ذاك الحكيم الذى يترنم بأنشودة السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التى لا تراها العين ...

وفيما هو فى أحلامه إذ سمع صوتاً ينادى قائلاً :

« عبده ... لماذا تبقى فى الظلام »

هذا صوت أمه الحبيب ... رباه ... لقد لفه الليل وهو لا يدرى ...

وقام من جلسته متثاقلاً وسار ببطء إلى الداخل وبادرته أمه قائلة :

— هل حدثك أنور ؟

فقال : « نعم ... »

— ما رأيك ؟

— اختيار جميل يا أماه ، سأذهب غداً لمقابلة جارنا وأطلب يد ابنته الجميلة لابننا النابه !

فقالت بحنان :

— لم يبق إلا أنت !

ولازم الصمت هذه المرة . . .

من يعلم ؟... ليس الذى يلقى الآن بأشد قساوة مما لقى فى ماضيه ، وما هذه بأول كارثة يمتحن بها قلبه الكبير ، وقد علمته الحياة فضيلة الصبر كما علمته حقيقة أجل : هى أنه يستطيع أن يسعد وهو يحقق السعادة للآخرين ...

نجيب محفوظ

وهبتها حياة ثانية

(قصة استحقت مائتى جنيه)

عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

[لم ترد أن تعيش بغير الرجل الوحيد
الذى حرك عوامل الحب فى قلبهـا]

مضى علىّ الآن ثلاثون عاماً فى مهنة التمريض ؛ فقد أصيب زوجى — وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى — بمرض طالت أيامه ؛ فعنيت بتمريضه طوال العشرة الأشهر التى قضاها فى الفراش ، حتى إذا انتقل إلى العالم الآخر واصلت حياة التمريض .

ولقد خلقت بعض النساء ممرضات بالطبيعة ، وأنا واحدة من هؤلاء ، وقد وجدت عملاً كثيراً فى بلدة أيست انجليان التى ولدت فيها ؛ وقضيت حياتى بين أهلها الذين أعرفهم ، وأستطيع التفاهم معهم .

وكان الأجر الذى أتناوله قليلاً، لذلك لم أدخر قط مالاً كثيراً ، ولـكننى ادخرت طائفة كبيرة من الذكريات لا تقوم بمال مهما كثر ؛ والآن يعرفنى جميع أهل المقاطعة باسم العمة سارة كشنج .

وفى ليلة قارسة البرد من ليالى شهر نوفمبر عدت إلى بيتى مسرعة ، وكانت الأضواء منبعثة من نوافذ البيوت التى مررت بها . وكنت كلما استنشقت الريح الباردة شعرت بأن الحياة شىء جميل. وكنت فى تلك الليـلة قد انتهيت من تمريض السيدة شيد بعد وضعها ولدها الثالث . وقد تركتها هى وطفلها فى صحة جيدة .

وفكرت وأنا أسـير فى الطريق فى مسكنى المريح فى بيت السيدة ميل حيث قضيت الخمسة عشر عاماً الأخيرة . فكرت مسرورة فى مطبخى النظيف النير ، واعتزمت أن أتعشى الليلة سجقاً وخبيص البطاطس . فذلك الجو هو الجو المناسب لمثل هذا العشاء .

ولقد كنت دائماً أشعر باللذة عند عودتى إلى مسكنى ، وكان فى واجهة الطابق الأول من الدار . فلما وصلت إلى الباب فتحته وضغطت زر الـكهرباء فغاصت غرفة الجلوس بضوء لطيف .

وإذ تلفت لأغلق الباب سمعت صوت نشيج مكتوم فوقفت أتسمع فكان الصوت آتياً من المسكن المواجه لمسكنى .

كانت تقيم فى ذلك المسكن سيدة اسمها مسز فرانكلن استأجرته منذ بضعة أسابيع ولم أعرف من أمرها إلا الشىء القليل جداً . كانت شابة لا تتجاوز سنها السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين ، طويلة القامة ملفوفة ، سوداء العينين جذابتهما فى وجه أبيض مستطيل . وقد تعودت أن تصبغ شفتيها بالأحمر الزاهى ، وكان ذوقها فى لباسها جميلاً بسيطاً . ولم أشك فى أنها حين كانت أصغر سناً كانت مفرطة الجمـال . وقد أخبرتنى مسز ميل صاحبة الدار أن الساكنة الشابة تشتغل بالتصوير للمجلات ، وتبعث

بالنماذج إلى كتب الأزياء .

وإذ كنت أليفة الروح فإننى لم ألبث على أثر سكنى مسز فرانكلن فى الدار أن خطبت ودها بغية الصداقة ، وكانت الشابة كريمة النفس ، ولكننى لاحظت بعد قليل أنها لا تريد أن ترتبط بروابط الصداقة مع أحد من الناس .

فلما سمعت صوت النشيج المكتوم نظرت خلال فتحات بابها فلم أر أثراً للضوء ، ففكرت فيها وحيدة فى الظلام ، وقد تكون مصابة بأزمة مرضية حادة فاتجه قلبى إليها .

وقلت فى نفسى : « إننى لا أستطيع أن أقتحم الدار عليها غير مستأذنة » . ثم خطر لى خاطر سريع . فدخلت إلى مسكنى ، ووضعت كيس نقودى على كرسى ، وخلعت قبعتى ومعطفى ، وكانت ساعتى فى هذه اللحظة تدق التاسعة .

رتبت شعرى ، واجتزت الردهة ، وطرقت باب مسز فرانكلن فلم أسمع جواباً ؛ فأعدت الطرق بأشد مما فعلت أول الأمر . فسمعت صوتاً مكتوماً يقول :

« مرحى ! من الطارق ؟ »

فأجبت :

« إنها العمة سارة » .

ثم قلت :

« أيمكن أن تقرضينى شيئاً ؟ »

فقالت :

« أرجو أن تنتظرى لحظة واحدة » .

وسمعت حركة مشيها من وراء الباب المغلق . ثم انبعث الضوء فجأة من فتحة عتبته ، ولم يلبث أن فتح فى بطء ، ووقفت الشابة كالخيال بينى وبين الضوء . وقالت :

— أتتفضلين بالدخول ؟

فشكرتها وخطوت إلى داخل الغرفة .

والتفتت إلىّ ؛ فسقط الضوء على وجهها فغمره ، وكان شعرها الأسود الكثيف مرتباً غير مشوش . وكان ثوبها الأسود منتظماً فى بساطته ، كذلك كانت عيناها السوداوان براقتين لا أثر للدموع فيهما . فخيل إلىّ أنه يكاد يكون من المستحيل أننى سمعت نشيجها منذ لحظة .

وسألتنى الشابة فى اقتضاب وعلى فمها ابتسامة رقيقة مغتصبة :

— أى شىء أستطيع أن أقرضك ؟

قلت :

— ليس عندى شىء من الشاى . فهل يمكن أن تعطينى ما يكفى قدحاً أو قدحين ؟

فأجابت :

— بدون شك وسأحضره فى الحال !

فلما سارت متجهة إلى المطبخ فحصت الغرفة بنظرة سريعة لعلى أعثر على ما يفسر أسباب حزنها كخطاب أو تلغراف مثلاً .

ولكنى لم أرَ شيئاً غير جريدة المساء ملقاة على الأرض إلى جانب كرسى موضوع تحت المصباح .

وعادت مسز فرانكلن إلى الغرفة وفى يدها علبة من الشاى . وقالت ملحة فى لهجة سريعة متوترة :

— أرجو أن تأخذيها كلها فعندى غيرها !

فشكرتها وأنا لا أزال غير راغبة فى الانصراف . فقد كانت روح المأساة تسود الغرفة ، ولقد كنت على يقين من ذلك . فقلت :

— إن البرد شديد فى الخارج .

فارتجفت الشابة وقالت :

— أهو كذلك ؟

ثم اصطبغ وجهها بلون أغبر ، ورأيت أصابعها الدقيقة تتقلص على ساعديها ، وقد ضمتها إلى صدرها من أثر التألم . فسألتها مسرعة :

— أمريضة أنت ؟

فمالت نحوى مترنحة ، والتقت نظراتنا ، وكان الألم الصارخ يبدو جلياً فى عينيها ، ولكنها قالت فى لهجة القلق الذى فرغ صبره :

— لا . لا . أنا لست مريضة .

وخيل إلىّ أن عينيها تبعثان بنظراتهما إلى داخل نفسى ، وكأنهما لا تريان شيئاً .

واسترعت الجريدة الملقاة على الأرض نظرى ، ففى رأس الصفحة الأولى كتبت هذه الكلمات بالخط العريض :

« سيشنق كريج غداً . الرجل المتهم بقتل زوجته يلقى جزاءه » .

ودون أن أفكر فى كلماتى قلت :

— إذن سيشنقون كريج غداً .

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى تصلبت الفتاة ونكصت عنى كما لو كنت قد ضربتها ، وسقط ساعداها فى دفعة واحدة إلى جانبيها ، ومال رأسها إلى الوراء ، وخرجت من حلقها صرخة فظيعة مختنقة حبست بين شفتيها الحمراوين . وكانت صرخة غير دنيوية تجمد لها نخاع عظامى . فأمسكت بكتفيها وهززتها فى لطف . وقلت فى لهجة الآمر :

— قفى هذا يا مسز فرانكلن !

فانفتحت عيناها فى بطء ، فكانتا تفيضان بجزع يعجز القول عن وصفه . ثم قالت فى همس حاد :

— نعم سيشنقونه غداً .

وترنحت الشابة مائلة نحوى فأمسكت بها وأسندتها وأجلستها على الكرسى . ثم لم تلبث أن استولت عليها قشعريرة حادة . فكان الفزع الشديد الكامن فى نفسها يهزها فى عنف كما يهز ريح الشتاء الغاضب شجيرة ضعيفة .

فقلت وقد ألمت لحالها :

— سأحضر لك شيئاً من الخمر فلا تتحركى حتى أعود إليك .

واجتزت الردهة جارية حتى وصلت إلى مطبخى فصببت نصف زجاجة من الخمر فى قدح وعدت مسرعة إلى حيث كانت الشابة لا تزال ترتجف .

فركزت حافة القدح بين شفتيها وقلت :

— اشربى هذا !

فشربت جرعة أو جرعتين من القدح ، وفى لحظات قليلة وقفت القشعريرة فقالت وهى كالتائهة :

— شكراً لك ، وأنا الآن على أحسن حال .

كانت هذه الكلمات إيذاناً لى بالانصراف ، ولكننى لم أصغ لها . وقلت فى لهجة الاعتراض :

— لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال من المرض ، وأنت تعرفين أننى ممرضة . فاسمحى لى أن أبقى معك فترة قصيرة .

فهزت رأسها فى إشارة رفض سريعة ، ولكن كتفيها لم تلبثا أن مالتا متعبتين . وقالت :

— نعم . أرجو أن تبقى معى . لا تتركينى وحيدة . إبقى معى حتى ... الصباح .

قلت :

— ألا ترقدين وتسمحين لى بأن أريحك؟

فقالت الشابة وكان صوتها الألم المجسم :

— تريحيننى ؟ وهل أعرف الراحة بينما هو ينتظر الموت ؟

ثم وثبت ووقفت على قدميها ، وشرعت تذرع أرض الغرفة ذهوباً وجيئة . ثم وقفت أمامى على حين فجأة ، وكانت عيناها فى نظرى كالجمرتين المتقدتين . وكان صوتها وهى تتكلم أشد فظاعة من عينيها ، وقد قالت :

— إنهم سيشنقونه غداً . وليس فى يدى من شىء أستطيع عمله لإنقاذه . . . نعم لا شىء على الإطلاق !

فسألتها فى صوت بالغ فى الرقة :

— أو تحبينه ؟

فأجابت :

— أنا هيلارى لى

عندئذ أدركت سبب جزعها وآلامها

فقد قرأت ما كتب عن جناية القتل التي اقترفها كريج ، كما قرأها كل من يطلع على الصحف ، فقد شغلت الصفحات الأولى من الجرائد أشهراً طوالاً ، وفى أول الأمر تكرر اسم هيلارى لى عدة مرات مقترناً بالظروف التى أدت إلى الجريمة ، ولكن فى القسم الأخير من المحاكمة اختفى هذا الاسم فلم يسمع به أحد

نشرت قصة غرام هيلارى لى القصيرة على جمهور متعطش للأخبار المثيرة ، وأضيفت لها الحواشى التى تزيد الرغبة فى قراءتها ، ولكن قصة هذا الغرام انتهت وطويت صفحتها قبل حادث القتل بزمن طويل ولم يستطع القانون ولا الصحافة أن يجدا أية حلقة تربط بين حب نيكولاز كريج لهيلارى لى وبين قتله امرأته ليلى

وما سمعت كلمات الشابة المنكوبة حتى طوقتها بساعدى وصحت فى لهجة المواساة والحنو :

« عزيزتى ! »

وعادت هيلارى تنشج نشيجاً جافاً لا يصحبه دمع حتى ليخيل إلى الإنسان أنه يمزق قلبها قطعاً

وقلت لها فى لهجة الرجاء :

— حدثينى بأمرك يا هيلارى ، ففى الكلام تفريج عن نفسك

فقالت فى صوت متوتر مختنق :

— ولم لا أتكلم ، ليس فى تاريخ حياتى ما يعد أمراً خاصاً أحاول إخفاءه ، فلقد قرأ كل من أراد قصتى منشورة على صفحات الجرائد ، فلماذا أخفى عن إنسان واحد وجه الحقيقة فيها ؟

وبدأت هيلارى تذرع أرض الغرفة من جديد جيئة وذهوباً ؛ وكانت عيناها مسبلتين وشفتاها ترتجفان وقد لاحظتها بينما عادت ذاكرتى إلى الماضى مسرعة تستعرض ما قرأته من قصة هيلارى لى

وما قرأته يلخص فى أن هيلارى كانت الابنة الوحيدة لرجل غنى . وكانت يتيمة الأم منذ طفولتها وكانت فتاة جميلة صلبة الرأى ، تملك المال الزائد جداً على حاجتها . وقد أذيع أنها خطبت ثلاث أو أربع مرات ، وقيل إنها هجرت أحد خطابها فى اليوم الذى حدد لعقد الزواج

وقد شغلت الصحف وقتاً ما صفحاتها الأولى بقصة حب هيلارى للشاب الجميل الذى كان يشغل عند أبيها مركز رئيس الركبية وهى قصة قصيرة مكفهرة ، ولقد فصل أبوها هذا الموظف من عمله وأسرع فصحب ابنته فى رحلة فى أرجاء العالم المختلفة وبذلك تلاشت قصة ذلك الغرام

وحدث بعد ذلك أن أباها ادوارد لى فقد ثروته ما بين عشية وضحاها نتيجة معلومات خاطئة اتصلت به فى أعماله ، فلم يستطع الرجل احتمال التفكير فى حياة الفقر فانتحر فى غرفة مكتبة بيته فى «سورى» وعادت الصحف مرة أخرى تذكر اسم هيلارى فى رؤوس صفحاتها

وبعد ذلك تركتها الصحف مطمئنة فترة من الزمن إلى الليلة التى فيها أطلق نيكولاز كريج الرصاص على زوجته فى مسكن بوست أند

كان نيكولاز كريج وزوجته متباعدين منذ سنوات ، لم يستطع أحد أن يكشف قط عن السبب الحقيقى لارتكاب الجريمة ، فعادت الصحف إلى ذكر قصة غرام هيلارى لى ولكنها لم تستطع أن تجد هيلارى لى

ولقد تخيلت هيلارى فتاة متغطرسة حجرية القلب ، أول تفكيرها وآخره وكله فى نفسها ، وكان من الصعب أن أصدق أن السيدة الشاحبة اللون ذات العينين السوداوين اللتين تنبعث منهما آلام العذاب النفسى هى حقاً هيلارى لى المشموذة الخداعة

ثم بدأت الفتاة تتكلم فى جمل قصيرة مقتضبة كما لو كانت كل كلمة تنطق بها قطرة جديدة من الألم الصارخ تعصر من قلبها ، وكانت وهى تتكلم تذرع أرض الغرفة بخطواتها ، ولقد سبق لى أن رأيت حيواناً محبوساً فى قفص يخطو مثل هذه الخطوات اليائسة

ولم أقاطعها فى أثناء حديثها ، بل جلست أصغى لها وقلبى يتفطر تألماً لها مع كل كلمة تنطق بها . وهذا ما قالته :

***

لقد جعلت الصحف من حبنا « أنا ونيكولاز » شيئاً رخيصاً فاجراً ، ولكنه فى الواقع لم يكن كذلك فقد كان نيكولاز يشرف على خيل أبى شهوراً عديدة قبل أن أحبه ، ولم يكن فى نظرى غير واحد من الموظفين العديدين الذين يعملون فى اصطبلات أبى ، على الرغم من أننا قد ركبنا معاً مرات عديدة ، إلى أن جاء اليوم الذى ذهب فيه لمقابلة أبى فى بيتنا الريفى بنيو فرست وقد طلب أبى منه أن يصحبنى فى السيارة إلى ذلك البيت

ولما اقتربنا من منتصف الطريق داهمتنا عاصفة هائلة

فتركنا السيارة وعدنا على الأقدام تحت المطر المنهمر إلى كوخ على مقربة من الطريق كان نيكولاز قد لمحه . وطرقنا باب الكوخ ولكننا لم نسمع لطرقنا جواباً ، ولم يكن هناك من مكان آخر نستطيع أن نأوى إليه اتقاء المطر ، لذلك عالج نيكولاز قفل الباب بسكين ففتحه . وأسرع فأشعل النار وبحثنا فى المكان فوجدنا ملابس جافة ، ولم أكن قد رأيت نيكولاز قبل هذا اليوم فى غير ملابس الركوب فلما رأيته يرتدى سراويل من الصوف الأبيض وقميصاً من الصوف الأزرق رأيته إنساناً آخر مخالفاً للذى كنت أراه

وطبخ نيكولاز لنا عشاء من بعض المأكولات المحفوظة فى العلب التى وجدها فى أحد الأصونة ، وكانت العاصفة لا تزال فى عنفوانها ، وخيل إلينا أنها تشتد عنفاً مع توالى ساعات الليل ، وكان المطر يطرق النوافذ فى شدة ، وكان عصف الرياح أشبه بولولة مجموعة كبيرة من الشياطين

وقال نيكولاز :

— يبدو لى أنك مقرورة فدعينى ألف هذا الدثار حولك .

ووضع الدثار على كتفى فابتسمت له ، فإذا به يضمنى على حين فجأة بين ساعديه ، واندفع يقبلنى قبلات ما عهدتها من رجل قبله ... قبلات جائعة ... كما لو كان ذا مسغبة من الحب

ولقد تعلقت به وقلت فى نفسى : « إن هذا هو الحب ، وإننى لم أعرف قط ما هو الحب حتى هذه اللحظة »

لم أعد أشعر بشىء من البرد فلقد كنت ألتهب بنار سرور غريب ، فتركت له شفتى وقلبى ونفسى ، وقد رأيت أن حق الحياة يقضى بأن أكون معه فى ذلك المكان أغمره بحبى، بل بدا لى أن ذلك أحق من كل شىء آخر عملته فى حياتى

ولما أشرق الصباح أشعل نيكولاز النار وأعد لنا قهوة قوية . فلما انتهيت من شرب فنجانتى ابتسمت له فى كثير من الإعجاب ، فلقد كان الرجل الذى لا تملك امرأة نفسها دون الإعجاب به والافتخار بقربه . كان طويل القامة يقرب طوله من ستة أقدام عريض المنكبين دقيق الوسط والردفين ، وكان شعره الكثيف الجعد فى لون القمح الناضج . رمادى العينين واسعهما فى وجه قوى تزينه سمرة مبهجة ، ورد نيكولاز على ابتسامتى بابتسامة عذبة رقيقة ، فلمحت بريق أسنانه البيضاء القوية

وصحت فى لهفة :

— لنتزوج يا عزيزى بأسرع ما نستطيع ، وسنخبر أبى بزواجنا بعد عقده ، فإذا هاج غضبه — وهو لا بد أن يهيج — فلنعش بعيداً عنه حتى يعود إلى نفسه ويهدأ غضبه

وما كدت ألفظ بهذه الكلمات حتى اختفت ابتسامة نيكولاز ورأيت شفتيه تنطبقان فى خط متجهم عابس ، وقال :

— إننى متزوج بالفعل يا هيلارى

وسمعتنى أقول صائحة :

— لا ، يا نيكولاز ! لا ! لا !

ولكن خيل إلىّ أن الصوت الذى يصيح بهذه الكلمات لم يكن صوتى المألوف

فاقترن حاجباه فى تقطيبة محزنة وقال فى صوت يقطر منه الألم :

— إننى متزوج منذ أربعة أعوام ، ولم أكن إلا طفلاً عند ما التقيت بليلى ، وكانت راقصة فى أحد المنتديات الليلية ، فخيل إلىّ أننى أحببتها ، ولست أدرى لماذا تزوجت منى فقد ملت معاشرتى بعد بضعة أشهر من الزواج

ثم ازدادت غنة الألم فى صوته وهو يقول :

— أنا لست إلا زوج المصادفة ، فإننا نعيش أحياناً بعيدين أحدنا عن الآخر أشهراً عديدة متتابعة ، ثم ترسل إلى فأوافيها — كالكلب الذى يسير فى كعب صاحبه .

فسألته فى بلاهة :

— هل تحبها ؟

فأجاب :

« لا — لا أحبها الآن ، لا أحبها بعد الليلة الماضية

فصحت محتدة :

— كان يجب أن تقول لى ذلك فى الليلة الماضية

فضمنى بين ساعديه وقال :

— لقد كانت الليلة الماضية جنوناً — جنوناً عذباً

جديداً على ياعزيزتى . وإنك لنجم من السماء ياهيلارى ولقد صعدت إليك ولمستك . ولن أكون أبداً بعد ليلة أمس كما كنت من قبل ، لقد ضممت بين ساعدى النار والثلج وتربة النجم . ولن أدعك تتركيننى أبداً ويجب أن تطلقنى ليلى ، فهل تتزوجين منى متى أصبحت حراً طليقاً ؟

ولكننى قد جرحت فى عواطفى جرحاً بالغاً قاسياً ، فقد كان الفتى رجل امرأة غيرى .

فصحت وأنا أجاهد للتخلص من بين ساعديه :

— لا ، لا أنا لا أريد زوج امرأة أخرى ، لقد كنا مجنونين فى الليلة الماضية . نعم كنا مجنونين وقمنا فى شرك الغرام . أما فى هذا الصباح فقد عاد إلينا صوابنا . فلننس ما كان يا نيكولاز ولنبدأ من اليوم حياة جديدة

فاقترب منى وتناول وجهى بين كفيه وقبلنى فى رقة ولطف وسألنى :

— أتعتقدين حقاً يا عزيزتى أننا نستطيع نسيان الليلة الماضية ؟ لقد تذوقت عذوبة تربة النجم يا هيلارى ، فلن أقتنع بعد الآن بما هو دونها . وسيأتى اليوم الذى تصبحين فيه لى دون سائر الناس

فقلت له فى خشونة :

— لا فائدة فيما تقول يا نيكولاز فلن أتزوج منك أبداً ، وسأنساك ، ويجب أن أنساك . وكأن ما حدث ليلة أمس لم يحدث قط ، وإنى لا أريد أن تجرى الأمور بيننا على هذا الأساس ولنعد الآن إلى السيارة !

ثم قلت فى لهجة وحشية :

— من يدرى إن لم يكن القلق قد بلغ بأبى فى هذه اللحظة حد الجنون !

فقال فى بطء :

— لقد ظننت أنك أحببتنى ، بل لقد كنت واثقاً أنك أحببتنى فى الليلة الماضية .

فقلت غاضبة وقد سحبت ممطفى :

« فلتنس ذلك »

وحين وصلنا إلى بيتنا الريفى انهال أبى على نيكولاز بكلمات الغضب المنيفة . ثم أزعجنى أن سمعت نيكولاز يرد على أبى صائحاً بأنه قد أحبنى

واتصل خبر هذه المشادة بالصحف فخلقت منها قصة كبيرة ، وقد أعادنى أبى إلى لندن فى تلك الليلة نفسها وبعد يومين ركبنا الباخرة فى رحلتنا العالمية

ولم أحاول أن أكتب لنيكولاز قبل سفرنا فقد كنت لا أزال أشعر بالجرح الذى أصابنى وكنت فى حيرة شديدة

وفى أقل من أسبوع فى البحر فقد قلبى ما أصابه من جمود وعاد يشعر بالألم ، فأدركت أن نيكولاز قد أحبنى حقا وأننى كنت قاسية فى صرفه من غير كلمة أزوده بها

لقد عرفت أننا لن نكون أبداً أحدنا للآخر ، فهو قد أحب ليلى على طرازه إلى الليلة التى أحبنى فيها ، ولقد ثارت نفسى على فكرة الطلاق

وسهرت ليلة كاملة فى الكتابة إليه ، فقلت له فى كتابى إننى أحببته ، وإننى لن أستطيع أن أنساه أبداً ، وتذكرت غيبوبة حبنا وسألته أن يذكرنى دائماً ، وختمت الكتاب بأن طلبت منه ألا يرانى بعد ذلك

وضعت هذا الخطاب فى صندوق البريد بأول مرفأ رسونا فيه . ترى لماذا تضع النساء قلوبهن على صفحات الورق ؟ لماذا يكتبن كلمات قد تهلك الرجل المرسلة إليه ؟

قضيت وأبى حوالى ثلاثة أشهر فى رحلتنا بعيدين عن لندن ؛ فلما عدنا إلى دارنا لم يمض علينا أسبوع واحد حتى فقد أبى جميع ثروته واختار أسهل الطرق للخروج من نكبته

* * *

تولانى اليأس فى الأشهر الأولى بعد موت أبى ، وكان لى قليل من المال ورثته عن أمى ، فاختفيت عن العالم وعن أصدقائى إلى أن التأمت جروحى قليلاً

وبعد عام من موت أبي استخدمت قسما من مالى فى أحد حوانيت الملابس بمانشيستر ، ودخلت العمل باسم مستعار واجتهدت جادة فى استهلال حياة جديدة

وفى يوم من الأيام جاءت ليلى لمقابلتى . ولقد عرفتها منذ اللحظة التى وطأت فيها قدماها أرض الحانوت ، عرفتها قبل أن تقول : « وأنا ليلى كريج فهل أستطيع أن أراك على انفراد ؟ »

كانت المرأة جميلة مكثرة من الصباغ ، وقد أحالت شعرها إلى لون البلاتينيوم ولكن جذوره بقيت سوداء ، وقد تصلبت حواجبها بما استعملت من مواد ، وفى الجملة كانت ليلى شريرة رخيصة المعدن وقحة

أجبتها :

« ألك أن تدخلى إلى مكتبى ؟ »

فلما أغلق علينا الباب رمقتنى من قمة رأسى إلى إخمص قدمى وعلى فمها ابتسامة عريضة وقحة . وقالت وقد دخلت مباشرة فى الموضوع الذى جاءت من أجله:

— معى كتاب قد تحبين أن تشتريه . فقد نزل بى أنا ونيكولاز فى الأيام الأخيرة شىء من العسر المالى ، فنحن أشد ما نكون حاجة إلى المال فتذكر زوجى هذا الكتاب الذى بعثت به إليه فى يوم من الأيام وظن أنه قد يساوي عندك مائتى جنيه

وأخرجت من قمطرها كتاباً رأيت على غلافه طابعاً أجنبياً والكتابة التى عليه من خط يدى ... وقالت المرأة وهى تبتسم ابتسامتها الوقحة :

— إن فى هذا الخطاب مادة ساخنة ، فهل يعجبك أن تنشر محتوياته على الجمهور ؟ وهل تحبين أن أقرأه لك تذكرة بما فيه ؟

فأمسكت بجنب المكتب ورائى لأسند نفسى وصحت بها ألا تقرأ شيئاً من الخطاب الذى شخص به نظرى وهى ممسكة به فى وجهى . لقد أحببت رجلاً فى وقت من الأوقات ... أحببته حباً كلياً وكل حبى له كان مكتوباً على صفحات هذا الكتاب . والآن يرسل هذا الرجل امرأته لتستبدل بهذا الحب نقوداً جامدة

ولقد سألت المرأة فى مرارة :

— لماذا لم يحضر نيكولاز بنفسه ؟

فضحكت وقالت :

— نيكولاز عامل فقير مسكين

ولقد شعرت كأن شفتى قد بردتا وتجمدتا حين قلت :

— أنت تطلبين مائتى جنيه ثمناً للكتاب ؟

أجابت المرأة :

— هو ذاك !

فشعرت بأن مرجل الغضب يغلى داخل نفسى وفكرت لحظة فى أن أتناول سماعة التليفون وأدعو رجال البوليس ، ثم خيل إلىّ أننى أرى تلك الكلمات التى كتبتها بخطى منشورة على صفحات الجرائد فلم أحتمل هذه الفكرة وقلت :

— سأشترى الكتاب

***

كان فى خزانة مكتبى ما يزيد قليلاً على مائتى جنيه ، فعددت المائتين ووضعتها على المكتب ، فوضعت هى الكتاب إلى جانبها ثم أخذت الأوراق المالية فعدتها فى تأن ووضعتها فى قمطرها . ولم أكن حتى هذه اللحظة قد لمست الكتاب ، إذ لم أحتمل لمسه وهى معى فى الغرفة

ومشت المرأة إلى الباب ثم وقفت وقالت مكررة ابتسامتها الفاجرة :

— إنك لطيفة جداً فى المعاملة فهل من رسالة أحملها إلى نيكولاز ؟

قلت :

— لا رسالة له عندى

وترددت المرأة لحظة وهى ممسكة بأكرة الباب ثم قالت :

— بهذه المناسبة أرى أن أخبرك بأن لدينا صورة فوتوغرافية لهذا الكتاب ، فإذا أعسرنا مرة أخرى فإننى أخشى أن أضطر عندئذ للعودة إليك

ثم اختفت وراء الباب

فالتقطت الكتاب وبدون أن أخرجه من غلافه مزقته إرباً

وكانت الأيام التى أعقبت هذا الحادث أشبه بكابوس فظيع . ففى كل يوم يشرق علىّ كنت أخشى أن تعود . وكلما دق جرس التليفون توقعت أن أسمع صوتها . ولما لم أعد أحتمل عذاب الانتظار قصدت إلى لندن لأشترى صورة كتابى الفوتوغرافية

ذهبت مباشرة إلى مسكن صديقة قديمة وكانت قد خرجت فى الساعة العاشرة لقضاء بعض حاجتها ، فكان المسكن تحت مطلق تصرفى إلى أن عادت فى الساعة الخامسة مساء

وقد وجدت رقم تليفون نيكولاز فى دفتر التليفون فلما طلبته كان هو نفسه الذى أجاب النداء فقلت له :

« لا بد لى من أن أراك »

فصاح صيحة أستطيع أن أقسم بأن غنة الفرح فيها كانت حقيقية صادقة وقد قال :

« أين أنت يا عزيزتى فسأحضر لك فى الحال »

فخبرته باسم الشارع ورقم المسكن وفى أقل من عشرين دقيقة كان معى

فما كدت أراه وأسمع صوته حتى بدأ قلبى يدق دقاً عنيفاً حتى يخيل إلى أننى سأختنق

ولقد رأيت فى عينيه نشوة الحب حين صاح :

« هيلارى حبيبتى إننى لم أجسر قط على أن أؤمل فى هذه السعادة ، لم أجسر قط على أن أؤمل فى أن ترسلى إلىّ يوماً من الأيام

فقلت فى حرارة :

« إجلس يا نيكولاز ولننته من هـذا الأمر ، فأنا هنا لأشتري صورة كتابى ، فكم تطلب ثمناً لهذه الصورة ؟ »

لم أكد ألفظ بهذه الكلمات حتى رأيت أمارات الدهشة والارتباك تملأ وجهه ، وقال فى حدة :

« إنك لم تخبرينى عم تتحدثين »

فخبرته بما حدث فى بضع جمل قصيرة مريرة ، قلت فى ختامها :

« ولقد دفعت لامرأتك بالفعل مائتى جنيه وأريد اليوم أن أنهى الصفقة معك »

وهنا علا اصفرار الموت وجه نيكولاز ، وقد

اسودت عيناه من شدة الغضب ، وانتشل من جيبه الداخلى حافظة نقود رقيقة ، وفتح أحد جيوبها الداخلية ، فلم يلبث أن أحدق بصره بها بينما بدا الجزع فى عينيه ، وقال :

« أنا أعرف أنها شيطانة ولكننى لم يخطر لى قط أنها تفعل ذلك ، لقد ضاع الكتاب ، وأحسب أنها قد استعانت ببعض أصحابها خفاف الأيدى على سرقته »

فصحت :

« ألم ترسلها إلىّ لتبيعنى الكتاب؟ »

فأعاد حافظة نقوده إلى جيبه ، وفى أسرع من لمح البصر انتقل إلى جانبى وطوقنى بساعده وقبلنى قبلات عنيفة وقال جواباً على سؤالى :

« إنى أحبك »

ثم صاح وقد أحكم تطويقى بساعديه

« سأقتلها من أجل ذلك »

فقلت راجية :

— لا تقل مثل هذا الكلام. فما أبالى ما حدث وكل ما يهمنى أن أرانى مرة أخرى بين ساعديك يا حبيبى

— ما كان أشد شعورى بالوحشة لبعدك ، وكم من مرة حلمت بك ! وما كان أشد تشوقى لرؤيتك ؟ إننى لم أعش قط معها ، حتى ولا ساعة واحدة بعد تلك الليلة التى قضيناها معاً . فما كنت لأتخذ امرأة غيرك ؛ فما زلت أنت نجمتى التى بها أهتدى ياحبيبتى .

فقلت :

— لا تتركنى أبداً يا نيكولاز ؛ فما أريد أن أفترق عنك .

فأجابنى واعداً :

— أبداً يا حبيبتى .

مرت الساعة وأنا ممسكة بالسعادة بين يدى أحاول يائسة ألا تفلت منهما ، وحتى فى هذا الموقف بين ساعديه القويتين كنت أشعر شعوراً باطنياً بأن هذه هى آخرة ساعة ألقاه فيها .

وقبل أن يتركنى وكد لى أنه سيجد طريقة للحصول على صورة الكتاب . وقال فى لهجة الوعد الصادق :

— فهى لن تؤذيك أبداً بعد الآن يا حبيبتى .

ثم قال :

— إننى أعرف كيف أعاملها ، وسأحملها الآن على أن تترك لى حريتى بالطلاق ، ويجب ألا يكون لك أى نصيب فى الموضوع. فأنت نجمتى السماوية ؛ فلتعدينى بأن تبقى بعيدة مهما حدث من أمر .

فوعدته، فقبلنى وانصرف .

وعدت إلى مانشستر فى الليلة نفسها .

يا لله ! كم تمنيت لو أننى لم أتركه .

لقد انتظرت طوال اليوم التالى أن تأتينى رسالة منه ، وقد حملت إلىّ صحف المساء الرسالة التى كنت أنتظر . لقد قتلها فى مسكنها ثم سلم نفسه للبوليس . وإنى لأعرف الآن أنه فعل ذلك فى ثورة غضبه حين عنفته بكتابى ورفمته فى وجهه وتحدته أن يجسر على الاقتراب منها لأخذه .

ولقد أخذه فعلاً وأعدمه قبل أن يحضر رجال البوليس .

أخذت أول قطار إلى لندن وذهبت مباشرة إلى

مستر لاين المحامى الذى كان يتولى أعمال أبى . فقلت له والزفرات تقطع حديثى :

— يجب أن تنقذه . فقد فعل ذلك من أجلى ، ويجب أن أذهب إليه فهو بحاجة إلى:

فقال مستر لاين فى حزم :

— يجب أن تبقى بعيدة عن هذا الأمر. فإنك لن تفيديه شيئاً باندفاعك إليه الآن ، بل لعلك بذلك تضرين قضيته . فاركبى القطار التالى عائدة إلى مانشستر، وسأعمل ياهيلارى كل ما أستطيع لإنقاذه

فقالت راجية :

— أرجو أن تكون دائماً على اتصال بى ؛ فعندى بعض المال وسأنفق كل ما أملك فى الدفاع عنه

فوعدنى المحامى بقوله :

« سأبذل كل جهدى لمصلحته ، وسأتصل بك يوميا »

وهكذا عدت إلى مانشستر ، ولكننى علمت أن فترة اطمئنانى القصيرة قد انتهت ، وأنه يجب أن أعود مرة أخرى إلى الاختفاء

وكانت شريكتى فى المتجر راغبة أشد الرغبة فى ابتياع حصتى فيه ، فبعتها هذه الحصة وأرسلت ثمنها إلى مستر لاين لإنفاقه فى الدفاع عن نيكولاز ، ثم اختفيت من جديد

ولقد حاولت عدة مرات أن أرى نيكولاز ، ولكن محاولاتى ضاعت عبثاً ، فقد كان نيكولاز ومستر لاين متشددين فى رفض طلبى . وقال مستر لاين فى لطف :

« هو لا يريد أن تزوريه يا هيلارى ، وأكبر معروف تقدمينه له هو أن تبقى بعيدة عن هذه القضية »

وكان مستر لاين يحمل رسائل نيكولاز إلىّ ويحمل رسائلى إليه. ومما قاله نيكولاز : «إن نجوم السماء لا مكان لها فى السجون ولقد وعدتنى بأن تبقى بعيدة عن هذه المشكلة »

انتهت المحاكمة إلى نتيجة سريعة ، وقد صدمنى القرار صدمة شديدة وإن كنت قد توقعته من أول الأمر . فقد كيفت الجريمة بأنها نتيجة الغيرة ، وقال نائب الاتهام: إن نيكولاز قد ذهب إلى ليلى يرجوها أن تعود إليه فلما رفضت أطلق عليها النار فى ثورة الغيرة التى ملكت نفسه

وبعد أن صدر الحكم عليه حضرت إلى هذا المسكن حيث كنت واثقة أن ليس هناك من يعرفنى . ولقد أردت أن أستهل حياة جديدة إذا أمكن إنقاذ نيكولاز

وكنت كلما مرت الأيام تعلقت بالآمال تعلق جنون، أما الآن فلم يبق لى شىء حتى ولا الأمل. ولقد كنت أشعر واثقة بأنه سيرسل إلىّ لأراه مرة أخرى! ولكن ها هى ذى الساعات الأخيرة تمضى مندفعة فى سرعتها ؟ وهو هناك ينتظر الموت الذى يوافيه صباح الغد . وأنا هنا على مسافة أميال عديدة منه أحاول أن أعيش خلال ساعات الليل الفظيعة المرعبة وسيكون الصباح نهاية كل منا ، فما أستطيع أن أحيا بعد موته ، ولن أحاول أن أبقى على قيد الحياة . وما أستطيع أن أتركه يموت وحده ، وما هى قيمة الوعد الآن ؟ يجب أن أذهب إليه ، ولا يزال

فى الوقت متسع لذلك إذا أنا أردت الذهاب

* * *

وتناولت حقيبة يدها من فوق مائدة صغيرها وفتشتها لتعرف ما لديها من النقود ثم قالت :

« يجب أن أحصل على مال أكثر من هذا . وستقرضيننى بعض المال فهل تضنين على بذلك ؟ »

وكانت عيناها براقتين جامدتين كالزجاج وقد تقلصت عضلات وجهها فى حال عصبية مخيفة ، وقد لاحظت أنها على وشك الإغماء ، لذلك أمسكت يديها الباردتين بين يدى وأسندتها بقوة وقلت فى لهجة حازمة :

— اسمعى يا هيلارى لى . لقد وعدته وعداً ، ويجب أن تحافظى عليه . ومنذ بدء الخليقة ضحى الرجال أرواحهم فى سبيل حبهم المرأة . ولن يتحمل نيكولاز مرارة توديعك له . فاتركيه يقابل الموت كما يريد أن يقابله . دعيه يذهب وهو لا يزال يشعر بنعيم القبلات السماوية على شفتيه ، وعظمة نجمته أمام عينيه. صدقينى أنه يريد أن يلقى الموت على هذه الصورة …

فبدأت الفتاة تنشج نشيجاً عنيفاً وسألتنى :

وأنا ؟ ماذا يكون من أمرى بعد موته ؟ ماذا يكون من أمر الغد وجميع الأيام التى تعقب الغد ؟ ألا فاعلمى أن ليس لى بعد الآن مكان فى هذه الدنيا وليس هنالك من به حاجة إلىّ . فلقد كان هو الرجل الوحيد الذى يعنى بأمرى .

فقلت :

إن لكل منا مكانا فى هذه الدنيا ، ولكل منا عمل يؤديه . فنحن جميعاً أعضاء فى مجموعة الدنيا العظيمة ، وستجدين مكانك وعملك يا هيلارى لى ، والأمر متوقف على شجاعتك وإيمانك

فاتجهت عيناها وقد ملئتا يأسا إلى الساعة المعلقة فوق الجدار ، وقالت منتحبة :

— لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد ولا يزال الوقت يسمح لى بالذهاب إليه .

فقلت :

— إنهم لم يسمحوا لك برؤيته

فصاحت فى عنف شديد :

— اللهم رحمتك بى « اللهم رحمتك به وبى جميعاً ! »

ثم وجهت إلى الحديث وقد ملئت عيناها رعباً فقالت :

— ابقى معى ولا تتركينى وحيدة ، فإذا جاءت ساعة التنفيذ فأمسكى بيدى وادعى الله أن يميتنى

قلت :

— تعالى إلى مسكنى ، يا عزيزتى ، فيكون الأمر أسهل عليك فى غرفة لم تتألى فيها مثل ما تألمت فى هذه الغرفة .

ثم طوقتها بساعدى وقدتها خلال الردهة حتى دخلنا غرفة جلوسى فارتمت مترنحة على أحد الكراسى وهى ترتجف فى حال عصبية عنيفة .

لحملت حقيبة أدويتى وذهبت بها إلى المطبخ ، فسخنت ماء وصببت بعض الخمر فى قدح ، وأخرجت من علبة فى الحقيبة قرصين ألقيتهما فى القدح ، فلما ذابا صببت على الخمر الماء الساخن ، وعدت إليها فوضعت حافة القدح بين شفتيها وقلت فى لهجة الآمر :

— اشربى هذا كله

قالت متوجعة :

— إننى أشعر بالبرد الشديد

قلت :

— سيدفئك هذا

فجرعت الفتاة كل ما فى القدح ثم وثبت واقفة وعادت إلى حركتها الاضطرابية تذرع الغرفة ذهوباً وجيئة ، وكنت أرقبها عن كثب . وقد صاحت فى صوت مختنق فظيع :

— تسع ساعات ... ألا خبرينى كيف أحتمل عذاب هذه الساعات التسع ! خبرينى كيف أحتفظ بعقلى إلى الساعة الثامنة ... والموت !

فقلت وأنا أطوقها بساعدى :

— قومى نفسك يا هيلارى واجتهدى فى ألا تفكرى فى شىء

فأغمضت عينيها ومالت علىّ متعبة وقالت همساً :

— أنا متعبة حائرة

ثم ارتجفت وهمست باسم نيكولاز ومالت إلى الأمام فأمسكت بها وحملتها بين ساعدى

وأنا امرأة قوية وكانت هى هزيلة ضعيفة فحملتها إلى غرفة نومى وأرقدتها على سريرى ، وخلعت حذاءيها وجوربيها ونزعت ثوبها الخارجى وسحبت عليها غطاء السرير ، وكان تنفسها إذ ذاك هادئاً منتظما ، وكنت أعلم أنها ستنام إلى ساعة متأخرة من الصباح، ومن المحتمل أن تبغضنى متى استيقظت ولكنى قد حميتها العذاب الذى ينزل بها وهى ترقب عقارب الساعة تدنو من الساعة القاتلة

وسحبت كرسياً إلى جانب وجلست عليه أرقبها وكان وجهها أشبه بقناع من الشمع . وإذ كنت أعلم أنها ستنام ساعات عديدة فقد اختلست فترة أرحت فيها جسمى بقليل من النوم

ولما استيقظت كانت عيناها لا تزالان مغمضتين وكانت مستغرقة فى النوم. وساءلت نفسى لم لا تفلت روحها المعذبة من جسمها وتمرف بوسيلة ما غريبة طريقها إلى الرجل الذى أحبته فتواسيه فى ساعاته الأخيرة؟ ورجوت الله أن يكون هذا هو الذى حدث

لم يبق غير خمس دقائق حتى تبلغ الساعة الثامنة

فأمسكت بيدها المترهلة بين يدى ، فقد وعدتها أن أفعل ذلك ، وشعرت بوحشة السكوت المرعب الذى يكسر القلب ... ثم دقت الساعة الثامنة

فأحنيت رأسى ودعوت الله فى بساطة أن يبارك روحه

وما زالت هيلارى نائمة هادئة ، وقد ألقت أهدابها السوداء خطوطاً من الظلال على وجهها الأبيض النحيل

ودقت الساعة التاسعة ، فقلت فى نفسى :

— فلأتبلغ بشىء من طعام الأفطار

ثم دق جرس التليفون فاختطفت السماعة قبل أن يدق مرة ثانية ، وسمعت المتكلم يقول :

— أنا الدكتور مارتن . أيمكنك الحضور فى الحال ؟ عندى حالة وضع متعبة وأنا محتاج إليك

فأجبته :

— نعم يمكننى أن أحضر حالاً

فقال الدكتور :

— مريضتى هى مسز باركز الصبية وسيحضر إليك زوجها بعد خمس دقائق

ارتديت معطفى وقبعتى وذهبت إلى غرفة النوم فألقيت نظرة على هيلارى لى فوجدت نومها عميقاً

فى غرفة نومى فهل لك إذا أنا لم أحضر فى الساعة الأولى أن تعنى بأمرها ؟

فأجابت مسز ميل :

— سأحمل لها بعض الحساء إذا لم تعودى



هادئاً . فهبطت إلى الطابق الأول وطرقت باب مسز ميل ففتحته بنفسها ، فقلت لها :

— أنا مضطرة للذهاب إلى مريضة متعبة ، وكانت مسز فرانكلن قد شعرت بالمرض وهى فى

خرجت إلى جو الصباح القارس فوجدت سيارة أجرة فى انتظارى فركبتها إلى جانب مستر توم باركز الشاب ، فقال لى فى صوت أجش مرتجف :

— مارى مريضة جداً

فنظرت مسرعة إلى وجهه المتقع وحاولت مواساته فقلت :

— لا تنزعج يا توم

لم يمض على زواج توم من مارى أكثر من ستة أشهر وكان زواجاً إجبارياً وقد سمعت أنهما تعاركا عراكا فظيماً وأنه هددها أكثر من مرة بأن يتركها

ولم تكن المسافة بعيدة بين بيتى والبيت الصغير الذى يسكنه باركز ، فدخلت إلى الدار مسرعة وصعدت السلم الضيق إلى غرفة النوم حيث وجدت الدكتور مارتن منحنياً على السرير فلما رآنى قال :

— حمداً لله إذ حضرت يا سيدتى الممرضة ، فإن الشابة ضعيفة جداً ، وليس فى مقدورى أن أجعل الولادة طبيعية

وكنت أعرف ما يجب أن أعمل فبدأنا عملنا فى سرعة وسكون حتى إذا سلمنى الدكتور طفلاً قوياً باكياً قال لى فى صوت متوتر :

« لا تهتمى الآن بأمر الطفل ، فكل جهادنا الآن فى سبيل إنقاذ الأم »

وبعد عشر دقائق قضيناها فى جهد يائس التقت عيوننا على الشابة مارى وقد جمدت حركتها، فهززت رأسى وقلت :

« لقد ذهبت إلى العالم الآخر »

ولما رفع الدكتور مارتن كتفيه المتعبتين رأيت وجهه أغبر مجهداً . وقال فى بطء :

« لقد كانت صغيرة جداً لمثل هذا الموقف ، لقد كانت هى نفسها طفلة »

ثم وضع يديه على عينيه ، فقلت مسرعة :

« إنك متعب يا دكتور »

فهز رأسه وقال :

« لقد قضيت فى هذه العملية الليلة كلها ، وقد جئت إلى هنا مباشرة بعد عملية أخرى شاقة »

فقلت :

« إنك لن تستطيع عمل شىء آخر هنا ، فعد إلى بيتك وحاول أن تنام »

فهز رأسه متعباً وقال :

« نعم ... أظنك على حق ، مسكينة هذه الطفلة لقد تمنيت لو استطعت إنقاذها »

ثم مسح شعر مارى بأصابعه فى لطف ؛ ثم سار إلى الباب . وقال :

— أنا ... ألك أن تخبرى توم ؟

فقلت :

— سأخبره يا دكتور .

وهبط الطبيب السلم الضيق ، وسمعته يستقل سيارته ويسير بها ، فسويت شعر الميتة ، وعشقت ساعديها على صدرها ، وسحبت الغطاء على جسمها الصغير .

وقلت فى نفسى :

— مسكين هذا الطفل لقد كان خيراً له لو مات هو أيضاً .

دقت الساعة الحادية عشرة فأخرجت الطفل من الدثار الذى لففته فيه ، وشرعت أدلك جسمه بالزيت الدافىء ، وكان صبياً لطيفاً قوياً .

فتح الباب ودخل توم باركز فمال فى تثاقل إلى الجدار وسألنى فى همس أجش وقد ملأ الجزع عينيه :

— هل ماتت مارى يا عمة سارة ؟

فغطيت الطفل مرة أخرى وذهبت إلى حيث

وقف أبوه وقلت له فى لطف :

— نعم ياتوم، قد ماتت مارى ولـكنها قد تركت لك طفلاً ذكراً لطيفاً

فكأنه لم يسمع ما قلت له فقال :

— لا بد أن أذهب إليها

ومشى يترنح متجهاً إلى السلم

وذهبت إلى المطبخ فوجدت إبريق الشاى على الوجاق فملأت قدحاً وشربته شاكرة

وبعد فترة قصيرة هبط توم السلم مبطئاً وكان وجهه الصغير مجهداً ، فقال منهياً عبارته بتنهد عميق :

— هى راقدة جامدة لا تتحرك !

ولقد حاولت أن أواسيه ولكن لم أعرف كيف

وبدأ الطفل يبكى عند ما حملته ووضعته على ساعدى توم قائلة :

— احمله حتى أسخن بعض الماء ، وإنه لطفل كبير يكاد يبلغ وزنه تسعة أرطال

ووقف توم أول الأمر يحمل الطفل حائراً ، ثم رفعه إلى قرب كتفيه وضمه إلى صدره وأخذ يهنهه ويطمئنه بقوله إنه أصبح فى حضن أبيه . فسكت الطفل عن البكاء ، وبدأ الأب يظهر إعجابه بوليده

وذهبت إلى المطبخ فأعددت شاياً جديداً وجئت بقطع من الخبز المقدد وعدت إلى توم وألححت عليه أن يأكل شيئاً ولـكنه هز رأسه ، ومد إلى يديه بالطفل ثم اندفع على حين فجأة فى البكاء وقد تقلصت عضلات وجهه وقال :

— يجب أن أتكلم مع أحد من الناس يا عمة سارة !

فجلست أحمل الطفل بين ساعدى وقلت :

— تكلم معى يا توم

فجلس أمامى وقد تقلصت أصابعه المشتبكة بعضها ببعض حول ركبته حتى لقد ابيضت مفاصلها . وانهمرت الدموع على خديه وبدأ يقول فى حزن عميق :

— إننى لم أحبها قط ، وإنه ليحزننى أن أقول ذلك وهى راقدة فى سرير الموت ، ولم أكن راغباً فى الزواج منها ولـكن لم يكن من ذلك بد من أجل الطفل وكنت أنا الملوم . ولم نكن كلانا نرغب فى الطفل المنتظر ، فكنا صغيرين جداً فلم يكن ينبغى أن يكون لنا طفل فأنا لم أبلغ العشرين بعد وكانت هى فى السابعة عشرة وبعد أن تزوجنا وعشنا فى بيت واحد أبغض أحدنا الآخر بغضاً شديداً ، وكنا نتشاجر كل الوقت ، ومن أتعس الأمور أن يعيش إنسانان معاً وهما متباغضان مثل بغضنا

— ولقد اجتهدت أول الأمر أن أكون لطيفاً فى عشرتها فقد كان يحزننى أمرها . ولـكنها لم تكن تترك لى فرصة الاستمرار فى اللطف ، لقد أبغضتنى لأنها كانت تترقب أن تصبح أماً . لقد كانت صغيرة وجميلة وكانت تود أن تسعد بأيام شبابها . وقد اعتزمت أن أتركها وأرحل بعيداً على أثر الولادة ، وقلت لها ذلك أمس فقط .

قلت لها : إننى سأذهب بعيداً عنك

وإنى لآسف الآن أن قلت لها ذلك . ولقد عبرت لها عن هذا الأسف منذ لحظة وهى على سرير الموت . ولـكنها لم تسمعنى . فهى لن تعرف بعد الآن أننى أسفت على ما قلت .

وحبست التنهدات صوت الفتى فوضع يديه على عينيه

فلما نظرت إليه تألم قلبى لحاله ... إنه حقاً لفتى

تعيس ! ليس له أهل يحيطون به ، فهو مخلوق وحيد لا صديق له وبين يديه طفل عليه أن يعنى بأمره .

فقلت :

— لقد كنت أنت ومارى صغيرين جداً بالنسبة للزواج . وأنتما فى الواقع لم يبغض أحدكما الآخر ولكنكما كنتما ثائرين على الحياة ، ولو أنها عاشت لصلحت الحال بينكما. فقال متنهداً :

« لقد قلت لها أمس إننى أبغض مجرد النظر إليها »

قلت :

« ولكنك لم تقصد ما قلت ... وكن واثقاً أن مارى تعلم — فى أى مكان كانت الآن — أنك لم تقصد ما قلت »

فتوجع الفتى وقال :

« أود لو أصدق هذا الكلام »

قلت :

« حاول أن تصدقه يا توم »

فسألنى فى لهجة اليائس وقد رفع إلى عينيه المغرورقتين بالدموع :

« وماذا عسانى أن أفعل الآن ؟ »

فقلت فى لهجة حازمة :

« يجب أن تواصل عملك . وعليك أن تزيل الأفكار المحزنة من رأسك ، وستجد بيتاً صالحاً للطفل ويمكنك أن تدفع نفقات العناية به » .

فوقف الفتى واثباً وأقبل نحوى فأخذ الطفل من بين يدى ، وقال وقد زالت عن وجهه نظرة الطفولة وبدت فيه خطوط جدية عابسة :

« هذا هو ابنى ، ولقد طردت من بيتى وأنا فى العاشرة من عمرى ، فلم يكن لى قط ما يمكن أن أسميه بيتاً . ولكن هذا ابنى . . . هو ملكى وهو بضعة منى ، ولن يأخذه أحد من بين يدى »

فقلت معترضة لعلمى بقلة الأجر الذى يتقاضاه :

— ولكن كيف تربيه ياتوم ؟ كيف تستطيع أن تعنى بأمره ؟

فأجاب فى صوت ملؤه الجد :

— سأجد طريقى إلى ذلك ، وقد اعتزمت ألا أبعده عن بيتى . سأجد المرأة التى تحضر إلى هنا مقابل الأكل والسكن . امرأة تعنى بابنى العناية التى أريدها ، فهل تساعديننى يا عمة سارة فى البحث عن مثل هذه المرأة ؟

وكانت عبارته الأخيرة مشبعة بلهجة التوسل والرجاء .

وعلى حين فجأة كشف الأمر أمام عينى وحلت عقدة الخيط المربك ، ووجد المكان والعمل لمن هى أشد ما تكون حاجة إليهما . فقلت فى لطف :

« إنى أعرف امرأة قد تقبل مسرورة أداء هذه المهمة »

فقال الفتى متأنياً فى حديثه :

« لقد قلت الآن إنه حيثما كانت مارى فإنها ستعلم بأننى آسف على ما قلت ، فأظن أننى لو حملت ابنى الآن إلى حيث هى راقدة ساكنة فسترانا معاً وستعلم أننى لا أبغضه »

فسألته :

« أتريد أن أصعد معك »

أجاب :

« لا ... فإنى أفضل أن أذهب وحدى »

وفى الساعة الأولى جاءت إحدى الجارات لتبقى مع توم ريثما أذهب إلى بيتى ثم أعود . ثم خرجت إلى جونوفير القارس

ووجدت هيلارى لى لا تزال نائمة . ورأيت على وجهها معالم الجمال والسلام

غسلت وجهى ويدى ورتبت شعرى وارتديت ثوباً نظيفاً

وتحركت هيلارى وتأوهت ثم فتحت عينيها وقالت فى شىء من الخمول :

— إنه الصباح

قلت :

— نعم يا هيلارى

فجلست وأزاحت شعرها الكثيف الأسود عن جبهتها ثم قالت فى لهجة مجردة من كل معنى :

— لقد مات

قلت :

— نعم يا هيلارى

فمضت تقول متمهلة فى الحديث :

— لقد حلمت حلماً غريباً . لقد خيل إلىّ أننى اجتمعت به وتحدثت معه ، فقبلنى وطلب منى ألا أحزن . لقد كان ذلك حلماً ، ولكنه كان أشبه بالحقائق حتى أننى احتفظت به ؟

وتجمع حاجباها فى تقطب يدل على الحيرة وقالت:

— أنت سقيتنى شيئاً يجلب النوم ؟

— نعم يا هيلارى

فسألتنى :

— وهل علمت أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تمكننى من الوصول إليه ... والجلوس معه آخر الأمر ؟ هل علمت أننى فى أثناء النوم ينطلق قلبى حراً فيذهب إليه ؟

أجبت :

— إننى لم أعلم ذاك ولكننى رجوته

فضمت يدى بين يديها وقالت :

— لقد كنت بى شديدة الشفقة والرحمة ، فساعدينى الآن على الحياة فى الأيام التى كتبت لى أن أعيشها

فقلت :

— إن هناك إنساناً أشد مايكون حاجة إليك

ثم خبرتها بقصة توم ومارى والطفل الذى لا يريد أبوه أن يخرجه من بيته ، حتى إذا انتهيت من قصتى وقفت مترنحة قليلاً وهى تقول :

— ذلك الطفل الصغير المسكين ! نعم سأذهب إليه ، إنه ليبدو غريباً أن يكون هناك حقاً من هو فى حاجة إلىّ

ورأيت عينيها وقد زال منهما أثر الجزع فكانتا هادئتين حزينتين لحد يستحيل وصفه

ثم قالت فى بساطة :

— يريدنى نيكولاز على أن أفعل ذلك . فقد طلب منى فى الليلة الماضية ألا أحزن .

وأسرعت هيلارى فى ارتداء ملابسها حتى إذا انتهت أحضرت لها قدحاً من الشاى ، وقلت :

— سنتغدى فى بيت توم ، ولا بد أن يكون المسكين جائعاً جداً .

وبينما كنا نصعد سلم بيت توم سألتها :

— هل تعرفين شيئاً عن العناية بالأطفال ؟

أجابت :

— أستطيع أن أتعلم .

كان توم جالساً إلى جانب الموقد يحمل الطفل على ركبتيه ، وكان بكاء الصغير يصعد من طيات الدثار الملفوف فيه . فذهبت هيلارى مباشرة إلى حيث يجلس وقالت :

— إعطنى الطفل . فقد جئت لأعنى بأمره !

وجلست على أقرب كرسى ، وقد شعرت فجأة بأننى قد شخت وتعبت جداً ، ولاحظت أن عقربى الساعة قد أشارا إلى الثانية . فقلت فى نفسى :

— سأتعشى الليلة بالسجق والبطاطس .

وبقيت هيلارى لى مع توم إلى أن بلغ الطفل السنة الثالثة من عمره ؛ ثم تزوج توم مرة أخرى من فتاة طيبة جداً أحبت الطفل حباً شديداً . وغادرت هيلارى البلدة ؛ فشعرت بوحشة شديدة لها لأننى قد تعودت أن أحبها .

وغابت هيلارى ستة أشهر . وفى إحدى الليالى عند ما عدت من بيت بعض المرضى وجدتها جالسة فى غرفة جلوسى ، فلما رأتنى ابتسمت وقالت :

— مرحى ياسارة ، لقد عدت لأقيم معك إذا كنت محتاجة إلىّ

فقبلتها وقلت :

— بارك الله فيك ، إننى لم أشعر قط بوحشة لإنسان كما شعرت بالوحشة لك .

فقالت :

— إنى أريد أن أعمل مثل عملك ، فهل تظنين أننى أصلح ممرضة نافعة ؟

فقلت :

— إنك تصلحين ممرضة نافعة جداً للوالدات

قالت :

— إذن قد اتفقنا

ولما جلسنا تلك الليلة نتعشى فى غرفة جلوسى البهيجة تحدثت معى عن نيكولاز ، فقالت وقد أكسبها بريق عينيها جمالاً رائعاً :

لقد وجدته فى تلك الليلة . لقد وجدته حقاً . ولم أفقده قط منذ تلك الليلة . فهو أقرب إلى مما كان فى أى وقت من أوقات حياته . وهذا هو الذى يشجعنى ويهبنى الأمل والسلام . وإنى لأعلم أننى سأبقى دائماً قريبة منه . وإنى لأحلم به فى أغلب الليالى وأنا بذلك جد سعيدة

وسأعمل وأنتظر تلك الليلة التى يذهب فيها قلبى إليه بعد نومى فيلقاه وأعلم أننى سأبقى معه بعد ذلك إلى الأبد

ثم ضحكت فى رقة وقالت :

إننا نسمى ذلك الموت ولكننى أعلم أن هذا الأمر متى جاء إن هو إلا حياة الخلود ...

عبد الحميد حمدى



حقيقة قد أصبح لنا فى مدى الاثنتى عشرة سنة من زواجنا كلبان ولكننا لم نرزق طفلا واحداً

ولقد بدء الكبر على الكلب الثانى من كثرة التجوال طوال هــذى السنين فاستأجرنا منزلاً كى نكفل له فيه الراحة

لذلك وجب علينا أيضاً البقاء معه فى النزل ولو أن أقدامنا لا تشكو تعباً بل على العكس تتحفز كلفاً بالرحيل وحباً فى الحركة . إذن وجب علينا الخضوع لصيف مملوء بالأمطار وشتاء يكثف فيه الضباب بينا كان فى وسعنا — لولا هذا البيت — الرحيل إلى الجنوب

هنا تولد فى نفوسنا شغف جديد نحو حياة أغزر وأوفر من الحياة التى نحياها . نتوق إلى حياة تضاف إلى حياتنا، فضممنا إلى أسر تناقطاً فى الأسبوع الثالث من حياته لم تقو عيناه على شدة الضوء

وأضفنا إلينا ما طاب من دجاج وخراف أو ماعز

ولكن البيت ينقصه شىء : ينقصه طفل

والواقع أننى فى البداية ماشغفت شغفى هذا إلا رغبة فى الحصول على شبه ألعوبة ألهو بها

على أن الرغبة كانت فى نفس امرأتى أقوى وأمر، ولكنها كانت تتهرب من رغبتها فى صمت وبحال تكاد لا تدرك . غير أنى لم أستسلم لتحايلها وتهربها ولربما لم يكن لى إلا الغريزة التى تدفع الرجل ليصير أباً

وفى النهاية اشتدت الرغبــة فى المرأة أيضاً وأصبحت تلح فى الحصول على طفل ، ولما لم تهبنا الطبيعة ابناً وجب علينا بدورنا أن نخدعها كما خدعتنا فأخذنا نبحث عن طفل غريب

ولكن ما العمل فى ظرف مثل هذا ؟

عمدنا إلى مستشفى قريتنا حيث تلد الشابات أبناء لا يلبثون أن يصبحوا عبئاً عليهن . كلا لا توجد هنالك أم لا تحرص على ابنها كل الحرص رغم كل شدة وضيق

بقى احتمال آخر : وهو أن نرضى بطفل من هؤلاء قصد تربيته فقط وفى هذا من المخاوف والمخاطر أن يسترده أهله بعد زمن ؟ وكيف يكون حالى وقد شغفت به حباً ؟

انتهى تفكيرى فى الطفل كألعوبة وأداة للتلهى وأصبحت أفكر فى طفل يدوم لنا نسعد بنموه ولا يجسر أحد أن ينتزعه منا ، يبقى بيننا ويقضى الحياة معنا ويحبنا حب الأبناء للآباء الحقيقيين

حقيقة أمرنا أن شغفاً قوياً ملك علينا مشاعرنا ، نريد أن يغمرنا حب طفل . حب إنسان لا تتغير ولا تتبدل مشاعره نحونا شأن الأصدقاء الذين صافيناهم وفقدناهم نريد حياته وحظوظه متصلة بنا لنكوّن وحدة سامية وسط هذه الحياة المملوءة بالبغض الجمة الصعاب والمتاعب

أيقال: عديم الأبناء عديم الهموم؟ إننا نريد هذه الهموم ! لقد أصبحنا لا نحتمل الناصفة فى الحياة إننا نبغى الحياة كاملة بهمومها وآلامها وأيضاً بسعادتها

تصفحنا الجرائد فوجدنا بين الإعلانات عدداً ليس باليسير من الأطفال قد عرضوا كسلعة تباع وأعلنوا عنهم بين العقار والأثاث والآلات المستعملة. وإن تعجب فعجب لمن يتناولون أموراً لا تكون فى متناول أى إنسان : أعنى حظوظ البشر

ولما كثر علينا العرض أصبح لنا أن ننتخب وندقق فى الانتخاب

حقاً لقد صرنا نتخير وندقق بينا غيرنا من الآباء يقبلون ما وهبوا من بنين؛ وهم بما وهبوا سعداء حتى ليتعلق الآباء الحقيقيون بأبنائهم المرضى أو العجزة أو العمى بحنان وعطف خارقين

أما نحن معشر الآباء المتبنين لا نعرف لرغائبنا حد الاعتدال. إنا لا نبغى سوى طفل كامل الصحة قوى البنية تام التكوين فتنة فى جماله . فنحن نتطلب من دنيا النقائص كمالاً ليس فى عالمنا

ولما أضنانا البحث والتنقيب طوال ستة شهور أقبلت المقادير فى عوننا

لامرأتي أخت التحقت بحاشية فتاة ثرية مسنة يجب أن تصحبها فى رحلة . ولقد مات زوج هذه الفتاة قبل ولادة طفلتها . والآن تريد أن تكل أمر هذه الابنة إلى من تطمئن إليهم فسألتنا إن كنا نقبل رعايتها لمدة ثلاثة شهور أو لنصف عام . ولم يمض خمس دقائق حتى كان الرد فى صندوق البريد بالموافقة

موافقة ليس فيها تحفظ ، وقد غلبنا طيش المفاجأة فلم نفكر فى صعوبة انتزاع الطفلة من بيننا بعد ربع أو نصف عام . لقد قبلناه اقتراحاً منقذاً لنا مما نحن فيه من اضطراب عانيناه كتلبية لصوت القدر. وعلى كل حال إن هى إلا تجربة نتعرف بها حال طفل غريب بيننا ، وكيف نوفق بيننا وبين هذه الطفلة فى هذه العلاقة الجديدة

جاءت الأم بالطفلة ، وتكاد تكون الأم أيضاً طفلة ، شقراء وضاءة الوجه باسمة كالملاك . وكانت طول يوم الفراق دائمة الابتسام فتفتر عن ثنايا جميلة يبدو معها جانب من اللثة . بقيت معنا هذا اليوم تقود لنا طفلتها فى كل تصرفاتها وعاداتها ، وتتحدث إليها وتغنى لها ، ثم تنظر إلينا كى ترمق فينا عين الرضاء .

رضى ! وأى رضى ! لقد كنا نرتعد من فرط النشوة . وبقينا نرقب اللحظة التى تفارقنا فيها الأم وتبقى لنا الطفلة وحدها ، وكنا نأخذ التعاليم الدقيقة فى تمعن ونفهم شئون التغذية وطريقة حمل الطفلة والعناية بها .

أتعجب ! لقد ظهر أن زوجتى مدركة كل أمور الطفلة كالأم تماماً ؛ إننى لم أرزق طفلة فحسب

بل وهبت امرأة فى حال جديدة ، والأمر الوحيد الذى لم يكن فى استطاعة زوجتى القيام به هو تغذية الطفلة من ثديها ، وبذلك وجب على أن أتنازل عن هذه الصورة الخلابة من الحياة

ترقد الطفلة فى الحديقة فى عربتها الزرقاء الخشبية التى اشتريناها بمجرد حضورها ، وهى الآن نائمة قد حولت وجهها إلى الجانب . وقبلا كانت لا تحركنى قوة لمشاهدة رضيع ولو هنيهة قصيرة . والآن وهبت العين التى ترى المعجزة التى يحملها هـذا الوجه الذى لا زال يحوى ضوءاً من أضواء العالم الذى أتى منه ، وإنى لأشعر بإشفاق يتملكنى إزاء هذه المخلوقة العاجزة التى لا يدرى سوى الله أى المتاعب تنتظرها ، كذلك تملكنى الشعور القوى بأن أتعهدها بحمايتى وأذود عنها .

صه ! هناك ساعة الكنيسة تدق السابعة .

همت الأم لتتهيأ للرحيل فى صمت وجود وفى شىء من السرعة ، لأن الطريق إلى المحطة طويل . وعادت إلى الحديقة والقبعة على رأسها وقد لبست معطفها الصيفى وأقبلت تودع ابنتها

يكاد وجه الصغيرة يهبط بين ثنيات الوسادة

وبقيت زاوية صغيرة من وجهها لتطبع الأم عليها قبلتها . ولم تحاول أن توقظ الطفلة كى يكون الفراق هيناً . ولم تبلل عينيها دمعة واحدة ؛ وكل ما حدث أن جانباً من فمها حوته قشعريرة فيها شىء من المرارة

ثم قالت وهى تبتسم ابتسامة واهنة « بعد ربع عام ! »

ولقد حمدنا الله كثيراً أن انتهى الفراق بهذه الوداعة .

ولكنها ما وصلت إلى باب الحديقة حتى لاحظت وأنا أرافقها خلف النافذة بناظرى أن خطاها بدأت تتعثر فكأنها أخذت تستيقظ من حلم . وبدأت تشعر بيدها الخالية وكانت تحمل طفلتها قبل هنيهة، ثم حولت وجهها نحو الطفلة مرة أخرى ولكنها لم ترها فقد اختفت خلف جانب من البيت وتابعها ناظرى وهى تسير فى صحبة زوجتى بخطى خائرة كالذين يمشون فى نومهم وهى تبتعد بكل خطوة تخطوها عن طفلتها وشاهدت أكتافها تهتز هزات عنيفة نتيجة بكاء مكتوم

لا أعجب فى الوجود من محكوم عليه بالإعدام يحرك قدمه ويسعى إلى مكان حتفه بنفسه

هنا عمنى شعور من الحياء عظيم . هنا بداية لإثم كبير

لقد تظاهرنا جميعاً كأن كل ما فى الأمر مرور ربع عام ولكنا نعلم فى خفايا أنفسنا أنه وداع أبدى وفى هذه اللحظة فتحت فمى لأصرخ خلف الأم لأقول لها : « قفى لا شأن لى بطفلتك »

فى هذه اللحظة انطلقت صرخة صادرة من الأم ليست من أصوات البشر بل صرخة حيوان

لقد استحال إشفاقى إلى حنق فما سمعت إلا اتهاماً لى، إنى لأتوارى خجلاً أمام جيرانى ، ألم يكن هذا هو القدر الصارخ الذى اغتال أباها

والآن يحتل مكان الوالد آخر . أنا ذا الذى يحتل مكان الوالد وبذا أكون قد أديت عملاً جليلاً

— ٢ —

ربما كنت الوالد الوحيد الذى يستطيع أن يقول عن طفلته ما أجملها وإنها أجمل مخلوقة فى العالم ، أستطيع أن أقول ذلك ولا أكون موضع سخرية لأننى حين أبهر لمرأى هذه العيون المنحرفة قليلاً ، وأفتن بثغرها المحكم وبهذه الأيدى الدقيقة الصغيرة ، إن فعلت ذلك لا أسخر من نفسي فليس لى شخصياً فضل فى ذلك

لا يوجد فى دم الطفلة ذرة واحدة تنفرها منا ولا بد أنها شاعرة بطيب العيش بيننا كما لو كانت مع أمها . بل هى الآن أسعد حالاً إذ بدلت قتام المدينة بدنيا ملؤها الشمس ، واستعاضت أرضاً مغطاة بالأسفلت بأخرى تكسوها الحشائش . ولقد أخذت الطفلة تنمو وتترعرع وتتفتح بعد أيام قلائل . وكثيراً ما تركناها عارية فوق الأعشاب وبذا اكتسبت بشرتها سمرة جميلة

وكثيراً ما توافد علينا الجيران ـ وقد اكتسبنا ثقتهم ـ ويقولون وهم يهبطون برؤوسهم إلى الطفلة : « لقد صادفت الطفلة هنا مقاماً رحباً »

وحين تكون فى الفضاء تجلس وتتعلق فى الهواء بكلتا ذراعيها ، وتتحدث ولو أنها لا تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة ، إن هى إلا أصوات ومقاطع تطول وتقصر ، وحيناً ترتفع وحيناً تهبط ، وكأنها تسامر وتتحدث إلى جمع لا يرى من المستمعين وكثيراً ما يقاطع الحديث ضحك فكه عجيب ، أما ذراعاها فكانتا تارة تمتدان نحو السماء وتأتيان بحركات فيها ازدراء واحتجاج غير مسموع ، وطوراً تجمع هاتان الذراعان الدنيا كلها بينهما

وكثيراً ما وقفت فى جانب من البيت لأشهد هذه الرواية التى تخلبنى بغموضها

وبعد زمن هيأنا للطفلة حظيرة : سياجاً من الخشب مربع الشكل فيه تتحرك جالسة وهى تستخدم كلتا ذراعيها كأداة تتزحزح بهما وكأنها عائمة تسبح بهما من مكان لآخر

ولقد عجبنا كل العجب حين وجدناها فى يوم من الأيام فوق الأعشاب خارج الحظيرة . فقد نهضت وعمدت إلى المغلق وأزاحته فانفرج وهذه أول ظاهرة ليقظة الذكاء ! والجميل الطريف أنها استخدمت للخلاص والحرية

لقد أصبح فى غير المستطاع حصر قوة الحركة فى الطفلة فى هذا المكان الخشبى الضيق فقد طغت على معقلها وطفقت تجوب الأنحاء طوراً هنا وطوراً هناك ، تتحرك وفى صحبتها كلب وقط إلى أن تصل إلى سور الحديقة ، ولا تتعداه كقوة لا تغلب ولكن إلى متى ؟ ومتى تقتحم هذا الحصن أيضاً ؟

إن بين الأطفال والحيوانات لعلاقة غريبة ... تعذبها وتضع أصبعها فى أعينها وتجذبها من آذانها وأذنابها ، وكثيراً ما تصيح هذه الحيوانات من من فرط الألم وتفر ، ولكنها لا تؤذى الطفلة ولا تلبث بعد قليل أن تعود إليها . ولم يكن تعذيب الطفلة للحيوان عبثاً إذ لا بد أنه عن قصد يمت إلى غريزة لا تدرك فى الخلق من بداية نشأتهم ؛ ولا بد أن الحيوان يشعر نحو هذه المخلوقة بشىء من التبعية هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تحس وتخضع للغلبة البشرية فيها

كنا إذا تحدثنا إلى الطفلة ـ ولو أنها لا تفهم ما نقول — نعتنا أنفسنا : أمًّا وأباً . وهكذا

كنت أنعت نفسي فأقول للطفلة: «أتريدين الذهاب إلى مكتب البريد مع أبيك ؟ ! »

وما تحركت قدماى إلى مكتب البريد إلا والطفلة معى . لأننا نسير فى طرق ملأى بالحوانيت وأمام الحوانيت تقف الناس ، فأحمل الطفلة فوق ذراعى وأمر بها خلال المزارع ، ثم أعرج إلى الشارع الرئيسى بخطى مرنة ، وأشعر وكأن كتفى زودتا بجناحين والكل يفوه بكلمة الإعجاب ، وتمر النساء بأيديهن فوق شعر الطفلة الحريرى الأشقر الناصع إلى حد البياض ، وحيناً تقف بعض الفتيات المتجولات وينعمن النظر فى الطفلة وفىّ ، وبديهى أن يحسبنني الوالد الحقيقي وهذا مايجعلني أزهى وأباهى. وحدث أن وقفت إحداهن وتناولت يد الطفلة وتحدثت عن وجه الشبه بين الطفلة وبينى !

بدأت أنسى شيئاً فشيئاً أن هذه الطفلة ليست طفلتى وأخذت أشعر بغضاضة وإيلام حين يذكر الناس أن الطفلة وجدت بيننا مكاناً رحباً » . إننى لا أريد أن يذكرنى أحد أن للطفلة مقاماً أو موطناً فى أى ناحية أخرى . وحيناً كنت أتفرس فى المرآة لأرى وجه شبه بين الطفلة وبينى. فكثيراً ما يصبح بمرور الوقت بين الزوجين شبه ، وبين الصديق والصديق شبه ، حتى الكلاب تحمل من ملامح سيدها شيئاً ...

وكثيراً ما كنت أرحل بدراجتى ومعى الطفلة إلى البلدان القريبة حيث لا يعرفنى أحد ؛ وهناك أستمتع بزهو الوالد دون أن يعكر على أحد نشوتى . وأصبحت أتحاشى المرور من الشارع الرئيسى حتى لا يذكرنى مذكر بمركز أبوتى . ولقد أطرت امرأتى مرة طبع الطفلة المرح وخلقها الهادئ وأنها لا تبكى قط ، فأجبتها على الفور فى غير وعى : « لقد أخذت هذا الطبع عنى ! »

لقد زال من فكرى كل ما يذكرنى بالوالد الحقيقى للطفلة . ولما استحضرنا لها قدحاً لتشرب منه اللبن نقشنا عليه الحرف الأول من اسمها إلى جانب الحرف الأول من اسمى ، وحين قيدنا اسمنا فى قائمة الضرائب ووجب ذكرها قيدتها بلا تفكير إلى جانب اسمي

أتانا خطاب من أم الطفلة ترجونا بل تتوسل إلينا أن نستبقيها عندنا . ولقد أهملت الرد على هذا الخطاب لأن بقاء الطفلة عندى مسلم به لا شك فيه. أنا لن أفرط فى هذه الطفلة إلى الأبد

إن هذه الطفلة تخصنى بقوة إيمانى ويقينى

— ٣ —

بعد حين حدث أمر أفزعنا

خرجنا مرة نتمشى، وفى أوبتنا سمعنا بكاء الطفلة عن بعد فسعينا إليها سعياً فوجدنا الخادمة تضربها بغصن شجرة وتقول لها : « أيتها القبيحة » ولم تبد الخادمة أى اهتمام ، وادعت أن الطفلة كانت تبكى ولا تريد أن تقف ببكائها عند حد وإنما فعلت ما فعلت لإسكاتها . ولما أنبناها قالت : « ماذا ؟ ليست الطفلة طفلتكم وليس للطفلة أب »

أى فحش نطقت به الفتاة ! أتحتقر طفلتنا ولا تعترف بأبوتى ؟ من هذا الحين أصبحنا نخشى ترك الطفلة فى البيت فوضعت تواً مقعداً أمام دراجتى وبذا أصبح فى الإمكان أن تقطع معى المسافات الطويلة بين الأحراج والوديان لتبسم للعالم وتغنى له

ولقد بدأت الشكوك تتولد فى نفسى نحو أهل القرية فى أنهم إنما يضمرون لى السوء، وجعلت أجد

فى كل كلمة قيلت غرضاً مقصوداً ، وبقيت فى هياج شأن كل حياة تحوى كذباً

ليس هناك ثمة دليل على أن الناس لا يعتبرون الطفلة الاعتبار كله . على أنه ليس هناك أيضاً أدنى شك فى أنهم أرادوا إيلامى . فقد كشف لهم عن موطن الضعف عندى ، وهذا أمر كائن فى طبيعة البشر؛ وبادى بدء يأتون ما يفعلون حباً فى الردع ، ثم حباً فى المداعبة ؛ وفى النهاية حباً فى الإيذاء للايذاء فهم يعذبوننى تعذيب الطفلة للـكلب والقط يسألون الطفلة عن أمها وهى لا تدرى مايقولون ولـكن إلى متى تبقى لا تدرى

لا بد من الخلاص من هذه القرية حيث يعرفنا كل إنسان إلى مكان نكون فيه غرباء يتحول كذبى فيه حقيقة

— ٤ —

تدعونا رقة الطفلة إلى الرحيل للبحار وأقربها منا البحار الجنوبية ، إذن هيا إلى البحار . هنالك عشش صغيرة من الخشب يجلس الناس حولها طول النهار فوق الرمال ويغطى التليان أطفالهم بالرمال فلا يبدو منهم سوى الرأس وهذا ما فعلناه مع طفلتنا كى يقوى جسمها بهذه الوسيلة

ولقد وجدناها مرة تلهو بالرمال بمجرف وإناء فأغمضنا أعيننا من ضوء الشمس ؛ وبعد ربع ساعة اختفت فهممنا فى خوف نبحث عنها فألفيناها فى جمع من السيدات والسادة التليان قد سعدوا بها وبشعرها الأشقر .

وكلما سئلت الطفلة عن اسمها أجابت « لو » وبذلك احتفظت بهذا الاسم الذى أعطته لنفسها

وكانت « لو » ملاك الشاطئ الرقيق الصغير وأنا الوالد الذى يتقبل الاطراء والتهانى فى مداعبة وبساطة أجدت التظاهر بهما وفى الليل أضطجع بقلب خافق من فرط الطرب بسعادتى

ولم يكن الشعر الأشقر وحده الذى اجتذب قلوب الناس فى « لو » فقد كانت على الشاطئ ممثلة أسوجية بطفلتها التى صادقت « لو » وقد حدث لطفلتنا أكثر مما أسمح به فما انحنت رؤوس السيدات إلا « للو » ولا قبلن غير « لو » ولا حملن فوق أذرعهن سوى « لو » ولا كانت الهدايا إلا « للو »

ولقد كان بين النزلاء زوجان لم يرزقا ولدا مثلنا انهالا على « لو » بالحلوى والحلى واللعب إلى حد اضطرنا إلى منعهما فى شىء من الشدة ، كذلك وجب علينا أن نقى طفلتنا من الاطراء والألفاظ الحلوة المفسدة للصغار ففزنا بغضب الناس الذين بدأوا يحنقون علينا حنقاً مصدره الحسد

هنا شعرت بانتصار وزهو يتزايدان ولو علم الناس الحقيقة !

فى هذا الحين بدت سحابة قاتمة فى سماء حياتى الجديدة إذ كلما كانت « لو » فى جمع من الناس الغرباء وأردت أخذها من بينهم بكت

وقد كانت إلى هذه الآونة طفلة بغير عبرات ؛ وكانت إذا سقطت على الأرض ضحكت ولا تعرف للضحك نهاية

والآن تبكى بكاء عجيباً فى هدوئه، عجيباً فى طوله. وأعجب من هذا أنها تقوس أصابعها الصغيرة وتعمل بأظفارها رغبة فى إيلامى

لقد أذهلنى بكاؤها الذى لا أفهم كنهه كما أذهلتنى هذه الرغبة الجديدة فى إيلامى

— ٥ —

جاءت الحرب

وقف الناس على الشاطئ فى لباس الحمام والصحف اليومية فى أيديهم

إذن وجبت علينا العودة

وكنا نسمع سنابك الخيل تصطك بالأرض وكانت هذه أول ظاهرة مروعة للتعبئة

ولقد وقف بنا القطار فى كنستانس ومن ثم وجب علينا الانتقال إلى ألمانيا سعياً على الأقدام

وكانت النساء السويسريات وأطفالهن معهن يشهدن بعيون باكية الرجال الألمان الساعين إلى الموت. وكنت أحمل طفلتى فوق ذراع وجعبتى بالذراع الأخرى ولذلك اختصنى إشفاق معظم الناس، وهنا كنت أستمرئ لذة الأبوة فى معنى ما كنت أتوقعه

ولقد استقبلتنى زوجتى وابنتى على المحطة لدى أول عطلة لى فى الجيش . ترى هل نسيتنى «لو» ؟

كلا . وإن أنس لا أنس التعبير المرتسم على محياها وهى تطل علىّ لأول وهلة ، هذى المخلوقة الرقيقة الفخورة أن لها أباً كما كنت فخوراً لعكس السبب .

ولكن ما هذا البحث والفحص اللذان تقوم بهما عيناها ؟ هل بدأت صورتى تضمحل فى مخيلتها مدة غيبتى ؟ وبدأت صورة والدها الحقيقى تمثل أمامها ومصدر هذا إلهام غامض أثاره حنين الدم ! ترى هل شعرت بخيبة بعد طول الانتظار ؟ وهل من أجل ذلك كان جمودها وسكونها فى البيت

صاحت طفلتى رغم تلطفى لها ؛ غير أنها كانت تتبرم منى وتجمد أمامى وتعرض عنى وتعمد إلى عرائسها حيث خلقت لنفسها بينها عالماً غير عالمى

وفى المساء تبكى بكاء عجيباً طويلاً لا يؤثر فيه العطف إلا أن يزيد فى اشتداده

إن بكاءها موجه إلى المجهول ، إلى الأب الذى تشعر به شعوراً غامضاً .

هل هو يناجيها من عالم بعيد عن تصورنا ؟ وهل يغبطنى على امتلاكى للطفلة ؟ أجل إنى لأشعر بعدائه لى وقد بدأت الغيرة تجد منى غذاء شهياً ... وهذه لا تلبث أن تتحول إلى بغض طائش .

ولقد عمدت إلى صورته فأقصيتها حتى لا يتسنى للطفلة الوصول إليها حتى بعد سنوات . سوف يأتى الوقت الذى نقص عليها فيه قصته ونذكر لها أنها ليست من دمنا وأنها لم تكن سوى ربيبة . ولكن لا عجلة فى ذلك .

— ٦ —

وضعت الحرب أوزارها وسقط المارك ووصلت أسعار الحاجات إلى الأرقام الخيالية وعاش المضارب والفلاح فى ثراء ورغد ، وعانت الطبقة المتوسطة ما عانت ، فكانت « لو » الضوء والأمل والسعادة التى تنسينا هم العيش ، وقد وصلت إلى السن التى يجب أن تذهب فيها إلى المدرسة .

قالت زوجتى : الآن حان الوقت الذى نرفع لها فيه النقاب عن أكذوبتها .

قلت : إذن نكون قد أوجدنا سبباً لسخرية الأطفال من « لو » وكيف تتحمل الصدمة ؟

إن الذى يقودها إلى المدرسة ليس بوالدها الحقيقى ككل الأطفال الآخرين . غير أنى كنت أخشى فى نفس الوقت أن أفقد حبها بهذا التصريح .

صارت تسعى كالطير فى خفة ورشاقة إلى المدرسة

رغم جعبتها الضخمة التي تثقل عاتقها .

وكنا نجلس مساء فى شرفة المنزل الخشبية نعزف بالقيثار ونغنى وأخفت صوتى حتى يبقى صوت « لو » عالياً جلياً فتغنى فى عذوبة كتغريد البلابل .

ترى ماذا عانت هـذه الروح الوديعة حتى يصدر غناؤها مرتعد الرنين !

بدأت أشعر كأن نفسى فى قرارتها تغنى مأخوذة بقوة فاتنة خفية وكأن قدمىّ بدأتا تسبحان خفة وطرباً . لقد جعلت الطفلة منى رجلاً طيباً

أواه ، لقد عاودتنى الوساوس بفقدانها . وأصبح الـكذب لا يجدى فتيلاً

لقد وجدت لو زملاء للعب وإنه ليسرنى أن أراها وسط الأطفال ترقص وتمرح بينهم

والعجيب إذا حان الرحيل وانصرف الأطفال عنها كانت لا تطيق البعد عنهم ولقد روعنى عنادها وتعلقها بالأطفال حين انصرافهم عنها

ولقد نفر الطفلة منى تطرفى فى حبها الذى وقعت فيه كى أرضيها فقد أحست لأول مرة ما يخفى هذا الحب من اضطراب وأصبحت تقابل عطفى وإشفاقى لأول مرة بشىء من التمنع والجفاء . ولقد باغت الطفلة مرة وهى تفحصنى بناظرها خلسة فحصاً وإنها لنظرة لا يمكن لمخلوقة أن تلقيها على والدها الحقيقى وخاصة فى هذه السن فى عامها الثامن

والمصيبة أن والدة إحدى صويحبات « لو » أحست أن هنالك سرًّا خلف علاقتى « بلو » ولقد لمحت هذه المرأة وهى تفحصنى بناظرها فحصاً ، وهذه هى نفس النظرة التى اكتشفتها فى «لو» والآن أعلم مصدر هذه النظرة ، وإذ يلتقى ناظرى بنظر هذه المرأة فى هذه الآونة تجمد كأن فكرة معذبة تعانيها

والـكارثة الـكبرى أن الطفلة أخذت عن المرأة الجمود الذى جعلها جامحة جامدة إزاء كل كلمة أوجهها إليها ، وهذا ما أقام بين عالمها وعالمى سياجاً . وحيناً ألحظ فى وجهها عداوة ومرارة ظاهرتين يتبعهما بكاء هادئ طويل لا ينتهى إلى منتصف الليل إلا حين تجلس امرأتى إلى حافة سريرها وتضم الرأس الأشقر إلى صدرها فى سكون

وبعد عام اتخذت « لو » لنفسها صديقاً وهو طفل فى الحادية عشرة من عمره عليه سيماء أهل الجنوب وجدت فيه المثـل الأعلى لتخيلاتها ، وقد وفد إلى قريتنا لقضاء عطلة الصيف بها ولا يوجد فى الوجود سواه من أخذ من نفسها هذه المـكانة من الاحترام والتجلة ، كما لا يوجد مخلوق تثق بكل كلمة منه غيره ، وهو الوحيد الذى له سلطان عليها . وهنا أيضاً وجدتها تلقى الطرف باحثـة فى الوجه الجديد ... هى تبحث عن الوجه الغامض فى مخيلتها لتتبين وجه الوالد الحقيقى . والعجيب أن وجه هذا الطفل الأسمر الواسع العينين بسيماء أهل الجنوب ، يطـابق وجه والدها الميت تماماً ــ مع أن الطفلة لا تعرف عن والدها شيئاً ــ ولقد أصبحت فى صحبة هذا الطفل هادئة يتلألأ وجهها فى سعادة نفسية دخيلة

وكأنى بها امرأة صغيرة قد ملأ الحب نواحى نفسها فبدت برشاقة لا حد لها ، وكنت أشعر بسعادة لمرأى هذين الطفلين جالسين متعانقين على مقعد طويل يتحدثان بصوت خافت ؛ ولم يداخلنى — وايم الله — غيرة ولا حاولت أن أسمع ما يدور بينهما من حديث ، وشعرت كأن جانباً من جزيرتى

نحو هذه الطفلة قد حل عنى وقد كان هماً يملأ صدرى غماً نخف عنى

ولما فارقنا الطفل اصطحبته « لو » إلى المحطة دون أن يبدو منها ما يشعر أنها تفقد من سعادتها شيئاً .

ولكنها بعد حين وقد أصبحت وحيدة بيننا وقد بعد القطار فى ناحية قاصية وبدت لها القرية كأنها خاوية ، هنا مالت الطفلة برأسها على المائدة وصرخت صرخة عالية وهذه نفس الصرخة التى تمت إلى الحيوان التى نفثتها أمها عند وداعها لها

ثم نطقت بألفاظ كأنها فى قوتها من أساطير الأولين ، ألفاظ ما كان يدور بخلد إنسان أن هذه الطفلة تفوه بها ، قالت صارخة : « لماذا وجب عليه الرحيل ؟ لماذا لا يبقى هنا ؟ الأشجار باقية ، وكل الناس باقون . لماذا وجب رحيله هو ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ! »

كاد قلبي يتفطر شعوراً بجريرتى وإثمي فأنا الوحيد الذى يعرف أن هذه الشكوى صادرة إلى الوالد المجهول

تم الاتفاق أن أعلم « لو » حقيقة أمرها فى عيد ميلادها العاشر واحتفظت لنفسى بأمر تعريفها بوالدها الحقيقى وأنزل نفسى إلى مرتبة المربى فقط غير أن الوقت قد فات ولم أجد الشجاعة على ذلك .

وكنت أقول تبريراً لموقفى إنى أخشى عليها من وقع الخبر..

ولم يقف جنونى عند هذا الحد بل لقد طردت المرأة ذات النظرة الغريبة عند ما قالت مرة : « ليس بينك وبين لو شبه » إذ شعرت أنها قد جرحتنى جرحاً قاتلاً فطردتها من بيتى .

— ٧ —

لقد انتابتنى حمى فى الأعصاب لا أفهم لها سبباً وبعد ساعة من الإصابة كنت فى عربة المستشفى و « لو » فى صحبتى تنظر من نافذة العربة ولا تفهم للرحلة خطورة فلم تكن لها سوى نزهة سريعة .

ووجب على زوجتى أن تبقى معى ، وتركنا لو مع الخادمة فى البيت .

فى هذا الوقت كانت لو فى الخامسة عشرة من عمرها وقد وجدت مدة غيبتنا شاباً تعلقت به وجعلت له من منزلنا موطناً رحباً يدخل ويخرج ويأكل ويشرب كأنه فى بيته تماماً . وكنت أقول لها « كل ما نملك لك » فكانت تهب هذا الفتى — وكأنها فى حلم — كل ما يصل إلى يديها مأخوذة بنزعة حب الإعطاء . أما الشاب فكان من العاطلين الذين لا يصلحون لشىء

ولما خرجت من المستشفى وعدت إلى البيت كان الفتى فى انتظارنا لدى الباب كأنه منا

يا للغرابة، يا له من أمر لا يدرك كنهه، هو إنسان جديد أسود الشعر أسمر اللون بسيماء أهل الجنوب .

ألا يشابه والد « لو » كل الشبه ؟ أليست له نظرته تماماً ؟

لم يكن من سبيل إلى إقصاء هذا المتعطل من بيتى سوى استعمال القوة ...

فصرخت له صرخات كأنها جنت جنوناً . وانتابتها هى أيضاً حمى فى الأعصاب

فكان هذا المرض الواحد هو الشىء الوحيد
الذى بقى بيننا رباطا يصلنا

وأصبحت تصد كل كلمة تقال فى سبيل تهدئتها
أو التفاهم معها فى شدة وعنف وعنت

وكنت أقول دائماً : « الفقراء أحسن الناس »
وها قد صادفت فقيراً فما باله لا يروقنى الآن ؟

وإنى لأحبها من أجل بسالتها التى تذود بها
عن حبيبها ، وإنه لعسير على أن أفرق بين حبيبين
غير أننا هنا إزاء فتى عاطل يزهو بكبرياء ويناصبنى
العداء ويمطرنى بوابل من الرسائل كلها تحد وغطرسة
وهذه الفتاة تميل إليه

إن « لو » لا تخصك أنت أيها الفتى الذى
ترتمى تحت قدميه بعاطفة قوية هوجاء أعلم أنا وحدى
ماذا تريد

هى تبحث عن والدها . هى تبحث بجد عمن
تخصه ...

ليس فى وسعى أن أهبها من مات غير أننا نستطيع
أن نعمل ما فى مقدورنا عمله حتى نكفر عن فريتنا
الكبرى مصدر كل بلاء ، فنى استطاعتنا أن نردها
لأمها الحقيقية

أما مجرد الإفصاح عن الحقيقة فأصبح وحده
لا يجدى . إذن لها أن تقول : مالك تمنعنى عمن
أحب ولست بوالدى ؟

يجب أن أردها إلى أمها وعلى الأم أن تجد القوة
لإنقاذ ابنتها من المخاطر التى تقع فيها باندفاع من
جراء جريرتى

— ٨ —

سافرنا بها إلى براغ حيث تقطن الأم وقلنا لها
إنها سفرة لمدة ثمانية أيام فأطاعت لو وأصبحت
لا تسمع لنا كلمة

وفى أثناء الطريق ونحن فى القطار سردنا لها
الحقيقة مجردة فقبلتها دون انفعال نفسى رغم رقة
إحساسها ، وذلك ما كنت أخشاه ، فالحقيقة أخف
وطأة على النفس دائماً مما يعتقد الإنسان والكذب
وحده هو الأثقل من الصخور عليها

وكانت أمها فى انتظارها على المحطة فكان مشهد
أختين تتعانقان

ولم تتحول « لو » فترفضنا بغتة وتتعلق بالأم
وحدها .

فقد كان للكذب الطويل الأمد قوة هائلة
فبكت حين رحيلنا وبقيت لدى الأم كأنها فى حلم
فقد كان التباين عظيما لا يتحمله هذا الرأس الصغير
فى وضوح وروية

بقيت لدى أمها عامين كاملين بدل الأسابيع
القلائل التى أرادت تمضيتها مع الأم ، وعوفيت
« لو » من البكاء الطويل المتواصل ولى الآن أن
أتنفس الصعداء إذ تحررت من إثمى .

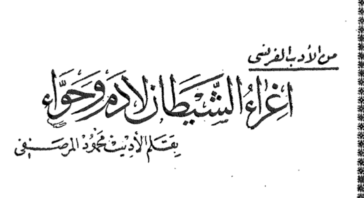
لم يضعف حبى بل زاد وبالغ فى الزيادة والسبب
فى أنه لم يقف عند حد أن القدر لا يجزه لى، وهذا
الحب سوف يقضى على راحة الطفلة كما تلتهم الحرارة
النبات الذى يحتاج إلى طقس ندى .

أما هذا التطرف المضنى فى هذا الحب فمصدره
الكذب .

وطفلى الحقيقى الذى لا تجيزه لى الحياة — أين
هو فى هذا الكون ؟ ليس فى وسعه أن يصل إلى
يناديني كما أناديه دون جدوى .

وهذا مصدر الآلام !

على حسين



المنظر الأول : (الشيطان وحواء)

الشيطان — حواء ... ! ها ندا قد أتيت إليك ساعياً للقائك !

حواء — لماذا ... ؟ ماذا تريد مني أيها الشيطان المريد ... ؟ ما وراءك خبرني ... ؟

الشيطان — إني أبحث بحث المعنى عن سعادتك التي تنشدينها ، وشرفك الأثيل الذي تحافظين عليه ... !

حواء — ليمنحنا إياهما الله عز وجل ... !

الشيطان — لا تخافي ... لا ترتعدي ... ! لقد عرفت منذ زمن مديد أسرار السعادة الخالدة في هذه الجنة ... ! سأخبرك كيف تحصلين عليها .

حواء — ابدأ حديثك إذاً وقص عليّ ما تريد وها أنا ذي أصغي إليك

الشيطان — أحقاً ستصغين إليّ ... ؟

حواء — أجل ... ؟ وسأكون لك مطيعة رقيقة !

الشيطان — وهل تحافظين على السر الذي سأفضي به إليك ؟

حواء — أجل ... وإيماني بأبي ... !

الشيطان — ألا تفشينه ... ؟

حواء — لست أنا التي أفشيه ... !

الشيطان — إذاً أنا وثقت بك . . . سآخذك بكلمتك وسأفضي لك بهذا السر ... ! أنا لا أريد منك أي ضمان آخر

حواء — يمكنك أن تثق بكلامي ... !

الشيطان — أنت في صحبة رجل كريم النفس ولكني أراه ليس جديراً بعطفك وحنانك . . . ! لقد رأيته وعرفته فظاً غليظ القلب . . . أحمق لا يفقه شيئاً

حواء — هو ليس بالقدر الذي تصفه به ولكنه مع ذلك خشن بعض الخشونة .

الشيطان — سيرق مع الأيام ويروضُ نفسه ما دمت بجانبه على الرقة ولين الجانب ... !

ولكنه الآن أصلب من الحديد . . . ! أليس كذلك ... ؟

حواء — إني لأعرفه نبيلاً يحمل نفساً عزيزة كريمة ، وإنه لعلى خلق عظيم ... !

الشيطان — أولى لك أن تصفيه بأنه رجل وحشي لا هم له إلا مطاردة الحيوان ليفترسه . . . ! هو كالحيوان فكرة ومعنى ، لا يعنى بنفسه ، بل لا يريد أن يعنى بها .

لندعه وشأنه فهو حر في نفسه ، ولكن ألا ترين معي أنه على الأقل ينبغي له أن يعنى بشريكته الوحيدة ورفيقته الأليفة

أنت كائن رقيق ضعيف لا حول له ولا قوة

أنت يا من هى أندى من الزهر وأنصع من البلور والثلج المتساقط على الجليد الرائق النقى — لقد خلق الخالق منكما زوجين غير منسجمين ، متنافرين غير متوافقين ... !

واعجبا .. ! أنت رقيقة الحاشية ، حلوة المعشر؛ وهو جاف غليظ القلب صلف بغيض لروح جميل كروحك . وعلى الرغم من ذلك أراك صابرة غافلة رزينة متزنة فى غير ملل ولا ضجر . كل أفكارك وآرائك تصدر عن روية وعقل . . ! فكلامك مفعم بالمعانى والعبر ، وقلبك يفيض بالعطف والحنان ... خبرينى هل ترينه بعد ذلك يعطف عليك ويعطيك حقك من العناية والرعاية .. ؟

وأخيراً ... ! أريد أن أقول لك شيئاً

حواء — لألفاظك رنين عذب وجرس شجى ! أفض إلى بسرك فأنا حفيظة عليه فى قلبى ...!

الشيطان — أحذرك... فهذا السر شىء مقدس ليكون بيننا نحن الاثنين أناشدك الله ألاّ تفضى به لأى مخلوق ...!

حواء — من هذا الذى يستطيع أن يعرفه منى؟

الشيطان — حتى ولو كان آدم نفسه ؟

حواء — أجل ...!

الشيطان — إذاً آن لى أن أتكلم ... أصغى إلىّ ... أنا لا أرى إنساً فى هذا المكان غيرنا ... وآدم هناك بعيد عنا لا يستطيع أن يسمع الحديث الذى يدور بيننا

حواء — تكلم ... ! تكلم بصوت عال ، إنه سوف لا يعرف كلمة ما ... !

الشيطان — أحذرك من مكيدة خطيرة وخديعة كبيرة دبرت فى الخفاء فى هذا الفردوس الخالد

وذلك أن الثمرة التى منحك إياها الله ليست أحلى من تلك التى طالما حذرك منها . أراه لا يريد أن يمتعك بها إذ تحمل صفات جليلة وفضائل جمة لاقبل لك بها ... ! هو يستكثرها عليك ...!

فيها ينبوع الحياة والقوة والسلطان والعلم والمعرفة بكل شىء ... ! هى الأمل والنهاية وفيها الخير والشر ... وبالجملة تجمع فى نفسها كل شىء فى الوجود ...!

حواء — تُرَى ما طعمها وكيف يكون ذوقها؟

الشيطان — منحت طعماً من السماء وذوقاً إلهيا دونه كل ذوق أو طعم ... !

هى لجسمك الغض الجميل ولمحياك الوضاح الوسيم أضمن غذاء وأشهى طعام ... ! ستصبحين بعدها ملكة الدنيا بأسرها والسماء وعرشها وجهنم وسعيرها ...! ستعرفين كل ما هو موجود وكل ما ينبغى أن يوجد ... ! وبالجملة ستكونين مليكة مسيطرة على العالم بأسره ... !

حواء — أتجمع الثمرة كل هذه الصفات ؟ واعجباً ... !

الشيطان — أجل ... ! هى كذلك ...!

(تمسك حواء الثمرة المحرمة وتنعم النظر فيها وبعد ما تتأملها هنيهة تقول) :

لا شىء يستهوى بصرى غير منظرها الجذاب الجميل ... !

الشيطان — ماذا يحدث إذا أكلت منها ؟ لا شىء ... حاولى ... سوف تكونين أرشق قدًّا وأهيف قامة ... ! إذا تذوقت هذه الثمرة العجيبة

فستبهرين آدم بمنظرك الملائكي .. سيعبدك بعد ذلك ولا يستطيع لك فراقاً ... !

حواء «مضطربة مترددة» — لست أدرى ماذا أفعل !

الشيطان — هلاَّ تريدين أن تثق بى ؟ . . . ألا تعتقدين فى كلامى . . . ؟ خذى أنت الثمرة أولاً ثم أعط آدم إياها وانظرا ماذا يحدث بعد ذلك . . . ستكونان ملكا السماء والأرض . ستستوليان فوراً على عرش الفردوس ، ستكونان كالخالق العظيم صفة وشبهاً . وإذ ذاك لايستطيع أن يرفض لكما أمراً ولا يخفى عنكما سراً !

فى اللحظة التى تأكلان من الثمرة حيث شئتما ستتحول روحكما من حال مادية فانية إلى حال روحانية خالدة ، إذ تشاركان الله فى ملكه وتتبوآن مكانكما من عرشه

سوف تصبحان فى قوة وعزة أنداد الله فى الخير والحق والجمال ...

هيا كلا منها ما شئتما . . . هيا إلى الخير . . . هيا إلى المجد .. إلى الخلود .. إلى الفخار والعظمة .. حاولا ولا تخافا ... أجمعا الرأى ولا ترددا

فالتردد ليس خليقاً بكما وقد اصطفاكما الله !

وهنا ابتعد الشيطان عن حواء ونزل إلى الجحيم وجاء آدم إلى حواء حزيناً مكتئباً لحديثها مع الشيطان الشرير وقال لها فى حدة :

خبرينى أيتها المرأة ماذا طلب منك هذا الشيطان البغيض وماذا يريد منك ؟

حواء — كان حديثنا يدور حول مجدنا وعظمتنا وكيف نضمن خلودنا بهما !

آدم — لا تثقى فى الخائن ولا تعتقدى فى المجرم إنك ما زلت ساذجة على محياك نقاء الطوية وصفاء النفس وطهارة القلب ... !

ثقى بى أنا وحدى فأنا من معدنك وأنت منى وكلانا صنو الآخر . . . هيا نمرح فى جنتنا التى اختارها الله لإقامتنا ... ! لا تفسدى علينا هذه السعادة التى منحنا إياها الله !

ألق وراءك ظهرياً كلام هذا الماكر الكاذب الشديد التلفيق . . . ! لا تستهوك ألفاظه العذبة الرنانة المغمغمة ولا وعوده المعسولة الخادعة !

هو لا يملك شيئاً حتى يعد هذه الوعود ، هو منبوذ قد لعنه الله إلى يوم الدين !

أنصحك أيتها الرفيقة الجميلة ألا تطمعى فى شىء أكثر مما نحن فيه ... نحن فى جنان الفردوس الخالدة حيث لا ظمأ ولا جوع ولا برد ولا صرور ولكن ظلال الله والملائكة الأبرار فى عليين.. فنحن فى حمى الله الرحيم المتعال

أتوسل إليك ألا تصغى لهذا الشرير ... ! لأنه رمز الألم والندم ... أنا أعرف به منك ولى خبرة بأفعاله وخصاله ... !

حواء — كيف تعرفه هذا القدر من المعرفة ؟

آدم — ذلك لأنى بلوته وخبرته عن كثب

حواء — ماذا يهمنى من ذلك ... ! أنت إذا نظرته فإنى زعيمة بأنك ستغير رأيك فيه لأن هيئته تحملك على ذلك ... !

آدم — كلا ... ذلك لن يحصل — لأنى لاثقة لى به ولا أعتقد بكلامه بعد الذى رأيت من خداعه

وخيانته وكذبه وتلفيقه ... !

لا تدعيه أن يأتى إليك أو يقرب منك

إنه على خلق خبيث ونفس شريرة ماكرة ... !

وقديماً أراد أن يخون سيده فكفر بنعمته وأنكر صنيعته بأن سلب عرشه متجاوزاً كل حد من الكفر والنكران

أنا لا أريد هذا الخبيث أن يصل إلى قلبك الطاهر أو ينفذ إلى نفسك الصافية العذبة ... !

(فى هذه اللحظة يصعد ثعبان برفق وهوادة على جذع الشجرة المحرمة. حواء تقترب منه وكأنما ترهف أذنيها كأنها تريد أن تصغى إلى نصحه ...! ولكنه يقدم لها تفاحة جميلة جذابة المنظر فتأخذها وتقدمها بدورها إلى آدم الذي يصر على رفضها بإباء وشمم)

فتقول له حواء :

كلْ يا آدم ولا تخف ... إنك ما زلت تجهل طعمها ... ! هيا لنأخذ هذا الخير الذى قدم لنا ليكون طوع بناننا ... !

آدم — وهل مَذَاقها حُلْوٌ إلى هذا القَدْرِ حتى تستهوينا وتغرينا ... ؟!

حواء — ستعرف حلاوة طعمها حين تأكلها وما دمت تحجم عن تذوقها فلا تستطيع أن تعرفها. فحاول ولا تخش شيئاً

إنى لم أعهدك جباناً هكذا ..!

آدم — بل أشعر بإحساس غريب وشعور غامض ! أتوجس خيفة أن يقع لنا شيء . . ! أقول لك الحق إن رعدة شديدة تستقلنى وتجتاز جسمى وعقلى لا أعرف لها سبباً ولا أصلاً ..!

حواء — لا تخف. أنا لا أشعر بمثل ما تشعر به أنت . هيا إلى الخير فهو فى متناول يدينا ...

هيا لا تتمهل ..!

آدم — كلا لن أفعل ما تدعوننى إليه . . . أخشى شيئاً ... أخشى شيئاً

حواء — تخطئُ خطأً كبيراً إذا أنت أصررت على هذا الرفض

آدم — أوه ، حسن ..! سآخذها ..!

حواء — إذاً فكل منها ما شئت ... وإذ ذاك ستعرف الخير . . . والشر . . . ! هأنذا أتذوقها قبلك ...!

آدم — إذا فعلت فأنا مقدم على أكلها بعدك

حواء — نعم ...! سنأكلها ونقتسمها سوياً فى أمن وسلام ...!

(وعندئذ أكلت حواء جزءاً من الثمرة المحرمة وقالت لآدم.)

ها أنا ذى قد تذوقتها ...!

يا إلهى ما ألذ طعمها ... ! لم أتذوق بعد طعماً أشهى منها ...!

ما أجملك وأشهاك أيتها الفاكهة التى طالما حرمنا إياك ... !

الآن قد عرفت لماذا منعت عنا وحذرنا منها .!

آدم — ماذا تقولين . . ؟ خبرينى ما طعمها أسرعى .. وخبرينى ...!

حواء — لم يتذوق إنسان طعماً ألذّ من ذلك . فالآن أنظر نظراً ثاقباً ...! لقد أصبحت فى صفوف الآلهة أدانيهم فى العظمة ، وأساويهم فى القوة والسلطان

ما أعجب هذه الثمرة ... إنها لساحرة ...!

لقد عرفت كل ما هو موجود ، وسأعرف كل ما سيوجد . عرفت سر العالم بأسره .

كل يا آدم وشاركني في أكلها ، أريدك سعيداً مثلي ...! تذوق طعمها الجميل ولا تحرم نفسك .

أسعد نفسك بأكلها ، وأنعمها بجمالها الذي لا يضارع ... وطعمها الذي لا يقارن ...!

(فيأخذ آدم التفاحة على أثر هذا الاغراء ويقول لحواء)

إني لأرى نفسي تثق بك ثقة عمياء لأنك رفيقة حياتي ، وشريكتي في السراء والضراء ولا قِبَل لي بالاستغناء عنك !

أيتها الزهرة الجميلة التي لن تذبل وهي بين أناملي !

ويا أيتها الغادة الحسناء التي استهوت قلبي واستولت على نوازع نفسي وبهرت بصري بجمالها وخفة حركاتها

يا من لا تفارق ثغرك الصغير تلك الابتسامة العذبة السعيدة ...

يا من أسكُن إليك بعد التعب والنَّصَب وأنا سعيد قرير العين راضي النفس مطمئن البال .. لا أطمع في شيء إلا رضاك وحنانك ولا أتطلع إلا لصحبتك ورفقتك !

أيها المخلوق المعطوف ... لأجدن نفسي لا تقدر على ردّ سُؤْلك أو رفض ما تريدينه مني ...

ولكن ... ما زلت لا أستطيع !

حواء — خذها من يدي وكلها ولا تخش سوءاً

(هنا يأكل آدم جزءاً من الثمرة ولم يكد ينتهي من أكلها حتى عرف خطيئته ، فحاول أن يخفي نفسه حتى لا يراه أحد . وجرد من ثيابه الأنيقة المزركشة فخصف على نفسه من ورق الشجر ليستر جسده وعند ذلك أظهر ندمه وأسفه وأخذ في غير طائل قائلا :

وا أسفاه ... ! ما أشقى الآثم وأبأس المجرم ... ما الذي فعلته حتى غضب على الله هذا الغضب ، وقضى على هذا القضاء الذي لا مرد له ولكن أما قلت هذا لرفيقتي ..؟ أما قلت لها إن شيئاً سيحدث لنا ... ها نحن ذان قد حرمنا جنتنا والسعادة التي كنا نمرح فيها في غير فكر ولا ندم ... !

اللهم أنزل لعنتك وغضبك على هذا الأثيم فهو الذي راودنا وهو الذي أغرانا !

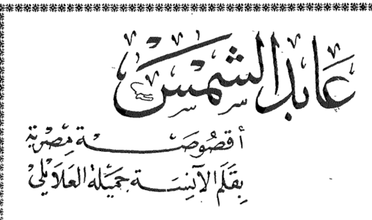
ألا لعنة الله على هذه الشجرة ! لك الله يا حواء !

هأنذا قد مت في غير رجعة ولا أوبة . . . ! وهبطت في عالم لا أعرفه ... !

[ســتار]

محمود المرصفي

كلية الآداب — القسم الفرنسي



عزيزتي الحائرة

ماعساى أن أقول لك بعد أن مرضت ، وهل يبرئ الجرح غير يد الطبيب ؟ وطبيبك مع الأسف رجل لا يعرف من المرأة غير جسمها ، ولا يلمس فى الحياة غير مواطن المادة

وأنا لست طبيبة يا صاحبتى ... كل ما أجود به على الخلائق حنانى وعطفى ، وهل يكفى الحنان لتضميد الجروح ؟ لا أظن ! !

ودليلى أن الحنان يفتح دائماً فوهة القلب فإذا بعيون من العواطف تتطلع إلى ما هو أعمق من الحنان وأغزر من العطف ، إلى المنهل العذب الذى يفيض بالرحيق المشتهى الذى يصوره المنطق فى شبه حروف تؤلف كلمة واحدة ـ الحب ـ ويترنم به الحس ويسميه الشعور !

إذن لا فائدة من مواساتى بعد أن صدمتك الحياة فى الصميم ، لتردك إلى محط المعرفة فيلسوفة بغير تعليم

خلى عنك نصائحى فإنها لا تجدى ... ومتى أصلح النصح مخطئاً أو هدى ضالا ... ؟

حسبك ماعلمتك إياه الحياة عن طريق صدمتك . إنك الآن أكثر منى تفهماً للحياة

ولا أحسبك إلا غاضبة على عند ما تعرفين الآن أننى لا أجفف من دمعك ولا أرفه عن أساك ، بل أشدك من شعرك فى قسوة لا تتفق مع رحمتى التى جذبتك إلى كنفى فى تواضع رغبة فى مواساتى وطمعاً فى نصيحة ترد إليك كبرياءك الذاهبة

أجل أجذبك فى عنف وألقى بك فى اللهب الذى أشعلته بيديك ... ليتطهر جسمك وتنصهر ماديتك فى بوتقة الألم والعذاب ... وفى النهاية ستشعرين عن يقين أنك شفيت رغم ما تركه اللهب على جسمك من علامات ما كابدته من عذاب

وليس اللهب الذى أدفعك إليه كالنار أو الشرر المتطاير ... إنما هو لهب النفوس كلها أجمعه بجرة قلم من محيط الكون فى دائرة محدودة ، ولا ألقيك وحدك إنما ألقى معك فى وسط هذه الدائرة الملتهبة بغير دخان ، أنفاس الرجل الذى خانك ، وأخرجها فى حرارة كما يقول وقد أتقن صياغتها بقلمه البارع

هذه الأنفاس التى تحيى وتميت ... الأنفاس التى أحيتك وبعثت فى نفسك حلو الآمال ثم أماتتك تاركة خلفك أمر الآلام

هذه الأنفاس هى رسائل الرجل الذى أحبك بالقلم وتركك بالقلم ، وهى التى أدفعها الآن ثمناً لما أصابنى منك من جهد الخيال ... فأعرضها لتكشف للناس صورة من صور الأضاليل ... كيف يبدع القلم التصوير ولا يعاف القلب التغرير ؟

والآن لا أرد إليك رسائل صاحبك التى بعثها

إلىّ لأطلع عليها وأبدى رأيى فيما ينتجه القلم الصامت على ضوء الحب الكاذب .

لا أردها إليك سرّا بل أردها إليك جهراً بين ضجيج كل من يجذب نظره ضوء الأدب ... وقد لا يفيدك هذا — على ما أعتقد — إذ سوف يترحم عليك كل قلب رحيم ... فاجمعى كل ما يصل حسك من مواساة الأرواح اللامرئية واستعيضى بها عما أصابك من بلاء روحى سببه لك ذلك الرجل الذى يحب كل النساء كما تقولين ويعبد كل شمس متجسمة فى امرأة

* * *

آنستى (هبة)

إنها لسكتة غير قصيرة طال فيها أمد الصمت ، ولست أدرى بماذا أو كيف أقطع عليك هذا الصمت الذاهل فأحرمك تأملات فلسفية ، ورؤى شعرية سحرية ، ولست أدرى أيضاً أمخطىء أنا أم مصيب حين أفاجئك بهذه الرسالة فأقطع عليك سلسلة خواطرك وإلهاماتك ، وأنقلك من دنياك المشرقة الواعية ، إلى دنيانا العابسة الفارغة؛ وسواء أخطأت أم أصبت فليس ثمة محيص من الكتابة إليك بعد ما انتظرت أن تكتبى لى ولو بما يطمئننى على سلامة عودك ، ولكنى لم أحظ حتى الآن إلا بمرارة الانتظار ! ولم يكن فى الاستطاعة أن أكتب إليك فيما سبق ؛ فأنا شاب لم يألف الكتابة بين الصخب والضجيج والارتحال والانتقال ، ولم يكن ذلك هو السبب الأصيل ، ولكن هناك سبب آخر ، ذلك أنى رأيت أن أخصك بأدوات جديدة للكتابة فلا أكتب بها أو فيها إلا لك، ولست أدرى تعليل هذا الخاطر، ولعله خاطر شعرى، وعلى كل حال فهو خاطر جميل ، والآن وقد اكتملت هذه الأدوات وارتحت بين أكناف الريف الوادع الجميل فإنى أكتب إليك ذاكراً تلك السعادة التى غمرتنى بمعرفتك

وبعد: فإنى طائر شاعر يعيش على الأحلام ويقتات بالذكريات لا يحب أن يصطدم بالواقع ولكنه دائم الاصطدام، فهو يود الحياة مستقيمة سهلة ، لا عوج فيها ولا نتوء !

وإنى لأطمع أن تفتحى لى كوة أطل منها على دنياك، رياضها وجنانها، هضابها ونجادها، وأن تمدينى بفيض من الأحلام والإلهام ففى هذه البيئة أحيا، وبين هذه المآلف الحبيبة أنتقل وأعيش

— ٢ —

« هبة »

وصلتنى رسالتك وأول ما ألاحظه عليها قصرها — هذا القصر المخل — مع أنى أريدها طويلة كالمسافة التى بيننا، متعددة المناظر كالتى أتملاها وأنا فى الطريق إليك !! . أريدها رسالة يشفق البريد من حملها ، ولكنك أبداً ضنينة حتى بالكلام ...آه ... «هبة»

لقد وقعت فى الشرك حتى لم يعد لى أمل فى النجاة ، فأنا ـ ولا أخفى عليك ـ قد حاولت أكثر من مرة ألا أسترسل معك فى الكتابة . بل لقد حاولت جهدى ألا أطلعك على ذاتى مجردة عارية ، ولكن قاتل الله الثلاثة : يدى ، وقلبى ، ونظرى

أحبك ، نعم ـ وأعبدك ، وأحرق ذاتى بخوراً فى هيكلك المقدس ولكنك لا تحسين أبداً بهذا المحب العابد المحترق !

يا هبة . لا أحب أن أشرح أو أصف لك ماأعانى ، وكل ما أحب أن أقوله إنى وهبت قلبى لك

فإذا شئت أن يحيا فهو لك . وإذا شئت أن يتحطم فهو لك أيضاً . ولكن رويدك فقد سرقت قلباً ونسيت مفتاحه، وكنت أريد ألا أعطيك مفتاحه حتى يظل أمامك طِلَّسما وتظلين أمامه فى حيرة ولكن ما انتفاعى بالمفتاح ما دام قد سرق الكنز ؟

يا هبة

قلبى شره إلى آخر حدود الشره، فهو إذا جاع أو عطش فلا خيرات الأرض وأثمارها ولا أنهارها وبحارها بكافية لأن تسد جوعته أو تطفىء حرارة ظمئه .

ولعلك بعد ذلك تعرفين كيف تنتفعين به ومنه .

— ٣ —

هبة !

ليتنى أدرى ما الذى ثناك عنى ومثلك لا يمكن أن تكون إلا وفية كريمة ...

يشهد الله أنى ما حملت لك أو أحمل إلا كل عاطفة شريفة ونية طاهرة مطهرة وقلباً يرف عليك

ويشهد الله كذلك أنى لم أحلك من نفسى إلا فى أعمق مكان ولم أضعك إلا فى مصاف الآلهة الألى أتوسل إليهم بصلواتى وفناء ذاتى ، ويشهد الله أيضاً أنها لكلمات يسيل بها القلم خالصة مخلصة لا تعرف الرياء أو النفاق . فى مثل اضطراب الأمواج خواطرى فى هذه الأيام ، وكمثل الغيب نفسى المظلمة — !

ولو علمت أى حدث جرىء وأية زلة ارتكبت لجثوت أمامك تائباً مستغفراً . لقد أفهم أن تتنكر لى الحياة فلا آبه لها وأن يأتمر بى الواجدون فلا أحفل بهم ، وأن يقطع الأصدقاء حبل مودتى فلا ألتفت إليهم

ولكن الذى لا أفهمه أو أطيقه أن تغضبى أنت منى . ومنذا الذى ألوذ به وأطلعه على خبيئة نفسى بعد اليوم إذا كنت تعاملينني معاملة أولئك الأرقاء ؟

ألا فلتتق الله فى نفسى وقلبى فإنى لا أعتقد أنك تعانين ما أعانى وتجدين ما أجد وتحملين نفسك ما لا تطيق !

وإنى لأتمنى أن تظل نظرتك إلىّ واحدة على الأيام .

وإذا كنت هفوت هفوة لم أقصدها فحسبى عقاباً هذا السكوت الذى أقض مضجعى وأمض نفسى وأطلق فى سماء حياتى سحب اليأس والضيق والبرم بالحياة

وأخيراً ما زلت لك المخلص الأمين .

— ٤ —

« هبة »

ومهما يكن من شىء فإنى مدين لك بهذه الرسالة التى فتحت أمام ناظرى آفاقاً جديدة وعوالم غريبة من نفسك — نفسك التى طالما لففتها بثوب من الحذر والغموض . وهكذا لا بد للورد من وخز الشوك .

والآن بعد أن اجتزت فترة الاختبار فى تجربتك القاسية فإنى أرى نفسك تبدو أمامى عارية من كل ثوب مجردة عن كل غطاء، وإذا هى طفلة وديعة طاهرة نبيلة تهيج أحياناً وتثور ولكن هياج النبوغ وانفعال العبقرية وما أشبهنى بالموجة تحركها النسمة فإذا هى غاضبة ثم سرعان ما يستحيل هذا الغضب إلى رحمة وحنان على الصخور

وإنه ليسرنى أن تنثرى بين يدى نفسك ماحوته ووعته ثم لا بأس عليك من ذلك — وماذا يكون

لو اتخذ كل منا من صاحبه أخاً لنفسه يهمس إليه بما يختلج فى خاطره إن خيراً أو شراً دون خجل أو حياء ، ورب أخ لك لم تلده أمك .

***

أعود إليك يا صاحبتى ...

كان يكفى أن أقف بك هنا لأترك القارئ ينسرح بخياله فى عالم نورانى يرى فى سمائه كل ما يشتهى المخلص من أمان حسان

ولكن لا بد أن أعقب على تعليقك بعد هذه الرسالة ... إذ تقولين إن تلك الرسائل رغم سحرها لم تبلغ عمق نفسك وإن الشك ظل يراودك ويقف بك بعيدة عن رغبات صاحبك حتى اشتدت حيرتك بين رغبتك وحذرك ...

قلبك يدنيك منه

وعقلك يقصيك عنه ...

وضباب الشك يشرف على أحلامك فيشوه حقائق أمانيك ...

وظللت هكذا حتى كتب لك :

(هبة)

إسمى يا هناه !

إني لأعجب من تمردك علىّ هذه الأيام ومحاولتك مسّى بالإيجاع، مسًّا دون مقتضى أو داع !

أتقصدين ذلك حقاً ؟ أم تفعلين على سبيل التدلل ؟

أما الأول فلا أطيقه ، وأما الثانى فقد أتحمله !

على أن المؤلم أنك فى الوقت الذى أنتظر فيه رحمتك تغضبين، وأقترب فتبعدين، وأتكلم فتسكتين، وأثق فتشكين !

ومتى تؤدين رسالتك يا فتاتى ... إن لم تؤديها فى مثل هذه الظروف القابضة ؟ إننى لقادر على أن أعيش فى كل صقع وأحيا فى كل مكان ، وأن أقابل الشدائد فلا تنال منى إلا كما تنال الرياح العاتية من الجبل الأشم !

ولكن الذى لم أزل أهفو إليه وأفتش عنه هو القلب !

القلب الذى يؤنس وحشتى ويبدّد ظلمتى ويقدرنى دائماً على المقاومة والتجدد فى الحياة !

ولا تظنى أنى أجرب قلمى بهذه الجمل الموشاة، ولا تظنى كذلك أنها كلمات كتلك الكلمات التى اعتاد الرجل أن ينال بها إعجاب المرأة ويستولى على قلبها ، ولكنها كلمات أروّى فيها طويلاً قبل أن أسطرها — فهى كلمات من لحم ودم ، كلمات تزخر بالحياة وتموج بالصدق، ولولا أنى واضح ظاهر ما سجلت إليك كلة واحدة من هذا ...

وأنا إذ أبدى لهفتى إليك وانشغالى بك - أحب أن تقدرى هذه العواطف النبيلة

العواطف التى لا ترمى إلى شىء وراءها ، فإنى أحبك لما بهرنى من روحك القوية السمحة ودمائتك الفائقة وشاعريتك المتنوعة ، أما الجسم وإن كان رشيقاً فاتناً بديعاً فلا شأن لى به ولا مطمح ، وإذا كان هناك ما يخيفك من الرجال فليس الذنب على وإنما هو على سماحتك التى تفرض كل الرجال ملائكة لا أناساً

أما بعد فطائرك الفرد لا يزال بين يديك، فحذار أن تثقلى عليه بهذه الأساليب التى لا تجدى معه شيئاً وإلا ألجأته أن يهجر جنتك آسفاً ، وإذ ذاك يظل قابعاً فى وكره فلا ينفعك ولا ينفع نفسه، وبذلك تشقين نفسك وتشقينه !

أرجو أن يصلك هذا وقد عادت إليك ابتسامتك وإشراقك . أنا الآن طريح الفراش يا هبة ولا أحد معي يؤنسني إلا زفرات حارة أصعدها، فالرحمة الرحمة، — واعلمي أن كلمة منك طيبة كفيلة بأن تزيح عني عبئاً ثقيلاً فهل أنت فاعلة ؟

***

(هبة)

إني لأتألم ... بل أعجب كيف أنك إلى الآن لا تزالين تجهلين نفسيتي وعواطفي وميولي تماماً ... وأنا أطمع في أن يشملني حبك وتغرقني رغبتك الأكيدة في أن تكوني بجانبي إلى النهاية مهما حالت بيننا الحوائل

أنا الآن في المنزل جالس إلى مكتبي بعد أن عدت من العمل خائر القوى ، ومع أن الحر شديد والتعب يكاد يمسك عليّ مسارب أفكاري ، فإن بي نزوعاً إلى استئناف الكتابة إليك

وأحب أن تذكري أن حبي لك غريب لا يمت إلى ما تواضع عليه الناس بصلة، حب يميزه عن سائر أنواع الحب عمقه وطهارته وخلوده وإخصابه !

لست أنكر أني عرفت من قبلك ألف قلب وقلب وحطمت ألف قلب وقلب ... حطمتها لأني لم أجد فيها القوة السحرية الخفية التي تفتح عيني على النور وتوقظ في أشواق الحياة وتدفعني إلى الخلق والإبداع ، وتجمل الوجود في ناظري

حطمت كل هذه القلوب لأنها كانت كالعرائس والدمى ، بل لأنها كانت (كورد الحمار !!) منظر ولا رائحة !

وإذا كنت لا أنكر ذلك فإني لا أنكر كذلك أنك كنت المثل الأعلى الذي تصبو إليه روحي وتحن أحلامي . لقد رأيتك فرأيتني منجذباً إليك انجذاب الحديد بالمغناطيس ، وتطلعت إلى عينيك فإذا بي أرى فيهما رهبة معبد مقدس ... لقد كانتا عميقتين عمق الأبد تنظران إلى السماء كأنما تبحثان عن سر ضائع . وأخيراً استمعت إلى حديثك فإذا كلمات عليها طابع الدوام كأنما تحمل تجاريب القرون ...

حينئذ شعرت أني ولدت ميلاداً جديداً وأن روض حياتي قد نجمت فيه أزهار من نوع جديد ! وحينئذ أيضاً حرصت على مودتك وعاهدت نفسي أن أكون حريصاً على الوفاء لك ما بقي بجسمي نفس يتردد !

والآن ، هل تدرين مدى تأثيرك في حياتي !

لقد نقلتني من الظلام إلى النور وأجريت في أعصابي خلاصة أجيال من عزم وإرادة وعبادة للحق والقوة والحرية والجمال !...

ثم هل تدرين أيضاً وفائي لك في بعدك ؟

إنني أستعيض بك عن رؤية الناس وموداتهم فأنت تسامرينني في وحدتي واجتماعي وأنت تمسحين عن جبيني عرق الملل والكلال كلما أجهدتني عجلة الحياة !

وأنت تفتحين أمامي أودية المجهول فأرودها ! وأنت تلازمينني في منزلي ، وأنت تؤنبينني كلما أهملت في واجب ! وأنت في النهاية تعصمينني من التردي في مهاوي الهلاك وموارد الضلال ! ...

فلهذا أحبك حباً صرفاً

ولهذا أدعوك إلى أن تصححي نظراتك إلى علاقتنا السماوية المباركة

وكل ما أريده أن تهبيني كل عاطفتك ولنتصارح حتى بالرغبات الخفية ولتفزعي إلى دنياي

كلما أعوزك الصدق والحب فى دنيا الناس ولتكونى وفية لى فى محضرى ومغيبى ولتتحسَّسى ميولى وتنفذى ما أرتاح إليه

لا أريد أن تعبِّرى عما تطوى عليه جوانحك بكلمة ولكن باختلاجة أو حركة أو روح عامة تموج فى رسائلك فتشعرنى بما لى عندك من منزلة أو اعتبار

إننى لا أريد أن تقف علاقتنا عند حد السطحية بل أريد أن أسمع منك : دع هذا وافعل ذاك وتعال هنا واحذر أن تتأخر وأغضب منك إذا فعلت كذا

إننى لا أكون غالياً إذا قلت لك إن اهتمامى بك يربو على اهتمام الوالدين والإخوة ، ولست آسفاً على شىء ، فإننى ما دمت أنت بجانبى أستمد من تشجيعك قوة ومن حبك أشعة تبدد أمامى ضباب الحياة ! ...

آه ! ماذا أقول ؟ ومالى أجشمك ارتياد هذه الوديان المتأشبة ؟ وأخيراً ... ثقى أنى سأطوى قلبى على حبك وسوف أكون لك الدوحة الفينانة التى تفزعين إليها فتنوء عليك من ظلالها ، وتضمك إلى أحضانها كلما لجأت إليها

واعلمى أن الغيب يضمر لك حياة خالدة بحبى .

هبة ...

كلمات كثيرة تريد أن تثب من شفتى على أسلة هذا القلم ولكنى أكبحها بقوة هائلة !

آه لو تدركين ما أريد ، ولكن أنت لا ترحمين مهجة صب .

كنانة الذكرى

وليست هذه الكنانة إلا مجموعة من الرسائل وعاها ظرف واحد وهبطت على منك فى فترات متقطعة ...

ولست أدرى كيف اجتذبتنى إلى عالمها بين هضاب ووهاد وزهور وأشواك وتقطيب وإشراق وهدوء وثورة وثرثرة وصمت وآمال وآلام وحقائق وأحلام وتلميح وتصريح وبيان وغموض ، ولقد قرأتها رسالة رسالة ، واستوعبتها فكرة فكرة، ووقفت على مايحسن أمامه الوقوف فرأيتك فيها على اختلاف أغراضها وتباين مناحيها مثالاً للفتاة الطيبة السريرة ، الفتاة التى تحيا فى الحياة بعقل حالم وخيال كاشف وروح مستغرق وخاطر متوثب وإحساس متفتح وشعور غامر دافق !

أجل، ورأيتك أيضاً مثالاً للعبقرية الفائقة الخالقة العبقرية التى تعبد الفن وتغنى فى ذاته كما يغنى الصوفى بين نور الإله الجليل ، ولقد وجدت فى هذه الرحلة الروحية متاعاً لم أستلذه أو آلفه من قبل حتى لقد أمضيت فترة طويلة وأنا فى ضيافتها ذاهلاً عن نفسى وعما يغمرها من صخب الحياة وضجيجها ، وهكذا هدانى بل عودنى بخلك الكتابى أن أفزع إلى كنانة الذكرى كلما غلقت الأبواب ، وأوصدت المنافذ دونى وإن فى هذه الكنانة لمستودعاً حافلاً بأفانين السلوى وألوان العزاء، وذلك غاية ما أتمناه منك فاكتبى بعد ذلك أو لا تكتبى، وجودى أو لا تجودى، ونامى عن شاعرك أو لا تنامى، فما عاد يحفل بهذا أو ذاك مادام ظفر منك أيتها البخيلة ، بكنانة الذكرى

* * *

(هبة)

كان مما يقدرنى على أعبائى الثقال وكان مما يجمل الحياة فى ناظرى ، شعورى بأن الحياة رزقتنى حبيبة أفزع إليها وألوذ بها لدى الصدمات

وكان كذلك مما يعزينى ويحببنى فى الحياة

شعورى أيضاً بأن هذه الحبيبة قد تخصصت فى دراسة ميولى وأهوائى حتى أصبحت تعرف سبحات فكرى وخلجات نفسى وهتفات شعورى

وكنت أستبعد أن تدب بيننا بَدَواتُ الشك وهمسات الظنون فيما بيننا من حب ولده الامتزاج السامى وغذته العاطفة المنزهة عن الشوائب ورعاه الوفاء الكريم . واليوم ، بل ومن قبل اليوم ، يدهشنى أن هذه الحبيبة قد بدأت تنأى بجانبها وتتمرد على صلتنا الروحية المقدسة !!!.. فهى مرة منفعلة غاضبة ، وأخرى صامتة لا تتكلم ولا تجيب ، وثالثة متوعكة المزاج ورابعة تعد بأن تتكلم ، وأخيراً هى تشتم رائحة النفاق فى أنفاس !!.. ماذا أيتها الساحرة !

أبهذه السرعة تريدين أن تتحللى من صلتنا ، وأن تحطمى كل ماشدناه من صروح ، وأن تتنكرى لمن حاشاه أن يتنكر لك مهما جازيته على الإخلاص حرماناً وعلى الوفاء جحوداً ونكراناً

إنه لمن الجائر أن تبعثى بمثل هذا الكلام الصارم الملقى على عواهنه إلى من اعتادوا إرسال الكلام على عواهنه تزجية للفراغ ودفعاً للسأم

أما أنا الذى أفكر فيما أكتب وأفكر فيما أقرأ ! أيمكن أن يحدث منى هذا ؟

على أن ما أذهلنى حقا أن تختمى رسالتك بقنبلة تذهب شظاياها بقلبى ، فهل تعرفين حقا أننى أحاول أن أتلهى بحبك

إنك لتؤذين نفس الشاعر وتسيئين إليها حينما تزجين بها فى أخلاط النفوس البشرية وتظنين أنها صيغت من طبيعتهم أو نسجت على غرارهم !

وما دام الأمر كذلك فإنى — مع إخلاصى الدائم لك — قد صممت على أن أرجع إلى عالمى القديم ... عالم الظلام والغيب ، وسأقفل من ورائى باب صومعتى الأزلية وهيهات أن أصغى لأى صوت! أو أستجيب لأى دعاء ! أو أخف لأى نور !

وبعد فإذا كنت لا تأسفين على أى شىء ، فإنى آسف على كل شىء ! وإذا كنت قد كتبت ما كتبت إلى أخيراً وبسمة العبث والطفولة تهوم على ثغرك ، فإنى قد كتبت هذا ودموع قلبى تكاد تغرقنى ، يا إلٰهى، حتى من كنت أرجو أن تتحقق على يديها الآمال تكون هى آفة الآمال !

يا إلٰهى إن أحشائى تتقطع والدم الفائر يكاد يلهب شرايينى ، فأنقذنى يا إلٰهى وألق على نفسى الطليحة وروحى الكليمة برد العزاء

***

إلى هنا أكتفى بهذه اللمحات من رسائل صاحبك وهى فى الواقع خلاصة فناء الفكر فى القلم..

ولا أقول فناء القلب أو الروح فى القلم لأن فناءهما فى الواقع معناه خلود الحب ... أما وقد تلاشى ذلك الحب فلا أظن للقلب أو الروح سلطاناً عليه ..

على أن هذه الرسائل لا تخلو من إغراء يبعث الحمرة فى وجه الحسناء ويشعرها بأنها إنسانة محبوبة مرغوب فيها ...

ولعلّ صاحبتى صدقت ذلك لأنها سايرت صاحبها بخواطرها عن طريق قلمها كما يقول وباعترافها أيضاً .. إنما كانت فطنتها أشد من إيمانها

مرت الشهور وهو يحاول أن يثبت لها حبّه بأعذب الألحان الشعرية وهى حائرة بين ما يبعثه فى صدرها من تخدير عاطفى ، بين ما تلمحه عليه من آثار القلق والاضطراب والركود والاستسلام لخواطر لا تتعلق بها ... فلطالما حدثها عن العذارى وأسمعها

أناشيد الهوى المستعر بإيحائهن

ومن الطبيعي أن تسترسل في خيالها وتقيم لكل مشهد من ألحانه قصة واقعية أثرت في حياته تأثيراً أهاب بشاعريته إلى التغني ...

وشاءت أن تظل في محراب تحفظها وتدأب على اختباره حتى تتكشف حقيقة نفسه فكتبت إليه تقول :

أتركك لتنغم بالحب في كل واد

فكتب إليها يقول :

يا لك طفلة ! أنا أحب ؟ ومن أحب ؟ وهل خلق الله بعدُ تلك التي تستطيع أن تنهض بحبي...؟

إنني يا عزيزتي ما أحببت مطلقاً ، ولن أحب أبداً ... إنني يوم أحب أحطم أو أتحطم أو هما معا . وأين هذه الحبيبة التي لها من الرهافة والحساسية ما تستطيع أن تلمس نبضات قلبي واهتزاز مشاعري وخلجات روحي ؟

إن هذا الشعر الذي كان يروقك أنت وغيرك كذب كله، إنه ضرب من الغزل التجريبي ألقيت به في محيط القلوب الفارغة انتقاماً منها وسخرية بها ، لقد كان لي حبيبة واحدة ... آه نعم حبيبة صفعتني على خدي بيد رطبة صغيرة يوم قالت لي :

أنت مجنون

حبيبة ضربت على تخوم عالمها عجائب الرق . ثم سعيت إليها في ضباب يتنفس عن شذى البنفسج وأنا أعزف على أوتار قلب جديد أناشيد مجنحة . حتى إذا انتهيت إليها تباهت وتجاهلت ونفرت مغمغمة :

أنا لا أعرفك

إذن دعيني من حديث الحب . فأنا لا أحب، فأي فتاة تطيق الإقامة بجانب رجل مريض النفس والعقل ؟

رجل يثور ويهدأ ويحب ويكره في آن واحد ، وهأنذا أكتب ولا أدري إلام تنتهي مثل هذه الكتابات الضالة .

ومع أني مضطرب الشعور موزع الخاطر ؛ فإني أحب أن تعتقدي أني لم أخن عهدك مطلقاً ولم أله بمخلوق أو مخلوقة — حقاً إن حياتي كانت وما زالت ملأى بالعجائب والمغريات ، ولكن أي مغريات هذه ؟ إنني لست ممن يجرون وراء ملذاتهم حسبما اتفق، فأنا رجل فنان شاذ، فإذا سقطت فهي سقطة الفنان والحمد لله إذ نجانا ، وما كان لمثلي أن يتلهى بالموتى . وبعد فإياك أن تثيري الضباب برياحك الهوجاء ، ودعيني — دعي هذا المريض يحلم — يحلم بمقدم هذا الطبيب — ويميناً لئن لم يشفني من هذا الداء لألقين به من حالق ، ولأذهبن أنا وهو إلى الجحيم .

* * *

إلى هنا أدع صاحبك وأعود إليك . كيف خدعك حسك أنت التي خلقت من مجموعة أعصاب حساسة ...؟

قد يكون للأسلوب الجذاب تأثيره على الأفئدة والأفئدة الشاعرة على الأخص ، ولكن ما صلة الحب بهمسات القلم ؟

قد تعترضين وتقولين ، وهل كانت همسات القلم إلا خواطر النفس وسوانح القلب !.

ومعك الحق ، ولكن في غير هذا الزمن يا صاحبتي ...

فقد طغت المادية على كل شيء وشوهت جلال الروحانية الشفيفة ...

اسمعي إلى جدتك عند ما تقص عليك حديث

قلبها . واسمى إلى نفسك — أنت المستنيرة الثقفة ثم قولى أيكما أصدق وأعف وأقدر على الاحتمال والصبر ...

الفطرة التى حاربناها فى الصميم وشوهناها بظواهر المدنية الراهنة التى عفت على الصدق والعفة والقناعة والطمأنينة

وفى الواقع لا ذنب لك ولا ذنب لصاحبك أيضاً كلا كما مسرح لأضاليل الحياة . أنت معذورة لأنك حسبت أن قلبك الطيب جدير بحب رجل ، وهو معذور لأن المرأة تناديه من كل مكان ، فى الشارع وفى النوادى، فى المتاجر وفى المراقص، وهى مستسلمة تعبث بكل شىء فى سبيل تحقيق أمنية ترجوها ...

ولا بد أن تأمل ولا بد أن تسعى إلى أملها ... لأن الرجل فى هـذا العصر لا يبحث عن المرأة المتحصنة التى تحبس نفسها داخل دارها خوفاً على سمعتها وكرامتها ...

إذن كان أمر صاحبك فى النهاية ... لا بد منه

***

قارئى فى دهشة يتساءل : وما هذه النتيجة ؟ وكنت أحب أن أتركه حيث هو يتساءل ويفكر .. ولـكن لا بد من إجابته وإلا اتهمنى بالقصور لأنه تعود أن يجد على مائدته الأدبية كل ما تشتهى نفسه أما أن يفكر ويبحث عما وراء هذا ونهاية ذاك فلم يحن ذلك الوقت بعد ...

ذهبت صاحبتى لعيادة صاحبها المريض بعد أن أفهمها أنها سبب علته وأنه فى طريقه إلى القبر ... ذهبت إليه دون أن تحدد موعداً وكانت لها بأسرته علاقة تبيح لها الزيارة فى كل وقت لم تجده ... فانتظرته وراحت تتلهى بمطالعة الـكتب والمجلات الملقاة على مكتبه ... ودفعها الفضول إلى فتح درج مكتبه ... وبيد حذرة سحبت بعض لفافات الورق ...

وبسرعة البرق الخاطف تطلعت إلى فحوى كل رسالة ...

رسائل غرام منوعة ...

كتبت إلى ثبت من الفتيات ...

عائشه ، فاطمه ، نعمات ، سنيه ، نفوسه ، زينب الخ هذه الأسماء ...

وكلها تفيض بأحاديث الحب المشبوب المستعر

وكلها تصور غرام الـكاتب

وكلها تضعه تحت قدمى المرأة فى خضوع لا يتفق مع كبرياء الرجل

رسائل... بما تحويه من لهب وشوق وحنين ورغبة وأمل وتوثب ... كتبها لعشرات الفتيات وكل ما يفرق بين هذه وتلك ... اسم المرسل إليها

***

كان ذلك يكفى لرد الفتاة إلى محراب عقلها ... محطمة ذلك الهيكل الخيالى الذى سمته حقيقة وسمت به إلى ما وراء الخلود ، لـكن هل كل فتاة يمكن أن تحذر وتعود إلى نفسها دون عناء كهذه ؟

لقد خفف الشك وطأة المصاب فهل كل فتاة تشك فى الرجل الذى تحبه ! ! أنا أدعو إلى الشك فيه لتظل بعيدة حتى إذا صدمها القدر به عز عليها البكاء .

جميلة العلايلي

(٧)

الطائر الأزرق

للكاتب الأسبانى روبين داريو
بقلم الأديب شكرى محمد عياد

تعريف بالقصة

روبين داريو كاتب أسبانى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وشهرته الأدبية قائمة على أشعاره وإن كان قد جمع إلى الشعر كثيراً من النقد والرحلات وقليلا من الأقاصيص ، ويعد روبين داريو صاحب أبدع أسلوب أسبانى فى العصر الحديث ، وشعره يجنح إلى الاغراق فى الوصف الحسى . ولكنه غنى باللفظ الجميل والخيال البعيد . وقد كان داريو مغرماً بالأدبين الاغريقى واللاتينى ، عظيم الانتفاع بهما فى شعره وهذه الأقصوصة الصغيرة من خير ما كتب ، وأصحه تمثيلا لفنه وطريقته

باريس بلد طروب ولكنه مخيف . فلم يكن أحد بين رواد مقهى بلومبيير من الرسامين والنحاتين والشعراء — وهم شباب كلهم يطمحون إلى إكليل الغار القديم — من هو أحب إلى القلوب من جارسن المسكين . كان دائم الحزن ، يدمن شراب الأبسنت ، تسكره الأحلام ولا تغوله الخمر ، يحسن — ككل بوهيمى — ارتجال الكلام

وكانت تزين جدران حجرتنا الصغيرة التى كانت معقد اجتماعاتنا المرحة ، رسوم بريشة من أصبح يوماً « دلا كروا »(١) ، بينها أبيات من الشعر فى خط ثقيل منحن ، مقطوعات كاملة لطائرنا الأزرق

والطائر الأزرق هو جارسن المسكين . ألا تعلم لماذا أطلقت عليه هذه الكنية ؟ نحن الذين أطلقناها لم تكن مجرد دعابة . فقد كان سكيراً حزيناً . وحين كنا نسأله لماذا يعبس ويحدق فى السقف بينما نحن جميعاً نضحك كالمجانين أو كالأطفال السذج كان يجيب فى ابتسامة مرة : « يا رفاق ، إن برأسى طائراً أزرق ، ولهذا ... »

... ثم إنه كان عظيم الشغف بارتياد الحقول إبان الربيع . فقد كان هواء الغابات يلائم رئتيه كما كان الشاعر يقول لنا . وحين كان يثوب من رحلاته كان يحضر معه دائماً باقات من الزهر وبطاقات من الشعر . أما الزهر « فلنينى » جارته ، وهى فتاة غيسانة لها خدان موردان وعينان عميقتا الزرقة ؛ وأما الشعر فلنا ، وكنا نقرؤه ونطرب له ، فقد كنا جميعاً نعجب بجارسن . كان نجماً يوشك أن يتألق ، كان وقته لا ريب سيجىء . أوه ؟ سوف يحلق الطائر الأزرق فى السموات العلى ! مرحى ياجارسن ! هات أيها الساقى كأساً أخرى من الأبسنت

* * *

خذ من الزهر بنفسجه ،
ومن الجوهر صفيره(١) ،
ومن الحياة السماء والحب

تلك مبادئ جارسن . ثم : « الجنون خير من

(١) دلا كروا رسام فرنسى شهير ، ملون ماهر ومجدد ثائر ، كان رأس المدرسة الرومانتيكية فى القرن التاسع عشر (١٧٩٩ — ١٨٦٣)

(١) Sapphise نوع من الياقوت أزرق اللون

الجود » هكذا كان الشاعر يقول

* * *

وكان الحزن يرين على نفس جارسن من حين إلى حين ، فيقطع الشوارع لا يأبه بالمركبات الفاخرة ولا بالشباب الغرانيق ، ولا بالنسوة الفارهات . وقد يبتسم حين يمر بحانوت جوهرىّ ؛ ولكنه كان إذا صادف مكتبة اقترب من النافذة وحدّق فى محتوياتها شرهاً . وكان يقول : إن الحقد يسعّر قلبه حين ينظر إلى المجلدات الضخمة ويغشى وجهه العبوس . وليسرى عنه الهم قد ينظر إلى السماء ويتنهد ، ثم يهرع إلينا فى المقهى ثائراً مهتاجاً فيطلب كأساً من الأبسنت ويقول : « أجل إن برأسى طائراً أزرق حبيساً يريد الحرية »

* * *

وبدأ بعض الصحاب يظن أنه مجنون

واستشير إخصائى فى العقل فقال : إنه مصاب « بالمونومانيا [٢] » ، ولم يبق شك فى أمره

حقاً لقد كان جارسن المسكين مجنوناً

وذات يوم تسلم من أبيه خطاباً . وأبوه هذا تاجر قديم من تجار القماش فى نورماندى . وكان هذا مضمون الخطاب :

« لقد سمعت بمسلكك الطائش فى باريس . واعلم أنك إن واظبت عليه فلن تنال دانقاً منى . تعال وقم على حساب المتجر ، فإذا أحرقت أيها الأحمق كل كتاباتك البليدة ، فإنك تستطيع عندئذ أن تنعم بمالى »

وقد قرئ هذا الكتاب جهرة فى مقهى بلوبيير

هل تذهب ؟ ألا تذهب ؟ هل توافق ؟ هل تفكر فى مثل هذا الخطاب ؟

مرحى يا جارسن ! لقد مزق الخطاب وأطل بجذعه من النافذة ، وهو يضحك فى صوت مجلجل وارتجل مقطوعة تنتهى على ما أستطيع أن أذكر بهذين البيتين :

ولست بباك على شقوتى ولا أنا ذاك الذى يُشنق
إذا ظل فى رأسى العبقرىّ مقيما به الطائر الأزرقُ !

* * *

ثم بدأت أخلاق جارسن تتبدل ، فجنح إلى الثرثرة ومال إلى المرح ، وابتاع سترة جديدة ، وبدأ قصيدة معنونة ـ بالطبع ـ « الطائر الأزرق »

وحينما كنا نلتقى كل مساء كان يقرأ لنا منها جزءاً جديداً . لقد كانت رائعة ، سامية ، خلابة . كانت تصور سماء بديعة ، وحياة طليقة ، وحقولاً كأنما رسمتها ريشة « كوردت [١] » السحرية تلوح وجوه الأطفال من بين أزاهيرها ، وعينى « نينى » مخضلتين كبيرتين ، وطائراً أزرق أرسله الله محلقاً فوق ذلك كله ، فبنى وكره دون أن يعلم فى رأس جارسن المسكين ، وبقى هناك سجيناً . فإذا أراد الطائر أن ينطلق من محبسه ، رف بجناحيه ، وضرب بهما جدران سجنه ، فيرفع الشاعر رأسه ، ويعقد جبينه ، ويشرب الأبسنت بماء قليل ، وهو يجتر فى نفس الوقت سيجارة . تلك كانت العقيدة .

وذات ليلة جاءنا جارسن يضحك ضحكات عالية ، ولكن الحزن مع ذلك جاثم فوقه .

* * *

لقد حملت جارته الجميلة إلى المقبرة .

« لقد جئتكم بشىء جديد : الجزء الأخير من قصيدتى . لقد ماتت نينى . الربيع يقبل وتدبر نينى يستطيع البنفسج أن يطمئن على سوقه . والآن إلى

(١) كوردت : رسام فرنسى اشتهر بلوحاته الريفية (١٧٩٦ — ١٨٧٥)

(٢) Monomania أو جنون الفكرة الواحدة

خاتمة القصيدة ، إن الناشرين لم يتفضلوا على بقراءة أشعارى . سوف يتصدع شملكم جميعاً . إنه قانون الزمن . يجب أن تعنون الخاتمة : « كيف انطلق الطائر الأزرق إلى السموات الزرقاء ... »

الربيع فى عنفوانه ! الأشجار تزهو بخضرتها . السحب وردية فى الصباح شاحبة فى المساء . النسيم الرفيق يداعب أوراق الشجر ويلهو بخيوط أكواخ القش . ولكن جارسن لا يذهب إلى الحقول . ها هوذا يأتي ، فى سترة جديدة ، إلى مقهى بلومبير الحبيب ، شاحباً وهو يبسم فى حزن : « ودعونى يا أصدقائى بملء قلوبكم ، فإن الطائر الأزرق يوشك أن ينطلق ... »

وبكى جارسن المسكين ، وصافح أيدينا فى قوة وذهب

وقلنا جميعاً : سيعود الولد العاق جارسن إلى أبيه فى نورمانديا . وداعاً أيها الشعر ؛ وداعاً أيها الجمال ؛ لقد أزمع شاعرنا أن يبيع القماش ! هيا ! كأساً لجارسن

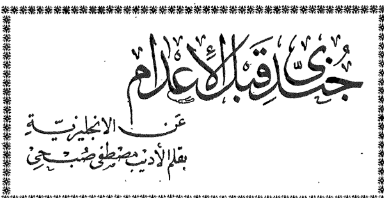
وفى اليوم التالى وقف رواد مقهى بلومبير جميعاً فى مسكن جارسن خشعاً وبكيا

لقد كان الشاعر مسجى على فراشه الملطخ بالدم ، ورأسه قد هشمته رصاصة وعلى الوسادة فلذ من مخه ... فما أبشع !

وحين أفقنا من هول الصدمة ووقفنا نبكى على جثمان صديقنا ، وجدنا ثمت القصيدة الشهيرة ، وقد خطت على الصفحة الأخيرة منها هذه الكلمات : « اليوم ، فى عنفوان الربيع ، فتحت باب القفص للطائر الأزرق المسكين »

آه يا جارسن ! وما أكثر الذين يفريهم الحزن مثلما فراك !

شكرى محمد عياد



جلس مستر أوين في غرفته الخاصة بداره الكبيرة في جرين مونتن بالولايات المتحدة ، وكان كاسف البال ، شديد الكآبة ؛ وإلى جانبه قسيس القرية يواسيه ويخفف عنه .

بينما مكثت لوسي الصغيرة في ركن الغرفة تنصت إلى حديث الرجلين دون أن تلفظ ببنت شفة .

وتكلم مستر أوين قال : كنت أحسب حين وهبت ابني لهذا الوطن أني فعلت من أجل بلادي ما لم يفعله أي رجل آخر في أمريكا على سعتها ، إذ ليس لي ولد غيره ؛ لكن هبتي لم تعش طويلاً ، لأن ولدي المحبوب قد غلبه النعاس فنام دقيقة واحدة في نوبة حراسته بالمعسكر ، وهو الذي لم يغفل لحظة عن أداء واجبه ؛ وكان مثالاً للنشاط الموفور والهمة العالية . . .

صحيح أنه قد استسلم للكرى دقيقة ، واستحق حكم الإعدام الذي صدر ضده . لكن ليتهم رحموا شبابه ، وراعوا حداثة سنه . هو في الثامنة عشرة فقط ... من يصدق هذا ؟

إنهم الآن يتهيئون لرميه بالرصاص . لأن هذا التعس نام بضع ثوان ، ولم يظل ساهراً الليل بطوله يراقب قدوم جيوش الأعداء المهاجمين . إنه الآن في السجن ينتظر تنفيذ العقوبة . فيا ترى كيف يقضي الوقت إلى أن تحين ساعته . . .

وأثرت لهجة الرجل في نفس القس . فقال يروح عنه : دعنا نأمل رحمة الله ... لماذا تيأس !

قال : نعم . نعم . فلنبتهل إلى الله ولنضرع إليه إنه غفور رحيم .

كان « بني » قبل التحاقه بالجندية يقول لي : سأعيش يا أبي خجولاً أمام نفسي وأمام الناس إذا أنا لم أستعمل ذراعي القويتين المفتولتين من أجل بلادي عندما تقع الحرب ويدعوني الوطن . وكنت أقول له : إذهب يا ولدي ، إذهب في حراسة الرب ، وها قد حرسه الله !

ونطق مستر أوين بالعبارة الأخيرة في بطء كما لو كان رغم إيمانه قد ساوره الشك في رحمة السماء !

فقال القس : تشجع يا صديقي تشجع ، ولا تقنط من رحمة الله !

وأصغت لوسي لهذا الحوار ، وهي في موضعها منكسة الرأس ، بالغة الأسى ، ممتقعة اللون ، لما أصاب أخاها « بني » ؛ لكن لم ترسل عيناها دمعاً ولم تسمح لهمها وكدرها أن يشيعا على محياها . وكانت على حداثة سنها تقوم بنصيب موفور في إدارة شؤون البيت ؛ ولذلك هبت واقفة حين سمعت طرقاً خفيفاً على باب « المطبخ » ؛ وأسرعت وفتحت الباب ووجدت رجلاً يقدم إليها خطاباً .

وحملت الخطاب إلى أبيها وهي تقول :

— إنه منه ... من أخي ...

وكأن الخطاب وصية ميت أو رسالة من القبر ! فقد تطلع فيه مستر أوين دون أن يجسر على فض غلافه وارتجفت أصابعه وهو يدفعه إلى القس كالو كان طفلاً لا حول له ولا قوة

وفض القس الغلاف وقرأ ما يلي :

أبي العزيز :

— عند ما تصلك هذه الرسالة أكون فى عالم الأبدية ! فالموت ينتظرنى عند باب السجن . ما أشد ما أخافنى هذا الخاطر وروعنى ! على أنى فكرت كثيراً وقلبت الأمر على كل الوجوه حتى لم يعد الإعدام مخيفاً فى نظرى ... لقد احترموا آخر رغباتى فى الحياة وسوف لا يضعون الأغلال فى يدى ولا العصابة على عينى وعلى ذلك سألقى الموت كما يلقاه الرجل الشجاع الباسل وفى هذا تعزية كبرى

غير أنى كنت أرجو أن تقضى الأقدار بغير ما قضت ، وأن تكون ميتتى أشرف من هذه الميتة كنت أود لو أموت شهيداً فى ساحة الوغى وحومة النضال مدافعاً عن بلادى وفى سبيل المجد ، إما أن أعدم رمياً بالرصاص كالكلب وبتهمة إهمال الواجب العسكرى وهو شىء يضارب الخيانة ، فذلك ما يؤلمنى أشد الألم ولا أدرى كيف لم تقتلنى هذه الفكرة قبل أن تقتلنى بنادقهم

أبى : سوف لا يكون فى حادثتى ما يخدش اسمك أو يصم شرف أسرتك . سأعترف ها هنا بكل شىء وعند ما أفارق الحياة آمل أن تشرح للذاتى وأصدقائى ما وقع . أما أنا فرجل ميت والموتى لا يتكلمون

تذكر أنى كنت قد وعدت أم صاحبى « جمى كار » أن أعنى بولدها الذى هو زميلى فى الفرقة فلما سقط « جمى كار » مريضاً بذلت كل جهودى من أجل راحته والأخذ بيده حتى تماثل للشفاء على أنه قبل أن تجتمع له قواه وترد إليه صحته صدرت الأوامر لفرقتنا بالتقدم إلى خطوط النار . وناء « جمى » بحمله فحملته عنه فضلاً عن حقائبى وقطعنا شوطاً بعيداً ، وانقضى النهار وبدأ الرجال يشعرون بالتعب وخارت قوانا جميعاً . أما « جمى » فقد عجز عن مواصلة السير ولم يمش إلا بعد أن مددت له يد المساعدة

وحين شارفنا المعسكر كنت فى أشد حالات التعب وأحوج الرجال إلى الراحة . لكن شاءت الصدف أن تكون نوبة الحراسة تلك الليلة لزميلى « جمى كار » ورأيته محطما يكاد يقتله الضعف والتعب فتقدمت للحراسة عنه ونسيت أنى فى تلك اللحظة كنت أشد منه ضعفاً وإعياء ووهناً ، وصدقنى يا أبى أنى كنت عند ما غالبنى النوم على حال من التعب والإعياء بحيث لو أطلقت على رأسى رصاصة لما فتحت عينى أو حركت ساكناً

على أنى مخطىء وخطئى أنى لم أفطن لحالتى إلا متأخراً جداً .. وعند ما وصل القس إلى هذا الحد من القراءة قاطعه مستر أوين بهذه العبارة :

شكراً لله ، إن إبنى يموت شهيداً وليس خائناً

وعاد القس يقرأ هكذا :

قيل لى اليوم إن إعدامى تأجل يوماً واحداً بسبب ظروف طارئة ، وهذه فرصة لكى أكتب إليك كما يقول رئيسى الطيب القلب . اصفح عنه يا أبى فإنه لم يفعل سوى أن قام بواجبه ، وقد كان يود بإخلاص أن ينقذنى لكن القوانين العسكرية صارمة ولا حيلة فيها . كذلك أرجو ألا تضع مسئولية إعدامى على رأس « جيمى كار » فإن

المسكين منكسر القلب شديد الأسف لما حل بي .
وقد ألح عليهم أن يأخذوه فدية عني ولكن أحداً لم يعر طلبه التفاتاً بطبيعة الحال

أبي ، لا أجسر أن أفكر في أمي ولا في أختي لوسي فيا ليتك تواسيهما وتجفف دمعهما وليتك تقول لهما إني أموت شجاعاً باسلاً وإنه عند ماتنتهي الحرب سينسيان العار الذي سيلحق بي الآن

في هذا المساء عند ما تغرب الشمس ويولي النهار سوف تمر بخاطري صورة من صور السعادة الضائعة فأرى قطعان الماشية تمشي الهوينا من المرعى إلى الحظيرة وأرى بعين الخيال شقيقتي لوسي في الشرفة واقفة تنتظرني وتلوح لي حين تراني ؛ على أنها لن تراني ولن أعود !

أستودعكم الله واصفحوا عن ابنكم السيء الحظ

« بني »

* * *

في ساعة متأخرة من تلك الليلة فتح باب الشرفة الخلفية بمنزل مستر أوين وانسابت من بين مصراعيه صبية صغيرة وهبطت الدرج الذي يؤدي إلى الطريق

وكان المشاهد يحسبها لسرعتها طائرة لا ماشية وكانت تهرول إلى جهة معينة لا تلتفت إلى يمين أو شمال لكنها ترفع رأسها بين حين وحين شطر السماء ويداها منقبضتان كأنها تضرع إلى ربها وتبتهل

وبعد ساعتين طويلتين قضتهما هذه الصغيرة تسير وحدها في ظلمة الليل ووحشته وصلت إلى محطة ميل . وقبل أن تشرق الشمس كانت لوسي في العاصمة تسرع الخطا إلى البيت الأبيض الذي يقيم فيه رئيس الجمهورية

وكان مستر لنكولن (رئيس الجمهورية العظيم) قد دخل غرفته تواً وبدأ يلقي نظرة على الأوراق المكدسة على مكتبه وأقبل يفحصها وينظر في شئون دولته ... وبدون أية جلبة فتح الباب بهدوء وانسابت لوسي إلى الداخل وخطت نحوه ثم وقفت قبالته بخشوع ورهبة : عيناها إلى الأرض ويداها منقبضتان

ووقع نظر الرئيس عليها ولم يبد عليه أنه غضب أو تململ حين فوجئ بدخولها ، بل ابتسم لها مترفقاً وخاطبها بصوت مشجع ، قال :

— نعم يا صغيرتي؛ ماذا تريدين في هذا الوقت المتأخر

— أريد حياة « بني » يا سيدي

— بني ؟ من هو بني ؟

— أخي . إنهم يرمونه بالرصاص بسبب نومه في نوبة حراسته

فعاد مستر لنكولن إلى الأوراق التي أمامه ينظر فيها وهو يقول :

— آه ، لقد تذكرت الآن ؛ إنه نام في أحرج الأوقات وأخطرها واعلمي يا صديقتي الصغيرة أنه اختار لنومه ساعة تتوقف عليها مصائر بلاده وحياة ألوف من الجنود . وهذا استهتار شنيع

قالت :

— وهكذا يقول أبي لكن « بني » المسكين كان متعباً جداً يا سيدي وكذلك كان « جمي » وقد قام أخي بعمل رجلين ولم تكن تلك الحراسة حراسته . كانت النوبة على « جمي » ولكن « جمي » كان مريضاً وعند ما حل أخي محله لم يكن يفكر في نفسه ولا في تعبه ونسي أنه منهك القوى

ورفع الرجل العظيم رأسه من بين الأوراق وعاد ينظر إلى زائرته الصغيرة وقال :

ما هذا الكلام يا طفلتي؟ أنا أكاد لا أفهم شيئاً . تعالي إلى جانبي وقصي قصتك

وبمثل العناية التي يبذلها دائماً في مختلف شئون الدولة أقبل الرئيس لنكولن يفحص هذه الدعوى ومشت لوسي إليه فربت على منكبها وحول بيده وجهها إليه وأحست بعطفه عليها فرددت قصتها وقدمت إليه خطاب أخيها لأبيها فأخذه منها وألقى عليه نظرة ثم قرأه بعناية ، وحالما انتهى منه أمسك قلمه وخط بسرعة بضعة أسطر على ورقة ودق جرساً أمامه فأقبل أحد الحجاب ، وسمعت لوسي الرئيس وهو يقول للحاجب : ابعث بهذه الرسالة في الحال !

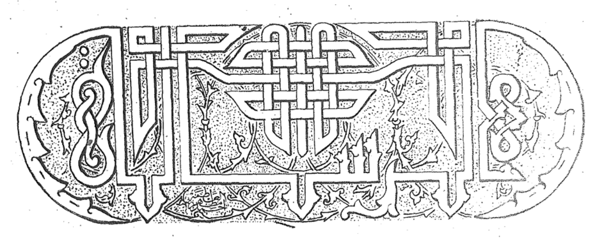
وبعد يومين من هذه المقابلة وفد إلى دار الرياسة جندي شاب ومعه صبية صغيرة . كان الشاب « بني » وكانت الصبية أخته « لوسي » واستقبلهما الرئيس في غرفته الخاصة واحتفى بهما وكان يلبس حلة عسكرية جديدة تزين كتفيها شارات الترقية التي رفعته إلى درجة ملازم وخاطبه الرئيس قال :

لقد عفوت عنك ورفعت درجتك يابني لأن الجندي الذي يحمل حقائب زميله المريض ويموت من أجل غيره دون أن يشكو أو يتبرم ، يستحق تقدير الوطن .

وعاد بني ولوسي إلى جرين مونتن ، حيث استقبلتهما الجماهير الهاتفة في المحطة وبسط مستر أوين يده لولده والدموع تنهمر من مآقيه على خديه وسمعه الناس وهو يهتف بحرارة : « لله الحمد ! »

مصطفى صبحي

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين ﴾



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

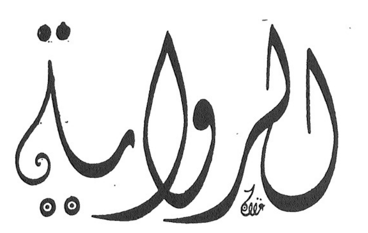
مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق الجديد، وسجل الأدب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً، وللبلاد العربية بخصم ٢٠٪

FIN

DU

DOCUMENT



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

1939

Volume 1